«من بين أفضل مئة رواية بالإنجليزية» مجلة تايم

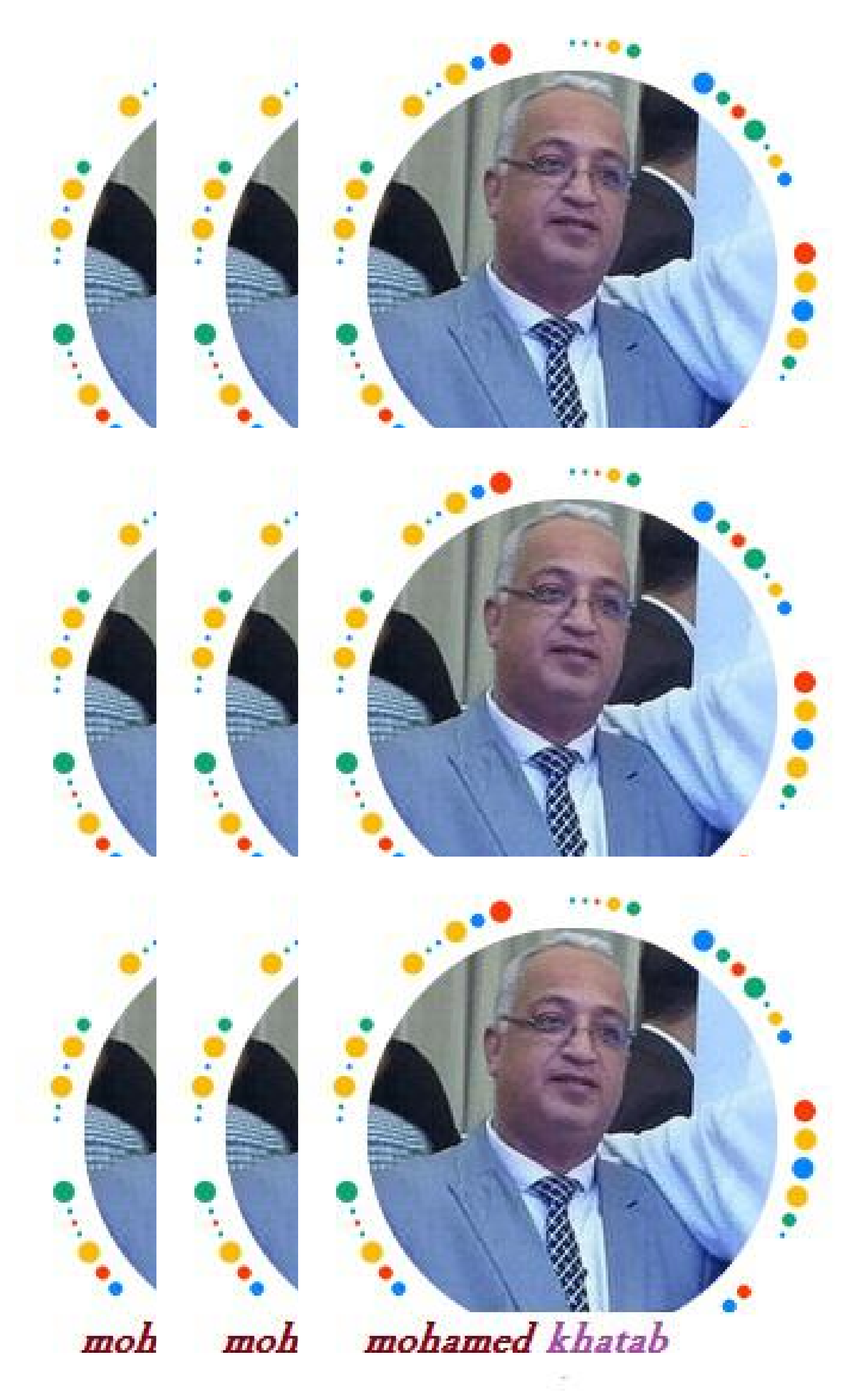


رواية

الحائز على جائزة نوبل للآداب

ترجمة الحارث النبهان

التنوير


moh
moh
mohamed khatab
https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكتاب: **مغامرات أوجي مارتش**

تأليف: **سول بيلو**

ترجمة: **الحارث النبهان**

عدد الصفحات: 608 صفحة

الطبعة الأولى: 2017

هذه ترجمة مرخصة لكتاب

The Adventures of Augie March *by Saul Bellow*

الترقيم الدولي: 978-977-6483-90-3

رقم الإيداع: 2016/21296

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الأول

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة – 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

سول بيلو

مغامرات أوجي مارتش

ترجمة: الحارث النبهان



This books is published in collaboration with the Arabic Book Program (ABP), U.S. Embassy Cairo. ABP works with Egyptian publishers to translate and publish books that reflect U.S. culture and values.

برنامج الكتاب العربي:

بالتعاون مع برنامج الكتاب العربي بالسفارة الأمريكية في القاهرة و هو برنامج يعمل مع دور نشر مصرية على ترجمة و نشر كتب التي تعبر عن الثقافة و القيم الأمريكية

الفصل الأول

إنني أميركي؛ مولود في شيكاغو ـ شيكاغو، تلك المدينة الكالحة ـ وأنا أتعامل مع الأمور مثلما علّمت نفسي، بأسلوب حر، وسوف أمضي بطريقتي أنا: يدخل أولاً من يدق الباب أولاً؛ دقة بريئة أحياناً، وغير بريئة كثيراً في أحيان أخرى. لكن شخصية المرء هي قَدَره... هكذا يقول هيراقليطس... وما من طريقة في آخر الأمر لتمويه طبيعة الدقات بتلاعبات صوتية عند الباب أو بوضع اليد في قفّاز.

يعرف الجميع أن ما من رقّة ولا دقّة في القمع؛ إذا سحقت شيئاً فإنك تسحق ما يجاوره أيضاً.

ما كان أبي وأمي يَشغلان مَكانة كبيرة عندي، رغم أن أمي كانت تهمّني. كانت بسيطة العقل؛ وما تعلمته منها لم يكن ما أرادت تعليمي إياه، بل كان موضوع الدروس نفسه. ما كان لديها شيء كثير تعلّمه... تلك المرأة المسكينة. كنا نحبها، أنا وشقيقاي. أتحدث عنهما معاً؛ الأمر مؤكد فيما يتعلق بأكبرهما؛ أما الأصغر، جورجي، فليست لدي إجابة ـ لقد وُلد معتوهاً ـ لكنني لست في حاجة إلى التخمين لأنه كانت لديه أغنية يغنيها وهو يجري مجرجراً قدميه بخببه المتيبّس المخبول؛ كان يمضي جيئة وذهاباً على امتداد سياج الفناء الخلفي المصنوع من لفّات من الأسلاك:

جيورجي ماهشي، أوجي، سايمي

ويني مانشي، الجميع، الجميع يحبُّون ماما.

كان محقّاً في ما يخص الجميع، عدا ويني، كلبة الجدة لوش، كلبة لاهثة سمينة عجوز. كانت ماما خادمة ويني مثلما كانت خادمة للجدّة لوش. وكانت الكلبة تُخرِج ريحاً وتلهث

بصوت مرتفع وهي مستلقية بالقرب من مقعد جدتي العجوز فوق وسادة زيَّنها رسم مطرز لرجل من البربر يسدد بندقيته صوب أسد. كانت كلبة جدتي الشخصية، وكانت من مستواها؛ وأما البقية فكانوا في سَويّة المحكومين، ماما خاصة. كانت ماما تعطي الجدة طبق الكلبة فتستلم ويني طعامها عند قدمَيْ السيدة العجوز... من يدَيْ السيدة العجوز. كانت يداها وقدماها صغيرة الحجم؛ وتضع على حذائها المنزلي شريطاً قطنياً متغضِّناً. كان حذاؤها رمادي اللون له رباط ورديّ ـ آه، إنه لون اللباد الرمادي، اللون الرمادي الذي يمارس طغيانه على الأرواح. أما قدما ماما فكانتا كبيرتَيْن، وكانت تستخدم حذاء رجالياً في البيت، من غير رباط عادة، وتحمل دائماً شيئاً تنفض به الغبار أو خرقة تمسحه بها كأنها نسخة قطنية من دماغها. كانت نحيلة طويلة القامة مدوَّرة العينين، مثل جورجي ـ عينان لطيفتان خضراوان مدوَّرتان، وفي وجهها الطويل لون منعش لطيف. يداها محمرَّتين من كثرة العمل، ولم يتبقَ في فمها إلا أسنان قليلة ـ أقل مما يكفي لتلقي الضربات عندما تأتي ـ وكانت ترتدي، مثل سايمون، معطفاً قصيراً مُنسَّلاً. لم تكن عينا ماما مدوّرتَيْن فحسب، بل أيضاً تضع النظارة المدورة. وكنت ذهبت معها للحصول عليها من مركز توزيع الأشياء المجانية في شارع هاريسون. ذهبت معها لكي أقوم بالكذب مثلما علّمتني الجدة لوش. أعرف الآن أن الكذب ما كان أمراً ضرورياً، لكنّا ظننا كلنا أنه كان ضرورياً في ذلك الوقت. كانت الجدة لوش تظن ذلك خاصة، فقد كانت واحدة من الماكيافيليّين الذين كان الشارع الصغير والحي الذي عشت فيه سنوات عمري الأولى مليئاً بهم. وهكذا جهّزت الجدة كل شيء قبل أن نترك المنزل... لا بد أنها أنفقت ساعات على صياغة الأفكار والعبارات وهي مستلقية ضئيلة الحجم في غرفتها الصغيرة الباردة تحت لحافها الريشي؛ ثم أعطتني خلاصة ذلك كله على الفطور. إذ ترى أن ماما لا تتمتع بالحرص اللازم لكي تؤدي الأمر على الوجه السليم. أما احتمال ألّا يكون المرء في حاجة إلى ذلك الحرص كله فلم يخطر في بال أحد منا... فالأمر منافسة في نظرنا. لا بد أن مركز التوزيع يريد معرفة السبب الذي جعل الجمعيات الخيرية تمتنع عن دفع ثمن النظارة. وهذا يعني ضرورة عدم ذكر شيء عن تلك الجمعيات؛ يكفي القول إن بعض النقود من أبي كانت تأتي أحياناً ولا تأتي في أحيان أخرى، وإن ماما كانت حريصة على ذلك المال. كان ذلك يعني، على نحو انتقائي دقيق، تجاهل بعض الحقائق الهامة والتغاضي عنها في حقيقة الأمر. كانت تلك القصة صادقة بالقدر الكافي بالنسبة إليهم، وكنت قادراً على إدراك ذلك تماماً رغم سنوات عمري التسع آنذاك. كنت أدركه أفضل مما يدركه أخي سايمون الذي كان أشد غباءً من أن يستطيع أداء هذا النوع من المناورات؛ ثم إنه كان قد استقى من الكتب قدراً من أفكار تلامذة المدارس الإنكليز عن الشرف. كان أثر السنوات التي أمضاها في مدرسة توم براون أكثر مما نستطيع احتمال نتائجه.

سايمون كان صبياً أشقر له وجنتان بارزتان وعينان رماديتان كبيرتان، وله ذراعا لاعب كريكيت (أقول هذا احتكاماً إلى الصور؛ لم نكن نلعب أي لعبة غير الكرة العادية). وكان غضبه الوطني على الملك جورج الثالث نقيضاً لنمطه البريطاني. وكان عمدة المدينة في ذلك الوقت قد أمر مجلس المدرسة بتوفير كتب تاريخية توجه انتقادات قاسية إلى ذلك الملك؛ فكان سايمون شديد الحماسة لكورنواليس. وكنت معجباً بحماسته الوطنية، وبنقمته الشخصية المخيفة على وجه العموم، وكذلك برضاه عن استسلام كورنواليس في يورك تاون، ذلك الحنق الذي كان غالباً ما يداهمه وقت الغداء بينما نلتهم شطائرنا. كانت الجدة تتناول قطعة من لحم الدجاج المسلوق عند الظهر، وجورجي الصغير ذو الشعر المشعث ينال قطعة منه أحياناً. فيمسك بتلك القطعة وينفخ عليها كثيراً... لا لكي يبرّدها، بل احتفاء بها. لكن ذلك الكبرياء الحربي الأصيل لدى سايمون كان يعني أنه غير مؤهَّل لأداء المهمة الدقيقة في مركز التوزيع. فترفعه عن الكذب كان شديداً إلى حد يحمل معه خطر إفشاء كل شيء. أما أنا فكان يمكن الاعتماد عليَّ في تلك المهمة لأنني كنت أستمتع بالكذب. كنت أحب هذه الألعاب الاستراتيجية. ولديَّ الحماسة أيضاً؛ كانت لديّ حماسة سايمون نفسها رغم أن كورنواليس ما كان يعني شيئاً كثيراً عندي... وكنت معتمداً على الجدة لوش أيضاً. وأما في ما يتعلق بحقيقة العبارات التي كان عليَّ قولها فقد تلقيت التعليمات اللازمة ـ نعم، كان لدينا مستأجرون، هذه حقيقة. كانت الجدة لوش آخر من استأجر غرفة عندنا... ليس لدينا قريب غيرها. كان ابناها الاثنان يعيلانها: واحد في سينسيناتي والآخر في راسين بولاية وسكنسون. لم ترغب أيّ من كنتَيْها في وجودها معها؛ وأما هي فقد فضّلت الإقامة معنا: كانت أرملة رجل أعمال قوي من أوديسا ـ كان إلهاً منتصباً فوقنا، أصلع الرأس، له شاربان وأنف ثخين. نراه دائماً في معطف طويل من الخلف وصدارين اثنين مزرَّرَيْن بالكامل (صورته الزرقاء التي كبَّرها السيد لولوف وحسّنها قليلاً، ثم علّقتها جدتي في الردهة بين الأعمدة الباذخة للمرآة الكبيرة وقبّة الموقد حيث ينتهي معطفه). وكان تفضيلها السكن عندنا نابعاً من أنها اعتادت طيلة سنوات كثيرة أن تدير بيتاً وأن تصدر أوامرها وتحكم وتخطّط وتدبّر وتستنبط وتضايق الجميع بلغاتها كلها. إذ تتكلم الفرنسية والألمانية فضلاً عن الروسية والبولندية ولغة اليديش. وما كان أحد غير السيد لولوف، الفنان الذي يقوم بتحسين الصور في شارع ديفيجن، قادراً على مجاراة لغتها الفرنسية وتحدّيها؟ كان الرجل صاحب هدوء خَدّاع أيضاً، وكان شارب شاي شهماً ذا ظهر متين. لقد أقام في باريس ذات مرة، ويعرف لغات أخرى غير الفرنسية ويتقن أشياء كثيرة من قبيل أن يعزف لحناً بأسنانه مستخدماً قلم رصاص أو أن يغني ضابطاً الإيقاع بحفنة من النقود المعدنية التي يجعلها ترن عندما ينقر بإبهامه على الطاولة... وكان يلعب الشطرنج أيضاً.

كانت جدتي تلعب كأنها قائد مغولي. هكذا في لعبة الشطرنج أو في الكلابواش، تلعب بانفعال خبيث ولمعة ذهبية في عينيها. كانت تلعب الكلابواش مع السيد كريندل جارنا الذي علّمها تلك اللعبة. إنه رجل قوي له يدان صغيرتان قويّتان وبطن ضخم. يضرب الطاولة بتلك اليدين القاسيتين ملقياً أوراق اللعب وصائحاً «شتوش! ياش! مينيل! كلابواش!» أما جدتي فكانت تنظر إليه ساخرة. وغالباً ما تقول، بعد ذهابه: «إن كان لديك صديق هنغاري، فأنت لست في حاجة إلى أعداء». لكن السيد كريندل ما كان عدواً أبداً. كان يبدو منذراً بالخطر بعض الأحيان فقط نتيجة نباحه الذي يشبه صوت رقيب يتولّى التدريب في الجيش. وكان الرجل بالفعل متطوعاً في ما مضى في الجيش النمساوي ـ الهنغاري، وفيه شيء يشبه الجنود: رقبة أرهقها دفع عجلات المدافع، ووجه محمرّ لكثرة السير في العراء، وملمح قوة في حنكه وأسنانه المكسوّة بالذهب، وعيناه اللتان تشبها عينَيْ ديك، وشعره الناعم القصير... كان في جملته ذا هيئة نابليونية. قدماه منحرفتَيْن إلى الخارج قليلاً على مثال فريدريك الأكبر[1] لكنه أقصر قامة بمقدار قدم تقريباً من الحد اللازم لأن يكون جندياً من جنود الحرس الإمبراطوري. وكانت له هيئة استقلالية جديرة بقائد. عاش هذا الرجل مع زوجته ـ امرأة هادئة متواضعة أمام الجيران، عنيفة كثيرة الشجار في البيت ـ وابنه الذي كان يدرس طب الأسنان. عاشوا جميعاً في ما يُطلق عليه اسم القبو الإنكليزي أمام بيتنا. كان الفتى كوتزي يعمل مساء في صيدلية عند زاوية الشارع ويذهب إلى دروسه في حي مستشفى المقاطعة. وكان هو مَنْ أخبر الجدة عن مركز التوزيع المجّاني. أو لعل العجوز هي التي أرسلت في طلبه لتستعلم منه عما يمكن للمرء أن يحصل عليه من الأماكن التابعة لسلطات الولاية أو المقاطعة. كانت ترسل في طلب الناس دائماً، القصّاب والبقّال وبائع الفاكهة؛ وكانت تستقبلهم في المطبخ لتشرح لهم أن عليهم منح أسرتنا تخفيضات في الأسعار. وكان على أمي عادة أن تقف إلى جانبها خلال هذه الأحاديث. مثلاً، تقول لهم العجوز: «ترون كيف هو الأمر ـ هل يتعيّن عليَّ قول المزيد؟ لا رجل في البيت لتنشئة هؤلاء الأطفال». كانت هذه حجّتها الأكثر استخداماً. وعندما يأتيها موظف الرعاية الاجتماعية لوبين ويجلس في المطبخ بهيئته المألوفة ورأسه الأصلع ونظارته الذهبية وجلسته المرتاحة وفمه الذي يوحي بالصبر، تصيح به قائلةً: «كيف تتوقع أن تجري تربية هؤلاء الأولاد؟» وكان يصغي إليها محاولاً المحافظة على مظهره المرتاح، لكنه يغدو شيئاً فشيئاً أشبه برجل مصمّم على عدم السماح لجرادة بأن تفلت من كفِّه. كان يقول لها: «لا بأس يا عزيزتي، يمكن أن تزيد السيدة مارتش الأجرة». ولابد أنها كانت تجيبه غالباً ـ هنالك أوقات تأمرنا فيها بالخروج جميعاً لتبقى وحدها معه ـ: «أتعرف كيف يمكن أن تكون الأمور هنا من غيري؟ عليك أن تشكرني على أنني أحافظ على تماسك

(1) أشهر ملوك بروسيا (1740 - 1786). اشتهر بانتصاراته العسكرية الهامة.

هذه الأسرة». بل إنني واثق أيضاً من قولها له: «وعندما أموت يا سيد لوبين، سترى ماذا سيكون لديك هنا». إنني واثق كل الثقة من هذا. أما أمامنا، فما كانت تقول أي شيء يمكن أن يضعف سلطتها علينا من قبيل ذكر احتمال نهايتها ذات يوم. وفوق ذلك، كان من شأن سماع هذه الكلمات أن يصدمنا... كانت بمعرفتها العجيبة بنا قادرة على أن تكون قريبة جداً من أفكارنا ـ كانت ملكةً حاكمة تعرف تماماً مقدار ما في نفوس رعاياها من حب واحترام وخوف من سلطتها. وتفهم مقدار الصدمة التي يمكن أن يسببها لنا هذا الكلام. أما أمام لوبين فلابد أنها قالته... لأسباب متعلِّقة بالدهاء السياسي، وأيضاً لأنها كان لا بد لها من التعبير عما لديها من مشاعر. كان يصبر عليها متضايقاً كأنه يقول: «خلصوني من هؤلاء الناس»، رغم أنه كان يحب أن يبدو مسيطراً على الموقف. كان يمسك قبعته المدورة بين فخذيه (كان بنطلونه رثاً أكثر مما يجب، وجواربه البيضاء ظاهرة من فوق حذائه الرياضي الأسود المجعَّد الذي تبرز أصابع قدميه منه)... ينظر إلى تلك القبعة كما لو أنه يناقش في رأسه ما إذا كان من الحكمة أن يفلت الجرادة ويتركها تسير بعض الوقت على بطانتها.

تقول له: «إنني أدفع ما أستطيع دفعه».

كانت تخرج علبة سجائرها من تحت شالها وتقتطع سيجارتها من نوع «مورراد» نصفين بمقص الخياطة، ثم تتناول حامل السيجارة. كان ذلك قبل أن تبدأ النساء التدخين (عدا في أوساط المثقفين ـ وتطلق جدتي على نفسها هذا اللقب). كانت أهم أفكارها الاستراتيجية تأتيها عندما تضع حامل السجائر بين لثَّتيها الصغيرتين القاتمتَيْن اللتين يمر عبرهما كل ما لديها من مكر وكره وأوامر تصدرها. كانت مجعَّدة كأنها كيس ورق عتيق، حاكمة مطلقة، متصلّبة كأنها من اليسوعيين، أو كأنها صقر مندفع عتيق من صقور البلاشفة. وكانت تضع قدميها الرماديتين الساكتتين المزيَّنتين بشرائط على الكرسي الصغير الذي صنعه لها سايمون في دروس الأشغال اليدوية. أما ويني السمينة المشعثة العجوز التي تملأ رائحتها البيت كله فكانت تجلس على وسادة إلى جوارها.

إن كانت روح الفكاهة غير متلازمة مع السخط تلازماً ضرورياً، فإنني لم أتعلمها مع تلك العجوز. كان إرضاؤها مستحيلاً! كريندل مثلاً، كريندل الذي كنا نستطيع الاعتماد عليه. كريندل الذي يحمل لنا الفحم عندما تمرض أمي والذي يأمر كوتزي بكتابة وصفات طبّية مجانية لنا... تدعوه «ذلك الهنغاري القذر» أو «الخنزير الهنغاري». وكانت تطلق على كوتزي لقب «التفاحة المشوية»، وتطلق على السيدة كريندل لقب «الإوزة السرية»؛ وأما لوبين فكانت تسميه «ابن الحذّاء»، وتدعو طبيب الأسنان باسم «الجزار»؛ وأما لقب الجزار الآخر فكان «المخادع الجبان». كانت تكره طبيب الأسنان الذي حاول عدة مرات، من غير نجاح، أن يركّب لها أسناناً اصطناعية. اتهمته بأنه أحرق لثتَيْها عندما كان يأخذ المقاسات. وحاولت إبعاد يديه عن فمها. رأيت حدوث هذا: كان الدكتور ويرنيك ذو الطبع البارد والجسم المتين،

الذي تستطيع ذراعاه القويتان تثبيت دب في مكانه، شديد الصبر معها... كان يعمل صابراً إلى حد الألم، قلقاً لصيحاتها المختنقة، محتملاً خرمشتها. ما كانت رؤيتها تصارعه على ذلك النحو أمراً سهلاً لي، وكانت رؤيتي هناك مما يؤسف الدكتور ويرنيك أيضاً... أعرف هذا؛ لكن كان لا بد من وجودي، أو من وجود سايمون، لمرافقتها أينما ذهبت. وهنا خاصة، كانت جدتي في حاجة إلى شاهد على قسوة الدكتور ويرنيك وخَراقته، إضافة إلى ضرورة وجود كتف تتكئ عليها عندما تعود إلى البيت خائرة القوى. كنت في العاشرة فقط، لكنني كنت أقصر منها قليلاً فقط، وكنت كبيراً بما فيه الكفاية لحمل وزنها الخفيف.

كانت تقول: «أرأيت كيف وضع مخالبه على وجهي حتى لا أستطيع أن أتنفس؟ لقد صنعه الله ليصبح جزّاراً، فلماذا صار طبيب أسنان. إن يديه ثقيلتان كثيراً. اللمسة أهم شيء بالنسبة لطبيب الأسنان. لا يجوز أن يسمحوا له بممارسة هذه المهنة إن لم تكن يداه مناسبتَيْن لها. لكن زوجته عملت كثيراً حتى ترسله إلى الكلية لكي تصنع منه طبيب أسنان؛ وهذا ما يجعلني مضطرة إلى الذهاب إليه حتى يحرقني هناك».

كان على بقيتنا الذهاب إلى مركز الجمعية الخيرية (كان ذلك مثل حلم فيه كثير من كراسي أطباء الأسنان، مئات منها في مكان ضخم كأنه مخزن أسلحة فيه أوعية خضراء عليها تزيينات زجاجية تشبه حبات العنب، ومثاقب تترك خلفها آثاراً متعرجة كأنها سيقان حشرات، وألسنة لهب غازية على صواني الغسل البورسلان) كان ذلك مكاناً معتماً مخيفاً في شارع هاريسون حيث تكثر مباني حكومة المقاطعة المبنية من الحجر الكلسي؛ ذلك الشارع الذي تسير فيه حافلات نقل عامة حمراء على نوافذها قضبان معدنية، وعلى مقدمة ومؤخرة كل منها تزيينات معدنية ملكية كأنها شوارب رعاة البقر. كانت تتحرك متثاقلة مقعقعة، وتزعق فراملها على بلاط الشارع الموحل البنّي في أمسيات الشتاء، وعلى الحجارة البنّية العارية في الصيف... تسير وقد جلّلها الغبار والدخان والأوساخ ثم تقف طويلاً عند العيادات ليخرج منها مقعَدون وكسيحون ومحدودبو الظهور وأصحاب العكاكيز والجبائر، وكذلك مَنْ تؤلمهم أسنانهم أو عيونهم، ومختلف الأشياء الأخرى. وهكذا، قبل ذهابي مع أمي للحصول على النظارات، كنت أتلقى أوامري دائماً من جدتي العجوز، وكنت مضطراً إلى الجلوس حتى أستمع إليها باهتمام عميق. كان على أمي أن تكون حاضرة أيضاً لأن من غير الجائز أن يحدث أي خطأ. ما كان عليها أن تتدرب على قول أي شيء. كانت جدتي تكرر وتكرر: «تذكري يا ريبيكا! دعيه يجيب عن كل شيء». وكانت أمي تُظهِرُ طاعة مطلقة أمام هذه التعليمات إلى درجة تجعلها تمتنع عن أي إجابة، حتى بنعم، كانت تجلس فقط طاوية ذراعَيْها على الفراشة الملونة على الفستان الذي أخرجته العجوز لها حتى ترتديه. كان لون أمي يوحي بالعافية والنظافة؛ لم يرث أحد منا هذا اللون؛ ولم يرث أحد منا أنفها المرتدّ قليلاً إلى الخلف بحيث يظهر الفاصل بين المنخرين.

«عليكِ البقاء خارج الأمر كله! إذا سألوك شيئاً فانظري إلى أوجي بهذه الطريقة»... وكانت تجعل أمي ترى كيف يجب أن تستدير صوبي، بدِقّة مخيفة... هذا إذا تسنّى لجدتي أن تتخلى قليلاً عن عَظَمتها المعتادة. وكانت تقول لي: «لا تقل شيئاً من عندك. أجب عن الأسئلة فقط!» كانت أمي شديدة القلق لحرصها على أن أكون أهلاً لهذه المهمة وعلى أن أكون مخلصاً إلى الحد الكافي. كنا، سايمون وأنا، عجيبتيها أو «حادثتيها» غير المتوقعتَيْن؛ أما جورجي فكان عملها الحقيقي الشاق الذي يجعلها تعود إلى قَدَرها المحتوم بعد كل نجاح مبارَك غير مستحق. وعندما كانت جدتي تشرح خطتها، ما كانت أمي لتجرؤ على قول شيء إلا: «أوجي، استمع إلى جدتك! اسمع ما تقوله لك!»

«عندما يسألونك، 'أين والدك؟' تقول لهم 'لا أعرف مكانه يا آنسة'. لا تنسَ أبداً أن تخاطبها بلقب 'آنسة' مهما يكن عمرها. وإذا أرادت أن تعرف منك أين كان موجوداً آخر مرة سمعت عنه، فعليك إخبارها أن آخر مرة أرسل فيها نقوداً كانت منذ سنتين، وأنه كان حينها في مدينة بوفالو في ولاية نيويورك. لا تقل شيئاً عن الجمعية الخيرية! لا يجوز أن تذكر الجمعية الخيرية أبداً، هل تسمع هذا؟ أبداً! عندما تسألك عن مقدار الإيجار فقل لها ثمانية عشر دولاراً. وعندما تسألك عن مصدر النقود لدفع الإيجار، عليك أن تقول لها إن لديكم مستأجرين. كم مستأجراً لديكم؟ لدينا مستأجران اثنان. والآن، قل لي، ما مقدار الإيجار؟»

«ثمانية عشر دولاراً».

«وكم عدد المستأجرين؟»

«اثنان».

«وكم يدفعون لكم؟»

«ما المبلغ الذي يجب أن أذكره؟»

«يدفع كل منهما ثمانية دولارات في الأسبوع».

«ثمانية دولارات».

«وهكذا فإنكم لا تستطيعون الذهاب إلى طبيب خاص لأنكم تحصلون على ستة وأربعين دولاراً في الشهر. في حين يبلغ ثمن قطرة العين وحدها خمسة دولارات، ثم إن الطبيب يحرق عيني. وهذه النظارات»... ربتت بيدها على علبة النظارات... «بلغ ثمنها عشرة دولارات للإطار وخمسة عشر دولاراً للعدسات».

لم يكن أحد يأتي على ذكر أبي أبداً إلا في أحوال مثل هذه، للضرورة! كنت أزعم أنني أذكره؛ لكن سايمون قال إنني لا أستطيع تذكّره... كان سايمون محقاً! أحببت أن أتخيَّل أبي.

كنت أقول: «كان يرتدي واحداً من تلك الألبسة الموحَّدة. أتذكره بالتأكيد. لقد كان جندياً».

«لم يكن جندياً أبداً. أنت لا تذكر أي شيء عنه».

«لعله كان جندياً».

«لم يكن جندياً. كان يقود شاحنة تابعة لمصبغة الإخوة هول في مارشفيلد، هذا كان عمله. قلت إنه كان يرتدي لباساً موحَّداً. قرد يرى، قرد يسمع، قرد يقول». كانت تلك القرود أساس قسم كبير من تفكيرنا. في الخزانة، على سجادة تركستانية، كانت صورة هذه القرَدة... يغطي واحد منها عينيه والآخر أذنيه والآخر فمه... وكنا نراها تقول لنا لا تروا شيئاً سيئاً ولا تقولوا شيئاً سيئاً ولا تسمعوا شيئاً سيئاً... كان هذا ثالوث الحد الأدنى الإلزامي في بيتنا. وكانت مزية آلهة الحد الأدنى هذه هي أنك تستطيع أن تطلق عليها ما تشاء من أسماء. «صمت في المحكمة، القرد يريد أن يتكلم؛ تكلم، تكلم يا قرد!»، «القرد يلعب بعصا الخيزران في العشب...»، لكن القرود يمكن أن تكون ذات قدرات أيضاً، تستطيع أن تكون رهيبة، وتستطيع أن توجه نقداً عميقاً للمجتمع عندما تشير المرأة العجوز، مثلما يفعل اللاما الكبير ـ هذا لأنها شرقية بالنسبة لي، آخر الأمر ـ إلى القرود الثلاثة البنية الجاثمة التي رُسمت أفواهها وأنوفها بلون أحمر حاد كالدم، وعندما تقول بروحها الفكاهية العميقة... عندما تلامس قلة لطفها حدود العَظَمة... «لا يطلب أحد منك أن تحب العالم كله، عليك أن تكون صادقاً فحسب يا إيرليخ. لا تتكلم بصوت مرتفع كثيراً. كلما أحببت الناس أكثر كلما تقبَّلوك أكثر. كلما أظهر الطفل حبه كلما احترمه الآخرون. الاحترام أفضل من الحب. وذلك هو الاحترام، القرد الذي في الوسط، القرد الصامت». لم يكن يخطر في بالنا أبداً أنها ترتكب المعصية، هي نفسها، في حق ذلك القرد المتشنِّج الذي يغلق شفتيه بيديه؛ لكن أذهاننا ما كانت قادرة على التفكير في أي نقد موجَّه إليها في ذلك الوقت... خاصة عندما يملأ المطبخ كله صدى واحد من تلك المبادئ العظيمة. كانت تقرأ علينا دروساً تأخذها من رأس جورجي المسكين. وكان جورجي يقبّل الكلبة. كانت هذه خدمة مرتجفة للمرأة العجوز، ذات وقت. إنها الآن مترنّحة يصيبها الدوار تزفر زفرات طويلة... صارت موضوعاً ملائماً للاحترام نتيجة سنوات عمرها الطويلة الحكيمة التي شغلتها بأشياء ليست جديرة بأن تثير مشاعر الحب لدى أي شخص. لكن جورجي أحبَّها ـ أحب الجدة التي كان يقبّل أكمامها وركبتيها... كان يمسك ركبتها أو ذراعها بيديه ثم يمطُّ شفته السفلى بارتباك ظاهر ويحتضنها بلطف واجتهاد عندما يحني ظهره الضيق فتنشمر كنزته عنه ويقترب من شعرها المبيضّ الواخز كأنه نبتة شوكية أو قرص من أقراص عبّاد الشمس انتزعت بذوره. كانت العجوز تتركه يعانقها وتتحدث معه على النحو التالي: «أوه، أنت، يا ولد، أيها الطفل الذكي، أنت تحب جدتك العجوز، يا مساعدي، يا فارسي! هكذا يكون الولد. أنت تعرف

من هو طيّب معك، ومن يعطيك أطيب الطعام! من؟ من الذي يحضّر المعكرونة لك؟ نعم. المعكرونة زلقة، يصعب التقاطها بالشوكة، ويصعب التقاطها بالأصابع أيضاً. هل رأيت كيف يبتلع العصفور الصغير دودة؟ تريد الدودة الصغيرة أن تظل في الأرض. لا تريد الدودة الصغيرة أن تخرج من مكانها. هذا يكفي! أنت تبلل فستاني».

وبعد ذلك، تدفع جبهته بعنف بيدها الشائخة المتيبسة، ثم ترسل في طلبنا، سايمون وأنا... تتذكر دائماً واجبها في توعيتنا، وتريد دائماً أن تُسمعنا من جديد انتقاداتها وملاحظاتها عن الطبيعة القتالية المخادعة القاسية للعلاقة بين الديدان والعصافير، ولتخبرنا عن بؤس البشر الذين من غير مشاعر. تستخدم جورجي لتشرح لنا هذه الأشياء. لكن مثالها الأول ما كان جورجي بل ماما بعبوديتها المنبعثة عن الحب وعن بساطة عقلها، ماما التي تُرِكت وحدها مع ثلاثة أطفال. هذا ما كانت تسعى إليه الجدة العجوز لوش، الآن، في حكمة هذه المرحلة المتأخرة من عمرها عندما صارت لديها عائلة ثانية تقودها.

فيم كانت أمي تفكر عندما تقتضي الحاجة ذكر أبي في الحديث؟ كانت تجلس مستكينة. أظن أنها كانت تفكر عند ذلك في بعض التفاصيل المتعلقة به ـ أكلة كان يحبها، لعلها البطاطا مع اللحم، ولعلها الملفوف، أو صلصة التوت البري؛ لعله كان يكره الياقات المنَشّاة، أو الياقات الطرية؛ أو لعله كان يحضر معه إلى البيت صحيفة إيفنينغ أميريكان أو صحيفة جورنال. لا بد أنها كانت تفكر هكذا... لأن أفكارها بسيطة دائماً؛ لكنها كانت تشعر بأنها متروكة، مهجورة. كانت لديها آلام أكبر من الآلام التي يستوعبها العقل... وقد خلفت هذه الآلام علامات قاتمة على بساطتها تلك. لا أعرف كيف كانت تعيش من قبل، عندما كنا وحدنا بعد أن تركها أبي؛ لكن الجدة جاءت ووضعت يدها الحاكمة على حياة الأسرة كلها. تخلت لها أمي عن سلطات لعلها لم تكن تعرف أنها تمتلكها، وتلقّت منها عقوبتها بالكدح الشاق... أظن أنها احتلت مكانها بين النساء اللواتي قهرتهن قوة الحب الغالبة، مثل النساء اللواتي استولى عليهن زيوس متخذاً هيئة حيوان، زيوس الذي كان عليه بعد ذلك أن يتخفّى هرباً من زوجته الغاضبة. لا أقول هذا لأنني أرى أمي الضخمة اللطيفة المهلهلة التي تنفق عمرها في التنظيف وجرجرة الأشياء امرأة هاربة فائقة الجمال تستحق ذلك العقاب الإلهي السامي، ولا لأنني أرى أبي واحداً من تماثيل آلهة الأولمب المرمرية السيقان. كانت تعمل في فتح وخياطة عروات الأزرار في ورشة صغيرة لإنتاج المعاطف في سقيفة في شارع ويلز؛ وكان أبي يعمل سائق شاحنة في المصبغة ـ لم يبقِ خلفه حتى صورة له بعدما ذهب. لكنها لم يكن لديها مكان بين النساء اللواتي يتلقين دفعات مالية مستمرة من أزواج هجروهن. وأما فيما يتعلق بالانتقام النسائي فقد كانت الجدة لوش موجودة لكي توقع العقوبات ضمن معايير الشرعية، وكانت ممثلة للجمهرة الكبرى من جنس النساء المتزوجات.

لكن المرأة العجوز ما كانت من غير قلب! لم أقصد أبداً القول إنها كانت من غير قلب. كانت متسلطة متكبرة فيما يتعلق بتألقها في مدينة أوديسا في ما مضى، وبخدمها ومدبرات المنزل لديها. لكنها، رغم نجاحها الماضي كله، كانت تعرف معنى السقوط نتيجة شدة الحساسية والقابلية للتأثر. بدأت أدرك هذا عندما قرأت في ما بعد عدداً من الروايات التي كانت ترسلني إلى المكتبة لأجلبها لها. علمتني الأبجدية الروسية حتى أستطيع تمييز عناوين الكتب. كانت تقرأ آنا كارينينا ويوجين أونيجين مرة كل عام. وكنت أخطئ أحياناً فأتلقّى اللوم عندما أجلب لها كتباً غير التي أرادتها: «كم مرة يجب أن أخبرك أن الكتاب الذي لا ترى عليه كلمة 'رواية' لا أريده؟ أنت لم تنظر في داخل الكتاب! هل أصابعك ضعيفة جداً إلى حد يجعلك لا تستطيع فتح كتاب؟ إذن، يجب أن تكون أضعف من أن تسمح لك بلعب الكرة أو بنكش أنفك. لديك قوة حتى تقوم بهذا! يا إلهي! يا ربنا في السماء! ليس لديك دماغ قطة... تمشي مسافة ميلين لتجلب لي كتاباً عن الدين لأن غلافه يحمل اسم تولستوي!».

تلك السيدة العظيمة العجوز... لا أريد أن أقدّمها هنا على نحو غير صحيح. كان لديها شك في وجود شيء يمكن أن يكون عيباً عائلياً ورثناه على نحو ما فصرنا ضحية له. ما كانت تريد قراءة ما كتبه تولستوي عن الدين. وما كانت تثق به من حيث كونه رجل أسرة أيضاً لأن زوجته الكونتيسة عانت الكثير معه. صحيح أنها لم تكن تذهب إلى الكنيس أبداً، لكنها كانت تأكل الخبز يوم عيد الغفران، وكانت ترسل ماما إلى المتجر الذي يبيع لحم الخنزير إذا كانت الأسعار لديه أقل، وكانت تحب أن تأكل الكركند المعلّب وغيره من المأكولات المحرَّمة. لكنها لم تكن ملحدة ولا من أصحاب التفكير الحر. ذلك ما كانه السيد أنتيكول، المدمن الذي كانت تدعوه باسم «راميسيس» (لا تسألوني عن السبب) ـ كانت تقول إن هذا مأخوذ من اسم مدينة بيثوم في الكتاب المقدس؛ لكنها لم تقل كيف استنبطت اسمه من اسم تلك المدينة. كان الرجل متمرداً حقيقياً على الرب. كان بارداً حذراً؛ وكانت تصغي إلى ما يقول من غير أن تفصح عما في نفسها. كان الرجل متورّد الوجه قاتم المزاج؛ وكانت قبعته الصفراء تجعل رأسه يبدو مسطحاً، أما ملابسه فكانت في حاجة إلى بعض الرقع، وكان يُنشد بعض الأشياء فيبدو صوته خشناً أجش. كان شعر رأسه وحاجبيه قاسياً، وكانت عيناه البنيتان ناطقتان بالاحتقار. كان رجلاً عجوزاً بديناً مشعثاً مولعاً بالقراءة. اشترت جدتي منه مجموعة الموسوعة الأمريكية ـ أظن أنها كانت طبعة عام 1892 ـ واهتمت بأن نقرأها، أنا وسايمون. وكلما كان ذلك الرجل يرانا كان يسألنا «ما أخبار الموسوعة؟» أظنه كان يعتقد أنها تدفع المرء إلى التمرّد على الدين. كانت مجزرة لليهود في بلدته هي ما جعله ملحداً. ومن مخبئه في أحد الأقبية آنذاك، رأى عاملاً يبول على جثة شقيق زوجته الأصغر الذي قُتل لتوه. «إذن، لا تحدثوني عن الله»... هكذا كان

يقول. لكنه هو من كان يتحدث عن الله طيلة الوقت. وبينما كانت زوجته السيدة أنتيكول لا تزال على وَرَعها، كان هو صاحب فكرة الردّة الكبرى... أن يقود السيارة إلى كنيس الإصلاحيين أيام العطلة فيوقف سيارته الوردية البائسة بين السيارات الفاخرة التي يمتلكها أثرياء اليهود ممن يكشفون عن رؤوسهم داخل الكنيس كأنهم يحضرون مسرحية... كان ذلك نوعاً من الخسّة لديهم ظلت مشاهدته تمنحه متعة كالحة حتى آخر عمره. وقد أصابته حمى عندما سار تحت المطر فمات بالتهاب الرئة.

كانت جدتي تشعل شمعة في ذكرى وفاة زوجها لوش، وكانت ترمي قطعة من العجين على الجمر عندما تخبز... نوع من القربان، وكانت تقدم نذوراً عندما تظهر أسنان الأطفال وتقرأ التعاويذ من العين الشريرة. كان هذا ديناً مطبخياً لا علاقة له بالرب العظيم، رب الخليقة الذي ردَّ ماء البحر وأحرق عمورة؛ لكنه كان شيئاً من الدين على أية حال. وبما أننا نتحدث عن الدين فسوف أذكر البولنديين (كنا مجرد حفنة من اليهود بين البولنديين في ذلك الحي)، وسأذكر القلوب المنتفخة النازفة الموجودة على جدار كل مطبخ لديهم، وصور القدّيسين، وسلال الأزهار الميتة المعلَّقة إلى الأبواب، والقداديس، وأعياد الفصح، وأعياد الميلاد. كنا نتعرض أحياناً للملاحقة، والرَّمي بالحجارة، والعض، والضرب لأننا قتلة المسيح، كلنا، حتى جورجي... كانوا ينعتوننا بهذا النعت ويضعوننا ـ أحببنا ذلك أم لم نحبه ـ ضمن تلك الفئة الغامضة. لكن ذلك لم يحزنني حزناً شديداً في يوم من الأيام ولم يجعلني أطيل التفكير فيه لأنني كنت مرح الطبع إلى حد كبير، شديد الصخب والحركة، فلم ينفذ هذا إلى قلبي ولم أعتبر أنه في حاجة إلى تفسير خاص يتجاوز حروب الشوارع بين عصابات الصبيان أو الاندفاع في أمسيات الخريف لتسلق الأسيجة والصياح على الفتيات، وضرب الغرباء أيضاً. لم يكن من طبيعتي أن أرهق نفسي بالقلق لأنني وُلِدت في هذه الجماعة الغامضة رغم أن بعض أصدقائي وأقراني في اللعب كانوا يظهرون أحياناً في وسط هذه الجموع التي تهاجمني فيحاصرونني عندما يندفعون صوبي من طرفَيْ أحد الممرات بين البيوت. كان سايمون أقل احتكاكاً بهم. لقد امتصَّته المدرسة أكثر مني. كانت لديه مشاعره بطبيعة الحال، مزيج مستمد من ناتي بمبو وكوينتين دورواد وتوم براون وكلارك في تاسكاسكتيا، الرسول الذي أتى بالأخبار الطبية من راتيسبون، وهكذا دواليك؛ وهذا ما كان يجعله أقل اختلاطاً بالآخرين. كنت أقل منه اهتماماً بالمدرسة، وأكثر منه بطئاً، فلم يهتم أبداً بجعلي أنفق الساعات مثلما ينفقها على طرق بناء العضلات وأساليب تقوية أوتار المعصمين. كنت شخصاً تسهل مصادقته، وكنت أدخل في صداقات كثيرة، وكانت هذه الصداقات تنتهي معظم الأوقات لصالح ولاءات أقدم منها. كان أطول استمرار لصداقة من صداقاتي مع ستاشو كوبكس الذي كانت أمه قابلة تعلمت في مدرسة آيزولابيان للقبالة في جادة ميلواكي. ومن الحَسَن أن أسرة كوبكس كان لديها بيانو كهربائي وأرضية مفروشة

بالمشمع في غرف البيت كلها؛ لكن ستاشو كان لصاً! وحتى أسايره، صرت أسرق أيضاً: سرقت الفحم من العربات، والملابس عن حبال الغسيل، والكرات المطاطية من متجر الأشياء الرخيصة، والقروش من أكشاك الجرائد. كان الهدف من ذلك إظهار البراعة، رغم أن ستاشو اخترع لعبة التعرّي في القبو وارتداء ملابس الفتيات المسروقة من على حبال الغسيل. ثم ظهر مرة في إحدى العصابات التي أمسكت بي بعد الظهيرة في يوم بارد قليل الثلج عندما كنت جالساً على صندوق متجمّد في الوحل ألتهم قطعاً من البسكويت وفمي مليء بذلك الغبار الحلو. كان يتقدمهم ولد عنيف خشن المظهر... كان في الثالثة عشر، لكنه أصغر حجماً من سنِّه. أتى إليَّ ملقياً بالاتهامات، وتبعه مونيا ستابلانسكي الذي خرج لتوه من إصلاحية سانت تشارلز، ووقف معهم أيضاً ولد من بونتياك.

قال مونيا: «أنت، يا ابن الحرام اليهودي الصغير، لقد ضربت أخي».

«لم أفعل هذا أبداً. لم أره من قبل».

«لقد أخذت بعض المال منه أيضاً؛ كيف اشتريت البسكويت إذن؟».

«أتيت بالبسكويت من البيت».

عندها لمحت ستاشو رافعاً رأسه الأشقر، مستهزئاً مسروراً إلى حد مقزز بخيانته وبأخوّته التي اكتشفها مؤخراً مع بقية هؤلاء الأولاد.

قلت: «أنت، أيها الوسخ الذي تبول في فراشك، يا ستاشو، أنت تعرف أن مون ليس لديه أخ أصلاً».

عندها، ضربني الولد وهجم بقية أفراد العصابة، وستاشو معهم. انتزعوا مزقاً من معطفي المصنوع من جلد الغنم، وأدموا أنفي.

قالت الجدة لوش عندما عدت إلى البيت: «مَن الملوم في هذا؟ أنت تعرف؟ أنت هو الملوم يا أوجي لأن عقلك الصغير جعلك تصاحب ابن القابلة الذي يبول في فراشه. هل يرافق سايمون هؤلاء الأولاد؟ لا يفعل سايمون هذا. إن لديه عقلاً». أشكر الله على أنها لم تكن تعرف شيئاً عن السرقة. وعلى نحو ما، لأنها كانت في مزاجها التوجيهي ذلك، شككت في أنها قد تكون مسرورة لأن ما حدث سيجعلني أرى إلى أين يقودني الانسياق وراء العواطف بهذه السهولة. لكن ماما، المثال الكبير على الضعف العاطفي، أصابها الذعر. إلا أنها لم تكن لتجرؤ على إظهار مشاعرها في حضور سلطة السيدة العجوز خلال ذلك الاستجواب. أخذتني إلى المطبخ لتضع ضماداً على أنفي وتهتم بالخدوش التي أصابتني وراحت تهمس لي وتتنهد بينما كان جورجي واقفاً مترنحاً من خلفها؛ وكانت ويني تلعق الماء تحت المغسلة.

الفصل الثاني

بعد بلوغنا الثانية عشرة، صارت جدتنا العجوز تدفعنا إلى العمل في الصيف حتى نكتسب مذاق الحياة ومبادئ كسب المال. بل إنها وجدت لي شيئاً أفعله، حتى قبل ذلك. كان هنالك درس صباحي للأطفال من أصحاب الإمكانات العقلية الضعيفة؛ وبعد أن أترك جورجي في تلك المدرسة، كنت أذهب إلى سينما «مسرح النجوم» التي يديرها سيلفستر من أجل توزيع النشرات الدعائية. رتبت جدتي هذا الأمر مع والد سيلفستر الذي تعرفت إليه في زاوية جلوس كبار السن في الحديقة.

إذا ما تناهى إلى شقتنا الموجودة في خلفية البيت أن الطقس جميل ـ كانت تحبه دافئاً من غير ريح ـ فإنها تنطلق إلى غرفتها لترتدي المشدّ، ذكرى من الزمن الذي كانت فيه أكثر امتلاء، ثم فستانها الأسود. وكانت ماما تعد لها زجاجة من الشاي. عند ذلك، كانت الجدة تذهب إلى الحديقة مرتدية قبعة مزيّنة بالأزهار بعد أن تعلّق ذيولاً من الفرو على كتفيها وتحمل معها كتاباً لا تعتزم قراءته... إن الكلام في تلك الناحية من الحديقة كثير إلى حد لا يسمح بالقراءة. إنها مكان يجري فيه ترتيب الزيجات! فبعد عام، أو نحو ذلك، من وفاة الملحد العجوز، وجدت السيدة أنتيكول لنفسها زوجاً جديداً. جاء هذا الأرمل من آيوا سيتي بقصد الزواج فقط؛ وبعد زواجهما وردت أنباء تقول إنه يقفل عليها أبواب بيته جاعلاً إياها سجينة فيه، وإنه أرغمها على توقيع تنازل عن حقها في الإرث. لم تتظاهر الجدة بالأسف على ذلك! قالت: «مسكينة بيرثا»، لكنها قالت هاتين الكلمتين بتلك الروح الفكاهية الساخرة التي كانت تتقنها، طريقة ناعمة لعوب كأنها وتر الكمان؛ وكانت حريصة على تأكيد على أنها لا تذهب إلى الحديقة من أجل ذلك النوع من الزواج الثاني. كففت منذ زمن بعيد عن التفكير في أن كبار السن يأتون من أجل الاستراحة من الأشياء التي كانت

تتعبهم عندما كانوا أكثر شباباً. لكن هذا بالضبط هو ما كانت تريد منا تصديقه ـ «جدة عجوز مثلي...» ـ وهذا ما جعلنا نتعامل معها باعتبارها عجوزاً حكيمة غير مهتمة بذلك كله... عجوزاً تخلّت عن تلك التوافه كلها. لكنني لن أقول إنها ما كانت مهتمة بتلقّي عروض الزواج. لم يكن كل ذلك التعلق برواية آنا كارينينا من غير معنى، ولا بكتابها المفضل الآخر الذي لا بد من ذكره «مانون ليسكو». وفي لحظات مزاجها الطيب، كانت تفاخر بخصرها وردفَيْها أيضاً. وهكذا، بما أنها لم تكن لتفوّت أي فرصة لإظهار المجد أو النفوذ، فإنني أدرك أنها لم تكن تمضي إلى غرفتها لترتدي مشدها وتسرِّح شعرها لمجرد أنها كانت معتادة على ذلك منذ زمن بعيد، بل لكي تلفت نظر السبعيني فرونيسكي أو لتلفت نظر دي غريو. وكنت أحث نفسي أحياناً على أن أرى في عينيها امرأة أكثر شباباً... من خلف تلك البقع الصفراء والتجاعيد والشعر الجاف.

لكن، ومهما كان ذلك الذي تسعى إليه من أجل نفسها في الحديقة، فإنها لم تكن لتنسانا أبداً. وقد حصلت لي على وظيفة توزيع النشرات الدعائية من خلال سيلفستر العجوز الذي يلقّبونه باسم «الخباز» لأنه يرتدي جوارب بيضاء طويلة وقبعة بيضاء كالتي يضعها لاعبو الغولف. كان الرجل مصاباً بنوع من الشلل الجزئي، ومن هنا جاءت النكتة عن تعثره الدائم في المشي؛ لكنه كان نظيفاً وجيز الكلام جاداً ضمن مدى رؤية عينيه المحتقنتين بالدم؛ وكان رجلاً صلب الطبع له قوة أعصاب ظاهرة في انحناءة شاربه الأبيض على شكل حدوة حصان رغم قصره الذي كان شيئاً دارجاً في زمانه. وأظن أن كلامها معه كان في الأمور المعتادة... عن الأسرة التي تحميها. وقد أخذني سيلفستر لأرى ابنه الشاب دائم التعرّق لقلقه الدائم على ماله وأسرته. في بعض الأحيان، كان عمله الغامض وخلوّ المقاعد في الصالة عند الثانية ظهراً، وعازف الكمان الذي يعزف من أجله فقط، والعامل في حجرة عرض الأفلام، يجعلون من الفظيع والمؤلم بالنسبة له أن يدفع أجري البسيط. كان هذا يدفعه إلى التصرف معي بفظاظة عند ذلك. يقول لي: «كان لديّ أولاد يرمون النشرات الإعلامية في المجارير. يصبح الأمر سيئاً جداً عندما أكتشف ذلك، ولديَّ طرق خاصة للتحقق من الأمر». وهكذا أدركت أنه يمكن أن يتبعني في جزء من مساري اليومي فصرت أحرص دائماً على مراقبة الشارع بحثاً عن رأسه ذي الشعر الخفيف الشائب وعينيه اللتين أضناهما القلق... عينان بنيتان كأنهما عينا دب. كان يحذرني: «إن لديَّ بعض الحيل من أجل أي صبي يظن أنه يستطيع الحصول على المال بسهولة». لكنه سرعان ما أدرك أنني أستحق الثقة. كنت كذلك في البداية؛ وكنت أتقيَّد بتعليماته القاضية بأن ألفّ النشرات وأدخلها في الفتحات الصغيرة الموجودة فوق أزرار الأجراس من غير أن أعبث بصناديق الرسائل فأجعله يقع في مشاكل مع مكتب البريد. كان يدعونني إلى شرب المياه المعدنية وتناول الحلوى التركية ويقول لي إنه سيجعلني قاطع تذاكر عندما أكبر فأصبح أكثر طولاً،

أو سيجعلني مسؤولاً عن آلة البوب كورن التي كان يفكر في شرائها. وفي واحدة من تلك السنوات قرر أن يوظف شخصاً حتى يدير المكان لأنه أراد أن يعود إلى معهد آرمور لإنهاء دراسته والحصول على شهادة الهندسة. بقيت أمامه سنتان في ذلك المعهد؛ وكانت زوجته تدفعه إلى نيل تلك الشهادة. وكان يخلط بيني وبين أخي الأكبر، فيما أظن... أعتقد أن هذا ما دفعه إلى إغداق هذه الوعود كلها. كان الناس في مركز توزيع المساعدات يخلطون بيننا أيضاً. حدث هذا كثيراً. أما أنا، فلم أكن قادراً على فهم كل ما يقوله لي.

لكن أمله فيَّ خاب بعض الشيء لأنني أحسست عندما أخبرني عن الصبيان الذين يلقون بالنشرات في المجارير أنني لا أستطيع أن أكون أقل منهم. وهكذا رحت أترقَّب فرصتي. صرت أعطي بعض تلك النشرات للأولاد في صف جورج عندما أذهب بعد الظهر لأجلبه من تلك المدرسة التي تشبه السجن... مدرسة مبنية بالقرميد نفسه الذي استخدموه في بناء صالة التبريد ومصنع القبّعات اللذين كانا أقرب جيرانها. كانت المدرسة قاتمة من الداخل تصلها أصداء العالم الخارجي من بعيد. وكانت سقوفها مرتفعة تتعب العينَ في بلوغها وأرضياتها الخشبية تحمل آثار مشي الناس عليها. وفي الصيف، كانت زاوية من تلك المدرسة تظل مفتوحة من أجل الأطفال المتخلفين عقلياً. عندما يدخل المرء تلك الزاوية يستعيض عن الرذاذ الصادر عن صالة التبريد بطقطقة وصرير آلة تقطيع الورق وأصوات المعلمين. كنت أجلس على درجات السلم وأقسّم النشرات الباقية في حقيبتي. وعندما يخرج الأولاد، كان جورجي يساعدني في التخلص منها. وبعد ذلك، كنت أمسك بيده وأقوده إلى البيت.

كان جورجي يخشى الكلاب الغريبة بقدر ما كان يحب ويني. لكنه كان يجتذب تلك الكلاب لأن رائحة الكلبة تظل عالقة به دائماً. تظل الكلاب تتشمم ساقيه، وأظل أنا حاملاً بعض الحجارة حتى أطردها عنه.

كان هذا آخر صيف أمضيه في الكسل. في الصيف الذي بعده، وفور انتهاء الفصل الدراسي، أُرسل سايمون ليعمل صبياً في فندق في أحد المنتجعات في ميتشيغان. وذهبت أنا إلى هايمان كوبلين في الناحية الشمالية من المدينة حتى أساعده في توزيع الصحف. كان عليَّ أن أسكن عندهم لأن الصحف كانت تصل إلى تلك السقيفة في الرابعة صباحاً، ولأن بيتنا كان على مسافة نصف ساعة بالحافلة. لكن الأمر لم يكن انتقالاً إلى أيدٍ غريبة لأن آنا كوبلين كانت ابنة عم أمي؛ وهكذا فقد عوملت على أنني واحد من الأقارب. جاء هايمان كوبلين ليأخذني بسيارته الفورد. وبدأ جورج ينوح عندما غادرت البيت. كانت لديه طريقة في التعبير عن المشاعر التي ما كانت أمنا قادرة على التعبير عنها نتيجة الحظر الذي تفرضه جدتي على ذلك. وكان لا بد من إسكات جورج عند مدخل البيت. جعلته يجلس

قرب المدفأة، ثم ذهبت. بكت ابنة العم آنا بما يكفي للتعويض عن الجميع، وغمرتني بالقبلات عند باب بيتها عندما رأتني صامتاً كالكلب مكسورَ القلب لمغادرة بيتي ـ كانت تلك مشاعر عارضة تماماً بالنسبة لي، بل كانت كأنها مشاعر مستعارة من مشاعر أمي التي رأت ولديها يذهبان إلى الشقاء قبل الأوان. لكن آنا كوبلين التي كانت هي المفاوِض الذي ينوب عني في هذا المكان... بكت أكثر من الجميع. كانت حافية القدمين؛ وكان شعرها هائلاً وأزرار فستانها الأسود مغلقة على نحو غير صحيح. قالت تعدني: «سوف أعاملك كأنك ابني أنا. كأنك هاورد». أخذت مني حقيبتي القماشية ووضعتني في غرفة هاورد، بين المطبخ والمرحاض.

لقد هرب هاورد! هرب مع جوي كينزمان، ابن متعهد الدفن. تطوع في وحدات مشاة البحرية بعد أن كذب في ما يتعلق بسنه. كانت الأسرتان تحاولان استعادة الشابين، لكنهما أرسلا خلال تلك المحاولات إلى نيكاراغوا، وكانا يقاتلان ساندينو ولوارء. حزنت أمه حزناً رهيباً، كأنه قد مات بالفعل. وبما أن جسمها كان ضخماً، وقدراتها البدنية كبيرة، فقد كانت لديها إفراطات كثيرة من مختلف الأنواع، بما في ذلك الإفراطات الجسدية: الشامات، والطيات، والشعر، ونتوءات في جبهتها، وضخامة في رقبتها. كان شعرها أحمر متموجاً ينبثق من فروة رأسها بجمال ووضوح لا ينكران، ثم يتشابك بعد ذلك. كانت تقصه من الخلف كذيل البطة ثم تجمعه عالياً فوق أذنيها. كانت صوتها قوياً في الأصل، مثلها، لكن البكاء والربو جعلاه كسيحاً، وجعلا بياض عينيها نحاسي اللون... للأسباب نفسها؛ كان وجهها متجهِّماً، ملتهباً، بائساً، ولم تعرف روحها ذلك النوع من الترويض الناتج عن التفكير أو عن الاعتبارات البعيدة القادرة على تهدئة أناس أصابهم حظ أبشع مما أصابها. وذلك لأنها - مثلما قالت الجدة لوش التي وضعت حالتها ضمن حجمها الحقيقي بما لديها من ولع بالأساسيات - «ما الذي تريده... امرأة مثلها؟ لقد وجد لها إخوتها زوجاً، ثم اشتروا له تجارته الحالية، وكان لديها طفلان في بيتها وبضعة عقارات فوق ذلك. كان من الممكن تماماً أن تبقى في مصنع القبّعات النسائية، حيث بدأت... ذلك المصنع عند بناية لوب على جادة واباش». تلك هي الملاحظة التي سمعناها بعد مجيء ابنة العم آنا للحديث معها ـ مثلما يأتي المرء إلى امرأة حكيمة، جاءت مرتدية فستانها وقبعتها وحذاءها، ثم جلست إلى طاولة المطبخ تنظر إلى نفسها في المرآة وهي تتحدث... تتحدث لا كيفما اتفق، بل بعزم ثابت صارم غاضب. ظلت تنظر إلى نفسها في المرآة حتى في أسوأ اللحظات، عندما التوى فمها وانهمرت دموعها. كانت أمي تنظف دجاجة عند الموقد وقد لفّت رأسها بعصابة. قالت العجوز بينما كانت آنا تنتحب: «اسمعي يا داراغايا، لن يصيب ابنك شيء؛ سوف يعود! هنالك أمهات غيرك لديهن أبناء هناك أيضاً».

«قلت له أن يكف عن التجوّل مع ابن متعهد الدفن. فأي صديق يمكن أن يكون ذلك الشاب؟ لقد جرّه معه إلى هذا الأمر».

كانت جدتي تعتبر أسرة كينزمان أشخاصاً يحوم الموت حولهم. وقد اكتشفتُ أنها كانت تسير مسافة عدة كتل من البنايات عندما تذهب للتسوق حتى تتجنب المرور عند بيتهم، رغم أنها كانت تقول كثيراً، قبل ذلك، إن السيدة كينزمان، امرأة ضخمة نضرة حذرة المظهر، كانت أختاً لها في المسكن الجماعي، وصديقة لها أيضاً... آل كينزمان الأثرياء! لقد تولى كينزمان الأمور المتعلقة بدفن عم كوبلين الذي كان موظفاً بأحد المصارف؛ كما أن فريدل كوبلين الصغيرة وابنة كينزمان كانتا تذهبان إلى دروس الإلقاء معاً. كانت لدى فريدل المشكلة نفسها التي كانت لدى موسى الذي قاده الملاك الحارس من يده، فتمكنت من تجاوز تأتأتها لتصير فصيحة اللسان. سمعتها تتكلم بعد سنوات من ذلك، في مباراة كرة قدم كنت أبيع فيها الشطائر للجمهور. لم تعرفني في قبعتي البيضاء ذلك اليوم، لكني تذكرت عندما كنت أعلّمها كيف تقول عبارة «عندما يحل الصقيع على الجبل». تذكرت أيضاً تعهد ابنة العم آنا بأنني سوف أتزوج فريدل عندما أكبر. كان ذلك في غمرة دموعها عندما احتضنتني على عتبة بيتها في ذلك اليوم: «اسمع يا أوجي! سوف تكون ابني؛ ستكون زوج ابنتي... ستكون أنت ابني». في تلك اللحظة، مرة أخرى، كانت تعتبر أن ابنها هاورد قد مات بالفعل.

ظلت آنا متمسكة بمشروع الزواج هذا طيلة الوقت. ولما جرحت يدي عندما كنت أسنّ آلة جز العشب، قالت لي: «سوف تشفى قبل يوم الزفاف»، وبعد ذلك قالت: «من الأفضل أن تتزوج شخصاً عرفته طيلة حياتك. أستطيع أن أقسم على هذا. لا شيء أسوأ من الغرباء. هل تسمعني؟ اسمع كلامي». وهكذا كان المستقبل مرسوماً بالنسبة إليها لأن فريدل الصغيرة كانت تشبهها من حيث أنها تعرف الصعوبات التي تنتظرها: كان على ابنة العم، هي أيضاً، أن تتجاوز تلك الصعوبات برعاية فظة من أخيها. ما كانت لديها أم تساعدها! ولعلها شعرت أن ابنتها، إذا لم تجد لها زوجاً، سوف تنهار تحت وطأة قوة غرائزها الخانقة وتعيش محرومة من الأطفال. وسوف تذرف دموعاً كثيرة تغرقها، كثيرة مثل المياه التي في نهر أوفيليا. كلما تزوجت أسرع، كلما كان ذلك أفضل. لم يكن المكان الذي جاءت آنا منه يعرف أي تشجيع للطفولة. تزوّجت أمها في الثالثة عشر أو في الرابعة عشر من عمرها؛ وهكذا ما كان أمام ابنتها فريدل أكثر من أربع أو خمس سنوات حتى تتزوج. لقد تجاوزت آنا نفسها هذه السن المحددة بخمسة عشر عاماً على الأقل. وأظن أنها قضت السنوات الأخيرة من تلك الفترة في حزن مذعور قبل أن يتزوجها كوبلين. وهذا ما جعلها تبدأ حملة تزويج ابنتها منذ الآن... كان كل صبيّ هدفاً محتملاً! أفترض أنني لم أكن المرشح الوحيد، لكني كنت الأكثر توفراً في ذلك الوقت. كانت فريدل تتلقى دروساً

في الموسيقى والرقص، إضافة إلى دروس الإلقاء للدخول في أعلى الدوائر الاجتماعية في الحي. لم يكن لذلك من سبب غير أنه يجعل آنا تشعر بانتمائها إلى السكن المشترك؛ كانت امرأة كئيبة يملأ وجودها منزلها على نحو ثقيل، وكان لا بد لها من هدف كبير حتى ترسل ابنتها إلى تلك الحفلات الخيرية والبازارات.

كانت آنا عدواً فظيعاً لكل من يقول كلمة سوء في حق ابنتها. وكانت تنشر عنه شائعات مؤذية. «قالت لي معلمة البيانو نفسها... تتكرر القصة كل سبت. عندما ذهبت لتعطي ميني كارسون درسها، حاول أبوها أن يجرها خلف الباب معه». وسواء كان هذا صحيح أو غير صحيح، فسرعان ما أصبح قناعة لديها. لم تكن تبالي أبداً بمن يسمع كلامها هذا، حتى أن المعلمة جاءت إليها ترجوها أن تكفّ عنه. لكن آل كارسون لم يدعوا فريدل إلى عيد ميلاد ابنتهم فصارت عندها عداوة لهم... عداوة كورسيكية الشدة امتصتها تماماً واستحوذت عليها.

والآن، بعد أن هرب هاورد، صارت ترى في أعدائها كلهم ممثلين عن الجحيم. كانت تستلقي في فراشها باكيةً لاعنةً إياهم: «يا رب، يا الله، يا رب الكون، فلتذبل أيديهم وأرجلهم، ولتجفّ رؤوسهم»، وغير ذلك من العبارات الرهيبة... صارت هذه لغة يومية عندها. وعندما تستلقي في ضياء الصيف مرتاحة في ظلال شجرة الكاتالبا في باحة البيت الأمامية، عندما تستلقي على ظهرها واضعة مناشفها وكماداتها وخرقها كلها، كان جذعها يبدو هائل الحجم، وكان كعبا قدميها يلمعان من تحت الغطاء مثل جمرتين مشتعلتين... قدمان تشبهان كوارث الحروب المدمرة في حملة نابليون الإسبانية. وكان الذباب يقف مصطفّاً مثل درجات السلّم على حبل مفتاح المصباح الطويل. وكانت تزفر وتذبح نفسها بآلامها ومخاوفها. كانت لها قوة إرادة شهيد في سبيل العقيدة، ومستعدة لحمل رأسها المقطوع بين يديها في الفردوس حتى يوم القيامة واقفة في جوقة الأمهات الثكالى مع جدّتَيْنا حواء وهاجر. هذا لأن آنا كانت متدينة كثيراً، وكانت لها أفكارها الخاصة عن الزمان والمكان... أفكار تجعل الجنة والحياة الأبدية أمرين غير بعيدين كثيراً. وكانت الأشياء عندها مجزّأة، مسطّحة، قابلة للتمدد والتقلص. كانت تشبه طبقات ذلك البرج المائل في بيزا؛ أما نيكاراغوا فكانت على مسافة تعادل محيط الأرض كلها مرتين، هناك حيث يُذبح القزم سانديو ابنها - لا أستطيع تخيل ما كانه سانديو في نظرها.

في تلك الأثناء، كانت قذارة البيت مذهلة. المطبخ خاصة. لكن آنا، رغم ذلك، كانت تمضي بعينيها المتورّمتين المشتعلتين، تمضي بطيئة على قدميها صائحة صياحاً غير مفهوم في الهاتف، وكان شعرها الغزير يمنحها مظهراً ملكياً... وعلى نحو ما، كانت قادرة على متابعة واجباتها كلها. كانت وجبات الطعام جاهزة في وقتها من أجل الرجال. وكانت آنا

تهتم بمتابعة تمرينات فريدل ودروسها، وتحرص على التحقق من جمع النقود كل يوم وعدّها وتصنيفها حسب الفئات، وتغليفها عندما لا يكون كوبلين موجوداً ليفعل هذا بنفسه. وكانت تهتم أيضاً بمتابعة الطلبيات اليومية.

«عزيزي... أوجي، جرس الهاتف يرن. اسمع، لا تنس إخبارهم أننا نريد كمية مضاعفة من صحيفة الأحد بعد الظهر».

وعندما حاولت مرة أن أعزف على ساكسفون هاورد، أدركت كم كانت قادرة على النهوض سريعاً من فراشها وتفتيش البيت كله. اقتحمت الغرفة وانتزعت الآلة مني زاعقة: «إنهم يأخذون أشياءه منه، منذ الآن!» قالت هذا بطريقة جعلت جلد رأسي ورقبتي يقشعر وينكمش. رأيت كيف يكون موقع الصهر بالنسبة لابنها ـ صهر محتَمَل فحسب، بالتأكيد. لم تسامحني ذلك اليوم رغم إدراكها أنها أخافتني. لكنني أظن أنني لم أبدُ مجروحاً بقدر ما كنت مجروحاً في حقيقة الأمر؛ وأظنها افترضت أنني لا أعرف إحساساً بالندم. لكن الأمر في الحقيقة هو أنني لم أكن أملك القدرة على الحقد، عكس سايمون صاحب فكرة الشرف الجنوبية العتيقة وتلك العفوية الخطرة التي كانت تميزه في ذلك الوقت. ثم كيف يمكن أن تحمل ضغينة لشخصٍ مذعور إلى هذا الحد؟ حتى عندما كانت تجذب الساكسفون لتنتزعه من يدي، كانت تنظر إلى صورتها في المرآة الصغيرة فوق الخزانة الطويلة. نزلتُ إلى القبو حيث يضعون الأدوات ومصاريع النوافذ التي يستخدمونها في فترة العواصف. وهناك، بعد أن توصلت إلى أنني لا أستطيع العودة إلى البيت الآن لأن الجدة لوش سوف تعيدني من جديد، صرت مهتماً بمعرفة سبب تسرب الماء من المرحاض، فنزعت غطاء علبة أنابيب المياه، وأمضيت وقتي هناك في الأسفل أحاول إصلاح العطل بينما كانت أرضية المطبخ من فوقي تنحني وتهتز.

لابد أنه «العقارات الخمسة» يتجول في البيت! إنه شقيق آنا الضخم... طويل الذراعين منحني الظهر، يخرج رأسه من بين العضلات الكثيفة في ظهره وكتفيه فيبدو كأنه ساق شجرة نابت من أعلى جذعه. كان شعره ناعماً، بنياً على شيء من الاخضرار؛ وكانت عيناه خضراوين تماماً، صافيتين، بدائيتين، حذرتين، ساخرتين؛ وكانت له ابتسامة مثل ابتسامة أبناء الإسكيمو، بدائية في بساطتها، تكشف عن صفَّيْن من أسنان الإسكيمو المغروزة في لثتين مرتفعتين... ابتسامة ممازحة، جذلة، غير واضحة النيَّات. إنه أحد المتنافسين الكبار على الثروة. يقود شاحنة منتجات الألبان... واحدة من تلك الأشياء الكهربائية حيث يظل السائق واقفاً كأنه قبطان ممسك بالدفة، وحيث تقرقع الزجاجات والصناديق المصنوعة من الخشب والأسلاك المعدنية وترنح متصادمة بجنون. أخذني معه في تلك الجولة عدة مرات، وكان يدفع لي نصف دولار لقاء مساعدته في ترتيب الزجاجات الفارغة. وعندما

حاولت أن أرفع صندوقاً كاملاً، تحسّس أضلاعي وذراعيَّ وفخذيّ ـ كان يحب أن يفعل هذا أحياناً ـ ثم قال: «ليس بعد! عليك أن تنتظر». ثم حمل الصندوق بنفسه وألقى به إلى جانب صندوق التبريد. كان هذا الرجل شريان الحياة للبقاليات البولندية الصغيرة الهادئة الفائحة برائحة الشحم حيث كان يتوقف فيمازح أصحابها ويلاكمهم بمرح. أو حيث يشتم الإيطاليين بلغتهم عند المقاهي الإيطالية ويشير إليهم إشارات بذيئة بذراعه. كان يستمتع بهذا كله استمتاعاً كبيراً. كان شديد الذكاء، هكذا تقول أخته! لم يمض وقت طويل منذ أن قام بدوره الصغير في خراب بعض الإمبراطوريات إذ كان يقود شاحنات من جثث الروس والألمان لدفنها في المزارع البولندية. وأما الآن، فإن لديه مالاً في المصرف، ولديه حصة في مصنع الألبان، كما يقوم في المسرح اليهودي بتمثيل شخصية الخاطب المتعجرف الذي يكرهه الجميع: «خمسة عقارات، مال كثير».

وفي صباح يوم الأحد، عندما تصدح أبواق باعة البالونات في حلاوة الشوارع المغطاة بأوراق الأشجار، وفي هدوئها تحت السماء الزرقاء، كان يأتي إلى الإفطار ببدلة بيضاء، ممسكاً بعود تنظيف الأسنان بكل أناقة... يأتي بشعره البدوي مسرحاً تحت قبعته القش. لكن هذا كله لم يكن قادراً على تخليصه من رائحة الحليب التي تصاحبه طيلة الأسبوع. كم كان لطيف المظهر هذا الصباح... وجه لوَّحته الريح، ومزاج طيب، وأسنانه ولثتاه ووجنتاه تشارك كلها في ابتسامته الصارخة. قرص أخته ذات العينين النحاسيتين التي كانت كئيبة دامعة.

«أنيشكا».

«هيا، الإفطار جاهز».

«خمسة عقارات، مال كثير».

سرقت ابتسامةٌ فظهرت على وجهها إلا أنها قاومتها بمزاجٍ نكد. لكنها كانت تحب أخاها.

«أنيشكا».

«هيا! إن طفلي مفقود. العالم كله في فوضى».

«خمسة عقارات».

«لا تكن أحمقاً! سوف يكون لك طفل أنت نفسك، وسوف تعرف معنى ذلك».

ما كان «العقارات الخمسة» يبالي بالمفقودين والموتى على الإطلاق؛ وكان يقول هذا من غير حرج. فليذهبوا إلى الجحيم! لقد كان يستخدم أحذيتهم وقبعاتهم بينما تتلاطم

جثثهم في شاحنته الماضية عبر القذائف والانفجارات. وعادة، كان يقول أشياء على الطريقة الإسبارطية، أو على طريقة الحكام... أشياء سريعة صلبة... «لا يستطيع المرء الذهاب إلى الحرب من غير أن يشمّ رائحة البارود». أو «لو كانت لدي الجدة عجلات لكانت عربة». أو «نم مع الكلاب تستيقظ مع البراغيث»، أو «لا تقذف بخرائك حيث تأكل». وكانت لديه حكمة بسيطة واحدة تقول: «لا تلُم إلا نفسك»؛ أو (بالفرنسية، لأنه أمضى بعض الوقت في عاصمة العالم، باريس) «أنت أردت هذا يا جورج داندان».

وهكذا نرى طبيعة الآراء التي كانت موجودة بالتأكيد عند «العقارات الخمسة» في ما يتعلق بانضمام ابن شقيقته إلى الجيش، لكنه كان يراعي أخته بعض الشيء.

«ماذا تريدين؟ لقد كتب لك رسالة الأسبوع الماضي».

تجيبه آنا: «الأسبوع الماضي! وماذا عن هذا الأسبوع؟»

«هذا الأسبوع حصل ابنك على فتاة هندية صغيرة تلاعبه وتحضنه».

فتقول آنا: «ليس ابني»، ثم تدير عينيها صوب مرآة المطبخ.

لكن ما اتضح هو أن الصبيين وجدا من يلاعبهما حقاً. أرسل جوي كينزمان إلى أبيه صورة فيها صبيتان محليتان بشعر طويل وتنورتين قصيرتين. وكان الشابان ممسكين بيدي الفتاتين... من غير تعليق. جعل كينزمان كوبلين يرى تلك الصورة. لم يكن الأبوان منزعجين بالمعنى الدقيق للكلمة، أو لعلهما، على الأقل، لم يريا من المناسب أن يظهر كل منهما انزعاجه أمام الآخر. بل على العكس! لكن ابنة العم آنا لم تر تلك الصورة.

كان لدى كوبلين مخاوفه الأبوية الخاصة به، لكنه لم يكن يحمل تجاه كينزمان ذلك الغضب الذي تحمله آنا. وقد حافظ على الصلة الضرورية معه في العمل... لأن متعهد الدفن ما كان قادراً على دخول البيت طبعاً.

لكن خطوط حركة كوبلين، إذا تكلمنا بشكل عام، كانت خارج البيت على أي حال، وكانت حياته كلها حركة... حركة بخطى ثابتة متوازنة. إذا ما قورن بآنا وشقيقها فهو يبدو صغير الحجم، لكنه لم يكن كذلك في حقيقة الأمر. كان متين الجسم أصلع الرأس، بل خالٍ كله من الشعر. وكانت قسمات وجهه ضخمة أيضاً... وجه مستدير مسطح مع انتفاخ عند عينيه اللتين ترفرفان كثيراً إلى حد يكاد يكون مضحكاً. لكن، إذا اعتبر المرء هذه الصفة دليلاً على الضعف فعليه أن يتذكر أن هنالك عادات تنشأ لكي تضلل خبرات بني البشر. لم تستطع آنا هزيمته، ولم يستطع هزيمته «العقارات الخمسة» أيضاً ولا غيره من أفراد الأسرة. كان صاحب روح رياضية، وكانت لديه دوافعه الخاصة، لكنه ضمِنَ حقوقه بتصميم رجل يستطيع أن يكون خطيراً عندما يدخل في مشاجرة. وقد استسلمت آنا. وهكذا كانت

قمصانه مطوية في الدرج دائماً ومجهَّزة بشرائح عظم الحوت في ياقاتها؛ وكان الفطور الثاني الذي يتناوله عندما يعود من جولة توزيع الصحف في الصباح يشتمل دائماً على الكورن فليكس بالحليب وعلى البيض المسلوق جيداً كما يحبه. كانت الوجبات شيئاً مذهلاً في ذلك البيت... كميات ضخمة ـ كانت آنا مؤمنة تماماً بالأكل. أطباق كبيرة من المعكرونة من غير ملح أو فلفل أو زبدة أو صلصة، وشرائح مختلفة من اللحم، وحساء كثيف من قوائم العجل فيه بعض من شعر العجل أيضاً، وشرائح من البيض، وسمكة مخللة باردة، وأمعاء محشوة، وطبق مصنوع من الذرة، وزجاجة كبيرة من عصير البرتقال. كان هذا مما يعجب «العقارات الخمسة» الذي يدهن الزبدة على الخبز بأصابعه. ولم يكن كوبلين، الذي يأكل بطريقة أفضل وأكثر تمدناً، يظهر أي انزعاج من هذا، بل كان يبدو كمن يعتبره تصرفاً طبيعياً. لكني أعرف أنه يأكل بطريقة مختلفة عندما يجتمع مع من يوزعون الجرائد في المدينة.

أول ما كان يفعله هو خلع البدلة القديمة التي يذهب بها إلى جولاته حاملاً حقيبة الجرائد ثم يرتدي بدلة جديدة. كان يضع قبعة لبّادية تشبه قبعات المحققين، وحذاء عريضاً من الأمام، ويحمل حساباته مع نسخة من صحيفة تريبيون، ونتائج المباريات الرياضية، ونشرة سوق الأسهم ـ كان يقامر على أسهم البورصة ـ وكان يحمل معه أيضاً أخبار الحرب بين العصابات ويتابع ما يحدث بين كولوسيمو وكابوني في شيشيرو وأسرة أوبانيون في الناحية الشمالية. وقد اشترى سيارته من نوع آشلاند في الوقت نفسه تقريباً عندما أطلقت النار على أوبانيون فور ظهوره من مخبئه من قبل شخص استطاع أن يجعل أحد المقربين من القتيل يخبّئ مسدسه معه. وعند الغداء، كان يذهب إلى مطعم جيد أو إلى صالة مطعم ريكس ليتناول الفاصولياء والخبز الأسمر. ثم يذهب إلى اجتماع يلقي فيه مدير التوزيع كلمة. وبعد ذلك يذهب لتناول فطيرة صغيرة مع القهوة في الطرف الجنوبي من الشارع قبل أن ينطلق لحضور عرض هزلي في مسرح هايماركت، أو في مسرح ريالتو، أو في واحد من الأماكن الأرخص سعراً حيث تهزّ أردافهن زنجيات أو فتيات من المزارع. كانت تلك أماكن أكثر وضوحاً وأقل مرحاً.

لكن من المستحيل معرفة الفكرة التي كانت عند آنا عن حركته في المدينة. يمكن القول إنها كانت في حالة صحراوية من التطور ولم تصل بعد إلى مرحلة ذلك «الترف البربري الذي يعيشه زوجها». والحقيقة أن كوبلين ما كان قد بلغ تلك الحالة أيضاً. كان رجلاً صلباً محدود الأفكار. يعتني بعمله بأفضل ما يستطيع ولا يبقى في المدينة إلى ساعة تجعل من الصعب عليه أن يعود في وقته المعتاد، الرابعة بعد الظهر. وكان يقامر على الأسهم في السوق، لكن هذا كان عملاً. وكان يلعب البوكر، لكنه لم يقامر أبداً بما يتجاوز ما يحمله في جيبه المليء بقطع نقدية صغيرة. ما كانت لديه تلك الرذائل العميقة الموجودة عند

الأشخاص الذين يلاطفونك ويتوددون إليك ثم يتضح أنهم يحفرون من حولك ويكيدون لك طيلة الوقت ـ مثلما يعتز القضاة الشكاكون بالإشارة إلى أنهم يرون رؤوس أشخاص يعتقد الناس أنهم أشخاص جيدون نابتة من الأرض في أماكن مظلمة. كان طيباً معي على وجه العموم، على الرغم من تلك الأوقات الكئيبة عندما يزعجني طالباً مني الاستعجال في تعبئة حقيبته بملحق جريدة الأحد. وكان هذا عادة بتأثير من آنا، فهي تتمتع هنا بأكبر نفوذ عليه وتجعله في حالة تأهّب حربي بذلك الدخان المنبعث من خنادقها دائماً. أما هو ذاته فكان صاحب روح مختلفة تماماً، روح فيها مرح من نوع خاص... تبين لي هذا عندما دخلت عليه وهو مستلقٍ بهيئة رجولية في حوض الاستحمام، كان منتصباً يداعب نفسه بالإسفنجة في ذلك الحمام الصغير الضيق من غير نافذة. لعله كان يمكن أن يربكني التفكير في أن هذا الرجل الذي هو والد فتاة صبية وجندي في مشاة البحرية، وزوج ابنة العم آنا، يمكن أن يشاهَد في هذا الوضع المشين بعض الشيء ـ بل أرى الآن أنها حادثة أكثر إزعاجاً بكثير مما كانت عليه حقيقةً آنذاك. لكن تفكيري فيما يتعلق بهذه الحادثة لم يكن عنيفاً على الإطلاق. لم أستطع أن أرى رجلاً فاسقاً في ذلك الشخص الذي كنت أعتبره دائماً «ابن العم هايمان» الذي كان رجلاً لطيفاً رؤوفاً وكريماً معي.

كانوا كلهم كرماء في واقع الأمر. كانت ابنة العم آنا امرأة موفّرة. كانت تزعم الفقر ولم تكن تحب إنفاق الكثير على نفسها؛ لكنها اشترت لي حذاء مرتفع الساق مع نصل سكّين مثبت على جانبه. وكان «العقارات الخمسة» يحب أن يأتي بالهدايا، علب من الحليب بالشوكولاته وصناديق كبيرة من السكاكر، وقطع من الآيس كريم والحلوى المصنوعة على شكل طبقات. كانا، هو وكوبلين، شغوفَيْن بالوفرة. سواء كان ذلك قمصاناً حريرية مخططة، أو جوارب طويلة، أو جوارب مزيَّنة، أو شراء قضبان السكر عندما نذهب إلى السينما، أو مختلف أنواع المأكولات عندما نذهب إلى المنتزه حيث يأخذانني مع فريدل للتجذيف... نادراً ما كان الواحد منهما يشتري أقل من دزينة كاملة: يدفع «العقارات الخمسة» بأوراق نقدية؛ ويدفع العم هايمان مما لديه من أكوام القطع النقدية الصغيرة. كان هنالك دائماً مال كثير يراه المرء، في الفناجين، والكؤوس، والمرطبانات، ونقود منثورة على مكتب كوبلين أيضاً. بدا أنهم واثقون من أنني لن آخذ شيئاً منها. والحقيقة هي أنني لم آخذ شيئاً... ربما نتيجة الوفرة التي كنت أراها من حولي. كنت سهل الاستمالة بهذه الطريقة شريطة أن يُعترف لي بأنني أستوعب الوضع... مثلما يحدث عندما ترسلني الجدة في مهمة. كنت قادراً أيضاً على تزوير مشاعري، بالسهولة نفسها تماماً. لا تظنوا إذن أنني أحاول ادعاء أنني، إذا عوملت على النحو الصحيح، يمكن أن أكون شخصاً مثل كاتو أو أن أكون مثل لينكولن الشاب الذي ارتحل أربعة أميال في مواجهة عاصفة انخفضت الحرارة فيها إلى الصفر ليعيد ثلاثة سنتات إلى أحد الزبائن. لا أريد منكم اعتباري شخصاً يملك هذه الخصائص الرئاسية الأسطورية. لكن تلك الأميال الأربعة لم تكن عقبة كبيرة عندي

إذا أُوقظت لدي المشاعر المناسبة لذلك. كان الأمر كله معتمداً على طريقة التعامل معي.

كنت أعود إلى البيت مدة نصف يوم كل فترة. وكانت عودتي تلك تمثل تضاداً واضحاً مع بقية أيامي. كانت أرض المنزل عند آنا تُغسل بعد ظهر يوم الجمعة عندما تنهض من سريرها وتسير حافية القدمين خلف ضربات ممسحتها متقدمة خطوة بعد أخرى ثم تفرش جرائد نظيفة لتمتص الرطوبة وتظل هناك فلا يرفعها أحد من مكانها حتى ينتهي الأسبوع. أما هنا فإن المرء يشم رائحة التنظيف اليومي. كان كل شيء موضوعاً في مكانه، مرتباً على نحو لا يعرف الكلل ـ أرضيات لامعة، ومفارش ممدودة، وزجاجيات مزخرفة من متجر رخيص، وقرن الوعل المعلق، والساعة الواقفة في مكانها ـ كان كل شيء منتظماً مثلما يكون الأمر في صالة الدير أو في أي مكان متأهب لطاعة الرب حيث تسود نظافة بيتية وتظل الأشياء كلها بعيدة عن التلوث بالمشكلات الفظة الصاخبة التي تحوم دائماً حول كل جدار غير محروس. كان السرير الذي ننام عليه، أنا وسايمون، مزهواً بحلته الكاملة وبالتطريز على وسائده؛ وكانت كتب سايمون مصفوفة مرتبة (مكتبة الأبطال التي لدى سايمون)، وأعلام الكلية مثبتة صفاً على الجدار؛ وصورة لنساء جالسات لحياكة الصوف عند نافذة مطبخ تدفئ حرارة الصيف جدرانه؛ وصورة جورجي بين أزهار عباد الشمس وأعمدة حبال الغسيل الخضراء في باحة البيت يسير متعثراً خلف ويني الماضية لتشمم أماكن هبوط السناجب من الأشجار.

أظن أنني كنت أنزعج عندما أرى كم كنا غائبين عن المنزل، سايمون وأنا، وكيف تمضي الأمور بسلاسة من غير وجودنا. لا بد أن أمي كانت تشعر بذلك فتظهر اهتمامها بي... بقدر ما كان ذلك مسموحاً لها. كانت تُعِدّ الحلوى، وكنت كأنني ضيف... طاولة ممدودة وأطباق من المربيات. هكذا كان يجري الاحتفال بكسبي المال؛ وكنت أشعر باعتزاز عندما أخرج الدولارات المطوية من جيبي الصغير. لكن، عندما كانت نكتة من جدتي العجوز تجعلني أضحك بصوت أعلى من المعتاد، كان يخرج مني صوت كأنه صدى سعال عميق ـ لم أكن قد تجاوزت مرحلة الطفولة إلا بذلك القدر رغم أن قامتي صارت طويلة حقاً، وبلغ رأسي حجماً لن يتجاوزه بعد الآن. لكنني كنت لا أزال في البنطلون القصير والقميص المدرسي.

قالت الجدة: «حسنٌ! لا بد أنهم يعلمونك بعض الأشياء العظيمة هناك. إنها فرصتك لكي تتعلم التهذيب وحسن التربية». كانت تقصد المفاخرة بأنها هي من صاغني وبأن ليس لنا أن نخشى شيئاً من التأثيرات التي يمكن أن تصيبني. لكن شيئاً من التهكم كان ظاهراً في كلامها أيضاً... تحسباً لوجود أي خطر!

«ألا تزال آنا تبكي؟».

«نعم».

«طيلة اليوم! وماذا يفعل هو؟ إنه ينظر إليها ويرفرف بعينيه طيلة الوقت. والطفلة تتأتئ. لا بد أن هذا ممتع كثيراً. وماذا عن العقارات الخمسة؟... ذلك الذي يحسب نفسه جميلاً، ألا يزال يبحث عن فتاة أميركية ليتزوجها؟»

كانت تلك طريقتها الماهرة المزعجة. بيدها الصغيرة العظمية الصفراء، تلك اليد التي كانت متزوجة حقاً ذات يوم في أوديسا من رجل ذي وزن، رمت بعصاها فاندفعت المياه وغرق الأغبياء ـ المال والقوة والبدانة والحرير وعلب السكاكر، وكل شيء ـ ولم يبق إلا الأذكياء المتفوقون مبتسمين يتأملون التموجات الصغيرة على صفحة الماء. يجب أن تعرفوا، أن تفهموا مثل ما فهمت أنا، أن ما حدث يوم الهدنة في عام 1922، عندما التوى كاحل جدتي وهي تهبط السلم عند الساعة الحادية عشرة بينما كانت المصانع تطلق صفيرها الاحتفالي الوقور، عندما كان على جدتي أن تقف ساكنة، هو أن «العقارات الخمسة» رفعها وهي تتلوى ألماً واندفع بها إلى المطبخ. لكن ذاكرتها كانت متخصصة في حفظ الإهانات والتصرفات السيئة وحدها، تلك الأشياء التي لا يمكن نزعها من حلقها مثلما لا يمكن انتزاع تجاعيد النبالة الموجودة بين عينيها... كان تذمرها وعدم رضاها عنصراً من عناصر الكون، جزءاً من الطبيعة!

كان «العقارات الخمسة» تواقاً إلى الزواج. لقد طرح الأمر على الجميع؛ ومن الطبيعي أنه قصد الجدة لوش ليحدثها فيه أيضاً، فوضعت قناعها المعتاد وبدت مهتمة متعاطفة مهذبة، لكنها كانت تجمع المعلومات في الوقت نفسه وترتبها في ملفها. وقد رأت أيضاً في هذا الأمر فرصة للتغيير... فرصة لها حتى تتلقى نظير أتعابها. بدأت تتحين الفرص من أجل القيام بالعمل. لقد رتبت ذات مرة في ما مضى خطة لتهريب بعض المهاجرين من كندا! عرفتُ أنها أبرمت اتفاقاً مع كريندل فيما يتعلق بابنة شقيقة زوجته: كان على كريندل أن يقوم بدور وسيط، بينما تعمل العجوز على تشجيع «العقارات الخمسة» من جانبها. أخفقت الخطة رغم أن «العقارات الخمسة» مضى فيها متحمساً أول الأمر... وصل الرجل إلى الموعد نظيفاً متأنقاً، لامعاً كله من حلاقته النظيفة حتى عينيه المائلتين مثل عيون الإسكيمو... وصل إلى قبو بيت كريندل حيث سيجري اللقاء. لكن الفتاة كانت نحيلة شاحبة فلم تعجبه. كان يفكر في فتاة نشطة سوداء الشعر كبيرة الشفتين تحب الذهاب إلى الحفلات. لكنه كان مهذباً في رفضه فخرج برفقة الفتاة مرة أو مرتين وجلب لها دمية جميلة وواحدة من علب السكاكر اللذيذة، ثم كف عن الأمر كله. قالت العجوز عند ذلك أنها نفضت يدها منه. لكنني أظن أن اتفاقها مع كريندل ظل على حاله بعض الوقت بعد ذلك. ولم ينثن كريندل أيضاً؛ ظل يذهب إلى بيت كوبلين أيام الأحد: كان يقوم بمهمتين اثنتين في الوقت نفسه لأنه كان يحاول أيضاً بيع بطاقات رأس السنة اليهودية مقابل عمولة من إحدى المطابع. كان ذلك واحداً من نشاطاته المعتادة، مثل شراء بعض قطع الأراضي

والسلع التي تباع في المزادات وأخذ الناس من الحي إلى متاجر الأثاث في شارع هالستيد عندما يعلم أنهم يعتزمون شراء شيء.

اشتغل الرجل على «العقارات الخمسة» بمكر ودهاء؛ وكنت أراهما يتحدثان على انفراد في السقيفة: كريندل بساقيه المعوجتين حاملاً تاريخه القتالي كله على ظهره المتذلل التوّاق إلى إحراز النتيجة المرجوة، ووجهه المدور المحمر منتفخاً حتى أعلى جبينه وهو يتحدث عن النقاط الإيجابية في العروس المختارة في ذلك اليوم: أسرة جيدة، أطعمتها أمها بيدها أفضل أنواع الطعام وربتها من غير غلظة أو خشونة... ظهر ثدياها في الوقت الصحيح، ولم تأتها أي أفكار سيئة حتى الآن... لا أقدم لك إلا أفضل ما عندي، ولك أن تكون واثقاً من هذا ـ أستطيع أن أضع نفسي في مكان «العقارات الخمسة» فأراه يفكر وهو يستمع ثم يعقد ذراعيه مبتسماً وقد بدا عليه شيء من السخرية... أهي حقاً بهذه الروعة واللطف والنقاء؟ وإذا صارت خشنة ضخمة بعد الزواج بفترة قصيرة، وصارت تستلقي في فراشها الوثير تأكل الفاكهة... إذا صارت امرأة فاسدة كسولاً ترسل عبر ستارة نافذتها إشارات إلى الشباب الحلوين؟ وماذا لو أن والدها كان شخصاً طمّاعاً مبتزاً، وإخوتها متبطلين تافهين يلعبون الورق، وأمها امرأة سائبة مبذرة؟... أراد «العقارات الخمسة» أن يكون حريصاً إلى أقصى حد، ولم تكن تنقصه التحذيرات والتنبيهات من أخته التي كانت قادرة (إنها أكبر منه بعشر سنوات) على تقديم النصائح فيما يتعلق بالأخطار الأميركية وبتلك النساء الأميركيات، وخاصة بالفتيان المستعدين دائماً لاقتناص الفرص. كانت تقدم هذه النصائح بطريقة هزلية، لكن هزلها ظل متجهّماً لأن الوقت كان وقت حدادها.

«سيكون الأمر مختلفاً عما حدث معي، فأنا شخص يفهم الحياة. إذا أرادت معطفاً من الفراء مثل المعاطف التي عند صديقاتها الثريات، فسوف يكون عليك أن تشتري لها ذلك المعطف. أما هي فلن تبالي حتى إذا كان ذلك يستنزف آخر قطرة من دمك... شابة يانعة صغيرة».

«لست أنا من يحدث معه هذا»، يقولها «العقارات الخمسة» بطريقة تشبه طريقة قول آنا «ليس ابني أنا». كان يفرك قطعة خبز بين أصابعه العريضة ويدخن السيجار، وكانت عيناه الخضراوان صاحيتَيْن باردتين.

كان كوبلين منكباً على حساباته، وهو في ملابسه الداخلية (إنه بعد ظهر حار)، فألقى صوبي ابتسامة عندما لاحظ أنني أهملت الكتاب لأستمع إلى حديثهما. لم يحمِل عليَّ أبداً لأنني اقتحمت خصوصيته في الحمام... بل على العكس تماماً!

كان الكتاب الذي أقرأه نسخة سايمون من الإلياذة. وكنت أقرأ كيف جرجروا بريسيس الحلوة من خيمة إلى أخرى وأقرأ عن أخيل الذي التقط حربته بعد أن علّق مخلاته جانباً.

كان آل كوبلين يستيقظون باكراً، ويذهبون إلى النوم بعد عشائهم المبكر بقليل، مثلما تفعل أسرة قروية. كان «العقارات الخمسة» أول من يستيقظ، في الثالثة والنصف، ثم يوقظ كوبلين. وكان كوبلين يأخذني معه لتناول الإفطار في مطعم صغير على جادة بيلمونت التي كانت على الدوام نقطة توقف مزدحمة لسائقي الشاحنات والسعاة وموظفي البريد وعاملات التنظيف في مكاتب شارع لوب. كان يتناول القهوة مع الفطائر، أما أنا فأشرب الحليب مع كعكات من الشوفان. كان مقبلاً دائماً على الحديث والمخالطة مع الآخرين في هذا المكان، مع أصحاب العمل المتينين مثله ومع اليوناني وكريستوفر والعاملات في المطعم. لم يكن سريع البديهة، لكنه كان يضحك لكل شيء. في تلك الساعة الكئيبة، بين الرابعة والخامسة صباحاً، يتجهّم حتى من لا يخافون ويسوء مزاجهم فيمتنعون عن السير في الشوارع. لكن الأمر ما كان كذلك بالنسبة إليه. ففي أيام الصيف، على الأقل، كان يحب أن يخرج من البيت حاملاً قهوته وتحت ذراعه نسخة من إحدى الصحف.

وكان يعود إلى السقيفة ليلاقي السيارات التي تأتي بالجرائد، تأتي مقرقعة في ذلك الشارع فتتطاير أوراق الأشجار؛ وكنت أرى صبياناً متعلقين بأبوابها الخلفية يلقون منها حزماً من صحيفتي تريبيون وإكزامينر (كان العمل على سيارات الجرائد بوابة أكيدة على طريق تقدمهم ليصبحوا أوغاداً قطّاع طرق أو ليتجولوا مستمتعين في سيارات مسروقة). وبعد ذلك تظهر مجموعة صبيان التوزيع على دراجاتهم. ثم ينتهي توزيع الصحف على طول المسار بعد أن يتولى كوبلين وشغيلته القدامى المداخل الخلفية الصعبة حيث لا بد من توفر القدرة على قذف الصحيفة إلى الطابق الثالث عبر حزم من حبال الغسيل. وفي تلك الأثناء كانت ابنة العم آنا تستيقظ لتهتم بالأشياء التي تخصصت فيها ـ كأنَّ شحنة تلك الأشياء نقصت خلال الليل ـ تعود إلى دموعها وخطاباتها وتحسّرها وإلى إزعاج مرايا الصباح بنظراتها القلقة. لكن الإفطار الثاني يكون جاهزاً على الطاولة أيضاً لأن كوبلين يأكل قبل أن ينطلق من جديد لجمع النقود. قبل أن يذهب ليقرع الأبواب في قبعته القش المهذبة وهو يطرف بعينيه سريعاً كالنار. كانت شباك العنكبوت الصباحية عالقة على بنطلونه دائماً لأنه أول من يمر بعتبات البيوت. وكان مستعداً دائماً لأي حديث عن آخر أخبار العصابات والليالي الدموية لبارونات الخمور، وكذلك لآخر أخبار الأسهم ـ كان الكل يلعب في سوق الأسهم التي تقودها شركة إنسول.

كنت أبقى في البيت مع آنا وابنتها. تذهب آنا عادة إلى شمال ويسكونسن هرباً من غبار الطلع في شهر آب، لكنها لم تذهب هذه السنة نتيجة هرب ابنها هاورد، فحُرمت فريدل من عطلتها. كانت آنا تختم كلامها، أغلب الأحيان، بالشكوى من أن فريدل هي الوحيدة في صف الأطفال المجتهدين التي لم تذهب إلى العطلة. وحتى تعوّضها عن ذلك، كانت تطعمها أكثر فأكثر حتى صار لون وجهها ناطقاً بكثرة الأكل... وجه متورد حساس...

بربري. لم يستطع أحد تعليمها أن تغلق الباب خلفها عندما تدخل المرحاض، ذلك الشيء الذي استطاع جورجي نفسه أن يتعلمه. لم أكن قد نسيت أن فريدل موعودة بالزواج مني عندما ظللت بعيداً عن أنظارها في لعبة كرة القدم في ذلك اليوم. كان اللاعبون يتصادمون ويسقطون أرضاً فوق الخطوط البيضاء على الأرض المتجمدة. إنها امرأة شابة الآن، خالية من تلك العادات السيئة كلها... إنني واثق من هذا... صارت كبيرة الحجم مثل أمها، وصار لها لون بشرة عمها التفاحية. كانت ترتدي معطفاً من فرو الراكون وتضحك متحمسة وتلوِّح براية فريق ميتشيغان. إنها تدرس في كلية «آن آربور» لتصير اختصاصية تغذية. كان هذا بعد عشر سنوات من ذلك السبت الذي أعطاني فيه كوبلين نقوداً لآخذها إلى فيلم سينما. لم تعترض آنا على ذهابنا، لكنها ما كانت لتملس النقود بيدها أبداً في الأيام المقدسة. كانت تراعي حرمة تلك الأيام كلها، بما في ذلك بداية كل شهر قمري. وكانت تعتمد في ذلك على تقويمها العبري الصغير، وتغطي رأسها، وتوقد الشموع، وتهمس بالصلوات بعينين متسعتين مصممتين، وتمضي خلف أهوال القصص الدينية بذعر وأعصاب مشدودة كأنها جوناه بن آنيتاي مدفوعاً إلى دخول نينوى المخيفة. وقد رأت أن من واجبها أن تعطيني بعض التعليم الديني خلال وجودي في بيتها. استمعت منها إلى قصص معوجّة عن الخليقة والسقوط، وعن بناء بابل، والطوفان، والملائكة التي زارت لوط، وكذلك عن العقوبة التي تلقتها زوجته وعن خلاعة بناته وفسوقهن، وعن اندفاعة العبرانيين والييديش والإنكليز يسوقهم وَرَعهم وغضبهم... مضيفة في ذلك كله أزهاراً صغيرة ونيراناً حارقة استمدتها من ذكرياتها وخيالاتها. لم تكن توضح قصصها كثيراً، على غرار تلك القصة عن إسحاق لاهياً مع رفقة في حدائق أبيمالك، أو قصة اغتصاب ديناه من قبل شيتشيم.

قالت لي: «لقد عذّبها».

«كيف؟»

«عذّبها!»

لم ترَ ضرورياً أن تقدم لي المزيد، وكانت محقّة في هذا. عليَّ الإقرار بأنها كانت تعرف مستمعها جيداً. لا حاجة إلى المخادعة في هذا. كانت توجّهني وتدفعني بعيداً عن صدرها الرحب صوب الأشياء الخالدة الكبرى.

الفصل الثالث

ما كنت قادراً، حتى في ذلك الوقت، على تخيُّل زواجي في عائلة كوبلين. وعندما انتزعت مني آنا ساكسفون ابنها هاورد، كان ما قلته لنفسي «هيا، خذيه! ما شأني به؟ سوف أفعل ما هو أفضل من هذا». كان ذهني قد بدأ يتجه إلى مآلات أفضل. أما جدتي العجوز فقد واصلت العثور على أعمال كثيرة مختلفة من أجلي متابعةً فكرتها الخاصة عمَّا يمكن أن يكون توجّهي في المستقبل.

وعندما أقول «أعمال كثيرة مختلفة» فإنني أقدم مفتاحاً، أو «حجر رشيد»، إلى حياتي كلها، إن كان لي أن أقول هذا.

لكن تلك الأعمال المبكرة التي كانت تختارها لنا ما كانت من النوع الصعب عامة. وإذا كان العمل صعباً، فإنه يكون عملاً موقتاً يفترض فيه أن يقود إلى شيء أفضل. لم تكن تريد أن نصبح عمالاً عاديين. أبداً!... كانت تريد لنا أن نرتدي البدلات الرسمية لا ملابس العمل الموحدة؛ وكانت تعتزم وضعنا على درب يجعلنا أشخاصاً محترمين على الرغم من أن مولدنا لم يكن يوحي بذلك الأمل... خلافاً لأبنائها الذين كانت لهم مربية ألمانية، ومعلمون، وملابس خاصة من أجل الذهاب إلى الصالة الرياضية. ولم يكن ذنبها أنهم لم يستطيعوا أن يتجاوزوا مستوى رجال الأعمال في بلدة صغيرة؛ فقد أنشأتهم لكي يكونوا قادرين على هزّ العالم هزاً. لا أقصد أنها كانت تتذمر منهم... بل كانوا في الواقع يظهرون لها الاحترام اللائق... رجلان ضخمان في معطفين كبيرين مزرَّرَيْن وطماقات على الساقين... كان ستيفا يقود سيارة ستودبيكر، وألكسندر يقود سيارة ستانلي ستيمر. والاثنان ميالين إلى أن يكونا صامتين مضجرَيْن. كانا يجيبان باللغة الإنكليزية إذا خاطبهما المرء بالروسية. ومن الواضح أنهما لم يكونا شاكرين لها كثيراً على كل ما فعلته لهما.

لعلها بذلت جهداً أكبر عليَّ وعلى أخي سايمون لكي تظهر لهما ما تستطيع فعله حتى مع أشخاص معوَّقين مثلنا. ولعلها كانت تزيد لنا في مقدار مواعظها التي تتحدث عن الحب بسبب ابنيها. وذلك مع أنها كانت سريعة بما فيه الكفاية بالإمساك برأسيهما عندما ينحنيان ليقدما لها قبلة الواجب.

لكنها كانت محتفظة بسلطة صلبة علينا. كان مطلوباً منا أن ننظف أسناننا بالفرشاة والملح، وأن نغسل شعرنا بصابون زيت الزيتون ونحضر سجلّ الأداء المدرسي إلى البيت، وكذلك كان نومنا في ملابسنا الداخلية الطويلة محظوراً... وعلينا أن ننام بالبيجاما.

لماذا خسر دانتون رأسه، ولماذا كان هنالك نابليون، إذا لم يكن ذلك لجعلنا كلنا أشخاصاً نبلاء؟ كانت هذه الأهلية العامة لأن يصبح المرء نبيلاً (أي ما يعلمونه للناس في كل مكان) هي ما منح سايمون مظهر العظمة وسلوك النسر، وتلك الخطوات الناعمة التي لا تكسر عوداً صغيراً على الأرض، وجلال الفرسان، وقبضة عظماء الرومان على المحراث، وجدية ذلك الصبي الذي كان يبيع الكبريت في شارع ناسو ثم صار ملكاً من ملوك الشركات الكبيرة. ولعلكم لم تكونوا لتستطيعوا، من غير مواهب خاصة في الرؤية، أن تبصروا هذه الأشياء في معظمنا، نحن الصبيان الذين كنا نصطف في باحة المدرسة صبيحة يوم خريفي أحمر واقفين على الحصى في ستراتنا الجلدية السوداء وجواربنا السوداء المطوية وقفازاتنا الكبيرة وأحذيتنا المتقشرة بينما تعزف جوقة الطبول والأبواق وتدفع الريح الزجاجية بالأعشاب وأوراق الأشجار والدخان من حولنا وتصفع العلم المرفوع صفعاً شديداً وتجعل الحلقة المعدنية تقرقع مصطدمة بالسارية الفولاذية. لكن، لا بد أن سايمون كان متميزاً بوقفته على رأس دورية الشرطة المدرسية واضعاً حزامه القماشيّ المنشّى المكوي في الليلة السابقة وعلى رأسه قبعة قماشية قاسية. كان له وجه أشقر جريء وسيم؛ بل إن تلك الندبة الصغيرة على حاجبه كانت تجعل مظهره أكثر وسامة وقوة. كانت صور عيد الشكر تبدو معلقة من نوافذ المدرسة، وصور سوداء وبرتقالية لحجّاج وأتراك ولنباتات التوت البري... وكان الزجاج اللامع يعكس زرقة السماء وما فيها من نفحة صقيعية حمراء. وكان المرء يرى من النوافذ المصابيح الكهربائية والسبّورات السوداء في الداخل. بناء قاتم أحمر اللون... كنيسة، أو طاحون عند نهر فول أو نهر سوسكيهان، أو سجن ريفي... كانت مدرستنا تشبه هذا كله على نحو ما.

كان سجلّ سايمون متميزاً هنا. فهو رئيس «رابطة المخلِصين» ويضع شعار الرابطة على قميصه؛ وكان طالباً متفوقاً أيضاً. لم يكن لديَّ هذا الإخلاص لهدف محدد، لكنني كنت أكثر انطلاقاً منه. وكان كل من يقدم لي فرصة للتسلية أو اللهو قادراً على جعلي أهرب معه إلى الأزقة لالتقاط بعض الخردة، أو للتجول في مرسى المراكب وتسلق القضبان المعدنية

تحت الجسر على ذلك الوادي الصغير. كان هذا ظاهراً في درجاتي المدرسية. وكانت العجوز تُخْضعني لتدقيق شديد عندما آتي بالسجل إلى البيت فتدعوني «دماغ القطة»... أو «شقياً» باللغة الفرنسية... وتهددني بأنني سأذهب إلى العمل عندما أبلغ الرابعة عشر من عمري. كانت تقول لي: «سوف آخذ لك ترخيصاً من إدارة المدرسة، وعندها تستطيع الذهاب لتعمل في المستودعات مثل أيّ بولندي».

لكنها كانت تحدثني بطريقة مختلفة أحياناً: «ليست المشكلة في أنك لا تملك دماغاً، فأنت ذكي مثل أي شخص آخر، تقريباً. إذا كان ابن كريندل يستطيع أن يصير طبيب أسنان فإنك تستطيع أن تصبح حاكم ولاية إيلينويز. المشكلة الوحيدة هي أن دغدغتك أمر في غاية السهولة. يكفي أن يعدك المرء بنكتة أو ضحكة أو قطعة حلوى أو شيء من الآيس كريم لأن تترك كل شيء وتجري. أنت، باختصار، أحمق». تقول ذلك وتمسك بشالها المحبوك على هيئة شبكة العنكبوت بيديها الاثنتين وتجذبه إلى الأسفل كما يمسك رجل بطيتي صدر سترته... «أنت لا تعرف ماذا سيحدث إذا ظننت أنك تستطيع تدبر أمرك بالضحك وأكل فطائر الخوخ». كان كوبلين قد جعلني أذوق هذه الفطائر، أما هي فكانت تزدري تلك الفطائر، بل تحتقرها. تقول بنبرة كراهية وغيرة يهودية من التأثيرات الخارجية: «ورق وصمغ! وماذا علّمك أيضاً؟» كانت تطلق هذا السؤال بنبرة تهديد.

«لا شيء».

«لا شيء! إجابة صحيحة».

كانت تعاقبني بأن تجعلني أقف صامتاً لأفكر في نفسي وفي حماقتي... أقف أمامها نامي الجسم طويل الساقين، في بنطلوني القصير، كبير الرأس مع كتلة ضخمة من الشعر الأسود وذقن مشقوقة قليلاً ـ كانت هذه الذقن مصدراً للنكات. وكانت لي بشرة معافاة تجعلها تقول: «انظروا، انظروا، انظروا إلى وجهه! انظروا إليه!» تقول هذا مبتسمة وهي تمسك بحامل السيجارة بين لثتيها فينبعث الدخان متصاعداً في حلقات.

أمسكت بي مرة في شارع كانوا يعبّدونه. وكنت أمضغ بعض القار الذي أخذته من تلك الأوعية الحارة. كنت مع صديقي جيمي كلين الذي لم تكن عائلته تعجبها أبداً. جعلها هذا الموقف تضع اسمي في «دفتر المشاغبين» مدة أطول من أي وقت مضى. ثم صارت هذه المدد تتزايد، وصارت «شقاواتي» أسوأ فأسوأ. صرت أتقبّل عقوباتي بصعوبة شديدة، وأتشاور مع أمي في السبل التي تجعلني أنال عفواً، وأطلب منها أن تتكلم مع العجوز من أجلي، وصرت أذرف الدموع عندما تعفو عني... وصلت إلى مرحلة الإحساس بميل أكبر إلى مقاومة جدتي من خلال مقارنات مع أشياء كنت أراها في هذا العالم، أشياء تجعل جرائمي هيِّنة أكثر في نظري. لا يعني هذا أنني كففت عن ربط جدتي بما هو أفضل وأسمى،

مثلما كانت تقول عن نفسها ـ لم أكف عن الربط بينها وبين الأوساط الرفيعة في أوروبا، وعلية القوم في فيينا، وروعة الحياة العائلية الفخمة، ومختلف أنواع الأشياء العميقة المهذبة التي تبدو لمحات منها في سلوكها وفي حديثها ـ كانت تذكر دائماً أموراً على صلة بأشياء شديدة الأهمية... أشباح القياصرة، وصور العواصم، وكآبة التفكير العميق. لم أكن عديم التأثر بإلحاحها المستمر. ولم أكن أريد أن أترك المدرسة في الرابعة عشر حاملاً شهادتي لأعمل في مصانع التغليف. وهذا ما جعلني أشد عزيمتي في المدرسة أحياناً. كنت أنجز واجباتي المدرسية البيتية، وأكاد أقفز من مقعدي رافعاً يدي متحمساً لأجيب على الأسئلة. وكانت جدتي تقسم عند ذلك أنني لن أقف عند إنهاء المدرسة الثانوية بل سأذهب إلى الجامعة أيضاً إذا ظلت حية معافاة قوية حتى ذلك الوقت. «يكفي أن تريد! وسوف تستطيع تحريك الأرض والسماء». كانت تحدثني عن ابنة عمها داشا التي كانت تجلس على الأرض طيلة الليل حتى تظل مستيقظة وتدرس استعداداً لامتحان الطب.

جاءت دفعة إضافية عندما تخرّج سايمون من المدرسة وألقى كلمة في تلك المناسبة. وقد ذكرنا المدير معاً في كلمته: الأخوان مارتش! كانت الأسرة كلها موجودة ـ أمي جالسة في الخلف حيث اختارت أن تضع نفسها مع جورجي تحسّباً لما قد يبدر منه. لم تكن تريد أن تتركه في البيت ذلك اليوم. جلسا في الصف الأخير حيث يقترب سقف الصالة من أرضها. وكنت أجلس في المقدمة، مع جدتي العجوز التي تأنّقت فارتدت فستاناً حريرياً داكن اللون ووضعت سلسلة ذهبية لفت بها رقبتها مرتين... كانت في وسط تلك السلسلة حلية على شكل قلب عضها واحد من أبنائها فكسرها قليلاً خلال فترة ظهور أسنانه. كانت في غاية الاعتزاز... كان المرء يستطيع تمييزها من ذلك الغضب وتلك المعاناة الصامتة... كانت مميزة عن أقاربها المهاجرين الآخرين؛ وكان الريش الكثير الذي زيَّنت نفسها به متدلياً عند جانبَيْ رأسها. هذا ما كانت تحاول نقله إلينا... إن فعلنا كما تقول لنا فإننا نستطيع أن نتوقع نتائج كثيرة تشبه هذا التكريم العلني الآن.

قالت لي: «أريد أن أراك واقفاً هناك، فوق، في السنة القادمة».

لكنها لن تراني هناك! كان الوقت قد تأخّر كثيراً بصرف النظر عن الجهد الذي قد أبذله لتحقيق ذلك. كان سجلي المدرسي غير مواتٍ، ثم إن هذا النجاح لم يترك عندي دافعاً قوياً مستمراً. لست مصنوعاً من أجل هذا!

ثم إن سايمون نفسه لم يحافظ على ذلك المسار. صحيح أنه ظل أكثر اهتماماً مني بالمدرسة، لكنه مر بمرحلة من التغير خلال الصيف الذي عمل فيه نادلاً على الطاولات في فندق بنتون هاربور، ثم عاد بأهداف مختلفة عن تلك التي كانت لديه قبل ذلك، وبأفكار مختلفة وسلوك مختلف.

كانت هنالك علامة من علامات ذلك التغير حملت أهمية كبيرة بالنسبة لي وهي أنه عاد في الخريف بلون ذهبيّ مائل إلى السمرة وبسن أمامية عليا مكسورة، سن صارت حادة وتغير لونها قليلاً بين بقية أسنانه البيضاء. غيَّر هذا من شكل وجهه وضحكته، وكل شيء. لم يقل أبداً كيف حدث الأمر. هل كسر أحدٌ سنه في مشاجرةٍ ما؟

قال لي: «لقد قبّلت تمثالاً حجرياً. لا، لا، بل عضضت على قطعة نقود معدنية عندما كنت ألعب الكارب».

لم تكن إجابة من هذا النوع واردة أبداً قبل ستة أشهر. ثم إن النقود التي أتى بها معه لم تكن مرضية لجدتي.

«لا تقل لي إن كل البقشيش الذي حصلت عليه لم يبلغ إلا ثلاثين دولاراً! أعرف أن ذلك فندق من الدرجة الأولى وأن الناس يأتون إليه من كليفلاند وسانت لويس. كنت أتوقع أن تنفق بعض المال على نفسك عندما تكون هناك طيلة الصيف، لكن...»

«نعم، بالتأكيد، لقد أنفقت خمسة عشر دولاراً تقريباً».

«لقد كنت صادقاً على الدوام يا سايمون. لقد جلب أوجي إلى البيت كل قرش كسبه».

قال لها بكبرياء جريح وكرامة كاذبة: «كنت صادقاً؟ إنني صادق! لقد أحضرت لك الأجر الذي حصلت عليه خلال اثني عشر أسبوعاً، وفوقها ثلاثين دولاراً».

تغاضت جدتي عن الأمر بلمعةٍ صامتة ثاقبة من تحت إطار نظارتها الذهبي... نظرة منذرة محذّرة من الكذب وهي تمتص خدها إلى الداخل قليلاً. كانت تشير إلى تسديد ضربة عندما يحين وقتها. لكنني شعرت للمرة الأولى أن سايمون لم يكن يرى حاجة إلى القلق نتيجة هذا. ليس بمعنى أنه كان مستعداً للعصيان، لكنه كانت لديه بعض الأفكار، وشيئاً فشيئاً صار كل منا يقول للآخر أموراً ما كان من الممكن قولها أمام الجدة.

كنا نعمل معاً في المكان نفسه أغلب الأوقات، أول الأمر. كنا نذهب إلى كوبلين أحياناً عندما يكون في حاجة إلينا ضمن طاقمه؛ وكنا نذهب إلى قبو وولووث لنستخرج آنية فخارية من براميل ضخمة يستطيع المرء أن يمشي فيها. وكنا نجمع القش التالف ونرميه في الفرن. أو كنا نضع الورق في المكبس الضخم ثم نحزمه. كان الجو خانقاً هناك بسبب الطعام المتناثر على الأرض وبسبب علب الخردل والسكاكر القديمة والقش والورق. كنا نصعد إلى الأعلى لتناول طعام الغداء. وكان سايمون يرفض أن نأتي معنا بالطعام من البيت. كان يقول إننا في حاجة إلى وجبة حارة عندما نعمل. وبعشرين سنتاً كنا نشتري شطيرتي هوت دوغ، وزجاجة من البيرة، وفطيرة... كانت قطع الهوت دوغ على شكل لفافات إسفنجية يقطر منها الخردل نفسه الذي يجعل التنفس صعباً في الأسفل. لكن تلك كانت الهيئة التي

يجب أن يتخذها المرء عندما يكون عاملاً هناك، الهيئة التي يتخذها العامل مع الفتيات... في ملابس العمل، بين تلك الأشياء الكثيرة المتناثرة، والأدوات المقعقعة، والأوعية الزجاجية، والشوكولاتة، وعلف الدجاج، وتوافه الحُلي، والمواد الجافة، والمشمعات، والأغاني الرائجة ـ كان ذلك هو الشيء الكبير، وكنا نحن العمالقة في الأسفل، تحت تلك الأرضية، نسمع صوتها تطقطق تحت ثقل مئات الأشخاص، ونسمع صوت الأرغن يعزف في المسرح المجاور، وهدير عربات الترولي قادماً من جادة شيكاغو ـ كانت الريح تحمل معها الرماد في كآبة أمسيات الأحد، وترتفع بنايات مسودة من خمسة طوابق صوب سماء شمالية قاتمة، ترتفع من فوق المتاجر التي تلتمع بأضواء عيد الميلاد في الأسفل.

سرعان ما انتقل سايمون إلى عمل أفضل مع شركة الأنباء الفيدرالية التي كان لديها امتياز حصري للبيع في الأكشاك في محطات السكك الحديدية وكذلك لبيع الصحف والسكاكر في القطارات نفسها. وكان على الأسرة أن تدفع مقداراً من المال على سبيل التأمين لقاء حصوله على بدلة العمل الموحَّدة الخاصة بالشركة؛ ثم بدأ يعمل هناك في ساعات الليل، في القطارات وفي محطة المدينة، وكان مظهره في ملابسه الطويلة الجديدة حسناً يشبه مظهر طلاب الضباط. كان يستيقظ متأخراً صباح يوم الأحد ويأتي مرتدياً برنس الحمام ويجلس إلى طاولة الإفطار ضخماً واثقاً بعد أن زادت قدرته الجديدة على كسب المال من ثقته بنفسه. صار أكثر فظاظة مع ماما ومع جورج، بل صار صعباً معي أيضاً بعض الأحيان.

كان يقول لي مثلاً: «اترك هذه الصحيفة! لا تلمسها قبلي. يا ربي! أحضرها إلى البيت ليلاً فأجدها ممزقة في الصباح قبل أن أستطيع النظر إليها!»

لكنه، من ناحية أخرى، كان يعطي ماما بعض المال من غير أن تعرف الجدة، وذلك حتى تنفقه على نفسها. كما كان يحرص دائماً أن يكون لديَّ مال في جيبي، بل حتى على حصول جورج على بضعة قروش ليشتري بعض حلوى الكراميل. ما كان في سلوك سايمون أبداً أي بخل عندما يتعلق الأمر بالمال. كان لديه ذلك الميل الشرقي إلى الإنفاق. وكان ينزعج دائماً إذا نقصه المال... ينزعج إلى حد يجعله يفضل أن يختصر ما يطلبه في عربة المطعم في القطار على أن يغادرها من غير أن يترك بقشيشاً جيداً. ضربني مرة على رأسي عندما أخذت واحدة من قطعتين من فئة عشرة سنتات تركهما تحت الأطباق عندما كنا في المقهى. بدا لي وقتها أن ترك عشرة سنتات أمر كافٍ.

قال لي: «لا تدعني أمسك بك مرة أخرى تفعل أشياء دنيئة من هذا النوع!»... خفت منه، ولم أجرؤ على الرد.

في صباحات الأحد تلك، في المطبخ، عندما يكون لباس سايمون الخاص بالعمل

مرئياً في غرفة النوم، معلقاً بعناية على حافة السرير، وعندما كانت تسيل دمعات الضباب المتكثف على النافذة، كان يشعر بقوة وضعه الجديد، وبأنه الشخص الذي يستعد الآن لأن يمسك بقيادة الأسرة بين يديه. كان يحدثني عن الجدة أحياناً كأنها شخص غريب: «إنها لا تعني شيئاً بالنسبة إلينا في حقيقة الأمر، أنت تعرف هذا... ألا تدركه يا أوجي؟»

لم يكن لها أن تخشى التمرّد من جانبه بل النكران، عدم الاهتمام بما فعلته... عندما يفرد صحيفته على الطاولة كلها ويقرأ واضعاً يده على جبهته فتنسدل خصلات شعره الشقراء التي صار لونها داكناً قليلاً. لكنه لم يكن يعتزم إزاحتها عن موقعها، ولم يكن يتدخل في السلطة التي تمارسها على بقية أفراد الأسرة... على ماما خاصة، ماما التي ظلت على سلوك العبيد مثلما كانت من قبل. ازدادت عيناها ضعفاً فلم تعد النظارة التي حصلت عليها في العام الماضي كافية الآن. عدنا مجدداً إلى مركز التوزيع المجاني من أجل الحصول على نظارة جديدة، وكان علينا أن نجتاز تحقيقاً آخر هناك. لم نستطع اجتياز ذلك التحقيق إلا بشقّ الأنفس. كانت سن سايمون مسجَّلة لديهم. وهكذا فقد سألونا إن كان يعمل أم لا. ظننت أنني لم أعد في حاجة إلى تدريبات جدتي وأنني أستطيع اختراع الإجابات المناسبة بنفسي. وحتى ماما نفسها لم تكن مطيعة كعادتها، ولم تلتزم الصمت بل رفعت صوتها الغريب الصافي قائلة: «لا يزال الولدان في المدرسة؛ وهما يساعداني في البيت بعد الدروس».

وعند ذلك، كاد الموظف يوقع بنا عندما راح يجري الحسابات المالية، فأصابنا الذعر؛ لكن الحظ كان في جانبنا ذلك اليوم فحصلنا على الإيصال الذي يجب أن نقدمه في محل النظارات. لم نكن جاهزين بعد للتصرف من غير توجيهات الجدة العجوز.

صارت أنباء سايمون أكثر ما يثير الاهتمام في بيتنا الآن، وذلك بعد أن انتقل من العمل على القطارات إلى كشك في محطة شارع لاسال، ثم إلى الكشك الرئيسي الذي يبيعون فيه كتباً وأشياء كثيرة... أي حيث كان يجري العمل المهم في وسط تيار المسافرين المندفع دائماً. كان قادراً هناك على رؤية المشاهير في معاطفهم الفرائية أو في بدلاتهم الفاخرة ماضين ومن خلفهم الذين يحملون أمتعتهم... كانوا دائماً أكثر عجرفة أو كآبة أو لطفاً أو زيفاً مما يقال عنهم. كانوا يصلون من كاليفورنيا أو من أوريغون هابطين في عربات شركة بورتلاند روز وسط الثلوج، آتين من البنايات المرتفعة في شارع لاسال، أو منطلقين سريعاً في الممرات المؤدية إلى القطارات. كانوا يمضون إلى نيويورك في عربات «القرن العشرين»، في مقصوراتهم الخاصة المزينة بالزهور، بألوانها اللامعة الداكنة... مقصورات تشبه ردهات البيوت الفاخرة بمقاعدها ذات القماش الأخضر الداكن ومغاسلها الفضية المتألقة... يجلسون فيها ويتناولون القهوة في فناجين خزفية، ويدخنون السيجار.

كان سايمون يقول: «رأيت اليوم جون جيلبرت في قبعة كبيرة من القطيفة»، أو «اشترى السيناتور بوراه صحيفة ديلي نيوز وأعطاني عشرة سنتات من غير أن يأخذ البقية»، أو «لو رأيتم روكفيلر لصدقتم أن بطنه من المطاط مثلما يقولون عنه».

عندما يقول هذه الأشياء على الطاولة كان يخلق الأمل في أن دائرة العظمة والنجاح يمكن أن تشمله على نحو ما لأنها بدأت تمسّه بالفعل. الأمل في أنه يمكن أن يعجب أحداً ما، أو أن عين رجل الأعمال الكبير إنسول يمكن أن تتوقف عنده فيعطيه بطاقته قائلاً له أن يحضر إلى مكتبه في الصباح التالي. ولديَّ إحساس يقول إن الجدة سرعان ما بدأت تلوم سايمون في سرّها لأنه لم يصل إلى ذلك بعد. لعله لم يكن مهتماً بما فيه الكفاية بأن يبدو متميزاً، ولعل سلوكه لم يكن صحيحاً، لعله سلوك وقح! كانت الجدة مؤمنة بنفحة الإلهام التي تجعل الأشخاص البارزين يلاحظون وجودك. كانت تجمع قصصاً عن هذه الأمور، وكانت لديها خطة لأن تكتب إلى رجل الأعمال المحسن جوليوس روزلوالد عندما تقرأ أنه على وشك تقديم منحة جديدة. كانت تقول إنه يقدم تلك المنح إلى الزنوج دائماً، وإنه لا يقدمها إلى اليهود. كان هذا يغضبها كثيراً فتصيح: «ذلك اليهوذا الألماني!»، وعند صيحة كهذه، كانت الكلبة التي أقعدها التقدم في السن تنهض واقفة وتحاول أن تهرول نحوها.

«ذلك الألماني!».

لكنها كانت معجبة بجوليوس روزلوالد، رغم ذلك... كان من ضمن تلك الحلقة الداخلية من الناس الذين يشبهونها؛ حيث يجلسون «هم» الذين يحملون فهماً مختلفاً عن أفهامنا، والذين يملكون كل شيء ويراقبون كل شيء.

وفي تلك الفترة، كان سايمون يحاول أن يعثر لي على عمل يوم السبت في محطة شارع لاسال لينقذني من العمل في قبو ذلك المتجر حيث حل جيمي كلين محله. وكانت جدتنا، بل أمنا أيضاً، تلحّان عليه حتى يفعل شيئاً.

«سايمون، عليكِ أن تأخذ أوجي ليعمل معك».

«نعم، إنني أطلب هذا من بورغ كلما رأيته. يا إلهي، اسمعوا يا ناس... إن لكل شخص هناك أقارب أيضاً!»

تقول الجدة: «وما الأمر؟ ألا يقبل رشوة؟ صدّقني، إنه ينتظر منك أن تعرض عليه شيئاً. عليك أن تدعوه إلى العشاء، وسوف أريك كيف يتم ذلك، دولاران مطويان ضمن منديل».

كانت ترينا كيف نسلك في هذا العالم. كل شيء لا يبلغ حد قطع حنجرة أحد الخصوم أو وخزه بريشة سامة وقت العشاء، مثلما كان يفعل الإمبراطور الروماني نيرون. لكن

سايمون كان يقول إنه لا يستطيع أن يدعو بورغ. قال إنه لا يعرفه جيداً لأنه حديث العهد هناك، وهو لا يريد أن يبدو تافهاً في نظره، لا يريد أن ينظر الرجل إليه نظرة ازدراء.

قالت الجدة مركزة عينيها عليه: «لا بأس يا عزيزي الأمير العظيم»، كانت باردة جافة فلم يستطع أن يقول لها شيئاً... «أنت تفضل أن تترك أخاك يعمل في وولوورث مع كلين الأحمق في ذلك القبو!».

بعد أشهر من هذا الحديث، تمكن سايمون أخيراً من العثور على مكان لي في مركز المدينة، فبرهن بذلك على أن سلطتها عليه لم تكن قد انتهت بعد.

أخذني إلى بورغ ذات صباح. راح يحذّرني بينما كنا في الحافلة: «تذكّر الآن، لا تقم بأشياء غبية! سوف تعمل لدى الجد العجوز الماكر نفسه؛ وهو لا يقبل بأيّ عبث. سيمر بين يديك مال كثير في هذه الوظيفة، وهو يمر سريعاً أيضاً. كل نقص يكون لديك في آخر اليوم سيأخذه بورغ من أجرك الصغير. أنت في فترة اختبار الآن. لقد رأيت أغبياء كثيرين يُلقى بهم خارجاً».

كان عنيفاً معي على نحو خاص ذلك الصباح. كان الطقس شديد البرودة، وكانت الأرض قاسية، والأعشاب اليابسة تقف متكسرة في الصقيع، والضباب يتصاعد من النهر، والقطارات تطلق نفثات من البخار صوب السماء الزرقاء الواسعة. وكانت المقابض النحاسية المثبتة على مقاعد العربة القش لامعة لكثرة الأصابع التي مرت عليها. وكان قش المقاعد المتكسر ذهبياً، ومثله كانت أغلفتها الزيتونية والبنية، وكانت الشعرات النامية على معصمَيْ سايمون الضخمين أكثر لمعاناً من ذلك كله، وكذلك كان أسفل وجهه الذي يحلقه الآن أكثر من ذي قبل. صارت له طريقة خشنة جديدة في التنفس وفي التجول في الشارع. لكن تلك التغيرات التي أصابته، والتي لا تزال تصيبه، لم تجعله يفقد مظهره المستقل الواضح، ذلك المظهر الذي كان يسيطر عليَّ من خلاله. كنت أخشاه رغم أنني في حجمه تقريباً. كانت لنا العظام نفسها رغم اختلاف وجهَيْنا.

لم يكن مقدَّراً لي أن تسير أموري جيداً في المحطة. ولعل تهديدات سايمون كان لها بعض الأثر في تلك النتيجة، وكذلك القرف الذي أبداه عندما اقتطعوا قسماً من أجري في اليوم الأول. لكنني كنت مقصّراً على الدوام، كان ينقصني قرابة دولار كل يوم، حتى مع حلول أسبوعي الثالث في ذلك العمل. وبما أنه ما كان مسموحاً لي بأكثر من أربعين سنتاً زيادة على أجرة الطريق ـ أربعين سنتاً بالتمام، فإنني ما كنت قادراً على تغطية النقص الحاصل عندي. وقد أخبرني سايمون بمصيري عندما كنا في طريقنا إلى الحافلة ذات ليلة، كان متجهّماً مقتضباً... فقد طردوني من العمل.

رحت أدافع عن نفسي: «لا أستطيع الجري خلف الناس عندما يدفعون أقل من المطلوب. إنهم يلقون بالنقود ثم يأخذون الصحيفة؛ لا تستطيع أن تترك الكشك لتلحق بهم».

أخيراً، أجابني ببرودة ملقياً صوبي نظرة نارية قبل أن ينظر إلى تلك البرودة الشتوية الساكنة في حواجز الجسر المعدنية ومن خلفها مياه النهر التي تحمل معها خليطاً مندفعاً من القمامة لا اسم له: «لم تكن قادراً على أخذ تلك النقود من البقية التي تعيدها إلى أشخاص آخرين، أليس كذلك؟».

«ماذا؟».

«لقد سمعتني أيها الغبي».

أجبته صائحاً: «لماذا لم تقل لي هذا من قبل؟».

قال وهو يندفع مقترباً مني: «أقول لك! أأقول لك أن تغلق أزرار بنطلونك؟... كما لو أن عقلك ليس أكبر من عقل جورج!».

ثم ترك العجوز توبّخني كثيراً من غير أن يقول شيئاً ليدافع عني. قبل هذه الحادثة، كان يدافع عني دائماً عندما يتعلق الأمر بشيء جِدّي. أما الآن فقد ظل واقفاً بعيداً في ضوء المطبخ الشحيح واضعاً قبضة يده على وركه. كان معطفه معلقاً من كتفه، وكان، من حين لآخر، يرفع غطاء المدفأة التي كان عشاؤنا موضوعاً عليها ليسخن، ويحرك الجمر في داخلها. آلمني عدم إخلاصه كثيراً؛ لكني عرفت أيضاً أنني خذلته مع بورغ... لقد جاءه بشقيقه الذكي الذي اتضح سريعاً أنه أحمق. لكني كنت أعمل في كشك صغير تحت أحد الأعمدة حيث لا يمر إلا المتشرّدون، كما بدا لي؛ ولم يعطني بورغ ملابس عمل كاملة، أعطاني سترة فقط من غير بطانة، بأكمام مهترئة وياقة ممزقة. كنت وحدي هناك، وما كان معي أحد ليشير لي إلى المشاهير إذا مر واحد منهم في ذلك الاتجاه. كنت أمضي الوقت ضجراً منتظراً استراحة الغداء، ثم منتظراً وقت الانصراف عند الثالثة عندما أرى سايمون في الكشك الرئيسي وأعجب بالعمل هناك ـ كانت لديهم مبيعات تستحق المشاهدة ـ لأرى تدفق المال وذلك العدد الكبير من المسافرين الذين يقفون عند ذلك الكشك وهم يعرفون ماذا يريدون من علكة أو فاكهة أو سجائر، لأرى تلك الصحف والمجلات كلها، لأرى القوة الكامنة في اتساع المكان هناك ودائرة الضوء الواسعة التي تلقيها الثريا الكبيرة. كنت أظن أنني سأحقق نجاحاً أفضل لو أن بورغ وضعني هناك بدلاً من أن يضعني في تلك الزاوية الحجرية بعيداً عند حافة المحطة حيث لا أسمع إلا الأصداء وحيث لا أستطيع حتى أن أرى القطارات.

وهكذا حلَّ عليَّ خزي الطرد من العمل، وقرئت عليَّ قائمة ذنوبي في ذلك المطبخ. يبدو أن العجوز كانت تنتظر حدوث هذا فقط، وكانت مستعدة لأن تخبرني بالنواقص التي لم أكن أستطيع المغامرة بأن تكون عندي، النواقص غير المحتمَلة في موقعي في الحياة... طفل في أسرّة مهجورة من غير أب يحميني من المتاعب، من غير أحد إلا امرأتين اثنتين ضعيفتين لا تستطيعان مواصلة حمايتنا من الجوع والبؤس والجريمة ومن شرور هذا العالم. لعله كان من الأفضل أن ترسلانا إلى ملجأ الأيتام مثلما فكّرت ماما ذات يوم. كانت مستعدة لأن تلقي عليّ، أنا على الأقل، تلك الدروس في مشقّات الحياة لأنني كنت صاحب شخصية من ذلك النوع الذي يبحث عن اليسر وعن أماكن أستطيع أن أستلقي فيها آمناً. راحت تهزّ يدها المتيبّسة في وجهي معززة ضراوة كلماتها التي كانت إلى الآن تقولها كأنها تحدّث نفسها، بمرارة. ومع تلك الكلمات جاءت نبوءة مثل برق المحيطات، نبوءة تجمّعت في جمجمتها خلال جلوسها إلى جانب المدفأة تلك الأيام كلها إلى أن آنت لحظة انطلاقها.

«تذكَّر هذا عندما أكون في قبري يا أوجي، عندما أكون ميتة».

ثم هبطت يدها على ذراعي. كانت تلك مصادفة، لكن أثرها كان مرعباً لأنني زعقت كما لو أن هذه الضربة الخفيفة تضاعفت عشر مرات وأصابت روحي. ربما كنت أصرخ لأنني رأيت شخصيتي وشعرت بأسوأ ما فيها، ربما لأنني رأيت أن من الممكن أن أصل إلى قبري من غير أي أمل في ما هو مختلف أو في ما هو أفضل... من غير قدرة على إنقاذ نفسي من هذا، من غير قدرة على تطهير نفسي وتخليصها من هذا المصير. كانت قد وضعت نفسها خلف الحياة لتجعل حكمها الذي أصدرته عليّ مبرَماً لا رجوع فيه.

«انتبه يا أوجي... عندما أموت!» لكنها ما كانت تطيق التوقف كثيراً عند فكرة موتها. فحتى هذه اللحظة لم تكن قد أشارت أبداً إلى أنها واحد من البشر الفانين. كانت هذه نوعاً من زلة لسان! وحتى في هذه اللحظة، كانت مثل قيصر أو مثل فرعون قائلاً إنه سيصبح إلهاً ـ الفارق الوحيد هو أنها ما كانت تملك أهرامات ولا تماثيل ضخمة تعزّز هذا الوعيد، كانت أقل منهما بهذا المقدار فقط. لكنِ صراخها المؤلم المخيف عديم الأسنان، ذلك الصراخ المنبعث من حفرة تحوطها لثتان عاريتان، حكمها الذي يمتد حتى يضعني بين براثن الموت، كان ذا أثر كبير عليّ. كانت قادرة على إطلاق تهديد من هذا النوع بأقوى مما يستطيعه أيّ شخص آخر، لكن كان عليها أيضاً أن تدفع ثمن ذلك الرعب.

انتقلتْ الآن إلى الحديث عن أننا أسرة من غير أب. كانت تلك لحظة سيئة، لحظة تعاسة جلبتُها لأمي. ظل سايمون صامتاً عند المدفأة السوداء، وظل يعبث بالمقبض الذي يحرّك غطاءها. كانت ماما جالسة في الزاوية الأخرى، منتبهة شاعرة بالذنب. كانت هي

علامتنا الواضحة مهما تكن هوية أبينا الذي رحل. كانت العجوز في تلك اللحظة تعتزم سحقي وحرقي حتى أصير رماداً، وكان قدر الجميع أن يصيبهم شيء من ذلك اللهب.

لم أستطع العودة إلى عملي القديم عند وولوورث. وهكذا مضيت مع جيمي كلين لنبحث عن عمل رغم تحذيرات جدتي في ما يتعلق به. كان جيمي منطلقاً طيب المعشر، وكان وجهه صغيراً أسمر اللون بعينين ضيقتين ونظرة ذكية... كان شديد الرغبة في الصدق لكنه لا يقيِّد نفسه كثيراً باعتبارات الضمير ـ لم تخطئ العجوز في ما يتعلق بهذه النقطة! ما كان مسموحاً له أن يأتي إلى بيتنا لعدم رغبتها في تشجيعي على هذه الصحبة السيئة، مثلما قالت. لكني كنت موضع ترحاب في بيت كلين، بل كان جورجي نفسه موضع ترحاب لديهم أيضاً. وبعد الظهر، عندما يكون عليَّ أن آخذه إلى الخارج في نزهة، كنت أستطيع تركه هناك يلعب مع الصيصان الصغيرة التي يربّونها، أو التي يحاولون تربيتها، في تلك الفسحة الطينية الصغيرة المظلمة بين البيوت. وكانت السيدة كلين تراقبه من مطبخها في القبو حيث تجلس إلى الطاولة وتشمّر عن ساعدَيْها فتقشر وتقطع وتُشرّح وتحضِّر اللحم للطبخ وتصنع كرات اللحم.

كان وزنها أكثر من ثمانين كيلوغراماً وكانت لديها قدم أقصر من الأخرى. جعلها هذا لا تستطيع الوقوف على قدميها طويلاً. كانت امرأة عادية مرتاحة البال، وكان حاجباها متقاربان وأنفها معقوف قصير. تصبغ شعرها بالأسود مستخدمة سائلاً تطلبه بالبريد من آلتونا. وتضع ذلك السائل على شعرها مستخدمة فرشاة أسنان قديمة في زجاجة على نافذة الحمام. أعطى ذلك الصباغ شعرها لمعة هندية غريبة. وكان الشعر ينسدل على خديها ليصل حتى طيات ذقنها الكثيرة. عيناها سوداوان صغيرتان لكنهما عطوفتان رحيمتان إلى حد محيِّر. كان شكلها يشبه الباباوات، لكنها كثيرة الغفران والتسامح. إن لجيمي أربعة إخوة وثلاث أخوات، ولبعضهم أعمال غامضة. لكنهم كانوا ودودين لطفاء، حتى ابنتها الكبرى المتزوِّجة وأبناؤها الذين في أواسط العمر. كان لديها اثنان مطلقان، وابنة أرملة. وهذا ما جعل أحفاد السيدة كلين موجودين في مطبخها طيلة الوقت... بعضهم آتٍ من المدرسة من أجل الغداء، وبعضهم آت بعد المدرسة لتناول الكوكاكولا، وبعضهم الآخر يزحف على الأرض أو يستلقي في عربات الأطفال. كان كل شخص في تلك الأيام المزدهرة يجني مالاً، وكانت لدى الجميع مشاكلهم. كان على جيلبرت أن يدفع نفقة لطليقته؛ وكانت أخته المطلقة فيلما لا تحصل على نفقة منتظمة. كسر زوجها سناً من أسنانها خلال إحدى المشاجرات؛ وهو الآن يأتي كثيراً متوسلاً إلى أمها حتى تتحدث معها وتقنعها بالعودة. رأيته يضع رأسه الأحمر على الطاولة ويبكي بينما يلعب أولاده وبناته الصغار على مقاعد سيارة الأجرة التي يقودها. كان يجني قدراً طيباً من المال، لكنه لم يكن يعطي فيلما كفايتها ظناً منه أنها ستعود إليه إن أبقاها في ذلك العوز. لكنها كانت تستدين من أسرتها. لم أرَ أبداً

أشخاصاً مثلهم فيما يتعلق بالإقراض والاقتراض... ينتقل المال بين أيديهم في كل اتجاه، وما كان أحد منهم يحمل ضغينة تجاه الآخر.

لكن آل كلين كانوا يبدون في حاجة إلى أشياء كثيرة، وكانوا يشترون هذه الحاجات كلها تقسيطاً. يرسلون المال مع جيمي - وأنا معه - بعد وضعه داخل اللسانين اللذين يغطيان الأذنين في قبعته حتى يسدد الدفعات. كانوا يدفعون من أجل الفونوغراف، وآلة الخياطة، والملابس الصوفية، وصحون السجائر المليئة بكريات صغيرة لا تنسكب منها إذا قلبتها، وكانوا يدفعون من أجل عربات الأطفال والدراجات وأرضيات البيت ومصاريف الولادات وإصلاح الأسنان، وكذلك من أجل جنازة والد السيد كلين، ومن أجل مشدّات للظهر وأحذية خاصة للسيدة كلين، ومن أجل صورهم العائلية المأخوذة بمناسبة الذكرى السنوية لزواج ما. جبنا المدينة طولاً وعرضاً خلال هذه المهمات. لم تكن السيدة كلين تمانع في ذهابنا إلى بعض العروض، وهو ما كنا نفعله كثيراً، لنستمع إلى صوفي توكر التي تضرب نفسها على قفاها وتغني «ماما الحارّة»، أو لنرى روز لا روز تختال وتتعرّى بإيقاع متكاسل جعل السيد كوبلين واحداً من معجبيها. كان يقول: «تلك الفتاة ليست مجرد فتاة جميلة. هنالك فتيات جميلات كثيرات، لكنها تحسُّ قلوب الرجال. إنها لا تُنزِل فستانها مثلما تفعل غيرها بل تخلعه وهي تشدّه من فوق رأسها. هذا ما يجعلها الأولى في مهنتها اليوم».

كنا نمضي في شارع لوب وقتاً أكثر مما ينبغي لنا. وكنا نصادف كوبلين دائماً واقفاً في الصف لشراء تذكرة الدخول خلال ساعات المدرسة. لم يشِ بي أبداً. كان يقول فقط، كأنه يمزح: «ما الأمر اليوم يا أوجي؟ هل أصدر عمدة المدينة أمراً بإغلاق المدرسة؟» كان مبتهجاً كعادته، مبتسماً سعيداً تحت الأضواء البيضاء والحمراء في ذلك الرواق كأنه ملك قديم آت من ضباب سكوتلندا بوجه نصفه من الزمرد ونصفه الآخر من جواهر حمراء.

«ماذا يقدمون؟»

«باردليز الرائعة وديف أبولون مع راقصاته الكوماريات. تعال ورافقني».

كان لدينا في ذلك الوقت سبب يجعلنا نهرب من المدرسة. كان السبب ستيف، الذي نسمّيه «البحار بولبا»، وهو شريكي في الخزانة المدرسية... ولدٌ له أنف كبير أحمر وشعر طويل مقصوص بعناية وسالفين غريبَيْ الشكل يوحيان بأنه شخص خطير، ويرتدي معطفاً كثير الأزرار وبنطلوناً طويلاً من بنطلونات البحّارة يحتك بالأرض وحذاءً مدبّباً: لص بيوت يسرق حنفيات المياه ويفتح علب النقود الهاتفية في الشقق المخلاة حديثاً. استولى بولبا هذا على دفتري، دفتر مادة العلوم، ووضع اسمه عليه. وبما أنني لم أكن قادراً على فعل أي شيء معه، فقد أعارني جيمي دفتره. محَوْت اسمه عن الدفتر بشكل مهمَل وكتبت اسمي فوقه. لكننا انكشفنا، وكان لا بد من استدعاء أخي سايمون. كان سايمون لا يريد أن تأتي أمي

إلى المدرسة بقدر ما لا أريد أنا. وقد تمكن آخر الأمر من التفاهم مع ويدلر، مدرّس العلوم. لكن بولبا ظل طيلة ذلك الوقت، بعينيه الصغيرتين ومظهره اللطيف وجبهته المسالمة التي بدت مغضنة بعض الشيء في ضوء الشتاء الناعم داخل غرفة الصف، كان يحاول أن يجعل السكّين التي يحملها في جيبه تقف على نصلها كأنها حشرة كبيرة متأهبة للهجوم.

لم يكن صعباً على جيمي بعد ذلك أن يغريني بالذهاب إلى مركز المدينة معه، خلال ساعات مادة العلوم بعد الظهر خاصة، لنركب الدراجة إن لم يكن لدينا شيئاً أفضل نفعله، أو لندخل إلى مصعد قاعة المدينة مع شقيقه توم أو نذهب إلى ردهات المحكمة البلدية. كنا نصعد ونهبط هناك ونرى شخصيات كبيرة وموظفين ومفتشين ولصوصاً ووشاة وقتلة وذئاباً ومحتالين ومشتكين ورجال شرطة، وكذلك رجالاً في قبعات غريبة ونساء في أحذية جلدية ومعاطف من الفرو... كانت المواخير والرياح القطبية ممتزجة هناك، أشياء فظة وملامح جنسية، علائم على الإفراط في التغذية وعلى الحلاقة المنتظمة، علائم على الحسابات الكثيرة، والحزن، واللامبالاة، وآمال تعدّ بملايين كثيرة في قطاع البناء، أو أنهار من الويسكي المهرَّب والبيرة.

أرسلنا تومي إلى محل المضاربة الصغير الذي يتعامل معه في شارع ليك. وكان ذلك المحل موجوداً في القسم الخلفي من محل لبيع السجائر (صار يبيع كتب الجيب فيما بعد). كان تومي في وضع جيد لتحقيق نتائج طيبة في المضاربة على الأسهم، لكنه لم يكن أبداً يربح أكثر مما يدفعه، حتى في أيام جَني المال تلك. هذا إذا لم نحسب الأرباح التي ينفقها على ملابسه وعلى الهدايا التي يقدمها إلى أسرته. كان آل كلين كلهم يحبون تقديم الهدايا. فساتين وأغطية، مرايا على الطراز الفينيسي، وسجادات عليها صور قصور في ضوء القمر، وعربات تقديم الشاي، وطاولات صغيرة، ومصابيح لها قواعد من المرمر، وآلات لصنع القهوة وتحميص الخبز، وروايات... صناديق كاملة مرصوصة في الخزانات وتحت الأسرَّة تنتظر ريثما يأتي وقت استعمالها. لكنهم كانوا، رغم ذلك كله، يبدون فقراء الحال إلا أيام الأحد عندما يتأنقون. كان السيد كلين يرتدي صداره فوق قميصه الداخلي ذي الأكمام الطويلة، ويلفّ سجائره بنفسه مستخدماً آلة صغيرة.

كان للابنة الوحيدة غير المتزوجة، إليانور، شكل غجريّ؛ وكانت تزين نفسها بأزهار نارية وأصبغة يابانية. كانت سمينة شاحبة لها حاجبان شركسيان ذكيان، وكانت شديدة العطف مستسلمة لسوء حظها مقتنعة تماماً بأنها لن تتزوج لأنها سمينة كثيراً... ولم تكن تبدي انزعاجاً من حسن حظ أخواتها المتزوجات وإخوتها المتنقلين من امرأة إلى أخرى. كان سلوكها لطيفاً يكاد يكون أخوياً، ذكورياً. كانت لطيفة معي بشكل خاص، وكانت تدعوني «حبيبي» و«أخي الأصغر» و«محطِّم قلبي» وتقرأ حظي في ورق اللعب، كما حاكت لي قبعة تزلّج ثلاثية الرؤوس ملونة بالأصفر والأخضر حتى أبدو مثل واحد

من أبطال التزلج النرويجيين. كانت تعمل في قسم التغليف في مصنع للصابون في شارع نورث برانش عندما تكون في حالة صحيّة جيدة (كانت مصابة بالروماتيزم ولديها اضطرابات نسائية)؛ وأما عندما تكون في البيت فإنها تجلس في المطبخ مع أمها لافّة نفسها بثوب مزهر واسع وشعرها الثقيل منسدل على ظهرها متدفق من ربطة فوق رأسها. كانت تشرب القهوة وتحوك وتقرأ وتزيل شعر ساقيها وتستمع إلى الموسيقى على الغرامافون وتطلي أظافرها... تفعل هذه الأشياء الضرورية أو نصف الضرورية، أو التي لا ضرورة لها، فتدخل أكثر فأكثر ضمن حالة المرأة التي ستظل جالسة في مكانها زمناً طويلاً.

كان آل كلين معجَبين بالجدة لوش، وكانوا يحترمونها لما تقوم به من أجلنا. لكن الجدة سمعت (من أحد مخبريها) أن جورجي شوهد يلعب مع صيصانهم بين البيوت فصارت تطلق عليهم بعض الألقاب البشعة ـ لم تكن تلك الصيصان لتكبر أبداً نتيجة قلة الضوء وسوء التغذية. كانت تذوي وتموت عليلة ضامرة.

لم تأتِ الجدة لوش حتى تعبّر لهم عن رأيها فيهم لأنها لم تر فائدة من المشاجرة معهم: كانوا قادرين أحياناً على تأمين بعض الأعمال الصغيرة من أجلي، وذلك من خلال نفوذ تامبو، عم جيمي، الذي يتحكم بأصوات أقاربه في الدائرة الانتخابية ويقوم بدور مهم في النشاط الانتخابي للحزب الجمهوري. أمضينا شهراً ممتازاً قبل الانتخابات: كنا نوزع المنشورات الانتخابية. وكثيراً ما كان تامبو يحصل على عمل لنا عندما تأتي فرص من هذا النوع في طريقه من قبيل فقدان بعض الأشياء في مكتب البريد أو توفّر بضائع للبيع لدى أشخاص أصابهم الإفلاس. كان لا بد من شيء له أهميته حتى يستطيع المرء انتزاع تامبو من لعب الورق لكنه، عندما تسنح فرصة شراء شفرات حلاقة أو ملابس جلدية أو بعض الدمى أو آلات موسيقية للأطفال أو أدوات قطع الزجاج أو صابون الفنادق أو مواد الإسعافات الأولية، وتكون هذه المواد معفاة من الترخيص، فإنه يقيم كشكاً للبيع على جادة ميلواكي ثم يدفع لنا أجراً للعمل فيه. فأبناؤه يرفضون العمل معه.

كان رجلاً مطلَّقاً يعيش في غرفة واحدة، وهو صاحب أنف ضخم ووجه مرتخي الجلد وعينين منتفختين تشبهان عيون الطيور المائية... عينين كريهتين بلون رمادي مخضرّ. كان صبوراً، وكانت تبدو عليه علائم المواظبة والعظمة عندما يجلس على كرسيه كأنه راعي بقر جالس فوق سرج حصانه. وكان يصفر قليلاً عندما يتنفس نتيجة وزنه الزائد ولأنه يعض على سيجاره بأسنانه. كان الشعر ينمو غزيراً في أنفه وحول الخواتم الكثيرة في أصابع يديه. أوقات السنة كلها كانت متشابهة عنده وسواء في أيّار أو تشرين، كان يتناول فطوره عند الحادية عشر صباحاً فيشرب الشاي بالحليب مع السكر ويأكل لفافات الحلوى؛ ثم يأكل شرائح البطاطا المشوية عند الغداء ويدخن عشرة أو أحد عشر سيجاراً، ويرتدي البنطلون نفسه... بنطلون مقلّم مثل بنطلونات حكام المناطق القدامى، وقبعة لها

حافة قاتمة تضفي لمحة من السلطة الاجتماعية على وجهه وهو يفكر في أوراق اللعب التي يجب أن يحتفظ بها، أو في الورقة التي يجب أن يرميها، أو يفكر إن كان قادراً على إعطاء ابنه كليمنتي الدولارين اللذين يأتي كثيراً ليطلبهما منه. كان كليمنتي ابنه الأصغر يعيش مع أمه وزوج أمه في غرفة صغيرة واقعة خلف متجر لبيع ملابس الأطفال يديرانه معاً. كان تامبو يقول: «ابني، بكل سرور»، أو «غداً، بكل سرور». ما كان تامبو يستطيع أن يقول كلمة لا لأبنائه الذين تزوّجت أمهم. كان يجلس في ذلك المطعم الذي صار مقرّاً له محاطاً بروائح الشحم والشاي والبصل، وكان رماد سيجاره يتساقط في حجره بينما يحمل أوراق اللعب بيد واحدة. وإضافة إلى خطاياه الأخرى، ما كان الرجل يحفل بالنقود أبداً بل يتصرف مثل دوق عظيم... مثلما يفعل آل كلين. وكان ابنه كليمنتي ماهراً في إنفاق النقود أيضاً، كان مستعداً دائماً لدعوة الآخرين على حسابه. لكنه ما كان يريد العمل، لا عند والده ولا عند أحد غيره. وهكذا كان تامبو يضعنا في زحمة جادة ميلواكي (عادة ما يكون سيلفستر على رأسنا) بعد أن يرتب الأمر مع الشرطة حتى لا يزعجنا أحد، ثم يمضي عائداً إلى لعب الورق. كان ذلك زماناً سيئاً بالنسبة لسيلفستر. لقد خسر عقد إيجار السينما التي كانت في حالة تراجع أصلاً ـ صارت الآن محلاً لبيع ورق الجدران والدهانات. وكان يعيش مع والده لأن زوجته تركته. روى لنا بنفسه أنها رمته بالحجارة عندما حاول أن يدخل من الباحة الخلفية لرؤيتها. اعتبرها مجنونة، وأرسل لها موافقته على فسخ الزواج. باع ما لديه من أثاث، وباع تجهيزات السينما، حتى يجمع المال من أجل تسديد أقساط دراسته في كلية آرمور للتكنولوجيا حيث كان يحاول الحصول على شهادة الهندسة؛ لكنه يقول الآن إنه غاب عن الكلية زمناً طويلاً لم يعد بعده صالحاً للجلوس على مقاعد الدراسة. كان يقف معنا في جادة ميلواكي دامع العينين في ريح تشرين الأول واضعاً يديه الضخمتين في جيبي معطفه، دافناً رأسه بين كتفيه وهو يضرب قدماً بالأخرى. ويقص علينا نكاتاً كثيبة. يقول كل ما يخطر في ذهنه من غير أن يلقي بالاً للاختلاف بين أعمارنا وعمره. سوف ينطلق ليرى العالم كله عندما يحصل على تلك الشهادة. إن الحكومات الأجنبية في حاجة شديدة إلى المهندسين الأميركيين، وسوف يحصل على عمل بسهولة. سوف يذهب إلى كيمبرلي حيث علم أن السكان الأصليين يخبئون الماس في أمعائهم؛ أو سيذهب إلى روسيا السوفييتية... روى لنا القصة كلها الآن، قصة أنه متعاطف مع الحمر وأنه معجب بلينين، وبتروتسكي خاصة، تروتسكي الذي ربح الحرب الأهلية وكان يسافر في دبابة وهو يقرأ روايات فرنسية بينما يجري طرد القيصر والقساوسة والبارونات والجنرالات والإقطاعيين من قصورهم.

كنا نجلس أثناء ذلك، جيمي وأنا، فوق حقيبتَيْ تامبو الكبيرتين ونصيح: «تعالوا واشتروا شفرات الحلاقة!»... كنا نهتم بالعمل، وكان سيلفستر يجمع النقود.

الفصل الرابع

كانت كل هذه المؤثرات جاهزة في انتظاري. ولدتُ، فكان لها أن تصوغني. وهذا ما يجعلني أتحدث عنها أكثر مما أتحدث عن نفسي. كان إحساسي بالعواقب في غاية الضعف في ذلك الوقت، وبعد ذلك الوقت أيضاً. ولم تنجح جدتي العجوز أبداً في شقّ طريقها إلى مخيِّلتي بتحذيراتها لي ونبوءاتها عما كان ينتظرني ـ ترخيص العمل المبكر، وباحات التحميل، والعمل بالمجرفة، وسجن الأشغال الشاقة، والعيش على الماء والخبز، وقضاء العمر كله في جهل ومهانة. لقد استنجدَتْ بهذا كله، وحاولت أكثر فأكثر، خاصة منذ أن بدأتُ الخروج مع جيمي كلين. حاولَتْ تشديد النظام في البيت، وكانت تفتش أظافري وياقة قميصي قبل المدرسة، وتحاول ضبط سلوكي أثناء الطعام بمزيد من الشدة، وتهدد بأن تحبسني خارج البيت لبالي كاملة إذا بقيت في الشوارع إلى ما بعد الساعة العاشرة. «تستطيع الذهاب إلى آل كلين، إن كانوا يقبلون بك. استمع إليَّ يا أوجي، إنني أحاول أن أصنع منك شيئاً. لكنني لا أستطيع إرسال أمك لتلحق بك وترى ما تفعله. أريدك أن تكون رجلاً حقيقياً. إن الوقت الباقي لديك حتى تتغير أقل مما تظن. سوف يوقعك ابن كلين في المشاكل. إن له عينا لص. قل لي الحقيقة الآن ـ أهو لص أم لا؟ أترون؟ إنه لا يجيب. إن كلامي صحيح». قالت هذا ثم أمرتني بصوت حاد: «قل!»

أجبتها بكلمة «لا» فارغة، ورحت أتساءل عما تعرفه وعمن أخبرها. ذلك لأن جيمي كان يأخذ ما يريد من المتاجر ومن الأكشاك، مثلما كان يفعل ستاشو كوبكس. وكنا، في ذلك الوقت نفسه، منغمسين في عملية سرقة في متجر ديفر في حيّنا حيث كنا نعمل لديهم خلال فترة عيد الميلاد: كنا نساعد سانتا كلوز في ملابس جنيين صغيرين، وبوجهَيْن مصبوغَيْن.

كنا في المرحلة الثانوية، وقد كبرنا على هذا الدور، لكن سانتا كلوز نفسه كان هائل الحجم... كان وقّاداً سويدياً يعيش في الزقاق المجاور لذلك المتجر، وكان حرفياً ماهراً أيضاً. وعمل في ما مضى كرجل إطفاء على إحدى السفن في دولوف. كان مفتول العضلات، وكان محجرا عينيه عميقين كالهولنديين مع حدبات لامعة على جبهته؛ وأما شفته المختبئة خلف لحية سانتا كلوز فكانت تخزن سعوطاً من ماركة كوبنهاغن سيل. وفوق قميصه الداخلي المليء بالثقوب، ثبّت الرجل على جسمه بعض الوسائد حتى يصير على مقاس الثوب، وحشا بنطلونه أيضاً لأن ساقيه كانتا طويلتين ونحيلتين أكثر مما يجب. كنا نساعده في ارتداء معطفه. وكنت أسير مع جيمي، بوجهَيْن مصبوغَيْن بذلك الطلاء الشحمي الذي يستخدمونه في المسرح وعلينا نُثار من الثلج الاصطناعي... نسير في أنحاء المتجر يحمل كل منا طنبوراً وزمارة تصدر صوتاً مرتفعاً، ثم نتشقلب في ثياب المهرجين تلك. نجمع حفنة من الأطفال ونقودهم إلى الطابق الثالث حيث كان سانتا كلوز جالساً في زلاجته، التي يجرها غزال الرنّة المعلق إلى السقف بطريقة ذكية. كانت الهدايا تتساقط صوبهم بينما تمضي سلال النقود الصغيرة متحركة سريعاً على كابل ميكانيكي لتذهب إلى عاملة الصندوق. كنا هنا مسؤولين عن بيع براميل المفاجآت المغلّفة بورق أخضر وبني المزينة بخيوط فضية وغبار ماسي. ثمن الواحد منها نصف دولار. وقد توصل جيمي إلى أنهم لا يستطيعون جرد هذه المواد فبدأ يضع في جيبه نصف دولار من كل عشرة أنصاف يستلمها. ظل يفعل لك عدة أيام من غير أن يخبرني بالأمر، ويدفع ثمن غدائي فقط. ثم باح لي بالسر عندما صار حجم العمل أكبر. كان علينا أن نأخذ المال إلى عاملة الصندوق كلما صار لدينا عشرة دولارات. قال جيمي: «إنها تضع النقود في السلة مباشرة مع غيرها. وهي لا تسجل مصدر هذه النقود لأنها مشغولة لا تملك وقتاً لذلك. فلماذا لا نأخذ شيئاً منها؟» جرت بيننا مناقشات كثيرة في هذا الأمر، ثم رفعنا النسبة فضاعفناها. كانت ضجّة نشطة تشمل المكان كله، وكانت الأذهان كلها مشتتة منشغلة بزحام عيد الميلاد وضجيجه وأغانيه وأجراسه، وما كان ما نفعله سراً بأيدينا أمراً ملحوظاً. سرقنا مقداراً غير قليل من المال. وقد سبقني جيمي لا لأنه بدأ قبلي فقط، بل لأنني تغيبت عن العمل عدة أيام بسبب فطائر الكريما الغنية وغيرها من الأطايب التي كنا نتنعّم بها. أو لعل ذلك كان نتيجة توتر أعصابي بعد ذلك النجاح اللامع الذي حققناه في ما كنا نرتكبه ونتيجة مشكلة كيفية إنفاق هذا المال. أنفق جيمي الكثير على الهدايا ـ اشترى أحذية منزلية وجوارب مزيّنة للجميع، واشترى سترات وربطات عنق ومفارش وأشياء مصنوعة من الألمنيوم. أما منّي، فقد تلقت ماما ثوباً للحمام، وتلقت جدتي العجوز دبوساً مرصعاً بحجر كريم. وحصل جورجي على جوارب منقوشة، وسايمون على قميص جديد. قدمت هدية إلى السيدة كلين وإلى إيليانور أيضاً، وكذلك إلى بعض البنات في المدرسة.

خلال الأيام التي لا أعمل فيها، كنت أحب البقاء في بيت كلين حيث النوافذ على مستوى الرصيف وحيث أحظى بنكهة الجلوس على أثاث الشرفة الأمامية بينما يتشكل في الخارج شيء ناتج عن سوء أفعالنا... كأنني واحد من أولئك المشاهير الأشرار الذين أجريت عمليات جراحية على وجوههم ووضع الأسيد على أطراف أصابعهم، أولئك الذين يلعبون الألعاب ويتابعون نتائج المباريات الرياضية ويرسلون في طلب الهامبرغر والمشروبات. أولئك الذين يجري اصطيادهم أخيراً في الملاهي أو على سطوح البيوت. كنا نتسلى أحياناً بشجرة عائلة جيمي لأنهم كانوا يعتقدون أنهم منحدرون من أسرة إسبانية حملت لقب آفيلا في القرن الثالث عشر. كان لديهم ابن عم في مكسيكو سيتي يصنع السترات الجلدية، وكان هو صاحب هذه النظرية. أما أنا فكنت مستعداً تماماً لتصديق تلك القصة عن أصولهم الرائعة. اشتغلت مع جيمي على ورقة من أوراق الرسم الميكانيكي فأنشأنا شجرة العائلة باللونين الأحمر والأزرق. كنت غير مرتاح!

في نهاية عطلة عيد الميلاد اكتشف متجر ديفرز أمرنا. جاء مدير المتجر وتحدث مع جدتي. لقد أجروا جرداً لكل سلعة من السلع لديهم. لم نحاول إنكار السرقة، كما أنني لم أجادل في الرقم الذي أعطاه ذلك المدير: سبعون دولاراً! لكن المبلغ الذي أخذناه كان أقل من ذلك في الحقيقة. رفضت العجوز أن تتحدث معي أول الأمر. وببرود جليدي قالت لسايمون إن من الأفضل أن يستدعي موظف الشؤون الاجتماعية لوبين لأنها لا تستطيع إعطاء المدير ذلك المال ولأنها تعهدت بالمساعدة في تربية الأطفال وليس بالتعامل مع المجرمين. لكن سايمون أقنعها عندما قال إن الجمعية الخيرية ستكون في هذه الحالة راغبة في معرفة الزمن الذي مضى منذ أن بدأنا العمل وفي معرفة السبب الذي جعلنا نمتنع عن إخبارهم ذلك. وبطبيعة الحال، ما كان لدى العجوز أي نية في السماح لهم بإرسالي إلى الإصلاحية مثلما كانت تهدّدني. لكن التهديد وقع، وصرت مستعداً للذهاب إلى محكمة الأحداث ولإرسالي إلى الإصلاحية مع شخص صيني أعرفه لكي أخضع للعقاب الذي أعرف أنه ينتظرني. كان هذا، يظهر، إلى حد ما، أنني أشعر بأن الناس على حق لأنهم غاضبون. أما من ناحية أخرى، فما كان لدي إحساس حقيقي بأنني مجرم، أي الإحساس بأنني واقف على الجانب الخاطئ من ذلك الخط الكبير الفاصل... وبأنني واقف مع القسم الأسوأ أو الأكثر ضعفاً من بني البشر ممن يحملون آثار إصابة على وجوههم، أو ممن لديهم أصابع مبتورة، أو آذان وأنوف مجروحة.

لم يقف الأمر هذه المرة عند التهديد والتوبيخ بل وصل إلى الازدراء المطلق. وبعد توبيخها الأول الصاخب، بدأت جدتي تعاملني معاملة باردة. كان سايمون بعيداً عني أيضاً. ولم أستطع القول له إنه هو من أعطاني تلك الفكرة عن ضرورة التغيير؛ كان ذلك سيجعله يقول إنني أحمق وإنني لا أعرف عن أي شيء أتكلم. ولابد أن ماما شعرت في ساعة من

ساعات نحسها بأن نتيجة استسلامها المشؤوم لأبي بدأت تعطي ثمارها الحقيقية الآن. بل إنها قالت لي بضع كلمات حادة أيضاً. عانيت كثيراً. لكنهم لم يستطيعوا جعلي أرجو وأتوسل رغم أن فكرة الذهاب إلى السجن هزّتني... الشعر الحليق، والطعام الرديء، والوقوف في الوحل، والتخويف، والأوامر. إذا قرروا أن هذا هو مصيري فإنني لا أرى سبيلاً إلى مجادلتهم.

لكن خطر ذهابي إلى الإصلاحية ما كان خطراً حقيقياً أبداً. أعيدت الهدايا كلها. واستُخدم قدر من المال المدخر من أجوري عند عملي في متجر كوبلين لتسديد المبلغ الباقي. وهكذا فعلت أسرة جيمي لتخليصه أيضاً. تلقى ضرباً شديداً من أبيه، وبكت أمه، لكن الأمر كله انتهى قبل زمن طويل من تناقص معاناتي في بيتنا درجة واحدة. كنا أكثر تزمّتاً منهم. لم يكن آل كلين غاضبين مني... كان ما حدث في نظرهم سبباً لغضب عظيم، لكنه لم يكن دليلاً على وجود تشوّه في روحي. وبعد أيام قليلة صرت موضع ترحاب عندهم مثلما كنت من قبل؛ وعادت إيليانور تناديني بكلمة «حبيبي»، وحاكت لي أيضاً شالاً بدلاً من الشال الذي كان عليَّ أن أعيده.

وعندما خرج جيمي من حالة الرعب التي تعامل معها بسخرية ورباطة جأش طيلة تلك الفترة، وتلقى ضربات أبيه الشديدة من غير بكاء أو زعيق، أصابه الغضب لأن متجر ديفر حقق أرباحاً على حسابنا. لقد ربحوا على حسابنا! كانت لديه بعض الأفكار عن الانتقام، أفكار وصلت إلى الحديث عن إضرام النار في المتجر. لكنني نلت كفايتي من المتاعب مع ذلك المتجر، وكان هو قد نال كفايته أيضاً. ومع ذلك، كان الحديث عن الانتقام يزيل شيئاً من تلك الوصمة.

سخر منا كليم تامبو (ابن عم جيمي) وضحك كثيراً عندما عرف بأننا ناقشنا حرق المتجر، وغير ذلك من الأفكار الإجرامية. قال لنا إننا، إذا كنا نريد تعويض النقود التي فقدناها، نستطيع المشاركة في مسابقة تشارلستون في مسرح ويبر ونحاول أن نكسب بعض المال الشريف. لم يكن يمزح! لقد أراد أن يصير ممثلاً، وجرّب بالفعل تقديم مواهبه في أحد عروض الهواة فقلّد شخصاً بريطانياً يحاول سرد قصة طويلة عن حادثة وقعت في ممر خيبر. صاح السويديون والبولنديون الحاضرون مستهجنين أداءه، فطردته الإدارة. وأما شقيقه دونالد فقد كسب خمسة دولارات عندما قدم أغنية «ماركيتا» وأدى بعض الرقص الإيقاعي. كان دونالد هو الوسيم بينهما... كان داكن اللون مموج الشعر، ابن أمه. كانت هي أيضاً حسنة المظهر، محترمة؛ وكانت ترتدي فساتين سوداء وتضع نظارة أنفية عندما تكون في متجرها. وكان موضوع الحديث الأثير لديها شقيقها الصناعي الذي مات بالتيفوئيد في وارسو خلال الحرب. أما كليم، فكان له مظهر أبيه: محمراً بعض الشيء كبير الرأس، بارز

الأنف، ضيق الجبهة، كبير الشفتين. كان يشبه أباه في كل شيء عدا الوزن. وكانت ساقاه طويلتين قلقتين. وكان من الممكن أن يفوز بسباق المدينة للجري نصف ميل لولا أنه أتلف رئتيه بتدخين السيجار ولولا ممارسته لما كانت المجلات الصحية تدعوه باسم «الإساءة إلى النفس» و«استنزاف الرجولة» ـ كان يباهي بذلك، ويتحدث ساخراً عن شروره وعن مختلف الأشياء التي تجعل العالم العاقل يئن مستاءً. كان ينطلق مختالاً في مضمار السباق بفخذيه النحيلين وربلتي ساقيه الضامرتين اللتين يكسوهما شعر أسود مستقيم حاد، وينظر إلى منافسيه نظرة استعلاء... رجال عريضو الأكتاف يتدافعون ويقفزون. لكنه كان شخصاً مريباً بعض الشيء، وغالباً ما كانت عيناه توحيان بالكآبة عندما تطلان من ذلك الرأس الذي لا يحب المزاح. يستطيع أن يكون كئيباً إلى حد مقرف. يقول لي إن ما من شيء لا أستطيع فعله أحسن منه إذا أردت ذلك. يقول: «أوه، نعم، تستطيع استمالة الفتيات اللواتي لا يقبلن حتى بالنظر إليك». كان هذا ما يظنني قادراً عليه بشكل خاص... «بأسنان كأسنانك هذه... إنها رائعة! تركتني أمي أخرّب أسناني، وإذا تحسنت أموري يوماً ما فسوف أضع أسناناً جديدة مكانها». كنت أضحك لكل ما يقوله تقريباً. وكثيراً ما كان يعلق على ذلك بقوله إنني محدود الذكاء: «مسكين مارش! إنه يضحك لكل شيء».

وعلى وجه العموم، كنا في غاية الانسجام. كان متسامحاً إزاء سذاجتي؛ وقد حصلت على بعض المساندة منه ومن جيمي عندما وقعت في الحب وأصابتني الأعراض المألوفة... قلة الشهية، والاستغراق التام، والحنين، والحرص الشديد على حسن المظهر، وعدم النجاح في فعل أي شيء، وامتلاء الرأس بأفكار مأخوذة من الأفلام وعبارات من الأغنيات الرائجة. كان اسم الفتاة هيلدا نوفينسون؛ نحيلة طويلة صغيرة الوجه إلى جانب شحوبها والعلامات الأخرى التي تشير إلى ضعف في الصدر. كانت خفيضة الصوت سريعة الكلام كثيرة الخجل. لم أقل لها أي كلمة، لكنني كنت آتِ متظاهراً تظاهراً بائساً بأنني أمرّ من هناك فحسب وأنني اصطدمت بشيء في الشارع فآلمني. كان لها مظهر امرأة أكبر سناً بذلك الوجه الروسي المثلث والعينين الباهتتين المسدلتين دائماً بحيث لا تسمحان لك بالنظر فيهما مباشرة. كانت ترتدي سترة خضراء، وتدخن وتمشي حاملة كتبها المدرسية مضغوطة على صدرها وفي قدميها حذاء مفتوح يطقطق إبزيمه مع خطواتها. كان شكل ذلك الحذاء المفتوح ذي العقبين المرتفعين، وتلك الطقطقة الصادرة عنه، يفعل في روحي المتيّمة حباً فعل السهام، ويخلق عندي رغبة غبية في الوقوع أمامها. وفي وقت لاحق، ظللت أكثر عاطفية حتى بعد أن صحوت وزالت عني تلك البهجة. أما في ذلك الوقت فكنت في حالة من الهيام، توّاقاً إلى تلك المشاعر. وكنت أيضاً ماهراً في ألاعيب الحب كلها... لعل ذلك كان أمراً موروثاً.

لم يدُرْ في خَلَدي أبداً أن هيلدا يمكن أن تشعر بالإطراء نتيجة ملاحقتي لها. وقد

دهشت حقاً عندما قال لي كليم وجيمي إن الأمر كان كذلك. كنت ألاحقها في الممرات وأقوم بمناورات كثيرة لأقف خلفها عندما نلعب كرة السلة. كما انضممت إلى نادي بونهير حتى أكون معها في الغرفة نفسها ساعة واحدة في الأسبوع بعد المدرسة. وكنت أعاني الكثير عندما أقف على الدفاعات الحديد الخلفية في حافلة النقل عندما تكون هي فيها عائدة إلى بيتها. كانت تنزل من الباب الأمامي، وأقفز من مؤخرة الحافلة في الثلج المتسخ الرمادي المكوَّم عالياً عند حافة شارع ويست سايد. كان والدها خياطاً. والأسرة تعيش خلف محله. كانت هيلدا تمضي خلف تلك الستارة ـ ماذا كانت تفعل؟ تخلع قفازيها؟ تخلع ذلك الحذاء؟ تشرب فنجاناً من الكاكاو؟ تدخّن؟ لم أكن مدخناً! لعلها تقلب صفحات كتبها! أو تشتكي من الصداع! أو لعلها تقول لأمها إنني أسير خلفها في الشوارع ذات الأضواء الخافتة في أمسيات الشتاء بخطوات ثقيلة ومعطف من جلد الخروف. لم أظن أنها كانت تقول ذلك. ولم يظهر على أبيها الخياط ما يشير إلى أنه عارف بوجودي أصلاً... ذلك الرجل النحيل، غير الحليق، منحني الظهر... كنت أستطيع التحديق فيه قدر ما أريد بينما هو منكبٌ على دبابيسه وإسفنجته ومكواته... كان يبدو مرهقاً ذاهلاً عن كل شيء. لكن هيلدا لم تكن لتخرج من البيت أبداً بعد دخولها. كانت تغوص فيه، حتى يبدو لي أنها لا تهتم بشيء خارج ذلك الباب.

يقول كليم تامبو متهكماً رافعاً أنفه: «مع كل تلك الفتيات اللواتي يمكنك الإيقاع بهن...! دعني آخذك إلى إحدى العاهرات، وسوف تنسى كل شيء عنهن». لم أكن أجيبه بشيء، بالطبع. كان يضيف: «إذن، سوف أكتب لها رسالة من أجلك. وسأطلب منها موعداً. وبمجرد أن تخرج معها في نزهة واحدة وتقبلها فسوف يذهب هذا كله عنك. سوف ترى أن عقلها ليس أكبر من حبة الفاصولياء، وأنها ليست جميلة. وأن لها أسناناً بشعة». كنت أرفض كلامه هذا أيضاً فيقول: «لا بأس، سأتحدث معها إذن. سأقول لها أن تمسك بك طالما أنك أعمى. لن تحصل أبداً على شخص في وسامتك، ولابد أنها تعرف هذا. ما الذي يشدّك إليها؟ لأنها تدخن، أليس كذلك؟» وأخيراً قال جيمي: «لا تزعجه! إنه يحب أن يحمل الصليب». وبعد ذلك أمسك كل منهما بعضوه الجنسي بحركة فاحشة، ثم رميا نفسيهما على المقاعد في غرفة المعيشة في بيت أسرة كليم، تلك الغرفة التي كانت نادياً لنا. لكني لم أتوقف عن هذا التجوّل التعبّدي حزين القلب، ولم أكف عن الوقوف أمام محل الخياطة مثل عمود خشبي مدهون في ساعات بعد الظهر. كان والدها الهزيل يكدح بإبرته منحنياً؛ ولعله ما كان يفكر أبداً في المظهر الذي يبدو عليه عبر واجهة المحل الزجاجية المضاءة. وكانت أختها الصغرى، الهزيلة مثل دجاجة جائعة، تقص الورق بمقص كبير وهي واقفة في بنطلون رياضي أسود.

انقضت أسابيع كثيرة قبل أن تنتهي المرحلة الشديدة من هذا الأمر؛ وخلال ذلك كنت

لا أزال مُعاقَباً في البيت. لم يتحسن الوضع خلال فترة الحب هذه لأن المال الذي أحضرته إلى البيت كان قليلاً جداً. صارت ساعات قدوم سايمون وذهابه غريبة في هذه الآونة؛ وما كان ممكناً سؤاله عن ذلك لأنه كان يعمل. لم نعد نأتي إلى البيت وقت الغداء؛ وبالتالي صار على ماما أن تقوم بالمهام التي كنا نقوم بها وقت الظهيرة... تحضير الفحم للتدفئة، وإخراجويني لتتنفس، وإحضار جورج من المدرسة، إضافة إلى أنها كانت مضطرة إلى عصر الشراشف بنفسها أيام الغسيل. صارت أكثر نحولاً وإنهاكاً نتيجة زيادة مهامها. وكانت هنالك نفحة من الفوضى والاضطراب في البيت كله، ونفحة من تدهور سلطات الجدة مع تقدّمها في العمر؛ لكنها كانت تخطط للضربة التي ستجعل القصر يرن كله وتثبّت الحاشية الملكية بالأوتاد على الجدران في وقت لا تتوقع فيه ذلك.

قالت لي جدتي: «لا بأس يا أوجي! ماذا؟ هل انتهيت من العمل؟ أتريد أن تعيش على مساعدات الجمعيات الخيرية طوال عمرك؟»

كان لديَّ نوع من العمل في ذلك الوقت، عند بائع أزهار. لكني كنت قادراً على القول إن بلوغرين لم يطلب مني توصيل أي أزهار عندما أذهب إلى اللقاءات في نادي بونهير أو عندما أسير خلف هيلدان نوفينسون الماضية عبر الثلج الذائب في حذائها الخارجي الذي يأسر القلوب.

كان بلوغرين يدفع لي على هواه كل يوم، وكان ذلك يحدث عادة لقاء مساعدته في تجهيز وربط القلوب القشية التي يضعها في أكاليل الزهور (كان لديه زبائن من كبار أفراد العصابات) وليس من أجل توصيل تلك الزهور، وذلك عندما يظن أنني سأتلقى شيئاً من البقشيش الذي تبين، شيئاً فشيئاً، أنه مقبول. لم أكن أحب الذهاب في عربات المواصلات العامة حاملاً تلك الأكاليل الكبيرة التي يضعونها على الأبواب أوقات الجنازات لأن ذلك كان يصادف فترات المساء عندما تزدحم المواصلات العامة فيكون عليَّ أن أكافح من أجل الحصول على مكان ومن أجل الفوز بزاوية أقف فيها بين المسافرين الذين يجعلهم الشتاء في مزاج سيئ فأغطي الزهور بجسدي لأحميها وأتعرض لمضايقات كثيرة. وبعد ذلك، إذا كنت ذاهباً إلى مكتب أحد متعهّدي الدفن، فإنه عليَّ أن أسير حاملاً الأزهار فوق رأسي مثلما يحمل العازف كمانه الكبير وأشق طريقي بطيئاً عبر دروب متعرجة ضيقة. وفي أحيان كثيرة لا أجد أحداً في الردهة حتى يعطيني بقشيشاً إذ يستلم الأزهار مني واحد من الخدم وأنا واقف هناك بقبعة مدبَّبة وأنف يسيل مخاطه لكني أمسحه خفية بلمسة من قفازي الصوفي. لكن حظي يشاء أن أذهب أحياناً إلى سهرة على روح شخص ميت فأجد أشخاصاً محمرّي العيون جالسين حول زجاجة من الويسكي المهرَّب في كوخ بعيد عن الطريق يصل المرء إليه سائراً على لوح خشبيٍّ طويل ممدود فوق مستنقع في فناء البيت...

غرفة مزدحمة بأصدقاء المتوفى والمعزّين. وعندما أصل إلى واحد من بيوت الحداد هذه الفائحة برائحة الويسكي حاملاً زهوري لا أجد فيها أشخاصاً أذهلهم الحزن إلى درجة تجعلهم يتجاهلونني كما تكون الحال في الأماكن الأخرى التي رأيتها. هناك، كان يمكنني أن أثق بأنني سأخرج بعد أن أحصل على دولار، أو نحو ذلك. لكنني كنت أفضل البقاء في المحل... في حقل الأزهار السماوي ذاك حيث أرى أزهاراً مختلفة مكومة حول صناديق التراب في غرفة خلفية أو مصفوفة خلف ألواح صندوق التبريد... الورد والقرنفل والأقحوان. كنت شخصاً عاشقاً في ذلك الوقت!

كان بلوغرين شخصاً جليلاً أيضاً... كان أشقر الشعر ناعم الجلد كبيراً مع قَدْر لا يستهان به من اللحم. كان صديقاً لرجال العصابات ومهرّبي الكحول؛ وكان على علاقة وثيقة جداً بأشخاص مثل جيك الحلاق، إضافة إلى ديون أوبانيون، زعيم عصابة الناحية الشمالية، الذي كان بائع أزهار هو أيضاً لأنه أحب ذلك العمل، لكنه قُتل في محله على يد رجال ثلاثة قيل إن جوني توريو أرسلهم فقتلوا الرجل وهربوا بسيارة زرقاء من نوع جيويت. كان بلوغرين يستخدم قفّازَيْن لحماية نفسه من الأشواك عندما يسحب وردة ليعالجها بمقصه. كانت له عينان زرقاوان باردتان مستعدتان لأي نوع من الاكتشافات، وكان أنفه كبيراً لحيماً سريع الانزعاج من الروائح السيئة. أظن أن تشوّشاً يحدث عندما يكون المرء عريض الوجه سريع التفكير، أو ضيق الوجه بطيء التفكير. كان بلوغرين من النوع الأول... هذا ما أظنه نتيجة علاقته بأفراد العصابات وآثار الخوف وتقلب الأحوال. ذلك ما جعله على هذه الحال. كان يستطيع أن يكون فظّاً سيئ الطبع أحياناً، خاصة بعد حدوث جريمة قتل هامة يذهب ضحيتها هذا أو ذاك من معارفه. وقد قتل أشخاص كثيرون في ذلك الشتاء.

كان شتاء سيئاً للجميع ـ لا للأشخاص المهمين فقط بل أيضاً للناس الغافلين عن كل شيء عدا نجاحاتهم وإخفاقاتهم الصغيرة، أولئك الناس المنشغلين بالمغامرات المحدودة لعقولهم وقلوبهم. كانت تلك حال كريندل مثلاً، أو إيليانور كلين، أو أمي. كانت أعصاب كريندل متوترة تلك الأيام، وكان يتصرف تصرفاً مخزياً في شقته التي كنا ندعوها باسم القبو الإنكليزي. فيرمي بالأطباق ويضرب الأرض بقدميه. وكانت إيليانور في حالة هبوط معنوي... كثيراً ما كانت تبكي في غرفتها حزينة على مسار حياتها بشكل عام. كان ذلك مَيْلاً عاماً قادراً على بلوغ الجميع والتأثير فيهم... هكذا كانت طبيعة تلك الأيام. ولعل تأثري بذلك الجو كان يمكن أن يكون أكثر شدة لولا افتتاني بهيلدا نوفينسون.

صارت ماما شديدة العصبية أيضاً. وكان ذلك شيئاً يجب أن يعرف المرء كيف يدركه بإحساسه لأنها لم تكن تبدي العلامات الظاهرة المعتادة. كنت ألاحظ ذلك من تجهّمها الواضح رغم مظهرها المطيع الخانع، ومن ثبات عينيها الخضراوين الضعيفتين وقتاً أكثر

من المعتاد عندما تنظر إلى الأشياء من حولها، وتلك الزفرات العميقة أحياناً التي ما كانت ناتجة عن العمل المرهق. كانت كأنها في حالة دوار تستمع إلى أزيز مشؤوم منذر بوقوع شيء سيئ. عرفنا بعد ذلك بما كان وشيك الحدوث. صارت العجوز مستعدة لتسديد ضربتها. انتظرت حتى اجتمعنا كلنا على العشاء ذات يوم. وكنت عائداً من توصيل أزهار الموتى؛ وكان سايمون قد انصرف من عمله في المحطة. طرحت العجوز الأمر بطريقتها المفاجئة وأعلنت أن الوقت قد حان من أجل أن نفعل شيئاً من أجل جورجي الذي صار كبيراً الآن. كان على الطاولة لحم مسلوق، فواصل الجميع، وجورجي أيضاً، التهام اللحم والمرق. لكنني لم أفترض، ولم تفترض العجوز أيضاً، أنه لم يفهم الأمر... الكلبة نفسها فهمت عندما تحدثنا عن قرب موتها رغم أن الصمم قد أصابها في ذلك الوقت. كانت لجورجي أحياناً نظرة الجوكوندا وابتسامتها عندما يجري الحديث عنه... كان له ذلك المظهر الرقيق بين أهدابه ووجنته البيضاء... مظهر يوحي بحكمة حبيسة بفعل العجز... شيء يحمل رأياً في حياة كل واحد منا. لم تكن تلك المرة الأولى التي تتحدث فيها الجدة عن مستقبل جورجي؛ لكن حديثها الآن ما كان مجرد ملاحظة من تلك الملاحظات المعتادة بل كان إعلاناً عن طرح جوهر المسألة. أظن أن ماما فهمت الأمر قبل طرحه، أظن هذا من هيئة الانتظار والترقب التي اكتسبها وجهها. «لا بد من فعل شيء فيما يتعلق بجورجي، عاجلاً أو آجلاً»، هكذا قالت الجدة. صارت إدارة أموره صعبة الآن بعد أن كبر وطال جسمه فصار يبدو كأنه رجل. ماذا يمكننا أن نفعل إذا خطر في باله أن يمسك بفتاة من الفتيات فيصل الأمر إلى الشرطة؟ هكذا قالت جدتي. كان هذا تعبيرها الكامل الوجيز الذي من شأنه أن يطغى على مختلف الصعوبات، وعلى المعاندة والعصيان وقلة الاكتراث بوضعنا الحقيقي. وكنت السبب الرئيسي الذي يجعل ذكر الشرطة مقنعاً إلى هذا الحد! كنت أدرك هذا تماماً. قالت إن على جورجي أن يذهب إلى إحدى المؤسسات. فمن المنطقي بطبيعة الحال أنه لا يستطيع البقاء معنا طيلة حياته. كما أننا لم نظهر تلك القدرة على تحمل الأعباء، حتى الآن. وفوق هذا، على جورجي أن يتعلم أن يفعل شيئاً وأن يتدرب على صنع السلال أو الفراشي أو أي شيء يمكن لضعاف العقول تعلمه. أيّ مهنة يمكن أن تساعد في تغطية نفقاته. لقد صار الآن قوياً، وهذا يحمل معه خطراً اتضح في أن الجيران الذين لديهم بنات صغيرات صاروا غاضبين عندما يرونه متجوّلاً حول البيوت جاهزاً لأن يرتدي بنطلوناً طويلاً كالرجال. ومن غير أن تحدد جدتي ما تقصد بكلامها، قالت إنه بلغ مرحلة الرجولة. قالتها وكأن ذلك شر لا بد من مواجهته. عبرت عن فكرتها بتكشيرتها العجوز المشمئزة، ثم غادرتنا تاركة إيانا مع ذلك الرعب.

أوه، كان يسعدها كثيراً أن تجعلنا في حيرة أمام هذه الجرعة من الواقع وأن تراقب أثر ذلك في عيوننا المحدّقة. أنهت كلامها واكتسب وجهها لمحة فظيعة من السرور الخبيث.

كان حاجباها منتصبَيْن. أظن أن جورجي فهم شيئاً من الأمر عندما كان ماضياً في التهام طعامه. لا أريد القول إنها كانت شريرة تماماً في حين لم يكن هو إلا ملاكاً. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. إن لديها عبئاً عملياً كبيراً، عبء اقتراح هذا الشيء المزعج الذي من المفترض أنه في مصلحتنا. ما كانت لدينا القوة أو الحكمة الكافيتان لاقتراحه بأنفسنا. مثل كثير من البشر المحبين الإنسانيين الذين عليهم، رغم ذلك، أن يعيشوا مثلما يعيش بقية الناس وأن يعتمدوا على أرواح أقوى منهم لإرشادهم. لكني أبرئها بهذا الكلام! أقول هذا لأن اقتراحها ذاك كان يمنحها قدراً كبيراً من الرضا. أطلقت زفرة اختتمت بها كلامها كأنها تنصب فخّاً في الشطرنج. كان الأمر هكذا دائماً: نرفض أن نرى أين تؤدي بنا أخطاؤنا، ثم تأتي العواقب المخيفة. تماماً مثلما هجم دب إيليشا على الأطفال الذين كانوا يسخرون منه؛ أو مثل تلك الضربة الشديدة التي أصابت اليهودي الذي بلغ من طيشه أن مد يده ليمنع سقوط تابوت العهد من العربة. كان ذلك عقاباً على أخطاء ما عاد الوقت متاحاً لتصحيحها الآن. وكانت سعيدة بأن تتصرف باسم ذلك القَدَر القاسي الذي كانت تحذرنا منه طيلة الوقت.

ظل جورج جالساً هناك واضعاً قدماً فوق الأخرى وهو يأكل طعامه بطريقته الملائكية غير الواعية في مواجهة تلك الحجج المنطقية الدنيوية. كانت ماما مجروحة، وحاولت أن تجيب بصوتها المرتفع، لكن كلماتها كانت مشوَّشة. لم تكن قادرة أصلاً على قول أشياء واضحة فعلاً؛ أما عندما تكون مستثارة أو متألمة فإن المرء لا يستطيع أن يفهم شيئاً مما تقول على الإطلاق. وعند ذلك توقف جورجي عن الأكل وبدأ يصدر أنيناً.

قالت العجوز: «أنت! اهدأ أنت!».

وعند ذلك تكلمت مدافعاً عنه وعن ماما. قلت إن جورج لم يفعل شيئاً خاطئاً بعد، وقلت إننا نريد أن يظل معنا.

كانت تعرف أنني سأقول هذا، وكانت مستعدة له. قالت بسخرية شديدة: «يا عبقري! أنت عبقري فعلاً! هل تريد الانتظار ريثما تحدث مشاكل؟ وهل أنت موجود هنا لتعتني به عندما يكون في حاجة إليك؟ أنت في الشوارع والأزقة مع ذلك المجرم كلين، تتعلم السرقة ومختلف القذارات. لعلك ستستمتع بأن تكون عمّاً لابن حرام ينجبه شقيقك من فتاة بولندية شقراء الشعر. وعند ذلك ستوضح لأبيها الحَمّال أن أخاك سيكون صهراً ممتازاً له! سوف يقتلك بمطرقة مثلما يقتل ثوراً، ثم يحرق البيت».

قال سايمون: «لا بأس! إذا كان أوجي يريد فعلاً أن يكون مسؤولاً عنه...».

أجابته سريعاً: «حتى لو كان أوجي أحسن مما هو الآن، فما فائدة ذلك؟ عندما يعمل

أوجي عملاً متقطعاً فإن مشاكله أكثر من النقود التي يأتي بها. أما إذا لم يعمل أبداً، فتخيل كم سيكون الأمر رائعاً! سوف يترك الصبي في بيت كلين ثم يذهب للتسكع مع صديقه. أوه، أعرف شقيقك يا ولدي العزيز؟ إن له قلباً كبيراً إن لم يكلفه الأمر شيئاً، ذهبٌ خالص، وهو يستطيع أن يعِدَ بأي شيء عندما يتحرك قلبه. لكن ليس علي أن أخبرك كم هو شخص يمكن الوثوق به والاعتماد عليه. وحتى إذا كان شخصاً جيداً، بجودة مشاعره هذه، فهل تتحمل أن يتوقف عن جلب تلك النقود القليلة التي يكسبها؟ ماذا؟ هل ورثتم ثروة؟ هل تستطيعون استئجار خدم ومربيات مثلما كان زوجي يفعل من أجل أبنائنا؟ لقد فعلت كل ما أستطيع حتى أوفر لكم شيئاً من التعليم، وحتى أمنحكم تربية شريفة؛ بل حاولت أن أجعل منكم رجالاً محترمين. لكن عليكم أن تعرفوا من أنتم، وما أنتم، وألّا تحملوا أفكاراً غير واقعية. لذلك أقول لكم إن من الأفضل أن تفعلوا بأنفسكم ما سوف يفعله العالم بكم على أية حال، لكن من غير أي لطف. لقد رأيت أكثر مما رأيتم بقليل. وأعرف كيف تصحح الأخطاء، وكم هنالك من طرق لأن يموت المرء بسبب حماقته وحدها، إن لم نذكر الأشياء الأخرى. حاولت أن أشرح لشقيقك شيئاً عن هذا، لكن مستوى تفكيره لا يزيد كثيراً على أي سكير». وهكذا مضت في نبوءاتها وصياحها المشؤوم.

ما كان عليها أن تقنع سايمون لأنه كان معها في هذه المسألة المتعلقة بجورجي. صحيح أنه ما كان يعبّر عن هذا صراحة حتى لا يجرح ماما، لكنه تركني أقول كل ما لديَّ من حجج واتهامات عندما صرنا وحدنا في غرفتنا منتظراً بوجه صبور مستلقياً بطوله على السرير فوق الملاءة المخيطة من أكياس الطحين؛ وعندما ظن أنني صرت مستعداً لسماعه قال: «لا قيمة لكلامك يا فتى! لماذا لا تستخدم عقلك مرة قبل أن يتحول إلى هباء تذروه الريح؟ العجوز محقة، وأنت تعرف هذا. لا تظنَّن أيضاً أنك الشخص الوحيد المهتم بجورجي! لكن لا بد من فعل شيء في ما يتعلق به. كيف تعرف ما يمكن أن يفعله؟ لم يعد صغيراً على الإطلاق؛ ونحن لا نستطيع مراقبته طيلة حياته».

صار سايمون قاسياً معي منذ أن خسرت تلك الوظيفة في المحطة وخلال مشاجراتي مع ويغلر والبحار بولبا، وكذلك خلال ما فعلته في متجر ديفر. لم يكن يقدر كليمنتي وجيمي كثيراً، ثم إنني ارتكبت غلطة وأخبرته عن مشاعري تجاه هيلدا فجعلت نفسي عرضة للسخرية. قال لي: «لماذا؟ ستصبح فريدل كوبلين أجمل منها عندما تكبر. إن لها ثديين على أية حال». كان سايمون يعرف طبعاً أنني لست ممن يحملون ضغينة وأن أعصابي تهدأ بسرعة مثلما تثور بسرعة. وقد رأى أنه يملك الحق في معاملتي بهذا الشكل لأنه يحقق تقدماً بينما كنت أجعل من نفسي أضحوكة. وقد كان يعتزم اصطحابي معه عندما يحين وقت ذلك، مثلما اصطحب نابليون إخوته! وخلال أسوأ مشاكلي مع جدتنا العجوز، كان يتخذ مظهراً جامداً ويحافظ على مسافة كافية؛ لكنه كان يخبرني أيضاً أنني أستطيع أن

أتوقع مساعدة منه عندما تحدث معي مشكلات حقيقية... إذاً كان من المنطقي أن أستحق مساعدة عند ذلك. ما كان يحب أن يرى أصدقائي قليلي العقول يرمون بي إلى التهلكة. نعم، كان لديه إحساس تجاهي، وتجاه جورجي أيضاً. لا أستطيع القول إنه كان منافقاً فيما يتعلق بجورج.

قلت له: «لقد غضبت كثيراً هناك عندما تركتَ ماما تتكلم ولم تقل شيئاً. وأنت تعرف تماماً أنني لا أستطيع أن أفعل الكثير للصبي إلا إذا تركت المدرسة. لكن، إذا أرادت ماما أن يكون معنا في البيت، فعليك أن تترك الأمر لها. وما كان يجوز أن تجلس هناك صامتاً وتتركها تعبّر عن ضعفها».

«يمكن لماما أيضاً أن تحصل على دفعات مالية». كان سايمون مستنداً على جسم السرير المعدني القاتم... كان مسمَّراً أشقر. تكلم بقوة. ثم توقف ولمس سنه المكسورة بلسانه. بدا لي أنه توقع مني هجوماً أعنف من هذا؛ وعندما فرغت من كلماتي الحادة كلها جعلني أسمع ما كنت أعرفه في الحقيقة من غير أن يقوله لي: «لقد أسمعَتْك ما تستحق يا أوجي. وأنت تعرف أنك كنت في حالة قذرة تماماً. لكننا لن نحتفظ بالصبي معنا أكثر من سنة إضافية... وذلك حتى إذا صرت شخصاً ناجحاً... علماً بأنك لن تصير كذلك».

«طيب، تظن أنها تقودنا الآن».

قال: «فلتظن ذلك». ومرر أصابعه في شعره بتلك الحركة السريعة القصيرة التي صارت علامة على صحوه وتركيزه، ثم ضغط على مفتاح المصباح بقدمه. وبدأ يقرأ.

وهكذا لم أكن أستطيع فعل الكثير بعد ذلك. لم أعد قادراً على الاعتراف بجدتي رأساً للعائلة... صار قسم من سلطاتها القديمة مرتبط بسايمون. بقيت في الغرفة معه بدلاً من الخروج ومواجهة ماما التي أنهت غسل الأطباق ونظفت الطاولة وذهبت لتسترخي في كرسيها تحت المصباح البروسي المدبَّب الذي يسقط ضياؤه الخبيث على النتوءات وفقاعات الطلاء على الجدار. ما كان لأمي أي أساليب خاصة لإظهار معاناتها... كانت تعاني بروحها كلها. ما كانت تصدر جلبة أو ضجة، ولا كان أحد يراها باكية، لكنها كانت تبدو... بطريقة مخيفة جداً... كأنها تنظر عبر نافذة المطبخ، فقط، وذلك إلى أن يقترب المرء ويرى الدموع في عينيها الخضراوين وعلى وجهها الوردي وفمها الذي فقد أسنانه. كانت تضع رأسها على مسند الكرسي بشكل جانبي... ما كانت تضعه بشكل مستقيم أبداً. كنت أراها على هذه الحالة عندما تمرض أيضاً. كانت تذهب إلى سريرها مرتدية ملابس النوم، وتجدل شعرها حتى لا يتشابك، ثم تنقطع عن الجميع إلى أن تشعر أنها صارت تستطيع الوقوف على قدمَيْها من جديد. كان من العبث أن يأتي أحدنا إليها حاملاً مقياس الحرارة لأنها ترفض استخدامه. كانت تضع نفسها أمام تلك القوى، عاجزة، من غير أن

تفكر في شيء... ما كانت قادرة على التفكير أصلاً. كانت لديها نظرتها الخاصة إلى الشفاء والقدر.

لقد تقرر أمر جورج الآن؛ وعادت أمي إلى عملها من غير أن تلوم أحداً. أما الجدة لوش فبدأت تستعجل تنفيذ مشروعها ذهبت وحدها إلى الصيدلية لتتصل هاتفياً بموظف الخدمات الاجتماعية، لوبين. كان هذا أمراً بالغ الأهمية في حد ذاته لأنها نادراً ما كانت تضع قدماً في الشارع بعد تساقط الثلج، وذلك منذ أن التوى كاحلها في يوم صقيعي منذ زمن بعيد. كانت تقول إن كبار السن يعيشون معاناة كبيرة آخر أيامهم عندما تكون لديهم عظامٌ مكسورة لا سبيل إلى شفائها. ثم إنها لم تكن تستطيع الخروج في ثوبها المنزلي حتى إذا كان ذلك مسافة بناية واحدة. لم تكن ترى فعل ذلك أمراً صحيحاً. كان عليها أن تستعد وأن تخلع جواربها الرديئة - كانت في الواقع بنطلوناً قديماً للغولف تثبته على ساقيها بحلقتين مطاطيتين - فترتدي جوارب حريرية وثوباً أسود، ثم تضع قلنسوتها ذات الدوائر الثلاث وتضع البودرة على وجهها فتبدو شريرة. ومن غير أن تبالي برأينا في مظهرها، كانت تثبت ذلك الريش الطائر في الهواء بالدبابيس إلى قبعتها فتتخذ هيئة احتفالية وتخرج مستعجلة غاضبة، لكنها كانت مضطرة إلى وضع قدميها الاثنتين على كل درجة عندما تخرج من البيت.

كان يوم الانتخابات؛ وكانت أعلام كثيرة معلقة فوق مراكز الاقتراع، وكان رجال ضخام يقفون مبتهجين في الثلج ويتنفسون فيخرج البخار من أفواههم وأنوفهم وهم يحملون بالونات كبيرة عليها شعارات المرشحين. كانت المدرسة مغلقة، وهذا يعني أنني قادرٌ على مرافقتها؛ لكنها لم تكن تريد أن أرافقها. وبعد نصف ساعة، عندما خرجت حاملاً وعاء رماد الموقد لأفرغه، رأيتها راكعة على ركبة واحدة في الممر الذي كسته الثلوج. لقد سقطت. كان مؤلماً أن أراها هكذا. لم تخرج من قبل أبداً من غير حماية. رميت الوعاء المعدني بعيداً وجريت إليها فأمسكت بيدها المرتدية قفازاً بلله الثلج بذراعي فاخترقت البرودة قميصي الرقيق. لكنها، بعد أن وقفت على قدمَيْها، لم تعد راغبة في مساعدتي إما نتيجة إحساسها المتضخم بالتضحية أو لأنها ظنت أنني يمكن أن أنتقم منها. تسلقت درجات السلم وحدها ثم مضت فوراً إلى غرفتها حيث سجلت سابقة أخرى عندما أقفلت الباب خلفها. حتى ذلك الوقت، لم أكن أعرف أن هنالك مفتاحاً لهذا الباب! ل ابد أنها تخفيه منذ زمن بعيد مع حليّها وأوراقها العائلية. وقفت مع ماما خارج ذلك الباب، كنا دهشَين. سألناها إن كانت قد أصيبت فأجابتنا بنبرة صارمة غاضبة قائلة أن نذهب ونتركها وحدها. جعلتني حدة صوتها أصاب بالصدمة عندما تصورت وجهها المرتجف المبيضّ كالثلج. حدث تغير في النظام العام أيضاً: تبين أن هنالك مفتاحاً لباب لا يمكن أن يغلق، باب مفتوح دائماً مثل باب الكنيسة، وتبين أن لذلك المفتاح استخداماً أيضاً! كانت دلالة

ذلك اليوم الانتخابي الخريفي أكبر لأن جروحها وحروقها المطبخية كانت تعامَل بجدية كبيرة دائماً، وبانهماك شديد مع كل ما كانت تظهره من كآبة وانزعاج وكل ما كانت تصدره من تهديدات. وبعد أن يوضع على إصابتها اليود أو الزيت، ثم الضمادات، كانت تشعل سيجارة لتهدّئ أعصابها. لكن سجائرها كانت في سلة الخياطة في المطبخ، ولم تخرج من غرفتها بحثاً عنها.

مر وقت الغداء، ثم مر جزء كبير من فترة بعد الظهر قبل أن تخرج من غرفتها. كان على ساقها ضمادةٌ كبيرة. مضت في طريقها المعتاد في البيت فوق ألوان السجادة البيغائية التي اهترأت حتى صارت خيوطاً عند المدفأة، ثم اجتازت الغرفة الصغيرة المفضية إلى المطبخ حيث يتغير الطريق إلى اللون البني، لون أرضية المطبخ المصنوعة من اللينوليوم. كانت معظم هذه الآثار على الأرض من صنعها هي... كانت نتيجة سيرها على تلك الخطوط نفسها قرابة عشر سنوات. كانت مرتدية ملابسها اليومية المعتادة وشالها المألوف بحيث يمكن افتراض أن كل شيء قد عاد إلى طبيعته تقريباً. لكنها في الحقيقة لم تكن معتادة أن تظل صامتة وأن يكون وجهها شاحباً إلى هذا الحد نتيجة محاولتها أن تظل هادئة ثابتة. كان وجهها كأنه فقد ما فيه من دم. لا بد أنها كانت متأثرة مذعورة إلى حد مخيف جعلها تقفل الباب عليها؛ لكن من الواضح أنها قررت أن عليها أن تعود حتى تمارس نفوذها رغم شحوب وجهها كله. لكن، كان هنالك شيء مفقود. حتى الكلبة السمينة اللاهثة التي صار فراؤها الأبيض بنّياً حول عينيها مضت إليها ببطء مطقطقة على الأرض بمخالبها كأنها أحست أن أياماً جديدة كانت آتية لتزيل آخر بقايا النظام القديم... زمن الذي يفقد فيه حراس النظام القديم موقعهم ومكانتهم.

بدأت الآن أمضي وقتي كله مع جورجي، خلال الشهر الأخير... أجرّه في الزلاجة، وأمشي معه إلى الحديقة، وآخذه إلى حديقة المعهد الموسيقي في غارفيلد ليرى أشجار الليمون المزهرة. كانت الآلة الإدارية ماضية في عملها أيضاً: لم تفلح مساعي اللحظة الأخيرة لإيقافها. جلب لوبين، الذي كان يقول دائماً إن من الأفضل لجورجي أن يوضع في إحدى المؤسسات، الأوراق الخاصة بالموافقة على ذلك. وكان على ماما أن توقعها بعد أن حرمها سايمون من دعمه في مواجهة السيدة العجوز (بل لعل دعمه ذاك ما كان كافياً، حتى في حال وجوده، لأن جدتنا كانت حاسمة في قرارها كأن نهاية العالم قد أوشكت). أبداً... ما كان إيقاف الجدة لوش ممكناً... أنا مقتنع بهذا. ليس الآن، ليس في هذا الأمر. فبعد أخذ كل الجوانب بعين الاعتبار، كان التخلي عن الفتى أمراً حكيماً، مهما يكن ذلك محزناً. تماماً كما قال سايمون... إن تركنا الأمر إلى وقت لاحق فسوف يكون علينا أن نفعله بأنفسنا. لكن السيدة العجوز أدارت الموقف بطريقة ما كانت ضرورية أبداً، جعلته كأنه اختبار للقوة، جعلته أمراً فظاً لا يقيم اعتباراً للآخرين... كأنه فعل من أفعال سلطة

استبدادية. كان هذا نابعاً من أشياء لم نفهمها إلا قليلاً: الخيبة، وطيش غاضب ناتج عن نضال مترفّع فرضته على نفسها، وشيء من الإحساس باقتراب الموت ساهم في إضعاف قدرتها على التقدير السليم، وربما ظهور حاد لروح حيوانية معاندة أو فقاعة من طموح بشري تغرق وتغوص ثم تنفجر انفجاراً أعمى في الأعماق.

لست أدري! لكن إرسال جورجي كان يمكن أن يحدث بطريقة مختلفة.

وأخيراً وصلنا إشعار يقول إن هنالك مكاناً له في المأوى. وكان عليَّ أن أذهب لأشتري له حقيبة من مخزن يبيع أشياء عسكرية قديمة ـ حقيبة قوية مدبوغة... أفضل ما استطعت الحصول عليه. ستكون هذه حقيبته طيلة عمره؛ وقد أردتها أن تكون حقيبة مناسبة. علمته كيف يغلق أقفالها ويفتحها، وكيف يستخدم مفتاحها. هناك، حيث سيذهب، سيكون لديه دائماً أشخاص يساعدونه بطبيعة الحال، لكني رأيت أنه يجب أن يتقن فعل هذا الشيء الصغير بمفرده، عندما ينتقل من مكان إلى آخر. اشترينا له أيضاً قبعة من متجر الملابس الجاهزة.

كان الطقس غائماً، لكن ذوبان الثلج قد بدأ... إنها بداية الربيع أخيراً. كان الماء يقطر من الأشجار ومن أسطح البيوت. وفي قبعته الرجالية تلك، ومعطفه الذي لم يرتديه بشكل صحيح ـ يبدو أنه لم يجد حاجة إلى وضعه على كتفيه بطريقة سوية ـ بدا شخصاً كبيراً، كأنه رحّالة. والواقع أنه بدا جميلاً... صورة رحّالة يسافر مسافات طويلة، بوسامته الشاحبة العاجزة، الضعيفة العقل. كانت رؤيته كافية لأن تجعل المرء ينهار ويبكي. لكن أحداً لم يبكِ... أقصد أنني لم أبكِ، ولم تبكِ ماما أيضاً... كنا هناك نحن الاثنان فقط لأن سايمون قبّله على رأسه عندما خرج في الصباح وقال: «إلى اللقاء أيها الجورب القديم. سوف آتِ لرؤيتك». وأما الجدة لوش فبقيت في غرفتها.

قالت ماما: «اذهب وقل لجدتك إننا مستعدون للانطلاق».

قلت عند باب الجدة: «إنني أوجي! كل شيء جاهز».

أجابتني: «لا بأس! اذهبوا إذن». قالت هذه الكلمات بطريقة حاسمة نافدة الصبر، لكن من غير ذلك الألق، أو من غير ما يمكن أن ندعوه نبرة أمر حقيقية. كان الباب مقفلاً. افترضت أنها كانت مستلقية على فراشها الريشي مرتدية ثوبها البيتي وشالها وحذاءها المنزلي المدبب وقد وضعت تشكيلة زينتها القديمة من أيام أوديسا على الطاولة الصغيرة، وفوق خزانة الأدراج، وعلى الجدران.

«أظن أن ماما تريدك أن تودّعيه».

«ولماذا أودعه؟ سوف أذهب لزيارته لاحقاً».

لم تكن لديها قوة كافية للذهاب من أجل رؤية النتائج التي عملت جاهدة للوصول إليها، لكنها ظلت على محاولتها إبقاء السلطة بين يديها. كيف يمكنني تفسير هذا الرفض بغير أنه حالة من الضعف وتراجع العزيمة؟

أظهرت ماما أخيراً ذلك الغضب المرتجف الذي يبديه الناس الضعفاء... الغضب الذي يقتضيهم جهداً كبيراً حتى يستطيعوا التعبير عنه. بدت مصمّمة على ضرورة أن يحظى جورجي بمعاملة لائقة بطفل من جدته العجوز. لكنها عادت وحدها من غرفة النوم بعد دقائق قليلة وخاطبتني بخشونة ما كانت موجهة لي: «احمل الحقيبة يا أوجي». أمسكت بذراع جورجي من فوق كمه الواسع، ثم خرجنا من باب الغرفة الأمامية حيث كانت ويني تشمم الأرض تحت الشجيرات. كان جورجي يعضّ على زاوية فمه عندما مضينا. كانت رحلة بطيئة بدَّلنا خلالها ثلاث حافلات أوصلتنا آخر واحدة منها إلى ويست سايد بالقرب من متجر السيد نوفينسون.

وصلنا إلى المأوى بعد ساعة: نوافذ عليها قضبان، وسياج من الأسلاك الشائكة، وباحة اسفلتية، وكآبة فظيعة. وفي مكتب صغير تحت السلم استلمت موظفة مشرفة مزاجية المظهر، الأوراق التي جلبناها وسجلته في المأوى. كان مسموحاً لنا أن نصعد معه إلى المهجع حيث كان أولاد آخرون متجمعين تحت مشع التدفئة المرتفع على الجدار... كانوا ينظرون إلينا. نزعت ماما معطف جورج وقبعته الرجالية فوقف برأسه المبيض وأصابعه الكبيرة الباردة البيضاء (أثار اضطرابي أن تلك الأصابع كانت بحجم أصابع رجل)، وقف إلى جانب السرير بينما رحت أشرح له من جديد كيف يقفل حقيبته ويفتحها. لكني فشلت في إشغاله عن رعب ذلك المكان وعن الأولاد الذين يشبهونه من حولنا ـ لم يلتق بأولاد مثلهم من قبل. أدرك الآن أننا سوف نتركه هنا فبدأ يعبّر عن حزنه... بدأ يصدر أنينه. كان ذلك أسوأ من الدموع رغم أنه ظل أقل من البكاء بدرجات. عند ذلك ضعُفَت ماما وانهارت تماماً. بدأت تبكي عندما أمسكت برأسه قصير الشعر بين يديها وراحت تقبّله. حاول أن يلحق بنا عندما بدأت أجرها للخروج بعد قليل. بكيت أنا أيضاً. عدت به إلى السرير وقلت: «اجلس هنا!» جلس وعاد إلى الأنين من جديد. نزلنا ومضينا إلى موقف الحافلة حيث وقفنا عند ذلك العمود الأسود المدندن في الريح... وقفنا ننتظر عودة عربة الترولي من آخر المدينة.

تقلصت حياتنا العائلية بعد ذلك كما لو أن رعاية جورجي كانت أساس وحدة الأسرة... اضطرب كل شيء. كنا ننظر في اتجاهات مختلفة. لقد تفوقت العجوز على نفسها! لا بأس... كنا خيبة أمل لها أيضاً. لعلها بدأت ذلك كله حالمة بأن تحدث أعجوبة تجعل أحدنا يشق طريقه إلى الشهرة والمجد. لعل الأمر كان كذلك! إنها القوى التي تتحكم بهذه الأمور، القوى التي تحقق الأشياء الكبرى وتجمع العشاق معاً وتنتج العباقرة الذين

يقودون العالم خطوة أو خطوتين في مساره نحو الاكتمال، أو الذين يجدون المفتاح الذي يجعلهم قادرين على مخاطبة الناس والوصول إلى قلوبهم وتشجيعهم على القيام بتلك الخطوة... لكن ذلك كله أوصلها إلى جورجي، وإلينا. كنا مفتقرين تماماً إلى ذلك الشيء الذي لا بد أنها تريده فينا. لا علاقة لأبينا وأمنا بهذا الشيء، فالمسألة لا علاقة لها بمنبت المرء، ولا حتى بما إذا كان طفلاً شرعياً. لقد حقق فوشيه ما حققه تاليران! الموهبة الطبيعية هي الأمر المهم هنا؛ وقد توصلت جدتي بمرارة إلى رأي نهائي يقول إننا لا نمتلك المواهب اللازمة. لكن، كان من الممكن تدريبنا على أن نكون رجالاً لائقين مهذَّبين، على أن نضع ياقات بيضاء، وأن تكون لنا أظافر نظيفة، وأسنان نظيفة، وأن تكون لدينا آداب الطعام الصحيحة... أن نكبر فنصير أشخاصاً جيدين بصرف النظر عن عملنا أو مهنتنا... بصرف النظر عن المتجر الذي نعمل فيه، أو صندوق المحاسبة الذي نديره... أن نكون مهذَّبين عند استخدام المصاعد، وأن نخاطب الناس بطريقة لائقة، وأن نحترم السيدات، وأن نبتسم عندما يخاطبنا أحد في الشارع، وأن نراعي الآخرين في وسائل النقل، وأن نسير في دروب تليق بأشخاص صالحين.

لكننا نصير أكثر فظاظة وأكثر شبهاً بعامة الناس... أصواتنا عميقة، وشعر على أجسادنا. كنا عند ارتداء ملابسنا في الصباح نتصارع ونتلاكم بملابسنا الداخلية، لاهين... ونقفز فوق السرير ذي النوابض، وعلى الأرض، ونوقع الكراسي. ثم نخرج إلى الصالة لنغتسل فنرى، أغلب الأحيان، الجدة العجوز بجسدها الصغير وعينيها الناضحتين احتقاراً، وتكشيرتها المخيفة التي تكشف عن لثتيها، ووجنتيها الغائرتين وتعليقاتها التي لا تنطقها. لكنها صارت عاجزة فاقدة السلطة الآن. انتهى أمرها! كان سايمون يقول لها أحياناً: «وماذا تعرفين أنت يا جدة؟» ـ بل كان يناديها «السيدة لوش» أحياناً. لم أخاطبها بمثل تلك الكلمات أبداً، ولم أذهب إلى ذلك الحد في تقويض سلطتها العتيقة... لكن الأمر خرج من يديها. صار سايمون الآن يخاطبها بلهجة أقل احتراماً. لكن الأمر لم يعد كبير الأهمية في هذا الوقت. لقد عرفت أين كنا، وعرفت حدود قدراتنا.

تغير البيت بالنسبة لنا أيضاً: صار أكثر ترتيباً وظلمة، وأصغر حجماً. وبعد أن كانت الأشياء فيه لامعة، محترَمة، بدأت تفقد غناها وجاذبيتها وأهميتها. بدأت تظهر عوامل البلى، والشكوك، والبقع السوداء على الجدران حيث تقشر الطلاء، وانمحت الرسوم في وسط السجادة القديمة... زالت العَظَمة، والبريق، والتألق، زالت كلها. لم تكن السيدتان المقيمتان في البيت تلاحظان رائحةويني البشعة في أيامها الأخيرة؛ لكننا كنا نشمها عندما نأتي من الخارج.

ماتت ويني في شهر أيّار من ذلك العام فوضعتها في صندوق من صناديق الأحذية ودفنتها في حديقة البيت.

الفصل الخامس

كان ويليام إينهورن الرجل المتميز الأول الذي عرفته في حياتي كلها. رجل عنده عقل ومشاريع كثيرة، وقدرة حقيقية على التوجيه، وقدرات فلسفية؛ ولو كنت شخصاً على قدر من المنهجية يسمح لي بالتفكير قبل اتخاذ قرار عملي مهم، وأيضاً لو كنت حقاً (لاحظوا جيداً)[1] تلميذاً من تلاميذه وليس ما أنا عليه، لسألت نفسي «كيف يفكر قيصر في هذه الحالة؟ وماذا تكون نصيحة ماكيافيللي، أو ما الذي يفعله عوليس؟ ما رأي إينهورن؟» لست أمزح عندما أضع إينهورن في قائمة الأشخاص المتميزين هذه! كان هو الرجل الذي أعرفه، وكان فيه ما أراه في هؤلاء الناس. وما لم تكونوا راغبين في القول إننا نعيش في أتفه الأيام وإننا لسنا أكثر من أطفال لا يبلغ نصيبهم من العَظَمة أكثر مما تبلغه حصة صبي في حكايات الملوك الخيالية، فإن هؤلاء الأشخاص كائنات من نوع مختلف ومن زمان أفضل وأقوى من زماننا. أما إذا كنا نقارن بين رجال ورجال، لا بين رجال وأطفال ولا بين رجال وأنصاف آلهة (مقارنات من شأنها أن تشيع بهجة لدى قيصر إذا جرت بين جموع الديمقراطيين من أمثالنا)، وإذا لم تكن لدينا أية رغبة خاصة في أن نتنازل ونكون فئة مختلفة أدنى شأناً نتيجة خجلنا من عيوبنا أمام الوجوه الذهبية لهؤلاء الرجال وغيرهم من الزمن القديم، فإن من حقي أن أعلي من شأن إينهورن من غير مبالاة بالابتسامات اللائمة ممن يظنون أن جنسنا ما عادت لديه أبداً أي سمة من تلك السمات التي نوقّرها عند هذه الأسماء العظيمة. لكنني لا أرغب في أن تدفعني آراء من هذا النوع إلى الوقوع في المبالغات لأنها من قبيل آراء الطلبة الذين يشعرون دائماً بأنهم صبيان عندما يواجهون الماضي.

---

(1) كان لتعبير «لاحظوا جيداً» أثر عميق على الأمة عندما استخدمه فرانكلين روزفلت في أحد أحاديثه.

ذهبت للعمل لدى إينهورن عندما كنت في مرحلة متقدمة من دراستي الثانوية. وكان ذلك قبل وقت قليل من الانهيار الكبير خلال إدارة الرئيس هوفر، أي عندما كان إينهورن لا يزال رجلاً ثرياً، رغم عدم قناعتي بأنه كان في يوم من الأيام ثرياً بالقدر الذي صار يتحدث عنه فيما بعد. وقد بقيت معه بعد أن فقد أكثر أملاكه. ثم صرت، في الواقع، شخصاً أساسياً عنده في ذلك الوقت: لم أكن يده اليمنى بالمعنى المجازي فحسب، بل صرت ذراعيه وساقيه بالمعنى المباشر. كان إينهورن مُقعَداً لا يستطيع استخدام أطرافه. وما كانت لديه قوة كافية لتحريك الكرسي ذي العجلات. كان لا بد من دفعه في أرجاء البيت من قبل زوجته أو شقيقه أو أقاربه أو أحد الأشخاص الذين يتصادف وجودهم عادة سواء كانوا من العاملين لديه، أم من معارفه. لا فرق إن كانوا يعملون لديه أو يتواجدون في بيته أو مكتبه. كانت لديه موهبة تحويلهم إلى أشخاص يعملون من غير مقابل. وكان هناك دائماً أشخاص كثيرون يأملون في الوصول إلى الثراء، أو في أن يتجاوز ثراؤهم مرحلة الرخاء الذي وصلوا إليه. ويطمحون إلى ذلك من خلال آل إينهورن. وذلك لأنهم أهم السماسرة العقاريين في المقاطعة، ويملكون ويديرون عقارات كثيرة بما في ذلك المبنى المؤلف من أربعين طابقاً حيث كانوا يعيشون. كانت صالة الألعاب في المتجر الواقع على زاوية المبنى ملكاً لهم، وقد حملت اسم «بلياردو إينهورن». ويملكون أيضاً ستة متاجر أخرى: أدوات، وفاكهة، ومعلبات، ومطعم، ومحل حلاقة، إضافة إلى محل لتنظيم الجنازات يخص كينزمان الذي هرب ابنه مع قريبي هاورد كوبلين للانضمام إلى قوات المارينز التي تحارب ساندينو في نيكاراغوا. وكان المطعم هو المكان الذي يجلس فيه تامبو (الذي يجمع الأصوات الانتخابية للجمهوريين) ليلعب الورق. كان آل إينهورن أقارب زوجته السابقة؛ لكنهم لم ينحازوا إلى واحد من الطرفين عندما وقع الطلاق. لم يكن إينهورن الكبير، المفتش العجوز الذي مرت في حياته أربع زوجات لا تزال اثنتان منهما تحصلان على النفقة، ليتخذ موقفاً متصلباً من أي شخص في ما يتعلق بمسألة من هذا النوع. وما كانوا يطلقون عليه لقب المفتش لأنه مفتش حقاً، بل كان الأمر مزاحاً بين الناس لا أكثر. لكنه كان راقص غاليارد ويضع قبعة بيضاء مرتفعة ويتجول هنا وهناك في بدلة بيضاء محتفظاً ببدانته وعافيته فيراقب الأمور بعينيه الكبيرتين الشهوانيتين. كان محط احترام كبير لدى الجميع نتيجة ذكائه. وعندما يفتح فمه العجوز ليقول شيئاً متعلقاً بصفقة أو رهن أو عرض سعر بطريقته الوجيزة المقتضبة، فإن جمهرة رجال الأعمال الجادّين الأقوياء في المكتب تكف عن الكلام. كان يقدم نصائح هامة، وقد تمكن كوبلين والعقارات الخمسة من إقناعه بتشغيل قسم من أموالهما. وكان كريندل الذي يعمل لديه من وقت لآخر يراه حكيماً مثل إله. ويقول: «الابن ذكي، لكن المفتش... إنه رجل عليك أن تتنحّى أمامه كيفما سار». كنت ولا أزال غير متفق معه في هذا الرأي رغم أن المفتش كان يسرق الأضواء كلها عندما

يريد أن يفعل شيئاً. كان الذهاب إلى الشاطئ معه واحدة من مسؤولياتي خلال الصيف لأنه كان يسبح كل يوم حتى الأسبوع الثاني من شهر أيلول. وكان مطلوباً مني أن أحرص على عدم ابتعاده عن الشاطئ كثيراً، إضافة إلى مناولته سجائر مشتعلة عندما يعوم على مقربة من الرصيف في ثوب السباحة المقلم مثل الوسادة حين يعوم ببطنه الكبير وعضوه الذكري العجوز الضخم وركبتيه العاريتين المصفرتين. كان الشعر الأبيض في مؤخرة رأسه ينفرش في الماء فيصبح أصفر اللون كأنه فراء دبٍّ قطبي. وكانت جبهته العريضة الحمراء التي لوَّحتها الشمس ترتفع إلى الأعلى في حين تتمتم شفتاه شيئاً وينفث منخراه الدخان. وكان يبدو ذكياً بهيجاً تحت سماء ميتشيغان الثقيلة الزرقاء الحارة في حين تمر سفن الصيد ذات الجوانب الخشبية المدهونة بالقطران فتهدر محركاتها وتمخر خارجة من المياه المخصصة للجمهور الملوَّن الصاخب المنهمك في نشاطات كثيرة. وتلوح أبراج ومباني قريبة من المياه ومن خلفها ناطحات السحاب ممتدة في زاوية قائمة ضخمة صوب منعطف خط الشاطئ الذي يختفي في البعيد.

كان إينهورن ابن المفتش من زوجته الأولى. وكان له من الزوجة الثانية أو الثالثة ابن آخر يدعى شيب، لكن أصدقاءه كانوا يطلقون عليه اسم دينغبات تشبيهاً له بجون دينغبات أوبرتا الطفل المدلل في الدوائر السياسية في المدينة وصديق بولاك سام زينكويتز. وبما أنه لا يعرف أوبرتا ولا يشبهه، ولا صلة له بعالم السياسة في المدينة ولا بغيره، فإنني لا أعرف السبب الذي جعلهم يطلقون عليه هذا الاسم. لكنه كان مولعاً بقصص العصابات والجرائم رغم عدم كونه سفاحاً قاطع طريق هو نفسه. كان ذلك نوعاً من الهواية، لكنه منحه هيئة أفراد العصابات حتى يمكن أن يظنه المرء شخصاً على صلة ببعض زعمائها: قبعة حادة الزوايا، وبدلة ملتصقة بجسمه، وقميص على الطراز الأندلسي مزرر من أعلاه إلى أسفله من غير ربطة عنق، وحذاء مزخرف مدبَّب كالذي يستخدمه القوادون وملمع كانه حذاء راقص تانغو. كان يطأ الأرض بقوة بعقبي ذلك الحذاء الجلدي. وكان شعره أسود عنيفاً لامعاً مموَّجاً ومعتنى به جيداً. إنه ضئيل الجسم هزيل العضلات سريع الحركة يكاد يبدو هشاً؛ وله وجه غير منطقيّ على الإطلاق. ما كان ذلك الوجه عنيفاً أبداً ـ لم يكن كذلك، بل كانت تبدو عليه مختلف أنواع المشاعر. على أنه كان شخصاً عنيفاً حاد النظرات متصلباً دائماً في ما يتعلق بأفكاره الخاطئة. وكانت جذور الشعر تبدو سوداء من خلال البودرة التي يضعها من غير مهارة بعد الحلاقة: وجه يشبه وجه جلّاد شريطة أن لا نتصور شخصاً قاتلاً (فهو يهجم مستخدماً قبضتيه ويناور مناورات خطرة، لكن من غير أن تكون لديه نيَّة حقيقية في إيقاع الأذى). خلاصة القول إنه كان شخصاً صعب المراس. وبقدر ما كان كذلك فقد كان يتعرض للهزائم طيلة الوقت، وعلى خده ندبة لم تشفَ جيداً خلفتها لكمة من قبضة تحمل خاتماً. لكنه يتابع الانقضاض والملاكمة مندفعاً خارج صالة البلياردو

خلف تحدٍّ جديد ليدور على عقبي حذاء الراقص ويقذف بلكماته المتوترة عديمة الوزن. لم تكن الهزائم لتكسره. كنت هناك في يوم من أيام الأحد عندما بدأ قتالاً مع العقارات الخمسة الضخم وانهال على صدره بضربات متلاحقة من يديه لكنه لم يستطع تحريكه. رفعه العقارات الخمسة وألقى به أرضاً. وعندما نهض دينغبات وعاد إلى تسديد اللكمات، ابتسم العقارات الخمسة لكنه خاف وتراجع صوب حامل عصي البلياردو. صاح أحد الموجودين قائلاً إن العقارات الخمسة أصابه الذعر، وظن الجميع أن الأمر الصحيح الذي يجب فعله هو الإمساك به من ذراعيه وشده إلى الخلف، لكنه راح يقاوم وقد أعماه الغضب وغار الدم من وجهه. قال واحد من أصدقائه إن من العار أن يأتي شخص غر ويواجه هذا المحارب القديم. صدّق العقارات الخمسة هذا الكلام فلم يأت إلى صالة البلياردو بعد ذلك. كان دينغبات مسؤولاً عن صالة البلياردو في وقت ما، لكنه كان شخصاً لا يمكن الاعتماد عليه فقام المفتش بتعيين مدير بدلاً منه. صار الآن يتجول في المكان باعتباره ابن مالكه ـ يتفقد ترتيب الكرات، ويحمرّ لونه غضباً كأنه جمرة مشتعلة عندما يتمزق المخمل على إحدى الطاولات ـ فهو يحب أن يبدو بمظهر الشخص الرئيسي، الشخص الخطر، الحَكَم، مدير الرهانات، خبير اللعبة، مؤرخ حروب العصابات. كان دائماً يترقب صفقة صغيرة أو ملاكماً يحتاج من يدير له أعماله، أو مباراة تجري المراهنة فيها على عشرة سنتات للكرة الواحدة. وكان يقوم بدور السائق لدى أبيه من وقت لآخر. كان المفتش غير قادر على قيادة سيارة البلاكهوك شتوتز الكبيرة الحمراء التي يملكها، إذ لا يقيم آل إينهورن أي وزن للسيارات الصغيرة ـ فكان دينغبات يأخذه إلى الشاطئ عندما يكون الجو حاراً إلى درجة تجعل الذهاب على الأقدام أمراً مزعجاً. لا تجوز المغامرة بتعريضه لسكتة قلبية لأن العجوز يقترب من الخامسة والسبعين. كنت أركب السيارة معه في المقعد الخلفي في حين يجلس دينغبات أمامي برقبته المجنونة التي جرحها من كثرة الحك. كان يمسك المقود بأطراف أصابعه ويضع قيثارته وملابس السباحة على المقعد إلى جانبه. وكان في حالة هياج دائمة عندما يقود السيارة... يصرخ ويصفر ويطلق البوق كلما رأى امرأة... وكان والده يجد هذا أمراً مسلياً. وكان يصحبنا أحياناً كليم أو جيمي أو صاحب السينما المفلس سيلفستر الذي فشل أخيراً في اجتياز امتحان الهندسة في كلية آرمور فصار يتحدث عن الانتقال إلى نيويورك بصفة نهائية. وعلى الشاطئ، كان دينغبات يضع حزاماً خاصاً وعصابتين على معصميه ويلف رأسه بمنديل حتى يحمي شعره من الرمل عندما يقف على رأسه. وكان يدهن جسمه كله بزيت التسمير وتحيط به جمهرة من البنات وثلة من رياضيي الشاطئ، فيرقص ويضرب على قيثارته مغنياً:

قالت لي فتاة حلوة سمراء

آني إيـ... كا، هولا ويكي ويكي

علمتني رقصة هولا هولا

على الشاطئ في واي كيكي...

كان يشتعل إثارة ويجعل الأغنية مشبعة بالإيحاءات فيتقطع صوته الأسود وينتصب شعره مثل عرف الديك. وكان والده العجوز يرقد ساخراً فظ المظهر وقد استبد به السرور مستلقياً كثور إغريقي على كرسي الشاطئ وفوقه منشفة مرفوعة حتى ما فوق أنفه لتقي عينيه من وهج الشمس ـ كان يظللهما أيضاً بذراعه الناعمة السمينة ـ وينفتح فمه المحاط بالشعر ضاحكاً وهو يقول لابنه: «يا أحمق».

من الممكن أن يأتي أيضاً ويليام إينهورن بعد ذروة الحر. يوضع الكرسي ذو الدواليب في صندوق السيارة، وتحمل زوجته مظلة لتقيهما من الشمس معاً. وكان شقيقه يحمله على ظهره، أو أحمله أنا، من المكتب إلى السيارة ومن السيارة إلى الموقع الصحيح على شاطئ البحيرة. كان متميزاً، منتبهاً، أبيض، نبيل المظهر كأنه قائد عسكري. عينان حادتان سريعتان. رجل ضخم... بضخامة المفتشين... وكان حسن الطبع، بل كانت لديه روح أرقّ من روح المفتش. وما كان دينغبات نسخة عنه بطبيعة الحال. كان إينهورن شديد الشحوب مترهل الوجه بعض الشيء، ذا أنف معقوف وشفتين رقيقتين وشعر شائب تركه ينمو غزيراً حتى صار يلامس أذنيه. كان يقظاً على الدوام، ونظراته تسبر ما يراه أمامه من غير انقطاع حتى تستقر على الشيء المهم. وكانت زوجته الثقيلة الجذابة تجلس إلى جانبه حاملة المظلة. تجلس واهنة مبتسمة بعض الشيء وتضع يدها الحرة الناعمة السمراء في حضنها ويبرز شعرها القوي ملفوفاً فيرسم أجمة سوداء عند رقبتها تشبه ما تراه في صور التسريحات المصرية القديمة. كانت تنعشها نسمات الصيف والقوارب الصغيرة فوق الأمواج وذلك التوثب والغناء من حولها.

وإذا أردنا أن نعرف ما الذي كانت تفكر فيه، فإن ذلك أمر مستحيل. هنالك كيلوغرام من النقانق على الرف عند الموقد، وكيلوغرام من البطاطا الباردة لإعداد السلطة، وهنالك خردل، وخبز الجاودار الذي قطعته قبل قليل. وإذا نفد ذلك كله فهي قادرة على إرسالي لأجلب المزيد. كانت السيدة إينهورن تحب أن تشعر بأن كل شيء جاهز. من الممكن أن يرغب العجوز في شرب الشاي. وهو يحب أن يحصل على ما يسره. وكانت مستعدة دائماً ولا تريد مقابل لذلك إلا أن يتوقف عن البصاق على الأرض. لكنها لم تكن تطلب ذلك منه طلباً مباشراً، لأن خجلها لا يسمح لها. كانت تقول ذلك لزوجها الذي لم يرَ في الأمر إلا مادة للمزاح. أما نحن الباقون، فكنا نشرب الكوكاكولا، شراب إينهورن المفضل. كان إحضار الكوكاكولا واحدة من مهامي اليومية: أحضرها في زجاجات من صالة البلياردو، أو في كؤوس من المتجر. يتوقف ذلك على رأي إينهورن في المكان الذي يختاره لذلك

اليوم. رآني أخي سايمون حاملاً الكؤوس على صينية بين الناس على الرصيف (هنالك دائماً عدد كبير من رجال الأعمال أمام مبنى إينهورن، ومعهم أشخاص من صالة البلياردو وبعض زبائن كينزمان من أصحاب الجنازات) ففوجئ وأطلق ضحكة كبيرة ثم قال لي: «هذا هو عملك إذن! أنت تعمل ساقياً».

لكن تلك ما كانت إلا وظيفة واحدة بين مئات من وظائفي الأخرى التي كان بعضها أدنى منزلة وأكثر اتصافاً بالصفة الشخصية، ومهمات أخرى تتطلب ذكاء وتدريباً: سكرتير، ووكيل، ومندوب، ورفيق. كان إينهورن رجلاً في حاجة دائمة إلى وجود شخص إلى جواره. وكانت الأشياء الكثيرة التي لا بد من القيام بها من أجله تجعله نبيلاً من النبلاء. في فيرساي أو في باريس، كان لدى «الملك الشمس» نبيل يناوله جواربه، وآخر من أجل القميص، في استقبالاته الصباحية. لا بد من إجلاس إينهورن في سريره صباحاً وإلباسه ثيابه. وكان علي أن أقوم بتلك المهمة من وقت لآخر. كانت الغرفة مظلمة مكتومة الهواء لأنه كان معتاداً، وزوجته كذلك، على إغلاق النوافذ عند النوم. وهكذا كانت رائحة نوم جسدين تملأ الغرفة. لا أرى ولا أحمل أي ميل إلى انتقاد هذه الأشياء. لقد اعتدتها سريعاً. كان إينهورن ينام في ملابسه الداخلية لأن ارتداء البيجاما كل يوم كان مهمة صعبة. ويسهر مع زوجته إلى ساعة متأخرة. لذلك، كنت أشعل الضوء فأرى إينهورن في ملابسه الداخلية وذراعيه المفتوحين وشعره المشعث حول وجهه المسطح وأرى أنفه المنحني المعقوف الذكي وشاربه المقصوص. إذا كان نكد المزاج (يكون نكد المزاج أحياناً) فعليَّ أن أظل هادئاً إلى أن يستعيد روحه المعتادة. ما كان من طبعه أن يكون سيئ المزاج في الصباح. كان يفضل المزاح ويسخر من زوجته لكثرة ضجيجها واهتمامها بإعداد الإفطار... يضايقها غالباً ويسخر منها بطريقة مبتذلة فاسقة. وفيما يتعلق بإلباسه ثيابه، فقد أفادتني كثيراً خبرتي مع جورجي. لكن ملابس إينهورن كانت أكثر أناقة مما اعتدت عليه. كانت جواربه من الحرير، وبنطلونه مقلماً مثل بنطلونات أصحاب المصارف. ولديه أيضاً أزواج كثيرة من الأحذية: أحذية فاخرة لا تزال نعالها في حالة ممتازة بطبيعة الحال. وكانت الأحرف الأولى من اسمه منقوشة على حزامه. وبعد أن يرتدي ملابسه حتى وسطه، كان يجب نقله إلى مقعده الجلدي الأسود وجرّه على عجلات حتى الحمام. كان يعبس أحياناً عندما يجلس في ذلك الكرسي، وفي أحيان أخرى يلقي نظرة موافقة موارية مسمومة. لكن تلك العملية كانت تجري بهدوء ورزانة معظم الأحيان. كنت أجلسه على الكرسي فآخذه إلى الحمام ثم أجرّه عائداً إلى المرحاض الذي كان غرفة مشمسة لها نافذة شرقية مطلة على باحة البيت. كان المفتش وإينهورن يسلكان سلوكاً غير مسؤول إلى حد ما فيجعلان المحافظة على نظافة المرحاض أمراً صعباً. لكن النبلاء يحظون دائماً بالتسامح في ما يتعلق بهذا الأمر. أعرف أن الأرستقراطيين البريطانيين لا يزالون متمتعين بحق التبوّل على عجلات العربة الخلفية إذا أرادوا ذلك.

ما كان لدى السيدة إينهورن شيء تستطيع فعله في ما يخص أرضية المرحاض الرطبة دائماً. وكانت تطلب مني تنظيف المكان من حين لآخر عندما يكون بافاتسكي الذي يقوم بمثل هذه الأعمال ثملاً في القبو. وتقول إنها لا تريد أن تفرض عليَّ هذا الأمر لأنني طالب. لكنهم كانوا يدفعون لي مالاً بطبيعة الحال. كانوا يدفعون المال من أجل عمل ذي طبيعة متنوعة غير محددة. وقد قبلته على هذا النحو؛ كانت طبيعته المختلطة غير المحددة شيئاً من الأشياء التي أحبها. فأنا أحب التنوع بطبعي، وغير ملائم لأي شيء يتطلب انضباطاً وانتظاماً، مثل صديقي كليم كامبو. لكنني أختلف عن كليم بأنني أكون مخلصاً عندما يتعلق قلبي بعمل أو قضية. وطبيعي أن إينهورن صار يجعلني أقوم بتلك الأعمال المتنوعة بمجرد اكتشافه طبيعتي هذه، وقد اكتشفها سريعاً. كان الأمر يناسبه تماماً نتيجة العدد الضخم من الأشياء التي يريد إنجازها. وحتى إذا نفدت تلك الأشياء، فإن وقوفي إلى جانبه يجعله يخترع المزيد منها. وهكذا كنت لا أنظف المرحاض كثيراً لأن إينهورن لديه دائماً فائض من المهام التي يجب أن أقوم بها. وحتى عندما كنت أفعل ذلك، فإنني ما كنت أجد مشكلة في القيام بهذا العمل ساعة من الزمن عندما أتذكر ما مررت به تحت سلطة الجدة لوش.

لكنني الآن في المرحاض مع إينهورن. يبقيني معه حتى أقرأ له عناوين صحيفة إكزامينار الصباحية، والأنباء المالية، وأسعار الإقفال في وول ستريت ولاسال ستريت. وبعدها تأتي الأخبار المحلية وشيء عن بيغ بيل ثومبسون يقول إنه استأجر المسرح الكبير مثلاً وظهر بنفسه على الخشبة مع جرذين عملاقين محبوسَيْن في قفص جاء بهما من المستودعات وأطلق عليهما اسمَيْ شخصين ارتدّا عن الحزب الجمهوري ـ صرت أعرف المواد التي يحب إينهورن سماعها أولاً. «نعم، هكذا، مثلما يقول ثومبسون. إنه صاحب كلام فارغ، لكنه محق هذه المرة. لقد عاد مسرعاً من هونولولو لينقذ ممتلكاته من التصفية». وهو لديه ذاكرة بعيدة ممتازة، وقارئاً مدققاً للأخبار يحتفظ بسجل للأشياء التي تثير اهتمامه، وذلك لأنه شخص منهجي إلى حد كبير. وكان من مهامي أن أحافظ على تنظيم ملفاته في الخزائن الطويلة المصنوعة من الخشب والحديد التي كانت تحيط به. إنه يحب الإتقان؛ ويقدّم دائماً مجموعة كبيرة من الأسباب التي يصعب فهمها يبرهن بها على رأيه عندما أضع أمامه شيئاً قائلاً إن علينا أن نرميه. كان يحب أن يكون كل شيء مرتباً بحيث يستطيع أن يضع يده عليه فوراً: قصاصات الجرائد وقطع من الورق مجموعة في مجلدات تحمل لصاقات كتب عليها «تجارة»، «اختراعات»، «صفقات محلية كبيرة»، «جرائم وعصابات»، «ديمقراطيون»، «جمهوريون»، «آثار»، «أدب»، «عصبة الأمم». لا تسألوني عن سبب وجود مجلد يحمل عنوان «عصبة الأمم». لكنه شخص يعيش بأفكار بيكونية عما يجعل الإنسان بهذا الشكل أو ذاك؛ ولديه ضعف تجاه المعلومات الكاملة. يجب أن يتم كل شيء على ما يرام بالنسبة لإينهورن. وهذا ما كان يجعل كل شيء مرتَّباً منظماً على

مكتبه ومن حوله: شكسبير والإنجيل وبلوتارك، والقواميس والموسوعات، و«القانون التجاري لعامة الناس»، وكتب الإرشادات العقارية والتأمينية، والروزنامات؛ وبعد ذلك آلة كاتبة في غطاء أسود، وآلة إملاء، وأجهزة هاتفية على حوامل متحركة، ومفك براغي صغير يستخدمه من أجل إبطال عمل ذلك الجزء من جهاز الهاتف الذي يسجّل سقوط القطعة النقدية (وذلك لأن إينهورن، حتى في ذروة غناه، ما كان مستعداً للدفع مقابل كل مكالمة يجريها. وكانت الشركة تجني ثروة من الحصالات الهاتفية التي يستخدمها رجال الأعمال الآخرون الذين يزورون المكتب)، وعلبتان من الأسلاك تحملان لصاقتي «وارد» و«صادر»، وخاتم الكاتب بالعدل مربوطاً بسلسلة، ومشابك معدنية، وإسفنجات لترطيب الأصابع عند تقليب الصفحات، ومفاتيح لخزائن النقود والأوراق السرية والملاحظات والواقيات والمراسلات الشخصية والقصائد والمقالات. يستطيع أن يبدأ العمل عندما يكون ذلك كله مرتَّباً في مكانه فيتوجه إلى خلف ذلك الحاجز اللامع الذي تحرسه بوابتان اثنتان... هناك حيث كان واحداً من القيّمين على الحياة، حيث كان مديراً خطير الشأن، مدركاً لأهمية وجوده ولذكائه الإرادي العجيب الذي يودي أحياناً باعتزازه وكرامته ويسيء إلى مظهره.

كان عليه أن يجاري أباه الذي من المحتمل أن أفكاره في ما يتعلق بالعمل كانت أقل إبداعاً لكنها أكثر اتساعاً لأنها مستندة إلى علاقاته مع أصحابه الأثرياء القدامى. لقد بنى المفتش العجوز ثروة آل إينهورن، ولا يزال محتفظاً بملكيته الشخصية لمعظم العقارات لا لأنه كان غير واثق بابنه، بل لأنه هو من يمثل اسم إينهورن في عالم الأعمال... وهو الشخص الذي يجب تقديم العروض إليه قبل غيره. أما ويليام فكان وريثه إضافة إلى كونه وصياً على حصة ابنه آرثر الذي كان طالباً في جامعة إيلينويز، وكذلك على نصيب دينغبات. كان إينهورن ينزعج أحياناً من عادة المفتش العجوز في منح قروض شخصية (بعضها كبير) باستخدام دفتر الشيكات المثبت بدبوس في الجيب الداخلي لبدلة الأعمال التي يرتديها. وكان كثيراً ما يتبجح بأن أباه كان رائد البناء في نورث ويست سايد وأنه حمل أفكاراً كبيرة عن سلالة إينهورن ـ يأتي المنظم بعد الفاتح، ثم يأتي الشاعر الفيلسوف فيخلف المنظم... تطور أمريكي نموذجي: تفاعل الذكاء والقوة في ميدان مفتوح، في عالم من الاحتمالات. لكن في الحقيقة، ومع كل الاحترام للمفتش، كان إينهورن يملك قدرات أبيه المتفوقة إضافة إلى شيء آخر (رغم حداثة عهده)، هو الإحساس بالقيادة ووضوح الاتجاه، وذلك الطبع المتأني والميل العميق إلى المكائد، واحتقار تجاه البابا ألكساندر الرابع بفعل العادة. كنت أقرأ ذات يوم في صحيفة مقالة عن سوء تصرف وريثة أميركية مع أمير إيطالي في مدينة «كان» الفرنسية فأوقفني حتى أنقل المقتطف التالي: «عزيزتي كيت، لا يمكننا، أنا وأنت، أن نظل مقيَّدين ضمن الإطار الضيق لعادات البلد. نحن من

نصنع العادات يا كيت؛ وتستطيع الحرية التي تسير في إثرنا أن تسكت أفواه من يتصيدون الأغلاط. هذا هو هنري الخامس بالنسبة إليكم! والمقصود أن هنالك سبيل لعامة الناس، وسبيل آخر لمن يكون لديهم شيء متميز يقومون به. شيء يتعين أن يجده عامة الناس جاهزاً أمامهم. يساعدهم على الشعور بالاستقرار وجود شيء متميز لا يستطيعون بلوغه لكنهم يدركون أنه موجود. ثم إن هنالك قانون أيضاً، وهنالك طبيعة. هنالك رأي، وهنالك طبيعة. لا بد أن يخرج أحد على القانون والرأي ليتكلم باسم الطبيعة. بل إنه واجب عام أيضاً حتى لا تمسك بنا العادات من رقابنا». كان لدى إينهورن نزوع للتعليم يشبه ما كان عند جدتي لوش. يرى كل منهما أنه قادر على توضيح ما يجب فعله في هذا العالم، وعلى بيان أين يكون على المرء أن يساير أو يقاوم... أين تستطيع أن تكون واثقاً فتجري أو أين تكون مضطراً إلى تلمّس طريقك تلمّساً وتكون مجبَراً على ارتكاب الأغلاط. وبما أن ابنه كان في الجامعة، فقد كنت التلميذ الوحيد المتوفّر لديه في ذلك الوقت.

كان لديه عقل يشبه عقول القضاة. وعلى كل أمر، مهما يكن مجراه، أن يحضر أمامه ويقف ساكناً عندما يكون جاهزاً لإصدار حكمه. كان يرفع ذراعيه العاجزتين إلى طاولة المكتب بحيلة بارعة تمر بمراحل كثيرة: يشد الكُمّ اليمين بأصابع اليد الشمال، ويساعد يده اليسرى بيده اليمنى. وما كان في الأمر أي استدرار للمشاعر عندما يقوم بذلك. كانت عملية يقوم بها فقط. لكنها عملية ذات أهمية كبرى. ومثلما يصعد رجل قوي معافى إلى منبر الواعظ ويعترف بضعفه أمام الرب، كان إينهورن (بضعفه الواضح إذا ما قورن بالأول) يعد نفسه بهذه العملية لكي يتحدث عن القوة، ولكي يتحدث عنها بقوة أيضاً. كان من الغريب كثيراً أن يسمعه المرء يتحدث بهذه النبرات، خاصة في ضوء مجرى الحياة اليومي هناك.

لكن، لنعد الآن إلى المرحاض حيث يجهز إينهورن نفسه في الصباح. اعتاد فترة من الزمن أن يأتي بحلاق ليحلق له ذقنه هناك. لكن يقول إن هذا كان يذكره كثيراً بالمستشفى حيث أمضى سنتين ونصف السنة، بالإضافة إلى أنه يفضل أن يفعل أشياءه بنفسه بقدر ما يكون ذلك ممكناً. إنه يعتمد على عدد كبير جداً من الأشخاص. وهذا ما جعله يبدأ استخدام شفرة حلاقة مثبتة إلى مقبض اشتراه شخصياً من مخترع تشيكي. وهو يقسم على أن هذا ما حدث فعلاً. تستغرق حلاقته أكثر من نصف ساعة: يضع ذقنه على حافة المغسلة ويديه في الماء وهو يعمل على أنحاء وجهه. يمد يده إلى منشفة الحمام فيضعها على وجهه. كنت أستطيع سماع تنفسه من خلالها. وبعد ذلك يغسل وجهه بالصابون وينظفه جيداً ويتحسسه بأصابعه بحثاً على أي بقعة من الشعر. أما أنا فأجلس على غطاء كرسي المرحاض وأقرأ. يوقظ البخار الروائح العتيقة... كان هنالك شيء قابض في معجون الحلاقة الذي يستخدمه، شيء يزعج تنفسي. وكان بعد ذلك يضع دهوناً على شعره الرطب

ثم يغطيه بقبعة صغيرة مصنوعة من نهاية جورب نسائي. وما إن ينتهي من التجفيف ووضع البودرة حتى يأتي وقت مساعدته في لبس قميصه ووضع ربطة عنقه التي يتفقد عقدتها مرات كثيرة بأصابعه ويضعها في مكانها تماماً بمناورة صغيرة عند زر قميصه العلوي. ثم يأتي لبس الجاكيت يعقبه صوت فرشاة الملابس الجاف. ونصبح جاهزين تماماً بعد التأكد مرة ثانية من رفع سحاب البنطلون ومسح قطرات الماء عن الحذاء، فيومئ لي برأسه مشيراً بأن أدفع كرسيه إلى المطبخ من أجل الفطور. كانت شهيته كبيرة، ويلتهم طعامه سريعاً. وإذا نظر إليه شخص غريب لا يعرفه ولا يعرف أنه مشلول فمن الممكن أن يظن أنه ليس رجلاً معافى تماماً عندما يراه يمتص محتويات بيضة ثُقبت قشرتها... كان هذا شيئاً فيه براعة بشرية لكنه يظهر تعجّلاً وجوعاً أكثر من الحد الطبيعي. ثم إنه يضع في هذه الأثناء قبّعته الغريبة المأخوذة من الجورب النسائي كأنها غنيمة من فتوحات سرية دفعته إليها شهية من نوع مختلف. كان مدركاً لهذا الأمر لأنه يفكر في كل شيء. وكان ذهنه يقوم، بطريقته الخاصة، بعمل يدعو إلى الإعجاب في كثير من الأشياء التي ينجزها، أو في كثير من الأشياء التي لم يكن يبالي بمنع نفسه عن فعلها، أو الأشياء التي لم يكن قادراً عن الامتناع عنها، أو الأشياء التي يظن أن الطبيعة البشرية تقتضي فعلها أو الاستمتاع بها أو الاستغراق فيها. وكان يثير اعتزازه أن مرضه لم يقتل قدراته بل ترك له قدرات أكبر من قدرات كثير من الرجال العاديين. لا معنى لقسم كبير من هذا الشعور عند أناس كثيرين... لم يكن يعاني تقززاً أو خجلاً من حالته، ولم يكن شيء ليستطيع منعه عن التعبير عن مشاعره بحرية. ولديه أمور كثيرة يهتم بها؛ كان رجلاً شديد الانشغال.

وكانت لديه فترة قصيرة يهتم فيها بالأشياء العملية، بعد تناول القهوة، عندما يرمي بثقله في الأمور المنزلية. إذ يستدعي تايني بافاتسكي المشعث الكئيب من القبو ليخبره ما يتعين عليه القيام به ويحذره من الشراب طيلة الليل. وكان بافاتسكي يمضي مستاء مكشّراً سطلّ يكلّم نفسه حتى يبدأ تنفيذ تلك المهام. لم تكن السيدة إينهورن ربة منزل جيدة حقاً رغم تذمرها من حالة أرض المرحاض ومن بصاق العجوز على الأرض. لكن إينهورن كان صاحب بيت فطن، وكان يهتم بأن يظل النشاط جارياً متواصلاً مندفعاً، وأن تتحسن الأمور دائماً ـ يهتم بأن تُقتل الفئران، ويُمَدّ الإسمنت في الفناء الخلفي، وبأن تنظّف الآلات وتزيَّت جيداً، وبأن يتم تجديد الألواح الخشبية في المدخل والمحافظة على النظافة وتغطية سلال القمامة ومسح النوافذ ورش مبيد الذباب. كان يستطيع أن يحدثك عن سرعة تكاثر الحشرات، وعن كمية المعجون التي يجب شراؤها من أجل تثبيت لوح من الزجاج، وعن أسعار المسامير وحبال الغسيل وأشياء أخرى كثيرة... تماماً مثلما كان أي عضو مجلس شيوخ في روما القديمة يعرف أشياء كثيرة عن الزراعة قبل أن تتغير نظرة الناس فيعتبروا هذه المعارف أمراً لا لزوم له. وعندما يتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام، يطلب أخذه

إلى المكتب على الكرسي ذي التصميم الخاص الذي يتحرك على عجلات مزقزقة. كان علي تنظيف المكتب من الغبار وجلب زجاجة كوكا كولا حتى يشربها مع سيجارته الثانية فيصبح جاهزاً لبدء قراءة البريد عندما أعود بها. كان بريده ضخم الحجم... لا بد له من بريد ضخم مكوَّن من مختلف أنواع المراسلات القادمة من أنحاء البلاد كلها.

وإذا كان الطقس حاراً (أقول هذا لأنني أتحدث عن أيام الصيف، خلال العطلات، عندما كنت أمضي نهاري كله معه) فإنه يرتدي صداره في المكتب. في الصباح، عندما يكون الوقت مبكراً، غالباً ما يكون الجو لطيفاً كأنك في البرية... وذلك قبل وقت طويل من بدء العمل المضني (من السذاجة أن يتوقع المرء من هؤلاء الناس غير العمل المضني إن أمضى معهم وقتاً كافياً). أشير هنا إلى زحمة الأعمال والحرارة بعد الظهر في صيف شيكاغو. لكن الوقت كان وقتاً للفسحة والتنفس. لم ينته المفتش من ارتداء ملابسه بعد. خرج إلى الشارع تحت الشمس مرتدياً شبشبه المنزلي. كانت حمالات بنطلونه مرخية وكان دخان سيجاره يتخلل شعره الأبيض مرتفعاً إلى الأعلى بينما استقرت يده مرتاحة في مكان عميق تحت حزامه. أما إينهورن فكان في الخلف بعيداً، في آخر المكتب، يفتح رسائله ويدلي بملاحظات من أجل تحرير الردود على تلك الرسائل، ثم يضع الأشياء في ملفاته أو يناولنيها للتحقق منها ـ أنا! (المساعد المحتار في أمره غالباً...) كنت أحاول أن أحزر سريعاً ما يريده من ألاعيبه الصغيرة الكثيرة هذه. وفي هذا الخصوص، ما كان هنالك شيء لا يفعله... تقريباً: يطلب أشياء للاطلاع عليها رغم أنه لا يعتزم شراءها أبداً ـ طوابع، وقوارير صغيرة من عطر الليلك، وحزم من الأكياس المصنوعة من الكتان، وورود ورقية يابانية تتفتح في الماء، ومختلف أنواع المواد التي يعلنون عنها في الصفحات الأخيرة من ملحق يوم الأحد في الجريدة. وكان يجعلني أكتب لهم بيدي فأضع أسماء متخيَّلة، ويلقي جانباً بالرسائل التي تطالبه بالدفع... طبعاً... كان يقول إن هؤلاء الناس كلهم يدرجون تلك المبالغ التي يخسرونها ضمن الأسعار التي يتقاضونها. وكان يبعث برسائل يطلب فيها كل شيء مجاني: عيّنات من المأكولات، والصابون، والأدوية، ومختلف المطبوعات التي تروّج لأي قضية من القضايا وتقارير جمعية علم الأعراق الأمريكية، ومطبوعات مؤسسة سميثونيان، ونشرات متحف بيشوب في هاواي، وسجلات الكونغرس، ونسخ عن القوانين، ونشرات دعائية وكراسات، وأدلة جامعية، وكتب الدجل الصحية، ونصائح عن تكبير الصدر وعن التخلص من البثور وإطالة العمر، والطبخ، وكراسات عن المذهب الفليتشري، وعن اليوغا، والتربية الروحية، ونشرات حركة مناهضة تشريح الحيوانات الحية. كان اسمه موجوداً على قوائم المراسلات في معهد هنري جورج، ومؤسسة رودولف شتاينر في لندن، ونقابة المحامين المحلية، و«الفيلق الأمريكي». كان مهتماً بأن يبقى على صلة بكل شيء. ويحتفظ بهذه المواد كلها فيرسل الفائض منها إلى القبو.

يأخذها بافاتسكي إلى القبو، أو آخذها أنا، أو لولي فيوتر التي تأتي ثلاثة أيام في الأسبوع لكيّ الملابس. ثم كان يبيع بعض هذه المواد للمكتبات عندما تنفد من الأسواق. ويعيد إرسال بعضها الآخر بالبريد إلى زبائنه بعد أن يضع خاتم إينهورن عليها، وذلك تعبيراً عن حسن نياته. كان مهتماً بالمسابقات أيضاً. ويدخل كل مسابقة يسمع عنها... اقتراح أسماء لمنتجات جديدة، أو تأليف شعارات. وكان يؤلف أقوالاً لامعة، ويصوغ لحظات محرجة وأحلاماً رائعة وتعاويذ تحذيرية. ويكتب عن تجارب في التخاطر عن بعد، ويؤلف أغنيات صغيرة أيضاً:

رحت أحلم عندما ظهر الراديو،

وصرت أوفّر كل قرش،

حتى إنني توقفت عن حلاقة ذقني.

سوف آخذ معي إلى قبري راديو داينامِيك العزيز!

فازت هذه الأغنية بالجائزة الأولى لمجلة إيفنيغ أميريكان، وكانت الجائزة خمسة دولارات. وكانت مهمتي أن أتابع ما يتم إرساله إلى المسابقات، وأن أهتم بصحة كتابة أسماء الرؤساء وعواصم الولايات، أو بإيجاد المجموع الصحيح للأرقام الصغيرة التي استخدموها في رسم بعض الأفيال. وعليَّ أن أجعل هذا كله أنيقاً، صحيحاً، موضوعاً ضمن حدوده المضبوطة، مع إرفاقه بالكوبونات والمغلّفات واللصاقات اللازمة. وأن أبحث في المراجع من أجله، في المكتب أو في مكتبة المدينة، لأنه لديه مشروع إعداد طبعة من أعمال شكسبير مزوّدة بالملاحق المرجعية الكاملة مثل «إنجيل غيديون»: أعمال راكدة، طقس سيئ، زبائن متعبون، مشكلات متعلقة بالجرد النهائي آخر السنة، نساء، زيجات، شركاء. وكان علي أن أسجل صفقات تتراوح من ألف دولار إلى عدة بنسات... من غير أن تكون الطلبية كبيرة أكثر مما يجب ومن غير أن يكون المجموع صغيراً أكثر مما يجب.

وكان طيلة الوقت كثير الكلام، كثير المزاح، كلاسيكياً، فلسفياً، واعظاً، عاطفياً، مقلداً الوضعيات الفرنسية والسخافات التي يراها المرء في محلات شارع كلارك، متحدثاً عن الصور الإباحية المختلفة، ممازحاً لولي فيوتر الشابة التي أتت من مناجم الفحم منذ وقت قصير... تلك الفتاة بعينيها الخضراوين التي لا تحاول إخفاء الحرارة فيهما، وصدرها المنمَّش الظاهر أمام جمهرة الرجال عندما تأتي حاملة خرق التنظيف بمشيتها المهتزة. نعم، كان إينهورن الحريص على اعتدال جلسته بساقيه الميتتين ينفي وينكر من غير تردد أنه مختلف عن غيره من الرجال. ما كان الحديث عن شلله ليزعجه أبداً؛ على

العكس، كان يفاخر به أحياناً باعتباره شيئاً تمكن من التغلب عليه... يقول هذا بطريقة رجل الأعمال الناجح الذي يخبرك عن الفقر الذي عاشه في مزرعة خلال طفولته. لكنه لم يكن ليفوت أبداً أي فرصة للاستفادة من ذلك الشلل. كان اسمه على قوائم المراسلات لدى الشركات التي تبيع الكراسي المتحركة والعكازات والتجهيزات الخاصة بالمشلولين. وكان يرسل لها ورقة يطلق عليها اسم «توضيح». خطاب مؤلف من صفحتين عامرتين بالملاحظات والمقتطفات المأخوذة من المقالات ومقاطع عاطفية من كتاب إلبرت هوبارد وغيره. «ليس كما يكون العبد المعذّب في مكان العمل الشاق»، بل مثل يوناني نبيل رزين؛ أو ذلك المقطع المأخوذ من ويتير: «أنت أمير رغم ذلك، رجل ناضج من الحزب الجمهوري»، وأشياء من هذا القبيل... «ابنِ لنفسك قصوراً أكثر عظمة، أوه يا قلبي!» أما الصفحة الثالثة فكانت متروكة للرسالة التي يريد كتابتها. كنت أنسخ هذه الورقة على الآلة ثم أخرز الصفحات معاً وآخذها إلى مكتب البريد... كان هذا يخيفني أحياناً، يجعلني أحس بحكة في رقبتي. لكنه كان يعتبر ذلك كله سلسلة من التوضيحات التي لا بد منها. كانت شيئاً يساعده أيضاً فهي تأتيه بقدر غير قليل من الأعمال المتعلقة بالتأمين لأنه كان يضع توقيعه كالتالي: «ويليام إينهورن، وسيط للعقارات والتأمينات في الحي»، وكانت هنالك شركات كثيرة تدفع التكاليف. أريد تشبيهه بجدتي لوش من جديد: كان يعرف كيف يستخدم المؤسسات الكبيرة لصالحه. وكان له موقع مهم عند ممثليها ـ رجل رزين الوجه ذو شارب صغير ذكيّ وحركة عينين ذكية يقظة؛ أما ذراعاه اللتان تشبهان جناحَيْ دجاجة فساكنتان دائماً. كان يضع مشدّات على أكمامه. مظهر آخر من مظاهر الملابس النسائية. وكان يحاول جعل شركات تأمين كثيرة تقدم له عروضاً تنافسية حتى يزيد عمولته.

إن للضغوط الكثيرة المتكررة المفعول نفسه الذي يكون للضربة القوية... هكذا كانت طريقته. وكان معتزاً خاصة لأنه يعرف كيف يستخدم الوسائل التي يوفرها عصرنا لكي ينفّذ خِدَعاً لا تقل عما يستطيعه غيره؛ أما في زمان أقل تقدماً فلعله يكون ملقى في أحد الأكواخ، أو لعله يكون مضطراً أن يساعده أحد حتى يصبح متسوّلاً أمام إحدى الكنائس... حالة قريبة من الموت، بل هي أسوأ لأنها تذكّر المرء بالصعوبات الكبيرة التي يتعين عليه اجتيازها حتى قبل أن يصير ميتاً. أما الآن ـ نعم، لعله ليس من المصادفة في شيء أن كان هيباستوس الذي اخترع آلات عبقرية شخصاً مقعداً؛ لن يكون أي رجل معافى مضطراً إلى رفع نفسه بسلاسل وعتلات وأدوات معدنية حتى يتجاوز العقبات. ثم إن قدرة إينهورن على إنجاز هذه الأشياء كلها أمر منسجم مع التقدم البشري، خاصة أن بني البشر جميعاً صاروا مفتونين بالتطبيقات الآلية. وهذا ما يجعله ليس أكثر من غيره اعتماداً على الآخرين الذين لا يستطيعون فعل شيء من غير تلك الأدوات والمحركات والآلات والأبواب المنزلقة والخدمات العامة. وهذا ما يعفيهم من المشَقات الصغيرة التي تشكل مركز الامتحان

الرئيسي للإنسان. إذا صادفت إينهورن في مزاج جاد... عندما يكون وجهه السمين النبيل غارقاً في التفكير، فسوف يعطيك معلومات عميقة عن العصر الآلي، وعن القوة والضعف، إضافة إلى سرد موجز صغير عن تاريخ الأشخاص المقعَدين ـ غباء الإسبارطيين، وحقيقة أن أوديب كان رجلاً أعرج، وأن الآلهة القديمة كانت مبتورة الأطراف غالباً، وأن موسى كان يتلجلج في كلامه، وأن ديمتري العراف كان ذاوي الذراعين، وأن هنالك من يقول إن قيصر كان مصاباً بالصرع، وأن اللورد نيلسون كان يثبت كم معطفه بدبوس فوق ذراعه المبتور ـ لكنه يحب الحديث خاصة عن عصر الآلات وعن الفوائد التي يمكن جنيَها منه. أما أنا، فكنت مثل جندي يتلقى محاضرة من ضابط يشعر برغبة في إظهار قدراته الخطابية.

كنت مستمعاً جيداً بحكم تربيتي. أما إينهورن بجلاله ومعلوماته الواسعة وقدراته الخطابية فما كان مهتماً اهتماماً خاصاً بأن يكون لكلامه تأثير علي. لم يكن مثل جدتي التي تمارس دوراً تربوياً علينا. أراد فقط أن ينطلق حراً وأن يكون فصيحاً محط إعجاب. لم يكن يفعل هذا بطريقة أبوية. وما كان لي أبداً أن أفكر في أنني صرت جزءاً من العائلة. كانت فرصة حدوث ذلك ضئيلة جداً، أن أكون مثل آرثر، الابن الوحيد. فهم يطلبون مني أن أخرج عندما يبدأ بينهم حديث من الأحاديث العائلية المهمة. وحتى يكون واثقاً تماماً من أن أي فكرة من هذا النوع لن تخطر في بالي، كان إينهورن يطرح عليَّ من حين لآخر أسئلة عن أسرتي وكأنه لم يحصل على معلومات كافية عن طريق كوبلين وكرِيندل وكليم وجيمي! كان ذكاء منه أن يتصرَّف معي بهذه الطريقة. وإذا كانت لدى جدتي أفكار عن ثريّ ما يمكن أن يعجَب بنا، سايمون وأنا، وأن يجعل حظنا طيباً، فإن إينهورن كان عكس ذلك تماماً. وما كان لي أن أفكر أبداً في إمكانية أن يدرج اسمي في وصيته بصرف النظر عن قرب العلاقة بيننا وعن محبته لي. فالأشياء التي كنت أقوم بها من أجله ليست إلا أشياء يمكن أن يؤديها أي شخص آخر فيصبح على علاقة حميمة به. كانت تزعجني أحياناً شدة حرصه، وشدة حرص السيدة إينهورن أيضاً، على التأكد من أنني أدرك موقعي. لكن، لعلهما كانا محقَّين؛ فقد زرعت جدتي العجوز هذه الفكرة في رأسي رغم أنني لم أكن أتعامل معها تعاملاً جدياً على الإطلاق. لكن الفكرة كانت موجودة، ولعلها هي ما كان يجعلني أشعر أحياناً بشيء من المهانة. كان إينهورن وزوجته شخصين أنانيين. لا أقصد القول إنهما بخيلان. عليَّ أن أكون منصفاً وأن أعترف بهذا. وأنا قادر على أن أكون منصفاً في هذا الأمر بشكل عام. لكنهما كانا أنانيين فقط، مثل شخصين يستمتعان بطعامها على العشب من غير دعوتك للانضمام إليهما. إذا لم تكن شديد الرغبة في الحصول على شيء من الطعام فقد يكون منظرهما جميلاً وهما يبسطان الخردل ويقطعان الخبز ويقشّران البيض والخيار. لكن إينهورن كان أنانياً رغم ذلك. كان أنفه لا يتوقف عن تشمّم كل شيء، بشكل يوحي أحياناً بالميل الشديد إلى التقشف. صحيح أنه كان ينظر بنصف عينه إلى من يراقبون المشهد، لكن وجودهم ما كان ليثنيه عن شيء أبداً.

لا أظن أنني سأعتبر نفسي، حتى من بعيد، صاحب نصيب في وصية المفتش، وقد كانوا يؤكدون دائماً على بُعد ذلك عني... وكانوا يتحدثون عن موضوع الإرث دائماً.

لكن هذا أمر طبيعي لأنهم كانوا غارقين دائماً في أحاديث التأمين والعقارات والدعاوى القضائية والإجهاض غير القانوني والشراكات الفاشلة والامتناع عن الدفع والنزاعات المتعلقة بالوصية. هذا ما يسمعه المرء عندما ينعقد نادي المفتش الذي يضم أصدقاءه من أصحاب الوزن الثقيل الذين تبدو عليهم علامات النعمة المؤكدة ـ الخواتم والسيجار والأحذية الفاخرة والقبعات الجديدة. كانت علائم وضعهم الاجتماعي ظاهرة عليهم. وكانوا مصنَّفين أيضاً إلى درجات بحسب الحظ والحكمة والمولد، وبحسب سلطتهم على زوجاتهم أو سلطة زوجاتهم عليهم، وبحسب كثرة زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم، ودرجات تشوّههم، أو بحسب الأدوار التي يلعبونها في المسرحيات الكوميدية والتراجيدية والجنسية؛ بحسب ما إذا كانوا فاعلين أو مفعولاً بهم، وما إذا كانوا هم من يتلاعبون بأقدارهم أو ما إذا كانت أقدارهم تتلاعب بهم فترفعهم وتخفضهم وترميهم؛ وكانوا مصنَّفين أيضاً بحسب قدرتهم على الاحتيال وإنجاز عمليات الإفلاس الذكية، وبحسب الحرائق التي أشعلوها، وآفاقهم في الحياة، ونظرتهم إلى الموت. وكانوا مصنَّفين بحسب فضائلهم أيضاً: أي خمسيني بينهم كان شخصاً طيباً، متبرّعاً، صديقاً، رجلاً متعاطفاً، رجلاً شجاعاً، رجلاً صاحب حسابات حريصة، شخصاً مستعداً لتقديم قرض خيري رغم عدم قدرته على كتابة اسمه عليه، متبرّعاً سخياً للكنيس، حامياً لأقاربه البولنديين. كان الأمر معروفاً، واضحاً: يتمتع إينهورن بهذه الخصال كلها. ومن الواضح أن الجميع كانوا يعرفون كل شيء عن ذلك. كانت هنالك مداولات صريحة وكثير من الاحترام المتبادل. على أن هنالك أيضاً كثرة من الأشياء الوضيعة. لكن ما المشكلة حتى إذا كان الأمر هكذا؟ كانت المواضيع التي تدور ضمن دائرة المقاعد تلك أو خلال لعبة البيناكل في الغرفة الملحقة بالمكتب الجانبي أموراً متعلقة بالأعمال كلها تقريباً ـ الحراسات والإهلاكات والوصايا، لا شيء غير هذا من الناحية العملية. ومثلما تميز الدقة منتجات شركة لابرادور، تميز سهولة التنفس قمم جبال الأنديز، ويميز العمق ذلك الخندق القابع عند اتصال القارّتين تحت المحيط. وعلى الجدران، كانت ملصقات تأمينية لأشخاص خائفين من الحرائق ومن قرض الجرذان الخفيّ في عوارض السقف، ومن زوجات يسقطن فتسقط معهنّ الرفوف بما عليها. يبين هذا كله كم يكون المرء عاجزاً عن تجنّب الكلام على مسألة الإرث. هل كان المفتش العجوز معجَباً بي؟ صحيح أن السيدة إينهورن كانت امرأة لطيفة في العادة، إلا أنها تلقي عليّ من حين لآخر نظرة تذكر بنظرة سارة إلى هاجر وابنها. ذلك رغم عدم وجود شيء يقلقها من ناحيتي... لا شيء مطلقاً. لست من دمهم. كما أن لدى المفتش العجوز أفكارٌ متعلقة بذريته أيضاً. ومن ناحيتي، لم أكن أحاول أن أشقّ طريقي إلى ذلك

الإرث حتى آخذ أي جزء مما سيؤول إلى ابنها آرثر الذكيّ المثقف. كان المفتش مولعاً بي بالتأكيد، وكان يربت على كتفي ويعطيني بقشيشاً. ولم يكن يفكر في أمري أكثر من ذلك.

لكن تيلي كانت تجد في إينهورن وأبيه لغزاً. كان شعرها المندفع الفرعوني نامياً من رأس كبير من الناحية المادية فقط، إلا أنها كانت عاجزة تماماً عن توقع ما يمكن أن يجول في ذهنَيهما. يصح هذا الكلام على زوجها خاصة، زوجها الذي كان مطواعاً هشاً كثير التغير. كانت تطيعه طاعة مخلصة متفانية وتلبّي ما يطلبه وتنفذ المهام التي يكلفها بها مثلما نفعل كلنا. كان يرسلها إلى قاعة المدينة طالباً معلومات من مكتب السجلات أو من مكتب التراخيص. يسجل ما يريده على الورق لأنها لم تكن قادرة أبداً على توضيح ما تطلبه. فتعود إليه بالمعلومات مكتوبة بيد الموظف. وحتى يبعدها عندما يريد أن يفعل شيئاً كان يرسلها لتزور ابنة عمها في الناحية الجنوبية من المدينة... يجعلها تمضي النهار كله في وسائل النقل. كان يفعل هذا حتى يكون واثقاً من أنها ابتعدت بما فيه الكفاية. وفوق هذا، كانت تدرك ما يفعله.

لكن، لنفترض الآن أننا في وقت الغداء في يوم من أيام إينهورن النموذجية. ما كانت السيدة إينهورن تحب الانشغال في المطبخ بل كانت تفضل الوجبات السهلة أو الوجبات الجاهزة، والمأكولات المعلبة، وسمك السلمون مع البصل والخردل، أو الهامبرغر والبطاطا المقلية. لم يكن الهامبرغر مثل ذلك النوع المسطح الذي يشتريه المرء من المطاعم المتحركة، ذلك النوع المليء بدقيق الذرة، بل قطع كبيرة من اللحم متبَّلة بكثير من الثوم ومقلية حتى تصير قاتمة اللون. كانت مغطاة بالفجل الحار والصلصة اللاذعة... لم يكن ابتلاعها سهلاً. كان هذا طعام البيت ضمن نظامه العادي. جزءاً من روائحه وأثاثه. وإذا تصادف أن تكون عصفوراً زائراً في تلك اللحظة فإنك تأكل معهم طعاماً لم تأكله من قبل ولا يكون لديك ما تتذمر منه أبداً. ما كان المفتش ولا إينهورن ولا دينغبات يطرحون أسئلة في ما يخصّ هذا الأمر، لكنهم كانوا يأكلون الكثير ويشربون الشاي أو الكوكاكولا كعادتهم. ثم يأخذ إينهورن ملعقة كبيرة من البيزودول وكأساً من المياه المعدنية من أجل الغازات. يجعل الأمر يبدو نكتة، لكنه لم يكن ينساه أبداً لأنه يتعامل بكثير من الجدية مع هذه العملية. كان يحرص على ابتلاعها جيداً. بكل الجدية بعض الأحيان عندما يتصرف مثلما يتصرف طبيبه. وكان يحب أن يقول إنه قاتل الأطباء، الأطباء الذين لم يعطونه فسحة كبيرة من الأمل خاصة. يقول: «دفنت اثنين منهم أخبراني أنني لن أعيش أكثر من سنة. وقبل أن تنتهي السنة ماتا كلاهما». كان يسره أن يقصّ هذه القصة على الأطباء الآخرين. لكنه كان يعتني بنفسه بحماسة شديدة ويمزج هذه الحماسة بسخرية طفل شقي... يسخر من عنايته تلك... كأنه يجلد نفسه؛ ويجعل لسانه يتدلى من فوق شفته فيبدو منظره هزلياً أحمق، وينظر بعينين زائغتين يميناً وشمالاً. لكنه، رغم ذلك، يفكر دائماً في صحته ويتناول

المساحيق وأقراص الحديد وحبات الكبد. تكاد تستطيع القول إنه يحاكي أفكاره الخاصة عبر جسمه كله الذي بدأ الموت يتغلغل فيه، إلى مركز دماغه، إلى عضوه الجنسي وعينيه المتفحّصتين. نعم، بالتأكيد، كان لا يزال صاحب اهتمام مستمر. لا يزال هكذا فعلاً، لكنه كان مضطراً إلى التفكير في نفسه أكثر ما يفعل الآخرون لأنه سيخسر كل شيء إذا أخطأ، لا غفران لأخطائه، يخسر كل شيء وينتهي تماماً، يصبح صفراً. أعرف هذا لأنه يفصح عن كل شيء. ومع أنه لا يتكلم صراحة عن مقدار المال الذي لديه في البنك أو عن كمية العقارات التي يملكها، فإنه صريح تماماً في ما يتعلق بالأشياء الأساسية، وقد كان يكشف لي عما في ذهنه خاصة عندما نكون معاً في مكتبه منشغلين بواحد من مشاريعه التي تفنن فيها كثيراً فتجاوزت منهجيته المعتادة إلى درجة ينتهي الأمر معها إلى تركيبة فائقة الضخامة لا يستطيع المرء تحريكها ولا إدارتها.

«أوجي، تعرف أن شخصاً آخر لو كان في وضعي يمكن أن يصبح خارج الحياة نهائياً. هنالك على أية حال نظرة إلى الإنسان تعتبره مجرد كيس من الأمعاء الجائعة؛ تجد هذا في هاملت، تجد منه الكثير، قدر ما تريد. كم هو الإنسان تحفة، تحفة سماؤها مزينة بالذهب تمكنت من إنجابه رغم كل شيء. انظر إليّ! لست حتى قادراً على الحركة كما يجب. يمكنك القول إن رجلاً مثلي يجب أن نتوقع منه الاستلقاء والخروج من الصورة. لكني أدير شركة كبيرة بدلاً من ذلك» ـ لم يكن ذلك حقيقة صافية لأن المفتش لا يزال يلعب دور العجلة الرئيسية في الشركة؛ لكن ما قاله عن نفسه يظل مثيراً للاهتمام ـ «لن يلومني أحد إن جلست لأتعفّن تحت بطانية في الغرفة الخلفية أو إذا رحت أبكي وأتحسّر على نفسي بينما يتجول أشخاص معافون من حولي فلا أطيق النظر إليهم. ولد مثلك مثلاً، قوي مثل حصان، وردي مثل تفاحة، شخص يحبه الناس مثل السيبياد، ويحبه الرب. لا أعرف مدى القوة الذهنية لديك لأنك لا تزال في عمرك هذا لعوباً إلى حد لا يسمح بمعرفة ذلك. وحتى إذا اتضح أنك أذكى مما أظن، فإنك لن تبلغ أبداً مرتبة ابني آرثر. ليس لك أن تغضب لأنك تسمع الحقيقة مني. أنت محظوظ إذا وجدت من يُسمعك الحقيقة. لكنك لست في حال سيئة لأنك واحد ممن يشبهون السيبياد. تجد أمثالك من المخلوقات دائماً طريقاً للتقدم. إياك والظن بأنهم لم يكونوا يكرهون السيبياد الأصلي. كلهم كانوا يكرهونه ما عاد سقراط الذي كان بشعاً مثل كلب عجوز مثلما يقولون. ليس لأن ذلك الشاب كسر قضبان التماثيل المقدسة كلها قبل أن يرسلوه إلى صقلية. لكن، لنعد إلى موضوعنا! هنالك فارق بين أن يُدفن المرء مع مسراته كلها وبين غرسه في الأرض غرساً أمام تلك المسرات حيث يظل قادراً على رؤيتها. أليس هنالك فرق؟ أنت في حاجة إلى عبقرية حتى تعلو فوقها...».

بعد ظهر هادئ، هادئ، هادئ، في غرفة المكتب الخلفية. ومشمع ممدود على طاولة المكتبة، وتماثيل على الجدران، وسيارات غير مرئية تشخر وتهتز ماضية صوب المنتزه،

وشمس تشع في فناء البيت خارج النافذة من خلال المسافة الفاصلة بين البيوت، وكرات البلياردو تتصادم وتقفز على سطح من المخمل والإسفنج المطاطي، والباب الخلفي لبيت متعهد دفن الموتى ساكن لا يتحرك، وقطط جالسة في ممرات الحدائق الوقور عند ممشى نظيف مكنوس لا تطأه إلا نادراً قدما الشماسة الدانماركية التي تشد وشاحها فوق ذقنها وتظهر على شرفة بيتها المطلية دائماً والمحرومة من الأطفال.

يزعجني هذا بعض الشيء! تزعجني الطريقة التي يقارنني بها مع ابنه. لكني لا أرفض أن أكون السيبياد وأن يكون هو ضمن الفئة نفسها مع سقراط لأن هذا ما كان يحاول تحقيقه. إن المقارنة بيننا تشبه المقارنة بين الملوك الإنكليز المدرَّعين بالسلاسل وبين بروتوس. لا أرى ما يمنع أن يحاول المرء جاهداً تصنيف نفسه مع أحسن الناس. لكني لا أستطيع أن أجاري مئة بالمئة رجلاً مثل القس المحترم بيتشر الذي يقول لرعيته «أنتم آلهة، أنتم جواهر، وجوهكم مشعة!» لست متفائلاً إلى هذه الدرجة، على الأقل فيما يتعلق بالوجوه الحقيقية التي رأيتها مجتمعة أو فرادى. وأنا أعترف دائماً أن البصيرة الحقيقية نعمة من الله، خاصة في أوقات تتشوه فيها الأشكال وتعم العالم فوضى بابلية، وعندما تكون الحجارة البشعة والصخور البركانية أكثر شيوعاً من الجواهر (في أعين محتفظة بقدر ما من احترام الذات)، وكذلك عندما يبدو من حسن التصرف أن يصف المرء تلك الحجارة بأنها حجارة ثمينة بعض الشيء. لا أدري أين يمكن، في الخليقة كلها، أن تكون هنالك مفاجأة في صيحة تقول «أنا رجل!» لكني كنت مستعداً دائماً، ولا أزال، للمغامرة بالقدر الممكن رغم أنني لم أصل حد الخضوع لتأثير إينهورن مثلما يريد في لحظاته الكبرى عندما يكون مرتدياً بنطلونه الرسمي وربطة عنقه واضعاً قدميه العاجزتين المعوجّتَيْن على مسند كرسيه المتحرك الشبيه بمسند الأقدام في كرسي الحلاق، كرسيه المتحرك الذي صنع وفقاً للمواصفات التي طلبها بنفسه. لم أكن قادراً أبداً على تحديد إن كان يقصد أنه شخص عبقري أو أن لديه شخص عبقري؛ وأظن أنه تعمّد أن يظل في معنى كلامه قدر من الشك. لم يكن رجلاً يمكن أن يقرّ ويعلن صراخة بأنه ليس عبقرياً بينما لا تزال عنده فرصة لأن يكون كذلك... يمكن أن يكون هذا حسناً أو سيئاً. بالنسبة لبعض الأشخاص، مثل أخيه غير الشقيق دينغبات، كان إينهورن عبقرياً. كان دينغبات يقسم دائماً ويقول: «ويلي ساحر. أعطه أجهزة هاتف محطمة لا تساوي شيئاً وسوف يجني منها مالاً». كانت زوجته من هذا الرأي دائماً... من غير تحفظ. كانت ترى إينهورن ساحراً. كانت موافقة على كل ما يفعله ـ يشمل ذلك أشياء متنوعة كثيرة. لم يكن عندها أي سلطة أعلى منه، ولا حتى ابن عمها كاراس الذي يملك شركة هولوواي للمشاريع والإدارة والذي كان شيطاناً في صنع المال أيضاً. كاراس، تلك الشخصية الرفيعة السيئة، صاحب المعدة التي تهضم الجمر، الحكيم من كل النواحي، المتأنق دائماً، صاحب الابتسامة الصغيرة الخبيثة والعينين المبتزَّتين... كانت شديدة الإعجاب به هو أيضاً، لكنها لم تكن لتضعه في مرتبة زوجها أبداً.

على أن إينهورن ما كان يحرم نفسه من الملذات أيضاً. كان يلاحق هذه المرأة أو تلك. وكانت لديه حاجة خاصة لفتيات مثل لولي فيوتر. يفسّر الأمر بأنه يسير على منوال أبيه. كان المفتش، بطريقته العطوفة الناعسة الدافئة المسحورة، يربت على النساء ويبدي إعجابه بهن ويضع يديه حيثما يشاء. أظن أن النساء ما كن يغضبن كثيراً عندما يحييهن بهذا الأسلوب لأنه كان يعرف كيف يلتقط ما تعتبره كل واحدة نقطة مميزة عندها، نقطة تعتز بها أكثر من غيرها ـ اللون، الصدر، الشعر، الردفين، وكل الأسرار والحيل الصغيرة التي يتعمدن إبراز أشياءهن الحسنة بها. لا يكون المرء مصيباً إن قال إنه شخص صاحب نزعة شهوانية من النوع المعتاد؛ كان الأمر نوعاً من الاهتمام الذي يبديه رجل عظيم أو أسد مسنّ من أسود البحر. كان يتحسس المتزوجات وغير المتزوجات بيديه الذكوريتين العجوزتين الكبيرتين المبقعتين، بل يتحسس حتى الفتيات الصغيرات بحثاً عما يمكن أن يصبح متميزاً عندهن. وما كان أحد يشعر بالاستياء من ذلك ولا من الأسماء التي يخترعها... أسماء من قبيل «الأميرات العجيبات» أو «الزلاجة الصغيرة» أو «السيدة أمس» أو «الحمامة الطويلة». كان رجلاً متميزاً عجوزاً. وكان راضياً مرضياً. يستطيع المرء أن يحس المسرات الحقيقية التي كانت بينه وبين نساء صرن عجائز الآن أو متوفيات، نساء لعله يرى ملامحهن ويحييها في هذا الأنف أو في ذلك الصدر.

لم يكن ولداه يقاسمانه هذه الصفة. لا يتوقع المرء طبعاً أن يكون لدى رجال أصغر سناً هذا النوع من الصفاء الراغب في الانتقام لماضيه، لكنهما كانا خاليين من معظم ما لديه من اللامبالاة والنزعة التأملية. يتميز دينغبات بمشاعر أكثر رومانسية من أخيه. ونادراً ما كان يمر وقت من غير أن يكون مشغولاً بفتاة لطيفة. كان ينظف نفسه ويرتدي ملابسه قبل أن يذهب لرؤيتها... يفعل ذلك باحترام صادق غاضب ملهوف. يبدو أحياناً على وشك البكاء لشدة هيامه. يخرج من الحمام المعطر فاتحاً قميصه النظيف المنشى كاشفاً عن شعر صدره الهزيل ويذكرني بإحضار باقة الورد من محل بلوغرين. كان يبدو على الدوام عاجزاً عن فعل ما يريد فعله لهذه الفتيات، ولم ير نفسه أبداً جديراً بأي منهن. وكلما احترمهن أكثر كلما صاحب المومسات بين واحدة وأخرى... مومسات يلتقطهن من ملهى فويون باراديس ويأخذهن إلى فورست بريقرز في شتوتز أو إلى فندق صغير في ويلسون آفينيو يملكه كاراس ـ هولوواي. أما على العشاء العائلي في أمسيات أيام الجمعة، فغالباً ما تكون معه خطيبة... معلمة بيانو مرة، ومصممة أزياء مرة أخرى، أو بائعة كتب، أو مجرد فتاة تعيش مع أهلها. تضع الفتاة خاتم الخطبة وغيره من الهدايا. ويجلس دينغبات متخشّباً سخيف المظهر في ربطة العنق المشدودة يدعوها مخلصاً بصوته الأجش القاتم المنخفض بكلمات من قبيل «حبيبتي» أو «إيزابيل الحبيبة» أو «جانيس يا عزيزتي».

أما إينهورن فما كانت لديه هذه العواطف على الإطلاق. كان يخصص ما لديه من

عواطف لأمور أخرى. كان يقلد تصرفات أبيه المازحة لكن وقعها لم يكن مماثلاً. لا يعني هذا أنها لم تكن مضحكة بل يعني أنه كان يفعلها وهو يتعمَّد هدفاً محدداً: الإغراء. وأما المضحك في الأمر فهو كونه مقعداً. كان يسخر من الأمر هو نفسه؛ وما كان يخفي قوله للنساء إنهن يمكن أن يعثرن على ما يفاجئهن إذا ما تعمقن حتى بلغن الشيء الحقيقي، الشيء الذي لم يصبه العجز. كان يعدهنَّ بهذا. وهكذا كان ينشر سحره الشهواني الخبيث بحيث يبدو في الظاهر آمناً تماماً كأنه قس دنيوي أو رجل عجوز لا خطر في قبول مزحة أو دغدغة مجاملة منه، لكن ذهنه يكون متجهاً إلى شيء محدَّد حقاً، يكون مثبتاً على شيء واحد بعينه، على ذلك الشيء نفسه الذي يجمع بين رجل وامرأة. كان يفعل الشيء نفسه معهن جميعاً من غير أن يحظى بأي قدر مهم من النجاح بطبيعة الحال... لكنه كان يأمل في أن واحدة منهن... جميلة، منفتحة، مفتونة به، راغبة في أن تلعب لعبة سرية، وربما منحرفة بعض الشيء، يمكن أن تراه أو تلمحه أو تشتهيه، أو تحترق من أجله. كان يأمل في هذا ويبحث عنه في كل امرأة.

لم يكن إينهورن ليقبل بأن يظل مقعداً؛ ما كان قادراً على حبس روجه في دائرة عجزه. كان هذا مخيفاً أحياناً!... يفقد صوابه كلما فكر فيه مرة بعد مرة حتى يتأقلم مع حالته فيصبح مثل ذئب حبيس في حديقة الحيوانات يأتي ويذهب في قفصه داساً خطمه في زوايا الجدران. لم يكن هذا يحدث كثيراً! لعله لم يكن يحدث أكثر مما يحدث الناس العاديين عندما يصيبهم مَسٌّ من الشيطان. لكنه كان يحدث. إذا جاع، أو إذا أصابه برد أو شيء من الحمى، أو عندما تهتز الشركة قليلاً، أو عندما لا يبدو له مركزه بارزاً بما فيه الكفاية ولا يتلقَّى الحجم المعتاد من الاحترام أو الكمية اللازمة من المراسلات... أو عندما تأتيه نوبة من نوبات الحقيقة التي يخشاها فتشيع اضطراباً في العناصر المكوِّنة لحياته. يقول عند ذلك: «كنت أفكر في الانتحار إذا لم أستطع المشي من جديد. كنت أتلقى تمرينات ومعالجات وأنواع من التدليك، وكنت أظن أنني إذا ركزت على عضلة بعينها فإنني أستطيع بناءها من جديد بقوة إرادتي. لكن هذا كله كان كلاماً فارغاً يا أوجي، نظرة طبية، وأشياء من هذا القبيل. أشياء من أجل ضعاف العقول. لكن هذا قابل للتطبيق... إنه من تلك الأشياء التي تحدث عنها تيودور روزفلت العظيم في كتبه. لا يعرف أحد كم يبلغ عدد الأشياء التي جربتها قبل أن أتوصَّل أخيراً إلى أن هذا عبث كله. لم أكن قادراً على تقبل الأمر، وقد تقبلته. لا أستطيع التعايش مع هذا، لكني متعايش معه. أما الآن... يمكنك أن تتعايش تسعة وعشرين يوماً مع مشاكلك، لكن اليوم الثلاثين يأتي دائماً فتجد نفسك غير قادر على التعايش... تجد نفسه مثل ذبابة عالقة في فخ. تفكر عندها في أنك ذلك العجوز في البحر يتعلق برقبة السندباد. ما الذي يجبر أي إنسان على تحمل عبء شخص عديم النفع متعلق بالحياة إلى هذه الدرجة؟ لو كان لدى المجتمع أي قدر من الفهم لمنحوني فرصة القتل

الرحيم... لتركوني مثلما يترك الإسكيمو عجائزهم في كوخ جليدي مع طعام يكفي يومين فقط. لا تكن بائساً إلى هذا الحد! اذهب! اذهب وانظر إن كانت تيلي تريد منك شيئاً».

لكن هذا كان يحدث في اليوم الثلاثين فقط، أو على نحو أكثر ندرة من ذلك، لأنه كان يتمتع بصحة جيدة معظم الوقت ويعتبر نفسه مواطناً مفيداً بل استثنائي أيضاً. وكان يفاخر بأنه لا يعجز عن شيء إذا عقد عزمه على تحقيقه. وكان ينجز بعض الأشياء المتميزة حقاً. كان يبعدنا كلنا عن طريقه ليخلو مع لولي فيوتر. كان يرتب ذهاب الجميع بالسيارة إلى نايلز كورنر حتى يرى المفتش عقاراً من العقارات. وكان يستعد ظاهراً لأن يشغل نفسه بشيء من العمل خلال غيابنا (تكون الملفات والمعلومات اللازمة موضوعة أمامه على الطاولة). كان متمهلاً، مهتماً، لطيف المزاج يجيب عن أي سؤال إجابة كاملة بل يؤخر انطلاقنا أحياناً ليتحدث قليلاً مع والده عن واجهات ذلك العقار أو عن التحسينات المطلوبة فيه. «انتظر حتى أريك على الخريطة المكان الذي يصل إليه الباص. هات الخريطة يا أوجي!» كان يجعلني أجلب الخريطة ويستوقف المفتش حتى ينفذ صبره بينما يطلق دينغبات بوق السيارة وتكون السيدة إينهورن جالسة مع أكياس الفاكهة في المقعد الخلفي وهي تصيح: «هيا، الجو حار، يكاد يغمى عليَّ هنا». أما لولي فتكون في الممر بين البيت والمكتب متحركة جيئة وذهاباً بخطواتها البطيئة حاملة خرقة التنظيف في ذلك المكان ذي الإضاءة الخافتة... تتحرك ناعمة ضخمة مرتاحة من الحر في قميص رقيق وصندل من القش كأنها صبية صغيرة تمشي مع لعبتها محتفظة لنفسها بابتسامة صغيرة تجاه هذه اللعبة الأمومية، هذه اللعبة بين رجل وامرأة... تنتظر متكاسلة لا مبالية... يمكن القول إنها تدخر قواها من أجل اللعبة التي ستأتي بعد قليل. حاول كليم تامبو أن يشرح لي كيف يحدث ذلك لكنه لم يستطع إقناعي، ليس بسبب غرابة الفكرة فقط ولا لأنني كنت أكن احتراماً صبيانياً لإينهورن، بل لأنني حاولت مع لولي أنا أيضاً. كنت أجد أسباباً حتى أكون معها في المطبخ عندما تكوي الملابس. وكانت تخبرني عن أسرتها في منطقة مناجم الفحم في مقاطعة فرانكلين، ثم عن الرجال هناك وعما حاولوا فعله معها، وما فعلوه. كانت تجعل المشاعر تغمرني. كانت تلك الإيحاءات وحدها تجعلني غير قادر على الثبات. وسرعان ما يبدأ التقبيل والتلمّس. كانت تبعد يدي عنها تارة وتقودهما تارة أخرى داخل ثوبها وتعطيني بعض التعليمات ساخرة من أنني لا أزال غراً. وأخيراً، لشدة لطفها، قالت لي ذات يوم إنني أستطيع مرافقتها إلى البيت إذا عدت إليها عند المساء. تركتني مستثاراً إلى حد جعلني غير قادر على المشي تقريباً. اختبأت في صالة الألعاب خشية أن يرسل إينهورن في طلبي. لكن كليم جاء حاملاً منها رسالة تقول إنها غيرت رأيها. أزعجني هذا قليلاً لكن أظنني شعرت بأني تحررت من أزمة أيضاً. قال كليم: «ألم أقل لك؟ أنتما تعملان لدى الشخص نفسه.

وهي عشيقته الصغيرة. عشيقته وعشيقة بعض الأشخاص الآخرين أيضاً. لكنها ليست لك. أنت لا تعرف شيئاً ولا تملك مالاً».

«لماذا؟ لعن الله روحها».

«لا بأس... لأن إينهورن يمكن أن يعطيها أي شيء. إنه مجنون بها».

لم أستطع استيعاب هذا. لا يلائم إينهورن أن تنصب مشاعره العظيمة على مومس. لكن هذا بالضبط ما كان قد فعله. كان مجنوناً بها. وكان إينهورن يعرف أيضاً إنه يتقاسمها مع بضعة زعران من صالة الألعاب. كان يعرف هذا طبعاً! لم يكن من طبيعة حياته أن يظل من غير معلومات. كان لديه جيش من النمل من أجل هذا، جيش ينسج خطوطاً سوداء تأتي بالمعلومات إلى القمة زاحفة من كل حدب وصوب. كانوا يخبرونه عن آخر تطورات قضية لينغل، أو عن برنامج المزاد العلني، أو عن قرار المحكمة قبل طباعته وصدوره، أو عن الأماكن التي يمكن العثور فيها على سلع رخيصة... من الفراء إلى مستلزمات المدارس. وهكذا كان لديه خط يأتيه بالمعلومات عن لولي من البداية إلى النهاية.

طرحت علي إيليانور كلين أسئلة عاطفية. هل صارت لدي حبيبة؟ كنت أبدو ناضجاً من أجل ذلك. سألني جارنا العجوز كريندل أيضاً، لكن بطريقة مختلفة. سألني بطريقة جانبية جزئية. رأى أنني لم أعد طفلاً، وأنه يستطيع أن يكشف عن نفسه أمامي، وصارت عيناه الحولاوان حادتين، مرحتين: «ما أخبارك يا أوجي؟ هل صار لديك أصدقاء؟ ابني ليس هكذا. يأتي من المحل إلى البيت ويقرأ الجريدة... لا يهتم بشيء. أنت لم تعد صغيراً جداً، أليس كذلك؟ كنت أصغر منك عندما تدبرت أمري. لم أكن أعرف الشبع. كوتزي لا يهتم لأمري». كان في حاجة دائمة إلى أن يصور نفسه على أنه أفضل رجل في البيت، بل الرجل الوحيد في ذلك البيت. ولم يكن يبدو ضخماً حقاً عندما يشد على أسنانه ويجبر وجهه المعوجّ المتهلهل على الابتسام. كان يعاني كثيراً من تقلبات الطقس لأنه يمضي متجولاً عبر الشطر الغربي من المدينة، سائراً على قدميه حاملاً حقيبة النماذج. كان يعاني لأنه في حاجة إلى إحصاء كل قرش. وكان لديه صبر وجَلَد على السير طويلاً فوق الأرصفة الصلبة وعلى المرور بنوافذ المصنع نفسها عشرين مرة في الشهر ومعرفة كل عشبة نمت في كل رقعة خالية بينه وبين وجهته. وعندما يصل، يستطيع أن ينفق ساعات حتى يحصل على عمولة بسيطة أو على معلومة يريدها. «كوتزي يهتم بزوجتي. دم بارد». نعم بالتأكيد، كنت أعرف أنه هو الذي يصيح ويزعق في ذلك البيت ويضرب الأرض بقدميه ويرمي بالأشياء عليها.

سألني بطريقة خبيثة: «وكيف حال أخيك؟ أعرف أنه يجعل البنات يجرين خلفه. ماذا يفعل؟».

حقيقة، لم أكن أعرف ما يفعله سايمون في هذه الأيام. لم يخبرني، ولم يكن عنده فضول أو اهتمام لمعرفة ما يحدث لي لأنه قرر في ذهنه أنني لست إلا شخصاً يعمل في خدمة آل إينهورن.

ذهبت مرة مع دينغبات إلى حفلة أقامتها واحدة من خطيباته. وهناك رأيت أخي مع فتاة بولندية في فستان برتقالي مزين بالفراء. كان في سترة صقيلة أنيقة، وكان يبدو وسيماً معتداً بنفسه. لم يمكث هناك طويلاً. كان لدي إحساس بأنه لم يرغب في قضاء الأمسية معي في مكان واحد. أو لعلها أمسية جعلها دينغبات غير سارة لأخي لأنه كان يروي قصصاً ونكتاً بصوته الأجش ويحشوها بعبارات فاحشة تجعل البنات يزعقن. كنا متقاربَين تماماً أنا ودينغبات خلال أشهر تقريباً. وكنت أذهب إلى الحفلات معه كالأبله. كنت رفيقه المهذب... أو أحتضن الفتيات في مداخل البيوت وفي باحاتها الخلفية... مثلما يفعل تماماً. وضعني تحت حمايته في صالة الألعاب. وجرت بيننا بضع جولات ودية من الملاكمة. لم يكن أدائي جيداً فيها. كنا نلعب السنوكر أيضاً (كنت أفضل قليلاً هنا) ونتسكع هناك مع الأغبياء والثرثارين المتشدقين. لو رأتني جدتي لوش جالساً في ذلك المقعد اللامع المشرف على الطاولات الخضراء واضعاً قبعة مزينة بثقوب موشورية ودبابيس نحاسية لامعة مرتدياً بدلة بأزرار كبيرة وقميصاً مزيّناً في زحمة ضجيج الموسيقى وأخبار البيسبول التي يذيعها الراديو ونقرات عصي البلياردو ووقع الأقدام على الأرض واندفاع الكرات والطبشور الأزرق الذي ينسحق تحت الأقدام وغبار البودرة البيضاء المعلق في الهواء عندما يصفق اللاعبون أيديهم، لظنت أن أسوأ توقعاتها في ما يخصني قد تجنّبني تقريباً. كنت أجلس هناك مع أشخاص يفوحون برائحة الدم، ومتطوعين في خدمة الأشقياء، ولصوص السيارات، والأجلاف المتعجرفين، وأصحاب الطموحات الغبية، ورعاة البقر من الحي بسوالفهم الطويلة التي تصل حتى أحناكهم، والمتآمرين والمبتزين الصغار، والرفاق، والمتبطلين، والجنود السابقين، والأزواج الذين يتجنبون العودة إلى بيوتهم، والمتسكعين، وسائقي الشاحنات، والرياضيين الذين لا يعترف أحد بقدراتهم. وعندما تخطر لأحد منهم فكرة التعرض لي (كان هنالك الكثير من الشخصيات سريعة الغضب مستعدة دائماً لأن تفهم نظرتك بطريقة خاطئة) يطير دينغبات في اتجاهي حتى يحميني.

«هذا الفتى صديق من أصدقائي. وهو يعمل لدى أخي. جرّب أن تعبث معه وسوف يكون لديك جزء مكسور من رأسك. ما الأمر؟ أتظن أنك تريد هذا؟».

كان صادقاً تماماً، صادقاً بكل معنى الكلمة، عندما يتعلق الأمر بالشرف والوفاء. كانت قبضتاه بعظامهما البارزة مستعدتَيْن دائماً وكان كعبا حذائه الكوبي يدقان الأرض بعنف.

أما ذقنه المخدَّدة فكانت تتخذ وضعية القتال مندسَّةً عند كتف قميصه المنشّى. عند ذلك يصبح جاهزاً لأن يرقص رقصته ويبدأ تسديد الضربات.

لكن، لم يحدث أي قتال من أجلي. وإذا كان هنالك مبدأ واحد تمكنت جدتي لوش من جعلي أستوعبه فهو وجوب تقديم إجابات طرية ناعمة، رغم أن هذا كان في نظرها أمراً تكتيكياً وليس جزءاً من طبع أصيل، نوعاً من التمويه على الأوغاد أصحاب العقول التي تشبه عقول البهائم. أنا لا أزعم إذن أن الأمر كان تدريباً روحياً على إزاحة الغضب جانباً بحيث أجعل كلماتي تطيع إرادتي، فخلاصة الأمر هي أنني لا أحب إشارات التهديد وتقليص العينين والانكماش المتوتر استعداداً للهجوم؛ وما كان عندي فضول أبداً لأن أعرف كيف يكون الأمر عندما يضرب المرء أو عندما يتلقى الضربات. وهكذا كنت أرفض كل دعوة للتحدي وأرفض كل ما يجعلني أوجّه تلك الدعوات.

أعرف آراء إينهورن في هذا أيضاً لأن مثاله المفضل كان تلك الحادثة عندما جلس في مقعد السائق في سيارة الشتوتز (هذا ما يفعله أحياناً عندما يأخذونه لمتابعة مباراة في التنس أو بعض المباريات التي تجري في الحقول المفتوحة). جاءه يومها عامل فحم وهو يجري حاملاً بيده الأداة المستخدمة في تبديل العجلات لأنه أطلق بوق سيارته مرة أو مرتين حتى تبتعد الشتوتز من طريقه ولم يكن دينغبات موجوداً ليحركها. يقول إينهورن: «ماذا كنت أستطيع أن أفعل؟ لم يطرح عليَّ أيّ سؤال بل بدأ يلقي بقبضتيه في وجهي؟ يداي على مقود السيارة. وهذا يعني له أنني السائق. كان يجب أن أتكلم سريعاً. فهل كنت أستطيع التكلم بالسرعة الكافية. ما الذي يمكن أن يكون له تأثير على حيوان من هذا النوع؟ هل أتظاهر بالإغماء أو بأنني ميت؟ آه، يا ربي! حتى قبل أن أمرض... كنت معافى صاحب صوت قوي... كنت سأفعل أي شيء ممكن قبل أن أبدأ تبادل اللكمات مع أي ابن حرام، مع أي قرد عقله في عضلاته أو مع أي شخص يريد افتعال مشكلة. هذه المدينة مكان يمكن أن يخرج المرء فيه من ليتمشى من أجل نزهة مسالمة فيعود إلى البيت بعين مسودَّة أو أنف مدمّى. ومن الممكن تماماً أن يكون سبب ذلك هراوة شرطي مثلما يمكن أن يكون زوجاً من الحمقى الذين ليست لديهما بضعة دولارات من أجل عاهرة على الطريق في الليل فيتسكعا ويخطِّطا لمهاجمة أحد ما. أنت تعرف أن رجال الشرطة لا يعيشون على رواتبهم الرسمية الآن... ليس بوجود تلك الأموال كلها التي يستطيعون التقاطها. لا توجد سيارة واحدة لتهريب الكحول يمكن أن تمشي ميلاً دون أن ترافقها سيارة شرطة. وهذا ما يجعلهم لا يبالون بما يفعلون. أسمع من الناس أنهم يكادون أحياناً يقتلون أشخاصاً لا يعرفون اللغة الإنكليزية بما يكفي للإجابة عن أسئلتهم.

والآن، بذلك الذكاء الشغوف الواضح على أنفه وعينيه المنتفختين، بدأ إينهورن

يوسّع مجاله؛ وصار يبدو أحياناً شخصية عظيمة بشعره الأبيض الذي يغطي أذنيه وجبهته المرفوعة المردودة إلى الخلف. يعاني اللهفة على أشياء كثيرة... أكثر من الأشياء التي تجعله يعاني فعلاً، ويحاول إرخاء توتره الذي يحمي نفسه به. «لكن هنالك بعض المنافع في قسوة مكان كشيكاغو، ومن غير أن تكون لدينا أي أوهام أيضاً. بينما نجد في عواصم العالم الكبرى كلها سبباً ما للظن في أن البشرية شيء مختلف تماماً. كل تلك الثقافة القديمة والأعمال الفنية الجميلة المعروضة أمام الناس، أعمال مايكل أنجلو وكريستوفر رين، وتلك الشعائر الاحتفالية ومسيرات الخيول وحرق جثمان رجل عظيم في البانثيون في باريس. ترى تلك الأشياء الرائعة وتظن أن كل ما هو متوحّش صار جزءاً من الماضي. هكذا تظن! ثم تظن شيئاً آخر عندما ترى أنهم، بعد إنقاذهم النساء من مناجم الفحم، وبعد هدم الباستيل والتخلص من الطغاة والنبلاء، والتخلص من الجيزويت أيضاً، وزيادة مستوى التعليم، وبناء المستشفيات ونشر التمدّن والرقّة، عادوا بعد هذا كله فخاضوا حرباً وثورات استمرت خمس أو ستّ سنوات وقتلوا عشرين مليون نفس. هل يظنون أنهم أقل خطراً مما هو الوضع هنا؟ هذا شغب! بل دعهم بالأحرى يقولون إنهم يمثلون نوعاً أفضل من بني البشر، لكن من غير أن يحاولوا أن يضعوا ذلك النوع في مرتبة أعلى من البشر الذين يعيشون حيث يجري إصطياد الرؤوس أو حيث يعيش آل كابوني. ويجب أن تعلم أيضاً أن النماذج الأفضل تجري دائماً إساءة معاملتها، أو يجري قتلها. رأيت صورة لأرسطو وقد ربطته عاهرة قذرة مثلما يُربط حصان. ولديك أيضاً فيثاغورس الذي قتل من أجل مخطط هندسي. وسينيكا الذي اضطر إلى حزّ معصميه؛ فضلاً عن المعلّمين والقديسين الذين صاروا شهداء».

يقول أيضاً: «لكني أقول في نفسي أحياناً، ماذا لو دخل شخص يحمل سلاحاً ورآني جالساً على هذا المكتب؟ إذا قال لي 'ارفع يديك!' فهل تظن أنه سوف ينتظر حتى أشرح له أن ذراعيَّ مشلولتان؟ سوف يقتلني. سيظن أنني أحاول مد يدي إلى الدرج أو أحاول الضغط على زر الإنذار. ستكون تلك نهاية إينهورن. عليك فقط أن تلقي نظرة على الإحصاءات قبل أن تقول إنني أحلم بمشاكل غير موجودة. يجب أن أضع على الجدار فوق رأسي لافتة تقول 'مُقعَد'. لكن لا أحب رؤية هذه الكلمة على الجدار طيلة الوقت. آمل فقط أن تكون ملصقات شركتي برينكز إكسبريس وبينكرتون بروتكتف الموزعة في أنحاء المكان كافية لإبعاد هؤلاء الناس».

كان كثيراً ما يترك نفسه تنقاد إلى التفكير في الموت. ورغم كونه متقدماً في أشياء كثيرة، إلا أن موته كان لا يزال ذلك البعبع القديم الذي يخافه منذ طفولته؛ إنه الموت نفسه الذي لا تراه العذراوات الجميلات في المرايا لأن المرايا تمتلئ بأثدائهن البيضاء وبالضوء الأزرق الآتي من أنهار ألمانية قديمة ومدن خلف النوافذ تقسمها شوارعها إلى مربعات

مثل أرضيات الغرف في بيوتهن. كان ذلك الموت وغداً عجوزاً مخادعاً ذا عظام ظاهرة... ليس مثل السير سيدريك هاردويك اللطيف الذي يحيي الصبية الصغار من أفرع شجرة تفاح مثلما رأيت مرة في إحدى المسرحيات. لم تكن لدى إينهورن أي أفكار لطيفة فيما يتعلق به، لكنه كان متطيّراً فيما يتعلق بموته، بذلك الخاطف الغدار المخيف. كان يتظاهر بالقوة، لكنه يقوم دائماً بمناورات ليهزم موته الآخر!... موته الذي استولى على جزء كبير منه حتى الآن.

لعل ذلك الموت كان ربّه الوحيد.

كثيراً ما كنت أفكر في أن إينهورن استسلم لهذا الذعر استسلاماً تاماً في قرارة قلبه. لكنك، عندما تظن أنك تتبعت أفكار إينهورن من خلال أفعاله وصرت قريباً من وضع اليد عليها، تجد نفسك لا في قلب متاهة بل في جادة عريضة فسيحة؛ وهنا يأتيك هو نفسه من اتجاه جديد... حاكمٌ في سيارة فاخرة يحيط به حرّاس رسميون... حاكم مهيمن، حاكم لا بد من وجوده، يحبه الجميع، شخص لا يعدو موته أن يكون أكثر من عنصر واحد، عنصر بعيد، من عناصر خصوصيته.

الفصل السادس

ماذا أريد لنفسي من هذا كله؟ ما كنت أستطيع الإجابة عن هذا السؤال. لم يكن أخي سايمون أكبر مني بكثير؛ وقد صارت عنده وعند غيره ممن هم في عمرنا فكرة عن مجرى حياتهم واختاروا توجههم في هذه الحياة، أما أنا فلا زلت أدور في مكاني. كان إينهورن يعرف تماماً الخدمات التي يريدها مني، لكن ما أريده منه ما كان واضحاً لي على الإطلاق. أعرف أنني كنت شديد التَوْق، لكني لم أدرك إلى أي شيء أتوق.

هنالك، أو يفترض أن تكون هنالك، أوقات حريرية غير واعية مصبوغة بألوان الطبيعة قبل أن تأتي العيوب والنقائص المقبولة في مرحلة الضجر من النضج... أوقات تشبه الأشعار الرعوية الصقلية لدى العاشقين، أو تشبه أسوداً تستطيع مطاردتها بالحجارة وبأفاعٍ ذهبية تتساقط من شقوق الصخور. أقصد تلك المشاهد المبكرة في الحياة؛ فبداية كلّ شخص تكون من جَنّات عدن ثم تمرّ بعقبات وآلام وتشوّهات وموت يشار لنا في ظلمته بأنه قد يكون هنالك خلاصٌ في دخولٍ أبديٍّ في البداية من جديد. وهنالك أهوال الشيب، والموت المقترب، وألسنة السوء وأعين الحاسدين وكل ما قد يسبب نسيان السعادة أو عدم عيشها على الإطلاق. أما عندما لا تكون لدى المرء أناشيد حب رعوية، ولا لوحات طبيعية حرة، بل ضياع المدينة وقنوطها العميق، ويجد نفسه مُقحَماً منذ وقت مبكر في غايات المدينة العميقة من غير أن يرتدي ثوباً مقدساً ويمثل أمام الله ليقدم الخدمة في المعبد، ومن غير أن يمتطي حصاناً وتودّعه شقيقاته الباكيات عندما يذهب لدراسة اليونانية في بوغوتا، لكنه يحط في قاعة للألعاب... فإلى أين يمكن أن يقوده هذا؟ وأي سعادة، أو أي ترياق مضاد للبؤس، يمكن أن يقدّمه هذا المصير إذا ما قورن بالمزامير والخرفان أو بموسيقا براءة لا تزال تشرب الحليب، أو حتى إذا ما قورن بنزهات في الطبيعة مع أستاذ

سمين يضع نظارات، أو مع دروس في عزف الكمان؟ الأصدقاء والأصحاب والرجال والإخوة... لا وجود هنا لطريقة مختصرة وجيزة تسمح بالقول إلى أين يؤدي هذا. كان لدى روبنسون كروزو، الوحيد في الطبيعة تحت السماء، وقت مزدحم معقد في مواجهة غير البشري، أما أنا فأجد نفسي في حشد يعطي نتائج أكثر صعوبة بكثير، بل إنني جزء منه أنا نفسي.

كان لدينغبات أثر عليَّ أيضاً، لوقت قصير، عندما حدثني عن غايات المدينة العميقة. ظن أنه قادر على تعليمي أشياء ما كان شقيقه نفسه قادراً على إعطائي إياها. وعرفت عنه أنه كان ممتلئاً بفكرة إثبات نفسه أمام المفتش وأمام إينهورن، وأنه كان يريد تحقيق نجاح، نجاح مميّز له. كان يقسم أنه سيحقق هذا النجاح وأنه قادر على تحقيق الثروة والشهرة. أراد أن يتميز في تنظيم المباريات. وأن يظهر اسمه على الراديو بين الشخصيات التي تقف على الحلبة قبل بدء المباراة الكبرى... كانت لديه خطط لامعة كالماس. ومن حين لآخر يحظى بملاكم حتى يديره. شخص يستطيع السيطرة عليه. أما الآن فقد صار مديراً لملاكم من الوزن الثقيل. قال إنه حظي أخيراً بملاكم جيد. كان اسم ذلك الملاكم نيلز نيجل. تعامل دينغبات من قبل مع ملاكمين من الوزن المتوسط ومن وزن الريشة، لكن ملاكماً جيداً من الوزن الثقيل كان أكبر غنيمة على الإطلاق، شريطة أن يكون صالحاً للبطولة. أعلن دينغبات أن نيلز كان كذلك، قالها بتأكيد مخلص مستعد للمضيّ إلى القتال. كان نيلز يسمح لنفسه بأن يظن ذلك أحياناً؛ لكن لعله لم يكن مقتنعاً في أعماق قلبه. لو كان مقتنعاً لكرَّس وقته كله للملاكمة وتوقف عن الذهاب إلى عمله في ساحة تفكيك السيارات المحطمة. كان في الوقت نفسه بطيئاً ومتشنجاً في تحريك يديه اللتين كساهما السخام عند نهاية ذراعيه الغليظين الملفوفين برباطات لدعم الأعصاب عند المفاصل. كان فكه البليد الأسود معززاً بالرباطات أيضاً، وكان يستقر متيبساً على رقبته الحليقة لحمايتها من اللكمات. أما مؤخر رأسه فكانت تحوطه قبعة رياضية تبرز حافتها فوق عينيه اللتين يغطيهما شعره المنسدل فوقهما. كان صاحب رجولة محترمة جريحة لا تحب إيذاء أحد. كان يجعلك تحس أنه كتلة مهلهلة من ذكورية كسول. كان شديد القوة لكنه ملاك عندما يتلقى عقوبةً. كما كان جنده الأبيض الضخم يتحرك بسرعةٍ كافية بالنسبة لملاكم من الوزن الثقيل. كان الذكاء على الحلبة هو ما ينقصه. وقد اعتمد على دينغبات حتى يعطيه التعليمات، وامتثل لإدارته، لكن هذا لم يكن ليحقق فارقاً فعلياً لأن لسانه، بين أسنانه المفقودة، كان شديد البطء. كان الشباب اللبقون في صالة الألعاب يقولون له: «عليك أن تستخدم الزيت الخفيف لأن السيارة لن تعمل في هذا الجو البارد». فدور المقاتل غير مناسب لابن امرأة الدجاج. عملت أمه سنوات كثيرة في القسم الخلفي في أحد محلات الدواجن... كانت تقطع الدجاج والإوز، وكانت امرأة في ثوب من نسيج خشن غير قادرة

على إغلاق فمها فوق أسنانها الناتئة. إنها تجني دخلاً طيباً، ولا يزال نيلز يأخذ منها أكثر مما يجنيه من عمله الذي كان العمل الوحيد المناسب لقدراته بشكل واضح.

لكنه كان مفتوناً بفكرة أن يصبح ملاكماً يحظى بالإعجاب. وكان سعيداً سعادة لا تصدَّق عندما أخذه دينغبات معه ذات يوم وجعله يقف إلى جانبه عندما ألقى كلمة أمام نادي الصبيان في قبو في شارع ديفيجن بعد أن دعاه صديق له في صالة الألعاب كان يتولى رعاية هذا النادي. هكذا جرى الأمر: ارتدى دينغبات ونيلز أفضل ما لديهما من ثياب، أحذية سود وقبعتين مدورتين نظيفتين، وسلسلتين للمفاتيح أيضاً: «يا أولاد! أول ما يجب أن تفهموه هو مدى أهمية أن يعيش المرء نظيفاً، وأن يتدرب جيداً، وأن يتناول كمية كبيرة من الحليب والخضار، وينام تاركاً شبابيك الغرفة مفتوحة. انظروا إلى هذا الملاكم، انظروا إلى صديقي...» ابتسم نيلز سعيداً وهو ينشر بركة تحياته... «سواء على الطريق أو في أي مكان آخر، ينجز نيلز نيجل تمريناته كاملة مرة في اليوم على الأقل؛ وبعدها حمّام ساخن ثم بارد ثم تجفيف الجسم سريعاً. إنه يخرج سموم جسمه من مساماته، ولا يدخّن أبداً إلا عندما أعطيه سيجاراً بعد الفوز. كنت أقرأ ما كتبه تكس ريتشارد منذ أيام في صحيفة بوست متحدثاً عن مباراة ويلارد عندما كانت الحرارة شديدة في أوهايو، حتى في الظل. قال إن ديمبسي تدرب تدريباً ممتازاً إلى حد أنه يأخذ قيلولة قبل المباراة فيرقد في ملابسه الداخلية ثم يستيقظ وهي جافة من غير أي قطرة عرق عليها. أقول لكم يا أولاد إن هذا أمر رائع! هذا واحد من أفضل الأشياء التي يستطيع المرء أن يفعلها. عليكم إذن أن تأخذوا بنصيحتي وألّا يلعب أحد منكم بقضيبه. أقول لكم إن هذا أمر في غاية الأهمية. دعوه وشأنه. ليس فقط إذا أراد الواحد منكم أن يكون رياضياً، علماً أن ذلك من أحسن الأشياء تقريباً، بل حتى إذا كان لديك طموح مختلف... إنها الخطوة الأولى لأن تضل سبيلك. أبعدوا أيديكم إذن! إن هذا يجعل عقولكم مشوَّشة. لا تلعب ألعاباً سيئة مع صديقتك الصغيرة أيضاً لأن هذا لن يكون حسناً لك ولن يكون حسناً لها. خذوها مني لأنني أعطيكم الحقيقة مباشرة فأنا لست ممن يكتفون بالتلميح وإخفاء الكلمات. تلك المومسات الصغيرات المغريات اللواتي أراهن في الشارع هنا وهناك... لا تتوقفوا عندهن. إذا أردت أن يكون لك صديقة، وأنا لا أرى سبباً يمنع من هذا، فهنالك فتيات شريفات كثيرات يمكنك الاختيار من بينهن... ذلك النوع من الفتيات التي لا تمد يدها بين ساقيك ولا تجبرك على البقاء معها حتى الواحدة ليلاً على سلم البيت»... وهكذا، وهكذا، بصدقه اللامع أمام أعضاء النادي الجالسين على الكراسي الصغيرة يمضي متألقاً مخلصاً واضعاً عينه على نَيْل عضوية مجلس ذلك النادي.

كان أمراً ممتازاً لدينغبات أن يصير مديراً. كان هذا ما يحتاجه بالضبط... أن يلقي الخطابات (كان شقيقه خطيباً مفوهاً أيضاً)، وأن يجرجر نيلز من غرفته في الصباح من أجل الجري في المنتزه، وأن ينصحه ويوجّهه ويناقشه ويختلفا على طريقة استخدام المعدات في

نادي ترافتون الرياضي. كان في حاجة إلى أن يكون غاضباً بصواب آرائه المتعلقة بأكياس الملاكمة والوقت المسموح لاتكاء اللاعب على الحبل في الحلبة، وأساليب الهجمات وغرف تبديل الملابس الضيقة المظلمة واللاعبين البولنديين والإيطاليين والزنوج ذوي العضلات البارزة، والجهد الشاق الذي يجعلهم يتصببون عرقاً في التدريب، هناك حيث يجتمع أصحاب النوادي الأذكياء والملاكمون الذين يلعبون مقابل نسبة من الدخل. وعندما صار نيلز جاهزاً أخذه وانطلق به بالباص غرباً مع مال مقترَض من إينهورن لكنه محوَّل إليه من سولت ليك سيتي حيث استقرا أخيراً مفلسَيْن ثم عادا جائعين متعبَيْن. فاز نيلز بمباراتين فقط من أصل ستٍّ، وكان صعباً عليه أن يتحمل الهزء والسخرية في صالة الألعاب.

لكن دينغبات ظل فترة خارج ميدان الملاكمة؛ وكان ذلك عندما هرب نزلاء السجن في جوليت. كان عريفاً في الحرس الوطني فاستدعاه الحاكم. حضر سريعاً في ملابسه العسكرية الكاكية وقبعته ولم يخفِ قلقه من احتمال أن يتصادف وجوده في الدورية التي تلقي القبض على تومي أوكونر أو لاري الملاح أو باكزي غونزاليس الذي كان معجَباً به.

قال له إينهورن: «اختبئ في خندق يا غبي... وابقَ هنا! سوف تلقي شرطة الولاية القبض عليهم قبل أن تصل إلى القطار. والأسوأ من هذا أنك ستعاني شدة الزحام في سفرك ولن يكون لديك طعام غير الفاصولياء».

أما المفتش الذي لم تكن صحته جيدة في الآونة الأخيرة فقال: «دعنا نراك أيها المهرج قبل أن تذهب». وعندما تقدم منه دينغبات منزعجاً قال له مازحاً من قلبه: «أحمق!» ظن دينغبات أنهم لا يفهمون حقيقة مشاعره، وذعرت السيدة إينهورن عندما رأته في ملابسه العسكرية. بكت متعلقة برقبة لولي فيوتر. عسكر دينغبات في طقس ماطر بالقرب من جوليت بضعة أيام، ثم عاد أكثر نحولاً وسمرة وتعباً. كانت عيناه المستثارتان محولّتين من شدة التعب. لكنه تابع عمله مع نيلز على الفور. حصل له على مباراة في موسكيغون في ميتشغان وأرسلني إينهورن معهما ليحصل على معلومات أكيدة عما سيحدث لدينغبات ونيجل هناك. قال لي: «أوجي! أنت تستحق عطلة. إذا كان صديقك كلين الذي لا أثق به كثيراً يمكن أن يحل محلك فترة بعد الظهر يومين أو ثلاثة فإنك تستطيع الذهاب والاستمتاع بالرحلة. وقد يشعر نيجل بشيء من الثقة إذا كان معه أحد واقف في صفه. إن دينغبات يقسو عليه كثيراً ويجعله يشعر بالإحباط. ربما... لو كان معه شخص ثالث أكثر بهجة... ربما ترتفع روحه المعنوية». قال الكلمات الأخيرة باللاتينية ثم سألني: «هل تفهم اللاتينية يا فتى؟» كان مسروراً كالشيطان بفكرته هذه. سرَّه خاصة ذلك التوافق بين ما أراده وبين إعطائي شيئاً طيباً، وهذا ما جعل مشاعره دافئة. أرسل في طلب أبيه وقال له:

«أبي، أعط أوجي عشرة دولارات. إنه ذاهب في رحلة من أجلي». قال هذا لكي يبين لي أن كرمه لا بد له من اجتياز العقبات قبل أن يتحقق. قدَّم المفتش هذه النقود مسروراً لأنه كريم مستعد لدفع أي مبلغ، ولأنه كان شخصاً مثالياً فيما يتعلق بمفارقة أي مقدار من المال.

كان دينغبات مسروراً بمجيئي معهما. خاطب الجميع بتلك الوقاحة الحيوانية التي تظهر كلما أمسك بدفة القيادة: «طيب يا أصدقائي... علينا أن نذهب الآن». مسكين نيلز! لم يبدُ في حالة حسنة في الجاكيت الضيق الذي حشر فيه عضلاته. تدلت الحقيبة التي وضع فيها قفازات الملاكمة عند ساقيه العملاقين ثقيلة كأنها تحمل أدوات سبّاك. وجه ضخم يشبه تراب حديقة في حاجة إلى الماء. وفي وسط هذا الجفاف كانت عيناه مبيضّتين خائفتين من حدوث الأسوأ ومعهما أنف شوَّهته اللكمات.

كان الأمر الأسوأ في ذلك اليوم قد حدث بالفعل، لكن لشخص آخر؛ عثر على واحد من الإخوة آيلو مقتولاً بالرصاص في سيارته المكشوفة. كانت هنالك تغطية واسعة للخبر في صحيفة إكزامينر؛ وقد قرأنا الأنباء في حافلة النقل المتجهة إلى الميناء. قال نيلز إنه يظن أنه لعب الكرة مرة في مواجهة آيلو هذا. كان محبَطاً بائساً. لكننا كنا لا نزال في الصباح الباكر، بعد الفجر مباشرة، عندما بدت تباشير الصباح على أطراف الشوارع البائسة الخاوية مع لمسة صغيرة من ضياء الشمس على قمم المباني. وعندما وصلنا إلى بلدة سوغاتوك وخرجنا من الظل انتهت عتمة المدينة الكالحة على نحو مفاجئ واشتعلت زرقة متراقصة على صفحة المياه العذبة منبعثة من نهايات الشاطئ حتى البياض الذهبي في جهة الشرق. كانت الأرصفة البيضاء مغسولة تتلألأ بألوان دافئة تشبه مياه خليج المكسيك، وتركت النوارس تيارات الهواء تحملها هنا وهناك. صار دينغبات سعيداً آخر الأمر. جعل نيلز ينفذ تمريناته الرياضية حول المركب قبل أن يزداد الزحام على الأرصفة. سوف تجعله ثماني ساعات من غير تمرين في المركب متيبس الجسم لا يستطيع الملاكمة في الليل. وهكذا بدأ نيلز يهرول مبتسماً؛ صار رجلاً مختلفاً مع ضياء الشمس والماء الرقيق والنوارس التي تكون ساكنة في الأعلى فتسقط فجأة حتى سطح الماء لتلتقط قطعاً من الخبز. أطلق بضع لكمات مرتفعة نشطة فنية خطيرة، وكان دينغبات المرتدي بنطلوناً مخططاً مثل ساق الجرادة ينصحه بأن يميل بكتفه أكثر عند تسديد الضربة. كانا مقتنعَيْن تماماً بأنهما مبحران إلى النصر. مضيا معاً فوق السجادة الوردية فدخلا الصالة لشرب القهوة أما أنا فبقيت على سطح المركب مستمتعاً بالشمس والألوان وبرائحة القش المنبعثة من الأسفل حيث كانوا ينقلون خيولاً عائدة لسيرك جوال. جعلت تلك الرائحة دمي يجري فرحاً بالجلوس هناك وسط الزرقة والدفء وذلك الهواء الذي يأتيني بطيئاً من الأسفل، من عند قدمي، فيخترق حذائي الرياضي كبير الحجم المهترئ كثيراً المبقّع بالحبر ثم يمر ببنطلون الجينز وبرأسي ذي الشعر الغزير الذي كان مثل وسادة فوق حاجز السفينة.

بعد أن مضينا مسافة فوق ذلك الماء الدافئ العذب، خرج دينغبات من الصالون مع فتاتَيْن شابتين، صديقتين لإيزابيل أو لجانيس، التقاهما هناك. كانتا في ثياب التنس البيضاء، ورفعت كل منهما شعرها بشريط ملون. كانتا في بداية عطلة ماضيتين للجري وتمرين أذرعهما على رميات مرتفعة في ملاعب التنس في منتجع سوغاتوك ولتمرين صدريهما الجميلين من خلال التجديف في مياه الشاطئ الساكنة. راح دينغبات يشير بقبعته إلى الأماكن التي مررنا بها. تحرر شعره من تلك القبعة فانتهز الفرصة للاستمتاع بالشمس وتبخير ما فيه من عطور ـ أي شيء يمكن أن يكون أفضل بالنسبة لمدير الملاكمة الشاب الصاعد من التنزه في حذائه الأبيض وبنطلونه البحري وهذا الانفتاح الصباحي الحلو على آمال بشرية لفارس يرافق الفتيات؟ ظل نيلز في الصالون محاولاً الفوز بجائزة على آلة يدعونها «المخلب». كانت مكونة من ذراع في صندوق زجاجي مليء بالأقلام والكاميرات والمصابيح الكهربائية مبعثرة كلها ضمن تل من قطع الحلوى الرخيصة. كان يمكن للمرء أن يضع عشرة سنتات ثم يحرك الذراع بقبضتين اثنتين واحدة للتوجيه والأخرى للالتقاط. لم يحظ مقابل خمسين سنتاً إلا على حفنة من الحلوى الشمعية. كان أراد أن يحصل على كاميرا من أجل أمه.

وهكذا أكلنا تلك الحلوى معاً على سطح المركب. ثم أعلن أنه أرهق عينيه بسبب تلك الآلة وصار يشعر بالدوار. لكن ذلك كان نتيجة حركة السفينة وتهاديها فوق المياه التي تنساب رقيقاً وتضرب هيكلها. وعندما اقتربنا من شاطئ ميتشغان وأمواجه العالية أحس بالدوار وشحب لونه تماماً. راح يتقيأ فأمسك به دينغبات من الخلف حتى لا يقع ـ كان يشعر أنه مسؤول عنه ـ وراح يرجوه بصوت لم يستطع إخفاء مرارة الخيبة فيه «أوه، يا رجل، تماسك بحق الله!» لكن نيلز واصل التقيؤ واللهاث وانسدل شعره على وجهه فغطى عينيه التوّاقتين إلى رؤية اليابسة. وعندما بلغنا سوغاتوك لم نجرؤ على إخباره بأن هنالك ساعات لا تزال تفصلنا عن موسكيغون. هبط به دينغبات حتى يستلقي قليلاً. هنالك عدد محدود من الشوارع في العالم كله حيث يستطيع نيلز أن يشعر بالأمان.

أنزلناه في موسكيغون مصفرّاً مترنحاً ومضينا به تحت ألواح الرصيف حيث كان المكان خالياً من الحركة حتى يقضي حاجته بعيداً عن أنظار من يأتون لاصطياد الأسماك بعد الظهر. مضينا إلى مقر جمعية الشبان المسيحيين فجعلناه يغتسل ويتناول وجبة من لحم البقر المقلي، ثم ذهبنا إلى حيث تقام المباراة. ورغم شكواه من الصداع وقوله إنه في حاجة إلى الاستلقاء، أجبره دينغبات على المشي قائلاً له: «إذا تركتك فسوف تستلقي هناك متحسّراً على نفسك ولن تكون قادراً على القتال بما يساوي قرشاً واحداً هذه الليلة. أعرف ما يلزمك. سوف يذهب أوجي ويأتي لك بعلبة أسبرين. أما أنت فعليك أن تقوم ببعض التمرينات حتى تخفّف من ثقل الوجبة التي تناولتها». عدت حاملاً الأسبرين فوجدت

نيلز أكثر تشنّجاً وشحوباً بعد صعوده عشرة طوابق إلى تلك الغرفة المعدومة الهواء. رأيته جالساً يلهث تحت ملصق عليه تعليمات لعبة البيسبول، ورأيت دينغبات يفرك صدره ويحاول أن يضخ إليه بعض الثقة بالنفس، لكنه لم يفلح إلّا في جعله أكثر بؤساً لأنه لم يكن يعرف كيف يرفع روحه المعنوية من غير تهديده. «يا رجل! أين قوة إرادتك؟ أين الاحتياطي الذي لديك؟».

كان هذا من غير فائدة. غابت الشمس تقريباً، وما عاد لدينا إلا ساعة واحدة قبل المباراة. خرجنا وجلسنا في الساحة، لكنها كانت تفوح برائحة الرطوبة. أصاب نيلز الغثيان من جديد وارتخى رأسه فوق صدره على ذلك المقعد. قال دينغبات: «طيب! هيا الآن! سوف نفعل ما نستطيع».

كانت المباريات تجري في نادي ليونز. وكان دور نيلز في الجولة الثانية مقابل رجل اسمه برينس جاورسكي. كان عامل حفّارة من مصنع برولزويك يحظى بتشجيع الجمهور كله خاصة عندما راح نيلز يتحرك متثاقلاً يهرب منه أو يحتضنه ممسكاً به حتى يتجنب الضربات وهو يبدو مذعوراً حتى الموت تحت الأضواء الجافة في الحلبة ويحدق ببلاهة في وجوه المحيطين بها وفي من يطلقون تلك الصيحات الدموية الفظيعة. لاحقه جاورسكي بلكمات واسعة. كان أكثر طولاً من نيلز المسكين وأظن أنه كان أصغر منه بخمس سنوات. جن دينغبات غضباً وراح يصيح بنيلز عندما جاء إلى الزاوية: «إذا لم تستطع التغلب عليه في هذه الجولة فسوف أذهب وأتركك هنا وجيداً». قال نيلز: «قلت لك إن علينا أن نعود أدراجنا، لكنك كنت راغباً في توفير أربعة دولارات». كان في الحقيقة مصغياً إلى الضجة القادمة من خلفه، وكانت عيناه مذعورتين، لكنه اندفع متشجعاً بعض الشيء في الجولة الثانية فأجبر جاورسكي على الدفاع. لكنه أُصيب في الجولة الثالثة في أضعف نقطة لديه، في بطنه، فسقط أرضاً وظل مستلقياً وسط الزئير والنباح واتهامات بأن خصمه خرق قواعد اللعبة راح يلقيها دينغبات الذي تعلق بحبال الحلبة مشيراً صوب الحكم بقبعته. لكن الحكم أحاط رأسه بذراعيه مثل طوق الحصان مغطياً أذنيه بهما. خرج نيلز من الحلبة محمولاً. كانت عيناه مغمَضتين ميتتين تحت وهج المصابيح الكهربائية فوق شاربه المبتل على خديه الإسفنجيّيْن المتحجرَيْن. ساعدته في ارتداء ثيابه وعدت به إلى جمعية الشبان المسيحيين حيث وضعته في الفراش وأقفلت الغرفة عليه ثم انتظرت في الشارع حتى يأتي دينغبات حتى لا يذهب فيركل باب غرفته. لكن دينغبات كان حزيناً مكتئباً إلى حد جعله غير راغب في ذلك. مشينا معاً واشترينا من عربة في الشارع بعض البطاطا المقلية بالدهن، ثم عدنا.

كان علينا في الصباح أن نعيد بطاقات العودة حتى ندفع بثمنها فاتورة الفندق، وذلك

لأن دينغبات كان قد اعتمد على نيل الجائزة فصار مفلساً تماماً. صرنا نستوقف السيارات العابرة لتنقلنا مجاناً في اتجاه شيكاغو، ثم أمضينا الليلة على الشاطئ في هاربرت بالقرب من سانت جوي. التحف نيلز رداء الملاكمة الطويل، بينما تغطينا أنا ودينغبات بقطعة مشمّع تشاركناها معاً. مضينا ذلك اليوم عبر بلدتي غاري وهامونت في صندوق شاحنة من مدينة فلنت فمررنا بأرصفة المراكب وأماكن إفراغ فضلات الفحم والكبريت والنيران المشتعلة التي يحس المرء حرارتها من غير أن يرى ضوءاً لها في منبسط ينيره ضوء القمر تمتد فيه مداخن مرتفعة من غير رؤوس تلقي الصدأ والدخان وتصل ما بينها كتل ضخمة من مصاهر الحديد ـ وهنا وهناك، يرى المرء مرجَلاً عتيقاً أو تلاً من الرماد بين القصب المائي الذي تفرّخ فيه الضفادع. إن كنت قد رأيت فم الشتاء مفتوحاً راعداً في لندن في الدقائق الأخيرة من ضوء النهار على النهر، أو إن كنت قد عشت تلك القعقعة الباردة الآتية من جبال الألب إلى مدينة تورينو في كانون الأول حيث يتدفق البرد بخاراً أبيض، فإنك قادراً على إدراك مدى عظمة هذا المكان. ثلاثون ميلاً من طريق مزدحمة مبقعة بالزيت حيث تطبخ الأفران والبراكين الآلية كتل الحديد والعوارض وقضبان القطارات؛ وبعدها عشرة أميال أخرى من مدينة سائبة نزلنا فيها من الشاحنة غير بعيد من شارع لوب فمضينا إلى مطعم ثومبسون لنحظى بوجبة من اللحم والسباغيتي بالقرب من مكتب التحقيقات المجاور لمكاتب موزّعي الأفلام ذات الملصقات الضخمة.

لم يبد أحد اهتماماً كبيراً بعودتنا وذلك لأن حريقاً نشب في منزل آل إينهورن أثناء غيابنا. أتلف الحريق غرفة المعيشة: ثقوب كبيرة فائحة برائحة الدخان في البساط الصوفي، وسجادة شرقية محترقة، وطاولة المكتبة المصنوعة من خشب الماهوغاني ومجموعة كتب هارفارد الكلاسيكية المصفوفة عليها وقد لذعتها النار وأغرقتها مواد الإطفاء. طلب إينهورن تعويضاً قدره ألفي دولار؛ لكن محقق شركة التأمين لم يقتنع بأن الحريق حدث بسبب تماسّ كهربائي... ألمح إلى أنه حريق متعمَّد؛ وسرى كلام يقول إنه يريد رشوة. لم يكن بافاتسكي موجوداً. وكان عليَّ أن أقوم بقسم من واجباته برهة من الزمن، لكني فضلت عدم السؤال عنه لأنني أدركت بأنه لا بد أن يكون مختبئاً. ليلة اندلاع الحريق كانت تيلي إينهورن في زيارة لواحدة من قريباتها، وكان جيمي كلين قد أخذ المفتش إلى الحديقة. بدا المفتش منزعجاً. كانت غرفة نومه قريبة من ذلك الحريق وظلت الرائحة فيها عدة أسابيع. أما هو فكان يستلقي ساكناً عابساً لاعناً طريقة ابنه في أداء الأعمال. أما تيلي فكانت تطالب بجناح جديد، وهذا ما جعله غاضباً منها أيضاً ـ النساء اللواتي لا يشبعن من الأثاث واللواتي لا يشغل أذهانهن غير بناء الأعشاش.

قال المفتش لابنه: «ألم أكن لأعطيك خمسمئة دولار أو ستمئة دولار تحاول الآن انتزاعها من شركة التأمين؟ لو حدث ذلك لما كنت مضطراً إلى شم هذه الرائحة في أيامي

الأخيرة؟ أنت تعرف أنني مريض يا ويلي». كان هذا صحيحاً بالتأكيد. تلقى إينهورن التوبيخ الذي يستحقه. كان صامتاً وقوراً؛ تلقاه من المفتش الذي نهض من فراشه في ملابسه الداخلية الطويلة وردائه المنزلي الطويل الذي يلمس كعبيه فوقف واهناً في المطبخ رافضاً الاستناد إلى ظهر الكرسي. أجابه إينهورن: «نعم يا أبي»... كان إحساسه بالفشل مثل وشاح يطوّق رقبته؛ نظر إليَّ بحدة من غير أي إيحاء بالفكاهة. صرت أعرف الآن بالتأكيد أنه هو من أضرم النار. ولعله كان يظن أنني سأعرف كل سر من أسراره. كانت أسراره آمنة معي، لكن انكشافها أمام شخص آخر جرح كبرياءه. تجاهلت ولم أذكّره عندما نسي أن يدفع لي أجري ذلك الأسبوع. لعل ذلك كان لباقة مفرطة مني. لكنني كنت في سن المبالغة والإفراط.

مر الصيف وفتحت المدرسة أبوابها من جديد، لكن شركة التأمين لا تزال غير مقتنعة. سمعت من كليم أن إينهورن يلح على تامبو حتى يتوسط لدى شخص ما في مكتب عمدة المدينة لكي يتحدث مع نائب رئيس الشركة بخصوص التعويض. كما عرفت أنه أرسل بنفسه أيضاً عدة رسائل يشتكي فيها من أن واحداً من كبار وسطاء التأمين لا يستطيع التوصل إلى تسوية مع الشركة فيما يتعلق بحريق صغير. كيف يتوقعون منه أن يظل قادراً على إقناع عملائه بأن شركات التأمين سوف تغطّي خسائرهم سريعاً؟ كان من المفهوم أنه أمّن على نفسه لدى الشركة التي يعمل معها أكثر من غيرها. تدفع شركة هولوواي إنتربرايزز وحدها أقساطاً تأمينية لعقارات يتجاوز ثمنها ربع مليون دولار؛ وهذا يعني بالتأكيد أن الشركة قد حصلت على دليل واضح تماماً يشير إلى أن الحريق كان بفعل فاعل لأنني واثق من أنها كانت راغبة حقاً في أن تكون كريمة وتدفع المال. أما الأثاث التالف الملطّخ المغطى بقطعة كبيرة من قماش خشن فظل مكانه إلى أن رفض المفتش الاحتفاظ به أكثر من ذلك فنقلوه إلى فناء البيت حيث صار الأولاد يلعبون فوقه وجاء من يشترون الأثاث القديم ويعرضون أخذه. وظلوا يتسكعون هناك إلى أن خرج إينهورن إليهم وأخبرهم أنهم لا يستطيعون أخذه لأنه يفكر في التبرع به لجيش الخلاص عندما تدفع الشركة له التعويض. أما في الحقيقة فقد وعد كريندل بأن يبيعه ذلك الأثاث. وكان كريندل يريد أخذه لإصلاحه وبيعه بدوره. كان إينهورن حريصاً على تقاضي ثمن كامل مقابل هذا الأثاث بغية المحافظة على شيء من اعتباره حتى يتخلص من احتقار المفتش. لكنه ظل معتقداً أن تصرفه كان صحيحاً، وأن تلك هي الإجابة الصائبة على مطالبة زوجته بغرفة معيشة جديدة. أهداني مجلدات هارفارد التي أتلفت مواد الإطفاء أغلفتها فوضعتها في صندوق تحت سريري وبدأت بقراءة بلوتارك ثم رسائل لوثر إلى النبلاء الألمان وكتاب «رحلة كلب الصيد» الذي وصلت فيه حتى السرطانات التي تسرق بيض طيور الشواطئ الغبية.

لم أستطِع القراءة أكثر من ذلك لأنني كنت مفتقراً إلى الجَلَد الكافي خلال الليل. صارت

السيدة العجوز مزعجةً كثيرة المشاكل بعد أن داهمها ذلك الضعف الكبير الناجم عن التقدم في السن. ورغم زعمها أنها أفلحت في جعل أمي طباخة عظيمة (بصرف النظر عن فشلها في تعليمها أي شيء آخر)، فقد صارت راغبة في طبخ طعامها بنفسها وخصصت لنفسها علباً وأطباقاً لا يستخدمها أحد غيرها. وصارت تضع الطعام والأوعية في البراد وتغطيها بقطع من الورق المربوط بشرائط مطاطية ثم تنساها إلى أن تتعفن، ثم يجن جنونها عندما ترميها أمي فتتهمها بالسرقة. صارت تقول إن من غير الممكن أن تتشارك امرأتان مطبخاً واحداً (نسيت الشراكة في ذلك المطبخ زمناً طويلاً) خاصة إن كانت واحدة منهن وسخة قليلة الأمانة. كانت المرأتان ترتجفان: ترتجف ماما من الخوف أكثر من إحساسها بالظلم. كانت تحاول أن تنظر إلى العجوز بعينيها المتدهورتين سريعاً. أما أنا وسايمون فما عادت جدتنا تتحدث معنا إلا نادراً؛ وتصيح عندما تجري صوبنا الجروة التي أتى بها ابنها ستيفا بعد موت كلبتها «تعالي هنا! عودي!» ـ كانت راغبة في وجود كلب لديها رغم أنها ما كانت قادرة حقاً على قبول خَلَفٍ لكلبتهاويني. لكن الكلبة الصغيرة البنية الصفراء كانت تريد اللعب ولم تحب الاستلقاء عند قدميها مثلما كانت تفعل الكلبة العجوز. لم يدرّبها أحد، ولم يعطها أحد اسماً... نعم، تدهورت حالة العجوز إلى هذا الحد. اتفقنا، أنا وسايمون، على تناوب القيام بالتنظيف. ما عادت أمنا قادرة على ذلك. لكن سايمون كان يعمل في وسط المدينة، وكان معنى هذا استحالة قسمة العمل بيننا قسمة عادلة. لم يبق في البيت أحد قادر حتى على تدريب الجروة ومنحها اسماً. ولم أستطِع مواصلة الزحف تحت سرير الجدة لوش (واحد من أقذر الأماكن) بينما تجلس هي محدِّقة في كتاب من الكتب رافضة أن تقول كلمة واحدة... عمياء خرساء تجاهي إلا عندما تدور كلبتها عند قدمي فتزعق بها. هكذا كنت أمضي معظم وقتي.

وبما أن ماما كانت غير قادرة على الذهاب وحدها لزيارة جورجي لضعف بصرها، فقد كان علينا أن نصحبها إلى الناحية الغربية من المدينة. صار جورج أطول مني الآن، وصار يعبس بعض الأحيان عندما ينزعج منا رغم أنه ظل محتفظاً بوسامته ضعيفة العقل... عملاق يتحرك بينطلونه القصير، وفي خطواته ثقل النضج رغم ساقيه اللتين ظل نموهما متأخراً. كان يرتدي ثيابنا القديمة، أنا وسايمون، وكانت رؤية كيف تبدو الملابس مختلفة عندما يرتديها شخص آخر أمراً في الغرابة. علموه في المدرسة كيف ينسج وكيف يصنع المكانس، وجعلونا نرى ربطات العنق الصوفية التي صنعها بنفسه. لكن سنه تجاوز ما يناسب هذا الملجأ: خلال سنة أو نحو ذلك سيكون عليه أن ينتقل إلى ملجأ آخر في مؤسسة موجودة في ناحية بعيدة عن المدينة. كان وقع هذا الخبر على ماما شديد السوء. قالت: «ربما لا أستطيع زيارته هناك مرة أو مرتين في السنة». لم يكن الذهاب لرؤية جورجي اللطيف الذي صار رجلاً بالأمر الهين علي أيضاً. وهكذا صرت فيما بعد، عندما نذهب

لزيارته، آخذ ماما إلى مطعم يوناني ظريف في شارع كراوفورد (لدي نقود في جيبي هذه الأيام) وأشتري لها الآيس كريم والحلويات حتى أحاول إخراجها من هاوية مشكلاتها الدائمة العميقة، تلك الهاوية التي أظن أن معظم بني البشر يمضون الشطر الأكبر من أوقاتهم الصامتة فيها. كانت تتركني ألهيها بهذه الطريقة حتى عندما تفزعها الأسعار وتحتجّ بطبقة صوت مرتفعة لا يستخدمها إلا من لا ينتبه إلى الصوت الصادر عنه. كنت أجيبها مهدئاً: «لا بأس يا ماما! لا تقلقي». لا نزال في المدرسة، أنا وسايمون؛ ولهذا فإننا لا نزال نتلقى معونة من الجمعية الخيرية. وبما أننا كنا نعمل، وكان جورج في تلك المؤسسة، فإن المال لدينا صار أكثر من أي وقت مضى. الاختلاف الوحيد هو أن سايمون صار مسؤولاً عن الفوائض المالية فحلّ محل الجدة التي تولت الإدارة زمناً طويلاً.

كنت ألمح الجدة في الردهة أحياناً، عند النهاية المضاءة في الممر المظلم، أراها في انفصالها عنا واقفة وحدها عند قصر البلور الذي يعلو المدفأة مرتدية سروالها النسائي المتهدل وثوبها المنشّى. كانت تلومنا الآن على أشياء كثيرة، أكثر من أن تستطيع الصفح عنها، أشياء لا مجال لمناقشتها. لقد ضعف عقلها... تلك المرأة التي كنا نظنها دائماً قوية صامدة أمام كل شيء.

قال سايمون: «إنها في آخر أيامها». كنا مدركين أنها بدأت انحدارها نحو موتها. لكن ذلك كان لأننا انطلقنا في العالم بينما لم يكن لدى ماما أي أفق من هذا النوع. كانت جدتي تستخدم معظم قوتها مع ماما باعتبارها المرأة الحاكمة صاحبة اليد العليا أو الملكة الأم أو الإمبراطورة؛ وحتى قيامها بإبعاد جورج وفضائحها الصغيرة الخرفة في المطبخ ما كانت أشياء قادرة على هز ذلك الشعور بالاحترام والخضوع الذي استقر عند أمنا منذ زمن بعيد.

بكت ماما أمامي وأمام سايمون وذرفت دموعاً بسبب هذا التغير الغريب عند جدتي، لكنها لم تستطع التعامل معها وفقاً لحالتها الجديدة هذه.

قال سايمون: «فات الوقت بالنسبة لماما. لماذا تترك أبناءها يفلتون من واجب إزاحة هذا العبء عن عاتقنا؟ لقد ظلت ماما خادمة لها زمناً أطول مما يجب. ثم إنها تشيخ هي أيضاً وتتدهور حالة عينيها. لا تستطيع حتى رؤية الكلبة عندما تكون عند قدميها».

«نعم، لكن علينا أن نترك هذا الأمر لماما نفسها».

قال سايمون بطريقة مباشرة جارحة ـ كانت سنه المكسورة تظهر عندما يرتسم على وجهه تعبير الاحتقار: «لا تكن غبياً طيلة حياتك! أقسم بالرب أنك تجعلني أظن أنني الشخص الوحيد بيننا الذي له عقل غير منقوص. لماذا نترك ماما تقرر؟» كنت أعجز عادة عن قول شيء ذي قيمة عندما يكون الأمر متعلقاً بشيء نظري أو عملي عندما تكون ماما

موضوع الكلام. كنا نعاملها على النحو نفسه، لكننا نفكر فيها بطريقتين مختلفتين. ما كان عندي شيء أقوله له غير أن أمنا غير معتادة على أن تكون وحدها في حقيقة الأمر. والواقع أنني أحسست بالحزن عليها عندما تخيلتها وحيدة. إنها شبه عمياء منذ الآن. ماذا تستطيع أن تفعل غير أن تجلس وحيدة؟ ليس لديها أصدقاء. وكانت تمضي الوقت كله في أداء مهامها في حذائها الرجالي وثوبها الأسود ونظارتها السميكة على وجهها الوردي النحيل فكانت مدعاة للتندر في الحي باعتبارها امرأة عليلة.

قال سايمون: «وأي صحبة هي صحبة جدتنا أصلا؟».

«أوه، ربما تساعدها قليلاً. أظن أنهما لا تزالان تتحدثان أحياناً».

«ومتى رأيتها تساعدها؟ تقصد أنها توبخها وتجعلها تبكي! الشيء الوحيد الذي تقوله الآن هو أنه ليس علينا غير أن نترك الأمور تتدهور. هذا كسل... رغم ظني أنك تقول لنفسك إنك شخص جيد لا تريد أن تكون جاحداً للسيدة العجوز. لقد قدمنا لها أشياء نحن أيضاً. لا تنس هذا! إنها تركب ظهر ماما منذ سنين وتعيش في بيتنا على حسابنا. لكن ماما ما عادت قادرة على الاستمرار في ذلك. إذا أراد أبناؤها أن يدفعوا أجر مدبِّرة منزل من أجلها، فهذه طريقة عادلة لتسوية الأمر. أما إذا لم يريدوا ذلك فإن عليهم أن يأخذوها من هنا».

كتب سايمون رسالة إلى ابنها الذي يعيش في راساين. لا أعرف كيف كانت أحوال ولديها اللذين يعيشان في بلدتين مختلفتين. لم أمرّ في حياتي براساين من غير أن أسأل نفسي أي بيت من تلك البيوت التي فيها أرجوحة أطفال مصنوعة من إطار سيارة مطاطي وأصوات بيانو منبعثة من الداخل يمكن أن يكون بيت ستيفا لوش الذي لديه ابنتان يحيطهما بكل رعاية، بما في ذلك دروس البيانو. كنت أسأل نفسي عن هذين الرجلين قليلي الكلام اللذين ترعرعا في أوديسا وعن كيفية تمكنهما من عيش تلك الحياة في هذا العالم الواسع. كانا عاديين تماماً ليس في مظهرهما ما يلفت النظر، فكيف يدبّران أمورهما؟ لكن، ظهرت لمحة من ذلك في الرد الذي أرسله ستيفا وقال فيه، بهدوء تام، إنه وأخيه لا يظنان أن فكرة مدبرة المنزل حل حسن، وإنهما يجريان الترتيبات اللازمة لكي تعيش والدتهما في مأوى «نيلسون هوم» للمسنين والعاجزين؛ وسوف يكونان شاكرين كثيراً إذا تولينا أمر نقلها إلى ذلك المكان. لم يترددا في طلب هذه الخدمة بالنظر إلى طول عشرتنا لها (كان اختباراً لمدى جحودنا).

قال سايمون عندما استلم هذه الرسالة: «هكذا إذن!» بدا عليه، هو نفسه، إحساس بأننا مضينا إلى أبعد مما يجب. لكن الأمر قد حدث، ولم يعد هنالك غير التفاصيل الأخيرة. تلقت الجدة في الوقت نفسه رسالة باللغة الروسية. استقبلتها بقدر واضح من البرودة مثلما يمكن أن يتوقع المرء من شخص لديه ذلك القدر من الاعتداد بالنفس، بل إنها تشدَّقت

قائلة: «ها! كم يحسن ستيفا الكتابة بالروسية! عندما تتعلم في المدرسة الثانوية، فإنك تتعلم شيئاً بالفعل». سمعنا من ماما أيضاً ما قالته جدتنا عن المأوى. قالت إنه مكان قديم ممتاز يكاد يكون قصراً بناه مليونير. وقالت أيضاً إن فيه حديقة مفتوحة وأخرى داخلية وإنه قريب من الجامعة مما يعني أن معظم نزلائه من أساتذة الجامعة المتقاعدين. إنها ذاهبة إلى مكان أفضل. وهي سعيدة بأن ينقذها أبناؤها منا. ستكون هناك بين أشخاص من مستواها وسوف تتبادل معهم وجهات نظر مثقفة. كانت ماما مرتبكة مذعورة... حتى هي لم تكن بسيطة العقل إلى حد يجعلها تصدق أن الجدة التي ظلت مرتبطة بنا تلك السنوات كلها يمكن أن تكون قد فكرت في هذا الانتقال هي نفسها مثلما تزعم الآن.

استمر حزم الحقائب أسبوعين. نزعت اللوحات عن الجدران، ومعها القرود الثلاثة وصورة العدّاء من طشقند، وفناجين البيض، والمراهم والأدوية، ولحافها من رف الخزانة. جلبت لها صندوقاً خشبياً من السقيفة: صندوق عتيق أصفر عليه لصاقات من يالطا وهامبورغ وشركة أميريكان إكسبريس، وفيه مجلات روسية قديمة وبطانة زرقاء عليها أزهار. كان الصندوق ذلك فائحاً برائحة السقيفة. لفّت كل شيء من أشيائها القيمة بحذر وانتباه ووضعت الأشياء القابلة للكسر في الأعلى ثم غطتها بمادة واقية من الصدمات. وفي اليوم الأخير وقفت تنظر إلى صندوقها يهبط درجات واجهة البيت على ظهر حمال وعلى وجهها ملمح زعامة مخيف... كانت تشرف على كل شيء، حتى الحقيبة الأخيرة، بطريقتها الفظيعة المعهودة وقد ابيض وجهها تماماً حتى بانت الشعرات عند زاويتي فمها؛ لكنها حافظت على مظهرها الأرستقراطي بطريقة تعبّر عن أهمية هذا الانتقال إلى شيء أفضل، من هذا البيت الزري البائس الذي تسكنه مع امرأة مهجورة مع ولديها اللذين أشرفت عليهما باعتبارها ضيفة مؤقتة. كانت رائعة رغم تداعي جسمها وبؤس حالتها. نسيتُ في تلك اللحظة مقدار جنونها وشراستها خلال السنة الماضية. وما أهمية السنة بعد أن تركها اضطراب عقلها في هذه اللحظة الطارئة المهمة فاستعادت سلطة الزمن القديم وصرامتها؟ رقّ قلبي لها، وشعرت تجاهها بإعجاب ما كانت تريده مني. نعم، إنها تحوّل إبعادها إلى نوع من الاستقالة الطوعية والابتعاد عن الفتيين الجمهوريين اللذين ظهرا حديثاً واللذين يتعين عليهما الآن أن يظهرا أمامها آخر لمحة من الولاء ويقفا صامتين ينظران إلى السيارة الفاخرة كأنهما يودعان أميراً وأسرته.

قالت العجوز: «كوني بخير يا ريبيكا!» لم ترفض قبلة أمي الباكية على خدها، لكنها أظهرت أنها تقبّلتها على مضض. ساعدناها في الهبوط إلى السيارة التي استعرتُها من إينهورن. ودّعَتْ البيت بصبر نافذ وانطلقنا... كنت أقود السيارة الضخمة الخرقاء التي كان لونها أحمر منفراً كلون البندورة. علمني دينغبات قيادة السيارة منذ فترة وجيزة.

لم نتبادل كلاماً خلال طريقنا. لكني لا أحسب هنا ما قالته عندما صرنا في بوليفارد ميتشيغان لأن ذلك كان مجرّد تعليق على زحمة السير. وبعد أن تجاوزنا منتزه واشنطن انعطفنا شرقاً في الشارع السادس عشر، وهناك كانت الجامعة التي وجدت منظرها غريباً لكنها بدت مرتاحة وسط كثافة اللبلاب الهندي الصيفي. عثرت على جادة غرينوود ثم على المأوى. كان أمامه سياج حديدي على شكل مربعات له زوايا حادة من الأعلى يحيط برقعتين من الأرض فيهما أحواض زهور نما فيها الإقحوان النجمي متكئاً على عصي صغيرة مزروعة في التربة. وانتشرت في الممر مقاعد سوداء مصنوعة من ألواح خشبية. كان للمبنى مدخل من الحجر الكلسي فيه مقعدان طويلان وكراسٍ في ردهة الدخول من أجل الذين يجدون الشمس في الخارج أكثر حرارة مما يحتملون. رأيت مزيداً من المقاعد في الداخل، ورأيت العجائز، رجالاً ونساء، ينظرون إلى جدتي وهي تنزل من السيارة. سرنا عبرِ ذلك الممر بين تلك الرؤوس البطيئة المهزومة التي تخمرت فيها الأفكار زمناً طويلاً وبقّعت وجوهها الأمراض الكبدية ومشكلات الدم والعظام والجيوب الأنفية الملتهبة... تلك الرؤوس التي عانت حرارة كانساس وبرد وايومينغ وأرهقها الكدح في المطابخ وحفر الأرض في الغرب الأقصى والبيع في متاجر سينسيناتي وفي مسالخ أوماها... والحصاد والبيع المتجول والعمل المضني في شركات كبيرة وصغيرة. بل لعل أحد الأشخاص الذين يعيشون هنا، في خف منزلي وحمالات للبنطلون، أو في مشد نسائي وقميص من القطن، يمكن أن يكون ذلك الشخص الذي يبيع الملح الخفي الذي يحفظ هذا العالم؛ لكن العثور عليه في هذا الخضمّ المخيف من الشعر الأبيض والأيدي المرتجفة الممسكة بالعكاكيز والمراوح والجرائد بكل أبجديات الأرض ولغاتها، وبين الوجوه التي ظهرت شرايين مزرقّة في عيونها، وبين هؤلاء الناس الجالسين في ضياء الشمس الذي يحرق أوراق الأشجار في الخارج أو في رطوبة البيت الباردة ورائحته الحامضة، مهمة تقتضي أن تكون لدى المرء موهبة الخالق نفسه. ما كان هذا مكاناً بناه مليونير لسكنه بل بناية شقق عادية؛ وما كان له حديقة جميلة في الخلْف، بل مجرد حقل من الذرة وعبّاد الشمس.

وصلت الشاحنة الصغيرة حاملة بقية أمتعة جدتي فلم يسمحوا لها بوضع صندوقها الكبير في غرفة النوم لأنها سوف تتقاسمها مع ثلاثة غيرها. وكان عليها أن تنزل إلى القبو حيث اختارت ما يلزمها ـ أشياء أكثر مما يجب بحسب رأي المشرفة السمراء الممتلئة. لكني حملت تلك الأشياء وصعدت بها إلى الغرفة ثم ساعدتها في تصنيفها وتعليقها. عدت بعد ذلك إلى السيارة لأبحث، تنفيذاً لأوامرها، عن أي شيء يمكن أن نكون نسيناه فيها. لم تناقش حالة المكان معي. من الطبيعي أنها كانت ستثني عليه لو وجدتْ فيه شيء يستحق الثناء وذلك حتى تظهر كم كان هذا الانتقال أمراً حسناً بالنسبة لها. لكنها لم تسمح لي أبداً بأن أرى الإحباط يظهر عليها. تجاهلتْ اقتراح المشرفة بأن ترتدي ثوبها المنزلي

وجلست في كرسي هزاز تنظر إلى نباتات الذرة وعباد الشمس والملفوف في الحديقة الخلفية مرتدية فستانها الأزرق الذي جاءت به من أوديسا. سألتها إن كانت راغبة في سيجارة، لكنها كانت في مزاج لا يسمح لها بأن تقبل شيئاً من أحد، لا يسمح لها بأن تقبل شيئاً مني أنا أيضاً... كان هذا ردها على الطريقة التي أحسست أننا، سايمون وأنا، نتعامل بها مع الجهد الذي أضاعته علينا طيلة سنوات. كنت أعرف أنها في حاجة إلى إظهار الجفاف والغضب حتى تستطيع أن تتجنب البكاء. لا بد أنها بكت فور مغادرتي لأن تقدمها في السن لم يجعلها تفقد العقل إلى درجة تعجزها عن إدراك ما فعله أبناؤها بها.

قلت آخر الأمر: «يجب أن أعيد السيارة يا جدتي. سأذهب الآن إذا لم يكن هنالك شيء آخر تريدين أن أفعله لكِ».

«أي شيء آخر؟ لا شيء».

هممت بالمغادرة.

قالت: «نسيت أن آخذ كيس الأحذية. إنه ذلك الكيس القماشي في باب الخزانة».

«سوف أجلبه لك قريباً».

«يمكن لأمك أن تحتفظ به. ومقابل تعبك يا أوجي، لديّ شيء لك هنا».

فتحت محفظتها المصنوعة من أسلاك فضية ضخمة كامدة اللون وأعطتني ربع دولار بحركة صغيرة من يدها الغاضبة... لم أستطع الرفض ولم أستطع أن أضعه في جيبي... لم أستطع إلا أن أطبق قبضتي عليه.

كانت الأحوال على غير ما يرام في منزل آل إينهورن أيضاً حيث كان المفتش يموت في الغرفة الخلفية الكبيرة في حين كانت الواجهة، في المكتب، تشهد ازدهاراً للعمل وانتقالاً لسندات بمزيد من آلاف الدولارات من يد لأخرى. وعدة مرات في اليوم كان إينهورن يطلب دفع كرسيه إلى جانب سرير أبيه ليطلب نصيحته ويحصل على بعض المعلومات بعد أن أصبح كل شيء بين يديه فصار عابساً مع بدء إحساسه بأن جلبة المكتب الذي تتعين عليه إدارته وفوضاه صارت علائم تنذر بالخطر. يستطيع المرء أن يرى الآن كم كان المفتش يحميه. لقد صار مقعَداً في مقتبل العمر. أما إذا كان ذلك قد حدث قبل زواجه أو بعده، فهذا ما لم أعرفه قط. كان إينهورن يقول إن الشلل أصابه بعد زواجه. لكنني سمعت هنا أن المفتش دفع مالاً لكاراس (هولوواي) ابن عم السيدة إينهورن فاشترى عروساً لابنه المشلول. ما كان هنالك أبداً أي شيء يشير إلى أنها لا تحب زوجها... لأن الشيء الطبيعي بالنسبة لها أن تحبه. لكن، وبصرف النظر عما كان يتشدق به، فالحقيقة أنه كان ابناً يعيش في كنف أبيه وتحت حمايته. لم أكن عاجزاً عن رؤية هذا الشيء. أما عملياته ورسائله ذات

الكلمات الأنيقة، وكذلك مخططاته الشاعرية كلها، وحتى حقيقة أن له ابناً في الجامعة، فقد كانت كلها أشياء صبيانية. فكيف يستطيع أن يتجاوز هذا الموقف الآن بعد أن صار في منتصف عمر أمضاه مدللاً موضع رعاية؟ كان يظن أن ذلك ممكن إذا أظهر صرامة وجدية. أوقف مشاريعه القديمة: ما عاد يرسل رسائله المعتادة، وما عاد يفتح الطرود التي يشترط مرسلوها دفع ثمنها ـ صرت أبعث بها إلى غرفة المستودع ومعها النشرات الدعائية وبقية ما يأتي به البريد اليومي. أما هو فغرق في العمل وصار ينجز الصفقات وفق توجيهات المفتش، وينشئ الشراكات أو ينهيها مع كثير من محلات البقالة في الضواحي، إضافة إلى ذلك الشيء الذي كان يحبه: شراء سلع رخيصة في المزادات من أشخاص في حاجة إلى مال فوري. وكان يصر على تقاضي عمولة من مقاولي أعمال السباكة أو التدفئة أو الطلاء ممن كانوا أصدقاء لأبيه فصنع لنفسه أعداء. لكن ذلك لم يكن يزعجه. لأن عليهم أن يتدبروا أمورهم إن كانوا يعرفون كيف يتدبرونها؛ كما أنه كان يشعر بأمان أكبر كلما صار أكثر قسوة وصعوبة وأكثر تعذيباً للآخرين. وهكذا كانت هناك مشاجرات على عقود يقرر إنهاءها. كان يرفض دفع أي فاتورة قبل آخر يوم من مهلة الدفع. أما مَنْ تحمّلوا هذا السلوك فكان معظمهم يتحمله إكراماً للمفتش. أمسك إينهورن دفة القيادة بكل قوته. كان يقول: «أستطيع المجادلة طيلة اليوم والقول إن العمل لم ينجَز بعد حتى عندما أعرف تماماً أنه قد أنجز بالفعل. لا يجوز أبداً أن أعطي انطباعاً بأنني يمكن أن أتراجع».

هكذا كانت دروس ونظريات السلطة التي أتلقاها في فترات الهدوء المتناقصة باستمرار. كان يوجه هذه الدروس لنفسه معظم الأحيان... كانت تفسيراتٍ لما يفعله ولما يعتبره صواباً.

كان شديد التطلب في هذه الأوقات. صار يريد أن تتوفر في البيت أشياء لم يكن يحفل بها من قبل: نوع خاص من القهوة لا يباع إلا في مكان واحد من المدينة، إضافة إلى عدد كبير من زجاجات الويسكي المهرَّب أتى بها كريندل... كان ذلك واحداً من خطوط عمل كريندل الجانبية. أتى بالزجاجات من القسم الجنوبي من المدينة في سلة قشّ لأنه كان على صلة غير مباشرة هناك بمختلف أنواع الشياطين والعناصر الخطرة. لكن كريندل كانت لديه غريزة تدله على ما يتوق إليه كل شخص... هذا يبحث عن عامل، وذاك يبحث عن سجائر، وآخر يبحث عن قواد. لم يتوقف عن بذل الجهد مع العقارات الخمسة. لكن مع احتضار المفتش الآن ومع وجود دينغبات الذي سيرث مالاً كثيراً ولم يتزوج بعد، فقد صار كريندل شديد التعلق بإينهورن، وصار يجلس مع المفتش في غرفة نومه ساعات كثيرة، ويتحدث مع دينغبات، ويخوض حوارات خاصة طويلة مع إينهورن الذي كان يستفيد منه بأشكال مختلفة. كانت لولي فيوتر أحد موضوعات الحديث بينهما فقد تركت العمل في شهر أيلول وذهبت إلى عمل آخر في وسط المدينة. عانى إينهورن كثيراً لأنها ما عادت موجودة في

البيت ولأنه ما عاد قادراً على ممارسة الجنس معها بعد مرض والده وزيادة ضغط العمل عليه. لم يعد الوضع مثلما كان أيام الصيف الكسلى. هنالك ناس دائماً في المكتب وفي الشقة. لكنه يريدها الآن... ظل يبعث إليها برسائل طويلة وقصيرة، وظل يتحدث عنها. كان هذا مؤلماً له في ذلك الوقت. لكنه، رغم ذلك، ظل يفكر في طريقة يستطيع بها تحقيق ما أراد، رغم صعوبات ذلك الزمن؛ لم يكتف بالحزن والاكتئاب، لكنه ظل مصراً على مناقشة كيفية فعل ذلك. سمعته متحدثاً مع كريندل. لكنه كان رأس العائلة: قائدها، ورجل الإدارة والفكر، والوصي المسؤول. الابن المتميز لوالد متميز. متميز إلى حد فظيع. حتى طريقته في رفع حاجبيه إلى شعره الأبيض كانت متميزة أيضاً. فماذا إذا كان لديه، إلى جانب هذا التميز كله، خطايا داخلية شخصية صغيرة، وعواطف، بل حتى شبق وفحش غير لائقَين؟ هل يكون هذا غير مقبول لأنه مقعد؟ وحتى إذا أجبنا عن هذا السؤال الصعب بالقول إنه ليس من شأننا ما قد يقرر المرء التخلي عنه لأنه مقعد أو لأن لعنة حلت عليه، فإن هنالك احتمال وجود حقيقة أخرى هي أن إينهورن شرير أو قبيح. تستطيع معرفة المرء من شروره ومن كيفية إيلامه الآخرين. لكني أظن أن على المرء أن يحظى بفرصة إنزال الألم بنفسه أيضاً. نستطيع أن نحكم عليه بهذه الطريقة، إذا فعلها بطريقة آمنة فيما يتعلق به فهذا يعني أنه شرير. فماذا عن إينهورن؟ يا إلهي، يمكنه أن يكون ساحراً ـ يمكنه أن يكون أكثر مَنْ في العالم كله سحراً. كان هذا أمراً محيّراً! يستطيع المرء أن يجادل في الأمر ويقول إنها خدعة أو مَكر عند أشخاص لديهم موهبة إلهائك عن أفاعيهم السامة وأحابيل رغباتهم البشعة. لكن، إن كان هذا الفن عميقاً إلى الحد الكافي، وإذا كانت تنفيذه متقناً، فإنه يسمو على أصله. لكن هذا يقتضي أن يكون الأمر كله مفرحاً بهيجاً، وهذا ما كان إينهورن يستطيعه أحياناً عندما يكون في مزاج طيب مرح من غير أن يسعى خلف غاية بعينها. يمكنه أن يكون طيباً ودوداً. لكني كنت أهاجمه أحياناً وأقول في نفسي إنه لا شيء ـ لا شيء! شخص أناني غيور متكبّر كاذب منافق. على أنني كنت أقدّره كثيراً في نهاية الأمر. هنالك شيء واحد لا أستطيع نسيانه، إنه ذلك الكفاح الدائم الذي خاضه ضد مرضه. هنالك أشياء أصعب من هذا، بالتأكيد... كأن تجرّ مزلجة ثقيلة على الجليد أو أن تكون قائداً عظيماً أو صاحب أهداف سامية. أما إذا أخذنا تلك الأشياء كلها بعين الاعتبار فعلينا رؤية الميدان الذي وجد نفسه فيه والأسلحة التي كانت بين يديه حتى ندرك أنه أبلى بلاء حسناً وتمكن، بقوة عقله، من أن يكون له هدف يحرّكه. كان يعرف العقاب الذي يمكن أن تنزله شياطينك بك بسبب طريقة تعاملك مع زوجتك ومع النساء أو بسبب سلوكك عندما يكون والدك على فراش موته، وبسبب تفكيرك في مَسَرّاتك أو تصرفك تصرفاً وضيعاً؛ كان لديه الذكاء الذي يجعله يجري هذه المقارنة. كان لديه الذكاء الكافي لأن يكون شخصاً جليلاً. لكن الجلال لا يمكن أن يوجد باعتباره هبة خاصة تحظى بها قلة من الناس نتيجة أصلهم مثلاً، كأن يولد

المرء أشقر الشعر. لو كان الأمر كذلك فلماذا نهتم به؟ ما الشيء الذي يمكن أن يثير عجَبنا فيه؟ لا، لا بد لهذا الجلال من الصمود أمام أسوأ الظروف ومن أن يعثر لنفسه على ركن آمن يعتزل فيه مختلف أشكال فظائع العقول البشرية. فلماذا أقسو على إينهورن المسكين الذي ابتلي بساقين مشلولتين وتوقٍ يعذّبه العجز؟

كنت واقفاً إلى جانبه. قال لي: «أوه، تلك العاهرة! تلك المومس الوسخة من مناجم الفحم، ذات الوجه المنمش!» كان يبعث إليها برسائله مع كريندل ويقدم لها عروضاً جنونية. لكنه كان يقول أيضاً: «أعرف أنني لست شخصاً جيداً لأنني أفكر في الجنس في وقت كهذا. سيكون هذا سبب سقوطي». كانت لولي ترد على رسائله، لكنها لم تعد تردّ. كانت لديها أفكار أخرى فيما يتعلق بحياتها.

في تلك الأثناء كان المفتش يغيب عن الصورة تدريجياً. في البداية كان أصدقاؤه الكثر يأتون لرؤيته في غرفة نومه التي كانت فاخرة ذات يوم. غرفة أثثتها زوجته الثالثة التي تركته منذ عشر سنين... فيها سرير إمبراطوري بأربعة أعمدة، ومرايا مذهَّبة، وتمثال كيوبيد حاملاً قوسه. صارت فيها عدة مباصق على الأرض، وسيجار على طاولة الزينة، وأعقاب دفاتر الشيكات، ومجموعات من ورق اللعب، صارت الآن غرفة مفتش عجوز! كان يبدو مسروراً عندما يأتيه أصحابه القدامى وشركاؤه السابقون فيقول لهم إن أمره انتهى. لم يكن قادراً على التخلص من تلك العادة، عادة المزاح... ظل يمزح طيلة حياته. كان كوبلين يأتي كثيراً أيام الأحد بعد الظهر، وكان العقارات الخمسة يأتي بشاحنة الحليب خلال الأسبوع ـ كان هذا إخلاصاً متميزاً من شخص شاب؛ شيئاً محترماً على أي حال. لا أستطيع القول إنه كان مهتماً كثيراً، لكن حضوره ما كان بالأمر السيء، بل كان دليلاً على أنه يعرف على الأقل أين يجب أن يكون قلب المرء. ولعله كان معجباً بطريقة استعداد المفتش للموت، برواقيته ذات الطراز الرفيع. أما متعهد الدفن كينزمان الذي كان مستأجراً لدى آل إينهورن، فكان شديد الانزعاج لأنه لا يستطيع زيارة المفتش. كان يستوقفني في الطريق ليسأل عنه ويرجوني ألا أذكر الأمر أمام أحد. كان يقول: «هذه أسوأ أوقاتي! عندما يكون أحد الأصدقاء موشكاً على الوفاة فإنني لا أكون موضع ترحيب أبداً، كأنني غرانوم العجوز». كان غرانوم العجوز شخصاً يسهر إلى جانب الميت وينشد الترانيم، كان هزيلاً له وجه يوحي بالخراب في بدلته الصوفية السوداء وقدميه الصغيرتين. كان كينزمان يقول: «تعرف ماذا سيقول الناس في أنفسهم إذا أتيت».

ومع مضي العجوز في الطريق إلى موته تناقص عدد الزوار وانتهت تلك الاستقبالات التي يهيمن فيها صوته العميق المتكسر. صار دينغبات الآن يمضي معه معظم الوقت، ولم يكن في حاجة إلى أن يستحثه إينهورن على الخروج من صالة الألعاب للاهتمام بأبيه، لأنه

شديد التأثر. كان آخر من يقبل توقعات الطبيب... يقول واثقاً: «هذا ما يقوله المتشائمون جميعاً عندما يمرض شخص مسنّ. ماذا بكم؟ إن المفتش قوي، لديه بنية قوية حقاً!» لكنه الآن صار يدخل الغرفة ويخرج منها مستعجلاً بخطواته الراقصة الصاخبة الخرقاء، وصار يطعم المفتش، ويدلك جسده وينهر الأطفال الذين يلعبون على الأثاث المكوم في الباحة الخلفية: «اذهبوا من هنا أيها الأشرار الصغار! هنالك شخص مريض. ما أسخفكم... أين تربيتكم؟» وكان يبقي ضوء الغرفة شحيحاً ويجلس راكعاً فوق وسادة يقرأ قصصاً متنوعة على ذلك الضوء الضعيف. رأيت المفتش واقفاً على قدميه مرة واحدة في هذه المرحلة عندما أرسلني إينهورن إلى مكتبه حتى أجلب له بعض الأوراق. وفي ظلمة غرفة المعيشة رأيت المفتش يمشي في ملابسه الداخلية باحثاً عن السيدة إينهورن حتى يستفسر منها عن سبب وجود أزرار ناقصة. أزعجه أنه لم يجد غير زرين فقط، واحد في الأعلى وواحد في الأسفل، فظل بطنه عارياً بينهما. قال: «لا يجوز هذا! أنا عارٍ تماماً». لا يزال غاضباً بسبب ذلك الحريق.

تخلى دينغبات آخر الأمر عن مكانه لغرانوم عندما صارت أوقات يقظة المفتش نادرة وصار غير قادر على تمييز أحد حتى عندما يستيقظ. لكنه تمكن رغم ذلك من تمييز غرانوم العجوز صاحب الوجنتين القرميديتين في ضوء المصباح الشحيح المظلل بمنشفة فقال: «عجباً! هذا يعني أنني نمت وقتاً أكثر مما توقعت». ظل إينهورن زمناً طويلاً يكرر هذه العبارة ويذكر كاتو وبروتوس وغيرهما من أشخاص اشتهروا بهدوئهم في لحظاتهم الأخيرة. كان من هواة جمع معلومات من هذا النوع ويبحث عن مقارنات تعجبه في كل ما يقرأه، من ملاحق الصحف يوم الأحد إلى المقالات التي تظهر يوم الاثنين وتتحدث عن قداديس اليوم السابق إلى كتب هالديمان جوليوس الزرقاء... وكل كتب الأقوال المأثورة أيضاً. لكنه لم يكن يعثر على أشياء مناسبة دائماً. نعم، كان المفتش يستحق هذا البحث المضني لأنه لم يجزع أمام الموت ولم يكفّ عن التمسك بعاداته اليومية حتى آخر حياته.

مددوه تلك الليلة في تابوت ضخم في محل كينزمان. وعندما وصلت في الصباح وجدت المكتب مغلقاً والستائر الخضراء مسدلة. كانت طياتها السوداء غريبة في ضياء الشمس البارد وطقس الخريف الجاف؛ فذهبت عبر باحة البيت الخلفية. كانت السيدة إينهورن قد غطت المرايا لأنها امرأة شديدة التطيّر. رأيت شمعة مشتعلة في زجاجة كنسية بيضاء في غرفة الطعام المظلمة إلى جانب صورة للمفتش أيام كان شارباه كثيفَيْن لامعَين. وكان آرثر إينهورن الذي جاء من جامعته في شامبين لحضور جنازة جده جالساً قرب الطاولة في ملابسه الأنيقة المنفصلة عن هذا المكان واضعاً يده في شعره الصوفي المثقف مسترخياً في انتظار الجنون العائلي المتوقع في مناسبة مثل هذا اليوم. كان شخصاً ذكياً جذاباً رغم أن مظهره لم يكن شاباً تماماً- إذ لديه غضون على وجنتيه منذ الآن على

الرغم من وجود معطفه الفرائي فوق الطاولة المنخفضة وفوقه قبعته. أما ملابس إينهورن ودينغبات فكان من الواضح أنها مستأجَرَة من أجل المناسبة. كانت زوجة السيد تامبو السابقة موجودة أيضاً. كان تصفيفة شعرها تذكر بالمشرفات على المدارس وعلى أنفها نظارة من غير ذراعين. وكان معها ابنها دونالد الذي يغنّي في الاستقبالات والأعراس، وفي المناسبات العائلية أيضاً. وجاء كاراس هولوواي وزوجته التي انسدلت خصلة من شعرها فوق جبينها وظهر على وجهها تعبير الانزعاج المألوف عندها. كانت وافرة اللحم حمراء الوجه كثيرة الامتعاض والانتقاد، وكنت أعرف أنها حريصة دائماً على العلاقة مع صهرها لتحمي نفسها من آل إينهورن. ما كانت تثق بهم. ما كانت تثق بزوجها أيضاً، زوجها الذي أعطاها كل شيء: شقة كبيرة فاخرة في الناحية الجنوبية من المدينة، وأطقم من الخزف، وستائر فينيسية، وسجاد فارسي، ومفروشات فرنسية، وراديو كبيراً غالي الثمن. وحضر كاراس مرتدياً معطفاً جلدياً مزدوج الصدر وقد اعتنى بحلاقة ذقنه وتسريح شعره العجيب. كان وجهه منتفخاً وشعره مستقراً على رأسه بشكل جيد. كانت نعومة ذلك الشعر مصدر فخر له، وكذلك لغته الإنكليزية العجيبة التي لم تمنعه من صنع ثروة، إضافة إلى أهمية مكانته في بلده السابق ـ كان الناس يفسحون الطريق أمام غضون وجهه الدقيقة وعينيه الصغيرتين إذا ما قورنتا بالانقضاض الكاسح لسيارته الصفراء ذات الأسطوانات الست.

بعد ذلك بفترة طويلة كان لي لقاء غريب استمر عشر دقائق مع السيدة كاراس في مخبز قريب من جاكسون بارك حيث كنت مع فتاة يونانية زعمتُ أنها زوجتي لأننا كنا نسير متشابكي الذراعَيْن في قميصين خفيفين في وقت مبكر من الصباح. عرفتني فوراً وأظهرت سروراً كبيراً لرؤيتي، لكن ذاكرتها وقعت في أغلاط كثيرة فلم أقاطعها ولم أصحّح لها شيئاً. قالت للفتاة إنني كنت واحداً من أقربائها في الواقع وإنها تحبني مثلما تحب آرثر وإنها كانت تستقبلني في بيتها مثلما تستقبل قريباً لها ـ كان الموقف يشبه لقاء قريبين افترقا منذ زمن بعيد. صارت تحتضن كتفي وتقول إنني صرت وسيماً رائعاً وإن بشرتي موضع حسد حتى لدى الفتيات (كما لو أنني أخيل بين العذراوات... لكن في المكتب أو في صالة الألعاب). يجب القول إن هذه الرغبة الكبيرة في النظر إلى الماضي بتعاطف وطيبة قد فاجأتني. لطالما كان الناس يسلكون تجاهي سلوكاً حسناً كأنني كنت يتيماً بالفعل؛ لكنها لم تكن مثلهم أبداً: كانت نكدة الطبع غاضبة دائماً على زوجها المتأنق وشديدة الانتقاد لآل إينهورن. لم أذهب إلى بيتها أبداً إلا بصفتي سائقاً لدى إينهورن؛ وكنت أجلس في غرفة أخرى خلال الزيارة. وكانت زوجة إينهورن (مع أنها ليست صاحبة البيت) تحضر لي الشطائر والقهوة من حيث يجلسون حول الطاولة. أما الآن، فإن السيدة كاراس التي جاءت تشتري خبزاً للفطور حظيت بفرصة لتزيين الماضي وزخرفته بأزهار متخيَّلة ترعرعت في أسرارها القلقة. لم أنكر شيئاً من كلامها. قلت إنه صحيح كله وتركتها تستمتع بحماستها.

بل إنها وبّختني أيضاً لأنني انقطعت عن زيارتها. لكنني تذكرت عند ذلك برودة وجوههم، وتذكرت أيضاً ذلك الإفطار قبل الجنازة عندما كنت أقدم المساعدة في المطبخ؛ أما بافاتسكي فكان يعدّ القهوة لهم.

أرهق إينهورن كثيراً لكنه ظل صامداً؛ ظل في قبعته اللبادية المستقرة على مؤخرة رأسه، وكان يدخن ـ ما كانت لديه كلمة يقولها لي إلا إن حملَتْ أمراً من أوامره العارضة. أصر دينغبات بصوته الجاف المخشوشن على دفع كرسي أخيه إلى ردهة آل كينزمان. أما بعد ذلك، فكان عليَّ أنا، وليس على آرثر الذي سار إلى جانب أمه، أن أحمله على ظهري وأدخله إلى السيارة وأخرجه منها في تلك المقبرة الخريفية التي ملأتها أجمات قصيرة. وكان عليَّ أيضاً أن أحمله إلى مأدبة العشاء التي ضمت ذوي الفقيد، ثم إلى الكنيس عندما حل المساء. كان في عباءة سوداء، وكانت قدماه الضعيفتان العاجزتان مستندتين إلى خاصرتي، أما خده فكان ملتصقاً بظهري.

ما كان إينهورن متديّناً، لكن الذهاب إلى الكنيس كان مظهراً واجباً بصرف النظر عن أفكاره الخاصة. كان يعرف كيف يسلك سلوكاً حسناً. كان آل كوبلينز من الطائفة نفسها، فسرت إلى جانب ابنة العم آنا في ثوبها الشرقي الطويل الفضفاض بينما كانت تبكي على ابنها هاوارد وسط جوقة من النساء المتأنقات الفائحات بروائح الأملاح المختلفة... كن يبكين على من «سيغمرهم القدر ذلك العام بالماء أو بالنار» ـ هكذا يقول النص الإنكليزي لتلك الصلوات. لكن هذا كان مختلفاً عن تلك الأوقات التي كنت أرى فيها جموعاً من المصلين في أوشحة وقبعات فخمة وسط رنين الأجراس الصغيرة فوق الكسوة المخملية لحوامل الشموع. كان المكان مظلماً، وكانت هنالك مجموعة صغيرة من أشخاص مشعثي المظهر اعتادوا ارتياد المكان كل مساء... وجوه شائخة كثيرة وأصوات خشنة هامسة صافرة صادرة من القلب تنشد صلوات المساء العبرية. وكان لا بد من تنبيه دينغبات وإينهورن عندما جاء دورهما لقراءة صلاة الميت.

عدنا في سيارة كاراس ومعنا كريندل. همس إينهورن لي بأن أقول لكريندل أن يذهب إلى بيته. ذهب دينغبات لينام. أما كاراس فانطلق إلى بيته في الناحية الجنوبية من المدينة. وآرثر قد ذهب لزيارة أصدقائه وسوف يسافر إلى جامعته في الصباح. ألبست إينهورن ثياباً أكثر راحة وخفاً منزلياً. هبت ريح باردة وانسكب ضوء القمر في حديقة البيت الخلفية.

جعلني إينهورن أبقى معه تلك الأمسية. لم يرد أن يظل وحيداً. جلستُ بينما راح يكتب نعي أبيه بصيغة افتتاحية لجريدة الحي: «تعود عربة الدفن من قبر أغلق قبل قليل وتترك رجلاً يمر بآخر تحولات الطبيعة، رجلاً جاء إلى شيكاغو عندما كانت منطقة مستنقعات وغادرها بعد أن صارت مدينة عظيمة. جاء بعد الحريق الكبير الذي قيل إن بقرة السيدة

أوليري كانت سبباً له، جاء هارباً من طغيان آل هابسبورغ. عاش حياة بناء وعمل برهن فيها على عدم ضرورة أن تقوم الأماكن العظيمة على عظام العبيد مثلما قامت أهرامات الفراعنة أو عاصمة بطرس الأكبر على ضفاف نهر نيفا حيث دفن الآلاف في المستنقعات الروسية. إن الدرس الذي تقدمه سيرة حياة أمريكية مثل سيرة حياة أبي هو أنّ على الإنجازات الكبرى أن توافق اللياقة البشرية خلافاً لما فعله ذلك القاتل الروسي الذي قتل حتى ابنه. ما كان أبي يعرف ما قاله أفلاطون من أن الفلسفة ليست إلا دراسة الموت، لكنه مات فيلسوفاً رغم ذلك، مات وهو يقول للرجل العجوز الساهر إلى جانبه في لحظاته الأخيرة...» كان هذا مجرى القصة التي كتبها متحمساً في نصف ساعة على أوراق فوق مكتبه... كان طرف لسانه بارزاً بين أسنانه وهو ملفوف بثوب الحمام وعلى رأسه قبعته المصنوعة من جورب نسائي».

ذهبنا بعد ذلك إلى غرفة أبيه حاملين صندوقاً كرتونياً فارغاً ثم أقفلنا الأبواب وأشعلنا الضوء وبدأنا نقلب أوراق المفتش. كان يناولني بعض تلك الأوراق ويقول لي آمراً: «مزق هذه! هذه للحرق. هذه لا أريد أن يراها أحد! احرص على أن تتذكر أين تضع هذه الورقة لأنني سأطلبها غداً! افتح الدروج واقلبها! أين المفاتيح؟ فتش البنطلونات. ضع ثيابه على السرير وفتش الجيوب. هذا هو اتفاقه الذي أبرمه مع فاينبرغ! كم كان ذكياً ابن الحرام. أبي، ظاهرة حقيقية! دعنا نرتب كل شيء الآن ـ هذا هو الأمر الأهم. أزل هذه الأشياء عن الطاولة حتى نرتب الأوراق. يمكن بيع كثير من هذه الملابس... كل ما لا أستطيع أن ألبسه أنا باستثناء الملابس ذات الطراز القديم. لا ترم أي قصاصة ورق! لقد اعتاد كتابة أشياء مهمة على هذه القصاصات. ذلك العجوز... ظن أنه سيعيش أبد الدهر... هذا سر من أسراره. أظن أن العجائز الأقوياء كلهم يظنون هذا. أظن أنني أفعل هذا أنا أيضاً، حتى يوم وفاتي. لا نتعلم شيئاً أبداً، لا نتعلم شيئاً في هذا العالم، على الرغم من كتب التاريخ كلها. لا يتعدى الأمر طريقة مناقشتنا مع أنفسنا فيما يتعلق بالحياة والموت، لكن هنالك ضوءاً من خارجنا لا بد لنا أن نجعله يدخلنا... إذا استطعنا. هنالك مستودع كامل من الأفكار الجيدة. وأما كوننا لسنا أفضل مما نحن عليه فليس سبب عدم وجود أفكار حقيقية نستند إليها بل هو غرورنا الذي يغلب ثقله هذه الأفكار كلها. هذه ورقة عن مارغوليس الذي كذب البارحة عندما قال إنه ليس مديناً لأبي بشيء... 'صاحب القدمين المعوجّتين، مئتا دولار'. سآكل كبده إن لم يدفعها لي، هذا الموبوء ابن العاهرة ذو الوجهين».

عند منتصف الليل، صارت لدينا كومة من الأوراق الممزّقة كأننا في انتخابات الكاردينالات الذين يعلن الدخان المنبعث من اجتماعهم انتخاب بابا جديد. لكن إينهورن لم يكن راضياً عن الوضع. كانت القصاصات تشير إلى معظم المدينين بأسماء تشبه الاسم الذي أطلقه على مارغوليس... «الأسنان المتباعدة»، «الرأس الصدئة»، «الزاحف»،

«الضحك المستمر»، «آلدرمان سام»، «أختونغ»، «ملك باشان»، «صحن الشوربة». لقد قدم قروضاً لهؤلاء الرجال ولم يكن لديه ما يثبتها إلا هذه القصاصات التي تشير إلى ديون تصل إلى عدة آلاف من الدولارات. كان إينهورن يعرف أصحاب هذه الأسماء، لكنه لا يملك شيئاً يجبر مَن لا يريد الدفع على سداد دينه. كانت هذه أول إشارة إلى أن المفتش لم يتركه في مركز قوي مثلما كان يظن بل تركه معرَّضاً لقلة أمانة رجال كثيرين لم يعاملهم معاملة جيدة على الدوام. صار إينهورن قلقاً، مفكراً.

قال متوتراً: «هل عاد آرثر؟ ينطلق قطاره في ساعة مبكرة صباح الغد». جلس وسط حطام الغرفة التي كانت ذات يوم غرفة باذخة يجلس فيها العجوز محاطاً برفاهية أنثوية، وكان يفكر في ابنه بعينين مدوَّرتين كعيني عصفور؛ ثم قال ببساطة: «لا بأس! لا تهمه هذه الأوراق أصلاً. إنه يتحدث مع شعراء وأشخاص أذكياء». كان يتحدث عن آرثر بهذه الطريقة دائماً، وكان هذا يمنحه الراحة والسلوى.

الفصل السابع

أتذكر قصة قارون القديمة، وأضع إينهورن في الجزء غير السعيد منها. أرى في البداية الرجل الثري المتكبّر الذي غضب من صولون الذي لا بد أنه كان بمثابة الباريسي الزائر في تلك الليلة التي بلغ فيها جزيرة ريفية ثرية (سواء كان محقاً في جدلهما عن السعادة أو كان مخطئاً في هذا الجدل). وأسأل نفسي عن السبب الذي منع دفء الحكمة من جعل صولون أليَن عريكة مما كان عليه تجاه قارون شبه البربري، قارون المثقل بالذهب والجواهر. لكنه كان محقّاً على أية حال. وأما قارون الذي كان مخطئاً فقد تعلم الدرس عندما ذرف الدموع أمام قورش الذي رحمه ولم يحرقه حياً. صار هذا العجوز، من خلال حظه العاثر، مفكراً زاهداً، وصار مستشاراً. ثم خسر قورش رأسه أمام الملكة المفعمة بروح الانتقام إذ رمت بذلك الرأس في حوض من الدم صائحة به: «ألم تكن تريد الدم؟ ها هو الدم، اشرب!». ثم ورث ابنه المجنون كامبوس ذلك المستشار قارون وحاول قتله في مصر يوم دفع بأخيه إلى الموت وجرح العجل المسكين آبيس مغضباً الكهنة حليقي الرؤوس والأجساد. كان الانهيار الاقتصادي بمثابة قورش بالنسبة لإينهورن، وكان إفلاس البنوك محرقته، ثم صارت صالة الألعاب منفاه من مملكة ليديا والسفاحين من أشباه كامبوس، لكنه أفلح في الالتفاف على خطرهم وتهديدهم.

مات المفتش قبل الانهيار الاقتصادي العام، ولم يمضِ عليه وقت طويل في قبره حتى بدأت حالات الانتحار بالقفز من ناطحات السحاب في شارع لاسال وفي قلب نيويورك. كان إينهورن من بين أوائل من أوْدت بهم الأزمة. وكان جزء من ذلك عائداً إلى نظام الائتمان الذهبي العجيب الذي أقامه المفتش، لكن الجزء الآخر من السبب كان كامناً في سوء إدارة إينهورن نفسه. فقد الآلاف في أسهم شركة إينسول التي اضمحلت

قيمتها وذابت (خسر كوبلين أيضاً مالاً كثيراً في تلك الأسهم)؛ وخسر ميراثه أيضاً وميراث دينغبات وآرثر عندما وضع ذلك المال في مشاريع بناء لم يستطع تنفيذها آخر الأمر. ولم يبق لديه شيء في نهاية المطاف غير رقع خاوية من الأرض القاحلة في منطقة كليرينغ وحول المطار، ثم خسر عدداً من هذه الأراضي لتسديد الضرائب. كان يقول لي عندما آخذه أحياناً في نزهة بالسيارة: «كنا نملك مجموعة المتاجر تلك، هناك»؛ أو يقول مشيراً إلى بقعة ملأتها الأعشاب بين كوخين متداعيين: «حصل أبي على هذه الأرض في صفقة قبل ثماني سنوات وأراد أن يبني موقفاً للسيارات فيها. لكنه لم يفعل ذلك». وهكذا كانت نزهة السيارة معه أمراً باعثاً على الكآبة رغم أنه لم يكن كثير الشكوى والتذمّر... كانت عباراته عارضة جافة.

وحتى البناء الذي كان يعيش فيه... الذي بناه المفتش ودفع فيه مئة ألف دولار نقداً، فقد خسره آخر الأمر عندما أغلقت المتاجر وتوقف المستأجرون في الطوابق العلوية عن دفع إيجاراتهم.

قال لهم في الشتاء: «من غير الإيجار، لن تحصلوا على التدفئة»... كان يريد أن يظهر القسوة... «على مالك العقار أن يتصرف بصفته هذه وإلا فعليه أن يتخلى عن أملاكه. سوف أتقيد بالقوانين الاقتصادية، وسوف أعتمد القواعد نفسها في الأوقات الطيبة وفي الأوقات الرديئة». هكذا كان يدافع عن قراره. لكنهم استعانوا بالقضاء فخسر القضية وتكاليف المحاكمة وكل شيء. عمد عند ذلك إلى تأجير المتاجر الفارغة للسكن: واحد لأسرة زنجية والثاني لعرّاف غجري علق في واجهة المحل كفاً مرسومة وصورة لدماغ عملاق. بدأت المشاجرات في البناء، وبدأت سرقة الأنابيب وتجهيزات المراحيض. صار المستأجرون أعداء له الآن؛ وكان على رأسهم الحلاق البولندي أحمر الشعر بتزفسكي الذي كان يقيم حفلات على الماندولين على الرصيف أيام الرخاء ثم صار الآن يحدق بعينين صقيعيّتين عندما يمر أمام نافذة إينهورن. باشر إينهورن إجراءات الإخلاء في حقه وفي حق عدد من الآخرين. وبسبب ذلك بدأت تحوم حوله وتهدده عصبة من الشيوعيين.

كان يقول بسخرية مرة: «كأنني لا أعرف عن الشيوعية أكثر منهم! ماذا يعرفون عن الشيوعية، هؤلاء الجهلة، أولاد الحرام؟ بل ماذا يعرف سيلفستر حتى عن الثورة؟» كان سيلفستر الآن عضواً نشطاً في الحزب الشيوعي. وهكذا صار إينهورن يجلس في مكتب المفتش عند الواجهة حيث يستطيع مراقبوه الشيوعيون رؤيته... يجلس هناك منتظراً ردة فعل الشرطة. لطخوا نوافذه بالشمع الذائب، وألقوا في مطبخه كيساً من الورق مليئاً بالغائط. وعند ذلك شكل دينغبات دورية طيارة من رواد صالة الألعاب لكي يحرس المبنى. كان لدى دينغبات غضب قاتل تجاه بتزفسكي وأراد أن يغير على محله ويحطم مراياه. لم يكن

المكان الذي انتقل إليه بتزفسكي عند هذه المرحلة من الكساد الاقتصادي محلاً بالمعنى الحقيقي للكلمة... كرسي حلاقة واحد في قبو يحتفظ فيه أيضاً بطيور الكناري وبقدر من الكآبة الحزينة. ظل كليمنتين تامبو يذهب إليه ليحلق ذقنه. كان يقول إن الحلاق ذا الشعر الأحمر هو الشخص الوحيد الذي يفهم لحيته. غضب منه دينغبات نتيجة ذلك. لكن إينهورن تمكن من طرد بتزفسكي فوقفت زوجته في الشارع الفرعي وهي تلعن إينهورن واصفة إياه بالكسيح اليهودي المقرف. لم يكن دينغبات قادراً على فعل شيء. والواقع أن إينهورن أمره: «لا تقم بأي شيء عنيف إلا إذا قلت لك ذلك». لم يلغِ هذا الاحتمال، لكنه أراد أن يحتفظ بقرار العنف في يده. وكان دينغبات مطيعاً رغم أن إينهورن ضيّع كل قرش من حصته من الميراث. كان يقول: «الأزمة لم تصِبنا وحدنا! لقد أصابت الجميع. إذا عجز هوفر ومورغان عن توقّعها فكيف يتوقعها ويلي؟ لكنه سوف ينقذنا. وأنا أترك الأمر له».

كان سبب إخلاء المستأجرين هو أن إينهورن تلقّى عرضاً من أحد صانعي المعاطف الذي أراد استئجار الطابق العلوي. وجرى هدم الجدران الداخلية في عدة شقق قبل أن تتدخل السلطات البلدية لأن هذا مخالف للتعليمات الخاصة بالأمن والوقاية من الحرائق، إضافة إلى محاولة إقامة نشاط صناعي في مبنى سكني. لكنهم كانوا قد نقلوا قسماً من الآلات إلى المكان في ذلك الوقت. وصار صانع المعاطف (الذي كان مختصاً بصناعة شرائط ربط الأحذية أيضاً) يلاحقه لدفع تكاليف إخلاء المكان من الآلات. وكانت هنالك قضية أخرى في المحكمة فيما يتعلق بهذا الأمر أيضاً عندما حاول إينهورن الادعاء، ضارباً بالمبادئ كلها عرض الحائط، أن الآلات كانت مثبتة إلى الأرض مما يجعلها من أملاكه هو. خسر هذه القضية أيضاً؛ ووجد صانع المعاطف أن من الأسهل له أن يكسر النوافذ وينزل آلات باستخدام البكرات بدلاً من تفكيكها. وقد حصل من المحكمة على أمر يسمح له بفعل ذلك. تضررت اللافتة الضخمة المعلقة بالسلاسل التي كانت تحمل اسم آل إينهورن؛ لكن ذلك كان قليل الأهمية لأن إينهورن خسر المبنى أيضاً، خسر آخر عقار كبير يملكه، وصار خارج عالم الأعمال. أُغلق المكتب وبيع القسم الأكبر من الأثاث. تكومت المقاعد في غرفة الطعام، وازدحم السرير بالملفات بحيث صار الوصول إليه ممكناً من جهة واحدة فقط. وفي انتظار زمن أفضل، كان إينهورن راغباً في الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من ذلك الأثاث. كانت لديه كراسٍ دوّارة في غرفة الجلوس التي أُعيد إليها الأثاث المحترق الذي تم استصلاحه بطريقة رخيصة لكنه ظل يفوح برائحة الحريق (أفلست شركة التأمين أيضاً فلم تدفع لإينهورن شيئاً).

ظل يملك صالة الألعاب فتولى إدارتها شخصياً. وصار له نوع من المكتب في الزاوية الأمامية عند صندوق النقود؛ وظل منهمكاً في الأعمال بحكم العادة. مر عليه زمن طويل قبل أن يستطيع ابتلاع حقيقة هبوطه إلى هذه المرتبة المتدنية. لكنه صار خلال ذلك زعيماً

هنا أيضاً، وظهرت لديه أفكار تنظيمية وبدأ يحاول جمع المال من أجل تنفيذها. أقام زاوية للطعام أول الأمر. أزيحت طاولات البلياردو لإفساح المكان ثم وضعت طاولة خضراء كبيرة لنوع مختلف من الألعاب. ظل محتفظاً بصفة كاتب العدل وبصفة وكيل التأمين، وحصل على تفويض بتحصيل فواتير شركات الغاز والكهرباء والهاتف. حدث ذلك كله ببطء شديد لأن كل شيء كان بطيئاً في ذلك الزمن الميت؛ بل كانت عبقريته نفسها مخدَّرَة نتيجة سرعة السقوط وعمق هاويته. كان القسم الأكبر من أفكاره منصرفاً إلى استعادة الماضي ومحاولة استنتاج الخطوات التي يجب أن يقوم بها حتى ينقذ مال ابنه آرثر على الأقل... إضافة إلى مال دينغبات. كان يعاني أيضاً من تلك البيئة التي ضاقت حتى صارت شارعاً واحداً، بل مكاناً واحداً، بعد أن خسر بقية العقارات؛ صارت بيئة ثقيلة صامتة خيّمت عليها العزلة وقلة المال. تدهورت حالة ذلك المُقعد الذي تقدم به العمر من الخطط الكبرى إلى مجرد القبول بالأمر الواقع. كان يرى أن الكارثة العامة ليست عذراً لتبرير فشله (إنه ذلك الاندفاع الذي يحجب الآخرين أكثر الأحيان)، وبدا له أن كل شيء قد انهار وتهاوى منذ اللحظة التي ورث فيها ثروة المفتش... كانت تلك الثروة مثل قطيع من حيوانات ذهبية صغيرة لا تطيع إلا صوت صاحبها القديم.

كان يقول أحياناً: «طبعاً! ليس الأمر فظيعاً جداً بالنسبة لي من الناحية الشخصية. كنت مقعداً من قبل، وأنا مقعد الآن. لم يجعلني الثراء أمشي... وإذا كان هنالك إنسان يستطيع أن يعرف ماذا يمكن أن يحدث له، فإنه ويليام إينهورن. تستطيعون تصديق هذا».

حسن، نعم، أستطيع تصديقه ولا أستطيع تصديقه. كنت أعرف أن هذه التأكيدات ليست إلا أثراً لضوء ضعيف خافت، ضوء فيه من الشحوب أكثر مما فيه من الخضرة الزاهية... ما أصعبَ تلك الأيام البائسة التي مرت عليه عندما خسر آخر بناية كبيرة وخسر معها الآلاف القليلة الباقية من ميراث آرثر في المسعى الأخير لإنقاذ الوضع مدفوعاً بالعزة بدلاً من عقلية رجل الأعمال. سرّحني عند ذلك وقال بنبرة واهنة: «صرت رفاهية بالنسبة لي يا أوجي. وعليَّ أن أصرفك». صار دينغبات والسيدة إينهورن يعتنيان به خلال الفترة الرديئة التي لازم فيها مكتبه مصدوماً مغلوباً غارقاً في أفكاره السوداء. كان يمضي أياماً كثيرة من غير أن يحلق ذقنه (رجل يعتمد إيقاع حياته كله على انتظام عاداته) قبل أن يترك تلك الغرفة الكالحة المزدحمة بالكتب ويعلن أنه سيبدأ إدارة صالة الألعاب. كان في وضع يشبه وضع المرشح الرئاسي آدمز الذي خسر الانتخابات الرئاسية فعاد إلى العاصمة عضواً بسيطاً في الكونغرس. كان عليه أن يفعل شيئاً أو يُخرج آرثر من الجامعة ليتولى العمل (إن قبل آرثر ذلك) لأنه ما عاد لديه شيء يعتمد عليه. بلغ به الأمر حد إلغاء بوليصات التأمين حتى يوفر بعض المال من أجل المبنى.

ثم إن آرثر لم يكن يحسن القيام بشيء. كان يتلقى تعليماً حراً في مجالات الأدب واللغات والفلسفة بعكس ابن كريندل، كوتزي، طبيب الأسنان الذي صار يعيل أسرته الآن. على نحو مفاجئ، صار لما يفعله الأبناء أهمية متزايدة الآن. كان هاورد كوبلين يكسب المال بالعزف على الساكسفون. ولم يعد كريندل يسخر أمامي من نجاح ابنه غير الطبيعي مع النساء. صار ينصحني بدلاً من ذلك بأن أطلب من ابنه عملاً في الصيدلية تحت عيادته. أعطاني كوتزي زاوية صغيرة خلف الواجهة حتى أتمرن على بيع الصودا. كنت شاكراً لأن سايمون تخرج في المدرسة الثانوية فأوقفت الجمعية الخيرية دفع مخصصه. ثم إنه خسر بعض أيام العمل في محطة شارع لاسال. صار بورغ يضع أصهاره العاطلين عن العمل ويقذف بالآخرين يميناً وشمالاً.

وأما مدّخراتنا... مال الأسرة الذي تولاه سايمون خلفاً لجدتنا، فقد طار أيضاً. استولى المصرف على الطابق الأول وصار ذلك المكان متجراً لبيع الأسماك (كان إينهورن يستطيع رؤيته من زاويته في صالة الألعاب). لكن سايمون تخرّج بدرجات جيدة... لا أستطيع أن أفهم كيف تمكن من ذلك... ثم جرى انتخابه قيّماً على صندوق صفه فصار مسؤولاً عن شراء شارات المدرسة ودبابيسها. أظن أن مظهره الموحي بالصدق والشرف كان سبباً وراء انتخابه. كان مسؤولاً عن المال أمام المدير، لكن هذا لم يمنعه من إبرام صفقة مع التاجر جنى منها خمسين دولاراً لنفسه.

كان منشغلاً بأمور كثيرة؛ وكنت منشغلاً مثله. احتفظ كل منا بشؤونه لنفسه. لكنني كنت أعرف شيئاً عما يسعى إليه لأن مراقبته صارت عادة عندي منذ زمن طويل. أما هو فلم يكن ليتوقف لحظة حتى يلقي نظرة على ما أفعله. انتسب إلى المدرسة البلدية انسياقاً مع الفكرة التي كانت لدى الجميع في ذلك الوقت: ضرورة استعداد المرء لامتحانات الوظيفة المدنية. كان هنالك طلب شديد على وظائف مكتب الأرصاد الجوية، ودائرة المسح الجيولوجي، ومكتب البريد، كان المرء يستطيع أن يرى ذلك من خلال الإعلانات المطبوعة بأحرف كبيرة التي يضعونها في لوحات الإعلانات في المدرسة والمكتبة العامة.

كانت لدى سايمون قدرات بارزة. لعل الكتب التي كان يقرأها هي السبب، وكذلك النظرة الثاقبة التي تعلمها. كأنها نظرة جنرال، أو كأنها نظرة جاكسون وهو يستعد لإطلاق النار عندما أصابت رصاصة خصمه في المبارزة زر عباءته الضخم فانحرفت عنه... نظرة متعالية لا تعرف الصفح... نظرة سيادة سماوية. إنها تلك النظرة التي يجتمع فيها الصدق وقوة الترفّع وتلوح فيها بصيرة نافذة تشبه انقباضة نبيلة في جبهة تحمل هموماً تتجاوز الذات. أعتقد أن تلك النظرة كانت أصيلة عند سايمون ذات يوم. وإذا كانت أصيلة ذات يوم، فكيف يمكن للمرء أن يقول واثقاً إن أصالتها زالت واختفت؟ لكنه كان يستخدم

هذه الطرق... كان يستفيد منها. وأنا أعرف هذا تماماً. فهل تصير مزيفة عندما يستخدمها متعمّداً؟ مهما يكن، من عساه يستطيع التخلي عن نقاط قوته عندما يكون منخرطاً في القتال؟

لعل جدتنا لوش بنت خطتها القديمة التي حلمت بها، خطة الاستفادة من عطايا روزنوالد أو كارنيجي لأنها اعتمدت على هذه الموهبة عند سايمون. عندما يكون سايمون واقفاً بالقرب من مشاجرة تجري عند زاوية الشارع فإن الشرطي يختاره هو من بين عشرة شهود متطوعين ليسأله عما حدث! وعندما يخرج المدرب من غرفة الأدوات الرياضية حاملاً كرة سلة جديدة فإن عشرات الأذرع تمتد صوبه ملوِّحة، متوسِّلة، لكنه يرمي الكرة إلى سايمون الذي يبدو غير مبالٍ بالحصول عليها. لكنه يتوقعها... لم يستطع المدرب مفاجأته بها أبداً.

إنه واقف الآن على أرض رخوة. وهو يجد نفسه مضطراً إلى تخفيف سرعة انطلاقه صوب هدف وضعه سراً في ذهنه. لم أكن أعرف هدفه ذلك الوقت، ولم أفهم تماماً السبب الذي يجعل وجود الهدف أمراً ضرورياً. كان هذا يتجاوز عقلي. لكنه كان يتقدم طيلة الوقت ويحوز تشكيلة واسعة من المعلومات والمهارات، كالرقص والحديث مع النساء والمغازلة وتقديم الهدايا وكتابة الرسائل العاطفية والذهاب إلى المطاعم والملاهي الليلية وصالات الرقص، وكذلك ربطات العنق بمختلف أشكالها، وكل ما يمكن أن يكون صحيحاً أو خاطئاً في طريقة وضع المنديل في جيب السترة، وكيفية اختيار الملابس، وكيف يعتني بنفسه بين حشد من الأشرار، وكيف يتصرف في منزل محترم. كانت هذه المهارة الأخيرة مشكلة صعبة عندي لأنني لم أستوعب دروس السلوك التي ألقتها علينا العجوز. لكن سايمون امتلك تلك الأساسيات رغم عدم الانتباه الذي كان يظهر عليه. أذكر هذه الأشياء التي تبدو من نوافل الأمور في نظر كثير من الناس لأننا لم نكن معتادين عليها أبداً. راقبته يدرس مهارة وضع القبعة وتدخين السيجارة وطي زوج من القفازات لوضعه في الجيب الداخلي. أعجبت بذلك وتساءلت من أين أتى به، بل تعلمت بعضاً منه بنفسي. لكنني لم أخظ قط بلمسة الرفاهية التي تظهر عليه عندما يفعل هذه الأشياء.

عند المرور بردهات الأماكن الباذخة المترَفة وصالات المطاعم المزينة باللوحات والشموع والحلي المعلقة وحبال الستائر، وعند سماع إيقاع فالس فيينا الرصين، كان سايمون قادراً على امتصاص ذلك كله. كانت هذه الأشياء تثير انتباهه واهتمامه. كان يسخر منها لكنها تصير داخله وتتملكه في الوقت ذاته. ولذلك كان عليّ أن أدرك كم كان بشعاً بالنسبة له أن يوجد وسط بلادة ذلك الحي وأمسياته الشتائية عديمة الروح عندما يمضي وقته في معطفه الطويل ويظل يومين من غير أن يحلق ذقنه جالساً في الصيدلية أو

مع الشيوعي سيلفستر في متجر زيكمان؛ بل حتى في صالة الألعاب بعض الأوقات. صار يعمل في المحطة أيام الأحد فقط. وكان يقول إن عمله هناك استمر لأن بورغ يحبه.

كان لدينا وقت قليل للثرثرة في أيام ذلك الشتاء البطيئة التي تراوح مكانها، جالسين على طاولة الطعام في صالة الألعاب قرب النافذة التي نرى منها الثلج الممتزج بروث الخيول والفحم والسخام ونرى حركة الضباب البنّي في ضوء مصباح الشارع الذي يُنار منذ الرابعة بعد الظهر. بعد أن ننجز في البيت الأعمال الضرورية لأمنا... نضع الحطب في المدفئة ونأتي بالبقالة ونرمي القمامة والرماد... لم نكن نبقى هناك معها ـ كان بقائي أقل من بقاء سايمون الذي كان ينجز واجباته المدرسية على طاولة الطعام أحياناً فتضع ماما إبريق القهوة على المدفئة من أجله. لم أطرح عليه السؤال الذي سألني إياه جيمي كلين وكليمنتين... كان ذلك السؤال بالضبط: هل تمكن سيلفستر من جعله يعتنق أفكاره السياسية؟ كنت واثقاً من الإجابة التي قدمتها لهما وهي أن سايمون في حاجة إلى ما يقتل به الوقت وإنه يذهب إلى اللقاءات وإلى الاجتماعات والمنتديات والمناسبات الاجتماعية والحفلات التي يجمعون فيها أجرة الموسيقيين في قبعة تمرّ على الجمهور... ذلك كله حتى يتخلص من الضجر وحتى يقابل الفتيات... ليس لأنه يعتبر سيلفستر شيئاً عظيماً، بل يذهب معه من أجل الفتيات الطويلات في السترات الجلدية والقبعات وقمصان العمل القطنية الزرقاء. وأما المطبوعات التي كان يأتي بها إلى البيت فكانت مهمتها حماية الطاولة من بقع القهوة في الصباح التالي، أو كان يمزق تلك الصفحات المطبوعة على الآلة الناسخة، يمزقها بيدين شقراوين كبيرتين حتى يشعل النار بها في المدفئة. قرأت من تلك المطبوعات أكثر مما قرأ هو نفسه، قرأتها بفضول حائر. لا، كنت أعرف أن لدى سايمون فكرته الخاصة عن الوجهة الصحيحة لسير الأمور. كنا، أنا وماما، حملاً زائداً بالنسبة إليه، ولم يكن مستعداً لأن يحمل فوقنا عبء طبقة بأسرها. ما كان مستعداً لتبني عواطف سيلفستر الأخلاقية بأكثر من استعداده لشراء بدلة لا يناسبه مقاسها. لكنه كان يجلس في متجر زيكمان هادئاً مدخناً سجائر مجانية تحت ملصقات بروليتارية تحريضية، مستمعاً إلى أحاديث غريبة فيها كلمات لاتينية وجرمانية مرخياً جانب فكه الفتي الضخم إلى ياقة قميصه في دخان الهواء البارد الأصفر وعقله يرفض كل ما يسمعه.

وأما حضوره في صالة الألعاب فكان مفاجئاً لي أيضاً بالنظر إلى ما قاله لي سابقاً عن علاقتي بآل إينهورن. لكن التفسير كان هو نفسه... كانت أوقاتاً مملة لأنه مفلس. سرعان ما نشأت صحبة بينه وبين سيلفستر ذي العينين الشبيهتين بعيني دب في خضم حرب المطبوعات مع البرجوازية، وتلقى دروساً في البلياردو من دينغبات أيضاً. صار ماهراً في تلك اللعبة إلى حد سمح له بأن يفوز ببعض الجولات التي يراهنون فيها على عشرة سنتات للكرة الواحدة، لكنه حرص على البقاء بعيداً عن الخبراء المحترفين الذين جعلوا اللعب

هناك مهنة لهم. وكان من حين لآخر يلعب الكرابز في الغرفة الخلفية، وكان حظه فيها طيباً أيضاً. ظل بعيداً عن القتلة السفاحين وعن اللصوص، فلم يعتبره أحد منهم خطراً على مهنته. كان أذكى مني في ذلك الأمر لأنني كنت أقع ضحية السرقة أحياناً.

كنت أمضي معظم وقتي مع جيمي كلين ومع كليمنتين تامبو. وعندما اقتربت نهاية الفصل الدراسي صرت لا أرى أحداً منهما أيضاً. كان وقع البطالة شديداً على أسرة جيمي: فقد تومي عمله في إدارة المدينة عندما خرج الجمهوريون منها بعد فوز الديمقراطي كيرماك بمنصب عمدة شيكاغو. وكان جيمي يعمل كثيراً. كان أيضاً يدرس اختصاص المكتبات في الليل، أو يحاول أن يدرس ذلك الاختصاص لأنه كان فاشلاً في ما يتعلق بالأرقام أو في أي شيء يستلزم جهداً عقلياً. لكنه كان شديد التصميم على التقدم من أجل أسرته. سافرت أخته إيليانور إلى مكسيكو، ذهبت تلك المسافة كلها بالباص لترى إن كانت تستطيع التوافق مع ابن عمهم هناك؛ ابن العم الذي كان سبب بداية اهتمام جيمي بعلم الأنساب.

وأما كليمنتين تامبو فكان ازدراؤه للمدرسة متطرّفاً، وكان يمضي في الفراش أطول وقت يستطيعه وهو يقرأ قصصاً خفيفة. كان سائراً نحو حالة العاطل النموذجي عن العمل. ومن خلال أمه، كان يخوض نقاشات طويلة بخصوص عادات حياته مع زوجها الثاني الذي كان عاطلاً عن العمل بدوره. كان أحد أبناء الجيران يعمل في جمع كرات البولينغ في صالة وسط المدينة مقابل ثلاثين سنتاً في الساعة؛ فلماذا يرفض البحث عن عمل؟ كانوا يعيشون جميعاً، هم الأربعة، في الغرف الواقعة خلف محل ملابس الأطفال الذي تديره زوجة تامبو السابقة بنفسها. كان زوج والدة كليمنتين الأصلع صاحب الشعر الخشن على ظهره يقرأ صحيفة جويش كرونايكل وهو جالس قرب المدفأة بقميصه الداخلي، ويعد لهم جميعاً وجبة غداء من السردين والمعجنات والشاي. على الطاولة دائماً علبتا سردين أو ثلاث علب مفتوحة، إضافة إلى الحليب والمحار ذي الحجم الصغير. لم يكن رجلاً سريع التفكير ولم تكن لديه مواضيع كثيرة يتحدث فيها. وكنت أراه عندما أزورهم جالساً في قميصه الداخلي القطني الأبيض بلون السحاب، وكان مقدار المال الذي أكسبه موضوع الحديث الوحيد عنده.

قال كليمنتين لأمه عندما تحدثت معه عن وجوب عمله: «أتريدين أن أقوم بأعمال زراعية شاقة؟ إذا لم أستطع العثور على ما هو أفضل من ذلك فسوف أبتلع السم». جعلته فكرة ابتلاع السم يضحك كثيراً ويقهقه «هاهاها!»... يقهقه بفم كبير مفتوح ويهز خصلات شعره. كان يقول: «على أية حال يا أمي، أفضل البقاء في السرير واللهو مع نفسي» ـ هكذا كان يقول لأمه صاحبة القدمين اللتين تصلحان لتأدية رقصات إسبانية ـ «لم تبلغي من العمر حداً يجعلك عاجزة عن فهم ما أعنيه. تذكري أنك في الغرفة المجاورة لغرفتي، أنت

وزوجك». جعلها ذلك تشهق غير قادرة على الرد بسبب وجودي، لكنها راحت تحدّق فيه بعينين غاضبتين مؤنّبتين... «لا بأس، كفاك تمثيلاً... لماذا أنت متزوجة إذن؟»

قلت له عندما صرنا وحدنا: «لا يجوز أن تتحدث مع أمك هكذا!»

ضحك من كلامي: «عليك أن تمضي في هذا المكان يومين وليلتين، وستكتشف أنني أقول لها أقل مما تستحق. أنت مخدوع بنظّارتها الأنفية ولا تعرف كم صارت فاسقة. فلنواجه الحقائق التي لدينا!» لقد أخبرني عن تلك الحقائق بطبيعة الحال؛ وبدا لي أنني كنت حاضراً فيها أنا أيضاً لأنها كانت قد سألت أشخاصاً آخرين عني بطريقة ماكرة خبيثة وقالت إنني أبدو قوياً.

كان كليمنتين يخرج في نزهة بعد الظهر. كان يحمل معه عصا ويسير في أَنَفَة واختيال بريطانيين. لقد قرأ سِيَرَ اللوردات في المكتبة وفكر فيها وصار يلعب دور السيد النبيل مع أصحاب المتاجر البولنديين. وكان مستعداً دائماً لأن ينفجر مقهقهاً بعنف سعيد فتعلو وجهه غضون حارة من السرور البشع. يذهب للمقامرة على الخيول عندما يستطيع أن يتسول بضعة دولارات من أبيه؛ وإذا ربح فإنه يدعوني إلى عشاء من شرائح اللحم ومعه سيجار أيضاً.

كنت أخالط أناساً من أنواع أخرى أيضاً. كان لديّ من جهة أولى بضعة أشخاص ممن يقرؤون كتباً ضخمة بالألمانية والفرنسية ويحفظون كتب الفيزياء وعلم النبات المدرسية ويحبون قراءة نيتشه وشبينغلر. أما من ناحية أخرى، فكنت أخالط المجرمين أيضاً. لكني لم أكن أراهم على هذا النحو. كنت لا أنظر إليهم هكذا بل أراهم أشخاصاً أعرفهم من صالة الألعاب وأراهم أيضاً في المدرسة... أراهم يرقصون في الصالة الرياضية في استراحة الغداء أو في بعض المطاعم خارج أوقات الدراسة. كنت على تماس مع هذه الجوانب كلها، لكن أحداً ما كان يعرف انتمائي. وأنا أيضاً، لم تكن لدي فكرة عن ذلك. لا أعرف إن كنت سأرتاد صالة الألعاب لو لم أتعرف على إينهورن وأعمل لديه. لم أكن مجرماً بالتأكيد، ولم أكن أيضاً واحداً من غريبي الأطوار المدمنين على حفظ المعلومات؛ لم أكن ضد المجرمين ولا ضد غريبي الأطوار. لكن كان من الأسهل على أفراد العصابات أن يعتبروني واحداً منهم. بدأ لص اسمه جوي غورمان يحدثني عن سرقة يخطط لها.

لم أقل له لا!

كان غورمان وسيماً رشيقاً لامعاً، وذكياً في لعبة كرة السلة. كان والده الذي يملك محلاً لإطارات السيارات شخصاً ميسوراً، وما من سبب واضح يجعله يسرق. لكنه كان صاحب سجل في سرقة السيارات ودخل إصلاحية سانت تشارلز مرتين. كان عازماً الآن

على سرقة محل للجلديات في جادة لينكولن غير بعيد كثيراً عن آل كوبلين. سيقوم ثلاثة أشخاص بهذه العملية. كان البحار بولبا الشخص الثالث... شريكي القديم في الخزانة المدرسية الذي سرق كتاب العلوم. كان يعرف أنني لست واشياً.

سيأتي غورمان بسيارة أبيه حتى نبتعد فيها عن المكان بعد العملية. سوف ندخل ذلك المحل من نافذة القبو في الجهة الخلفية ونأخذ الحقائب النسائية. وسوف يخبئها بولبا عنده ثم يبيعها من أجلنا شخص في صالة الألعاب يعمل في بيع السلع المسروقة اسمه يوناس.

في الساعة الواحدة بعد منتصف ليلة نيسانية ذهبنا بالسيارة إلى تلك المنطقة وأوقفناها بالقرب من أحد الأزقة ثم تسللنا إلى الفناء الخلفي واحداً بعد الآخر. كان بولبا قد راقب المكان: إن نافذة القبو الصغيرة غير محمية بقضبان حديد. حاول غورمان فتحها باستخدام عتلة أول الأمر ثم باستخدام شريط لاصق (طريقة سمع عنها في صالة الألعاب لكنه لم يجربها من قبل). لم يستطع فتح النافذة. عند ذلك، وضع بولبا حجراً في قبعته وحطم الزجاج. خرجنا إلى الزقاق بعد صوت تحطم الزجاج، لكننا عدنا عندما لم يأت أحد. كرهت الأمر في تلك اللحظة، لكن الانسحاب كان غير وارد. دخل بولبا وغورمان بينما بقيت في الخارج للمراقبة. كان هذا من غير معنى لأن النافذة هي الطريق الوحيد للهرب. وإذا أمسكت بي دورية شرطة هناك فلن يفلتوا هم أيضاً.

لكن غورمان كان الخبير بيننا، وقد نفذنا أوامره. لم يكن يُسمع أيّ صوت إلا صوت الجرذان أو قرقعة ورق التغليف. سمعت آخر الأمر صوتاً من القبو ثم ظهر وجه غورمان الشاحب الحاد في الأسفل. بدأ يناولني الحقائب... كانت أشياء طرية ناعمة في أغلفة ورق. وكنت أضعها في كيس كبير من المشمع حملته تحت معطفي. جريت مع بولبا عبر الحدائق الخلفية حتى بلغنا الشارع التالي حاملين الحقائب معنا، في حين قاد غورمان السيارة إلى ذلك المكان. أنزلنا بولبا خلف بيته. قذف الكيس من فوق السياج ثم قفز خلفه وهبط فوق كومة من الحصى وعلب الصفيح الفارغة. عدت إلى البيت عبر طريق مختصرة وأخرجت المفتاح من صندوق البريد ثم دخلت البيت النائم.

عرف سايمون أنني عدت في وقت متأخر كثيراً وقال إن ماما جاءت وسألت عني عند منتصف الليل. لم يبدُ عليه اهتمام بما كنت أفعله، ولم يلاحظ بؤسي الذي كان مختبئاً خلف اللامبالاة التي أظهرتها. ظللت ساعات طويلة مستيقظاً أحاول التفكير في طريقة أفسّر بها حصولي على حصتي من العملية التي يمكن أن تبلغ عشرين دولاراً. فكرت في أن أطلب من كليمنتين القول إننا ربحنا معاً في المراهنة على الخيول؛ لكن ذلك لم يبدُ لي أمراً قابلاً للتصديق. لكن تلك لم تكن مشكلة في الأصل لأنني أستطيع إعطاء أمي النقود

على دفعات صغيرة خلال عدة أسابيع؛ إضافة إلى أنه لم يكن في بيتنا من يراقب مجرى الأمور مثلما كانت الحال أيام الجدة العجوز. لكني كنت خائفاً ومرّ زمن قبل أن أستطيع التفكير منطقياً.

لم تطل معاناتي كثيراً. كان هذا نتيجة طبعي. ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي ولم أتغيب إلا عن درس واحد في الصباح: حضرت تدريبات الفرقة المسرحية، ثم ذهبت إلى قاعة الألعاب في الرابعة بعد الظهر فوجدت بولبا جالساً على أحد الكراسي السود في بنطلونه ذي الأزرار الكبيرة. كان واحداً من المتفرجين على لعبة السنوكر. كان الوضع على ما يرام. تم ترتيب كل شيء مع يوناس، وسوف يأخذ الحقائب تلك الليلة. نسيت الأمر كله، وساعدني في نسيانه الربيع الرائع بأشجاره التي بدأت براعمها تظهر الآن. قال لي إينهورن: «هنالك سباق للدراجات في المتنزه. دعنا نذهب للفرجة عليه». أعجبني ذلك فحملته إلى السيارة ثم انطلقنا.

قررت عدم المشاركة في أي سرقة بعد ذلك. عرفت الآن كيف تكون السرقة، وقلت لجوي غورمان إنه لا يستطيع الاعتماد عليّ في المرات القادمة. كنت مستعداً لأن يعتبرني جباناً. لكنه لم يفعل ذلك ولم يتصرف تجاهي بأي ازدراء. قال بهدوء: «لا بأس إذا كنت ترى أن هذا الطبق ليس لك».

«هكذا هو فعلاً... إنه ليس طبقي».

قال مفكراً: «لا بأس! بولبا حمار، لكني قادر على الاستمرار جيداً معك».

«لا فائدة من ذلك إذا لم يكن الأمر يستهويني».

«بالتأكيد، طبعاً».

كان شديد اللطف والاستقلالية. مشط شعره أمام مرآة آلة بيع العلكة، ثم عدل وضع ربطة عنقه المنسدلة الناعمة وذهب. لم يعد يتحدث إليّ كثيراً بعد ذلك.

أخذت كليمنتين فذهبنا وبددنا المال معاً. لكني لم أتمكن من مواصلة نسيان ذلك الأمر زمناً طويلاً. عرف به إينهورن من خلال كريندل الذي اقترح عليه فينس أن يبيع بعض تلك الحقائب النسائية. ولعل كريندل وإينهورن قررا معاً أن من الواجب معالجتي. وهكذا استدعاني إينهورن لكي أجلس إلى جانبه بعد ظهر أحد الأيام في صالة الألعاب. أدركت من جفافه أنه يستعد لتوجيه ضربة لي. كنت أعرف السبب طبعاً.

قال: «لن أجلس مكتوف اليدين وأتركك تصبح واحداً من نزلاء السجون. أعتبر نفسي مسؤولاً، مسؤولية جزئية، عن وجودك في هذه البيئة. وأنت أصلاً في عمر أصغر من العمر

الذي يجوز عنده أن تكون في هذه الأماكن... لا تزال قاصراً» ـ هكذا كان بولبا أيضاً، وغورمان، وعشرات غيرهما؛ لم يعترض أحد على وجودهم ـ «لا تزال قاصراً رغم أنك صرت كبير الجسم. لكني لن أسمع لك بفعل هذا يا أوجي. ليس دينغبات صاحب عقل ضخم، لكن لديه من الفهم ما يجعله يبتعد عن السرقة. عليَّ التعامل مع مختلف أنواع الناس هنا... للأسف. أعرف من هو اللص ومن هو القاتل ومن هو القواد بينهم. لكن، لا حيلة لي في هذا. إنها صالة ألعاب. لكن، يا أوجي، أنت تعرف الخيار الأفضل... لقد كنت معي في أوقات أخرى، وإذا سمعت أنك سرقت مرة ثانية فسوف أطردك من هنا. لن ترى هذا المكان، ولن ترى تيلي، ولن تراني بعد ذلك. إن عرف أخوك بالأمر، فسوف يضربك. وحق الله، أعرف أنه سيضربك».

كان عليَّ الاعتراف بأنه سيضربني. ولابد أن إينهورن رأى الخوف والرعب في داخلي كأنه ينظر من ثقب في رأسي. كانت يدي قريبة منه فوضع أصابعه عليها. «هذه هي النقطة التي يبدأ فيها انحدار الشاب وفساده. ويزول جماله وصحته. يحدث هذا مع الشيء الأول الذي يفعله عندما لا يعود صبياً، عندما يبدأ فعل ما يفعله الكبار. يسرق الطفل تفاحاً، أو بطيخاً. وإذا فعل أكثر من ذلك في المدرسة الثانوية فإنه قد يكتب شيكاً من غير رصيد. أما أن يذهب للسرقة مسلحاً...».

«لم نكن مسلحين».

قال غاضباً: «سوف أفتح هذا الدرج وأعطيك خمسين دولاراً إذا أقسمت أن جوي غورمان لم يكن يحمل مسدساً. أقول لك إنه كان يحمل مسدساً».

شعرت بحرارة في وجهي، لكني شعرت بالضعف أيضاً. يمكن أن يكون هذا صحيحاً! يمكن تصديق هذا!

«لو جاءت الشرطة لحاول أن يشق طريق الفرار بإطلاق النار. هذا ما رميت نفسك إليه. نعم يا أوجي، هذا صحيح، سيكون هنالك شرطي مقتول أو اثنان. وأنت تعرف ما يلقاه من يقتلون رجال الشرطة، من قسم الشرطة فصاعداً... يحطمون أيديهم ويضربونهم على وجوههم، بل أسوأ من هذا. هكذا ستكون بدايتك في الحياة. لا تستطيع أن تقول لي إن الأمر كان مجرد طيش صبياني. ما الذي جعلك تفعل هذا؟».

لم أجبه.

«هل أنت وغد حقيقي؟ هل تشعر في داخلك أنك هكذا؟ لا أظن أنني رأيت في حياتي حالة أغرب من مظهرك الخداع هذا. أدخلتك إلى بيتي وكان كل شيء مفتوحاً أمامك. فهل وقعت في إغراء السرقة في يوم ما؟».

قلت: «ماذا يا سيد إينهورن؟» كنت مستثاراً غاضباً.

«لست مضطراً إلى قول شيء. أعرف أنك لم تسرق. سألتك فقط إن كنت قد أحسست بشيء في داخلك يدفعك إلى ذلك. أظن أنك لست هكذا. والآن، بحق الله يا أوجي، ابق بعيداً عن هؤلاء اللصوص. لو طلبت ذلك مني لأعطيتك عشرين دولاراً من أجل أمك الأرملة. هل كنت في حاجة شديدة إلى المال؟».

«لا».

كان لطفاً حقيقياً منه أن يدعو أمي أرملة وهو يعرف أنها ليست كذلك.

«لعلك كنت تبحث عن الإثارة؟ هل هذا وقت البحث عن الإثارة بينما يسعى الناس جميعاً إلى الاختباء؟ هنالك ألعاب يمكن أن تكون مثيرة لك، وهناك ملاهٍ وفتيات. اذهب إلى حديقة ريفرفيو! لكن مهلاً! لقد أدركت فجأة شيئاً متعلقاً بك. إن لديك ميلاً إلى المعارضة في داخلك. أنت لا تقبل أي شيء... تتظاهر بالقبول فحسب». كانت تلك المرة الأولى التي يقول لي أحد من الناس شيئاً من هذا القبيل، شيئاً قريباً من حقيقة نفسي. كنت أحس بذلك بكل قوة. نعم، مثلما قال، إن لدي معارضة في داخلي، ولدي رغبة كبيرة في المقاومة وفي قول «لا» بأوضح ما أستطيع... كان هذا الشعور في داخلي واضحاً مثل عضة الجوع.

وأما مكتشف هذا، الشخص الذي تجشم عناء التفكير في أمري... التفكير في أمري أنا... فقد ملأني حب كبير تجاهه. لكنني كنت في تلك اللحظة مرتدياً تلك الخصلة المكتشفة حديثاً... معارضتي. كنت مختبئاً داخلها. وهذا ما جعلني غير قادر على إظهار حقيقة مشاعري.

«لا تكن أحمق يا أوجي ولا تسقط في أول فخ تحفره الحياة في طريقك. إن الشباب الذين يكبرون في بيئة غارقة في سوء الحظ، مثلما هو وضعك أنت، هم من يملأ السجون والإصلاحيات ومختلف أنواع تلك المؤسسات. فما الذي يجعل الحكومة تطلب الخبز والفاصولياء مقدماً، قبل فترة طويلة؟ لأنها تعرف أن هناك عناصر يمكن الاعتماد على قدومها للجلوس خلف القضبان وأكل ذلك الطعام. أو لأنها تعرف مقدار ما تستطيع أن تتوقعه من أشخاص لتكسير الصخور وتحويلها إلى حجارة صغيرة، وتعرف الذين يمكن الاعتماد عليهم لأداء هذا العمل، وتعرف من هم المعوجّون الذين يحتاجون إلى معالجة في مؤسسات الصحة العامة. من هذه المنطقة، ومن مناطق مثلها في المدينة، ومن أماكن تشبهها في أنحاء البلاد كلها. هذا أمر معروف. وإذا كنت ستجعل منه أمراً معروفاً بالنسبة لك أنت أيضاً فإنك شخص فاشل منذ الآن. سيحدث لك ما هو متوقع. إن تلك الأشياء

الحزينة المأساوية في انتظارك... ستعرف السجون والعيادات وطوابير توزيع الحساء الأشخاص الذين تستطيع أن تهزمهم وتسحقهم وتجعلهم عجائز وتميتهم وتجعلهم يفقدون أي غاية في الحياة. فهل يفاجئك إن حدث هذا لك؟ أأنت مؤهل لهذا كله».

ثم أضاف: «لكني أظن أنه سيفاجئني أنا». وقال أيضاً: «لست أطلب منك أيضاً أن تتخذني نموذجاً لك». كان يدرك التناقض جيداً، يدرك أنني أعرف الكثير عن ألاعيبه المتنوعة.

كان لدى إينهورن خبراء يعبثون بعدادات الغاز. وكان يحتال على شركة الكهرباء من خلال توصيلات خارجية على الخطوط الرئيسية. وكان يحتال على الضرائب أيضاً. كان صاحب ذكاء غير محدود في هذه الأشياء كلها. وكانت الخطط تملأ رأسه دائماً. قال لي: «لكني لا أكون شخصاً وضيعاً عندما أفكر، فأنا أفكر حقاً. وفي النهاية، لا يمكنك إنقاذ روحك وحياتك بالتفكير وحده. أما إذا كنت شخصاً مفكراً فإنك تحصل على الدنيا كلها».

تابع كلامه، لكن أفكاري أخذتني في اتجاه آخر. لا، لا أريد أن أكون مثلما قال. لم أقبل في حياتي أن يكون مصيري مقرراً مسبقاً، ولن أصبح ما يريد الآخرون أن أكونه. لقد قلت «لا» لجوي غورمان أيضاً. وقلتها لجدتي، ولجيمي، ولأشخاص كثيرين. لقد رأى إينهورن هذا الشيء عندي لأنه كان يريد أن يمارس نفوذاً عليَّ، هو أيضاً.

حتى يبعدني عن المشاكل، ولأنه كان معتاداً أيضاً على أن يكون لديه مساعد أو مراسل أو شخص موثوق، فقد وظفني من جديد مقابل أجر أقل من السابق. «لا تنسى يا صاحبي أن عيني ستظل مفتوحة عليك دائماً». أليست عينه مفتوحة دائماً على أشياء كثيرة وأشخاص كثر، بقدر ما يستطيع؟ لكن الأمر كان على العكس من ذلك... صارت عيني أنا مفتوحة عليه. صرت أكثر من السابق اهتماماً بمراقبة ألاعيبه... أكثر مما كنت مهتما بها عندما كنت مجرد ولد يقدم الخدمات في ذلك المنزل وعندما كان اتساع أعمال إينهورن أكبر من أن أستطيع فهمه.

كان أول الأشياء التي ساعدته فيها عملاً شديد الخطورة: خداع واحد من أفراد العصابات، نوزي موتشينك. قبل بضع سنين، كان نوزي موتشينك (وهو ليس إلا مجرماً عادياً) قد عمل مع عصابة الحي الشمالي فكان يرمي الأسيد على الملابس في محلات التنظيف التي ترفض شراء حماية العصابة، وأشياء من هذا القبيل. أما الآن فقد بلغ مرحلة أعلى فقد صار لديه مال وصار يبحث عن استثمارات، في العقارات خاصة. وقال لإينهورن بجدية في أحد أمسيات الصيف: «أعرف ما يحدث للأشخاص الذين يظلون في الأعمال الملتوية غير القانونية. يلقى عليهم القبض آخر الأمر. رأيت هذا يحدث عدداً كافياً من المرات». أخبره إينهورن أنه يعرف قطعة أرض ممتازة معروضة للبيع يمكنهما شراؤها معاً.

قال لموتشنيك بنبرة قلبية مخلصة: «إذا كنت أشاركك بنفسي فليس عليك أن تقلق بشأن قيمة الاستثمار. سوف أخسر إذا خسرت أنت». كان السعر المطلوب لذلك العقار ستمئة دولار. لكنه استطاع الحصول عليه بخمسمئة. كان هذا تأكيداً كافياً لإشاعة الاطمئنان... وكان إينهورن نفسه يملك ذلك العقار فقد حصل عليه من أحد أصدقاء والده مقابل خمسة وسبعين دولاراً. وأما كونه ظل يملك نصف ذلك العقار فقد كان ربحاً إضافياً. تم ذلك كله عبر حيل متنوعة، وبطريقة جميلة جداً. انتهى الأمر نهاية طيبة عندما وجد موتشنيك مشترياً للعقار وكان سعيداً بأن يربح مئة دولار من هذا العمل القانوني المشروع. أما لو اكتشف حقيقة الأمر لكان قد أطلق النار على إينهورن أو جعل أحداً يطلق النار عليه. لا شيء عنده أبسط من ذلك. ولا شيء طبيعياً أكثر منه في نظره إذا فعله دفاعاً عن كبريائه. كنت في غاية الذعر من أن ينتبه موتشنيك إلى وجوب تحرّي الأمر في مكتب السجلات فيكتشف أن المالك الاسمي كان واحداً من أقارب السيدة إينهورن. لكن إينهورن قال لي: «لماذا تقلق رأسك بهذا الأمر يا أوجي؟ لقد سألت عن هذا الرجل. إنه غبي إلى حد فظيع. وأنا حريص على حمايته».

وهكذا ربح إينهورن أكثر من أربعمئة دولار في هذه الصفقة تحديداً من غير أن يغامر بقرش واحد. كان فخوراً بذلك، وكان يعبّر عن فخره بسعادة. هذا ما كان يسعى إليه في الحقيقة. كان هذا نموذجاً ظافراً أراد أن يتكون تاريخه كله منه، شريطة أن تكون الانتصارات أكبر فأكبر. كان جالساً إلى الطاولة الخضراء الكبيرة وأمامه الوعاء الجلدي الذي توضع فيه حجارة النرد؛ وكان اللون الأخضر منعكساً على وجهه وعلى جلده الأبيض والظلال التي تحت عينيه. كان يحتفظ بكرات البلياردو العاجية الثمينة في علبة إلى جانبه ضمن صندوق حلوى مصنوع من الصفيح. وكان انتباهه لكل ما يجري في تلك الصالة انتباهاً يقظاً متابعاً. ويديرها بطريقته هو... بكل معنى الكلمة.

لم أر قط صالة ألعاب أخرى فيها امرأة موجودة بشكل دائم... تيلي إينهورن جالسة خلف طاولة الطعام. تقدم طبقاً لذيذاً من اللحم مع الفلفل الحار والفاصولياء، وبيضاً مقلياً، وحساء الفاصولياء. وتعلمت أيضاً تشغيل آلة القهوة الكبيرة، بل تعلمت كيف تضع الكمية المضبوطة من الملح والبيض النيء حتى تجعل القهوة رائقة. لقد انخرطت في هذا التغيّر في مجرى حياتها انخراطاً نشطاً. وبدت أكثر ضخامة وقوة من الناحية الجسدية أيضاً. كانت في حالة ازدهار، وقد جعلها الحشد الذكوري من حولها أكثر هدوءاً وسكينة. كانوا يقولون ويصرخون بأشياء لا تفهم معناها. وكان هذا أمراً حسناً. لم تحاول جعل الأمور في صالة الألعاب أكثر رقّة، ولم تحاول أن تضع حداً لأحد مثلما تفعل عاملات البارات البريطانيات أو مالكات المطاعم الصغيرة. كان التفكير في ذلك الشيء شديد الصعوبة. ما كان الصخب ليتوقف ولا الصياح البذيء ولا المشاجرات... ولن يتوقف

أبداً. لكن السيدة إينهورن صارت جزءاً من ذلك المكان بطريقة ما. جعلت وجودها فيه مقتصراً على اللحم بالفلفل الحار، والنقانق، والفاصولياء، والقهوة، والفطائر.

غيّر الكساد الاقتصادي إينهورن أيضاً. عند النظر إلى الماضي يمكن القول إنه كان قليل الخبرة في حياة المفتش؛ كان لم يتشكل بعد، من بعض النواحي، قياساً بسنوات عمره. أما الآن فما عاد الشخص الثاني، لقد صار آخر شخص في أسرته... لا يتوقع أن يموت أحد قبله. ويمكن القول إن المتاعب ضربته مباشرة في وجهه فصمد لها. لا مزيد من الطراوة أو الليونة. كان عليه أن يصبح أكثر قوة وقسوة، وهذا ما فعله. لكنه لم يتغير أبداً فيما يتعلق بالنساء. صار يرى عدداً أقل من النساء، بطبيعة الحال، عند المقارنة بالأيام القديمة.

أي امرأة تدخل صالة ألعاب؟ لم تعد لولي فيوتر إليه. أما هو... لا بأس، أظن أن الأرواح التي لا تكون في حالة طيبة تحتاج إلى أفعال تنظّم حياتها، إلى أدوات تسندها... يجب أن يحلق المرء ذقنه، أو أن يتأنّق مثلاً. أما عند إينهورن، فكان الاستمتاع بامرأة غير زوجته يقوم مقام هذا الفعل المنظِّم. ولابد أن لولي كانت مهمة بالنسبة إليه لأنه ظل يتتبع أخبارها حتى النهاية، حتى أكثر من عشر سنين، عندما أطلق عليها النار سائق شاحنة عاشق فقتلها. كان السائق أباً لعدد من الأطفال، وقد ورطته لولي في التجارة في السوق السوداء. ألقيَ القبض عليه؛ وكان في انتظار حكم بالحبس من غير أن تطالها أي إدانة. ولهذا قتلها. لقد قال: «حتى لا يعيش شخص آخر ثرياً معها على حساب متاعبي». احتفظ إينهورن بقصاصات الصحف. «أترى ما قاله... 'يعيش ثرياً'؟ العيش ثرياً هو أن يكون المرء معها. أستطيع أن أؤكد لك هذا». أراد أن يجعلني أعرف أنه يستطيع ذلك. كان قادراً على إخباري بالفعل وما كان لديه أشخاص كثر أفضل مني موقعاً لسماع هذا الكلام منه.

«مسكينة لولي!».

قال: «آه، بنت مسكينة، مسكينة! لكني أظن أنه كان لا بد لها من الموت بهذه الطريقة يا أوجي. لقد كانت لديها عقلية انتقامية. كانت جميلة عندما عرفتها». راح ذلك الرجل الذي ابيضّ شعره وانكمش جسده فصار أصغر من حجمه السابق، يخبرني عنها متحمساً: «يقولون إنها صارت عاطفية في أيامها الأخيرة، وصارت جشعة فيما يتعلق بالمال. هذا شيء حزين... فهناك ما يكفي من المتاعب التي تأتي من ممارسة الجنس. لقد خلقتْ حتى يحدث لها شيء عنيف. ليست تعامل العالم سهلاً مع أصحاب الدم الحار». كان بهذا الكلام يتوسل إليّ حتى أتذكر دمه الحار. وضعتني خدمتي له في بعض المواقف الصادمة ـ لعله أراد أن يعرف رأيي في هذه المواقف؛ أو، وهذا أمر إنساني بما فيه الكفاية، أن يعرف إن كنت سأحتفل بها معه. أوه، إنها تلك الأماكن التي لا يصلح الكبرياء فيها!

ما يتعين عليَّ أن أتذكره خاصة في هذا الحديث هو ليلة تخرجي في المدرسة الثانوية.

كان آل إينهورن في غاية اللطف معي. قدّموا لي محفظة فيها عشرة دولارات هدية مشتركة من الثلاثة؛ وجاءت السيدة إينهورن إلى تمرينات التخرج مع ماما وآل كلين وآل تامبو في تلك الليلة من ليالي شهر شباط. وبعد ذلك كانت هنالك حفلة في بيت آل كلين، وكانوا ينتظرون قدومي. قدت السيارة فأوصلت ماما بعد حفل التخرج (لم يكن اسمي مذكوراً في برنامج الأمسية مثلما ذكروا اسم سايمون، لكن ماما كانت مسرورة وكانت تمسّد على يدي عندما قدتها فصعدنا درجات السلم).

ظلت تيلي إينهورن منتظرة في السيارة. قالت بينما كنت أعيدها إلى صالة الألعاب: «اذهب أنت إلى حفلتك». كانت لتخرجي في المدرسة الثانوية أهمية كبرى في نظرها؛ وعبّرت عن اعتزازها الشديد من خلال نبرة صوتها. كانت امرأة دافئة، وكانت بسيطة في معظم الأمور. أرادت أن تمنحني نوعاً من المباركة، وكان للدرجة «التعليمية» التي نلتها أثر كبير عليها كما أظن، أثر جعلها شديدة الخجل مني على نحو مفاجئ. وهكذا عدنا إلى صالة الألعاب في ذلك البرد الأسود الرطب. كررت القول عدة مرات: «يقول ويلي إن لديك عقلاً جيداً. سوف تكون معلّماً، أنت نفسك». ثم مالت صوبي في معطفها المصنوع من جلد الفقمة، معطف من الأيام الطيبة، وقبلتني على خدي وجرت دموع الفرح المنبعثة من شعور عميق في قلبها فمسحتها قبل أن ندخل صالة الألعاب. لعل «يُتمي» كان موجوداً خلف هذه أيضاً، أيقظته المناسبة. كنا مرتدين أفضل ما عندنا؛ بل إن رائحة العطر كانت تفوح من السيدة إينهورن في السيارة، من وشاحها الحريري وثوبها المزيَّن بأزرار فضية على صدرها. عبرنا الرصيف العريض فبلغنا المدخل. كانت على النوافذ ستائر في قسمها السفلي، طبقاً للقانون، أما في الأعلى فظهرت القضبان التي تحمل لافتة الصالة بألوانها اللامعة في ذلك الجو الرطب. كان عدد الموجودين في الصالة قليل في تلك الليلة بسبب التخرج في المدرسة. وهكذا كان المرء قادراً على سماع قبلات الكرات من آخر الطاولات في الصالة، وقادراً على سماع دحرجتها الطرية على الطاولات الخضراء، وعلى رؤية دهن النقانق على المشوى. جاء دينغبات من آخر الصالة، جاء حاملاً إطار الكرات الخشبي المثلث. صافحني.

قالت السيدة إينهورن: «أوجي ذاهب إلى حفلة عند كلين».

قال إينهورن بطريقة جدية: «أهنئك يا بني! إنه ذاهب يا تيلي، لكن ليس الآن. لدي دعوة له في البداية، سوف آخذه إلى أحد العروض».

قالت مضطربة: «دعه يذهب يا ويلي. هذه ليلته».

«لست آخذه إلى سينما في الحي بل إلى مسرح ماكفيكر: عرضٌ حي فيه فتيات صغيرات وحيوانات مدرَّبة ورجل فرنسي يقف على رأسه فوق زجاجة. كيف يبدو لك هذا يا أوجي؟ ألا يبدو أمراً جيداً؟ لقد خططت لهذا الأمر من أسبوع».

«طبعاً، لا بأس بهذا». قال جيمي، وأضاف «إن الحفلة ستستمر حتى وقت متأخر، وقال إنني أستطيع الوصول بعد منتصف الليل».

«لكن دينغبات يستطيع أن يأخذه إلى ذلك المسرح يا ويلي. يريد أوجي أن يكون مع شباب في هذه الليلة، وليس معك أنت».

قال إينهورن منحّياً اعتراضاتها جانباً: «إذا خرجت فإن هنالك حاجة لدينغبات في الصالة وسوف يظل هنا».

لم أكن شديد الاهتمام بأن الليلة ليلتي إلى درجة تمنعني من رؤية السبب الذي يحمل إينهورن على هذا الإصرار. لمحت عتمة صغيرة تشير إلى السبب... عتمة ليست أكبر من فأر الحقل، لكنها سريعة مثله.

أرخت السيدة إينهورن يديها قائلة: «ويلي، عندما يكون راغباً...» كانت تعتذر مني. لكنني كنت واحداً من أفراد الأسرة من الناحية العملية الآن بعد أن لم تبق مشكلة ميراث تعترض ذلك. طويت معطفه وحملته إلى السيارة. كان وجهي حاراً في هواء الليل، وكنت منزعجاً. إن أخذ إينهورن إلى المسرح مهمة شاقة فيها خطوات كثيرة ومفاوضات ضرورية. يجب أولاً أن أجد مكاناً لإيقاف السيارة. ثم أن أعثر على المدير وأشرح له أننا في حاجة إلى مقعدين بالقرب من باب الخروج؛ ثم عليَّ ترتيب أمر فتح الباب المعدني المخصص للنجاة من الحريق حتى أدفع كرسي إينهورن في الممر ثم أحمله إلى داخل القاعة، ثم أعود به عبر ذلك الممر وأجد مكاناً جديداً لوقوف السيارة. وعندما نكون جالسين في المسرح، فإننا نجلس في زاوية سيئة للرؤية. كان لا بد من جلوسه عند مخرج الطوارئ مباشرة. وكان يقول لي: «تخيل أنني في وسط هذا الجمع المتدافع في حالة الحريق». وهكذا كنا نرى الأشياء بشكل جانبي عبر وجوه كثيرة مطلية بالأصبغة والبودرة، وتصلنا الأصوات مكتومة، ثم مرتفعة، أو مقعقعة متقطعة. وكثيراً ما كنا لا ندرك سبب ضحك الحضور.

قال إينهورن لي عند بولفار واشنطن: «لا تسرع! عليك أن تبطئ هنا». لاحظت فجأة أنه يحمل عنواناً في يده.

«إنه قريب من شارع ساكرامنتو. أنت لم تقتنع حقاً بأنني أريد جرَّك إلى مسرح ماكفيتر هذه الليلة! أليس كذلك يا أوجي؟ لا، لسنا ذاهبين إلى وسط المدينة. لم أذهب من قبل إلى هذا المكان الذي آخذك إليه الآن. إنه مدخل خلفي على ما أظن. المكان في الطابق الثالث».

أوقفت السيارة وخرجت للاستطلاع ثم عدت عندما وجدت المكان فحملته على ظهري. عادة ما يقول عن نفسه إنه مثل العجوز الذي ركب على ظهر السندباد. لكنني أشبّه نفسي أحياناً

بإينياس أيضاً، إينياس الذي حمل والده العجوز آنتشيسس خلال حرق طروادة ثم اختارت فينوس ذلك العجوز عشيقاً لها: أراه تشبيهاً أفضل. لكن ما كان من حولنا نارٌ ولا صيحات حرب بل صمت الليل الميت في ذلك الشارع، وصقيع. سرت في الممر الإسمنتي تحت الأشجار النائمة وكان إينهورن يقول لي بصوت مرتفع واضح أن أكون حذراً في خطواتي. من حسن الحظ أنني كنت قد أفرغت خزانتي المدرسية ذلك اليوم فلبست الحذاء المطاطي الذي ظل قابعاً أسفل الخزانة الشطر الأكبر من السنة. وهكذا كانت قدماي لا تنزلقان على الأرض المتجمّدة. لكن الأمر كان صعباً رغم ذلك، صعود درجات السلم الخشبية والسير تحت حبال الغسيل المنخفضة. قال عندما ضغط على زر الجرس في الطابق الثالث: «من المستحسن أن يكون هذا المكان المقصود وإلا فسوف يسألونني عما أفعله هنا». كان يتخيل دائماً أنهم سيسألونه هو وأنه الشخص الذي يتعيّن عليه أن يجيب.

لكنا لم نخطئ الباب المقصود. فتحت امرأة الباب فقلت وقد تقطعت أنفاسي: «أين؟».

قال إينهورن: «تابع، تابع! إنه المطبخ فقط». كان مطبخاً فعلاً؛ مكاناً يفوح برائحة البيرة. دخلت به حذراً إلى الردهة ثم أنزلته أمام أعين الناس الدهشة هناك وأجلسته على الأريكة. بعد أن جلس أحس أنه صار مساوياً لهم جميعاً وراح ينظر إلى النساء كلهن. ظللت واقفاً إلى جانبه ونظرت أنا أيضاً، نظرت باهتمام كبير. كنت أشعر دائماً بقدر كبير من المسؤولية عندما آخذه إلى مكان ما. وأحسست هنا، أكثر من أي وقت مضى، مقدار ثقل اعتماده علي. ما كان يجب أن أشغل بالي بهذا الأمر الآن. لم يبد في تلك اللحظة شخصاً ينقصه أي شيء، بل بدا متعجرفاً رابط الجأش من غير أي تكشيرة أو انزعاج لأنه رجل عاجز رآه الناس عديم الحَوْل أمام حاجات مخيفة. قال: «سمعت أن الفتيات لطيفات هنا. إنهن لطيفات! اختر واحدة!».

«أنا؟».

«طبعاً أنت. من منكن يا فتيات تريد تسلية هذا الفتى الوسيم الذي تخرج في المدرسة الثانوية اليوم؟ انظر حولك يا فتى وفكّر جيداً!».

جاءت المدام إلى تلك الردهة قادمة من إحدى الغرف. كان تميزها واضحاً في أصبغة وجهها وتلك الألوان الغريبة والشفتين الحمراوين والخدين المطليين بلون وردي.

بدأت تقول: «يا سيد...».

لكن الوضع كان على ما يرام. كان مع إينهورن بطاقة من أحد ما؛ وكان الأمر مرتباً سلفاً... تذكرت المرأة ذلك. لكنني أستطيع القول إن أحداً لم يخبرها أن إينهورن سيأتي محمولاً. ما كان ليثق بنفسه هنا من غير مقدمةٍ مرتبة قبل وصوله.

كان هنالك شيء من الإحراج رغم ذلك. وكان إينهورن جالساً متلاصق القدمين في بنطلونه الرسمي الذي يغطي ساقيه العاجزتين عن الحركة. عندما أفكر في ذلك الأمر بعيداً عن تشتت الذهن الذي أصابني في تلك اللحظة أرى أن إينهورن الذي تساءل عن الفتاة التي ستسليني يمكن تماماً أن يكون قد قال ذلك في محاولة لدرء أي نفور متوقَّع لدى الفتاة التي اختارها لنفسه. حتى في هذا المكان، حتى حيث يدفع المال من جيبه. لكن الأمر لم يكن هكذا. كان ذهني بعيداً كل البعْد عن الصفاء في هذا المكان الوحشي، في الردهة الصغيرة الفاخرة... ولعل إينهورن لم يكن جريئاً، لعله لم يكن يتصرف مرتاحاً بالقدر الذي بدا عليه.

وأخيراً، قال إينهورن للفتاة التي ناداها للحديث معها: «أين غرفتك يا طفلتي؟» وبهدوء تام، متجاهلاً أثر ذلك، جعلني أحمله إلى تلك الغرفة. كان غطاء السرير وردياً فنزعته الفتاة (كان هذا مكاناً مرتفع المستوى... هكذا أدركت فيما بعد، من خلال المقارنة). وضعته ممدداً على السرير. وبينما بدأت الفتاة تخلع ملابسها في زاوية الغرفة أشار لي بأن أنحني صوبه من جديد وقال هامساً: «خذ محفظتي!» فأخرجت المحفظة الجلدية الثقيلة ووضعتها في جيبي. قال لي: «احرص عليها». كانت نظرة عينيه جريئة، ممتلئة، بل حانقة أيضاً. أظن أنه كان حانقاً على وضعه وليس عليَّ أنا. ظهرت ملامح ضيق على وجهه وانتشر شعره فوق الوسادة. بدأ يحدث المرأة بنبرة آمرة. قال لها: «اخلعي حذائي!» ففعلت ذلك. كان ينظر إليها عند قدميه؛ مضت نظراته على امتداد جسده كله إلى حيث كانت المرأة في مئزرها منحنية فوق قدميه... امرأة ذات رقبة قوية وأظافر مصبوغة بالأحمر، واقفة عند السرير في حذاء منزلي. قال: «هنالك أيضاً شيء أو اثنان يجب أن أقولهما لك: انتبهي إلى ظهري... يجب أن تكوني بطيئة ريثما أصبح مستعداً يا آنسة... سيري خطوة فخطوة».

رآني واقفاً عند الباب: «ألم تذهب بعد؟ هيا، أيجب أن أقول لك ما تفعله؟ سوف أرسل في طلبك عندما ننتهي».

ما كنت في حاجة إلى أن يقول لي ما أفعله. لكني كنت أتأخر في الخروج قصداً لأنه لم يطلب مني الخروج بعد.

عدت إلى الردهة حيث كانت واحدة في انتظاري. ذهبت بقية الفتيات، وهذا يعني أن أحداً اتخذ القرار فحدد خياري. ومثلما أفعل مع الغرباء دائماً، تصرفت كما لو أنني أعرف تماماً ما أفعله... انطلقت من فكرة قائلة إن من الأفضل في الأوقات العصيبة، ومن الأكثر لياقة أيضاً، أن يكون المرء مبادراً. لم تحاول المرأة سلبي تلك المبادرة. هي التي كان عملها، أو عبء حياتها، أن تظل هادئة إزاء هذا الأمر الأساسي... حيث لا يكون أحد هادئاً... وأن تتصرف على أنها الطرف القوي. لم تكن صغيرة السنّ (كان اختيار المدام صائباً)، وكان وجهها قاسياً بعض الشيء. لكنها شجعتني على معاملتها معاملة العاشق.

خلعت ثيابها فرأيت ملابسها الداخلية مزينة بكشكش لعوب... توافه الزينة هذه المنسجمة مع الحقيقة الأنثوية التي تفرض نفسها، مع ذلك الشيء العميق اللامع. خلعت ثيابي وانتظرت. اقتربت مني واحتضنت جسدي. بل جعلتني أستلقي على السرير أيضاً. كان سريرها، وكانت كأنها تريني كيف أستخدمه. ضغطت على جسدي بثدييها وشدت كتفيها إلى الخلف ثم أغمضت عيناها وأطبق ذراعاها على خصري. وهكذا لم تبخل عليّ بلطفها ورقّتها ولم تدفعني بعيداً عنها عندما انتهيت. أدركت فيما بعد أنني كنت محظوظاً معها وأنها حاولت ألا تكون جافة تجاهي، ولم تهزأ مني بل قامت بعملها على نحو رحيم.

رغم ذلك، أدركت عندما زالت النشوة... مثل برق ضرب الأرض ثم اختفى فيها... أن الأمر كان مجرد صفقة من حيث الأساس. لكن هذا ما كان كبير الأهمية. وما كانت هنالك أهمية كبيرة للسرير ولا للغرفة ولا لفكرة أن المرأة قد استمتعت (بقدر ما يمكن أن يكون هنالك استمتاع بالنظر إلى الاعتبارات الأخرى). عاد ذلك العاطفي الكبير إلى مكانه على ظهري محمرّ العينين لم يفارق الشره قلبه؛ لكن مظهره كان متفوّقاً، بالغ الهدوء. ما كان لدفع المال أهمية عنده؛ ولا لاستخدام ما يستخدمه أشخاص آخرون. هكذا هي حياة المدينة. ولهذا، لم يكن لها ذلك الألق الذي كان يجب أن يكون لها، ولم تكن هنالك أي أغنيات من أغاني العاشقين...

كان عليّ أن أنتظر إينهورن في المطبخ، وأن أفكر فيه، قريباً مني، يتلقى هذا العنف من أجل متعته. لم تبدُ المدام مسرورة بهذا. كان هنالك رجال آخرون يأتون، وكانت تمزج الشراب في المطبخ، وصرت محط نظرات نكدة منزعجة إلى أن جاءت فتاة إينهورن مرتدية ملابسها من جديد لتخبرني بأن آتي به. طالبتني المدام بالمال، فدفع إينهورن بلطف وقدم بقشيشاً. وعندما حملته عبر تلك الردهة التي كانت شريكتي جالسة فيها الآن مع رجل آخر تدخن سيجارة، قال إينهورن هامساً في أذني: «لا تنظر إلى أي شخص، هل فهمت؟» هل يخشى أن يعرفه أحد هنا؟ أم أن ذلك الأمر كان متعلقاً، ببساطة، بالسلوك الأفضل عند المرور في الردهة من جديد حاملاً إياه على ظهري في ملابسه السوداء؟

قال عندما خرجنا: «عليك أن تكون في غاية الحذر عند هبوطنا. من الحماقة أننا لم نأت بمصباح معنا. لا ينقصنا إلا زلة قدم الآن». قال هذا ثم ضحك؛ كان يسخر من نفسه، لكنه ضحك. إلا أن أهل ذلك البيت كانوا فطنين... خرجت واحدة من المومسات في معطف مثل أي امرأة عادية، خرجت لتنير لنا الطريق حتى الساحة في الأسفل وشكرناها بكل تهذيب وتمنينا لها ليلة طيبة.

عدت به إلى البيت، وحملته إلى الداخل رغم أن أبواب صالة الألعاب لا تزال مفتوحة. قال لي: «لا تهتم بوضعي في السرير. اذهب إلى حفلتك. يمكنك أن تأخذ السيارة، لكن إياك أن تسكر ثم تقودها بجنون... هذا كل ما أطلبه منك».

الفصل الثامن

وُضع مسارٌ جديد منذ هذه اللحظة... وضعناه نحن، من أجلنا نحن: لن أحاول الكشف عن الأسباب كلها!

عندما أنظر إلى الماضي أستطيع التعرف إلى نفسي عارياً في هذا الوقت، بملامحي الشخصية وملامحي العائلية... في القدمين والساقين وفي اخضرار العينين الرماديتين والشعر المندفع إلى أعلى؛ أما إذا كنت مرتدياً ملابسي سائراً في دروبي الاجتماعية الجديدة، فعليَّ أن أنظر مرتين حتى أعرف نفسي. لست أدري كيف صرت، فجأة من غير توقع، كثير الكلام كثير النكات، وصار لي آراء أيضاً. لا يمكن تفسير كيف التقطت هذه الأشياء كلها من الهواء عندما جاء وقتها.

لم تكن الكلية التي دخلناها، سايمون وأنا، كلية دينية يديرها كهنة يعلمون التلاميذ التقشف وفلسفة أرسطو ويحضّرون المرء للألعاب والخطايا الأوروبية وتلك الأشياء كلها، صحيحة أو غير صحيحة، حقيقية أو غير حقيقية، لكنها موضع تأكيد دائم على أنها حقيقية وفعلية. وبالنظر إلى مقدار ما كان يجب معرفته عن العالم... آشور بانيبال، وإقليدس، وألاريك الأول، وميترنيخ، وماديسون، وبلاك هوك... إذا لم يكرّس المرء حياته كلها من أجل شيء بعينه، فكيف يمكن أن ينجزه؟ كان الطلاب أبناء مهاجرين من كل ناحية... آتين من أحياء «مطبخ الجحيم»، و«صقلية الصغيرة»، و«الحزام الأسود»، و«غابة بولونيا»، والشوارع اليهودية في هامبولد بارك... مروا كلهم عبر مصافي المنهاج الدراسي الخشنة وجاؤوا أيضاً بصنوف الحكمة الخاصة بهم. كانت الممرات الطويلة، مثل ممرات المصانع، تمتلئ بهم، وكذلك غرف الدراسة الكبيرة التي غصت بكل طبع إنساني وبكل نوع... جاؤوا جميعاً حتى يخضعوا للدمج ويصيروا أميركيين (هكذا كانت

الفكرة المقصودة). كان هنالك جمال في هذا المزيج (نسبة طيبة من العناصر)، وبثور وقحة، ووجوه كوجوه من قتلوا أمهاتهم وآباءهم، ووجوه بريئة تمضغ العلكة، وأناس سيكونون علفاً للمصانع أو يعملون في السكرتاريا، وأشخاص لديهم استقرار دانماركي، وإلهام إيطالي، وأشخاص يتصبّبون عبقرية رياضية. كان بينهم أبناء عمال يدويين، وبنات رجال أعمال واعدات بالجنس. كان هذا كله نموذجاً ضخماً لهذا المضيف العملاق، ولتعدد الكتب المقدسة، وللاندفاع صوب الغرب، وللأهل الذين تطحنهم المصانع. وكنت بينهم، أنا أيضاً، ثمرة ضربة جانبية عابرة من رجل مرتحل.

في الأحوال الطبيعية كنا، سايمون وأنا، نذهب إلى العمل بعد المدرسة. لكن الوظائف كانت نادرة، وكانت هذه الكلية العامة مليئة بطلبة في مثل وضعنا بسبب البطالة؛ كنا نتلقى هذا التعليم الذي تموِّله سلطات المدينة ونحصل على معلومات أعلى وعلى إطلالات سريعة عارضة على شكسبير وغيره من السادة العظماء، إضافة إلى شيء من الرياضيات والعلوم التي تعادل في مستواها امتحانات الوظيفة المدنية. ما كان تجنب الأمر ممكناً في الحقيقة؛ فإذا كنت تريد إعداد الشباب الذين أصابهم الفقر حتى يقوموا بوظائف صعبة، أو إذا كنت تريد فقط إبعادهم عن التورط في المشاكل من خلال جعلهم يقرؤون الكتب، فلا بد من أن تنتج ثمار غير قليلة عن هذه الجمهرة من الناس. عرفت وقتها مكسيكياً هزيلاً مريض المظهر، وكان فقيراً إلى حد يجعله عاجزاً عن شراء زوج من الجوارب. كان مبقّعاً كله... جسده وثيابه، لكنه كان قادراً على حل أي معادلة رياضية على السبورة. وعرفت أيضاً مهاجرين من أوروبا الشرقية كانوا سحرة في اللغة اليونانية، وكانوا فيزيائيين بعقول كعقول الشياطين، ومؤرخين مولودين تحت العربات، وغيرهم كثير من الأولاد الفقراء الصلبين المستعدين للتضوّر جوعاً والعمل من غير كلل ثماني سنوات أو نحو ذلك حتى يصيروا أطباء ومهندسين وعلماء وخبراء. ما كان عندي توق خاص إلى هذا النوع من الأشياء، ولم يحدث لي ما يجعلني أظن أنه عليَّ الاهتمام بها ولا أن أقلق كثيراً لأنني لا أملك مهنة واضحة. لم أشعر بما يدفعني إلى التعامل مع هذه المسألة تعاملاً جدياً. لكن أدائي في التاريخ واللغة الفرنسية كان طيباً على الرغم من ذلك كله. أما في أشياء من قبيل علم النبات، فكانت الرسوم التي تخرج من تحت يدي ملطخة شوهاء، وكنت متخلفاً عن بقية الطلاب في الصف. لم أتعلم الترتيب رغم عملي موظفاً في مكتب إينهورن. ثم إنني صرت أعمل بعد الظهر خمسة أيام في الأسبوع إضافة إلى يوم السبت كله.

لم أعد أعمل عند إينهورن في ذلك الوقت، بل في مجال الأحذية النسائية في قبو محل للملابس في مركز المدينة حيث كان سايمون يعمل في الأعلى في قسم البدلات الرجالية. كان وضعه قد تحسَّن، وقد أثاره ذلك التغيير حقاً. إنه متجر فخم تطلب إدارته ممن يعملون فيه أن يكونوا في مظهر جيد. لكن سايمون تجاوز كل ما هو مطلوب من البائعين فلم يكن

أنيقاً فحسب بل ساحر في بدلة مخططة لها صدار مزدوج. وكان يضع شريط القياس على رقبته. كنت أحس أنني لا أعرفه هناك بين المرايا والسجاد ورفوف الملابس... فوق، فوق ثمانية طوابق من الشارع. كان طويلاً، سريعاً، مشغولاً، ثقيل الجسم... ومتورد الوجه.

وفي الأسفل، كنت أنا في قسم الأسعار الرخيصة تحت الرصيف. كنت أرى وأسمع المتسوقين يمرون فوق دوائر الزجاج الخضراء المثبتة في إسمنت ذلك الرصيف، وأرى أطراف معاطف ثقيلة تمر كأنها ظلال فوق هذه العدسات؛ لكن ثقل الأجسام كان حقيقياً لأن الزجاج كان يقرقع تحت الأعقاب الذاهبة في كل اتجاه. كان هذا القبو مخصصاً للطبقة الفقيرة من الزبائن أو لمن يريدون شراء أشياء بعينها: فتيات يردن ما يتناسب مع ملابسهن أو قبعاتهن أو حليّهن؛ ونساء مع ثلاث بنات صغيرات أو أربع يردن شراء أحذية لهن جميعاً في اليوم نفسه. كانت السلع مكوَّمة على طاولات بحسب مقاساتها، وكانت هنالك ممرات بين الصناديق الكرتونية الكبيرة وغرف قياس الملابس المصفوفة على شكل دائرة تحت زجاج الرصيف.

بعد بضعة أسابيع من التدرب هنا أخذني المدير إلى الأعلى، إلى الطابق الرئيسي. كان ذلك حتى أقدم بعض المساعدة في البداية وحتى آتي بالسلع إلى البائعين أو أعيد العلب إلى رفوفها. ثم صرت بائع أحذية، ولم يتطلب الأمر إلا أن يخبرني ذلك المدير بأن علي أن أقصَّ شعري ليصير أقصر. كان رجلاً قلق المظهر، وكانت معدته تؤلمه. ولأنه يحلق ذقنه مرتين في اليوم، كان جلد وجهه رقيقاً. وكان فمه ينزف قليلاً عند زاويتيه صباح كل يوم سبت عندما يجمع البائعين قبل فتح المحل حتى يلقي عليهم خطاباً. كان يأمل أن ينجح في إبداء شدة أكثر مما يستطيعه... أظن أن مشكلته كانت كامنة في أنه ليس بالرجل القادر حقاً على إدارة هذا العمل الأنيق. أقول هذا لأن المكان كان صالوناً فيه مصابيح على شكل مشاعل فرنسية مستقرة على حوامل تشبه أذرعة بشرية خارجة من الجدران، وستائر ملتفّة، وأثاث صيني... وكانت فيه تلك الزوايا الناعمة المحمية من الهواء الخارجي، بل حتى من هواء ردهة التسوق الرئيسية... كانت تحميها سجاجيد شرقية يمتص نسيجها الأصوات، ومدليات تجعل الهمس واتّباع قواعد البروتوكول أموراً لا يمكن تجنبها. كان توفيق الفوارق بين داخل هذا المكان وخارجه أمراً صعباً؛ وذلك لأن الخارج، حتى عتبة هذا الصالون، كان كتلة هائلة من التوتر والطاقة العدوانية المطلوب منها أن تهدأ لكنها لا تستطيع الهدوء؛ وكانت محاولة ضبطها تسبب القلق والارتجاف لأنها من ذلك النوع من الأشياء الذي يمكن أن ينفجر غاضباً في عصيان دموي... كان قادراً على إطلاق نار تشبه حرق جبل من علب البيض. كانت هذه الطاقة الحرة المجهولة الفائضة تسري في أرجاء نهار شيكاغو البارد الرطب المسودّ نتيجة أشياء وضعت حتى تظل ساكنة في مكانها، لكنها غير قادرة على ذلك السكون.

كانت حالتنا المادية ممتازة لأن أجر سايمون كان خمسة عشر دولاراً في الأسبوع، قبل العمولات؛ أما أجري الصافي فثلاثة عشر دولاراً ونصف الدولار. وهذا ما جعل عدم تأهيلنا للحصول على المعونة من الجمعية الخيرية أمراً قليل الأهمية. أما ماما التي صارت عمياء من الناحية العملية فما عادت قادرة على القيام بأعمال المنزل بعد ذلك. استأجر سايمون امرأة خلاسية اسمها مولي سيمز؛ امرأة رشيقة قوية تبلغ الخامسة والثلاثين تقريباً. كانت تنام في المطبخ (على سرير جورج القديم في الحقيقة) وتهمس أو تغنّي لنا عندما نأتي إلى البيت في وقت متأخر من الليل مروراً بذلك المطبخ. لم نعتد قط استخدام الباب الأمامي الذي كان استخدامه ممنوعاً في عهد جدتنا العجوز.

يقول سايمون: «إنها تقصدك أنت أيها الرياضي».

«كلام فارغ، أنت من تنظر إليه طيلة الوقت».

لم تأتِ مولي سيمز يوم رأس السنة فاضطررت إلى القيام بعملها وإعداد الطعام. لم يكن سايمون في البيت أيضاً. ذهب إلى حفلة رأس السنة متأنّقاً إلى الحد الأقصى: قبعة مستديرة، وشال حرير منقّط، وحذاء لامع من لونين، وقفازَيْن جلديين. لم يعد حتى ساعة مبكرة من مساء اليوم التالي... كان الثلج يتساقط سريعاً متلألئاً. وكان سايمون قذراً متجهِّماً محمرّ العينين. وكانت ظاهرة على وجهه الذي نبتت شعراته خدوش طويلة. كان ذلك ما رأيته عندما اندفع خارجاً من تحت الثلج المتساقط فبلغ مدخل البيت الخلفي وراح ينفض حذاءه على الجدار القرميدي ويمسحه بمكنسة هناك... ثم ظهر وجهه مخططاً كأن أحداً ألقى به في أجمة من الشوك. دخل ووضع قبعته القاسية على الكرسي. كانت مثقوبة. حسْنٌ أن ماما ما كانت قادرة على رؤيته؛ لكنها أدركت أن هنالك شيئاً فسألته بصوت مرتفع عما حدث.

أجبناها معاً: «ماذا؟ لا شيء يا ماما».

أخبرني بلغة الشوارع ذات المفردات المغرقة في العامية (حتى لا تفهم أمنا شيئاً) قصة سخيفة عن مشاجرة في مسرح بلاتفورم في وول ستريت مع إيرلنديين ثملين حانقين أمسك أحدهما بذراعيه من الخلف وأنزل قبة معطفه حتى مرفقيه فثبتهما بينما دفع الآخر بوجهه صوب السلك الشائك فوق الدرابزين ثم ألقوه من فوق السلم. لم يقنعني شيء مما قاله. لم يكن فيه تفسير لاختفائه يوماً وليلة كاملين.

قلت له: «لم تأت مولي سيمز اليوم. مع أنها قالت إنها ستأتي».

يحاول إنكار أنه كان معها؛ لكنه جلس ثقيلاً في ثيابه المبتلة. كان مرهقاً. طلب مني تشغيل السخان حتى يستحم. وعندما خلع قميصه رأيت مزيداً من الخدوش على ظهره. لم

يكلف نفسه عناء القلق بشأن ما يمكن أن أفكر فيه. ومن غير تفاخر ولا تذمُّر، أخبرني أنه ذهب إلى غرفة مولي سيمز في وقت مبكر من هذا الصباح. صحيح أنه تشاجر مع إيرلنديين اثنين... كان ثملاً بعد الحفلة، لكنها هي من سبَّب له هذه الخدوش. ثم إنها لم تتركه يذهب حتى حل المساء فتجوّل تائهاً في شوارع حي «الحزام الأسود» تحت الثلج المنهمر. وعندما رفع الغطاء قبل أن يندس في سريره قال لي إن علينا أن نتخلّص من مولي سيمز.

«ولماذا تقول 'علينا'؟».

«... وإلا فسوف تظن أنها السيد في هذا المكان. إنها امرأة غير جديرة بالثقة».

كنا في غرفتنا الصغيرة العتيقة حيث ينتفخ ورق الجدران المتيبس، بطبقاته الكثيرة، مشكلاً فقاعات على الجدار، وحيث يصطدم الثلج الهادئ الجاف بنافذتنا فيتراكم عليها حتى يبلغ أعلاها.

«سوف تريد أن تصل إلى شيء ما. قالت لي هذا بالفعل».

«ماذا قالت؟».

قال مبتسماً ابتسامة سوداء: «قالت إنها تحبني... إنها عاهرة مجنونة».

«ماذا؟ تكاد تبلغ الأربعين».

«وما الفرق؟ إنها امرأة! وقد ذهبت لأراها. لم أسألها عن عمرها قبل أن أدخل سريرها».

صرفها ذلك الأسبوع. لاحظت كيف راحت تنظر إلى وجهه المخدوش وقت الإفطار. كانت امرأة نحيلة تشبه غجرية. وكان وجهها ذكياً فطناً. تستطيع اتخاذ الهيئة التي تريد عندما تحب ذلك، لكنها لم تكن تبالي أبداً بمن يراها عندما لا تتصنع مظهراً غير مظهرها. ابتسمت ابتسامتها الحادة ذات العينين الخضراوين. لم يفقد أعصابه أمامها. قرر أنها سوف تكون مزعجة؛ وقد أدركت فوراً أنه سوف يطردها. كانت امرأة خبيرة مجرّبة قست لكثرة ما وجدت نفسها على الجانب الخاسر ولكثرة تنقلها من بلدة لأخرى... من واشنطن إلى بروكلي إلى ديترويت، ومحطات أخرى لا نعرف عنها شيئاً... تحصل على سن ذهبية في مكان وعلى صفعة على وجهها في مكان آخر. لكنها كانت امرأة مستقلة ولم تطلب أي تعاطف أبداً... لم يعرض عليها أحد تعاطفاً قط. طردها سايمون واستأجر بدلاً منها بولندية متقدمة في السن اسمها سابلونكا... كانت تكرهنا، وكانت بطيئة الحركة تدمدم دائماً بوجه يشبه الممسحة... أرملة سمينة بخيلة ورعة، وفوق ذلك طباخة رديئة. لكن أحداً منا ما كان يمضي في البيت وقتاً طويلاً. وبعد أن باشرت عملها بأسابيع قليلة لم أعد أعيش في البيت أصلاً بل تركت المدرسة وعشت وعملت في إيفانستون. صرت أدور دورة عجيبة، لبعض الوقت، بين ضواحي أصحاب الملايين ـ هايلاند بارك، كينيلوورث، وفينيتكا ـ

كنت أبيع الأشياء لأنني صرت مندوب مبيعات متخصصاً في سلع الرفاهية، وأتعامل مع أرستقراطيين. كان مدير محل الأحذية هو الذي منحني هذا العمل عندما طلب منه أحد معارفه في إيفانستون أن يرشّح له شخصاً. جعلني أعمل بالقرب من واجهة المحل حيث يستطيع السيد رينلينغ، الرجل الذي يتاجر بالسلع والمستلزمات الرياضية في إيفانستون، أن يراني في ذلك المكان.

سأل هذا الرجل الصقيعي الجاف المعجب بنفسه ذي العينين الحياديتين والساقين الطويلين: «من أين هو؟» كان يبدو شبيهاً برجل اسكوتلندي.

قال مديري: «من الناحية الشمالية الغربية. يعمل شقيقه في الأعلى. إنهما صبيّان ذكيّان، كلاهما».

قال السيد رينلينغ وهو مستمر في النظر إلى البائع بعينيه الحياديتين: «يهودي؟».

نظر إليّ المدير وقال: «هل أنت يهودي؟» كان يعرف الإجابة حق المعرفة؛ لكنه اكتفى بنقل السؤال.

«نعم، في ما أظن».

قال رينلينغ متوجهاً إلي بالكلام هذه المرة: «آه! طيب، لا يحبون اليهود هناك على الشاطئ الشمالي. لكن...» كاد يبتسم ابتسامة جليدية... «من يعجبهم أصلاً؟ إنهم لا يكادون يحبون أحداً. على أية حال، لن يعرفوا ذلك على الأرجح». ثم قال لمديري من جديد: «لا بأس، أتظن أنه صبي يستطيع النجاح في العمل؟»

«إن أداءه جيد هنا».

«الضغط في الشاطئ الشمالي أكثر قليلاً».

أظن أن من يُراد لهم أن يعملوا عبيداً في المنازل أن يخضعوا لفحص شبيه لما خضعت له... أو الفتيات التي تأتي بهنّ أمهاتهن إلى مومس عجوز لتدريبهن. جعلني أخلع سترتي حتى يستطيع رؤية كتفي ومؤخرتي فكدت أخبره بما يستطيع أن يفعله بوظيفته تلك، لكنه قال في تلك اللحظة عينها إن بنيتي مناسبة جداً للعمل فأحسست بخيلاء وفخر تغلّبا على احترامي لنفسي. عند ذلك قال لي: «أريد أن أجعلك تعمل في محل السروج عندي... معدات ركوب الخيل وأحذيتها، وبعض لوازم الرجال في المزارع، وبعض السلع المتميّزة. سأدفع لك عشرين دولاراً في الأسبوع خلال فترة التدريب. وعندما تنهيها سأدفع لك خمسة وعشرين، إضافة إلى عمولة على المبيعات».

قبلت ذلك العمل طبعاً. سوف أكسب مالاً أكثر مما يكسب سايمون.

انتقلت إلى مسكن للطلبة في إيفانستون. وهناك، سرعان ما صارت مجموعة ملابسي أكثر الأشياء تميزاً. ربما كان علي أن أقول «كسوتي» بدلاً من مجموعة ملابسي لأن السيد والسيدة رينلينغ اهتما بأن أكون حسَن الملبس، بل جعلاني في الحقيقة نوعاً من عارض لتلك الملابس إذ راحا يدفعان المال وينتقيان ملابس قطنية وصوفية، وأقمشة مزخرفة، وأوشحة وأحذية رياضية وأحذية مجدولة على النمط المكسيكي، إضافة إلى القمصان والمناديل. وذلك كله بذوق يماشي أسلوب في الملبس يحمل نكهة بريطانية. وبعد أن استطلعت المنطقة جيداً صرت في البداية شديد التأثر والحماسة لمعرفتها على نحو أشمل. كانت ملابسي رائعة، وكنت أعمل خلف واجهات زجاجية شديدة التألق لم أر مثلها من قبل، وفي شوارع تحفّها الأشجار الوارفة، وفي متجر للملابس ينزل إليه المرء بثلاث درجات لأنه واقع تحت الجزء الرئيسي من متجر رينلينغ الذي يبيع أدوات الصيد والتخييم والغولف والتنس وزوارق التجديف ومحركات القوارب الخارجية. لعلكم تدركون الآن ما كنت أعنيه عندما قلت إنني أعجب للتغيرات الاجتماعية التي أصابتني؛ وذلك لأنني صرت على نحو مفاجئ واثقاً مقداماً ناجحاً في عملي، وصرت قادراً على التحدث بقوة ودراية مع فتيات ثريات ومع شباب رياضيين وطلبة جامعيين فأقدّم لهم البضاعة بيد وأحمل بالأخرى سيجارة في مبسَم طويل. وهذا ما جعل رينلينغ يعترف بأنني تغلبت على مختلف العقبات التي توقّعها. كان علي أن أذهب إلى دروس ركوب الخيل أيضاً... ليس إلى دروس كثيرة، لأنها غالية الثمن. ما كان رينلينغ يريدني أن أصبح فارساً بارعاً. كان يقول: «لماذا؟ أبيع هذه البنادق البديعة رغم أنني لم أصطد حيواناً في حياتي كلها».

لكن السيدة رينلينغ أرادت أن أصبح فارساً، وأرادت تطويري وتعليمي بكل الطرق. جعلتني ألتحق بدورات مسائية في جامعة نورث ويسترن. كان هنالك خريجان جامعيان بين الرجال الأربعة العاملين في ذلك المتجر (كنت أصغر أولئك العاملين سناً). وكانت السيدة رينلينغ تقول لي: «وأنت... بمظهرك هذا، وبشخصيتك هذه... إذا كانت لديك شهادة جامعية...» ماذا أستطيع أن أقول؟ لقد جعلتني أرى النتيجة كما لو أنها صارت بين يديَّ بالفعل.

استغلت المرأة غروري غاية الاستغلال. كانت تقول: «سوف أجعلك كاملاً... كاملاً تماماً».

كانت السيدة رينلينغ تقارب الخامسة والخمسين... امرأة صغيرة الحجم ذات شعر خفيف فيه شيب قليل؛ وكانت رقبتها أكثر بياضاً من وجهها، مع غضون صغيرة حمراء جافّة وعينين فاتحتين غير لطيفتين. إن لها لكنة أجنبية لأنها جاءت من لوكسمبورغ؛ وكانت

معتزّة كثيراً بأن لها صلات ببعض من ترد أسماؤهم في دليل الأسر الملكية في ذلك الجزء من العالم. وقد أكدت لي ذات مرة: «هذا هراء كله؛ إنني من الديمقراطيين. أنا مواطنة في هذا البلد؛ لقد انتخبت كوكس، وانتخبت آل سميث، وانتخبت روزفلت أيضاً. لست أبالي بالأرستقراطيين. لقد استولوا على ضيعة أبي. وكانت الملكة كارلوتا تذهب إلى كنيسة قريبة منا ولم تسامح الفرنسيين أبداً بسبب ما فعله نابليون الثالث. كنت أذهب إلى المدرسة في بروكسل عندما ماتت». كانت لها مراسلات مع سيدات من النبيلات في أماكن مختلفة. وكانت تتبادل وصفات الطبخ مع امرأة ألمانية تعيش في دورن ولها صلة ما بأسرة القيصر. «كنت في أوروبا منذ بضع سنين ورأيت هذه البارونة. أعرفها منذ زمن طويل. لا يستطيعون أن يقبلوا حقاً شخصاً غريباً عنهم في واقع الأمر. قلت لها، 'إنني أميركية حقاً'. أخذت معي بعض البطيخ المخلل. ليس لديهم ما يشبهه هناك يا أوجي. علّمتني إعداد كلية البقر بالكونياك. هذا واحد من أندر الأطباق في العالم. وهناك الآن مطعم في نيويورك يقدم هذا الطبق. على الناس أن يحجزوا أماكنهم مسبقاً فيه، حتى في هذا الوقت، في زمن الكساد الاقتصادي. لقد باعت الوصفة إلى إحدى شركات الطعام مقابل خمسمئة دولار. لن أفعل شيئاً كهذا أبداً. يمكن أن أطبخ من أجل أصدقائي، لكنني أعتبر بيع سرّ عائلي قديم أمراً دون مستواي».

كانت تطبخ جيداً وتعرف خفايا الطبخ وأسراره كلها. وقد اشتهرت بولائم العشاء التي تقيمها وتدعو الناس إليها، إضافة إلى الولائم التي تطبخها في أماكن أخرى لأنها يمكن أن تقرر إقامة وليمة في أي مكان... من أجل الأصدقاء. وكان محيطها الاجتماعي زوجات مديري الفنادق في سيمينغتون، وزوجات بائعي المجوهرات، وغيرهن... كانت تعد لهن أطباق الفاكهة الضخمة المزينة وأطباقاً تشبه الزوارق فيها صلصة أخطبوط الأرغونوت. وكان من صديقاتها أيضاً أرملة رجل كان متورطاً في فضيحة رشوة كبرى، وكان من مربّي الكلاب غالية الثمن. كان أصحابها كلهم من هذه الفئة. أما أصحابها الجدد الذي لا يعرفون طبق كلية البقر، فكانت تعد لهم كل شيء في البيت ثم تطهو الطعام على موائدهم. كانت شغوفة بإطعام الناس، وتطبخ لموظفي البيع معظم الأحيان. تكره أن ترانا ذاهبين إلى المطاعم حيث يكون الطعام كله رخيصاً دبقاً كريه الطعم... هكذا كانت تقول بصوتها ذي اللكنة الأجنبية الذي لا يستطيع أحد مقاطعته.

هكذا كانت السيدة رينلينغ... لا يمكن لأحد أن يقاطعها أو أن يوقفها عن الكلام. إن أرادت، فهي تطبخ لك وتطعمك وتدرّبك وتعطيك الأوامر وتلعب معك لعبة ماه جونغ الصينية فلا تعود قادراً على فعل شيء لأن لديها قوة أكثر من كل من يحيط بها. وبعينيها الضيقتين وذلك اللمعان الشاحب الثعلبي في تجاعيد وجهها الصغيرة المختبئة تحت غبار البودرة أو على ظهر يديها بأوتارهن الطويلة الصلبة. أخبرتني أنني سأدرس الإعلان

في مدرسة الصحافة في الجامعة؛ ودفعت رسوم تلك الدراسة، فدرست مثلما قالت لي. اختارت لي أيضاً الموضوعات الأخرى التي أحتاجها لنيل الشهادة مشددة على أن رجلاً متعلماً يمكن أن يحصل على أي شيء يريده في أميركا نتيجة تميزه لأنه يصبح مثل شمعة مضيئة في منجم الفحم.

عشت حياة مزدحمة. عشتها في شخصيتي الجديدة التي كنت فخوراً بها في ذلك الوقت، فخوراً إلى حد مشين. كنت أذهب إلى دروسي المسائية، ثم أمضي ساعات في المكتبة أقرأ التاريخ وأقرأ الكتب الخبيثة التي تعلّم طرقاً لإثارة نفور المستهلك. كنت أيضاً أحضر أمسيات ألعاب البريدج أو الماه جونغ التي تقيمها السيدة رينلينغ في ردهة بيتها الحريرية الفخمة فأكون شيئاً يشبه الخادم وشيئاً يشبه ابن الأخ الذي يمر على الحاضرين بأطباق الحلوى ويفتح الزجاجات في المطبخ واضعاً مبسم السيجارة في فمي... متكلماً، عارفاً، مسلياً مع لمحات من المداعبة والغزل. كان الزيت لامعاً في شعري، وزهرة في طية سترتي عند الصدر، وتفوح رائحة العطر مني؛ وكنت أتسقط معلومات عن السلوك والبروتوكول... إلى أن اكتشفت أن معظم هذه الأشياء تأتي تلقائياً وأن معظم الناس ينظرون إليك أنت ليعرفوا كيف يسلكون. كانت السيدة رينلينغ المحك الحقيقي فلا أحد يستطيع إنكار قيادتها. أما السيد رينلينغ فما كان يبدو مبالياً عندما يلعب تلك الألعاب فيكون بارداً منفصلاً عما حوله. ما كان يتحدث كثيراً، وكانت زوجته تقول ما تريد قوله من غير أن تسمع رأياً آخر. فذلك الرأي الآخر، أي كل ما كان يُقال عن الخدم أو البطالة أو الحكومة، لس إلا شيئاً شنيعاً من غير شك إطلاقاً. كان رينلينغ يعرف هذا، لكنه لا يبالي. فهؤلاء هم أصدقاؤه من مجتمع الأعمال. ولا بد لرجل في عالم الأعمال أن يكون لديه هؤلاء الأصدقاء الذين يزورهم ويسلّيهم لكنه لا يؤثر فيهم ولا يتأثر بهم.

كانت شخصيته مفصَّلة بحسب مقتضيات عمله تماماً. لكنه كان، من حين لآخر، يخرج عن هذا الإطار عندما يستعرض مهاراته في الطرق المختلفة لعقد الحبال، أو يغني:

«هذه هي، هذه هي، إنها وينيس

فأين نوقف السيارة؟».

كانت شفته العليا كبيرة ممتدة فوق الشفة الأخرى مطبقة عليها مما يجعله يبدو كئيباً صابراً. وكان شخصاً بارداً ناعماً مثل أناس كثيرين عليهم أن يقدموا الخدمات لكنهم يحتفظون بشيء ما لأنفسهم ـ مثل كبير السقاة أو مثل الطاهي في فندق ـ أفراد منخرطون في لعبة حياة عجيبة يقبلون الخسارة فيها ثم يخوضون نوعاً من معركة سرية. يحب الملاكمة أيضاً، ويأخذني إلى المباريات من وقت لآخر في حلبة قريبة من مقبرة مونتروز. يقول نحو الساعة العاشرة عندما يكون لديهم أشخاص في البيت: «لدينا، أوجي وأنا، بعض المال

الذي ستكون خسارته كله أمراً معيباً. لا نزال قادرين على اللحاق بالمباراة الرئيسية إذا انطلقنا الآن». وبما أن هنالك أشياء يعتبر الرجال القيام بها أمراً ضرورياً، فإن السيدة رينلينغ تقول: «لا بأس، اذهبا!».

ما كان رينلينغ يصرخ ولا يتحمس خلال جولات الملاكمة، بل كان يأكلها أكلاً. كان يثيره كل ما يقتضي اندفاعاً وجنوناً... سباق دراجات يستمر ستة أيام، أو ماراتون الرقص، أو ماراتون المشي، أو الجلوس على قمة عمود، أو الطيران حول العالم من غير توقف، أو صيام طويل يطلقه غاندي أو سجناء مضربون عن الطعام، أو أشخاص يبيتون تحت الأرض حيث يدفنون أحياء فيأكلون ويتنفسون عبر أنبوب... أي عجيبة من عجائب المشقة والتحمّل، أو أي شيء يبدو منافسة بين جدران أسطوانات المحركات وموادها التي تحتمل البخار والغازات والضغوط التي تفوق طاقة البشر. ولحضور هذه العروض، كان مستعداً لقيادة سيارته القوية من نوع باكارد مسافة بعيدة. ينطلق بها مسرعاً عندما يقودها، لكنه لم يكن يظهر بمظهر من يقود سيارة مسرعة. أراه جالساً مستقراً على مقعده الجلدي الأخضر، وأرى ركبتيه ثابتتين غير مهتزتين بالقرب من عصا تبديل السرعة وكفيه على عجلة القيادة بشعرهما الذي يشبه الرمل، وأسمع صوت المحرك المنساب الخفيض الذي يجعلك تظن أن مقياس السرعة يخدعك عند تسعين ميلًا. لكنك تلاحظ سرعة اندفاع الأشجار مثل أشباح طائرة، وتلاحظ أن الطيور تبدو أشبه بالحشرات وأن الأغنام تبدو مثل الطيور وترى بقع دم الحشرات الأزرق والأصفر والأحمر تنطبع سريعاً على الزجاج الأمامي. كان يحب أن أذهب معه. لكن فكرته عن هذه الرفقة كانت تحيّرني لأننا ننطلق مثل إعصار من غير دفء الحديث الذي يلطّف برودة هذا الاندفاع الذي يتجاهل مناظر الطبيعة من حولنا... اندفاع لا يسمع المرء فيه إلا صفير هواء الراديو وعبارات التنبؤات الجوية آتية من فتحة عليها شبك ذهبي. لكن الشيء الذي كان يمكن أن يكون موضوعاً للحديث بعض الأحيان هو أداء السيارة وحسابات استهلاك الوقود. كنا نتوقف لنأكل الدجاج المشوي في مكان تحوطه أشجار الصنوبر أو على الرمال الدافئة كأننا زوج من سكان كوكب بلوتو جاء في زيارة إلى الأرض. وكنا نشرب البيرة في ثيابنا بالغة الأناقة، ملابس رياضية مخططة أو ذات قماش متين ماركة هاريس، ومناظير في أغلفتها أتينا بها من متجره: سيدٌ ثري عبوس معه ابن أخيه المزركش أو ابن عمه المتكبّر الشاب. لا بد أننا كنا نبدو على هذه الصورة. كنت شديد الإحساس بتلك الملابس، وبلمسة النسيج الجيد على جسدي، وكنت دائم التفكير في شكل قبعتي التيرولية وروعة حذائي البريطاني. لا بد أنني كنت كذلك حتى أستطيع رؤية رينلينغ مثلما صرت أراه فيما بعد. كان رجلاً يأكل العقبات أكلاً. يندفع في الطرقات. كان يحب كل عمل كبير فذّ ويعبد قوة الاحتمال؛ ويمسك كل اعتراض أو صعوبة أو عقبة بين أسنانه القوية فيمضغها ثم يبتلعها.

يمكن أحياناً أن يقول شيئاً عن نفسه في صورة ملاحظة مقتضبة. قال لي مرة عندما كنا مارَّيْن من تحت جسر الشاطئ الشمالي: «لقد ساهمت في بناء هذا الجسر. لم أكن في سن أكبر من سنك الآن. كنت أعمل في تغذية الخلّاط بالإسمنت. لا بد أن ذلك كان في سنة افتتاح قناة باناما. ظننت أن العمل سوف يتعبني كثيراً. لكن دولاراً وربع دولار كان أجراً ممتازاً في تلك الأيام».

هكذا كان يستعيرني من زوجته لأذهب برفقته. لعله كان يجد طريقة تعاملي مع هذا النوع من الحياة مسلياً على نحو ما.

كنت مسحوراً بفكرة امتلاك ملابس السهرة وبفكرة أن أدعى إلى حفلات رسمية. وقد فكرت كثيراً في طريقة تجعلني عضواً في غرفة التجارة للشباب. ليس هذا لكثرة ما لدي من أفكار عن التجارة والأعمال... ووضعي جيد في المتجر، لكن إبداعي في كسب المال لم يتجاوز ذلك. الحماسة الاجتماعية هي ما كان يحركني، الظهور بمظهر الأذكياء، والتأنق. كان التفكير في جوربين ضيقين طويلين عندما يضع المرء ساقاً فوق ساق، أو التناسب بين ربطة العنق وحلية مثبتة على ياقة مرتفعة، تضعني في قلب تلك الحماسة بقوة وجوع كبيرين. كنت شديد الاهتمام بذلك.

أمضيت فترة قصيرة في علاقة مع نادلة من سينيغتون اسمها ويلا شتينر. كنت آخذها للرقص في ميري غاردن، وأذهب إلى الشاطئ معها في الليل. وكانت تتركني أتحدث معظم الوقت مزهوّاً بنفسي... إنها فتاة دافئة. لكنها ما كانت خجولاً أبداً، ولم تتظاهر بأنها لا تعرف الغاية من وجودنا معاً. كان لديها حبيب في بلدتها أيضاً، وتخطط للزواج منه. إنني واثق كل الثقة من أنها لم تخبرني عن هذا بقصد إثارة غيرتي. أقول هذا لأنها كانت تنتقدني من نواحي كثيرة... ولعلها كانت محقة... ثرثرتي المتكلّفة، وغروري، واهتمامي بالملابس. عندما بلغت السيدة رينلينغ هذه الأنباء لامتني كثيراً لمصاحبتي هذه الفتاة. لم يكن إينهورن يعرف ما يدور في جواره المباشر بأكثر مما كانت تعرفه هذه المرأة عما يدور في منطقتها كلها. قالت لي: «أوجي، إنني في دهشة بالغة! إنها ليست حتى فتاة جميلة. أنفها مثل أنف هندية صغيرة»... كنت امتدح جمال هذا الأنف تحديداً عندما أغازل ويلا؛ ولم يكن امتناعي عن الدفاع عنه سلوكاً شجاعاً على الإطلاق... «كما أن النمش يغطيها كلها. عندي نمش أنا أيضاً، لكنه مختلف... إني أتحدث معك بصفتي شخصاً أكبر منك سناً. ثم إن الفتاة ليست إلا عاهرة صغيرة، وهي ليست عاهرة صادقة أيضاً، لأن العاهرة الصادقة لا تريد إلا مالاً. إذا جئتني وقلت لي إن عليك أن تفعل هذا ـ لا تخجل من قول هذا الشيء ـ فسوف أعطيك مالاً حتى تذهب إلى مكان ما في شارع شيريدان بالقرب من فندق ويلسون حيث توجد تلك أماكن العاهرات». إن لدي الآن أيضاً من يعرض عليَّ

نقوداً حتى يبقيني بعيداً عن المتاعب، مثلما فعل إينهورن عندما ألقى عليَّ محاضرته عن السرقة. تتابع السيدة رينلينغ كلامها: «أوجي، ألا ترى أن هذه المتشردة الصغيرة تريد أن توقعك في المتاعب حتى تكون مضطراً للزواج منها؟ هذا كل ما تحتاجه الآن... أن يصبح لديك طفل منها في بداية حياتك العملية! أظن أنك تفهم معنى هذا الكلام».

كنت أقول في نفسي أحياناً إن ما قالته كان نابعاً من ذكائها وكرمها، لكنه كان شيئاً غبياً إلى حد فظيع في الوقت نفسه. وكان انطباعي أنها عندما تطل من عليائها بوجهها المنمش ذي التعابير اللاذعة، في استعدادها للتدخل في كل أمر، فإنها تمارس هوايتها في شد من تريده إليها حتى تخدّره وتحرقه. كان كلامها من نوع الكلام الذي يسمعه الشبان الحمقى المدللون من حامياتهم، ومن زوجاتهم الجنرالات، في الدوقيات والقصور كلها وفي عواصم العالم كلها.

قلت بطريقة خرقاء: «لكنك لا تعرفين شيئاً عن ويلا في الحقيقة يا سيدة رينلينغ. إنها ليست...» لكني لم أتابع كلامي بسبب الازدراء الذي ظهر على وجهها. قالت: «يا طفلي العزيز... إنك تتكلم مثل المغفلين. ابقَ معها إن شئت! أنا لست والدتك. لكنك سوف ترى»... قالت هذه الكلمات بصوتها الإمبراطوري... «سوف ترى عندما تربطك بالحبل من رقبتك. أتظن أن كل ما تريده من الحياة هو الانتظار عند الطاولات والعمل حتى تطعم نفسها لكي تظل جميلة الجسم من أجلك حتى لا يكون لديك ما تفعله غير الاستمتاع بها؟ أنت لا تعرف شيئاً عن الفتيات. الفتيات يردن الزواج. لم نعد في تلك الأيام البسيطة القديمة حيث تظل الفتاة جالسة إلى أن يجد أحد في نفسه رحمة تجاهها فيتزوجها». كانت تتكلم بقرف... كان لديها مخزون من القرف لا بد لها من استهلاكه.

لم يخطر في بالي أبداً عندما جعلتني السيدة رينلينغ آخذها بالسيارة إلى بينتون هاربر حيث تعالج التهاب المفاصل بحمامات المياه المعدنية أنها فعلت ذلك قاصدة إبعادي عن ويلا. قالت إنها لا تستطيع الذهاب إلى ميتشيغان وحدها وإن عليَّ أن أقود السيارة بها وأن أرافقها في ذلك الفندق. لكني فهمت الأمر فيما بعد.

هذه المرة كانت بينتون هاربر مختلفة كثيراً بالنسبة لي عما كانت عليه في المرة الماضية عندما عدت من موسكيغون مع نيلز ودينغبات عاقداً كمّي قميصي خلف رقبتي... عندما آلمتني قدماي من طول الطريق. في حقيقة الأمر، بقينا في سانت جوي قريباً من بحيرة ميتشيغان في فندق ميريت الواقع على الماء تماماً حيث تفوح رائحة هواء البحر العميقة العذبة من جدران الغرف الوردية الصقيلة. كان فندقاً ضخماً مبنياً بالقرميد لكنه يشبه منشآت ساراتوغا سبيرينغز القديمة... الخضرة الخشب المشغول المزخرف والستائر الطويلة فوق الأبواب وقوائم الطعام باللغة الفرنسية والطاولات البيضاء وكثرة المال والسيارات الفخمة

وأحواض الزهور الكبيرة وذلك المرج الواسع الأخضر الغني. كان العشب ضامراً هزيلاً تحت شمس تموز في كل مكان آخر.

كانت الساعات الطويلة التي تمضيها السيدة رينلينغ في حمام المياه المعدنية ملكاً لي وحدي حتى أستطلع المنطقة المحيطة مثلما أريد. إنها منطقة غنية بمزارع الفاكهة التي يقيم فيها ألمان. رجال يشبهون المزارعين في كل مكان، لكن النساء المتقدمات في السن يتجولن في قبعاتهن حافيات الأقدام في أثواب طويلة تحت أشجار البلوط العملاقة في باحات بيوتهن. وأغصان الدراق تشع بخطوط الصمغ عليها، وبأوراقها حليبية اللون نتيجة رشها بمبيدات الحشرات. وكان المرء يرى في الطرقات أيضاً، على دراجات وفي شاحنات من طراز فورد، يهوداً ملتحين مرسلي الشعور من «بيت داوود» التي هي جماعة دينية مسالمة تحرِّم اللحم على نفسها، جماعة من الأتقياء المهتمين بالأعمال ويملكون وحدهم قرية كبيرة (يمكن القول إنها مقاطعة صغيرة) وقصوراً في المزارع. كانوا يتكلمون على شيلوح وهرمجدّون بألفة ومعرفة كمن يتحدث عن البيض وأعنّة الخيل. إنهم من أصحاب الملايين، ملايين كثيرة. ويملكون مزارع وينابيع ومدينة ألعاب واسعة في وادي بافاريان الكبير. وكان في تلك المدينة قطار حقيقي صغير وفريق للبيسبول وفرقة للجاز ترسل موسيقاها التي تصل واضحة حتى الطريق آتية من المجموعات الراقصة ليلاً في السرادق. فرقتان منفصلتان في حقيقة الأمر، واحدة للذكور وأخرى للإناث.

أتيت بالسيدة رينلينغ إلى هذا المكان عدة مرات حتى ترقص وتشرب ماء النبع؛ لكن نشاط البعوض هناك كان يفوق طاقة احتمالها. ذهبت بضع مرات وحدي بعد ذلك؛ لكنها لم تفهم السبب الذي جعلني راغباً في الذهاب. ولم تفهم أيضاً ما كان يجعلني أتجوّل في البلدة في الصباح. ولم تفهم سبب استمتاعي بالجلوس في ساحة المحكمة المبنية منذ الحرب الأهلية بعد أن أتناول إفطاري الثقيل من الكعك المقلي والبيض والقهوة. لكني كنت أذهب وأدفئ بطني وساقيّ في الشمس بينما تندفع عربات الترولي الصغيرة مثل الجراد مقعقعة زاحفة صوب الميناء ماضية فوق حوامل الجسر الذي يعبر المستنقع حيث تواظب حيوانات خضراء وطيور صاخبة صياحها في ذلك الحَرّ. كنت آخذ معي كتاباً، لكن الشمس كانت تجعلني أرى بقعاً بنية كبيرة على صفحاته. كانت المقاعد حديدية بيضاء، متسعة بحيث يمكن أن يسترخي فيها ثلاثة أشخاص أو أربعة في تلك الحرارة الحلوة الفائحة بنكهة المستنقعات التي تجعل تلك الطيور السوداء ذات الأجنحة الحمراء سريعة الحركة وتجعل الأزهار تتفتح، لكنها تجبر كل كائن حي آخر على البطء والكسل. كنت أغرق في هذا الهواء الثقيل المغذّي المنعش، في هذا الجو الودود مثل حلوى غنية بحجم الحياة كلها، جو يشجع على الحب ويبعث في المرء آلام المشاعر اللطيفة. حالة تجعلك ترقد تحت وطأة ثقلك الخاص حيث لا تكون موضوعاً لشيء آخر بل تجلس في طبيعتك

أنت تستمتع بمذاقات أصلية كالتي استمتع بها الإنسان الأول، وتكون خارج الصخب البشري المنهمك. تكون حراً حتى من عاداتك أنت. لا يحيط بك هناك غير أوهامك وتخيلاتك تحت ضياء الشمس حيث تنشأ العلاقة المألوفة بين قدميك أو بين أصابعك أو بين عقدتي رباط حذائك، وحيث تكون من غير قدرة على فعل شيء. لا يكون لديك هناك قدرة على التأثير بأكثر من تأثير ظل شعرك على أفكارك.

لا تحب السيدة رينلينغ تناول الطعام وحيدة، حتى وقت الإفطار. فكان عليَّ أن آكل معها في غرفتها. تتناول شاياً بالحليب من غير سكر كل صباح، ومعه بضع قطع من الخبز المحمص. أما أنا فكنت أطلب الطعام الحقيقي، الجزء الأسفل من قائمة الطعام، من عصير الكريب فروت إلى حلوى الأرز، وأتناول طعامي على طاولة صغيرة قرب النافذة المفتوحة في مجرى نسيم البحيرة الذي يتلاعب بالستائر السويسرية المنقّطة. وفي سريرها، متحدثة طيلة الوقت، كانت السيدة رينلينغ تلفّ عصابة من الشاش على ذقنها وتنام بها، ثم تبدأ معالجة وجهها بالمحاليل والكريمات، وبنتف حاجبيها. كان بقية النزلاء موضوع حديثها المعتاد. تتحدث عنهم من كل النواحي ولا تقصّر في وصفهم أبداً. تتحدث عنهم في كسل تلك الساعة الصباحية عندما تنكب على الاهتمام بوجهها انكباباً تاماً. سوف تموت سيدة حسنة المظهر، سيدة حافظت بدقّة على واجبات التمدن كلها التي طوّرها البشر منذ ما قبل فيدياس حتى ما بعد بوتشيللي ـ كل ما نصح به واتبعه السادة العظماء ونساء البلاط من أجل الوقاية، وكل ما وصفوه من ذكاء في العينين، وكل ما يظهر الحلاوة والسلطة معاً. لكن الغضب كان يحكم عقلها! كانت تغدق على نفسها تلك العناية الأنثوية في جناحها المتألّق في جمال الصيف الدافئ الطري. لكنها ما كانت تستطيع أن تقنع بشيء أقل من الحفر والتنقيب في مجاهل مشاعر العداوة والبغض.

«هل لاحظت ذلك الرجل وتلك المرأة على يساري الليلة الماضية في حفلة بونكو؟ الزيلانديين؟ أسرة هولندية رائعة! أليس رجلاً عجوزاً جميلاً؟ ماذا؟ لقد كان واحداً من أهم محامي الشركات في شيكاغو؛ وهو أحد أمناء مؤسسة روبنسون... آل روبنسون مالكي مصانع الزجاج. منحته الجامعة شهادة فخرية. وتكتب الصحف مقالات عنه في عيد ميلاده. لكن زوجته في غاية الغباء، وهي تشرب أيضاً، وابنتها سكّيرة مثلها. لو عرفت أنها ستكون هنا لفضّلت الذهاب إلى ساراتوغا. أتمنى لو أن هناك طريقة لأن يحصل المرء على قائمة بأسماء النزلاء في هذه الفنادق. لا بد من وجود خدمة من هذا النوع. إن لديهم جناح بستمئة دولار في الشهر في شيكاغو. وفور وصول السائق من أجل الأب في الصباح ـ أعرف أن هذا ليس شيئاً قليلاً! ـ يخرج عامل الخدمة في الفندق فيشتري لهم زجاجة من البوربون ويضع رهاناً باسمهم على أحد الخيول. ثم يشربون وينتظرون نتيجة الرهان. أما تلك الابنة... إنها تحافظ على مظهر تقليدي، وإن لم تكن قد لاحظتها الليلة الماضية

فعليك أن تنظر إلى امرأة متينة البنية تزين نفسها بالريش. لقد رمت طفلاً من النافذة فقتلته. استخدموا كل ما لديهم من نفوذ لإخراجها من السجن. لو كانت امرأة فقيرة لأعدموها على الكرسي الكهربائي مثلما أعدموا روث شنايدر التي وقفت مشرفات السجن من حولها ممسكات بتنوراتهن حتى لا يستطيع المصورون رؤية شيء. أتساءل أحياناً إن كانت ترتدي هذه الملابس الآن حتى تشعر بأنها قطعت كل صلة مع تلك المرأة الشابة التي فعلت ذلك الشيء».

لابد للمرء من بنية متينة حتى يستطيع التمسك بروعة الصباح في مواجهة هذه الأحاديث الملعونة. كان عليَّ أن أبذل جهداً كبيراً عندما تستدعي كل ما لديها من قوة الرعب ومن أشباح الموت والشياطين التي تمسك بالخاطئين العراة فتطرحهم أرضاً من أجل العقاب، قتل الأطفال، الأوبئة، وقصص السفاح.

نجحتُ في هذا. إلا أن وضعي كان وضع من يستمتع بما ينعم به شاب ثري؛ وقد رتبت مشاعري بناء على ذلك بحيث أستطيع معالجة كل اعتراض ينشأ في نفسي. لكن كانت هنالك لحظات ملعونة مثل لحظة حديثها عن إعدام شنايدر وذكرها تلك الحماية الفظيعة للمرأة من المصوّرين بينما راح جسدها يتلوى عندما اخترقته آلاف الفولتات. ومع أني كنت أتجنب كل ما من شأنه عدم الاتفاق مع ما أريده، فإن إصرارها على رسم صور الموت والشر وتفنّنها في ذلك الرسم كان له أثر في نفسي. ماذا لو كانت المرأة مثلما قالت عنها حقاً؟ ماذا لو أن تلك المرأة، مثلاً، قد ألقت بطفلها من النافذة؟ لم تكن حالةً مثل ميديا التي طاردت أطفالها البائسين قبل زمن بعيد عنا إلى حدٍّ آمن، بل امرأة كنت موجوداً معها في صالة الطعام، امرأة تتزين بالريش وتجلس مع أمها وأبيها الشائبين.

لكن، كان هنالك أشخاص على طاولة قرب طاولة تلك الأسرة سرعان ما صاروا أكثر أهمية في نظري: شابتان جميلتان إلى حد يستطيع إيقاف تلك الأفكار أو جعلها تتقلص. مرت بي لحظة كنت قادراً عندها على الوقوع في حب أي منهما؛ ثم اتجه كل شيء إلى جهة واحدة، إلى الفتاة الأكثر رشاقة، الفتاة الأصغر حجماً وسناً. وقعت في حبها ليس مثلما وقعت في حب هيلدا نوفنسون عندما كنت أتبعها متعلقاً بالحافلة أو أقف أمام محل الخياطة حيث يعمل أبيها. كان لديّ هذه المرة نوع مختلف من الطاقة الهوسية، وكنت أعرف كيف تكون لذعة الجنس. كانت آمالي أكبر حجماً، ولعلها كانت أكثر فساداً أيضاً... بفضل أثر السيدة رينلينغ وحديثها الدائم عن الشهوة وعن عدم الاعتراف بالحواجز. وهكذا سمحت لمختلف الأفكار بالحلول في رأسي. لم أتعلم أبداً أن ألوم نفسي على أشياء من هذا القبيل؛ وكانت خبرتي في بترها محدودة. قبلت من الجدة لوش ذلك الجزء من تحذيراتها الذي تعلق فقط بالخطر الكامن في دمنا. وأننا، عبر أمي، كنا قابلين للوقوع

في الحب؛ لكن هذا لم يشمل السمة التي جعلتنا مختلفين عمن يحملون جرثومة الخراب. وهكذا مضيت متحمساً، مهتماً. كانت لدي إعاقة خاصة ناتجة عن طريقة تقديمي نفسي (مثلما تقول السيدة رينلينغ) كأنني شخص لم يحرمه الرب شيئاً من نعمه التي كانت ظاهرة كلها عندي: وسامة، وملابس رائعة، وسلوك ممتاز، وقدرة على مخالطة الناس، وفطنة، وابتسامات شيطانية جميلة، ورقص أنيق، ومهارة في التصرف مع النساء... هذا كله ملفوفاً في غلاف ذهبيّ. لكن مشكلتي كانت في أن لديَّ ما يمكن أن نسميه أوراقاً ثبوتية مزورة. وكان يقلقني أن تكتشف إيستر فينكل هذا الأمر.

عملت، بقلب مختنق، من أجل النجاح الأكبر ضمن هذه الحدود، عملت مثلما يعمل النصابون. أنفقت ساعات في تحضير نفسي لأن أصير كأنني استرحام حي. عملت بتركيز أصمّ وبجهد يلفت الأنظار. كانت تلك الطريقة الوحيدة التي استطعت أن أتخيَّلها في فورة الحب. لكن ذلك كان مثل راية الطاعون المرفوعة فوق سفينة ترى جمال الميناء بأعلامه المرفرفة في ريح رخية ـ مشهد مكان آمن مسالم. لعلي كنت قادراً في ظروف طبيعية (عندما أكون في عقلي وأتصرف بيسر معتاد) على إيصال ما أفكر به.... على الشاطئ، في المرج الذي تزيِّنه الزهور، في غرفة الطعام الكبيرة البيضاء الذهبية... كنت قادراً على جعل تلك الأفكار تتعلق بشعر الفتاة. كانت لدي أحلام ثقيلة عن شفتيها ويديها ونهدَيْها وساقيها وما بين ساقَيْها. ما كانت قادرة على الانحناء لالتقاط الكرة في ملعب التنس. كنت أقف متيبساً في وشاح عليه خيول بنية على أرضية خضراء يمر طرفاه عبر حلقة خشبية محفورة باليد جعلها رينلينغ شائعة في إيفانستون ذلك الموسم. ما كنت قادراً على رؤية هذا من غير الإحساس بنبض الحب والوله في جوفي عندما أرى انحناءة شفتيها، عندما أرى رسمها العذري يلوح منتصراً من خلف سر ناعم مَحْمي. أين يمكن أن يكون هذا عندما يسمح به الحب، أين يمكن أن يعترف العالم به، أوليس هو ذلك التشوش الخائف الجاف البعيد المهموس الذي لا مبرر له ولا حجة له غير الفرحة. ماذا لو وافقت، ماذا لو قبلت، ماذا لو مرَّت بيديها عليّ، ماذا لو سمحت لي بأن أنفض غبار ملعب التنس عن ساقيها وأمسح عرقها لتنقذني من زيف المعاناة... لتريني أن لا شيء زائفاً، لا شيء ضاراً، لتريني أن ما من فراغ في القلب لا يمكن تصحيحه؟

عندما جاء المساء ولم تثمر محاولاتي شيئاً رأيت أن ذلك اليوم كان يوماً فاشلاً ورقدت على أرض غرفتي بثيابي التي ارتديتها للذهاب إلى العشاء، رقدت محكوماً بالصبر ينهشني التوق، رقدت مفكراً من غير نجاح في شيء لامع أستطيع فعله... شيء متألق، زاهٍ، يليق بالنجوم، شيء يزيح عني إحساسي بالغباء والخراقة. لكنني كنت قد رصدت بانتباه كل ما أستطيع رصده فيما يتعلق بإيستر حتى أدرس ما يمكن أن يغريها بأن ترى نفسها معي، بأن ترى نفسها في ضوئي؛ أن ترى نفسها معي هناك، في الأعلى. أريد أن أجعلها تطلب

الانضمام إليّ، أن تسمح لي، أن تكون في زورقي أنا حتى نجذف معاً في نهر الحب، في نعيم عجائب جمالها العظيم الأنثوي النضر... عجائب سوف تزيدها فرحتي بأنها معي، مثلما هي، بمرفقيها وحلمتيها البارزتين تحت قميصها. راقبتها كيف جرت بطريقة خرقاء بعض الشيء في ملعب التنس، وكيف حمت صدرها وأطبقت ركبتيها عندما أتت كرة سريعة من فوق الشبكة. لم تكن نتائج دراستي لها شديدة التأييد لآمالي؛ وهذا ما جعلني أستلقي على الأرض بوجهٍ توّاقٍ راغبٍ لوَّحته الشمس وبشفتين مفتوحتين في تفكير عميق. أدركت أنها تعرف أن لها قيمة عظيمة وأنها لن تنساق وراء ميل طارئ. باختصار، رأيت أنني لن أتمكن من إقناع إيستر فينكل وأنها لن تهتم كثيراً بسماع ما أحب أن أقوله عن تعرّقها الجميل وعن التراب على ساقيها.

لكن ألوان العالم لم تكن على هذا الجمال من قبل... عليّ أن أعبّر عن هذا لأنه فاجأني... لم تكن يوماً رائعة ولا واضحة إلى هذا الحد. ولم تثر اضطرابي يوماً مثلما أثارته الآن. أحسست أنني بعيد، في حقيقة الأمر، كبعد الطبيعة والمسرة عندما شكلتا موطن الإنسان الأول وموطن كل وجود آخر.

تصرفت بطريقة بارعة أيضاً. دخلت في حديث مع فينكل العجوز (ليس والد الفتاتين بل عمهما) الذي كان يعمل في مجال المياه المعدنية. لم يكن الأمر سهلاً لأنه مليونير. كان يقود سيارة من نوع باكارد، من طراز سيارة رينلينغ نفسه ومن لونها نفسه أيضاً. أوقفت السيارة خلف سيارته في الممر مما جعله مضطراً إلى النظر مرتين ليعرف أي سيارة له؛ وعندها انقضضت عليه واصطدته. فكيف يمكنه أن يعرف أنني لا أكسب إلا خمسة وعشرين دولاراً في الأسبوع وأنني لست مالك هذه السيارة؟ تحدثنا؛ وقدمت له سيجارة من نوع بيرفكتو كوين. رفضها مبتسماً... كانت لديه علبة سيجار كوبي يدوي الصنع، علبة كبيرة يمكن أن تستوعب مسدساً؛ لكن الرجل كان ضخم الجسم فلم تكن تلك العلبة ظاهرة في جيبه. كان وجهه سميناً فيه غضون عميقة وعينان سوداوان (سوداوان مثل بذور القرع الصيني) وشعر رمادي غزير ملتصق بشحم الجمجمة من الخلف وعلى الجانبين. كان أمراً محبطاً أن أعرف أن الفتاتين وريثتاه. أخبرني بهذا على الفور ربما لأنه حزر أنني لم أكن أنثر زهور سحري أمامه إعجاباً بأنفه الغضروفي المربّع الثقيل والشعرات البيضاء الظاهرة منه وبقعه التي يشبه لونها لون البارود. من الطبيعي أنه أدرك هذا. أرادني أن أدرك طبيعة الميدان. لكني لم أتزعزع. لم أتراجع قط أمام أقاربي الذكور، خشنين أو ناعمين، ولم أسمح لأب أو وصيٍّ بأن يحبطني.

كان التقرّب من عمة إيستر أكثر صعوبة لأنها كانت مريضة صامتة خجولة، ولأنها كانت في تلك الحالة النفسية التي يراها المرء لدى الأثرياء الذين تخذلهم حالتهم الصحية.

كانت ملابسها ومجوهراتها في حالة ممتازة. لكن وجه السيدة المسكينة كان مليئاً بآثار الجهد المبذول عليه؛ كانت صماء بعض الشيء نتيجة ذلك. لم أحتج إلى الادعاء بأي اهتمامي ودّي لأنه كان موجوداً عندي في حقيقة الأمر (يعلم الله وحده كيف حدث هذا) عرفت بالغريزة ما يمكن أن يجذبها... عاجزة مثقلة بالمال مطرودة بعيداً عن سبل حياتها المألوفة... ما كان يلزمني غير السحر الذي تشعه صحتي الطبيعية. وهكذا تحدثت معها وظفرت بتقبلها.

قالت لي السيدة رينلينغ: «عزيزي أوجي! أكنت جالساً مع السيدة فينكل؟ لم تفعل تلك المرأة شيئاً طيلة الشهر غير النظر إلى رشاشة الماء في المرج؛ ظننتها عديمة النفع تماماً: هل حدثتها أنت أولاً؟»

«الحقيقة... جلست إلى جانبها مصادفة».

حصلت على تقدير جيد من أجل هذا؛ كانت مسرورة بي. لكن غايتي من ذلك كانت الشيء التالي الذي كان لا بد لها من التفكير فيه. وسرعان ما عثرت على الإجابة التقريبية من غير تأخير: «الفتاتان، أليس كذلك؟ لا بأس، إنهما في غاية الجمال حقاً! ذات الشعر الأسود خاصة، رائعة! وشقية أيضاً، تظهر الشيطنة في نظراتها. لكن تذكر يا أوجي أنك معي. وأنا مسؤولة عن سلوكك. هذه الفتاة ليست نادلة، ومن الأفضل ألا تظن أنك تعرف كيف تتدبر الأمر. يا ولدي العزيز... أنت طيب، وشديد الذكاء، وأريد أن أراك ناجحاً. بالطبع، يمكن للفتيات الثريات أحياناً أن يكنَّ عاهرات صغيرات أيضاً، ويمكن أن تكون لديهنَّ الشهوة نفسها مثل غيرهن، بل أسوأ من غيرهن أحياناً. لكن، ليس هاتان الفتاتان! أنت لا تعرف شيئاً عن التربية الألمانية».

كان المقصود بهذا أن الوريثتين فينكل محفوظتان للأثرياء فقط. لكن السيدة رينلينغ لم تكن معصومة عن الغلط، بل إنها ارتكبت غلطة بالفعل فظنت أنني واقع في هوى ثيا فينكل وليس في هوى إيستر. كما أنها لم تكن تدرك أبداً إلى أي حد كنت غارقاً في هواها، لم تدرك أنني وصلت إلى ذلك الخطر الشاعري... الموت حباً. لكني ما كنت أريدها أن تعرف شيئاً رغم أنني سأفرح بإخباري أحداً ما عن ذلك. لم يعجبني ما قد تستنتجه السيدة رينلينغ في آخر الأمر؛ وهكذا قنعت بتركها تظن أنني مغرم بثيا ذات الشعر المتشابك التي كانت رائعة الجمال أيضاً. قررت أن أخدعها. ولم يكن ذلك صعباً لأن السيدة رينلينغ كانت فخورة بأنها استطاعت أن تحزر الأمر كله، سريعاً من غير خطأ.

في حقيقة الأمر، كانت ثيا فينكل في نظري أحسن من أن تكون شيئاً سارّاً فحسب. وكنت ذات صباح أطارد عمها الذي كان في مزاج سيئ صعب فسألتني إن كنت راغباً في لعب التنس معها. كان يجب أن أقول، مبتسماً (رغم أنها كانت لحظة سيئة بالنسبة لي)

إن ركوب الخيل هوايتي. لكنني فكرت يائساً في تلك اللحظة في أنه عليّ أن أحصل على مضرب تنس وأذهب من فوري إلى ملاعب التنس العامة في بينتون هاربر لأتدرّب هناك. لم أقل هذا لأنني ألفت ركوب الخيل حقاً؛ لكن زعمي أنني خيّال كان من شأنه أن يموّه أصلي ويمنحني ألَقاً غير قليل.

قالت ثيا: «لم يأتِ شريكي في اللعب. وقد ذهبت إيستر إلى الشاطئ».

كنت على الرمل في غضون عشر دقائق رغم أنني وعدت السيدة رينلينغ بأن ألعب الورق معها بعد حمّام المياه المعدنية عندما تحس أنها أشد ضعفاً من أن تستطيع القراءة، هكذا قالت. تمددت على بطني مفكراً متحمساً ناظراً إلى إيستر. ذهبت تفكيري في اتجاهات كثيرة، سامية، شهوانية، مؤلمة في جزء كبير منها... كنت أرجو لفت انتباهها وأخشاه أيضاً عندما انحنت تمسح ساقيها بزيت الشمس ومال رأسها صوبي... أنا المخبول الثمل في تلك اللحظة، المفكر في وزن ثدييها وفي ثقل بطنها الناعم الخفيف، بطنها التي يحزمها، بأناقة شديدة، رباط ثوب السباحة. رحت أنظر إلى شعرها الذي مشّطته بقوةٍ شديدة بعد أن خلعت قبعتها المطاطية البيضاء الضيقة.

انطلقت سنونوات الرمال من أوكارها في المنحدرات، ومضت فوق أرض أغرقتها مياه شفافة وعادت إلى الأبيض ثم إلى البنّي ثم إلى الأسود بعد تحليقها فوق أمواج رملية ساكنة وجذوع وأغصان أبلاها تدافع الماء.

سرعان ما صعدت؛ وصعدت أنا أيضاً، بعد وقت قصير. كانت السيدة رينلينغ تقابل تأخّري بمعاملة باردة. أما أنا فكنت أفكر مستلقياً على أرض غرفتي رافعاً قدميّ على حافة السرير مثل خيّال مدرّع سقط عن حصانه وتشابك مهمازاه فصار في حاجة إلى من يساعده على النهوض... كنت أفكر وأنا أرى قلة اهتمامي تغضب السيدة رينلينغ... فكرت في أنّ عليّ تحقيق بعض التقدم حتى أبرر موقفي على الأقل. نهضت ونفضت الغبار عني من غير حماسة مستخدماً فرشاتين عسكريتين أعطتهما لي. نزلت في المصعد البطيء الأبيض فبلغت الطابق الأرضي وتجوّلت في الردهة متمهلاً.

كانت ساعة المغيب؛ واقترب وقت العشاء، وصار قاتماً لون الماء اللامع، وانتصبت قوائم الطعام الكبيرة في غرفة المطعم ومعها زهور في مزهريات طويلة الأعناق؛ وكانت الفرقة الموسيقية تدوزن آلاتها خلف الستار. كنت وحدي في الممر حائراً منزعجاً فمضيت بطيئاً إلى حجرة الموسيقى حيث كان صوت كاروسو منبعثاً من الفونوغراف... أصوات مختنقة في البداية ثم صرخات أوبرالية مشتاقة إلى الأم، إلى قلب حزين... مناشدة ابن بعيد تلائم الذوق الإيطالي. رأيتها متكئة بمرفقيها على ذلك الصندوق المغلق في فستان

أبيض وقبعة بيضاء مدوَّرة تشبه قلنسوة أسقف لكنها مزينة بخرزات ملونة. كانت إيستر فينكل واقفة وقد استندت إحدى قدميها على مقدمتها.

قلت لها: «آنسة فينكل! هل تحبين الذهاب معي إلى بيت داوود ذات مساء؟» نظرت إليّ مدهوشة... «إنهم يقيمون حفلة راقصة كل ليلة».

لم أرَ شيئاً غير الفشل منذ أن نطقت الكلمة الأولى فأحسست بالانسحاق وبالهزيمة من كل ناحية.

«معك أنت؟ لا بد أن أقول لا. لن أذهب بالتأكيد».

غاض الدم من رأسي ورقبتي وكتفي، وفقدت الوعي.

عدت إلى وعيي من غير مساعدة. ما كان هنالك من يقدم لي مساعدة. ولم تضيّع إيستر لحظة واحدة لترى ما حدث لي لأن صوت الغناء انطلق عالياً... كان في البداية يشبه صوتاً تسمعه من محارة تضعها على أذنك، ثم صار أعلى مع صعود الأوركسترا درجات صالة الطعام الفخمة وصولاً إلى القمة حيث راحت الطبول تقتل وتقطّع وتدفن كل شيء بقرعها العاصف.

لست أدري إن كان رفضها، أو اضطراب عواطفي الشديد عندما تكلمت معها وتكلمَتْ معي، هو ما أوقعني أرضاً. وما كنت في حالة تسمح لي بالبحث عما أطلَق هذه الحالة، ما هو، وأين هو، وما الذي جعلني أشبه بسن متقلقلة. كان يكفيني أنني اكتشفت مقدار شدة تلك الشحنة وأن ما أصابني كان ثمن خروجي من وضع زائف. كنت ألهث في تلك اللحظة، وكان الهواء يدخل إلى صدري بارداً صقيعياً بسبب وجهي المبلل. أسندت ظهري إلى أريكة وأحسست أنني سقطت متعثراً بشيء له صلة بأمي وبأخي جورجي، أمي التي لعلها كانت في تلك اللحظة تستخدم مكنستها أو تضعها جانباً لتسير متمهّلة إلى العشاء؛ أو بشيء له صلة بجدتي لوش في مأوى ويلسون ـ أحسست كما لو أنني وقعت ضحية ذلك الوحش الذي حكم حياتيهما؛ الوحش الذي ظننت أنني أفلتّ منه مبتعداً.

كانت الآنسة زيلاند واقفة بالباب في تلك اللحظة... ابنة محامي الشركات الشهير... كانت تنظر صوبي وهي في ريشاتها المسائية. وبجسدها الملفوف بفستانها الطويل مثل أسطوانة بشرية ضخمة. كانت تنتعل حذاء مذهّباً، وفي يديها قفّازان طويلان حتى المرفقين؛ بدت رؤيوية، شرقية، بشعرها الغني المرفوع فوق رأسها مثل برج. كان وجهها صافياً بارداً، كأنه حالة من حالات الطقس، رغم أن شفتها العليا الطويلة النظيفة كانت على وشك إعطاء نوع من التعبير، كأنها على وشك كسر صمتها وقول شيء خطير تخمَّر طويلاً... لعلها كانت على وشك البوح بحبها لي. لكن، لا، ظلت أفكارها قريبة مني رغم أنها لم تذهب قبل أن أنهض لأسكت الفونوغراف، فانزلقت أو طفت مبتعدة عني.

ذهبت إلى حمّام الرجال حتى أغسل وجهي بشيء من الماء الدافئ ثم مضيت إلى العشاء. لم آكل كثيراً، حتى من طبق السمك الشهي الذي كانت النار مشتعلة تحته، ولم أستطع الهرب من السيدة رينلينغ التي قالت: «أوجي، متى تتوقف سخافة الحب هذه؟ سوف تؤذي نفسك. هل الأمر على هذه الدرجة من الأهمية؟» ثم راحت تستخدم أرقّ كلماتها معي حتى تخرجني من تلك الحالة. ومضت، بما أنها امرأة، تحاول تشكيل مخيلتي في ما يتعلق بالنساء مثلما ظنت أن عليها تشكيلها. بدأت توضح لي محاسن النساء وعيوبهن، وامتدحت الذكور من كل ناحية كما لو أنها ناطقة رسمية باسمهم. أغضبني هذا بعض الشيء. لم أكن في حالة طبيعية أصلاً، وعندما سمعتها تمضي في وصف جسد المرأة بطريقتها المعدنية الواخزة رحت أنظر إليها نظرة كره. ظللت منتظراً إيستر وأنا أرتجف مثل مصاب بالملاريا، انتظرت ظهورها في غرفة الطعام. كان فينكل العجوز جالساً إلى الطاولة. ثم جاءت ثيا، لكن من الواضح أن أختها ما كانت راغبة في العشاء.

قالت السيدة رينلينغ بعد وقت قصير: «أنت تعرف أن الفتاة لم ترفع عينيها عنك منذ دخولها. هل هنالك شيء بينهما؟ أوجي، هل فعلت شيئاً؟ أهذا سبب انزعاجك؟ ماذا فعلت؟»

قلت: «لم أفعل أي شيء».

أجابتني بسرعة وحِدّة، كأنها مشرفة تعمل لدى الشرطة: «من الأفضل ألا تفعل شيئاً! لديك جاذبية شديدة للنساء إلى درجة تضرّ بك، وسوف ينتهي بك الأمر إلى الوقوع في المتاعب. وسوف تصيبها المتاعب أيضاً تلك الآنسة الصغيرة... إنها تشعر بالحرارة في سروالها».

قابلت نظرات ثيا بعينين محدقتين متحدّيتَين. أشعل النادل النار تحت طبق السمك على طاولة أسرة فينكل، وظهرت نيران أخرى هنا وهناك في ضوء الغسق الأخضر.

تركت غرفة الطعام من غير أن أقول شيئاً. خرجت أمشي على طريق الشاطئ لأتخلص من تلك التقلصات المخزية في أمعائي ولأهضم مشاكلي. كان رهيباً ذلك الشعور الذي أنتابني، ذلك الخزي والغضب فيما يتعلق بإيستر، والرغبة في ضرب السيدة رينلينغ على رأسها. مضيت على امتداد الشاطئ ثم بلغت منطقة الملاعب وبقيت بعيداً عن المدخل لأنني عرفت أن السيدة رينلينغ سوف تكون في انتظاري هناك لترد على وقاحتي. ثم مضيت إلى خلف المبنى، إلى ملعب الأطفال، فجلست على مقعد أرجوحة الحديقة الصلب.

جلست هناك، وبدأت أحلم بأن إيستر راجعت أفكارها وخرجت من غرفتها باحثة عني، فأننت مغالباً ذلك الغباء الذي استولى علي ثم غمرتني مشاعر مؤذية، أسوأ من أي

وقت مضى. لكني سمعت خطوات خفيفة تقترب مني... امرأة تخطو تحت الشجرة في الدرب الصغيرة المغبرة التي خطتها أقدام الأطفال عند الأرجوحة. كانت تلك ثيا، شقيقة إيستر، جاءت تحدثني... إنها التي حذرتني السيدة رينلينغ منها. كانت في فستانها الأبيض وحذائها الذي يترك على غبار تلك الدرب الصغيرة آثاراً تشبه آثار الطيور. كان كُمّا فستانها من الدانتيلا المخرمة، وكان انفراج أوراق الأشجار وانغلاقها يترك ظلالاً على رأسها. وقفت تنظر إلي.

«خاب أملك لأنني لست إيستر، أليس كذلك يا سيد مارتش؟ أظن أنك تمر بوقت عصيب. بدوتَ شاحباً تماماً في غرفة الطعام».

تساءلت في نفسي عما تعرفه وعما تسعى إليه فلم تقل شيئاً.

«هل شفيت قليلاً؟».

«شفيت من ماذا؟».

«من الإغماء. أعرف أنه كان كذلك، لكن إيستر ظنت أنها يمكن أن تكون نوبة صرع».

شعرت بثقل وجهامة وانسحاق: «لعلها كانت نوبة صرع حقاً».

«لا أظن هذا. أنت غاضب فقط؛ وأنت لا تريدني أن أزعجك».

لم يكن الأمر هكذا؛ على العكس... أردتها أن تبقى. قلت لها: «لا»... جلست على الأرجوحة إلى جانبي، ومسّني فخذها. تحركت قليلاً، لكنها مسّت كاحلي بأصابعها وقالت: «لا مشكلة! لست مضطراً إلى إزعاج نفسك بسببي. ماذا حدث؟»

«طلبت من أختك موعداً».

«وعندما رفضت أغمي عليك».

أحسست أن لديها بعض الدفء تجاهي، ليس الأمر فضولاً فحسب.

قالت: «إنني معك يا سيد مارتش. ولهذا سوف أقول لك ما تظنه إيستر. تظن أنك تقدم خدماتك للسيدة التي معك».

«ماذا؟» صحت وقفزت واقفاً فاصطدم رأسي بعارضة الأرجوحة.

«تظن أنك عشيقها، وأنك تضاجعها. لماذا لا تجلس؟ رأيت أن من واجبي توضيح هذا الأمر لك».

أحسست أنني كنت أحمل شيئاً بإخلاص خاص مقدّس، وأن ذلك الشيء انسكب عليَّ

فأحرقني... هكذا أحسست. وهنا رأيت أسوأ ما يمكن أن يخطر في أذهان الفتيات، حتى الوارثات منهن، لكني أحسست أنه يظل بريئاً وفق معايير صالة إينهورن للألعاب.

«أأنت من ظن هذا؟ أنت أم أختك؟»

«لا أريد أن ألقي باللوم كله على إيستر. أنا أيضاً ظننت أن الأمر يمكن أن يكون كذلك رغم أنها هي من طرح تلك الفكرة أولاً. عرفنا أنك لست من أقارب السيدة رينلينغ لأننا سمعناها مرة تقول للسيدة زيلاند إنك تحظى برعاية زوجها. أنت لم ترقص مع أحد غيرها أبداً؛ إضافة إلى أنكما تسيران يداً بيد، ثم إنها تبدو سيدة جذابة بالنسبة لسنها. عليك أن ترى كيف تبدوان معاً! ثم إنها أوروبية أيضاً. لا يرى الأوروبيون شيئاً مرعباً في أن يكون للمرأة عشيق يصغرها كثيراً. وأنا لا أرى في هذا شيئاً مرعباً أيضاً. لكن أختي الغبية تراه كذلك».

«لكني لست أوروبياً. أنا من شيكاغو. وأنا أعمل لدى زوجها في إيفانستون. إنني موظف في متجره؛ وهي المهنة الوحيدة التي لديّ الآن».

«لا تنزعج يا سيد مارتش. أرجوك، لا تنزعج! نحن نتجوّل كثيراً ونرى الكثير. لماذا تظن أنني أتيت هنا حتى أتحدث معك؟ لم آتِ لأزيد انزعاجك. إن كنت تفعل هذا فإنك تفعله؛ وإن لم يكن كذلك فهو ليس كذلك».

«أنت لا تدركين ما تقولين. سيئ جداً أن تكون لديكما هذه الفكرة عني وعن السيدة رينلينغ أيضاً... إنها في غاية اللطف معي». كنت غاضباً، وبدا الغضب واضحاً في صوتي، فاحتفظت بإجاباتها لنفسها. كانت، هي أيضاً متوترة تشعر بحرارة الإثارة. أحسست، ورأيت أيضاً، أن عينيها تدرسانني بعمق. ظلت الآن تبتسم بين لحظة وأخرى لكن وجهها ما عاد فيه أي قدر من السخرية التي كانت بادية عليه عندما رأيتها قادمة في ذلك الممر تحت أوراق الأشجار. بدأت أدرك أنني كنت مع شخص استثنائي لأن وجهها كان حارّاً مُلِحّاً مستطلعاً، متوسّلاً تقريباً. كان وجهاً رقيقاً لكنه موحٍ بالقوة رغم ذلك، قوة تجعلك تشعر نحوه باهتمام وإعجاب أيضاً لأنه وجه امرأة شابة... مثلما يحدث عندما ترى عصفورين يتقاتلان كأنهما سفّاحان صغيران متعطشان للدم... يمكن للواحد منهما أن يموت بكل سهولة نتيجة إصابة صغيرة لكنه لا يبدو مدركاً هذه الحقيقة. لعل هذه الفكرة واحدة من الأفكار الذكورية البريئة عن الإناث!

«أنت لا تظنين حقاً أنني عشيق السيدة رينلينغ!».

«لقد أخبرتك أنني لا أبالي إن كان الأمر كذلك».

«بالتأكيد، فما أثر ذلك عليك!».

«لا، أنت لا تفهم الأمر. أنت واقع في حب شقيقتي، وأنت تتبعها في كل مكان. وهذا ما جعلك لا تلاحظ أنني أفعل ما تفعله أنت بالضبط».

«أنت! ماذا تفعلين؟».

«إنني واقعة في حبك. أنا أحبك».

«كفي عن هذا! أنت لا تحبينني. هذه مجرد فكرة خطرت في بالك الآن. بل هي ليست حتى فكرة. ما الذي تحاولين قوله لي؟».

«لو كنت تعرف إيستر لما استطعت أن تحبها. أنت مثلي. وهذا ما جعلني أحبك. أما هي فغير قادرة على هذا يا أوجي. لماذا لا تحبني بدلاً منها؟».

أمسكت بيدي وجذبتها نحوها وهي تميل صوبي من وسطها. كان هذا رائعاً... آه... أنا الذي شعرت بالانتصار على السيدة رينلينغ لأن ظنونها كانت في غير محلها!

قالت: «لست أبالي بالسيدة رينلينغ. حتى لو كنت قد فعلت ذلك ذاتِ مرة».

«أبداً!».

«يمكن لمن يكون في مقتبل العمر أن يفعل أشياء كثيرة لأن لديه فائضاً لا يعرف أين يذهب به».

هل قلت لكم إن ألوان العالم لم تبدُ لي بهذا الجمال من قبل؟ أحسست أن هنالك شيئاً لم يُحسب حسابه، تفكيراً أعرج، تفكيراً مشلولاً، تفكيراً يبدو لك أنه يفقد الأرض التي يستند عليها عندما تصادف الجمال والزهور الرائعة لكنك سرعان ما تكتشف أنها سبقتك.

قلت لها محاولاً جعلها تظل جالسة بينما عدت واقفاً: «والآن يا آنسة فينكل، أنت جميلة، لكن ماذا تظنين أننا نفعل الآن؟ لا أستطيع إنكار الأمر... أنا أحب إيستر». ولما رفضت أن تظل جالسة كان عليَّ أن أهرب من الأرجوحة منطلقاً بين الأشجار.

نادتني: «يا سيد مارتش... يا أوجي». لكنني ما كنت قادراً على الحديث معها الآن. دخلت الفندق من مدخل الخدمة. وعندما كنت في غرفتي وكانت سماعة الهاتف مرفوعة حتى لا تستطيع السيدة رينلينغ الاتصال بي، رحت أشرح لنفسي وأنا أخلع ملابسي وألقي بها على الأرض أن هذا كان شيئاً بين أختين وأن وجودي فيه ليس إلا مصادفة... ليس وجوداً شخصياً في حقيقة الأمر. لكن فكرة أخرى قالت لي إنه (إن لم يكن الأمر كذلك) لا حظّ لي في هذه الأشياء... عجيب كيف يبدو كل شخص منساقاً في اتجاه خاطئ. ليس التقاء رغبتين متوافقتين إلا مصادفة غريبة نادرة. بل لعل الشعور بتلك الرغبات منصبةً

على شخص واحد يمكن أن يكون افتراضاً غير مقبول، افتراضاً أكثر نقاء مما يجب، أكثر خصوصية مما يجب، بل يمكم أن يكون سوء فهم لحقيقة الأشياء.

تركت الباب مفتوحاً عندما دخلتُ غرفة السيدة رينلينغ حتى أفطر معها.

قالت لي: «ماذا؟ هل ولدت في دلو للفحم؟ أغلق الباب! إنني مستلقية هنا في السرير». وعندما ذهبت لأغلق الباب، متردداً، لاحظت كم كان شكلي مهلهلاً. «انزل بعد الإفطار واجعلهم يكوون ثيابك. لا بد أنك نمت بالبنطلون. إنني أتسامح معك لأنك واقع في الحب. أتسامح حتى مع قلة تهذيبك معي الليلة الماضية. لكن هذا لا يعني أن يصبح شكلك كالمشرَّدين».

انطلقتْ إلى حمام المياه المعدنية بعد إفطارها؛ أما أنا فنزلت إلى ردهة الفندق. كانت أسرة فينكل قد غادرت. أعطاني موظف الاستقبال رسالة من ثيا... «لقد أخبرت إيستر عمّنا عنك. ونحن ذاهبون الآن إلى واكيشا بضعة أيام ثم نتوجه شرقاً. لقد كنت غبياً الليلة الماضية. فكر في الأمر. إنني أحبك حقاً. وسوف تراني من جديد».

مرّت عليَّ بعد ذلك بضعة أيام قاسية أمضيتها مستلقياً في كآبتي. كنت أسأل نفسي عما جعلني هكذا وعما جعلني أصادف هذا الجمال وهذه الفرحة كلها كما لو أنني أمير الشباب السعيد، كأنني مولود من أجل التألق والحب الحلو، كأن عظامي مصنوعة من السكر! كان يجب أن أتذكر أشياء حدثت معي مرات قليلة... أن أتذكر المكان الذي أتيت منه، وأبويَّ، وبقية تاريخي، وأشياء كثيرة لم أُطِل التفكير فيها باعتبارها عقبات في طريقي... فكرت في كوني ديمقراطياً بطبيعتي، متاحاً للجميع، في كوني شخصاً يتوقع أن يرى لدى الآخرين ما يراه في نفسه.

كان عليَّ في تلك الأثناء، وعلى نحو متزايد، أن أحمل ما كان يحملني حتى الآن. هذا المكان، على سبيل المثال، فندق ميريت اللطيف الذهبي... صار عبئاً على كاهلي... الخدمة، وموسيقى العشاء، والرقص، والأزهار الضخمة التي صارت فجأة كأنها قِطعٌ حديدية ملونة، صار المكان ثقلاً باهظاً مبهرجاً؛ وفوق هذا كله، كان لديّ عبء السيدة رينلينغ أيضاً. ما عدت قادراً على احتمالها الآن عندما تصبح صعبة المزاج. كان حظي سيئاً حتى مع الطقس لأنه صار ماطراً بارداً بعض الشيء عندما اقتربت إقامتنا من نهايتها. وبدلاً من بقائي حيث تستطيع أن تصلني يدها وأن تضطهدني، صرت أمضي الوقت في حديقة سيلفر بيتش حيث كانت مقاعد الألعاب مغطاة، مسودّة بعض الشيء. وهناك، كان المطر يتغلغل عبر معطفي (معطف من الأيام القديمة غير منسجم مع أناقتي في الآونة الأخيرة). كنت أجلس في المطاعم الصغيرة بين مشغّلي الألعاب والمتعهّدين الصغار، أجلس منتظراً انتهاء السيدة رينلينغ من حمّاماتها.

عندما اقتربت نهاية تلك العطلة، كتب سايمون لي قائلاً إنه آت إلى سانت جوي مع صديقة له. وقد كان حظّه طيباً لأن الطقس بدأ يتحسن عند ذلك. كنت واقفاً على المرسى عندما وصلت السفينة البيضاء وألقت مرساتها. كانت الزرقة والخضرة قد صارتا أكثر نضارة بعد المطر، وكان برد الأيام الرطبة قد ولّى. وأما مَنْ نزلوا من تلك السفينة فكان شقاء المدينة واضحاً عليهم. زال ذلك الشقاء عنهم قليلاً خلال رحلتهم المائية التي استمرت أربع ساعات. عائلات، ورجال منفردون، وفتيات عاملات أتين أزواجاً يحملون ما يلزمهم للصيف والشاطئ. كان بعض هؤلاء الناس سائراً بسهولة رغم ثقل أحمالهم، مثل غيرهم. كانت القوة ظاهرة على بعض هؤلاء الناس، وكان الألم ظاهراً على غيرهم، بحسب اختلاف حظوظهم أو طبائعهم. كانوا يغادرون السفينة متثاقلين هابطين إلى ضفاف متألقة مسالمة. وهنا أو هناك، كان المرء يلمح وجهاً مميزاً أو وجهاً تبدو عليه سعادة حذرة. كانت أثواب الحرير والشعر والحواجب وقبعات القش والصدور آتية كلها لتريح أعصابها وتسمح لنفسها بشيء من البساطة... كانت تحمل معها أشياء قديمة عمرها من عمر المدن العتيقة، أو أكبر. كانت الرغبات ومحاولات تجنّب الألم محمولة في البطون، على الأكتاف، على السيقان، كأنها موجودة هناك منذ أيام جنة عدن والسقوط منها.

وهناك كان أخي ذو المظهر الجرماني، أطول من معظم هؤلاء الناس، بين الأشقر والأسمر. كان متأنقاً مثل رياضيي يوم العيد، وكان فيه بعض الشبه بغجري لامع... كان مبتسماً، وكانت سنّه المكسورة ظاهرة وسترته ذات الصدر المزدوج مفتوحة على اتساعها. كانت أصابع يديه ممسكة بمقبضَيْ حقيبتين اثنتين. وأما حرارة زرقة عينيه فكانت تبرز شقرته إلى حد غريب. كانت تلك الحرارة على وجنتيه أيضاً، وعلى رقبته... حرارة غنية، حيوانية. سار بخطوات ثقيلة متوازنة في حذائه المدبَّب، سار على لوح المرقاة يشد ثقلُ حقيبتيه ذراعيه إلى الأسفل. وكانت عيناه تبحثان عني في ظلال المرسى. لم أره في حال أحسن من هذه قبل الآن، في الشمس، سائراً بين الجموع في ثيابه المتألقة. وعندما لفّني بذراعه سررت بأن أحسّ به وأشمّ رائحته. ابتسمنا وكشّرنا وتحسست أصابع كل منا وجه الآخر ثم تعانقنا.

«أيها الأحمق!».

«وأنت أيضاً، يا صاحب المال!».

ما كانت في هاتين العبارتين أي لذعة رغم أن سايمون صار أكثر هدوءاً معي لأنني أكسب أكثر مما يكسبه ولأنني صرت أعيش عيشة مترفة.

«كيف الجميع... كيف ماما؟».

«أنت تعرف... عيناها... لكنها بخير».

ثم أحضر فتاته ـ فتاة طويلة سمراء اسمها سيسي فليكسنر. أعرفها منذ أيام المدرسة؛ كانت من حيّنا. وكان والدها، قبل إفلاسه، يملك متجراً لبعض أنواع الملابس الجاهزة: أوفرولات العمال، والقفازات القماشية، والبنطلونات، وأحذية العمل، وأشياء من هذا القبيل. أما هي فكانت في ذلك الوقت ممتلئة خجولاً شاحبة... كانت شخصاً منطوياً على نفسه. لكنها صارت الآن شيئاً جميلاً، رغم أن ذلك كان بطريقة توحي بشيء من القلق في داخلها. كانت تسير على ساقين طويلتين متأنيتين فوقهما حوض مندفع إلى الأمام قليلاً. كان فمها كبيراً يمكن أن يبدو بالغ الجمال لولا شيء فيه يوحي بتكشيرة خفيفة. كانت أجفان عينيها ثقيلة، لكنها رائعة في ثقلها البطيء المثير؛ وهذا ما كان يجعلها مضطرة إلى إسدال عينيها بعض الشيء حتى تبدو نظرتها طبيعية. كان ارتفاع ثدييها وشكل ردفيها، وبقية ثرواتها الأصيلة... أوه، نعومتها وطراوتها المفاجئتان إذا ما تذكر المرء كيف كانت في صغرها. اتهمتني بأنني كنت أنظر إليها نظرات فاحصة أكثر مما ينبغي؛ إنما، أيمكن للمرء أن يمنع نفسه عن هذا؟ لكن نظراتي المتفحصة كان لها عذر باعتبار أن الفتاة يمكن أن تصبح زوجة أخي... كان سايمون واقعاً في حبها حقاً. وكان يتصرف تجاهها تصرف الزوج منذ الآن... يتعلق كل منهما بالآخر، ويتبادلان المداعبات والقبل الحميمة، يسيران عند منحدرات ألوان الماء والهواء ويسبحان بينما أسبح وحدي في تلك البحيرة بعيداً عنهما بعض الشيء. ثم على الرمل، بعدما مسح سايمون صدره المشعر بالمنشفة وراح يجفف ظهرها، ثم قبل ذلك الظهر... مرت بي لحظة ألم في سقف حلقي كأنني تنشّقت تلك الرائحة الدافئة ولمست جلدها بنفسي. كان لديها الكثير، وكانت تمنح من هذه الروعة الكثير.

لكن اهتمامي الشخصي بها ما كان شديداً. ربما كان جزء من ذلك عائداً إلى انشغال عواطفي بإيستر؛ لكن أيضاً لأن كل ما كان يصدر عنها كان بطيئاً رغم تألقها الأنثوي كله. لعلها كانت مذهولة، هي نفسها، بما لديها، وبسطوة جمالها القاتم. لا بد أن تكون هذه السطوة مؤثرة على تفكيرها مثل أي حالة نمو مفرط في الطبيعة. يشبه هذا ما يعيش في دم نمر أو دب فيمارس تأثيره على أذهان هذه الوحوش ويجعلها مدركة قوتها ووزنها... شعور يظهر في كل ما تقوم به وصولاً إلى جلدها ومخالبها. لكن أي مزية تكون لدى من حابته الطبيعة، أي تفوّق يكون له على بني جنسه؟ كان عنصر التفكير عند سيسي أضعف من بقية العناصر؛ لكنها كانت فتاة ماكرة رغم ذلك... رغم النعومة البادية عليها.

كانت تتمدد على الرمل وتأكل الفوشار أو شطائر غنية بالمستردة من أكشاك سيلفر بيتش، وكانت تجيب سايمون، الذي لم أستطع سماع صوته (كان متكئاً إلى جانبها في ثوب السباحة الأحمر... «أوه، لا. لماذا! أحبك!» لكنها كانت في غاية السرور... «إنني سعيدة لأنك أتيت بي إلى هذا المكان يا عزيزي. مكان نظيف، إنها الجنة هنا»).

ما كنت أحب صراع سايمون معها (هكذا كان الأمر!) حتى يقنعها، حتى يجعلها تفعل أي شيء. كانت ترفض كل ما يقترحه تقريباً... «دعنا لا نفعل هذا، ونقول إننا فعلناه!»... وأشياء من هذا القبيل. كان هذا يجعله فظاً إلى درجة لم أره عليها من قبل... كان ينحني أمامها، يحفر الأرض، يحاول جاهداً، يمتدحها... كان هذا كثيراً!. كان لسانه متدلياً لفرط الحرارة والوله... وكانت هنالك علامات على غضب يتراكم، على غضب يزداد حتى يظهر على وجهه في نقطتين ملتهبتين اثنتين، تحت عينيه، وعلى جانبَيْ أنفه. فهمت هذا لأننا كنا نعاني الصعوبة نفسها ونخوض الصراع نفسه... أمام طروادة نفسها. من شأن ما يصيبنا الآن أن يمنح جدتنا لوش رضا العرّاف الذي تنبأ فأصاب... هكذا هي روحها على أية حال؛ أما جدتنا الحقيقية فكانت قابعة الآن تحت غبار ذلك المأوى وسط أشخاص اقتربت نهايات أعمارهم وما عادت لعبة التكهّن بمستقبلهم ممتعة لها. هكذا، نعم... لقد سجلتُ لها هذا النجاح في توقعاتها. أما سايمون، فبيني وبينه تلك الأماكن التي جمعتنا معاً عندما كنا أخوَيْن في مقتبل العمر، قبل أن تصير بيننا فوارق ومسافات... بدأت تلك الأماكن القديمة تفعل فعلها وتجعلنا نحس قرب الرابط بيننا من جديد. لم يعد اتصالنا مثلما كان أبداً، لكنني كنت أحبه مع ذلك. عندما كان واقفاً على قدميه حاملاً على كتفه أزهار ثوب الشاطئ الذي كانت ترتديه، رأيت في ذلك شيئاً غبياً، شيئاً سخيفاً، لكنه شجاع... وقفته الواضحة التي لوّحتها الشمس... عند حافة الماء النقية... كأنه يعبث ويحاول ارتداء الثوب المفضل لدى فتاته.

أخذتهما إلى سفينة المساء لأن الفتاة رفضت أن تمضي الليل هنا. ووقفت على سطح السفينة معهما أثناء ذلك المغيب الطويل حتى اختفت آخر زرقته متراجعة أمام الأضواء الأخرى بينما ازداد ثقل غضون الغيوم المتجمعة فوق المدينة، غيوم أفلتت من سلطة الشمس فغاصت صوب تموّجات الماء، رمادية، جبّارة.

قال لي: «طيب، أيها الشاب، ربما نتزوج بعد أشهر قليلة. ألا تحسدني؟ أنا متأكد من أنك تحسدني».

ثم غطّاها بكفَّيْه وذراعَيْه... ذقنه على كتفها... وقبّلها في رقبتها. كانت طريقته الصارخة في إظهار حبه لها غريبة في نظري... اندفعت ساقه بين ساقيها وانفتحت أصابعه على وجهها. ما كانت ترفض أي شيء يفعله، رغم أنهما لم يتفقا في الكلام أبداً. ما كان لديها لطف في كلامها! تغلغلت كفّاه في كمَّيْ معطفها الأبيض فارتجفت برداً واستندت إلى العمود الحديدي خلفها. كان لا يزال في قميصه لأن الشمس أحرقت كتفيه، لكنه وضع قبعته العريضة التي صار النسيم يلعب عند حوافّها.

الفصل التاسع

ما إن اكتمل البناء الذي كانت السيدة رينلينغ تقيمه من حولي حتى هرِبت. كان السبب الأول، السبب المُلِحّ، هو اقتراحها بأن تتبناني. كانت تريد أن أصبح أوجي رينلينغ، وأن أعيش معهما، وأن أرث مالهما كله. لعل رؤية ما كان كامناً خلف هذا تظل في حاجة إلى ضوء أكثر مما أستطيع إلقاءه. لكن، كان هنالك شيء عندي يوحي بفكرة التبنّي. ولا ريب في أن هذا الشيء على صلة بحقيقة أن الجدة لوش تبنّتنا، إلى حد ما، في أيامنا الأولى. وهذا ما خلق عندي دافعاً إلى إشاعة السرور في نفس من يفترض أن أكون شاكراً له... الشخص الذي تبنّاني. أما إذا كنت، في الحقيقة، أقل من ذلك شكراً واعترافاً بالفضل، فتلك هي الحقيقة المخفية عندي... التي تفاجئ الناس. لماذا كان على آل إينهورن، الذين يحمون ابنهم آرثر، أن يؤكدوا على أنهم ما كانوا يعتزمون ضمّي إلى أسرتهم؟ هذا لأن هنالك شيئاً فيَّ يوحي بالتبني؟ ثم إن هنالك أناساً تميل عقولهم إلى فكرة التبني أيضاً. يأمل بعضهم في إنجاز مهماته على هذه الأرض. هكذا كانت السيدة رينلينغ، بطريقتها المتصلبة الممزقة، والبياض الذي يشعّ من إصرارها على غايتها. هي أيضاً كانت لديها مهمة تنجزها على هذه الأرض.

هنالك شيء واحد لم تكن معرفته من السيدة رينلينغ سهلة... لم أعرف أبداً طبيعة رغبتها العميقة نتيجة طريقتها الغريبة السريعة في الكلام. كانت تريد محاولة أن تكون أمّاً. لكني كنت في حالة بعيدة كل البعد عن تحقيق مراميها. لماذا أصبحُ واحداً من هؤلاء الناس الذين لا يعرفون من هم أصلاً؟ الحقيقة الواضحة الجلية هي أن هذا القَدَر لم يكن جيداً بما يكفي بالنسبة لي... لأن هذا ما صار واضحاً عندما طُرحت مسألة انضمامي إليهم... كابن لهم. أما غير ذلك، فما كان لدي شيء ضدهم أبداً، على العكس تماماً؛ هنالك الكثير مما

أشكرهم عليه. لكنني لم أكن لأصبح جزءاً من عالم السيدة رينلينغ، لم أكن لأندمج مع ما تؤكد أنه طبيعتها الحقيقية. لا أقصدها هي وحدها، بل طبقة كاملة من الناس الذين يؤمنون بأنهم على حق وبأن ذلك سيتضح في نهاية المطاف... بأن أفكارهم ستكون ملموسة قوية واقفة على أرض صلبة، وأنهم سيقيمون بقوتهم مدينة أبدية تثبت ذاتها يوم يفشل المؤسسون الآخرون وتتهاوى مدنهم لأن أفكارهم ما كانت حقيقية ولأنهم بنوا على أرض رخوة. ليس المقصود بهذا برج بابل مأخوذاً بمجموعه، بل مئات الآلاف من البدايات المستقلة المنفصلة في طول أميركا وعرضها. أشخاص مشبَعون طاقة ماضون في البناء رغماً عن المشقات وعن الشكوك بينما يرجو أشخاصٌ أضعف منهم أن يفشلوا. وحتى بالمعنى الحرفي تماماً، فقد كانت السيدة رينلينغ قوية جداً. وبما أنها لم تكن تقوم بأي عمل مرئي فلا بد أن جسدها انهار أمام مشقة أعمالها الخفية.

كان السيد رينلينغ راغباً في أن يتبنّاني أيضاً، وقال إنه سيكون سعيداً إن صار أباً لي. كنت أعرف أن هذا يفوق ما يمكن أن يقوله لأي شخص آخر. فقد كنت بالنسبة إليه، أنا الذي نشأت على أيدي نساء فقيرات، كنت... سوف يكون عملاً عظيماً أن ينقذني من سباق الفئران ويحميني بعاطفته. قد يحمي الله الجميع، وأما الحماية البشرية فهي لقلة من الناس فقط.

عندما أخبرت السيدة رينلينغ أن أخي سوف يتزوج وأن سيسي ابنة بائع ملابس مفلس بدأت تفكر في ذلك وتشرح لي خفاياه الاجتماعية. جعلتني أرى شقة صغيرة وأرى حفاضات الأطفال معلقة في المطبخ، وجعلتني أرى مشكلات الأثاث والملابس، وأرى أخي رجلاً في الثلاثين قلقاً خائر العزم حبيس امرأة وأطفال. «سوف تبدأ التفكير في الزواج عندما تكون في الثلاثين يا أوجي. سوف يكون لديك مال وثقافة وسوف تختار من تعجبك من النساء، حتى لو كانت ثيا فينكل. الرجل المتعلم الذي لديه مال وعمل يكون لورداً. زوجي شديد الذكاء، وقد حقق الكثير؛ أما لو كان لديه علم وأدب وتاريخ لصار أميراً حقيقياً وليس مجرد شخص ميسور الحال...».

وضعت إصبعها على المكان الصحيح عندما ذكرت آل فينكل ففتحت أمامي باب إغراء وأمل. لكنه كان إغراءً واحداً فقط، وهذا ليس كافياً. لم أكن أصدق أن إيستر فينكل يمكن أن تهتم بي أبداً. وفوق هذا، رغم استمرار حبي لها، فقد تغير موقفي منها عما كان عليه من قبل. صرت مقتنعاً أكثر فأكثر بما قالته أختها عنها. كما أنني أجد نفسي، عندما أصارح نفسي بالحقيقة كلها، معترفاً بأنني لم أكن أملك فرصة معها.

كانت السيدة رينلينغ تمارس عليَّ ضغوطاً لطيفة. كانت تدعوني بكلمة «ابني»، وكانت تقدمني للناس بعبارة «ولدنا الشاب»، وكانت تربت على رأسي أيضاً، وأشياء من هذا

القبيل. أما أنا فكنت قوياً مسيطراً على البعد الجنسي لهذه الحركات: أقصد بذلك أن الأمر لم يكن تربيتاً على شعر صبي في الثامنة، ومن الممكن افتراض أشياء أبعد من أنني مجرد طفل.

لم يخطر في بالها أبداً أنني لا أريد هذا التبنّي. وقد افترضتْ، كما لو أن الأمر طبيعي لكنه ليس مما يُستحسن الحديث عنه... افترضتْ أنني أبحث عن نفسي، مثل أي شخص آخر. وكان هذا يعني أن الاعتراضات التي يمكن أن أبديها ليست إلا اعتراضات صغيرة قليلة الشأن، وافترضت أيضاً أنني سوف أبقيها خفية. وحتى إذا كانت لدي أفكار متعلقة بمساعدة إخوتي وأمي، فسوف تظل هذه الأفكار حبيسة في أعماق ذهني. لم ترَ أمي أبداً، ولم تكن تعتزم رؤيتها، ولم تطلب مني مقابلة سايمون عندما أخبرتها في سانت جوي أنه قادم في زيارة. كان في هذا شيء يشبه قصة موسى وابنة فرعون... لكنني لم أكن أبداً رضيعاً مخبأً بين قصب البردي. إن لديّ أسرة كافية لما يناسبني، ولدي تاريخ لا بد من الوفاء له؛ لست شخصاً مأخوذاً من كومة على قارعة الطريق.

وهكذا تراجعت؛ ورفضت التلميحات كلها. وعندما صارت التلميحات عروضاً صريحة رفضتها أيضاً. قلت للسيدة رينلينغ: «أقدر لطفك كل تقدير، أنتما شخصان رائعان. وسوف أكون معترفاً بفضلكما طيلة حياتي. لكن لديَّ أسرة، ولديَّ مشاعر أيضاً...».

قالت السيدة رينلينغ: «أيها الأحمق! أي أسرة؟ أي أسرة؟».

«ماذا؟ وأخوتي».

«وما علاقتهم بالأمر؟ كلام فارغ! أين والدك؟... قل لي!».

لم أستطِع الإجابة.

«أنت لا تعرف حتى اسمه. اسمع الآن يا أوجي... لا تكن غبياً! الأسرة الحقيقية شيء محدَّد، وهي تقدم لك شيئاً. سوف نكون أباً وأماً لك لأننا سوف نعطيك؛ وكل ما عدا هذا لا معنى له».

قال رينلينغ: «لا بأس، دعيه يفكر في الأمر».

أظن أن رينلينغ كان على غير ما يرام ذلك اليوم. كانت لديه خصلة شعر منتصبة في مؤخرة رأسه، وكانت حمّالات بنطلونه خارجة من صداره. يشير هذا أنه كان يعاني شيئاً ما، كان لديه يأس ما، شيء لا علاقة له بي... أقول هذا لأنه كان يبدو على أحسن صورة في الأحوال العادية.

صاحت السيدة رينلينغ: «أوه! فيمَ يفكر؟ أنت ترى كيف يفكر؟ عليه أن يتعلم كيف

يفكر أولاً. فليفكر إذا كان يريد أن البقاء شخصاً أحمق يعمل لدى الآخرين طيلة حياته. لو سمحت له، لتزوج من تلك النادلة، تلك الهندية ذات الأنف المسطح، ولكان الآن ينتظر منها طفلاً حتى يصير جاهزاً للموت بعد سنتين. تقدم له الذهب فيقول لك إنه يفضل الخراء».

واصلت هذا الكلام وأخافتني بأشياء كثيرة. كان رينلينغ منزعجاً، ليس منزعجاً كثيراً، لكنه كان مثل طائر ليلي يعرف ضوء النهار ويستطيع أن يرفرف بجناحيه فيه إن اضطر إلى ذلك، يستطيع أن يطير طيراناً أخرق... إذا اضطر إلى ذلك فقط... ثم يندفع متجهاً إلى أعماق الغابة حيث يعود إلى الظلمة من جديد.

وأنا... أنا الذي أسمع من النساء دائماً أنني لا أملك معرفة عميقة بالحياة وأنني لا أعرف أذاها ومشقتها ولا مآسيها وأمجادها المذهلة. ما كنت شخصاً ضعيفاً، وما كان لدي ثديان يمكن أن يجلبا لي المصائب. لكنني لم أكن على درجة من القوة تجعلني قادراً على خوض معركة كبيرة مع الحياة. كان الأشخاص الآخرون يجعلونني أرى إنجازاتهم، مزاعمهم واختراعاتهم وجناتهم ومعرفتهم التي لا تخيب وعينات مما نقبوا عنه فوجدوه (أرى هذا غالباً في وجوههم، وفي انتفاخاتهم)... والنساء خاصة، كن يخبرنني عن جهلي. وهنا كانت السيدة رينلينغ تهددني وتصيح قائلة إنني غبي ابن ناس أغبياء وإنها متأكدة من أنني سوف أسقط وأنسحق وأداس في معركة الحياة. هذا لأنني... اصغوا إليها... لأنني مصنوع لرغد العيش، مصنوع لأن أستيقظ في سرير جيد فأرى أمامي فطوراً وافراً. مصنوع لأن آكل الحلوى والعسل وأدخن السيجار مع القهوة مرتاحاً في ضياء الشمس من غير كآبة أو ألم. هذا ما كانت تريده لي الطائفة الصالحة في هذا العالم، أما إذا رفضت حظي هذا فهنالك نسيان ينتظر أن يلفني... وسوف ينقضّ عليَّ الأشرار. حاولت ألا أنكر الحقيقة في ما قيل لي... كان عندي احترام كبير لقوة المرأة يجعلني أعرف كيف أمتنع عن الإنكار.

لكنني طلبت مهلة حتى أفكر في الأمر. وكنت قادراً على التفكير جيداً في ذلك الوقت لأن الطقس كان مواتياً: كان أول الخريف، أحسن أيامه... كان طقساً صالحاً لكرة القدم، فيه أزهار صفراء باردة في الهواء اللطيف، وأصوات تجذيف، وخيل تعدو في الدروب.

طلبت إذناً بالتغيب بعد ظهر ذات يوم حتى أستشير إينهورن.

كان حظ إينهورن قد بدأ يعود من جديد. وقد فتح مكتباً جديداً وانتقل من صالة الألعاب إلى شقة قبالتها في الشارع نفسه حتى يستطيع مواصلة مراقبة سير العمل فيها. جعله هذا التغيير أنانياً بعض الشيء، إضافة إلى حقيقة أنه صارت لديه امرأة واقعة في حبه. كان هذا مبعث فخر كبير لديه. كان قد عاد إلى رسائله من جديد... يطبعها على الآلة الناسخة... وقد وقعت في حبه واحدة من قراء تلك الرسائل، فتاة مقعدة اسمها ميلدريد سبارك. لم

تكن في زهوة شبابها؛ كانت في الثلاثين تقريباً، وكانت ثقيلة الوزن، ولها عقل نشط وإن يكن ضعيفاً بفعل المعاناة. أما شعر رأسها وحاجبيها فكان قوياً أسود. كتبت إليه شعراً رداً على قصائده الملهمة. وفي آخر الأمر جعلت أختها تأخذها إلى مكتبه حيث أصرت إصراراً شديداً على أنها لن تذهب قبل أن يعدها إينهورن بأن يسمح لها بالعمل لديه. لم تطلب أجراً، ولم ترد منه غير إنقاذها من ضجر البيت. كانت مشكلة ميلدريد في قدميها، وكانت تستخدم حذاء طبياً. تطور الأمر بينهما بطيئاً. وكانت ميلدريد (هذا ما تسنت لي معرفته لاحقاً) امرأة تأتيها اندفاعات قوية سريعة لا يوقفها شيء، لكنها كانت ترتد خائبة وتظل حبيسة رأسها حتى تظهر المعاناة على وجهها. قلت إنها كانت ثقيلة الوزن، وكانت عيناها سوداوان، وجلدها غير مضاء جيداً. انتقلت من حالة فتاة مقعدة إلى حالة امرأة مقعدة في أسرتها، في بيتها، في ذلك الركود، في ذلك الألم... لا ينتج عن هذا إلا ظلام وجنون ومعاناة تتجاوز حد الإشباع. كانت تعيش من غير ما هو ضروري لها حتى تستطيع أن تطل من النافذة بوجه راضٍ.

لكن ميلدريد ما كانت لتقبل أن تستلقي وتنتظر الموت، رغم أنها لم تشفَ من مشكلة ظهورها بمظهر امرأة في منتصف العمر، امرأة قاتمة غاضبة... كأي امرأة مجبرة على الجلوس، أو كأي امرأة تأخر الزمن بها فما عادت قادرة على الإنجاب، أو امرأة خدعها الرجال كثيراً. ما كان هذا شيئاً يمكن إزالته أو التخلص منه رغم أنه خفَّ كثيراً بفعل حب إينهورن الذي سمح لها بأن تحبه. كانت في البداية تأتي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع لتطبع بعض الرسائل من أجله، ثم انتهى الأمر بأن صارت سكرتيرة لديه طيلة الوقت، إضافة إلى الأشياء الأخرى... خادمة وصديقة حميمة. كانت تدفع كرسيّه المتحرك. وكانت هي بحاجة إلى الاستناد إلى ذلك الكرسي وهي تعرج وتجر قدميها. أما هو فيجلس راضياً تماماً، مخدوماً جيداً. كان يبدو حاداً صارماً، بل نافد الصبر أيضاً، لكن الحقيقة كانت غير ذلك. كانت الروح التي وجدتها عنده في هذا الوقت ثاقبة حادة متوثبة متماوجة مندفعة متألقة كأنه يتقلب منزلقاً على فراش وثير من الريش.

لكن هنالك حقائق أخرى لا بد أيضاً من النظر إليها بعد هذا الوصف. الأمر سيئ كثيراً، لكنه هكذا! ليس لدى البشر ذلك النوع من البساطة... ليس لديهم خط وحيد كالذي ترسمه عصا على الأرض، بل هي أثلام مثل أثلام حراثة خلفتها محاريث كثيرة. صحيح أن روح إينهورن كانت متوثبة، لكن لا بد أيضاً من ذكر شحوب لونه الذي أفقره العمر وأعطاه مسحة رمادية، ولا بد من ذكر كآبته وتهلهله. لا بد أيضاً من قول إن الشارع كان عارياً كالحاً قليل الحركة... سيئاً. وكان هنالك أفكار عن الأعمار وأشكال نمو مشوَّهة الغايات، مخيفة، خطرة، مختلطة بأصوات وأخبار، مشبعة بالأكاذيب، لسبب ولغير سبب.

أما بالمقارنة مع تيلي إينهورن، وبقدر ما يستطيع أي أحد أن يتحدث عن هذا، فقد كانت ميلدريد أمراً مقبولاً. كانت قوة إحساس إينهورن تجاه تيلي كبيرة إلى درجة تجعل أي تخطئةٍ له أمراً شديد الصعوبة فيما يتعلق بها. ثم علينا أن نفكر أيضاً بالشرط البشري الذي يدخل في الناس مثلما يدخل قالب التوسعة في الحذاء؛ كان عجز إينهورن واحتياجاته الخاصة قالب التوسعة بالنسبة لتيلي. وقد كانت معتادة على تقديم التنازلات.

إذن هكذا كان إينهورن عندما جئت أسأله النصيحة. وجدته شديد الانشغال إلى درجة لا تسمح له بالانتباه إلى ما أقول. ظل ينظر إلى الشارع خلال حديثي، ثم طلب مني أن أدفع كرسيه إلى المرحاض وهذا ما فعلته، دفعت الكرسي على عجلاته المزقزقة كشأنها دائماً، عجلاته التي يلزمها تزييت. اقتصرت إجابته على ما يلي: «لا بأس، هذا أمر غير مألوف. إنه عرض مهم. لقد ولدت محظوظاً». لم يعِرْ الأمر أكثر من نصف اهتمامه ظاناً أنني جئت أبلغه بأن آل رينلينغ يريدون أن يتبنوني وليس أنني أفكر في رفض هذا التبني. طبيعي أنه كان شديد الانشغال بشؤونه الخاصة. لا بأس... يمكنني أن أنظر إلى ميلدريد إذا أردت مثالاً على حالة الإنسان الذي يصبح مرتبطاً بأسرة، ثم تمتصه تلك الأسرة.

أنهيت بعد ظهر ذلك اليوم في وسط المدينة. وعندما كنت أتناول لحم الكبد في مطعم إلفمان وأنظر إلى الموسيقيين العاطلين عن العمل جالسين في زاوية مقهى ديربورن، رأيت شخصاً اسمه كلارينس روبر يمر أمام واجهة المطعم فطرقت بخاتمي على الزجاج إلى أن انتبه لي ودخل لنتحدث. كنت أعرف روبر من كلية كرين حيث كان يدير فريقاً للبيسبول انطلاقاً من مقهى لينارك. شخصاً هادئاً قذر الكلام ناعم الوجه سمين المؤخرة له شعر آشوري لامع على رأسه وملابس ناعمة متهدلة، قميص حريري، وربطة عنق حريرية صفراء، وبدلة رمادية طرية القماش. نظر إليّ متفحصاً فرأى أنني في حالة جيدة بالمقارنة مع الموسيقيين الذين ضربتهم حالة الكساد وبالمقارنة مع بقية الآكلين في المطعم. تبادلنا الأخبار. لقد افتتح متجراً صغيراً في حي يدعى «الشاطئ الجنوبي»، وذلك بالشراكة مع ابنة عمه الأرملة التي تملك بعض المال. كانوا يبيعون المصابيح واللوحات والمزهريات وقطع القماش المزخرفة التي توضع فوق البيانو، وكذلك صحون السجائر وأشياء من هذا القبيل. وبما أن زوجته وابنة عمه كانتا تعملان في مجال التصميم الداخلي في بعض الفنادق الكبيرة، قبل الكساد، فقد كانت تجارتهم مزدهرة. «ثمة مال في هذا العمل. إنها مهنة من تلك المهن التي يدفع فيها الناس النقود لأنك تعاملهم بطريقة معينة. عمل رائع. لو أدركوا الأمر لعرفوا أنهم يستطيعون شراء نسبة كبيرة من هذه السلع من أي متجر رخيص، لكنهم لا يستطيعون الثقة بأحكامهم الخاصة. هذا نشاط يستقطب النساء. وعليك أن تعرف كيف تدغدغهن جيداً». سألته عما يفعله هنا بين الموسيقيين. فقال: «موسيقيون! مثل مؤخرتي!» كان قد أتى ليقابل في مبنى بورنهام شخصاً اخترع طلاء مطاطياً من أجل الحمامات، منتجاً

مقاوماً لنشّ الماء يمكن أن يحقق له ثروة بالاستفادة من علاقات ابنة عمه الأرملة مع إدارات الفنادق. يمنع هذا الطلاء تعفّن الجدران؛ ولا يسمح للماء بالوصول إلى الجص. كان المخترع على وشك الانتقال إلى مرحلة الإنتاج، وسوف يتولى روبر بنفسه الترويج والبيع لأن هذا يمكن أن يدر مالاً كثيراً. قال إن هذا يعني أنهم في حاجة إلى رجل يحل محله في المتجر. وبما أنني صاحب تجربة في التعامل مع الزبائن الأثرياء، والعملاء الموسرين، فإنني شخص مناسب لكي أحل محله. «لا أريد أن يعمل أحد من أقاربي معي. إنهم يعلقون بك ولا يتركونك. إذا كنت مهتماً بالأمر فتعال لتلقي نظرة على المكان. وإذا أعجبك فسوف نتحدث عن الشروط».

كنت أدرك أنني لا أستطيع البقاء مع آل رينلينغ إلا إذا قبلت أن يتبنوني. وهو الأمر الذي صرت أدرك الآن أنه سيخنقني لأن ما من مجال لترتيبات ممكنة أخرى بعد أن رفضت العرض. وهذا ما جعلني أتفق مع روبر. اخترعت من أجل رينلينغ قصة عن فرصة رائعة لعمل يستمر مدى الحياة بالتعاون مع صديق حميم من أيام المدرسة. ثم غادرت إيفانستون سريعاً. غضبت السيدة رينلينغ كثيراً؛ وكان رينلينغ نفسه بارداً عندما تمنى لي حظاً طيباً، لكنه قال إنني أستطيع أن أقصده إذا احتجت مساعدة في يوم من الأيام.

استأجرت غرفة في الحي الجنوبي، في بيت على جادة بلاكستون. كان البيت مؤلفاً من أربعة طوابق ثلاثة منها مفروشة بسجاد أحمر جميل، لكن الرابع كان خشبياً مهلهلاً يجلله الغبار. وكانت غرفتي مجاورة للمرحاض. المكان ليس بعيداً عن مأوى نيلسون. وبما أنني سكنت هنا صباح الأحد، بما يعني أنني أملك وقتاً، فقد مضيت لزيارة الجدة لوش. صارت جدتي الآن شبيهة تقريباً بكل من يقيمون في ذلك المكان. هكذا بدت في نظري بعد أن فقدت استقلاليتها المميزة وضعفت وصارت تنظر من حولها باحثة عن شخصيتها القديمة عندما استقبلتني، كما لو أنها وضعتها جانباً ثم نسيت أين وضعتها. بدت أنها نسيت أيضاً كل ملاحظاتها تجاهي؛ وعندما جلسنا معاً على مقعد في الردهة بين بعض العجائز الصامتين سألتني: «وكيف حال... جينر، ذلك المعتوه؟» لقد نسيت اسم جورجي؛ أرعبني هذا... نعم أرعبني إلى أن تذكرت كم هو صغير ذلك الزمن الذي أمضته معنا بالمقارنة مع حياتها كلها. مثلما تكون هنالك قوة أو عناد فيما يتعلق بالأشخاص الذين لا يريدون أن يذكر أحد حقيقة وضعهم، فإن هنالك أيضاً وقتاً تكفّ عنده تلك الحقيقة عن أن تكون ذات فائدة... ما نفع هذه الحقيقة لامرأة عجوز متهدّمة؟ أي نفع يمكن أن يكون لهذه الحقيقة عندما يكون الموت قريباً إلى هذا الحد؟ لا فائدة منها غير أنها يمكن أن تفيد من يشهد عليها لأن لدينا، نحن البشر، أسباب كثيرة تحملنا على الإيمان بأن هنالك فائدة ومكسباً لشخص ما في أي شيء، حتى عندما يتعلق الأمر بالوحل والفضلات والمنتجات المسمومة وسحر العقاقير الكيميائية أو منتجات الصناعة... في الاستخدامات التي لا نهاية لها للرماد وصدأ

الحديد والعظام والروث. أما في حقيقة الأمر فإننا بعيدون كثيراً عن أن نستطيع الاستفادة من كل شيء. كما أن الحقيقة يمكن أن تبرد نتيجة العزلة والحبس الانفرادي، لكنها لا تستطيع العيش طويلاً خارج سجنها. وأما إذا كان الآتون لإنقاذها مستعدين لقتلها فهي لا تعيش أبداً. هكذا كان الأمر بالنسبة للجدة لوش التي ما عاد أمامها إلا شهور قليلة من الحياة. كان فستانها الأسود، فستان أوديسا، وسخاً كالح اللون. جعلني هذا حزيناً، ولعل ذلك الحزن ما كان مناسباً تماماً. جدتي التي كانت لديها تلك القطرة من الحقيقة الأصلية، مما تعتبره شيئاً مهماً مهما اعتبره الآخرون ضعيفاً أو طفولياً أو مجنوناً. كنا نراها دائماً بالغة القوة صامدة أمام الصدمات. أحزنني هذا حقاً. لكني فكرت أيضاً في أنها تذكرني، وفي أن ذلك الإدراك القديم ليس مفقوداً كله بعد لكنه يشبه شيئاً موزَّعاً على طاولة دوّارة تكمن مشكلتها كلها في بطء دورانها. فكرت أيضاً في أنها سُرّت بزيارتي فقلت لها إنني صرت جارها الآن وإنني سوف أزورها من جديد. لكني لم أستطع زيارتها. وفي الشتاء نفسه ماتت بعد إصابتها بالتهاب الرئة.

بدأ عملي الجديد بداية سيئة. كانت الأرملة ابنة عم روبر امرأة لا تعرف الرضا؛ ولم تثق بي كثيراً. كانت هذه السيدة (إنها تضع معطفها الفرائي على كتفيها في المحل بطريقة من يضع عباءة، وفوقه قبعة من الفرو نفسه تشبه تاجاً من الشوك. وكانت ظاهرة على وجهها دائماً آثار معاناة ذلك الوجه من عيوبه... جلد مغضَّن وشفتان رقيقتان). كانت امرأة مصابة بمشكلات في المعدة تجعلها شديدة التمسك بمزاجها السيء. لم يعجبها أسلوبي الذي تعلمته خلال عملي مع الطبقة العليا من الزبائن، مثلما كنت أظن. ولم تكن تسمح لي بالاقتراب من أي زبونة مهمة أو زبون مهم. كانت تقفل الأدراج بالمفاتيح في غرفة المكتب ولا تريد أن تسمح لي بمعرفة شيء عن التكاليف. أرادت أن يقتصر عملي على الجزء الخلفي من المحل حيث أقوم بالتغليف والترتيب ووضع الإطارات ولفّ المصابيح برقاقات من السيلوفان. وهكذا صرت محصوراً في ذلك الجزء من المحل أو خارجه عندما يجعلونني أذهب إلى واحد من تلك المصانع وورش الفخار الصغيرة المقامة في الطوابق العليا من البيوت في جادة واباش. سرعان ما أدركت أنها تدفعني نحو باب الخروج. وبمجرد دخول الطلاء المطاطي مرحلة الإنتاج الفعلي صرت موظف المبيعات في ذلك العمل. أظن أن هذا ما أراده روبر منذ البداية. قال لي إن المحل ليس في حاجة حقيقية إليّ لأنني لست مهتماً كثيراً بهذا العمل ولأنني كنت راضياً في الخروج لتأدية بعض المهام. قال: «ظننت أنك يمكن أن تملك بعض الأفكار وأنك لن تكون مجرد بائع، لكن الأمر لم يكن هكذا».

قلت: «نعم! إن لدى السيدة روبر فكرة معينة عني».

قال روبر: «بالطبع! رأيت أنها تحاول التقليل من شأنك دائماً. لكن السؤال هو لماذا تسمح لها بذلك؟».

جعلني أعمل معه من غير راتب ثابت. سوف أتقاضى عمولة على المبيعات. لم أجد أمامي غير القبول بهذا. ورحت أتجول في الحافلات حاملاً علبة من ذلك الطلاء فأقصد الفنادق والمستشفيات وغيرها محاولاً أن أحصل على طلبات للشراء. لكن ذلك كان أمراً فاشلاً. لم أستطع الحصول على شيء. كان الناس شديدي التمسك بالمال؛ وكنت أتعامل مع نوع خاص من هؤلاء الناس. كانت لديَّ توصيات من السيدة روبر... في الفنادق، لأشخاص تزعم أنهم يعرفونها أكثر مما كانوا يعرفونها في حقيقة الأمر (أو لمديرين لم يعترفوا بمعرفتهم بها إلا بعد استجوابي). ثم إن هؤلاء الناس كانوا أشخاصاً يصعب الوصول إليهم عبر السلالم الخلفية في الفنادق والمطاعم الفخمة ذات المداخل الرخامية المفروشة بالسجاد. وكانت هنالك فنادق كثيرة متعاقدة مع شركات بعينها من أجل أعمال الصيانة والطلاء. وكان يدير علاقتها بتلك الشركات أشخاص معيَّنون من قبل المحاكم بعد أن سقطت الشركات الأصلية في هاوية الإفلاس. وكان هؤلاء الأشخاص الذين تعينهم المحاكم مهتمين بمتابعة كل ما يتعلق بالتأمين والسباكة وتوفير الطعام والديكور والامتيازات ومستلزمات البارات ومختلف أجزاء ذلك النظام المعقّد المتداخل. وعندما يقبل أحد مديري الفنادق أن يرسلني إلى واحد منهم كان ذلك يعني أنه يرسلني إلى فشل أكيد. لم يكونوا راغبين في رؤية طلائي المطاطي. انتظرتهم مرات كثيرة عند موظفي الاستقبال؛ وسرعان ما صرت على ثقة من أن هذا لا يمكن أن ينتج أي شيء حسن.

بلغ الشتاء ذروته الآن، كان شتاء بربريّ القسوة. وهذا ما يجعل التجول ساعات طويلة في أرجاء المدينة في الحافلات المتحركة مثل العناكب يصيبني بالجنون ويجعلني غبياً مثل قطة جالسة إلى جوار الموقد لأن الازدحام كان شديداً ولأنني أظل محبوساً هناك وسط كتلة ضخمة من الناس أنظر إلى أشيائهم الصغيرة وإلى ملابس عملهم وإلى جرائدهم التي يحملونها وإلى قرميد المباني. شيء فظيع أن تجلس هناك ذلك الوقت الطويل كله: تصبح مثل لفافة من خيط لا نهاية له. ثم إن الأمل في تحقيق أي نجاح بعد تلك السفرات كلها كان شبه معدوم. أما إذا كان هنالك شيء من ضياء الشمس يتسلل عبر الغبار الذي يجلل النافذة فمن الممكن أن يصبح الأمر أكثر سوءاً للدماغ بسبب تلك الغيوم القاتمة بلون الحديد لأنه ضياء بربري لا يمكن تخفيفه. لم يعرف العالم مدَنيات من غير مدن. لكن ماذا عن المدن من غير مدنية؟ شيء غير بشري أن يكون هؤلاء الناس كلهم معاً من غير أن يكون لدى وأحدهم ما يقدمه للآخر. لا، ليس هذا أمراً ممكناً لأن الكآبة تنتج نارها الخاصة بها... لا يحدث هذا أبداً.

حقّقت بعض المبيعات آخر الأمر. عطف عليَّ كاراس (صهر إينهورن) صاحب شركة هولوي إنتربرايزز واشترى بضعة غالونات من الطلاء حتى يجربه في فندقه الصغير في شارع فان بورن، فندقه الذي يكاد يكون مأوى للمشردين قرب محطة القطارات. قال إنه لن يستخدم هذا الطلاء أبداً في أي مكان غير ذلك الفندق لأنه يطلق رائحة مطاط شديدة عندما يكون الجو حاراً ولأنه يحتفظ بالرطوبة في الحمامات. كان هنالك طبيب في شركة ستيت آند ليك (واحد من أصدقاء روبر؛ يقوم بعمليات الإجهاض). وقد اشترى بعض الطلاء لأنه كان يجدّد شقته. وهنا حاول روبر أن يخفض عمولتي قائلاً إنه ليس في حاجة إلى مساعدة مني حتى يبرم هذه الصفقة. كان يمكن أن أتركه في تلك اللحظة لولا أنني صرت أعرف جيداً ما تقوله الصحف عن فرص العثور على عمل. لم أكن أكسب مالاً يسمح لي بتقديم أي شيء لمساعدة أمي؛ لكنني كنت أغطي نفقاتي على أقل تقدير بحيث لا أكون في حاجة إلى مساعدة من سايمون.

كان سايمون منزعجاً مني بطبيعة الحال لأنني تركت رينلينغ. كيف يستطيع الزواج إذا ظل مضطراً إلى الاستمرار في مساعدة أمنا؟

قلت له: «تستطيعان، أنت وسيسي، الانتقال والسكن معها».

لكن وجهه أظلم عندما قلت هذا ففهمت أن سيسي لن تقبل به... لن تقبل أن تصير مضطرة إلى العناية بالبيت وبأمي معاً.

قلت: «لا بأس يا سايمون، تعرف أنني لا أريد إزعاجك. وأنني سوف أحاول أن أفعل كل ما أستطيع فعله».

كنا نتناول القهوة في مقهى راكليوس. وكان وعاء الطلاء على الطاولة وفوقه زوج القفازات الذي أستخدمه. كان ظاهراً من القفازين المنفتقين كم صرت بعيداً عن الرخاء. صرت أكثر اتساخاً أيضاً، أكثر اتساخاً مما تسمح به وظيفة مندوب المبيعات التي يُعتبر المظهر شرطاً من شروطها ولا بد من المحافظة عليه لإظهار الشخصية المناسبة. لقد صرت تحت المعيار المقبول، صرت غير قادر على تحمل مصاريف النظافة والإصلاح، وغير قادر على الاهتمام بهذه الأشياء كثيراً.

بدأت معيشتي تصبح صعبة. وبدأت أتعلم بعض الدروس المرة. لم تكن التدفئة تبلغ غرفتي في الأعلى. وكنت أرتدي معطفي وجواربي طيلة الليل ثم أهبط في الصباح لأدفئ نفسي بفنجان قهوة وأقرر مساري في ذلك اليوم. كنت أيضاً أحمل شفرة الحلاقة في جيبي لأحلق ذقني في المدينة مستخدماً الماء الحار المجاني والصابون السائل والمناديل الورقية في المراحيض العامة، ثم آكل في كافيتريا واي إن سي إيه أو في واحد من المطاعم

الصغيرة حيث أتهرب من دفع الحساب كلما سنحت لي فرصة. كنت أبدأ متحمساً في الساعة التاسعة ثم تتبدد آمالي عند الظهر. وكان عدم وجود مكان أستريح فيه واحداً من مشقات حياتي الكبيرة. يمكنني أن أحاول قضاء بعض الظهر في مكتب إينهورن الجديد لأنه كان معتاداً على استقبال الناس في الغرفة الخارجية... أناس لا عمل لهم. لكني عملت لديه في السابق ولا بد لي من أداء عمل ما عندما أكون عنده... سوف يرسلني في واحد من أشغاله. يعني هذا أن من الأفضل لي أن أظل وحدي وأعتمد على نفسي. ثم إنني ملتزم تجاه سايمون التزاماً لا يسمح لي بتضييع الوقت في التسكع رغم أن الانتقال من مكان إلى آخر ما كان شيئاً مفيداً في حد ذاته. لم أكن وحدي ممنوعاً من الثبات في مكان واحد لأن الحركة كانت في كل مكان وكأن الناس يسيرون مدفوعين ليخرجوا من الزوايا، ليخرجوا إلى الفضاء المفتوح، إلى أماكن لا ترحّب بهم ولا قيمة لها عندهم. كانوا مثل «ابن الإنسان» الذي لا مكان له حتى يريح رأسه فيه... أشخاص منتمون إلى العالم عامة؛ لكن الفهم المتنور لهذه الحقيقة كان غائباً، وما كان أحد مهتماً بما يحدث على هذه الأرض. وكنت، مع علبة الطلاء التي أحملها، واحداً كالآخرين، لا أكثر. وما أن أنطلق في طريقي حتى تصبح حافلات النقل غير كافية لي وتصبح شيكاغو نفسها غير قادرة على احتوائي.

كنت خارجاً من المحطة ذات يوم، وكان هطول الثلج كاد ينتهي... كنا في آخر الشتاء... صادفت جوي غورمان الذي لم أره منذ تلك السرقة. يلبس معطفاً أزرق جيداً من النوع الضيق وعلى رأسه قبعة جميلة جديدة ذات حواف متموِّجة مثل آثار أصابع على رغيف من الخبز الطري. وقف يشتري بعض الصحف من تلك المعلقة على الجدار عند الكشك. كان أنفه مرتفعاً إلى الأعلى، وبدا متورداً حسن المظهر كأنه استمتع بفطور جيد وصباح بارد (رغم أن الأكثر احتمالاً هو أنه، بحسب عاداته في الحياة، كان خارجاً من لعبة بوكر استمرت طيلة الليل). تفحصني، مع علبة الطلاء التي في يدي، وبدا واضحاً له أنني أمر بوقتٍ عصيب. كان لي وجه شخص تلقى صفعات كثيرة.

سألني: «ما هذا العمل الذي تقوم به؟» وعندما شرحت له عملي قال لي، لكن من غير نبرة انتصار: «أنت فاشل!» كان محقاً بالتأكيد؛ ولم أبذل جهداً كبيراً في الدفاع عن نفسي: «إنها طريقة لرؤية أشخاص كثيرين. ومن الممكن أن ينفتح أمامي شيء في يوم من الأيام».

قال: «نعم، ستنفتح حفرة أمامك. ما معنى أن ترى الناس؟... أتظن أن أحداً سوف يقدم لك شيئاً لأنك شاب وسيم؟ أتظن أن أحداً سوف يمنحك فرصة عظيمة؟ يهتمون بأقاربهم أولاً هذه الأيام. فمن هم الأقارب الذين عندك؟».

لم يكن لديّ أقارب كثر. لا يزال العقارات الخمسة يقود شاحنة الحليب، لكني لا

أعتزم أن أطلب منه عملاً لي. وقد خسر كوبلين كل شيء في الأزمة الاقتصادية، عدا توزيع الصحف. لم أر أياً منهما إلا مرات قليلة منذ جنازة المفتش.

قال لي: «تعال وتناول فطيرة بالجبن على حسابي». دخلنا إلى أحد المطاعم.

قلت له: «ما أخبارك؟» جعلته سؤالاً عاماً لأنني لم أشأ التحديد... ليس من الأدب أن يطرح المرء سؤالاً شديد التحديد... «هل ترى البحار بولبا؟».

«لا أرى ذلك الغبي، إنه لا يناسبني. لقد انضمّ إلى إحدى المنظمات الآن؛ منظمة تهتم بمضايقة النقابات وإرهابها... هذا كل ما هو صالح له. ثم إن ما أقوم به الآن لا يحتاج إلى شخص مثله. لكنني أستطيع أن أفعل شيئاً لك إذا كنت تريد أن تكسب بعض المال السريع».

«وهل في الأمر مخاطرة؟».

«ليس فيه مخاطرة من النوع الذي أقلقك في المرة الماضية. لم أعد أفعل ذلك. ليس أمراً قانونياً ما أقوم به الآن، لكنه أسهل كثيراً، وأكثر أماناً. فما هو الشيء الذي يأتي بالمال سريعاً؟»

«ما هو؟».

«تهريب المهاجرين عبر الحدود من كندا. من مكان قريب من روزز بونت إلى ماسينا سبرينغز في ولاية نيويورك».

«لا»... قلت له تلك الكلمة لأنني لم أنس حديثي مع إينهورن... «لا أستطيع فعل هذا».

«إنه في غاية السهولة».

«ماذا لو قبضوا عليك؟».

«وماذا لو قبضوا عليّ؟ وماذا لو لم يقبضوا عليّ؟» قال هذا بسخرية متوحشة... كان يسخر مني... «أتريدني أن أتجول هنا وهناك لبيع الطلاء؟ أفضّل أن أظل جالساً في مكاني. لكنني لا أستطيع الجلوس، وإلا جننت».

«هذه جريمة فيدرالية».

«لا أحتاج إلى من يخبرني عن الجرائم الفيدرالية. لقد سألتك فقط لأنك تبدو في حاجة إلى مساعدة. أقوم بهذه الرحلة مرتين أو ثلاث مرات في الشهر. وقد تعبت من قيادة السيارة طيلة هذه المسافة. فإذا أردت أن تأتي معي لتساعدني في الطريق حتى ماسينا سبرينغز، فسوف أعطيك خمسين دولاراً، إضافة إلى المصاريف. وعند ذلك، إذا قررت

أن تكمل الطريق معي فسوف أجعلها مئة دولار. سوف يكون لديك وقت كافٍ للتفكير في الأمر خلال الطريق. نعود بعد ثلاثة أيام».

شكرته على عرضه، وقلت في نفسي إن هذه فرصة للاستراحة. خمسون دولاراً، صافية، يمكن أن تريح ذهني كثيراً فيما يتعلق بسايمون. ضجرت من محاولة بيع الطلاء المطاطي، وفكرت في أن بعض المال يمكن أن يساعدني في مصاريفي أسبوعاً أو اثنين ريثما أبحث عن عمل آخر؛ بل ربما أجد طريقاً للعودة إلى الكلية لأنني لم أصرف النظر تماماً عن متابعة الدراسة. هذا ما قررته كله في الجزء الخارجي من دماغي، قررت أن أذهب... أما في الجزء الآخر، في الجزء الداخلي، فقد أردت تخفيف الضغط والخروج من المدينة. أما فيما يتعلق بالمهاجرين فلم أكن أحمل هَمّاً... إلى الجحيم، لماذا لا يكونون هنا معنا إذا كانوا يريدون ذلك؟ هنالك ما يكفي الجميع هنا، حتى من الحظ السيئ!

أعطيت الطلاء لتيلي إينهورن من أجل حمّامها، وفي الصباح الباكر أخذني جوي غورمان في سيارة بويك سوداء. كانت سيارة عظيمة... عرفت ذلك من اللحظة الأولى، عرفته من تلك الطاقة الفظيعة التي لا تتيح لك وقتاً للتفكير. لم أستعد للسفرة جيداً: كان معي قميص احتياطي لففته بورقة جريدة ووضعته في المقعد الخلفي بينما وضعت معطفي تحتي قبل أن نصل إلى آخر الحي الجنوبي وقبل أن نمر بساحات مصانع كارنيجي للفولاذ. ثم عبرنا الكثبان المكوّمة كأنها كثبان كبريتية؛ اجتزنا منطقة غراي وعبرنا منعطفين ثم صرنا على طريق توليدو حيث ازدادت السرعة وفتح المحرك فمه إلى آخره... ما عاد صوته مخنوقاً... تحرر حتى يفعل ما صُنع من أجله.

كان نحيلاً. كفّاه متوتران ضاغطان بعصبية على عجلة القيادة وأنفه الطويل المنكسر واللون الذي بدأ يصبغ وجهه ويرسم خطين متقاطعين على جبهته... كان غورمان مثل خيّال في سلوكه مع السيارة. يستطيع المرء أن يرى مقدار سروره بالعثور على شيء يستطيع إراحة أعصابه. توليت القيادة بعد اجتياز توليدو فوجدته ينظر إليّ ساخراً من حين لآخر بنظرة جانبية من وجهه النحيل... نظرة عين سوداء طويلة تقيسني من جديد، تنظر إليّ من تلك البقعة التي فقدت لونها نتيجة الإرهاق أو نتيجة مشقات انشغال الإرادة. ثم قال لي... أظن أنها الكلمات الأولى التي يقولها منذ انطلقنا... «زد السرعة!»

اعتذرت قائلاً إنني لم أعتد هذه السيارة بعد، ثم أطعته. لكن قيادتي لم تعجبه؛ لم يعجبه خاصة ترددي في تجاوز الشاحنات عبر التلال. استعاد عجلة القيادة قبل أن ينتهي القسم الأكبر من الطريق إلى كليفلاند.

كان الوقت بداية نيسان. وكانت فترة بعد الظهر قصيرة. بدأت السماء تظلم عندما صرنا قريبين من لاكاوانا. وبعدها بقليل توقفنا للتزود بالوقود. أعطاني غورمان ورقة عشرة

دولارات حتى أشتري بعض الطعام من المطعم المجاور. وهناك ذهبت إلى المرحاض أولاً فرأيت من النافذة شرطياً من شرطة الولاية واقفاً عند السيارة، كان يتفحّصها، ولم أر أثراً لغورمان. انسللت إلى الغرفة الجانبية القذرة ثم دخلت المطبخ حيث كان زنجي عجوز يغسل الأطباق. عبرت المطبخ من خلفه دون أن يلاحظني وخرجت إلى باحة خلفية حيث رأيت غورمان هارباً على امتداد جدار المرآب. كان ماضياً مسرعاً صوب صف من الأشجار والأجمات حيث تبدأ الحقول. جريت موازياً له. وبما أنني بدأت الجري متقدماً نحو عشرة أمتار فقد وصلت إليه عندما صار خلف الأشجار فكادت تحدث كارثة قبل أن يعرفني لأنه كان يحمل مسدساً في يده (المسدس الذي حذّرني إينهورن من أن جوي يحمله دائماً). وضعت يدي على ماسورة المسدس ودفعته بعيداً.

«لماذا تحمل المسدس؟».

«أبعد يدك عنه وإلا ضربتك به».

«ماذا أصابك؟ ولماذا تهرب من الشرطي؟ لقد كنا مسرعَيْن كثيراً. هذا كل ما في الأمر».

«المشكلة في السيارة. ليست في السرعة».

«ظننت أنها سيارتك».

«لا، إنها مسروقة».

بدأنا الجري من جديد لأننا سمعنا صوت دراجة الشرطي في الباحة. اندفعنا مبتعدين في حقل محروث. كان الحقل خالياً، وما من شيء يحجبنا عن الشرطي غير الغسق. وصل مطاردنا حتى صف الأشجار وراح ينظر صوبنا لكنه لم يتابع ملاحقتنا. من حظنا أنه لم يفعل لأن غورمان سدد مسدسه إليه مستعداً لإطلاق النار... كان مستثاراً مثل راعي البقر، مستثاراً إلى الحد الكافي لإطلاق النار. جعلني الذعر أحس طعم القيء في حلقي. لكن الشرطي استدار وعاد أدراجه فمسح ضوء الدراجة صف الأشجار. أما نحن فتابعنا السير في الأرض المحروثة حتى بلغنا طريقاً ريفياً بعيداً عن الطريق السريع. إن في هذا المكان شيطاناً بكل تأكيد؛ مكان أزرق فيه كتل من التراب وبقع من الزيت... وغير بعيد خلفنا جاء ضجيج آلات المصانع... كانت تقذف بدخانها في السماء من مداخن لاكاوانا.

قلت له: «لم تكن تعتزم إطلاق النار حقاً، أليس كذلك؟» كان قد رفع كتفه وأدخل يده في كمه مثلما تفعل امرأة تريد تعديل وضع شريط حمّالة صدرها. خبأ المسدس. أظن أن كلاً منا كان يفكر، بطريقته، أن الآخر ليس مناسباً له... أنا لأنني كنت أرى عبثية هذه المخاطرة؛ وهو لأنه احتقرني وقال في نفسه إنني جبان.

قال: «لماذا هربت؟».

«لأني رأيتك راكضاً».

«هربت لأنك كنت خائفاً».

«هذا صحيح أيضاً».

«هل لاحظ العامل أننا معاً؟».

«لا بد أنه لاحظ ذلك. وحتى إذا لم يلاحظ، فلا بد أن هنالك في المطعم من يتساءل أين اختفيت».

«من الأفضل إذن أن نفترق. لسنا بعيدين عن بوفالو. سوف آخذك من بوفالو غداً. انتظرني عند مكتب البريد الرئيسي في الساعة التاسعة».

«تأخذني؟».

«بسيارة. سوف تكون معي سيارة في ذلك الوقت. لديك الدولارات العشرة التي أعطيتك إياها من أجل الطعام وسوف تكفيك لتدبر أمرك هذه الليلة. لا بد أن هنالك باصات تذهب إلى المدينة. سر بعكس الطريق مسافة ثم اركب الباص. أما أنا فسأسير في الاتجاه الآخر. دع باصَيْن يمران أولاً حتى لا نكون في باص واحد».

وهكذا افترقنا. أحسست بأمان أكبر من دونه.

وقف ينظر إليّ عندما بدأت السير. وقف نحيلاً طويلاً متهدل الكتفين والقبعة، متكسر الملامح، وقف مثل شخص متخصص في المدن اضطر الآن إلى السير في أرض غير مألوفة بين المدينتين. وقف بعض الوقت ثم استدار ومضى في الاتجاه الآخر سريعاً.

سرت مسافة طويلة قبل أن أبلغ التقاطع الأول الذي يأخذني إلى الطريق السريع. ظهر ضوء كشّاف على سيارة عند المنعطف فانبطحت أرضاً. كانت سيارة لشرطة الولاية. ماذا يمكن أن تفعل هذه السيارة على درب كهذه إن لم تكن قد أتت بحثاً عنا. لعل غورمان لم يهتم حتى بتغيير لوحات السيارة التي سرقها. تركت الطريق ودخلت الحقول مقرراً أن أسلك أقصر طريق للعودة إلى لاكاوانا... قررت ألا أقابله في بوفالو. إنه شديد الاندفاع إلى حد لا يناسبني. ثم إن طريقته في خرق القانون ليست فكرتي أنا، فلماذا أخوض في الوحل منتظراً أن يرتكب جريمة حمقاء ويورّطني معه فأنال حكماً صارماً في المحكمة؟ عندما تركته وسرت في الطريق كنت قد بدأت التفكير في هذه الأمر، وكنت، حقيقة، قد بدأت طريق عودتي إلى شيكاغو.

رحت أجري مخترقاً الحقول لأنني تعبت من انتقاء الطرق. بلغت الطريق السريع في نقطة قريبة من المدينة حيث يمر محاذياً لبحيرة إيري. وهناك رأيت جمعاً من الناس أتوا بسيارات قديمة حاملين لافتات وأعلاماً. كانوا يسدون الطريق. أظن أنها مظاهرة للعاطلين عن العمل... محاربون قدامى كثر يضعون قبعاتهم العسكرية. أتعبني هواء الليل القاسي فلم أستوعب الأمر سريعاً. لكنهم كان واضحاً أنهم متجمعين من أجل مسيرة إلى ألباني أو إلى واشنطن طرح مطالبهم؛ ومن الواضح أنهم سيصطدمون بكتيبة حفظ النظام في بوفالو. اقتربت بطيئاً فرأيت عدداً من رجال الشرطة حولهم. كانوا يحاولون المحافظة على حركة الطريق. وكان بينهم رجال شرطة من المدينة أيضاً فظننت أن من الآمن لي أن أختلط بالناس بدلاً من محاولة دخول المدينة. رأيت على ضوء المصابيح الوحل الكثير الذي علق بي. كان رطباً غير قابل للإزالة بعد. وكان هنالك ضياح كثير وأصوات محركات وسيارات تندفع محاولة تشكيل رتل. وعند مؤخرة إحدى تلك السيارات ساعدت رجلاً في وضع ألواح خشبية وتثبيت مشمع كبير فوقها. جعلت نفسي جزءاً من مجموعته في عتمة الغسق. صرت الآن على وشك الانطلاق إلى بوفالو رغم أنني قريب جداً من لاكاوانا. ربما كنت قادراً على العودة إلى الحقول والسير في طريق ملتفة حتى أدخل المدينة. لكني حسبت موقفي ووجدت أنهم يمكن أن يمسكوا بي قبل أن أتمكن من ذلك.

أُجبر الحشد على التراجع قليلاً بينما كنت أحاول تثبيت القماش الواقي خلف حجرة القيادة في الشاحنة الصغيرة. وعرفت من شعاع الضوء الكشاف الذي كان يمسح رؤوس الناس جيئة وذهاباً، ومن الأضواء الصفراء والحمراء، أن سيارة الدورية تجبر الناس على التراجع من أجل فتح الطريق. رأيت السيارات العابرة تتقدم متتابعة من ناحية المرتفع. اقتربت من مؤخرة الشاحنة حتى أنظر جيداً فذعرت عندما رأيت جوي غورمان جالساً في المقعد الخلفي بين شرطيين وعلى ذقنه خطوط من الدم يتضح منها أنه حاول مقاتلهم وأنهم ضربوه فجرحوا شفته، أي أنهم قاموا بعمل الشرطة جيداً. هذا ما سافر هذه المسافة كلها حتى يلقاه؛ وقد لقيه... لم يبدُ منهاراً، أو صاحياً تماماً. لعل هذا كان مظهراً فحسب، مظهراً خداعاً، لأن الدم الأحمر بدا أسود اللون الآن. حزنت كثيراً لرؤيته هكذا.

عبرت سيارة الدورية، ثم انطلقت بنا الشاحنة متهادية ببطء. كانت مثل عشرين رجلاً متماسكين يترنحون يميناً وشمالاً على صوت المحرك المرتفع. وكان الجو فظيعاً... مطر خفيف أول الأمر ثم هبت الريح فصار ذلك المطر ينصب داخل الشاحنة انصباباً ويطلق بخاراً بشرياً تشبه رائحته بخار محلات تنظيف الملابس. وبينما مضينا في مسار متلاطم متعرِّج في ذلك الطريق، رحت أفكر في القبض على جوي غورمان، كيف أمسكوا به؟ وهل سنحت له فرصة إخراج مسدسه؟ منعني الغطاء الذي على صندوق الشاحنة من رؤية

محطة الوقود عندما مررنا بها، ولم أعرف إن كانت السيارة التي تركناها لا تزال واقفة هناك... لم أعرف شيئاً. لم أستطع رؤية شيء إلى أن صارت شاحنتنا داخل المدينة.

قفزت من مؤخرة الشاحنة في وسط المدينة ووجدت فندقاً لم أتوقف لأسأل عن سعر الليلة فيه لأنني كنت مبتلاً بالكامل. لكنني كنت صاحياً إلى حد يكفي لأن أهتم بألا يرى الموظف الوحل الذي لطخ معطفي: طويت المعطف وحملته فوق ذراعي. ثم إني كنت شديد الحزن على جوي غورمان إلى درجة منعتني من التفكير في أي شيء. وبعد ذلك، عندما جعلوني أدفع دولارين في الصباح (ضعفي ما يجب أن يتقاضاه جحر للبراغيث كهذا الفندق)، وبعد أن دفعت ثمن فطور ضخم كان لا بد لي من شرائه، لم يعد لديّ مال كافٍ لشراء تذكرة بالباص إلى شيكاغو. أرسلت إلى سايمون برقية أطلب فيها منه إرسال بعض المال؛ ثم مضيت لرؤية الشارع الرئيسي في مركز المدينة. أخذت الباص بعدها إلى شلالات نياغارا حيث بدا المكان شبه خاوٍ ذلك اليوم ولم أجد إلا قلة من أشخاص لا عمل لهم واقفين عند الشلال مثل غربان أتت في الصباح الباكر إلى الساحة أمام كاتدرائية نوتردام عندما فتحت أبوابها... في تلك اللحظة، في الضباب الكثيف الحزين، تدرك أن هذه البرودة الكبريتية لم تصب كل شيء بالشلل وأن الكاتدرائية التي أمامك تثبت ذلك.

سرت على امتداد السياج الواقي عند الصخور السوداء المنحدرة إلى أن بدأ المطر يهطل من جديد فعدت لأرى إن كان سايمون قد أجاب على برقيتي. ظللت أسألهم حتى وقت متأخر من بعد الظهر. وفي النهاية تعبت الفتاة الجالسة في المكتب من رؤيتي فأدركتُ أن عليّ الاختيار بين الانطلاق الآن أو قضاء ليلة أخرى في بوفالو. أرهقتني المتاعب التي أصابتني، وكل هذه السرعة والجري من هنا إلى هناك، ومشهد غورمان في سيارة الدورية الماضية عبر الحشد، ثم ذلك الاندفاع الفظيع لمياه نياغارا، والرجرجة في باصات بوفالو وأكل زبدة الفستق والخبز القاسي، وأمعائي التي صارت مثل مطاط متصلب، وتلك المدينة الرطبة غير الودود. لو كنت في حالة غير هذه الحالة البائسة لأدركت في وقت أبكر أن سايمون لن يرسل لي مالاً. لكنني فهمت فجأة أنه لم يفعل، بل لم يكن لديه مال يرسله أصلاً لأننا لا نزال في أول الشهر... عليه أن يدفع الإيجار. عندما فكرت في هذا قلت لموظفة البرقيات أن تنسى أمر برقيتي... قررت مغادرة المدينة.

وحتى لا تمسك بي الشرطة على الطريق في شمال ولاية نيويورك، اشتريت في محطة غراي هاوند للباصات بطاقة إلى إيري؛ وبلغت زاوية ولاية بنسلفينيا ذلك المساء. عندما وصلت إلى إيري لم يكن عندي إحساس بأني بلغت مكاناً بعينه، مكاناً في ذاته... من أجل ذاته.. بل أحسست أنه مكان ينتظر الأماكن الأخرى حتى تمنحه الحياة لأنه واقف بينها. كانت روح المكان ضعيفة، منتظرة فقط.

عثرت على مأوى في فندق في مبنى خشبي طويل كأنه هيكل عظمي لبناية. كانت الجدران مكسوّة بالخشب لا بالجص، وكانت على البطانيات حروق كثيرة، كما كانت الملاءة ممزقة تكشف عن فراش عليه بقع كثيرة. لم أعبأ كثيراً بهذا، لم أعبأ بالمكان الذي حللت فيه... سيكون بلاهة مني أن أهتم بهذا! خلعت حذائي واندسست في السرير. يبدو أن عاصفة كبيرة هبت على البحيرة تلك الليلة.

لكن الصباح كان دافئاً هادئاً عندما مضيت إلى الطريق وبدأت التلويح للسيارات العابرة. لكني لم أكن وحدي: أعداد كبيرة من الناس المنتظرين على الطريق. كانوا يسافرون أزواجاً بعض الأحيان، لكن أكثرهم كانوا فرادى لأن من الأسهل أن يحظى المرء بفرصة ركوب سيارة إذا كان وحيداً. كانت هناك أيضاً وحدات الحماية المدنية تجفف المستنقعات وتزرع الأشجار في البعيد. أما على الطريق نفسه فكانت تلك المجموعة من الجَوالين الهائمين على وجوههم من غير أن تكون لهم أرض ميعاد بعينها أو مدينة يعتزمون فتحها أو آثار مقدسة يسعون إليها لتقبيلها، ولم تكن لديهم أي فكرة عن التحلل من الخطايا، بل هو أمل وحيد في أن يصادفوا حظاً أفضل في المدينة التالية. كان الحصول على مكان في سيارة عابرة أمراً صعباً في هذا الزحام. وكان مظهري نقطة في غيري صالحي أيضاً لأن ملابس رينلينغ كانت أنيقة قذرة في الوقت عينه. ثم إنني كنت مستعجلاً للابتعاد عن ذلك الطريق قرب لاكاوانا حيث قبضوا على جوي غورمان فلم أجد قدرة على الصبر للوقوف طويلاً والتلويح للسيارات... مشيت.

كانت السيارات تمر بي مسرعة. وعندما بلغت مكاناً قرب أشتابولا في أوهايو، حيث تقترب سكة القطار من الطريق السريع، رأيت قطار شحن ماضياً في اتجاه كليفلاند وعليه رجال جالسون على العربات وفي الفواصل بينها، أو مستلقين على امتداد القضبان الحديدية أسفل العربات؛ ورأيت ثمانية أو عشرة رجال يركضون ويقذفون بأنفسهم في تلك العربات. ركضت أيضاً نازلاً من الطريق السريع المشؤوم عبر مساحة مرصوفة بحجارة جعلتني أحس برقة نعل حذائي. أمسكت بسلم إحدى العربات. لم أكن رشيق الجسم، فجريت مع تلك العربة الحمراء غير قادر على رفع نفسي عن الأرض إلى أن ساعدتني دفعة أتتني من الخلف. لم أر أبداً الشخص الذي دفعني تلك الدفعة... لا بد أنه شخص من هؤلاء الذين يجرون... شخص لم يرد أن تنخلع ذراعي عن جسدي أو أن تتكسر عظام قدمي.

تسلقت العربة حتى سطحها. كانت عربة مرتفعة مقببة من أجل نقل الماشية. وكان سقفها مصنوعاً من ألواح خشبية حمراء عريضة. هنالك عدد متزايد من الناس يلحق بذلك القطار. كان هذا الخط ينقل حشداً من رجال خشني المظهر يسافرون من غير أن

يدفعوا مالاً. أحسست بحركة الماشية تحتي وباصطدامها بجدران العربة، وجلست محاطاً بروائحها. ظللت هكذا حتى بلغنا كليفلاند، بلغنا تلك الساحات الكبيرة والتلال كثيفة البناء، والدخان، وتطاير القش والرمل في الهواء الذي يصفع الوجوه.

كان هنالك قطار سريع يمضي إلى توليدو من غير توقف. كان ذلك القطار يستعد للانطلاق، هكذا قالوا... سوف ينطلق بعد ساعتين. استفدت من هذا الانتظار ومضيت إلى المدينة للحصول على بعض الطعام. وعندما عدت إلى المحطة سرت هابطاً درباً منحدرة تحت جدران المصانع ومضيت حتى سكة القطار الصدئة عند مصنع شيروين ويليامز للطلاء. رأيت فسحة واسعة فيها قضبان حديد وعربات قديمة نَمَتْ عليها نباتات متسلقة؛ ورأيت أشخاصاً ينتظرون: يحظون بغفوة قصيرة، أو يقرأون جرائد قديمة، أو يصلحون ملابسهم.

كانت فترة بعد الظهر متوترة مملة معاً. سرعان ما حل الظلام مع هذا المطر المتواصل بينما كنا منتشرين بين النباتات، منتظرين. سرعان ما انتبهت عندما أنبأتني الحركة من حولي بأن القطار قادم. بدا لي أن مئات الأشخاص قد نهضوا فجأة، واقترب البعيدون منهم سريعاً متقدمين صوب سكة القطار. أتت القاطرة بطيئة، ماضية مثل ثور، كان غلاف مرجلها الحديدي أسود اللون.

توقف القطار فقعقعت عرباته مصطدمة واحدة بالأخرى ثم تراجع إلى الخلف لحظة. كانوا يضيفون إليه مزيداً من العربات. دخلت في تلك اللحظة تحت عربة تنقل فحماً وجثمت في الزاوية بين نهاية العربة المنحدرة والعجلات. وعندما انطلق القطار زعقت تلك العجلات مصدرة شرراً، وراحت القارنات تتأرجح حرة ثم تماسكت في لعبة ميكانيكية لا يستطيع عقل الإنسان وملاحظته تجاهلها. لا بد أن تدرك المملكة التي جلست فيها... أطنان من الفحم فوقك وأنت جالس في ذلك الحيز الضيق الأعمى، ومطر مندفع يضربك من الجانبين. كنا أربعة في تلك الفسحة: رجل نحيل ذئبي المظهر مد ساقيه فوق العجلات مستندتين إلى قضيب معدني؛ أما نحن الثلاثة الباقين فلممنا سيقاننا تحتنا. رأيت وجهه عندما أشعل عقب سيجارة، وجه مبتسم مريض على نحو ما مع زرقة تحت عينيه تشبه حلقات سلسلة. كان يدس أصابعه بين ساقَيْه. وكان شاب صغير جالساً إلى الناحية الأخرى. أما رابعنا فكان زنجياً (لم أعرف هذا إلى أن تركنا القطار في لورين. لم أرَ منه عندما بدأت الجري إلا معطفاً مطرياً أصفر؛ لكني لحقت به عند كشك إلى جانب سكة القطار فرأيته مستنداً إلى ألواح ذلك الكشك مغمضاً عينيه الكبيرتين... رجلٌ متعب ضخم الجسم يلتقط أنفاسه بصعوبة وتلمع قطرات العرق، أو قطرات المطر، في لحيته المحيطة بفمه كله).

توقف القطار في لورين. لم يكن قطاراً سريعاً على الإطلاق. أو لعله توقف لأنه كان يحمل كثيراً من المسافرين مجاناً. سرنا في خط متعرج مثل عصبة منسحبة في الليل تحت الأضواء الكشافة. رأينا تلك الأضواء منتقلة من عربة إلى عربة. كان رجال الشرطة يطردون المسافرين من تلك العربات. ثم مضى القطار بعد إخلائه من الطفيليين واندفع صوب مصابيح الإشارة عازفاً موسيقى سكة الحديد الصاخبة.

تعلق الشاب الصغير بي (كان اسمه ستومي) فمضينا إلى المدينة. كان الميناء بتلاله المصنوعة من الرمل والفحم مرئياً من بعيد. وكانت وجوه مصابيح كهربائية لا ملامح لها معلقة على الروافع والكابلات والعَبّارات. بدا المطر أمامها كأنه لا شيء. تضاءل شأنه تماماً. أنفقت بعض نقودي لشراء الخبز وزبدة الفستق وزجاجتين من الحليب. تناولنا عشاء مبكراً.

تجاوزت الساعة العاشرة، ولا يزال المطر منهمراً. لم أكن أنوي محاولة اصطياد قطار فحم آخر تلك الليلة؛ كنت متعباً كثيراً. قلت له: «دعنا نجد مكاناً يأوينا»، فوافق.

وجدنا على أطراف المحطة عربات شحن تقاعدت من الخدمة. كانت شديدة القدم، متعفنة منتفخة مليئة بقش وورق قديم وبرائحة المستودعات الحادة. رائحة أشياء متروكة منذ زمن بعيد... أكياس، ومعدات تالفة، وطين أبيض على الجدران. حططنا هناك وسط تلك الفضلات. أغلقت أزرار معطفي كلها طلباً للأمان واتقاء البرد، ثم استلقيت. كان المكان متسعاً أول الأمر، لكن رجالاً ظلوا يتوافدون حتى ساعة متأخرة من الليل، يفتحون الباب ويمرون فوقنا جيئة وذهاباً ويختارون مكاناً لمبيتهم. كنت أسمعهم آتين يجرجرون أقدامهم على امتداد صفوف العربات. ظلوا يأتون حتى امتلأت عربتنا إلى حد جعل الوافدين بعد ذلك يلقون نظرة ثم يتابعون السير. كان وقتاً لا يصلح لنوم أو نصف نوم أو يقظة بسبب الأنين والسعال المريض وقرقعة البطون وغازاتها نتيجة الطعام السيء، وخشخشة الورق على الأرض وزفرات طويلة. وعندما غفوت أخيراً لم يستمر إغفائي طويلاً لأن الرجل المستلقي إلى جواري بدأ يقترب مني ويضغط بجسده علي. ظننت في البداية أنه نائم يتحرك من غير وعي، وظننت أنه معتاد على شريكة في الفراش، فاكتفيت بالابتعاد عنه قليلاً لكنه اقترب من جديد. لا بد أنه عمل طويلاً في السر حتى يفتح أزرار بنطلونه، ثم لمس يدي كأن ذلك من غير قصد، ثم حاول توجيه أصابعي إليه. وجدت صعوبة في تحرير يدي لأنه أمسك معصمي بيديه الاثنتين آخر الأمر. دفعته فاصطدم رأسه بألواح الجدار. لا يمكن أن يكون ذلك قد آلمه كثيراً لأن الخشب كان عفناً، طرياً تقريباً، لكنه تركني وقال بصوت شبه ضاحك: «لا تحدث ضجةً» ابتعد عني قليلاً. جلست ورحت أفكر في إمكانية أن يظن أنه يستطيع مواصلة المحاولة إذا لم أنتقل من هذا المكان. كان

منتظراً في حقيقة الأمر، بدأ يتكلم مرتجفاً، يتكلم بمزيج من السخرية والأمل، يتكلم عن قذارة النساء. ابتعدت عندما سمعت ذلك وسرت مستنداً إلى الجدار عابراً فوق الأجساد النائمة إلى حيث يستلقي ستومي. ليلة سيئة ـ كان المطر يضرب العربة بعنف من هذه الجهة مرة ومن الجهة الأخرى مرة، كأنه شخص يدق المسامير في صندوق خشبي أو يبني قفصاً للطيور. كنت حزيناً منزعجاً متعَباً، وكان قلبي مثل كوكب يدور فلا يتسع له صدري، لا لأني غاضب (إذ لم أشعر بأي غضب) بل نتيجة ذلك البؤس الشامل الذي أحسسته.

استلقيت إلى جانب ستومي الذي أجفل لحظة ثم عرفني فسقط نائماً من جديد. لكن الطقس كان بارداً. وصار البرد قاتلاً عند الصباح. ومن حين لآخر كنا نجد نفسينا متلاصقين، حتى وجهينا، فنصحو لحظة وننفصل. استمر ذلك إلى أن جعلتنا شدة البرد نكف عن إقامة أي اعتبار لأننا شخصين غريبين... كنا نرتجف ارتجافاً شديداً، وكان علينا أن نلتحم معاً. خلعت معطفي ونشرته فوقنا حتى يحافظ على الحرارة قليلاً. ظللنا نرتجف، حتى بعد ذلك.

جاء صياح ديك تملكه أسرة عامل سكة حديد يقيم قريباً من المكان. ديك جعلته غريزته، أو لعله تهوره، يصيح في رطوبة ذلك الفناء ورماده. كانت إشارة الصباح هذه كافية لنا فتركنا العربة. هل حل النهار حقاً؟ كانت السماء تقطر ماء والغيوم تطير خفيفة كأنها دخان. كان في تلك الغيوم لون وردي لكن المرء ما كان قادراً على معرفة إن كان ذلك اللون انعكاساً لشمس الصباح أو لمصابيح السكة الحديدية! دخلنا المحطة فوجدنا فيها مدفأة حارة إلى حد جعل إطارها المعدني السفلي شبه شفاف. جلسنا قريباً منها. احمرَّ وجهانا بفعل الحرارة. شقت الحرارة طريقها إلى وجهينا.

قال ستومي: «اشترِ لي فنجان قهوة».

اقتضى الأمر خمسة أيام من السفر على هذا النحو حتى أعود إلى شيكاغو لأنني أخطأت فأخذت قطاراً ذاهباً إلى ديترويت. أخبرنا أحد عمال السكة أن هنالك بعد قليل قطاراً ذاهباً إلى توليدو. مضيت لملاقاة ذلك القطار، وجاء ستومي معي. بدا حظنا طيباً لأن قطار الشحن هذا كان خالياً من المسافرين في تلك الساعة. كانت العربة لنا وحدنا. لا بد أنهم نقلوا أثاثاً في هذه العربة في رحلتها الأخيرة لأن نشارة خشب نظيفة كانت على الأرض. استلقينا على فراشين صنعناهما من أوراق التغليف الكثيرة المتناثرة، ونمنا.

استيقظت عندما صارت زاوية دخول أشعة الشمس شديدة الضيق عبر باب العربة وخمّنت أنه وقت الظهر. إن كان الوقت ظهراً حقاً فلا بد أننا تجاوزنا توليدو وصرنا في ولاية إنديانا. لكن غابات البلوط والمزارع المستلقية بينها، وكذلك قلة الماشية، لم تكن أشياء تشبه ما رأيته في إنديانا عندما اجتزتها برفقة جوي غورمان. كنا منطلقين بسرعة

كبيرة، طائرين، القاطرة وخلفها العربات الفارغة. وعند ذلك رأيت على أحد التقاطعات سيارة تحمل لوحة تسجيل من ميتشيغان.

قلت: «لابد أننا ذاهبان إلى ديترويت. لقد تجاوزنا توليدو».

مضت الشمس جنوباً، ثم صارت خلفنا... لم تكن على يسارنا. إننا منطلقون شمالاً. ما كنا قادرين على ترك القطار أيضاً، لأنه ينطلق سريعاً. جلست مدلياً ساقيَّ من الباب المفتوح؛ جلست منكسر الظهر ظامئاً، جائعاً أيضاً. وراحت عيناي تتبعان تلاحق الحقول المعدة للبذار وغابات البلوط بأوراقها القاسية البرونزية التي استطاعت البقاء حتى هذا الوقت، وخلفها عالم هائل الحجم، عالم من غيوم بيضاء وأشكال غريبة... ضياء كندا الهائل.

سرعان ما أظلمت السماء وانتهت فترة بعد الظهر القصيرة. صار اللون أزرق بين الأشجار والتلال. وصارت تظهر المصانع... مصانع متتالية وعربات شحن، وعربات تبريد. غريب أنني لم أشعر بقلق كبير لأنني ابتعدت عن طريقي مئات الأميال في حين لم يكن في جيبي إلا بضعة أرباع الدولار وبعض القطع النقدية الأصغر حجماً... لا تتجاوز كلها دولاراً واحداً. كنت منطلقاً في هذا الغسق شبه الشتائي؛ هكذا يختلط التافه بالكبير، ربما، هذا الامتزاج الصاخب بين قطار مندفع وفولاذ وصدأ وطلاء يشبه الدم يمتد مساحة بعد مساحة في السماء، ثم شيء آخر غيره، مساحة بعد مساحة.

كان دخان المصانع منطلقاً في السماء مع الريح، وكنا في بلدة صغيرة صناعية... مقبرة، وشيء يشبه ميدان معركة، ومكان للنفايات، وساحات لحام بنفسجية، وجبال من إطارات غارقة في الماء، ورماد كأنه أعراف من زبد أمام المراجل، ونيران، ومصاهر للفولاذ... شيء يشبه موسكو المحترقة أمام جنود نابليون. توقف القطار، وقرقعت العربات مصطدمة. قفزنا، وكنا نجتاز السكة عندما أمسك شخص بنا من كتفينا، من الخلف، وركل كلاً منا على مؤخرته. كان واحداً من شرطة الطرق. يضع قبعة كبيرة، ومسدسه معلق أمام صدره. كان وجهه الأشقر محمراً كأنه تفاحة شتوية، وبقعة لعاب مجنونة على ذقنه. صاح بنا: «سوف أطلق النار عليكما في المرة القادمة». جرينا، وراح يلقي بالحجارة خلفنا. تمنيت لو أن أكمن له حتى ينتهي وقت عمله ويخرج حتى أمزق حنجرته.

لكننا كنا نقفز فوق قضبان السكة فزعين من أي شيء يمكن أن ينقضّ علينا من تلك الظلمة الباردة، ومن بخار القطارات المندفعة وعيونها الضخمة المضيئة، فزعين من أن تفاجئنا قاطرة مندفعة. كان الفحم متناثراً في المكان ممتداً على الأرض، قاتم اللون. تابعنا الجري، ولم أعد أشعر بالغضب بعد ذلك.

أخبرتنا لافتة في الطريق أننا على مسافة عشرين ميلاً من ديترويت. وبينما كنا واقفين هناك جاء شخص كان معنا في القطار في كليفلاند، الرجل ذو المظهر الذئبي. ورغم الظلمة، رأيته آتياً نحونا على الطريق. لم تبدُ عليه أي نيَّات محددة... كان يريد أن يسير مع أحد فقط.

قلت لصديقي الصبي ستومي: «لدي دولار واحد من أجل السفر إلى شيكاغو. لكن، دعنا نشتري شيئاً نأكله».

قال: «احتفظ به؛ سوف نسرق شيئاً». حاول في عدة محلات على الطريق، وبعد تلك المحاولات استطاع الحصول على بعض الشطائر الهلامية البائتة.

أخذتنا إلى المدينة شاحنة تحمل صفائح معدنية. جلسنا، نحن الثلاثة، تحت الغطاء المشمع لأن الطقس صار بارداً الآن. مضت الشاحنة صاعدة المنحدر بسرعة منخفضة... مرت ساعات... مع تلك التوقفات كلها؛ نام ستومي. أما الرجل الذئبي الذي بدا قادراً على إلحاق الأذى بنا فلم تظهر عليه أي نية لفعل ذلك. انضم إلينا حتى يمضي معنا حيث كنا ماضيَيْن. وفي الطريق إلى تلك المدينة في الليل راح يخبرني عن قسوتها، وعن سماعه أن رجال الشرطة فيها سيئون وأن كل شيء فيها بائس. قال إنه لم يأتِ إليها أبداً من قبل. وبينما كنا ندخل المدينة مارين بسلاسل من أعمدة الإنارة، جعلني وصفه ذلك أشعر باكتئاب خانق، ثم توقفت الشاحنة وطلب منا سائقها النزول. لم أعرف أين كنا. كان المكان خاوياً، صامتاً، بعد منتصف الليل. كان هنالك مطعم صغير. والأبواب الأخرى مغلقة كلها. وهكذا دخلنا ذلك المطعم لنسأل عن المكان. كان مكاناً ضيقاً، كأنه ممر. والأرض مفروشة بمشمع زيتي. قال لنا عامل هناك إننا على مقربة من وسط المدينة، ميل واحد تقريباً. وإننا نستطيع بلوغ مركزها إذا تبعنا خط الباصات الذي يبدأ عند التقاطع التالي.

وعندما خرجنا، وجدنا سيارة شرطة منتظرة بأبواب مفتوحة؛ ووجدنا شرطياً يسد طريقنا ويقول لنا: «ادخلوا السيارة».

وجدنا في السيارة شخصَيْن بملابس مدنية، وكان عليّ أن أدع الذئبي يجلس في حضني بينما استلقى ستومي على أرضية السيارة. كان ستومي شاباً صغيراً فحسب. لم يقل أحداً شيئاً. أخذونا إلى قسم الشرطة... بناء صغير إسمنتي فيه نوافذ صغيرة في كل مكان. وكانت قضبان الزنازين تبدأ عند بداية الدرجات قليلة، غير بعيد عن مكتب الرقيب. جعلنا رجال الشرطة نقف بعيداً لأن الرقيب كان ينظر في مسألة أخرى. كان حول المصباح الكهربائي على مكتبه أربعة أو خمسة وجوه تبدو غريبة تحت ذلك الضوء. وكان الرقيب ضخماً لحيماً يعلو وجهه السمين فوق الجميع. وكانت هنالك امرأة... يصعب أن يتصور المرء أنها حقاً كانت داخلة في مشاجرة. كانت بسيطة المظهر، كأنها خيّاطة؛ تضع قبعة مزينة

بعقدة خضراء. وإلى جانبها رأيت رجلين، واحد على رأسه ضمادات مدماة تشبه خلية نحل، أما الآخر فكان صامتاً متمرداً يضغط بيديه على صدره. يفترض أنه هو الشخص المعتدي. أقول «يفترض» لأن الشرطي هو الذي كان يتكلم. أما المتهمون الثلاثة فكانوا صُماً بكماً. قال الشرطي إن هذا الرجل هاجم الآخر بمطرقة؛ وقال إن المرأة كانت عاهرة وضيعة تفتح ساقيها لأيٍّ كان، وإن هذا البائس كان أكبر سبب للمشاكل ضمن جماعة الصم والبكم رغم أنه يبدو أشبه بمعلم مدرسة. هذا ما كان يقوله الشرطي للرقيب.

قال: «ما أظنه هو أن هذا التافه البائس ظن أنه أقام علاقة معها وارتبط بها، ثم أمسك بها مع هذا التافه الآخر».

«يفعلان ماذا؟».

«لا أعرف. الأمر معتمد على حماقته. لكني لن أشعر بأي دهشة إن اتضح أنهما كانا من غير ملابس».

قال الرقيب: «لا أعرف ما يجعلهم يشتهون النساء إلى هذا الحد. يتشاجرون من أجل أمور تتعلق بالحب أكثر مما يتشاجر اللاتينيون». ضاقت إحدى عينيه قليلاً كأنه يؤكد كلامه، أما وجنته فكانت صلبة مثل جدار؛ وكانت ذراعه شديدة الثخانة. لا أريد أن أراه يستخدمها... «لماذا يتشاجرون طيلة الوقت؟ ربما لأنهم يتكلمون بأيديهم».

ابتسم ستومي والذئبي... أرادا إظهار استمتاعهما بالروح الفكاهية لدى رجال الشرطة.

«لا بأس، أهنالك كسور تحت تلك الضمادات؟».

«لديه غرزتان».

دفع الشرطي بصاحب الرأس المضمد تحت الضوء حتى يستطيع الرقيب رؤيته جيداً.

نظر الرقيب في سجله: «لا بأس، خذهم واحبسهم حتى نرى إن كنا نستطيع تأمين مترجم غداً. أما إذا لم نستطع، فسنطلق سراحهم في الصباح. ماذا سيفعلون بهذا المعتوه في المستودع؟ لكن ليلة في الحجز سوف تجعلهم يرون أنهم ليسوا وحدهم في هذا العالم وأنهم لا يستطيعون التصرف كما لو أنهم وحدهم فيه».

جاء دورنا؛ وكنت قبل ذلك قلقاً من احتمال وجود صلة بين اعتقال جوي غورمان وإلقاء القبض علينا... لكني لم أستطع العثور على صلة من هذا النوع. لم يكن هنالك ما يربطني بالسيارة المسروقة غير قميصي الذي وضعته على المقعد الخلفي؛ هل يستطيعون معرفة صاحب القميص من علامة محل تنظيف الملابس الموضوعة عليه؟ هذا احتمال بعيد... لكني لم أجد شيئاً آخر أفكر فيه. ارتحت عندما سمعت منهم سبب إلقاء القبض علينا: سرقة قطع السيارات من باحة السيارات التالفة.

قلت: «لم آت إلى ديترويت من قبل. لقد وصلنا إلى المدينة قبل قليل».

«من أين أتيتم؟».

«من كليفلاند. سافرنا مجاناً مع السيارات العابرة».

«أنت كاذب ابن حرام. أنت من عصابة فولي وقد كنتم تسرقون قطع السيارات. لكنا أمسكنا بكم. وسوف نمسك بالعصابة كلها».

قلت: «لكننا لسنا من ديترويت أصلاً. أنا من شيكاغو».

«وأين كنت ذاهباً؟».

«إلى شيكاغو».

«شيء غريب أن تكون ذاهباً من كليفلاند إلى شيكاغو عبر هذه المدينة. إن قصتك ضعيفة بائسة».

نظر إلى ستومي: «ماذا ستقول لي أنت عن بلدتك؟».

«بينسي».

«وأين هي؟»

«بالقرب من ويلكس بار».

«وإلى أين أنت ذاهب؟».

«إلى نيبراسكا حتى أدرس لأصير بيطرياً».

«ما معنى هذا؟».

«الشخص الذي يعتني بالكلاب والخيول».

«تقصد الذي يعتني بقطع سيارات فورد وشيديز، أيها الصعلوك النتن الصغير! وأنت ما هي بلدتك، وما قصتك؟» قال الكلمات الأخيرة متوجهاً إلى صديقنا الذئبي.

«إنني من ولاية بنسلفانيا أيضاً».

«أين بالتحديد؟».

«بالقرب من سكرانتون. إنها بلدة صغيرة».

«كم هي صغيرة؟».

«خمسمئة شخص، أو نحو ذلك».

«وما اسمها؟».

«ليس لها اسم في الحقيقة».

«لابد أن لها اسم. قل لي، ما هو؟».

قال الذئبي وعيناه تتحركان حركة متوترة... حركة كانت سماً قاتلاً للجهد الذي يبذله حتى يبتسم: «اسمها درومتاون».

«لابد أنها جحر بائس صغير حتى تنتج أشخاصاً مثلك. لا بأس، سأبحث عنها على الخريطة». فتح درج طاولته.

«إنها ليست على الخريطة... بلدة صغيرة جداً».

«لا بأس... إذا كان لها اسم فسوف تكون موجودة على خريطتي. كل شيء موجود فيها».

«ما أقصده أنها لم تصبح بلدة بعد من الناحية الرسمية. مجرد قرية صغيرة... ليس لها وجود رسمي بعد».

«وماذا يفعلون هناك؟».

«يستخرجون بعض الفحم. لا شيء مهماً». أسبل الذئبي عينيه. لا يزال مبتسماً بعض الشيء، لكن شفته السفلى تهدلت قليلاً فظهرت لثته من تحتها.

قال الرقيب: «أنت من عصابة فولي يا صديقي».

«لا، لم آتِ إلى هذه المدينة من قبل».

أمر الرقيب رجال الشرطة: «أحضروا جيمي».

جاء جيمي... بطيئاً عجوزاً... صعد الدرجات الضيقة القادمة من الزنازين السفلية. كان لحمه يشبه لحم امرأة بدينة عجوز. وكان في قدميه خفّ منزلي. أما صدره فكان مشدوداً تحت سترة مزررة. بدا كأنه موشك على الموت مع كل نفس يأخذه. لكن عينيه كانتا صاحيتين رغم أن كل شيء آخر كان غائماً... رأسه الرمادي المصفر ذو الشعر الأبيض... المطرق لشدة الإعياء والضعف... عيناه مدربتين جيداً، غريبتين عن أي شيء غير مهمتهما التي اعتادتا القيام بها منذ وقت بعيد... ما كان فيهما أي ملمح شخصي. حدق جيمي بستومي، ثم حدق بي، ثم تجاوزتنا نظراته واستقرت على الذئبي. قال له: «كنت هنا قبل ثلاث سنوات. لقد جرحت شخصاً وحبسوك ستة أشهر. ليست ثلاث سنوات... ستكتمل السنوات الثلاث في شهر أيار... بعد شهر من الآن».

يا لهذه الأداة التصنيفية العظيمة التي تفتّق عنها عقل الشرطة!

قال الرقيب: «والآن، ماذا تقول أيها المعتوه؟ بنسلفانيا؟».

«هذا صحيح. أمضيت في الحبس ستة أشهر. لكني لا أعرف فولي؛ هذه هي الحقيقة، ولم أسرق قطع سيارات أبداً. لا أعرف شيئاً عن السيارات».

«احبسوهم جميعاً».

كان علينا أن نفرغ جيوبنا. وكانوا يريدون التأكد من عدم وجود سكاكين أو كبريت أو أي شيء يمكن أن يسبب الأذى. أما بالنسبة لي، فما كان الأمر كذلك، بل كان يشبه استيلاء كيان أكبر منك على أشيائك الصغيرة كلها وجعلك تدرك أنك لم تعد رجلاً يملك أمره مثلما تكون في الشارع عندما تكون محتويات جيوبك أمراً من شأنك أنت وحدك: هذه هي الغاية من ذلك. وهكذا تركنا ما في جيوبنا عندهم ثم أخذونا إلى الأسفل مروراً بالزنازين التي تناثر أمامها القش كأنها أقفاص في حديقة الحيوان. نهض سجين من فراشه لينظر إلينا عبر القضبان. رأيت الأبكم الأصم ذا الرأس الجريح جالساً على سرير ذي طابقين ممسكاً برأسه كأنه مشعوذ. مضوا بنا حتى نهاية الممر حيث كان الرجل صاحب الذاكرة العظيمة نائماً على كرسي، أو لعلها كانت نوعاً من استراحة ممتدة طيلة الليل. كان كرسيه تحت مروحة التهوية. حشرونا في زنزانة ضخمة فانبعثت منها صيحة تقول: «ليس لدينا مكان هنا. لم يعد لدينا مكان». سمعنا شتائم وسمعنا صوت الماء في المرحاض. كانت زنزانة مزدحمة حقاً، لكنهم دفعونا إليها ففعلنا ما استطعنا فعله... جلسنا على الأرض. كان الأبكم الآخر هنا جالساً عند قدمَيْ شخص سكران، متكوّراً كأنه نائم في فتحة بين عمودين في أحد الجسور. كان مصباح ضخم يضيء الزنزانة ليل نهار. هذا المصباح بدا شيئاً مخيفاً كأنه حجر منتصب عند قبر.

وهناك، في النهار، خلف الجدار، بدأ ضجيج ضخم ممل خانق... قرقعة الشاحنات، وأصوات الآليات الثقيلة، وحافلات الترولي التي تسير بسرعة الحشرات كأنها تمر من ثقب إبرة.

يجب أن أعترف أنني لم أكن مصدوماً كثيراً بهذا الظلم الشخصي. أردت فقط أن أكون خارج هذا المكان، أن أكون حراً... هذا كل شيء تقريباً. عانيت أيضاً من أجل جوي غورمان، لأنهم أمسكوا به وضربوه.

لكني، منذ دخلت منطقة إيري، شعرت بأن فيها ظلمة. هكذا يشعر الجميع. لا يقوم المرء بجهد حتى يشعر ذلك (مثلما قد يتخيل البعض)، لا يضع قدماً فيها ليختبرها أولاً مثلما يفعل عندما يدخل إلى محل حلاقة في صباح يوم أيلولي. ولا يأتيها المرء متدلياً من الأعلى بفضول الزائر الذي يريد أن يرى مثل ذلك الملك الشرقي القديم الذي أدلوه بين

الأعشاب البحرية في كرة بحرية حتى يرى الأسماك. ولا يجد المرء هناك من يرفعه بعد عثرة عارضة مثلما رفعوا نابليون من الوحل في معركة آركولي حيث كان يقف رافعاً أنفه الذكي بينما راحت طلقات الهنغاريين تحفر الطين عند ضفة النهر. وحدهم اليونانيون، والمعجبون بهم، في وقت الظهيرة الحار السائل عندما تبلغ محبة جمال الأشياء البشرية اكتمالها، يظنون أنهم مفصولون عن هذه الظلمة تماماً. لكنهم، هؤلاء اليونانيون، في الظلمة أيضاً... رغم أنهم يظلون موضع إعجاب بقية الجاثمين في الوحل، الذين يقتلهم الجوع، الهائمين في الشوارع، الذين مزقتهم الحرب، أصحاب الحالات الصعبة ممن يتلقون الركلات في بطونهم، بنو البشر الحزانى، الجموع، السائرون يعبون غبار الفحم ودخان الفوضى... يعرفون جميعاً أين يعيشون.

تركونا في غبش الصباح الخفيف، في رائحة الصباح. بعد أن أعطونا قهوة وخبزاً للإفطار؛ تركونا، ستومي وأنا. أما الذئبي فاحتفظوا به لأنه مشبوه.

قال الشرطيون لنا: «اخرجا من البلدة. أعطيناكم مأوى الليلة الماضية، أما في المرة القادمة فسوف نعتبركما متشردين». كان قسم الشرطة يعيش حركة صاخبة في الصباح لأن أفراد الدورية الليلية كانوا يستعدون للذهاب... يحلون أحزمة مسدساتهم، ويرفعون قبعاتهم... جلسوا ليكتبوا محضر إطلاق سراحنا. لو كان هنالك قسم للشرطة بالقرب من طوبيا ليلة زاره الملاك لما كان مختلفاً عن قسم الشرطة هذا.

مضينا مع حركة السير فبلغنا حديقة كامبوس مارتيوس التي لا تشبه غيرها من الحدائق الكبرى التي أعرفها. كل شيء هناك من القرميد، كل شيء طيني، مع روائح الزيت ودخان منبعث من السيارات.

ذهبنا حتى نأخذ الترولي إلى آخر المدينة. وهناك هزّني قاطع التذاكر من كتفي حتى ينبهني إلى أننا بلغنا نقطة تبديل الخط. قفزت من الترولي ظاناً أن ستومي ورائي، لكني رأيته لا يزال نائماً عند النافذة عندما تحرك الترولي وقد أغلق أبوابه. قرعت على زجاج النافذة، لكنه لم يستيقظ. انتظرت نحو ساعة تقريباً قبل أن أذهب إلى نهاية الخط حيث يبدأ الطريق السريع. بقيت هناك حتى وقت الظهر تقريباً. لعله ظن أنني هربت منه؛ لكني لم أهرب! انتابني جزع وقنوط لأنني فقدته.

وأخيراً، بدأت رحلتي المجانية. أخذتني شاحنة في البداية إلى جاكسون. وهناك وجدت مأوى رخيصاً لقضاء الليل. وبعد ظهر اليوم التالي، صادفت مندوب مبيعات يعمل لدى شركة أفلام فأخذني معه. كان ذاهباً إلى شيكاغو.

الفصل العاشر

عندما جاء المساء كنا قد تجاوزنا غراي في اتجاه القسم الجنوبي من شيكاغو: الفم الناري المفتوح لمدينة تشدّنا صوبها. راحت أضواء الخليج المشتعل ترقص مرحّبة بعودة المهاجرين. يدخل المرء بلدته مثلما تدخل سمكة ماءها. وهناك تجلس السمكة الإلهية العظمى. ويعرّي المرء روحه مثلما تفعل سمكة صغيرة عادية أمام إله الأسماك عندما تصير في مياهها.

كنت أعرف أنني لست عائداً إلى الرخاء وراحة البال. وإذا رتبت الأمور من الأسهل إلى الأصعب، فلديَّ أولاً صاحبة البيت البولندية التي تجعجع دائماً طالبة المال؛ ثم ماما التي صارت، بالتأكيد، تشعر أنها لا تستطيع الاعتماد عليّ؛ ثم سايمون الذي لا بد أنه يخبئ لي الكثير. كنت مستعداً لسماع كلماته القاسية. وشعرت أنني أستحق بعض هذه الكلمات لأنني ذهبت في هذه الرحلة. إن عليه أيضاً أن يجيب عن بعض الأسئلة... البرقية مثلاً. لكني لم أكن ذاهباً إلى ذلك النوع المألوف من المشاجرات العائلية بما فيها من مشاعر جيّاشة ومهاترات كلامية... لا، هذا شيء مختلف، شيء أسوأ بكثير.

فتحت الباب امرأة بولندية جديدة غريبة لا تتكلم الإنكليزية أبداً. ظننت أن مدبرة المنزل العجوز قد تركت العمل وأن هذه المرأة حلّت محلها. لكن الغريب أن هذه المرأة الجديدة ملأت المطبخ بالقلوب النازفة والصلبان وصور القديسين. إن كانت تحتفظ بهذه الأشياء في مكان عملها فقط، فلن ترى ماما منها شيئاً بطبيعة الحال. لكني رأيت أيضاً أطفالاً صغاراً وتساءلت إن كان سايمون قد جلب أسرة كاملة. ثم انتبهت، من تركها إياي واقفاً عند الباب، أن الشقة لم تعد شقتنا. جاءت طفلة أكبر من الذين رأيتهم أولاً. كانت

ترتدي فستان مدرسة القديسة هيلين الأبرشية. قالت لي إن والدها اشترى الأثاث وأخذ الشقة من رجل كان يملكها. ذلك الرجل هو سايمون. إنه سايمون.

لكن، ألم تعد أمي هنا؟ أين أمي؟

«السيدة العمياء، إنها في الأسفل عند الجيران».

وضعتها أسرة كريندل في غرفة كوتزي التي ليس لها إلا نافذة صغيرة عليها قضبان تطل على ممر يستخدمه الناس معبراً مختصراً في ذلك الزقاق ويتوقفون فيه أحياناً للتبوّل. لا أستطيع القول إن وضعهم إياها في هذه الغرفة كان قلة ذوق منهم لأن بصرها تراجع إلى حد صارت معه بالكاد تستطيع التمييز بين الضياء والعتمة. لم تلتئم الجروح المطبخية العميقة في كفَّيْها... أحسست بها عندما أمسكت بيدي وقالت بصوتها المتقطع الذي صار أكثر انخفاضاً من السابق: «هل سمعت عن جدتك؟».

«لا، ماذا؟».

«لقد توفيت».

«أوه، لا!».

كانت هذه طعنة رمح! طعنة تغلغلت باردة عميقة في أحشائي فلم أستطع الحركة ولم أستطع شد ظهري بل جلست منحنياً. ماتت! فظيع. فظيع أن أتصور تلك المرأة العجوز ميتة، في تابوت، تحت الأرض، بوجه مغطى وأثقال مرمية فوقها، صامتة: تقلص قلبي أمام فكرة العنف هذه. لا بد أن الأمر كان عنيفاً. أيخنقونها الآن؟... هي التي كانت تزيح كل تدخل بعيداً عنها مثلما كانت تفعل بيد طبيب الأسنان! كانت مقاتلة شديدة رغم هشاشتها كلها. لكنها كانت تستطيع القتال عندما تكون واقفة مرتدية ملابسها، حية. أما الآن فلا بد لي من تصورها أسيرة مرمية في القبر، راقدة ساكنة. هذا كثير جداً!

لم أستطع احتمال هذا. تساقط دمعي فخبّأت وجهي بكمّي.

«كيف ماتت يا ماما، ومتى؟»

لم تكن تعرف شيئاً. أخبرها كريندل منذ أيام قليلة، قبل أن تنتقل إلى هذه الغرفة. وظلت في حداد منذ ذلك الوقت. ظلت في حداد وفق فكرتها هي عما يجب أن يكون عليه حدادها.

ما كان لديها في غرفة القبو هذه غير سرير وكرسي. حاولت أن أعرف المزيد من السيدة كريندل؛ حاولت أن أعرف السبب الذي جعل سايمون يفعل هذا. كانت السيدة كريندل في البيت لأنه وقت العشاء. عادة تكون في الخارج بعد الظهر، تلعب البوكر مع غيرها

من ربات البيوت. كن يلعبن متحمسات، ويقامرن بالمال. لا تسألوني كيف كانت تستطيع المحافظة على سكينة تماثل سكينة نعجة ضخمة!... كانت دائماً في توتر داخلي محموم بسبب القمار وبسبب مشاجراتها مع زوجها.

لم تستطع إخباري شيئاً عن سايمون. هل باع كل شيء حتى يتزوج؟ كان مستعجلاً إلى حد اليأس حتى يتزوج سيسي... قبل سفري. لكن الأثاث كان قديماً، فكم يمكن أن يكون هذا البولندي قد دفع ثمناً له؟ ما الذي يمكن أن يدفعه أي شخص مقابل موقد مطبخ كسيح؟ أو مقابل الأسرّة التي هي أقدم من ذلك الموقد؛ والأثاث الجلدي الذي كنا نقفز ونتزلق عليه عندما كنا صغاراً؟ إنه أثاث من القرن الماضي تقريباً. لعل أبي هو من اشتراه. هذا التفكير المؤلم كله! لا بد أن سايمون كان في حاجة فظيعة إلى المال حتى يبيع كل شيء، حتى يبيع الأثاث العتيق ويترك ماما في هذه الزنزانة عند أسرة كريندل.

كنت في غاية الجوع عندما كنت أطرح أسئلتي على السيدة كريندل، لكني لم أستطع أن أطلب منها وجبة طعام لأنني تذكرت أنها لم تكن كريمة عندما يتعلق الأمر بالطعام. سألت أمي: «هل لديك مال؟» لكن محفظتها ما كانت فيها إلا قطعة واحدة من فئة الخمسين سنتاً. قلت لها: «لا بأس، قد يكون هذا التغيير في مكان إقامتك فكرة جيدة... أقصد، إذا احتجت شيئاً ما، صابون مثلاً». لو ترك سايمون لها مالاً لأخذت منها دولاراً؛ لكن ماذا أفعل بنصف الدولار الأخير الباقي لديها؟ لو طلبته منه لأعطتني إياه؛ ستكون هذه فعلة بربرية، خاصة بعد وفاة الجدة. ثم إن أمي خائفة دائماً رغم أنها تظل منتصبة القامة، مثلما تفعل عندما تمرض، كأنها تنتظر نهاية المعاناة. لم تشأ أن تناقش معي ما فعله سايمون بل فضلت أن تظل متمسكة بفكرتها هي عن الأمر. ولم تكن تريدني أن أضيف شيئاً من عندي.

بقيت قليلاً بعد ذلك لأنني أحسست أنها تريد بقائي. وعندما أردت الذهاب، عندما أزحت الكرسي إلى الخلف قليلاً، قالت لي: «أأنت ذاهب، أين تذهب؟» كان هذا سؤالاً عن غيابي عندما بيعت الشقة. ما كنت قادراً على الإجابة عنه.

«إن لديّ تلك الغرفة في الناحية الجنوبية من المدينة، الغرفة التي أخبرتك عنها».

«وهل تعمل؟ هل لديك عمل؟»

«لدي شيء ما دائماً. ألا تعرفينني؟ لا تقلقي، سيكون كل شيء بخير».

عندما كنت أجيبها، رفعت وجهها صوبي قليلاً رغم عدم وجود سبب لذلك. أحسست بشيء يشبه ضربة على وجهي كما لو أن أحداً ضربه بمفتاح مسنَّن، حاد النتوءات... مفتاح لئيم سيئ النية.

انطلقت صوب بيت إينهورن. وفي الطريق، حيث بدأت براعم الأشجار تظهر في

ذلك المساء النيساني البنفسجي في شيكاغو، المساء العابق بالكربون وبروائح قاذورات أخرجت من المجارير عند تنظيفها، كان أشخاص متجمعين عند مصابيح الكنيس، في الخارج، في معاطف وقبعات جديدة حاملين حقائب مخملية مربعة من أجل أشيائهم الخاصة بالصلاة. كانت تلك أول ليلة من ليالي العيد، الليلة التي يجول فيها ملاك الموت على الأبواب غير المعلّمة بالدم فيأخذ أرواح المصلوبين المولودين حديثاً، ثم يندفع جمع اليهود في الصحراء. أوقفني كوبلين والعقارات الخمسة عندما أبصراني ماضياً عبر الشارع حتى أتجاوز الجمع. كانا على الرصيف فأمسكني العقارات الخمسة من كمي قائلاً: «انظر! من الذي في الكنيس اليوم؟» كان الاثنان مبتسمين، بدا عليهما أنهما استحمّا قبل قليل؛ وكانا في غاية النظافة، في أحسن حال.

قال كوبلين: «احزر ماذا!».

«ماذا؟».

قال العقارات الخمسة: «لا يعرف؟».

«لا أعرف شيئاً. كنت خارج المدينة. عدت الآن».

قال كوبلين: «العقارات الخمسة سوف يتزوج... أخيراً. سيتزوج فتاة جميلة. يجب أن ترى الخاتم الذي اشتراه لها. نعم، لقد انتهى من العاهرات الآن، أليس كذلك؟ آه، إنه يفعلها أخيراً».

«حقاً؟».

قال العقارات الخمسة: «عليك أن تساعدني! وأنا أدعوك إلى زفافي يا فتى، بعد أسبوع من الأحد القادم في صالة نادي لايونز، الجادة الشمالية، الساعة الرابعة. أحضر معك فتاة. لا أريد أن يكون لديك شيئاً ضدي».

«ولماذا يكون لديّ شيء ضدك؟».

«طيب، لا يجوز أن يكون لديك شيء. نحن أبناء عم، وأنا أريدك أن تأتي».

«أتمنى لك أياماً سعيدة». قلت هذا له وأنا أبذل أقصى ما أستطيع... وأنا أشكر الله على أن الظلام كان شديداً فلم يستطيعوا رؤيتي جيداً.

بدأ كوبلين يشدّ ذراعي. كان يريدني أن أذهب معه إلى عشاء الفُصح.

«تعال معي. تعال معي إلى البيت».

أأذهب ورائحة السجن فائحة مني، أأذهب قبل أن أهضم بؤسي وحزني؟... قبل أن أجد سايمون؟ قلت متراجعاً إلى الخلف: «لا، في وقت آخر، أشكرك يا كوبلين».

«لمَ لا؟».

«اتركه، إن لديه موعداً مع فتاة. هل لديك موعد؟».

«يجب أن أرى شخصاً في الحقيقة».

«إنه يبدأ الآن الفترة الشهوانية من حياته. أحضر فتاتك معك إلى الزفاف».

ظل ابن العم هايمان مبتسماً، لكن لعله كان يفكر في ابنته فلم يستحثني أكثر من ذلك؛ اكتفى بالصمت. وعند باب إينهورن، رأيت بافاتسكي نازلاً لتبديل القاطع الكهربائي المنصهر. أحرقته تيلي عندما استخدمت مكواة الشعر. وفي الأعلى، كانت إحدى المرأتين تتحرك صاخبة بينما اقتربت الأخرى بخطوات بطيئة غير واثقة وهي تحمل الشموع. ذكّرتني من جديد بليلة الخروج من مصر. لكن، لا عشاء ولا طقوس تقام هنا. كان إينهورن متقيداً بيوم مقدّس واحد، يوم الغفران، وكان ذلك فقط نتيجة إصرار ابن عم زوجته كاراس هولوواي.

«ماذا أصاب ذلك التافه السكير بافاتسكي؟».

قالت ميلدريد: «لم يستطع الوصول إلى علبة القواطع لأن القبو كان مقفلاً. ولذلك ذهب لإحضار المفتاح من زوجة البواب».

«إن كان لديها بيرة في البيت فسوف ننام في الظلمة اليوم».

وفجأة، رأتني تيلي إينهورن التي كانت تحمل شمعة في صحن صغير. رأتني على ضوء تلك الشمعة.

قالت: «انظر، إنه أوجي».

قال إينهورن: «أوجي! أين هو؟» راح يحدّق سريعاً في الضوء المتراقص... «أوجي، أين أنت؟ أريد أن أراك».

تقدمت وجلست إلى جانبه. هز كتفه مشيراً بأنه راغب في مصافحتي.

«تيلي، اذهبي إلى المطبخ وأعدّي لنا القهوة. ميلدريد، أنت أيضاً». جعلهما تعودان إلى المطبخ المظلم... «وافصلي مكواة الشعر تلك أيضاً. إن أدواتهن الكهربائية هذه تصيبني بالجنون».

«إنها مفصولة». قالت ميلدريد ذلك بصوت يوحي بالتعب من اضطراره إلى هذه

الإجابات، لكنه مستعد لها دائماً. إلا أنها كانت مطيعة في كل أمر فأغلقت الأبواب وصرت وحدي معه. صرت في محكمته الليلية. ظننت، على الأقل، أنه كان يكشر تجاهي تكشيرة عنيفة. لم يصافحني إلا ليعطيني إحساساً رسمياً بأصابعه وبمدى عمق برودته. صارت الشموع أنيسة في نظري الآن كأنها هي نفسها الشموع المغروزة في أرغفة الخبز في الليل، شموع سائرة في بحيرة هندية ليلية حتى تجد الجسد الغريق الذي غاص إلى القاع. صار شعره الأبيض قريباً الآن من زجاج مكتبه... كان يحاول إخراج سيجارة وإشعالها (كعهده دائماً... ذلك الصراع المنهجي وجذب الذراعين من الأكمام... مثل عمل النمل الصبور). وعندها بدأ ينفث الدخان ويستعد للكلام. قررت أنني لا يمكن أن أسمح بتوبيخي كطفل في العاشرة من أجل قصة جوي غورمان، فلا بد أنه يعرفها الآن. يجب أن أتحدث معه عن سايمون. لكني أحسست عند ذلك أنه لا يعتزم إلقاء محاضرات عليّ. لا بد أنني بدوت في حالة مزرية: مكتئباً، منهَكاً، محترقاً... مدفوعاً إلى أقصى حدود التحمل. عندما التقينا آخر مرة، كانت نعمة إيفانستون ظاهرة علي. جئت يومها أستشيره في ما يتعلق بمسألة التبني.

«أرى أنك لم تكن في أحسن حال في الآونة الأخيرة».

«هذا صحيح».

«لقد ألقيَ القبض على غورمان. كيف استطعت الإفلات؟».

«بفعل الحظ وحده».

«الحظ؟ كنت في سيارة مسروقة حتى من غير تبديل لوحاتها! عليك أن تحدثني عن انعدام العقل هنا! حسن، لقد عادوا به إلى هذه المدينة. ظهرت صورته في صحيفة التايمز. أتريد رؤيتها؟».

لم أكن راغباً في رؤيتها لأنني أعرف ما سوف أراه فيها: سأراه بين شرطيين ضخمين؛ ولعله يحاول إنزال قبعته على عينيه بقدر ما تسمح له بذلك يداه المقيَّدتان... يريد أن يوفّر على أسرته رؤية عينيه مباشرة في الكاميرا، أو رؤية وجهه المضمَّد. يكون الأمر هكذا دائماً.

قال إينهورن: «كيف استغرقت عودتك هذه الأيام كلها؟».

«تشردت بضعة أيام، ولم أكن محظوظاً».

«ولماذا تتشرد؟ قال لي أخوك إنه سيرسل لك المال إلى بوفالو».

ارتفع حاجبيَّ دهشة: «ماذا؟ هل جاء إليك وأخبرك؟ هل تقصد أنه حاول أن يقترض منك مالاً؟».

«لقد أخذ مني مالاً. وقد أعطيته قرضاً آخر أيضاً».

«أي قرض؟ لم يصلني منه شيء».

«هذا سيئ جداً. لقد كنت غبياً. كان يجب أن أرسل إليك المال بنفسي. أوف!» أخرج لسانه ولمعت عيناه... ظهرت عليه الدهشة والمفاجأة... «لقد خدعني ـ لا بأس، لقد خدعني! لكن ما كان يجوز أن يخذلك هكذا. خاصة أنني أعطيته هذا المال فوق المال الذي أقرضته إياه بشكل شخصي. هذا كثير، حتى إن كان في حالة سيئة».

كنت في غاية المرارة والغضب، لكني أحسست بتقدم موجة من شيء أكثر سوءاً، شيء يتجاوز عمق مشاعري الحالي.

«ماذا تقصد بأنه كان في حالة سيئة؟ ما الذي جعله يجمع المال؟ ماذا أراد؟».

«ربما ساعدته لو أخبرني عن السبب. أقرضته المال لأنه شقيقك؛ أما غير ذلك فأنا لا أكاد أعرف شيئاً عن الرجل. أراد أن يشتري شيئاً بالشراكة مع نوزي موتشنيك ـ الشخص الذي بعته تلك القطعة من الأرض. هل تذكر؟ أستطيع تسوية أموري معه الآن، لكن شقيقك غرّ. جعل نفسه شريكاً في مجموعة للقمار. وعندما لعب فريق وايت سوكس أول مباراة له في هذا الموسم أخبروه أنه خسر نصيبه وأن عليه أن يحضر مئة دولار أخرى إذا أراد البقاء معهم. أعرف القصة كلها الآن. انتزعوا منه المئة دولار الثانية أيضاً. تلقى ضربة في وجهه لأنه صار عَجولاً. ألقى به الأوباش العاملون مع موتشنيك في ساقية. هذا ما حدث. وأظن أنك تعرف السبب الذي جعله راغباً في جني المال سريعاً. هل تعرفه؟»

«نعم، أراد أن يتزوج».

«أراد أن يعتلي ابنة جوي فليكسنر التي سلبت عقله. لن يستطيع ذلك أبداً».

«لم لا؟ إنهما مخطوبان».

«بدأت أشعر بالأسف على أخيك رغم أنه ليس ذكياً جداً. وإذا كنت قد فقدت ثمانية وسبعين دولاراً...» صرت أرى صورة سايمون مضروباً مدمّى ملقى في الساقية، فاكتفيت بالإصغاء ولم أتحدث عن وفاة جدتي، ولا عن أثاث أمي، ولا عن إخراجها من البيت. قال إينهورن: «لن تتزوجه الآن».

«ماذا؟ لن تتزوجه! أخبرني!».

«سمعت الأمر من كريندل. لقد رتب أمر زواجها من واحد من أقربائك».

صحت قائلاً: «لا تقل لي إنه العقارات الخمسة... هل هذا صحيح؟».

«نعم إنه قريبك نفسه. سوف يكون هو الذي يفتح هاتين الساقين الرائعتين».

«أوه، اللعنة! لا! لا يستطيعون أن يفعلوا هذا بسايمون».

«لقد فعلوه».

«أظن أنه صار على علم بالأمر الآن».

«إنه يعلم! ذهب إلى محل فليكسنر وأثار شغباً هناك، وحطم الكراسي. مضت الفتاة وحبست نفسها في المرحاض، ثم كان على فليكسنر أن يطلب الشرطة. جاءت سيارة الدورية واعتقلته».

هو معتقل أيضاً! تألمت من أجل سايمون. هذا جنون. حطمني سماع ما حدث.

قال إينهورن: «شيء يدعو إلى السخرية، أليس كذلك؟» أراد أن يجعلني أدرك كل شيء تحت وطأة تحديق عينيه الضاريتين... «انتقلت حبيبته إلى الفريق الآخر...»

«وأين هو سايمون؟... في السجن؟»

«لا! أسقط فليكسنر الشكوى عندما وعده سايمون بالكف عن إثارة المشاكل. فليكسنر رجل محترم. لقد أفلس من غير أن يكون مَديناً لأحد. لم تسمح له أخلاقه بذلك. وهو شهم أيضاً. احتفظوا بشقيقك ليلة واحدة ثم أخلوا سبيله في الصباح».

«هل أمضى الليلة الماضية في السجن؟».

قال إينهورن: «ليلة واحدة، هذا كل شيء. أما الآن فهو خارج السجن».

«لكن، أين هو؟ هل تعرف؟».

«لا! لكني أستطيع القول لك إنك لن تجده في البيت».

لقد أخبره كريندل عن أمي؛ وهو يستعد الآن لأن يُسمعني كل شيء. لكني قلت له إنني كنت في البيت... أدرك أنني أعرف. جلست أمامه عارياً. ما كنت أعرف أين أذهب، وما كانت عندي قدرة على الذهاب.

حتى هذه اللحظة ظلت أسرتنا محتفظة بشيء من الخصوصية، حتى وإن كان معروفاً أن والدنا هجرنا عندما كنا صغاراً وأننا نعيش على مساعدة الجمعية الخيرية. وفي أيام جدتي، لم يكن لدى أحد (حتى العامل الاجتماعي لوبين) معلومات دقيقة عنّا. كنت أذهب إلى مركز توزيع الأشياء المجانية فأقوم بهذه الخديعة أو تلك لا من أجل المال فحسب، بل حتى يكون لدينا إحساس بأن عندنا شيء من القدرة على التحكم بأنفسنا. أما الآن فما عادت هنالك أسرار، وصار كل مهتم بمعرفة شيء عنا يستطيع أن ينظر إلينا كما يريد. لعل هذا هو الاعتبار الذي منعني من إخبار إينهورن بأصعب الأشياء على الإطلاق... بأن جدتي ماتت.

بدأ إينهورن كلامه من جديد محاولاً رفع معنوياتي: «إنني آسف من أجلك، وآسف من أجلكم؛ وآسف من أجل أمك خاصة. أما شقيقك فقد تفوّق على نفسه. راح يجري كأن ذيله يطارده. ما الذي جعله مندفعاً إلى هذا الحد؟».

فكرت في أن هذا السؤال نابع، جزئياً، من حسده تجاه أي شخص يمكن أن تكون لديه هذه الحرارة وأن يكون لديه هذا الاندفاع. لكن إينهورن، من هذه الناحية، لا يمكن أن يكون غير متعاطف كلياً.

اندفع في الكلام. اندفع في كلماته الكبيرة، فأضاع هدفه الأول الذي كان منحصراً في جعلي أشعر بشيء من الراحة... دخل في حالة من المرارة الشديدة التي جعلته يحاول تكوير قبضتيه وضرب الطاولة أمامه. قال: «لماذا تهتم إن كان شقيقك قد تلقى ضربة على مؤخرته؟ لقد استحقها. تركك واقعاً في حفرة، وباع البيت، وأخذ مني المال من أجلك أنت لكنه لم يرسل إليك قرشاً منه. إن كنت صادقاً مع نفسك فعليك أن تكون مسروراً الآن. وسوف تحسن إلى نفسك إن قلت هذا؛ بل سوف أحترمك أكثر إن قلته».

«أقول ماذا؟ أأقول إن الذنب كله ذنبه هو وإنني سعيد بذلك؟ أأقول إن وقوعه في الحب جعله لا يبالي بما يصيب أمنا؟ أو أقول إنه بائس فحسب؟ لماذا يجب أن أكون مسروراً يا إينهورن؟».

«ألا تدرك المزية التي صارت لديك منذ الآن؟ لم يعد عليك أن تراعيه. بل هو المضطر إلى تعويضك الآن. لقد انتقلت المزية إليك أنت، وصرت ممسكاً به من خصيتَيْه. ألا تفهم هذا؟ وإن كان هنالك شيء واحد يمكن أن تخرج به من الأمر كله الآن، فهو إقرارك، على الأقل، بأنك مسرور بما أصابه. يا إلهي! لو فعل بي أحد هذا فسوف أكون بالتأكيد راضياً إذا مات أو إذا أحرق نفسه حياً. وإن لم أكن مسروراً بذلك فعليَّ أن أقلق لأن عقلي لا يعمل جيداً. يستحق ما جرى له! هذا جيد، جيد!».

لست واثقاً من السبب الذي جعل إينهورن ينقضّ عليَّ بهذه الوحشية كلها ليوقظ القنوط في نفسي. بل إنه نسي حتى أن يغضب مني من أجل قصة جوي غورمان. أظن أنه كان (في زاوية قصية من عقله) يفكر في ميراث دينغبات الذي أضاعه. لعله لم يكن يريد أن أصبح موضع ازدراء من النوع الذي يحسه تجاه دينغبات لأنه لم يغضب منه. لا، بل كان هنالك أكثر من ذلك، هنالك شيء آخر كامن خلف اندفاعه بهذه القوة كلها رغم أن كفَّيْه ظلا مبسوطَيْن أمامه على الطاولة. كان يريد أن يجعلني أرى أننا ما عدنا قادرين على التعبير بالفعالية الكافية عندما نستخدم الطرق القديمة، لأننا صرنا خاوين من أي رؤى، صرنا في صيغة هلامية بشرية عارية. على المرء أن يقرر بنفسه، أو أن يقبض على الحقيقة بقوة... عليه أن يصنع قوة من الخسارة وأن يحقق تقدماً من خلال وجود أعداء له، حتى إن

كانوا أقوياء أو مخيفين... عليه أن يستفيد من كونه أخاً، لا أن يشعر بالقهر نتيجة ذلك... عليه أن يمتلك قوة الصوت التي تجعل الأصوات الأخرى تسكت ـ المبدأ نفسه من أجل الأشخاص، ومن أجل الشعوب والأحزاب والدول. هذا ما يجب أن يكون، وليس الرجل الذي يشبه دجاجة منتوفة، المضروب على مؤخرته، صاحب الوجه القلق الذي تعلوه غضون الأسف والحزن.

بدأ النور يعود الآن بينما راح بافاتسكي يعبث بعلبة القواطع. واكتشفت أنني بدأت أبكي بدلاً من عودة النور. أظن أن إينهورن خاب أمله، بل ربما شعر بشيء من الصدمة لأنني أخفقت في متابعة المسار الذي أراد أخذي فيه إلى ما يجب أن تكون عليه روحي. بدأ يُظهر لي رقّة باردة كأنه أمام فتاة: «لا تقلق، سوف نتدبر شيئاً من أجل أمك». قال هذا لأنه ظن أن تلك هي مشكلتي الكبرى. لم يكن يعرف أنني حزين على جدتي أيضاً. «أطفئ هذه الشموع. سوف تحضر تيلي القهوة والشطائر. يمكنك النوم مع دينغبات هذه الليلة. وسوف نبدأ شيئاً غداً».

بحثت عن سايمون في اليوم التالي فلم أستطع العثور عليه. لم يذهب لرؤية ماما. لكني وجدت كريندل في البيت، وجدته يتناول إفطاراً متأخراً... لفافات الخبز مع سمكة مدخّنة. قال لي: «اجلس وكل لقمة معي».

«أرى أنك استطعت أخيراً أن تعثر على عروس لابن عمي». قلت هذه الكلمات لذلك المدفعي صغير العينين ناظراً إلى عضلات ذراعه القصيرة القوية تعمل على تقشير السمكة الذهبية الصغيرة. كنت أنظر إلى توتر مفصلَيْ فكّيْه المتوافق مع حركة يده.

«إنها جميلة. ثديان جميلان! لكن، لا تلُمني يا أوجي. أنا لم أجبر أحداً على شيء. لا أستطيع إجبار أحد على شيء. لا أستطيع خاصة إجبار ثديين مثل هذين الثديين. أتعرف شيئاً عن الفتيات الشابات؟ آمل أنك تعرف هذا! نعم، عندما يكون لدى الفتاة أشياء من هذا النوع لا يستطيع أحد أن يملي عليها ما يجب أن تفعله. هنا أخطأ شقيقك لأنه حاول إجبارها. إنني آسف من أجله». همس وهو يرفع نظره ليتأكد من أن زوجته بعيدة: «إن هذه الفتاة تجعل ذلك الشيء الذي عندي يهبّ واقفاً... في سنّي هذه... ليحيّيها! وهي على أية حال أكثر استقلالاً من أن يستطيع شاب ضبطها. إنها في حاجة إلى رجل أكبر، إلى رأس باردة تستطيع أن تقول نعم ثم تفعل شيئاً مختلفاً. أما إن كان الأمر غير ذلك فسوف تدمّره. ولعل سايمون أصغر من أن يتزوج أيضاً. أعرفكم منذ كنتم صغاراً يسيل مخاطكم على أفواهكم. اعذرني، لكن هذا صحيح. أما الآن فقد كبرتم، وهذا يعني أنكم جائعون... وتظنون أنكم جاهزون للزواج... لكن، لم العجلة؟ لا يزال أمامكم كثير من الألعاب قبل أن تستقروا. خُذْ! إن كانوا يقدمون لك شيئاً فخذه ولا تتأخر! لا ترفض أبداً

أن تكون مع امرأة صغيرة مزقزقة تغني لك في أذنك... إنها حياة الروح!» قال لي هذا وهو يقلص عينيه بطريقة غريبة كأنه قَوّاد. بل أفلح في جعلي أبتسم أيضاً رغم كوني في مزاج بعيد عن الابتسام. تابع يقول: «وفوق هذا، تستطيع أن ترى أي رجل هو شقيقك... عندما وضع ذلك الأمر في رأسه صار مستعداً لبيع الأثاث والبيت ولإلقاء أمه في الخارج».

توقعت منه أن يفعل هذا، وأردت أن أنتقل من الدفاع إلى المسألة العملية، مسألة مساعدة أمي. لطالما كان كريندل جاراً لطيفاً إلى حد مقبول، لكنا ما كنا نستطيع أن نتوقع منه قبول بقائها في بيته. خاصة وأن سايمون الآن صار يعتبره أول أعدائه. ثم إنني لا أستطيع أن أتركها مقيمة في هذا القبو القرميدي. قلت لكريندل إنني سوف أدبر ترتيباً آخر من أجلها.

ذهبت للاستعانة بنوبل في الجمعية الخيرية الواقعة في شارع ويلز الكئيب. كان نوبل يزورنا دائماً كنوع من عَمٍّ راعٍ، من بعيد. أما في مكتبه، وفي عيني اللتين نضجتا الآن، فقد كان مظهره مختلفاً. كان فيه الآن شيء يسأل عن هدف الجمعية من مساعدة البائسين الفقراء بالمال: كان صاحياً، منتبهاً، مزرراً سترته كلها، نظيفاً، حزيناً، متواضعاً. كان تشوش وحزن هذا الميدان الذي وجد نفسه فيه يجعله شخصاً عاقلاً. ما كان فيه إلا شيء بسيط من ثقل التنفس يلفت الانتباه إلى ثخانة منخريه ويجعلك تشعر بشيء من الصعوبة التي يواجهها، وبمدى مشقة أن تكون صبوراً. جعلني هذا الشخص الضخم أرى كيف صار القرد مستأنساً وكيف تطور فصار لديه بنطلونات ومكاتب. إنها عكس الصورة المشوهة لآدم الذي تسقطه خطيئته من جنة عدن؛ أو هي عكس النسخة السيئة نفسها التي تثيرها وتحرضها وعود العظمة، وعود استعادة قداستها وملكوتها الذهبي. كانت قناعة نوبل أنه لم يسقط من الفردوس بل ارتفع من الكهوف. لكنه كان رجلاً طيباً، ولم يكن هذا الاعتقاد وقاحة منه... كان وجهة نظر فحسب!

عندما أخبرته إننا، سايمون وأنا، نود العثور على بيت لأمّنا، لا بد أنه فكر في أننا نتخلص من الجميع... جورجي أولاً، ثم جدتنا، والآن ماما. وهذا ما جعلني أقول له: «هذا أمر موقّت فحسب... ريثما نقف على أقدامنا؛ وعند ذلك سوف نجد شقة ومدبرة منزل لتخدمها». لكنه تلقى عباراتي هذه بجفاف شديد. لم يكن هذا أمراً مثيراً للاستغراب بالنظر إلى مظهري في تلك اللحظة، مظهر المشرَّدين... كنت في أنقاض ملابس أيام النعمة، محمرّ العينين، يبدو شكلي كأنني آكل مما أجده في القمامة. لكنه قال إنه يستطيع وضعها في مأوى للعميان في شارع آرثينغتون إذا كنا قادرين على دفع جزء من التكلفة. اتضح أنه يتحدث عن خمسة عشر دولاراً في الشهر.

لم أكن أتوقع أفضل من هذا. وقد أعطاني أيضاً رسالة صغيرة أذهب فيها إلى مكتب للاستخدام؛ لكني لم أجد لديهم عملاً في ذلك الوقت. مضيت إلى غرفتي في الناحية

الجنوبية وأخرجت القسم الأكبر من ملابسي: البدلة الرسمية، وملابس الرياضة، والمعطف الجلدي. ذهبت بها إلى متجر الرهونات وحصلت على المال اللازم لترتيب إقامة أمي ثم بدأت أبحث عن عمل. وبما أنني كنت «حافياً عند الجدار»، مثلما يقولون، فقد قبلت أول عمل جاءني. لم أعمل قبل الآن أبداً في شيء أكثر إثارة للفضول من هذه الوظيفة.

أمّنَ لي إينهورن هذه الوظيفة من خلال كاراس هولوواي الذي كانت له مصالح مالية في هذا المجال. كان عملي في مؤسسة تقدم خدمات الرفاهية للكلاب في شارع نورث كلارك بين مجموعة من البارات الرخيصة ومتاجر الرهونات والأنتيكات والمطاعم البائسة. صرت أقود في الصباح سيارة ستيشن صوب منطقة الشاطئ الذهبي لأجمع الكلاب من المداخل الخلفية للفيلات الفاخرة أو عبر مصاعد الخدمة في الشقق الفندقية على شاطئ البحرية؛ وبعد ذلك أعود بالحيوانات إلى «النادي»... يسمونه نادياً!

كان صاحب العمل رجلاً فرنسياً... يدرب الكلاب أو يعتني بشعرها أو يعلمها شيئاً ما. كان خشناً غزير الشعر من ساحة كليشي عند كاتدرائية مونتمارتر. فهمت مما قاله لي إنه كان مرافقاً لأحد المصارعين في إحدى المباريات بينما كان يدرس من أجل مهنته الحالية. كان وجهه خالياً من الإنسانية على نحو ما، لكنه كان ذا صلابة حيوية وتلوّن مفاجئ... مثل مفعول حقنة. كانت علاقته مع الحيوانات صراعاً دائماً. كأنه يحاول استخراج شيء منها. لا أعرف هذا الشيء. لعله أراد أن تكون نظرتها إلى الكلاب مثل نظرته هو. كان يعيش كأنه منفي في شيكاغو لأنه يغسل ملابسه ويكويها بنفسه ويقوم بمهمة التسوّق ويطبخ وجباته في واحدة من زوايا مكانه الكلبي هذا... مختبره، ومطبخه، وغرفة نومه. أدرك بشكل أفضل الآن معنى أن يعيش فرنسي في الخارج، وكم يبدو كل شيء غير طبيعي... ليس في الخارج فقط، بل في شارع نورث كلارك. لم يكن موقعنا جحراً صغيراً، بل هو طابقان اثنان في بناية جديدة حديثة قريبة من الشاطئ الذهبي في مكان لا يبعد كثيراً عن موقع مجزرة يوم سان فالنتاين ولا عن مقر الجمعية الإنسانية في غرانت آفنيو. كانت مزية عظيمة لهذه «المؤسسة» التي يدفع الزبائن قيمة اشتراكاتهم فيها. إنها نادٍ للكلاب حيث تلعب هذه الحيوانات وتتسلى ويجري تنظيفها وتدليكها والعناية بقوائمها وتقليم أظافرها، وحيث يفترض أن يجري تعليمها آداب السلوك وبعض الحيل أيضاً، كان رسم الاشتراك عشرين دولاراً في الشهر؛ وما كان هنالك نقص في الكلاب أبداً، بل كان الطلب أكثر مما يستطيع غييوم استقباله. فكان يخوض مشاجرات دائمة مع مكتب الاستقبال الذي يحاول تجاوز الطاقة الاستيعابية. كان الضجيج هائلاً في ذلك المكان، وكنت أسمع عواء الكلاب عندما أسير قادماً من موقف الباص فأخلع حذائي الخفيف وأضع جزمة مطاطية. عواؤها يجعل الزجاج الذي تنيره السماء يرتعد. لكن التنظيم في هذا المكان كان عظيماً. يعرف غييوم كيف يقوم بهذا العمل جيداً... اترك الناس على هواهم قليلاً وسوف يبنون لك شيئاً

عظيماً. الضجة الفظيعة، كما في المحطة الرئيسية، كانت مجرد احتجاج الفوضى على التنظيم ـ كانت العناية بالكلاب تجري بدقة مثلما تنطلق القطارات في مواعيدها المحدَّدة.

كان غييوم يستخدم الحقن أكثر مما أظنه ضرورياً. يعطي الكلاب حقناً من أجل كل شيء، ويتقاضى لقاءها مالاً إضافياً. يقول: «هذه الكلبة مصابة بالجرب»، ثم ينقضّ عليها بحقنة. وكان أيضاً يعطي الكلاب قطرات عيون أو يعطي المتوحش منها مادة مهدئة كلما تعرض التنظيم للخطر، ويصيح: «سوف يحصل هذا الوغد على ما يستحق». ونتيجة ذلك، كنت أعود ببعض الكلاب المنهارة تماماً. ما كان سهلاً أن أصل حاملاً كلباً نائماً من نوع بوكسر أو شيبرد ثم أقول للطباخة الملونة إن الكلب مرهق لكثرة اللعب والبهجة. وما كان غييوم أيضاً متسامحاً مع الكلاب المتهيجة. كان يصيح حانقاً ثم يقول لي قلقاً: «هل حدث شيء هناك في الخلف؟» لكني كنت أقود السيارة، فكيف لي أن أعرف؟ كان يغضب كثيراً من أصحاب الكلاب، خاصة إذا كان الحيوان «كلباً أصيلاً» وأرستقراطيته ليست موضع احترام. ويبلغ موظف الاستقبال بأن يتقاضى أجراً إضافياً في هذه الحالة مقابل السماح لتلك الكلاب أن تدخل ناديه. كان وجود «شجرة عائلة» للكلب يجعله ودوداً؛ ويصبح عندها قادراً على أرفع درجات التهذيب، إن أراد ذلك. فيضغط على شفتيه ليجعلهما على شكل خط مستقيم ناطق بازدراء الوضاعة... التي هي عكس «النسَب الرفيع».

كان يجعل العاملين جميعاً يأتون إليه، صبيّان زنجيان وأنا، حتى يرينا نقاط التميز في الحيوان. أستطيع القول إن القمة المفضلة لسيرته المهنية كانت إقامة معرض للكلاب تحت إشرافه. كان توفر كلب من هذا النوع تحت يديه يمنحه فرصة إظهار مواهبه أمامنا. وكنا ننظر نظرة إعجاب واحترام، إليه وإلى الحيوان الصغير المطيع كالحمل.

لكن هذا العمل كان مرهِقاً لي؛ وكانت رائحة الكلاب فائحة مني دائماً. يبتعد الناس عني في حافلات النقل العامة مثلما يبتعدون عن شخص يعمل في اسطبل للخيل، أو ينظرون نظرات مواربة ويدسون أفواههم وأنوفهم في ياقاتهم ليحجبوا الرائحة عنهم. وكان هنالك شيء آخر يزعجني في هذا العمل... ذلك الرغد المقدم للكلاب، ثم طرقها في السلوك التي تعكس عقلية متمدنة ومزاجاً أفسده الدلال... مرايا للعصابية الموجودة عندها. وكانت تأتيني غالباً فكرة واخزة تقول لي إن تكلفة عضوية الكلب في النادي أكبر مما كان عليَّ أن أدفعه من أجل أمي في المأوى. استولت علي هذه الأمور كلها دفعة واحدة، وكان لديَّ أمر آخر يدفع في الاتجاه نفسه: تقصيري وإهمالي تطوير نفسي. علي أن أكون أكثر طموحاً! كنت كثيراً ما أنظر إلى إعلانات في المجلات تطلب أشخاصاً لديهم إعداد مهني. فكرت مرات كثيرة في الالتحاق بمدرسة تدريب ليلية حتى أصير كاتب اختزال، إن استطعت؛ بل كنت أفكر حتى في العودة إلى الجامعة حتى أحقق شيئاً أكبر من هذا. وكانت ذكرى إستر

فينكل تأتيني أحياناً لأن هذا العمل جعلني على صلة بالمجتمع الرفيع الذي يمتلك تلك الكلاب. لم تسنح لي فرصة لإلقاء نظرة عبر باب خلفيّ من أبوابهم إلا وتهتز روحي بحثاً عنها... وأشياء طفولية أخرى من هذا القبيل. تظل شمس الروح الطفولية مشعّة حتى عندما تعلو أجسام أكبر النجوم حرارة أكثر فتذيبك وتحيطك بتأثيرها. لعل النجوم التي تأتيك آخر الأمر تكون أكثر أهمية، وأنت تراها أكثر أهمية، لكن شمسك الأولى تظل زمناً طويلاً.

جاءتني بعض نوبات الوله، ثم وخزات جنس أكثر عمقاً فيما بعد... لعلها بسبب العمل في خدمة الحيوانات. كان لهذا الشارع إثارة جنسية أيضاً: البارات الرخيصة، وصور الأثداء والسيقان المزيَّنة بحلقات من الدانتيللا. وهنالك أيضاً صديقة غييوم التي كانت نموذجاً حقيقياً للمؤخرة الضخمة والثديين الهائلين؛ امرأة في منتصف العمر تذهب إلى الفراش مباشرة وتنتظره بينما نقوم بإغلاق المحل وقت المساء... تهمهم هناك كأنها شجرة ضخمة. لكني ما كنت قادراً على فعل الشيء الكثير بخصوص حاجاتي. ورغم ما يحمله هذا من مغامرة بمصادفة أحد من آل رينلينغ في ذلك الحي، فقد ذهبت إلى إيفانستون بحثاً عن صديقتي ويلّا في مقهى سينيغتون، لكنها كانت قد تركت العمل حتى تتزوج. أغضبتني أفكار عن الفراش الزوجي عندما كنت عائداً بالحافلة، وأفكار عن سلوك العقارات الخمسة مع سيسي، وعن أخي الذي فقد صوابه عندما انهمك في التفكير في الزفاف وشهر العسل.

ظل سايمون بعيداً عني تلك الفترة كلها ولم يجب على أي من الرسائل التي كنت أتركها له مع ماما وفي أماكن أخرى. أدركت أنه يمرّ بمرحلة صعبة. لم يكن يعطي ماما نقوداً على الإطلاق. وقال لي الأشخاص الذين يصادفونه إنه يبدو في حالة سيئة. وهكذا كان ابتعاده في جحر، في غرفة ما مثل غرفتي (أو أسوأ منها)، أمراً مفهوماً. لم يجد نفسه في يوم من الأيام مضطراً إلى أن يكون خجلاً منكسراً أمامي، وأن يكون مضطراً إلى تقديم أعذار وتفسيرات؛ وهو لن يفعل هذا الآن أيضاً. وضعت خمسة دولارات في آخر رسالة إليه. أخذ ذلك المال، لكني لم أسمع منه شيئاً إلى أن صار قادراً على إعادته. كان ذلك بعد عدة شهور.

كانت بين مقتنياتي التي نجت عند بيع الأثاث مجموعة أنطولوجيا الأعمال الكلاسيكية الصادرة عن جامعة هارفارد. أعطاني إينهورن هذه المجموعة بعد أن تضرّرت بفعل الحريق. أتيت بها إلى غرفتي وصرت أقرأ فيها كلما استطعت. كنت أقرأ مقطعاً عن هولم هولتز ذات يوم جالساً بين السيارات الواقفة عند زاوية أحد الشوارع في قلب المدينة عندما أخذ الكتاب من يدي شخص كان زميل دراسة لي في كلية كريل، مكسيكي اسمه باديلا. أخذ الكتاب ليرى ما أقرأه ثم أعاده قائلاً: «لماذا تقرأ هذه الأشياء؟ لقد تركها الناس منذ زمن بعيد». ثم بدأ يخبرني عن الكتب الحديثة؛ وكان عليَّ إفهامه بأنني غير قادر على مجاراته في هذا. سألني عن أحوالي؛ ودار بيننا حديث طويل.

لقد كان باديلا أعظم من يحل معادلات الرياضيات في صفنا. كان يجلس في آخر الغرفة يحك مقدمة أنفه الحاد ويعمل على قطع من الورق رماها الآخرون فاستعادها وسَوّاها لأنه ما كان قادراً على شراء دفتر يكتب فيه. وعندما يُستدعى إلى اللوح بعد أن يفشل الآخرون، كان يأتي مستعجلاً بملابسه البيضاء، أو الصفراء الرمادية القذرة المصنوعة من أرخص أنواع القماش، وبقدميه المكشوفتين في صندل من هبات «جيش الخلاص»؛ ثم يبدأ بكتابة الإجابات فيحجب جسده النحيل الكتابة الطبشورية وتبدو علامات اللانهاية كأنها نمال متكسّرة، وتنهمر الحروف اليونانية وصولاً إلى علامة المساواة الأخيرة التي تسبق الحل النهائي. كنت أرى شيئاً إلهياً في أن تكون العلاقات الرياضية واضحة هذا الوضوح كله أمام أي شخص. وبعد ذلك يعود سريعاً إلى مكانه مطقطقاً بحذائه الواسع على قدميه لأنهما من غير جوارب. لكن وجهه بأنفه المدبّب وجلده الذي ترك عليه الجدري آثاره، لم يكن يبدي أي مشاعر سرور خاصة، كما نفهمها. ما كان يعبر كثيراً عما نفسه على أية حال. كان يبدو شديد البرد أكثر الأحيان. لست أتحدث عن شخصيته الآن، بل أقصد أن ذلك الشتاء كان شديد البرودة، وكنت أراه أحياناً يطير مندفعاً في بدلته البيضاء في شارع ماديسون، عابراً الثلوج، جارياً من البيت حتى يدفئ نفسه قليلاً في المدرسة. ما كان يبدو عليه الدفء أبداً، بل البرد الصقيعي والمظهر المريض اللذان كانا يشكلان مانعاً بدائياً في وجه أي شخص يريد الاقتراب منه. كان يدخن سجائر مكسيكية ويمضي في ممرات المدرسة وحده حاملاً في يده مشطاً أكثر الأحيان، مشط يجريه في شعره الغزير الطويل الأسود.

يظهر عليه بعض التغيّر الآن. تبدو صحته أفضل من قبل، أو يمكن القول إن ذلك اللون الغريب شبه القرمزي قد فارق وجهه؛ وصارت ملابسه أفضل أيضاً. كانت تحت ذراعه كتب ثقيلة.

قلت: «هل أنت في الجامعة؟».

«نلت منحة دراسية في الرياضيات والفيزياء. ماذا عنك أنت؟».

«إنني أغسل الكلاب. ألا تستطيع رؤية أنني أمضي وقتي مع الكلاب؟».

«لا، لا ألاحظ شيئاً. لكن، ماذا تفعل؟».

«قلت لك ما أفعله».

أزعجه كثيراً أنني أمارس عملاً وضيعاً إلى هذا الحد، وأنني أغسل الأقفاص وأسرّح شعر الكلاب. أزعجه أيضاً أنني تركت الدراسة وأنني مهتم بالقراءة عن هولم هولتز الذي صار في نظره شيئاً تجاوزه الزمن. أستطيع القول بكلمات أخرى إنه يرى من حقي أن أكون متميزاً عن عامة الناس. هذا ما يحدث لي غالباً... يشعر الناس أن العالم مَدين لي ببعض التميز.

«وماذا أفعل في الجامعة؟ أنا لست مثلك يا رجل، ليست لديَّ موهبتك الخاصة».

قال: «لا تكن مجحفاً في حق نفسك هكذا! عليك أن ترى الأغبياء الذين في الجامعة. ليس لديهم شيء خاص، إلا المال! عليك أن تذهب لترى ما تستطيع فعله. وإذا وجدت نفسك بعد أربع سنوات غير قادر على فعل شيء خاص، فسوف تكون قد حصلت على شهادة جامعية على الأقل؛ ولن يظل أي شخص لا قيمة له قادراً على رفسك هنا وهناك».

أحسست بألم الرفسات في ظهري. سوف تظل هنالك قوى معتمة تنتظر أن ترفسني؛ وإذا كانت عندي شهادة جامعية فسوف يكون إذلال الرفسات أكبر، ستصيبني نوبة قلبية.

تابع القول: «لا يجوز أن تضيع وقتك! ألا ترى أن عليك أن تجتاز امتحاناً حتى من أجل أي عمل صغير؟ عليك أن تدفع رسوماً وأن تحصل على شهادة أو بطاقة ما. يجب أن تفكر في الأمر جيداً. إذا لم يستطع الناس رؤية إثبات على ما تجيد فعله فلن يستطيعوا معرفة أين يضعونك في العمل، وهذا يمكن أن يكون أمراً خطيراً. عليك أن تذهب إلى الجامعة وأن تحقق شيئاً من أجل نفسك. حتى إذا كنت تنتظر الآن، فعليك أن تعرف الشيء الذي تنتظره، عليك أن تتخصص في أمر ما. لا تُطل الانتظار وإلا فسوف يسبقك الجميع».

تأثرت بكلامه، ليس بسبب ما قاله رغم أهميته وما فيه من صحة، لكني استجبت إلى روح الصداقة عنده في حقيقة الأمر. لم أرد أن أتركه... تعلقت به. أثرت في نفسي حقيقة أنه يفكر من أجلي.

«كيف أستطيع الذهاب إلى الجامعة يا رجل إذا كنت معدماً؟».

«وكيف تظن أنني ذهبت أنا؟ ليست المنحة الدراسية كافية، إنها تغطي رسوم الجامعة فقط. أحصل على بعض المال من الإدارة الوطنية للشباب، ثم إنني أسرق الكتب أيضاً».

«كتب؟».

«نعم كتب، مثل هذه! سرقتها اليوم بعد الظهر. كتب تعليمية، وكتب تقنية. بل صرت أتلقى طلبات أيضاً. إذا استطعت سرقة عشرين أو ثلاثين كتاباً في الشهر وبعتها بما يتراوح من اثنين إلى خمسة دولارات للكتاب، فإن الوضع يكون على ما يرام. الكتب الجامعية غالية. ما مشكلتك، هل أنت شريف زيادة عن اللزوم؟» سألني هذا وهو ينظر إليَّ ليرى إن كان قد أفسد صورته في نظري.

«ليس تماماً! لكني فوجئت يا رجل لأن كل ما كنت أعرفه عنك هو أنك ساحر في الرياضيات».

«لكن لا بد لي من الأكل كل يوم أيضاً، وليس عندي معطف. أنت تعرف حالتي. لا بأس، إنني أمنح نفسي أشياء إضافية الآن. أريد أن أحسّن الوضع قليلاً. وأنا لا أسرق من أجل متعة السرقة. فور أن يصبح التوقف عن السرقة ممكناً سأتركها».

«وماذا إن أمسكوا بك؟»

قال: «سوف أشرح لهم كيف أشعر تجاه هذا الأمر. تعرف أن السرقة لا تجري في دمي. لست لصاً حقيقياً. لست مهتماً بالسرقة، وهكذا لا يستطيع أحد أن يجعلني سارقاً. إنها ليست قدري. قد يسبب الأمر بعض المتاعب، لكني لن أسمح لهم أبداً أن يجعلوها متاعبي أنا؛ هل فهمت؟»

لقد فهمت، لأنني أعرف جوي غورمان الذي كان ينظر إلى الأمر بطريقة مختلفة تماماً.

لكن باديلا كان لصاً موهوباً، رغم ذلك، وكان فخوراً بأسلوبه. اتفقنا على اللقاء يوم السبت. التقينا وقدم لي عرضاً لمهاراته. خرجنا من المكتبة ولم أكن أعرف إن كان قد سرق شيئاً بالفعل؛ كان شديد البراعة. وعندما صرنا في الخارج أراني نسخة من كتاب علم النبات من تأليف سينوت وكتاباً في علم الكيمياء لشليزنغر. لا يسرق إلا كتباً غالية الثمن؛ ولا يقبل طلبات الكتب الرخيصة. جعلني أرى قائمة الطلبات وقال لي أن أسرق العنوان التالي على القائمة. مضى حاملاً كتاباً قديماً غطى به الكتاب المطلوب. لم يكن يخبئ شيئاً تحت معطفه أبداً؛ وإذا أوقفوه فيمكنه الزعم دائماً أنه وضع كتابه لينظر في الكتاب الآخر ثم حمل الاثنين معاً من غير أن ينتبه. وبما أنه كان يسلّم الكتب في يوم السرقة نفسه، فما كان في غرفته شيء يمكن أن يدينه. كان من مصلحته أيضاً أنه لم يكن يبدو لصاً على الإطلاق... مجرد شاب مكسيكي ضيق الكتفين سريع الحركات؛ لكنه منكسر مسالم... يدخل المكتبة واضعاً نظارته ويقف شارد الذهن بقدمين متصالبتين على الأرض وهو يتصفح كتب الديناميكا الحرارية أو الكيمياء الفيزيائية. كان لمظهره الذي يبرئه من أي ملمح موحٍ بالسرقة أثر كبير في نجاحه. هنالك لوحة هولندية جميلة قديمة لم أر مثلها. صادفتها مرة في معرض لوحات إيطالي، وكان فيها عجوز سائر متأمل في حقول خاوية، ومن ورائه لص يقطع رباط محفظته. لعل العجوز ذا الملابس السوداء كان يفكر في مدينة الرب رغم أن أنفه طويل إلى حد غريب... سار مستغرقاً في حلمه كل الاستغراق. لكن الأمر الغريب بالنسبة للص هو أنه كان ضمن كرة زجاجية، وعلى تلك الكرة الزجاجية صليب منتصب يظهر كأنه رمز سلطة إمبراطورية. يعني هذا أن السلطة الدنيوية هي التي تسرق بينما يكون الحكماء الذاهلون سابحين في أحلامهم مفكرين في هذا العالم والعالم الذي يليه، بل ربما يفوتهم النظر إلى هذا العالم... وهم لا يظفرون بشيء، لا هذا العالم ولا العالم التالي. هذا ما يخلق إحساساً حاداً بمهزلة مؤلمة في هذا الشيء المضحك. بل إن الحقل الظاهر في الصورة ليس فيه أي سحر أيضاً، مكان مستوٍ... مسطح!

أما سرقات باديلا فما كانت من صنف سرقات السلطة الدنيوية هذه؛ وما كانت لديه أفكار تشمل العالم كله. ليس هذا ما يسعى إليه. لكنه مستمتع بمهاراته في السرقة، وقد

أحبّ الأمر كله. كانت لديه مختلف أنواع المعلومات عن اللصوص وورطاتهم الكثيرة وخِدَعهم الكثيرة؛ وعن النشالين الإسبان الذين يبلغ ذكاؤهم حد القدرة على سرقة مال القسيس من خلال ثوبه الكهنوتي. كان يعرف أيضاً عن مدرسة للصوص في روما تقدم تدريباً رفيع المستوى وتجعل طلبتها يوقعون عقداً بأن يدفعوا للمدرسة نصف ما يسرقونه خلال خمس سنوات بعد تخرجهم. كان يعرف الكثير عن بارات شيكاغو التي تحتال على زبائنها وتسرقهم. كانت تلك هواية عنده بينما يذهب الناس الآخرون إليها للمراهنة بشيء من المال. كان يسحره الفرد الصغير الذي يحاول أن يلعب اللعبة متحدياً الكبار ويرقص رقصته الخاصة على الهامش. كانت لديه معلومات كثيرة عن فتيات البارات اللواتي يجالسن الزبائن وعن أساليب عمل الفتيات العاملات الناشطات في فنادق كبرى. وكان لديه كتاب يقرأ فيه كثيراً اسمه «السيرة الذاتية لشيكاغو ناي» التي كانت ترمي ملابس زبائنها من النافذة ليلتقطها شخص متواطئ معها يقف في الشارع... كانت امرأة متميزة حقاً.

ما كان باديلا يقتّر على نفسه عندما يمضي لقضاء وقت طيب. إنه ينفق كل ما يملك. كنت ذات مرة ضيفه في شقة على جادة ليك بارك تقطنها فتاتان زنجيتان معاً. ذهب أولاً للتسوق من محل هيلمان فاشترى لحماً ودجاجاً وبيرة ومخللاً ونبيذاً وقهوة وشوكولاته هولندية؛ ثم ذهبنا إلى الشقة فأمضينا مساء السبت ويوم الأحد كله في تلك الشقة المؤلفة من غرفتين. مطبخ وغرفة نوم. كان المرحاض مكان الخلوة الوحيد هناك؛ وهكذا كان كل شيء مشتركاً. كان هذا يناسب باديلا. عندما اقترب الصباح بدأ يقول إن علينا أن نجري تبادلاً حتى لا تنشأ أي مشاعر احتوائية. سُرّت الفتاتان بهذا وقالتا إنه كلام معقول. أعجبتا بباديلا وبنظرته إلى هذا الأمر فاندفعتا إلى المرح. ما كان هنالك شيء كبير الجدية، ولا تحفظات كثيرة... سادت روح طيبة. أعجبتني أكثر الفتاة التي حظيت بها أولاً لأنها كانت راغبة في أن تتخذ الأمور وجهة أكثر شخصية، أحبت التقبيل أيضاً. أما الثانية فكانت أطول قامة وأقل اندفاعاً؛ بدا لي أن لديها حياة خاصة تحجبها عنّا. كانت أكثر ترفّعاً وأناقة. وأكبر من رفيقتها سناً.

كان باديلا اللاعب الأول في ذلك اليوم. وإذا نهض من الفراش حتى يأكل أو يرقص فإنه يريدني أن أفعل مثله. كان يجلس على الوسائد من حين لآخر، في الليل، ويحدثنا عن حياته.

قال باديلا عندما وصل حديثه إلى هذا الأمر: «كنت متزوجاً ذات مرة. تزوجت في تشيهواهوا عندما كان عمري خمس عشرة سنة. صار عندي طفل حتى قبل أن أصبح رجلاً». لم يعجبني تشدّقه بأنه ترك خلفه في المكسيك زوجة وطفلاً، لكن الفتاة الطويلة قالت عند ذلك إن لديها طفلاً أيضاً. لعل الأخرى كانت مثلها لكنها لم تقل شيئاً. وهكذا تغاضيت عن الأمر كله... إذا كانت هنالك هذه الكثرة من الناس التي تفعل الشيء الخاطئ نفسه، فلعل فيه شيئاً لا أفهمه.

كنا مستلقين في السريرين، أربعتنا، وكان الضوء شحيحاً متسرباً عبر فتحة صغيرة في الستائر صبيحة يوم الأحد. بدت السماء بيضاء في الشرق، لكن الضوء الساقط على الجدار بدا رمادياً. يا له من منظر، تملك الجدران الزنجية القديمة في هذه الشوارع عظمة فريدة، بل مخيفة أيضاً. وهنالك قدر كبير من الإنسانية في مظهرها هذا، شيء لا يستطيع المرء رؤيته الآن. شيء يشبه حمامات كراكلا! عدد مهول من الناس المختفين النائمين صبيحة يوم الأحد. كانت الفتاة التي أعجبتني راقدة بأنفها المسطح قليلاً ووجنتيها الناعستين وفمها الكبير الحساس اليقظ... كانت تبتسم قليلاً وهي تستمع إلى باديلا. كنا مستلقين هناك نمتّع نفسَيْنا بالفتاتين، مثل ملكَيْن، إلى أن حل المساء تقريباً فذهبنا. ارتدينا ملابسنا وسط القبلات والمداعبات، ثم مضينا إلى الباب ووعدنا الفتاتين بالعودة.

صرنا من غير نقود، فتناولنا عشاء خفيفاً في بيت باديلا: بيت أكثر خواء من البيت الذي تركناه (كانت فيه سجادات قديمة على الأقل، وكراسي طرية عتيقة، وتلك الأشياء البناتية الكثيرة)؛ أما باديلا فكان يعيش مع بعض قريباته المسنات في شقة قرب سكة القطار غير بعيد عن شارع ماديسون. كانت شقة فارغة تقريباً: طاولة مع كراسي قليلة في واحدة من الغرف، وغرفة أخرى ليس فيها إلا فراشان أو ثلاثة على الأرض. كانت المرأة العجوز جالسة في المطبخ، كانت تطبخ وتُهوّي الجمرات المشتعلة... مخلوقات بطيئة عجوز تنوء بشحمها الكثير... مخلوقات لا يكاد باديلا يكلمها أبداً. تناولنا حساء فيه شيء من اللحم المطحون في قعر الصحن ومعه رقائق الخبز التي جاءتنا ملفوفة بقطعة قماش. أنهى باديلا طعامه سريعاً وتركني على الطاولة. وعندما ذهبت لأرى ما يفعله وجدته قد صار في فراشه وقد غطى نفسه ببطانية عسكرية شدها إلى وجهه. لم يكن ظاهراً منه إلا أنفه الحاد وشعره الممتد خلف رأسه.

قال لي: «يجب أن أنام. لدي امتحان في الصباح».

«وهل أنت مستعد للامتحان يا رجل؟».

قال: «إما أن تأتي هذه الأشياء بسهولة، أو أنها لا تأتي على الإطلاق».

ظلت هذه الفكرة عالقة في رأسي. رحت أفكر فيها في الحافلة... طبعاً... تأتي بسهولة أو لا تأتي أبداً! يسرع الناس إلى مواجهة المصاعب لأنهم يظنون أن الصعوبة دليل على صحة الشيء. وهكذا قررت تجربة الأمر، قررت أن أبدأ بتجربة هذه الفكرة في سرقة الكتب. إذا جرى الأمر بسهولة فسوف أترك نادي الكلاب. وإذا جنيت من ذلك مثل ما يجنيه باديلا فسوف أحصل على ضعفَيْ ما يدفعه لي غييوم، وسوف أصير قادراً على التوفير من أجل دفع رسوم الدراسة في الجامعة. لم أعتزم أن أجعل السرقة مهنة لي حتى إن وجدتها سهلة؛ أريد فقط أن أستطيع منح نفسي بداية إلى شيء أفضل.

وهكذا بدأت. كانت الإثارة أول الأمر أكثر مما أستطيع احتماله. أصابني غثيان بعد ذلك، عندما صرت في الشارع، وتعرَّقت كثيراً. كان الكتاب الذي أخذته كتاباً ضخماً، كتاب «أفلاطون» لجويت. لكنني أجبرت نفسي على متابعة التجربة حتى نهايتها. أودعت الكتاب في خزانة أمانات صغيرة في محطة إيلينويز المركزية، مثلما علمني باديلا، ومضيت على الفور لأجلب كتاباً آخر. حققت تقدماً طيباً واستطعت إنجاز الأمر ببراعة. لم تكن لحظة الخروج من المكتبة هي اللحظة الصعبة، بل عندما ألتقط الكتب وأضعها تحت ذراعي. لكن اعتدت الأمر بعد ذلك وصرت واثقاً من تبرير موقفي إذا أوقفني أحد ما، أستطيع أن أضحك وأقول إن الأمر كان غلطة ناتجة عن قلة الانتباه. قال لي باديلا إن رجال الشرطة لا يعتقلون أحداً داخل المكتبة. يمكن أن يعترضوا سبيلك عندما تصبح في الشارع. لكنني كنت أقصد متجراً كبيراً فأخرج من قسم الكتب، من غير التفات إلى الخلف، وأدخل قسماً آخر... الأحذية الرجالية أو الحلوى أو الملابس. لم يخطر في بالي أبداً أن أنوّع سرقاتي وآخذ شيئاً غير الكتب.

تركت عملي في نادي الكلاب في وقت أسرع مما خططت؛ ولم تكن ثقتي في كفاءتي اللصوصية هي العامل الوحيد الذي جعلني أفعل ذلك لأن حمّى القراءة أصابتني أيضاً. كنت أستلقي في غرفتي وأقرأ. ألتهم الصفحات كأنني رجل خارج من مجاعة. أحياناً لا أستطيع إعطاء الكتاب إلى الزبون الذي طلبه لأني كنت أنصبّ على قراءته. كان يتنابني إحساس بأن هنالك ثقلاً حياً عالقاً في شبكة مشاعري الجائعة وأنني لا أريد إفلاته. غضب باديلا كثيراً ووبّخني عندما جاء إلى غرفتي فرأى أكداساً من الكتب التي كان يجب أن أتخلص منها قبل وقت طويل. قال إن احتفاظي بها أمر خطير. لو أنه جعل سرقاتي مقتصرة على كتب الرياضيات والديناميكا الحرارية والميكانيك لاتخذ الأمر مساراً مختلفاً على الأرجح لأنني غير مصاب بعدوى كليرك ماكسويل أو ماكس بلانك. لكنه كان يعطيني الطلبات التي تأتيه لكتب في اللاهوت والأدب والتاريخ والفلسفة، وكنت أسرق نسخاً من «تاريخ الباباوات» لرانك و«مجلس ترينت» لساربي من أجل طلبة الدراسات العليا، أو كتاب «الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر» لبورك هارت أو لميرز. وكنت أجلس وأقرأ هذه الكتب كلها. انزعج باديلا خاصة من قراءتي كتاب ميرز لأن إنهاءه يستغرق زمناً طويلاً ولأن ذلك الرجل في قسم التاريخ يلحّ عليه من أجله. قال لي: «تستطيع استخدام بطاقتي والحصول على الكتاب من مكتبة الجامعة لتقرأه». لكن الأمر مختلف... مثلما يحدث عندما تأكل طعامك الذي أعددته بنفسك... أظن أنه يكون مختلفاً عن وجبة تشتريها حتى إن كانت المكوّنات نفسها في الوجبتين؛ بل ربما يتعامل الجسم مع الوجبتين بطريقتين مختلفتين أيضاً.

لكنني عرفت، على أية حال، شيئاً عن حرمان مجهول؛ وأدركت كيف أن حباً، أو توقاً عاماً، قبل أن يتحدَّد أو قبل أن يرى موضوعه، يمكن أن يُظهر نفسه على هيئة ضجر أو

شكل آخر من أشكال المعاناة. فكيف كنت أرى نفسي في تلك المناسبات الكبرى، لحظات حيازة تلك الكتب؟ أظن أنني لست مخلوقاً للقيام بأشياء عظيمة، لتلاوة بيانات أو إعلانات كبرى أو قيادة منطقة، أو خوض معارك كبرى، أو غير ذلك... كان هذا واضحاً لي... لكن هنالك حصة لي في كل ما حدث. كم تبلغ تلك الحصة؟ كنت أعرف أن هنالك أشياء لن تمرّ بين قراءاتي، لأنها لا يمكن أن تمر. لكن هذه المعرفة ليست شيئاً مختلفاً عن الموت البعيد، لكن الحاضر دائماً، الموت الجالس في زاوية غرفة نوم أو غرفة حب؛ صحيح أنه ساكن لا يتحرك من الزاوية، لكن هذا لا يجعلك تكفّ عن الحب. هذا يعني أنني لن أتوقف عن القراءة. كنت أجلس وأقرأ. ما كان لعينيَّ أو أذنيَّ أي اهتمام بشيء آخر. فقدت الاهتمام بتلك الأشياء الصغيرة، التافهة، بالمشاغل التي لا معنى لها، فقدت اهتمامي بأي حياة قائمة على العادات المنظمة، الحياة التي تجعل الحساب الهادئ يحل محل المصادفات. لا بأس، مَنْ عساه يستطيع حقاً أن يتنبّأ بمجرى حوادث الحياة اليومية، والعمل، والسجن، والوجبات، والغسيل، وكل ذلك، ثم يظل مصراً على أن اللحظات التي يوفرها من أجل ما هو أهم لا تجعله مضطراً إلى خوض مشقات كبيرة حتى يعيش آخر الأمر عيشة كعيشة الأنبياء أو الآلهة؟ ألا يعرف كل إنسان أن هذه الحياة المنتصرة لا يمكن إلا أن تكون عابرة؟ هنالك انقسام في الحياة، هوّة... يقول البعض إن الحياة المنتصرة هي وحدها الحياة الحقيقية، ويقول غيرهم إن وقائع الحياة اليومية هي الحياة. أما بالنسبة لي فما كان هنالك نزاع بين الحياتين. وكنت أمضي مسرعاً في الحياة الأولى.

كان ذلك عندما سمعت شيئاً من سايمون، من جديد. قال على الهاتف إنه آت ليعيد لي الدولارات الخمسة التي أرسلتها إليه. يعني هذا أنه يشعر بأنه مستعد لمواجهتي؛ لو كان الأمر غير ذلك لأرسل المال بالبريد. وعندما دخل، أحسست بمقدار ما حشده من تعالٍ ووقاحة قبل مواجهتي، أحسست أنه مستعدّ تماماً. كان مستعداً لهزيمتي إذا رحت ألومه وأصرخ عليه. لكنه رآني محاطاً بالكتب، حافي القدمين مرتدياً ثوباً قديماً، ولعله لاحظ وساخة الجدران المغلّفة بورق متقشّر، ولعله لاحظ الضوء الفقير. صار أكثر راحة وثقة. كان هذا لأنه اعتبر أنني لا أزال كما كنت، وأن عجلاتي لا تزال تدور في كل اتجاه، وأنني كنت متعجلاً مفرط الحماسة... أي أنني، بكلمات أخرى، شيءٌ من شخص غبيّ غريب الأطوار. ظن أنه إذا ذكر وفاة جدتي فسوف أبكي بكل سهولة، وسوف ينتصر عليّ. كان السؤال الذي يحيّره دائماً هو ما إذا كنت هكذا نتيجة طبيعتي ذاتها أو نتيجة قرار اتخذته بنفسي. إن كان قراراً، فقد يكون تغييره ممكناً.

أما أنا فكنت سعيداً بقدومه، وكنت توّاقاً إلى رؤيته. ما كنت قادراً أبداً على العمل بنصيحة إينهورن، على أن أكون قاسياً معه، على أن أحتقره. صحيح أنه كان يجب أن يرسل لي المال عندما بعثت إليه بتلك البرقية من بوفالو، لكنه كان غارقاً... أستطيع مسامحته

على ذلك. ثم إن ذلك القرض الذي أخذه من إينهورن لم يكن شيئاً كبيراً أيضاً لأن إينهورن نفسه كان يعطي أشخاصاً كثيرين مبالغ أكبر من هذا؛ وكان مع ذلك يستطيع أن يكون كبيراً مهذباً إلى حد يجعله يمتنع عن النواح أو الزعيق من أجل ذلك المال. لا بأس، حتى الآن! لكن ماذا عن ماما، وماذا عن البيت؟ أعترف بأن وقع هذين الأمرين كان شديداً على نفسي، وبأنني كنت سأكسر رأس سايمون لو صادفته أثناء اندفاعي نازلاً السلم إلى بيت كريندل لأرى ماما. أما فيما بعد، عندما فكرت في الأمر كله من جديد، فقد توصلت إلى إقناع نفسي بأننا ما كنا قادرين على الاحتفاظ بذلك البيت أكثر مما فعلنا، ما كنا قادرين على تأمين حياة تقاعدية لائقة من أجل ماما... ما كان أيٌ منا يملك وداعة أبناء القطط التي يملكها الأبناء العازبون الطبيعيون. كان في نفس كل منا شيء ينحو إلى التخلص من ذلك البيت. وما كان على سايمون إلا أن يجهر بذلك، أن يقوله لي. لم يفعل ذلك لأنه أحس أنه يرتكب ذنباً جعله غير قادر على التفكير الواضح.

توقعت أن أراه هزيلاً لكنه كان قد سمن قليلاً في حقيقة الأمر. لم تكن سمنته تلك تبدو من النوع المريح... بل كأنها امتلاء ناجم عن الأكل السيئ. مرت عليَّ دقيقة حتى تجاوزت انزعاجي من ابتسامته المتكسرة ومن شعر ذقنه الأصفر الذهبي النابت. لم يكن من عادته أن يهمل حلاقة ذقنه. لكنه جاء وجلس عاقداً أصابعه الطويلة على صدره.

كان الوقت صيفاً، في وقت متأخر من بعد الظهر. ومع أنني كنت أعيش في الطابق العلوي من هذا المبنى الخشبي، إلا أن الشجرة الظليلة كانت ضخمة عالية ممتدة فوق السقف. وهذا ما جعل الخضرة من حولنا في كل مكان، كما لو أننا في غابة، في كرة زجاجية لامعة. وكان على المرج في الأسفل عصفور ينقر أنبوب الماء في العشب كأنه يضرب عليه بمطرقة. لعل هذا كان يمكن أن يساعدنا في الإحساس بشيء من السلام، لكنه لم يستطع مساعدتنا.

أظن أن الناس ما كانوا يعرفون كيف يراقب أحدهم الآخر بطريقة مؤذية مثلما يفعلون الآن. الأقارب أيضاً، بالطبع. حاولت أن أتجنب ذلك مع سايمون، لكننا لم نستطع. وهكذا جرت أسوأ الأفكار، لحظة واحدة، على الجانبين. قال بعد ذلك: «ما الذي تفعله هنا، في هذا الحي، مع هذه الكتب كلها؟ هل صرت طالباً».

«ليتني كنت قادراً على تأمين نفقات الدراسة».

«لابد أنك تتاجر بالكتب إذن. لكن هذه التجارة لا يمكن أن تكون تجارة عظيمة لأنني أرى أنك قرأت تلك الكتب كلها. لا بد من شخص مثلك حتى يجد لنفسه صنعة من هذا النوع». قال هذه الكلمات بطريقة توحي بالازدراء، أو بطريقة أراد منها أن توحي بالازدراء. لكن كانت هنالك نقطة ميتة، نقطة ضاع الازدراء عندها. قال بطريقة منطقية: «لكنني أظن

أنك يمكن أن تسألني عن النتائج التي استطاع عقلي المتميز تحقيقها».

«لا حاجة إلى السؤال. إنني أعرف. وأستطيع أن أرى».

«وهل أنت غاضب يا أوجي؟».

قلت: «لا». كان قادراً، بنظرة واحدة، على رؤية أنني بعيد عن الغضب كل البعد. ما كان في حاجة إلّا إلى نظرة واحدة أسبل بعدها عينيه... «كنت غاضباً عندما اكتشفت الأمر. حدث كل شيء في وقت واحد، بما في ذلك خبر وفاة جدتنا».

«نعم، لقد ماتت! أظن أنها كانت عجوزاً إلى حد كبير. هل استطعت معرفة كم كان عمرها؟ أظن أننا لن نعرف أبداً».

ولكنه تجاوز تلك القصة من غير سخرية أو حزن أو حتى رهبة. سوف نبتسم دائماً وننسب إليها أشياء تفوق الواقع.

عند ذلك، تخلى سايمون عن تصنّعه الذي لازمه حتى الآن. قال لي: «كنت غبياً عندما خالطت هذه الحثالة. لقد أخذوا المال وضربوني. كنت أعرف أنهم خطيرون، لكنني ظننت أنني قادر على تدبّر أمري معهم. لم أفكر جيداً... أقصد، لأنني كنت واقعاً في الحب. الحب! لكنها لم تسمح لي بالذهاب بعيداً... على الشرفة، في الليل. أحسست أنني سوف أنفجر. كنت أموت من أجلها، أموت حتى أظفر بلمسة منها... ذلك كل ما حصلت عليه». قال هذه الكلمات بغضب خشن. قالها بازدراء. جعلتني كلماته أرتعش. «عندما سمعت أنهما تزوجا صارت تأتيني أحلام أراهما فيها يرقصان معاً، مثلما ترقص امرأة مع قرد. لم تكن لتبالي. أنت تعرف كيف هي! لكن هذا لا يغير شيئاً لأنه يستطيع إثارتها في ذلك المكان مثلما يفعل أي رجل آخر. ثم إن لديه مالاً. لديه ما تظنه هي مالاً! لا يملك إلا بضع بنايات. ليس هذا مالاً كثيراً. لكنه يبدو كثير في نظرها... إلى أن تعرف الأمور معرفة أفضل». صار وجهه أحمر اللون الآن، وصارت فيه مشاعر مختلفة عن ذلك الغضب والازدراء. قال: «أنت تعرفني؛ تعرف أنني أكره أن أكون هكذا وأن تكون لدي هذه الأفكار. إنني خجل منها، أقول لك هذا صادقاً. فهي لم تكن رائعة تلك الروعة كلها، وهو ليس سيئاً كثيراً. لم يكن سيئاً معنا عندما كنا صغاراً. أظن أنك لم تنسَ ذلك أيضاً. لا أريد أن تجعلني تلك الفتاة أتصرف مثل كلب الإسكيمو الذي ينتصب شعر رقبته أمام قطعة من السمك. كان تفكيري سامياً بعض الشيء عندما كنت طفلاً. لكنك تدرك بعد فترة ما لديك وما ليس لديك. وتدرك حقيقة أن الأشياء الأنانية هي ما يأتي أولاً، وأنك لا تبالي بما قد يصيب شخصاً آخر طالما أنك تحصل على ما تريد. تبدأ في التفكير في أشياء من قبيل... سيكون أمراً جيداً إذا مات شخص قريب مني وتركني حراً. فكرت بعد ذلك في أن ذلك الشخص الآخر سيفكر في الأمر نفسه إذا متّ أنا».

«ماذا تعني بأن تموت أنت؟».

«انتحار! لقد اقتربت من الانتحار عندما حبسوني، هنالك في الجادة الشمالية».

كانت إشارته إلى الانتحار مجرد ذكر لحقيقة. لم يكن سايمون يحاول إثارة شفقتي، ولم يبدُ عليه أبداً أنه في حاجة إلى شفقة مني.

قال لي: «ليست لدي تلك المشاعر القوية ضد الموت. هل لديك هذه المشاعر يا أوجي؟» بدا أكثر هدوءاً وثقلاً في حركة أوراق الشجرة من حول رأسه. وكانت قمة قبعته اللبادية تأخذ أشكالاً مختلفة على تلك الخلفية الظليلة من أوراق الأشجار الخضراء والصفراء... «قل لي، هل لديك هذه المشاعر؟».

«لست مستعجلاً على الموت كثيراً».

رأيت في وجهه مرور فكرتين أو ثلاث أفكار متعاقبة، ثم جعلته إجابتي أكثر استرخاء ويسراً، وأكثر نعومة معي. ضحك أخيراً. قال: «سوف تموت مثل أي شخص آخر. لكن يجب الاعتراف بأن هذا ليس ما تجعل الناس يفكرون فيه عندما ينظرون إليك. أنت شاب وسيم، أعترف بهذا. لكنك لست ماهراً في الاهتمام بنفسك. لو كان لي أخ آخر مختلف عنك لجعلني أدفع ذلك المال رغماً عني. لو فعلت أنت ما فعلتُه لأثرت مشكلة كبيرة معك؛ أو لكنت سعيداً بأن أراك تخرج خاسراً مثلما حدث لي. وسأقول لك 'هذا ما تستحق. هذا ما يناسبك!' لكن، وبما أنك لن تهتم بمصالحك، سوف أهتم بها أنا».

«مصالحي؟».

قال وقد أغضبه السؤال قليلاً: «طبعاً! ألا تظن أنني أفكر فيك أيضاً؟ لقد مضى كل منا شوطاً بعيداً مع الفاشلين، وقد مللت ذلك».

قلت: «أين تعيش الآن؟».

قال: «في الحي الشمالي». قالها كأنه يزيح السؤال جانباً، ويزيح حقيقة أنني أردت أن أعرف أشياء محددة عنه. لن يقول لي إن كان لديه مغسلة في غرفته، أو سجادة أو أرضية عازلة، أو إذا كان قريباً من أحد خطوط المواصلات أم لا. أمر طبيعي بالنسبة لي أن يكون عندي هذا الفضول. لكنه لم يكن يريد إشباع هذا الفضول لأن الاقتراب من هذه الأشياء يجعل التخلص منها أمراً صعباً عليه. بالنسبة إليه، هذه أشياء يجب المرور بها سريعاً.

قال: «لن أظل هناك».

سألته: «كيف تعيش؟ ماذا تفعل؟».

«ماذا تقصد بقولك كيف أعيش؟» كان يرمي الصعوبات في وجهي بتكراره أسئلتي.

فاعتداده بنفسه شديداً إلى حد يجعل صعباً عليه أن يقول شيئاً عن أحواله وأن يجعلني أرى كم كان وضعه سيئاً. كانت لديه دائماً تلك الروح المترفّعة التي تنطلق من كونه الأخ الأكبر... لا يريد أن يتخلى عن ذلك. لقد كان غبياً أحمق، وقام بأشياء خاطئة، ثم أتى شاحباً وقد ازداد سمنة... كأن المبالغة في الأكل كانت رده على ما أصابه من دمار. جعله هذا كله يمتنع عن الإجابة، يعجز عن قول شيء، وعن إخباري بالتفاصيل الصغيرة. اعتبر أسئلتي نوعاً من ضربة موجهة إليه أثناء محاولته التسلق خارجاً من العار الذي نزل به... نحّى ذلك جانباً بحركة من ذراعه وهو يقول: «ماذا تقصد؟» كأنه تذكر فيما بعد أنني أردت ضربه أو وخزه على الأقل. لم يجد مانعاً، في وقت لاحق، من إخباري بأنه كان يعمل في تنظيف الأرض في أحد المطاعم؛ لكنه لم يخبرني إلا بعد فترة طويلة. أما الآن فقد رفض الإجابة. كان محمولاً على الكرسي الأسود الصلب (أقول محمولاً لأنه صار ضخم الجسم فعلاً)، وكان يستجمع طاقته ويلملم أعصابه... كان واضحاً تركيزه الشديد حتى يتمكن من هذا... وبدأ يتعامل معي بطريقة قوية، أقوى مما يلزم، كأنه باشا من الباشاوات. قال: «لم أكن أضيّع وقتي. إنني أعمل على شيء ما. وأظن أنني سأتزوج قريباً». قال هذا ولم يسمح لنفسه بابتسامة ترافق هذا الخبر... لم يقله بطريقة فرحة.

«متى؟ من تتزوج؟».

«سأتزوج امرأة لديها مال».

«امرأة؟ امرأة أكبر منك؟».

هكذا فسرت كلامه.

«ما مشكلتك؟ نعم، سوف أتزوج امرأة أكبر مني. لم لا؟».

«لا أظن أنك تفعل هذا».

لا يزال قادراً على إدهاشي كأننا بقينا أطفالاً.

«لا حاجة إلى الجدل في هذا الأمر لأنها ليست كبيرة. قالوا لي إنها في الثانية والعشرين تقريباً».

«قالوا لك؟ من هي، ألم ترها بعد؟».

«لا، لم أرها. هل تذكر ذلك المشتري، الشخص الذي كنت أعمل عنده؟ إنه يتولى ترتيب الأمر. لديّ صورتها. ليست سيئة. ثقيلة بعض الشيء، لكني سمنت أنا أيضاً. وهي جميلة نوعاً ما. على أية حال، وحتى إذا لم تكن جميلة، وإذا لم يكن المشتري كاذباً في ما يتعلق بمالها ـ يفترض أن لدى أسرتها جبلاً من المال ـ وسوف أتزوجها».

«وهل اتخذت قرارك؟».

«أستطيع القول إنني اتخذت قراري».

«افترض أنها لا تريدك؟».

«سوف أجعلها تريدني. ألا تظن أنني أستطيع هذا؟».

«قد تستطيع، لكني لا أحب هذا. ليس فيه روح».

قال منفعلاً فجأة: «ليس فيه روح! ما الذي يجعله من غير روح؟ سوف أكون أنا من غير روح إذا بقيت كما أنا الآن. إنني أدرس ما يتعلق بهذا الزواج وما بعده أيضاً. لن أعود أبداً إلى ذلك الكلام الفارغ عن الزواج الذي أريد. كل شخص تراه مولود ليتزوج، ربما باستثناء بعض الأشخاص مثلك ومثلي. هل ترى في الزواج شيئاً عجيباً أو استثنائياً يجعله أمراً كبير الأهمية؟ لماذا يسعى المرء مثل المجنون، هنا وهناك، حتى يحصل على زواج عظيم؟ من أي شيء يمكن أن ينقذك هذا؟ هل أنقذ أحداً؟ الأغبياء أو الحمقى أو التافهين أو المعتوهين أو القرود أو الجرذان أو الأرانب، أو الناس المحترمين التعساء، أو الذين تطلق عليه اسم الناس اللطيفون؟ كلهم متزوجون، أو مخلوقون ليتزوجوا!. فكيف تزعم أن هنالك أي معنى في أن يحب بوب ميري التي تذهب فتتزوج جيري؟ هذه أشياء من أجل الأفلام. ألا ترى كيف يفكر الناس في الزواج من أجل الحب، فيخسرون كل شيء؟ هذا لأنهم يبحثون عن أفضل الأشياء ـ أظن أن هذه مشكلتك أيضاً ـ ويفقدون كل شيء آخر. أمر سيء، مؤسف، لكنه هكذا!؟»

رأى أنني لا أزال ضده، بقوة. حتى إذا كنت غير قادر على اعتبار نفسي على قائمة العشاق، وإذا كنت تخليت عن حمل مشعل الحب من أجل إستر فينكل، فقد رأيت خطأ موقفه واضحاً، ظاهراً. نظرت إليه، إلى وجهه، ورأيت فيه وجه رجل مخطئ. قلت في نفسي إن ضجيج الحياة من حوله شديد إلى حد يجعله عاجزاً عن اتخاذ قرار صحيح. ثم إن الكتب التي كنت أقرأها (لاحظت أن سايمون كان مدركاً أثر هذه الكتب على موقفي... راحت عيناه تنظران إليها كأنها خصوم له. وكان في نظرته إليها شيء من السخرية أيضاً) لكني لم أكن قادراً على إنكار، أو على خيانة، الأشياء التي كنت مقتنعاً بها وقابلاً بها في روحي عندما أجلس للقراءة.

«ما الذي يجعلك تريدني أن أتفق معك؟ إذا كنت مقتنعاً بما تقول فلن يكون هنالك فارق لديك إن وافقتك أو لم أوافقك».

قال وهو ينتصب في مقعده مندفعاً إلى الأمام ناظراً إلي بعينين متسعتين: «يا للجحيم! لا تمتدح نفسك كثيراً يا ولد. لو فهمت حقاً لوافقتني. سيكون ذلك أمراً لطيفاً منك، لكني

سوف أمضي في طريقي من غيره بالتأكيد إن كان علي أن أفعل هذا. ثم إننا، وإن كان هذا ليس شيئاً مفرحاً لأي منا، متشابهان ونريد الأمر نفسه. وهكذا فإنك تفهم ما أقول».

لم أكن من رأيه! لا بسبب شدة اعتدادي بنفسي بل بسبب الحقائق التي أراها فقط. لكني رأيت أنه في حاجة إلى أن أكون مثله، فلزمت الصمت. لو كان يتحدث عن ذلك الجزء المشترك بيننا، المتعلق بأبينا وأمنا، وعن أن أعضاء جسدينا يمكن أن تستجيب للأمواج نفسها، فلست أعرف عن هذه الأمور ما يكفي لأن أعتبر نفسي مختلفاً عنه.

«لا بأس، قد يكون الأمر مثلما تقول. لكن، ما الذي يجعلك واثقاً من أن الفتاة وأسرتها سوف يرغبون فيك؟».

«ماذا لديَّ؟ هذا ما تقصده! نعم، أول شيء هو أن رجال أسرتنا وسيمون كلهم. حتى جورج... لو كان طبيعياً لبدا وسيما أيضاً. كانت جدتنا العجوز تعرف هذا وتظن أننا سنستفيد منه. لكن، إضافة إلى الوسامة، فإنني لا أتزوج هذه الفتاة الغنية حتى أعيش على مالها وأكتفي بقضاء وقت طيب. سوف أكون مفيداً لهم، هؤلاء الناس. سوف يرون أنني لن أكتفي بالاستلقاء وعيش حياة سهلة. لا أستطيع هذا. عليَّ أن أجني المال. لست واحداً ممن يتخلون عما يريدون فور إدراكهم أنهم يريدونه. أنا أريد المال، وأنا أعني كلمة أريد، أعنيها تماماً! أستطيع إدارة المال أيضاً. هذه هي المزايا التي عندي. وهذا يعني أنني لست أقل منهم».

لا يستطيع أحد لومي لأنني كنت أصغي إلى هذا الكلام بقدر من الشك. إلا أن هذه أشياء يقوم بها أشخاص لديهم طموح يجعلهم يقومون بها. لم تعجبني طريقة كلامه... مثلاً، تشدّقه بأننا رجال وسيمون. يجعلنا هذا نبدو كأننا «فحول». لكني لم أتمنّ له فشلاً آخر. ليس لديه ذلك الغنى الروحي الذي يجعله قادراً على الاستفادة من الفشل.

«دعني أرى صورة الفتاة».

كانت صورتها في جيب بنطلونه. بدت فتاة شابة، ضخمة، لها وجه جميل. رأيت أن شكلها معقول، لكنها ليست ذات طبيعة سهلة أو منفتحة.

«إنها جذابة! قلت لك هذا. قد تكون أثقل مما يجب قليلاً».

«اسمها شارلوت ماغنوس».

«ماغنوس؟ ألم تكن شاحنة ماغنوس تأتي بالفحم إلى بيت إينهورن؟».

«إنه عمها. يعمل في مجال الفحم. لديه أربعة مستودعات فحم كبيرة، أو خمسة.

يملك والدها عدة عقارات. ولديه فنادق أيضاً، وبضعة متاجر شعبية. سيكون العمل في الفحم من نصيبي. أظن أن المال الكثير موجود هناك. سوف أطلب منهم واحداً من تلك المستودعات ليكون هدية زفافي».

«يبدو أنك خططت لكل شيء».

«طبعاً! فكرت في شيء من أجلك أنت أيضاً».

«ماذا؟ هل سيكون عليَّ أن أتزوج أيضاً؟»

«عندما يحين الوقت، نعم... سوف أتدبر أمرك. لكن عليك أن تساعدني قبل ذلك. يجب أن تكون لديّ أسرة. قيل لي إنهم أصحاب عقلية عائلية. لن يفهموا حالتنا، ولن يعجبهم ذلك؛ وعلينا أن نجعل الأمر يبدو أفضل قليلاً. سوف تكون هنالك دعوات إلى العشاء وأشياء من هذا القبيل. وقد يقيمون حفلة خطوبة كبيرة أيضاً. أتظن أنني سوف آخذ جورج معي لكي يروه؟ لا، يجب أن تكون أنت معي. ونحن في حاجة إلى ملابس. هل لديك ملابس جيدة؟»

«إنها مرهونة».

«استعدها».

«وماذا أدفع لمحل الرهونات مقابلاً لها؟».

«أليس لديك مال أبداً؟ ظننت أنك تعمل في بيع الكتب».

«تأخذ ماما كل ما أستطيع توفيره».

قال بنبرة حازمة: «لا بأس! لا تهتم بهذا كثيراً! سوف أهتم به أنا في وقت قريب جداً. سوف أحصل على بعض المال».

تساءلت في نفسي عن مصدر المال الذي يمكن أن يحصل عليه. لعل صديقه الذي رتب هذا الزواج أقرضه بعض المال. لكنني استلمت حوالة بريدية من سايمون بعد أيام قليلة من ذلك فذهبت واستعدت ملابسي. ثم جاءني بعدها لاستعارة واحدة من بدلاتي التي أتيت بها من إيفانستون. قال لي بعد ذلك إنه قابل شارلوت ماغنوس. يظن أنها صارت واقعة في حبه.

الفصل الحادي عشر

هنالك الآن لحظة مظلمة من الزمان عندما تعجز كثرة من الأشياء عن أن تكون واضحة؛ إنها لحظة شديدة الكثافة؛ وهنالك جزيرة مطر، وخفة بحر الشمال، ومجرى نهر ثيمز. تلك الظلمة التي لا بد فيها من تمييز ووضوح... هي ليست موضعية فحسب؛ إنها الظلمة نفسها الموجودة في أشد حالات الوضوح والصفاء في مدينة نيوسينا المتقدة ضياءً. وماذا عن برودة المطر؟ إنها لا تقلل الحماقة المقيمة في الوجه البشري، ولا تزيل الخداع ولا تغير العيوب، لكن هذا المطر رمز للشرط المشترك لدى الجميع. لعله يعني أن ما يلزم لتخفيف الحماقة أو لإزالة الخداع كثير الوفرة دائماً ومعروض أمامنا في كل وقت ـ عرض أسود في تقاطع شيرينغ كروس؛ رمادي في ساحة بيربير حيث ترى أنواعاً وأشكالاً كثيرة من كائنات تأتي وتذهب في السيولة والضباب؛ وبنيٌّ في الوحدانية المستقيمة في جادة واباش. في الظلام، يُقدَّم الحل على هذا النحو فقط... إلى أن يأتي وقت يتحدد فيه شيء واحد وتنتهي العروض والفرص وأشكال الرخمة كلها.

كان البيت الذي سكنته في الحي الجنوبي سكناً للطلاب محاذياً لأجراس الجامعة وجرس الكنيسة الصغيرة عندما تكون المساءات هادئة؛ كان بيتاً ذا امتلاء قروسطي مزدحم... مضيفون في داخل الجدران الضيقة، ووجوه في كل نافذة، من غير إنش شاغر. كان لديّ هنا بعض مشتري الكتب من الطلاب، بل حتى أصدقاء كثر. في الواقع، كنت أعرف الجميع لأن أوينز، العجوز الويلزي الذي يدير هذا المكان، كلّفني بالرد على المكالمات الهاتفية وبتوزيع البريد في ذلك الجحر المزين الصغير الذي يطلق عليه اسم ردهة الاستقبال. كنت أقوم بهذا مقابل إيجار السكن. وخلال تصنيف الرسائل، كنت أقرأ البطاقات البريدية وعناوين البريد المرتجع (ما كان تجنب هذا ممكناً)، وكنت أضرب

الجرس حتى أستدعي الناس لتلقي مكالماتهم الهاتفية، فأسمع أحاديثهم بسبب عدم وجود حجرة للهاتف. كان أوينز يستمع أيضاً، هو وشقيقته العانس التي تتولى أعمال التدبير المنزلي. كان باب ردهتهم الراكدة مفتوحاً على الدوام ـ تخيم رائحة المطبخ على كل رائحة أخرى في هذا البيت ـ حيث كنت قادراً ساعتين كل مساء على رؤية حالة تلك الردهة بعد العشاء من مركزي على الكرسي الهزاز المصنوع من قصب مضفور: قوائم الطاولات المربعة المصنوعة من خشب الجوز، وجنون مفارشها المنشاة، والزجاج المزخرف بثقوب كأنها عيون حشرات، والتفاصيل الدقيقة لنباتات السرخس المتطاولة والممتدة أيضاً، ولوحات تصوِّر فاكهة... لوحات ملؤها القسوة والصلابة في مواجهة الحرية، وكذلك أكوام الأطباق الزرقاء مصفوفة على امتداد الألواح الخشبية التي تغلف الجزء الأسفل من الجدار. مع هذه المعدات التي تشكل ترسانة لنظرتهما إلى العالم (لا يجوز أن أنسى ألواح الزجاج التزيينية الضخمة المعلقة إلى السقف بسلاسل) كانا يوضحان تماماً كيف أنهما موجودان هنا لكي يبقيا ويدوما. وأما الساكنون عندهما فعابرون... هذا ما يحتاجه أوينز وأخته حتى يكون المكان بيتاً مستقراً لهما. كان التعبير عن ذلك في غاية الثقل.

بدأ كليم تامبو يزورني. توفي والده، السياسي العجوز، وتقاسم كليم قيمة بوليصة التأمين مع شقيقه الذي يعمل الآن راقصاً في سيرك لووي. لم يشأ كليم الإفصاح عن المبلغ الذي ورثه؛ ولعل ذلك لشدة إحساسه بالخصوصية أو نتيجة شيء من التطير. لكنه انتسب إلى قسم علم النفس في الجامعة وجاء للعيش في هذا الحي.

قال لي ضاحكاً، مستحياً من فمه الكبير وأسنانه المنخورة: «ما رأيك في أن العجوز ترك لنا مالاً؟» لا يزال لديه ذلك البياض وذلك الشعر الكثيف كالفرو في مؤخرة رأسه مثلما كان في طفولته. راح يعترف بالمشكلات التي تسببها له بشاعته. كان بائساً كئيباً عندما تحدث عن معاناته من أنفه، لكنه كان يقاطع شكاياته هذه بضحكات ضخمة ويحرك رأسه حركة مفاجئة سريعة لينقذ السيجار من السقوط. صار لديه مال الآن، ولهذا صار قادراً على تزيين معطفه بصف من الأزرار الأنيقة..

«لم أكن أقدّر العجوز حق قدره. كنت شديد الإعجاب بأمي. أقصد أنني كنت شديد الإعجاب حقاً. لا أزال معجباً بها، لكنها صارت عجوزاً. لا أستطيع خداع نفسي في هذا الأمر الآن، وخاصة بعد أن قرأت بضعة كتب في علم النفس». يضحك دائماً عندما يتكلم على علم النفس. كان يقول: «أنا في الجامعة من أجل الفتيات فقط». ثم يضيف بشيء من الكآبة: «لدي بعض المال الآن، وهذا يعني أنني قد أجني شيئاً. لن أحقق أي شيء بغير ذلك طالما لدي فم السمكة هذا، وطالما لدي هذا الأنف. أما الفتيات المتعلمات فيمكنك أن

تستميل عقولهن؛ وهن لا يتوقع منك أن تنفق عليهن الكثير». ما كان قادراً على اعتبار نفسه طالباً.. كان نوعاً من زائر يدفع رسماً مالياً مقابل زيارته. وكان يلعب البوكر في قبو مدرسة القانون ويذهب إلى نادي رينولد وإلى محل في الشارع رقم ثلاثة وخمسون حتى يراهن على الخيل. وإذا جلس في محاضرة فإنه يكون ميّالاً إلى القهقهة سواء كانت المحاضرة في الصالة الكبيرة في كلية كِنت أم في المسرح المكشوف... يضحك إذا سمع نكتة عادية من أي طالب علوم، أو يضحك لأنه تذكر شيئاً مضحكاً... لا يستطيع منع نفسه عن هذا.

يشرح الوضع فيقول: «لكن... كان ذلك الغبي يحاول إعطاءنا بعض التوافه السلوكية. وكان يقول إن التفكير كله يجري باستخدام الكلمات، وهذا يعني أنه لا بد أن يحدث ـ جزئياً ـ في الحنجرة، في الحبال الصوتية. لقد استخدم تعبير 'القراءة المكبوحة من غير نطق'. وهكذا أصابتهم الدهشة ولم يعرفوا ماذا يفعلون بالبكم فأتوا ببعضهم ووضعوا مقاييس على رقابهم وصاروا يحاولون قراءة أفكارهم عن طريق القياس المنظور. لكنهم لم يحصلوا على شيء لأن البكم يتكلمون بأيديهم. صبوا الجبس على أيديهم لتثبيتها. أما أنا... عندما وصل إلى هذه النقطة من قصّته... فقد بدأت أضحك... ها ها ها! فطلب مني الخروج من المحاضرة».

قال كليم هذا في نوبة من نوبات الحرج والخجل التي لم تلبث أن أزاحتها موجة أخرى من الضحك. ها ها ها! ثم جاءته نوبة من السرور. ثم عاوده الحزن عندما تذكر مشكلاته وتذكر أن الطبيعة لم تعطه الكثير. حاولت إخباره بأنه مخطئ وبأنه ليس بحاجة إلى التعويض في أي شيء. إنه ذروة شبابه، ومظهره رجولي قوي رغم بعض المبالغات، كشاربيه مثلاً وبدلته المقلمة كبدلات المقامرين... اشتراها باثنين وعشرين دولاراً ونصف الدولار (كان لديه المال لدفع ثمنها، لكنه فضل أن يدفعه تقسيطاً).

قال: «لا تكن لطيفاً معي يا أوجي. ليس عليك أن تفعل هذا». كان يحاول أحياناً أن يلعب معي دور العم مع ابن أخيه الذي في مثل عمره تقريباً. كان يسعى إلى الظهور بمظهر شخص في منتصف العمر. قرر أنه قادر على استمالة النساء اللواتي يحببن الخبرة... العم المتعب قليلاً، الذي يعاني بعض المرارة، لكنه فاسق أيضاً! هذا هو الدور الذي كان يحاول أن يمثله.

قال: «لا بأس، وماذا عنك أنت يا أوجي، ما مشكلتك؟ لماذا تتسكع هنا؟ لديك إمكانات كثيرة إلى درجة أنك لا تعرف ما تفعل بها. مشكلتك أنك تبحث عن مدير لك. أنت في علاقة وثيقة مع هذا المكسيكي الآن. لماذا تؤجل كل شيء».

«ما هو كل شيء؟».

«لا أعرف. لكنك مستلقٍ هنا في هذا الكرسي الهزاز، تأخذ الأمور ببساطة، تحمل كتاباً على صدرك، وتترك الزمن يمر بينما هنالك آلاف الأشياء التي تستطيع فعلها».

كانت عند كليم أفكار كبيرة عن الأشياء الموجودة التي يجب الحصول عليها؛ وهو ما كان طبيعياً تماماً إذا فكرت كم يجرحه ويحزنه أن تكون هذه الأشياء خارج متناوله. أعرف أنه كان يريد المال والإعجاب والنساء اللواتي يصبحن فاقدات الحول تماماً أمامك بفعل الحب. يريد ثمرات الثروة كلها. كان يشوِّشه ألف شيء، وكنت مثله أحياناً. وكان مصراً على أنه عليّ أن أذهب في اتجاه ما، أو أن أتمرن على كيفية الذهاب، على الأقل... أن أركز على الطريقة التي تجعلني ضرورياً في هذه الدنيا، على أن أكون حيوياً نشطاً غير منزوٍ، وعلى أن أكون مطلقاً، وهكذا دواليك. كان يرى أن لديَّ قدر من عدم الاستقرار يمكن القول إنه يقودني إلى شيء يتجاوز نفسي. ما كنت قادراً على جعل نجم الفردانية العظيم مشعاً، وما كنت قادراً على إضرام ذلك النجم الذي صار شمس العالم الساطعة فوق جمهور يضيء من أجله... شمس لا تدفئ بالضرورة لكنها تمطر أَلَقاً وبهاءً. أن أكون ضرورياً، نعم سيكون هذا جيداً، بل رائعاً؛ لكن... أأكون ضرورياً مثل شخصية شهيرة من شخصيات الرسوم المتحركة؟ ما كنت قادراً على أن أحلم بهذا؛ ما كنت أستطيع تجاوز قدراتي. ثم إنني ما كنت أصغي حقيقة عندما يبدأ شخص مثل كليم بحثّي وامتداحي. كان لدي نظامي الخاص لتلقي النصائح. ليس نظاماً معصوماً عن الخطأ، لكنه يرتكب أخطاء أستطيع احتمالها.

ما كان كليم يخادعني في ما يتعلق بهذا الموضوع الكبير، لكن الحديث معي ما كان غاية أولى عنده عندما يأتيني إلى البيت. لم يكن يأتي ليستنهض عزيمتي أو لينقل لي أخباراً عن جيمي كلين الذي تزوج الآن وصار أباً لطفل ويعمل في أحد متاجر التجزئة؛ وما كان يأتي لإخباري عن شقيقه الذي يحاول العثور على فرصة له في مسرح برودواي. كان يأتي لأنه مهتم بفتاة اسمها ميمي فيلاريس تعيش في البيت نفسه. لم تكن ميمي طالبة. كانت تخدم على الطاولات في مطعم رخيص للطلاب في جادة إليس. كنت أنظر إليها معجباً؛ ولعلي كنت في الموقع الأصلح للحكم عليها لأنني لم أكن أفكر في جعلها فتاتي. كانت متورّدة شديدة الشقرة ذات جمال قاسٍ ووجه متفتح وحاجبين طويلين يمتدان إلى الأعلى قليلاً كأنهما خُطا بقلم الرصاص، يمتدان مبتعدين عن خطهما الطبيعي صوب الأذنين الصغيرتين الشقراوين اللتين لا بد من النظر جيداً للبحث عنهما بين حلقات شعرها. كان لها فم كبير ناطق بروح ذات شهية عاصفة لا شيء ممنوعاً عنها. ردفاها طويلان ضيقان وجذعها كبير. وكانت ترتدي تنورات وسترات ضيقة وحذاء مرتفعاً يجعل بطتّيْ ساقَيْها قوسين مشدودين لا تطيقان انتظاراً. كانت خطوتها صغيرة أنيقة، وضحكتها عنيفة، كلية، حاسمة. لم تكن تذكّرني كثيراً بويلا من مطعم سينينغتون التي كانت نادلة مثلها. ويلا،

التي كنت أفضلها، هذه الفتاة الريفية... أظن أنني كان يمكن أن أعيش مع ويلا سعيداً طيلة حياتي في بلدة ريفية لو أن هذه الفرصة جاءتنا. أو لعلي أقول هذا الكلام لنفسي أحياناً.

أتت ميمي من لوس أنجلوس. كان أبوها ممثلاً في الأفلام الصامتة. وكانت تتحدث عنه عندما تريد أن تعبّر عن مدى كرهها للرجال الإنكليز. جاءت في الأصل إلى شيكاغو حتى تدرس، لكنهم طردوها من الجامعة لأنها تجاوزت الحدود المقبولة للعناق والتقبيل في غرفة الصف. كان من طبيعتها أن تكون شخصاً مطروداً. ولا يشك المرء أبداً في أنها قادرة على هذا التجاوز (إن كان تجاوزاً واحداً فحسب!) ولا في قدرتها على تلقّي العقوبة... كان ذلك موضوعاً مفضلاً لسخريتها الضارية.

أدركت أن كليم ليس له حظ معها. لم تكن الصحة وحدها، ولا شدة الإثارة الذاتية، سبب سطوعها هذا: كان للحب أيضاً مساهمة فيه. وبمحض المصادفة، كان حبيبها واحداً من الزبائن الذين حوّلهم إليّ باديلا، رجل اسمه هوكر فريزر يعمل أستاذاً مساعداً في العلوم السياسية. كان التعامل معه صعباً لأنه يطلب مني كتباً نادرة نفدت من السوق. تعبت كثيراً حتى استطعت أن أحصل له على مجلدَيْ كتاب «إرادة القوّة» لنيتشه لأنهما كانا في خزانة مقفلة في مكتبة تبيع كتب الاقتصاد. جلبت له أيضاً «فلسفة الحق» لهيجل، إضافة إلى الأجزاء الأخيرة من «رأس المال» من مكتبة شيوعية في شارع ديفيجن، وكذلك «السيرة الذاتية» لهيرزن، وبعض كتب توكفيل. كان متأنياً في المساومة على السعر مثلما كان كلامه متأنياً أيضاً مع دقّة غير معتادة. كان رجلاً لا بد أن الجامعة مسرورة به... طويل، عليه ملمح الذكاء الحر، وله تجاعيد مبكرة عند العينين توحي بكثرة التفكير... كأنه مستشار، أو رجل دولة، منذ الآن... تجاعيد توحي بالاتساق العنيد، وتوحي بأنها ظهرت مبكرة أيضاً كأنها الخط البياني الذي ترسمه آلة تسجيل الزلازل. لم يكن واحداً من أولئك الرجال طويلي القامات الذين تظن أنهم ينطوون على أجزاء من مبادئ ميكانيكية مختلفة، ولم يكن غريباً أيضاً أن تبدو هيئته العامة غير متماسكة كثيراً. وأما حقيقة عيشه في هذا المكان مثلما يعيش طالب في واحدة من هذه الكليات فقد جذبتني أنا أيضاً. لكنها لم تجذب باديلا صاحب الأنف اليابس مثل أنوف مومياءات الجيزة والعينين النشطتين والكتفين الضيقتين. كان باديلا آتياً من حي فقير في أعالي الجبال، وما كان ميالاً إلى الثقافة. ما كان يحب العالم القديم أيضاً.

لكن هوكر فريزر كان رجل ميمي فيلاريس. وكنت معجباً بمنظرهما عندما أراهما واقفَيْن معاً على درجات أوينز، كليهما في أحسن حال: هي مندفعة حارة تلقي بكلماتها إلى لا أحد، وهو مميز المظهر كأنه منحدر مباشرة من إنسان كرومانيون ـ لكن مع فوارق عصرية بطبيعة الحال، بما فيها الاضطرابات العصرية أيضاً. كان مزاجه غير منسجم معه،

وغير منسجم مع هيئته العامة، ولا حتى مع ترفّعه. كنت أراه أكثر الأحيان شاداً على أسنانه، وأرى على نهاية أنفه المستقيم ملمحاً عصبياً لا بد أنه ناشئ عن طبعه لا عن هيئة موروثة. لكن حتى باديلا الذي لم يكن يحبه كثيراً كان يقول إنه ذو مظهر رجولي، رجل حقاً. لكنه كان غاضباً منه لتأخره في الدفع لنا؛ وكان غضبه منّي أكثر من غضبه منه، لأن فريزر كان مدركاً أن باديلا عبقري في الفيزياء الرياضية. لكنه كان يدعونا، كلانا، بكلمة «سيد» كما لو أنه موظف في البلاط؛ وكان يعاملنا على أننا لصَّين مسلّيَّيْن... كأنه ليس، هو نفسه، شخصاً يشتري المسروقات. كان يقول: «سيد مارتش، هل لك في الذهاب إلى مركز المدينة واغتصاب نسخة جيدة من كتاب 'روح القوانين' من مغتصبيها؟ رأيت نسخة من هذا الكتاب في مكتبة آرغوس منذ أيام». كنت أضحك بصوت مرتفع إزاء هذا المزيج من الكلام المنتقى المترفع والتعابير الثورية، إضافة إلى لهجته... لهجة تينيسي التي يحاول تخفيفها. كان يبدو أول الأمر أنه يعتبرني شخصاً أبله لطيفاً، وكان يمازحني ويناكفني متحدثاً عن لوني. «يمكن لأي شخص أن يقول عنك إنك كنت تمضي أيامك في مرعى للأبقار يا مستر مارتش... سيقول هذا بسبب تورّدك بدلاً من التفكير في أنك تتنفس هواء المكتبات كل يوم». لكنه صار أكثر جدية معي فيما بعد، وصار يقدم لي نسخاً قديمة من صحف ومجلات شيوعية وتروتسكية ـ كانت لديه أكداس منها، يلقيها حُزَماً في غرفته... بلغات مختلفة. كان يتلقى مختلف أنواع النشرات والمجلات. بل إنه دعاني مرة لأستمع إليه في واحدة من محاضراته؛ على أن ذلك ربما كان لأنني مصدر كتب رخيصة بالنسبة له. كنت أعطيه الكتب دَيْناً أيضاً، وكان راغباً في البقاء على علاقة طيبة معي. شد باديلا على قبضتيه عندما سمع أنني أعطيته كتباً من غير أن آخذ ثمنها. ظننت أنه سوف يضربني بقبضته النحيلة ذات الأصابع الطويلة. زعق قائلاً: «يا غبي!» ثم «أيها الأمريكي الأحمق!» قلت له إنني سوف أضع حداً أقصى لديون فريزر: خمسة وعشرون دولاراً.

كانت هذه كذبة حتى يهدأ؛ أقول هذا لأن فريزر كان مديناً لي بقرابة أربعين دولاراً. «خراء! لن أعطيه قرشاً لو كنت مكانك. هذه طريقة يُظهر بها أنه شخص أفضل منك». لكني لم أتأثر بكلامه هذا، بل ربما كنت أستمتع كثيراً بتأمين بعض هذه الكتب لفريزر لأنني أحظى بفرصة البقاء نصف ساعة في بيته، وبسماعه يتكلم. وكنت في مرات كثيرة أسرق نسختين معاً من الكتاب الذي يطلبه، بفعل الفضول وحتى أقرأ الكتاب بنفسي فأحظى ببعض الأمسيات المملة الصعبة.

لم أكن ألوم نفسي أبداً على عدم إكمال قراءة أي كتاب لا يمنح نفسه لي متحمساً لأن تلك الكتب لم تكن تترك في نفسي شيئاً منها. وكنت أسترشد في ذلك بصديقي باديلا الذي علّمني ألا أعذب نفسي بما لا يأتي إلي بسهولة. ثم إنني لم أكن قد اتخذت أي مسار بعينه حتى ذلك الوقت... كنت فقط أحاول تجريب أشياء مختلفة.

لكن كان عليَّ إخبار كليم بأنه لن يحظى بشيء مع ميمي فيلاريس.

قال: «لماذا؟ ألأنني شديد القبح؟ أظن أنها فتاة لا تهتم بالمظهر كثيراً. إنها فتاة حارّة».

«لا علاقة لمظهرك بالأمر. إن لديها رجلاً».

«ماذا؟... وأنت تظن أنها لن تهتم بغيره أبداً؟ أهذا كل ما تعرفه؟».

راح يدافع معانداً عن رأيه فيها. جلس معي بعد أن اغتسل وحلق ذقنه ولمّع حذاءه الطويل... وراح يتصرف بشهامة فروسية محبطة حزينة... يمارسها معي أنا! ما كان ينقصه إلا حصان وسيف حتى يصبح مثل ملك قديم منفي... مع ضجره المأساوي الثقيل. ما كان فيه شيء مختلف عن تلك الصورة إلا ذلك الشعر الصبياني المنتفش على رأسه من الخلف، واللمعة الناعمة لبياض عينيه، وقهقهته. كنت مسروراً بصحبته. لكنني كنت غير قادر بالطبع على إخباره بكل ما أعرفه عن ميمي. لم أكن أعرف تلك الأشياء لأنني أقرأ البطاقات وأعجز عن الامتناع عن استراق السمع إلى المكالمات الهاتفية فحسب، بل أيضاً لأن ميمي لم تكن تهتم بإخفاء أي شيء. وما كانت توفر شيئاً عندما تبدأ الكلام. كان فريزر، من حين لآخر، يرسل إليها بطاقة يخبرها فيها بإلغاء موعد بينهما فتنتابها نوبة غضب وتلقي بتلك البطاقة بعيداً ثم تقول لي غاضبة وهي تفتح محفظتها: «أعطني شراباً». وتقول له على الهاتف: «يا ابن الحرام! أيها الجبان! ألا تستطيع الاتصال بي لتفسر سبب عدم مجيئك؟ لا تقل شيئاً من ذلك الكلام التافه عن أنك تعمل على أطروحتك. ماذا كنت تفعل في الشارع السابع والخمسين تلك الليلة مع أصحابك البدناء عندما زعمت أنك تعمل على أطروحتك؟ من هم؟ كان واحد منهم إنكليزياً أشقر أستطيع معرفته من مسافة بعيدة. لا تقل لي إنني لا أفهم. لقد تعبت من أكاذيبك... أيها الواعظ!»

وفي الثواني القليلة التي تصمت فيها لتلتقط أنفاسها، كنت أسمع صوته ماضياً بطريقة حذرة محسوبة، أسمعه وأنا أصغي مستلقياً في الكرسي الهزاز. وعند ذلك امتدت يد أوينز السمينة لتغلق الباب. لم يكن يهتم بما يفعله المستأجرون في غرفهم، لكنه ما كان يحب أن تبلغ شتائم ميمي ردهته الخاصة. كان جالساً على مقعده الجلدي متقلقلاً كأنه جليد جاف. كان تنفسه الصوت الذي يمكن أن يسمعه المرء إذا ما اقترب منه، أما عن بعد، فكان الصوت صوت تململه على كرسيه. كانت آخر كلمات ميمي لفريزر: «لن تعيش إلى اليوم الذي تسمعني فيه أتوسّل من أجل شيء». وعندما خبطت سماعة الهاتف بعنف كان ذلك مثل موسيقي يغلق البيانو بعد الانتهاء من عزف مقطوعة شديدة الصعوبة مرة واحدة من غير أي خطأ.

كان تمزيق أعصاب عاشقها يحقق لها متعة عميقة. وكانت تقول لي عند ذلك: «إذا

اتصل ابن الحرام مرة ثانية قل له إنني خرجت مسرعة وأنا ألقي الشتائم». لكنها كانت تنتظر اتصاله التالي.

لكن هنالك شيئاً آخر جعلني واثقاً من أنها غير مهتمة بكليم إطلاقاً، في الوقت الحاضر على الأقل، وهو أن فريزر كان يتصل كثيراً في الآونة الأخيرة، وكانت تمضي وقتاً غير قليل حتى تنزل عندما أقرع الجرس لأناديها. كان فريزر يعرف أنني أنا الذي أجيب على الهاتف فيقول: «ألا تستطيع أن تجعلها تأتي أسرع قليلاً يا سيد مارتش». وكنت أجيبه: «أستطيع محاولة هذا، لكنك تعرف أنني لا أستطيع القيام بمعجزات». أقول هذا ثم أترك السماعة متدلية.

«ماذا تعني؟» كانت هذه أويل كلماتها عندما تضع سيجارتها المشتعلة على علبة الهاتف. «لا أستطيع التكلم إليك. هنالك ما يمنعني الآن. إذا أردت أن تعرف كيف حالي فأنت قادر على المجيء شخصياً للسؤال». ثم تهتف بطريقتها المبتهجة المتهورة المرحبة بالغضب: «لا بأس، إذا كنت لا تهتم فإنني لا أهتم أيضاً. لا، لم أهدأ بعد، لكن لا تقلق. ليس عليك أن تتزوجني. لن أتزوج رجلاً لا يعرف معنى الحب. أنت لا تريد زوجة بل تريد مرآة. ماذا؟ ماذا تقصد بالمال؟ لا تزال مديناً لي بسبعة وأربعين دولاراً. لا بأس. لا يهمني فيم أنفقت هذا المال. إذا كنت مفلسة فسوف أعالج الأمر بنفسي. طبعاً... أنت مدين للجميع. لا تقل لي هذا الكلام الفارغ. قله لزوجتك. يبدو أنها تصدق كل شيء».

لم يكن فريزر مطلَّقاً بعد من زوجته الأولى التي أنقذته ميمي منها، بحسب نسختها هي من الرواية. «هل تذكر لوحة اسمها 'جزيرة الأرواح الضائعة'؟ صنع هذا العالم المجنون النساء والرجال من الحيوانات! وكانوا يطلقون على المختبر اسم 'بيت الألم'. نعم، لقد كان يعيش مع زوجته كأنه واحد من تلك الحيوانات». هذا ما قالته لي ذات مرة عندما حدثتني عن عثورها عليه... «كانت لدى الفتاة شقة ـ لا يمكنك تصديق أن رجلاً مثل هوكر يمكن أن يعيش فيها؛ مهما يكن رأيي في شخصيته، فإنه شخص ذكي، إن لديه أفكاراً. عندما كان شيوعياً اختاروه لكي يذهب للدراسة في معهد لينين حيث يدرّبون القادة الوطنيين من أمثال مارسيل كاشين وماو. لم يستطع الذهاب بسبب المشكلة الألمانية. وكان في تلك الشقة سجاد مزخرف في المرحاض يجعلك تشعر أنك تفعل شيئاً خاطئاً إذا دخلت بحذائك. لا يستطيع الرجل أن يفعل شيئاً إذا كان مضطراً إلى التعايش مع ذلك. النساء سيئات حقاً يا أوجي...» أعلنت هذا بطريقتها الفكاهية المميزة التي تفضل استخدامها... «إنهن لسن جيدات أبداً. يردن رجلاً في البيت! فقط هناك، في البيت. جالساً في كرسيه. يتظاهرن بأنهن يحملن ما يقوله الرجل وما يفكر فيه على محمل الجد. هل يتحدث عن الحكومة؟ هل يتحدث عن علم الفلك؟ إنهن يكتفين بالتظاهر ويجعلنه يصدِّق أنهن

مهتمات بالأحزاب وبالنجوم. يعاملن الرجل كأنه طفل من غير اهتمام باللعبة التي يلعبها، ولا يرِدن إلا أن يكون لديهن رجل في البيت. إذا كان الزوج اشتراكياً، فإنها اشتراكية، بل هي اشتراكية أكثر منه. وإذا تغير فصار ديمقراطياً، فإنها تسبقه في هذا... تجعله يظن هذا. لكنها لا تهتم في الحقيقة إلا بأن يكون لديها رجل في البيت، وليس لديها أي اعتبار لما تقوله عن نفسها... تراها مستعدة لأن تقول أي شيء. ليس هذا مجرد نِفاق، إنه أعمق من ذلك. إنه امتلاك الرجل». تحاول ميمي دائماً اختراقك بأشياء من هذا النوع (هذا مثال من أمثلة كثيرة). لكني أظن أن الأمر كان حقيقياً بالنسبة إليها. إنها مؤمنة بالكلمات وبالكلام؛ وإذا أقنعتك فمن الممكن أن تقتنع هي نفسها بما قاله لها إلهامها. وبقدر ما يتعلق الأمر بالكلام، فقد استعارت شيئاً من فريزر نفسه... تلك الطريقة التشريحية الخاصة التي لا تبدو صائبة على الدوام عند استخدامها في الأحاديث الشخصية: هو، بركبتيه الطويلتين منفرجتين ومرفقيه مستندين إليهما، ضاماً يديه، بعينين صادقتين تماماً، وبذلك الجزء الأوسط من شعره الرملي مهتزاً يميناً وشمالاً كأنه ضمان إضافي للحديث الصريح. كانت ميمي تقلد هذا بأقصى ما تستطيع، وكان عندها قدر أكبر من العاطفة والاندفاع والسرعة... السرعة التي تراها عندما يندفع شيء من فتحة ضيقة تحت ضغط مرتفع.

كانت ميمي (مثلما قال إينهورن عني محقاً) في حالة معارَضة. الفارق الوحيد هو أنها كانت تذكر الأسماء وتحدد الأخطاء، وأنها كانت شخصية هجومية، بينما كانت لديّ طرق أخرى نتيجة مزاجي الخاص. لم تتمكن من إقناعي. لم أقتنع بأنها محقة لمجرد شدة تأكيدها على ما تقول. كانت تقول: «طيب، إذا كنت غير متفق معي، فلماذا أنت صامت؟ لماذا لا تقول رأيك بدلاً من رفض ما أقوله عن طريق الابتسام؟ أنت تحاول أن تظهر بسيطاً أكثر مما أنت بالفعل، وهذا ليس سلوكاً صادقاً. إن كان لديك رأي أفضل، فتفضل وقل رأيك».

أقول: «لا، لست أدري. لكني لا أحب إطلاق آراء سيئة. عندما تعبّرين عن تلك الآراء فإنها تصبح ملزمة لك وتجعلك عبدة لها. يقود الكلام الناس إلى نقطة يتمكنون عندها من إقناع عقولهم بأشياء لا يشعرون بأنها حقيقية».

اعتبرت هذا نقداً لها أكثر قسوة مما أردته أن يكون فأجابتني بطريقة كريهة مع تكشيرة مكهربة في وجهها: «ماذا، إنك غبي أحمق! أنت لا تعرف حتى كيف تكون غاضباً... كيف، يا إلهي، حتى البقرة تستطيع أن تغضب! ثم ماذا تقصد بكلامك عن الآراء السيئة؟ أتريد أن يكون لك رأي جيد في القمامة؟ ماذا تريد أن تكون! مصنعاً لمعالجة القمامة؟ اللعنة، إنني أقول لا! إذا كان هنالك شيء سيئ فهو شيء سيئ، وإذا لم تكرهه فإنك تقبله في الخفاء».

أطلقت هذا في وجهي قائلة إنني لا أستطيع الغضب إلى الحد الكافي تجاه البشاعة،

أو إنني لا أنتبه إليها كما يجب. قالت إنني لا أعرف كم من الحُفر في طريقي، عند قدمي؛ وقالت إنني غير قادر على التقزز من شيء، وإنني لا أمتلك الصلابة الكافية أمام ما هو مرعب أو لا أمتلك الغضب اللازم أمام الخداع. وأسوأ خداع هو تقاضي مال مقابل ما يجب أن يكون تبادلاً للحب بين الأجساد وأساساً لكل ما هو حقيقي في الحياة. وأما النساء اللواتي تقع عليهن اللائمة في هذا فهن أسوأ بكثير من المومسات. أظن أنها انفجرت في وجهي مندفعة في هذا الحديث لأنه لم تكن لدي العداوة الكافية تجاه هذه الأشياء ولأنني رحت أبتسم لذكر تلك الزوجات المدمّرات مسامحاً إياهن على نعومتهن الأنثوية. كنت شديد التسامح تجاه تلك النساء، وتجاه أسِرّتهن التي تكون بائتة مهجورة أول الأمر ثم تصبح سامة بسبب أفكارهن التحكمية عندما ينتصر تأثير الملابس والأثاث والستائر التي تخنق الضياء والكبت البرجوازي للرجل المغامر ضمن زينة الغرف وترفها. لم تبدُ هذه الأشياء كلها خطيرة في نظري مثلما كان يجب أن تبدو؛ وكنت في نظرها (في هذا الأمر على الأقل) مجرد شخص أحمق، شخص يمكن أيضاً أن يعلَقَ في هذه الإفرازات العنكبوتية البيضاء فيصاب بالشلل داخل شبكة أمان تنسجها امرأة ما. لقد انتشلتْ فريزر من هذا المصير. إنه يستحق الإنقاذ.

وهنا، كنت قادراً على رؤية القيمة التي توليها لذكاء الرجال. إذا كان الرجل لا يتنفس هواء الصعوبات والمشقات والنُّبل، فإنها تتمنى له موتاً عادياً في غيمة غازية ناتجة عن وجوده المستقر، عن عبوديته المكتبية، عن تعفنه في متجر هادئ أو في اليأس الغامض لزواج من غير أمل؛ أو تتمنى أن يصير مقته لنفسه عادة تنتج دمامل خفية في قلبه أو تُنبت فيه براعم زهور مفترسة. كان لديها معيار فريد رفيع، وكانت تفضل أن يخطئ الناس هذا المعيار لأنهم بائسون أو سيئون أو مجرمون أو منحرفون أو لأن لديهم دافعاً يسوقهم إلى الغباء. وعندما عرفتها أكثر اكتشفت أنها لصة أيضاً؛ كانت تسرق الثياب لنفسها من متاجر الملابس؛ تسرق كثيراً لأنها تحب أن تكون ملابسها جميلة. بل إنها اعتُقلت مرة لكنهم تركوها بعد حكم مع وقف التنفيذ. كانت تعمد إلى ارتداء طبقات من الملابس في غرفة القياس. ملابس داخلية أيضاً. وأما طريقتها في الإفلات من العقاب فكانت إقناع الاختصاصي النفسي في المحكمة بأنها تملك المال وتستطيع الدفع لكنها مصابة بهوَس السرقة. كانت فخوراً بذلك؛ وقد حثّتني على أن أفعل مثلها إن ألقيَ القبض عليّ (كانت تعرف طبعاً أنني أسرق الكتب). لكن هنالك شيئاً لم تكن شديدة الفخر به. منذ سنة تقريباً، في وقت متأخر من الليل، كانت مارة في زقاق عند جادة كيمبارك حيث حاول لص مسلح أن ينتزع محفظتها. رفسته بين ساقيه وأخذت منه مسدسه عندما سقط منه فأطلقت النار على فخذه. يجعلها تذكر هذه الحادثة بائسة تماماً؛ وتصبح يداها عصبيتين عندما تتحدث عنها فتغرزهما في خصرها (كان خصرها صغيراً نحيلاً: كانت تشد الأنظار إليه بارتداء

حزام عريض) وتتلون كلها حتى يحسب المرء أنها مصابة بالحمى القرمزية. حاولتْ الدخول إلى مستشفى بريدويل لرؤيته فلم يسمحوا لها.

تقول: «ذلك الشخص المسكين». كانت تأسف لسرعتها الوحشية واندفاعها، وتشفق على هذا الصبي الذي كان واقفاً في أول الزقاق حاملاً «لعبة» تتطلب قرارات سريعة. يكون المال الناتج عن السرقة قليلاً دائماً، وسرعان ما يستنفذ المرء ذلك المال. لكن وجود شخص لديك يفعل ما تقوله له تماماً أمرٌ مختلف. ثم أن يكون ذلك الشخص امرأة أيضاً! لم تفسّر ما حدث بأنه جبن لدى الشخص الذي هاجمها، بل اعتبرته علامة خاصة على جاذبية عاطفية فجّة... طفل علمته المدينة أن يكون قاسياً خشناً وجارت على حواسه، طفل لم ينل عناية... لم يكن مثل حيوان في غابة حيث تهتم الطبيعة بحفظه على الأقل. كما أنها لم توجه إليه اتهاماً في المحكمة بل حاولت أن تقول للقاضي شيئاً في صالحه، لكنهم منعوها. وهكذا أُدين الصبي بالسطو المسلح ونال خمس سنوات وصارت ترسل إليه رسائل وطروداً. لم تكن تفعل هذا لأنها تخاف أذاه عندما يخرج بل لأنها نادمة على ما فعلت.

لم تكن مغلوبة على أمرها عندما تحدثت هذه المرة. صارت قادرة أخيراً على إعطاء فريزر أخباراً أفضل؛ لكنها جعلته ينتظر تلك الأخبار. أرادت أن يقلق، أو لعلها أرادت أن تدربه على تعلم القلق عليها وليس على نفسه. لم تكن سهلة معه. كانت تعرف أن العلاقة غير متساوية وأنها تحبه أكثر مما يستطيع أن يحبها أو أن يحب أي شخص. لكن الحب لم يكن هدفه مثلما كان هدفها هي. كانت شديدة العنف فيما يتعلق بهذه النقطة. وكانت، هي أيضاً، قادرة على العيش في صحراء خاوية من أجل حبها، وقادرة على أكل جراد الصحراء أيضاً.

بدأت أتعلم منها شيئاً في غاية الأهمية، وهو أن كل شخص يهتم بأن يكون لديه من يقاسمه مصيره... أو يحاول أن يهتم بذلك! قد تقولون لي إنه كان عليَّ أن أعرف هذا من قبل. كان عليَّ أن أعرف هذا، وقد عرفته بطريقة ما، لولا ذلك لكانت جدتي لوش قد حققت نجاحاً أكبر معي، أو لحقق ذلك النجاح إينهورن أو الزوجان رينلينغ. لكن هذا الأمر ما كان واضحاً عندي أبداً مثلما هو واضح عند ميمي فيلاريس الذي كان جسدها الحقيقي مكان الاستقطاب عندها... ميمي التي كانت تقدم، بشكل أكثر وضوحاً، كل ما يلزم من ضمانات وشهادات تؤكد طبيعتها. ما كان لديها مكان محدَّد تمارس فيه نشاطاً مشروعاً، مكتب أو مخزن أو أسرة أو عضوية في شيء ما، لكنها تبني كل شيء مستندة إلى إرادتها القوية المحكَمة وإلى حجتها الصلبة وصوتها العنيد الحرون. أظن أنها... لا بد أنها... قد لاحظت (وكيف لا يسبب هذا لها ألماً حاداً) التناقض بين طريقة إقناعها الخشنة

وبين ما كان لديها من إيمان عميق راسخ بالحب. لكن القشرة السميكة التي خلقها لديها عنادها في مقاومة هذا العالم جعلت ذلك التناقض شيئاً محتوماً، شيئاً لا مهرب منه. نعم، كان ذلك أيضاً قدراً ومصيراً لا بد من مشاركته، كان نوعاً آخر من المرارة الكامنة تحت السطح.

مع نهاية الصيف صرنا صديقَيْن مقرّبَيْن حقاً، وصار تامبو يشك في أن ما بيننا أكثر من صداقة. لكن هذا لم يكن حقيقياً إلا في مخيلته الحسود (وإن تكن بريئة من الضغينة) التي تدعمها بعض البراهين الظاهرية البسيطة التي كان من بينها أنها تأتي إلى غرفتي في تنورتها الداخلية. يحدث هذا لأننا نعيش في الطابق نفسه. كانت تذهب بالطريقة نفسها إلى غرفة كايو أوبرمارك... ما كان يفصل بين غرفنا الثلاث إلا فسحة صغيرة في العليّة. كانت المسألة مسألة قرب المكان فقط؛ وحتى إذا كان الإغراء أو الاستفزاز ليس بالأمر المستبعد كثيراً، فإن هذا آتٍ من كثرة التكرار مثلما يحدث مع عازف الكمان الذي يضع كرة مطاطية في جيب معطفه الكبير حتى تعبث بها أصابعه عندما يكون ذاهباً في القطار إلى حفلة موسيقية فلا يكون بعيداً أبداً عن أعظم الأشياء (من وجهة نظره)... شيء يمكن أن يأتيه مصادفة من منظر الطبيعة في النافذة، ومن السياج المعدني. كانت ميمي تأتي لتستعير سيجارة أو لتستخدم الخزانة التي تضع فيها بعضاً من ملابسها الكثيرة، أو لكي تتكلم فقط.

صار لدينا الآن أموراً أكثر حتى نتحدث عنها لأننا وجدنا، شيئاً بعد شيء، أن بيننا صلة أخرى. نشأت تلك الصلة من خلال سيلفستر الأسمر الذي كنت أعطيه دعايات الأفلام... الشخص نفسه الذي حاول أن يجعل سايمون شيوعياً. لم يفلح سيلفستر أبداً في إنهاء دراسته في كلية آرمور للتكنولوجيا. كان يقول إن السبب هو قلة المال، وكان يلمّح أيضاً إلى أن لانتمائه السياسي علاقة بذلك؛ لكنه كان في نظر الجميع شخصاً فاشلاً. مهما يكن الأمر، فقد كان يعيش في نيويورك ويزاول وظيفة تقنية في المترو حيث يعمل في مكان تحت الشارع الثاني والأربعين. وكان يبدو شخصاً محكوماً بأن تكون لديه دائماً مهنة يمارسها في الظلام. ومع مرور الزمن، أعطاه ذلك لوناً خاصاً غريباً... وجه نحيل داكن ووجنتان متهدلتان وعينان أضرَّ بهما القلق فصارتا أكثر ضيقاً نتيجة انتفاخ الجلد حولهما وزيادة تجاعيده... لعل ذلك بسبب كثرة المفاتيح المضيئة في مكتبه تحت الأرض... هناك حيث كان يجلس إلى طاولة الرسم وينسخ مخططات ويقرأ المنشورات السياسية في أوقات الفراغ. كان قد طُرد من الحزب الشيوعي، مثل فريزر، وذلك بتهمتي «اليسارية الطفولية» و«نزعة الانحراف التروتسكي». كان هذان التعبيران غريبين بالنسبة لي، وبالغرابة نفسها كان افتراضه أنني أفهمهما جيداً. إنه في حزب آخر الآن، الحزب التروتسكي، ولا يزال بلشفياً أيضاً. كشف لي عن أنه لا يمكن أن يكون من غير مهمة أبداً، وعن أنه لا يذهب إلى أي مكان من غير إذن من زعماء الحزب. حتى عودته إلى شيكاغو من أجل زيارة

أبيه في الظاهر كانت مهمة من مهماته في حقيقة الأمر (والده عجوز كانت جدتي تدعوه باسم «الخباز»). كانت مهمته في تلك السفرة هي الاتصال بفريزر. وهكذا استنتجت أنهم يحاولون استقطاب فريزر لصالح الحزب الجديد. شاءت المصادفة أن أسير خلفهما في الشارع السابع والخمسين ذات يوم. كان سيلفستر حاملاً حقيبة يد صغيرة ممتلئة وهو سائر يرفع عينيه إلى فريزر ويحدثه ببطء خاص (بذلك النوع من النبرة السياسية)، في حين كان فريزر ينظر من فوقه بجدية بالغة ويسير عاقداً يديه خلف ظهره. رأيت سيلفستر مع ميمي على سلم البيت الذي كنا نسكنه. لقد كان، من قبل، صهراً لها لأنه تزوج أختها آني في نيويورك، لكنها تركته الآن وتسعى إلى الطلاق منه. تذكرت كيف راحت زوجته الأولى تلقي الحجارة عليه عندما حاول أن يأتي عبر باحة بيت أبيها الخلفية للحديث معها. بل تذكرت أيضاً التفاصيل التي سمعتها منه عن هذا الأمر، وتذكرت هواء جادة ميلواكي البارد الكئيب حيث كنا نتجول لبيع شفرات الحلاقة وأدوات قص الزجاج مع جيمي كلين. كان سيلفستر يطلب من ميمي أن تكلم أختها من أجله. لكن ميمي، التي لم تهتم بأن تخفض صوتها ليكون الكلام لي وحدي بل تحدثت مثلما تفعل عندما تعبر عن أي رأي من آرائها... قالت لي:»يا للهول! لو كنت أعرفه قبل أن يتزوجا لقلت لآني ألا تتزوجه. إنه ينضح بؤساً! لا أفهم كيف استطاعت أن تمضي سنتين معه. تفعل الفتيات الشابات أشياء فظيعة. هل تتخيل أن تكون في السرير معه... ذلك الوجه الطيني والشفتان المرتخيتان؟ ماذا؟ يبدو شكله مثل أمير الضفادع! آمل أن تكون الآن في السرير مع عامل قوي شاب». لا رحمة عند ميمي إذا وقع شخص تحت يدها. كانت تصغي إلى سيلفستر وتفكر في أختها التي يجب أن تكون مع رجل أكثر قوة وأن تلوّح بذراعيها فرحة مستمتعة. جعلتني قسوتها هذه أمقتها لحظة واحدة... كانت تنظر بعينين مفتوحتين إلى سيلفستر حتى يرى أفكارها فيهما. وأما ما كان يجعل الأمر كله نكتة مسلية فهو افتراضها أنه لا يستطيع أن يرى شيئاً. نعم، لعله لم يكن يرى شيئاً في عينيها!

لابد من شرح أن وجهة نظر ميمي المتصلبة كانت قائمة على أن كل ما ترثه من اختلاطك بالناس في الماضي، ومن والديك أيضاً، ليس إلا طبيعتك الأرضية المادية التي يقع على عاتقك أن تجعل مظهرها يدعو إلى الإعجاب. وبكلمات أخرى، إذا ما طبقنا هذا على سيلفستر، فإنه ملوم على مظهره إلى درجة كبيرة... إن روحه مصنوعة من مادة فاسدة! ثم إنه هو من يتحمل الذنب في أنه لا يستطيع الاحتفاظ بزوجاته وصاحباته. قالت لي: «سمعت أن فتاته الأولى كانت عاهرة سكّيرة. كما أنّ في آني شيء من العاهرة أيضاً. ما الذي يجعلهن يذهبن إليه أصلاً؟ يهمني حقاً أن أعرف هذا». كانت تظن أنهن يعتبرن كآبته شيئاً يشبه روحاً شيطانية ما، ويتوقعن من تلك الروح أن تأتي إليهن بالنار مثلما يفعل شيطان حقيقي. وأما عندما يفشل في ذلك ويتضح أنه ليس أكثر من جبلة من طين لم تكتمل بعد،

فإنهن يبدأن رميه بالحجارة... حجارة حقيقية أو مجازية. كانت ميمي ذات عقل وحشي، وتعتبر تلك الوحشية برهاناً على عدم قدرة أحد على العبث معها. كانت تعاقب الناس وتتلقى ضرباتهم في عالم حقيقي تماماً.

كان سيلفستر، مقوّس الساقين، قليل الاعتبار، خفيف الشعر، ضعيف العينين، رسام المخططات في مكتب تحت الأرض، المفوّض الهزلي لأمريكا السوفييتية التي يحلم بها، يعلّم نفسه كيف يتصرف تصرف الفائز، وكيف يبتسم ابتسامة الفائز، وكيف يكون واثقاً من نفسه... لماذا؟ لأنه سوف ينسف الهيكل القديم ويجعل الذهب والمرمر يتألقان من أجل إنسانية جديدة. كان يحاول ممارسة تأثيره عليّ من خلال استعراض إتقانه الكلام الماركسي عن الاقتصاد، ومعرفته تاريخ الفصائل السياسية المختلفة ونصوص لينين وبليخانوف؛ وأما ما كان لديه في الحقيقة فهو تلك النظرة الحالمة بعيدة المدى الذاهبة في المستقبل، والقدرة على انتقاء العبارات التي يبتسم لها ويتشممها كأنها عطر فواح الرائحة. كان متلطفاً معي، يعاملني معاملة عم حريص لأنه يدرك أنني أحبه، ولأنه لم ينتبه إلى مقدار ما أعرفه عنه. كنت ميّالاً إلى تجنيبه اكتشاف ذلك. لكن عيوبه، على أي حال، ما كانت خطيرة في نظري بقدر ما كانت خطيرة في عين ميمي.

كان يستطيع أن يثق بي ثقة تامة؛ وكان بعضٌ من سحره غير قادر على الظهور من غير وجود تلك الثقة. يقول لي بابتسامة جذلى: «كيف أحوالك يا فتى؟» لكن المرارة والعبوس ما كانا قادرين على هجران ابتسامته تماماً بعد الآن. كان يضع كفيه على بطنه من فوق سترته وصداره ويقول: «ماذا تفعل؟ هل أمورك بخير؟ وماذا أنت هنا، طالب؟ لا، هل أنت صاحب إنجازات؟ هل أنت بروليتاري؟» كان ينطق هذه الكلمة بسحر وافتتان.

«في الحقيقة... إنني طالب نوعاً ما».

يجيب: «شبابنا!... يريدون أي شيء عدا العمل الشريف. وكيف حال أخيك سايمون؟ ماذا يفعل؟ ظننت مرة أنني قادر على استقطابه. كان يمكن أن يصبح ثورياً جيداً. من أين يأتي الثوريون إذا لم يكونوا من خلفية مثل خلفيتكما؟ لكني أظن أنني عجزت عن جعله يرى ذلك... مع أنه شديد الذكاء. سوف يدرك هذا بنفسه ذات يوم».

عندما يلعب قَدَرٌ غريب لعبته مع الناس ويجعلهم أثرياء بُدَناء، عندما يحدث هذا بسرعة كبيرة، ينشأ خطر وقوعهم في حالة حالمة تنهب حقيقة واقعهم نهباً. لنقل إن التقدم في السن والموت أمران آتيان على أية حال، فلماذا لا يكون ذلك العبور مريحاً؟ على أن هذه الفكرة لا تتمكن من الثبات في تلك المنطقة الغريبة حيث يعوم كل شيء بسرعة كبيرة. لكن من الممكن، رغم هذا، أن يكون هنالك علاج لهذه المشكلة؛ مثلاً: قوة الشخص واحد من الحلول الممكنة، وكذلك المال والوفرة الواسعة، والشخصية الملموسة المتينة، أو حسن

التنظيم. لدينا إذن هذه العلاجات كلها، وعلاجات كثيرة غيرها أقدَم منها، لكنك لا تملك في الواقع حرية الاختيار الكاملة بين هذه البدائل، وخاصة البدائل القديمة المنتمية إلى عالم غير مرئي. يتدبر أكثر الناس أمرهم بما يكون لديهم، ويكدحون في عالمهم الظاهر الموجود. إن لهذا الأمر أيضاً فضائله الخاصة التي لا تزول.

لم يكتفِ سايمون بفعل ما كان عليه أن يفعله، بل بلغ الحدود القصوى أيضاً. كان يدهشني تمسّكه بأهدافه وأنه يفعل ما خطّط له تماماً. كان أمراً غير منصف أبداً أن يعبر تلك المنعطفات بهذه الدقة كلها ويفعل بالناس ما خطّط له رغم أنه لا يزال شخصاً غريباً بالنسبة إليهم. كانت شارلوت واقعة في حبه. ليس هذا فقط، بل كانا متزوّجَيْن بالفعل. لم يكن وحده من استعجل ذلك الزواج، لأنها كانت مستعجلة مثله. كان جزء من أسباب هذا الاستعجال كامناً في أنه مفلس إلى درجة لا يستطيع معها الاستمرار في مغازلتها زمناً أطول. أخبرها بهذا، فوافقت على ضرورة عدم إضاعة الوقت؛ ووافق والداها أيضاً. لكنهم أقاموا حفل الزفاف خارج المدينة حتى تظهر أخبارهم في الصحف. أما بالنسبة لأفراد العائلة كلها، فقد كانت هنالك خطبة، وكان هنالك زفاف. خططت شارلوت وأمها ذلك كله. صحيح أن سايمون كان يدفع إيجار سكنه في بيت جيد للعازبين في مركز المدينة، إلا أنه كان يعيش في الواقع مع أسرة ماغنوس في شقتهم القديمة الضخمة في الحي الغربي.

جاء لرؤيتي بعد شهر العسل الذي استمر يوماً واحداً لأن سرية الزواج لم تسمح لهما بوقت أكثر من ذلك! كانا في ولاية ويسكانسن. ظهر لديه منذ الآن مزيد من السمات الجديدة التي عجزت عن متابعتها... صارت ملابسه أنيقة ومريحة، وصارت لديه قداحة فاخرة جديدة، وفي جيوبه أشياء كثيرة لا بد له من الحرص عليها. قال لي: «إن أسرة ماغنوس رائعة معي». وكانت هنالك سيارة بونتياك جديدة رمادية عند منعطف الشارع. جعلني أراها من النافذة. لقد بدأ أيضاً يتعلم تجارة الفحم في واحد من مستودعات أسرة ماغنوس.

«وماذا عن مستودعك أنت؟ ألم تقل لي...؟»

«بالتأكيد، قلت لك... وعدوني بذلك فور تمكني من إدارة مستودع بنفسي. لكن الأمر ليس بهذه الصعوبة». أضاف هذه العبارة وقد فهم السؤال الذي كنت أريد طرحه... «يفضلون أن يأتيهم شاب فقير مثلي. يكون الشاب الفقير أكثر نشاطاً وعزماً. إنهم يعرفون هذا الأمر لأن بدايتهم كانت هكذا».

ما عاد يبدو شاباً فقيراً في سترته الفضية رفيعة الجودة وفي حذائه ذي الدرزات الجديدة وقميصه الذي لا تزال رائحة المتجر فيه... لم يرسله إلى الغسيل بعد.

قال: «ارتد ثيابك لأنني سوف آخذك إلى العشاء هناك». وعندما صرنا في الخارج ومضينا إلى السيارة عبر الممر، استنشق نفساً عميقاً ثم تنحنح... تماماً مثلما فعل منذ زمن بعيد عندما كنا ذاهبين معاً إلى محطة شارع لاسال حيث كان من الواضح أنني كنت أكثر غباء من أن أنجح في بيع الصحف. الفارق الوحيد الآن هو تلك الدوائر الكبيرة العابسة حول عينيه. جلسنا في السيارة التي تفوح منها رائحة المطاط الجديد... سيارة تفوح برائحة الجِدّة كلها! إنها المرة الأولى التي أراه يقود سيارة؛ انعطف بها مسرعاً مثل أي سائق قديم، بل بشيء من التهوّر أيضاً.

وهكذا أخذني إلى عالم الأضواء والسجاجيد... إلى بيت ماغنوس. كان كل ما في تلك الشقة قليل الذوق، فسيحاً ضخماً. حتى الببغاوات المرسومة على الغلالات المحيطة بالمصابيح كانت ضخمة أيضاً. كانت أجسام أفراد الأسرة كبيرة وعظامهم عريضة، هولندية. وكانت زوجة أخي من المقاس نفسه أيضاً. بدت مدركة ضخامتها، أو خجلة منها، كأنها شيء معيب فظ. سلمت عليّ بيد منكمشة كأنها تحاول أن تجعلها أصغر مما هي. لكنها كانت كبيرة. كم يكون صعباً على أصحاب الحجم الضخم عيش ذلك القلق الذي يكون لديهم فيما يتعلق بمظهرهم، النساء خاصة، عندما يكون لديهم مقت خفيّ لتلك الضخامة. كانت عيناها جميلتين جمالاً واضحاً، رقيقتين، تظهر فيهما لفتات عارضة من ذكاء وبُعد نظر وتعبير عن قدرة كبيرة على إدارة الأمور. لكنهما كانتا عينين دافئتين أيضاً. وهكذا كان صدرها، صدراً ضخماً! ولها ردفان ضخمان أيضاً. ظل سلوكها معي حذراً كأنها تخشى انتقاداتي أو كأنها تخشى ما قد أقوله لسايمون فور انفرادي به. لا بد أنها أقنعت نفسها بأنه قدم لها خدمة عظيمة عندما تزوّجها، فهو وسيم ظاهر الذكاء. وفي الوقت نفسه، استبد بها القلق من ألا أراها جيدة إلى الحد الكافي، أو من الحديث عن مال أسرتها أكثر مما يجب. وكان السؤال الأهم المسيطر على تفكيرها هو ما إذا كان سايمون سيتزوجها من غير ذلك المال. كان من المرهق كثيراً ألا يكون هنالك ذكر للمال، وهكذا فقد جرى الكلام عنه بنوع من الهزء والتهكّم المُريع. فعل سايمون ذلك بخشونة كان لا بد من الضحك إزاءها لأنها خشونة قاتلة في واقع الأمر إذا ما أُخذت على محمل الجد. لقد قال، مثلاً، عندما تركونا وحدنا نحن الثلاثة في الردهة حتى أتعرف عليها: «لم يحدث أن تلقّى أحد سعراً أفضل من هذا مقابل مضاجعة». كان أمراً غامضاً، مقلوباً رأساً على عقب... فمن الذي دفع الثمن؟... وكان لا بد من اعتبار هذا الكلام مزاحاً مسلياً مما جعلها تهبط مستعجلة من سمائها الرومانسية، من حالتها العاطفية، لتنكر ذلك كله وتتظاهر بأن هذا الكلام السفيه الوقح ليس إلا مزاحاً صادقاً نابعاً من اتفاق عميق بينهما ومن نوع واقعي من الحب. مالت عليه كأنها شيء يشبه برج بيزا (كانت ملابسها فاخرة جريئة) ووضعت كفها على شعره... كان واضحاً لي أنها تمر بلحظات شديدة الصعوبة.

لم تستمر تلك الصعوبة عندها طويلاً... استمرت إلى أن فهمت شارلوت من سايمون إيحاءه بأنني غبي، عاطفي، لكن ليس بالمعنى الحَسَن. ولم تتأخر كثيراً حتى تعلمت كيف تتعامل معي. لكن ذلك كان شاقاً بعض الشيء إلى أن اكتسبت ثقة بنفسها. أظن أنها، في ذلك الوقت، لم تكن قد تعافت تماماً من شهر عسلها الذي كان «فظيعاً»... هكذا أخبرني سايمون صراحة! لم يحدد وجه الفظاعة، لكنه عبر عما يكفي لأن يجعل تلك الكلمة قابلة للتصديق بعمق؛ كانت لديه في آخر ذلك اللحن نغمات فضّلتُ عدم سماعها لأن أصداء موتٍ كانت تتردد فيها، لكني اضطررت إلى سماع كل ما لديه وإلى التجاوب معه كله من أوله إلى آخره. كنت واثقاً من أن هذه الأشياء التي قالها هي أغرب ما يمكن أن يقال في ذلك المكان المفروش بالسجاد والمحاط بالفخامة البنّية الرمادية القاتمة. كان من المفترض أنه يقول ذلك كله على سبيل المرح، وأن هذا الكلام ليس إلا تعبيراً عن شهوانية العريس وطاقته. خطر في بالي أن فكرة الانتحار تعذّبه (كانت هذه فكرة أقوى من خاطرة عابرة)، لكنه كان في الوقت نفسه مستعداً للغوص حتى يفوز بجائزته، وحتى يستطيع أن يفخر بقوة أعصابه وجسده وبالرفاهية التي حل فيها، بل حتى بشيء من التهور في مطالبه. ذلك الإحساس بما يستطيع فعله وما يستطيع الحصول عليه من غير اهتمام بما يظنه أي شخص منهم، كان شيئاً منسجماً معه كل الانسجام.

وعندها دخل أفراد الأسرة يسوقهم فضول إلى معرفة أي شخص يمكن أن أكون! ما كانت تساؤلاتي عنهم بأقل من تساؤلاتهم عنّي. كانوا ضخاماً إلى درجة تجعلك تفكر في ما يمكن أن يمنعهم من معاملة الناس، حتى سايمون وأنا، كأنهم أطفال... رغم أننا لسنا صغيرَيْ الحجم! يبلغ طول سايمون قرابة مئة وثمانين سنتيمتراً؛ ولست أقصر منه إلا بسنتيمترين اثنين. لكن تميز هؤلاء الناس كان في العرض، لا في الطول. صحيح أن سايمون قد سمن قليلاً لكنه لم يبدأ حتى في الاقتراب من حجمهم حتى الآن. كانت حياتهم ضخمة مثل أجسامهم. ويحترمون كبارهم (رافقتنا واحدة من الجدات في تلك الأمسية)؛ وكانوا يشترون الأفضل من كل شيء... الملابس أو الأثاث أو الآلات؛ ويُقدّرون التسلية الجيدة، ويعجبون بسرعة البديهة التي كانوا محرومين منها؛ كما يعجبهم أن يقدم المرء نفسه تقديماً درامياً، وهذا ما فعله سايمون. لم يقصّر أبداً في إمتاعهم وإسعادهم وفي تقديم عرض كبير أمامهم. مضى عميقاً، مضى بعيداً، إلى مكانة النجم... مضى إلى مكانة ملكية! كان لديهم آباء عظام وأمهات كبيرات، لكن لم يكن لديهم أمير من قبل. مر سايمون بعملية تحول كبرى حتى يجعل نفسه كذلك، حتى يجعل نفسه أميراً بينهم. أدهشني ذلك التحول كثيراً. قلت من قبل إنه يلفت النظر دائماً، حتى عندما يكون صامتاً، لكنه ما عاد صامتاً الآن... ما عاد صامتاً أبداً: زال عنه تحفظه القديم وتحطم كله. صار شاباً عاصفاً متقلباً متكبراً نقاداً عشوائياً مقلداً، بل مزعج! وراح يصيح وينعق ويتخذ هيئات غريبة فدوّخ الجالسين

حول الطاولة في غرفة الطعام الراسخة الثرية هذه. رأيت فيه سخرية جدتنا... نعم، صلابة مخيلة تلك العجوز ووحشيتها الزائفة، بل حتى بعض زعقاتها الروسية القديمة. لم أكن أعرف أن سايمون قد اكتسب هذا كله منها. عدت بذاكرتي إلى أكثر من ستمئة أو سبعمئة ليلة جُمعة فرأيت عينيه تتابعان أداء جدتنا العجوز. كم استقر هذا الأداء عميقاً فيه... حتى من غير أن يظهر عليه ذلك! كنت أتخيلها تصرخ بازدرائها المعتاد، ازدراء ما كان سايمون بريئاً منه على الإطلاق. كان يستعير منها، ويسخر منها أيضاً. وكان مظهره جديداً بأكثر من طريقة؛ بل أكثر جدة من قميصه أو من الخاتم الذي في إصبعه والحجر الكريم في ياقة قميصه، أو حتى من سمنته ومن الإرهاق الذي يأتي من فكرة لا يريدها، فكرة تلمع في ذهنه في اللحظات الفاصلة بين منعطفات أدائه هذا. إنها مهمة القيام بأشياء جريئة رغم عدم الإحساس بأي سعادة في داخله؛ هكذا كان سايمون. لكنه جعلهم يدفعون ثمن هذا أيضاً، جعلهم يدفعون ثمنه عندما قلد لكنة حماته الطيبة. لكن ذلك لم يكن مسيئاً أبداً بالنسبة إليها ولا بالنسبة إليهم كلهم: كان شيئاً كبيراً، صاخباً، مرحاً.

لكنه ما كان جالساً بينهم ليسليهم فقط! عندما اتخذ هيئة جدية وأوقف أداءه الهزلي ناظراً إليهم بعينين جادتين. تلقى منهم صمتاً صادقاً منتظراً الكلام الذي يريد قوله. انتظروا كلامه باحترام تام.

خاطبني أنا، لكن كلماته كانت موجهة إليهم من حيث الجوهر. قال وهو يلف شارلوت بذراعه ـ وضعت يدها بأظافرها المطلية فوق يده: «أوجي! ترى الآن كم كان حظنا سيئاً لأنه لم تكن لدينا أسرة متماسكة مخلصة كهذه الأسرة. هذه أسرة يفعل كل فرد فيها أي شيء من أجل الآخر. ونحن لا نستطيع حتى أن نفهم هذا لأننا لم نعشه. افتقدناه طيلة حياتنا. لم نكن محظوظين! والآن احتضنوني وجعلوني واحداً منهم كأنني ابنهم. لم أكن أعرف معنى الأسرة الحقيقية قبل الآن؛ فهل تدرك كم أنا ممتنّ لهذا؟ قد تبدو عقولهم بطيئة بعض الشيء في نظرك...» لم يفهم السيد والسيدة ماغنوس هذه الكلمات الأخيرة، لم يفهماها تماماً لأنهما كانا غارقين في رضاهما عن نبرة حديث سايمون، لكن شارلوت حبست ضحكتها في حلقها أمام هذه اللمحة من الشقاوة التي تخللت كلامه... «لكن لديهم شيئاً لا بد لك أن تتعلم كيف تقدّره حق قدره: إنه لطفهم وطيبتهم وتماسكهم كلهم معاً».

عندما قذفني بهذه الكلمات انتابتني نوبة كره لهذا الشخص السمين الذي صاره سايمون؛ وأردت أن أقول له: «هذه تفاهة! أن تمتدحهم وتهزأ من أهلك. ما المشكلة في أمّنا، أو حتى في جَدتنا؟» لكن ما قاله عن أسرة ماغنوس كان فيه قدر من الحقيقة، لا يمكنك إنكار ذلك. كنت فاشلاً في هذا الأمر أيضاً... المحبة العائلية. ورغم أن سايمون قال ذلك بطريقة

سيئة إلا فإنني لا أظنه غير صادق تماماً، لا أظن أنه كان مدعياً! أن تجد نفسه بين وجوه دافئة أمرٌ من شأنه أن يجعل اعتراضات كثيرة تتراجع بعض الشيء... مثلما يحدث عندما تقبّلك امرأة من الأعداء. هنالك أكاذيب شائعة كثيرة مثل هذه، وهنالك حالات نفاق كثيرة مثل هذه... أشياء تكون خارج انسجام اللحظة المعنية. كان ذلك انفراجاً بالنسبة لسايمون، خروجاً من مشكلة مزعجة؛ كان أيضاً حاجةً إلى أن يلتقط أنفاسه في هذه الجنة التي صار من سكانها. كان إذاً يقدم أسباباً للتعبير عن امتنانه. وهذا ما جعلني أمتنع عن الإجابة.

عندما قال لي هذه الكلمات كانوا يراقبون الموقف، كلهم؛ وكانوا في حالة شك لأنني بدوت عاجزاً عن التقاط شيء من وليمة الحب هذه. صحيح أنني وافقت أن ألعب لعبته، لكنني لم أكن سريعاً بما فيه الكفاية للقيام بكل شيء. كان لديّ بحر من المشاعر الخاصة بي، بحر خفي جعلني متوتراً. وعندها، أظن أن كل شكوكهم الباقية فيما يتعلق بسايمون اتخذت وجهة أخرى... تجمعت وانصبّت عليَّ أنا. أحسست أنهم يتوقعون مني تبرئة نفسي... هذا ما توقعوه جميعاً بوجوههم المتوردة وأجسادهم الضخمة، بمن فيهم العجوز التي كانت تفقد الأمرين معاً... تفقد لونها، ويتضاءل حجمها، حتى صارت مخلوقاً عتيقاً في ملابس سوداء وشعر مستعار محتشم وخواتم وتعاويذ كثيرة... بدا عليها أنها تملك قدرة ميتافيزيقية على إطلاق حكم عليّ. نعم، إنهم يملكون متاجر كثيرة؛ لعلهم شموا رائحة اللص فائحة مني. صاروا ينظرون إلي نظرات حادة جعلتني أرى نفسي في عيونهم... برأسي الكبير وابتسامتي غير الواثقة وشعري الفوضوي غير الأنيق. وبدلاً من أن يسألوا، «من هؤلاء؟» عني وعن سايمون، صاروا يسألون أنفسهم، «من هذا؟» من أنا حتى أشاركهم حساءهم الذهبي وعشاءهم المضيء، من أنا حتى أضع ملاعقهم الجيدة في فمي؟

لاحظ سايمون هذه المشكلة فخرج سريعاً بعلاج لها. قال لهم: «أوجي فتى طيب! لكنه، فقط، لم يقرر ما يريد بعد». سُرّوا جميعاً لهذا التطمين. ما كانوا يريدون إلا أن أكون شخصاً عادياً، أن أتكلم أكثر، وأن ألقي بعض النكات وأضحك عندما يضحكون كلهم. يجب ألا أكون مختلفاً كثيراً عن سايمون. بالطبع، كانت هنالك عقبة تمنعني من أن أكون مثله، فأنا لم ألتقط شخصيته الجديدة بعد. لكني استدركت الأمر سريعاً وجعلت نفسي أكثر قبولاً لديهم، بل صرت موضع ترحاب عندما شاركت في المرح والرقص في الردهة بعد العشاء. لكن العقبة الجدية الوحيدة تقريباً، مع السيد ماغنوس، كانت أنني لا أعرف لعبة البيناكل. كيف لا يستطيع شاب حسن النشأة أن يلعب هذه اللعبة؟ أزعج هذا الأمر السيد ماغنوس رغم أنه شخص حنون متسامح سهل التعامل في أي أمر آخر. كان سايمون يعرف لعبة البيناكل! (أين تعلمها؟... نعم، من أين أتى بإنجازاته الجديدة هذه كلها؟) قال سايمون: «أوه، أوجي من النوع الجدي ولا يميل كثيراً إلى هذه الأشياء». لكن هذا ما كان

مرضياً للسيد ماغنوس صاحب الخطوط الرمادية الطويلة الصلعاء في رأسه الضخم. قال: «وأنا أيضاً لا أحب أن يكون الشعب مقامراً. لكنه يجب أن يعرف كيف يلعب لعبة ودية». أحسست أنه على حق بعض الشيء فقلت: «سألعب إذا علمتني». كان لهذه الجملة أثر كبير في تحسين الوضع وفي جعلي واحداً من أفراد البيت. جلست مع بعض الأطفال في إحدى الزوايا لأتعلم البيناكل.

جاء مزيد من الأقارب؛ وامتلأت الشقة الواسعة. كانت هذه عادة العائلة ليلة الجمعة؛ ثم إن الناس عرفت بأن شارلوت صارت مخطوبة. أرادوا أن يروا سايمون. كان يعرف أكثرهم قبل ذلك... الأعمام الضخام، والعمات ذوات الملابس الثقيلة وقد جئن بمعاطف الفراء السيبيرية في سيارات الكاديلاك والباكارد: العم تشارلي ماغنوس الذي يملك مستودعات الفحم؛ والعم آرتي الذي يملك مصنعاً كبيراً للفرشات؛ والعم روبي الذي لديه مركز للوساطة التجارية في شارع ساوث ووتر. كان ثقيلاً أبيض اللون ذا شعر جَعِد أسود (مثل ستيفا لوش). وكانت لديه سماعة في أذنه. وجاء أبناء بملابس موحّدة، بعضهم من الأكاديمية العسكرية وبعضهم في فرق لكرة القدم، ومعهم بنات وأطفال صغار. كان سايمون مستعداً للأعمام والعمات، وكان شديد الألفة معهم، بل بلغ الأمر حد المزاح الثقيل مع بعضهم. إنه يدرك، بشكل طبيعي تماماً، نظامهم المتعلق بالصحبة وبنظرة الازدراء. لا مجال أبداً لأن يقع المرء في أي ظرف أو حالة تجعلهم ينظرون إليه نظرة متعالية. كان ذلك يعني أن تقرأ في نظراتهم إليك أنهم يعتبرونك تافهاً فاشلاً.

يجب القول إن ثقة سايمون بنفسه كانت عظيمة، بل كان هو الذي يتعالى عليهم رغم شيء من التميز في معاملته بعض النساء. ما كان فظاً ولا وقحاً مع النساء؛ لكن كان من الضروري أن يُثبت أمامهن، إضافة إلى الأشياء الأخرى، أنه عاشق أيضاً. ويجب القول أيضاً إنه لم يعان أي إحراج نتيجة وجودي. لقد اعتمد على تعاوني الكامل معه، بل على تواطؤي معه، وكان يعلمني ويقودني ويرشدني. وهكذا كنت أتبعه من مكان لآخر لأنني لم أجد من أستطيع البقاء مرتاحاً معه وحدي. ما كان ينقص المكان إلا الجوارب البيضاء الطويلة والمراوح اليدوية حتى يبدو شبيهاً ببلاط مَلَكي (أفكر هنا بأشخاص من عامة الناس وجدوا أنفسهم فجأة في موقع السلطة). لكن آل ماغنوس بدو غير عارفين بما يجب فعله في هذه الحالة. لا أحد في العالم لديه أكثر مما لديهم، إلا من حيث المال... وهي ثغرة قد يمكن ملؤها!

في خضم هذا الضجيج وهذه الحرارة العائلية والصيحات المنبعثة من طاولة البيناكل، وجري الأطفال، وأباريق من المياه الغازية والشاي، وأطباق ضخمة من المعجنات يأتون بها من غير انقطاع، وكلام في السياسة، وصيحات نسائية أكثر ارتفاعاً، وهذا النشاط

الحيوي كله، كانت هنالك عين العم تشارلي التي تراقب كل شيء. كان واقفاً، أو متنحياً إلى الخلف، إلى جانب أمه ذات الشعر المستعار والثوب الأسود. وإن كنت قد استحسنت استخدام كلمة «متنحياً» فلأنني لاحظت ضخامة بطنه ووزنه الكبير المحمول على قدميه، وربما أيضاً لأن المرأة العجوز كانت تضع طوقاً من أشياء ذهبية تشبه أسناناً ضخمة فذكرني ذلك بمخلوقات غريبة. كان العم تشارلي أبيض اللون، ضخماً، نكد المظهر. وكانت عليه ملامح غطرسة تضرب العين أحياناً مثل العمى الموقت الذي يسببه ضياء الشمس على الثلج؛ غطرسة تجعلك تظن أن هنالك شيئاً عجيباً في أن يمتلك المرء مليون دولار. يمكن القول، على الأقل، إن مهاجراً يتمكن من أن يصير مليونيراً في زمن الركود أمر يبعث على الدوار. لا يعني هذا أن العم تشارلي كان مخيفاً من جميع النواحي: أنظر إليه الآن في لحظة محددة، خلال مناسبة عائلية... ابنة أخيه تتزوج، ويدخل العائلة ابن جديد.

من خلال سايمون، صرت مرشَّحاً أنا أيضاً. إذا سارت أموره على ما يرام، فمن الممكن أن يفكروا في أن أكون زوجاً بدوري لأن عندهم بنات كثيرات للزواج، لدى بعضهن جمال، وكلّهنّ لديهن مال. وقد كان مسار سايمون ناجحاً حتى الآن. إنه يعمل منذ أسابيع تحت إشراف العم تشارلي؛ عمل في الإشراف على الوزن أولاً، ثم في المحاسبة، وصار الآن يتعلم الشراء ويلتقي السماسرة والبائعين ويتعرف على أجور الشحن وعلى حقول الفحم المختلفة. وشهد له العم تشارلي بأنه شخص قدير، رجل أعمال جيد بطبيعته؛ وبدا الجميع في غاية السرور لهذه النتيجة. وقد بدأ سايمون يبحث عن مستودع فحم خاص به منذ الآن آملاً أن يجد واحداً له رصيف علوي حتى يقلل تكاليف التفريغ. باختصار، كان العم تشارلي شديد التقبل له وشديد التسامح معه باعتباره وافداً جديداً، وقد منحه درجات ممتازة بما يرافقها من كلمات فاحشة وتربيت على الكتفين... كان يهز رأسه قريباً من وجه سايمون ويصب ذلك كله بسخاء تام. ومزاجه يجعل الحاضرين كلهم يضحكون مسرورين. لم يفكر أحد في الإعتراض على كلامه بسبب وجود الأطفال والفتيات الصغيرات. لم يعترض أحد على قوله: «يا ابن الحرام! أنت فحل يا ولدي، أنت فحل. إن لديك ما يلزم. وأظن أنك تستطيع وضعه حيث يجب، هناك في السرير، أليس كذلك؟». كانت هذه طريقته المعتادة في الكلام.

يجيبه سايمون: «وماذا تظن؟ دع الأمر لي».

«نعم، هكذا أظن. إنني أترك الأمر لك. أتظن أنني سأقوم به بنفسي؟ لن يكون هذا ممتعاً لشارلوت. انظر إلى بنيتها. لا ينقصها شيء. لا بد لها من فحل شاب مثلك».

وهنا جاء دوري لأن يلاحظونني أيضاً. قال كيلي وينتروب، وهو واحد من أنسبائهم يعمل سائق شاحنة لدى العم روبي: «انظروا إلى شقيقه. تحدق الفتيات فيه باستمرار.

وأكثرهن تحديقاً ابنتك لوسي. ألا تستحين يا بنت؟ في هذه العائلة، لا تكاد الفتيات تطقن أي انتظار».

أجابوه بصيحات وضحكات ظلت لوسي ماغنوس خلالها تبتسم لي رغم احمرار وجهها الشديد. كانت أصغر حجماً من معظم أفراد أسرتها. ولم يمنعها خجلها من إظهار شهوانية حقيقية تحت أعين عشيرتها كلها. ما كان أحد من آل ماغنوس ليهتم بإخفاء أشياء من هذا النوع. ليس الإخفاء ضرورياً! كان الشباب والشابات قادرين على إخبار ذويهم ما يريدونه بالضبط؛ وهذا ما وجدته أمراً جديراً بالإعجاب. كنت قادراً على الاستمتاع بالنظر إلى لوسي أيضاً. إنها نحيلة، لكن وجهها معافى، وجلدها شديد النقاء، ولها ثديان رشيقان تديرهما حيثما شاءت. لكن أنفها فيه بعض العيب: عريض قليلاً مثل فمها؛ لكن عيناها قويتين معبرتين، وشعرها أسود ناعم. جعلني هذا الشعر أفكر في الشعر في أماكن أخرى من جسدها، وفي تخيلات أخرى لم أحاول تجنبها أبداً. لكنها كانت أفكاراً صالحة لعاشق، لا لزوج. ليس عندي ميل خاص إلى الزواج. رأيت ما يكفي من الصعوبات التي يواجهها سايمون في هذا الأمر.

قال لي أبوها: «تعال إليّ!». صار علي الآن أن أخضع لفحص دقيق. قال غامزاً بعينه... بكل العمى الثلجي القادر على إحداثه: «ماذا تعمل؟»

أجاب سايمون بدلاً مني: «إنه يعمل في تجارة الكتب. وذلك ريثما يوفر ما يكفي من المال لكي يعود إلى الجامعة ويحصل على شهادته».

أجابه: «اخرس أنت! اخرس يا تافه! إنني أسأله هو، ولم أسألك أنت! ماذا تعمل؟»

أجبته: «أعمل في تجارة الكتب مثلما قال لك سايمون». ظننت أن ذلك العجوز قادر على اختراقي بقوة الشك التي لديه، وعلى اكتشاف سرقاتي وغرابة سكني في بيت أوينز وأصدقائي هناك. ماذا يمكن أن تعني تجارة الكتب بالنسبة إليه إلا باعة متجولين جائعين لهم لحى يغزوها القمل وأقدام ملفوفة بالخرق. لم أستطع سبر غوره.

«اللعنة على الدراسة. تجد الآن أشخاصاً يظلون طلاباً حتى يعلو الشيب رؤوسهم. فلماذا تدرس أنت؟... حتى تصير محامياً؟ لا بأس، أظن أننا في حاجة إلى المحامين نتيجة كثرة المحتالين. أبنائي لا يدرسون. لكن بناتي تذهبن إلى المدرسة... طالما أن هذا يبقيهن بعيدات عن المشاكل».

قال سايمون لوالدة لوسي: «كان أوجي يفكر في الانتساب إلى كلية القانون».

أضفت من جانبي: «نعم، هذا صحيح».

قال العم تشارلي: «جيد، جيد، جيد». انتهت جلسة الفحص فأدار وجهه المحاط بشعر أبيض كثيف مشيراً إلينا كلنا بالانصراف عنه. رمى ابنته لوسي بنظرة تحذير شديدة فأجابته بابتسامة. رأيت أنها تعده بالطاعة وأنه يعدها بإرضاء حاجاتها المشروعة كلها طالما ظلت مطيعة.

لكني كنت واقعاً تحت نظرات أخرى أيضاً، نظرات امرأة أخي، شارلوت، بعينيها المستطلعتين الدافئتين القلقتين بعض الشيء. لا أشك في أنها صارت تعرف بعض الأشياء غير السارة عن سايمون، منذ الآن. ولعلها تحاول الآن أن ترى إن كانت تلك الأشياء موجودة عندي. أفترض أنها كانت تفكر في ما يمكن أن تلاقيه ابنة عمها لوسي من مخاطر معي.

في تلك اللحظة قال كيلي وينتروب: «إن لها عينين صالحتين لغرفة النوم يا أوجي». لكني كنت الشخص الوحيد الذي سمع كلماته هذه. فنظرت إليه ملياً حتى أرى كم كان يريد الإساءة بهذا الكلام وكم كان يريد المزاح. كان وسيماً لامع الشعر له عينان شهوانيتان بالتأكيد، وذقن تحمل الإيحاء نفسه.

قال لي: «إنني أعرفكما».

عرفته في تلك اللحظة! لم يتغير كثيراً في الحقيقة، لم يتغير منذ إن كان في باحة المدرسة، في ملابس مختلفة.

«كان لديكما أخ أصغر اسمه جورج».

قلت: «لا يزال لدينا. ولم يعد صغيراً. صار كبيراً، وهو يعيش في جنوب الولاية».

«أين، في مانتينو؟»

«لا، إنها بلدة أخرى، مكان صغير في الجنوب بالقرب من بينكنيفيل. هل تعرف ذلك الجزء من الولاية؟» لم أكن أعرف ذلك الجزء أنا نفسي. كان سايمون الشخص الوحيد بيننا الذي ذهب إليه لأن أسرة رينلينغ ما كانت قادرة على الاستغناء عني في ذلك الوقت.

قال: «لا، لا أعرف تلك الأماكن. لكني أتذكر جورج».

رفعت كتفي مبتسماً: «إنني أتذكرك أيضاً، وأذكر الركوب في شاحنة الجليد».

كانت حماقة منه أن يلوّح بهذا التهديد، أن يذكر جورج. ظن أنه قادر على وخز سايمون بهذه الشوكة؛ لكن سايمون كان يسبقه كثيراً. قال لي سايمون عندما أخبرته عن كيلي وينتروب: «شارلوت تعرف بالطبع... لماذا أجعل هذا الأمر سراً؟ بل إنها راغبة أيضاً في وضع جورج في مؤسسة خاصة. لا تقلق لأن أحداً لا يولي هذا الشخص اهتماماً هنا. إنهم

لا يقيمون له اعتباراً. ثم إنني تذكرته قبل أن يتذكرني، فانقضضت عليه منذ البداية. اترك الأمر لي. إنني أجعلهم جميعاً يأكلون من يدي». ثم أضاف: «وسوف تفعل أنت الأمر نفسه إذا استمعت إلي. إن انطباعهم الأول عنك جيد».

سرعان ما أدركت مقدار ما صار لديه من تأثير عليهم. وهذا لأنه كان يعني ما قاله بالتأكيد عندما أخبرني أن لديه خططاً من أجلي. كان يأتي عدة مرات في الأسبوع ليأخذني في جولاته. كنا نتناول طعام الغداء مع الأعمام وأبناء العمومة في مطاعم رجال الأعمال الغنية، وفي نواديهم. كان سايمون صلباً معهم ولم يكن ليتراجع سواء كان الأمر مزاحاً أو مناقشة؛ وكان في الوقت نفسه يعطيني معلومات عميقة عنهم. رأيته يطور قدرات مخيفة في المشاجرة معهم. كان يخالف آراءهم كلها، مهما يكن الموضوع. قد يتحدثون عن الخياطين، أو المهرجين، أو ملاكمي الوزن الثقيل، أو السياسة... أشياء كانت معرفته بها تنمو وتزداد من خلال مناقشتهم. كان عديم الصبر، حتى في نكاته. وكان يجعل عمال المطاعم يخشونه، ويرسل الأطباق عائدة إلى المطبخ، لكنه كان يعطيهم بقشيشاً طيباً بعد ذلك. بدا أنه ينفق المال من غير حساب (يحمل معه مالاً كثيراً الآن)؛ لكن تعامله مع محفظته ومع الأوراق النقدية أقنعني في الواقع بأنه يعرف ما يفعله بالضبط.

قال لي: «عليك أن تنفق المال عندما تكون مع هؤلاء الناس. عندما يرونك شديد الحذر فيما يتعلق بالنقود، فإنك تفقد مكانتك في نظرهم. ولابد لي من جعلهم يحترمونني. إنهم يعرفون الجميع، وسوف أنطلق في العمل عما قريب فأكون محتاجاً إليهم. تناولُ الطعام في هذه المطاعم الغالية، والذهاب إلى النوادي، هذا كله يثبت لهم أنني أستطيع مواكبتهم كما ترى، هذا هو الأمر الأول. لن يتعاملوا أبداً مع أي شخص لا يعتبرونه واحداً منهم. أنت تدرك الآن ما الذي يجعل شخصاً جلفاً مثل كيلي وينتروب قليل الاعتبار في نظرهم. لا يستطيع أن يتحمل تكلفة الغداء في مطاعم مثل هذا المطعم، ولا يستطيع دفع الحساب في نادي شي باري من غير انزعاج ومن غير ذعر من عدم قدرته على دفعه. وهذا لأنهم يعرفون تماماً مقدار ما يجنيه كل أسبوع. لكنني سوف أتذكره، رغم ذلك». قال هذه الكلمات الأخيرة كمن يطلق تعهّداً خطيراً. أعرف أن لديه ملفاً من الحسابات المفتوحة التي يريد إغلاقها. فهل للعقارات الخمسة ولسيسي نصيب في هذا الملف؟ أظن أن ذلك مؤكد.

قال لي: «آه! تعال معي إلى المدينة. تعال لنقصّ شعرنا».

قاد السيارة إلى بالمر هاوس ثم مضينا عبر مدخل محل الحلاقة اللامع. يترك معطفه الإنكليزي الفاخر يسقط إلى الأرض فيجري العامل الزنجي لالتقاطه بين ذراعيه في الوقت المناسب. جلسنا قبالة المرايا الكبيرة في هذه الكراسي الضخمة كأنها كراسي الأساقفة،

فغسلوا شعرنا ومشّطوه. طلب سايمون معالجة بالبخار ثم جعلهم يقلّمون أظافره وينظفونها... طلب كل شيء، لم يحثني على أن أفعل مثله، بل أجبرني على ذلك. أراد أن يجرب كل ما يعرفون القيام به.

صرت أخضع لفحص شديد كلما ظهرت أمامهم. لا يجوز أن يكون هنالك أي اهتراء في عقبَيْ حذائي، ويجب أن تبلغ حافة البنطلون وجه الحذاء تماماً. صار يزودني بربطات العنق بعد أن أخذ ما لديّ وترك لي دزينة من اختياره هو. وكان يصرخ وينهرني إذا ظن أنني لا أرتدي ملابسي على النحو الذي يراه صحيحاً. كنت قد فقدت اهتمامي بهذه الأشياء منذ أيام إيفانستون. والآن صار يجب أن أتوقع سخرية ميمي من أظافري الملمعة. تركتهم يلمّعون أظافري. لم أكن أهتم بها كثيراً. لكن من الممكن أن يكون ذلك نقطة في صالحي عند سرقة الكتب. من الذي يمكن أن يشك في أمري بعد أن ينظر إلى يدي وإلى ربطة عنقي؟ أقول هذا لأنني لم أتوقف عن سرقة الكتب بطبيعة الحال. ما عاد عليَّ أن أعطي أمي مالاً لأن سايمون صار يهتم بهذا. لكن مرافقته تظل أمراً مكلفاً مع أنه يدفع عني أينما ذهبنا. لقد كنت مضطراً إلى دفع البقشيش أحياناً، وإلى تسديد ثمن مشروبات أو سجائر أو طوق من الورد لشارلوت لم ينتبه إلى تسديد ثمنه. كما صارت فاتورة تنظيف ملابسي أكبر من ذي قبل. ازداد أيضاً مرات ذهابي مع باديلا لنمضي ليلة السبت مع صديقتينا اللذيذتين في جادة ليك بارك. ثم إنني كنت أحاول تجميع رسم دخول الجامعة أيضاً. كان سايمون يعطيني بعض المال أحياناً، بذكاء، لكنه غالباً ما كان يعطيني أشياء بدلاً من المال. أرادني أن أتعلم أن تكون لي حاجات مكلفة، وسوف تأتي الرغبة في المال بعد ذلك من تلقاء نفسها. وعندها، إذا بدأت أطلب المال منه، فسوف يكون قادراً على اصطيادي.

كنا نذهب من محل الحلاقة إلى متجر فيلد لكي يشتري دزينة، أو نحو ذلك، من القمصان، أو لكي يشتري ملابس داخلية إيطالية مستوردة، أو بنطلونات، أو أحذية... أشياء لديه فائض منها. كان جزء من ذلك عيعود إلى أنه ينفق المال الآن، لا يكسبه؛ وكان جزء منه يعود إلى أسلوبه في إغوائي. لكني كنت أعرف أيضاً أنه يذهب إلى محل الحلاقة ويذهب في جولات التسوق هذه لكي يستمتع. كان نومه سيئاً، وصار يبدو ضعيفاً مريضاً. عندما جاء ليأخذني ذات مرة، أقفل باب المرحاض على نفسه وبكى هناك. لم يصعد إلى غرفتي بعد ذلك اليوم. كان يطلق بوق السيارة في الشارع ليناديني. وكان يقول لي: «لا أستطيع احتمال هذا المكان الذي تعيش فيه. إنهم لا يحافظون على النظافة. هل أنت واثق من أن السرير خالٍ من الحشرات؟ والمرحاض قذر أيضاً. لا أستطيع أن أفهم كيف تحتمل هذا». وسرعان ما بدأ يقول هذه الأشياء بالتكشيرة نفسها عندما يفحص مظهري. «متى تنتقل من وكر الجرذان هذا؟ يا إلهي! إنه مكان تنطلق منه الأوبئة!» كفَّ عن المجيء آخر الأمر. كان يتصل بالهاتف عندما يريدني؛ أو يرسل لي برقية بعض الأحيان. كان يريدني

معه دائماً أول الأمر. وهكذا، في ذلك الوقت، كنا نمضي عبر ممرات متألقة وردهات استقبال دافئة في المتاجر الفاخرة؛ لكن، بعد ذلك، عندما يعود قائداً السيارة إلى الحي الغربي واضعاً واحدة من ربطات عنقه الجديدة ويصير في حالة أفضل ـ مؤقتاً ـ يفقد ذلك كله فجأة ويضغط على دواسة البنزين... يبدو لي أنه يرى نفسه مسرعاً متجاوزاً آخر حدود قوّته. لكنه يستعيد توازنه من جديد بمجرد أن تزعق عجلات السيارة عند المنعطف ثم تستعيد توازنها وتستقر. كان من الواضح أن مشاعره انتحارية... هذا واضح من طريقة قيادته ومن اقتحامه المجادلات اقتحاماً ومجابهة أيٍّ كان. كان يضع قضيباً معدنياً تحت مقعده ليكون سلاحاً له في المجادلات المرورية. وكان يسبّ كل شخص في الطريق ويخترق الإشارة الحمراء فيفزع المارة. كانت الحقيقة القابعة خلف هذا كله هي أن جيوبه مليئة بالمال الذي حصل عليه مقدماً لقاء قدرته الموعودة على أن يصبح رجلاً ثرياً؛ وهو يقترب الآن من وقت وفاء هذا الدين.

استأجر مستودعاً في الربيع، قبيل نهاية موسم الفحم. ما كان في ذلك المستودع ممر تفريغ علوي. كان ساحة فقط... ساحة محاطة بالأعمدة. غدا المكان كله مستنقعاً عندما هطل المطر أول مرة وصار لا بد من نزح الماء منه لتجفيفه. ثم جرى تفريغ أول شحنة من الفحم في هذه الرطوبة كلها. أما مكتبه نفسه فكان كوخاً صغيراً. وكان الميزان في حاجة إلى إصلاحات مكلفة. استنفد المال الذي بدأ به (بضعة آلاف) وصار عليه أن يطلب المزيد. صارت عليه ديون لا بد من تسديدها، وصار لا بد له أيضاً من دفع فواتيره في مواعيدها. جعل العم تشارلي هذه الأمور سهلة. لكن، كان لا بد من جعل العم تشارلي راضياً مقتنعاً، رغم ذلك.

كان هنالك أيضاً أجر غير قليل لا بد من دفعه لمدير مستودع الفحم المسؤول عن الوزن، هابي كيلرمان، الذي جعله سايمون يترك عمله في شركة كبيرة في الحي الغربي حتى يأتي ويعمل لديه. لو كنت قادراً على القيام بهذا العمل لاستأجرني (ربما مقابل مال أقل)؛ لكنه كان مصرّاً على أن آتيَ لأتعلم العمل من كيلرمان. وهذا ما جعلني الآن أمضي في المكتب وقتاً غير قليل لأنني لم أكن قادراً على الرفض عندما أمسك بيدي وقال لي، شبه مخمور، بفم متشقق مزبد... قال بصوت خافت أبح مكروب: «لابد من وجود أحد أستطيع الثقة فيه. لا بد من هذا!» لكن، ما كان هنالك الكثير مما يمكن لهابي كيلرمان أن يتلاعب فيه. كان شخصاً كئيباً صغير الحجم يكثر من شرب البيرة، وكان شخصاً ساخراً فكاهياً ضعيفاً لصوته غنة أنفية ولبنطلونه طيات كثيرة تحت كرشه؛ أما أنفه فكان مشمراً يكشف عن منخرين يوحيان بشخص مرعوب مجروح. كانت عيناه مدوّرتين شحيحتين يبدو في نظرتهما قدر غير قليل من الاحتراس. كان عماً طيباً، مبتهجاً، احتفالياً، وكان من زوّار بيوت الدعارة أيضاً. إن أسلوبه يذكرني براقصي النوادي الرخيصة الذين يؤرجحون

العصيّ ويتقافزون في رقصات صغيرة ويغنّون أغاني من قبيل «كنت أذهب إلى المدرسة مع ماغي ميرفي» ويقصّون قصصاً يفترض أنها فكاهية، بينما ينتظر جمهور أبله ظهور النجمة العارية... ينتظرون مجيئها لتبدأ هز أردافها أمامهم. كانت لديه ذخيرة كبيرة من نكات صغيرة غير مزعجة، ومن المقالب والألاعيب. المقلب الذي يحبه أكثر من غيره هو أن يأتي من الخلف ويمسكك من ساقك بأنشوطة قصيرة. ونزولاً عند رغبة سايمون، كان يجب أن أبقى مع هذا الرجل طيلة فترة بعد الظهر من كل يوم حتى أدرس العمل. ما كان سهلاً عليّ أن أرفض طلباً لسايمون بعد أن سمعته يبكي في المرحاض.

غالباً ما أرتاح من هابي كيلرمان وقت الغداء. فهو يذهب بسيارة إلى شارع هالستد لأنه يكره المشي، ثم يعود في الساعة الثانية فيوقف السيارة عند الممر ويأتي حاملاً معطفه وقبعته القش، وصدار امتلأت جيوبه بالسجائر والأقلام والبطاقات (كانت لديه بطاقات خاصة باسمه... «هابي كيلرمان، ممثل شركة مارتش للفحم والفحم الحجري». وفي البطاقة ديك يجري خلف دجاجة مذعورة وتحتهما عبارة تقول «إنني هنا من أجل العمل»). كان يدخل فيختبر عارضة الميزان، ويضع صحيفة التايمز في الموقد، ثم يتجول في الساحة. وبعد ذلك نجلس عند قاعدة الميزان الإسمنتية التي تشعّ بعض البرودة لأننا كنا في ذروة الصيف ولأن الحر كان شديداً. كان المكتب يشبه كوخاً في أرض زراعية أو يشبه تلك البيوت التي في نهاية شارع ويسترن. وعلى مقربة منا، كان يوجد سياج يفصل بين الأفنية، وحيوانات جللها الغبار تتجول وتجأر بين السيارات الواقفة وتدسّ خطومها الحمراء بين ألواح السياج؛ وكانت عجلات الشاحنات تبدو غارقة في الإسفلت الذائب في تلك الحرارة. أكوام من الفحم هنا وهناك، ونباتات متسلقة ماتت فوق سيقانها المنتصبة اليابسة. وجرذان في زاوية الباحة أيضاً لم تكن تتحرك ولم تكن تبتعد عن طريق أي كان... عائلات بأسرها من الجرذان، تتوالد، وتزحف، وتأكل هناك. لم أر جرذان مستأنسة إلى هذا الحد، جرذان تذهب حيث شاءت وتمشي عند أقدامنا من غير خوف. اشترى سايمون مسدساً. قال: «إننا في حاجة إلى مسدس على أية حال». وراح يطلق النار على الجرذان. لكنها كانت تتفرق ثم تعود بعد قليل. لم تعبأ الجرذان حتى بأن تحفر أوكاراً... اكتفت بحفر ضحلة لتكون أماكن توالد لها.

كان هنالك بعض المبيعات. وكان هابي كيلرمان يسجلها في دفتر كبير صفحاته صفراء. يكتب بخط أنيق، ويباهي بحركة يده المنسابة جالساً على كرسي مرتفع في قبعته القش المسطحة وهو يسجل الأرقام بحركات طويلة وقصيرة تشبه حركات يد ممسكة بريشة الرسم. وكانت طاولة المكتب القديمة الصغيرة تجعل وجه الكاتب قريباً من النافذة المربعة الصغيرة فوق الميزان. كنت أرى سايمون جالساً هناك أحياناً يحرر بعض الشيكات في دفتر شيكاته العريض، فتحرير الشيكات كان يسحره أول الأمر. نبّهني مرة إلى أنني

مدين لباديلا بدولارين؛ كان ذلك عندما سدَّد أحد ديوني عن طريق شيك وضع توقيعه عليه. لكن سروره صار أقل هذه الأيام لأن مقدار المال الذي لديه كان في تضاؤل مستمر. صار يتذكر جرأته المتهوّرة في تبديد المال عندما حاول جنيه سريعاً ليتزوج سيسي. أما الآن فكان يرى أن حياته كلها صارت في مهب الريح. لم يعد يتشدق بقصة المال الذي سيأتيه به هذا الزواج. صار في حالة مختلفة تبرهن عليها آثار المعاناة في وجهه، وموات لونه، وسلوكه الذي يقارب الجنون. كان يلقي نظرات بائسة إلى هذه الساحة السوداء في ركودها الصيفي ورائحتها الخانقة فيجعل الدم يجري بطيئاً في عروقي مثل دبيب حيوان أصابه الذعر. صحيح أنني صرت أقتطع زمناً كبيراً من مشاريعي الخاصة، مشاريع السرقة والقراءة، حتى أسير معه في هذه الباحة واضعاً يدي في جيوبي، إلا أن هذا لم يكن لفرط عنايتي واهتمامي به بقدر ما كان ناتجاً عن خوف حقيقي. كانت طريقته المهملة في إمساك المسدس وإطلاق النار على الجرذان علامة شؤم في نظري. وكان يشتكي من غليان في رأسه ويقول: «سوف يفور دماغي ذات يوم ويخرج من أذني».

اضطررت ذات مرة إلى منعه من ضرب هابي كيلرمان عندما أساء المسكين تقدير اللحظة المناسبة فأمسك بساق سايمون من الخلف محاولاً تطبيق خدعته المفضلة لديه. كاد يضربه فعلاً! قبل وقت قصير جداً، كانا يضحكان معاً على قصص هابي الذي كان يقوم بدور الوسيط خلال فورة بيع الأراضي في فلوريدا، وعلى قصة حبه لامرأة تركية لم تكن تسمح له بالخروج من البيت، وعلى حكاية سكره الأول الذي وصفه بقوله: «كان الأمر كأنك تدخل علبة صغيرة محشوّة بالديدان». لكن هذا الانتقال المفاجئ من الضحك الشديد إلى الوحشية جعل هابي على وشك ترك العمل، وراح ينظر بعينين كبيرتين ذكيتين منكسرتين حزينتين. عينين كادت دموعهما تفيض، فحاولت تهدئة الوضع. كان يجب إعادة إحلال السلام بينهما. قال هابي من زاوية فمه... كان يخاطبني لكنه يريد أن يُسمِع سايمون ما يقوله: «أنا لا أعبأ أبداً بهذه الأمور التافهة». كنت أعرف أن قلب سايمون يدق سريعاً في تلك اللحظة، عرفت ذلك من إطراقة رأسه وفمه المفتوح الذي ظهرت منه سنه المكسورة التي لم يصلحها بعد... أدركت أنه يغالب رغبة شديدة، تكاد تكون ضرورة بالنسبة إليه، في أن يمسك بهابي كيلرمان من خصره ويلقي به إلى الشارع.

قال سايمون أخيراً: «طيب، أريد القول إنني آسف. أنا متوتر قليلاً اليوم. يجب أن تدرك يا هابي...» داهمته أفكار عن آل ماغنوس فغمرته كله، واستبد به الذعر لأنه نسي أنه مجرد شاب في مقتبل العمر يدخل مجالاً لا يعرفه، فكيف يتخلى عن هابي ويصبح وحيداً بسبب حادثة تافهة من هذا النوع. كان صبر سايمون ووقوفه هكذا يبتلع ريقه أسوأ بالنسبة لي حتى من غضبه أو من إسرافه... ذلك الصبر الجسدي الإضطراري البائس. كان صعباً أيضاً أن أراه يتحدث بذلك الصوت الخفيض على الهاتف مع شارلوت كأنه يجد صعوبة في

احتمال الكلام معها وإجابته على أسئلتها بكلمات قليلة مكررة... أراه عندها موشكاً على الوصول إلى نقطة الاستسلام.

قال يخاطبنا، أنا وهابي: «والآن، لماذا لا تأخذا السيارة وتذهبان لرؤية بعض التجار؟ حاولا تأمين بعض الصفقات. هذه خمسة دولارات للبيرة. سوف أظل هنا مع كوكس وأحاول إصلاح السياج الخلفي. سوف يسرقوننا ونحن نتفرج إذا لم أفعل شيئاً من أجل هذا السياج». كان كوكس الشخص المكلّف بالأعمال اليدوية: سكّير يضع قبعة مثل قبعات الرسامين، قبعة تشبه قبعات الجنود الإيطاليين. أرسله سايمون لكي يستطلع المنطقة المحاذية لسور مصنع ويستنغهاوس بحثاً عن ألواح خشبية. كان كوكس يعمل هنا مقابل بعض شطائر من الهامبرغر وزجاجة من النبيذ. وحارساً ليلياً أيضاً لأنه ينام على فراش مهلهل بالقرب من النافذة الصغيرة عند الباب الأمامي الذي لا يستخدم إلا في حالات نادرة. راح يعرج (يزعم أن في ساقه رصاصة منذ معركة سان خوان هيل) سائراً على امتداد سياج المصنع الذي استغنى عن الحاجة إلى ذلك السياج ببعض الموظفين الصغار وبشبكة معدنية ضيقة الثقوب تسمح بالنظر من خلالها إلى بنايات المصنع وكومات القرميد ومباني توليد الطاقة الطويلة وكومة ضخمة من الفحم تحت السماء الصيفية الصافية المتألقة.

ذهبت مع هابي الذي قاد السيارة بنفسه. عندما يسير في شوارع تلك المنطقة، يخاف أن يدهس طفلاً فينقض عليه الناس ويمزّقوه إرباً في سورة غضبهم. «إذا حدث أي شيء لطفل من أطفالهم، فعليك أن تحذر كثيراً حتى إذا لم تكن مخطئاً لأنهم سوف يطاردونك في كل مكان». كان يعيش هذا الرعب دائماً ولا يسمح لي بالقيادة لأنه يرى خوفي أقل من الحد الضروري لتوخّي الحذر الذي لا بد منه. كنا نأخذ من يتاجرون بالفحم والجليد إلى مطاعم صغيرة ونشرب البيرة ونتبادل الكلام معهم في تلك الأماكن الصغيرة المظلمة والحارة الناعسة حيث لا يستطيع حتى الذباب أن يطير بل يزحف زحفاً ويبدو مخدراً بفعل روائح الكافور في المباول وبفعل حموضة الهواء الفائح برائحة البيرة، وبفعل ذلك الخواء الحار وبث مباريات البيسبول الذي يزيد المكان انقباضاً. إذا أردت أن أفكر في أي شيء خارج ذلك المكان، فقد أفكر في باديلا متحدثاً في نظرية حجم الكون! هذا لأن اهتمامه العلمي يضفي على هذا الموضوع شيئاً ما يجعله أقل كآبة من هذا المكان. أما هنا، مع هذا الانسياب المضني للشراب، نقطة بعد نقطة، ونجمة بعد نجمة، يمكن للمرء أن يأمل في ألا يجد الكون غير البشري طريقاً وألا يلمس هذه المقاطعة ولا هذه الولاية كلها.

لكن أفكاراً من هذا النوع ما كانت لتقلق سايمون أبداً. فمهما يكن المكان، يستطيع سايمون أن يجعله مفيداً على نحو ما، لأن علاقته الوحيدة به هو أنه يمكن أن ينتج بعض الدولارات، مثلما تفعل مياه منبجسة من الصخور، ومثلما يجعلون جبلاً يبدو مثل جبل من

القمامة يبصق ما فيه من نفط أو حديد حتى لو كان مكاناً لا يرغب البشر في الذهاب إليه، وحتى لو كان مكاناً قصياً قاحلاً في جزر جليدية أو على أرض متكسرة أو في جليد القطب المسودّ من الدخان والزيت، أو في تكساس، أو بلاد الفرس.

هرابك، درودز، ماتوزونسكي... هكذا كانت أسماء أولئك التجار. كنا نجدهم في أكواخهم، وعند الكنيسة، وعند مكتب دفن الموتى، أو نجدهم منطلقين إلى أداء عمل من أعمالهم. يبيعون الفحم بالكيس، وبالطن أيضاً. ولديهم شاحنات أو قلابات. وكان لإقناعهم بشراء بعض الفحم، لا بد من تسليتهم وإغرائهم بصفقات خاصة وتملقهم وممازحتهم وإعطائهم أسراراً عن عروق الفحم في المناجم وغمرهم بمعلومات تقنية واسعة عن الوحدات الحرارية والنسب المئوية. كان هابي ماهراً في التعامل معهم، فهو رجل مبيعات مميّز يصح أن نقارن موهبته بمواهب من يعملون في تموين السفن. كان يشرب البيرة بقدر ما يشربون، كأساً بكأس، ويحصل على النتيجة المرجوّة. يغريهم بأسعار مخفضة وبإمكانية انتقاء الفحم. فصاروا يأتون إلينا.

حقق سايمون بعض المبيعات أيضا، فقط حتى يجعل الوضع يتحرك. جعلني أوزع نشرات دعائية في البلدة الصينية حتى أروّج للفحم الحجري الذي كان أصحاب المحلات الصينيون يفضلونه على أنواع الوقود الأخرى. وببطء، بدأ الزبائن يتزايدون. وزّع تلك النشرات في المدينة أيضاً، واستهدف أقاربه الجدد. كان تشارلي ماغنوس يرسل إليه بعض الزبائن. وشيئاً فشيئاً، بدأت الأمور تتحرك.

تعلم سايمون كيف يهتم بعمله بطريقة سياسية (تعلم كيف يقدم عروضاً للمؤسسات التابعة للبلدية)؛ وصار يرى بعض الموظفين وينسج علاقات ودية مع رجال الشرطة. صار على علاقة بالملازمين والنقباء والمحامين والعاملين في العقارات والمقامرين ووكلاء الرهونات... أشخاص هامّون يمتلكون أعمالاً مشروعة أيضاً، ولديهم ممتلكات عقارية. وخلال إضراب السائقين وأصحاب الشاحنات، جعل دوريات الشرطة تحمي شحناته من المضربين الذين كانوا يفرغون الفحم من الشاحنات في الشوارع. كان عليَّ أن أنتظر اتصالاته الهاتفية في قسم الشرطة حتى يخبرهم عن موعد خروج الشاحنات من مستودعه؛ وكانت تلك أول مرة أجلس فيها في مكان من هذا النوع جلوساً مشروعاً. أول مرة أنتقل فيها من الظلام إلى شيء من الضياء داخل هذه الهيولى الاجتماعية الضخمة. ماذا أقول عن الظلمة في قسم الشرطة في الحي الغربي؟ كان شديد الظلمة. كان مكاناً موبوءاً، مزمجراً. وبينما يمر هنالك أشخاص ساء حظهم أو حامت الشبهة حولهم، حيث تتوقف الوجوه، وتتغير، وتتحرك، وتحدق، وتخاف، وتستسلم، وتكون غير مبالية (لا شك في هذا... إنه ذلك الفائض، الوفرة الزائدة من المادة البشرية)، تتساءل إن كان هؤلاء جميعاً قد ولدوا

بشراً واتخذوا هيئات البشر ثم ساروا في دروب عشوائية من غير خيارات أمامهم! وليس لك أن تنسى قذارة مَنْ يحتلون الجانب الرسمي وشرههم للمال. لم يكن هذا المكان مقر القيادة الكبير في وسط البلدة، بل كان مجرد قسم شرطة صغيراً في واحد من الأحياء.

وبما أن سايمون كان صهر آل ماغنوس (ولأنه أراد ذلك أيضاً)، سرعان ما صار على علاقة ممتازة مع الملازم نوزو الذي ما كان أحد تقريباً يتفوق عليه من حيث النعومة والمظهر الطبيعي. لا أعرف كيف كان وضع الملازم في هذه العلاقة. إنه شرطي، شخص يمسك بك من كتفيك كما لو أنه يعتقلك، حتى خلال مجرى نكتة ودية، يمسكك بيدين لا عمل لهما إلا أن تقبضا على الناس... إلا أن تكونا قبضتين حديديتين. ظل الملازم نوزو إيطالياً على نحو ما، رغم بدانته ورغم تلك الآثار الطويلة على وجهه كأنها علامات تركتها الوسادة خلال نومه أو كأنها خدوش خلفتها أصابع على ذلك الوجه. كنا نذهب معاً إلى نادي شي باري (نذهب في مجموعة من خمسة أشخاص إلى أن بدأت آخذ لوسي ماغنوس معي فازدادت المجموعة شخصاً) فنأكل السباغيتي وكبد الدجاج مع نبيذ البورغوندي الفوار أو مع الشامبانيا. كان الملازم يبدو مثل عريف حفل يستقبل زائرين أعلى شأناً. أما زوجته فكانت تشبه امرأة خرجت من الحبس بكفالة... مثلما تبدو زوجة أي ملازم في الشرطة بعد فترة من الاعتياد. كان إيطالياً، وقد أتى معه بأسلوب الممالك القديمة. هذا ما يفعله معظم ضباط الشرطة الإيطاليين. لا بد أن هنالك موتاً يقف خلف النفوذ والسلطة. لا بد من هذا لقطع رأس متمرّد مثل رأس ماسانيلو، ولا بد منه لشنق الأدميرالات الكبار مثلما فعل اللورد نيلسون في ميناء نابولي. أظن أن هذا مما لا بد من قراءته في وجه الملازم الناعم وهو جالس في ذلك الضجيج المرح في نادي شي باري ينظر إلى زيلوف ويولاندا أو إلى فتيات شبه عاريات لا فكرة لديهن أبداً عما يفعلنه عندما يسرن مقلّدات حركات أشخاص مستعجلين ماضيات بالمتعة إلى أقصاها. لكن، وبما أن هذا النادي الليلي واحد من أهم النوادي في المدينة، فقد كان سايمون وشارلوت منسجمَين تماماً فيه لأنه مكان مناسب للقاء وللجمع بين الصلات والحياة العامة والعمل، ولأن صوراً تلتقط لهما فيه تحت ومضات آلات التصوير، وسط الضحك والعناقات الشيطانية لأشخاص في قبعات ورق وشرائط ملونة... وجوه مهمة جالسة إلى طاولتهما، ومغنية في فستان مفكوك الأزرار تشدو رافعة ذقنها مبدية أسناناً بيضاء، أو رئيس مجلس إدارة في إحدى الشركات ينهي كأساً من الشراب معهما.

خلال وقت قصير جداً، استوعب سايمون أهمية علاقات وثيقة من هذا النوع بالنسبة لعمله. ألم تمر برئيسنا، رئيس السلطة التنفيذية، ليالي سهاد كثيرة في يالطا لأن ستالين لم يبتسم طيلة اليومين الأولين؟ ما كان رئيسنا قادراً على التعامل مع رجل غير عابئ بالسحر أو بالتجارة القائمة على الحب. لا بد من روح رياضية ودية من أجل اتخاذ قرارات لا

يمكنها أن تكون قرارات سارّة... لمحة من الطابع الشخصي يمكن أن يكون أمراً مساعداً. كان هذا شيئاً فهمه سايمون جيداً... كيف يحبه الآخرون، وكيف يصل إلى توافق مستند إلى أفكار سرية مع أشخاص في مثل ذلك الوضع.

لكني لا أزال معه، في منتصف الصيف، خلال أسوأ صعوباته... عندما كان يحيق به الخوف من الإفلاس، وعندما كان عليه أن يعترف لنفسه (أنا واثق من هذا) من أنه خائف حقاً من آل ماغنوس، مذعور من الالتزامات التي قطعها على نفسه. هذا ما جعلني أمضي القسم الأكبر من تلك الشهور معه. لم أقل إننا لم نكن قريبين إلى هذا الحد في يوم من الأيام (ظل شديد العناد في الاحتفاظ بأفكاره لنفسه)، لكننا لم نكن معاً هذا الوقت كله قبل اليوم. منذ طراوة الصباح الأولى حتى ألوان ساعات بعد الظهيرة المتأخرة... ألوانها الكالحة الذاوية، كنت أقود السيارة به وآخذه إلى كل مكان. مركز المدينة، والمقرات الإدارية، والمصرف، ومكاتب سوق ساوث ووتر. وكانت شارلوت تهتم بأمر العم روبي، وبالمطبخ في بيت آل ماغنوس حيث نتوقف لنأخذ بعض السندويتشات من الطاهية السوداء، ويذهب إلى الغرفة الخلفية حيث وضعوا سرير الزواج... لا يزال هذا الزواج سراً محصوراً ضمن الدائرة الضيقة في العائلة. هنا ينفتح الباب على ما تستند إليه هذه الحياة المرهقة. لقد جددوا الغرفة من أجله ومن أجل شارلوت فوضعوا فيها مصابيح قراءة مجللة بالحرير، وستائر جانبية، وستائر أخرى تحجب منظر الشارع وبربريَّته مثلما تحجب ستائر فينيسيا رائحة القنوات المائية... وغطاءً من الساتان للسرير، ووسائد إضافية عند رأسه.

كان سايمون يسير فوق السرير حتى يوفر الذهاب مشياً إلى المرآة. وكان يغير ملابسه فيترك كل شيء حيث أسقطه أو حيث قذف به، ويرمي بحذائه صوب الزاوية ثم يجفف العرق عن جسده العاري بقميص داخلي. يغير ملابسه ثلاث مرات بعض الأيام، أو حتى أربعاً؛ وكانت هنالك أيام يجلس فيها هامداً فاتراً غير مبالٍ وينهض من كرسي مكتبه متثاقلاً بعد ساعات طويلة من الصمت ثم يقول: «دعنا نذهب من هنا».

وبدلاً من الذهاب إلى البيت لتغيير ملابسه، كان يقود السيارة إلى البحيرة أحياناً.

كنا نذهب للسباحة في الجادة الشمالية، في النقطة التي كان المفتش المرحوم يحبها. المفتش الذي كنت أضع في فمه السجائر وهو عائم في الماء. كان انفراج ساقي سايمون الرخو عندما يقفز في الماء وغرابة حركة ذراعيه يجعلني أشعر بالقلق من فكرة أنه يرمي نفسه هناك معتزماً عدم العودة إلى السطح حياً كما لو أنه يريد تذوق الطعم الأعمى لمسرّة البقاء في الأسفل. ثم يخرج مرهقاً ويزفر بصعوبة من فمه وقد غاض الدم من وجهه. كنت أعرف أنه يجد إغراء كبيراً في المضي إلى الأسفل وفي عدم الصعود من جديد. حتى إن كان لا يبدي هذه الرغبة، وحتى إن كان ينزل ويصعد، صامتاً، بشعره الخشن الذي لبّده

الماء، وحتى إن كان يسبح في ذلك الماء سريعاً، فإن الماء يجري صوب الشاطئ وصوب ما على ذلك الشاطئ من ناس حاملاً لفافات غامضة سوداء في أفقه، كأنها رصيف بارد ماضٍ إلى سلسلة متخيلة من عالم بعد عالم، سلسلة واضحة في الأثير الملتهب.

كان أخي هنالك في الأسفل، كأنه الإسكندر الأكبر الذي قفز في نهر سيدنوس الرهيب بعد المعركة فكاد يموت من البرد. أما أنا فوقفت في ثوب السباحة المخطط، وقفت بأصابع قدمين متوترة فوق كومة الأخشاب مستعداً للقفز خلفه إذا اقتضى الأمر. لم أقفز عندما قفز! خرج متسلقاً السلم، مرتجفاً؛ وكانت لسعات الذبابات الكبيرة تؤلمه. وكانت جلبة الشاطئ الاحتفالية الصاخبة تبعث على الجنون. ساعدته في تجفيف نفسه؛ ثم استلقى على الصخور كأنه شخص مريض. لكنه، عندما أحس بالدفء واستعاد ارتياحه بعد قليل، بدأ يقذف النساء والفتيات بعبارات جريئة... بعينيه الكبيرتين المحمرّتين... كان كأنه امرأة انحنت لتختار من حقيبة طعامها خوخة لتقدمها إلى من لا يريدها. ثم بدأ يصدح مثل بوق نحاسي، وراح يضربني على ذراعي قائلاً: «انظر إلى مؤخرة هذه الفتاة!» نسي أن لديه امرأة، ونسي أنه خاطب أيضاً. جرت الخطبة أمام أعين العالم كله في قاعة استقبال في أحد الفنادق. لم يكن يفكر في ذلك، بل كان يفكر في الإمكانات الكبرى التي تتيحها له سيارة البونتياك الجديدة الواقفة قرب لينكولن بارك، والنقود التي معه؛ وكذلك الأشياء التي يحب أن يفعلها في أحد الشوارع، أو المباني، أو في غرفة من الغرف... أشياء لا مبرر لأن يكون لها أثر على ما يأتي به اليوم التالي. وهكذا صار عنيفاً شبقاً مندفعاً متهوّراً، صار رأسه ورقبته كأنهما جزء من جدار صلب؛ صارا متوترين مثل ملاكم تلقى ضربة لكنها لم تفلح في إيذائه، إنما أثارته فحسب.

ما كان هنالك شيء من مكانته الطبقية الجديدة، ولا من خفته وسرعته، على ذلك الشاطئ عند الجادة الشمالية (يدعونه شاطئاً، لكنه ليس إلا واجهة مائية مصنوعة من بلاطات حجرية)، وكان المكان قاسياً خشناً؛ والشبان فيه خشنين، والفتيات شكسات... عاملات مصانع وبائعات، مع بعض المومسات من شارع كلارك وبعض الفتيات من صالات الرقص. وهذا ما جعل سايمون يقول عباراته تلك من غير اختيار أو انتقاء لكلماتها... «يعجبني شكلك. هل أنتِ مهتمة؟» هكذا، على نحو مباشر، من غير ألاعيب، ومن غير أي استفاضة أو تزيين في الكلام. ولعل تلك الحقيقة نفسها هي التي جعلت كلامه يبدو خالياً من البذاءة؛ بل كان كلاماً يخلق رهبة أو خوفاً، كلاماً يحمل شحنة فظة بهيمية تجعل العروق تحتمل أكثر مما تستطيع وتجعل فكه متصلباً ومحجرا عينيه قاتمين تحت وطأة تيارات من الحرارة تصبغهما بلون بنفسجي، أو بلون أكثر قتامة... لون قريب من السواد. لم تخَف الفتيات منه دائماً... إذ فيه نفحة السلطة، وكان شاباً وسيماً... لست أدري أي أرض وطأتها قدماه الحافيتان في غرف ساخنة مظللة! منذ سنة واحدة فقط، ما كان

يمكن أن يمنح فتيات من هذا النوع التفاتة منه، ولو لثانية واحدة. صارت لديه الآن، أينما ذهب، معلومات لا أعرفها؛ لكن لا بد أنه كان متمتعاً بشيء من امتيازات السلطة وحقوقها فيما أظن... مقابل تضحياته! نعم، تمارس الشخصيات الكبيرة غضباً ليس مسموحاً لأي كان. إنهم يأتون لاهين بالذهب مثلما حضر كومودوس مسربَلاً بدمه أمام مجلس الشيوخ الروماني، أو هم يجرون كأنهم خيّالة ومصارعون مثلما كان يفعل كركلا... يفعلون ذلك وهم عارفون بأن أسباب سقوطهم تستجمع أنفسها في مكان خفيّ كأنها حلقات صغيرة تنسجها إبرة حياكة. هكذا كان الأمر مع سايمون (هذا ما كانت لدي فرصة رؤيته قبل ذلك عندما وضع قبعة نسائية في مطعم شي باري وراح يختال بها هنا وهناك، أو عندما أخذني معه إلى حفلة للعازبين كانت فيها بهلوانيتان عاريتان تنفّذان خدعاً ظريفة بأدوات زائفة). من ألعاب السيرك إلى حفلات التهتك الخاصة... ما كان يفعل شيئاً غير ما يفعله أشخاص كثيرون غيره؛ لكن قوة شخصيته جعلته بارزاً بينهم، وجعلته يلعب دوراً قيادياً.

قال لي سايمون: «وأنت؟ ألا تفعل هذا؟ أوه... ما هذا السؤال؟ من هي الفتاة التي تعيش في غرفة في طابقك نفسه؟ أهذا ما يجعلك غير راغب في الانتقال من هناك؟ اسمها ميمي، أليس هذا صحيحاً؟ تبدو فتاة سهلة المنال».

أنكرت، ونفيت الأمر، لكنه لم يصدّقني.

أما من ناحيتها، فقد كانت ميمي مهتمة بسايمون. سألتني: «ما الذي يتآكله؟ كان هو مَنْ سَمِعْته يبكي في المرحاض، أليس كذلك؟ ولماذا يتأنق هذا التأنق كله؟ ما الأمر؟ هل لديه امرأة متعلقة برقبته، هاه؟» كانت مستعدة لقبول ما تعترض عليه كله رغم سخريتها، فقد رأت فيه شيئاً باذخاً خارجاً على القانون، شيئاً أعجبها.

لكن سايمون ما كان جرأة واندفاعاً كله، رغم ذلك؛ وما كان كله اندفاعاً يائساً متهوّراً. لا، كان أيضاً يقوم بنوع من الاستعراض المقصود. كان الوقت صيفاً وكان بطيئاً، ومن الطبيعي أن سايمون كان يخسر المال. أما شارلوت (امرأة ممتازة في ميدان الأعمال، ظهير شديد الأهمية، واستشاري، وناصح)، فكانت تعطيه ما يكفي لتوحيدهما ولشدهما معاً بأكثر مما يشدهما رباط الزوجية. صحيح أنه كان يتشاجر معها، بل هو يصيح بها ويشتمها ويقول لها أشياء عجيبة مدهشة، إلا أنها ظلت ثابتة. كان في مقدور مراقب عن مسافة قريبة أن يراها تنكمش مرتدة ثم تعود إلى سابق عهدها، إلى فكرتها الأولى، إلى أهم الأشياء على الإطلاق... إلى أن سايمون شخص مكتوب له أن يكون غنياً قوياً. كان غضبه المجنون عندما يصيح بها «أيتها البقرة النجسة» برهاناً على هذا. كانت تتلقى الشتيمة بضحكة عصبية تعيده إلى صوابه وإلى صفاء عقله وتذكّره بأن أشياء من هذا القبيل ليست في الواقع إلا نوعاً من المزاح أو التهريج. وكان ينجح دائماً في إلحاق ضحكتها بضحكة من عنده لكي

يرضيها حتى عندما تظل عيناه ملتهبتين متوحشتين. وكان عليه أن يفعل هذا حتى عندما يصل احتدام المشاعر، من الجانبين، حداً انفجارياً قريباً من إلحاق الأذى بحيث تصير إعادة تلك المشاعر عن طريق المزاح إلى حجم يسمح باستيعابها على أنها مجرد نوع من خشونة عاطفية أمراً شديد الصعوبة. لكن هدف شارلوت الأول، وسبب نضالها، هو جعل اتحادهما أمراً جدياً من خلال بناء ثروة من أجله. كانت تقول لي: «إن لدى سايمون قدرات حقيقية في مجال الأعمال. أما ما تراه الآن فليس شيئاً في حقيقة الأمر». (كان يجني بعض المال بالفعل عندما قالت هذا). وعندما تقول هذا، أحياناً، كانت كلماتها تأتي ضمن جو من الجدية ينعدم فيه وجود الفوارق بين الجنسين... منطقة تبلغ فيها عظمة ما يستعان به حداً يتجاوز ذلك التقسيم. ليست منطقة رجل، ولا منطقة امرأة. شيء يشبه ما قالته زوجة ماكبث في دعائها، «اجعلني عديمة الجنس هنا!»... نداء شديد القسوة موجَّهٌ إلى ما هو شديد القسوة أيضاً: هذا ما يجعل الروح من جنس محايد.

ما كانت هنالك عواقب حقيقية لزركشتها وزينتها النسائية ولا لتفاصيل شخصها المعتنى بها، ولا لتجهيز شقتهما عندما أثثاها، ولا لطريقته في استمراره على حاله. أما فيما يتعلق بالمصارف والأسهم والضرائب، فكان رأساهما متقاربَيْن معاً يناقشان تلك الأمور، وكانت الحسابات الواضحة الدقيقة الحساسة هي ما يحدد موضع السلطان الحقيقي وهي ما يستند إليه رباط الزوجية في واقع الأمر. ورغم أنها كانت تغنّي دائماً وتصفر وتدندن لنفسها بموسيقى أغاني مختلفة، أغاني من قبيل «سمائي الزرقاء» و«حب الصيف الذابل»، وتقلّم أظافرها، وتعتني بشعرها، فإنها لم تكن تعيش من أجل هذه التوافه أبداً. كانت كلها أشياء لا طائل منها. لكنها تمنحها ما تستحقه، بل أكثر من ذلك! أحذية عالية، وجوارب طويلة، وفساتين جميلة، وقبعات، وأقراط، وريشات ملونة، وأصباغ مختلفة، إضافة إلى العناية بالأصابع وانتقاء الحلوى والدبابيس الخفية التي تثبت الحُلي. لا تهمل شيئاً من هذا؛ ولديها قدر كبير من احترام الذات. كانت قادرة على أن تكون جميلة جمالاً يلفت الأنظار. لكن عدم إيمانها المطلق بهذه الأشياء كان سمة لا يمكن للعين أن تخطئها، ولا يمكن أيضاً أن تخطئ فمها الحقيقي المختلف عن فمها المصبوغ، فمها ذي الصبر النافذ، فمها الذي يسقط من حسابه كل ما هو قليل الأهمية. ليست بالفتاة التي تختار شاباً للزواج انطلاقاً من تلك الصور التي تحملها أسطوانات الموسيقى، وليست بالفتاة التي يمكن أن تتزوج طالب مدرسة فحسب... كانت شارلوت متمسكة بطموحها ومستعدة لأن تميز الحدود المقبولة (من غير أن يحرفها هذا عن غايتها): حدود الخشونة والاستعجال والغلظة، أو حدود الفضيحة. كانت تعرف هذا سلفاً من خلال مداولات تجريها في عقلها، وما كانت مضطرة إلى الانتظار حتى ترى الجزء الأكبر من هذا يتحقق في الواقع، بل يظهر كل شيء في عقلها أولاً... وهناك تتعامل معه وتعطيه ما يستحقه من اهتمام، أو غير ذلك.

كان سايمون معترفاً لها بهذه الخصال كلها. وكان يقول: «إن قدرة عقلها تعادل ست نساء معاً. امرأة مستقيمة التفكير مئة بالمئة، ولا مزاح في هذا. وهي طيبة القلب إلى أقصى حد»... كان في هذا قدر غير قليل من الحقيقة... «وهي تحبك أنت أيضاً يا أوجي». قال الكلمات الأخيرة بالنظر إلى أنني كنت قد بدأت أغازل لوسي ماغنوس... قبلت مغازلتها في تلك الآونة. «وهي ترسل أشياء كثيرة لأمّنا. تريد أن تجعلها تسكن في بيت مع أسرة. هذه فكرتها. لم تشتكِ ماما أبداً من ذلك المأوى. إن وجود الناس من حولها هناك أمر جيد. لكن، ما رأيك أنت؟»

كنا نتوقف أحياناً لرؤية أمنا خلال تجوالنا في المدينة. لكننا نمر بذلك المبنى من غير توقف معظم الأحيان. إلا أنك لا تستطيع أبداً أن تتنبأ بوجهتك عندما تكون مع سايمون. يقول فجأة: «توقف هنا!»... ولعله لا يعرف، هو نفسه، ما الذي يريده على وجه التحديد، لعله يستجيب في تلك اللحظة إلى حاجة لم يفهمها بعد. ربما يريد طعاماً في تلك اللحظة، أو يسعى خلف مشاجرة، أو ربما خلف كارثة، أو ربما خلف امرأة ذات مؤخرة مغرية، أو طلبية متعلقة بالعمل، أو لعبة بلياردو، أو مكتب واحد من المحامين، أو حمّام بخار في النادي الرياضي. كان توقفنا عند المأوى في شارع آرثنغتون واحداً من تلك الوجهات المحتملة.

كان المأوى مبنياً بالحجر الرمادي. مدخله مجرد فسحة صغيرة قبل بلوغ الباب، وفيه مقعدين طويلين. هنالك مقاعد أخرى في الداخل أيضاً. كان المكان مؤثثاً على نحو يشبه صالة اجتماعات عامة. والقسم الأكبر من مساحته فارغاً. أما حالة النوافذ السيئة فهي الشيء الوحيد الذي يمنع عابري السبيل من إلقاء نظرة إلى داخل المكان. كانت إطارات تلك النوافذ مليئة بأخاديد زجاجية المظهر، وكانت قذرة أيضاً... لعل ذلك من أثر أكُفّ الناس التي لمستها قبل أن تكتشف أنها نوافذ وليست جدراناً. وقد أزيل من المكان كل ما يمكن أن يشكل خطراً؛ وهكذا كان هنالك جص إسمنتي عارٍ في مكان رف الموقد، وحواف فلّين على إطارات الأبواب. لكن المكفوفين ما كانوا يتجولون كثيراً في هذا المكان. كانوا يجلسون ولا يبدو عليهم أنهم يتحدثون كثيراً فيما بينهم. تنظر إليهم فتدرك سريعاً كيف انقلب وقت فراغهم المديد إلى وقت رديء. عرفت شيئاً من هذا خلال فترات الطقس العقلي السيء عند إينهورن. شيء له علاقة بالروح، لا بالعقل، لا يدرك الشيطان المريض السبب الذي يجعل أي شيء يمكن أن يسبب الإزعاج لأنه وَطّن نفسه على قبول كل شيء.

كان مدير المأوى وزوجته يفاخران بأنهما يطعمان النزلاء جيداً. وأما الأمر الحقيقي فهو أنك تستطيع معرفة الوجبة التالية من رائحة المطبخ.

كنت أعتبر كون أمي امرأة بسيطة نعمة حقيقية. وكنت أظن أن أحداثاً سيئة يمكن

أن تجري في عزلة هذا المكان إن وجدت فيه شخصيات مزعجة أو ميّالة إلى مشاجرة الآخرين ـ كيف يمكن ألا يكون هنالك أشخاص من هذا النوع؟ لكن ماما عاشت سنوات كثيرة من الخنوع أمام المزعجات، أو من تحاشيها والابتعاد عنها؛ ومن المحتمل كثيراً أن انزعاجها نتيجة زيارات سايمون كان يفوق أي انزعاج يمكن أن يأتيها من زملائها. وذلك لأن أسلوبه كان شديدة الخشونة عندما يأتي لتفقدها والتحقق من كيفية معاملتها. كان عنيفاً مع المدير الذي يأمل في شراء كمية من الفَرشات بسعر الجملة من آرثر ماغنوس عن طريق سايمون. لقد وعده سايمون بهذه المساعدة. لكنه كان يتجوّل في المكان مهدداً منذراً ولا يرضيه شيء أبداً. اعترض على إقامة ماما في غرفة مع أشخاص آخرين؛ وعندما حصل لها على غرفة خاصة بها اتضح أنها مجاورة للمطبخ بكل ما فيه من ضجيج وروائح. ما كان هذا أمراً يستحق شكراً عليه! وبعد ذلك وجدناها بعد الظهر في يوم من أيام الصيف جالسة على سريرها منكبة على تثبيت الدبابيس في شارات حملة روزفلت الانتخابية. كانت تحصل على عشرة سنتات مقابل كل مئة دبوس فتكسب بضعة دولارات في الأسبوع بفضل طيبة قلب مسؤول الحملة الانتخابية في المنطقة. وعندما رآها سايمون تثبت تلك الدبابيس النحاسية بيديها الخرقاوين اللتين جعلهما عملها في البيت خشنتين غليظتين، ورآها تتحسس القطعتين بأصابعها تلك في حجرها، غضب غضباً شديداً جعلها تخاف فأدارت وجهها باحثة عني كأنها تطلب مني التدخل. ذعرت أيضاً لأنها اكتشفت أنها تفعل شيئاً خاطئاً من غير قصد.

قلت له: «كف عن الصراخ بحق الله!».

لكنه لم يتوقّف: «ماذا تقصد؟ انظر إلى ما يجبرونها على فعله! أين هو ابن القحبة هذا؟».

جاءت زوجة المدير مرتدية فستانها البيتي. تعمَّدَتْ أن تظل مهذبة محترمة، لكن من غير إبداء أي خضوع أمام غضب سايمون. كانت بيضاء، ولها وجه قتالي لا يتزعزع، إلا أنها تحدثت بصوت مرتفع وبطريقة عملية معتزة بنفسها.

صاح بها: «هل أنت مسؤولة عن هذا؟».

قالت: «لم يجبر أحد السيدة مارتش على فعل شيء لا تريده. لقد سُئلت فأجابت بأنها تريد هذا العمل. أمر جيد لها أن يكون عندها ما يشغلها».

«سُئلت؟ أعرف كيف يُسأل الناس بطريقة تجعلهم يخشون الرفض. سوف أجعلك تفهمين أن أمي لن تقوم بأي عمل مقابل عشرة سنتات في الساعة، أو مقابل ثلاثين سنتاً، أو مقابل دولار. إنها تحصل على المال الذي تحتاجه مني أنا».

«لست مضطراً إلى الصراخ هكذا. لدينا هنا أشخاص حساسون يضطربون لأدنى سبب».

رأيت في الممر كثيراً من المكفوفين يتوقفون ويتجمّعون معاً؛ أما في المطبخ فاستدارت الطباخة الضخمة في مكانها في ركن تقطيع اللحم وفي يدها سكينها.

قالت ماما: «سايمون! أنا أردت هذا، أنا طلبته». ما كانت قادرة على منح كلماتها أي وزن. ما كانت قادرة على هذا طيلة حياتها. ليست لديها الخبرة الكافية.

قلت له: «اهدأ!».

كان لهذه الكلمة بعض الأثر عليه.

اتضح أنه لا يستطيع أن ينتزع الفكرة الأولى من عقله، الفكرة التي أتت في اللحظة الأولى... لا يستطيع انتزاعها من غير أن يلمس ذلك المكان الملتهب الحساس، تميّزه الشخصي. كان يلعن ويبارك مثلما يفعل عرّاف يهودي قديم، لكن من غير أي قدرة خارجية على تصحيح ما يفعله. ما كان هنالك غير قراره الاعتباطي الذي يمكن أن يتغير فجأة فيقف في وجهه ويجعله يعود عن تلك الفكرة الأولى. وهكذا ما كان قادراً على الكلام من أجل ماما من دون أن يحاول أن يملي على الآخرين كيف ينظرون إليه.

مضى بعد ذلك إلى الخزانة ليرى إن كانت الأشياء التي ترسلها شارلوت موجودة هناك، الأحذية والحقائب والفساتين. لكنه لم يعثر على معطف خفيف أرسله لها شخص أكثر أهمية من شارلوت. لم يكن مقاس المعطف مناسباً لها على أية حال.

«أين هو... ماذا فعلوا بذلك المعطف؟»

قالت زوجة المدير موضحة: «أرسلتُه إلى محل التنظيف. لقد دلقتْ عليه بعض القهوة».

قالت ماما بصوتها الواضح الخالي منِ أي تلوين: «هذا ما حدث».

ثم أضافت المرأة: «سوف أُصغّره من أجلها عندما يعود من محل التنظيف لأنه واسع جداً عند الكتفين».

ظهر الغضب والاحتقار على وجه سايمون لكنه ظل صامتاً ينظر إلى الخزانة بعض الوقت ثم قال: «يمكنها أن تدفع أجرة خياط إذا كانت في حاجة إلى تعديل بعض ملابسها. أريد أن يكون مظهرها جيداً دائماً».

كان يترك لها مالاً كل مرة... دولارات مفردة حتى لا يستطيع أحد أن يغشها. ما كان

يفعل هذا لقلة ثقته في المدير وزوجته؛ لكنه أراد أن يدركا أنه ليس في حاجة إلى الاعتماد على استقامتهما.

«أريدها أن تخرج في نزهة كل يوم».

«هذه هي القاعدة عندنا يا سيد مارتش».

«أعرف هذه القواعد، تلتزمون بها عندما تريدون ذلك فقط».

همست له شيئاً بصوت منخفض، لكنه قال لي: «لا بأس، اهدأ! أريدها أن تذهب إلى مصفف الشعر مرة على الأقل كل أسبوع».

«يأخذ زوجي السيدات كلهن معاً بالسيارة. لا يستطيع أخذهن فرادى».

«استأجروا فتاة أذن، أليست هنالك طالبة تستطيعون جعلها تذهب معها مرة في الأسبوع؟ سوف أدفع أجرها. أريد أن تعتنوا بها. سوف أتزوج قريباً».

قالت: «سوف نحاول تلبية طلباتك يا سيدي». انتبه سايمون إلى السخرية في ما قالته رغم عدم ظهور أي ملمح على وجهها غير الثبات أمام تهديداته. حدق بها ودمدم شيئاً لنفسه، ثم التقط قبعته:

«مع السلامة يا ماما».

«مع السلامة، مع السلامة يا أولاد».

قال سايمون وهو يجذب غطاء السرير فيبعثر الدبابيس: «أبعدوا هذه الأشياء عنها».

خرج من الغرفة، فقالت لي المرأة بنبرة لاذعة: «آمل، على الأقل، أنه يجد روزفلت شخصاً مناسباً من الناحية الشخصية».

الفصل الثاني عشر

بدأ سايمون يجني مالاً عندما مال الطقس إلى البرودة، وسار كل شيء على نحو طيب. ارتفعت روحه المعنوية. وكان الزفاف حفلاً ضخماً أقيم في غرفة الاحتفالات الرئيسية في فندق كبير. جرى تنظيم حفل الزواج في الجناح الرئاسي، جناح الحاكم، وهناك قضى سايمون وشارلوت ليلتهما الأولى أيضاً. كنت مرافق العريس، أما لوسي ماغنوس فكانت وصيفة العروس... كانت واقفة قبالتي. مضى سايمون معي لاستئجار بدلة رسمية للعرس، ثم أعجبته البدلة كثيراً فقرر شراءها. وليلة الزفاف، ساعدتني ميمي في وضع ربطة العنق والأزرار التزيينية على القميص المنشّى، وكان جاري كايو أوبرمارك جالساً على سريري للفرجة... بقدمَيْن سمينتين عاريتين. راح يضحك لمناكفات ميمي المتصلة بالزواج.

قالت ميمي: «تبدو كأنك أنت العريس الآن! ولعلك تريد أن تكون عريساً في وقتٍ قريب، ألا تريد ذلك؟».

اختطفتُ معطفي وجريت إذ يجب أن أجلب ماما. كانت سيارة البونتياك معي لهذه الغاية. كنت مسؤولاً عن أمي؛ وكان عليَّ أن أهتم بأمرها طيلة الوقت. أمرني سايمون بأن أجعلها تضع نظارة سوداء. كان ذلك اليوم صقيعياً صافياً شديد الريح، وكانت أمواج ضخمة تجري على صفحة المياه الخضراء المتلاطمة، تلك المياه التي تصبح بيضاء على صخور «الطريق الخارجي». ثم وصلنا إلى ذلك الفندق الفخم وثقله الجسيم اللائق بجوبيتر وتفاصيله المرمرية القلقة الساعية دائماً إلى أن تزداد وتكبر فتعرض أصيصاً جديداً آخر أضخم من أن يصلح للزهور، وتمثالاً منحوتاً آخر، وأشغالاً معدنية بيضاء. كان الدفء في الداخل باذخاً، حتى موقف السيارات تحت الأرض حيث وضعت السيارة... كان فيه دفء حريري. وعندما تخرج من ذلك المصعد الأبيض تجد نفسك في قصر

الحمراء الأندلسي بزهوره وسقوفه السماوية وزينته وعاجه، ونباتات فلوريدا اليانعة، والسجاد الذي يمتص وقع الخطوات، والمسافات الشاسعة المنبسطة من حولك، وكل ما لا غاية له غير راحة الكائن البشري في ذلك الرفاه الباذخ كله. كان كل شيء مصنوعاً للاهتمام بالجسد، لإعلاء قيمته... الاستحمام، والتجفيف، والتزيين، وتجهيز وسائل الراحة الحريرية، والنقل، والإطعام. وقد زرت القصر الملكي في مؤسسة أسرة بوربون في مدريد، ورأيت تلك الزخارف كلها التي كانت تعبيراً عن القوة والسلطة. لكن الأمر مختلف هنا: الأمر مختلف عندما تكون الرفاهية هي السلطة نفسها... رفاهية من غير شيء أكثر منها، من غير شيء آخر واقف خلفها. من غير شيء إلا ذلك التَوْق (لا أدري إلى ماذا)، التوق إلى أن تكون رفاهية ضخمة متراميةً، وأن تبدو متألقة غامضة سرية، وأن توحي بأن هنالك ما يقف خلفها دائماً. فما الذي تفعله هذه السلطة بك؟ أعرف أنني (دعوني أقول هذا) عندما أكون في مكان قديم، في فينيسيا أو روما مثلاً، عندما أمرّ بالأسوار الجليلة حيث عاش رجال عظماء ذات يوم، فإنني أعيش ما يمكن أن يكون مجرد لحظة أو مجرد لمحة تمر أمام عينيّ... لمحة من شيء كبير، شيء يكاد يكون أبيض اللون، شيء ليس إلا هواءً، تقريباً. أرى نفسي أمام هؤلاء العظماء، أمام أفكارهم. هذه العظمة العتيقة المشهدية بكل ما تركته من فنون وعلامات نبيلة كثيرة... إنها شيء أستطيع تقديره حق قدره حتى إذا لم أكن راغباً في الخضوع أمام عظمته هذه. أما في خضمّ سلطة الرفاهية الحديثة هنا، بما فيها من كتائب عمال الخدمة والمهندسين، فإنها الشيء نفسه... هي الشيء في ذاته، هي المنتجات المتميزة؛ ولا يكاد يكون الإنسان الفرد مكافئاً لحصيلتها العظمى. ثم إنها هي ما يصير شيئاً عظيماً... حمامات كثيرة لا تنقطع المياه الحارة عنها، ووحدات تكييف هواء ضخمة، وآلات متقَنة. لا يسمح هذا بأي عظمة أخرى تقابله؛ وأما ذلك الذي لا يريد الخدمة هنا، أو الذي ينكر هذا المكان ولا يرغب في الاستمتاع به، فهو الشخص الوحيد الذي يكون عنصر اضطراب في عالم الرفاهية هذا.

ما كنت أعرف رأيي في هذا كله حتى ذلك الوقت! ما كان واضحاً لي إن كنت معه أو ضده. لكن، كيف يتخذ أي شخص قراراً بأن يكون ضد هذا ويبقى متمسكاً بقراره... يبقى ضده؟ متى يكون هو الذي يختار، ومتى يكون موضوعاً للاختيار بدلاً من ذلك؟ هذا يسمع أصواتاً، وذاك قديس، والآخر زعيم قبيلة، أو خطيب، أو قائد كبير، أو كاميكازي ياباني؛ وواحد يقول «ساعدني يا رب!» فلماذا أكون أنا الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً مختلفاً؟ أهنالك مهمة سرية تلقيها البشرية على كاهل شخص عاثر الحظ، شخص لا يستطيع رفضها؟ كما لو أن أكثرية الناس تستنكف عن فعل شيء لا تستطيع تركه أو هجرانه إلى الأبد فتعيّن شخصاً ما حتى يظل وفياً له؟ لكن المرء لا يستطيع أن يكون ذلك الشخص، لا يستطيع أن يصبح مثالاً، إلا بمشقّة كبرى.

من الواضح أن سايمون كان يرى أنني من هذا النوع من الأشخاص القابلين للتأثر والصالحين لأن يكونوا مثالاً. الرب يعرف أن هنالك كثرة من المبادئ الجائعة التي تطير في الهواء حرةً وتبحث عن شخص ترتبط به. هذا ما جعل سايمون يهتم بأمري أولاً!

كانت فكرة سايمون هي أن عليّ أن أتزوج لوسي ماغنوس التي تملك مالاً كثيراً، حتى أكثر من شارلوت. هكذا رسم المستقبل من أجلي. يمكنني إنهاء مرحلة الدراسة الحالية والذهاب بعد ذلك إلى مدرسة جون مارشال للقانون حتى أدرس فيها ليلاً بينما أعمل معه نهاراً. سوف يدفع تكاليف الدراسة ويعطيني ثمانية عشر دولاراً في الأسبوع. وفي وسعي أن أصير شريكاً له آخر الأمر. أما إذا لم أجد عمله مناسباً لي، فمن الممكن أن ننطلق إلى عالم العقارات برأس مال مشترك. أو يمكن أن نعمل في الصناعة. أما إذا قررت أن أصير محامياً، فلن أكون مضطراً إلى مطاردة سيارات الإسعاف، ولا إلى أن أكون محامياً مشعوذاً يلتقط عمله من هنا وهناك ويتستر على المجرمين مقابل حفنة من الدولارات. لن أكون محامياً من ذلك النوع عندما ألعب بالمال الكثير بعد أن أصير زوجاً للوسي ماغنوس. ثم إنها فتاة لذيذة حتى إن كنت غير معجب كثيراً بانتصاب عظام كتفيها عندما ترتدي ملابس رسمية. كما أنها مستعدة، وموافقة، ومندفعة اندفاعاً تاماً. سوف يساندني عندما أغازلها وأرمي شباكي حولها. ليس عليَّ أن أحمل هَمّ المصاريف؛ سوف يسمح لي باستخدام سيارة البونتياك حتى آخذها في نزهات، وسوف يعزز موقعي ضمن العائلة ويزيل العقبات من طريقي. لن يكون مطلوباً منّي إلّا أن ألعب لعبتي، وأن أجعل نفسي مرغوباً وأن أقوم (بقدر ما أستطيع) بدور الصهر الذي يريده والداها. هذه مهمة في غاية السهولة!

كنا وحدنا في غرفته في «جناح حاكم الولاية». غرفة بيضاء الجدران ذهبية السقف فيها مرايا ثقيلة معلَّقة بحبال حريرية، وفيها سرير من طراز لويس الرابع عشر. خرج من حجرة الاستحمام الزجاجية ثم جفّف جسده بمنشفة تركية سميكة وارتدى جوارب سوداء وقميصاً منشّى. كان الآن مستلقياً على السرير يدخّن سيجاراً ويشرح لي خطته، يشرحها بطريقة عملية عنيفة. استلقى هناك بجسده الثقيل الضخم الذي كان الجزء الأوسط منه عارياً. ما كان يحاول إغرائي بهذه الرفاهية والراحة التي من حولنا بل كان يحاول إغرائي بأن أفعل شيئاً من أجل نفسي. ألّا أضيع حائراً بين خيارات كثيرة بل أن أكون صلباً، مثله. وأن أتعلم كيف أظل محافظاً على ما هو ضروري من غير انشغال بالهوامش. هكذا كان يفكر؛ وهكذا كنت أفكر أنا أيضاً... إلى حد ما! لماذا لا أتزوج ابنة رجل ثري؟ إذا لم أكن أريد أن أفعل ما فعله سايمون بكل تفاصيله، أفلا أستطيع ترتيب حياتي على نحو مختلف قليلاً؟ أليست هناك طريقة أخرى لركوب هذا القطار الرائع؟ لماذا لا تكون هنالك طريقة... شريطة أن تكون لوسي مختلفة عن ابنة عمها؟ ما كنت غير راغب في التفكير في هذا الأمر وفي الاستفادة من عروض سايمون المقدَّمة لي. صرت أتلقى أوامر كثيرة منه،

منذ الآن، وصرت أكرس له وقتاً كثيراً إلى حد جعلني مستعداً لأن أقبل أجراً منه على ذلك وأمضي في هذا الطريق ليكون طريقاً رسمياً لي. ويمكنني القول أيضاً إن لدي رغبة في المضي معه لأنني أحبه ولأنني متحمس لنظرته إلى الأمور... نظرته التي لم أكن مؤمناً بها في الأصل. إلا أنه كان شديد الحرص على ألّا أعتبر نفسي أفضل من أن أفعل ما يفعله، وألّا يواجه مني ذلك الصَدّ الذي كان قد جعلني دائماً متردداً إزاءه نتيجة أسباب لا أبوح بها... أسباب غير كافية على أية حال... كان يريد أن يرى نهاية لهذا. لم أعارضه! وهذا ما جعله يتحدث معي بعطف وحماسة غير مألوفَيْن.

نهض من السرير حتى يكمل ارتداء ملابسه وهو يقول: «صرنا الآن نذهب إلى بعض الأماكن معاً. وأنا أتساءل عن الوقت الذي ستبدأ فيه إظهار شيء من الفهم، أتساءل إن كان هذا يمكن أن يحدث في يوم ما. يقلقني أنك لن تكون أكثر من غلام مفلس. اسمع، أغلق هذا الزر في الخلف. لقد أعطتني حماتي هذه المجموعة من الأزرار. يا رب! كيف أعثر على الحذاء المناسب؟ ما أكثر ورق التغليف! لا تستطيع أن تعثر على شيء. ارمه بعيداً! اتركه في سلة المهملات... من أجل الجناح الرئاسي». قال هذا متحمّساً وأطلق ضحكة عصبية صغيرة... «لم يصبح العالم شديد الضيق بعد. لا يزال فيه متسع لك إذا استطعت العثور على منافذ إليه. إذا درست الوضع جيداً فسوف تعثر على تلك المنافذ. حاكم الولاية يهودي أيضاً، بعد كل حساب؛ لعل بدايته لم تكن أفضل من بدايتنا، لكنه صار حاكماً الآن».

«هل تفكر في محاولة العمل في السياسة؟».

«ربما، لم لا؟ هذا متوقف على كيفية سير الأمور. يعرف العم آرتي شخصاً صار سفيراً بعد تقديم تبرعات كثيرة في الحملات الانتخابية. عشرون، ثلاثون، بل حتى أربعون ألف دولار؛ ما قيمتها عند من يملكها؟».

ليست فكرة أن يصبح المرء سفيراً بالفكرة القابلة للتصور مثلما كانت في الأيام الخوالي... شخص موهوب يصل من فلورنسا بوجهه الذكي، أو روسي آتٍ إلى فينيسيا، أو شخص مثل الرئيس آدمز... اضمحلّت هذه الحالات العظيمة بعد أن تحولت سبل الهجرة وتحولت أقدار الناس معها.

راح سايمون يضع زينته كلها ويمشي من مرآة إلى أخرى ويمر بأصابعه على ملابسه ليتفقد أكمامه البيض ويرفع ذقنه عالياً حتى يجعل رقبته القوية أكثر راحة في ياقته القاسية. كانت لديه حماسة تجعل المكان مكرساً كله له... أكثر حتى من كونه مكرَّساً للحاكم (كان واضحاً أن سايمون يفكر هكذا). وبما أنه استطاع الوصول إلى هذا المكان من غير أن يكون مرشَّحاً انتخابياً من أي نوع، فلعله قادر أيضاً على تجاوزهم جميعاً من غير اضطرار

إلى خوض ميدان السياسة المرهق. لقد صار في مرحلة تحول، وصرت قادراً (أنا أيضاً) على رؤية أن ما من حدود تستطيع إيقافه. لست أقول إنني كنت أشاركه مشاعره مشاركة تامة، ولا طموحاته، لكني أحس في وجودي معه الآن بأنني أقل تعرضاً للضربات من أي وقت مضى وبأن لا شيء مما يفعله الآخرون يمكن أن يكون أمراً عصياً على التخيّل أو الفهم.

لكن الناس ينتظرون في الأسفل، وكان سايمون سبب التأخير!... كان متمهلاً تماماً. جاءت شارلوت بنفسها كأنها تمثال ضخم لعروس في خمارها وأوشحتها؛ جاءت حاملة وروداً طويلة السيقان. في وجود شارلوت، ما كان هنالك إنكار للحياة التي تجري خلف الكواليس، ولما يجعل الرجل حبيس روابط الحب... مثلما ينصحك لوكريس وينصحك بأن تحسب حساباً للموت. كان كافياً أن يرى المرء فمها العملي حتى يعرف أن كل ما يتعلق بالموت كان مقبولاً مسبَقاً رغم أنها تفعل من أجل المظاهر كل ما تفعله أي امرأة أخرى. كانت صراحتها تمنحها نوعاً من النبالة. وأما هنا، عندما دخلت الغرفة، فقد رأت أن سايمون فعل كل ما يستطيع فعله، كل ما يعيده إليها من أحلامه... أحلام المناصب الكبيرة، الحاكم والسفير.

«كل شيء جاهز، إلا أنت! ماذا تفعل؟».

كانت تخاطبني أنا لأنها غير مستعدة للومه في أي ظرف من الظروف إذا رأت نفسها قادرة على لومي بدلاً منه... كنت بديله!

قال سايمون: «إنني أرتدي ملابسي وأتحدث مع أوجي. لدينا وقت كثير... فلمَ العجلة؟ لكن، ما الذي جعلك مضطرة إلى المجيء بنفسك؟ كان يمكنك أن تتصلي من غرفتك. والآن، لا تكوني متوترة يا حبيبتي. تبدين جميلة وسوف يكون كل شيء عظيماً».

قالت بنبرتها الآمرة: «سيكون كل شيء رائعاً إذا اهتممت أنا به. هل تذهب الآن وتتحدث مع الضيوف؟».

جلسَت على السرير لتتصل بمن سيأتون بالطعام، وبالموسيقيين، وبائع الأزهار، وبإدارة الفندق، وبالمصوّر، لأنها حريصة على بقاء كل شيء في يدها ولأنها أنجزت تلك الترتيبات كلها بنفسها ولم تعتمد على أحد آخر. جلست واضعة قدميها المنتعلتين حذاء أبيض على أحد الكراسي، ووضعت حشية فوق ركبتيها ثم راحت تسجل أرقاماً وتساوم المصوّر... ظلت حتى اللحظة الأخيرة حريصة على محاولة جعله يخفض السعر. قالت له: «اسمع يا شولتز! إذا ظللت مصراً على جعلي أدفع سعراً مرتفعاً فلن يأتيك أي عمل من عائلة ماغنوس بعد الآن. تعرف أن عددنا كبير ولدينا مناسبات كثيرة».

وعندما خرجنا، قال لي سايمون: «أوجي! يمكنك أن تأخذ السيارة لتذهب في نزهة مع لوسي، ولعلك في حاجة إلى بعض المال. خذ، هذه عشرة دولارات. سوف أجعل ماما تعود في سيارة تكسي. أريدك أن تكون في المكتب في الساعة الثامنة. هل وضعت ماما النظارة السوداء مثلما قلت لك؟».

كانت ماما قد أطاعت أوامره ووضعت النظارة؛ لكنه انزعج عندما رأى أنها أتت حاملة عصاها البيضاء. كانت جالسة مع آنا كوبلين في الردهة، وكانت العصا بين ركبتيها. حاول أخذها منها، لكنها لم تقبل بذلك.

«أعطني هذه العصا يا ماما! أعطني العصا بحق الله! كيف سيكون مظهرك؟ سوف يلتقطون صوراً؟».

«لا يا سايمون، سوف أصطدم بالناس من غير العصا».

«لن تصطدمي بأحد. سوف تكونين مع ابنة العم آنا».

قالت آنا: «اسمع أنت! دعها تحتفظ بالعصا».

«ماما، أعطِ العصا لأوجي، وسوف يخبئها من أجلك».

«لا أريد هذا يا سايمون».

حاول إرخاء أصابعها الممسكة بالعصا: «ماما! ألا تريدين أن يظهر كل شيء بمظهر جيد؟».

قلت له: «كف عن هذا!» خاطبته ابنة العم آنا مدمدمة بوجهها الحزين الملتهب.

قال لها: «اخرسي يا بقرة!».

ذهب بعد ذلك، لكنه ترك لي بعض الأوامر: «خذ العصا منها! لن يكون هذا مظهراً جيداً من جانبنا».

تركتها تحتفظ بعصاها. وكان عليّ تهدئة ابنة العم آنا واسترضاؤها، وأن أتوسل إليها حتى تبقى، من أجل ماما.

قالت لي: «يجعل المال الناس أوباشاً». كانت جالسة ثقيلة طويلة في مشدّها تحدق بنظرة مجنونة في تلك الردهة الباذخة.

أعجبتني قوة الإرادة التي أظهرتها ماما؛ جعلتني أعجبُ لَما تستطيع تلك الإرادة الوديعة إظهاره من مفاجآت. إلا أن سايمون أهمل الأمر. كان أكثر انشغالاً من أن يستطيع خوض المعارك كلها! كان الآن خارج الصالة حيث تجري الاستعدادات الأخيرة لمراسم الزفاف.

مضيت بين المدعوين أبحث عمن أعرفهم. لقد دعا سايمون آل إينهورن، بمن فيهم آرثر. تخرّج آرثر في جامعة إيلينويز، ويعيش الآن في شيكاغو... لا يفعل هنا شيئاً محدداً. كنت أراه أحياناً في القسم الجنوبي من المدينة، وكنت أعرف أنه صديق لمجموعة فريزر وأنه يترجم قصائد من اللغة الفرنسية (هذا ما قالوه). يسانده إينهورن دائماً في أي مسعى متصل بالثقافة. إذن، كان آل إينهورن هناك، في صالة الاحتفال. كان العجوز مرتدياً شيئاً يشبه عباءة عسكرية رمادية، وكان يبدو مثل شخص امتلك في السابق روعة وفخامة تشبه ما هو موجود هنا... ما كانت ظاهرةً عليه أي ضغينة من نوع خاص لأنه يفهم كيف تأتي هذه الأمور، وكيف يحصل المرء عليها؛ كان شخصاً رآها تنتقل من يد إلى يد. قال لي: «تبدو رائعاً في هذه البدلة يا أوجي». قبّلتني زوجته تيلي، أمسكت وجهي بين كفَّيْها القاتمين؛ وكان آرثر مبتسماً. يستطيع أن يتصرف بسحرٍ استثنائي، لكنك تشعر أنه يلقي إليك بهذا السحر شاردَ اللب.

ذهبت للترحيب بهابي كيلرمان وزوجته، امرأة شقراء نحيلة طويلة القامة عَرّت قسماً من بطنها وزينت نفسها بالخرز الملون والأبيض، من أعلاها إلى أسفلها. رأيت بعدهما العقارات الخمسة ومعه سيسي. لقد دعاهما سايمون انطلاقاً من دوافع لا يصعب فهمها: أراد أن يجعل سيسي ترى ما فعله بعدها من ناحية، وحتى يجعل العقارات الخمسة مضطراً إلى إجراء مقارنات مزعجة من ناحية أخرى. لكن سيسي هزمت الجميع، رغم ذلك، هزمت الجميع بتلك اللياقة المستفزة الخبيثة المعتمدة على مفاتنها الأنثوية... ثديٌ يمس ثدياً تحت حافة ياقة فستانها المنخفضة. كانت تظهر لسانها بكل نعومة خلال الكلمات القليلة التي قالتها. جاء العقارات الخمسة من أجل مصالحةٍ مع أبناء عمومته. لقد علمته سيسي كيف يمشِّط شعره البدائي بطريقة مختلفة؛ صار الآن منحدراً قليلاً فوق جبهته المتغضنة من غير أن يفلح في إضفاء أي تعديل على نظرة عينيه المبتسمتين الشكاكتين. يستطيع هذا الاخضرار المتوحش في تلك العينين أن يعبر دائماً عن كل ما يدور في عقل العقارات الخمسة. كان في بدلة رسمية أيضاً لفّ بها جذعه الضخم حتى يصير في مستوى الأبهة التي دعاه سايمون إلى رؤيتها. كان واضحاً أن سيسي هي التي تحرّكه وتعلمه السلوك المتمدن... ذلك الرجل الذي كان يقود الشاحنة ويحمّلها بالجثث التي خلّفها الروس والألمان في الوحول البولندية. لقد درَّبته سيسي جيداً، لكنها ما كانت قادرة، بابتسامتها وكلماتها المهموسة البطيئة، على منعه من تحسس ظهرها ومداعبتها. كان يقول لها: «ما المشكلة يا حبيبتي؟».

بدأت موسيقى الزفاف. وذهبت لأرى إن كانوا قد أخذوا ماما إلى الأريكة الفخمة. كان مكانها داخل قفص الزهور، إلى جانب المذبح (كان آل كوبلين معها أيضاً). ثم اتخذتُ موقعي الذي تدرّبت على اتخاذه في الموكب، مع لوسي ماغنوس، وسرت على

طول السجادة البيضاء التي مشى فوقها الأشخاص الرئيسيون في ذلك اليوم: شارلوت ووالدها يتقدمهما أطفال ينثرون الورود، والسيدة ماغنوس، والعم تشارلي، ثم سايمون مع سام، شقيق لوسي الذي كان لاعباً رئيسياً في فريق ميتشيغان... شاب ضخم. وخلال الاحتفال، كانت لوسي تنظر صوبي بطريقة واضحة لا لبس فيها؛ وبعد وضع الخواتم... عندما احتضن سايمون شارلوت أمام الجميع حتى يقبّلها فصفقوا وهتفوا لهما عالياً، جاءت لوسي فأمسكت بذراعي. مضينا إلى المائدة... عشرة دولارات للفرد ثمناً لوجبة واحدة... سعر ضخم في تلك الأيام. لكني لم أستطع الجلوس مكاني طيلة المأدبة. جاء من يخبرني بأنهم يطلبونني، وقال لي إن علي أن أسرع إلى آخر الصالة. رأيت العقارات الخمسة غاضباً موشكاً على الخروج لأنه أُجلس مع سيسي إلى طاولة صغيرة خلف أحد الأعمدة. لم أعرف أبداً إن كانت شارلوت هي المسؤولة عن هذه الفعلة أو سايمون نفسه. كان كل منهما مؤهَّلاً لأن يفعل ذلك. لكن العقارات الخمسة أحس بإهانة كبيرة، بصرف النظر عمن فعل هذا.

«لا بأس يا أوجي. ليس لدي شيء ضدك. لقد دعاني للحضور فحضرت. أتمنى له الخير. لكن، هل يعامَل ابن العم هكذا؟ لا بأس! أستطيع أن آكل حيثما شئت. لست في حاجة إلى هذه الوجبة، لا سمح الله! هيا بنا يا حبيبتي».

ذهبت لأجلب معطفها الفرائي فقد أدركت أن مجادلته أمر لا طائل منه. رافقتهما حتى باب المصعد الذي يهبط إلى موقف السيارات، وفهمت كيف تكون الفظاظة مقياساً للإنجازات ووسيلة لتخزين الإهانات. وعندما دخلت سيسي المصعد قال لي: «انقل تهنئتي لأخيك. إن زوجته جميلة جداً».

لكنها كانت لعبة لا أحب أن أقوم بدور الوسيط فيها. وعندما سألني سايمون (مستطلعاً تواقاً إلى سماع الإجابة) عن ذهابهما قلت له من غير اهتمام: «أوه، ما كان لديهما وقت كافٍ للبقاء. جاءا لحضور مراسم الزفاف فقط». لم تمنحه إجابتي أي قدرٍ من الرضا.

أما فيما يتعلق باللعبة الأخرى، اللعبة الأكثر أهمية التي جعلني أدخلها، فقد لعبتها وانغمست فيها تماماً مع لوسي. صرنا نذهب إلى النوادي الليلة والحفلات الراقصة والعروض المختلفة وألعاب كرة القدم الليلية حيث يلتحم جسدانا. كانت لا تعرف التوقف عند حد، إلا ذلك الحد الأخير ذاته! وكانت مُحِبّة للاستطلاع أيضاً. كنت أتوقف حيث تتوقف هي. لا يعرف المرء أبداً الشكل الذي يمكن لاحترام الذات اتخاذه، خاصة مع أشخاص ليست لديهم قواعد كثيرة في حياتهم. لكنني استمتعت بكل ما سُمح لي أن أستمتع به، وإلى الحد الذي أبقى معه على طبيعتي. إلا أنني لم أكنْ على طبيعتي تماماً من نواحي أخرى، وكان هذا مقلقاً إلى حد كبير، بل كان يضغط على رأسي بثقل مزعج...

أدركت أنني بلغت آخر قدرتي على التكيف. لكن اعتزازي بنفسي جعل الأمر يبدو سهلاً على الرغم من ذلك. وهكذا، إذا ذهبت إلى بيت العم تشارلي عشية أحد أيام الأحد بعد العشاء، قرب الموقد، بين أفراد الأسرة، مع السيدة ماغنوس التي تحوك شالاً ينحدر من بين يديها إلى سلة الحياكة الموضوعة على السجادة عند قدمَيْها؛ ومع سام، شقيق لوسي، واقفاً بالقرب منا وذقنه مرفوعة حتى تترك فسحة للوشاح الذي عقده تحتها... ثوبه البيتي الطويل منتفخ من الخلف، وهو يرفع يده في كل حين إلى شعره المصفف بعناية فيتحسسه بلطف؛ ومع العم تشارلي مصغياً إلى الأب كوفلين الذي لم يكن قد بلغ بعد مرحلة شتم المتعاملين بالعملات لكنه اكتسب تلك الحماسة المملة، حماسته المضللة المشحونة بالقوة التي لا تتركك من غير أن تجعلك تحس فراغ الشتاء المرتجف بين ديترويت وشيكاغو... إذا ذهبت إلى هناك، وجلست إلى جانب الموقد مواجهاً العم تشارلي الذي مد ساقاً إلى الأمام وراحت أصابعه تعبث بشعر صدره الكثيف تحت قميصه، فلست أعتبر نفسي ناجحاً إلى الحد الذي يظنه من يحسدني. كنت أحسد من هم في الخارج، لا شك في هذا، وألقي نظرات الحنين عبر النافذة الرمادية إلى حيث يلعب الأولاد ويتحاربون ويتراشقون بكرات الثلج التي تتبعثر على جذوع الأشجار القاتمة وتطير بين الأغصان الصغيرة المتشابكة. لا أقول لهذا لأن لوسي، في ثوبها الصوفي الأسود الذي يغطي أعلى جواربها التي طلبت مساعدتي في حل رباطها الليلة الماضية حتى أتحسس جلد فخذيها، لا أقول هذا لأن لوسي ما كانت تساوي الكثير عندي! بطريقة ما، ما كان ذلك أعمق الأشياء، وما كان أقلها أهمية أيضاً؛ كنت أمضي معها، بقدر ما هو مسموح لي، وأمنحها عناقاً حقيقياً تجيب عليه بمثله وتلعق أذني، وتمتدحني، وتعدني بأشياء كثيرة؛ صارت تعتبرني زوجاً منذ الآن. إن الاعتبار الكبير الذي تقيمه النساء (يراه المرء على انفراد في عيونهن الفطنة) للمطالبة بما هو واقع خلف الحدود المسموح بها نابعٌ من الخوف على كل ما بُذل من أجل حياة مستمرة معقولة؛ وأما ذلك العبء الذي جعل فيدرا تصرخ قائلة إنها تريد أن ترمي عنها ثيابها المزعجة المؤذية، فقد كان موجوداً لدى لوسي أيضاً. لقد جعلها ذلك تذهب بعيداً. تذهب إلى حد اختياري أنا. كان واضحاً أنني لا أبلغ مرتبة سايمون من وجهة نظر عائلتها. كان اهتمامهم الرئيسي منصباً على معرفة مدى استعدادي لأن أكون مثلهم في كل شيء. لم يتوصلوا أبداً إلى ثقة كاملة في هذا الأمر؛ وكانوا يطلبون دائماً أن يلقوا نظرة أخرى على مؤهلاتي، كأنهم، إن جاز القول، يأتون من غير أن يقرعوا الباب... كأنهم آتون ليروا إن كان كل شيء على ما يرام، إن كان كل شيء يسير وفق النظام الذي يرضيهم. وقفت لوسي في صفّي. وكان هذا عصيانها الوحيد حتى تلك اللحظة... هذا ما كنت قادراً على رؤيته رغم أنني لا أزال خارج تلك العائلة، ورغم أنني دارسٌ للوضع من الخارج. عندما اقترحت عليها أن نهرب معاً ونتزوج في كراون بوينت رفضت الفكرة رفضاً قاطعاً؛ وكنت عند ذلك

قادراً على رؤية الاختلاف بينها وبين شارلوت. لعله ليس لي أيضاً أن أنسى الفارق بيني وبين سايمون! لو أراد سايمون لاستطاع إقناع شارلوت بالهرب معه. وإن كانت لوسي تعتبرني منذ الآن «زوجاً»، فإن ميمي فيلاريس يمكن أن تقول عن نفسها إنها زوجة (من غير أن تقصد أي إطراء بهذا القول)، وإنها راغبة في حياة الزوجة كاملة. بكلمات أخرى أقول إن ما من مشكلة في الحد الأدنى من الشهوانية. هذا إلا إذا كانت فتاتي ساعية إلى إثارة مشكلة لأنها لمَحت أثر استعداد للمشكلات عندي.

لكنني كنت (مثلما كنت عند آل رينلينغ) واقعاً تحت التأثير فحسب... لم أكن حاملاً لذلك التأثير. كان يجب أن أمضي في طريق التفافية. لديّ هيئة لا بد لي من اتخاذها، وسيارة مطلوب أن أقودها، ومال مطلوبٌ أن أنفقه، وملابس مطلوبٌ أن أرتديها... قُدّمت لي الخدمات قبل أن يتضح إن كنت أحب القيام بذلك كله أم لا. حتى إذا تسلل والدها ليرى ما نفعله في الثانية صباحاً، عندما نكون في غمرة الحب، فإنه يتسلل سائراً في قصره بحيث أجد من الصعب أن أعتبره مخطئاً في شيء عندما تنار الأضواء وتطل سحنته النكِدة أمامنا. أظن أنني ما كنت أرى شيئاً خاطئاً في أي تصرف! وقد لزمني وقت أكثر مما يجب حتى اكتشفت أنه ما كان يحبني... لزمني ذلك الوقت الطويل لأن كل شيء كان متوهّجاً من حولي، لأن كل شيء غنيٌّ، ثقيل، مخملي، مزركش كالفراشات.

جعلني المضي المستمر في تلك الدائرة في غاية الانشغال... الذهاب إلى «غلاس ديربي» و«شي باري» والرقصات في نادي «ميدينا». الشيء الذي كان يتعيَّن إثباته هنا هو أن جيبي عامر بما فيه الكفاية لمخالطة أبناء أصحاب الثروات. كان يجب أن أسير بخطى حذرة لأن سايمون حرص على بقاء موازنتي المالية في الحدود الدنيا. رأى، على نحو ما، أنني قادر على فعل ما كان يفعله، بمال أقل. صحيح أنني كنت قادراً على جعل هذا المال يستمر زمناً أطول، لكن لوسي كانت أقل من شارلوت مهارة في علم الاقتصاد. وكان يجب أيضاً أن أنتبه إلى النفقات الإضافية وإلى البخشيش وتكلفة موقف السيارات، وأن أتسلل خارجاً لأشتري سجائري من دكان قريب بدلاً من شرائها من بائعة السجائر في النادي. خضعت لتدقيق أصدقاء لوسي، ولم أسمع ما لم أكن راغباً في سماعه... ما كنت راغباً في إجبار الآخرين على التراجع أمامي. أحسست أن قدرتي على خداعهم جميعاً كانت رصيداً طيباً لي رغم النفاق الذي كان يظهر على وجهي ويضغط على معدتي.

ما كانت هذه صحبتنا الوحيدة! كنا نذهب لزيارة سايمون وشارلوت في شقتهما (لديهما الآن ثلاث غرف فقط، على سبيل البداية) ونأكل مستخدمين أطباق زفافهما ومفارشهما الفاخرة. كان آل ماغنوس يبالغون كثيراً بشراء أي شيء ليصير ملكاً لهم. هذه الأطباق والفناجين مصنوعة في فرن إنكليزي؛ والمفارش آتية من بخارى حقاً؛ والفضيات

من تيفاني. وإذا بقينا بعد العشاء فإننا نلعب لعبة البريدج أو لعبة أخرى؛ وفي الساعة العاشرة تتصل شارلوت بمحل الحلويات ليرسل لنا الآيس الكريم بالنعناع مع حلوى دسمة حارة. وهكذا كنا نلعق ملاعقنا؛ وكنت -على وجه العموم- اجتماعياً، خدوماً، صاحب كياسة... كنت منتبهاً دائماً إلى ألوان ملابسي وإلى الحلية التي تزين قميصي، هدية من سايمون. كانت شارلوت تطيعه وتعاملنا، لوسي وأنا، كأننا مخطوبَيْن. لكنها كانت تفعل هذا بحذر وتحفّظ تخفيهما عنه. ساعدتها غريزتها العائلية في اكتشاف أنني لا أملك صفات سايمون، وأنني لا أنوي اتباع خطواته حقاً... لعل الصعوبات التي يلاقيها كانت أكثر مما أستطيع احتماله.

بدأ سايمون يدرك هذا أيضاً. كان مسروراً في البداية باستعدادي ورغبتي وانطلاقي ولطفي وغَزَلي، وكل ما كان مستمراً طيلة وجودي تحت أعين آل ماغنوس... كنت أفعل كل ما يمكن فعله أمام إغراءاتهم... كل ما هو باذخ لامع، قوة السيارات في مجرى اندفاع السيارات الكبير في ظلمة طريق نورث سايد ذي الإضاءة الباردة، وتلك القيادة السريعة على العجلات الطرية المندفعة صوب حفلات فندق دريك وأقماره والأبراج المحيطة به؛ قطع اللحم الضخمة، والأكل الكثير، وإثارة الرقص. بعد اجتياز شاطئ البحيرة، يترك المرء الخشب الجاف وجدران القرميد الرمادية في شيكاغو العمالية الفقيرة المزدحمة المتراصّة الواقفة بعيداً، تلك التي يغادرها منطلقاً إلى الجهة الأخرى. لا! كان نصفا النبوءة موجودَيْن معاً... الجميلات والوحوش والكائنات الكئيبة تتشارك المنازل نفسها، كلها معاً.

بما أنني أعمل في مستودع الفحم كل يوم منذ بداية الشتاء، فإنني ما كنت قادراً على نسيان المستودع أبداً، حتى إن كنت أمضي أمسياتي وأيام الأحد في عالم آخر. كما أن أيام الآحاد نفسها كانت مقسومة لأن سايمون جعلني أفتح أبواب المستودع صباح الأحد لالتقاط ما يمكن التقاطه من مبيعات في ذلك الطقس شديد البرودة. كان يقسو عليّ، يريد أن يجعلني انضباطياً. وكان يتحقق من توقيت وصولي في الصباح بعض الأيام. إذا طال نومي قليلاً ذات يوم فإن الأمر ما كان غريباً لأنني كنت أعيد لوسي إلى بيتها وأضع سيارته في الموقف، ثم أعود إلى البيت بالترولي. وهذا ما يعني أنني نادراً ما أستطيع الخلود إلى النوم قبل الواحدة صباحاً. لكنه لا يقبل مني أي عذر. يقول لي: «طيب، لماذا لا تجعل وقتك معها أقصر قليلاً، لماذا لا تكون أسرع قليلاً؟ تزوجها واحصل على راحة أكبر». كانت هذه شبه نكتة في البداية. أما فيما بعد، عندما ازدادت شكوكه تجاهي، فقد صار يضغط عليَّ ضغطاً حقيقياً. وصار يبخل عليَّ بالمال ظاناً أنه يهدره من غير طائل. «ماذا تنتظر بحق الجحيم؟ اللعنة عليك يا أوجي! الفتاة لا تريد هذا الانتظار. لو كنت مكانك لجعلتك ترى كيف يكون ذلك... لكن، أسرع!» ثم صار أكثر عنفاً عندما بدأت مقاومة

أسرتها تصبح أكثر وضوحاً، رغم أنني لم أفهم هذا إلا بعد فترة من الزمن.

لكن، إذا أتيت في الثامنة والربع بدلاً من الثامنة، فقد أجده واقفاً على الميزان غاضباً، محدّقاً في اتجاهي. «ما الأمر؟ هل تجعلك ميمي تتأخر؟» كان مقتنعاً بأنني على علاقة مع ميمي وبأنني مستمر في تلك العلاقة.

كانت لدينا مصاعب أخرى أيضاً. فبما أنني أساعده في تسجيل الحسابات، إضافة إلى عملية الوزن، فقد توقّع مني أن آخذ بعض المال من أجور العمال مقابل الملابس البائسة التي جعلهم يشترونها منه؛ وهذا ما أفسح مجالاً لمشاعر سيئة بيننا بعض الأوقات. وذات مرة في شهر كانون الأول، وبّختُ بائعاً اسمه غوجونسكي لأنه اندفع إلى الميزان قادماً من الباحة الموحلة وقد راح بخار أبيض يندفع من المبرِّد في سيارته. كان يريد شراء طن من الفحم، وهذا ما يتجاوز حمولة السيارة بعدة مئات من الكيلوغرامات. وعندما قلت له إن هذا عبء ثقيل على السيارة شتمني ونزل من سيارته حتى يقتحم المكتب ويكسر ذراعي لأنني أغشّه. لاقيته عند الباب ورميت به خارجاً. وعندما استطاع النهوض من الثلج أفرغ حمولته من الفحم على الميزان بدلاً من أن يحاول مهاجمتي من جديد. كان الشارع في تلك اللحظة مزدحماً بالشاحنات والعربات، إضافة إلى ازدحامها في باحة المستودع. قلت لأحد العمال أن ينظف الميزان، لكن غوجونسكي كان واقفاً فوق فحمه حاملاً مجرفة. راح يلوّح بتلك المجرفة عندما اقترب العامل منه. كان هابي كيلرمان يتصل بدورية الشرطة عندما وصل سايمون. انطلق سايمون على الفور فحمل المسدس. وعندما خرج جارياً من المكتب حاملاً إياه أمسكته من ذراعه وجعلته يستدير. أعماه الغضب فسدد لي لكمة أصابتني في صدري. صرخت به وهو يبتعد عني: «لا تكن غبياً! لا تطلق النار!» رأيته يترنح قليلاً فوق الوحل الفحمي ثم يستعيد توازنه ويلتف عند الزاوية. لم يكن غوجونسكي ثملاً إلى درجة تمنعه من رؤية المسدس فرمى بنفسه، بمعطفه القصير القذر وقبعة البحار التي يضعها على رأسه، إلى جانب شاحنته محاولاً الوصول إليها زحفاً. وهنا، في هذه الفسحة الضيقة بين الشاحنة وجدار المكتب، أمسك سايمون به وأطبق على عنقه ثم ضربه على وجهه بجانب المسدس. جرى هذا تحتنا مباشرة، هابي وأنا، لأننا كنا واقفَيْن بنافذة غرفة الميزان. رأينا غوجونسكي عالقاً هناك يشد على أسنانه وقد جحظت عيناه. كان مزرقّ الوجه، وكانت يداه ممسوكتين من الخلف. لم يجرؤ على محاولة اختطاف المسدس الذي ضربه به سايمون مرة أخرى. سببت الضربة جرحاً كبيراً في وجنته. تجمّد قلبي عندما رأيت ذلك الجرح وقلت في نفسي: أتراه يظن أنه يعرف ما يفعله عندما يُسيل دم الرجل؟ ثم تركه وأشار بالمسدس إلى العمال طالباً منهم أن ينظفوا منصة الوزن. فبدأت مجارفهم تقذف بالفحم وتمزق ذلك الصمت القذر الذي خيم على غوجونسكي وهو ينظر إلى دمه نظرة حقد. قفز إلى شاحنته وانطلق بها. خفت أن يصطدم بالبوابة، لكنه تجاوزها وصار في

الشارع الذي غمره الثلج حيث تولت قضبان السكة الحديدية تعديل مسار عجلاته فاستقام سير الشاحنة وابتعدت مع حركة السيارات ماضية في وجهة غامضة عاتمة.

قال هابي: «أيمكن أن يذهب إلى قسم الشرطة لتقديم شكوى؟».

أصغى سايمون إليه بعد أن وضع المسدس، ثم قال بنبرة منخفضة: «اطلب لي نوزو على الهاتف». كان يخاطبني أنا، وكان يخاطبني بطريقة قررت أن أعتادها، وكنت أطيعها عادة. لم يعد يبحث عن أي رقم هاتف بنفسه، ولم يعد يتصل بنفسه؛ لا يمسك بالسماعة إلا عندما يصبح الطرف الآخر منتظراً على الخط. لكني لم أتحرك هذه المرة. كنت واقفاً عاقداً ذراعيَّ على صدري. ظللت في مكاني على الميزان. لاحظ سايمون امتناعي هذا بنظرة كالحة، وسجل نقطة ضدي. وجد هابي الرقم واتصل به. قال سايمون: «نوزو! أنا مارتش. كيف حالك؟ ماذا؟ لا، الطقس بارد كثيراً، لا أستطيع ذلك الآن. اسمع الآن يا نوزو! قبل قليل حدثت هنا مشكلة صغيرة مع بائع فحم غبيّ ضرب واحداً من رجالي بمجرفة. ماذا؟ لا، كان ثملاً كأنه لورد ممن اللوردات فأفرغ حمولته من الفحم على الميزان وعطل العمل أكثر من ساعة. انظر، قد يكون الآن ذاهباً لتقديم شكوى لأنني ضربته بعد ذلك. اهتم بالأمر من أجلي من فضلك! ضعه في الحجز حتى يستعيد رشده. طبعاً، سأفعل ذلك لأن لديّ شهوداً. قل له إنك سوف تعاقبه عقوبة شديدة إذا فكر في الانتقام مني. ماذا؟ إنه يبيع الفحم عند الكنيسة في الشارع رقم ثمانية وعشرون. هل ستفعل هذا من أجلي؟».

قام نوزو بالمطلوب منه، وظل غوجونسكي في الحجز عدة أيام. ما كان يفكر في أي نوع من أنواع الانتقام عندما رأيته بعد ذلك. كانت ندبة الجرح لا تزال طرية على وجهه عندما عاد إلينا هادئاً، عاد ليشتري الفحم من جديد. أعرف أن سايمون كان يراقبه منتبهاً وأنه يمكن أن ينقضّ عليه في أي لحظة إذا لمح إشارة تستوجب انقضاضه. لكن الرجل لم يظهر عليه ما يشير إلى ذلك. لقد زرع نوزو، أو رجال نوزو، في نفسه رعباً عميقاً في ذلك القبو لديهم وجعله يفهم تماماً أنهم قادرون على التقاطه والتهامه التهاماً. أفهموه أيضاً أن عليه أن يستمر في شراء الفحم من عندنا. لكن سايمون كان يعرف أيضاً كيف يعيد الأمور إلى نصابها؛ أهدى غوجونسكي زجاجة جن من ماركة بوردون ليلة عيد الميلاد، وقدم لزوجته علبة من الحلوى. قالت زوجته إن غوجونسكي سُرَّ بالهدية كثيراً.

قال سايمون: «طبعاً، إنه راضٍ الآن لأنه صار يعرف مكانه. ما كان يعرف ذلك عندما وقف ملوِّحاً بتلك المجرفة. كان يحاول اكتشاف الأمر؛ وهو يعرف الآن». أراد سايمون أن يجعلني أدرك أنه أدار هذه الأزمة بطريقة عادلة، وأنني أخطأت التصرف لأن لي قلباً ضعيفاً. كان عليَّ إخماد تمرد غوجونسكي في لحظة البداية. لكني لم أكن سريعاً، ولم أكن جريئاً، ولم أدرك أن من الضروري ضرب غوجونسكي بالمسدس وإلقاؤه في الحبس وجعله يفهم

أنه يمكن أن يجد نفسه في مواجهة شرطة المدينة كلها. وكانت الإشارة واضحة إلى أنني لم أصل إلى نتيجة مع لوسي ماغنوس بسبب ذلك الخلل نفسه. إذا صرت زوجاً لها من الناحية العملية، فسوف تكون بقية الأشياء أموراً شكلية، لا أكثر. لكنني لم أرتقِ سلم القوة بتلك الطريقة. كنت قادراً على فعل ذلك، لكن بدافع الحب وليس بدافع الوصول إلى هدف مرسوم.

وهكذا صارت الأمور في مستودع الفحم أكثر صعوبة بالنسبة إليّ. زاد سايمون الأعباء الملقاة على كاهلي لأنه يريد مصلحتي ولأن ذلك لم يكن يزعجه. ما كان قادراً في ذلك الوقت على تحديد الطريقة الأفضل التي تناسبه، كان يحاول معرفة ذلك. كانت فكرة اعتماد سياسة جديدة تأتيه عند الإفطار أحياناً؛ وكان يمكن أن تكون هذه السياسة قائمة على أن يهتم بنفسه بكل تفصيل صغير في العمل، أو أن يقتصر على الاهتمام بالأمور الكبرى وحدها ويترك التفاصيل لمن هو أدنى منه... هذا ما كان قادراً على فعله لو كان هؤلاء، وأنا أوّلهم، جديرين بالثقة. كان يفكر في اتباع سياسة التقتير أحياناً، أو في أنه شخص عصامي صنع نفسه بنفسه: كانت هذه واحدةً من أضعف الأفكار التي تأتيه، لكنها كانت تأتيه كثيراً. كنت أقول له: «أوه، لكنك مثل هنري فورد. تذكر أنك تزوجت فتاة غنية». يجيبني: «المسألة هي ما تكون مضطراً إلى معاناته للحصول على المال، وكم تبذل من جهد؛ هذا هو الأمر، وليس أن تبدأ بقروش قليلة مثلما يقولون في الكتب»... تذكرت هنا أنه كان يقرأ كثيراً... «ثم تحوّل تلك القروش القليلة إلى ثروة. المسألة هي أنك إذا حصلت على مقدار من المال فماذا تفعل به؟ هل تنجح أم لا؟» لكن هذه كانت مناقشات نظرية وسرعان ما صارت نادرة بيننا. كان عليّ معظم الأحيان أن أرى نظريته في عينيه المتقزّزتين، وأن أرى كم كنت غير مناسب لها لأنني أتأخر وأخفق وأخطئ الهدف.

إذن، كانت أيامي سيئة! سيئة في ذلك الميدان من المشاعر الذي يتكون من باحة المستودع، وشكل سياجه، وأكوام الفحم، والآلات، ونافذة غرفة الميزان، وذلك القضيب النحاسي الطويل الذي يحمل تدرّجات سوداء، قضيب الميزان الذي أعمل عليه. هنالك أشياء أخرى أيضاً: الرجال العاملون، والأشخاص الذين يشترون، ورجال الشرطة الذين يأتون ليحصلوا على بعض الفحم، والميكانيكيون، ووكلاء السكة الحديدية، ومندوبو المبيعات... كان ذلك كله يقتحمني اقتحاماً. كانت تملأ رأسي أشياء لا بد لي من تذكرها... عليَّ الانتباه إلى عدم ذكر سعر خاطئ، وعدم ارتكاب أغلاط في الحسابات أو في أي صفقة. سمعتني ميمي فيلاريس ذات ليلة أتكلم عن الأسعار في نومي فجاءت وسألتني أسئلة كما لو أنها تتحدث معي هاتفياً، وفي الصباح ذكرت لي الأسعار التي قلتها لها، كانت كلها صحيحة. قالت ميمي: «يا أخي! لا بد أن الأمر صعب عليك إن كان هذا كل ما تستطيع أن تحلم به». ربما كنت قادراً على الاعتراف بما هو أسوأ من هذا لو كان

عندي اهتمام بمواصلة ذلك الحديث؛ وذلك لأن سايمون كان قد قرر معاملتي معاملة خشنة، وكان يرسلني في مهمات غير لطيفة إطلاقاً. أن أخوض معارك مع البوابين من أجل الفحم الذي يشترونه، وأن أتملقهم وأرشوهم أيضاً، وأن أكسب ود البائعين من خلال تقديم البيرة لهم، وأن أعالج شكاوى وكلاء البيع فيما يتعلق بتقلص حجم الفحم، وأن أزاحم في المصرف حشداً نابحاً حتى أستطيع إيداع بعض المال، هناك حيث يكون كل شخص مستعجلاً سيئ المزاج. وأن أسعى لتأمين عمال أبحث عنهم في الفنادق الرخيصة وفي شارع ماديسون لأقنعهم بالعمل لدينا عندما نكون في حاجة مفاجئة إلى عمال جدد. اضطررت أيضاً إلى الذهاب إلى المشرحة حتى أتعرف على جثة شخص عثروا عليه مقتولاً بالرصاص وعثروا على مغلف المال، المغلف الذي استلم فيه أجره، فارغاً في جيب قميصه. كان المغلف يحمل اسم مستودعنا. كانوا قد نظفوه فتعرفت عليه؛ رأيت جسده الأسود متصلباً كأنه مات وهو في نوبة غضب، كأنه كان مستعداً للقتال، صائحاً بشيء من عمق فمه.

«هل تعرفه؟».

«إنه يولاس بادجيت. كان يعمل لدينا. ماذا حدث له؟».

أشار الرجل إلى جرح في صدره: «يقولون إن صديقة له أطلقت النار عليه».

«وهل قبضوا عليها؟».

«لا! ولن يبحثوا عنها أيضاً. إنهم لا يفعلون ذلك أبداً».

كلفني سايمون بهذه المهمة لأنني سأكون في السيارة على أية حال عندما أخرج مع لوسي (هكذا قال)، ويمكنني أن أهتم بالأمر في طريقة العودة إلى البيت. كان علي أن أسرع حتى أغير ملابسي فلم يتسنّ لي وقت كاف إلا لإزالة الأوساخ عن وجهي ورقبتي وأذنَيّ. أما بقية جسمي فكانت مكسوة بسخام المستودع. وحتى في زاويتَي عينيَّ بقيت ظلال في أماكن لم أستطع تنظيفها. كانت تلك الأماكن تجعل عينيَّ تبدوان أكثر اتساعاً في الليل. ما كان لدي وقت للأكل أيضاً، حتى لو كانت لديَّ شهية للأكل؛ وذلك لأن زيارة المشرحة استغرقت وقتاً طويلاً، ولأن لوسي كانت في انتظاري. قدت السيارة بأسرع مما أقودها لأداء أي عمل، فكدت أحطمها عند تقاطع جادة ويسترن وشارع دايفرستي... انزلقت السيارة في ذلك المنحدر ثم انتهى الأمر بأن دارت دورة كاملة حول نفسها واصطدمت من الخلف بحافلة نقل. جاء سائق الحافلة ليرى ما أصابني ووقف تحت جسر السكة الحديدية. لم تكن الصدمة شديدة. تحطمت الأضواء الخلفية، لكني لم أستطع رؤية أضرار كبيرة أخرى. هنأني على السلامة حشد من الناس اجتمع فجأة مثلما يحدث

دائماً في حالات من هذا النوع. قيل لي إنني كنت محظوظاً كثيراً فضحكنا جميعاً، ثم جلست خلف المقود وتابعت سيري. بلغت بيت آل ماغنوس بروح معنوية رائعة في ذلك الليل الأسود، ودخلت ردهة البيت واثقاً وأنا أصفر بلحن أغنية. رنّت المفاتيح في جيب معطفي رنيناً موسيقياً عندما ألقيت المعطف على أريكة في الصالة. لكن كأساً من الشراب قدمها لي سام، شقيق لوسي، جعلت تفكيري يعود إلى المشرحة بسرعة أكبر من سرعة مجيئي (كان ذلك ما فعلته رائحة الويسكي على معدة فارغة)، وعدت إلى الحادث الذي جعل ساقيَّ القذرتين أضعف من أن تستطيعا حملي في هذه اللحظة. جلست على أحد الكراسي. قالت لوسي: «لماذا أنت شاحب هكذا؟» اقترب سام مني مهتماً أيضاً عندما رأى أخته قلقة. انحنى فوقي ناظراً إليَّ نظرة مستطلعة.

«هل أنا شاحب؟» قلت هذا بمشقّة ورفعت رأسي... «ربما لأنني لم أتناول طعاماً».

«أوه، ما أسخف هذا! منذ متى؟ الساعة تتجاوز التاسعة الآن». أرسلتُ سام إلى المطبخ ليأتي بشيء آكله وبكأس من الحليب.

قلت لها بعد ذهابه: «وقع لي حادث أيضاً... تقريباً»، ووصفت لها ما حدث.

لا أعرف ما الذي سيطر على تفكيرها أولاً... قلقها، أو فكرة مفاجئة في خفايا عقلها تقول لها إن حبيبها السعيد في هذه اللحظة قد نجا. لا بد أنها رأت موجة من سوء حظ قادمة، إن لم يكن بؤساً تاماً يلوح في الأفق. قالت: «هل أصيبت السيارة بأضرار كبيرة؟».

«أصابها شيء من الضرر».

لم يعجبها غموض إجابتي.

«هل أصيب هيكلها؟».

«لا أعرف بالضبط. تحطمت الأضواء الخلفية، هذا ما أعرفه. أما غير ذلك فمن الصعب أن يحكم المرء في الظلام. لكني أظن أن الأضرار ليست كبيرة».

قالت: «سنذهب بسيارتي هذه الليلة. وسوف أقودها بنفسي. من المؤكد أنك لا تزال تحت تأثير الحادثة».

وهكذا ذهبنا في سيارتها، ماركة رودستر... سيارة جديدة قدَّمها لها والدها مؤخراً... ذهبنا إلى حفلة في الشاطئ الشمالي؛ وبعد ذلك توقفنا بالسيارة في منطقة واسعة معتمة خلف معبد باهاي لنتعانق ونتبادل المداعبات ونرتجف أسفل تلة المعبد الباردة وضياء القمر الشاحب فيها. كانت الأمور تبدو في مسارها المعتاد، سواء بالنسبة لي أو بالنسبة لها. وعندما عدنا، أرادت أن تلقي نظرة على السيارة لتعرف الأضرار... كانت خائفة عليّ.

أما أنا فما كنت راغباً في الذهاب معها للانحناء والنظر إلى مؤخرة السيارة ودس إصبعي في الشقوق التي سببها الحادث. أطفأت أضواء سيارتها التي كانت تجري ذلك الفحص في نورها. وفيما بعد، في مدخل البيت، عندما صرت في معطفي وقبعتي، عندما رحت أحتضنها وأداعبها وأسمع تأكيداتها بأنها تحبني عرفت أن تعاطفها وإشفاقها يقفان حاجزاً أمام مشاعر الحب في تلك اللحظة. توقعت لوسي أن يغضب سايمون كثيراً لما أصاب السيارة (وقد غضب فعلاً). وقد توقعت أكثر من ذلك أيضاً، ما كان هذا رأياً بل شيئاً بدا لها ممكن الحدوث. كانت خائفة عليّ بعض الشيء لإحساسها بأنني في ورطة. كنت أشم كتفها وأرفع ثديها، لكن ذلك ما عادت له تلك الخصوصية بعد ما حدث، ليس مثلما كان الأمر تحت ضوء القمر بعد الحفلة. كنت أسمع صوت شخير والدها العجوز في الأعلى، لكنني لم أعرف حقاً إن كان نائماً أم لا.

وهكذا كنت مرهقاً قبل حلول الصباح الأصفر الماطر وبرده السقيم والحرارة القريبة القذرة المنبعثة من المدفأة النفطية في الداخل. لا شك عندي في أن هنالك طريقة لتحمّل هذه الأشياء كلها مثلما يحمل اندفاع ماء الطوفان عيداناً صغيرة... لكن ذلك ممكن إذا استنفر المرء طاقته حتى يندفع مثلما يندفع الطوفان... هذا لأن وزن السيارات والمشارح يكون محمولاً بتلك القوة المائية المندفعة التي تكون لديك. عندما فرَّ نابليون من شتاء روسيا بمزلجة قديمة تشبه صندوقاً، وكان جنوده القتلى يرقدون أفواجاً تحت تلك الثلوج، ظل يتحدث ثلاثة أيام مع كولينكورت الذي لعله لم يستطع أن يسمعه جيداً بسبب الضمادات على أذنيه (حرمت تلك الضمادات سيده من متعة شد تلك الأذنين). لكن لا بد أن ذلك المسكين رأى في وجه رئيسه المنتفخ طاقة عميقة ظل طوفانها مندفعاً حتى اجتاح تفاصيل أوروبا كلها.

نعم، إنّ لدى أهل الأعمال طاقة كبيرة! لكن السؤال هو: ما الذي يحترق حتى ينتج هذه الطاقة، وما هي الأشياء التي نستطيع حرقها والأشياء التي لا نستطيع حرقها؟ هنالك حرق الجوهر نفسه. قوى شمالية متوحشة ماضية مثل عيدان كثيرة على سطح الماء. هنالك أيضاً خطر النار التي يوقدها الخصوم والمنافسون حتى يحرقوك بها... ما قوة تلك النار؟

ما كنت قادراً على جمع هذه العناصر كلها. جاء سايمون، ووبّخني كثيراً بسبب السيارة. وكنت منهاراً إلى درجة جعلتني غير قادر على إجابته بشيء، بل غير قادر حتى على الشعور بأنه مخطئ في حقي. لم أجبه إلا: «ما سبب ضجيجك هذا؟ لم يكن حادثاً كبيراً، ثم إن لديك تأميناً على السيارة».

هنا كانت غلطتي، هنا تماماً. كان مطلوباً أن أشعر بالأسف على مؤخرة السيارة المحطمة وعلى عينيها الخلفيتين المتدليتين من أسلاكهما. ما كان الأمر متعلقاً بالحادث

نفسه بل بأنني لم أعبأ بردّة فعله كثيراً. هذا ما جعله يحرقني بنظراته حرقاً ويظهر لي سنّه ذا الحافة المكسورة بينما كان رأسه منحنياً فوقي، مهدداً، خطراً. منعتني شدة قنوطي من مواجهته. ما كان هنالك شيء واضح يساندني، أو يعزز موقفي؛ ما كان عندي شيء أستطيع رؤيته والثقة فيه مثلما يفعل هو. كان كل شيء غامضاً بالنسبة لي، وكان كل شيء عنيداً أيضاً.

لزمت البيت تلك الأمسية حتى أقرأ. طبقاً لاتفاقنا، كنت سأبدأ الجامعة ذلك الربيع عندما يتباطأ العمل قليلاً فيصبح سايمون قادراً على الاستغناء عني. لا يزال لديَّ ذلك التوق إلى القراءة الذي كان عندي في الصيف الطويل الذي عشته مع الكتب. ولا أزال مشتاقاً إلى الإمساك بكتاب يحملني إلى أي مشهد في هذا العالم. لكن باديلا باع القسم الأكبر من كتبي. لقد ترك سرقة الكتب في الآونة الأخيرة بعد أن حصل على عمل جزئي في حساب سرعة النبضات العصبية في مختبر للفيزياء الحيوية. لم تبقَ لدي إلا أشياء قليلة. لكن، كانت لدي مجموعة الكتب الكلاسيكية التي أخذتها من إينهورن في صندوق تحت السرير. أخرجت كتاب شيلر «حرب الثلاثين عاماً»، وكنت مستلقياً أقرأ مرتدياً جواربي عندما دخلت ميمي فيلاريس.

غالباً ما تأتي وتذهب من غير أن تكلمني عندما تريد شيئاً من الخزانة. أما الليلة فكان عندها ما تقوله. قالت من غير مقدمات: «إنني حبلى من فريزر».

«هل أنت متأكدة؟».

«متأكدة طبعاً. تعال معي إلى الخارج. أريد أن أتحدث معك من غير أن يسمع كايو شيئاً. إنه يستمع عبر الجدار».

كان طقساً أسود... ليس بارداً كثيراً، لكنه شديد الريح. وكان مصباح الشارع يتأرجح ويقرقع كأنه صنج نحاسي.

قلت لها: «لكن أين هو فريزر؟» قلت هذا لأنني بعيد عما يجري هنا منذ فترة.

«كان عليه أن يرحل. يجب أن يلقي محاضرة في مؤتمر في لويزيانا. كان ذلك وقت عيد الميلاد، وعليه أن يذهب لرؤية أسرته أولاً لأنه لا يستطيع أن يكون معهم خلال العطلة. لكن ما أهمية مكان وجوده... ما فائدته أصلاً؟».

«طيب، صدقاً، صدقاً الآن يا ميمي، ألا تحبين أن تكوني قادرة على الزواج؟».

منحتني لحظة من الصمت، لحظة كافية لأن أسحب سؤالي... كانت تنظر إليّ. قالت عندما رأت أنني لم أتراجع: «لا بد أنك تظنني ممن يفقدون صوابهم بسهولة». لم نخرج

إلى الريح بعد؛ لا نزال واقفين في المدخل. كانت إحدى قدميها منحرفة جانباً، ويدها خارجة من كمها العميق... وضعَتها على رقبتها من الخلف بينما صار وجهها المستدير الذي ظهر فيه سرور خشن تحت رأسي تماماً، قريباً مني. سرور خشن؟ نعم، أو إحساس قاسٍ بالفكاهة، أو شيء روحيّ... شيء رياضي، مع ألم تجسَّد في الحاجبين فجعلهما متقلِّصَيْن. «إذا لم أرد الزواج منه قبل الآن فلماذا أتزوجه الآن نتيجة حادثة عارضة؟ أظن أنك كنت واقعاً تحت تأثيرات طيبة! فلنذهب ونتناول فنجاناً من القهوة!».

أمسكت بذراعي ومضينا حتى الزاوية حيث توقفنا من جديد ورحنا نتحدث عندما جاء كلب ومن ورائه صاحبته في معطفٍ فارسي من صوف الخروف وقبعة أستراخان. حدث شيء مدهش جعلني أرى كم يمكن تصديق أن ميمي استطاعت انتزاع المسدس من ذلك الرجل وإطلاق النار عليه. أقول هذا لأن الكلب، المشوَّش بعض الشيء، ربما بسبب الطقس العاصف، توقف فتبول على كاحل ميمي التي صرخت بالمرأة. لكن المرأة بدت غير قادرة حتى على النظر لترى ما يحدث. صاحت ميمي: «أبعدِي كلبك عني!» وفي تلك اللحظة رأيتها تنتزع قبعة المرأة الفرائية المرتفعة وتجفف قدمها بها. ظلت المرأة من غير قبعة، وتطاير شعرها في الريح. صرخت: «قبعتي!» كانت القبعة الآن في الشارع... حيث رمتها ميمي.

إنها قلة الاحترام التي تظهر في الحوادث، قلة الاحترام أمام الصعوبات الموجودة في كل مكان. لكن ميمي كانت سريعة دائماً في العثور على براهين تساعدها في الدفاع عن موقفها. وعندما صرنا في المقهى، عندما خلعت جوربها ولفته ثم وضعته في حقيبتها، لم يعد الأمر كله إلا موضوعاً للضحك. تستطيع أي فرصة مرح حقيقية نقية أن تدغدغ مزاجها.

لكن الأمر الذي أرادت مناقشته ونحن نشرب القهوة كان طريقة جديدة في الإجهاض سمعَتْ بها مؤخراً. لقد جربت استخدام بعض الأدوية، وجربت المشي، وتسلق السلالم، والحمّامات الحارة. لكن واحدة من النادلات في المقهى أخبرتها عن طبيب قريب من ساحة لوغان يعطي حقناً تسبب الإجهاض.

«لم أسمع بشيء من هذا قبل الآن، إنما الأمر يستحق المحاولة، وسوف أذهب لتجربة هذه الطريقة».

«وما المادة التي يستخدمها؟».

«كيف أعرف؟ لست عالمة».

«إذا كان لها آثار سيئة فسوف يكون عليك أن تذهبي إلى المستشفى؛ وعند ذلك، ماذا؟».

«أوه، إن عليهم إدخالي إلى المستشفى إذا كانت حياتي في خطر. لكنهم لن يعرفوا مني أبداً كيف حدث هذا».

«يبدو الأمر خطراً. قد يكون من الأفضل ألا تحاولي تجربة ذلك».

«وماذا تريد؟ أن أنجب طفلاً؟... أنا؟ هل تستطيع أن تتخيلني مع طفل؟ أنت لا تبالي بأن تعرف كيف يزداد عدد سكان العالم، أليس كذلك؟ لعلك تفكر في أمك...» عرفت الآن إن سيلفستر أو كليم تامبو تحدث معها عني... «وأنك لن تكون موجوداً هنا لو كان لدى أمك تفكير مثل تفكيري». قالت هذا وهي موشكة على الضحك كعادتها... «لا أقول هذا لأنك غير مهم عندي يا صاحبي، حتى رغم عيوبك كلها... لماذا أفعل مثلما يفعل الآخرون؟ حتى لا تلحق بي أرواح هذه الأشياء الصغيرة عندما أموت وتتهمني بأنني لم أدعها تخرج إلى الحياة؟ سوف أقول لها: اسمعوا، كفوا عن ملاحقتي! ماذا تظنون أنكم كنتم؟ كنتم مضغة لحم صغيرة، هذا كل شيء! لا تعرفون كم كنتم محظوظين. ما الذي يجعلكم تظنون أنكم ستحبون هذه الحياة؟ اسمعوا كلامي... أنتم منزعجون لأنكم لا تعرفون».

كنا جالسَين قرب طاولة البيع في المقهى، وكان العاملون يتوقفون ويصغون إلى حديثنا. كان من بينهم رجل قال: «ما هذه الفتاة المجنونة؟».

سمعته ورأته وضحكت منه ثم قالت: «ها هو رجل سيعيش ويموت وهو يحاول أن يبدو مهرّجاً».

«إنها تدخل أولاً، ثم تخلع جواربها وتظهر ساقيها...» كانت نتيجة هذا الحوار معروفة، مما يعني أننا لم نعد قادرَيْن على البقاء هناك. أكملنا حديثنا في الشارع.

قلت: «لا! لست أتذمر لأنني ولدت».

«نعم، بالتأكيد، بل إنك تشعر حتى بالامتنان، لكنك لا تعرف لمن تقدم هذا الامتنان، ولا تعرف ما الذي جعل الأمر كله يكون مجرد حادثة عارضة فقط».

«لا يمكن أن يكون كله حادثة عارضة. من جانب أمي على الأقل! أنا واثق من أن السبب هو الحب. من جانبها على الأقل».

«أهو الحب ما ينقذ ذلك من أن يكون حادثة عارضة؟».

«أقصد الرغبة في أن يكون هنالك مزيد من الحياة، مزيد من الاعتراف بالجميل لأننا نعيش الحياة».

«أرني أين هو ذلك! لماذا لا تذهب إلى سوق البيض في فولتون وتفكر في الأمر من جديد. اعثر هناك على الاعتراف بالجميل الذي تتحدث عنه».

«لا أستطيع المناقشة معك بهذه الطريقة. لكن، إذا سألتني إن كنت أرى النسيان أمراً أفضل بالنسبة لي فسوف أكون كاذباً إذا أجبتك بنعم، أو حتى إذا أجبتك بلا... لأن الحقائق لا تؤيد هذه الإجابة ولا تلك. ولا أستطيع حتى أن أقسم على أنني أعرف معنى ذلك النسيان. لكنني أستطيع أن أقول لك الكثير عن مقدار المسرَّة في حياتي».

«هذا جيد بالنسبة لك. لعل وضعك يعجبك، لكن معظم الناس يعانون نتيجة أوضاعهم. يعانون من حقيقتهم، من كونهم كما هم. تعاني هذه لأنها تريد أن تموت أختها حتى تترك لها سيارتها؛ وتعاني تلك لأنها راغبة في تكريس حياتها كلها للمحافظة على شكل مؤخرتها الجميل؛ أو تعاني واحدة أخرى لأنها تريد الحصول على المال من شخص ما؛ أو تفكر واحدة غيرها في الحصول على رجل أحسن من زوجها. أتريد أن أعطيك قائمة عن معاناة الرجال أيضاً. أستطيع المضي في هذا قدر ما تريد. لن يتغيروا أبداً، لن يتغيروا ذات صباح جميل. لا يستطيعون أن يتغيروا. إذن، لا بد أنك محظوظ. لكن الآخرين عالقون. لديهم ما لديهم؛ وإذا كانت تلك حقيقتهم، فإلى أين يصل بنا ذلك؟».

أما أنا فما كنت قادراً على التفكير في أن كل شيء ثابت كأنه مصبوب بالإسمنت، ولا في أنه لا توجد مناسبات للسعادة متاحة حتى ينسى الناس شيئاً، أو حتى يتجاوزوا خيباتهم، أو ألمهم الدائم، أو موت أطفالهم أو عشّاقهم أو أصدقائهم، أو وصول قضاياهم إلى نهاياتها، أو التقدم في السن، أو الوجوه المتهدلة والشعر الأبيض والأثداء الذابلة والأسنان المتساقطة. ولعل أسوأ ما في الأمر هو تصلب تلك الطبائع الكريهة مثلما تتصلب العظام، مثلما يصبح المرء هيكلاً عظمياً ويطقطق بصوت مرتفع قبل أن تأتي النهاية. أما هي، هي التي كان عليها أن تفكر تفكيراً عملياً، فما كانت تستطيع أن تتخذ قرارها استناداً إلى مشاعري. إنها تخبرك، لكنها تخبرك بسرعة وتقول لك إنك (أنت، الرجل) تستطيع الكلام، لكنها هي صاحبة المشكلة الملموسة. ولديها أيضاً اعتزاز بالأمر... اعتزاز يجعل وجنتيها مشعَّتَيْن، اعتزاز بأن فيها شيئاً غير عادي.

لم أتابع هذه المناقشات معها. ورغم أنها لم تقنعني، فإنني لم أكن مذعوراً فيما يتعلق بالجنين أيضاً. حتى تكون متسقاً تماماً مع ذلك النوع من اقتصاد الأرواح فإن عليك أن تحمل قلقاً كبيراً، ويجب أن يؤنّبك ضميرك لأن تلك الأرحام يجب أن يكون لها سكانها. ثم إن المستشفيات والسجون ودور المجانين والقبور يجب أن تمتلئ أيضاً! إن المجال فسيح متسع كثيراً. كان القرار قرارها في الحقيقة، سواء أرادت أو لم ترد أن تلد طفل فريزر الذي لا يستطيع الزواج منها حتى إن أرادت أن تتزوجه، لأنه متزوج! كما أنني، بالمناسبة، لم أحمل ما كانت تقوله عنه على محمل الجد أبداً ولم أعتبر أنه يمثل حقيقة مشاعرها.

لكنني ما كنت واثقاً فيما يتعلق بالحقنة. أردت أن أسأل باديلا عنها فهو مرجعي العلمي

الذي أستطيع الاعتماد عليه. حاولت رؤيته في مختبره. إذا لم يكن يعرف الإجابة بنفسه فإنه قادر على سؤال واحد من زملائه البيولوجيين العاملين في ذلك البناء الذي يشبه ناطحة سحاب حيث لديهم دائماً كلاب تنبح بتوتر غير طبيعي، وهذا ما جعلني أجفل قليلاً عندما سمعتها. لكن الظاهر أن هذا النباح ما كان يزعج باديلا؛ كان يذهب إلى ذلك المكان من أجل الحسابات فقط، تلك الحسابات العجيبة السريعة، وكان يقف في ناحية من الغرفة واضعاً يده في جيبه بينما ينطلق الدخان من سيجارة مشتعلة لا يمسّها ويصعد في الهواء منقسماً إلى شعبتين. لكني لم أستطع العثور عليه قبل حلول موعد ميمي مع الطبيب.

ذهبت معها إلى ذلك الموعد!

كان الطبيب رجلاً جعلته الأيام السيئة كئيباً، أو ثقيل المزاج؛ وبدا بعيداً كل البعد عن المظهر الاحترافي. كانت الفوضى تعم مكتبه ذا التجهيزات القديمة، وكان جالساً هناك وقد طوى أكمام قميصه إلى الأعلى. وجدناه يدخن السيجار خلف طاولته التي لمحت عليها عيناي اللتان ألفتا الكتب مؤلفات لسبينوزا وهيغل وأشياء أخرى يستغرب المرء أن يجدها لدى طبيب، طبيب يعمل في هذا المجال خاصة. كان تحت عيادة الطبيب متجر للموسيقى. أسعفتني ذاكرتي باسمه: ستراسياتيلا. كانت الأسرة كلها تجلس في واجهة ذلك المكان وتعزف الجيتار وأمامها مكبّر للصوت... الفتيات الصغيرات وصبيان عارية سيقانهم التي لم تلمس أقدامها الأرض بعد، وأصوات تغطي على ضجيج الشارع الذي يكون بارداً بعد موجة من تساقط الثلوج... كان صوت أوتارهم أعلى حتى من أصوات الحافلات المتنافسة في الشارع، حافلات قديمة على ذلك الخط تمر مقعقعة هناك.

لم يحاول الطبيب تمويه ما كان يعرضه: كان شديد الإهمال، حتى في هذا الأمر. لعله لم يكن شخصاً قاسي القلب، لكن مظهره بدا كأنه يقول «وما الذي أستطيع إنجازه إذا بالغت في الاهتمام؟» لعله كان يحمل ازدراءً أو ترفّعاً تجاه انعدام الحَوْل المزدوج لدى هذه الكائنات، عجزها عن مواجهة الحب أولاً ثم عجزها عن التخلص من نتائجه. ومن الطبيعي أنه اعتبرني عشيق ميمي. أحسب أن ميمي أرادت أن يظن هذا؛ أما من ناحيتي فما كنت مهتماً بما يظنه. راح الطبيب الممتلئ يشرح لنا في تلك العيادة طريقة عمل الحقنة على نحو يناسب فهمنا المتدنّي. كان سمين الوجه، جافاً، مرهَقاً، ثقيل الأنفاس، مشعر الذراعين؛ وكان مكتبه يفوح برائحة السيجار والجلوس الطويل في مقعده الجلدي الأسود القديم. لم يكن عديم اللطافة في واقع الأمر، بنظارته تلك، كان رجلاً صاحب أفكار بعض الشيء، وصولاً إلى الصعوبات التي تطهّر عقل المرء وليس أكثر من ذلك. توقف عزف الجيتار في تلك اللحظة، وعاد ضجيج الشارع وصخبه. كانت ميمي بوجهها الأشقر وشعرها الأشقر ووجنتيها المحمرّتين ووردة من القماش مستقرة في مقدمة قبعتها تحف

بها ورود بيضاء أقل حجماً. أوه، هذا الاحمرار! جدران صيفية، وقماش، وطاولات البيع في المتاجر. حاجباها المستدقّان أو الشبيهان بالأهداب... مرسومان بوضوح شديد رغم ارتباكها كله. لكن الوقت كان وقت اقتناص الفرصة (إن كنت قد فهمت حالتها النفسية)، وقت التعامل مع انعدام الحَوْل نفسه الذي لاحظه الطبيب. انعدام الحول لدى نساء ينتظرن من أجل ما سيُفعل بهنّ، منتظرات تلك الطريق إلى مجدهن، إلى شراء ذلك المجد.

قال الطبيب: «تسبب هذه الحقنة تقلّصات؛ وقد تكون قادرة على تخليصك من مشكلتك. لا يستطيع أحد أن يعدك بأنها ستنجح في حل المشكلة. في بعض الأحيان، حتى إذا نجحت الحقنة، تكونين في حاجة إلى عملية تجريف للجنين. إنها ذلك الشيء الذي تشير إليه ممثلات هوليوود في الصحف باسم استئصال الزائدة الدودية».

«سأكون شاكرة لك إذا كففت عن هذه النكات. إنني مهتمة بخدماتك الطبيّة فقط». قالت ميمي له هذه الكلمات بطريقة مباشرة فرأى أنه لا يتعامل مع عاملة مذعورة خجلى ممتنّة لخفة دمه، فتاة بسيطة لا تجيبه إلا بابتسامة باهتة عبر مسافة بعيدة من المعاناة والخطر الحقيقيين. ليست جسداً تعيساً يعاني مشكلة ويخشى الألم. ما كانت رؤية ألم ميمي أمراً سهلاً. إنه شيء يجعلك تتساءل عن طبيعته وعن الأشكال العجيبة التي يمكن أن يظهر من خلالها.

قالت: «فليكن كل شيء مهنياً».

قال الطبيب وقد ظهر شعوره بالإساءة على فتحتَيْ أنفه: «لا بأس، أتريدين هذه الحقنة أم لا؟».

«ماذا؟ لماذا جئت إذن؟ هل تظنني أتيت لأستمتع ببرد هذا الليل؟».

نهض ووضع على الموقد الغاز وعاء معدنياً مطلياً بالخزف فانبعثت حوله حلقة من النار راحت تطلق شرارات حارة صغيرة. كان إمساكه بذلك الوعاء موحياً بالكسل وبانزلاق البيض الذي سلقه صباحاً في مطبخه. أسقط الحقنة الزجاجية في الوعاء ثم أخرجها مستخدماً شيئاً يشبه الملقط. صار جاهزاً الآن.

«وافرض أنني كنت في حاجة إلى مساعدة إضافية... إذا لم تنجز الحقنة إلا نصف المهمة، فهل أحصل على هذه المساعدة منك؟».

رفع الطبيب كتفيه.

ارتفع صوتها الحاد: «إنك طبيب عجيب! ألا تناقش الأمر قبل أن تبدأ؟ أو لعلك غير مهتم إطلاقاً بما يصيب الناس بعد أن تعطيهم الحقنة؟ تظن أنهم يائسون إلى درجة تجعلك غير مضطر إلى الاهتمام بشيء؟ تظن أنهم يعبثون بحياتهم فقط... أليست هذه حقيقة؟».

«إذا كان الأمر ضرورياً، فمن الممكن أن أقوم بشيء من أجلك؟».

قلت: «تقصد أنك تقوم بذلك إذا تلقيت مالاً. كم تأخذ مقابل ذلك؟».

«مئة دولار».

قالت له: «ألا تقبل بخمسين؟».

«قد تعثرين على من يقبل بخمسين». كل ما أراد إظهاره... ظننت في تلك اللحظة أن هذا ذكاء منه... أنه لا يبالي. لست أبالي! كان هذا أسهل شيء بالنسبة إليه. لن يفعل إلا أن يضع الحقنة جانباً ويعود إلى أفكاره وإلى نكش أنفه.

نصحتها بألّا تحدثه عن المال. قلت لها: «هذا الجزء من الأمر غير مهم».

«أتريد أن نتابع؟ انظر، الأمر مختلف بالنسبة لي».

همست في أذنها: «ميمي، لا تزالين قادرة على تغيير رأيك».

«وأين أصبح إذا غيرت رأيي؟ سأظل في المكان نفسه مع المشكلة نفسها».

ساعدتها في خلع معطفها ذي الياقة الفرائية، فأمسكت بيدي كأنني الشخص الذي سوف يستلقي ليأخذ تلك الحقنة. انفجرت باكية لحظة أحطتها بذراعي (لأنني أحسست بحاجتها إلى ذلك، ولأنني كنت راغباً كثيراً في فعل كل ما أستطيع فعله من أجلها). تأثرت أنا أيضاً؛ التقطت العدوى منها. وقفنا يحتضن أحدنا الآخر كأننا ما لم نكنه في الحقيقة. كأننا عاشقَيْن.

لكن الطبيب ما كان ليتركنا ننسى أنه ينتظرنا. هل كان هذا المشهد مؤسفاً في نظره أم مملاً؟ لعله شيء بين الاثنين... راح ينظر إليّ الآن وأنا أحاول تهدئتها. ما عاد يحسدني الآن على الشيء الذي كان يمكن أن يحسدني عليه قبل قليل، عندما ظن أنني حبيبها. لا بأس... إنه لا يعرف شيئاً.

لكن ميمي اتخذت قرارها؛ وما كانت لتتراجع عنه. لم تكن دموعها تعني ذلك. أعطته ذراعها فغرس الإبرة فيها وهبط السائل ذو المظهر القاسي. قال لها إنها ستمر بآلام تشبه آلام الولادة. وقال لها إن من الأفضل أن تذهب لتستلقي في فراشها. كان الثمن خمسة عشر دولاراً، وهذا ما كانت قادرة على دفعه. لم تكن تريد مالاً مني في تلك اللحظة. لا أقصد أنني كنت أحمل مالاً كثيراً. جعلني خروجي مع لوسي مفلساً على الدوام. كان فريزر مديناً لي ببعض المال، لكن لو كان قادراً على الدفع لكان قادراً أيضاً على إرسال المال إلى ميمي. ما كانت تريد إزعاجه بالأمر. لا يزال يجمع المال من أجل طلاقه. ثم إن جزءاً من أسلوب فريزر (أو من طبيعته) هو أن لا يعرف شيئاً عن أمور من هذا النوع. هنالك دائماً

شيء متعالٍ في ما يحدث تحت أنظاره مباشرة، شيء أكثر سموّاً. كان هذا الجزء من طبيعته موضع سخرية دائمة من جانب ميمي. لكنها كانت تشجعه باعتباره شيئاً قيّماً، إضافة إلى كونه حماقة أيضاً. ليس المقصود أنه شخص غير كريم، لكنه ممن يؤجلون الأمور حتى يمنح كَرَمه دروباً أطول وأكثر أهمية.

ذهبت ميمي إلى فراشها وهي تلعن الطبيب لأن أثر الحقنة بدأ يظهر عليها. لكنها قالت إن الوضع «جاف»، وإن التقلصات لن تنتج شيئاً. كانت ترتجف وتتعرق، وكان كتفاها العاريان يبدوان رقيقين متوتّرين فوق اللحاف، وكانت غضون التوتر والتصميم ظاهرة على جبينها الطفولي، أما عيناها فكانتا شديدتَيْ الاتساع، منوّرتين، زرقاوين.

«أوه، ذلك المحتال القذر اللعين!».

«ميمي... لكنه قال إن من الممكن ألا يحدث شيء. انتظري...».

«وماذا أستطيع، بحق الجحيم، أن أفعل غير الانتظار بعد أن حقنت بهذا السم الفظيع؟ عليَّ أن أكون قوية لأنه يضغط على أمعائي ضغطاً شديداً. أوه، ذلك الطبيب الأخرق القذر الذي يشبه البقرة!».

كانت التشنجات تهدأ من حين لآخر فتجد ميمي فرصة لإلقاء بعض النكات. «إنه مستقر جيداً في مكانه، لا يريد أن يتحرك... كم هو عنيد! تكون النساء أحياناً في حاجة إلى الاستلقاء على ظهورهن تسعة أشهر للاحتفاظ بالحمل. استمع إلى الراديو! لكن...» تحدثت بجدية أكبر الآن... «لا أستطيع تركه يولد الآن بعد أن تناولت هذه المادة. قد تكون مؤذية. أمر فظيع. وحتى إذا لم تكن مؤذية فقد تكون خطيرة لأنه عنيد جداً... قد يصبح مجرِماً. أظن أنه لو كان متوحشاً إلى حد يكفي لأن يدمر هذا العالم كله، فقد أسمح له بالمجيء. لكن، لماذا أعتبره ذكراً؟ قد يكون بنتاً... فما الذي أفعله من أجل طفلة، طفلة مسكينة؟ نساء... نساء. إنهن أكثر صدقاً، وهنالك قدر أكبر من الحقيقة عند النساء. إنهن يعشن أقرب إلى الطبيعة. عليهن أن يفعلن ذلك. هذا أقرب إليهن. إن لديهن أثداء؛ وهن يرين دمهن... ولهذا أثر جيد عليهن، بينما يظل الرجال مغرورين مخدوعين بأنفسهم. أوه، أعطني يدك يا أوجي، أعطني يدك بحق الرب!» لقد عادت التقلصات فجعلتها تجلس متيبسة وتضغط على يدي. ظلت مغمضة عينيها حتى مر التشنُّج وانتهى، ثم استلقت على ظهرها. ساعدتها في إعادة وضع اللحاف.

وشيئاً بعد شيء زال تأثير الدواء، لكنه تركها متعبة وترك لديها ألماً في العضلات والبطن؛ تركها حانقة على الطبيب، غاضبة مني أيضاً.

«لكنك تعرفين أنه لم يعدك بشيء».

قالت بطريقة بشعة: «لا تكن غبياً! كيف تعرف أنه أعطاني جرعة كافية؟ أو كيف تعرف أنه لم يفعل هذا لكي أعود إليه لأنجز الأمر بطريقة أخرى حتى يحصل على مزيد من المال؟ هذا ما يجب أن يحدث. لكنني لن أذهب إليه أبداً».

تركتها في سريرها ومضيت إلى غرفتي لأنني رأيت كم كانت حانقة متجهمة، رغم ضعفها... رأيت أنها لا تريد وجود أحد معها في تلك اللحظة.

تقع غرفة كايو أوبرمارك بين غرفتي وغرفة ميمي. ومن الطبيعي أنه كان يتابع ما يجري. كيف يمكنه ألّا يلاحظ شيئاً، رغم محاولات ميمي الرامية إلى إبقائه خارج الأمر كله؟ كان فتياً، في عمري تقريباً، في الثانية والعشرين؛ لكنه ثقيل منذ الآن: وجه كبير جاد نافذ الصبر سريع الانزعاج مليء بأفكار تمضي بعيداً. كان خشناً كئيب الطبع. وكانت حياته خشنة هنا، في هذه الغرفة. وما كان يحب حضور الدروس لأنه يرى نفسه قادراً على دراسة كل ما يلزمه وحده. كانت غرفته قذرة كريهة الرائحة نتيجة تعفن أشياء قديمة، وكانت تفوح برائحة الزجاجات التي يستخدمها لكي يتبوّل فيها لأنه لا يحب تلك الرحلة إلى المرحاض عندما يكون منكبّاً على القراءة. كان يعيش نصف عار في سريره ويضع كل ما في الغرفة على مقربة من ذلك السرير... أكوام من اللوازم والأوساخ. كان مزيجاً من الكآبة والذكاء. يرى أن النقاء الحقيقي، أعظم درجات النقاء، واقع خارج العلاقات البشرية لأنها ليست إلا أكاذيب وأشياء مبتذلة مألوفة تفوح برائحة الملفوف. كان يقول لي: «إنني أفضّل الحجارة دائماً. كان يمكن أن أصبح جيولوجياً. إنني لست حتى خائب الأمل في الجنس البشري، بل إنني لا أبالي به فقط. وإذا كان هنالك شيء واحد مؤكد، فهو أن هذا العالم ليس كافياً بالتأكيد... إذا لم يكن هنالك غيره فلا مشكلة عندي في أن يستعيدوه... لست حريصاً عليه».

أراد كايو أن يعرف موضوع ميمي رغم أنها تصدّه دائماً.

«ما الأمر، هل تمرّ بوقت عصيب؟ لقد كان حظها سيئاً».

«نعم، الوضع سيئ».

«لكن لا! ليس الأمر كله مسألة حظ» هكذا قال... كان من الأشياء التي لا يستطيع احتمالها أن يوافق المرء على ما يقوله... «تستطيع ملاحظة أن الناس يتعرضون للنوع نفسه من المشكلات، مرة بعد مرة». كان في موقفه من ميمي شيء يشبه موقف الطبيب: إنها تعاني مشكلة نسائية، وما كان أي منهما قادراً على إظهار اعتبار كبير لهذا الأمر. لكن كايو كان رجلاً أكثر ذكاء من الطبيب بكثير. كان واقفاً في غرفتي على قدمَيْه المسطحتين بفعل وزنه، مرتدياً قميصه الداخلي وقد ظهرت كتلتان من الشعر على كتفيه وبوجهه الضخم

الذي يجعل أياً كان يحاول عدم مخالفته... كان تجسيداً صلباً للتعالي، لكن فيه أيضاً شيئاً من الجهد المبذول من أجل الإنصاف... لديه قناة لا تزال مفتوحة.

«نعم... إنك تفهم هذا. إن لدى كل امرئ مرارة في الشيء الذي اختاره. مرارة في اختياره. هذا ما سعى إليه المسيح الذي آثر اختيار نهاية مريرة صالحة لأن تجعله رباً للبشر. وهي تفعل هذا أيضاً». تنهّد نافد الصبر... «هكذا كان المسيح! أما الأرباب الأخرى التي اعتمدت على النجاح الساحق فإنها تهزمك بعظمتها. إنها أرباب لا تلقي إليك بالاً. أنت ترى النجاح الحقيقي شيئاً مخيفاً. لا تستطيع مواجهته. من الأفضل تدمير كل شيء قبل ذلك. لا بد من تغيير كل شيء. لا تستطيع العثور على رغبة صافية إلا الرغبة في اختلاط كل شيء. نحن نهرب مما يمكن أن نعتبره صافياً نقياً. ويعيش كل امرئ هذه الخيبة بطريقته الخاصة كما لو أنه يريد البرهنة على أن ما هو غير نقي سوف يفوز، وعلى أنه يجب أن يفوز».

كنت متأثراً به، بالفعل، متأثراً بعينيه الحصانيتين الكبيرتين المعذَّبتين بالحكمة، أو بظل الحكمة، كما يمكن أن يجفل حصان ويخاف من شيء تافه مثلما يجفل أمام شيء خطير. أحسست بما كان يقوله. كنت أعرف أن فيه شيئاً من الحقيقة، وكنت أحترمه باعتباره مصدراً للتنوير؛ رغم أنه هو نفسه كان في ألوان قاتمة. شيء من الوسخ، وزرقة واخضرار في العينين، لكن فيه شيء من الإشعاع أيضاً. كان يقف هناك واضعاً يديه على ردفيه السمينين وينظر إليّ بوجه فيه شيء من الجمال الأصلي الذي ينكره المرء ويعتبره إشارة كاذبة. أستطيع القول إنه كان يبالغ في ما يتعلق في حقيقة أن الاستسلام قَدَر للجميع، ومعها ذلك الإنذار القائل إن الإفراط في الأمل مرض قاتل. نعم، الأمل الوبائي الذي يعبر من تحت الشرور ويتركها واقفة في مكانها. كانت جرعة هذا الأمل التي تناولتها كبيرة إلى حد صار يمنعني من إدراكها. وهكذا كنت منجذباً إلى نظرة كايو، وكنت مقاوماً لها أيضاً. ليست لهذا المسرح البشري سماء ملوَّنة في نظره، لكن هنالك دائماً شيئاً في الخارج، شيئاً في السماء الحقيقية الماسية، السماء ذات الضباب الواضح الزاحف صوب النجوم، ضباب السابح في الدماغ وفي نقيّ العظم كأنه نسخة من المجرة، كأنه نسخة من درب التبّانة.

لكنني كنت أحمل تلك الفكرة أيضاً، فكرة أنه لا يجوز أن تتخذ موقفاً كبيراً يجعل الحياة البشرية أمراً مستحيلاً، وألا تحاول أن تجمع معاً أشياء لا يمكن التوفيق بينها، أشياء تدمّرك؛ عليك أن تجرب أولاً الأشياء البشرية التي تستطيع العيش معها. وإذا كان أسمى الأشياء يمكن أن يأتيك في حانة زائدة التدفئة بما فيها من ذباب وضجيج الراديو وزجاجات البيرة، فما الذي يمكنك فعله غير أن تقبل هذا المزيج كله وتقول إن البعد عن الكمال شرط

مفروض دائماً؛ وكذلك البعد عن الجمال العظيم أيضاً... إذا كانت عيناي مخدوشتين فسوف أرى العالم مخدوشاً كله، دائماً. وعند ذلك يمكن أن تظهر لي آلهة في أي مكان.

قلت لكايو: «إذا أردت البحث عن الأسباب، فقد تكون هنالك أسباب كامنة خلف هذه الأشياء المختلطة أيضاً».

أجابني: «غير صحيح! أنت لن تحاول العيش على شاشة فيلم سينمائي. عندما تفهم هذا فسوف تكون في سبيلك إلى تحقيق شيئاً ما. قد تكون في سبيلك إلى تحقيق شيء إذا لم أكن مخطئاً فيما يتعلق بشخصيتك. لا يخيفك أن تؤمن بشيء ما. أما ما لا أفهمه فهو السبب الذي يحملك على أن تجعل من نفسك شخصاً جميلاً متأنقاً. تعرف أن هذا لا يمكن أن يدوم».

سمعت ميمي أننا نتحدث فنادتني. وعدت إليها.

قالت لي: «ماذا يريد؟».

«كايو؟».

«نعم، كايو».

«كنا نتحدث فحسب».

«كنتما تتحدثان عني. سأقتلك إذا أخبرته شيئاً. إنه يبحث دائماً عن برهان على صحة آرائه؛ وسوف يكون مسروراً بأن يدوس على صدري بقدمه الضخمة إذا استطاع ذلك».

«أنت نفسك لا تحفظين أسرارك»، لكنني قلت هذه الكلمات محاولاً ألا أقسو عليها. ما كان الوقت مناسباً للرد عليها بأي طريقة. راحت تقذفني بنظرات قاسية من سريرها المعدني المزيَّن بشرائط حديد متعرجة كثيرة.

«أقول ما أقوله، لكنني أستطيع أن أطلب منك عدم قوله».

«هوّني عليك يا ميمي، لن أفعل ذلك، ولن أقول شيئاً».

لكن، كان عليَّ أن أطلب من كايو الاهتمام بها في اليوم التالي لأنني لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث معي وماذا يمكن أن يشغلني في المكتب أو في دعوة العشاء في نادي عائلة ماغنوس الذي ينعقد مرة كل شهر في صالة في المدينة. حاولت الاتصال هاتفياً لكنني لم أستطع الكلام مع أحد غير أوينز نفسه الذي يتحدث بلهجة ويلزية لا أستطيع فهمها عندما يغيظه شيء، وقد كان مغتاظاً من ميمي. وهكذا رأيت أن الاستمرار في محاولة الاتصال ليست إلا هدراً للنقود. أرادت لوسي الذهاب إلى الرقص بعد العشاء. لكنني تملصت من

ذلك وادّعيت أنني مرهق. كنت مرهقاً بالفعل، ولم أكن محتاجاً لأن أتظاهر بذلك. تركتهم وعدت إلى البيت. كانت ميمي هناك، ولديها أنباء سارة. رأيتها مرتدية فستاناً أبيض وأسود وقد وضعت شريطة سوداء في شعرها. وجالسة في غرفتي.

قالت لي: «لقد استخدمت عقلي اليوم. بدأت بأن قلت لنفسي: هل هنالك طريقة ما لفعل هذا الأمر بشكل قانوني؟ نعم، هنالك بعض الطرق. واحدة منها هي أن أذهب إلى طبيب الأمراض النفسية وأحصل منه على ما يثبت أنني مجنونة. لا يريدون أن تنجب المجنونات أطفالاً. لقد أفلتّ من الإدانة بهذه الطريقة ذات يوم، وذلك موجود في السجل القضائي. لكنني لست راغبة في فعل هذا. إذ يمكن أن يزيد الأمر على حده كثيراً. وهكذا قررت أن أستغني عن هذه الطريقة الحمقاء. أما الشيء الآخر فهو أنهم يمكن أن يقرروا إجراء عملية إجهاض إذا كان قلبك ضعيفاً أو إذا كانت حياة معرَّضة للخطر. وهكذا ذهبت للعيادة اليوم وقلت لهم إنني أظن نفسي حبلى لكن ليس بشكل طبيعي، قلت لهم إن لدي مشكلات دائماً. كان هنالك شخص فحصني وصار مقتنعاً تماماً بأن لديَّ حملاً بوقياً وهذا ما يعني أنني يجب أن أخضع لفحص جديد. إذا ظلوا على هذا الرأي فمن الممكن أن يجروا عملية إجهاض».

كان ذلك سبب سرورها الكبير. لقد اطمأنت إلى هذه الطريقة ووضعت أملها فيها منذ الآن. قلت لها: «ماذا فعلت؟ هل بحثت في أحد الكتب لتعرفي شيئاً عن الحمل البوقي ثم ذهبت إليهم لتصفي الأعراض مثلما جاء في الكتاب؟».

«ما هذه الفكرة يا عزيزي؟ هل تحسبني ذكية إلى هذا الحد؟ وهل تظن أنك تستطيع الذهاب إليهم وإخبارهم بأشياء أتيت بها من الكتب، هل يمكنك أن تخدعهم بهذا؟».

«من الممكن خداعهم ببعض الأشياء في العيادة. أستطيع أن أؤكد لك هذا. لكن انتبهي إلى ما تقومين به يا ميمي. حاولي ألا تبالغي في التمثيل هناك».

«لم تكن الفكرة فكرتي أصلاً! هذا ما ظنوه بأنفسهم. ثم إن لدي بعضاً من تلك الأعراض أيضاً. لكنني لن أتراجع، وسوف أذهب إلى ذلك البيطري».

لم أستطع الاهتمام بها كثيراً خلال الأيام التي أعقبت ذلك لأنها كانت مزدحمة كلها باللقاء ودعوات العشاء. وعندما كنت آتي لرؤيتها في وقت متأخر من الليل أو عند السادسة والنصف صباحاً قبل خروجي، كنت أجدها نائمة أو نعسة إلى حد يجعلها غير قادرة على الكلام معي. وعندما أدخل لإيقاظها، كان يبدو عليها أنها تعرف فوراً اليد التي تهز كتفها وتعرف السؤال الذي سأطرحه عليها فتجيبني نصف نائمة: «لا، لا شيء، لا جديد».

كان الشتاء في أوجه أواخر كانون الأول، كان شتاء مظلماً كله دخان. وكنت أهبط

الدرجات في تلك الصباحات الضبابية، متأخراً أكثر الأحيان، وأمضي صوب خط الحافلات ألاحق ذيول الليل المتسربة من سماء منخفضة. وفي التاسعة صباحاً، بعد انتهاء زحمة العمل الصباحية الأولى، تسنح لي فرصة تناول الإفطار في مطعم ماريز التعيس ذي الجدران المكسوّة بلوحات تزيين قصديرية حيث تنتشر على امتداد الجدار كراسٍ بمسند واحد والضوء شحيح بسبب المصابيح المرتفعة كثيراً.

كنت في استراحة في مطعم ماريز بعد ظهر يوم من أيام السبت. الراديو يبث أوبرا، مباشرة من نيويورك، لكن تلك الألحان البليغة ما كانت تصلني... كانت تمر عبر أذني فحسب. ها هي خدمة كانت مدفوعة الأجر في السابق؛ شيء يشبه دوقاً في سجن أوروبي يطلب رساماً حتى يزين مصاريع النافذة القاتمة بوجوه ذهبية ورسوم دينية صغيرة. كان هذا نوعاً من مساعدة مقدَّمة إلى الناس الذين يعانون، مساعدة صارت توزَّع مجاناً كأنها مطبوعة في الصحف أو منثورة في الهواء. لكنني لم أكن أسمعها جيداً، لم أكن أسمع منها إلا أصواتاً قوية رسمية.

جاءني عامل أرسله هابي كيلرمان وقال لي إن هنالك سيدة تريدني وتنتظرني على الهاتف.

كانت تلك المرأة ممرضة من مستشفى ساوث سايد، وكانت تتصل حتى تنقل رسالة لي من ميمي.

«مستشفى! ما الأمر؟ منذ متى هي عندكم؟».

قالت المرأة: «منذ الأمس، وهي في أحسن حال. لكنها تقول إنها تريد رؤيتك». أخبرت سايمون الذي أصغى إليّ متشككاً ساخراً لائماً قاسياً مستعداً لأن يرفض التفسير الذي قدمته... قلت له إن مضطرّ أن أخرج باكراً حتى أرى صديقاً في المستشفى.

«أي صديق؟ أهي فتاتك تلك، الشقراء الفظة؟ أنت تحمّل نفسك أكثر من استطاعتها يا صاحبي. كيف تخالط هذه الفتاة؟ أظن أنك مندفع زيادة عن اللزوم، أليس كذلك؟ تحاول الاستمرار مع امرأتين! هذا ما جعلك تبدو في حالة مزرية في الآونة الأخيرة. لو أن واحدة منهما تكف عن إرهاقك لكنت قادراً على المضيّ أكثر مع الأخرى. أو لعل الأمر أكثر من مشكلة الإرهاق! آه، نعم، هذا يناسبك أكثر... أن تقع في الحب. لا تستطيع حبس ما في صدرك من حب، أليس كذلك؟ لا تستطيع الذهاب إلى الفراش مع فتاة من غير أن تشعر بأن عليك أن تهتم بها وترعاها طيلة حياتك».

«لست مضطراً إلى قول هذا كله يا سايمون. لا علاقة لما تقوله بالأمر. ميمي مريضة وتريدني أن أذهب لزيارتها».

قال هابي: «لا أرى ضرورة لاستعجال الزواج طالما يحصل الصبي على حاجته من الجنس».

علّق سايمون: «إذا وصلت هذه الأخبار إليهم...»، قال هذه الكلمات من غير أن يسمعها هابي. وعلى نحو غريب، صارت نظرته محمَّلة بشيء يشبه الرضا والسرور أكثر من أي شيء آخر. رأيت أنه قرر كيف يتعامل مع نتائج هذا الأمر: سوف ينكرني ويتبرّأ مني، ولن يصيبه ذلك بأي ضرر. أما فيما يتعلق بأفكاره، ليلة الزفاف، وما يمكن أن نحققه معاً، فقد غيّرها كلها من غير شك وقرر أن ذلك كله يجب أن يكون عمل عقل واحد وأن يكون صادراً عن سلطة واحدة. لكنني لم أكن كثير التفكير في هذا كله؛ كنت أفكر في ميمي الراقدة في المستشفى. كنت واثقاً من أنها مضت في تنفيذ خطتها الرامية إلى خداع الأطباء.

رأيتها في المساء. رأيتها في ذلك المستشفى. كنت واقفاً بالباب، وكانت تطقطق أصابعها في البعيد وتحاول الجلوس في سريرها.

«هل أجروا لك العملية؟».

«أوه، بالطبع! ألم تكن تعرف أنني سأفعل هذا؟».

«لا بأس! لقد انتهى الأمر على الأقل!».

«أوجي، لقد أجروا لي عملية من أجل لا شيء. كل شيء طبيعي. لا يزال عليَّ أن أتخلص منه».

لم أفهم في البداية. أحسست بأنني غبيٌّ بطيء الفهم.

قالت بسخرية شيطانية ومرارة واضحة: «أوجي! جاؤوا كلهم لتهنئتي على أنني سوف أحظى بمولود طبيعي. ليس حملاً بوقياً. يظن الأطباء، والأطباء المتدربون، والممرضات، أنني يجب أن أكون مجنونة من الفرحة... وأنا لا أستطيع حتى أن أزعق بهم. إنني أبكي. إنني غاضبة كثيراً».

«لكن، لماذا أجريت هذه العملية؟ ألم تكوني عارفة؟ ألم تخترعي تلك الأعراض؟».

«لا، لم أكن متأكدة، لم أخترع شيئاً. كان لدي بعض الأعراض. لعلها كانت بسبب الحقنة. أصابني الخوف عندما ظنوا أن الحمل يمكن أن يكون بوقياً. خفت من عدم إجراء العملية. وعندما وضعوني على طاولة العمليات ظننت أنهم سيقومون بهذا الأمر من أجلي ويخلّصونني، لكنهم لم يفعلوا ذلك».

«لم يفعلوا ذلك طبعاً... لا يحق لهم أن يفعلوه. هذه هي المشكلة منذ البداية».

«أدرك هذا. أدرك هذا. ظننت أنني قادرة على اقتحام تلك البوابة. كانت تلك واحدة من خططي العظيمة».

لم تكن تبكي الآن رغم أن خطوطاً قرمزية ظهرت في عينيها... تلك الخطوط التي تسببها ملوحة الدمع؛ كان أنفها محمرّاً أيضاً.

«وكم من الوقت ستمضين في الفراش يا ميمي؟».

«لن أظل في الفراش بقدر ما يظنون. لا أستطيع ذلك».

«لكن عليك ملازمة الفراش».

«أوه، لا! إن الوقت يصبح متأخراً. بعد وقت قصير، لن أكون قادرة على فعل شيء. اتصل بذلك الرجل وحدد لي موعداً في أواخر الأسبوع القادم. سوف أكون قادرة على تحمل عملية أخرى في ذلك الوقت». كان أثر كلامها ثقيلاً على نفسي. لم أستطع تفادي ذلك... أظهرت مدى ذعري من جرأتها على جسدها. قالت لي: «أوه، أنت تظن أن المرأة يجب أن تكون أكثر هشاشة من هذا! أنسى دائماً أنك موشك على الزواج».

«لكن، ألا يجب أن تنتظري إلى أن يسمحوا لك بالخروج من المستشفى على الأقل؟».

«يقولون إنني يجب أن أبقى عشرة أيام؛ ولن يؤدي بقائي في الفراش تلك الفترة كلها إلا إلى إضعافي. ثم إنني لا أستطيع احتمال البقاء في هذا الجناح. الممرضات مسرورات كثيراً بالخبر العظيم. لا أستطيع احتمال هذا. لقد بدأت أصير عصبية. هل لديك نقود؟».

«ليس كثيراً. هل لديك أنتِ؟».

«ليس لدي حتى نصف المبلغ اللازم. ولا أستطيع توفير الكثير. لن يمسني ذلك الطبيب إذا نقص السعر دولاراً واحداً... أعرف هذا. وليس لدى فريزر أي نقود أيضاً. إذا استطعت الدخول إلى غرفته فمن الممكن أن آخذ بعض كتبه وأبيعها. هنالك كتب غالية الثمن».

«لن يعجبه هذا. ثم إنك لا تستطيعين دخول غرفته».

تخلت ميمي عما يشغل بالها حتى تمنحني نظرة من أجلي، نظرة مباشرة. قالت مع ضحكة لم تستمر كثيراً: «أنت واقف في صفي، أليس كذلك؟» لم أجد ضرورة للإجابة عن سؤالها. تابعت تقول: «تقصد أنك قادر على فهم معنى الحب». قبّلتني بإحساس غامر، كان في قبلتها اعتزاز بي وكان الجميع، النساء، المريضات، والزوار، مجتمعون من حولنا.

قلت: «لا بأس، نستطيع أن نجمع المال. كم ينقصكِ حتى تكتمل مئة دولار؟».

«إنني في حاجة إلى خمسين دولاراً على الأقل».

«سوف نحصل عليها».

كانت أسهل طريقة أعرفها للحصول على المال (طريقة سهلة إلى حد يجعلني فخوراً بها) هي سرقة الكتب. ما كنت في حاجة إلى طلب المال من أحد. لست محتاجاً إلى طلب المال من سايمون خاصة.

ذهبت إلى وسط المدينة على الفور. كان الوقت أول المساء؛ وكان كل شيء متلألئاً بالكهرباء، وبالجليد... كانت الأضواء ترتجف في المصانع، وعلى النوافذ كلها تقريباً، وفوق البراري التي بدأت تتجاوز خرابها وبدأ عشبها الشتائي يظهر عبر الثلج ويعلو متجمداً متجمعاً كأنه لحى تضربها الريح. اضطراب البحيرة البارد، اضطرابها الأزرق. ومسير القطارات المستقر على السكة أيضاً، ماضية صوب الظلام.

ذهبت إلى متجر كارسونز في جادة واباش. كان قسم الكتب في الطابق الأرضي دافئاً مزدحماً بمتسوّقين كثُر تحت أجراس عيد الميلاد وتحت أوراق اللبلاب الفضية. كانت القاعدة ألا أمضي وقتاً طويلاً هناك بحيث أجذب الانتباه. كنت أعرف الكتب اللازمة... نسخة نادرة من بلوتينوس، أو طبعة إنكليزية من الإنيادة... يمكن لهذا أن يأتي بمال كثير، أكثر من سعره الرسمي. تناولت الكتب، تصفّحتها قليلاً، ونظرت من حولي، ثم وضعتها تحت ذراعي ومضيت ببساطة صوب الباب المفضي إلى جادة واباش. كان الباب يدور بطيئاً. دخلت في القطاع الذي انفتح أمامي وصرت في منتصف طريق الخروج عندما توقف الباب الدوار واحتجزني قبل سنتيمترات من خروجي إلى الشارع. استدرت لأرى إن كان السبب عطلاً ما، أو إن كان الأسوأ قد حدث، وبدأت أفكر في الشرطة والمحكمة والسجن وصولاً إلى قضاء سنوات طويلة في سجن برادويل. لكني رأيت جيمي كلين خلفي، جيمي الذي لم أره منذ زمن بعيد. كان هو الذي جعلني أعلق في تلك الأسطوانة النحاسية التي يدور الباب داخلها. أشار لي بأنه سوف يطلق سراحي وبأن أنتظره في الشارع.

فهمت من مظهره ومن إشارته أنه يعمل كرجل أمن في ذلك المتجر. ألم يخبرني كليم تامبو بأنه يعمل في متجر كارسونز؟ لن أهرب. سأخرج من هذا الفخ أولاً، ثم أعطيه الكتب في الشارع. قال مستعجلاً: «انتظرني عند إشارة المرور عند الزاوية، سوف أكون هناك فوراً».

رأيت قبعته وظهره المستعجِل عندما جرى داخلاً الباب الدوار. لم يكن سلوكه غاضباً، لكن بدا عليه أنه يتعامل كما يجب مع ما حدث، مع ما توقعه وكان مستعداً له. وعند إشارة المرور، وسط جموع الناس، وقفت متعرقاً في الهواء البارد، ضعيفاً شاكراً زوال الخطر. تذكرت تحذيرات جدتي من جيمي، وتذكرت قولها إنه محتال. لكنه كان الآن يتعامل مع حالة فيها خرق للقانون.

عاد وقال لي: «لا بأس! لقد رميت الكتب وهربت عندما لحقت بك. لم أرَ وجهك، لكني خرجت لأرى إن كنت أستطيع الإمساك بك. هل فهمت هذا؟ اذهب الآن إلى مقهى ثومبسون في شارع مونرو. وسوف آتيك سريعاً».

انطلقت في تلك الوجهة وأنا أجفف وجهي بمنديلي الحريري. وفي المقهى، حملت فنجاني إلى الطاولة. سرعان ما جاء هو أيضاً وجلس معي.

راح يتأملني برهة؛ صارت له غضون عند عينيه، وصار شاحباً، ذكياً، أنيقاً. نعم، كان هنالك سرور بهذا اللقاء، عندي وعنده، رغم غرابة الظرف.

قال أخيراً: «هل أصابك الذعر عند الباب؟».

قلت مبتسماً: «يا إلهي، نعم... ماذا تظن؟».

«لا تزال أحمقَ مثلما كنت دائماً. قد يصدمك قطار فتظن الأمر ظريفاً وتنهض مبتسماً. ما الذي يفرحك هذه الفرحة كلها الآن؟».

«يسعدني أنك من ضبطني، وليس رجل أمن حقيقي».

«إنني رجل أمن حقيقي، لكني لست كذلك معك أنت أيها الغبي. كان واجبي أن ألحق بك. كنت واقفاً مع مدير الصالة، وأتيت أنت فوقفت أمامنا مباشرة، على مسافة مترين فقط. فما الذي أستطيع فعله غير المضي خلفك؟ لكن، لماذا تسرق الكتب؟ ظننت أنهم خلصونا من هذا الأمر في وقت واحد عندما كنا نسرق معاً في فترة عيد الميلاد في ذلك المتجر. كاد أبي يقتلني».

«ثم جعلك أبوك محققاً سرياً!».

«هو؟ خراء! إنني أذهب حيث يضعونني وأفعل ما يقولون لي أن أفعله».

كنت أعرف أن أمه قد توفيت؛ تلك المرأة العرجاء البدينة... استلقت في تابوتها ومضت إلى القبر. لكن، ماذا حدث للآخرين؟

«ما أخبار والدك الآن؟».

«لا يزال على حاله. تزوج ثانية بعد وفاة أمي. اتضح أن لديه غراماً قديماً استمر أربعين عاماً. أليس هذا غريباً؟ كان لديه ثمانية أطفال من أمي، ولدى المرأة أربعة من زوجها. واستمر الحب يأكل قلبيهما، رغم ذلك. صارت أرملة، فذهبا وتزوجا. ما الأمر، هل فاجأك هذا؟».

«ماذا، نعم! أذكر أن والدك كان يجلس في البيت دائماً».

«نعم، كان عليه أن يذهب إلى الحي الغربي بعض الأحيان، وكان يحصل عندما يذهب على بطاقة مجانية تأخذه إلى الشارع السادس عشر. وهكذا ترى أنه كان يستفيد من تلك البطاقة».

«لا تكن قاسياً عليه يا جيمي».

«لست ضده. لو أن الأمر جيد بالنسبة إليه لكنت سعيداً بذلك، لكنه ظل على حاله. ولا يزال على حاله الآن».

«وكيف هي إيليانور؟ سمعت أنها ذهبت إلى المكسيك».

«أوه، أخبارك قديمة! كان هذا منذ وقت بعيد. عادت إيليانور منذ زمن. عليك أن تزورها. لقد كنت الشخص المفضل عندها في تلك الأيام. وما زالت تتحدث عنك. إن لها قلباً كبيراً. ليتها كانت في حال أفضل».

«هل هي مريضة؟».

«كانت مريضة. لكنها تعمل الآن من جديد، تعمل لدى زاروبيك في جادة شيكاغو حيث يصنعون حلوى للأطفال، تلك الحلوى التي تباع في المحلات القريبة من المدارس. إلا أن من الأفضل ألّا تعمل، رغم ذلك. لقد أصابها المرض في المكسيك».

«كنت أظن أنها ذهبت لتتزوج هناك».

«أوه، أنت تذكر هذا!».

«أذكر أنها ذهبت لتتزوج من قريبكم الإسباني».

ابتسم ابتسامة صغيرة: «صحيح. نعم، إنه يدير ورشة لإنتاج الجلود. وقد جعل إيليانور تعمل فيها مدة سنة تقريباً... كان من المفترض أنهما مخطوبان. لكنه كان على علاقة بفتاة أخرى جعلها تعمل في الورشة أيضاً وما كان يفكر في الزواج حقاً. وأخيراً، مرضت إيليانور وعادت. ليس قلبها مكسوراً. كان شيئاً عظيماً أن تسنح لها فرصة رؤية بلد آخر».

«يؤسفني ما جرى معها».

«نعم، لقد كانت تأمل أن تعيش حالة حب. كانت شديدة الرغبة في ذلك».

ظهرت عليه حالة من الازدراء الشديد، ليس تجاه إيليانور، فهو يحبها ويهتم لأمرها كثيراً. كان ذلك موقفاً من أجلها، موقفاً من الحب لأنه الشيء الذي أضعفها وهزمها.

«أرى أنك لا تستطيع التعامل مع هذا الأمر ببساطة».

«إنني لا أفكر فيه أبداً».

«لكنك متزوج... هكذا قال لي كليم».

سرَّته براءتي هذه. «صحيح، كما أن لديَّ طفلاً أيضاً. إنه رائع».

«وماذا عن زوجتك؟».

«أوه، إنها فتاة طيبة. إن حياتها صعبة بعض الشيء. نعيش مع أهلها. نحن مضطرون إلى هذا. وهنالك أيضاً أخت أخرى متزوجة، وصهر. نعم، كيف تظن الأمر؟ معارك من أجل استخدام المرحاض أو رمي القمامة خارج أو الطبخ أو الصراخ على الطفل. هنالك أيضاً أخت أخرى تعمل مومساً، تتجول في الشارع، يمكن أن يصادفها المرء في الظلام عائدة من عملها. الصخب في البيت طيلة الوقت. وأما حصتي منه فليست أكثر من سرير مزدوج. ألا تعرف كيف هي الأحوال الآن؟ كل ما تريده من الحياة يأتيك في صورة شيء واحد... الجنس. وهذا ما يعني صحبة مع فتاة لطيفة، وبعد فترة تجد نفسك في بؤس أكثر من ذي قبل، الفارق الوحيد هو أنه بؤس أكثر استقراراً ودواماً لأنك قد تزوجت وصار عندك طفل أيضاً».

«أهذا ما حدث لك؟».

«لقد عبثت معها، فحبلت، وتزوَّجتها».

إنه درب التعاسة مثلما كانت الصورة التي رسمتها لي السيدة رينلينغ عندما تنبأت بما سيحدث إذا تزوج سايمون من سيسي.

قال جيمي: «تجد نفسك كأنك صاروخ الألعاب النارية الذي يطلقونه في الرابع من تموز. شحنة كافية لتفجيرك. تنطلق عالياً ثم يسقط العود بعد الانفجار. ثم تعيش لتعتني بطفلك وبزوجتك؟».

«هذا ما تفعله أنت؟».

«حسن... ليس كثيراً! لقد تخليت عن ذلك. ولا أظنني مهتماً بها كثيراً. لكن، لماذا نتحدث عني أنا؟ أنت هو الفتى العجيب! ماذا تفعل بحق الجحيم؟ أو ماذا تظن نفسك فاعلاً؟ أصابتني صدمة عندما رأيتك تسرق الكتب. إنها طريقة رائعة لكي نلتقي من جديد. أوجي... لص!».

ما كان يبدو عليه انزعاج كبير؛ بدا مسروراً بالأمر بعض الشيء.

«لست أعمل لصاً طيلة الوقت يا جيمي».

«لكن، حتى إذا كنت تسرق خلال قسم من وقتك فقط، فليس هذا منسجماً مع ما سمعته عنك وعن سايمون. قالوا إنكما ناجحان».

«إنه في أحسن حال... متزوّج ويدير عملاً جيداً».

«هذا ما سمعته من كريندل. سمعت أيضاً أنك ستذهب إلى الجامعة. أهذا ما يجعلك تسرق الكتب؟ نمسك كثير من الطلبة هذه الأيام. لا يعطي كثير منهم انطباعاً حسناً».

شرحت له حاجتي إلى المال، وتركته يفترض أنني حبيب ميمي فقد كان صعباً أن أجعله يفهم موقفي من غير ذلك. ورغم غرابة أن أجده يعمل شرطياً، وغرابة أنه هو من أمسك بي، فقد شعرت بارتياح، شعرت بأنني صرت خفيفاً أمام هذه المفارقة وأمام الكآبة المشحونة بالعواطف التي تولدت عن هذا الموقف. لا بد لي من المضي في محاولة جمع المال وفي متابعة الأشياء الأخرى التي عليّ الاهتمام بها. لكن ما قلته أثار حماسة جيمي... اتسعت عيناه بفعل اهتمامه وبفعل التصميم الذي استولى عليه فوراً.

«كم من الوقت مضى على حملها؟».

«أكثر من شهرين».

«استمع يا أوجي! سوف أساعدك بكل ما أقدر عليه».

فوجئت، وقلت له: «لا يا جيمي! لا أستطيع أن أثقل عليك. أعرف أن وضعك صعب».

«لا تكن غبياً! قارن بين حفنة من الدولارات وبين حياة كاملة من المعاناة اعتبر أنني أفعل هذا من أجلي أنا... لأنني لا أريد أن أرى ذلك يحدث من جديد مع شخص كان صديقاً لي. ما المبلغ الذي تحتاجه؟».

«قرابة خمسين دولاراً».

«أمر سهل! لن تكون هنالك مشكلة أبداً إذا تقاسمت المبلغ مع إيليانور. إن لديها بعض المال الذي وضعته جانباً. لن أقول لها السبب. ولن تسألني عن السبب. ولماذا يجب أن تعرف أصلاً؟ وليس عليك أن تخبرني عما جعلك تمتنع عن طلب المال من أخيك. لم تكن لتسرق لو كان مستعداً لإعطائك ذلك المال».

«لن أطلب منه مالاً. هنالك سبب خاص يجعلني غير قادر على طلب المال منه. لا بأس يا جيمي... شكراً لك. هذا أمر رائع منك. أشكرك يا جيمي!» جعله امتناني الكبير يضحك. «لا تبالغ! سأراك هناك يوم الاثنين، في هذا الوقت نفسه، وسأعطيك خمسين دولاراً».

لم تكن عند جيمي أي ثقة في أنه يستطيع أن يعيش طويلاً مع الدوافع الطيبة؛ كانت هذه

الدوافع تخجله. فهمت جيداً أنه أراد أن يلحق هزيمة بتلك الآلية التي تنتج التعاسة... بقدر ما أراد أيضاً أن يساعد صديقاً قديماً.

وهذا ما كان بالفعل! أعطاني المال، ورتبت موعداً مع الطبيب في نهاية أسبوع عيد الميلاد. كان ترتيب الأمر صعباً. عندي موعد مع لوسي في الليلة نفسها، ولم أكن قادراً على إخلاف ذلك الموعد من غير أن يعرف سايمون بالأمر. لأنني كنت في حاجة إلى السيارة. وهكذا تركت ميمي عند الطبيب ونزلت متوتراً إلى مطعم مجاور لأتصل من هناك مع لوسي.

قلت لها: «حبيبتي، أنا مضطرّ أن أصل متأخراً كثيراً هذه الليلة. حدث أمر ما. ولن أستطيع الوصول إلى بيتكم قبل الساعة العاشرة».

لكنها ما كانت مهتمة بي كثيراً تلك الليلة. همست في سماعة الهاتف: «عزيزي، لقد اصطدمت بسياج فتشوَّه المصدم الأمامي في السيارة. لم أخبر بابا، إنه في الأسفل. وهكذا، فإنني في وضع حرج الآن».

«أوه، لن يغضب كثيراً».

«لكن، يا أوجي، لقد حصلت على السيارة منذ أقل من شهر. وقال إنه سوف يبيعها إذا لم أعتن بها جيداً. وكان عليَّ أن أعده بأن أي مشكلة لن تحدث خلال ستة أشهر».

«قد نستطيع إصلاحها قبل أن يعرف».

«أتظن أنني أستطيع أن أفعل هذا؟».

«ربما! سوف أعثر على طريقة ما. سأتأخر في الوصول هذه الليلة».

«لا تتأخر كثيراً».

«اسمعي إذن، إذا لم أصل في العاشرة فلا تتوقَّعي قدومي».

«في هذه الحالة قد أفكّر أن أنام قليلاً قبل سهرة رأس السنة. وسوف تصل في وقت مبكر غداً، أليس كذلك؟ لا تنس أيضاً أن الدعوة ستكون رسمية».

«غداً في الساعة الثامنة، في بدلتي الرسمية، بل ربما هذه الليلة أيضاً. لكني وعدت بتقديم المساعدة إلى صديق لديه مشكلة صغيرة. لا تقلقي بشأن السيارة».

«لكنني قلقة! أنت لا تعرف بابا».

غادرت حجرة الهاتف وأنا أشعر بالفراغ. أحسست بتيبّس أيضاً. استولت عليَّ مخاوفي وأشياء كثيرة لا أعرفها.

كان محل الموسيقى تحت عيادة الطبيب مغلقاً. وفي الواجهة الزجاجية المغبشة رأيت الساكسفونات مجعّدة والجيتارات منكمشة. ورأيت ما يشبه شقوقاً في ذلك الضوء الغريب الساقط على مكان جلوس أسرة العازفين.

وقفت منتظراً في الأعلى، في الممر عند الباب. ثم سمعت صوت الباب. خرجت ميمي وحدها، أوصلها الطبيب إلى الباب فقط ثم أغلقه قبل أن أستطيع رؤيته وقبل أن أستطيع سؤاله عن أي شيء. لا أستطيع سؤاله الآن بعد أن صار عليَّ أن أسند ميمي المترنحة. لم يمض على خروجها من المستشفى إلا يومان وكانت كثرة القرارات التي اتخذتها وحدها، إضافة إلى الألم وفقدان الدم، أمراً كافياً لأن تخور قواها.

كانت شبه غائبة عن الوعي؛ ولأول مرة رأيت وجهها من غير تعبير وكأنه وجه طفل نائم في القطار عائد من نزهة طويلة مرهقاً مع حلول الليل. لكنها، عندما استقر رأسها على كتفي وصار قريباً من رقبتي، مست جلدي بشفتيها. مسّته مسّاً ضعيفاً... كانت ردة فعل حسية. لعلي كنت في تلك اللحظة فريزر بالنسبة إليها، ولعلها كانت تؤكد له، رغم الألم كله ورغم المضاعفات كلها، أنها لم تتراجع عن إيمانها بأن الأمر كله معتمد على رقة الخصوصية بين رجل وامرأة... بين رجل وامرأة يفعلان برغبة وإرادة ما تفعله الكائنات كلها في هذا الكون، في هذا الكون الأخضر، الكون الوحشي، ما تفعله الكائنات انطلاقاً من ضرورة عمياء. وعندما كنا واقفين في رأس السلم، وشفتاها على رقبتي، وأنا ممسك بها من خصرها أقول لها «بهدوء الآن، دعينا ننزل ببطء». جاء رجل صاعداً من الشارع فاعتقد أنني رأيت فيه شيئاً مألوفاً. أدركت ميمي أيضاً أن هنالك شخصاً يقترب فتحركت بضع خطوات. صرنا في الظل، بعيداً عن المصباح الرئيسي في الممر، عندما وصل إلينا الرجل. ورغم الظلام، عرف واحدنا الآخر. إنه كيلي وينتروب. نسيب آل ماغنوس الذي كان يعيش في حيّنا، الشخص نفسه الذي كان يهددني عندما تحدث عن جورجي. ومع الاتساع البطيء لابتسامته عندما رآني، رأيت على شفتيه سروراً أكثر من ابتسامة عادية. رأيت هذا أيضاً في نظرة عينيه التي كانت واضحة أكثر من اتضاح العينين ذاتهما في ذلك الظلام... أدركت أنه أمسك بي. لقد عرف.

«ماذا؟ سيد مارتش! يا لها من مفاجأة! أأنت هنا لرؤية ابن عمي؟».

«من ابن عمك؟».

«الطبيب».

«آه، فهمت».

«ما الذي فهمته؟».

«فهمت أن الطبيب ابن عمك».

لم يكن أمامي أي مهرب. لأن هذا الرجل، وينتروب هذا، ما كان لديه شيء يمنعه من استنتاج ما يريد استنتاجه.

قال لي: «لدي ابن عم آخر أيضاً».

وددت في تلك اللحظة أن أضربه لأنني، على الأرجح لن أراه أبداً بعد أن يشي بي؛ لكني لم أستطع فعل هذا لأنني أسند ميمي. لعل احتدام مشاعري في تلك اللحظة بفعل الغضب هو ما جعلني أظن أنني أشم رائحة دم، لكن النتيجة المخيفة هي الشيء الوحيد ذو الأهمية الآن. قلت له: «ابتعد عن الطريق!» لم أكن مهتماً الآن إلا بأخذ ميمي إلى البيت ووضعها في الفراش.

قالت ميمي لكيلي: «إنه ليس عشيقي! لقد ترك عمله وجاء ليساعدني في الخروج من مشكلة».

أجابها: «هذا معقول أيضاً!».

قالت له: «أوه، يا ابن الحرام القذر!» كانت ضعيفة إلى درجة جعلتها عاجزة عن إظهار غضبها كله بهذه الكلمات.

حملتها مرتجفاً حتى بلغنا السيارة، ثم انطلقت سريعاً.

«إنني آسفة! لقد سبَّبت لك مشكلة. من هو؟».

«مجرد شخص... لا أهمية له أبداً. لا أحد يستمع إليه أصلاً. لا تهتمي بالأمر يا ميمي. هل كان الوضع جيداً معك؟».

قالت: «كان قاسياً... أخذ المال أولاً».

«لكن، هل انتهى الأمر؟».

«انتهى الأمر كله الآن، إن كان هذا ما تقصده بسؤالك».

كان الطريق خالياً من الثلج فمضيت مسرعاً ورحت أجتاز الشوارع المظلمة... كأن ريحاً اقتحمت الكنيسة فأطفأت شموعها.

وصلنا، فحملتها إلى الطابق الرابع. وبينما كانت تندس تحت أغطيتها، نزلت لأجلب كيساً من قطع الجليد من عند السيدة أوينز التي راحت تجادلني.

صرخت بها: «ماذا؟ إننا في منتصف الشتاء».

«اذهب إلى الخارج إذن وأحضر بعض الثلج. إن الجليد الذي عندنا مصنوع في الثلاجة، وقد استهلك بعض الكهرباء».

توقفت عن الصراخ، وأدركت أنني أخفتها وأزعجتها باندفاعي هذا من غير أن أفكر في مقدار ما يبدو على وجهي من اضطراب. حاولت أن أهدأ، وأن أناقشها مستخدماً كل ما لدي من سحر. ما كان عندي قدر كبير من ذلك السحر لأن الشحنة الموجودة في أسلاكي المرتجفة كانت شديدة الانخفاض تلك اللحظة.

قلت لها: «إن الآنسة فيلاريس في ألم شديد لأن الطبيب اقتلع سنها».

«اقتلع سنها! إنكم تتوتَّرون من أجل لا شيء أيها الشباب». أعطتني صحن الجليد فعدت به مسرعاً.

لكن ذلك الجليد لم يفدها كثيراً. كانت تنزف بسرعة، وحاولت أن تخفي الأمر، لكنها اضطرت إلى إخباري عندما أصابتها الدهشة هي نفسها بسبب سرعته. بدأ الدم يغرق الفراش. اقترحتُ أن آخذها إلى المستشفى فوراً، لكنها قالت: «سوف أتحسّن سريعاً. أظن أن الأمر لا بد أن يكون هكذا في البداية».

نزلت من جديد، واتصلت بالطبيب فقال لي أن أراقب حالتها. قال أيضاً إنه سيخبرني بما يجب أن أفعله إذا لم يتراجع النزف. سوف يظل منتظراً. أحسست خوفاً في صوته.

حاولت أن تعارضني عندما نزعت ملاءات سريرها ووضعت ملاءاتي بدلاً منها، لكني قلت لها: «انظري يا ميمي! لا بد من فعل هذا». أغمضت عينيها وتركتني أقوم بذلك التبديل... مال رأسها واستقرت وجنتها على كتفها.

يجري القيام بأشياء كثيرة لتلطيف أسوأ ما يراه الإنسان ولتعليمك شيئاً مختلفاً عن النفور مما تراه. يجري طلاء كل جمجمة بلون جميل من أجل هذه الغاية. لكن، وبما أن قلة صغيرة من الناس تستفيد الآن من هذه الأشياء والدروس، فإن كل امرئ يعتمد على ما عنده.

ألقيت أغطية السرير المدماة في الخزانة، فلاحظت ميمي أنني قذفتها بشدة هناك. قالت لي: «لا ترتعب يا أوجي!».

جلست إلى جانبها محاولاً أن أكون أكثر هدوءاً: «هل كنت مدركة أن الأمر يمكن أن يكون هكذا؟».

قالت: «بل حتى أسوأ من هذا». نظرت إلى عينيها المصفرّتين الجافتين، وإلى فمها الشاحب فعرفت أنها لا تدرك مقدار شدة نزفها. «لكن...».

قلت لها: «لكن ماذا؟».

«لا يمكنك ترك أمر بائس يصادفك فجأة يقرر مسار حياتك».

قلت: «طريقة بطولية لأن يكون المرء مستقلاً». تمتمت بهذه الكلمات، كنت أقولها لنفسي، لكنها سمعتها.

قالت لي: «لا تخدع نفسك! هنالك أهمية لهذا الأمر. إنه مهم بالنسبة لي، الآن». كان وجهها عابساً، ثم انفردت أساريره عندما قالت معترفة: «ربما تكون له أهمية إذا استطعت الصعود من جديد. وإذا كان المرء ميتاً، فلا أهمية للأمر كله».

ما كنت قادراً على الكلام الآن فجلست هادئاً، مراقباً. كان توقعها صحيحاً لأن شدة النزف تراجعت. بدا أنها صارت أحسن حالاً، وصارت عضلاتي أقل خدراً أيضاً. كانت أفكاري مشوَّشة لأنني تخيلت أشياء كثيرة عندما كنت أفكر في أنني موشك على أخذها إلى المستشفى لأن أعرف كم يكون الأمر صعباً في حالات من هذا النوع. تخيلت نفسي أتوسل هناك، وتخيلت الرفض، تخيلت التعالي الرسمي، وتخيلت أنني سوف أنفجر غاضباً.

قالت: «لا بأس! يبدو أنه لم يستطع قتلي».

«هل بدأتِ تشعرين بالتحسن؟».

«أريد شراباً».

«هل أحضر لك شراباً خفيفاً؟ لا أظن أن شرب الويسكي مناسب الليلة».

«بل أقصد الويسكي. وأظن أنك في حاجة إلى بعضٍ منه أيضاً».

ذهبت بسيارة سايمون فأوقفتها في مكانها وعدت بسيارة أجرة حاملاً زجاجة معي. تناولت جرعة كبيرة، وشربت أنا بقية الزجاجة لأنني صرت الآن مطمئناً على ميمي فتذكرت متاعبي الخاصة. وعندما اندسست في سريري عارياً في الظلام داهمتني تلك المتاعب الضاغطة فشربت آخر ما بقي في الزجاجة حتى يخدرني، حتى أنام، لكنني استيقظت في الصباح الباكر، أبكر من موعد نهوضي المعتاد. لن يتركني كيلي وينتروب أفلت الآن، سوف يضرب ضربته. كان إحساسي تجاه هذا الأمر أكثر تحديداً من أن يكون غضباً عاماً أو خوفاً عاماً؛ كان يشبه الغيمة القاتمة المتجمعة المعلقة هناك في الخارج... لم أكن أعرف شيئاً.

ارتديت ملابس العمل. كنت لا أزال تحت تأثير الويسكي لأنني لم أكن معتاداً على الشرب كثيراً. وعندما ذهبت لتناول القهوة في المقهى طلبت منهم إرسال فطور إلى ميمي في غرفتها.

جعلني حذري وانتباهي في حالة مهتزة ذلك الصباح. ظل الطقس الأسود كما هو... سخام مستقر على الثلج. كان يشبه باطن شيء لا بد من بقائه مغلقاً. كان فظيعاً أكثر منه حزيناً، حتى بالنسبة لي، أنا ابن هذا المكان الذي لا أعرف أشياء كثيرة غيره. ومن هذه الظلمة التي تشبه آسيا الوسطى، الظلمة ذات المشاعر الإنسانية المسطحة كأنها في الفضاء، تأتي إلى المستودع، إلى العمل، شاحنات وعربات، ويأتي أشخاص مزعجون ملحاحون يطرحون أسئلة عبر النافذة وهم في ملابسهم المخملية الخضراء أو الحمراء كأنهم من رماة القنابل... ينظرون إلينا تحت المصابيح الكهربائية المضاءة، ينظرون إلينا ونحن نحرر الإيصالات ونضع دولاراتهم في درج النقود. كان ملمس تلك الدولارات سخامياً، وكانت تفوح برائحة خاصة.

ظل سايمون يرميني بنظرات متفحصة طيلة الوقت. فتساءلت إن كان كيلي قد أخبره شيئاً. لكن لا، كان يريد فقط أن يخلق لدي إحساساً بشدته وقسوته، بعينيه الغاضبتين. ثم إنني ما كنت أقوم بالعمل جيداً ذلك اليوم.

لكنه كان يوماً قصيراً لأنه آخر أيام السنة. كانت تدور بيننا زجاجات صغيرة من الجن والويسكي جعلت المكان حيوياً مرحاً وقد تناثرت الزجاجات الفارغة على الأرض. وسايمون أيضاً... تراخت شدته شيئاً فشيئاً. مع طي صفحة هذه السنة، وبعد ما بذله من جهد خلال اثني عشر شهراً، صار يجد نفسه على عتبة بداية جديدة، بداية طيبة. صارت متاعب الصيف شيئاً من الماضي.

قال لي: «أظن أنكما ستكونان في ملابس رسمية هذه الليلة، أنت ولوسي. كيف يمكن أن ترتدي بدلة رسمية إذا كان شعرك مشعثاً إلى هذا الحد؟ اذهب إلى الحلاق. ونل قسطاً من الراحة أيضاً. هل كنت تعبث في مكان ما؟ خذ السيارة واذهب الآن. سوف يأتي العم آرتي ليأخذني. من الذي جعلك متعباً إلى هذا الحد؟ لا أظن أنها لوسي. لا بد أنها تلك الفتاة الأخرى. لا بأس، اذهب... يا إلهي، لا أعرف إن كنت تبدو شديد التعب أو شديد الحماقة!» لا يستطيع سايمون الجزم إلا بأنه الشخص الوحيد السليم من المَسّ العقلي في أسرتنا. وعندما يكون منزعجاً يصبح واثقاً من أنني أحمل ذلك المَسّ.

انطلقت إلى البيت، ولم أضِع وقتاً. اصطدمت في الممر بكايو أوبرمارك خارجاً من المرحاض بمنشفة مبلولة ليضعها على رأس ميمي. بدا عليه قلق شديد. صارت عيناه الكبيرتان أصلاً أكثر اتساعاً؛ وبرزت شفته إلى الخارج قلقة متوترة. كان وجهه داكن اللون لأنه لم يحلق ذقنه، أو لعل ذلك لكثرة ما عليه من أوساخ.

قال: «أظن أنها في حالة سيئة».

«هل تنزف؟».

«لا أدري... لكنها تشتعل».

قلت في نفسي إن حالتها لا بد أن تكون في غاية السوء حتى تقبل مساعدة من كايو. كانت حالتها سيئة فعلاً رغم كثرة كلامها وتظاهرها الكاذب بالصحو. أقول إنه تظاهرٌ كاذب لأنه ما كان متفقاً مع التعبير الظاهر في عينيها. كانت حرارة الغرفة شديدة، وتعوم فيها رائحة ثقيلة. بدا كل ما فيها مريضاً متعباً؛ كانت تفوح برائحة تشبه عفونة المستنقعات، رائحة موشكة على أن تكون خطيرة.

اتصلت بباديلا فجاء من مختبره بأقراص من أجل الحمّى بعد أن استشار بعض خريجي الفيزيولوجيا العاملين هناك. انتظرنا النتائج التي كانت بطيئة. وافقت على لعب الورق معه... حتى لا أفقد عقلي. فاز بجولات اللعبة كلها لأنه صاح دائماً فيما يتعلق بالأرقام. استمر ذلك حتى ما عدت قادراً على الإمساك بالورق. اقترب الليل. عرفت هذا من الساعة لا من ازدياد الظلمة لأن الظلمة في الساعة السادسة من ذلك اليوم مثل الظلمة في الساعة الثالثة. ظلمة غاضبة بطيئة. تراجعت شدة الحمى بعض الشيء. وعند ذلك اتصلت لوسي وطلبت مني أن آتيَ في وقت أبكر من الموعد المتفق عليه. أحسست بوجود مشكلة فقلت لها: «ماذا حدث؟».

أجابتني بصوت أحسسته مخنوقاً: «لا شيء. أرجوك، حاول فقط أن تكون هنا في الثامنة».

تجاوزت الساعة السادسة منذ حين؛ لم أحلق ذقني بعد. حلقتها سريعاً. ثم بدأت أرتدي بدلتي الرسمية. وفي الوقت نفسه كنت أتحدث مع كايو وباديلا.

قال باديلا: «هنالك خطر كبير من أن تكون قد أصيبت بتسمم الدم عند ذلك الطبيب. قد تكون مصابة بحمّى النفاس. إن كان الأمر كذلك فمن الخطير أن تبقى هنا. عليك أن تأخذها إلى المستشفى».

لم أنتظر سماع المزيد. اجتزت الغرفة في قميصي المنشّى وقلت لها: «ميمي، يجب أن نحاول أخذك إلى المستشفى».

«لن يقبلوني في أي مستشفى».

«سنجعلهم يقبلونك».

«اتصل واسألهم، وسوف ترى».

قال باديلا: «لن نتصل! سنذهب فقط».

قالت لي: «ماذا يفعل هنا؟ كم من الأشخاص يجب أن يكون لهم علاقة بالأمر؟».

«باديلا واحد من أصدقائي المقرَّبين. لا تشغلي بالك بهذا الأمر الآن».

«أنت تعرف ما سيحاولون فعله هناك، ألا تعرف هذا؟ سوف يحاولون أن يجعلوني أخبرهم باسم الطبيب. ماذا تظن؟ هل تظن أنني سأبقي فمي مطبقاً؟» كانت هذه طريقتها بالتشدق بأنهم لن يتمكنوا من جعلها تبوح بشيء، حتى عن ذلك الطبيب.

تمتم باديلا: «لماذا تضيّع الوقت في الكلام معها، فلنتحرك!».

ألبستها معطفاً وقبعة، ووضعت رداء بيتياً وفرشاة أسنان ومشطاً في حقيبة صغيرة، ثم حملتها مع باديلا ونزلت إلى السيارة بعد أن لففناها ببطانية.

وعندما فتحت باب السيارة الرمادي، نادى أوينز من المدخل: «انتظر يا مارتش!» خرج بقميصه، كان كتفاه الضخمان منكمشان في البرد، وكانت ركبتاه ترتجفان في ذلك اليوم القاتل، آخر أيام السنة.

«أمر مهم، على الهاتف».

دخلت راكضاً. كان المتصل سايمون.

«أوجي!».

«تكلم بسرعة. ماذا هناك؟ إنني في عجلة من أمري».

قال غاضباً: «أنت الذي يجب أن تتكلم بسرعة. جاءني اتصال من شارلوت... إن كيلي وينتروب ينشر قصة عنك تقول إنك أخذت امرأة لتجري عملية إجهاض».

«وماذا؟ ما المشكلة يا سايمون؟».

«إنها تلك الفتاة، أليس كذلك؟ الفتاة التي في ذلك البيت؟ إذن، فقد أفسدت الأمر، رميت بنفسك في المتاعب. الآن ألقيك بعيداً عني يا أوجي قبل أن تسبب لي ما هو أسوأ من هذا. لا أستطيع أن أحملك بعد الآن. سوف أمرّ بوقت عصيب ريثما أستطيع شرح ما حدث... كيف أشرح لهم أنك كنت تضاجع هذه الفتاة رغم خطبتك من لوسي. سأقول إنك شخص سيىء؛ ولن يكون هذا كذباً لأنك أكثر غباء من أن تستطيع الحياة».

«ألن تسألني قبل ذلك إن كانت قصة كيلي صحيحة؟».

ردّ عليّ بازدراء شديد... لا بد أنني شديد البساطة حتى أظنه غبياً إلى حد يجعله يصدّق ما قد أقوله... قال بصوت يكاد يكون ساخراً: «لا بأس... ماذا؟ هل كنت تقدم مساعدة لشخص آخر هذه المرة؟ هل تقول إنك تعيش إلى جوارها من غير أن تمسّها؟ استمع

جيداً، أنت لم تبلغ العاشرة بعد يا ولد. لقد رأيت تلك العاهرة. ليست امرأة يمكن أن تتركك وشأنك حتى إن أردت أنت ذلك. أنت لم تُرِدْ أن تُتْرَك وشأنك أصلاً. لا تحاول إقناعي بأنك لا تحب الجنس. كلنا هكذا، في أسرتنا. كيف تظن أصلاً أننا أتينا إلى هذا العالم، نحن الثلاثة؟ لقد وجد شخص ما أنه يستطيع أن يأتي ويقرع الجرس كلما أراد. أتظن أنني أبالي إن كنت تضاجع تلك الفتاة؟ لكنك ستصبح مرتبطاً أيضاً إذا تابعت على هذا النحو... سوف تصبح مقيَّداً تماماً. هكذا يجب أن تفكر. لا بد أنك مثل ماما في حقيقة الأمر! لا بأس، ليس الأمر من شأني إن كنت تريد أن تكون كذلك. لكني لن أسمح لك بأن تسبب لي متاعب مع آل ماغنوس».

«ليس هنالك سبب لأن تقع في أي متاعب مع آل ماغنوس. استمع، سوف أخبرك بالأمر كله غداً».

«لا، لن تخبرني غداً، ولن تخبرني بعد غد أيضاً. أنتِ لم تعد معي بعد هذه اللحظة. أحضر السيارة فقط».

«سوف آتي وأخبرك بحقيقة الأمر...».

«ابق بعيداً عني، هذا آخر شيء أطلبه منك، آخر شيء على الإطلاق».

صحت به وقد انهمرت دموعي: «أيها الحيوان! أيها الخراء! ليتني أراك ميتاً!».

جاء باديلا راكضاً يبحث عني وصاح في غرفة الجلوس: «أسرع، كف عن الثرثرة الآن».

سرت زاعقاً وتعثرت بالأثاث في تلك الغرفة، ثم خرجت.

«ما الأمر؟ ولماذا تبكي؟ هل أنت متوتر إلى هذه الدرجة؟».

أجبته عندما تمكنت من الكلام: «لا، كانت تلك مشاجرة على الهاتف».

«فلنذهب الآن. أتريد أن أقودَ السيارة؟».

«لا، أستطيع القيادة».

ذهبنا أولاً إلى المستشفى الذي أجرت فيه ميمي العملية، صارت أكثر صحواً في الهواء البارد وقالت إنها ستدخل وحدها. أوصلناها حتى مدخل الإسعاف وتركناها تدخل. ثم جلسنا في السيارة آملين ألا تخرج من ذلك الباب. لكننا رأيناها عبر زجاج السيارة المغبَّش خارجة بعد لحظات... رأيتها تظهر في الباب فاندفعت صوبها.

«لقد قلت...».

«لماذا لم يقبلوك في المستشفى؟».

«هنالك ذلك الشخص. عندما أخبرته بحالتي قال لي: ليس لدينا مكان هنا لأشخاص مثلك. لماذا لم تنجبي ذلك الطفل؟ عودي إلى بيتك وانتظري القابلة».

قال باديلا: «اللعنة على أمه».

ساعدني باديلا في إعادتها إلى السيارة. «أظن أنني أعرف شخصاً يعمل في مختبر في مستشفى في الحي الشمالي... إذا كان لا يزال يعمل هناك».

قدت السيارة إلى متجر قريب لبيع السجائر. دخل ليجري ذلك الاتصال.

قال عندما عاد: «يمكن أن نحاول. وعلينا القول إنها فعلتها بنفسها. هنالك نساء كثيرات تفعلن ذلك. قال لي اسم الشخص الذي يجب أن أسأل عنه. من المفترض أن يكون شخصاً طبيباً إذا كان موجوداً في المستشفى الآن». أضاف بصوت منخفض: «قد يكون علينا أن نضعها هناك ونذهب سريعاً. إنها على وشك فقدان الوعي. ماذا يمكن أن يفعلوا؟ لا يستطيعون رميها في الشارع».

«لا، لن نرميها هناك».

«لم لا؟ يرونك فيرموها عائدة إليك لأنهم لا يريدون وجودها عندهم. إنهم يتقون المشكلات التي يريدون تقديم المساعدة لها. لكن، دعنا نستعمل عقولنا. سوف أدخل قبلكم وأبحث عن ذلك الطبيب».

لكنا دخلنا كلنا معاً. ما كنت قادراً على الانتظار معها في السيارة. وكنت مصمماً على جعلهم يقبلونها هنا أو على تحطيم كل ما أراه. وهكذا عبرنا الغرف الأولى شبه الفارغة. أمسكت بذراع شخص في معطف رمادي محترم عندما كان يسير صوبنا في الممر. ذعر الرجل وقال لي باديلا: «ماذا تفعل بحق الرب؟ سوف تفسد كل شيء. خذها واجعلها تجلس هناك واجلس أنت معها إلى أن أعرف إن كان الرجل الذي أريده موجوداً».

تعلّقت ميمي بي وأحسست بخرارتها على وجهي. ما عادت قادرة على الجلوس. ظللت ممسكاً بها إلى أن جاؤوا بنقّالة من أجلها.

لم يعد باديلا بعد؛ أما أنا فقد احتجزوني هناك في البداية، كأنني موقوف. كان هنالك شرطي في المستشفى. جاء الشرطي مع الممرض الذي أمسكت بذراعه، ظهر من باب جانبي حاملاً فنجاناً من القهوة. كان في قميصه الرسمي الأزرق، وكانت معه هراوة أيضاً.

قال أحد الأطباء: «ما الحكاية الآن؟».

«لماذا لا تعتنون بها بدلاً من هذه الأسئلة؟».

قال الشرطي: «هل ضربت هذا الرجل؟» ثم خاطبه: «هل أمسك بك؟».

«أمسك بي، لكنه لم يضربني».

انتبه الشرطي الآن إلى أنني في بدلة رسمية أنيقة. لاحظت أنه لم يتخذ هيئة مهدِّدة ولم يقلص عينيه عندما كان يكلمني. كنت في ملابس رجل محترم... فلماذا يغامر؟

«ما مشكلة هذه المرأة؟ ومن أنت... زوجها؟ إنها لا تضع خاتم الزواج. هل أنت قريب لها، أو أنك مجرد صديق؟».

«ميمي؟ هل فقدت الوعي؟».

«لا، لكنها لا تجيب عن الأسئلة. إنها تحرّك عينيها».

عاد باديلا، وكان الطبيب مسرعاً أمامه. قال الطبيب: «أدخلوها هنا وسوف نرى ما بها».

نظر إليّ باديلا نظرة انتصار. تخلصنا من ذلك الحشد المزعج كله الذي يريد خلق مشكلة لنا، ومضينا مع الطبيب. وخلال سيرنا روى له باديلا قصة:

«لقد فعلت ذلك بنفسها. إنها فتاة عاملة ولا تستطيع الإنجاب الآن».

«وكيف فعلت ذلك؟».

«بشيء ما، هكذا أظن. ألا تدرس النساء هذه الأشياء طيلة حياتهن؟».

«لقد رأيت بعض الحالات الغريبة من قبل. لكني سمعت أيضاً قصصاً مختلقة بائسة. لا بأس، لو كانت النساء قادرات على الاستمرار في العيش لما كنا في حاجة إلى أطباء يجرون عمليات الإجهاض».

«كيف ترى حالتها؟».

«لا أستطيع القول قبل أن أفحصها إلا أنها فقدت دماً كثيراً. من هذا الشخص الذي معك؟ يبدو أنه قلق كثير».

«يبدو أنه صديقها».

«ما كان عليه إلا أن يضرب الممرض حتى يمضي ليلة رأس السنة في الحجز مع السكارى. ولماذا هو متأنّق هكذا؟».

«أوه، ماذا عن موعدك الليلة؟» قال باديلا هذه الكلمات مصدوماً وهو يغطي وجهه بيده ذات الأصابع الطويلة. كانت الساعة الكهربائية في الغرفة المنيرة التي دخلناها الآن قد تجاوزت الثامنة.

«لن أذهب قبل أن أفهم وضع ميمي».

«اذهب. سيكون ذلك أفضل. وسوف أظل هنا. ليس لديّ موعد الليلة، وكنت أعتزم البقاء في البيت على أي حال. لا يظن الطبيب أن الوضع شديد السوء. أين موعدك؟».

«إنها حفلة راقصة في إدجووتر».

وقفت منتظراً إلى أن عاد الطبيب.

قال: «لقد فقدت مقداراً كبيراً من الدم، وأظن أن لديها عدوى في البطن بسبب الجراحة. أين أجرت عملية الإجهاض؟».

قلت له: «سوف تجيب على الأسئلة بنفسها إن أرادت ذلك. أما أنا فلا أعرف شيئاً».

«وما الذي تعرفه؟ هل تعرف، مثلاً، من الذي سيدفع الفاتورة؟».

قال باديلا: «المال موجود. ألا ترى ملابسه؟» ثم أضاف وهو يظهر قلقاً كبيراً: «هل أنت ذاهب أم لا؟ إن هذا الفتى خطيب ابنة مليونير؛ وقد تركها تنتظر في ليلة رأس السنة».

قلت للطبيب: «اكتب لي تصريحاً حتى أستطيع العودة الليلة لرؤية ميمي». نظر الطبيب حائراً إلى باديلا فقلت: «بحق الله يا دكتور... لا تؤخرني! أعطني ذلك التصريح. ما المشكلة إن عدت؟ سوف أخبرك بقصتي البائسة كلها عندما أعود، أما الآن فليس لديَّ وقت».

قال له باديلا: «هيا، لن يكلفك الأمر شيئاً».

«إذا كتبت لك تصريحاً فلن يفيدك شيئاً عند باب الدخول. لكنني باقٍ هنا إلى الصباح. اطلبني عندما تأتي! اسمي كاسلمان».

أجبته: «قد أعود بعد وقت قصير». قلت هذا لأنني كنت واثقاً من أن كيلي وينتروب قد وصل إلى العم تشارلي ماغنوس وأخبره بالقصة. لكنني توقعت ألا يكون قد أخبر لوسي بأي شيء، لا هو ولا زوجته، حتى لا يفسدا عليها ليلة رأس السنة... حتى تستطيع الذهاب إلى الرقص. أما بعد ذلك فسوف يلقون بي خارجاً على مؤخرتي. لكن، ما الذي جعلها تطلب مني الوصول قبل ساعة من الموعد؟ لا تبدأ الحفلة الراقصة قبل العاشرة. اتصلت بها من جديد وسألتها: «هل تنتظرينني؟».

«أنتظر طبعاً. أين أنت؟».

«لست في مكان بعيد».

«ماذا تفعل؟».

«كنت مضطراً للتوقف في مكان ما. وسوف أسرع الآن».

«من فضلك!».

رحت أفكر وأنا أقود السيارة في أن كلمتها الأخيرة تلك لم تكن شيئاً يشبه نفاد صبر العاشقين، ليست كلمة ناعمة، ولا قاسية. انعطفت بالسيارة انعطافة أوسع مما يجب فغاصت العجلات في الوحل، ثم تمكنت من الوقوف تحت الرواق المسقوف. وعندما صرت في الداخل انتبهت إلى أنني نسيت تبديل حذائي، فسرت إلى المرآة حتى أتفقد ربطة عنقي. لكني رأيت في تلك المرآة، خلفي، ستارة غرفة الجلوس وبطن العم تشارلي وقدميه المدببتين... رأيته جالساً، منتظراً، وسط الحرير والنحاس والصوف وكل ما يمنح ذلك المكان أبهته. رأيت أيضاً لوسي وأمها وشقيقها سام ينظرون إليّ جميعاً. أحسست أن هنالك آلة ضخمة جاهزة للعمل ضدي. لكني أتيت حتى لا أسبِّب خيبة للوسي، وحتى أفوت عليهم الفرصة... من الممكن أن تصير مشاعري تجاهها دافئة متألقة من جديد. توقعت نظرات مسمومة، لكني كنت منيعاً تجاهها. يمكنني القول، على الأقل، إن لديَّ مشكلات كبيرة تجعل تلك النظرات تبدو قليلة الأهمية؛ وما كنت مستعداً لأن يلصقوا بي جريمة فسق أو ادعاءات كاذبة أو أي شيء يمكن أن يظنّوا أنهم يملكونه ضدي. وهكذا زال عني توتري وقررت أن أتعامل مع لوسي وحدها من غير أن أطمح إلى اصطياد أي حظ طيب مع غيرها لأنني أستطيع المضي مستقلاً عن الإخوة والأقارب والجميع شريطة أن يكون اندفاعها صادقاً وأن تكون عاشقة حقاً مثلما تقول عن نفسها دائماً. هكذا كان الأمر لأنني رأيت أنهم تكلموا معها، لكني لم أعرف مقدار ما قيل لها. منحتني ابتسامة كبيرة لكنها ظلت جالسة بدلاً من أن تأتي لتقبلني. كانت ابتسامة غريبة... ابتسامة كلها سحر وأحمر شفاه، ابتسامة واسعة. أوه، هذا الوجه العزيز! رأيت أنها ليست شديدة الإخلاص لي في هذه اللحظة، ورأيت أنها مضطرة إلى أن تكون ابنة والديها. رأيت أيضاً أن هنالك قرارات قد اتُّخذت. كان لديّ دافع يقول لي أن أنصرف. لكن أي كلمة لم تُقل بعد في هذا الاجتماع الشرقي، وما كان عندي ذريعة للذهاب. لا أزال رفيقها في الحفلة، ولا أزال متأنقاً... إذا لم يتفحّصني المرء تفحصاً دقيقاً. كنت كأنني واحد من صبيان الكورس في قميص منشّى... صبي لا يفكر إلا في المغازلة والرقص.

قالت السيدة ماغنوس: «لماذا لا تجلس؟».

«ظننت أننا سننطلق على الفور».

قال الأب: «لوسي!».

عند هذه الإشارة قالت لوسي: «لست ذاهبة معك يا أوجي».

قال أبوها: «الآن أم دائماً؟».

«لن أذهب معك بعد الآن».

«سوف تذهبين للرقص مع سام».

«لكني أتيت لآخذها إلى الرقص يا سيد ماغنوس».

قال السيد ماغنوس: «لا! عندما يقرر المرء إنهاء هذه الأشياء، فمن الأفضل أن ينهيها دفعة واحدة. إنني آسف يا أوجي. ومن الناحية الشخصية، لست أتمنى لك حظاً سيئاً أبداً. لكني أنصحك بأن تضبط نفسك. لم يفتْ الوقت بعد. أنت شاب ذكي وسيم. وليس لديَّ شيء ضد أسرتك؛ فأنا أحترم شقيقك. لكنك لست الشخص الذي نراه مناسباً للوسي».

قلت وقد ارتفع صوتي قليلاً بفعل الغضب: «وما رأي لوسي؟».

كان العجوز نافد الصبر إزاء محاولة زوجته المحافظة على الحكمة والمهابة الملكية. قال: «لن تحصل على مال إذا تزوَّجتك!».

«لا بأس، هل هذا أمر هام عندك أو عندي يا لوسي؟».

اتسعت ابتسامتها وزال منها كل شيء عدا ذلك الإيحاء بأنها هي التي أضرمت ناري، لكني أفرغت شحنة العاطفة تلك كلها في اتجاه شخص آخر غيرها. إلا أن ذلك ما كان مهماً في حقيقة الأمر لأنها ليست طفلة أبيها الصغيرة إلى ذلك الحد، رغم أنها فتاة. فهمت أن كل تلك الحرارة الملتهبة في السيارة وفي مدخل البيت وفي شفتيها ولسانها وأطراف أصابعها لا يمكن أن تجعلها تفقد عقلها وتتخلى عن حكمتها.

لم أكن واثقاً من طبيعة الاتفاق الذي جرى بينهم. لقد قيل شيء ما عن الأضرار التي أصابت سيارتها. لقد اعترفت بالأمر أخيراً؛ وقال أبوها إن ذلك يمكن إصلاحه طبعاً... طالما أن الضرر لم يُصِب شيئاً آخر (كانت هذه طريقته في الإشارة إلى غشاء البكارة). لكن هذا كان يستحق ضحكة منه لأن ابنته ظلت سليمة.

ما عاد هنالك شيء يقتضي بقائي هدَّدَني شقيقها سام عندما وجدته إلى جانبي في الردهة حيث التقطت معطفي، وقال إنه سيكسر ظهري إذا أزعجت أخته؛ لكن تهديده كان من غير أثر إطلاقاً رغم ضخامته وشعره الغزير ووقفته المتأهبة.

أدرت محرك السيارة التي أحسست بوجوب إنهاء التزامي تجاهها أيضاً وقدتها إلى المستشفى. كانوا قد أخذوا دماً من باديلا من أجل ميمي. وجدته مستلقياً في الغرفة حيث تركته، كان يمتص برتقالة. رأيت لصاقة طبية على ذراعه الهزيلة بعضلتها الكروية العجيبة. كانت عيناه لا مباليتين، كانتا سوداوين شطتين ناظرتين إلى شيء لم أستطع رؤيته.

«كيف حال ميمي؟».

«أخذوها إلى الأعلى. لا تزال غائبة عن الوعي، لكن الطبيب كاسلمان يقول إن لديها

فرصة طيبة في الشفاء».

«سوف أصعد لأراها. كيف وضعك أنت؟».

«لا أظن أنني سأبقى هنا طويلاً. سأعود إلى البيت بعد قليل. هل أنت باقٍ؟».

أعطيته أجرة سيارة تاكسي لأنني ما كنت أريد أن يذهب تلك المسافة الطويلة كلها بالحافلة في زحمة ليلة العيد.

«شكراً يا صديقي».

وضع المال في جيب قميصه ثم سألني فجأة وقد بدت عليه الدهشة: «كيف؟ ما الذي جعلك تعود سريعاً من الحفلة الراقصة؟».

لم أتوقف لأجيبه. خرجت من الغرفة.

كانت ميمي في أحد أجنحة الولادة. قال كاسلمان أنه لم يجد مكاناً آخر يضعها فيه؛ أما أنا فرأيت أنه مكان مناسب لحالتها. وهكذا، صعدت إليها. كانت غرفة كبيرة طويلة وضعوا على طاولة في وسطها شجرة عيد ميلاد صغيرة عليها مصابيح صغيرة ملونة وتحتها صندوق نثروا فيه القطن وألعاباً صغيرة للمولودين حديثاً.

قال لي كاسلمان: «تستطيع البقاء، لكن لا تدعهم ينتبهون إلى وجودك وإلا فسوف يلقون بك خارجاً. أظن أن حالتها ستتحسن رغم أنها فعلت كل ما هو ممكن لتقتل نفسها عدا تناول السم وقطع شرايين معصميها».

جلست عند سريرها. كان المكان شبه مظلم. وكانت الممرضات تدخلن الغرفة من حين لآخر حاملات أطفالاً إلى أمهاتهن من أجل الرضاعة. كانت أصوات الغرفة همسات وصرخات مخنوقة وأصوات تقلب في الأسرّة وهدهدة ورضاعة. كنت جالساً هناك مكشوفاً أمام هجوم مشاعر لم تجد ما يحول دون المجيء والاستيلاء عليّ... كنت هناك، في الظلمة، إلى جانب السرير، محروقاً، مغدوراً، غاضباً، أشعر بالمرارة. تراجعت هذه المشاعر شيئاً بعد شيء، وانتبهت إلى مشاعر أخرى أوحت إليّ بأشياء كبيرة، انتبهت إلى هذا المكان الذي جلست فيه منبوذاً. عاد تنفسي إلى طبيعته، وصرت أكثر هدوءاً. وعندما انفجر ضجيج منتصف الليل، الصفارات وأبواق السيارات، والمزامير، والبهجة، كان الصوت الواصل إلى هذه الغرفة خافتاً لأن النوافذ مغلقة كلها. استمرت أصوات الغرفة نفسها كما كانت.

وعند الواحدة تقريباً صارت ميمي صاحية بالقدر الكافي لتنتبه إلى حركتي بجانبها. همست لي: «ماذا تفعل هنا؟».

«ليس هنالك مكان ذو أهمية خاصة أذهب إليه». عرفت ميمي أين كانت لأنها سمعت صراخ الأطفال. كانت كلماتها كئيبة... تساءلت عما إذا كانت قد أفلتت من مصير سيء أو مضت إلى ذلك المصير بنفسها. لعل ذلك أمر طبيعي لأنها ضعيفة، ولأنها لا تشعر الآن بالقوة إلا تجاه ما اختارت فعله. كانت صادقة مع مشاعرها في هذه اللحظات التي تسمع فيها بكاء الأطفال وأصوات رضاعتهم واهتمام أمهاتهم بهم في هذا الليل.

قلت لها: «أظن أنك في أيد أمينة على أية حال».

خرجت لأمشي قليلاً، ونظرت إلى وجوه الأطفال عبر الزجاج، ثم عبرت إلى قسم آخر (لم يعترضني أحد؛ لعل الممرضات مجتمعات في احتفال رأس سنة صغير خاص بهنّ حتى يحظين بقليل من المرح)؛ كان ذلك قسم غرف الولادة... حجرات فيها نساء يصارعن ألماً شديداً، نساء تشوَّهت بطونهن، رأيت وجهاً قوياً متغضناً كله، أصدر ذلك الوجه صوتاً عظيماً صادحاً، كانت صاحبته تشتم زوجها شتائم فاحشة لأن متعته سببت لها هذا الألم كله؛ سمعت نساء غيرها يستنجدن بالقديسين، وبالأمهات، رأيتهن عاجزات عن ضبط أنفسهن، رأيتهن متمسّكات بقضبان أسرّتهن، باكيات، منتحبات، أو مذعورات الوجوه، أو غائمات العيون. أدهشني هذا كله. أجفلتُ عندما هُرعت ممرضة حتى تعرف من أنا وما الذي أفعله هنا. في تلك اللحظة تماماً، سمعت صرخات آتية من باب المصعد القريب. وقفت وانتظرت ذلك الضوء الماضي إلى الأعلى. انفتح الباب فرأيت أمامي امرأة جالسة على كرسي متحرك وفي حضنها طفل ولد منذ قليل في سيارة أو في حافلة أو في مدخل المستشفى؛ رأيته يصرخ فاتحاً فمه وقد كساه الدم كله. طفل أسود، جعله الدم أحمر اللون وجعل أمه مثله. كانت منتحبة خائرة القوى شادة على قبضتيها؛ وكانت عيناها مذعورتَيْن متوحشتين. بدت مع طفلها كأنهما عدوّان مرغمان على أن يكونا معاً، كأنهما شخصان في حالة حرب. دفعوا بهما خارج المصعد، ومروا قريبين مني فمسني ذراع المرأة.

قالت لي الممرضة بنظرة غاضبة: «ماذا تفعل هنا؟» ما كان يحق لي التواجد هناك.

عدت إلى الغرفة، وعندما وجدت ميمي راقدة وقد انخفضت حرارتها، خرجت من المستشفى عبر السلم الذي دلني عليه كاسلمان ومضيت إلى السيارة. كان ثلج جديد يعوم عند قدمَيّ فوق طبقة الجليد الرمادية.

لم أعرف أين كنت بالضبط عندما انطلقت بالسيارة. مضيت بطيئاً في الثلج الذي تزايد هطوله، مضيت عبر شوارع جانبية آملاً في الوصول إلى شارع رئيسي أعرفه. وآخر الأمر بلغت جادة دايفرستي في منطقة صناعية مهجورة غير بعيدة عن فرع النهر الشمالي. وهنا، تماماً عندما بدأت فكرة الذهاب إلى النوم تبدو مغرية، انثقبت إحدى عجلات السيارة

الخلفية. هبط الإطار سريعاً فجنحت بالسيارة صوب الرصيف سائراً على الإطار المعدني، ثم أوقفت المحرك. كان قفل صندوق السيارة متجمداً فاضطررت إلى تدفئته بأعواد الثقاب. وعندما أخرجت الأدوات لم أفهم كيفية عمل أداة رفع السيارة. كانت من نوع حديث، وكنت معتاداً على النوع الذي كان لدى إينهورن. حاولت بعض الوقت رغم أن القميص الضيق أزعجني، ورغم البرد الذي جمد قدمَيَّ وأصابعي. ثم أعدت الأدوات إلى مكانها وأقفلت الصندوق ورحت أبحث عن مكان أحصل فيه على بعض الدفء. لكن كل شيء كان مغلقاً من حولي، إلا أنني استعدت صوابي وأدركت أنني لست في مكان بعيد عن بيت آل كوبلين. كنت أعرف أن كوبلين يستيقظ في وقت مبكر جداً فلم أتردد في الذهاب وإيقاظه.

راح كوبلين يرفرف بعينيه مدهوشاً عندما أضاء المصباح الأصفر في مدخل ذلك الكوخ فاكتشف هوية الشخص الذي يقرع بابه.

«تعطلت السيارة في جادة دايفرستي، وقلت في نفسي إنني أستطيع المجيء إليكم لأنك تستيقظ في هذا الوقت للذهاب إلى العمل».

«لا، ليس اليوم. إنها ليلة رأس السنة. لا تعمل المطابع اليوم. لكني لم أكن نائماً. استيقظت قبل قليل على صوت هاورد وفريدل عندما عادا من السهرة. ادخل بحق الرب، ادخل لتنام سوف أعطيك بطانية لتستلقي على الأريكة».

دخلت إلى البيت ممتناً وخلعت القميص الذي يعذبني ثم غطيت قدميّ بوسائد الأريكة.

كان كوبلين في غاية السرور: «ستكون مفاجأة لهم في الصباح عندما يرون ابن العم أوجي! شيء عظيم! سوف تكون آنا في السماء السابعة».

استيقظت باكراً لأن الصباح كان منيراً، وبسبب الأصوات القادمة من المطبخ أيضاً. كانت ابنة العم آنا زرية المظهر كحالها في بقية الأيام؛ وكانت تعد الفطائر والقهوة وتجهز طاولة طعام كبيرة. بدأ شعرها يشيب، وصار وجهها داكناً أكثر من قبل، بطيّاته وشعراته كلها. وكانت عيناها كئيبتين. لكنّ هذه الكآبة كانت تعبيراً عن مشاعرها... لم تكن تشاؤماً عميقاً عندها. بكت واحتضنتني بين ذراعيها وقالت: «سنة سعيدة يا ولدي العزيز. أتمنى لك السعادة كلها، مثلما تستحقها. لقد أحببتك دائماً». قبّلتها وصافحت كوبلين ثم جلسنا لتناول الفطور.

«لمن السيارة التي تعطلت يا أوجي؟».

«سيارة سايمون».

«أخوك الناجح».

«ليست السيارة معطلة. لقد ثُقبت العجلة. لم أستطع تغييرها بسبب البرد الشديد».

«سيساعدك هاورد عندما يستيقظ».

«لا حاجة إلى إزعاجه بالأمر...» فكرت في أنني أستطيع إرسال المفاتيح إلى سايمون بالبريد لأجعله يأتي بنفسه من أجل سيارته اللعينة. لكن هذه الفكرة الحانقة كانت بنت لحظتها. شربت القهوة ونظرت إلى الخارج، نظرت إلى الصباح المتألق في أول يوم من أيام السنة الجديدة. كانت هنالك كنيسة أرثوذكسية في الشارع المجاور بقبّتها البصلية المرتفعة في تلك الزرقة التي صقلها الثلج ونقّاها. رأيت عليها الصليب والتاج معاً، سلطتا السماء والأرض مجتمعتَيْن، ورأيت الثلج في الشقوق كلها، ثلج كأنه غبار السكر. تجاوز نظري الكنيسة أيضاً فلم يستقر إلا في الزرقة العظيمة العميقة. لا تتغير الأيام، رغم تغير الزمن. والبحارة الذين بلغوا أمريكا أولاً، الذين بلغوا هذا المنظر الجميل، حيث قذف بهم بطن المحيط... لم يروا لوناً أجمل من هذا.

«أوجي! من المؤسف جداً أن فريدل لم تستطع أن تأتي من آن هاربور من أجل زفاف أخيك؛ كان لديها امتحانات. أنت لم ترها منذ أن كانت طفلة، وعليك أن تراها. إنها في غاية الجمال. لا أقول هذا لأنها طفلتي... يشهد الله. سوف تراها بنفسك. لكن انظر، هذه صورة من أيام المدرسة. وهذه صورتها في الجريدة عندما كانت تقدم حفل الطلبة الخيري في الجامعة. ليست جميلة فحسب يا أوجي...».

«أعرف أنها جميلة جداً يا آنا».

«وما الذي يجعلك مهتماً بمخالطة أقارب أخيك الجدد، أولئك الأجلاف؟ انظر ما أروعها في هذه الصورة. لقد كانت حبيبتك الصغيرة عندما كنتما طفلين. وكنت تقول لي إنكما مخطوبان».

أوشكت على تصحيح جملتها: «لا، أنت التي كنت تقولين هذا». لكني ضحكت بدلاً من ذلك. وظنّت أنني أضحك لتلك الذكريات السعيدة فضحكت معي ضامة يديها مغمضة عينيها. أدركت بطيئاً أنها تذرف الدموع، مع ضحكها.

«لا أطلب إلا شيئاً واحداً... أريد أن أرى طفلتي سعيدة متزوجة قبل أن أموت».

«مع أطفال».

«مع أطفال أيضاً...».

قال كوبلين: «بحق السماء يا آنا، هاتي بعض الفطائر. لم يبق شيء منها في الصحن».

أسرعت آنا إلى الموقد تاركة الصور مفتوحة أمامي. تركت الألبوم مفتوحاً فرحت أحدق فيه. لكني لم ألبث أن حوّلت عيني عنه وعدت أنظر إلى الطقس في الخارج.

الفصل الثالث عشر

ما عدتُ طفلاً الآن! ولم أصبح كبيراً، ولم أعد في سن الحماية؛ وقد ألقيَ بي في دوامة هذا العالم. إن كنت تظن (يظن البعض هذا) أن حالة مستمرة من الإلفة والحميمية والحب يمكن أن تقود إلى الزيف، فقد يكون إلقائي في خضم هذا العالم أمراً مستحسناً رغم كونه حدثاً حزيناً. ما الذي كان المسيح يعنيه عندما دعا أمه «امرأة»؟ لقد كانت امرأة مثل أي امرأة، بعد كل حساب. عليك في أي حياة حقيقية أن تمضي خارجاً وأن تكون مكشوفاً معرَّضاً لما هو خلف حدود دائرة صغيرة تضم رأسين أو ثلاثة رؤوس متحابة. لكن، حاول أن تبقى ضمن هذه الدائرة؛ وانظر كم تستطيع البقاء!

أذكر أنني كنت في ساحة الأسماك في نابولي (لا يتخلى أهل نابولي بسهولة عن علاقات القربى). إنه سوق الأسماك حيث ترى ضُمامات من بلح البحر في خيوط ملوَّنة مع شرائح من الليمون، وترى الأخطبوط فائح الرائحة ببقعه الغائرة بعد ارتخاء أطرافه، وأسماكاً قوية نازفة، وأسماكاً أخرى لها حراشف غريبة تشبه قطعاً نقدية معدنية. رأيت هناك متسوّلاً عجوزاً مغمض العينين جالساً بين الأصداف. وكان مكتوباً على صدره بالميركيور: استفد من موتي الوشيك لترسل تحياتك إلى من تحبهم في الآخرة: 50 ليرة. سواء كان هذا العجوز الذكي موشكاً على الموت أم لم يكن، فقد كان جالساً هناك يسخر من الجميع، يسخر من دائرة الحب المحيطة بك. كان صدره النحيل يعلو ويهبط متنفساً هواء البحر الثقيل العميق على ذلك الشاطئ الحار وما فيه من رائحة النار والانفجارات. كانت الحرب قد انتقلت شمالاً قبل وقت غير بعيد. وكان أهل نابولي يمرون به مبتسمين متألمين، توّاقين ساخرين، عند قراءتهم هذا التحدي العبقري.

تفعل كل ما تستطيع فعله حتى تؤنسن العالم وتجعله أليفاً؛ وفجأة يصبح أكثر غرابة من

أي وقت مضى. لا يظل الأحياء كما كانوا. ويموت الموتى مرة بعد مرة. ثم يموتون موتاً أخيراً.

أرى هذا الآن. ما كنت أراه آنذاك.

عدت إلى الكتب! عدت إلى قراءة الكتب، لا إلى سرقتها. وكنت أعيش على المال الذي تردّه ميمي، وعلى ما صارت تقرضني إياه بعد أن وقفت على قدميها وعادت إلى عملها. هجرت فريزر، وصارت على علاقة مع آرثر إينهورن. ولا تزال تعمل على الطاولات في المطعم. كنت أتناول وجباتي هناك. لزمتُ غرفتي وأنهيت رف الكتب البالغ طوله خمسة أقدام، الكتب التي أعطاني إياها إينهورن... كتب بقّعها الماء وبقّعتها النار... كنت محتفظاً بها في صندوقها الكرتوني نفسه. كانت لها رائحة ثقيلة بعض الشيء. وعندما يمضي عوليس نازلاً إلى الجحيم أو حين يشبّ حريق في لندن أو روما، أو يضطرم الشبق بين رجال ونساء مثلما يحدث في ساحة سانت بول، كنت أشم الروائح المكمّلة لتلك القراءات. كان كايو أوبرمارك يعيرني مجلدات شعر ويأخذني معه إلى المحاضرات من وقت لآخر. ازداد ذهابه إلى المحاضرات بسبب ذهابي معه. ما كان يحب الذهاب وحيداً.

لا أعرف إن كان سوء طالعي هو ما جعلني غير ميّال إلى الجامعة كثيراً. أقول هذا لأنه كان يجب أن أذهب إلى الجامعة في الربيع بحسب اتفاقي مع سايمون؛ لكنني لم أذهب. لم أقتنع بتلك الرزانة الحجرية وبأنك لا تستطيع بلوغ أغصان الفكر العليا من غيرها ومن غير أن تكون مضطراً إلى الجلوس داخل تلك الجدران التي تحاكي العالم القديم. أحسست أنها جدران وثنية هائلة أكثر مما أستطيع احتماله. ثم إن النسيم صار في تلك الفترة جنوبياً وغربياً آتياً من ناحية المستودعات محمّلاً بغبار مصانع الأسمدة عبر اللبلاب الجميل وعبر تلك الخليقة العمياء إلى عقل متسامٍ ساهٍ عن هذا كله. كان هذا انعطافاً كبيراً حقاً.

في ذلك الشتاء، عملت فترة من خلال إدارة مشاريع العمل (WPA). حثتني ميمي على الذهاب لتسجيل اسمي لديهم. قالت إن الأمر سيكون بسيطاً؛ وقد كان بسيطاً بالتأكيد. كنت أتمتع بالشرطين اللازمين: أن أكون مواطناً، وأن أكون فقيراً.

لكن المشكلة كانت أنني لم أرغب في وضعي ضمن مجموعة من تلك المجموعات التي كنت أراها في الشوارع تلتقط الحجارة وترصفها؛ لم أتحمل عار انعدام الهدف الذي تشم رائحته عندما ترى المجموعة متحركة حركة بطيئة... بالحد الكافي لتلبية المتطلبات الدنيا لتلك الوظيفة. لكن ميمي قالت إنني أستطيع ترك ذلك العمل في أي لحظة إذا أحسست أنه أقل مما أستحق. وكانت ترى أن رغبتي في الحصول على عمل مكتبي ليست علامة طيبة: سأكون في صحة أفضل إذا عملت في الهواء الطلق بين أشخاص أكثر بساطة. لكن شكواي لم تكن من الناس، بل من الطَّرْق على الحجارة ومن ذلك الصخب الكئيب

الناجم عن خمسين مطرقة تعمل معاً. لكني ذهبت لتسجيل اسمي لأن ميمي كانت تحس نوعاً من المسؤولية تجاهي... جعلت نفسها مسؤولة عني، وكانت تعطيني نقوداً؛ وبما أننا لسنا عاشقين، فإن هذا ليس أمراً منصفاً.

لكنهم وضعوني في عمل أحسن مما توقعت. كنت واحداً ممن يقومون بالكشف على البيوت وتفقّد الغرف وأنابيب المياه. وكنت قادراً على ترتيب وقتي مثلما أريد مع القيام بعملي مثلما كان متوقعاً مني. وإذا كان الطقس سيئاً، فإنني أستطيع قضاء الوقت في غرفة خلفية في أحد المقاهي إلى أن ينتهي وقت العمل. كما أن دخول بيوت كثيرة كان أمراً يرضي فضولي. كنت أرى غرفاً يسكنها عشرة أشخاص، أو مراحيض في كهوف تحت الشارع، أو أطفالاً عضّتهم الجرذان. لم أحب ذلك كثيراً. وكانت روائح المستودعات تعلق بي مثلما كانت تعلق روائح الكلاب عندما عملت لدى الفرنسي غيّوم. وحتى بالنسبة لي، أنا الذي اعتاد الأحياء الفقيرة مثلما اعتاد الهنود الأفيال، فقد كانت هذه المناطق أرضاً معروفة. كانت روائح الأجساد المختلفة، بكل درجاتها، من الشهوة حتى المرض، تلحق بي أينما ذهبت. وكان كل ما أستطيع تخيله، كل عاطفة، أو حتى كل قتل تستطيع تصوره، ماثلة أمامي كلها ببساطة ظاهرة، بتلك الخشونة البدائية التي تراها لدى ربّة منزل تتحسس الملفوف في متجر بولندي، أو رجل يرفع كأساً من البيرة إلى وجهه الأبيض الذي يبدو مسطحاً، أو بائع يعلّق سراويل نسائية في واجهة محل للملابس.

بقيتُ في هذا العمل حتى انتهى الشتاء حين خطرت لميمي فكرة (كانت مستعدة لهذه الأشياء دائماً) أن من الممكن أن تجد لي عملاً ضمن نشاطات مؤتمر المنظمات الصناعية (CIO) التي بدأت في ذلك الوقت. كان هذا بعد فترة قصيرة من الإضرابات الأولى في المصانع. وكانت ميمي من الأعضاء الأوائل في نقابة عمال المطاعم التابعة لمؤتمر المنظمات الصناعية. ليس هذا لأن لديها أي شكاوى خاصة تتعلق مكان عملها، بل لأنها كانت مؤمنة بالنقابات، إضافة إلى علاقتها الحسنة بالمسؤول عن تنظيم تلك النقابة... رجل اسمه غراميك. جمعتنا معاً ذات يوم.

لم يكن غراميك شخصاً من النوع الفظ الخشن، بل كانت فيه أشياء تشبه ما لدى فريزر، وما لدى سيلفستر أيضاً. متعلماً لطيف الكلام يشبه مدير مركز اجتماعي يبذل أفضل ما يستطيع. كان وديعاً مع عامة الناس، لكنه معتاد عليهم؛ وكان يجعلك تشعر بنوع من الندم إذا أسأت التصرف معه. له جذع طويل وساقان قصيرتان نسبياً؛ لكنه سريع المشية، واثق الخطوة زري المظهر بسترته الطويلة ذات الصدر المزدوج، وشعره الكثيف وجسده الذي لا تبدو عليه القوة... بل يمكن القول إنه جسد رقيق. إلا أنه ما كان رجلاً سهلاً أمام الخصوم. كان ذكياً، شديد التمسك بمواقفه، يصعب أن يفاجئه أحداً فيفقده توازنه. وكان يعرف بضعة أشياء عن فنون المخادعة.

استطعت أن أظهر أمامه بالمظهر المناسب، فوافق على أن يجعلني واحداً من المنظمين لديهم. كان سلوكه معي شديد اللطف في حقيقة الأمر وفهمت أن حُسن الانطباع الذي أحدثته لم يكن سبباً وحيداً في هذا اللطف. ذلك أنه كان يحاول التودد إلى ميمي.

لكنني صرت أقدّره لأسباب كثيرة. ومع أنه كان شديد التخفي بحيث يأتي ويذهب من غير أن يلاحظه أحد في ردهات الفنادق ومداخل الخدمة، إلا أنه يستطيع أن يتصرف بثقة وسلطة إذا واجهه أمر من الأمور ولا يُصاب بالذعر إذا وجد نفسه في وضع حرج. أعجبني هذا الإدراك المسبق للنقاط السيئة والإيجابية التي تظهر ولم تصبح مرئية بعد.

«نعم، إننا نقوم بتعيين منظِّمين الآن. إنهم يريدون أشخاصاً من ذوي الخبرة، لكن أين يمكن أن يجدوا هؤلاء الناس؟ إن المشكلات تتراكم سريعاً».

«إن أوجي شخص من النوع الذي يجب أن يكون لديكم. وهو قادر على الحديث بلغة العمال».

قال غراميك ناظراً إليّ: «أوه، حقاً! هل يستطيع ذلك؟».

ضحكت عندما سمعت هذه الدعاية عني وقلت إنني لا أعرف أي لغة تلك التي أتكلمها.

ما كان هذا شديد الأهمية لأنني تعلمت سريعاً عندما بدأت العمل. فالناس مندفعون يريدون الانضمام إلى المنظمة. كان ذلك استعجالاً واندفاعاً منتميين إلى الطبيعة، مثلما تندفع النحلات إلى تبديل خلاياها... طبيعة سائرة إلى غاياتها. كانوا أشخاصاً ملوا انغماسهم في حياة تجعلهم مندفعين من إضراب إلى إضراب. لا بد أن ذلك يشبه حالة من الهجرة، من التسابق إلى احتلال الأرض، أو شيئاً يشبه ذلك الاندفاع إلى كلونديك في غمرة حمّى الذهب. الفارق الوحيد هو أن فكرة العدالة كانت مسيطرة في ذلك الوقت. أطلقت الإضرابات الكبرى هذا الإحساس لدى الناس... عمال جالسون عند آلاتهم، يرفضون العمل ويرفضون الذهاب ويقيمون احتفالات، رغم أن احتفالاتهم تلك كانت غاضبة. كان ذلك يحدث في مصانع السيارات والمطاط؛ وهناك رأيت النتائج بعيدة المدى التي بلغت حتى الصيادين في أطراف البلدات المهملة.

بدأت عملي على طاولة في مركز الاتحاد. ما كان ذلك مكاناً زرياً مثلما يمكن أن يتخل المرء بل بناية كبيرة قوية على جادة آشلاند؛ بناية تشبه مباني المصارف. فيها مطعم خاص بها، إضافة إلى صالة ألعاب في القبو (ألعاب فقط، لتسلية الأعضاء، وليست شيئاً يشبه صالة إينهورن). صرت مساعد غراميك في ذلك المكان، وكان علي أن أرد على الهاتف وأن أهتم بالأعمال المكتبية. كان متوقعاً أن مشاغلي لن تكون أكثر من الحد الطبيعي،

وأنني سوف أتعلم تدريجاً كل ما تلزمني معرفته. لكني وجدت نفسي أمام اندفاع مستمر لأشخاص يطالبون بتحرك فوري... يأتيني عامل مطبخ عجوز مقطوع اليد متسخاً بالشحم والزيوت مثلما يكون عامل منجم مغطى بالطين، ويريد مني أن أذهب لرؤية رئيسه، فوراً؛ أو هندي آتٍ بشكواه مكتوبة على شكل قصيدة على كيس ورق مبقع بزيت الفطائر. ما كان في الغرفة كلها مقعد فارغ. إنها غرفة منفصلة عن المكاتب الرئيسية المخصصة لعمال المصانع الكبرى. لكن انزواء تلك الغرفة ما كان ليُحدِث فرقاً. كانوا قادرين على العثور عليّ حتى لو جلست في صندوق فولاذي من غير أي إشارة تدل عليه. صاروا يعرفون كيف يصلون ويجدون مكاني مثلما يفعل صياد يتعقب الطريدة أميالاً في حقول لا معالم لها. كان هنالك عاملات الغرف اليونانيات والزنجيات من مختلف الفنادق، وحمّالون، وبوابون، ومساعدون، ونادلات، وأشخاص اختصاصيون مثل مدير إدارة التصنيف في مطعم فاخر على الشاطئ الذهبي... أماكن ذهبت إليها من قبل في سيارة الكلاب، وهذا ما جعلني أعرف شيئاً ما عنها. يأتيني مختلف أنواع الناس. يأتي بشر يعملون في أقبية تحت المحلات، وفي مستودعات، ورجال يعملون في الإصلاح والصيانة، وآخرون في أعمال موقتة. أو يأتيني فرنسي كأنه دوق في قبعة تشبه تاجاً، كأنه واحد من المغنّين، ويدعو نفسه «طباخ الجمال»... يملأ استمارة الانتساب من غير أن يخلع قفازيه. ويأتي أشخاص بوجوه تشبه وجوه عصافير الثلج أو وجوه الكلاب البيضاء، أشخاص كأنهم آتون من صور في مجلات قديمة، ونساء من شرق أوروبا حاملات معهن رسائل تشرح ما هو مطلوب، وأشخاص معتوهون، ومشوَّهون، وسكيرون، ومترنّحون، وبريئون، وزاحفون... أناس فقدوا صوابهم، وأناس يعرجون، مجذومون، وأشخاص في غاية الجمال. وهكذا، إذا كانت هذه المجموعة المتنوعة من الناس لا علاقة تجمعها بالناس الذين كانوا العمود الفقري لجيوش كسرى أو لجيوش القسطنطينية، فإن هنالك أشياء جديدة قيد التكون؛ لكن ما فاجأني فيهم كان إحساسي بأنهم آتون من زمن بعيد لا تزال قشوره عليهم. لكني أظن أن السعادة والسرور كانا الشيء نفسه دائماً... فكم يمكن أن يكون هنالك من اختلافات بين ضدّيهما؟

لم يكن التعامل مع هؤلاء الناس، وجعلهم يوقّعون طلبات الانتساب، وشرح ما يمكنهم توقّعه عملاً من أعمال الكرم واللطف فحسب. كنت عاجزاً عن فعل غير ذلك، حتى إذا أردت أن أبتعد عن طريقهم. كان الطلب شديداً، وشاع بين الناس إحساس يشبه دنوّ ساعة القيامة... كانوا جميعاً يريدون مني أن أترك طاولتي وأذهب معهم. لكني، بدلاً من ذلك، كنت مضطراً إلى أن أعدهم بأننا سنحقق في الأمر.

«متى؟».

«قريباً. في أقرب وقت ممكن. إن لدينا تراكماً كبيراً. لكن، قريباً».

إنهم أبناء عاهرة... أولئك الناس! وسوف ننتظر هنا حتى ننتقم منهم. عليك أن ترى ذلك المطبخ».

«سوف يأتي أحد المنظّمين ويتصل بكم».

«متى؟ متى؟».

«لا بأس، سأقول لكم الحقيقة. إن لدينا نقصاً في الأشخاص لأن هنالك ضغطاً كبيراً. ليس لدينا العدد الكافي من الرجال. أما ما يجب عليكم فعله ريثما يأتيكم المنظّم فهو أن تستعدوا وأن تجعلوا رفاقكم يوقّعون الطلبات، وأن تحضّروا مطالبكم وشكاواكم».

«نعم، صحيح. لكن، يا سيد، متى يأتي ذلك الرجل؟ سوف يستدعي المدير فيدرالية العمل الأميركية (AFL) ويوقّع عقداً معهم؛ هذا ما سيفعله».

حاولت مناقشة هذا الخطر مع رؤسائي. لكنهم كانوا يعتبرون المطاعم والفنادق نوعاً من خط جانبي في ذلك الوقت. وما كان لديهم وقت للاهتمام بها لأنهم منشغلون بموظفي متاجر التجزئة الذين أعلنوا إضراباً كبيراً، إضافة إلى انشغالهم بعمال مصانع الملابس في شيكاغو هايتس، وغيرهم. لكنهم لم يكونوا قادرين على جعل أنفسهم يرفضون انتساب أعضاء جدد مما جعلهم يحاولون الاحتفاظ بهم في حالة انتظار إلى أن يصبحوا قادرين على تخصيص الوقت والمال الضروريين للاهتمام بهم. باختصار، كان معنى هذا أن علينا، غراميك وأنا، أن نظل على صلة مع هؤلاء الناس. تعلمت القيام ببعض ما يفعله غراميك. كان يعمل ست عشرة ساعة كل يوم، وذلك على امتداد عشرة أيام أو اثني عشر يوماً من غير انقطاع؛ ثم يختفي يومين كاملين فلا يستطيع أحد العثور عليه. كان يمضي ذلك الوقت في شقة أمه فينام ويأكل شرائح اللحم والمثلجات، أو يقرأ، أو يأخذ السيدة العجوز إلى السينما. ويجد وقتاً لكي يذهب إلى محاضرة من المحاضرات من وقت لآخر. كان يدرس القانون أيضاً. ما كان غراميك يعتزم التخلّي عن بناء وجود شخصي لنفسه.

مضيت مع هذا الاندفاع لأنني كنت الآن في حاجة إلى شيء من هذا القبيل نتيجة مشكلتي مع سايمون. وبعد انتهاء ساعات العمل في المكتب كنت أمضي في حافلات النقل العامة مرتحلاً لرؤية طباخين وعمال مطابخ وموظفي فنادق يعملون ليلاً... تلك الليالي المورقة في بداية خضرة الربيع عبر شوارع القسم الأدنى من نورث سايد حيث تبدو الحافلة كأنها سائرة على هواها من غير قضبان، في فولرتون أو بيلمونت، هناك حيث تتفتح أزهار الكاتالبا ويفوح الغبار نفسه برائحة حلوة. يطلب موظفون كثيرون أن آتيهم ليلاً عندما يكونون قادرين على الكلام بحرية. لا بأس بالجزء التآمري في هذا؛ وكان هؤلاء

الناس أصحاب أفكار راديكالية فهم أشخاص موجودون في وضع يتطلب شيئاً من العقل لأنهم يسهرون طيلة الليل مفكرين فيغدون راغبين في فرصة لقول ما دَرَّبوا أنفسهم طويلاً على قوله... شيء ظل حبيس قلوبهم زمناً أطول مما يجب. كانت الحقائق والأكاذيب تُحكى على حد سواء، هكذا كان رأيي. لكن وظيفتي لم تكن إصدار حكم على ذلك، بل المساعدة في سير العمل فحسب. كان بعض هؤلاء الأشخاص جادين تماماً. وأظن أنهم كانوا يريدون أن أبدو أكثر خطراً وأهمية مما كنت عليه. أعرف أنني كنت غض العود حسن الطلعة أكثر مما يجب من غير آثار الدخان ومن غير الاصفرار اللازمَين لأن أفهم شكاويهم. كانت هيئتي مزيجاً من الحيوية والابتذال. وكان هؤلاء الناس راغبين في لقاء شخصية سرية نارية تساعدهم في التحضير من أجل اللحظة التي يقفون فيها ويصرخون بالعصيان. أما أنا فكنت أدخل تلك الأماكن بهدوء... أعرف أنهم يمكن أن يجدوا نوعاً من الإساءة إليهم نتيجة لوني وطول شعري، وطريقتي الهادئة المرتاحة. لكني ما كنت قادراً على تجنب هذا.

كانوا يتساءلون أحياناً عمّا إذا كنت مُعتمَداً من المؤتمر حقاً.

«هل أنت إيدي داوسون؟».

«أأنت مندوب النقابة؟».

«هذا صحيح. اسمي مارتش، لقد تحدثتم معي على الهاتف».

قال داوسون: «أنت؟».

أدركت أنه كان يتوقع رؤية شخص خشن المظهر غائر الوجنتين. شخص خاض تجارب الإضرابات في مناجم الفحم أو حقول النفط أو مصانع النسيج في نيوجرسي. نعم، هكذا على الأقل... شخص يكون واضحاً عليه أن سجن باترسون قد امتص بعض قواه.

«لا حاجة إلى القلق. يمكنكم الاعتماد عليّ».

لا بد له من القبول! لقد خدعه صوتي في الهاتف. يمكنني، على الأقل، أن أكون صلة وصل مع رؤسائي فهم مشغولون الآن بالتعامل مع الفنادق الكبرى (كان ذلك في نظر إيدي داوسون شيئاً قريباً من وضع البارود في سراديب تلك الأماكن).

وعندها يخبرني بما يريد أن ينقله إلى رؤسائي، ويعطيني بعض التعليمات.

«أريد منك ترتيب لقاء مع رئيسك هناك...».

«هل تقصد السيد آكي؟».

«قل له إنني أستطيع أن آتيه بالعاملين هنا جميعاً؛ لكننا نريد الحديث معه قبل أن نعلن الإضراب، كلنا. وذلك حتى أزرع الثقة في نفوسهم».

«هل أنت واثق من أن عليكم إعلان الإضراب؟ ربما تحققون مطالبكم من غير ذلك».

«هل تعرف من الذي يدير هذا القصر المقمّل؟».

«ماذا يمكن أن يكون؟ مصرف من المصارف؟ هل هو تحت الحراسة القضائية؟ إن معظم هذه المطاعم والفنادق الصغيرة...».

«إنها شركة اسمها هولووي انتربرايزز».

«كاراس؟».

«هل تعرفه؟».

«نعم أعرفه... يحدث هذا كثيراً. كنت أعمل لدى وكيل التأمين إينهورن، وهو نسيبه».

«يحرر إينهورن بوليصات التأمين لهذا المكان. أنت تعرف طبيعة هذا المكان، ألا تعرفها؟ إنه مكان لترتيب اللقاء الجنسية السريعة».

قلت: «أهذا صحيح؟» لاحظت أن جبهته العريضة المحمرّة ذات العروق البارزة تحت شعره الأشقر الذي يشبه غمامة كان مغطى بحبات من العرق، وأنه يمسح باستمرار يديه اللتين كانت أظافرهما مصبوغة بلون يماثل لون قميصه الوردي المخطط... «إن كانت هذه المشكلة، فهي مشكلة الشرطة. لا أظنك تريد أن يؤسس مؤتمر المنظمات الصناعية نقابة لهؤلاء الناس!».

«لا تقل هذه الحماقات. ما أقصده هو أنني أتعرض لهذه المشاكل لأنني أعمل ليلاً. لكن، وبما أنك تعرف كاراس، فقد تستطيع تقدير إن كان انتزاع مطالبنا سهلاً».

«إنه شخصية قوية يصعب التعامل معها».

«إذن، عندما يصبح زملائي مستعدّين عليك أن تخبر السيد آكي بأننا نريد بضع دقائق للحديث معه».

قلت: «نستطيع ترتيب هذا». قلت هذا رغم أنني لا أعرف آكي معرفة كافية لإلقاء التحية عليه عندما يمرّ بي في طريق خروجه من المرحاض. لكني كنت أمثّله هنا.

كان الوضع مختلفاً في المطاعم الصغيرة الرخيصة. كنت محل ثقة أكبر واحترام أشد. يعمل في تلك المطابخ رجال متقدمون في السن... فهي فنادق بائسة، ونزل ريفية... كانوا أشخاصاً جريئين طوال القامات لا يبدو عليهم ما يشبه الامتعاض الذي ظهر على

وجه داوسون في قميصه الوردي المخطط، داوسون الذين كان في وضع قريب من وضع كاراس، وكان يعرف كيف يحقق الأرباح، وكيف يكره ويحسد، وكيف يتأنّق عندما يريد ويحمل حقيبة ويضع نظارة ليخرج مع فتاة طويلة جميلة موَرَّدة الخدين.

لكن، خذوا مثلاً واحداً من هؤلاء العاملين في مطعم صغير للمأكولات المقلية السريعة في شارع فان بورن... طلب مني أن آتي إليه عبر زقاق تفوح حجارة أرضيته الكبيرة برائحة البول، وأن أشير إليه عبر النافذة. وعند ذلك يتنبه متوتراً كله ويشير إليّ برأسه إشارة جانبية يمكن أن يعتبرها من يراها مجرد حركة عفوية. وعند الباب، يجري بيننا حديث هامس يمكن أن يجري بعد ساعات من ذلك، لا فرق. لكنه يريدني أن ألقي نظرة على مكان عمله. وعلى جلد ذراعيه الغاضب لكثرة غسل الأطباق، ونحوله الكئيب، وأسنانه الطويلة، وعيناه الدامعتان في أمسية الزقاق بنجومها اللامعة؛ وأيضاً حالة الطعام الفظيعة التي تستنتجها فوراً عندما ترى مقدار القذارة على ثيابه، وعلى شخصه أيضاً... عندما تشم رائحة أنفاسه وشعره الذي كان أمام وجهي. كان عقله يناقش وضعه ضمن جمجمته الواهية. فهل خطر في ذهنه، مثلما حدث مع داوسون، إن كنت شخصاً مناسباً لتنظيم ما يحلم به؟ كان راغباً في الإدلاء بدلوه وتقديم مساهمته الباهتة في تصحيح الأشياء الخاطئة، فكان يكفيه أن يعثر عليّ في مكتب من المكاتب أو أن أقبل بالقدوم إليه عبر هذا الزقاق ذي الرائحة الكريهة حتى أتحدث معه وأستلم القوائم التي أعطاني إياها، قوائم بأسماء أشخاص يريدون الانتساب إلى النقابة. كان ينتظر مني أن أبحث عنهم في غرفهم المتعفنة. زرت تلك الأماكن من قبل في مهمة مختلفة تماماً عندما كنت أعمل لدى سايمون؛ كنت أذهب إليها بحثاً عن عمال. لا معنى لافتراض أنني بقيت مثلما كنت لأنني صرت أدخل هذه الأماكن خلسة! أما عندما كنت أفكر في مهامي تفكيراً واضحاً، فقد كنت أرى أنني لا أستطيع إقامة كبير اعتبار لكل واحد من هؤلاء الناس، ولا أن أضع توقّعات كبيرة؛ تكفي درجة واحدة من التقدم يمكن لها أن تشتمل على الجميع.

كان علي أن أزور مكان في حيّنا القديم ذات صباح، فعرجت على إينهورن ووجدته جالساً في مكتبه المشمس، في ذلك الجو المألوف الفائح برائحة القهوة والنوم والجرائد، وبرائحة عطر الحلاقة الذي يستخدمه وبمساحيق التجميل... مساحيق امرأتين معاً. كانت ملدريد جالسة إلى الآلة الكاتبة مرتدية حذاءها الطبي (كانت مهذبة لكنها ما كانت تحبني)؛ وكانت رقبتها محمرّة قليلاً من الخلف بعد أن حلقت شعرها صعوداً إلى بداية الشعر الغزير. وعلى الناحية الأخرى من الشارع، رأيت نوافذ المبنى القديم فارغة، نوافذ الأيام العظيمة والأحداث الكبرى. لم أجد إينهورن في حالة جيدة رغم أن وجهه الثقيل ما كان يوحي بذلك. ظننت لوهلة أنه سيظل صامتاً حتى أنصرف، وأنه يريد أن يصرفني

بسكوته. كان يتنفس ويتحسس نفسه وينظر إلى حركة الصباح عبر النافذة ويدخن ويمضغ شيئاً ويطلق بعض الريح من وقت لآخر. بدا لي كئيباً، بل فظّاً أيضاً.

سألني وقد قرر الكلام أخيراً: «هل يدفعون لك جيداً في عملك الجديد؟».

«لا بأس؛ تعرف أنهم ليبراليون».

قال بطريقته الحاسمة الجافة: «إذن، هنالك خير من هذا العمل».

ضحكت وقلت: «أهذا كل ما تراه؟».

«هذا على أقل تقدير. لا أريد أن أطفئ حماستك يا فتى... إن كنت تظن أنك تفعل شيئاً حقاً. ثم تذكر أيضاً أنني لست محافظاً. لن أكون محافظاً لأنني أجلس هنا في هذا المقعد. ليس لدينا نادٍ للأغنياء هنا! والحقيقة أن ما لديّ لأخسره أقل من غيري من الرجال، وهذا يجعلني غير خائف من الذهاب بتفكيري إلى الحدود القصوى. إن لدي بعض الأعمال مع كاراس، لكن هذا لا يعني أن أفكاري يجب أن تتبع مصالحي. أي مصالح! مصالح قليلة! إنه جزار، كاراس هذا... لقد اشترى منذ فترة وجيزة مكاناً جديداً في سان أنتونيو».

صرت مقتنعاً الآن بأن هنالك شيء غير طبيعي: «إذن، أنت ترى أنني أضيّع وقتي في ما أفعله!».

«أوه، يبدو لي أن الأفكار هي نفسها، على الجانبين. ما الفائدة من الأفكار القديمة، وعلى الجانبين أيضاً! أن تأخذ شيئاً من هذا الجانب وتعطيه للجانب الآخر! الاقتصاد القديم المألوف نفسه».

ما كان راغباً في الحديث معي أول الأمر، لكني لم أذهب، فوجد نفسه منجذباً إلى الحديث بفعل انزعاجه في البداية ثم راح يلخص رأيه الحقيقي. كنت متحمساً، ليس بالطريقة التي ألمح إليها، لكني قلت: «ينهض الناس كل صباح للذهاب إلى العمل؛ ليس من الصواب أن يكون هذا وهماً، وليس من الصواب أن يكونوا في غاية الامتنان لمجرد السماح لهم بمواصلة ما اعتادوا فعله بحيث لا يطلبون أي شيء آخر».

«أتظن أنهم يستطيعون انتشال الناس من الوحول عن طريق إقفال مصنع من المصانع؟ أتظن أن الأحوال سوف تتحسن إذا كان لديهم مندوب نقابي يحمل شكاواهم؟».

قلت: «إذن، لنترك الأمر لكاراس أو لأحد الأوغاد الذين يشتغلون لدى أصحاب الأعمال حتى يرتّب كل شيء!».

«انظر إلي! أتظن أن عليهم أن يصيروا رجالاً لمجرد أنهم ولدوا في هذا العالم؟ هذه فكرة قديمة. من يقول لهم ذلك؟ نقابة كبيرة! نقابة كبيرة أخرى أيضاً! النقابات الكبيرة

تكسب مالاً وإلا فإنها لا تستطيع الاستمرار. وإذا كانت تكسب مالاً فهي موجودة من أجل المال».

أجبته: «إذا لم يكن هنالك معنى لهذه النقابات الكبيرة، فهذا سبب كافٍ لأن يفعل هؤلاء الناس أشياء كثيرة».

في تلك الأثناء كانت ملدريد تمضي في الطباعة على الآلة الكاتبة متجاهلة حديثنا. لم يجبني إينهورن. وأظن أن ظهور آرثر قادماً من المطبخ هو ما جعله يكفّ عن الكلام لأن لآرثر سلطة فكرية على أبيه تجعله يتردد في التعبير عن آرائه بعض الأحيان. كان واقفاً هناك، ضيّق الكتفين، في سترة سوداء، واضعاً يديه في جيبيه. راح ينظر إلينا وعلى جبينه غضون فاجأتني... كانت مثل غضون شخص متقدم في السن. وكانت عيناه محاطتان بتدرجات من لون قاتم، لون كالح، لون المتاعب. مال برأسه جانباً فلمس شعره الكثيف إطار الباب وانطلق دخان سيجارته فبدا حريرياً في ضوء الشمس. كانت ابتسامته لطيفة لأنه لم يعرفني في البداية، لكنها كانت أيضاً ابتسامة متعَبة عليلة. انتبهت إلى أن إينهورن توتر لمجيئه، توترت كل طية من طيات سترته، وكان متأهباً لأن يصبح فظاً إلى درجة القول له بأن ينصرف فوراً. لاحظت أيضاً أن السبب نفسه الذي جعله كذلك هو ما جعل ملدريد باردة معي إلى هذا الحد، وجعلها تضرب مفاتيح آلتها ضرباً شديداً كأنها تطلب مني أن أنصرف.

وعند ذلك جاء طفل صغير جارياً من المطبخ فحمله آرثر بطريقة أبوية لا شك فيها. راح الطفل يحاول التفلت من بين أصابعه. ومن خلفه وقفت تيلي لكنها لم تتقدم أكثر من ذلك. إن لم أكن مخطئاً، فإنهم لم يقرروا بعد الاحتفاظ بهذا الأمر سراً أو لا، وذلك لأنني أدركت أن الطفل أمر جديد بالنسبة لإينهورن أيضاً. كان شيئاً صعباً عليه أن يعترف بالطفل. استدار آرثر صوب المطبخ فجرى الطفل إلى ملدريد والتصق بركبتها. حملته مشغوفة فعلق حذاؤه بتنورتها. جلس على فخذيها بشعراتهما الداكنة الصغيرة. لكنها ظلت هادئة. رحت أتتبع نظرات إينهورن. قبّلت ملدريد الصبي قبلة تكاد تشبه قبل البالغين، ثم مدت يدها إلى حاشية تنورتها وشدتها إلى أسفل.

«ما قولك في أخبارنا هذه؟» قال إينهورن هذه الكلمات بطريقة خشنة ثم استدار صوبي فبدا قوس رقبته متيبساً... أراد أن يعبّر عن غضبه، لكن من الواضح أن معاناته كبيرة؛ وكان وجهه، ذلك المُعبّر الكبير عنه، مغضَّناً تحت نظرة الطفل الصغير.

لم أعرف ماذا أقول: «هل تزوج آرثر؟».

«إنه على وشك الطلاق. حدث هذا الأسبوع الماضي، ولم نكن نعرف شيئاً عن الأمر. الفتاة من تشامبين».

«صار عندك حفيد إذاً. أهنئك».

بدا متعَباً، كانت عيناه متوقدتين تصميماً على احتواء الموقف كله، لكن وجهه كان خالياً من التعبير... بدا عليه ظل من التعاسة.

قلت له: «وهل هذه أول زيارة للطفل؟».

«زيارة! لقد رمته عندنا. وضعته بالباب ومعه رسالة، ثم هربت؛ فكان علينا أن ننتظر حتى يأتي آرثر ويوضح الأمر».

قالت ملدريد متحمسة مبتهجة: «أوه، إنه جميل جداً»... التصق الطفل بصدرها وطوق عنقها... «يسعدني أن يكون هنا».

عند هذه الكلمات من زوجته الثانية (هي زوجته الثانية في واقع الأمر)، عاد اهتمام إينهورن كله فانصب على نفسه من جديد؛ على متعته الشهوانية. بدا أن ذلك فاجأه. كان أشبه بعفريت قابع في سقف الكنيسة... وكانت ذراعاه اللتان غطتهما بقع شاحبة مستلقيتين إلى جانبيه. كان شعره يشبه حبالاً مضطرة إلى الوجود فوق رأسه، وهناك كان مشهد الخراب الآخذ بالتشكل خلفه. كان انعدام حركة يديه يجعله أشبه برجل محصور في زاوية، أو بسجين مقيَّد. مسكين إينهورن! كان مستعداً في أي ساعة من ساعات انحداره لأن يحافظ على نصيب آرثر، لكن اللعنة أصابته الآن وفقد ماله مثلما فقدت نقود جدتي القيصرية كل قيمة لها. فاحت الآن رائحة البؤس من ذلك القبو الذي احتفظ فيه بثروته الاحتياطية. بل إنه لم يكن ينظر إلى الطفل الذي كان ولداً مبتهجاً في حضن ملدريد. أما تيلي فلم تظهر أبداً. ترددت في إظهار تعاطفي. لو أظهرته لرده ورماه في وجهي رغم أنني واحد من الأشخاص القلائل (فيما أظن) الذين لا يزالون معترفين له بعظمته التي زالت. كنت أحقق غاية مهمة بالنسبة لإينهورن... إنني مستعد للشهادة على أن أيامه القديمة كانت نبيلة حقاً وكانت ذات عظمة ملكية. لكنه بدأ، هو نفسه، يقول الآن بضعف: «ليس هذا بالوضع الحسن يا أوجي. أنت تعرف قدرات آرثر. قبل أن يبدأ استخدام قدراته تلك، وضع نفسه في هذا...».

قالت ملدريد: «لا أرى المشكلة! صار لديك حفيد جميل هنا».

«ابقِ بعيدة عن هذا من فضلك يا ملدريد! الطفل ليس لعبة».

قالت: «أوه، الأطفال يكبرون. الزمن يفعل ذلك أكثر مما يفعل الآباء والأمهات. يزعم الآباء والأمهات لأنفسهم فضلاً أكثر مما يستحقون».

قال لي إينهورن بصوت منخفض لأنه لم يُرد الحديث معها: «أظن أن آرثر يتسكع قريباً من منطقة سكنك. وهو مهتم بفتاة اسمها ميمي! هل تعرفها؟».

«إنها صديقة عزيزة».

ارتفع حاجباه سريعاً ففسّرت ذلك بأنه آمل بأن تكون عشيقتي مما يعني أن آرثر لن يتورط في مشكلات جديدة.

«ليست صديقة لي بذلك المعنى».

قال هامساً: «ألا تضاجعها؟».

«لا».

خاب أمله! كان على وجهه أيضاً أثر بسيط من التعالي أو من السخرية، مجرد لمحة صغيرة في نظرته إليّ، لكني رأيتها.

قلت له: «لا تنسَ أنه كانت لي في واقع الأمر خطيبة حتى يوم رأس السنة».

«طيب، ميمي هذه... أي نوع من البنات هي؟ لقد أتى بها منذ أسبوعين. وجدناها، تيلي وأنا، خشنة بعض الشيء. وهذا ما يمكن أن يكون غير متناسب مع شخص مثل آرثر، شخص يكون لأفكاره توجّه شعري أو ثقافي دائماً. لكنها قد تكون طيبة القلب. لست راغباً في انتقادها من غير سبب».

«لماذا تسألني؟ هل يفكر آرثر في الزواج من جديد؟ الحقيقة أنني من المعجبين بميمي».

«إعجاب أفلاطوني؟».

ضحكت، لكنني أحسست أيضاً بشيء من الانزعاج لأن إينهورن بدا غير راغب في أن يكون ابنه عاشقاً لميمي من بعدي، أو عاشقاً لأي فتاة من بعدي. قلت له: «الشخص الأفضل للإجابة على هذه الأسئلة عن ميمي هو ميمي نفسها. لكني أستطيع القول إنني لا أظنها مهتمة بأي عرض زواج الآن».

«هذا جيد».

لم يبدر مني ما يشير إلى أي نوع من الموافقة على حكمه.

قال لي وقد اتخذ وجهه هيئة أعرف أنها هيئة الاهتمام بالشؤون العملية: «أوجي! أظن أن منظمتك يمكن أن تكون فيها وظيفة مناسبة لابني».

«هل يبحث عن عمل؟».

«لا! أنا أبحث عن عملٍ له».

«أستطيع المحاولة». كان أمراً مثبطاً أن يطلب هذا الشيء مني. تخيلت آرثر جالساً إلى مكتب في مقر النقابة واضعاً إصبعه بين دفتَيْ ديوان شعر أو كتاب آخر. قلت: «تستطيع ميمي مساعدته إن أرادت ذلك. حصلت على هذه الوظيفة لأنها تعرف أحداً هناك».

«من الذي يعرف أحد هناك، صديقتك؟».

لا يزال لديه أمل ماكر في أن يصطادني ويجعلني أعترف بطبيعة علاقتي مع ميمي مثلما تخيلها؛ لكني لم أعطه شيئاً. قال أخيراً: «لا بأس، لا أظنك تريد القول لي إنك تحافظ على الصحة الممتازة من غير مساعدة من صديقة ما!» كان شديد السرور بقوله هذا إلى درجة جعلته ينسى متاعبه لحظة. لكن الطفل المتعلق برقبة ملدريد أصدر صوتاً في تلك اللحظة فتغير وجه إينهورن فجأة من الشهوانية إلى الحزن والعبوس.

كان ظنه صحيحاً! إن لدي صديقة. فتاة يونانية اسمها صوفي غيراتيس تعمل في خدمة الغرف في فندق فخم. وقد كانت على رأس وفد جاءني طالباً العضوية في النقابة. كانوا يكسبون عشرين سنتاً في الساعة؛ وعندما ذهبوا إلى مكتب نقابتهم المحلية وسألوا واحداً من القادة هناك أن يطالب بزيادة أجورهم، كان الرجل يلعب البوكر ولم يهتم بهم. أدركوا أنه متعاون مع إدارة فندقهم. كانت هذه الفتاة اليونانية القصيرة متناسقة حسنة الشكل من كل ناحية... ساقاها، وفمها، ووجها. كانت شفتاها بارزتين إلى الأمام قليلاً، ونظرة عينيها الصافية تزيد كثيراً في حلاوة هاتين الشفتين. وكانت لها يدان قويتان نتيجة العمل ولأنها تعيش، مع جمالها كله، في شروط صعبة. لم أستطع التظاهر لحظة واحدة بأنني لست ميالاً إليها. فبمجرد أن رأيتها قلت في نفسي إن في زاويتَيْ عينيها شيئاً يطالب بالرقة، فاستولى عليَّ هذا الشيء. أحسست بالرقة تجاهها أيضاً... أكثر مما أحسست بالحرارة التي تكون في طين ضفاف نهر النيل، طين شديد الخصوبة لكنه يتشقق عندما يجف قليلاً.

وبعد أن وقّعت النساء طلبات الانتساب اشتدت الإثارة واشتد السخط بينهن، وبدأن بالهتاف كأنهن في مهرجان إغريقي قديم للنساء، لهذه الكائنات البشرية الشاحبة. أرادوا من يقودهم إلى الإضراب فوراً. لكني شرحت لهم (أحسست، كالعادة، بشيء من النفاق القانوني يكتنفني) أن لدينا مشكلة ازدواج العضوية بين نقابتين. إن فيدرالية العمال الأمريكية (AFL) هي من يمثلهم قانونياً، وهذا يعني أنه ليس من حق نقابة أخرى أن تفاوض الشركة باسمهن. أما عندما ينتسب أغلبية العاملين إلى منظمتنا، فمن الممكن إجراء انتخابات فرعية تكون نتيجتها انتقال تمثيلهن إلينا. لم يفهمن هذا؛ ولما كنت غير قادر على الكلام في مواجهة صخبهن، طلبت من صوفي أن تخرج معي قليلاً حتى أوضح لها الموقف. كان الممر خالياً في تلك اللحظة، فبدأنا القبلات على الفور... خاطرنا. كانت أرجلنا ترتجف. قالت لاهثة إنني أستطيع أن أشرح لها الأمر كله فيما بعد. سوف تأخذ

زميلاتها ثم تعود. أقفلتُ باب المكتب، وعندما عادت أخذتها إلى البيت معي. لم نكن قادرَيْن على الذهاب إلى غرفتها. كانت تعيش مع أختها، وكانت الفتاتان مخطوبتين من شابين شقيقين. سوف تتزوجان في حزيران، بعد ستة أسابيع. رأيت صورة خطيبها: كان شاباً هادئاً ذا مظهر جدّي مسؤول. وكانت ترى أنها تتصرف تصرفاً منطقياً، وتخزّن المسرة الآن حتى لا يكون لديها أي ميل إلى عدم الوفاء بعد زواجها. كانت رائعة التكوين؛ كل ما فيها متناسق قريب، في متناول اليد؛ ناعم كله. كانت تلك هي السعادة التي لاحظها إينهورن، سعادة استمتاعي مع صوفي.

كان لدى كايو أوبرمارك قدر كبير من الاحترام الذكوري يمنعه من سؤالي عن صخبها وكلامها وضحكاتها، وغير ذلك. لكن ميمي قالت: «ما هذه المرأة التي لديك؟ أي امرأة تصيح هكذا!؟» اتخذت كلماتها نبرة مازحة، لكنني أحسست في حركة أنفها أن هنالك ما يغضبها... «هل تجلب معها فريقاً من المشجّعات يهتفن لها؟».

لم تكن عندي إجابة جاهزة على هذه الأسئلة لأنني لم أتوقع أن تُطرح عليّ هكذا.

تابعت ميمي تقول: «كانت هنالك امرأة أخرى تسأل عنك ذلك اليوم. نسيت إخبارك. يبدو لي أن غرفتك صارت مزاراً للنساء».

«من هي؟».

«شابة شديدة الجمال؛ أجمل من تلك الفتاة الصاخبة».

تساءلت في نفسي إن كانت تلك الفتاة لوسي، وإن كانت قد غيرت رأيها: «ألم تترك رسالة؟».

«لا! قالت إن عليها أن تتصل بك. وأظن أنها كانت شديدة الاضطراب. لكن، ربما كان ذلك نتيجة تقطّع أنفاسها... لعلها غير معتادة على صعود السلالم».

لم تثرني كثيراً فكرة أنها يمكن أن تكون لوسي. ما عدت مهتماً بها. لكن تلك الزيارة أثارت فضولي.

ذكرت لها ما قاله إينهورن عنها وعن علاقتها بآرثر. إن كان قد وجد فيها شيئاً لا يعجبه، فلا بد أنها كانت عنيفة معه.

«ماذا؟ ذلك العجوز النتن! اقتربت منه دقيقة واحدة فوضع يده على ساقي. لا أحب العجائز الذين يظنون أنفسهم في غاية الإثارة».

قلت: «أوه! عليك أن تفهميه! هذه مجرد تحية فروسية من جانبه».

«إلى الجحيم! من قال إن على رجل مقعد عجوز أن يكون شهوانياً إلى هذا الحد؟».

«إنه عجوز رائع. أعرفه منذ كنت طفلاً؛ وهو يعني الكثير بالنسبة لي».

«أما عندي، فهو لا يعني شيئاً على الإطلاق. ثم إنه فظيع مع آرثر».

«لماذا؟».

«أظن أنه يحب آرثر أكثر من أي شيء آخر في العالم».

«هذا ما تظنه أنت. إنه يهاجمه طيلة الوقت. والحقيقة أن عليّ مساعدته في الخروج من ذلك المكان لأن العجوز يكاد يجعله يقتل نفسه بسبب الطفل».

«ألن تعود الأم لتأخذ طفلها؟».

«لا أستطيع أن أفهم من آرثر إن كانت امرأة طيبة أو متشرّدة سافلة. إنه غامض بشكل عجيب إلا عند مناقشة الأفكار. أي عاهرة تستطيع أن ترمي طفلها هكذا؟... بعد أن تنجبه! إلا إذا كانت امرأة مريضة. عقلها مريض، هل تفهم هذا؟».

«ألم يصفها لك آرثر؟».

«لا تستطيع أن تجعل آرثر يستمر في حديث من هذا النوع. عقله لا يستطيع الاستمرار».

قلت: «لا أعرف إن كنت قد فهمت جيداً ما يفعله والده معه. كان تقبل الأمر صعباً على إينهورن. كانت لديه آمال في آرثر. ولدى تيلي آمال أيضاً. أما الآن فقد صار مجرد جزء من حالة الركود العامة. يعود الأبناء مع أطفالهم للعيش عند أهلهم، في بيت أهلهم».

«ولماذا يكون الأمر بالنسبة لإينهورن مختلفاً عما هو لدى البولنديين أو آكلي النقانق في شارعه؟ أمر سيئ أن يكون الأمر مختلفاً وأن يكون لدى ذلك الأحمق العجوز ما يبرهن على أنه يستحق الأفضل من أي شخص آخر من حوله. أما عندما يسقط ما يحدث على رؤوس الجميع، فإننا نصبح قادرين حقاً على رؤية من الذي يكون الأفضل بينهم، ومن يكون الأسوأ. ثم ما هو ذلك الشيء الفظيع الذي جرى لآرثر؟ إنه أفضل من فريزر على أي حال. عاد فريزر إلى زوجته، هكذا قيل لي، ومن المحتمل أنه لن يعيد المال الذي أقرضته إياه لأنه سيكون بهذا كمن يعترف بأنه فعل شيئاً خاطئاً وهو ليس بالشخص الذي يعترف بأنه يمكن أن يفعل شيئاً خاطئاً في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. كانت فتاة تقرأ كتاباً أمس وتضحك من جملة فيه... جعلتني أراها... أنت تعرف أنني نادراً ما أقرأ رواية. كانت الجملة هكذا، 'لا يقترب الخطأ من عقلي أبداً'، كان الكلام للأمير ميترنيخ. نعم، يمكن أن تكون الجملة لفريزر أيضاً! لا أظنه قادراً على نسيان شخصه لحظة واحدة في حياته كلها. تصور... إنه شخص لا يمكن أن يفوته القطار أبداً. يا ربي! سيحب صديقك السيد إينهورن

أن يكون لديه ابن مثله، ابن صاحٍ متنبه دائماً وعنده كلام جاهز يقوله، ابن لا يفوته القطار أبداً. لكن آرثر شاعر؛ ولا يريد صاحبك الرومانسي العجوز أن يحدث ذلك له أيضاً... أن يكون أباً لشاعر مثل فيلون أو رامبو».

قلت لها: «أوه، أهكذا هو الأمر؟ لا بأس، ما الذي يفعله إينهورن لآرثر حتى تعتبريه قاسياً إلى هذا الحد؟».

«يناكفه ويضايقه ليل نهار. ويتصيّد الفرص حتى يهينه. البارحة، كان العجوز يطعم الطفل بعض الحلوى؛ وعندما قال آرثر إن الحلوى ليست جيدة للطفل قال له: البيت بيتي، وهو حفيدي. إذا لم يعجبك هذا فيمكنك أن تذهب إلى الجحيم».

«أوه، هذا خشن حقاً! يمكن أن ينفجر المرء. وما الذي يجعله يقبل هذا الوضع؟».

«لا يستطيع ترك البيت. ليس لديه مال. ثم إنه مريض أيضاً. إنه مصاب بالسيلان».

«يا إلهي! إنه مصاب بكل شيء. هل أخبرك بنفسه؟».

«لا تكن غبياً! كيف تظن أنني عرفت بالأمر؟ لقد أخبرني طبعاً».

ابتسمتْ، وكان في ابتسامتها شعاع من إثارة حقيقية. لو لم أكن أعرف شيئاً قبل هذه اللحظة لأدركت الآن أنها عاقدة العزم بخصوص آرثر. إنها متمسكة به.

قالت: «سوف أهتم به حتى يخرج من هذه المشكلة. إنه يذهب إلى الطبيب الآن. وسوف يترك بيت أبيه عندما يشفى».

«مع الطفل؟».

«لا! سوف يعتني أحد ما بالطفل. ماذا تظن؟ هل يجب أن يصبح آرثر ربة منزل بسبب تلك الفتاة المجنونة؟».

«لو أنه أعطاها بعض المال، فربما كانت تقبل أن تحتفظ بالطفل».

«من يدري؟ نعم، قد يكون هذا هو الحل الأفضل. لا يجوز أن يربي الأطفال أشخاص متقدمون في السن».

«يريد إينهورن مني أن أعثر لآرثر على وظيفة منظّم في النقابة».

أدهشها ذلك إلى درجة جعلتها تنسى حتى أن تبتسم؛ لكنها نظرت إليّ نظرة ثابتة كأنها تريد مني الاعتراف بأن ما من حدود يمكن أن يتوقف عندها ذلك الشخص صاحب الأطوار الغريبة. ثم مضت تهتم بأمورها، وتغسل جواربها وملابسها الداخلية. لم تجبني بشيء.

بطبيعة الحال، ما كان آرثر قادراً أصلاً على مباشرة أي عمل قبل أن يشفى من السيلان. ورأيت أن من الأفضل اختراع سبب يبعث شيئاً من السرور في نفس إينهورن. وهكذا فعلت. قلت إنهم ليست لديهم الآن وظائف على مستوى آرثر. لكن الأمر لم يكن ساراً كثيراً للعجوز، رغم ذلك، لأنه ذكره بالخيالات الزائفة التي كانت لديه ذات يوم عن تفوّق آرثر. لكن، بدا شيئاً منطقياً أنهم لا يستطيعون أن يعرضوا على شخص مثل آرثر وظيفة بسيطة بقيت لديهم ولم يأخذها أحد.

أما بالنسبة للوسي ماغنوس (لم أستطع تخيل أن تكون تلك الزائرة شخصاً آخر) فقد كان عندي فضول... فضول فحسب؛ لكني لم أفكر كثيراً في زيارتها المفترضة إلا بعد عدة أيام عندما سمعت طرقاً على الباب، طرق يد أنثوية. حدث هذا في وقت غريب، حدث عندما كانت صوفي غيراتيس جالسة على السرير في سروالها الداخلي؛ وكنا نتحدث. رأيتها تجفل عندما سمعت صوت الباب فقلت لها: «لا تقلقي يا حبيبتي، فلن يزعجنا أحد». أعجبتها هذه الكلمات، وهذا ما جعلنا نبدأ التقبيل من جديد. فبدأت نوابض السرير تصدر ذلك الصوت الذي يعرف كل من يسمعه، بطريقة لا تفسير لها سوى أنه صوت الحب... صوت من شأنه أن يبعد أي شخص إلا هذا الشخص الذي يطرق الباب الآن. قالت: «أوجي... سيد مارتش!» ما كان ذلك صوت لوسي ماغنوس بل صوت ثيا فينكل. لا أعرف ما الذي جعلني أتذكر هذا الصوت على الفور. نهضت من السرير.

قالت صوفي: «انتظر! ارتد شيئاً». خاب أملها لأن قبلاتنا انتهت بهذه الطريقة عندما جاء صوت امرأة أخرى من خلف الباب.

أخرجت رأسي وأسندت الباب بكتفي وقدمي العارية. كانت ثيا فينكل حقاً. كانت قد ذكرت في الرسالة التي تركتها أنني لم أرها منذ زمن طويل. ها هي الآن، هنا.

قالت: «إنني آسفة! لكني أتيت مرتين؛ أريد أن أراك».

«أظن أنك أتيت مرة واحدة. كيف استطعت العثور علي؟».

«استأجرت محققاً خاصاً. هذا يعني أن تلك الفتاة لم تخبرك عن مجيئي مرتين. هل هي معك هنا؟ اسألها!».

«لا، ليست الفتاة نفسها. هل ذهبت حقاً إلى مكتب محقق خاص؟».

قالت: «يسعدني أنها ليست الفتاة نفسها».

لم أجبها، نظرت إليها فقط.

لم تكن محافظة على تماسكها تماماً. ذلك الوجه المنتبه، الملحّ، المختلف عن الوجه

الذي أتذكره... جميل، لكن من غير ملمح قوة الأعصاب: وجه شاحب عريض الوجنتين؛ كان منخراها متسعَيْن. تذكرت قول ميمي لي إن تنفسها كان ثقيلاً نتيجة صعود السلالم، لكن ن الواضح أيضاً أن تقطّع أنفاسها كانت نتيجة تصميمها على ألا يصيبها القنوط لأنها لم تجدني وحدي. كانت في ثوب من الحرير البني ذي اللون المتموج... أرادت أن ألاحظ ثوبها، رغم كل شيء. لكني لاحظت، في الوقت نفسه، ارتجاف كفَّيها في قفازيهما، لاحظت أن قبعتها المزينة بالأزهار ما كانت ثابتة تماماً على رأسها؛ شيء مثل ارتجاف من يجد نفسه وحيداً وسط المحيط بين الأمواج الكبيرة حيث يحيط به الماء أميالاً كثيرة من حوله ومن تحته. كان صوت ارتعاش خفيف صادر عن حرير ثوبها أيضاً.

قالت: «ليس هذا مهما!... فكيف يمكنك أن تعرف بمجيئي؟ لا أتوقع... لا أتوقع...».

لم أشعر بحاجة لأن تسامحني على شيء... كأنني يجب أن أكون في انتظارها! كان من حقي أن أبتسم، لكني لم أستطع فعل ذلك. تذكرتها... تذكرت الفتاة الثرية الطائشة التي ما كان يشغل بالها شيء غير منافسة أختها. لكني ما عدت قادراً على التفكير هكذا؛ ليس مهماً كيف بدأ الأمر، لكنه صار الآن شيئاً مختلفاً، بكل وضوح. قد ترى نفسك منطلقاً في أمر ما لسبب ليس جيداً كثيراً، لكنك لا تلبث أن تعثر على سبب أفضل بعد انطلاقك. لعل هذا ما حدث لها؛ لكني لم أعرف الدافع الذي كانت له اليد العليا: النبل أم المرض... هل تغالب اعتراضات داخلية نابعة من الكبرياء أو اعتراضات اجتماعية عمّا يجوز أن تفعله فتاة شابة بنفسها... تلك الأشياء الشائكة التي تضغط بحدة بشعة على أعظم نواحي الضعف الاجتماعي لدى النساء. أعني أن الأمر هو نفسه، سواء كانت المرأة تكافح في مواجهة شيء معذِّب أم ماضية بحثاً عن هذا الشيء. لكن هذا ما كان الشيء الوحيد الذي فكرت فيه، ولا الشيء الوحيد الذي أحسسته، أبداً. لو كان الأمر كذلك لصرفتها. لأن صوفي غيراتيس كانت تعجبني إلى درجة تجعلني لا أقبل التخلي عنها لمجرد أن فتاة أثارت اهتمامي أو تملّقتني. أو لعلي رأيت في هذا فرصة للعودة إلى إيستر فينكل عن طريق أختها... أفكر هكذا لأنني (مثلما قلت سابقاً) لا قدرة لي على حمل الضغائن. لكن صوفي اختفت من المشهد كله في لحظة واحدة.

قلت مستديراً صوبها: «ماذا تفعلين؟» كانت قد لبست حذاءها. رأيتها ترفع ذراعيها فيسقط ثوبها الأسود على كتفيها. هزت جسدها قليلاً حتى انسدل الثوب عليها ثم سوّته عند ثدييها وردفيها وأزاحت الشعر عن وجهها.

«عزيزي... إن كان لديك من تريد رؤيته الآن...».

«لكن يا صوفي... إنني معك أنت هذه الليلة».

«أنا وأنت نمضي فترة ممتعة معاً... فحسب، قبل أن أتزوج، أليس كذلك؟ لعلك تريد الزواج أنت أيضاً. إن ما بيننا علاقة عابرة، أليس هذا صحيحاً؟».

قلت: «لن تذهبي». لكنها لم تهتم. وعندما رفعت ساقها لتربط حذاءها غطى شعرها فخذها فحجبه عني. هذا لأن عبارتي الأخيرة لم تبدُ قاطعة إلى الحد الكافي. من خلال هذا الفعل، من خلال تغطية ساقها العارية بشعرها (لم تفعل ذلك بطريقة غاضبة، بل بهزة بسيطة من رأسها) كانت تتراجع عن تلك الدرجات الحاسمة... عن الحرارة التي يعيشها العشاق. أدركت أنني لن أحصل عليها من جديد قبل المرور بعدد كبير من الاختبارات، بل ربما يكون عليّ أن أعرض عليها الزواج أيضاً. وهكذا اعترفت، في أعماق عقلي، بأنها محقة في الذهاب لأنني ما عدت قادراً على أن أعيش ذلك الاهتمام الشغوف بها الذي جمعنا معاً.

انزلقت قطعة ورق داخلة من تحت الباب وسمعنا خطوات ثيا مبتعدة.

قالت صوفي: «إنها على الأقل ليست مزعجة إلى حد يجعلها تظل عند الباب حتى تراني عندما أخرج. لكن يكفيها إزعاجاً لنا أن تدق الباب رغم معرفتها بوجود أحد معك. هل أنت خطيبها أو شيء من هذا القبيل. هيا، اقرأ ما كتبته في هذه الورقة».

قامت صوفي لتنصرف وقبّلتني على خدي، لكنها لم تتركني أقبّلها أو أرافقها حتى الباب في الأسفل. كنت لا أزال عارياً، فجلست على الفراش في هواء أيار الليلي المنساب من النافذة المرتفعة وفتحت الرسالة. كتبت ثيا عنوانها ورقم هاتفها وقالت «أرجو أن تتصل بي غداً. وأرجو ألا تكون غاضباً مني بسبب شيء لا قدرة لي عليه».

عندما تذكرت كم أخجلتها تلك الغيرة التي صعدت إلى وجهها، وكم كانت لحظة صعبة عليها عندما أتيت إلى الباب عارياً وتكلمت معها... لا أظن أن مشاعري كانت ميّالة إلى الغضب، أبداً. بل إنني لم أستطع إلا أن أشعر بسعادة. صحيح أنها لا يحق لها أن تزعج صوفي بهذا الشكل ولا أن تفترض أنها الوحيدة الجديرة بالحب. ثم جاءتني أفكار أخرى كثيرة من بينها التساؤل عما إذا كنت معرضاً لخطر الوقوع في حب يصبح ملزِماً لي. لماذا؟ لأن الحب نادر إلى درجة أنه إذا كان موجوداً عند أحد ما فما على الآخر إلا أن يذعن له! هذا إذا لم يكن لديه شيء أكثر أهمية في ذلك الوقت! كان هنالك قدر كبير من الفكاهة الجامحة في هذه الأفكار، لكن مع حقيقة أن مشاعري أثيرت وصارت قابلة للاستجابة إلى كل شيء، بما في ذلك حفيف أوراق الأشجار عند قممها. فكرت في أن المرأة لا يشغلها شيء سوى الحب؛ ثم الطفل، في أوقات لاحقة. اعتبرت هذه الفكرة نوعاً من التسلية أو من الاحتجاج على ما حدث في عقلي الذي صار خفيفاً. خفّة العقل هذه... كان في وسعي أن أستفيد من تلك الحكمة القائلة إن الثقل أصل النور. فأولاً، يأتي ما هو جليل أو متميز

من شيء مدفون عميقاً. لكن، بما أن على الحكمة أن تنتشر وتنطلق في كل اتجاه، فإن هذا يمكن أن يشير أيضاً إلى الضحكة الصغيرة التي هي جزء بسيط مما ينطلق إلى الأعلى منبعثاً عن ثقل كبير في القلب، أو عن قوة الجاذبية التي تعاكسها تلك الضحكات المندفعة إلى الأعلى رغم أن الإنسان الذي يريد الإيمان يمكن أحياناً أن يجد طريقه إلى الإله عن طريق المزاح... عن طريق الضحك نفسه.

نمت نوماً عميقاً تلك الليلة. نمت في سريري الذي لا يزال عابقاً بعطر صوفي أو برائحة مساحيقها؛ نمت كأنني ملفوف في راياتها. عندنا استيقظت ظننت أن نومي كان نوماً هادئاً وأن ذلك الصباح المبكر كان شديد الضياء. لكني كنت مخطئاً. تذكرت الكوابيس التي جاءتني... رأيت بنات آوى تحاول اجتياز أسوار هارار في أثيوبيا القديمة لتأكل جثث الموتى الذين أودى بهم الطاعون. كان ذلك من كتاب استعرته من آرثر ثم قرأت فيه قليلاً وتركته على الطاولة. كان لواحد من شعرائه المفضَّلين. سمعت ميمي في الأسفل تصرخ وتشتم على الهاتف رغم أنها كانت مجرد مكالمة عادية. كان يوماً طازجاً نضراً... يومَ جمالٍ يكاد المرء يستطيع أن يمسكه بين يديه: ملأت حرارة الأزهار زوايا الباحة، أزهار مزروعة في أواني قديمة مرمية أعادوا استخدامها. كان اللون الأحمر في تلك الأزهار في أوجه ذلك اليوم، كان قادراً على جعلك تصاب بالدوار ويهاجم قلبك بقوة تكاد تشبه قوة مرض يسبب تشنجات وبصاقاً مدمى وتعفناً شديداً غنياً مثل السعادة. أحسست بوخز في وجهي كأنه تعرض لضربة حادة كافية لأن تجعل الأنف ينزف دماً. أحسست بأنني منتفخ متورم، وبدوت كذلك، كما لو أن عندي فائض من الدم جعلني أتوقع حدوث مشكلة تسمح لي بالتخلص منه. كان ذلك الإحساس في يديَّ وقدمَيَّ أيضاً. خرجت، ومشيت بعض الوقت، لكن صلابة الرصيف اخترقت حذائي الجلدي وأحسست كأن عروقي قد امتلأت رصاصاً. لم أطق الجلوس في المقهى، حتى ذلك الوقت القصير اللازم لابتلاع فنجان القهوة. جرجرت نفسي إلى المكتب، ذهبت في حافلات مزدحمة. وعندما سقطت جالساً على الكرسي ماداً ساقيَّ أمامي أحسست بالإعياء في جسدي كله، في شراييني وقدميَّ الممتدتين. تمنَّيتُ ألا أضطر إلى النهوض من مكاني. كان الباب مفتوحاً، والنوافذ مفتوحة. وجدتْ عفونة ذلك المكان المزدحم دائماً فرصة لأن تتخلص من نفسها، فرصة تشبه الهدوء الذي يخيم في قاعة المحكمة قبل استئناف المخاصمات. ومضت قبّرة تغني، قبّرة ليست محتاجة إلى النحنحة أو البصاق.

لكن العمل انطلق مندفعاً ذلك اليوم. وفي غمرة عجزي المزعج عن مواكبة اندفاعه، كان الأمر شبيهاً بالاضطرار إلى بذل جهد مضاعف في الرقص... رقصة فالس قاتمة غاضبة يحاول كل واحد من المشاركين فيها إنهاك شريكه؛ أو رقصة منفردة، أو رقصة تارانتيلا مجنونة... أو شيئاً يشبه ذلك التمايل المتعثر الأعرج لشخص كاد يفقد الوعي.

كان شيئاً يشبه ذلك الرفس الوبائي الراقص عند الأقنان القدامى في ألمانيا... شيئاً يشبه خطو المراهَقة المتردّد الوجل؛ يشبه رقصة تشارلستون. واجهت مختلف أنواع الناس في ذلك اليوم؛ وتجنبت النهوض من مكاني إلى أقصى حدود التجنب إلا عندما اضطررت إلى الذهاب إلى المرحاض للتبول، أو عندما ظننت أنني جائع فنزلت إلى حيث صالة البلياردو وزاوية الطعام حيث أصابني اخضرار الطاولات بالغثيان. لكن شهيتي كانت معدومة من غير ذلك أصلاً. كان هذا نوعاً آخر من العذاب الذي ما كان خواء الأمعاء سبباً له.

عندما عدت إلى غرفتي وجدت حشداً جديداً من الناس ينتظرني. أنا، الموظف المهم المرهَق الذي تنظر إليه عيون الجميع، حارّة، شرهة، متوترة... نظرات توقير عند البعض، ونظرات متآمرة عند غيرهم. ما الذي كنت قادراً على تحقيقه من أجلهم من خلال طريقة كلامي معهم، ومن خلال توجيههم إلى كيفية ملء طلبات الانتساب؟ يا ربي، يا إلهي! أعرف أن شقاء الإنسان في عمله يجب أن يكون واحداً من تلك الأشياء التي ترتّب أمرها العناية الإلهية... عناية تنقذ الإنسان من خلال المحافظة عليه، وإلا فسوف يجوع أو يتجمّد أو تدق عنقه الهشة أصلاً. لكن... ما أغرب وما أعجب صيغ البقاء التي ينتهي إليها فيصير مثلها في خضمّ تلك السيرورة!

فكرت في هذا وأنا أعيش تلك الحالة غير المألوفة؛ وعندما كنت أتذكر حفيف ثوب ثيا الحريري البنّي كنت أرتعش لتلك الذكرى. أرتعش لتلك الذكرى مثلما أرتعش أمام النتائج الغريبة لتاريخ الكدح البشري.

كنت أطلبها بالهاتف كلما سنحت لي الفرصة. لم يجبني أحد؛ ثم أتاني غراميك قبل أن أفلح في الحديث معها. كان في حاجة إلى مساعدة مني في شيكاغو الجنوبية تلك الليلة. يريد الذهاب إلى مصنع للشاش والضمادات أفلح في اجتذاب بعض عماله عندما كان مارّاً بذلك المكان. كنا نشبه عصبة من الجيزويت تحل بشعب وثني ظامئ إلى تعميده، آلاف كثيرة منحدرة من قراها القرميدية. كان مطلوباً أن أملأ حقيبة بالمطبوعات المختلفة وطلبات الانتساب، وأن أسرع إلى محطة إيلينويز المركزية لألحق بالقطار الكهربائي وألاقي غراميك في الحانة التي اتخذها مقراً له؛ مكان خشن لكن له مدخلاً خاصاً للسيدات والعائلات. اختار هذا المكان لأن معظم الأشخاص العاملين في مصنع الشاش من النساء.

لا أعرف كيف يتمكنون من إنتاج ضمادات نظيفة في تلك البلدة القميئة العامرة بهباب الفحم، بلدة مبنية كأنها نتاج مشاريع كثيرة لهواة حمقى يريدون بناء برج بابل؛ لكن عمارتهم تعثرت عشرات المرات عند الطابق الثاني فكفّت الأيدي كلها عن البناء ومضت للعمل داخل تلك المباني بدلاً من إكمالها. كان غراميك في خضمّ عمله، منهمكاً في تنظيم الناس. كان صلباً كأنه راعي بقر، لكنه هادئ أيضاً كأنه معلم النجارة في مدرسة

ثانوية أو كأنه مشرف على حفلة في الكونغرس، كأنه شخص منطلق صوب فتح المنطقة كلها بوداعته واعتداله وحدهما.

سهرنا الشطر الأكبر من الليل. وعند الصباح، كان كل ما يلزم جاهزاً، تشكلت اللجان، وكتبت المطالب، واشتغلت آلة المفاوضات، وتوصلت الأطراف كلها إلى اتفاق. وعند التاسعة صباحاً رفع غراميك سماعة الهاتف ليتحدث مع الإدارة. انطلقت المفاوضات الفعلية عند الحادية عشرة. وفي وقت متأخر من تلك الليلة، انتصر المضربون ومضينا بصحبة أعضاء النقابة السعداء إلى حانة فيها طعام وصخب كبير. كان هذا أمراً عادياً لدى غراميك، أمراً أنجزه من غير مشقة. لكني حظيت بنصيبي من الثناء والمباركات.

مضيت إلى كشك الهاتف في آخر تلك الصالة حاملاً كأس البيرة، وطلبت ثيا من جديد. نجحت هذه المرة. قلت لها: «استمعي! إنني أتصل بك من خارج المدينة حيث اضطررت إلى الذهاب من أجل العمل. لولا ذلك لاتصلت بك في وقت أبكر. لكني أتوقع أن أعود غداً».

«متى؟».

«بعد الظهر، كما أظن».

«ألا تستطيع القدوم في وقت أبكر؟ أين أنت الآن؟».

«خارج المدينة؛ وسوف آتي في أسرع وقت أستطيعه».

«لكني لا أستطيع البقاء في شيكاغو طويلاً».

«هل أنت مضطرة إلى الذهاب؟ أين تذهبين؟».

«يا عزيزي، سوف أشرح لك الأمر عندما أراك. سوف أظل في البيت طيلة نهار الغد. إذا لم تستطع الاتصال قبل وصولك، فعليك أن تقرع الجرس ثلاث مرات».

استولت عليَّ الإثارة سريعاً كأنها ضربة قوية من فرشاة رسّام. وقفت مغمض العينين سعيداً، زمجرت حرارة مفاجأة في أذنيّ وسَرَت رعشات في ساقيّ. كنت أموت رغبة في الوصول إليها. لكني لا أستطيع المغادرة بعد. لا بد من إكمال ما بقي من عمل. أمر مهم أيضاً أن يقول المنتصرون «إلى اللقاء» بطريقة لائقة. لم يكن غراميك قادراً على الذهاب قبل ترتيب سجلاته وقبل التأكد من أن كل شيء يسير بانتظام. وعندما عدنا إلى المدينة كان يجب أن أذهب معه إلى المقر لإبلاغ الإدارة بالنجاح الذي أصبناه. كان هذا من أجل تعزيز موقعي، وأيضاً تسجيل نقطة عند السيد آكي حتى أصبح أكثر أهمية في نظر المسؤولين، ولا أبقى مجرد شخص يعمل هناك.

كان آكي في انتظارنا، لا لتهنئتنا بل لتكليفي بمهمة جديدة من مهماته التي لا تنتهي. قال مخاطباً غراميك بدلاً من مخاطبتي أنا: «غراميك، هل هذا هو مارتش الذي يعمل معك؟»... تابع كلامه من غير أن تعثر عيناه عليّ كأن وقت ذلك لم يحن بعد... «عليك أن تقوم بحل مشكلة جدية اليوم، في هذه الدقيقة تماماً. إنها حالة من حالات الازدواجية النقابية. حالة صعبة. كم شخصاً لدينا في فندق نورثمبرلاند ـ إنه فندق فخم ـ كم عدد الذين قدّموا طلبات انتساب هناك؟ غير كافٍ! يجب أن يبلغ العدد مئتين وخمسين في مكان كهذا».

قلت: «أظن أن لدينا نحو خمسين طلب انتساب من نورثمبرلاند؛ ومعظم هؤلاء من العاملات في خدمة الغرف. لكن لماذا؟ ماذا يحدث؟».

«إنهم يستعدون للإضراب؛ هذا هو الأمر. تلقينا هذا الصباح خمسة اتصالات من صوفي غيراتيس؛ واحدة من العاملات تسأل عنك. هنالك اجتماع الآن من أجل الإضراب في غرفة البياضات. عليك أن تذهب وتوقفهم. إن جماعة مؤتمر المنظمات الصناعية موجودون هناك. علينا أن نركز على إجراء انتخابات».

«فماذا أفعل؟».

«عليك تهدئتهم. اجعلهم يوقّعون طلبات الانتساب وامنعهم من بدء الإضراب. أسرع الآن، فلا بد أن أبواب الجحيم قد انفتحت».

حملت حقيبة طلبات الانتساب وانطلقت إلى فندق نورثمبرلاند. كان الفندق بناية كبيرة لها واجهات مبهرجة وزخارف رومانية صاعدة حتى الطابق الثالث عشر المطل على أشجار الدردار الكبيرة وعلى بقع المروج الخضراء كأنها أعلام ممتدة في لينكولن بارك.

ذهبت في سيارة تاكسي. لم أجد أحداً من موظفي الاستقبال عند الباب. كان المكان متألقاً بدروع نحاسية مصفوفة على الجانبين وبأربعة أبواب زجاجية دوّارة كُتب عليها اسم الفندق بأحرف مزخرفة متشابكة. قدّرت أنني لن أستطيع المضيّ بعيداً إذا دخلت عبر ردهة الفندق. فأسرعت إلى زقاق خلفي وجدت فيه مدخل الخدمة. صعدت سلماً معدنياً إلى الطابق الثالث لأن أحداً لم يجبني عندما قرعت الجرس عند مصعد الحمولة. سمعت صياحاً فتبعت الصوت عبر الممرات التي كانت إسمنتية تارة ومخملية تارة أخرى... قادتني تلك الأصوات إلى غرفة البياضات.

كان القتال محتدماً بين العصاة والمتمسّكين بالنقابة الرسمية. كان أكثر العصاة من النساء اللواتي يتلقّين أجراً منخفضاً. كن يصرخن بجنون متحدثات عن آخر رفض لزيادة أجرهن البالغ عشرين سنتاً في الساعة. كن جميعاً في ملابس العمل الموحدة، أو في

ملابس عاملات خدمة الغرف. كانت الغرفة بيضاء حارة معرضة لأشعة الشمس المباشرة. والأبواب مفتوحة في اتجاه غرف الغسيل. كانت النساء في ثياب العمل والقبعات البيضاء تصرخن مطالبات بالحرب، بالمضي إلى النضال. وقفْن فوق الطاولات المعدنية وبراميل الصابون ورحن يزعقن مطالبات بالإضراب. نظرت باحثاً عن صوفي فرأتني قبل أن أراها. صاحت: «ها هو المنظم من النقابة. ها هو الرجل. هذا هو مارتش». كانت واقفةً فوق برميل ضخم بساقين منفرجتين في جوارب سوداء. كانت حارة، لكنها متجهّمة شاحبة؛ وكان شعرها الأسود مخفياً تحت قبعتها. لكن الإثارة في عينيها كانت أكثر سواداً من ذلك الشعر. حاولت صوفي ألا تُظهر تلك العينان معرفة بي بحيث لا يستطيع المدقق اكتشاف أن ذراعينا تشابكتا في يوم من الأيام ولا أن يدَيْ كل منا تجوَّلت على جسد الآخر صعوداً ونزولاً.

نظرت حولي فاستطعت رؤية أصدقائي وأعدائي في دقيقة واحدة، هازئين أو مشجّعين، مشكّكين أو أنصاراً، ساخطين، صائحين. كان هنالك شخص متقدم في السن في ملابس بيضاء كأنه طالب طب مقيم في مستشفى؛ وكان له وجه جاف غاضب كأنه محارب مهاجم في لوحة كلاسيكية. أراد أن يشرح لي استراتيجية العمل؛ وراح يتحدث ببطء وتأنٍّ شديدين في قفص الطيور الصاخب هذا، وفي حرارة غرفة الغسيل، إن لم نقل شيئاً عن بياض ضياء الشمس.

أخذت مكان صوفي فوق البرميل وصحت بهم: «انتظروا الآن».

انطلقت صرخات من بعضهم: «سوف نُضرب».

«استمعوا من فضلكم. لن يكون الإضراب قانونياً».

«أوه، إلى الجحيم! فليكن ما يكن! ما هو القانوني؟... أهو أن ننال دولاراً ونصف الدولار في اليوم؟ ماذا يبقى لدينا بعد أجرة الطريق وأجور النقابة؟ هل نستطيع أن نأكل؟ لا بد من الإضراب».

«لا، أنتم لا تريدون الإضراب الآن. سوف يكون إضراباً مخالفاً للقانون. وسوف يرسل مؤتمر المنظمات الصناعية أشخاصاً غيركم ليحلّوا محلكم. سيكون هذا التصرف من جانبهم قانونياً. ما يجب أن تفعلوه هو توقيع طلبات الانتساب إلى نقابتنا حتى نستطيع إجراء انتخابات. وعندما نفوز بالانتخابات نستطيع أن نمثلكم».

«هذا إذا فزنا. كما أن الأمر يستغرق بضعة شهور».

«لكن هذا أفضل شيء تستطيعون فعله».

فتحت حزمة من طلبات الانتساب أخرجتها من حقيبتي وبدأت توزيعها على الأيدي الملوّحة عندما اندفعت مجموعة من الناس آتية من غرفة الغسيل؛ عدة رجال راحوا يشقون طريقهم عبر الحشد دافعين بالنساء جانباً. بدأ المكان بالاهتزاز. وفور إدراكي أن هذا هو ممثل النقابة الخصم مع مرافقيه المعتوهين أحسست بأن أحداً أمسك بي من الخلف وشدني وسقطت عن البرميل ثم ضربني عندما صرت على الأرض، ضربني على أنفي وعلى عيني. انفجر الدم. داس فوقي صديقي العجوز ذو الوجه المتجهّم لكنه فعل ذلك في غمرة اندفاعه صوب الشخص الذي ضربني، وعندما أبعده عني قليلاً، أنهضتني زنجية من عاملات خدمة الغرف. دسّت صوفي يدها في جيبي فأخرجت منديلي. «أوغاد قذرون! لا تقلق يا عزيزي. أمِل رأسك إلى الخلف».

تشكلت حولي الآن حلقة من النساء تحميني؛ وقفن حول البرميل المقلوب. وعندما حاول أحد المهاجمين التقدم نحوي اندفعت عدة نساء إلى تلك النقطة. حمل بعضهن مقصات وسكاكين ومغارف الصابون، فاستدعى ممثل النقابة رجاله الذين راحوا يتجمعون من حوله. كان رجلاً صغير الجسم لكنه يبدو خطيراً، وإن كان قزماً. بدا كأنه شخص من قسم الشرطة نقل عمله إلى الجانب الآخر من القانون؛ أو من لحم القطط إلى اللحم البشري. بدا كأنه شرب كثيراً، لكن لعل ذلك كان لون الغضب، لا لون الويسكي. بدت على وجهه معالم خِسّة لا يخطئها المرء، خسة قادرة على الأذى الذي كان يهددني به. أما أنا فوقفت وقد أغرق الدم منديلي الذي وضعته على أنفي، وقميصي أيضاً، بينما تورّمت عيني وصارت كأنها شق ضيق في وجهي. لكن القانون كان في صفه الآن لأنه الممثل النقابي المتعاقد مع هؤلاء الناس.

«والآن، يا سيداتي، ابتعدن عن الطريق ودعوا رجالي يقبضون على هذا الولد الذي لا عمل له هنا. إنه يخرق القوانين التي أصدرها الكونغرس، ويمكنني أن أطلب إصدار مذكرة اعتقال في حقه. ثم إن الفندق يستطيع أن يضعه في السجن لأنه دخل المكان من غير استئذان».

صرخت النساء وأظهرن مقصّاتهن وأسلحتهن. راحت الزنجية تصيح كأنها من زعماء الهنود الحمر: «أبداً! أبداً أيها التافه الملعون!» أدهشني ذلك، رغم ذعري.

قال واحد من مرافقيه: «لا بأس يا أختي، سوف نمسك به. لن تكون هذه الحماية النسائية موجودة من حوله في كل مكان».

قال رئيسه: «لماذا لا تغلق فمك؟» ثم قال لي: «بأي حق جئت إلى هنا».

«لقد طُلب مني المجيء».

«هذا صحيح تماماً! نحن طلبنا منه أن يأتي». وخلال ذلك، ازداد تجمع الطباخات بقبعاتهن المرتفعة البيضاء وغيرهن من العاملين؛ وقفوا متراصّين من حولي رافعين أنوفهم المتحدية.

«استمعوا جميعاً! إنني ممثلكم الرسمي. فما هو عملي عندما تكون لديكم مشكلة؟».

«عملك أن ترمينا خارجاً عندما نأتي إلى مكتبك طالبين منك شيئاً؛ أما أنت فتضع ساقيك على الطاولة وتشرب من زجاجتك وتراهن على الخيول».

«لا حاجة إلى أي تمرّد هنا! أرى أن هنالك طلبات انتساب كثيرة وزعها ابن الحرام هذا. أريد منكم تمزيقها، وأريد ألا تكون لكم صلة به أو بجماعته».

قلت: «لا تفعلوا هذا!».

حاول الرجل الذي ضربني أن يتقدم من جديد عبر السور النسائي الذي يحميني لكن النساء هجمن في اتجاهه. شدتني صوفي واقتادتني فخرجنا من الباب وعبرنا ممراً طويلاً من ممرات الخدمة.

قالت لي: «هنالك مخرج للطوارئ في الخلف. تستطيع أن تنزل من هناك وتهرب. انتبه يا عزيزي فسوف يلاحقونك الآن».

«وماذا عنك أنت؟».

«ماذا يستطيعون أن يفعلوا لي؟».

«من الأفضل أن تصرفوا النظر عن الإضراب في الوقت الحالي».

شدّت الباب بقوة. كانت واقفة متباعدة القدمين. فتحت الباب الضخم فخرجت منه. قالت لي عند خروجي: «أوجي، لن نكون معاً بعد الآن أبداً، أنا وأنت، أليس كذلك؟».

«أظن أننا لن نكون معاً يا صوفي. تعرفين أن هناك فتاة أخرى».

«وداعاً إذن».

مضيت عبر مخرج الطوارئ ذي اللون الأسود ثم نزلت إلى آخر السلم وقفزت. لكني لم أكن محظوظاً عندما اخترت الشارع الذي أذهب فيه. كان واحد منهم هناك فجاء في اتجاهي. أسرعت صوب شارع برودواي. خشيت أن يطلق عليَّ النار لأن ذلك كان أمراً وارد الحدوث في شيكاغو... من الممكن أن تطلَق النار على أناس في الشارع. لكني لم أسمع صوت مسدس، فتوقعت أن يكون هدفه أن يمسك بي ويضربني ضرباً شديداً ربما يريد أن يكسر بعض عظامي ويتركني ملقياً في الطريق.

كنت أعرف مسالك منطقة برودواي فعبرت المنطقة قبله، رأيته من الخصر فصاعداً وقد أوقفته حركة السيارات في الشارع. لا تزال عيناه معلَّقتين بي. شممت رائحة مخاطي الجاف المذعور في أنفي الذي امتلأ دماً متخثراً. جاءت إحدى حافلات الترام فقفزت إليها. كنت واثقاً من أنه سيلحق بي نتيجة تباطؤ حركة السير عند اقترابنا من الطريق السريع. لكني قد أتمكن من تضليله في الزحام. ثم إنني كنت في مقدمة الحافلة قريباً من السائق. ومن تلك النقطة كنت قادراً على رؤية العربة كلها وعلى تناول القضيب المعدني الذي يستخدمه السائق لتحويل خط سيره. كان القضيب موضوعاً في فتحة في أرضية الحافلة. لا بد أن ملاحقي يتبعني في سيارة تاكسي، واحدة من تلك السيارات الكثيرة المتزاحمة ضمن غلالة الضباب الغازي الأزرق المنبعث منها في هذا الشارع الحار القذر. كرهت ذلك الشارع كثيراً، وكرهت بطء حركة الحافلة. عذبني هذا البطء، وأمرضني. لكنا صرنا قريبين من الجسر ومن أبراجه؛ رأيت النهر الملوث بمياه الصرف والنوارس بمناقيرها التي تشبه العظام. ازدادت سرعة الحافلة عندما اتسع الطريق أمامها على الجسر، ثم هبطت وتناقصت سرعتها عندما انضمت إلى زحمة حركة السير في الشارع الجديد. انتظرت حتى صرنا قريبين من شارع ماديسون. وعندما بلغنا منتصفه قلت للسائق: «أنزلني هنا».

«هذه ليست محطة».

قلت له غاضباً: «افتح الباب وإلا فتحت رأسك». تركني أنزل من الحافلة عندما رأى النار في وجهي والشرر يتطاير من عينيّ، فجريت حتى بلغت الزاوية فانعطفت وضعت من جديد. غامرت بالانضمام إلى جمع من الناس يتحرك سريعاً في شارع ماكفيكرز حيث انتصبت صورة ضخمة لغريتا غاربو. دخلت مسرحاً له ردهة استقبال فاخرة فصرت بعيداً عن الخطر الآن. بدأت أشعر أنه سيكون في خطر هو أيضاً إذا أمسك بي الآن. بحثت عن المرحاض، وهناك تقيأت فطوري. غسلت عني الدم وجففت يدي بالهواء الحار من آلة التجفيف. ثم خرجت فاستلقيت على أحد المقاعد في آخر الصالة حيث كنت أستطيع رؤية الداخلين. استرحت حتى انتهى العرض وخرج الناس فخرجت معهم إلى وسط الشارع المزدحم الذي ملأه غبار وقت الظهيرة. قفزت في سيارة تاكسي وتوجهت إلى بيت ثيا الذي كان هدفي الحقيقي في ذلك اليوم.

الفصل الرابع عشر

كنت مسرعاً إلى تحقيق النبوءة التي أطلقتها ثيا فينكل عندما كنا في تلك الأرجوحة في سانت جوي. صحيح أنني لم أعتبر حادثة ضربي ومطاردتي على هذا النحو شيئاً بسيطاً، إلا أنني ما كنت قادراً على الإحساس بأهمية القضية كثيراً، ولم أجد أنني أفيد أحداً إذا رحت أكافح من أجلها. كان من الممكن أن أخرج في مظاهرات مثلما يفعل غراميك لو أحسست أن المسألة شيء متعلق بالضمير. لقد ضربوه على رأسه بالهراوات، لكنني كنت الآن مع ثيا، بل لم يكن في استطاعتي أن أكون في أي مكان آخر... بعد أن بدأت.

لا، ليس لدي حافز داخلي لأكون من رجال النقابات، أو مهتماً بالسياسة؛ وما كان عندي أي مقدار من الإرادة يحملني على الوقوف في طليعة صفوف الجماهير الموشكة على الانطلاق للخروج من البؤس. كيف يمكن أن يدفعني ما عندي من إرادة إلى ذلك المكان حتى أشق الطريق؟ كنت غير قادر حتى على حمل نفسي على أن أكون واحداً من هؤلاء الناس الذين يتقدمون الآخرين ويتلقفون هذا الإشعاع الاجتماعي الكبير أو يجمعونه أو يركّزونه مثلما تفعل العدسات، والناس الذين يتألقون ويدوّخون الآخرين ويطلقون نفحات من النار. ما كنت مصنوعاً من أجل هذا.

عندما جريت مبتعداً عن سيارة التاكسي ودخلت بناية ثيا وقرعت الجرس ثلاثة مرات، قرعته سريعاً، لم ألقِ أي انتباه للمكان الذي كنت فيه. كان مدخل البناء باذخاً ثقيل الزينة؛ وما كان فيه أحد. حاولت اكتشاف باب المصعد بين تلك الأبواب الأنيقة التي أمامي. ظهر مربّع من الضوء في واحد منها. لقد نزلت ثيا لتلاقيني. انفتح الباب. كان في المصعد مقعد مخملي فهبطنا عليه، تعانقنا وتبادلنا القبل بينما كان المصعد يعلو بنا من غير صوت. لم تلاحظ ثيا قميصي الذي جف الدم عليه؛ مرّرت يدها على صدري ثم صعدت إلى كتفي.

فتحت مئزرها البيتي وكشفت عن ثدييها. لم أكن مسيطراً على نفسي. كنت غير مدرك شيئاً، كنت شبه أعمى. لو كان أحد آخر في جوارنا لما لاحظه أحد منا في تلك اللحظة. لا أستطيع القول بثقة إنني لا أتذكر أي وجه... ربما كان ذلك وجه خادمة رأيته عندما انفتح باب المصعد فخرجنا متعانقين في الممر، ثم دخلنا شقتها وسقطنا خلف الباب، على السجادة.

لم يكن الأمر مع ثيا مثلما كان مع غيرها من النساء؛ النساء اللواتي يمنحونك الإذن، إن جاز التعبير، بأن تتقدم خطوة واحدة وأن تعبّر عن إعجابك بما تجده، ثم يتحفّظن من جديد على ما بعده، ويظل الشيء الأخير محروساً. لم تؤخّرني ثيا، ولم يظهر عليها استعجال أيضاً. كأنها تدرس كل شيء بعمق في دماغ مستسلم، تدرس كل شيء بشفتيها، بيديها وشعرها، بصدرها الناهض، وبساقيْها... من غير استخدام أي قوة... بدا الأمر الآن كأن تحوّلاً أو تبدلاً قد حدث لنا، كلينا. صار كل منا شخصاً آخر ما كان موجوداً من قبل. كان هناك إحساس قوي بالحب. وفي النهاية، كما لو أنني كنت راكعاً على ركبتيّ، أصلي، بروح يفترض أنها مختلفة عن هذه تماماً، شابكاً أصابعي... لا أظن الأمر مختلفاً عما أحسست به يكتنفني، بل يجتاحني الآن من غير أن تكون أصابعي متشابكة... أصابعي التي تلمس ثدييها بدلاً من الرجاء. وضعت وجهي المتألم وعيني المتورمة بينهما، فوضعت ذراعيها حول رقبتي.

بدأت الشمس تدفئنا عند الباب، على السجادة حيث استلقينا. كان ضياء الشمس يشبه غلالة بيضاء، مثلما كان في غرفة البياضات في الفندق. رأيته متسخاً في الشارع، على الرصيف، عندما قفزت من الحافلة، أما هنا فقد عاد إشعاعاً أبيض مثلما كان. سرعان ما رغبت في شد الستارة لأن الشمس آلمت عيني المصابة. وعندما وقفت لاحظت ثيا، للمرة الأولى، مظهري الغريب.

صاحت: «من فعل بك هذا؟».

شرحت لها الأمر كله فظلت تسألني: «ألهذا لم تأتِ؟ أهذا ما كنت تفعله طيلة الوقت؟» كان الوقت الذي ضاع أهم شيء عندها، أهم شيء على الإطلاق. صحيح أنها ارتعشت عندما نظرت إلى كدماتي، إلا أن السبب الذي أدى إلى ضربي لم يثر اهتمامها؛ لم تكن شديدة الفضول في ما يتعلق بالسبب. لقد سمعتْ عن تحركات كبيرة في النقابات، لكن وجودي ضمن هذه التحركات ما كان شيئاً يستدعي اهتمامها. بما أنني لم أكن معها، وبما أنني يجب أن أكون معها، ما كان مكان وجودي كبير الأهمية في نظرها. كانت تلك كلها أشياء معترضة، أشياء في وقت ضائع، أشياء من نوع غير حقيقي، تنتمي كلها إلى الخارج. صانعات الشاش، وعاملات الفندق المضربات، وأخطاء من قبيل الأوهام التي تلبّستني

حول أختها، ومهزلة اعتباري عشيقاً للسيدة رينلينغ... هذه كلها أشياء تخلصت ثيا منها، كلها أشياء «خارجية» بالكامل. الواقع الحقيقي هو ما يحدث الآن، هنا. لقد لاحقت هذا الواقع بغريزتها منذ أيام سانت جوي، وهذا كان سبب أسفها على ذلك الوقت الضائع كله؛ وهذا ما جعلني أحس بخوفها عندما كانت تتخيل أنها قد لا تنجح في العثور على طريقها للخروج من ذلك «العالم الخارجي» ومن التجول على غير هدى إلى الأبد.

من الطبيعي أنني لم أفهم هذا على الفور. فهمته خلال الأيام القليلة التي تلت ذلك؛ أيام أمضيناها في شقتها. كنا ننام ونفيق، ولم نناقش شيئاً مما فعلتُه أو مما فعلته هي. كانت حقائبها واقفة حول السرير، لكني لم أسألها عنها. أمر حسن أنني لم أخرج لأن هؤلاء القتلة كانوا يبحثون عني حتى يجعلونني عبرة لغيري. أخبرني غراميك بهذا عندما اتصلت به.

النساء اللواتي عرفتهن، النساء الأخريات... نعم، لا ألومهن على أنني أحببتهن أقل مما أحببت ثيا. من خلالها وحدها بدأت أتعلم أشياء عن الأسباب الكامنة خلف آرائي. كان هنالك أشخاص بطيئون في حياتهم أكثر مما يجب، بطيئون نتيجة تعبهم أو عدم رغبتهم أو المشقّات التي تعترضهم أو أحزانهم أو قلة ثقتهم؛ وكان هنالك أشخاص سريعون أكثر مما يجب في الخروج من متاعبهم ومن حالات قنوطهم. لكن، وبقدر ما أعرف، كانت حياة ثيا مثالية. كانت مثالية كلها. وهكذا كان كل ما تفعله، مهما يكن صغيراً، كمشيها إلى المطبخ أو انحنائها لالتقاط شيء عن الأرض، أو شكل ظهرها، أو خط عمودها الفقري، أو ذلك الانفراج الناعم بين نهديها... تقفز روحي من مكانها حتى عندما أرى فرشاة شعرها. أحببتها إلى درجة جعلت أي شيء تفعله يعجبني. كنت في غاية السعادة. وعندما تمضي في الغرفة وأكون أنا متمدداً يحتل جسدي مساحة كبرى من سريرها، كنت أحس نفسي ملكاً وأشعر بمدى سعادة وجهي الناظر إليها.

كان وجهها أكثر شحوباً مما أتذكره، لكني أدرك الآن أنني لم أنظر إليه جيداً من قبل. كان على وجهها أيضاً أثر من بعض متاعب الحياة، بالتأكيد، عندما تنظر إليه من مسافة قريبة؛ إلا أن عينيها كانتا خاليتين من هذا الأثر، نسبياً، في الوقت الحاضر. كان شعرها أسود اللون. وجذور ذلك الشعر نابتة بشيء من عدم الانتظام عند جبهتها، صاعدة إلى الأعلى، جميلة لهذا السبب. عليك أن تنظر جيداً حتى تلاحظ هذا الشذوذ. أما عيناها فكانتا أكثر سواداً. وكانت غالباً ما تضع على فمها أحمر الشفاه من أنبوب صغير موضوع على الطاولة إلى جانب السرير كأنها تشعر بأن عليها أن تظل متزيّنة، بتلك الطريقة على الأقل، بذلك اللون القرنفلي... الذي تناثرت بقعه النارية على الوسائد، وعليّ أيضاً.

عندما اتصلت بها من خارج المدينة قالت لي إنها لا تملك وقتاً كثيراً لأن عليها أن تغادر المدينة قريباً. لكنها لم تتحدث عن هذا الأمر خلال الأيام الأولى. إلا أن الحقائب كانت

تذكاراً دائماً جعلها تطرح الأمر وتخبرني بأنها كانت متزوجة ولا تزال متزوجة من الوجهة القانونية. إنها في طريقها من لونغ آيلاند إلى مكسيكو من أجل الطلاق. ولخشيتها من جرح مشاعري قالت أول الأمر إن زوجها أكبر سناً بكثير منا نحن الاثنين، وإنه واسع الثراء. لكن كلاماً أكثر جاء شيئاً بعد شيء. كان لدى الرجل طائرة خاصة من طراز ستينسون. وكانت أطنان من الجليد تفرغ في بحيرته الخاصة عندما تشتد الحرارة كثيراً في شهر تموز، ويذهب في رحلات صيد إلى كندا، ويضع على كمَّيْ قميصه دبوسين يبلغ ثمنهما خمسة عشر ألف دولار. طلب تفاحاً من أوريغون فبلغت تكلفة التفاحة الواحدة أربعين سنتاً. وكان يبكي لأنه يصاب بالصلع سريعاً... وأشياء من هذا القبيل. كان كل ما قالته مختاراً لكي تبرهن لي على أنها لم تكن تحبه. لكنني لم أكن شديد الغيرة. أظن أنني لم أجد في الأمر قضية تستحق الوقوف عندها لأنه خاسر سلفاً. كانت إيستر أيضاً متزوجة من رجل لا يقل عنه ثراء، محام من واشنطن العاصمة. بدا هذا الكلام شديد الغرابة بالنسبة لي، لكنها لم تلاحظ شيئاً... الطائرات، والصيد، وأكوام المال. كانت ثيا أيضاً تسافر مصطحبة معدات رياضية مختلفة: البنطلونات القصيرة والأحذية مرتفعة الساق، وعلب بنادق الصيد، والكاميرات. عثرتُ مصادفة في الحمام على مصباح يشعّ ضوءاً أحمر تستخدمه ثيا لتظهير الأفلام. كما وجدت أيضاً أوعية فيها سوائل غريبة، وأنابيب وأدوات غير مألوفة.

وخلال هذا الحديث، كان المساء يلوح في النافذة. كنا جالسَيْن إلى الطاولة وقد أنهينا عشاءنا المبكر قبل قليل؛ عشاء طلبناه بالهاتف. وكان على الطاولة قشور بطيخة صفراء، وعظام دجاج، وأشياء أخرى. وكانت تحدثني عن زوجها؛ لكني ما كنت قادراً على التفكير إلا في حظي السعيد، في هذه النقطة وفي هذه الساعة عندما أرخت رأسها على الستارة واضعة يديها خلفها عند النافذة المفتوحة تماماً تحت ظل الزرقة الذي ظهرت فيه الأشجار واضحة ثم غدت أكثر شحوباً. هنالك أشجار في باحة البيت الصغيرة المفروشة بحصى بيضاء. دخلت حشرة كبيرة من النافذة وراحت تمشي على الطاولة. لا أعرف تلك الحشرة، لكنها بنّية لامعة. في المدينة، تصبح سلسلة الحشرات الكبيرة الموجودة في الطبيعة صغيرة حقاً، لكنها تكون حاضرة عند وجود غصن أخضر أو اثنين. ومن الشقة التي تحتنا، سمعنا صوت انسكاب ماء غسيل الأطباق بعد العشاء. أما في الأعلى، ناحية «مطبخ الجحيم»، حيث ذلك الزوج من أبراج الكنيسة، فقد انطلق صوت الأجراس. كان من يستهدفهم هذا القصف الصوتي اللطيف في ذلك الشفق الروماني غير قادرين على سماعه إلا قليلاً بسبب صوت الماء المندفع من الصنابير وصوت قرقعة الأطباق. كنت مرتدياً واحداً من أثواب الحمام، أثوابها هي، جالساً في كنبة حريرية ماداً ساقيَّ تحت الطاولة. فماذا أفعل في لحظة من هذا النوع، وأنا سعيد هذه السعادة كلها؟ أأحس غيرة من زوجها الذي هجرته؟

بما أنني أوشكت (منذ فترة وجيزة) على أن صير زوج لوسي ماغنوس، فقد فهمت ما

جعل ثيا تتزوج في وقت زواج أختها تقريباً؛ فهمت ما جعلها تتزوج شخصاً من الصنف نفسه من الرجال. ورغم قدرتها على السخرية من أولئك الرجال الآن، فقد اكتشفت في وقت لاحق أنها تعاني ضعفاً من كونها ناجحة في الدوائر الاجتماعية، أو أنها تحب على الأقل أن تشعر بتفوقها على نساء العائلات الراقية في بوسطن أو فيرجينيا. كانت معارفي هزيلة في هذا الفرع من فروع المنافسة بين البشر. افترضت ثيا أنني ذاهب إلى مكسيكو معها. أما أنا فلم أفكر في الرفض تفكيراً جدياً على الإطلاق. أعرف أنني لا أملك ما يلزم من كبرياء، أو من إحساس قويّ بالواجب، لكي أطلب منها أن تعود في وقت آخر عندما أصبح جاهزاً، أو عندما أصبح في وضع أفضل على الأقل، بعد أن أترك النقابة بطريقة لائقة، أو عندما أصبح قادراً على تغطية نفقات حياتي على أقل تقدير. قلت لها إنني لا أملك مالاً، فأجابت بكل جدية: «خذ ما يلزمك من البراد». كانت معتادة أن تترك في البراد المال الذي يعيده إليها عمال توصيل الطلبات، إضافة إلى الشيكات وما شابه ذلك. كانت النقود هناك مختلطة بأوراق متعفّنة من بقايا السلطة وموزعة في صحون تحتوي على بقايا اللحم... والأشياء التي لم ترغب في رميها. كانت الخمسات والعشرات مرمية هناك؛ وكان يمكنني أن آخذ منها ما يلزمني عند خروجي مثلما يتناول الرجل منديلاً من الدرج بحركة اعتيادية.

جرى حديث بيني وبين غراميك سألته فيه أن يحل محلي في التعامل مع عمال فندق نورثمبرلاند. كان قد فعل ما يستطيع فعله، حتى قبل أن أطلب منه ذلك. قرر العمال أن يلغوا الإضراب. قال لي إن ذلك المنظم النقابي، ورجاله معه، لا يزال يبحث عني... يريد أن يشبعني ضرباً. دهش غراميك عندما أخبرته بأنني سأترك العمل وأغادر البلدة. لكنني شرحت له قصتي مع ثيا، وجعلته يفهم أن عليّ أن أذهب معها، فبدا عليه أنه صار يتقبل الأمر بشكل أكبر. قال لي إنه أمر سيئ أن نكون عالقين بهذا الشكل في حالات الازدواجية النقابية. وقال إن على منظمتنا أن تبذل جهداً حقيقياً في قطاع الفنادق، أو تنسحب من ذلك القطاع.

اهتمت ثيا بتجهيزي بالملابس المناسبة قبل الرحلة. وهنا صرت أرى نفسي، لسبب ما، كأنني دوق ويلينغتون مرتدياً ملابس الصيد في سالزبوري... معطف أزرق، وقبعة سوداء، وملحقات من جلد الغزال. لعل هذا لأن ثيا كانت متمسكة بفكرة شديدة التحديد عما يجب أن أرتديه. مضينا من متجر إلى متجر في سيارتها الكبيرة لتجريب الملابس. عندما تجد شيئاً تظنه مناسباً، كانت تقبّلني وتصيح: «أوه، يا حبيبي! أنت تجعلني سعيدة الآن». ما كانت تبالي بردّات فعل عمال البيع والزبائن الموجودين في تلك المتاجر. أما عندما ألتقط شيئاً لا يعجبها فإنها تضحك ثم تقول: «أوه، يا أحمقي! اخلع هذا. إنه يشبه ما كانت تلك السيدة في إيفانستون تظنه جميلاً». لم تعجبها أيضاً الملابس التي أعطاني إياها سايمون. أرادت أن أبدو في مظهر رياضي. اشترت لي من متجر فون لينغيركي وأنطوان سترة جلدية

تجعلك راغباً في المضي وراء الطرائد، وإلا فإنك لن تطيق ارتداءها. كانت سترة عظيمة فيها أكثر من عشرة جيوب وفتحات مختلفة للخرطوش والسكين وأعواد الثقاب المقاومة للرطوبة والبوصلة، وأشياء أخرى. إذا ألقوك في وسط بحيرة هورون مرتدياً هذا السترة فإنه يبقى لديك أمل في النجاة. وعندما جاء وقت شراء الأحذية، عبرنا جادة واباش إلى متجر كارسونز الذي لم أدخله منذ اصطادني جيمي كلين في الباب الدوار في تلك اللحظة المشؤومة.

كانت هي من يتكلم في تلك المتاجر. وكنت صامتاً أكثر الأحيان، محرَجاً، آتي مبتسماً لتجريب هذا الشيء أو ذاك ثم أقترب من المرآة ذات الوجوه الثلاثة وأتركها تمسكني وتديرني يميناً ويساراً لترى جيداً. كنت سعيداً بالأشياء الغريبة التي تفعلها... تتحدث بصوت مرتفع، ولا تبالي بأن يظهر رباط سروالها الداخلي من فتحة ثوبها الأخضر الأنيق، ولا بأن تنسدل على رقبتها بعض شعرات هربت من قبضة المشط الصغير الذي ثبتت به شعرها ذا السواد الياباني. كانت فساتينها باهظة الثمن لكن، مثلما لاحظت على قبعتها عندما جاءت إلى غرفتي، كان هنالك دائماً شيء في غير محله، شيء ناتج عن الإثارة... شيء عصيّ على الترتيب.

مضيت عبر هذا كله، وتلقيت القبلات في المتاجر، وتلقيت المشتريات والهدايا، لكن حظي السعيد هذا لم يجعلني ذليلاً... نعم، سأقول هذا عن نفسي. لو أنها أعطتني حقوق امتياز وسندات ملكية مثلما أعطت إليزابيث ليسستر، لما جعلني ذلك أحسّ حرجاً؛ ولم أكن لأحس أي حرج لو لبست الريش بدلاً من تلك قبعة رعاة البقر التي سرَّها مظهرها. إذن، ما كانت الملابس الفاخرة والأقمشة وجلد الشاموا والقفازات السويدية والأحذية مرتفعة الساق التي جعلتني أخرج من جادة واباش كأنني زائر ثري أو كأنني سائح، لتسبب أي حرج لي، بل جعلتني أضحك وأمشي مختالاً... أتصرف كأنني غريب في مدينتي.

كانت مجنونة بمتاجر المنوَّعات أيضاً حيث تشتري مستحضرات التجميل والدبابيس والأمشاط. بعد أن وضعنا مشترياتنا الثمينة في السيارة، مضينا إلى ماكروري وكريزغي فأمضينا فيهما ساعات متجوّلَيْن في الممرات وسط جمهرة كبيرة من الناس، معظمهم نساء، على وقع أنغام أغاني الحب التي تصدح مرتفعة الصوت. تحب ثيا شراء بعض الأشياء بأسعار رخيصة؛ ولعل هذا يعطيها إحساساً بالعلاقة العميقة مع القروش والقطع النقدية الصغيرة ويعبر عن عمق الثراء الحقيقي. لست أدري! لكني لم أجد غضاضة في التجول معها في هذه المتاجر. كنت أذهب حيثما تقول لي، وأفعل ما تطلبه مني، مهما يكن، لأنني مربوط بها كأن خيوطاً تشد جلدي إلى جلدها. وهذا ما كان يجعل كل سلعة بسيطة تثير إعجابها مهمة في نظري على الفور؛ كل شيء على الإطلاق... مشط أو دبوس

للشعر أو قطعة ملابس داخلية أو بوصلة في علبة معدنية حلزونية الشكل اشترتها برضا كبير، أو قبعة بيسبول خضراء الحافة من أجل الطريق، أو حتى تلك القطيطة التي تحتفظ بها في شقتها... لم تكن تذهب إلى أي مكان من غير وجود حيوان معها. هذا القط الصغير ذو الجلد المخطط والذيل المدبَّب، كأنه قط بحر صغير يسير في الظلمة المنداحة على أرض تلك الغرف في جناحها الكبير، غرف لا تستخدمها أبداً. لقد استأجرت شقة ضخمة، ثم سكنتها بطريقة من يريد الاقتصاد في المساحات، وراحت تجمع الأشياء وتكوّمها من حولها. كان في الشقة خزائن كثيرة، لكن ثيا آثرت تناول أشيائها من الحقائب والصناديق مباشرة. كنت لا تستطيع الوصول إلى السرير القابع وسط هذه الفوضى إلا عبر فراغات ضيقة في هذا الركام. كانت تستخدم الملاءات مناشفاً، والمناشف بسطاً عند الأبواب أو في أرض الحمام أو لتمسح بها فضلات القط لأنه لم يكن يخرج من البيت. كانت تمنح الخادمات رشى صغيرة، قناني عطر وجوارب، حتى يقمن بالتنظيف ويغسلن الصحون والملابس الداخلية وغير ذلك من المهام. أو لعلها كانت تفعل ذلك حتى لا ينتقدن فوضاها. كانت تظن أنها شديدة المهارة في التعامل مع موظفي الاستقبال والخدم. أما أنا، المنظّم النقابي السابق، فما كنت أقول شيئاً.

ما كان لهذا أي أهمية! تركتُ أشياء كثيرة تجري على هواها. في تلك الأيام، كان كل ما يلمسني يستولي عليّ كلياً، أما ما لا يلمس في نفسي شيئاً فكان كأنه ميت في نظري، وما كان قلبي يشعر بشيء تجاهه. لم يسبق لي من قبل أبداً أن شغفت هذا الشغف كله بكائن بشري واحد. كنت أتبع هواها كيفما مال. لكني لم أكن أقدّر هذا حق قدره لأني لم أبلغ بعد تلك السن التي تجعلني أعاني من اقتصار حياتي على مشاعري وحدها.

كنت أدرك أحياناً أنني أتخلى عن بعض الحمايات القديمة القوية التي صرت أراها فارغة الآن. أوه... ألم أتلقَ ما فيه الكفاية من التحذير بسبب طبيعة أمي، وبسبب طبيعتي نفسها؟ إنذارات مخيفة! انتبه! أوه، أيها الأحمق الغبيّ، أنت مجرد واحد من بشر لا يُحصون، ولست أكثر من شذرة من غبار معدني منتشر في حقل مغناطيسي، ملتصق بخطوط القوة. حياتك خاضعة لقوانين... أكلك، نومك، عملك، انتقالك، طاعتك، خضوعك. فما الذي يجعلك تبحث عن طرق إضافية لفقدان حريتك؟ ما الذي يجعلك تمضي قدماً صوب عقبات ضخمة لتحطم أضلاعك عليها بدلاً من الابتعاد عنها؟... عقبات تسلبك قواك وتحطم أسنانك. لا، ابقَ بعيداً! كن ذلك الشخص العاقل الحكيم الذي يزحف، أو يركب، أو يجري، أو يمشي إلى غاياته وحدها، إلى ما يستخدم فيه قدراته وحدها؛ شخص يعمل من أجل نفسه ويتقي المخاطر التي هي ملوك هذا العالم. آه، لا يعطونك فرصة للاستراحة، أولئك الملوك! ملوك تقبع تحتهم، أو تنجرف مارة بهم وجوهٌ ميتة كثيرة، أو وجوه تموت.

وهنا تظهر ثيا مع مالها، مع عقلها المصمّم على الحب وعلى اجتراح أحداث كبرى، مع سيارتها، وبنادقها، وأحذيتها، وكلامها عن المكسيك، ومع أفكارها. من أهم الأفكار التي لديها فكرة تقول إنه لا بد من وجود شيء أفضل مما يطلق الناس عليه اسم الواقع. نعم، هكذا بالضبط. جيد جداً، ممتاز! فلنذهب إلى هذا الواقع الأفضل، الأكثر نبلاً. ومع ذلك، عندما يعتنق هذه القناعة الواثقة شخص واحد ويظل عليها زمناً طويلاً، فإن المكابرة تكون لها اليد العليا آخر الأمر. يلحَقُ الأذى بجمال الفكرة نتيجة ما يعانيه المرء على طريق إثباتها. إنني أعرف هذا!

لكن ثيا لديها جانب من التفوق في أفكارها. كانت واحدة من أولئك الناس الواثقين كل الثقة من قناعاتهم، ثقة تجعلهم قادرين على القتال من أجلها، حتى جسدياً. وعندما يبلغ الخطر حد اختراق الجسد، مثلما يحدث مع من تجبرهم الشرطة على التعرّي للتفتيش، أو مثلما يحدث مع الذاهبين للتضحية بأنفسهم، فسرعان ما تتبين القناعات القوية من القناعات غير القوية. إذن، لا تلقِ الكلام جزافاً! ذلك أن ما لا تعانيه بشخصك أنت يكون شيئاً أشبه بالأحلام أو شيئاً يشبه دفقات من نوم... ألعابٌ نارية منطلقة في السماء ونوافير مضيئة تتبعثر ساقطة نحو الأرض. كانت ثيا مستعدة لأشد أنواع الاختبارات لأفكارها.

لا يعني هذا أنها كانت في أحسن أحوالها دائماً. كان عليّ أن أقبل نسختها هي عن كل شيء؛ كان هذا تجلياً لعناد إصرارها الذي تحدثت عنه. وبدا واضحاً أيضاً أنها معتادة على الحصول على ما تريد، بما في ذلك أنا. كان سلوكها فضولياً خشناً بعض الأحيان. عندما تأتيها مكالمات من أماكن بعيدة، كانت تأمرني، ببساطة، أن أخرج من الغرفة، وبعد ذلك أسمعها تصرخ في الهاتف فأجفل وأدهش من أنها يمكن أن تملك هذا الصوت. كنت غير قادر على فهم الكلمات، وعلى تخمين أسباب هذا الغضب، لا أكثر. وعندها يخطر في ذهني أنني ما كنت قادراً على أن أرى فيها ما يستدعي انتقاداً لو لم أكن حبيبها.

كانت تفترض أنها تفهم كل ما يتعلق بي؛ وقد أدهشني مقدار ما تعرفه عني. أما ما لا تعرفه فقد بتته بنفسها واثقة من غير تردد. ولهذا، كانت تقول بعض الأشياء القاسية، أو شياء تنضح غيرة، وتتقد عيناها ذكاء من حين لآخر أكثر مما تفيض مودة. كانت تدرك ضعفها، من حيث أنها هي التي سعت خلفي... أما في لحظات ثقتها بنفسها، فكانت ترى في ذلك دليل قوة تفخر بها.

«هل كانت تعجبك تلك الفتاة اليونانية؟».

«نعم، كانت تعجبني بالتأكيد».

«هل كان الأمر معها مثلما هو معي تماماً؟».

«لا».

«أعرف أنك كاذب يا أوجي. بالطبع، كان الأمر نفسه بالنسبة إليك».

«ألا تجدين ذلك مختلفاً معي؟ هل أنا مثل زوجك؟».

«مثل زوجي؟ أبداً!».

«طيب، هل يمكن أن يكون الأمر مختلفاً هذا الاختلاف كله بالنسبة إليك من غير أن يكون مختلفاً بالنسبة إليّ. أتظنين أنني أستطيع التظاهر بالأمر، وأنني لا أحبك؟».

«أوه، لكني سعيت إليك ولم تسعَ أنت إلي. لقد تخليت عن كبريائي». كانت ناسية أنني لم أكن أعرفها تقريباً في سانت جوي... «لقد بدأ يصيبك الملل من تلك العاملة اليونانية. وحدث أن ظهرت أمامك فجأة فأغراك الأمر إلى درجة لم تستطع مقاومتها. أنت تحب تلقّي مفاجآت من هذا النوع». صارت تتنفس بصعوبة؛ كانت تعاني... «تريد أن يصب الناس عليك الحب صبّاً أما أنت فتمتصه وتبتلعه. لا تستطيع الاكتفاء منه. وعندما تجري خلفك امرأة أخرى، فإنك تذهب معها. يسعدك كثيراً أن يتوسّل إليك أحد ما حتى تقدم له جميلاً. لا تستطيع مقاومة التملّق».

قد يكون الأمر هكذا لكن ما كنت غير قادر على تحمّله في هذه اللحظة هو توهج نظراتها عندما احتدّت كثيراً وابيضّ وجهها بأعصابه القوية وإصراره المتهوّر الميتافيزيقي. صحيح أنها تضع أحمر شفاه على شفتيها، إلا أنه لا يجعلها تبدو شهوانية وما كان وجهها شهوانياً أيضاً؛ لكن أي نوع من الإثارة، مهما يكن، يستطيع أن يستولي عليها وأن يجتاح وجودها كله. الأمر نفسه عندما تكون غاضبة أو عندما تكون في غمرة الحب ويكون نهداها ملتصقين بي، عندما تتشابك أيدينا وتتلامس أقدامنا. ما كانت غيرتها تمثيلاً أبداً، رغم أنها غيرة من غير معنى.

قلت لها: «لو كان لديَّ القدر الكافي من الحكمة لبحثت عنك. لكن، ما كان لديَّ الفهم الكافي. وهذا ما يجعلني ممتناً لأنك أتيت. ليس لك أن تخافي شيئاً».

لا، لا، لست أبغي أن تكون يدي هي العليا. ولا يهمّني خوض مباراة في الكبرياء! لا شيء من هذا. عندما تسمعني أقول هذا تسري رعدة في قسمات وجهها وأرى توترها يزول سريعاً. ترفع كتفيها وتبتسم لنفسها ويظهر على وجهها لونه الطبيعي من جديد.

ما كانت معتادة فقط على الصراعات المستقلة وعلى المقاومة وعلى المضي في اتجاه معاكس للاتجاه المفتوح أمام الجميع (وهذا ما يجعل أحكامها قاطعة)، بل كانت شكّاكة من نواحٍ كثيرة أيضاً. كانت خبرتها من الناحية الاجتماعية أوسع من خبرتي، وهذا ما يجعلها تشك في أشياء كثيرة واقعة خارج مدى رؤيتي في ذلك الوقت. لا بد أنها تذكرتْ حين التقينا أول مرة، حين بدوت كأنني عاشق لامرأة متقدمة في السن، متطفّل عليها، بل

ربما أسوأ من ذلك لكنها صارت تعرفني معرفة أفضل. صارت الآن تعرف أشياء كثيرة عني، تعرفها معرفة حقيقية؛ وذلك من المعلومات التي قدّمتها لها عن طيب خاطر. كان هذا أمراً لا بد منه. إلا أن فطنتها المعتادة كانت أمراً لا بد منه أيضاً، الشك الفَطِن لدى فتاة ثرية. لكن، حتى في حالتنا هذه، حتى عندما تحسم أمرك وتتخذ قراراً لا رجعة فيه، فهل يعني هذا أنك لا تتصبب عرقاً، بعض الأحيان، لخوفك من أن يكون قرارك خاطئاً؟ حتى ثيا نفسها بكل ما فيها من ثقة وثبات على آرائها، ما كانت منيعة أمام نوبات الشك العارضة هذه.

«ما الذي يجعلك تقولين هذه الأشياء عني يا ثيا؟».

تزعجني كلماتها هذه. من المؤكد أن فيها قدراً من الحقيقة؛ أحسست هذا في داخلي، في مكان ما، مثل شيء ينزلق من ثقب في جيبك ويستقر في بطانة سترتك.

قالت: «أليست صحيحة؟ فيما يتعلق خاصة بميلك إلى تقديم المعروف؟».

«ربما، جزئياً! هكذا اعتدت أن أكون! لكني لم أعد كذلك الآن، ليس كثيراً».

حاولت إخبارها أنني بحثت طيلة حياتي عن الشيء الصحيح الذي يجب أن أفعله، عن مصير صالح لي، وأنني عارضت الناس ورفضت ما يريدون لي أن أكون؛ أما الآن فقد صرت واقعاً في حبها وصرت أفهم، أكثر بكثير، ما أريده أنا.

لكن إجابتها كانت: «ما يجعلني أرى هذه الأشياء هو أنني أرى مدى اهتمامك بنظرة الناس إليك. أنت شديد الاهتمام بهذا. وهنالك أشخاص يستفيدون من هذا الأمر. ليس لديهم شيء خاص بهم، ليس لديهم شيء في أنفسهم. وسوف يتركونك من غير شيء أنت أيضاً. يريدون أن يضعوا أنفسهم في أفكارك وفي عقلك، ويريدون منك أن تهتم بهم. هذا نوع من المرض. لكنهم لا يريدون أن تهتم بهم كما هم حقاً. أبداً! هنا تكمن اللعبة كلها يا عزيزي! عليك أن تكون مدركاً لهم، لكن ليس لما هم عليه في الحقيقة، بل لما يحبّون أن تراه فيهم فقط. إنهم يعيشون من خلال اهتمام الأشخاص المحيطين بهم، ويريدون منك أن تعيش مثلهم. أوجي، يا عزيزي، لا تفعل هذا. سوف يجعلونك تعاني نتيجة ما هم عليه. وأنت لست بذي أهمية بالنسبة إليهم. تكون لك أهمية فقط عندما يحبك أحد ما. أنت مهم لي. أما في الحالات الأخرى فليست لك أهمية أبداً، إنهم يتعاملون معك فقط، أو يستفيدون منك. هذا يعني أن عليك ألا تهتم بنظرتهم إليك. لكنك تهتم بنظرتهم إليك، بل تبالغ في الاهتمام بها أيضاً». مضت في كلامها هذا. كانت كلماتٍ مرّةً بعض الأحيان لأن حكمتها لا تقف في صفّي عادة. كأنها تتنبأ بأنني سوف أسيء إليها، كأنها تحذّرني. لكنني كنت، حتى في تلك الأوقات، متلهّفاً على سماع ما تقوله، وكنت أفهمه... أفهمه أكثر مما ينبغي!

جرى بيننا كثير من هذه الأحاديث خلال طريقنا إلى المكسيك.

حاولتْ مراتٍ كثيرة إخباري بما سوف نفعله في المكسيك إضافة إلى حصولها على الطلاق. وبدا لي أنها تفترض عندي معرفة حدسية بخططها. كثيراً ما كان هذا يصيبني بالحيرة. ما كنت أعرف إن كانت قد اشترت ذلك البيت في بلدة أكاتلا، أم استأجرته؛ كما أن وصفها تلك المنطقة لم يجعلني سعيداً أبداً. بدت لي مكاناً خطيراً! راحت ثيا تتحدث عن الجبال والصيد والأمراض والسرقات والسكان الخطيرين. مر وقت طويل قبل أن يتضح لي ما كانت تعنيه عندما تحدثت عن الصيد. ظننت أنها تعتزم صيد النسور؛ وبدا لي هذا أمراً غريباً. لكن غرابة ما فهمتُه منها كانت أقل من غرابة ما قصدت قوله فعلاً: تريد أن تصطاد باستخدام نسر مدرَّب على الصيد. وبما أن لديها صقوراً للصيد، فقد كانت شديدة الرغبة في تقليد قبطان بريطاني وزوج من الأمريكيين تمكنوا من تعليم أو «تدريب» النسور الذهبية والنسور الأميركية... كانوا من بين حالات قليلة منذ العصور الوسطى. لقد استقتْ فكرة هذا الصيد من قراءة مقالات كتبها دان وجولي مانيكس اللذان ذهبا حقاً إلى تاكسو منذ سنوات مع نسر أصلع مدرَّب استخدماه في صيد سحالي الإغوانا.

بالقرب من تكساركانا، كان هنالك رجل لديه نسور للبيع. وقد عرض واحداً من هذه النسور على جورج هـ... شيء ما (لا أذكر اسم عائلته) الذي كان من أصدقاء والد ثيا القدامى؛ ولدى هذا الرجل حديقة حيوانات خاصة به. كان صديق والدها هذا، الذي جعلتني حكاياتها عنه أعتبره مجنوناً مثل ملك بافاريا لودفيغ المجنون، قد بنى لنفسه نسخة من مبنى كريانون في إنديانا، لكنه وضع أقفاصاً فيها وقام برحلات في كل مكان حتى يملأ هذه الأقفاص بحيوانات اصطادها بنفسه. إنه متقاعد الآن، وقد جعله التقدم في السن غير قادر على السفر. لكنه طلب من ثيا أن تأتيه ببعض سحالي الإغوانا العملاقة (أو تحداها أن تستطيع فعل ذلك)، هذه السحالي الضخمة العنيفة التي تعيش في الجبال جنوب مكسيكو سيتي. ومع اتضاح هذه المعلومات التي لم أعرف مدى جديتها، أحسست أن هذا يشبهني ويشبه حياتي... ما كنت قادراً على أن أجد نفسي واقعاً في الحب من غير أن يكون في هذا الحب شيء من الغرابة.

لست أريد القول إنها أكثر مما سعيت إليه لأن من الضروري أن يكون مفهوماً تماماً أنني لم أسع إلى شيء. ما سأقوله هو أنها كانت إمرأة فريدة، لا يمكن توقعها... إمرأة متناقضة في عبثها، أو ثباتها، أو عصبيتها، أو شجاعتها. كانت تصرخ مذعورة عندما تتعثر على السلم في الظلام، لكنها تسافر حاملة معدات الإمساك بالأفاعي، وقد جعلتني أرى صوراً لرحلات صيد تقوم بها عصبة من صيادي الزواحف. كانت واحدة من أعضاء تلك العصبة. رأيتها ممسكة بأفعى من رأسها وتحلب سمها مستخدمة شريحة مطاطية. حكت لي كيف

زحفت في كهف خلف تلك الأفعى حتى أمسكت بها. كنت أبيع المعدات الرياضية في متجر رينلينغ، لكني لم أرَ الصيد إلا في الأفلام، إضافة إلى رؤية أخي سايمون يطلق نار مسدسه على الجرذان في باحة مستودع الفحم لديه. أذكر خاصة جرذاً ضخماً مقوس الظهر كأنه خنزير صغير مخيف، وأذكر أقدامه الجارية سريعاً صوب السور. لكني كنت مستعداً حتى لأن أصير صيّاداً! أخذتني ثيا في جولة ريفية قبل مغادرة شيكاغو. وجعلتني أجرب إطلاق النار على الغربان.

كان هذا عندما مدّدنا بقاءنا في شيكاغو بضعة أيام. كانت تنتظر رسالة من محامي سميتي (سميتي هو زوجها)، واستفادت من الوقت لكي تعطيني دروساً على إطلاق النار من البنادق في الغابات الممتدة في اتجاه ويسكانسون. وعندما عدنا إلى البيت خلعت بنطلونها القصير وجلست بقميص الصيد وساقين عاريتين. كان من الممكن أن تلتقط قطعة من الحلي لتحاول إصلاح دبوسها فتجلس كأنها فتاة في العاشرة، مستغرقة في ما تفعله، منحنية الظهر مرفوعة الركبتين، وأصابعها لطيفة خرقاء. ثم نذهب لركوب الخيل في منتزه لينكولن حيث لا يظهر على حركاتها أي قدر من الخراقة. لم أنس كيفية التعامل مع الحصان وتدبر أمره منذ أيام إيفانستون. لكن ذلك كان تدبراً فحسب، تدبراً وليس ركوب خيل. حاولت مجاراة سرعتها بقدر ما استطعت، واحمرّ وجهي وآلمني الاصطدام بالسرج عندما أحاول استخدام وزني لضبط حصاني. أفلحت في البقاء على صهوته لكن طريقتي في فعل ذلك كانت مسلّية لها.

استمتعت أنا أيضاً. استمتعت عندما التقطت أنفاسي ونزلت عن السرج. لكني رحت أتساءل في نفسي عن عدد المرات اللازم لاعتياد ركوب الحصان. رأيت صوراً أخرى إضافة إلى صور نادي صيد الأفاعي. كان لديها حقيبة مليئة بالصور. كان بعض تلك الصور من ذلك الصيف في سانت جوي عندما التقيتها... صور لعمها وعمتها وشقيقتها إيستر ورياضيين في بنطلونات بيضاء يحملون مضارب التنس ويجدّفون في قوارب الكانو. عندما جعلتني أرى صورة إيستر لم يكن لتلك الصورة أي وقع خاص في نفسي إلا من حيث شبهها بثيا. كانت هنالك صور لأبوَيْها أيضاً. كانت أمها من عشاق منطقة شعب بويبلو الهندي؛ رأيت صورتها في تلك المنطقة جالسة في حافلة جولات سياحية مرتدية قبعة ومعطفاً من الفرو وتنظر إلى الجروف الصخرية. لفتت إحدى الصور انتباهي بشكل خاص. صورة لوالدها في عربة ريكشا. كان في بدلة بيضاء وقبعة مدببة بيضاء مثلها. بدت عيناه مبيضَّتين أيضاً، وكان ذلك من أثر الشمس التي جعلت عجلات الريكشا تبدو كأنها شريحة ليمون ذائبة في كأس من الشاي. كان ينظر من فوق رأس حصاني البشري الصيني الحليق الواقف بين عمودي العربة بربلتي ساقيه الثخينتين.

ثم أتت صور كثيرة عن الصيد. كان بعضها صوراً لثيا مع صقور مختلفة واقفة فوق ذراعها في ذلك القفاز الضخم. صور كثيرة لسميتي، زوجها. صور له في ملابس ركوب الخيل. صور أخرى وهو يلاعب كلباً. صور لهما معاً ثيا في نادٍ ليلي. كانت ضاحكة بعينين مغمضتين في ضوء الفلاش؛ أما هو فكان يغطي رأسه الأصلع بأصابع نحيلة. وبدت على الطاولة ذراعا شخص آخر. أثارت اضطرابي أشياء كثيرة مما رأيته. ففي صورتها الضاحكة في النادي الليلي رأيت صدرها وكتفها وذقنها، رأيتها وأفرحني التعرف على ملامحها فيها؛ لكن تلك اليدين كانتا مزعجتين... لا... إنهما يدان غريبتان. ما كان لي مكان هناك، على تلك الطاولة؛ ولا مع أبيها في عربة الريكشا؛ ولا مع أمها في حافلة الجولات السياحية، أمها التي تضع الفراء على رقبتها. ثم إن الصيد أقلقني أيضاً. ما كنت واثقاً من صدق رغبتي في الذهاب إليه. لا بأس في إطلاق النار على الغربان، لا بأس به. لكنها اشترت لي قفازاً حتى أستطيع التعامل مع الصقر وجعلتني أضع ذلك القفاز فانتابني إحساس غريب كما لو أنني عازف كمان في لعبة شيطانية يتعين عليه الجري هنا وهناك والتقاط حجر مشتعل في الهواء.

كنت غير واثق أبداً. لا أقصد أنني كنت غير واثق من وجوب ذهابي معها، فهذا لم يكن شيئاً أقرره... لكني ما كنت واثقاً مما أستطيع توقعه وما يمكن أن أمر به أو ما يمكن أن يكون نصيبي، هناك، حيث كنا ماضيَيْن. كان شرح هذا الأمر على نحو منطقي أمام أي شخص أمراً يتجاوز قدرتي. حاولت ذلك. حاولت أن أشرحه لميمي. ميمي التي يجب أن تكون أفضل من يستطيع التعاطف معي. لكني شعرت بغرابة كبيرة عندما تحدثت بالأمر معها. لم يعجبها ذلك أبداً، لم يعجبها شيء منه. قالت: «ما الذي تحاول قوله لي الآن؟». لم تكن تريد أن تصدق أنني واقع في الحب مثلما قلت لها. تغضَّن الجلد على جبهتها وتقارب حاجباها المرتفعان. وعندما شرحت الأمر بمزيد من التفصيل راحت تضحك في وجهي: «ماذا، ماذا، ماذا! هل أنت ذاهب لكي تصطاد نسراً في أركنساس؟ نسر! أليس عُقاباً مثلاً؟» جعلني إخلاصي لثيا أمتنع عن الضحك. لم تستطع ميمي جعلي أضحك، رغم أن غرابة تلك الرحلة كانت تقلقني كثيراً. سألتني ميمي: «أين عثرت على هذه الفتاة؟».

«ميمي، إنني أحبها».

جعلتها هذه الكلمات تنظر إليّ من جديد، نظرة أقرب، نظرة جعلتني أرى مدى صدق اهتمامها. كانت لدى ميمي أفكار كثيرة عن جدية الحب، أفكار تجعلها تشك في وجود أشخاص كثيرين يمكن أن يفهموا الحب حقاً. قالت لي: «انتبه حتى لا تقع في مشكلة. ولماذا تركت عملك؟ قال لي غراميك إن لك مستقبلاً واعداً في التنظيم النقابي».

«لا أريد الاستمرار في هذا. يستطيع آرثر أن يأخذ مكاني».

قالت، وكأنها أحست في كلامي شيئاً من قلة الاحترام تجاه آرثر: «لا تكن سخيفاً! عليه إكمال تلك الترجمات، إنه يعمل بجد كبير. كما أنه في منتصف مقالة تتحدث عن الشاعر والموت». ثم بدأت تخبرني أنه يجب السماح للشعراء بتنظيم الجنازات. كان آرثر مستقراً في غرفتي. وقد اكتشف مجموعة د. إيليوت للكتب الكلاسيكية التي مستها النار. كانت في صندوقها القديم تحت السرير، فطلب آرثر السماح له بأن يعتني بها من أجلي. وبما أن الكتب كانت تحمل خاتم و. إينهورن، فقد وجدت من الصعب أن أرفض طلبه هذا حتى إن أردت الرفض. كانت تلك فترة نقاهته من مرض السيلان. وكانت ميمي تعتني به مما جعلها غير قادرة على الاهتمام بأي شيء آخر إلا اهتماماً جانبياً.

كان سهلاً أن أشرح سبب ذهابي لرؤية أمي. وبطبيعة الحال، ما كنت مضطراً إلى إخبارها بالكثير... قلت لها فقط إنني مرتبط الآن بامرأة شابة عليها أن تسافر إلى المكسيك. وقلت إنني ذاهب معها.

لا تزال علامات السكين ظاهرة على يدي ماما رغم أنها كفت عن العمل المطبخي منذ زمن. أظن أن هذه الآثار ستبقى مثلما هي، خطوطاً داكنة. ظل لونها لطيفاً أيضاً، لكن عينيها صارتا غائمتين أكثر من قبل، وصارت شفتها السفلى أكثر عجزاً عن إيضاح كلماتها. أفترض أنها لم تكن شديدة الاهتمام بما قلته لها لأن نبرة صوتي لم تسبب لها أي كرب. هذا ما كانت تصغي إليه، نبرة الصوت. ولماذا تزعجها نبرة صوتي طالما أنني كنت في أحسن حال وفي أغلى الحرائر والألوان؟ فلنقل إن صلات الارتباط الأساسية كانت حبال الموت، شيء مجنون في آخر المطاف... لكني أحسست الآن، على الأقل، أنها روابط الفرح. لا بأس إن كان هذا نوعاً من خداع النفس، فلا شيء يمكن أن يبدو أكثر أهمية أو روعة منه. لكني أنكرت أن يكون خداعاً، إلا إذا لم يكن هنالك شيء بهذه الحيوية قادر على أن يكون شيئاً أساسياً... لا، لن أعترف بشيء!

«هل هي فتاة غنية مثل زوجة سايمون؟».

ظننت أنها حسبت ثيا فتاتي السابقة، لوسي ماغنوس. «إنها ليست من عائلة شارلوت يا ماما».

قالت لي: «لا بأس. إذن، لا تدعها تسبب لك التعاسة يا أوجي!».

أعتقد أن ما كان كامناً خلف كلماتها... ما أرادت قوله... هو إنه إذا لم يساعدني سايمون في الاختيار، وإذا اخترت بنفسي، فإنها تظنني ميالاً إلى إيقاع نفسي في ورطة سيئة، مثلما فعلت هي بنفسها. لم أقل لها شيئاً عن رحلة الصيد. لكن خطر في ذهني أن من المحال ألا يذهب واحد من أبناء هاجَر إلى مطاردة الحيوانات البرية في يوم ما.

سألتُ عن سايمون أيضاً. لم أحصل على أخبار حديثة عنه إلا من كليم تامبو الذي قال إنه رآه يخوض مشاجرة بالقبضات مع أحد الزنوج في جادة دريكسل.

قالت ماما: «لقد اشترى سيارة كاديلاك جديدة. جاء وأخذني في نزهة. أوه، سيارة رائعة، سوف يصبح شخصاً واسع الثراء».

لم يزعجني أبداً أن أسمع أخبار بحبوحته المالية. وحتى إذا صار غنياً مثل دوق بورغوندي، فليكن هذا. لكن عليَّ الاعتراف بأنني لم أستطع تجنب الإحساس برضا من نوع خاص تجاه فكرة أن ثيا وريثة ثرية أيضاً. لا أريد التظاهر بأنني استطعت تجنّب هذه الفكرة.

بحثت عن باديلا أيضاً قبل أن أسافر، فوجدته أمام معهده في ثوب المخبر الأبيض وعليه بقع من الدم (رغم أنهم وظفوه هناك لإجراء الحسابات فقط، وليس لإجراء التجارب). كان واقفاً يدخن واحدة من سجائر التبغ الأسود ذي الرائحة النفاذة بينما يناقش، بطريقته السريعة، شيئاً متعلقاً بمنحنيين بيانيين مع شخص يحمل كراسة كبيرة مفتوحة. لم يظهر باديلا سروراً كبيراً بأنني ذاهبٌ إلى المكسيك. وقد حذرني من الذهاب إلى شيهوانوا، منطقته التي جاء منها؛ بل حتى حذّرني من الاقتراب منها. قال إن له ابن عم في مكسيكو سيتي (لم يزرها بنفسه أبداً)؛ ثم أعطاني عنوانه. قال لي: «لا أستطيع أن أتوقع إن كان سيساعدك أو سيسلبك. لكن يمكنك أن تبحث عنه إذا وجدت أنك في حاجة إلى البحث عن شخص ما. كان ابن عمي في فقر مدقع قبل خمسة عشر عاماً عندما تركَنا. وقد أرسل لي العام الماضي بطاقة عندما حصلت على شهادة الماجستير؛ وهذا ما قد يعني أنه أراد مني أن أرسل له دعوة ليأتي. لا حظّ له في هذا! لا بأس، استمتع برحلتك، إذا تركوك تستمتع بها؛ لكن لا تقل لي بعد أن تعود إنني لم أحذّرك ولم أقل لك إن من الخير لك أن تبقى هنا». ثم ابتسم فجأة في ضياء الشمس فتغضّن أنفه المعقوف القصير وتغضّنت جبهته المرتدة إلى الأعلى حتى منبت شعره المكسيكي الجميل... «احرص لئلا تفلت منك تلك القطة البرية التي اصطدتها». لم أستطِع حتى أن أبتسم لكلماته هذه... حتى أن أظهر شيئاً من اللباقة الاجتماعية. كان إعطاء هذه النصيحة لرجل واقع في الحب أمراً غير لطيف.

إذن، لم يودعني أحد ويتمنى لي رحلة موفقة مثلما كنت أتمنى أن يحدث. بطريقة من الطرق، حذّرني الجميع من هذه الرحلة؛ بل إنني أنا أيضاً فكرت في إيليانور كلين وفي ما قاله لي جيمي عن تعرّضها للخديعة هناك في المكسيك، وفي الأشياء السيئة التي حدثت لها. قلت محاولاً إقناع نفسي بأنه ليس عليَّ إلا أن أجتاز وادي ريو غراندي من غير أن أصل إلى آتشيرون؛ لكن الأمر أزعجني رغم ذلك، أزعجني بطريقة ما. حقيقةً... كانت غرابة الحالة التي وجدت نفسي فيها هي ما أثّر فيّ، وليست وجهة السفر في حد ذاتها. المفاجأة الكبيرة في هذه الحالة التي عشتها هي أن الوحدة البشرية ربما كانت يجب أن

تكون وحدتين اثنتين، لا واحدة فقط. بل إنه حتى استخدام نسر في الصيد لم يزعجني كثيراً لأن ما يحدث لثيا يجب أن يحدث لي أيضاً، بالضرورة، هذا ما كان أمراً مخيفاً!

من الطبيعي أن هذه المشكلة ما كانت واضحة لي في ذلك الوقت. ألقيت باللائمة كلها على المكسيك، وعلى الصيد. وأخيراً، قلت لثيا ذات مساء عندما كانت تعزف على الجيتار (كانت تضع إبهامها على الوتر السفلي وتنقر بقية الأوتار ببال خَليّ... كان هذا يعزز قوتها الداخلية)... قلت لها: «هل علينا أن نذهب إلى المكسيك حقاً؟».

أخمدت صوت الأوتار بكفها: «هل تسألني إن كان علينا أن نذهب؟».

«تستطيعين الحصول على طلاق سريع في مدينة رينو، وفي أماكن أخرى أيضاً».

«لكن، لماذا لا نذهب إلى المكسيك؟ ذهبت إليها عدة مرات. مرات كثيرة. ما المشكلة في هذا؟».

«ما المشكلة في الأماكن الأخرى؟».

«هناك بيت في آكاتلا، وسوف نذهب لنصطاد بعض تلك السحالي والحيوانات الأخرى. ثم إنني اتفقت مع محامي سميثي على إجراء الطلاق هناك. وهنالك أيضاً سبباً آخر يجعل من الأفضل أن نكون هناك».

«ما هو؟».

«لن يكون لديَّ مال كثير بعد الطلاق».

أغمضت عينيّ ووضعت راحتيَّ على جبهتي كأنني أحاول كبح دهشة مفاجئة: «عزيزتي ثيا، اعذريني إذا كنت لا أفهمك. كنت أظن أن لديك ولدى إيستر مالاً كثيراً. ماذا عن ميراثكما؟».

«يا أوجي... لم يكن لدى فرعنا من العائلة مال كثير أبداً. الثري هو عمّي، شقيق أبي. أنا وإيستر قريبتاه الوحيدتان. وقد استمتعنا بماله دائماً، بل ترعرعنا فيه. لكن كان مطلوباً منا أن نسلك سلوكاً حسن. هذا ما فعلته إيستر لأنها تزوجت رجلاً ثرياً».

«أنت أيضاً تزوّجت رجلاً ثرياً».

«لكن هذا انتهى. ويمكنني إخبارك عن فضيحة حدثت. ليست بالشيء الذي يجب أن يزعجك؛ كانت حماقة فحسب. ما حدث هو أنني هربت من إحدى الحفلات مع طالب ضابط في البحرية. كان يبدو مثلك تماماً. لم يكن لهذا أي معنى. كنت أفكر فيك ذلك الوقت، لكنك لم تكن هناك».

«تقصدين أنه كان بديلاً عني!».

«حسن، أنت لم تكن تفكر فيّ، بل إنك حتى لم تعتبر تلك الفتاة اليونانية بديلاً عني».

«لم أقل أبداً إنني أمضيت الوقت كله، منذ كنا في سانت جوزيه، مفكراً فيك».

«ولا في إيستر؟».

«لا».

«هل تريد المجادلة، أم تريد أن تستمع؟ أحاول فقط أن أشرح لك ما حدث. كانت عمتي تزورنا. أنت تذكر تلك السيدة العجوز. وكانت الحفلة في بيتنا، في بيت سيمتي، رأت عمتي ما جرى بيني وبين ذلك الفتى. أوجي، حقيقة... عليك ألا تنزعج من هذا. جرى الأمر على مسافة آلاف الأميال، ولم أكن أدرك أنني سوف آتِ إلى شيكاغو وأبحث عنك. لكنني ما عدت قادرة على احتمال سيمتي. كان لا بد لي من الحصول على شخص غيره؛ حتى إن كان ذلك الشخص مجرّد صبي مثل ذلك الصبي من البحرية. مضت عمتي إلى بيتها بعد ذلك. واتصل بي عمي هاتفياً من هناك وأخبرني أنه سيضعني تحت الرقابة والاختبار فترة من الزمن. هذا سبب آخر يجعلنا نذهب إلى المكسيك... حتى نجني بعض المال».

«باستخدام ذلك النسر؟» كانت هنالك أشياء متنوعة كثيرة تزعجني في تلك اللحظة... «كيف تتوقعين أن تكسبي مالاً باستخدام النسر؟ حتى إذا استطاع أن يمسك بتلك السحالي الملعونة، أو أي شيء آخر! يا إلهي!».

«ليس الأمر متعلقاً بالسحالي فقط. سوف نصوّر أفلاماً لعملية الصيد. سوف أستفيد من الأشياء التي أعرف كيف أقوم بها. نستطيع أن نبيع ناشيونال جيوغرافيك مقالات عن رحلة الصيد».

«كيف تعرفين أننا نستطيع أن نفعل هذا؟ ومن الذي سيكتب تلك المقالات؟».

«سوف تكون لدينا المادة، ثم نعثر على شخص ليساعدنا. هنالك دائماً شخص من هذا النوع أينما نظر المرء».

«لكن، يا حبيبتي، لا تستطيعين الاتكال على هذا! ماذا تظنين؟ ليس الأمر سهلاً إلى هذه الدرجة».

«ليس شديد الصعوبة أيضاً... لا أظن أنه كذلك. أعرف أشخاصاً كثيرين في كل مكان يسعدهم أن يقدموا لي معروفاً. لا أظن أن تدريب ذلك الطائر أمر شديد السهولة. لكني منتشية بفكرة تجربة ذلك. ثم إن نفقات المعيشة في مكسيكو أقل من هنا».

«لكن ماذا عن المال الذي تنفقينه الآن؟ في هذا الجناح مثلاً؟».

«يتحمل سميتي المصاريف كلها إلى أن يصير الطلاق نهائياً. لا أظن أن هذا الأمر مزعج لك. هل يزعجك؟».

«لا، لا مانع عندي. لكن عليكِ أن تخففي الإنفاق قليلاً وألا تلقي هذا الذهب كله كيفما اتفق».

«لماذا؟»... سألتني. لم تفهم! حقيقةً لم تفهم!

لكني أنا أيضاً ما كنت قادراً على فهم بعض أفكارها بخصوص إنفاق المال. كانت مستعدة لدفع ثلاثين دولاراً لمقص خياطة فرنسي في متجر فاخر في جادة ميتشيغان. ثم يتضح أن ذلك المقص غير صالح حتى لقطع خيط، أو لفصل زر مثبت على ثوب. وهو يختفي ضمن طوفان الأشياء في الحقائب والصناديق، في مؤخرة صندوق السيارة، وقد لا يظهر ثانية على الإطلاق. لكنها أيضاً قادرة على الحديث عن العيش باقتصاد في المكسيك.

«لا أظنك تمانع في إنفاق شيء من مال سميتي، ألست محقة؟».

ما كان لديَّ مانع في حقيقة الأمر. قلت لها: «لا مانع عندي! لكن افترضي أنني لم أكن ذاهباً إلى المكسيك معك؛ فهل تذهبين وحيدة؟ هل تذهبين لتكوني وحيدة مع ذلك الطائر وغير ذلك؟».

«بالطبع سأذهب! لكن، ألا تريد أن تأتي معي؟».

لكنها كانت تعرف أنني ما عدت قادراً على البقاء هنا والتخلي عنها. ما كانت لدي قدرة على ذلك بأكثر من قدرتي على اقتلاع عيني. حتى لو كان في الأمر نسور، أو وحوش أفريقية مفترسة، أو وحوش مجنَّحة، أو أبو الهول نفسه. هي التي بادرت وحملتني معها. ولو كانت عندي فكرة مختلفة، مستقلة، لحاولت أن أمسك بزمام المبادرة بدلاً منها. لكن، ما كان عندي شيء من هذا.

إذن، راحت تسألني إن كنت أريد التخلف عنها، لكنها رأت كل شيء واضحاً على وجهي، رأت كيف أحبها فسحبت سؤالها وظلت صامتة. ما كان هنالك غير صوت وحيد، طنين صدر عن الجيتار عندما وضعَته.

قالت لي عند ذلك: «إذا كان الطائر هو ما يقلقك، فعليك أن تنسى أمره تماماً إلى أن تراه. سوف أريك ما تفعله عند ذلك. لكن عليك عدم التفكير فيه قبل أن يأتي وقته. أو، يمكنك التفكير في النشوة التي سوف تشعر بها عندما يصبح ذلك النسر مدرَّباً... كم سيكون جميلاً عند ذلك!».

حاولت أن آخذ بنصيحتها، لكن المَيْل إلى الشك المزروع في قلبي منذ ترعرعت في غرب شيكاغو ظل ينخر رأسي. قلت لها: «لا بأس، فلنذهب ونرى ذلك الشيء!» وبما أننا كنا على مسافة قريبة من حديقة الحيوانات تلك فقد سرت على الأقدام لأرى النسر الذي لديهم. كان واقفاً على جذع شجرة مقطوع داخل قفص يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً، قفص مخروطي الشكل يشبه أقفاص الببغاوات. كان لون النسر دخانياً، شمسياً، فيه شيء من الخضرة. واقفاً على قدميه وقد اكتست ساقاه بريش يشبه سراويل الخيالة الأتراك. خفض رأسه، ونظر بعينيه القاتلتين... ضجّت حياة صاخبة عميقة في ريشاته. أوه! لا شيء يمكن أن يثير اهتمام هذا الطائر في خضرة المروج الواسعة في الحدائق ولا في ظلال أشجارها العادية وضياء الشمس المنصبّ عليها. تساءلت في نفسي: كيف يستطيع أحد ترويض هذا الحيوان؟ علينا أيضاً أن نسرع إلى تاكساركانا لنبدأ تدريبه قبل أن يتجاوز سن القابلية للترويض.

كانت رسالة سميتي قد وصلت. وفي يوم استلامنا تلك الرسالة، وضعنا أمتعنا في السيارة وغادرنا المدينة منطلقين إلى سانت لويس. لم نستطع اجتياز مسافة كبيرة ذلك اليوم لأننا انطلقنا متأخرين. نمنا في الطريق. نمنا على الأرض تحت شيء يشبه سقيفة. ظننت أننا لسنا بعيدين كثيراً عن نهر الميسيسيبي الذي كنت في شوق إلى رؤيته. كنت في حالة إثارة شديدة.

رقدنا إلى جانب جذع شجرة هائل... جذع يكاد يبلغ عمره مئة عام ولا يزال عليه شيء من الخضرة. كان من الصعب التفكير في أن هذه الأوراق الصغيرة قادرة على جعل هذا الجذع العملاق يستمر في العيش. سرعان ما يسمع المرء صوت حفيف الأوراق عندما تحركها الريح ويبدأ تمييزه عن أصوات الحشرات. صوت قريب في البداية، ثم مرتفع؛ ثم يصير صوتاً أكثر بعداً، ثم يصير صوتاً جبلياً. وعندها تدرك أنه حيثما يحل الظلام تكون أصوات هذه الحشرات موجودة... حشرات من هذه القارة وحدها، وحشرات عالمية، وحشرات من جديد ومن جديد، مثل أمواج البحر... وصوت كثيف متواصل مثل النجوم.

الفصل الخامس عشر

أين كنا؟ سبحنا في الأعالي مع المسرّة والسعادة كلها. كان لنا كل ما نستطيع أن نرجوه من حظ طيب في الحب؛ وزاد من حبنا ذلك الغفران الذي وجده كل منا عند الآخر. كنا مثل عشاق الأزمنة القديمة، وما كان أحد منهم يمكن أن يبدو غريباً عني. يعرف الرب وحده أي قدر من الغرابة وجدَته عندي، في حبيبها البربري القادم من شيكاغو. لكنني أظن أن الفوارق بيننا خففت من وزن الاعتزاز بفرادة الشخصية ومن العبء الذي تأتي به الألفة والتقارب الشديدَيْن.

كانت طريقة انطلاقنا، وكل ما فعلناه أو رأيناه، وكل ما أكلناه، والأشجار التي خلعنا ملابسنا تحتها وغرقنا في طقوس القبلات، من الوجه إلى السيقان، ثم عودة إلى الثديين... ما اتفقنا عليه، وما اختلفنا فيه، أو ما صادفناه في طريقنا من حيوانات أو بشر... أستطيع أن أتذكر هذا كله، متى أردت. كانت هنالك أشياء لدي قدرة على رؤيتها من غير أن تكون مرتبطة عندي بأشياء سابقة، بتاريخ ما، تقريباً مثلما يحدث مع الطيور أو الكلاب التي لا تحمل عبء الشرط البشري بل تعيش في الزمن نفسه دائماً... تعيش عند قدمَيْ الملك شارلمان، أو بالقرب من صندل عائم في نهر ميزوري أو في فناء عامر بسقط المتاع في شيكاغو. هكذا، غالباً، كانت الأشجار والمياه والطرقات والأعشاب التي تعود إليها خضرتها أو يعود بياضها أو تعود زرقتها أو تجاعيدها أو بقعها أو انحداراتها أو عروقها أو رائحتها... هكذا أستطيع تثبيت ذاكرتي على نملة سائرة على بقعة دهن في قطعة من اللحم، أو على خيط ملوَّن في ياقة قميص. يرى المرء شجيرة، أو وروداً، ويرى ذلك التنوع في الحرارة الذي يجعل قلبك يرتجف وأمعاءك تتقلص في أماكن كثيرة عندما تحاول الاستجابة لما تراه؛ حتى عندما تجعلك وردة العفن والخطيئة تحاول الاستجابة وتودّ أن

تتحرك. هذا ما يجعلني أقول أيضاً إن الحرارة البشرية التي تتحرك وتدفئ ما حولها يمكن أن ترتد عندما تتجمع أمام حاجز أو ثغرة فتحرق في الداخل أو في الخارج كأنها جمرة أو كأنها شيء ملتهب... وتترك أثراً في الكبد أو ناراً لا إجابة لها إلا الظلمة والهوايات الباردة. إذن، هنالك ورود حارقة! وهنالك ورود، وهنالك مسارات محطمة. يصعب العثور علينا من غير هذه الانقطاعات ومن غير هذه التداخلات.

نشأت مشكلات بيني وبين ثيا. كانت تجعلني حائراً، وكنت أجعلها حائرة. كنت أفعل هذا عندما أبدو غير مبالٍ، أو عندما أبدو أنني لست هنا (هذه عادة قديمة عندي)... كان صعباً علي أن أتغير. أما من جانبها، فما كانت قادرة على أن تعدني بشيء أبداً. لم تكن لتفعل هذا! كنت أعرف أن سميتي ما كان ليطلقها نتيجة نزوة مع بحار واحد. أعرف أن هذه الدوائر الاجتماعية العليا لا ترى أهمية كبرى في غلطة هنا أو سقطة هناك. أقرّت بالأمر عندما طرحت عليها السؤال. قالت: «طبعاً، من حين لآخر... بسبب سميتي! لا بأس... ذلك بسببي أنا أيضاً. لكن ليس علينا أن نفكر في هذا الآن لأن شيئاً مثلك لم يحدث في حياتي من قبل. فكيف تريدني أن أعرف شيئاً عن المستقبل البعيد. لم أكن من قبل أبداً، مثلما أنا الآن. هل كنت أنت؟».

«لا».

قالت، وكانت مصيبة تماماً: «كيف؟ هل يجعلك هذا تشعر بالغيرة؟ لماذا يا أوجي؟ إن على الآخرين أن يغاروا منك. عليهم هم أن يغاروا. كانوا مجرد حوادث. حالات عابرة، لا أكثر! وأنت تعرف أن هذا يمكن أن يكون من أقل الأشياء أهمية في العالم. إن كان أمراً جيداً، فلماذا يشعر المرء بضغينة تجاه أي شخص. أما إذا كان سيئاً، فإنك لا تستطيع إلا أن تشعر بشيء من الأسف. فهل تستطيع لَوْمي لأنني حاولت؟ ثم، ألا تريد أن أخبرك بالحقيقة؟».

«أوه! نعم، أريد هذا. لا! لستُ واثقاً، ربما لا».

«افترض أنني لم أفعل... فماذا كنت سأعرف؟ إذا كنت لا أستطيع أن أقول الحقيقة لك، وإذا كنت لا تستطيع أن تقول لي...».

«نعم، نعم، أعرف أن الحقيقة يجب أن تكون شيئاً ملائماً في مكان ما؛ لكن، هل هذا هو المكان المناسب لها؟».

أردنا أن نقول كل شيء، وأن نعرف كل شيء. كانت شاحبة كعادتها، ثم ازداد شحوبها عندما دنت من هذه الرغبة في القول وفي المعرفة؛ وغالباً ما كانت جديتها هذه واقفة عند حدود الذعر تماماً. هذا لأنها كانت تغار أيضاً، بالطبع، كانت تعيش غيرة. كان يفرحني

أحياناً أن أدرك هذا. أرادت أن تقول الحقيقة مثلما هي، لكن ذلك كان يصدمها ويجعلها خائفة.

كنت أفكر أحياناً في أن غيرتها من أختها، غيرتها فحسب، هي ما جعلها مهتمة بي أول الأمر. ما كانت هذه فكرة تبعث الاطمئنان في نفسي. لكن من الشائع كثيراً في واقع الأمر أن يكون المرء في البداية راغباً في شيء ما انطلاقاً من أسباب خاطئة، ثم تظهر رغبة أكثر عمقاً تجعلك تخرج من إطار هذه الأسباب. إن لم يكن الأمر هكذا، فليست هناك أبداً أي دوافع بشرية غير الدوافع البائسة، ودوافع السذاجة، وتوهّم أن هنالك ما هو أفضل أو أكثر نضجاً. هذا ما يبينه تاريخ العالم كله: ليست الأسباب الأقل شأناً هي وحدها ما يقود الأحداث.

ما الذي يجعل التعساء مصرين دائماً على التفكير في أفضل الأشياء، في أفضل الأشياء فقط؟ خذ ذلك المسكين روسّو، في تلك الصورة التي يرسمها عن نفسه... شخص ضامر الوجه شديد البياض يضع شعراً مستعاراً خشناً. شخص يبكي على نفسه عندما يسمع الأوبرا المقدَّمة في البلاط من أجل الملك، شخص تجعله دموع السيدات اللواتي مست الموسيقى قلوبهن يرغب في شرب الدموع المنحدرة على خدودهن... هذا الغبي التعِس، جان جاك روسو، الذي لم يستطع العيش مع فرد بشري واحد، يذهب بعيداً في غابات مونتميرنسي حتى يفكر ويكتب في أفضل أشكال الحكومات أو في أفضل الأنظمة التعليمية!... خذوا ماركس أيضاً، بدمامله وفقره وأطفاله الذين توفّوا. ماركس الذي رأى أن ملاك التاريخ سيحاول عبثاً أن يطير في مواجهة الريح القادمة من الماضي. أستطيع أن أذكر كثيرين غير هذين الاثنين، أقل عظمة، لكنهم قلقون أيضاً، حائرون، أو مختلّون، لكنهم راغبون في إفراد أنفسهم من أجل غايات عظمى... إنهم مقتنعون، على الأقل، بأن لهم قيمة كبيرة. هذه هي الرغبات الأكثر عمقاً الكامنة تحت الرغبات الظاهرة.

أوه، الغيرة، بالتأكيد! لكن، كانت هنالك عيوب أخرى كثيرة، وحالات إحساس بالنقص أيضاً... أشياء ما كنت أتصور وجودها عندي، أحياناً، عندما أكون في بنطلوني الفاخر وسترتي الجلدية وحذائي وسكّيني التي في غمدها، عندما أقود السيارة كأنني آتٍ من بلاط غرينويتش سائراً مع نهر ثيمز عائداً للتو من غارة إسبانية غارساً أزهاراً حمقاء في قبعتي. هكذا كنت أرى نفسي متغاضياً عن عيوبي؛ هكذا كنت أقول لنفسي راضياً مبتهجاً. قد أكون معذوراً بسبب ذلك الحب الذي ملأ قلبي، وبسبب... أوه، لأنني كنت فتى أحمق سعيداً! لكنها يمكن أن تكون غريبة، هي أيضاً، عندما تختال أو تفخر بنفسها أو تنافس نساء أخريات؛ أو عندما تسعى خلف الإطراء، أو تجبرني على إبداء إعجابي بشعرها أو جلدها... ما كنت في حاجة إلى إجبار لأنني كنت شديد الإعجاب. كنت أجدها أحياناً

تضع شيئاً من ورق المرحاض في حمالة ثدييها. ورق المرحاض! ما هذه الفكرة الغريبة التي لديها عن نفسها... أهي عاجزة هذا العجز كله عن إدراك جمال وقيمة ما لديها؟ لماذا تريد أن تجعل شكل ثدييها مختلفاً؟ كنت أنظر في قميصها وأرى ثديين كاملين لا يعيبهما شيء فيحيّرني هذا السؤال.

إنني قادر على ذكر صعوبات أخرى أيضاً، كالتوترات المفاجئة والمضايقات وآلام البطن، إضافة إلى التقيؤ ونزف الأنف نتيجة القلق، والإنذارات المتواصلة المتعلقة باحتمال الحمل. كما أنها تغدو متكبرة مغرورة من حين لآخر، وذلك عندما يتعلق الأمر بنسَبها العريق وقدراتها الموسيقية التي تتشدق بها أحياناً. في الحقيقة، سمعتها تعزف البيانو مرة واحدة فقط. كان ذلك في نزل على الطريق، بعد الظهر. مضت إلى الحلبة حيث تقف الفرقة عادة؛ وكانت الآلات الموسيقية في حالة سيئة نتيجة سوء الاستخدام من قبل موسيقيي الجاز. لكن ذلك البيانو بدأ يزمجر عندما أطلقت تلك الطاقة المنفلتة فوق المفاتيح، فصرخت الأوتار متمزقة. توقفت فجأة وعادت إلى الطاولة صامتة وقد ظهرت قطرات من العرق على أنفها. قالت لي: «يبدو أن هذا اليوم غير موفَّق». نعم، صحيح أنني ما كنت أبالي إن كانت تتقن العزف أم لا. لكن هذا بدا أمراً مهماً في نظرها.

على أن هذه «النواقص»، سواء عندها أو عندي، أشياء قابلة للتصحيح أو التغيير. كنت أعتبر أن من الممكن التغاضي عن كل ما هو ليس أساسياً. مثلما فعلنا بأدوات التخييم التي اعترضت طريقنا فرميناها... نسينا أن نضعها جانباً حتى نستخدمها من جديد. أذكر الآن يوماً بعينه؛ كانت بعض كؤوس الألمنيوم والأحزمة والحبال متناثرة على البطانية. كان الوقت بعد الظهر؛ وكنا عند بداية منحدرات أوزارك، بعيداً عن الطريق، في الغابات قرب أحد المراعي. كنا نرى في الأعلى صنوبرات صغيرة متناثرة ومن فوقها أشجار أطول منها، ونرى الأرض المنبسطة في الأسفل أيضاً. وضعنا في الماء الذي نشربه قليلاً من ويسكي الجاودار لأن طعمه كان غير مستساغ كثيراً. كان الطقس حاراً، والهواء مثل الزجاج، والغيوم بيضاء ثقيلة غنية متموجة حريرية خطرة. توقدت الأرض المنبسطة حرارةً كأنها في فرن، وبدت حقول القمح كأنها زجاج قمحيّ؛ رأينا الماشية واقفة في المياه الضحلة. جعلنا الحر أولاً، ثم تأثير ويسكي الجاودار، نخلع ملابسنا... قمصاننا، ثم بنطلوناتنا، ثم خلعنا كل شيء. دوَّختني رؤية تلك الوردتين على ثدييها، ثقيلتين مندفعتين، لكنني بقيت هادئاً رغم كل شيء، بقيت هادئاً في البداية كأنني خجلت منهما بعض الشيء. عندما وضعت طبقي المعدني ورحت أقبِّلها، كنا راكعين معاً، مرت بكفها على شعر بطني. كانت تفاجئني أحياناً بالأماكن التي تختارها لتطبع عليها قبلة رقيقة؛ وما كنت أعرف من أين ستأتيني طفرة السعادة المفاجئة. لم تعطني إلا جانب وجهها أول الأمر، ثم... عندما أعطتني شفتيها، لم تعد تقبل بأن تترك فمي... ظلت كذلك إلى أن انعقد ذراعاها حول رأسي. أحسست بإشباع

كامل عندما غمرتني الحرارة، عندما غطتني كلّي حتى آخر شعرة في جسمي ثم انتقلتُ إلى جسدها، بكل سهولة. لم تغمض عينيها، لكن تلك العينين ما كانتا مفتوحتين حتى ترياني أو حتى تريا أي شيء؛ كانتا ممتلئتين، بطيئتين؛ وما كانتا تفعلان شيئاً غير التلقي وغير التعبير عما تحسه. حدث ذلك سريعاً فلم ألاحظ، لكني عرفت أنني تخليت عن كل حذر وعن كل قيد، تخليت عن كل جهد، عن النهايات كلها، وعن الانتباه؛ ما عدت أريد شيئاً إلا إن كان من أجلها، أحسست أنني موجود من أجلها. بقينا زمناً مثلما نحن. كنا راقدَيْن نلتقط أنفاسنا متباعدَيْن قليلاً وذراع كل منا تحت رأس الآخر. ثم اقتربنا من جديد، قبّلت عنقها وترقوتها، ثم قبّلت جانب وجهها وشعرها أيضاً. خلال ذلك الوقت، ظلت الغيوم، وظلت الطيور، وظلت تلك الماشية التي في الماء.. ظلت الأشياء كلها على المسافة نفسها عنا؛ وما كانت هنالك حاجة إلى الاهتمام بشيء أو النظر إلى شيء، أو حتى إلى التفكير في هذه الموجودات كلها. كان كافياً أن نكون بينها، طليقَيْن على الأرض مثلما هي طليقة في غديرها أو في السماء. كنت أقصد شيئاً من هذا القبيل عندما قلت، عَرَضاً، إن من الممكن أن أبدو مثل أي كائن. كانت لديَّ أسبابي عندما ذكرت ساحات المستودعات التي يجتمع فيها سقطِ المتاع في شيكاغو وذكرت قصر شارلمان. هذا لأنني أستطيع، أينما كنت، أن أتذكر النحلات وذرّات الغبار التي تشبه بعوضاً صغيراً في تلك الحرارة الثقيلة في شارع إل بيلارس (مثلما أذكر شارع ليك حيث سقط المتاع وحيث أفنية البيوت التي تملؤها زجاجات فارغة)؛ أذكرها مثلما أذكر معبداً مخيفاً يؤمّه المجانين، مثلما أذكر ساحاته التي لانهاية لها، ساحاته حيث يزحف أولئك المتعبّدون بعرباتهم المليئة خرقاً وعظاماً حية. كان يطغى عليَّ البؤس أحياناً عندما أشعر أنني، أنا نفسي، كائن من كائنات تلك الأماكن. كيف يستطيع البشر أن يظلّوا قابلين بخِدع الماضي الذي انقضى بينما تنظر بقية الكائنات إلى العالم بعيونها الأصلية، عيونها الحالية؟

حظينا ببعض أمسيات كهذه عندما بدأنا تدريب النسر. فبعد كل حساب، يمكن أن يكون الحب دعوة من شخصيات ميثولوجية حول جبل الأولمب أو حول طروادة؛ مثلما كان الأمر لدى باريس وهيلين أو بالمون وإيميلي؛ لكن كان علينا أن نبدأ العمل لكي نكسب عيشنا. وما كان ذلك ممكناً إلا بالطريقة التي اختارتها ثيا، بأن نرسل طائراً خلف حيوان آخر. وهكذا انتهى الجزء الذهبي اللعوب من رحلتنا عندما بلغنا تاكساركانا.

عندما رأيت ذلك الحيوان العنيف في قفصه أحسست بشيء كالظلمة ثم بشيء يسيل على ساقيَّ كما لو أنني بُلْتُ في ملابسي: لم يكن الأمر كذلك، كان مجرد شيء ناتج عن جريان الدم المجنون في عروقي. لكنني أحسست حقاً بخدر يتخلل أعصابي كلها عندما رأيت ما سنواجهه، ما سنتعامل معه، عندما رأيته واقفاً هناك، داكناً، أمام عينَيّ. بدا ذلك الطائر من أقارب النسر الذي أنار درب بروميثيوس ذات يوم. كنت آمل أن يكون هذا النسر

أصغر حجماً وأن نتعهّد تربيته منذ طفولته حتى يتعلم شيئاً من العاطفة والحب. لكن لا... يا لخيبتي... كان نسراً كبيراً كالذي رأيته في شيكاغو؛ وكان له على قائمتَيْه ذلك الريش الذي يشبه بنطلون الخيّالة الأتراك أو بنطلونات المظليين، ريش يكسو تلك القائمتين حتى يكاد يبلغ مخالبه التي لا تعرف الرحمة. كانت ثيا في غاية الإثارة، وفي غاية الاهتمام: «أوه، إنه جميل جداً! لكن، كم عمره؟ إنه ليس فرخاً؛ يبدو بالغاً! لا بد أن وزنه ستة كيلوغرامات».

قلت: «بل خمسة عشر كيلوغراماً».

«أوه، لا يا حبيبي».

هي تعرف أكثر مني، بالطبع!

سألت ثيا مالكه: «لكنك لم تأتِ به من العشّ، أليس كذلك؟».

هذا الرجل العجوز الذي لديه حديقة حيوانات إلى جانب الطريق، أسود جبلية، وزواحف الأرماديلو المدرعة، وبضع أفاعٍ، كان رجلاً كثير المزاح، منقّباً، مكتشفاً، جرذاً من جرذان الصحراء؛ وكان له ذلك النوع من العينين اللتين تطالبانك بتصديق أن ما يبدو عليه من أمارات المحتالين ليس إلا شيئاً من عبث الطبيعة أو أثراً من آثار الإضاءة غير المواتية في ذلك المكان. لكني لم أعمل في صالة إينهورن للألعاب ولم أترعرع في كنف الجدة لوش حتى تنطلي عليَّ هذه الأمور: ميزتُ فيه محتالاً عجوزاً ابن حرام ذا قلب غير نظيف.

قال: «لا، لم أتسلق الصخور من أجله. أتى به إليّ صديق عندما كان صغيراً جداً. تنمو هذه النسور بسرعة خارقة».

«يبدو لي أكبر سناً. أظن أنه في شبابه الآن».

قالت ثيا: «من الضروري أن أعرف إن كان قد طار قبل أن يأتي إليك... إن كان قد اصطاد وحيداً في البرية؟».

«لم يغادر هذا القفص منذ خروجه من البيضة، تقريباً. أنت تعرفين يا آنستي أن عمّك يشتري الحيوانات مني منذ قرابة اثني عشر عاماً». كان يظن أن جورج هـ. (هذا الذي نسيت اسم عائلته) كان عمّها.

قالت ثيا: «أوه، بالطبع، سوف نأخذه. إنه رائع. يمكنك أن تفتح القفص الآن».

اندفعت صوب ذلك القفص لأنني خشيت على عينيها. كان الأمر بسيطاً عندما تذهب إلى الصيد بالصقور في تلك المروج الأليفة في الشرق بصحبة السيدات والسادة الرياضيين؛ لكننا كنا عند حدود تكساس نشم رائحة الصحراء والجبال، ولم يسبق لها أن

لمست نسراً من قبل حتى، وإن كانت لديها خبرة في طيور أصغر حجماً قادرة على صيد الأفاعي السامة. لكنها كانت في غاية الثبات عندما تتعامل مع الحيوانات؛ ما كان لديها خشية من الحيوانات أبداً. وضعت القفاز الضخم الذي غطى ذراعها، ثم حملت قطعة لحم ومدت يدها بها داخل القفص. ضربها النسر فأسقطها من يدها ثم أخذها. جرّبت قطعة ثانية فقفز واستقرّ واقفاً على ذراعها بحركة من جناحيه لا يكاد يسمع لها صوت، حركة مخيفة في حد ذاتها... رفع كتفيه بقوة طاغية ثم فتح جانحيه فظهر لون يشبه الصدأ، يشبه ملاك الموت، تحت إبطيه أو تحت ذلك التجويفَيْن عند منبت جناحيه. تشبثت مخالبه بذراعها، ووقف ثابتاً وهو يمزّق اللحم. لكنه هاجمها بمنقاره عندما أرادت إخراجه من القفص. أسرعت صوبه فأصابني في مكان أعلى من القفاز وجرح ذراعي عدة جروح عميقة. كنت أتوقع هذا، بل كنت أتوقع ما هو أسوأ منه؛ لكنني أحسست بشيء من الارتياح لأن الأمر حدث بهذه السرعة فجعل خوفي منه يتراجع قليلاً. أما ثيا المسحورة التي جعلتها الإثارة أكثر شحوباً من قبل، ثيا في قبعتها ذات الإطار الأخضر، ثيا السريعة القوية المتأهب ذهنها للمضي قدماً خلف غايتها، خلف الحصول عليه وترويضه، فإن الدم الذي نفر من ذراعي ما كان، في هذه اللحظة بالضبط، إلا حادثاً عارضاً، شيئاً يشبه صرير الحصى تحت حذائك عندما تمشي. عندما تأخذها حالة من الإثارة يصبح سلوكها هكذا في كل ما يتعلق بالحوادث... حالات الإغماء العابرة، والسقوط عن حصان أو دراجة آلية، أو جروح تخلّفها سكين، أو إصابات في الصيد.

وضعنا النسر في مؤخرة السيارة آخر الأمر. كانت ثيا سعيدة. أما أنا فكان عليّ أن أفعل بضعة أشياء... أن أضمد ذراعي، وأن أزحزح الصناديق وأرتبها من جديد حتى أفسح مجالاً أكبر للطائر. أتاحت لي هذه المشاغل طريقة أخفي بها انزعاجي. أما ذلك العجوز فلم يستطع إخفاء ابتسامته تحت شاربه الكثيف. ومثلما يحدث مع كثير من المتحمسين المندفعين، نادراً ما كانت ثيا قادرة على المحافظة على صلة مع من يتظاهر بالإصغاء إليها جدياً. وبما أن العجوز حصل على سعر طيب مقابل نسره (هكذا كان إحساسي، على الأقل) فقد كان في غاية السرور، والخبث أيضاً، لأنه تمكن من جعل أحد يأخذ هذا النزيل الثقيل عنده. وهكذا انطلقنا بالسيارة؛ وجثم النسر في مؤخرتها... ينظر إلينا. لاحظت مَدى سعادة ثيا وثقتها؛ وتأكدت أيضاً من وجود البندقية خلف المقعد، في متناول يدي.

أذكر قصة روتها ابنة عم الجدة لوش، وكان عنوانها «النسر». إنها قصة لليرمونتوف، باللغة الروسية التي لا أفهمها، لكن فصاحة تلك المرأة في روايتها كانت رائعة، رومانسية. كانت سمراء، سوداء العينين، ولها حنجرة جبارة، لكن يديها شبه مشلولتين. كانت أصغر من جدتي بكثير؛ وقد عمل زوجها في صنع الملابس الفرائية. إنني أحاول فقط تجميع ما يمكن أن يعرفه عن النسور ابن مدينة مثلي؛ كانت النتيجة عجيبة: النسر الذي تراه على

النقود، والنسور التي طارت فوق مدينة بومبي، والنسر الذي يضعه ذلك النادي الرياضي على شعاره إلى جانب صاعقة ورموز رياضية، ونسر جوبيتر، ونسور الأمم المختلفة... جمهوريات وممالك، ونسور الفرق العسكرية والعرّافين، ونسر الكولونيل جوليان، ونسر هارلم الأسود؛ وهنالك أيضاً غربان نوح وإيليجاه، فلعلّها كانت نسوراً! أعرف في مدينتي أيضاً نسوراً مطاطية ونسوراً تأكل الجيف.

نعم، نتعلق بالأساطير، كلنا... إذا أتيح لنا الوقت.

بدا لي الطائر في ريعان الشباب، لكن العجوز كان صادقاً تقريباً، رغم أنه كذب على الأرجح بمقدار ثمانية شهور، أو نحو ذلك. عادة ما تظل النسور الأمريكية سوداء اللون حتى تبلغ سن النضج؛ وهي تبدل ريشها عدة مرات قبل أن يبدأ ظهور الجزء الأبيض منه. ما كان لدى نسرنا ريش أبيض حتى الآن، وما كان حول عينيه ذلك السواد المتميز عندما يبدأ ابيضاض بقية ريشه. لا يزال إلى الآن أميراً أسود، لم يصبح ملكاً بعد. لكنه كان بالغ الجمال برأسه المنحني إلى الأمام وتلك الريشات اللامعة البيضاء القليلة الضائعة بين ريشات قاتمة، وعينيه كأنهما جوهرتان مروعتان ليس فيهما إلا تعبير القسوة... تعبير عن أن صاحبهما لا يبالي بغير حاجاته وحدها، كان كله تجسيداً لهذا المعنى. كرهته فوق كل حد، كرهته في البداية. كان علينا أن نظل ساهرين ليلاً من أجله، وكان عقبة مزعجة في طريق الحب. إذا نمنا في الخارج ثم استيقظت فلم أجدها فإنني أعثر عليها معه؛ أو أنها تنتفض مستيقظة من نومها فترسلني لأتفقده وأرى إن كان بخير. لأرى إن كان القيد في قائمتيه، وإن كانت الحلقة موجودة في ذلك القيد، وإن كانت السلسلة مثبتة إلى تلك الحلقة. وإذا قضينا الليل في غرفة فندق، فهو شريكنا. كنت أسمع خطوته. يخشخش بريشه أو يصدر فحيحاً يشبه صوت انزلاق الثلج. كان هيامها، فكرتها الثابتة التي لا تقبل تغييراً كأنه طفلها، تنظر إليه فتتقطع أنفاسها. نكون في السيارة فتلتفت إليه دائماً، من مقعدها؛ أو تلتفت إليه عندما نأكل... بل كنت أسأل نفسي أحياناً إن كان يظل محتلاً عقلها بعض الأوقات... في تلك اللحظات.

كان لا بد من إخضاعه بطبيعة الحال حتى لا يكون خلف ظهورنا حيوان متوحّش جبار... تتنامى العداوة دائماً بين الآسر والمأسور. كان لا بد لي من الاهتمام به، وهكذا فعلت. لم يكن يطالبني بأن أحبه؛ ما كان هذا همّه أبداً. اللحم هو واسطة التفاهم معه على أي شيء. كانت ثيا مدركة حقاً الطريقة الواجب اتباعها في ترويضه؛ وبما أنها تعرف ذلك، فقد كان عليها أن تفكر فيه أكثر مما أفكر فيه أنا. سرعان ما صار يأتي إلينا ليأخذ اللحم. كان عليه أن يعتاد هذا. وكانت مخالبه تعجن لحمنا تحت قفازينا... لقد آلمنا كثيراً. كان عليَّ أيضاً تعويد نفسي على ما يفعله منقاره عندما ينقضّ على اللحم. لكني صرت أقدر

لديه ذلك الأسلوب المشبع بالاعتزاز، أسلوب طائر أكثر نبلاً، عندما رأيت ما تفعله كواسر أخرى بالجيف.

مضينا مجتازين تكساس؛ كانت الحرارة شديدة. وكنا نتوقف عدة مرات في اليوم الواحد حتى نعمل على الطائر. وعندما اقتربنا من لاريدو، أي حيث تبدأ الصحراء، صار يأتي إلى ذراعي أو إلى ذراعها قادماً من فوق السيارة. كان هذا الظل المفتوح المنقضّ يجعل قلبينا يتوقفان لحظة أمام هذه القوة، أمام هذه الرائحة... أمام منظر ريشات جناحيه المنفرجة ومنقاره المفتوح. وغالباً، بعد ذلك، من غير الحركة التحضيرية التي تلاحظها عند حيوانات أخرى، يطلق زرقاً ثقيلاً مندفعاً قبل أن يقفز ليطير عائداً إلى سقف السيارة من جديد. كانت ثيا مجنونة فرحاً بسرعة تقدمه. وكنت مجنوناً فرحاً بفرحها، ولأسباب كثيرة أيضاً من أولها إعجابي بها ورؤيتي مقدار نجاحها في التعامل مع ذلك الطائر.

لا بد من تغطية عينَي الطائر بنوع من قلنسوة رأسية عندما يُستخدم في الصيد. وقد حضرت ثيا هذه القلنسوة التي كانت غطاء من القماش له خيوط ترخيها قبل إطلاق الطائر ليرتفع في الهواء قبل انقضاضه على الفريسة. لكن، كان لا بد من ترويض نسرنا تماماً حتى يصبح جاهزاً لوضع هذه القلنسوة. حملته على ذراعي نحو أربعين ساعة من غير نوم. لم يتعب النسر؛ أما أنا فقد أبقتني ثيا مستيقظاً. حدث هذا في نوفو لاريدو، بعد اجتيازنا الحدود مباشرة. نزلنا في فندق يعجّ بالذباب؛ وكانت غرفتنا بنية اللون تكاد تحتل نافذتها شجرة صبار عملاقة خشنة. جلست في تلك الغرفة، مرتاحاً أول الأمر؛ جلست في الظلمة واضعاً ذراعي على الطاولة. وكان النسر جاثماً على ذراعي. وبعد مضي ساعات، زحف الخدر على امتداد ذراعي، ثم جنبي كله، ثم كتفي... امتد حتى بلغ العظم. كان الذباب يزعجني، ويقرصني، لأنني كنت بيد حرة واحدة، ولأنني لم أشأ إجفال الطائر. طلبت ثيا القهوة فأتى بها طفل في ذلك الفندق. تناولتها منه عند الباب. لكني رأيته يحاول استراق النظر إلى داخل الغرفة لأنه كان يعرف أن النسر معنا، بل لعله رأى شكله جاثماً فوق ذراعي المعذَّبة، أو لعله رأى عينيه اليقظتين.

اجتمع حشد مدهش من الناس عندما وصلت سيارتنا إلى الفندق ونزلت منها ففتحت بابها الخلفي. وخلال دقائق معدودة، اجتمع أكثر من خمسين رجلاً وطفلاً. قفز النسر على ذراعي حتى يتناول اللحم، فصرخ الأطفال: «آي! انظروا، انظروا... إنه نسر، إنه نسر!» أظن أنه كان منظراً عجيباً بالنسبة إليهم لأنني طويل القامة، ولأن قبعتي زادت من طولي؛ وكان النسر على ذراعي. أما ثيا فلا شك في أنها لفتت أنظارهم أيضاً بجمالها ومظهرها الذي يوحي بالأهمية. ثم إن النسور تحظى باحترام قديم في المكسيك، احترام آتٍ من معتقداتهم الدينية العتيقة والفرسان العظام في أيام مبارزات السيوف التقليدية التي تحدث

عنها دياز ديل كاستيلو. صرخ الأطفال عندما اهتز النسر معدّلاً وقفته على ذراعي، «النسر، النسر!» وبما أنني أسمع اللغة الإسبانية للمرة الأولى، فقد اعتبرت هذه كلمة جديدة تعلمتها، «آغويلا»... الاسم الروماني للإمبراطور كاليغولا. رأيت أن هذا الاسم مناسب له. كاليغولا!

«النسر».

قلت لهم: «نعم، كاليغولا». كان هذا الاسم أول نجاح أحققه مع النسر.

أما الآن فقد كان استولى على ذراعي المسمَّرة إلى الطاولة، ذراعي المعذَّبة، واختنق فمي وصدري بأنين لم أستطع إفلاته. كان يجب أن آخذه معي كيفما تحركت... إلى المرحاض أيضاً. كانت عيناه مستقرتين على وجهي دائماً، سواء جلست أو وقفت؛ وكان عليَّ أن أقرأ فيهما ما يحسه وأن أشعر بما يريده. كنت أنهض فيتأرجح قليلاً ويرتد إلى الخلف، ثم تندفع رقبته إلى الأمام وقد دبت الحيوية في عينيه؛ ويشتد إطباق مخالبه على ذراعي. لن أزعم أنني لم أكن خائفاً عندما أخذته معي إلى المرحاض أول مرة. مددت ذراعي لأبعده عني إلى أقصى حد أستطيعه. أما هو فراح يفرد جناحيه ويغيّر موضع قدميه.

إنه الانتباه! يبدو لي أن لدينا معاناة في ما يتعلق بهذا الشيء تحديداً. تحدثت مع ثيا عن العيش في أعين الآخرين، وعن العيش تحت أنظار الآخرين... تحدثت عن هذا في وقت سابق. متى بدأ التحديق يسبب هذا الأذى كله، ومتى صار للعيون هذا السلطان الفظيع؟ نعم، لقد حلّت بقابيل لعنة بين عينيه فصار عاجزاً عن عدم الاكتراث بمظهره في أعين بقية الرجال. يرافق رجال الشرطة المتهمين والمشبوهين إلى الزنزانة، ويرى السجانون المحكومين لديهم من خلال القضبان. ولا يتيح الزعماء والطغاة فرصة لكي يرتاح الإنسان من القلق... كيف يبدو البشر في أنظارهم؟ الخيلاء هو الأمر عينه عندما ينفرد المرء بنفسه! في كل نوع من أنواع الاضطهاد تجد نفسك خاضعاً فلا تستطيع أن تنسى أنك مرئيٌّ وأن عليك أن تظل يقظاً. بل حتى في أكثر الأفعال خصوصية في حياتك تجد نفسك حاملاً حضور الآخر وسلطته؛ إنك تخلق لوجوده امتداداً في أفكارك. هي أفكارك أنت، لكنها أفكارك التي يستوطنها. ثم إن الموت، بنصبه التذكارية وشواهد قبوره، يجعل البشر العظماء أحياء في الذاكرة بتلك الطريقة نفسها. هكذا كان عليَّ أن أحتمل نظرات كاليغولا؛ وقد احتملتها.

ظل كاليغولا زمناً طويلاً يقاوم وضع القلنسوة على رأسه. حاولنا عدة مرات؛ جرح يدي جرحاً بليغاً فشتمته بكل ما أستطيع من قوة؛ لكني واصلت حمله. نجحت ثيا في إلهائي أحياناً، وفي جعلي أنسى بعض تعبي؛ لكن وزنه كان كبيراً إلى حد يجعلها غير قادرة على حمله؛ فأجد نفسي مضطراً بعد ساعة أو نحو ذلك إلى إعادته إلى ذراعي التي لم تنل

قسطها من الراحة بعد. وخلال آخر مرحلة من هذا العذاب المترنّح، صرت غير قادر على البقاء داخل الغرفة، فمضيت إلى الشارع، وهو على ذراعي. جعله الزعيق حروناً مضطرباً بعض الشيء. ذهبنا إلى السينما، وجلسنا في الصف الأخير. وهنا جعلته الأصوات في حال أسوأ من ذي قبل. خشيت أن يحطم رأسه. عدت به إلى الغرفة وأطعمته قطعاً من اللحم لكي يهدأ. وبعد ذلك، في منتصف الليل، تحت ضوء مصباح ثيا ذي الأشعة الحمراء الذي تستخدمه في تظهير الصور، حاولت وضع القلنسوة من جديد فقبلها... خضع آخر الأمر. واصلنا إعطاءه اللحم وهو في تلك القلنسوة. ظل هادئاً. جعله حجب عينيه أكثر وداعة وأسهل انقياداً بكثير. صار يقف على قبضتي، أو على قبضة ثيا، فنضع القلنسوة من غير أن يستخدم منقاره ضدنا.

عندما حققنا هذا النصر، ووقف كاليغولا فوق طاولة الزينة في قلنسوته المزينة بالريش، رحنا نتبادل القبل ونرقص، وندور في الغرفة. ذهبت ثيا لكي تستعد للسرير؛ أما أنا فسقطت نائماً مثلما كنت، في ملابسي. نمت عشر ساعات. وجدتني ثيا على هذا الحال، فخلعت عني حذائي وتركتني راقداً.

كان بعد ظهر اليوم التالي حاراً متألق الضياء فانطلقنا صوب مونتيري؛ أشجار وأجمات وصخور متألقة كلها في أشعة الشمس... متوهّجة بفعل تلك الحرارة اللاذعة. عندما أخرجت ثيا طائرنا العملاق من السيارة بدا أنه يواجه تلك الحرارة بنوع من الاندفاع والشهوانية. أحسست بدوار نتيجة النوم الطويل ولأن تلك الحرارة المشعة كانت تخترقني مثل أسلاك معدنية منبثقة من الطريق ومن الصخور. كانت أكف الصبار مثل وسادات صغيرة، مثل ألسنة متدلية في تلك الحرارة، وكان الغبار مثل الصمغ... والجدران الصخرية المتفتتة كأن لها حراشف... كان ذلك كله امتحاناً قاسياً للعينين وللجلد. لكن السيارة مضت تتسلق المرتفعات فصار الطقس أبرد قليلاً، وشعرنا بقدر من الانتعاش.

لم يطل وقوفنا في مونتيري، توقفنا ريثما تزوّدنا ببعض المؤن فحسب... لحم نيء لكاليغولا أكثر من أي شيء آخر. كان عندي فضول لقضاء الأمسية في هذه المدينة الغريبة: مدينة شديدة الخضرة، مبانيها حمراء، والناس كثيرون جداً في تلك المساحة المنبسطة قرب محطة السكة الحديدية الممتدة بمداخلها ونوافذها المنخفضة. لكن ثيا رأت أن علينا متابعة السير حتى نتخلص سريعاً من الطقس الحار. لم يكن السير سهلاً لأن الحقول ليست مسوَّرة فكانت قطعان الماشية تعترض سبيلنا. والطريق من غير علامات ليلية، وفيه منعطفات غبية كثيرة. حل الضباب على الطريق بعض الوقت رغم سطوع ضياء القمر. كانت الحيوانات تظهر ضخمة الأجساد خارجة من هذا السديم الفضيّ الغامض؛ وكان يمر بنا أحياناً رجال على صهوات الخيل فنسمع طرق الحوافر وحفيف الأعنَّة الرتيب.

توقفنا في بلدة بعد فاليس بمسافة كبيرة لنمضي ما بقي من تلك الليلة. توقفنا فيها لأنني كنت مصراً على ذلك. كان الهواء لاذعاً والنجوم كالأشواك. تعالى صياح الديكة، وجاء أهل البلدة، ذلك العنصر المكسيكي الذي لا ينام، حتى ينظروا إلينا عندما أخرجنا النسر من السيارة. وقفوا ينظرون إليه بطريقة احتفالية شعائرية كأنهم ينظرون إلى موكب الأيقونة المقدسة يوم الأحد. وكما في كل مكان، راحوا يقولون بدهشة، يخاطب أحدهم الآخر: «إنه نسر!» وددت أن أتركه في السيارة حيث صارت رائحة فضلاته شديدة الوطأة، لكن من شأن ذلك أن يزعجه كثيراً. وسوف يكون غاضباً في الصباح. صارت ثيا الآن شديدة الارتباط به... ما كان يمكن لكثير من الاعتبارات الأخرى أن تتقدم عليه. كانت تصنع التاريخ! إنهم أولئك البواسل، أبناء وبنات أصحاب الأموال الذين يقودون الطائرات عندما يبلغون العشرين ويقلعون بها ليحطموا أرقام قياسية من نيوأورليانز إلى بوينس آيرس. يطيرون فوق أدغال تبتلعهم أحياناً مع طائراتهم... لا بد أن هذا هو شغفهم! ظلت ثيا تذكّرني بأن قلة قليلة من الناس تمكنت من ترويض النسور، منذ العصور الوسطى. اعترفت بأن الأمر رائع، وكنت معجباً بها من غير حدود. شكرت ربي لأنني كنت معها، أو لأنني مساعدها. لكني حاولت جعلها تدرك أن وجود النسر في الغرفة يشتت تركيزي في الحب ويجعلني أشعر بكثير من الغرابة، ثم إنه حيوان أيضاً... ليس طفلاً في المهد لا بد من إرضاعه. لكن ثيا ما كانت مستعدة لأي جدال، ما كانت مستعدة لرؤية شيء غير هدفها مع ذلك الطائر، هدفها الذي لا تشك أبداً في أنني أشاطرها إياه. ظنت أنني معترض على كيفية التعامل معه فحسب. إنه الدافع المسيطر عليها، الدافع الذي يسيطر عملياً على أي شخص عرفته... على نحو ما... الدافع الذي هو موجود عندي أيضاً، وإن يكن في مكان مختلف؛ كان دافعاً يحثنا ويسوقنا إلى الأمام. أمر طبيعي! كيف يمكنك التوقف والتخلّي عن الأمر عندما يسير في أعقابك نسر؟ لقد بدأت، وعليك أن تتابع! لكن الأمر المهم عندها ما كان أننا لا نزال في منتصف ذلك المسار الشاق، أبداً... كان يسوقها ذلك التوق إلى جعله يصطاد تلك السحالي الضخمة.

انتصبت كتلتانِ قذرتان من مصابيح الكيروسين عند باب النزل؛ كانتا مخططتَيْن بالسواد كأنهما اثنتان من ثمار البرسيمون. كانت حجارة الطريق زلقة، لا بسبب الندى ولا بسبب المطر؛ وانتشرت في المكان روائح ثقيلة ممتزجة ما كنت أعرف كيف أصنفها: روائح القش، والطين، ودخان الحطب، والطبخ، والحجارة، ودقيق الذرة، والخراء، والدجاج المسلوق، والفلفل، والكلاب، والخنازير، والحمير. ما كان هنالك شيء يشبه ما مر بنا من قبل. كل شيء غريب. وفي الباحة التي سادها صخب يشبه الذعر عندما اجتازها كاليغولا في قلنسوته، وفي غرفة النوم حيث جاء هواء الجبال المعطر فانداح على الجدار الأبيض وفوق روائح المكان كلها كأنه دفقات ممتدة آتية من مكان بعيد في المحيط حاملة معها

نفحات من رائحة البرتقال الفاسد وفضلات أخرى قذف بها البحارة من السفينة. جاءت امرأة هندية فطوت غطاء السرير الحديدي ذي الهيئة الخيالية... سرير على هيئة القرد العنكبوت.

لم تكن استراحتنا طويلة في تلك الليلة لأن غاسلات الملابس بدأن عملهن في الصباح الباكر، وبدأ طحن الذرة؛ كانت الحيوانات نشطة أيضاً، الحمير خاصة، إذ اجتاحتها حاجة ملحة إلى التعبير عن أنفسها. دقت أجراس الكنيسة أيضاً. لكن ثيا استيقظت سعيدة، وسرعان ما انهمكت في إعطاء كاليغولا مهدئاته الصباحية من قطع اللحم، أما أنا فانطلقت مجتازاً تلك الحجرات الرطبة باحثاً عن خبز وقهوة.

كان سفرنا بطيئاً بعض الشيء، بسبب الطائر. وقد أرادت ثيا الآن أن نعلمه كيف يطير خلف طعم أو هدف متحرك. كان ذلك الهدف قطعة من رسن الحصان تحمل أجنحة دجاج أو ديك رومي مربوطة إليها. كنا نقذف بذلك الطعم مربوطاً بسير جلدي طويل. وعند إلقائه، كان النسر يتمايل مستعداً للانطلاق ثم يندفع محلقاً خلفه. كان قسم من مشكلاته يشبه ما يواجهه قائد طائرة كبيرة... أشياء من قبيل تقدير المسافات والتيارات الهوائية. فبالنسبة إليه، كان الأمر مختلفاً عن الآليات التي يتبعها أي طائر صغير من الطيور التي تنتقل وتحط على هواها... كان طيرانه في حاجة إلى إدارة حقيقية. يبدو خفيفاً كأنه نحلة عندما يحلق عالياً؛ رأيته على تلك الارتفاعات بعد فترة، وبدا لي كأنه يتعثر أو يتشقلب في الهواء مثل حمامة عادية... لا بد أنه يجتاز جيوباً هوائية تصنعها تيارات الهواء البارد والساخن في الأعالي. لكن انطلاقه عالياً كان أمراً رائعاً؛ وكان رائعاً أن يراه المرء مستقراً هناك، في الأعلى، كأنه فوق نيران الغلاف الجوي... كأنه مهيمن من علياته تلك. إذا كان الجشع، وكل ما هو قائم على الافتراس، وعلى القتل، هو ما يحكمه في تلك اللحظات، فإن لديه أيضاً طبيعة تجعله يحس انتصاراً عندما يبلغ ذلك العلوّ، عندما يبلغ أعلى ما يمكن للحم والدم بلوغه. إنه يبلغ ذلك الغلوّ لأنه يريد ذلك، ليس مثلما تكون أشكال الحياة الأخرى عند ذلك الارتفاع، ليس مثلما تكون الأبواغ النباتية التي تحملها تيارات الهواء ولا البذور المجنَّحة... لا تبلغ هذه الأشياء ارتفاعات كتلك بصفتها أفراداً... إنها تمثل أجناسها فحسب.

تبدو السماء أكثر عمقاً كلما توغلنا جنوباً إلى أن نصل إلى وادي المكسيك. هناك، حيث أحسست أن السماء ممسكة بعنصر أقوى مما تطيقه الحياة... أحسست أن ألق الزرقة الملتهب يقف في ذلك المكان خطيراً مهدّداً، بل يبدو أحياناً كأن السماء نفسها تنثني تحت وطأة ذلك الثقل. وفيما بعد، عندما صار نسرنا يطير عالياً فوق فوهات البراكين القديمة في ذلك السهل، كأنها فقاعات فحمية في ذلك العالم الذي في الأسفل، عندما يبدو الأفق

أحمر خطراً في وهج الشمس وتلوح معاطف الثلج على قمم الجبال متألقة كأنها الشيطان نفسه... نعم، هنا كان الكهنة القدامى، قبل مجيء الإسبان، ينتظرون حلول إلههم في وسط السماء حتى يخبرهم إن كانت الحياة ستمضي في دورة أخرى أم لا؛ هنا كانوا يتلقون إشاراتهم الفلكية ويوقدون ناراً جديدة في بطن الفالق الكبير ويفرغون صناديق الأضحيات البشرية. وأيضاً، في هذه الأماكن، كان المتعبّدون يتنكرون في هيئة آلهة، وتتنكر الآلهة في هيئة طيور وتقفز من منصات مرفوعة على أعمدة عالية وتتوهج مع انزلاقها على الحبال... ثعابين لها ريش، ونسور أيضاً... إنهم الطائرون. لا يزال هنالك من يقومون بهذه الانقضاضات السريعة العاصفة، تراهم في الأسواق كأنهم بقايا ظلت من تلك الأشياء القديمة كلها، أو كأنهم معادل لها. وبدلاً من الأسلحة وأهرامات الجماجم، لا تزال في شعورهم وعلى القصاصات المتدلية من أجسادهم قطع من أجساد كلاب وفئران وخيول وحمير... أشياء تراها على الطرقات، عظام منبوشة من قبور مستأجَرة، مرمية أكواماً بعد انتهاء أجل الإيجار. وترى التوابيت أيضاً كأنها نكات جارحة متخذة أشكالاً أنثوية، توابيت يبيعونها في متاجر مفتوحة، توابيت سوداء وبيضاء ورمادية، توابيت من كل مقاس مع زينة الموت الثقيلة المزينة بلون فضيّ على أرضية سوداء. ترى متسوِّلين لهم أصوات تشبه أصوات الكلاب منتشرين على درجات الكنيسة يعبرون لك عن ضعفهم بلغة إسبانية كنسية قديمة ويظهرون أطرافهم الخشبية العتيقة وقروحهم أيضاً. وترى الحمّالين في خطوط طويلة متعرجة، ترى حبالاً تمر بجباههم لتثبت الأحمال على ظهورهم... تراهم مستلقين بين المهملات في استراحة قصيرة، تراهم يسبغون على أنفسهم مظهر الإهمال نفسه، مظهر الموت نفسه. يؤكد هذا كله على سهولة استقبال الموت في كل موضع، في جمال هذا المكان؛ إنه يؤكد على حقيقة يعرفها الجميع، حقيقة تقول إن من الممكن أن يلقى أي إنسان معاملة قاسية، حتى إن كان أكثر الناس زهواً... يُضرب، ويُصفَع، ويُلقى به أرضاً، ويُداس. هذا لأن الموت يلقي في وجوه الناس جميعاً بما هو أسوأ، يجعلهم يرون كم يكون مخيفاً أن يتعين، حتى على من لم يمسسه سوء في حياته كلها، أن يجد نفسه ملقياً قابعاً تحت التراب، مدفوناً.

عندما حلق كاليغولا تحت هذه السماء كنت أتساءل أحياناً عن الرابطة التي يقيمها أحياناً مع عنصر القوة العظيمة هذه، القوة المحكومة بأن ترتد عائدة إلى أسفل، إلى فوّهات تلك البراكين العتيقة الخامدة.

لكنه لم يبدأ التحليق بعد! لا يزال يطير متعثراً خلف الطعم، خلف تلك الأشلاء الدبقة اللامعة تحت الشمس. ومرة بعد مرة، كنا نرمي الطعم مسافة أكبر، نرميه أسفل المنحدرات لأن تلك هي الطريقة الوحيدة التي تمكننا من جعْله ينطلق خلفه. كان يشدني ويجعلني أترنح، أكاد أسقط كلما أخطأت ثيا حساب المسافة لأنني كنت مربوطاً بالحبل الذي يمر

من تحت ذراعي. كانت تجري لتنظر إليه وهو يلتهم اللحم. ثم تشير إليّ بأن أشد الحبل. وهكذا، تعلم، شيئاً بعد شيء، أن يعود من غير أن يكمل التهام الطعم. كان من حولنا دائماً جمهور يراقبنا مهما ابتعدنا، ومهما قصدنا أماكن معزولة في الجبال من أجل التدريب... حشد من الرعاة والقرويين في ثياب النوم وفي صنادل بسيطة ربطوا إلى أسفلها قطعاً من مطاط الإطارات... أطفال صغار، وسكان جبال يظهر على وجوههم مدى اهتمامهم بما يرون.

أما ثيا، فكانت تبدو بعض الأحيان أكثر بربرية منهم رغم أحمر الشفتين المتمدن ورغم الشكل التقليدي لبنطلون ركوب الخيل الذي ترتديه. كانت ذراعها تمتد صوب النسر عند انقضاضه، وعندما يخفض سرعته آخر الأمر مستخدما جناحيه وقدميه معاً، وعندما يضطرب الهواء أمامه فيجعل ريشات صدره القصيرة تبدو مبعثرة. كانت قبعتها ترفرف. وكنت شديد الاعتزاز بها. أعتقد أن هذا أروع فعل بشري يمكن أن أراه في حياتي كلها. إحساس يلفّ روحي كأنه شريط رقيق. كانت تناديني أيضاً عندما أقف متأهباً لإعادة الطير إلي؛ وكانت معجبة بهيئتي الفروسية الجريئة. يملؤني هذا سروراً، بالطبع، لكنه لم يجعلني أسكر مجداً.

بلغنا مكسيكو سيتي بعد عشرة أيام. كان على ثيا أن ترى ممثل محامي زوجها؛ وهذا ما جعلنا نمكث في المدينة زمناً. كان هذا خلاف رغبتها لأنها ودت لو نمضي إلى آكاتلا من غير توقف. نزلنا في فندق رخيص جداً اسمه لا ريجينا. وكان أجر الغرفة ثلاثة بيزو في اليوم. لم يظهروا أي اعتراض على وجود النسر معنا؛ كان المكان هادئاً متواضع المظهر، نظيفاً على نحو غير مألوف. وكانت فيه فسحة سماوية في مركزه تخرج منها ممرات مفضية إلى الغرف والحمامات والمراحيض. كانت ردهة الاستقبال في الفندق بالغة اللطافة أيضاً؛ وخاوية. تشبه تلك الردهة مخططاً بيانياً إذا نظر المرء إليها من الأعلى. مقاعد وطاولات مرتبة ترتيباً هندسياً، لكن من غير وجود أحد يستخدمها. سرعان ما وجدنا أن الملكة التي يحمل الفندق اسمها ليست إلا ملكة الحكايات الشريرة نفسها. وجدنا الخزانات مليئة بمستلزمات الاستحمام؛ والأسرّة مجهزة بمشمع ثقيل تحت الملاءات... كان هذا مزعجاً. كنا وحدنا في ذلك الفندق، خلال النهار، مع الخادمات اللواتي صرنا مصدر تسلية لهن. رأين أن من المضحك أن نسكن في بيت للعلاقات العابرة. وكن يخدمننا، ويغسلن ملابسنا ويكوينها، ويأتين إلينا بالفاكهة والقهوة لأننا النزيلان الوحيدان لديهن. كانت لغة ثيا الإسبانية تضحكهن (ما كنت في ذلك الوقت قادراً إلا على التفوه بكلمات إسبانية قليلة)؛ وكانت تضحكهن طلباتها أيضاً... تستدعيهن عندما نكون في الفراش وتطلب ثمار المانغو لنا واللحم للنسر. شجعتنا تلك الوحدة على الاستمتاع بحريتنا في ذلك الفندق. كنا نخرج إلى الحمام مرتدين منشفة فقط. وما كانت هناك مشكلة عندما أريد إبعاد الطائر

عنا قليلاً؛ إذ أستطيع وضعه في غرفة خالية أخرى. يأتي الناس إلى فندق ريجينا خلال الليل فقط؛ ومع أن نزلاء الليل هؤلاء كانوا أشخاصاً محترمين، إلا أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً عن الهدوء أبداً... كما أن أكثر أبواب غرف الفندق كانت من غير زجاج على فتحاتها. لكننا كنا نخرج في كل وقت لنرى المدينة؛ وننام وقتاً طويلاً خلال النهار. ارتاحت ذراعي التي كانت جروحها في طور الشفاء. أخذتني ثيا إلى أماكن كثيرة، وإلى نوادٍ ليلية، وإلى حديقة الحيوان، وإلى الكنائس. أخذتني أيضاً لرؤية راكبات الخيل في تشابولتيبيك؛ تلك السيدات الأرستقراطيات في قبعاتهن الصلبة وتنانيرهن الضخمة وأقدامهن في أحذية جلدية صغيرة سوداء. كن يركبن الخيل جانبياً. أثار هذا اهتمامي كثيراً. رأيت أن العالم أكبر بكثير مما تخيلته قبل ذلك. قلت لثيا: «لست أعرف الكثير في حقيقة الأمر؛ لقد بدأت أرى الآن».

ضحكت وأجابت قائلة: «أهلاً بك إلى كل الأشياء التي أستطيع إعطاءك معلومات عنها. لكن، لماذا ترى نفسك في حاجة إلى معرفة الكثير؟».

قلت: «لا، هنالك الكثير حقاً». فاجأتني تلك المدينة وأدهشتني... كانت مدينة رائعة. أردت البقاء، لكن لدينا عملاً مع النسر. ثم إن ثيا لم تكن تحب المدينة كثيراً.

ما كنت قادراً على الاعتراض على أحكامها خاصة حين يتعلق الأمر بكاليغولا: مضيت خلفها واثقاً كل الثقة الآن لأنها أثبتت قدرتها معه. هذا المخلوق الفظيع... يمكن أن يمزقني إرباً إذا توليت أمره وحدي؛ على افتراض أن لدي من الشجاعة ما يكفي لذلك. بكل ما يتعلق بالنسر، كنت أفعل ما تقوله لي... كنت رديفاً لها. ارتعدت خوفاً عندما عرفت المزيد عن ذلك الطائر؛ رحت أفكر في الاحتياطات التي لم أتخذها. كان علينا أن نضع أقنعة تغطي وجوهنا. علينا أن نفعل ذلك خاصة عندما نعلّمه كيف يترك الفريسة (الطعم) ويعود ليتناول اللحم من أيدينا. ذلك لأن النسور الصلعاء تصبح أشد خطراً عندما يكون تحتها ما يمكن أن تعتبره هدفاً لها. لكن ذلك لم يحدث. تمكنت ثيا أخيراً من تعليمه الاستجابة لأصواتنا... تعلم كيف يأتي ليأخذ اللحم من أيدينا بعد انقضاضه. كنا نحدّثه ونستخدم كل أنواع الرقّة معه. وكان يحب مداعبته بريشة. صار أليفاً إلى حد كبير، لكن نبض قلبي ظل يتسارع بضع ثوان كلما وضعنا قناعه أو نزعناه عنه.

كنا ندعو الخادمات المذعورات في فندق ريجينا ليكنّ حاضرات عند تدريب النسر. تجعلهن ثيا يقفن صفاً واحداً وتقول لهن بالإسبانية: «تحَدّثن! تحدثن بأصوات مرتفعة». كان عليهن أن يثرثرن قليلاً. وكان المقصود أن نجعل كاليغولا معتاداً على أصوات البشر وعلى وجود بشر كثيرين على مقربة منه. أولئك النسوة الهنديات كنّ يقفن مذعورات في أثوابهن البسيطة... مذعورات لكن دهشتهن كبيرة أيضاً. يقفن في صف واحد فأنظر إلى ثيا

تنزل النسر عن الخزانة وتجعله يقف على يدها. أصاب واحدة من تلك النساء الشابات ما ظننت أنه أصابني... بالت في ثيابها عندما أزيح القناع عن ذلك الوجه القاسي وعن منقاره المخيف. استفاد كاليغولا من وجود تلك النساء حوله: صار يأكل ثم يميل برأسه صوب ثيا ويتصرف مثل قطعة تلهو وتدس نفسها بين قدمَيْ إنسان حتى يداعبها.

تصرخ ثيا: «أوه، انظر إليه! أوجي... انظر إلى ما يفعله. يريد أن أداعبه».

في تلك اللحظات، كانت لا تطيق صبراً على بقائها في المدينة: «لقد حان وقت المتابعة الآن. يجب أن نكون معه في الريف».

«لا بأس، فلننطلق!».

«لا، لا نستطيع! يجب أن أرى المحامي. لكنني لا أستطيع احتمال خسارة هذا الوقت. الآن، الآن كان يمكن أن نكون في طريقنا إلى البيت. نستطيع عند ذلك أن نبدأ تدريبه على الإمساك بطريدته».

كانت تعني بهذا أننا نستطيع بدء تعريفه على السحالي. إنها ليست من ذلك النوع العملاق ذي الأشواك المرتفعة، النوع الذي أرتني صوراً له، الطرائد الحقيقة التي كنا نريدها، بل سحالي أصغر حجماً. إن على كاليغولا أيضاً أن يعتاد التنقل على ظهر حصان أو حمار لأن تلك السحالي العملاقة تعيش في نواحي من الجبل لا يمكن الوصول إليها تقريباً؛ تعيش بعيداً عن الطرقات. وما كان ممكناً أن نجعل كاليغولا يطير تلك المسافة الصعبة كلها.

كان عندي إحساس يقول إن على ثيا ألا تستعجل الطلاق كثيراً. قد لا تستطيع التوصل إلى اتفاق مرضٍ مع زوجها. لم أكن أريد السؤال عن التفاصيل؛ وقلت في نفسي إنها ظلت وريثةً موعودة زمناً كافياً لأن تصبح قادرة على الاهتمام بهذه الأمور وحدها. ما الذي أستطيع قوله لها عن هذا؟ ثم إنني ما كنت مهتماً بمعرفة كل شيء عن المشكلات بينها وبين سميتي... لو كنت مهتماً لسألتها، ولو سألتها لأجابتني. وهكذا، أزحت الموضوع جانباً. ثم استفدنا من الوقت الزائد فالتقطنا صوراً ملونة لكاليغولا واقفاً على ذراعي أمام الكاتدرائية. لكن رجال شرطة على الخيل أتوا مسرعين فأبعدونا عن الساحة. كانوا خشنين معي. فهمت منهم أنهم يعتبرون الطائر خطراً؛ صاحوا كذلك قائلين إنهم يريدون رؤية أوراقي. لكنهم كانوا أكثر تهذيباً مع ثيا، إلا أن ابتساماتهم الذئبية تجاهها جعلتنا نبتعد سريعاً. لا تزال ثيا تفكر في بيع مقالات مصورة عن كاليغولا. تريد تقديمها إلى ناشيونال جيوغرافيك أو إلى مجلة هاربرز. تعرف كاتباً في آكاتلا يمكن أن يساعدنا. كانت تسجل ملاحظاتها في دفتر صغير شديد الأناقة مغلف بجلد أحمر وله قلم ذهبي متصل به. من

الممكن أن تخرج ذلك الدفتر في أي وقت فتضعه على ركبتيها وتكتب فيه حانية رقبتها، تكتب بضع كلمات على الصفحة الواحدة. وعندما تتوقف لحظة لتفكر أو لتتذكر شيئاً، أراها تحرك يدها مثلما يفعل شخص يقوم بتظليل لوحة يرسمها. كنت أنظر إليها ملياً، أدرسها... لاحظت مبتهجاً أن طيات الجلد عند مفاصل أصابعها تشبه الطيات التي على مفاصل أصابعي.

«عزيزي، ما اسم تلك المدينة في تكساس حيث أردنا مطاردة الأرنب البري؟».

«كان ذلك بالقرب من أوفالده، أليس كذلك؟».

«لا يا حبيبي، لا. لا يمكن أن تكون أوفالده».

أمسكت فخذي بكفها. إنها تصبغ أظافرها هنا، في المدينة. أظافرها لامعة. ارتدت ثوباً مخملياً أيضاً، هذا الثوب الناعم الأحمر، الثوب الثقيل. كانت أزراره على هيئة أصداف بحرية. جلسنا تحت شجرة على كرسيين من الحديد المشغول. نظرت إلى جلد ثديها النقي فأحسست بحرارة حقيقية تماثل الحرارة المنبعثة من كفها عبر نسيج بنطلوني الرقيق. كنت أفترض أننا سوف نتزوج عندما تنتهي إجراءات الطلاق.

الفصل السادس عشر

... ومن الغريب

أن تكون الطبيعة مضطرة إلى إجبارنا على التحسر

... التحسر على شيء فعلناه أكثر من غيره.

أنتوني وكليوباترا؛ شكسبير

وجدنا بيت ثيا جاهزاً؛ إن كان ذلك البيت بيتها هي!

قد يكون بيت سميتي. أظن أنني سأعرف الأمر في وقته... ما كنت مستعجلاً على معرفة ذلك.

بانت لنا أبراج المدينة وسقوفها ثم اختبأت عدة مرات خلف منعرجات الجبال وخلف جروف تبلغ مئات الأقدام ارتفاعاً؛ ثم صار الطريق المنحدر شارعاً ووصلنا ساحة الكاتدرائية التي يطلقون عليها اسم الساحة العامة (زوسالو) أوقفنا السيارة هناك؛ كان علينا أن نمشي لأن الدرب المؤدية إلى الفيلا ضيقة. حتى في الأحوال الطبيعية، يمكن أن يلاقينا جمع من الأطفال والمتسولين والمتبطلين والمروّجين للفنادق، وغيرهم؛ لكن النسر الجاثم فوق قبضتي استقطب حشداً غفيراً... جاؤوا من المتاجر والبارات ومن السوق المسقوف الواقع تحت الكاتدرائية مباشرة. عرف كثير من الناس ثيا واستقبلوها بصيحاتٍ وصرخاتٍ وصفيرٍ ورفعٍ للقبعات. أثارت هذه المرافقة الصاخبة الغبار من حولنا. سرنا صاعدَيْن بضع مئات من الأمتار فوق الساحة العامة وفوق شرفات مدببة

الحجارة حتى بلغنا بوابة الفيلا. قرأت اسمها على حجر أزرق اللون تحت أغصان أشجار الرمان «كازا كويستادا»، أي «بيت راحة البال». دخلنا فاستقبلتنا الطباخة وصبي الخدمة. كانا أماً وابنها. وقد وقفا متباعدَيْن مسافة غير قليلة، كلاهما حافي القدمين، على أرضية الردهة الحجرية الحمراء. كانت الطباخة واقفة قرب باب المطبخ؛ أما ابنها فوقف عند باب غرفة النوم. رأيت معها طفلاً صغيراً حملته في شال معلق من كتفها. وعند رؤية الطائر، حتى وهو محجوب الرأس، بدأت المرأة تتراجع في اتجاه المطبخ. أبعدنا الطائر عنها. صار المرحاض حظيرته؛ ووقف فوق خزان الماء حيث بدا لي أن صوت القطرات يبعث السرور في نفسه. لحق بنا الصبي ليرى كيف نتصرف مع النسر. كان اسمه جاسينتو، وبدا مبهوراً.

كنت أفكر أحياناً في أنه عليَّ أن أكرس نفسي لموضوع كسب المال (إن كان المال سبب هذه المهمة الحمقاء)، ولإتقان قتل الطرائد؛ ثم أطلق كاليغولا حراً، أو أبيعه. لكني كنت أدرك أن هدف ثيا ليس كسب المال. لم أكن أتغاطى عن نبل مشروعها، ومدى قِدَمه. ذلك النوع من الطموح الكامن فيه أو ذلك الوجه المتعلق بالمصادفة وبملاحقة الطرائد؛ بل كنت أدرك أيضاً وجود صلة تربط بين مشروعها هذا وتلك الأزمان القديمة، فكلاهما حلقتان من مغامرة الترويض العظمى. نعم، أقول هذا لأن معارضتي كلها وخوفي من النسر وتمنياتي بأن يصيبه حجر أو تجرحه فريسته فيسقط ميتاً ما كانت كل شيء، لأني رأيت الجانب الآخر من الأمر أيضاً، ورأيت ما كان يعنيه عندها... رأيت أنها مفعمة بطاقة متوقّدة. لكني كنت أقول في نفسي أيضاً: ما المشكلة في الاستمتاع بالحب، ولماذا يجب أن يكون معنا نسر؟

لو كان معي مال، فلن يكون هنالك محل لهذه الذريعة، على الأقل. إلا أنني فهمت عند ذلك، بل بعد ذلك، كيف كم يكون التفكير في المال قليل الأهمية. ربما كانت ثيا غير منطقية فيما يتعلق باصطياد النسحالي، إلا أنها حصلت على الطائر وبدأت العمل؛ أما تفكيري في المال فكان مجرد خفقة من خفقات الخيال. إن كنت أريد أن أنظر إلى الأمر نظرة جدية، فما الذي أفعله في بنطلون الركوب وقبعة الرحلات، هنا، في قلب المكسيك؟ باختصار، رأيت من جديد كم هي كبيرة مسألة المال، كبيرة في حد ذاتها. ها هو حشد هائل من بني البشر يصطاد أو يحفر أو يحمل أو يلتقط أو يمسك أو يخدم أو يعود كل يوم إلى مشاغله المعتادة، وقد يكون الواحد من هؤلاء الناس صادقاً أو باكياً أو مازحاً أو منافقاً أو ذاهلاً... وعند هؤلاء جميعاً، عند الشعوب كلها، يكون المال مرتبطاً بالحياة أو ممثلاً لها، ويكون أشبه بالسر أو بشيء يداني السر، كأنه واحد من أقاربه.

لقد وصلنا أخيراً؛ وقُدِّم لنا طعام الغداء: الحساء، والدجاج بصلصة المولي السوداء،

والطماطم وأفوكادو، والقهوة مع حلوى الجوافة الهلامية. هذا الطعام الغريب اللذيذ الذي يحرق الفم هو الذي أتى بمسألة المال إلى ذهني خلال الأكل.

كان البيت جميلاً متسعاً، وأكثر عمقاً مما بدا لي من خارجه لأنك تهبط من الحديقة إلى الغرف. كانت الجدران محمرة بعض الشيء، أما الأرضيات فكانت من بلاط أخضر أو أحمر داكن. إن في البيت فسحتان مفتوحتان، واحدة فيها نافورة ماء ومقاعد على شكل براميل؛ أما الأخرى فكانت مجاورة للمطبخ، نوعاً من باحة اسطبل قديمة تابعنا فيها تدريب كاليغولا. كان يطير منحدراً إلينا من فوق قرميد السقيفة التي ينام فيها جاسينتو.

من حيث كنا نأكل في الردهة الرئيسية، كنا نرى البلدة والجروف منتصبة أمامنا. كانت الساحة العامة تحتنا مباشرة، تحتنا تقريباً؛ وكنا نرى منصة الفرقة الموسيقية ذات الشكل الغريب والأشجار الضخمة منتشرة من حولها. كان للكاتدرائية برجان وقبة عليها تدرّجات من اللون الأزرق؛ وكانت متقشرة تقشرات ناعمة كأنها مشوية في فرن زادت حرارته قليلاً. يستطيع المرء أن يلاحظ انقطاعات في هذا الطيف اللوني حيث تكون هنالك قرميدة مفقودة. بدت الكاتدرائية كأنها غير مستقرة تماماً فوق حجارة الساحة، وتعطيك (فجأة، على نحو عارض، في غمرة إعجابك بها) إحساساً ثقيلاً، محزناً، يبعث الغثيان، إحساساً يشمل كل ما تراه في محيطها. كان جرسا الكاتدرائية متدليَيْن كأنهما حيوانين عجوزين ضعيفين، كسولين مخضرَّيْن؛ وكانت أبوابها تنفتح كاشفة عن عتمة متسعة فيها مذبحان أبيضان ميتان وصور ممزقة مجرّحة بالفؤوس والأشواك، صور تعج بجروح سوداء... ترى على أرداف بعض هذه الأجساد التي تلمحها لمحاً سراويل نسائية. إنها أجساد معذَّبة تخترقها المسامير، أجساد نازفة يسيل دمها ويقطر من أُصابعها البيضاء. وفوق تلة منتحية جانباً تقع المقبرة، قبور بيضاء مدببة؛ ومن الناحية الأخرى، أعلى قليلاً، منجم الفضة بأخاديده المتشعبة، تستطيع أن ترى هنالك كيف انكسرت قوة ذلك الاستثمار الكبير. كان جانب الجبل مأكولاً لمسافة غير قليلة، أكلته الآلات. حيّرني هذا المشهد، وتسلقت هناك ذات يوم لأرى. غريبة حقاً تلك الآلات التي تراها في المكسيك كلها، تلك الآلات المتهالكة التي تحفر وتزحف، والآلات التي تصنع الحفر والأنفاق، وآلات تشبه حشرات عملاقة، آلات من صنع بريطاني أو بلجيكي، وعربات وقاطرات صغيرة عليها جنود ورجال يلتحفون البطانيات.

حتى ضمن البلدة نفسها، على امتداد الطريق المؤدي إلى المنجم، كانت القمامة مرمية في وادٍ صغير، وفوقها أشياء متحللة قديمة تطير الكواسر فوقها طيلة النهار. وعند واحدة من أعلى النقاط، يستطيع المرء أن يرى شلالاً في جرف من الجروف. كانت غيمة تغطي هذا الشلال بعض الأحيان، لكنك ترى عادة الدخان المائي الخفيف، أكثر شحوباً من الهواء،

تراه مرتفعاً فوق خط الأشجار. وتحت ذلك بمسافة كبيرة تنتصب شجرات الصنوبر عند نافذة في تلك القمم تحوطها صخور متغضّنة الوجوه. ثم ترى أشجاراً وأزهاراً مدارية، ومنطقة الحزام الحجري الحار حيث تعيش الأفاعي والخنازير البرية والظباء والأغوانة العملاقة التي أتينا لاصطيادها. كان الضياء شديد الحرارة هناك، حيث يقع ذلك الحزام المعلق في الجبال.

في مدن مثل باريس أو لندن، حيث لا يكون سطوع الشمس كبيراً، هناك في تدرجات اللون الرمادي وفي الحُجُب، لا يظهر ذلك الضياء بقوته كلها. يحسد كثير من شعوب الجنوب هذه الأماكن على أشياء يمكن التفكير في أنها تأتي من المناخ المعتدل أو البارد. أظن أن موسوليني ما كان مازحاً عندما تحدث عن نسف أجزاء من جبال الألب والأبنين الإيطالية حتى يسمح لتيارات الهواء البارد الضبابي الآتية من ألمانيا بالمرور فوق شبه الجزيرة الإيطالية ليصير أهلها مقاتلين حقيقيين. ذلك الموسوليني نفسه الذي تدلى ميتاً معلقاً من ساقيه وكشف قميصه عن بطنه العارية وعن الذبابات التي أعلن الحرب عليها أيضاً، تسير على وجهه المسترخي الذي ارتاح من تكشيرة فكيه العريضين؛ ذبابات تمشي صعوداً وهبوطاً. أوه! وصديقته ذات الثديين الصغيرين اللذين مزقهما الرصاص معلقة من قدميها أيضاً. لكن ما أريده من هذا التضاد بين الحجب والكشف، بين الضياء الفاضح والضياء الذي يحفظ الأسرار، هو الإشارة إلى المزاعم أو الأوهام التي يبدو أن قلة الضوء تسمح بها. ذكرت منذ فترة أن ثيا كانت معها صور كثيرة من بينها صورة لأبيها ملتقطة في جنوب الصين، في عربة ريكشا. وضعتْ صورة أبيها على طاولة الزينة، أدخلت زاويتها تحت إطار المرآة. وجدت نفسي أنظر إلى هذه الصورة، مرات كثيرة، أنظر إلى حذائه الأبيض المصنوع في مكان بعيد كثيراً عن تلك الأرض التي يسير عليها أهل كانتون بوجوههم المدورة كالصحون. أنظر إليه في حلته البيضاء. أفكر في السبب الذي دعاها إلى انتقاء هذه الصورة خاصة. ربما كنت أنظر إليه نظرة خاصة باعتبار أنني حبيب ابنته أو زوجها في المستقبل. لكنه كان جالساً مثلما يجلس السادة في سيارة التاكسي البشرية تلك. ومن حوله أشخاص ينظرون إليه، أشخاص من ملايين البشر الذين يحسدونه؛ بشر يحملون آثار المجاعات والبيوت القذرة، بشر هم طعام الحروب، بشر ليسوا إلا الجزء الحي من عدد أكبر غارق في الأرض، ميت، بشر تعجّ بهم آسيا مثلما يعج المحيط بطحالب مستلقية في الشمس.

نعم، رأيت الجبال المتوحشة في هذا الضياء الحار، ورأيت شريطها شبه المداري حيث تعيش الأغوانة بين أوراق النباتات الكبيرة وبين الزهور الرائعة، وبين عمال وقرويين، ولم أدرك سريعاً كم هو كبير عدد الزائرين من بلاد باردة أو معتدلة ممن يدفعون مالاً كثيراً حتى يكونوا هنا. على مقربة شديدة منا كان هنالك فندق فخم، فندق كارلوس كوينتو. كانت

بركة السباحة فيه متألقة وسط الحديقة، زرقاء وبيضاء مثل طقس الجنة ومثل دفئها؛ وكانت هنالك سيارات أجنبية ضخمة مصطفة في الشارع المؤدي إلى الفندق. لقد بدأت آكاتلا تجتذب أناساً اعتادوا الذهاب إلى بياريتز وسان ريمو لكنهم آثروا الآن الابتعاد عن دروب السياسة. هنالك دائماً إسبان في هذا المكان، إسبان آتون من جانبي الكارثة الإسبانية؛ وهنالك بعض الفرنسيين أيضاً، وبعض اليابانيين والروس، وأسرة من الصينيين تدير باراً هنا وتصنع أحذية قماش لها نعال من الحبال. ما كنت أعرف عن ذلك إلا القليل، أول الأمر.

كان مسلياً لي أن أنظر في حدائق فندق كارلوس كوينتو المجاور لنا: البار على التراس، والسابحون في البركة، وانطلاق مجموعات ركوب الخيل، والغزال الصغير ضمن منطقة محاطة بسور من الأسلاك. كان مدير الفندق إيطالياً؛ وقد اعتاد أن يرتدي بنطلوناً دبلوماسياً وسترة طويلة متسعة تخفي الجزء العريض من جسمه. كان شعره صقيلاً ووجه واثقاً فيما يتعلق بالآخرين، قلقاً فيما يتعلق به هو نفسه. لاحظت مدى سرعة أصابعه في دخولها وخروجها جيوب صداره حيث يبدأ قسم كبير من نشاطاته. عرّفتني ثيا عليه من فوق جدارنا، اسمه دا فيوري. وكان في نهاية حديقة الفندق منطقة خاصة بأسرته تطل عليها نافذة غرفة نومنا. كل صباح، كان دا فيوري يخرج مع والده العجوز الضئيل مرتدياً قبعة خفيفة وبدلة إنكليزية قديمة الطراز، خضراء قاتمة، موبرة؛ إضافة إلى حزام وسترة لها أزرار كستنائية. كان يمسد شاربيه بأصابع يديه المشعرتين؛ وكانت قدماه الصغيرتان تبدوان غير قادرتين على حمله عند يمشي. كنا نحب السهر في السرير محتضناً كل منا وسط الآخر العاري... نجلس هناك ونراقبه من النافذة حائماً حول تلك الأزهار الضخمة. ثم يأتي ابنه ممشّط الشعر شاحباً ضجراً وقد كسا ندى الصباح كاحليه فينحني ويقبل يد أبيه. ثم تأتي فتاتان صغيرتان بيضاوان مثل حلوى عيد الميلاد، وتأتي أمهما الناعمة. ترفع كل واحدة منهن يد العجوز إلى فمها وتقبّلها. كان هذا المشهد يسرّنا كثيراً. يجلسون بعد ذلك في ظل عريشة حيث يقدَّم لهم طعام الإفطار.

بحلول هذا الوقت، كان النسر قد تعلم تمييز صوت ثيا وصوتي، وصار يترك فريسته التدريبية فيأتي ليأكل من أيدينا. لقد حان وقت تعرّفه على السحالي. كانت السحالي الحية مشكلة لأنها ستهرب منه، وكانت شديدة الصغر أيضاً. لكن ثيا لم تجد السحالي الميتة وافية بالغرض. إلا أن السحالي التي جاء بها جاسينتو أقلقتها. فاقترحت تخدير الكبيرة منها، بالقدر الذي يجعلها غير قادرة على الحركة السريعة. كنت مغرماً بتلك السحالي. صار بعضها أليفاً بسرعة كبيرة. تمسد رؤوسها الصغيرة بإصبعك فتصبح عاطفية وتتسلق ذراعك فتدخل كمك أو تسير على كتفك وتتغلغل في شعرك. وعندما نجلس إلى العشاء في الليل، كنت أنظر إلى السحالي التي ترقد منتظرة عند المصابيح التي تجتذب الحشرات...

تنتفخ حلوقها انتفاخاً سريعاً وتخرج ألسنتها التي أظن أنها تمتلك حاسة السمع. تمنيت لو نستطيع لو نتركها وشأنها. وتذكرت ذلك الحيوان العاصف الجاثم بوزنه المهول فوق خزان المياه في المرحاض؛ تذكرت منقاره وقدميه بمخالبهما القاتلة. كانت ثيا صارمة معي تجاه هذا التفكير. كانت تجعلني أضحك، وأتشنج أيضاً، عندما تناقش تعاطفي مع هذه المخلوقات الناعمة. لم يكن الأمر كما لو أنها لم تفكر في الأمر بشكل مستقل عني. كانت تقول: «أوه، أيها الأحمق! إن لديك مشاعر إنسانية في كل شيء، كالناس البدائيين. احتفظ بمشاعرك السخيفة لنفسك. هذه السحالي لا تريد مشاعرك. ولو كانت تحس بما تحسه أنت لما كانت سحالي... ستكون شديدة البطء، وستنقرض سريعاً. ثم انظر أيضاً، إذا رقدت على الأرض ميتاً فسوف تدخل سحلية صغيرة فمك المفتوح لتلتقط الحشرات كما لو أنك جذع شجرة ميت، لا أكثر».

«وسوف يأكلني كاليغولا أيضاً».

«ممكن جداً».

«وهل ستدفنينني؟».

«بالطبع، لأنك حبيبي. ألن تدفنني لو كنت مكانك؟».

على العكس من لوسي ماغنوس، لم تخاطبني ثيا بلقب الزوج، ولا بأي مصطلح أسري. وكنت مقتنعاً أحياناً بأن آراءها بخصوص الزواج تشبه آراء ميمي مع فارق وحيد هو أنها لم تكن مَيّالة إلى المجادلة في هذا الأمر.

كانت هذه الأحاديث عن السحالي جزءاً من أحاديث كثيرة من الموضوع العام نفسه. وتدريجاً، جعلتني ثيا أرى ما ترمي إليه من حديثها معي. قد لا يمكنك أن تنتزع مني اعترافاً بأن هنالك وضعاً لا سبيل إلى تجنّبه وبأنه وضع سيئ من غير شك، لكني كنت دائم البحث عن مخرج، وكان السؤال المطروح هو ما إذا كنت رجلاً عنده أمل أو حماقة. أما هي، هكذا أظن، فما كانت مهتمّة بما لدي من آمال. يبدو أنه إذا أشهر أحد في وجهي شيئاً مؤذياً فإنني أفتش عن حل أو أنسحب وألتفت إلى جهة أخرى محوّلاً ذلك الخطر في اتجاه آخر. أسقط في يدي عندما اتهمتني بهذا؛ ثم حاولت أن تشرح لي رأيها.

لكني كرهت فكرة تعريض هذه السحالي الصغيرة للهجوم ولسفك دمها، كرهت أن أرى ما بداخل هذه الأجسام الناعمة الأنيقة يخرج تحت مخالب كاليغولا بينما يحدق فيها ويفتح منقاره.

كنا نعمل مع النسر صبيحة يوم أحد، عندما راحت الفرقة الموسيقية ترعد وتزفر أنغامها في الساحة العامة منذ الفجر. كانت الحرارة جافة عند المطبخ بعد الفطور (أكلنا بيضاً

مشوياً في الشمس). وكان سماع صوت اصطفاق جناحَيْ نسرنا في ذلك الحيز الهوائي الحار أمراً مهولاً. جلب جاسينتو سحلية أكبر حجماً. ربطنا السحلية بخيط قصير لصيد الأسماك ثم ثبتنا الخيط إلى قضيب خشبي. وهذا ما حرمها من إمكانية الهرب بعيداً. ثم جاء النسر منقضاً مشهراً مخالبه في الهواء المكهرب الجاف وغباره المضطرب؛ مضى ليغرس تلك المخالب في السحلية. لكن طول الخيط كان كافياً لأن يجري ذلك الحيوان السريع ويستدير. فتح فمه مظهراً أسناناً صغيرة حانقة في ذلك الفم الكبير، ثم أطبق فكيه على فخذ النسر وظل متعلقاً به فتلوى كاليغولا تحت وطأة اندفاعته وألم العضة معاً. جعله فخذاه يبدو مثل فارس من فرسان آتيلا منطلقٍ في الهواء. صدرت صيحة عن النسر. لا أظن أن ألماً أصابه قبل الآن... كانت دهشته عظيمة. خلّص نفسه من السحلية ثم قفز مبتعداً عنها بعد أن ضربها فجرحها جرحاً قاتلاً. لم أستطع إظهار ذلك، لكن قلبي ارتاح عندما رأيت كاليغولا يتلقّى هذه الإهانة. راح يبحث بمنقاره بين ريشات فخذه ليعثر على مكان الألم.

غضبت ثيا منه واحمرّ وجهها. صاحت به: «هيا، اذهب واقضِ عليه!» لكنه، عندما سمع صوتها نهض وطار إليها ليحصل على اللحم مثلما اعتاد. وبما أنه طار إليها، فقد كان عليها أن تستقبله وتمدّ له ذراعها. إلا أنها كانت في غاية الغضب: «أوه، يا للقذر الصغير! لا نستطيع أن نسمح له بالهرب بعد عضة صغيرة من حيوان كهذا. ماذا نفعل؟ أوجي، لا تضحك مما حدث».

«لست أضحك يا ثيا؛ إنها الشمس تجعلني أكشّر هكذا».

«ماذا يجب أن نفعل الآن؟».

«سوف أرفع السحلية وأستدعي كاليغولا من جديد. إن الحيوان البائس يكاد يموت».

«جاسينتو، اقتل السحلية».

ركض الصبي مسروراً فخرج من السقيفة بقدمين حافيتين وضرب الحيوان بحجر على رأسه. وضعت السحلية الميتة على قفازي فلم يرفض كاليغولا المجيء، لكنه لم يأكلها. دفعها غاضباً وتركها تسقط على الأرض. فعل الأمر نفسه عندما قدمتها إليه بعد لحظات. صارت جثة مغبرة الآن.

«أوه، هذا الغراب الملعون! خذه بعيداً عني».

«اسمعي يا ثيا، انتظري لحظة. لم يحدث هذا معه من قبل».

«انتظر؟ لقد خرج من البيضة مرة واحدة فقط. فكم مرة يجب أن يفعل ذلك؟ من

المفترض أن يكون لديه شيء غريزي. سوف أدق عنقه. كيف يمكن أن يقاتل تلك السحالي الكبيرة إذا كان هذا الشيء الصغير قد تمكن من إخافته؟».

«كيف؟ إذا أصابك جرح، فماذا تتوقعين أن تفعلي؟».

إنها نزعتي الإنسانية تظهر من جديد!! هزت ثيا رأسها. كانت مقتنعة أن الطبيعة العنيفة لا يجوز أن تكون هكذا.

وضعتُ النسر في مكانه فوق خزان المياه. وبمرور الوقت، سمحت لي ثيا بتهدئتها. قلت لها: «لقد فعلت العجائب مع هذا الطائر حتى الآن. لا يمكنك أن تفقدي الأمل. سوف نحقق ذلك بالتأكيد. لكن، قد لا يكون فظيعاً بقدر ما يوحي منظره. لا يزال طائراً فتياً».

أخيراً، بعد الظهر، تجاوزت غضبها واقترحت للمرة الأولى أن نذهب إلى بار هيلاريو في الساحة العامة لنتناول شراباً. كانت مشاعرها الثائرة غير ودية تجاه كاليغولا فأحسست بشيء من الإدانة يصيبني أيضاً.

ومع هذا كله، كانت ثيا محبة على نحو خاص عندما ذهبنا إلى الغرفة استعداداً لأمسية الأحد في الساحة العامة. خلعت ثيابها. كانت ثيابها الخارجية خشنة قاسية، أما ملابسها الداخلية فكانت حريرية. عندما صرنا عاريين وجلسنا ندخن سيجارة، نظرت إلي بطريقة مختلفة وأنا جالس من غير قميص ثم خلعت عني حذائي في ذلك الظل الحار ولون بلاط الأرضية الأحمر المشعّ. وضعت رأسي على صدرها. لكني كنت أعرف أننا، وكلانا في حالة حب، لسنا على هدف واحد تماماً. كانت لديها فكرة عن فعلٍ يجعلك الحب مستعداً له، ويحررك. وكان هذا الفعل متصلاً بكاليغولا. هذا ما كان يعنيه كاليغولا بالنسبة إليها. لكن، بما أنها صار تشك الآن في أنه يفضل اللحم الجاهز على الصيد، فلعلها صارت تفكر أيضاً، في ما يتعلق بي، إذا كنت قادراً على القيام بالخطوة التالية من الحب إلى الشيء الضروري الذي بعده.

نهضنا من السرير وارتدينا ملابسنا. كم بدت ناعمة في قميصها المخرَّم الذي ارتدته. انسدل شعرها الطويل على ظهرها. أمسكت بذراعها، لا لأنها في حاجة إلى الاستناد إليها عندما تسير في حذائي ذي الكعب المرتفع، بل لتبقى قريبة مني. بدت في ظلال أشجار الفاكهة قريبة جداً من الصورة التي أذكرها في سانت جوي على تلك الأرجوحة، فتاة في أول صباها.

كانت ثيا معروفة في البلدة لأن آل فينكل يملكون هذا البيت في آكاتلا منذ سنين طويلة. أما في بار هيلاريو، فقد جلسنا إلى طاولة صغيرة؛ لم تكن تريد صحبة هناك. لكن الناس

جاؤوا لتحيتها وسؤالها عن أختها وعمتها وعمها، وعن سميتي أيضاً. وجاؤوا لتقديم الأنخاب إليها. ظلت ثيا ممسكة بذراعي.

في عيني الآتيتين من شيكاغو، بدا معظم الآخرين أشخاصاً بعيدين غريبين. ومن وقت لآخر، كانت ثيا تشرح لي شيئاً عن هذا الشخص أو ذاك؛ لم أكن أفهمها دائماً. علمت منها أن الألماني الأصلع العجوز كان راقصاً، وأن الشخص الجالس إلى جانبه بائع مجوهرات، وأن زوجته الشقراء جاءت من كانساس ستي. وهنا كانت امرأة في الخمسين، إنها رسّامة. وأما الرجل الذي معها فهو يكاد يكون مساعداً لها. ثم دخلت جنيّة ثرية كانت ملكة ذات يوم. كانت في الحانة أيضاً امرأة تفتح في اتجاهك فماً ذكياً؛ أحسست أنها تنظر إليّ نظرات ضارية. ظننت في البداية أنها تنظر إلي هكذا لأنني أحتل مكان سميتي. إن اسمها نيتي كيلغوري كما علمت. وقد اتضح لي أنها ليست سيئة على الإطلاق. كل ما في الأمر أنها تبدو نافذة الصبر أحياناً، ويبدو عليها قدر من الشهوانية. ما كانت تبالي كثيراً بسميتي. لقد عرفت الكثير من الشخصيات الغريبة من قبل، لكني لم أعرف أحداً جعل من هذا الأمر تخصصاً له في الحياة. كانت المستعمرة الأجنبية في هذه البلدة شيئاً يشبه قرية غرينوتش أو مونتبارناس، أو ما يماثلهما في بلدان كثيرة. إن فيها منفياً بولندياً، وأسترالياً ملتحياً، وفيها نيتي كيلغوري أيضاً. وهناك زوج من الكتّاب من نيويورك، واحد اسمه ويلي مولتون، وأما صديقه فاسمه إيغي... هكذا فقط! وهنالك أيضاً مكسيكي شاب اسمه تالافيرا يملك والده شركة التاكسي ويقوم بتأجير الخيل أيضاً. اتضح أن الشخص الجالس إلى جانب إيغي هو الزوج الثاني لزوجة إيغي الأولى. كان اسمه جيبسون، وهو حفيد المستكشف الأفريقي الشهير. كان هذا كله جديداً بالنسبة لي، وقد تعاملت معه على هذا الأساس. أما أنا وثيا، الخارجَيْن من السرير قبل قليل، فبقينا جالسَين متلاصقَيْن. كان الأمر كله تسلية غريبة لم يكن لها أثر كبير في نفسي. وما كان الأمر مسلياً بالنسبة لي أكثر مما كان لحيوان الكينكاجو الجالس في القفص يقضم رقائق البطاطا. هذا الحيوان الصغير ذو العينين الواسعتين.

أحسست بالإطراء عندما افترض الناس أنني مدرِّب النسر. لقد قلت لهم بالطبع: «أوه، ثيا هي الزعيم الحقيقي»؛ لكن الناس بدو كأنهم يرون أن رجلاً فقط يمكن أن يستطيع أن يتعامل مع طائر بهذا الحجم. كانوا كلهم هكذا ما عدا الشاب القوي الأسمر الوسيم تالافيرا الذي قال إنه يعرف مدى مهارة ثيا في التعامل مع الحيوانات. لم أبال أبداً بمساهمته في هذا الحديث رغم أن علي الاعتراف بأنه بدا من رتبة مختلفة عن بقية هذه المجموعة. لم أستطع التخلص من هذا الإحساس الغريب. كان الشخص الجالس إلى جانبه يبدو كأن له عرفاً عظمياً في وسط رأسه؛ وكان ظهر كفه يبدو كأنه باطن قدم رجل آخر.. أبيض، ثخين، ميت المظهر. ثم نيتي كيلغوري، ثم إيغي ذو العينين الحمراوين. ثم كان هنالك رجل أطلقت عليه في سري اسم «إيثلريد غير المستعد»... مثلما كانت تفعل الجدة لوش،

أو مثلما كان يفعل المفتش إينهورن؛ كنت أفعل هذا أحياناً، أطلق اسماً على شخص ما. ثم ويلي مولتون، كاتب القصص الغريبة. كان كبير البطن طويل الشعر، وجهه ناعماً رقيقاً قاتم الجفنين، وأسنانه صغيرة صبغها دخان التبغ. بدت أصابعه منحنية إلى الخلف كلها، عند مفاصلها.

كان الكلام صعباً مع بعض هؤلاء الأشخاص الذين ذهب أكثرهم في رحلات تسلق في هذه السلسلة الجبلية الهائلة حتى يثبتوا لأنفسهم شيئاً.

قال مولتون: «إذن فأنتم تريدون الإمساك بتلك الوحوش مستخدمين هذا الطائر؟».

قالت ثيا بهدوء تام: «نعم، سنفعل هذا؟» كان فيها شيء عظيم: لا يمكن زعزعتها وجعلها تُدخل تغييرات على خطتها أو على آرائها حتى تساير الآخرين. كانت تقول دائماً: «لا أحب الألاعيب».

قلت له: «لقد حدث هذا من قبل».

بدأت الآن تلك الفرقة في الساحة العامة، تحتنا تماماً، تصدر ضجيجها من جديد، فارتجف الهواء على وقع ذلك المارش الفوضوي. إنه الغسق تقريباً. شباب يتنزهون، لكن الوقت قصير. وهذا ما يجعلك تحس في مشيتهم غنجاً، وطيراناً متهوراً، أو كليهما معاً. طارت مفرقعات ليلية في السماء. وراح أعمى يعزف الكمان ويغني مع ضربات قاتلة من قوسه على الآلة المسكينة؛ إنه ينشد للسائحين أغاني الغرام. وعندها، بدأت أجراس الكاتدرائية رنينها... أعمق الأصوات في هذا الحزن العتيق الكبير. جعل صوت الأجراس حديث الناس يصمت حيناً من الزمن؛ شربوا بيرتهم أو قرعوا كؤوساً من التيكيلا ورفعوا أنخاباً بعد غمس الإبهام في الملح على الطريقة المكسيكية، مع قطع من الليمون المر الصغير.

أرادت ثيا أن يساعدها مولتون في كتابة المقالات. فعندما تراجع الصخب وصار المرء قادراً على سماع نفسه من جديد، سألته عن هذا الأمر.

قال لها: «لا أعمل في هذا المجال الآن. إنني أكسب أكثر من خلال التزامي مع نيكولايتس».

كان نيكولايتس محرّر مجلة من مجلات القصص المثيرة التي يكتب فيها مولتون. قال لها: «كنت أعتزم للذهاب لإجراء مقابلة مع تروتسكي الشهر الماضي؛ لكنني تخليت عن ذلك لأنني أفضل الكتابة في مجلة نيكولايتس. ثم إنني أجد من الصعب عليّ كثيراً أن أتخلى عن المال الذي يأتيني منه».

أحسست أن لدى مولتون كلمات مخزَّنة من مختلف الأنواع، وأنه يستطيع أن يقول أي شيء، أي شيء!.. فهو فقط، ينتظر أن يمنحه الحديث فرصة لاستخدامها.

قالت ثيا: «لكنك كنت تكتب مقالات للمجلات ذات وقت. وأنت قادر على أن تشرح لنا كيف نفعل ذلك».

«أفهم من هذا أن السيد مارتش ليس كاتباً».

أجبته: «لا، لست كاتباً».

كان في الحقيقة يحاول أن يعرف صنعتي. وأظنه أدرك أنني لا أملك صنعة أستطيع الإعلان عنها حتى أمام هؤلاء الناس الدنيويين... تخيلت أنهم أشخاص من العالم العظيم، كانوا كذلك تقريباً. ابتسم لي مولتون؛ لم تكن ابتسامته خالية من اللطف. كانت تلك الطيات العميقة عند عينيه تمنحه شبَهاً شديداً بسيدة سمينة كانت تعيش في حيّنا القديم.

«لا بأس، يمكن لإيغي أن يساعدكما عند الضرورة إذا كنت أنا عاجز عن ذلك».

كان مولتون وإيغي صديقين، لكن كل من سمعه أدرك أن هذه التوصية كانت نكتة لأن إيغي متخصص في كتابة قصص رعب في مجلتَيْ دوك سافيج وجنغل ثريلرز. ولا يستطيع كتابة شيئاً مختلف.

أعجبني إيغي بلايكي. كان اسم عائلته الحقيقي غورفيتش، لكن هذا الاسم ما كان منسجماً مع الأسماء الأنغلوساكسونية المتميزة التي يحملها أبطال قصصه. وهذا ما جعله يستبدل بلايكي بغورفيتش؛ وبما أن الاسم ليس حقيقياً في الأصل، فقد اكتفى باسم إيغي في نهاية الأمر. كانت له هيئة أحد مرتادي صالات الألعاب الحقيقيين. فهو يشبه الصبي صاحب الدلو في زاوية ميجل، لكنه مترنّح مجعد بعض الشيء. يرتدي كنزة صوفية طويلة مثل ملابس الهنود الحمر، وصندلاً ذا عقب من الحبال اشتراه من المتجر الصيني. إنه نحيل الجسم لكن وجهه كبير محمرّ فيه عينان خضراوان محتقنتان بالدم وفم ضفدعي الاتساع؛ وأما جلد رقبته فكان مجعداً وسخاً نصف حليق. كان صوته مختنقاً وكلامه نصف مترابط فقط. إذا لم يكن المرء خبيراً في تقييم أشخاص من هذا النوع فلن يعرف أنه إنسان بريء، بل يمكن أن يظنه بائع مخدرات أو واحداً ممن يجمعون الخردة أو مجرماً قليل الشأن. إنه صاحب مظهر مضلّل إلى حد كبير.

وأما تالافيرا الشاب، فإنني لم أعرف كيف أفهمه. من الواضح أنه ينظر إليّ نظرات فاحصة، وأنه يبالغ في ذلك. جعلني هذا حذراً، من الخارج، حذراً تجاه ما يوحي به مظهري بوجهي الذي لوّحته الشمس وشعري المرخى على هواه. جعلني هذا الحذر أشعر بشيء من السخف، لكن لا بد من الاعتراف بأن نظراتي كانت تدهشه أيضاً. ما كانت خبرتي كافية

لأن تجعلني أشك في هذا الشاب المنتمي إلى هذا المكان والذي يقيم صلات مع الزائرين الأجانب، النساء منهنّ خاصة. هكذا هي الشخصيات المفلسة التي تحمل أسماء عتيقة... في البندقية أمام مقهى جيلي، أو الشباب الذين يرتدون سراويل ضيقة وينتظرون عند أعلى سكة الحديد المعلقة في كابري مترصّدين فتيات هولنديات أو دانمركيات لمصاحبتهن. لو كنت صاحب خبرة فقد لا أكون مصيباً إلى هذا الحد في ما يتعلق بتالافيرا. كان نمطاً هجيناً: شاب شديد الوسامة يشبه الممثل رامون نوفارو، ناعم مغرور في الوقت نفسه؛ وقد قيل لي إنه درس هندسة المناجم، لكني لم أجد دليلاً يشير إلى هذا لأن الرجل ما كان في حاجة إلى العمل. إن والده ثري، وهذا ما سمح له بأن يكون رياضياً متبطلاً.

قلت لثيا: «لا أظن أن هذا الشاب يحبني كثيراً».

أجابت من غير اهتمام: «حسن، ما أهمية هذا؟ إننا نستأجر الخيول من أبيه فقط».

من أجل كاليغولا، جربنا استخدام حمار أول الأمر. صحيح أنه وقف على السرج محجوب العينين وبدا في وضع آمن تماماً، إلا أن الذعر استبد بالحمار فانتصب شعر رقبته ورأسه. جربنا الخيل بعد ذلك فخافت منه أيضاً. كنت غير قادر على المحافظة على استقراري على السرج عندما تناولني ثيا كاليغولا. وما كانت أكثر استقراراً مني في هذه الحالة. أخيراً، جلب تالافيرا الأب حصاناً عجوزاً شارك في انتفاضة زاباتا وجُرح في معارك حرب العصابات. ما كان يبدو على هذا الحصان العجوز أنه صالح لشيء أكثر من حمل فارس استعراضي للسير به قليلاً في الحلبة. لكنه كان ممتازاً للنسر. كان يمكنني القول إن الأسى وحده هو ما بدا عليه عندما قبل وجود هذا الطائر على ظهره. مسكين يا بيزكوتشو العجوز (هكذا كان اسم الحصان في الحرب)... كان لا يستطيع المضي بخطوة سريعة رغم أنه لا يزال محتفظاً بلحظات عابرة من الرغبة في الجري.

أخذناه إلى خارج البلدة أولاً، للتدريب. وهناك، خلف المقبرة وعظامها الراقدة على الأرض كيفما اتفق وعبير الزهور على امتداد جدران القبور البيضاء، امتطيت أولاً ظهر الحصان الرمادي الذي سار بطيئاً؛ وكان النسر جاثماً فوق ذراعي. ثم امتطت ثيا حصاناً آخر؛ وخلفنا سار جاسينتو في ملابس نومه البيضاء راكباً حماره وقد تدلت قدماه القاتمتان حتى كادتا تبلغان الأرض. مررنا بجنازة على الطريق، جنازة طفل على الأرجح؛ فما كان من الأب نفسه الذي يحمل التابوت على رأسه إلا أن تنحّى جانباً مفسحاً الطريق أمامنا (هكذا فعل السائرون في الجنازة كلهم، بمن فيهم الموسيقيون). تابعت عينا الرجل نسرنا خلال مروره، عينان مثل حليب السواد، ومن تحتهما شعرات شارب منغولي دقيقة طويلة فوق شفتين ناتئتين. ما كانت نظراته ودية كثيراً، لكنه راح ينظر إلى النسر. وعندها سمعنا الهمس المعهود نفسه «انظروا، انظروا، انظروا... النسر، إنه النسر!» وهكذا مررنا بالحجارة

والجدران البيضاء المتقشرة بفعل الحرارة، عبرنا تلك القضبان الحديدية المدببة وعظام الموتى وملابس النائمين المهلهلة البالية؛ مررنا أيضاً بتابوت الطفل الذي قتلته الحمى.

تسلقنا الهضبة التي بدت البلدة تحتها راقدة نصف مخفية في حفرة ضخمة رائعة. وهناك بدأ تدريب كاليغولا حتى يعتاد الانطلاق. وعندما أتقن ذلك، استعادت ثيا ثقتها فيه. لقد أبلينا بلاء حسناً في الحقيقة. كان النسر مستقراً على ذراعي فحفزت بيزكوتشو العجوز ليزيد سرعته لكن النسر ظل مستقراً على قدميه وشد مخالبه على قفازي بقوة أكبر حتى أحسست بها تخدشني. نزعت القلنسوة ثم أرخيت الحبل (حتى أفعل هذا، كان يجب أن أفلت عنان الحصان وتتمسك ركبتاي بالسرج بقوة أكبر) اندفع كاليغولا بصدره صافقاً بجناحيه الكبيرين، وطار مرتفعاً في الهواء.

صار بيزكوتشو جاهزاً بعد بضعة أيام فانطلقنا ذات صباح لاصطياد السحالي العملاقة؛ كنا في غاية الحماسة. جاء جاسينتو معنا حتى يجعل تلك السحالي تفر من مخابئها بين الصخور. هبطنا سفح الجبل لنبلغ موطنها. كانت الحرارة كثيفة هناك؛ تجمعت راكدة في الصخور التي كانت هشة متآكلة بفعل المطر الحامضي... صار فيها كهوف وأشكال تشبه سقوف البيوت الكمبودية. كانت تلك السحالي ضخمة حقاً؛ وكان على ظهورها ما يشبه الأهداب الطويلة أو الأشرعة: إنها بقايا الأغشية القديمة. كان المكان فائحاً برائحة الأفاعي، وبدا لنا أننا صرنا في عصر الأفاعي بين السموم الحارة المنبعثة من النباتات الخضراء والغاردينيا الشاحبة. انتظرنا بينما مضى الصبيّ الحذر يضرب الأرض بعصا طويلة، ويدسّ العصا تحت الأوراق. إنه يستخدم العصا لأن الإغوانا متوحّشة. ثم رأيت واحدة منها على حافة صخرية فوقنا. كانت تنظر إلينا، لكنها اختفت عندما أشرت إليها. كانت هذه الحيوانات سريعة جريئة إلى حد لم أر مثله قبل الآن. وكانت قادرة على القفز من أي مكان ومن أي ارتفاع، وذلك بمجرد انثناءة في جوانبها، كأنها أسماك. إن لها عضلات رائعة، كالأسماك فعلاً؛ وكان طيرانها خلال القفز جميلاً إلى حد مخيف. أدهشني أنها لا تتجمع على أنفسها بعد القفز مثلما تفعل حيوانات أخرى، لكنها تلمس الأرض فتواصل اندفاعها من غير توقف. إنها أسرع من الخنازير البرية.

كنت قلقاً على ثيا لأنني أعرف في أي حالة كانت. كان المكان شديد الانحدار، ولا مجال للمناورة فيه، وكانت تستعجل حصانها وتحاول الاندفاع مسرعة.

أما أنا فكنت أحمل عبء النسر، ولم يكن حصاني الزاباتي الرمادي العجوز قادراً على الاستدارة السريعة رغم جرأته وفهمه للمخاطرة. هذا ما جعلني أعتمد على السمع أكثر من النظر، معظم الوقت.

صحت: «ثيا! لا تفعلي هذا بحق السماء!».

لكنها كانت تصيح مخاطبة جاسينتو وتلوّح لي في الوقت نفسه مشيرة إليّ أن أتخذ وضعية مناسبة. أرادت جعل السحلية تفر هابطة منحدراً من الحجارة بحيث لا يكون لديها ما يخفيها هناك. كانت تلك الحيوانات تبدو في طيرانها فضية أحياناً، ومغبرة مائلة إلى الخضرة في أحيان أخرى. وأخيراً، أشارت لي ثيا بأن أنزع قلنسوة النسر وأرخي عنانه. استدرت بالحصان قليلاً وجعلته يبدأ نزول ذلك المنحدر ذي الحجارة السائبة فتمسّك بي كاليغولا بقوة أشد. حللت الخيط ونزعت القلنسوة ثم أرخيت حبله فانطلق قافزاً إلى الأمام في هواء السفح الجبلي العميق ثم ارتفع في تلك الزرقة المترجرجة. طار على مراحل حتى بلغ ارتفاعاً كبيراً، ثم انتظر. قفزت ثيا إلى الأرض لتأخذ العصا من الصبي. كان في ذلك الوقت يمررها عبر نباتات كثيفة ويمزق بها أزهاراً رائعة حمراء كاللحم. وكانت الأزهار تتهاوى متساقطة في موجة من السراخس الخضراء. صاحت ثيا بالإسبانية: «ها هي تأتي». فرأيت إغوانة تجري نازلة فوق تلك الحجارة. رآها كاليغولا فبدأ الانقضاض. بدا ريشه مثل درع أسود اللون؛ كان كأنه وعيدٌ هابط من السماء. أما في الأسفل، فقد قفزت الإغوانة قفزتها الرشيقة أيضاً، ثم تجمعت على نفسها عندما هاجمها كاليغولا وانزلقت مثل حية متفلتة من مخالبه، ثم انقلبت، وحاولت أن تعض بطن ذلك الظل الذي هبط عليها بتلك السرعة كلها ثم طار من جديد. رأيت الوجهين المسعورَيْن؛ فتح ذلك الوحش فمه المثلث عندما وضع كاليغولا قدمه عليه فبدا كأنه أفعى غاضبة، ثم ضرب النسر في رقبته. صاح جاسينتو، ثم زعقت ثيا عندما رأت ما حدث. انتفض كاليغولا القوي، لكن ذلك كان ليخلص نفسه فقط. سقطت الإغوانة على الأرض وفرت تاركة بقعاً من دمها على الحجارة. صاحت ثيا: «الحق بها! أمسك بها! ها هي هناك!» لكن النسر لم يواصل هبوط ذلك المنحدر. حط على الأرض ووقف يرفرف بجناحيه. وعندما اختفى صوت الإغوانة الهاربة طوى نسرنا جناحيه. ولم يطر عائداً إلي. صاحت به ثيا: «أنت، أيها الجبان القذر! أيها الغراب!». التقطت حجراً فقذفته به. كانت المسافة بعيدة فاكتفى كاليغولا برفع رأسه عندما اصطدم الحجر بالمنحدر على مسافة غير قليلة منه.

«لا تفعلي هذا يا ثيا! توقفي بحق الله! سوف يهاجمك ويقتلع عينيك».

«فليحاول مهاجمتي... سوف أقتله بيدي هاتين. دعه يقترب مني فقط». تركت عقلها يلتهب غضباً؛ صارت عيناها مجنونتين. أما أنا فأحسست بضعفٍ يسري في ذراعي عندما رأيتها على هذه الحال. حاولت منعها من قذفه بحجر آخر؛ وعندما فشلت أسرعت فأخرجت البندقية استعداداً لما قد يحدث... يجب أن أحميها منه.

أخطأ حجر ثيا هدفه من جديد. لكنه جاء قريباً هذه المرة فطار كاليغولا. قلت في نفسي عندما طار في الهواء: وداعاً أيها الطائر. سيرحل الآن إلى كندا أو إلى البرازيل. تشبَّثت

ثيا بصدر قميصي وصاحت متألمة دامعة العينين: «لقد أهدرنا وقتنا عليه يا أوجي. أوه، يا أوجي! إنه ليس جيداً أبداً... ليس إلا دجاجة بائسة».

«لعل ذلك الحيوان جرحه».

«لا! كان هذا سلوكه مع السحلية الصغيرة أيضاً. إنه خائف».

«لا بأس، فقد ذهب. لقد هرب».

«أين؟» حاولت النظر، لكنني أظن أنها لم تستطع الرؤية جيداً بسبب دموعها. وأنا أيضاً لم أعد قادراً على تمييزه بين البقع الكثيرة في السماء.

قالت وهي ترتجف غضباً: «آمل أن يطير إلى الجحيم!» كان وجهها متوهّجاً، ملتهباً. لقد خدعها... بدا كأنه آلة وحشية، بدا شديد الشراسة، بدا زعيماً؛ لكنه كان يخفي روحاً مختلفة تحت هذا كله. «هل يستطيع أن يطير هكذا إن كان جريحاً؟».

أجبتها: «لكنك رميته بالحجارة». ومن جديد، أحسست أنني شريك في الذنب... ألم يجرِ ترويضه على ذراعي؟

عندما عدنا إلى البيت حزينين، أرسلنا الحصانين إلى تالافيرا مع جاسينتو. كانت معنويات ثيا منهارة إلى درجة جعلتها شبه عاجزة عن السير وهي عائدة من الإسطبل. لم أكن راغباً في تركها الآن. سمعنا صراخ الطباخة عندما دخلنا البهو. كانت قد جرت فدخلت المطبخ حاملة طفلها الصغير لأن كاليغولا كان يطير فوق سطح السقيفة جيئة وذهاباً.

قلت لثيا: «ها هو النسر، لقد عاد! ما الذي تريدين فعله به؟».

قالت: «لست أبالي. لا أريد أن أفعل شيئاً. لقد عاد حتى يحصل على اللحم. إنه أجبن من أن يصطاد بنفسه».

«أنا مختلف معك. لقد عاد لأنه يشعر أنه فعل شيئاً خاطئاً. الأمر بسيط... لم يعتد أن تقاتله الحيوانات عندما يمسك بها».

«لا يهمني حتى لو جعلته طعاماً للقطط».

تناولت بعض اللحم من السلة عند الموقد ومضيت إليه. جاء لأخذ اللحم من يدي فوضعت عليه قلنسوته وربطت خيوطها ثم وضعته على خزان المياه، وضعته في مكانه البارد المظلم.

كنت راعيه الوحيد خلال أسبوع كامل تقريباً. أما ثيا فاهتمت بأمور أخرى. أنشأت لنفسها غرفة مظلمة وبدأت تظهير أفلام الصور التي التقطتها خلال سفرنا. تركت النسر في

عهدتي. فصرت أدرّبه وحيداً في الفسحة، صرت مثل رجل وحيد يجذف في زورق إنقاذ ضخم من غير مساعدة من أحد. كانت أمعائي تؤلمني ذلك الوقت، نوبة من الديزنتاريا. وصرت أبقى معه وقتاً أطول مما أفعله عادة.

وصف لي الطبيب دواء وقال لي أن أبتعد عن التيكيلا وأن أكف عن شرب ماء البلدة. ربما كنت أشرب أكثر مما يجب من تلك التيكيلا ذات اللون الدخاني التي تجعلك غير مستقر تماماً إذا لم تكن معتاداً عليها.

لكن حالة الانهيار بعد السعي إلى هدف كبير كانت مؤذية للجميع. صار البيت كله كئيباً؛ أما ثيا فكانت في مختبرها. لعل كلمة كئيب غير مناسبة هنا إذا أدخل المرء في حسبانه مقدار الخيبة والغضب المكبوتَيْن. ثم إنني لم أكن قادراً على ملازمة الفراش بينما يقبع كاليغولا مهمَلاً في مكانه؛ حتى إذا كان ذلك لسبب وحيد هو أنه سوف يصبح أكثر خطراً إذا جاع... هذا إذا تناسينا الجانب الإنساني للأمر.

وجدت مجلداً ضخماً تحت كمية من الورق موضوعة جانباً للمساعدة في إشعال النار في الموقد. كان كتاباً متقن الطباعة، من غير غلاف. وقد احتوى ذلك الكتاب على نصَّيْ «مدينة الشمس» و«يوتوبيا مور» لكامبانيلا، وعلى «الأمير» و«المحاورات» لماكيافيلي، إضافة إلى مقاطع مختارة طويلة من سان سيمون وكونت وماركس وإنجلز. لا أذكر اسم العبقري الذي شكل هذه المجموعة، لكنها كانت مجموعة ضخمة حقاً. هطل المطر يومين متواصلين، وكنت غارقاً في الكتاب بينما راح الحطب الرطب يحاول الاشتعال في الموقد؛ كنت ألقي حُزَماً صغيرة من عيدان خشب الصنوبر المشبع ضمغاً حتى أجعل النار تشتعل جيداً. كان الطقس الماطر غير مناسب لطيران كاليغولا فصرت أقف إلى جانب كرسي المرحاض وأطعمه من دون أن أنزع قلنسوته عنه؛ وأدفع إليه باللحم دفعاً حتى أعود إلى كتابي في أسرع وقت ممكن. كنت مسحوراً تماماً بذلك الكتاب، ونسيت مرضي، نسيت كيف كنت أنهض لأعرج في مشيتي، أبهرتني جرأة تلك الفرضيات والتوقّعات. أردت الحديث مع ثيا عن هذا الكتاب، لكنها كانت شديدة الانشغال بأمور أخرى.

قلت لها: «لمن هذا الكتاب؟».

«إنه مجرد كتاب؛ كتاب أحد ما».

«أجده كتاباً رائعاً».

أسعدها أني وجدت شيئاً أصبّ عليه اهتمامي. لكنها لم تبدِ اهتماماً بموضوع الكتاب. وضعت كفها على ناحية من وجهي ثم قبلتني على الناحية الأخرى؛ لكن ذلك كان لكي تصرفني عنها. أجريت بحثاً في الحديقة تحت المطر. بحثت انطلاقاً من الجدار الذي رأيت دا فيوري العجوز تحته واقفاً ينكش أنفه.

مضيت عند ذلك لإحضار الواقي المطري لأنني كنت في توق شديد إلى صحبة أحد ما. كانت ثيا قد طلبت مني إحضار الورق لطباعة بعض الصور وهذا ما جعلني مكلَّفاً بمهمة. عندما سرت هابطاً الدرجات الحجر العريضة تحت ذلك المطر البطيء. وجدت خنزيراً مشعثاً طويل الساقين مستلقياً في الخندق في الوحل الأحمر إلى جانب الطريق وقد وقفت فوقه دجاجة تلتقط عنه الحشرات. وكان صوت أغنية منبعثاً من مكبر الصوت في الغراموفون في بيت هيلاريو:

ثلاثة أشياء في الحياة

المال والصحة والحب!

وبعد تلك الأغنية جاءت أغنية منسابة بطيئة بصوت كوديا موزي، أو لعله صوت أميليتا غاليكورسي التي غنت «جواهر العذراء». كانت إيليانور كلين تملك تلك الإسطوانة في ما مضى. جعلتني الأغنية أشعر بالحزن رغم أن روحي المعنوية لم تكن في حالة سيئة.

مررت بثيابي المطرية أمام الكاتدرائية حيث كانت ملابس المتسولين الصوفية الملونة غارقة في ماء المطر، وحيث كانوا يعرضون أطرافهم المبتورة. تركت لهم بعض قطع النقود المعدنية... إنه مال سميتي على أية حال؛ رأيت أن من المستحسن أن يصلهم شيء منه.

ناداني أحد من شرفة الطابق الثاني المزيَّنة بالزهور في بيت هيلاريو، ونقر بإصبعه على علبة بيرة «كارتا بلانكا» ليلفت انتباهي. كان هذا ويلي مولتون. قال لي: «اصعد!» كنت سعيداً بهذا.

إضافة إلى ويلي، وجدت شخصين آخرين جالسين إلى الطاولة. ظننت في البداية أنهما رجل مع زوجته. كان الرجل في الخمسينيات، لكن سلوكه يوحي بسن أصغر... رجل نحيل جاف طويل القامة. ولكنني نظرت نحو الفتاة أولاً، فقدّموها باسم ستيلا فقط. سررت برؤيتها. إن جمالها تفوق كل ما في هذا البيت، البيت نفسه، والرجال، والحيوانات، والنباتات. قسمات وجهها ناعمة، ذكية؛ وعيناها محببتين (أظن أن هذا ما يجب أن أصف عينيها به)؛ شيء طبيعي أن تسعدني رؤيتها: أظن أن هذا يشبه طريقة تحسّس الثوار المتمردين أيدي عابري السبيل ليعرفوا إن كانوا أرستقراطيين أم أشخاصاً عاديين. عندما تكون واقعاً في الحب تجري اختبارات من هذا النوع. كانت ستيلا فتاة هذا الرجل الذي اسمه أوليفر. ومع أنه بدا مرتاحاً عندما كان ينظر إليّ إلا أنه كان في شك أيضاً! هذه هي قلة العقل عند الناس: كان يتوقع أن يجد نفسه محسوداً.

سرعان ما أوضح مولتون أنني مرتبط بامرأة. قال لي: «مرحباً يا بولينغبروك».

«ما هذا، أنا؟».

«طبعاً أنت! لا يمكنك أن تظهر بهذا المظهر من غير أن تتوقَّع مخاطبتك باسم فخم. لمع شيء في ذهني عندما رأيتك؛ قلت في نفسي هذا رجل تجب مخاطبته باسم بولينغبروك حتى إن لم يكن هذا اسمه في الحقيقة. أرجو ألا يزعجك هذا، هل يزعجك؟».

«هل يمكن أن يرفض أحد دعوته بهذا الاسم؟».

بدا المرح على الوجوه كلها، كل بحسب ميله... مع شيء من التعاطف أو شيء من الغِلّ.

«هذا هو السيد مارتش. ما اسمك الأول يا بولينغبروك؟».

«أوجي».

«كيف حال ثيا؟».

«جيدة».

«لم نعد نراكما كثيراً. لا بد أن النسر هو ما يشغلكما».

«هذا صحيح. إننا منشغلان به».

«لقد أعجبت بك كثيراً عندما وصلت في تلك السيارة ورأيتك تخرج الطائر منها. كنت جالساً هنا أراقب الأمر كله. لكني أظنه فشل في مهمته».

«من قال هذا؟».

«أوه، سرى بين الناس خبر يقول إنه أخفق».

هذا من فعل ابن الحرام جاسينتو!

«هل هذا صحيح يا بولينغبروك... أصحيح أن طائرك الجبار خائف؟ أهو جبان؟».

قلت: «ماذا؟ هذا كلام فارغ! كيف يكون أي نسر مختلفاً عن بقية النسور؟ إنها متشابهة كثيراً. النسر نسر، والذئب ذئب، والخفاش خفاش».

«أنت محق في هذا يا بولينغبروك. بل حتى في جنسنا نحن... إننا متشابهون كثيراً. لكن هنالك فروقاً هامة أيضاً، فماذا عن نسرك؟».

«لم ينضج بعد حتى يستطيع القيام بهذا النوع من الصيد. لكنه سينجح قريباً. ثيا مدرّبة عظيمة».

«لست أنكر هذا أبداً. لكن، إذا كان النسر جباناً بعض الشيء فإن تدريبه يكون أسهل

كثيراً من تدريب نسر خطير، أسهل من تدريب نسر شرس مثل ذلك الذي كان يصطاد تلك السحالي المتوحشة منذ فترة».

«كاليغولا نسر أميركي؛ أقوى أنواع النسور وأكثرها توحّشاً».

اكتشفت الآن كم يكون الناس العاديون راغبين في رؤيتك تنجح في مشروع استثنائي، ورأيت مدى الراحة التي يجدها البعض عندما ينجح أشخاص لا شأن لهم في مواجهة مصاعب يتساقط غيرهم أمامها.

قال إيغي: «يقوم أوليفر بتحرير مجلة. ولعله راغب في الحصول على قصة عن نسركم».

«ما هي المجلة؟».

«ويلموتز ويكلي».

قلت لأوليفر: «نعم، لقد أتينا في عطلة».

بدا مظهره سخيفاً بعض الشيء؛ بدا شخصاً سهل الانقياد له شفتان رقيقتان كالخيط وشارب صغير ووجنتان نافرتا العظام. من الواضح أنه رجل شهواني معجب بنفسه كثيراً. لم يمر وقت طويل على صعوده في هذا العالم. عرفه مولتون وإيغي في نيويورك منذ زمن. وقد كان من الأشياء الأولى التي أخبرني بها مولتون عن هذا الرجل أنه كان من باب المخاطرة، قبل سنتين فقط، أن تترك أوليفر في شقتك لأنه يمكن أن يسرق بعض ملابسك ويبيعها ليشتري الويسكي. وعندما سمع عنه آخر مرة، كان الرجل في مصحة يتلقى علاجاً بالأنسولين. لكن، ها هو الآن، متأنق، يقود سيارة ذات سقف متحرك ومعه هذه الزميلة التي تريد أن تصبح ممثلة. لقد كان محرر ويلموتز ويكلي حقاً. وكان يقول عن مجلته: «إننا مهتمون بالمقالات السياسية في المقام الأول».

«اسمع الآن يا صاحبي، بحق الزب... لا تقل لي إن مجلتك جدية إلى هذا الحد! لا تقل لي إن مقالاتها فكرية فقط. لم تكن هكذا في يوم من الأيام».

قال له: «اختلف كل شيء عندما صارت المجلة لمالكها الجديد. أنت تعرف هذا». قال هذه الكلمات ثم غيّر الموضوع بطريقة سرعان ما ظهر هدفها... «كتبت سيرتي الذاتية الأسبوع الماضي. كتبتها قبل أن ننطلق في هذه الرحلة. لقد استغرقت أسبوعاً. يوم لمرحلة الطفولة، ويوم لمرحلة الفتوة، ثم خمسة أيام لما بعد ذلك. عشرة آلاف كلمة في اليوم. وسوف أصدرها الشهر القادم». كان بالغ الرضا عندما تحدث عن نفسه... بدا في تلك اللحظة موفور الصحة، في أحسن حال، بدا براقاً لامعاً. ثم انتكس قليلاً عندما ابتعد موضوع الحديث عنه... فبدا شديد الهزال من جديد!

قالت ستيلا: «إننا مقيمون في فندق كارلوس كوينتو. تعالوا لتتناولوا كأساً معنا».

قال أوليفر: «نعم، لماذا لا تأتون؟ يجب أن تستفيدوا من هذه الفرصة، لأن الشراب يكلف مالاً كثيراً. نستطيع الجلوس في الحديقة على الأقل».

تركتهم لأنني كنت قلقاً من أمر النسر بعد الأشياء المزعجة التي قالها مولتون. كنت أظن قبل ذلك أن إخفاق كاليغولا سوف يمنحني نوعاً من السرور؛ لكن الغريب أن الأمر كان غير ذلك. لقد كان يفسد عليّ أوقات الحب في السابق؛ لكن الأمر صار أسوأ بعد فشله. وعلى نحوٍ مفاجئ، بدونا كأننا ضائعَان، أنا وثيا... حيّرني هذا. لماذا تكون المحافظة على نقاء المشاعر صعبة هكذا؟ أظن أنني التقيت هؤلاء الكتاب في ذلك الكتاب الضخم، كتاب اليوتوبيا، في وقت غريب. في يوتوبياتهم تلك، المبنية بأمل وفن، كيف يمكنك أن تتغاضى عن جزء من الطبيعة أو كيف يمكنك أن تكون واثقاً من أنك تستطيع المحافظة على المشاعر متوقدة؟

عدت إلى البيت مصمّماً على عدم التراجع: سوف أجعل كاليغولا يطير ويمسك بتلك الإغوانات الضخمة مثلما فعل ذلك الزوج من الأميركيين.

أردت في البداية أن أوبّخ جاسينتو على ثرثرته، لكني لم أعثر عليه. لم تكن ثيا في البيت أيضاً. قالت لي الطباخة: «ذهبت إلى الصيد».

«ماذا؟».

قالت بصوت يشبه قشة قديمة: «ذهبت لصيد الأفاعي»... كان صوتها واهياً بعيداً على الدوام.

بحثت عن تلك الكلمة في القاموس. لقد ذهبت مع الصبي لصيد الأفاعي. أما كاليغولا فكان في مكانه.

عادا ليلاً. سارت خلفهما عصبة من أطفال البلدة، قسم من عصابة جاسينتو. كانوا يتصايحون مخاطباً أحدهم الآخر عند بوابة كازا ديسكوبتادا بضوئها الناري. وكان مع جاسينتو علبة فيها حيّتان.

«أين كنت يا ثيا؟».

«لقد اصطدنا هذين الثعبانين في إحدى الحفر. ثعبانان بديعان».

«من اصطادهما؟ لم يكن هؤلاء الأولاد معكما، أليس كذلك؟».

«أوه، لا! لحقوا بنا في طريق عودتنا عندما أخبرهم جاسينتو بما نحمله معنا».

«ثيا، شيء رائع أن تذهبي وتصطادي هذين الثعبانين. شيء عظيم! لكن، لماذا لم تنتظري عودتي؟ هذه الثعابين خطيرة، أليست خطيرة؟».

«لم أكن أعرف متى تعود. جاء واحد من الفحّامين وقال لي إنه رأى ثعابين. وهكذا انطلقت باحثة عنها من غير تأخير».

وضعتُ الثعبانين في واحد من الصناديق المعدة من أجل الإغوانات. كانت تلك بداية مجموعتها من الأفاعي. وبعد حين من الزمن، صارت تلك الباحة معرضاً للأفاعي. أرادت الطباخة أن تترك العمل لأنها خافت على طفلها الصغير. كانت لحظة مناسبة للحديث عن النسر عندما وجدت ثيا منتعشة بهذا النجاح. أصغت إليّ، وكان لديها استعداد معقول لأن تغيّر رأيها. وافقت على أن من الضروري منح كاليغولا فرصة أخرى. لم يخطر في بالي قبل ذلك أنه سيأتي يوم أجد نفسي فيه مدافعاً عنه أمامها. مضى جاسينتو إلى تالافيرا لإرسال الخيول في الصباح التالي. حرصت على أن يكون كل شيء جاهزاً عند بوابة الفيلا، الأقفاص والعصا، وعندما عاد جاسينتو انطلقنا مصطحبين كاليغولا الذي بدا هائلاً خطيراً كعادته. كنت أتجهم كلما التفتت ثيا صوبه ملقية عليه نظرة شك. لقد انطلقنا إذن... وكنت أحدث النسر من حين لآخر وأداعبه بريشة صغيرة. قلت له: «هذه المرة، من الأفضل لك أن تقوم بعملك جيداً يا صديقي».

عدنا إلى المكان نفسه، إلى موطن الإغوانات. اتخذت موقعاً أعلى من موقعي في المرة الماضية حتى أمنح كاليغولا الرؤية بشكل أفضل على امتداد ذلك المنحدر الحجري. وقفنا بعد ذلك. كانت قبضته شديدة الحدة على ذراعي. حاولت أن أريح تلك الذراع على فخذي قليلاً حتى لا أحمله عليها وحدها طيلة الوقت. راح الحصان بيزكوتشو يلوّح بذيله لطرد الذبابات المفترسة التي التصقت أجسامها الناعمة بأضلاعه الرمادية.

كانت ثيا على حصانها في الأسفل. رأيتها عبر غلالة من السراخس الخضراء. كنت أيضاً ألمح جاسينتو متسلقاً الصخور المدبّبة، ثم بدأت أسمع أصوات حركات سريعة عندما بدأت تلك الحيوانات تقفز وتفرّ. رأيت الأزهار الباذخة ترتعش وتتمايل بشدة.

وفجأة، فهمت الفكرة من هذا الصيد، فكرة استخدام كائن حي بدلاً من السلاح، كائن حي عرفت كيف تدرّبه بنفسك ونقلت إليه ذكاءك، من أصغر طرفة عين إلى أكبر الأفكار على حد سواء. لمست النسر ومررت بأصابعي على ريشه. استدار بيزكوتشو برأسه نحوي كأنه يتفقد الوضع. وفي تلك اللحظة، انتزعت ثيا العصبة التي تطوّق شعرها. كانت تلك إشارة متفَقاً عليها. أمسكت بخيط القلنسوة واندفعت بالحصان شاعراً بأن وقت المخاطرة قد حان. انطلق بيزكوتشو بسرعة كبيرة. لا بد أنني اتخذت طريقاً شديد الانحدار لأن الحصان المسكين انطلق أسرع من أي وقت مضى. ضغطت بركبتيَّ على جانبَيْ السرج

وسحبت خيط القلنسوة وأرخيت الحبل. كنت أصيح بالنسر: «هيا، انطلق!» عندما بدأت أنطلق أنا أيضاً... انطلقت من فوق رأس الحصان الذي راح يضرب الحجارة المنزلقة بحافريه محاولاً المحافظة على توازنه. كان حصاني يسقط، وكنت أسقط مثله. أحسست بدفعة عندما انطلق كاليغولا تاركاً ذراعي. وبعد ذلك رأيت لون دمي على ذلك المنحدر الحجري. اصطدمت بالأرض، ثم انزلقت. سمعت صهيل بيزكوتشو المجنون وصراخ جاسينتو.

صاحت ثيا من بعيد: «تدحرج؛ تابع التدحرج! تدحرج يا أوجي، تدحرج يا عزيزي! إن الحصان يرفس، إنه مصاب».

لكن أحد حوافر بيزكوتشو أصابني في رأسي ففقدت الوعي.

الفصل السابع عشر

يستغرق البعض منا زمناً طويلاً حتى يكتشف ثمن الوجود في الطبيعة، وحتى يكتشف الحقائق المتصلة بمقامه فيها. أما طول ذلك الزمن فهو معتمد على سرعة انحلال السكريات الاجتماعية. وعندما تنحل أخيراً وتتلاشى تحس في فمك طعماً مختلفاً يأتيك بأخبار جديدة تسجل نفسها بدهشة قاتمة وتملأ عينيك. وهذه الأخبار المختلفة هي أنك ترتفع من وجود شاسع ثم قد تعود إليه في أية لحظة. أية لحظة! وقد تكون اللحظة التالية نفسها.

نعم، ذلك الحصان المسكين بيزكوتشو الذي كسر جمجمتي... كسر ساقه أيضاً ثم أطلقت ثيا النار عليه. لم أسمع صوت إطلاق النار لأنني كنت فاقد الوعي. جرجرتني بمساعدة الفتى جاسينتو ووضعتني على حصانها. ركب الصبي الحصان معي وأمسك بي حتى لا أقع، مثلما يمسك المرء كيساً من الطحين. كان الدم ينزف من رأسي؛ وقد فقدت أحد أسناني أيضاً، سن من الفك السفلي. وهكذا كنت متهالكاً بين ذراعي جاسينتو وقد طوّق رأسي رباط الشعر الذي استخدمته ثيا إشارة لإطلاق النسر. تشبّع الرباط دماً وما عاد قادراً على امتصاص المزيد. أخذوني إلى بيت الطبيب. وعندما اقتربنا منه تحركت قليلاً ثم قلت: «أين النسر؟».

لا يمكن لحادث صيد أن يجعل ثيا تذرف الدموع، حتى إن كان حادثاً كهذا. لم تبكِ. وبما أنني كنت شبه أصم نتيجة فقدان الوعي أو كثرة الدم في شعري أو التراب الذي دخل أذني، فإنني لم أسمع بل رأيت كيف راحت تشتم كاليغولا. أحسست بموجة أو بصدمة في جمجمتي، مكان الجرح، أو بشيء كأنه تغضّن في رأسي. لمحت يدها الممسكة بساقي إمساكاً محكَماً؛ كانت عليها بقع من الدم. كان امتقاع لونها حاراً، شديد الحرارة. وفي

ذلك العمق، ذلك الضيق الفارغ في حيز الرؤية الذي يكون لديك في هذه اللحظات، رأيت وجهها أمامي وقد تناثرت عليه بقع من الضوء آتية من تلك الثقوب الشبيهة بالعيون على حافة قبعتها؛ نثار من الحرارة على أنفها وعلى شفتيها.

صفا سمعي؛ سمعت أطفالاً يصرخون: «إنه صاحب النسر!»... النسر! النسر الذي كان يحوم عالياً في مكان ما في السماء بمخالبه الكبيرة وبنطلونه الريشي التركي ومنقاره الحاد. بدا لي ارتفاع الفضاء كله هائلاً. أحسست أنني أزحف في قاعه. قالت ثيا: «لقد خسرت سناً». هززت رأسي. أعرف موضع تلك الفجوة في أسناني... لكن، قد يحدث للمرء أن يفقد بعض الأسنان، عاجلاً أو آجلاً.

جاءت نحوي امرأتان من فناء بيت الطبيب. كانت معهما نقّالة مطوية. وضعوني على النقالة. كنت أفقد الوعي ثم أعود؛ أحسست ضعفاً شديداً. لكنني صحوت فور دخولنا الشرفة الأمامية، وأحسست بجمال ذلك اليوم... كان يوماً متميز الجمال. لكنني فكرت بعد ذلك في أن بيزكوتشو قد مات بسببي، وفي أنه نجا من إطلاق النار في ليالي صاخبة أيام معارك زاباتا، ونجا من الانزلاق والسقوط، ولعله كان حاضراً عندما جرى صلب الرجال، أو عندما مُلئت بطونهم نملاً؛ فكرت فيه سائراً بين الانفجارات وإطلاق النار. لم يمت آنذاك، أنا الذي قتله.

كانت في عروة سترة الطبيب زهرة عندما اقترب مني مبتسماً. لكنه كان متجهّماً خلف تلك الابتسامة. فاحت غرفته بروائح الأدوية والأثير. أعطاني جرعة مخدرة جعلت تلك الرائحة تلازمني عدة أيام بعد ذلك. ورحت أتقيأ كثيراً خلال تلك الأيام. غطتني الضمادات؛ وتيبس وجهي بسبب القشور التي نمت على خدوشه. ما كنت قادراً على تناول شيء من الطعام غير العصيدة والحساء التركي، وما كنت قادراً على الوقوف بمفردي. صرت أسمع داخل تلك العباءة من الضمادات أصوات هسيس كأن عندي حنفية مفتوحة هناك. جعلني الألم، وهذا الهسيس أيضاً، أشك في أن ذلك الطبيب صاحب الابتسامة المتجهّمة لم يقم بعمله جيداً؛ قلقت على كسر جمجمتي عندما تذكرت الأسلوب المكسيكي المهمل في التعامل مع الذبح والمرض والدفن. اتضح فيما بعد أن الطبيب أحسنَ عمله. لكن معاناتي استمرت رغم ذلك، كنت كئيباً، وظهرت تحت عيني دائرتان عميقتان، وغارت خدودي... بقيت تلك الثغرة بين أسناني. أحسست في تلك الضمادات أنني صرت أشبه أمي، بل كنت أحس أحياناً أنني صرت أشبه أخي جورجي.

لازمني شعور بالضيق حتى بعد شفاء الجروح وتراجع الصداع. لم أعرف سبباً لذلك الضيق. صارت ثيا مضطربة عصبية أيضاً. سبب لها فشل كاليغولا وحُمقي الذي جعلني أندفع بالحصان المسكين من فوق ذلك المرتفع قدراً كبيراً من خيبة الأمل. كان الإخفاق

نصيبها رغم جرأتها وحماستها الشديدة لأنني لم أكن صالحاً لتلك المهمة التي خططت لها وبدأتها وروّضت النسر من أجلها. كان تقبل ذلك كله أمراً شديد الصعوبة.

أرسلت كاليغولا إلى صديق عمّها في إنديانا حتى يضعه في حديقة الحيوانات عنده. أظن أن جرذ الصحراء العجوز في تاكساركانا قد استمتع بسماع هذه الأخبار. تحاملت على نفسي وخرجت لأرى النسر محبوساً في القفص موضوعاً في مؤخرة السيارة. كانت بقعة النضج البيضاء قد بدأت تلوح في ريش رأسه. أما عيناه فما كانتا أقل قسوة من قبل، وكذلك منقاره الرهيب. قلت: «حظاً طيباً يا كاليغولا».

قالت ثيا: «حظاً طيباً، وخلاصاً طيباً، أيها الأحمق!» كنا على وشك البكاء، كلانا، بسبب خيبة رجائنا وتحطم آمالنا. ظلت قلنسوة النسر مرمية مع القفازات في زاوية الغرفة زمناً طويلاً قبل أن يلفّها النسيان.

مع بقاء ثيا تعتني بي عدة أسابيع بعد ذلك، صار واضحاً أكثر فأكثر أنها، حتى وإن لم تظهر أي اضطراب، صارت تخفي عني أشياء أخرى لم تظهر على وجهها أيضاً. وعندما بدأت أشفى لم أقبل أن تبقى هنا من أجلي؛ لم أرد أن تعتبر نفسها مضطرة إلى ملازمتي إذا كان ذلك سيجعلها تبدو هكذا. جرت بيننا واحدة من تلك المجادلات عن التضحية، ما كانت تريد تركي وحيداً. أما أنا فأصررت على ضرورة خروجها رغم أنني ما كنت أريد ذهابها إلى صيد الأفاعي. لكن شخصاً ما أخبرها عن بعض الثعابين الخضراء والحمراء. ما لم يظهر في نظراتها الصابرة تجاهي وأنا مستلقٍ هزيلاً فاقد السمع في تلك العمامة التي تلف رأسي... ما لم يظهر هو أنها كانت تجلس هناك حالمة باصطياد تلك الأفاعي الملوّنة. أدركت أن الملل أصابها وأنها في حاجة إلى شيء من المغامرة.

كانت في البداية تذهب لاصطياد الخنازير البرية وحيوانات من هذا القبيل، حتى ترضيني، لكنها عادت إلى البيت بعد ذلك بعدد من الأفاعي أتت بها من الجبال في كيس من القنب الخشن. لم أستطع أن أنبس بشفة عندما رأيت أن ذلك يسعدها. كنت قادراً على قياس مقدار تحسُّنها كل يوم بمجرد النظر إليها. لكن ذهابها إلى الصيد وحيدة لم يعجبني. حثثتها على الذهاب بصحبة بعض أصدقائها حتى يكون معها أحد بالإضافة إلى جاسينتو. كانت هنالك مجموعة للصيد في البلدة. صار الطبيب يرافقها أحياناً، ويرافقها الشاب تالافيرا في أحيان أخرى.

وهكذا، صرت أبقى وحدي فأتجول في الفيلا بضماداتي وثوبي الطويل، أخرج إلى الحديقة وإلى شرفة الأفاعي التي تتلوى في سلال القش وتمد ألسنتها... لم أكن أحبها. ما كان ذلك الشعور نابعاً من الخوف، بل من بغض لها. ليس خوفاً؛ فقد روّضت نسراً ومضيت في الحياة البرية شوطاً يسمح لي بأن أزعم لنفسي قدراً من الشجاعة. لست

مضطراً إلى ارتداء ثوب الجسارة طيلة الوقت، ولست مضطراً إلى حب الكائنات كلها. هنالك رائحة خاصة للأفاعي، تشبه رائحة المانغو الفاسد أو القش المتعفن؛ إنها الرائحة نفسها التي تسكن منطقة الإغوانة العملاقة.

عندما يزداد إحساسي بالضيق، كنت أجلس في واحد من تلك الكراسي الوثيرة وأقرأ كتابي الطوباوي. لا زالت تأتيني هجمات الديزنتاريا في الصباح فأشعر بذلك الهبوط الثقيل في الأمعاء الذي يجعلني أسرع إلى المرحاض، إلى مسكن كاليغولا القديم. كنت أترك الباب مفتوحاً فينبسط أمامي مشهد البلدة كلها، البلدة التي صارت الآن شديدة الجمال، الآن في آخر الخريف بعد انقضاء فترة الحَرّ القاتل. لا وجود لفصول حقيقية هنا! تتلون الشهور بظلال من المناخ القاسي الآتي من الشمال أو من الجنوب. وفي كل يوم يرى المرء هذه الزرقة الأكيدة بينما تبسط قوى السماء الجبارة يداً رقيقة فوق طحالب قرميد السقوف. كان هذا الجمال الأزرق يريحني كثيراً مثلما يريحني الكتاب عندما أكون في مزاج صالح للقراءة. أما في الأوقات الأخرى، فكنت أتجوّل في البيت كئيباً عديم الجدوى وأشعر أنني شخص رث كسول. صارت عظام وجنتي ضخمة بعد الهزال الذي أصاب وجهي. وصار لعينيَّ مظهر ناعس لأنني كنت أجد مشقة في فتحهما على اتساعهما. نبت لي أيضاً شارب هندي أشقر الشعر.

كانت ثيا تحتسي قهوتها وتتمنى لي يوماً طيباً ثم تضع قبعتها المثقّبة وتمضي إلى حصانها. أما أنا فأذهب خلفها لأراها تمتطي الحصان. أراها تجلس فوق السرج بذلك الثقل البسيط الذي تراه في جسد واثق. ما عادت تسألني إن كنت أريد بقاءها معي، لكنها صارت تنصحني بأن أتمشّى قليلاً بعد الظهر. وكنت أقول لها إنني سأفعل ذلك.

كان مولتون وإيغي يأتيان لزيارتي. يقول مولتون: «بولينغ، تبدو في حال سيئة». وكان هذا يجعلني أكثر حزناً على نفسي وأكثر اكتئاباً... وتطوف نذور سيئة حول قلبي.

ستيلا أيضاً، صديقة أوليفر، أبدت أسفها لسوء مظهري عندما تحدثت معها من فوق جدار الحديقة. لاحظت أن هنالك ظلاً يلفّها هي أيضاً. أشرب هذه الأيام كميات كبيرة من عصير الليمون مع التيكيلا؛ وقد دعوتها لتشاركني الشراب. رفضت. قالت معتذرة آسفة: «ليتني أستطيع ذلك. ربما آتِ ذات يوم. أحب الحديث معك. لكن، كما تعلم، سوف ننتقل من فندق كارلوس كوينتو». لم أكن أعرف هذا؛ وقبل أن أتمكن من العثور على السبب جاء أوليفر النحيل يرفع قدميه عالياً فوق الزهور وقد كسا زوج من الجوارب الحريرية كاحليه الحصانيين وظهر تجهّم على فمه الصغير الأحمر. أخذها بعيداً عن الجدار، حتى من غير أن ينظر في وجهي.

ما مشكلته؟

قال مولتون إنه يشعر بالغيرة.

«تقول إنهما سينتقلان من الفندق».

«نعم، استأجر أوليفر فيللا الياباني. إن على الياباني أن يعود إلى ناغازاكي. يقول أوليفر إن العجائز في الفندق يزعجن ستيلا. هذا لأنهن يعرفن أن أوليفر وستيلا غير متزوجَيْن. لو كانت عندي فتاة مثلها لاهتممت كثيراً بما يقوله بعض العجائز عنها».

«لكن، ما الذي يجعله يقيم هنا؟ أليس عليه أن يهتم بإدارة مجلته في نيويورك؟».

قال إيغي: «إنه يديرها من المكسيك».

قال مولتون: «كلام فارغ! إنه هنا لأنه في مشكلة مالية!».

تساءل إيغي وقد أصابته الدهشة: «أتظن أنه اختلس مالاً؟».

بدا على مولتون أنه يعرف أكثر بكثير مما يعتزم الإفصاح عنه. كم هو مزعج! كان يغطي كرشه الكبير قميص عليه رسوم ثمار الأناناس. بل كان خجلاً بعض الشيء من ظهوره تحت ضوء الشمس. وكان جفناه قاتمين مثل أصابعه التي صبغتها السجائر. كان يطرف بعينيه أيضاً.

قال إيغي: «يقول جيبسون إنه سمع بأن أوليفر يعتزم إقامة حفلة كبيرة في الفيللا من أجل ستيلا حتى يغيظ تلك العاهرات العجائز في فندق كارلوس».

«سوف يغيظ الجميع، وسوف يفاجئ الناس بنجاحه. سيفاجئ كل من كان يظن أنه ليس أكثر من متبطّل دولي. سوف يغيظ كل من رآه في هذا العالم. يا صاحبي، يا صاحبي! لا يزال الناس حيث تركهم، أما هو فسوف يعود ويهزمهم. لقد طاف العالم أيضاً، لكنه لم يدرك ذلك لأنه كان ثملاً».

عندما كان يقول هذا الكلام، تخيَّلت أوليفر في كوخ في منغوليا حيث وجده الجنود ذوي المعاطف المبطَّنة مستلقياً ثملاً وسط قيْئه. كان مولتون يحب إظهار تلك الأشياء البائسة المريضة وتلك القمامة التي تحقق وحدة هذا العالم. أظن أن المزاح وحده هو ما كان يجعل احتمال ذلك ممكناً؛ وهذا ما جعله صاحب اختصاص في المزاح. كل هؤلاء الناس يفعلون ذلك، مجموعة الأجانب كلها.

إذن، لقد زاروني في الفيللا. وبعد نصف ساعة نضب الكلام عند مولتون. دخنّا أكثر من عشر سجائر، وبدا على مولتون ملل فظيع. لقد استنفد تلك الزاوية حيث كنا جالسين وبدا عليه الغثيان لأنه مضطر إلى البقاء.

قال لي: «بولينغبروك! لست مضطراً إلى البقاء في البيت لأنك تضع هذه العمامة. تعال إلى الساحة العامة. سوف نلتقي الناس هناك، أو نلعب لعبة من تلك الألعاب. هيا يا بولينغ. هيا انطلق!».

«نعم، تعال يا بولينغ!».

«لا، ليس أنت يا إيغي. عد إلى الفندق. إن يونيس غاضبة مني كثيراً لأنني ألهيك عن العمل».

قلت: «ألستما مطلقَيْن يا إيغي؟».

«لقد طلقها؛ لكن زوجته لا تزال تربطه بتلك السلسلة. تجعله يبقى مع الطفلة حتى تخرج مع زوجها الجديد».

خرجنا وجلسنا عند هيلاريو وسط الزهور في الشرفة، فوق الساحة. إنها أبسط نوع من أنواع زهور الطقس المائل إلى البرودة، ما عدا زهرة أنبونيزيتيا الحمراء، نجمة عيد الميلاد، برؤوسها المخملية المستدقّة، قمة الروعة! وجدت مغزى كبيراً في أن تكون هذه الزهور التي لا تستطيع تقرير شيئاً يتعلّق بمكان وجودها أو مظهرها، أو لا تستطيع التحكم بالزمن، تظل رغم ذلك نجاحاً كبيراً في ميدان الجمال وتزيّن هذا الجدار الذي لا لون له من غيرها. رأيت أيضاً حيوان الكينكاجو الذي يجوب قفصه المربّع في كل اتجاه يأتي ويذهب، ثم يعود. في عمق المصادفة، تكون ليِّناً مطواعاً... لست نعساً، لكنه زمن ناعس.

كان مولتون جالساً يواصل سخريته من إيغي. تستلم يونيس الشيكات القادمة من نيويورك ولا تعطي إيغي إلا القليل من المال. لكن إيغي لا يحسن التعامل بالمال. إنه يذهب به إلى ملهى فوسو روخو حيث تأخذه الفتيات منه. يشعر إيغي صاحب العينين الخضراوين المحمرتين والفم الضفدعي الملتهب بقدر كبير من الإطراء عندما يجد نفسه محاطاً بعاهرات فوسو روخو.

«إن يونيس في حاجة إلى المال من أجل الطفلة. وإلا فإنني سأخسره معك في البوكر. هذا ما يزعج وايلي فهو لا يستطيع أن يفوز في أي جولة معي».

«إلى الجحيم! ماذا يهمني إذا كنت لا أرى جيبسون يسكر هنا بمالك، مالك الذي يأخذه من يونيس».

«ماذا؟ هل أنت مجنون؟ إن لديه ماله. كان جدّه مستكشفاً في أفريقيا».

«هذا حقيقي!».

حتى يكون قريباً من ابنته السمراء المدللة الصغيرة، عاش إيغي في الفيلا نفسها حيث

تعيش زوجته السابقة. وكان هذا عائداً في معظمه إلى أنه يريد حمايتها وحماية الطفلة من جيبسون. أظن أن إيغي لا يزال يحب يونيس.

صرت الآن أتجول برفقتهما، إيغي ومولتون. كان البيت خاوياً، وصار فيه مزيد من الأفاعي على الشرفة، ولم أصبح قوياً إلى الحد الكافي لأذهب مع ثيا، لكنني لم أكن شديد الضعف إلى حد يجعلني أرقد هامداً... صار عندي تهيب من ركوب الخيل ومن الصيد، وكنت في حقيقة الأمر واقفاً عند مفترق في مسار حياتي؛ لكنني أتريَّث وأؤجّل. ثم إن مولتون وإيغي، والآخرين في هذه المستعمرة الدولية، كانوا يحيّرونني. لم أكن أنكر جاذبيتهم. وسرعان ما تعلمت طريقتهم في الكلام. لكن إحساسي بالتعب منهم جاء سريعاً أيضاً.

كان الأمر الغريب، تعرفون هذا، هو أن يستيقظ المرء في الصباح الباكر ويرى الهواء، ذهبياً خفيفاً، رقيقاً لكنه قويّ قبل أن تأخذه منك المؤثرات اليومية. لكنك لا تجد سبباً لهذا، لا تجد سبباً لتغير الهواء؛ لا تجد سبباً لأن تكون تلك المؤثرات على هذا النحو، واطئة أو قلقة أو مثيرة للسخرية.

على مقعد الخشب تحت شجرة الرمان، سألني إيغي أن أساعده في تجاوز مشكلاته. كانت القصة التي يكتبها عالقة الآن... عليه أن يجد لها حبكة ذكية. هنالك من يجب أن يرسل الإشارة عند الشاطئ، لكنه سكير. يقترح عليه أحد الخلاسيين تهريب المخدرات إلى هاواي. لكنه يكتشف، بعد أن يصير في المزرعة، أن هنالك جواسيس، وهذا ما يوقظ فيه روح الجندي الأمريكي فيبدأ محاولةً لتسليم العصابة كلها إلى السلطات. لكنه يضطر إلى أن يقاتل حتى يشق طريقه بين هؤلاء القراصنة الذين صاروا يشكون فيه الآن. كان إيغي قلقاً على قصته؛ أما أنا فكنت أذهب حافي القدمين من أجل زجاجة التيكيلا.

جاء مولتون وخرجنا معاً. كانت الطباخة قد حضرت طعام الغداء، لكنني لم أكن أحب أن آكل وحيداً. اشتريت وجبة جاهزة من السوق فآلمتني أمعائي، أو لعل ذلك كان بسبب شطائر اشتريتها من المتجر الصيني!

كان الفيلسوف بيكون يجعل أحداً يعزف الموسيقى في الغرفة المجاورة عندما يجلس للتفكير في كتابه «أتلانتيس الجديدة» وذلك لكي لا تتشابك الأمور في ذهنه، وحتى تأتي مرتبة. أما في الساحة العامة هنا، فكانت الغرامافونات تصدح طيلة النهار بأغاني سالوت ديميرو أو جاليسكو؛ وكان فيها ضجيج فظيع: قرع المطارق الثنائي السريع في موسيقى المارياتشيز المكسيكية، وعويل عازف الكمان الضرير ذي اللسان الأعرج والخدوش المجنونة، إضافة إلى ضوضاء محركات الحافلات وأجراسها... كان هذا الخليط مهداً للاضطراب في عقلي. وهكذا كنت أشعر بتشوش معظم الوقت، وبأخطار يبلغ عمرها ما

تبلغه مشاهد الجبال والسماء من روعة في هذه اللوحة الممتدة من حولي. كانت البلدة تتلوى وتعوي كأنها في ذروة هياجها.

بينما كان إيغي مستغرقاً في التفكير ليجد طريقة تجعل الأميركي والخلاسي يشقّان طريقهما ويعثران على الإشارات الصحيحة حتى يحذرا حرس السواحل، كنا سائرين في الطريق إلى فندق مولتون. أغراني بالبقاء ريثما يكتب حلقة من سلسلة عن بشر جاؤوا من المريخ. كان يكره عمله؛ وكان يكره خاصة العزلة التي يفرضها العمل عليه. أما أنا فكنت أجلس على السطح بالقرب من غرفته متهدّل الكتفين مسنداً مرفقي إلى ركبتي وأنظر إلى الجبال المتلاصقة وأتساءل في ذهني الذي دوخته الشمس عن مكان وجود ثيا الآن.

يخرج مولتون من غرفته التي جعلها دخان السجائر رمادية ويسير واسع الخطى في بنطلون قصير تظهر منه ركبتاه المدورتان وساقاه الغليظتان الضخمتان. قلّص عينيه في وجهه الكبير وهو ينظر إلى البلدة مفكراً كأنها امتداد لعصابة التهريب في قصته. صب لنفسه كأساً. وكان يدخن باستمرار. يقوم بخلط التبغ وإشعال السجائر وسحب الدخان ونقر السيجارة حتى يسقط رمادها، ونفث الدخان عبر أنفه الساخر... بدا هذا كله كأنه يحتوي على تفاصيل الحياة التي يراها تستحق بذل الجهد. كان في غاية الملل. كان يعرف كيف يجعلني أمر بكل لحظة مميزة من لحظات مزاجه: رماد السجائر، وقطع الجليد، والأعقاب، وقشرة الليمون، والكأس الدبقة، والتنهد قليلاً في الوقت الفارغ. كان يهتم بأن يكون لديه من يشاركه أقداره هذه، مثلما يهتم كل إنسان؛ لكنه يستطيع أن يفعل لك شيئاً يجبرك على الإحساس بما يحسه. بل إنه قادر على صياغة ذلك الشيء في كلمات أيضاً. كان يقول: «الضجر قوة يا بولينغبروك. بالضجر يصل الإنسان إلى هدفه بأسرع مما يصل إليه الآخرون. عندما تكون ضجراً يحترمك الناس». كان يرغمني، بأنفه الصغير وفخذيه السمينين وأصابعه التي صبغتها السجائر، على قبول تفسيراته هذه؛ ويظن أن له تأثيراً عليّ أكثر مما هي الحال في الحقيقة، وأكثر مما يمكن أن تكون. يكون راضياً عندما يجدني لا أجادله فيظن أنه أقنعني: ليس هو أول من يرتكب هذه الغلطة. كان متحدّثاً بارعاً، وهذا ما يجعله يحب أن تكون حياته هي تلك الأحاديث نفسها. كنت معه في هذا.

«أوه، لا بأس الآن، فلنأخذ استراحة ولنلعب البوكر». كان لديه دائماً ورق لعب في جيب قميصه. وهكذا فقد نفخ رماد السجائر عن الطاولة ثم وزّع الورق. وعندما رآني مستمراً في الالتفات صوب الجبال قال حتى يلهيني، من غير خشونة: «صحيح، إنها هناك. هيا يا فتى، خذ ورقك! لا بأس، ابدأ أنت. ماذا تريد أن يكون الرهان بيننا الآن؟ أراهنك أنني أستطيع الفوز عليك في عشر دقائق».

كان مولتون لاعب ورق جيداً. وكان ماهراً في البوكر خاصة. كنا نلعب لدى هيلاريو

أول الأمر، وعندما تذمر هيلاريو من جلسات اللعب الطويلة التي تستمر حتى ساعة متأخرة من الليل، انتقلنا إلى المطعم الصيني القذر. وخلال وقت قصير جداً، صرت أمضي معظم وقتي في المقامرة. الظاهر أن قبيلتي القديمة ألّتي تحدّر منها أجدادي كانت ترى في المقامرة علاجاً لمرض ما. ربما أكون مصاباً بواحد من تلك الأمراض. لا بد أن مولتون مصاب بالمرض نفسه أيضاً. كان يجد نفسه مدفوعاً إلى المقامرة دائماً. كنت أراهن بالمقدار الذي يراهن عليه، وكنت جريئاً في اللعب إلى حدٍّ جعله يطلق على أسلوبي في اللعب أسماء غريبة. كنت محظوظاً، وكنت ماهراً في البوكر أيضاً، لأنني تعلمته في مدرسة عظيمة، في صالة إينهورن للألعاب.

يقول مولتون متذمراً: «يا أخي! لا بد أنك درست البوكر في المدرسة العليا. لا أستطيع معرفة اللحظة التي تخدعني فيها لأنك تبدو بريئاً على الدوام. لا يمكن لأحد أن يكون بريئاً فعلاً إلى هذه الدرجة». كان هذا صحيحاً رغم استطاعتي القول إنني كنت أحاول أن أظهر بأفضل مظهر ممكن. هذا ما أعرفه عن نفسي. لكن، يا إلهي، يا ربي! التظاهر! لماذا؟ أليس سادة التظاهر موجودين من حولي؟ إذا كانت الطبيعة تجعلنا نعيش ونفعل ما تفعله الديدان والخنافس... نفرّ من الكائنات المفترسة ونضلل أعداء آخرين، وهكذا دواليك... لا بأس، لا بأس! لكن مشكلتنا ليست هكذا.

ومع ثيا أيضاً، كنت أتصرف كأنه ليس هنالك شيء على غير ما يرام، لكنني كنت أعرف أننا ننزلق متباعدَيْن. إذا كنت قادراً على عدم إظهار القنوط الذي يسببه هذا التباعد لي فما أسهل أن أخدع مولتون في لعبة بوكر!

لماذا هذه الأفاعي؟ لماذا تصر على اصطياد الأفاعي. كانت تعود حاملة أكياساً منها؛ ما يجعل أمعائي تثور محتجة، مضطربة. ثم إنها تمنح أفاعيها معاملة رقيقة محبة لا أرى فيها إلا سلوكاً غريباً شاذاً. عليك أن تكون حذراً حتى لا تهيِّج تلك الأفاعي فتلدغ الكأس الزجاجية لأن هذا يصيب أفواهها بقروح صعبة الشفاء. وهي تصاب أيضاً بطفيليات تتغلغل بين حراشفها فيكون لا بد من تخليصها منها أو من غسلها بالميكروكروم. وكان يتعين أيضاً إعطاء بعضها نشوقاً من زيت الأوكاليبتوس لأن لديها مشكلات في رئاتها... تصاب الأفاعي بالسل! وأما أصعب الأشياء فهو عندما تبدل الأفعى جلدها لأن هذا يشبه الولادة... تعاني الأفعى حتى تخرج من جلدها القديم، بل إن عيناها تغيمان ويصبح لونهما حليبياً وسخاً. تمسك ثيا أحياناً بملقط حتى تساعد إحدى الأفاعي، أو تغطيها بخرق رطبة حتى يصير جلدها أكثر طراوة، أو أنها تضع الأفاعي التي تعاني أكثر من غيرها في حوض من الماء ثم تضع قطعة خشبية عائمة حتى تريحع عليها الأفعى رأسها الصغير عندما تتعبها السباحة. لكن الأفاعي تتألق بعد ذلك، ويشيع مظهرها الطازج المتلألئ السرور في النفس،

حتى في نفسي أنا... عدوّها. أنظرُ إلى الجلد القديم الذي ولدت منه الأفعى ولادة جديدة بلونها الأخضر أو المنقط ببقع حمراء مثل حبات الرمان، أو بحراشف ذهبية.

لم يكن أحد منا راضياً عن الآخر في ذلك الوقت. تزعجني أفاعيها، ويزعجني اعتناؤها بها. أحسست أنني واقع بين غرابتين اثنتين: غرابتها وغرابة البلدة في ذروة موسمها السياحي. لكني لم أخبرها شيئاً. وعندما تسألني إن كنت راغباً في الذهاب معها إلى الصيد أقول لها إن وضعي لم يتحسن بعد بالقدر الكافي. تنظر إلي ويبدو ما تفكر فيه واضحاً تماماً... إنني أسكر وألعب الورق! إذا كنت واقفاً أمامها نحيلاً مريضاً بأفكار سرية كامنة في رأسي، فماذا يمكن أن يكون العلاج الذي قد نتفق عليه؟

تقول لي: «لا أحب تلك العصبة التي تخالطها».

«لا ضرر منهم». قلت هذه الكلمات بطريقة عادية، لامبالية، لكن إجابتي ما كانت من غير ضرر.

«لماذا لا تأتي معي غداً. إن لدى تالافيرا حصان آمن من أجلك. هنالك أماكن أريد أن أجعلك تراها، أماكن رائعة».

أجيبها: «لا بأس، سيكون هذا رائعاً... عندما أحسّ أنني صرت مستعداً بشكل أفضل».

لقد بذلت جهداً مع كاليغولا، وهذه كانت محاولة كافية. أرغمت نفسي على المضي إلى أقصى حد أستطيعه، وما عدت أستطيع أكثر من هذا. أكون ملعوناً إذا استطعت أن أجعل نفسي تجد ما تجده ثيا من متعة وإثارة في صيد الأفاعي. هذه طريقة شديدة التطرف للإحساس بالإثارة... حيوية لا تستطيع النشاطات العادية إشباعها! إذا كانت تحب الذهاب لالتقاط هذه الحيوانات الخطرة من أعناقها بأنشوطة طويلة، وإذا أرادت تربيتها عندها وحلب السم منها، فلا بأس! لكني كنت أعرف تماماً أن هذا الشيء لا يناسبني... ليس لي.

مضت إلى الجبال، وظلت هناك يومين. سمعت بعودتها عندما رجعت، لكني لم أذهب إلى البيت. كنت في وسط لعبة عند لوي فو، ولم أستطع تركها. رأيتها في الحديقة في صباح اليوم التالي. كانت في ملابس ركوب الخيل مع ذلك الحذاء الثقيل مرتفع الساق الذي تستخدمه في صيد الأفاعي: حذاء سميك ضخم لا تستطيع أنياب الأفعى اختراقه. قال لي جلدها الأبيض إنها ليست على ما يرام... كئيبة، متجهّمة. لم تنل قسطاً كافياً من الراحة، لكنها تريد الذهاب. إنها متحمسة للذهاب، تريد مغاقبتي. لمحت ظلاً من المشاكل تحت عينيها. انعكست حرارة الشمس على الشعر المنسدل من رأسها؛ وعلى امتداد تلك الشعرات النابتة في اتجاهات متناثرة عند جبهتها، رأيت توهّج الخيط الأحمر الذي كان جزءاً من سر سواد ذلك الشعر.

سألتني بنبرة عنيفة، متوترة: «أين كنت؟».

«عدت في وقت متأخر».

كانت حارة، مرتجفة، متعجّلة؛ وكانت دموع ثقيلة صافية تجعل عينيها متسعتين بجنون المعاناة مثلما تبدوان أحياناً. ظننت أنها موشكة على البكاء، لكنها كانت ترتجف فحسب.

قلت: «كنت أتوقع عودتك الليلة قبل الماضية». لم تجبني. كنا غاضبَيْن، كلانا؛ لكننا لم نكن مستعدَيْن حقاً للمشاجرة. ما كان ارتجافها نتيجة غضب يتزايد. كان ذلك الغضب يزول عنها.

سألتني: «ما الذي تراه في هؤلاء الناس هناك؟ أظن أنهم يجعلونك تشعر بالخجل مني، بعد ما حدث ما كاليغولا. إنهم يسخرون مني».

«أتظنين أنني أسمح لهم بالسخرية منك؟».

«أعرفهم أفضل مما تعرفهم أنت. مولتون شخص كريه مقرف».

بدأت تتحدث عن وايلي مولتون وبقية المقيمين. أصغيت إليها؛ وبهذه الطريقة تجاهلنا الفوارق الحقيقية التي كانت بيننا. ما كنا بعد قادرين على تحمل مشاجرة.

أكاد أقنع نفسي أحياناً بأنني مستعد للتجوّل في الجبال حاملاً أنشوطة صيد الأفاعي وآلة تصوير وبندقية. سيفيدني بعض النشاط لأنني كنت متوتراً ولأنني أتوق إلى عودتنا مثلما كنا، أنا وهي، أيام شيكاغو. لكني لم أستطع أبداً أن أحمل نفسي على فعل ذلك.

بدا أنه لا بد لي من مواصلة لعب البوكر. كنت متقدماً على الجميع، وما كنت قادراً على الانسحاب. يصيح مولتون دائماً متذمراً من أنني أهزمهم كلهم؛ وهذا ما جعلني مضطراً إلى منح الناس فرصة للانتقام... والواقع أنني صرت لاعباً شديد البراعة. سرعان ما صار الناس يبحثون عني رغم عدم معرفتهم بي. وبدا أنني سيد اللعبة في ذلك المطعم الصيني. حتى لوي فو نفسه، بمعطفه المطري، كان من ذلك الرأي أيضاً. كان اسمي بولينغبروك، أو رجل النسر، عند السائحين الغرباء الذين يجلسون ليلعبوا، أولئك المتشردين العالميين مثلما يدعوهم مولتون. وكانت جيوبي ملأى بأوراقٍ نقدية من عملات أجنبية مختلفة. ما كنت أعرف مقدار المال الذي معي، لكنه مال كثير. كان مالي أنا وليس مال سميثي. ما عاد هنالك برّاد أجد فيه نقوداً بين الخضار والأطباق. ولم يعد يبدو على ثيا أنها تفكر في إعطائي أي مال. لو لم أكن مريضاً لشعرت بأنني في أحسن حال، لشعرت بأنني ثريّ مع تلك الجنيهات والدولارات والفرنكات الفرنسية والبيزو. لكن ما كان جيداً هو حظي الظاهري فقط. كنت فاقد الأعصاب، وملفوفاً بضمادات غير نظيفة... هزيلاً. وبدت البلدة

كأنها راغبة في تحطيم ذاتها السخيفة إلى قطع صغيرة. كانت ثيا تجمع الثعابين والأفاعي المرجانية، وكان عليَّ أن أفوز بمعركة الصبر في مواجهة مؤخرتي القلقة الجالسة عند لوي أو في غرفة أحد ما في الفندق، أو حتى في ملهى فوسو روخو حيث يجري اللعب أحياناً. هناك، تشغل العاهرات القسم الداخلي من المكان، أما مقدمته فهي بار صغير كان فيما مضى مكاناً للقاء البحارة قبل أن يستولي عليه السائحون. كان الجنود يقرأون كتباً فكاهية ويأكلون الفاصولياء ويشربون البولكي. وكانت الجرذان تسير على عوارض السقف. والفتيات يطبخن ويتحركن هنا وهناك، أو يقرأن أيضاً، أو يغسلن شعورهن في الفناء. وكان طفل نصف عارٍ يضع قبعة من قبعات الحامية البحرية ويعزف الماريمبا؛ الكرتان المطاطيتان السوداوان الصغيرتان في آخر العصاتين اللتين في يديه تنقران على الآلة نقراً سريعاً. أحسست أنه يجب أن أفعل شيئاً بشكل جيد حتى لا أكون فاشلاً في كل شيء؛ وهكذا رحت أراقب أوراق اللعب.

لم أكن مقنعاً لثيا عندما قلت لها إنني سأذهب معها عندما أشعر بأنني صرت جاهزاً لذلك، ولم تكن لفتاتها تجاهي مقنعة لي أيضاً. لقد قبلت أن تصحبني إلى البلدة بعض الأمسيات؛ وكان أمراً حسناً أن أرى ساقيها في تنورة بدلاً من أن تكونا مغطاتين ببنطلون. لكنني انزعجت كثيراً عندما وصلت أوراق طلاقها وقلت لها ما كنت أنتظر قوله: «فلنتزوج!» فما كان منها إلا أن هزّت رأسها رافضة الفكرة. عند ذلك، تذكرت مرة خشيت فيها أن تكون حاملاً فأفلت منها ما يشير إلى خوفها من اضطرارها إلى أن توضح لعائلتها أنني والد الطفل. أزعجني الأمر عند ذلك، ثم أربكني أكثر فأكثر؛ أما الآن فقد كان رفضها لسعة قاسية. من المؤكد أنني أفهم جزءاً من وجهة نظرها؛ أفهم أن وجود شاب معها ليكون صديقاً في أيام الحب الوردية شيء مختلف تماماً عن أن يكون لديها شخص ضعيف في مواجهة الطقس العاصف. أعرف كيف سأبدو في عين عمّها، ذلك المليونير القوي صاحب الأنف الكبير ذي الشعر الأبيض والسيجار الكوبي المصنوع خصيصاً من أجله. صحيح أن ثيا عصته وأرادت أن تصبح مستقلة من الناحية المالية؛ لكنها لا تستطيع القطيعة مع عائلتها من أجلي لأنها غير قادرة على الاعتماد عليّ في حقيقة الأمر. لو كنت متحمساً فيما يتعلق بالطيور والأفاعي والجياد والبنادق والتصوير بقدر حماستها، فلربما كنا مؤهلَيْن لذلك. لكني لا أحب المضي بحثاً عن الذهب، ولا أحب اصطياد الأفاعي، بل إن لديَّ نفوراً من ذلك كله. كنت آمل أن تمل ثيا هذه الأشياء وتتركها؛ أما هي (هكذا أظن) فكانت تنتظر أن أملّ مولتون وصحبه.

عاشت البلدة أعياداً صاخبة متتالية. تعزف الفرقة موسيقاها الصاخبة في الساحة العامة، تضرب الصنوج وتدق الطبول وتعوي. كانت الألعاب النارية تتطاير هنا وهناك، ومواكب من الناس تتجول حاملة صوراً. ماتت امرأة نتيجة نوبة قلبية في حفلة سكر استمرت خمسة

أيام، وكانت هنالك فضائح أيضاً. نشب خلاف على كلب بين شابَّيْن، عاشقين، فابتلع واحد منهما جرعة زائدة من الحبوب المنوّمة. نسي جيبسون سترته في ملهى فوسو روخو، فأتت بها المدام بنفسها، اسمها نيغرا، جلبتها إلى بيته؛ فما كان من زوجة إيغي السابقة إلا أن منعت جيبسون من دخول البيت فتوسل إلى مولتون حتى يسمح له بالنوم على شرفته. لكن مولتون لم يسمح له بالبقاء لأنه حاول أن «يستعير» بعض المال، ولأنه شرب ما لديه من ويسكي. يعيش جيبسون في الشارع الآن، لكن البلدة تعيش هرجاً ومرجاً جعلا آلامه أمراً غير ملحوظ. لو جاءت الذئاب والخنازير البرية والإغوانات العملاقة لتتجول في البلدة، لو نزلت من جبالها، لما اهتمت بأحزانه أيضاً.

عصف بالأنحاء غبار لامع فجعل الليالي بيضاء. كانت الفنادق والمتاجر تريد هذا الهرج والمرج، وكانت تدفع المال من أجل الموسيقى والألعاب النارية وقرع الأجراس؛ لكن المال ما كان كافياً وحده لجعل هذا العيد يستمر طويلاً. لا بد أن الطاقة اللازمة لذلك كله كانت آتية من عبادة الأفاعي النارية والمرايا الدخانية والآلهة الهائلة المخيفة في قديم الزمان. كانت الكلاب نفسها تجري وتدندن عاوية كأنها عائدة الآن من مهمتها في أرض الموتى، عند إله الموت الأزتيكي ميكتلان. (ثمة اعتقاد قديم عند هنود الأزتيك يقول إن الكلاب تحمل أرواح الموتى إلى ذلك الإله). وانتشر في المدينة وباء معَوي تكتمت السلطات عليه؛ لكن الجنازات كانت تسير مختلطة بالمواكب الأخرى. كانت أسباب الدفن كثيرة. جوقة قوقازية تغني في الكاتدرائية! فجاء حشدٌ لم يسبق للكاهن أن رى مثله في كنيسته. جعله ذلك شديد التوتر فراح يوبّخ الجميع ويصفق لهم بيديه صائحاً بهم ليخبرهم أنهم في بيت الرب. لكن هذا لم يجدِ نفعاً مع ذلك الجمع المنطلق. لا يمكنني القول إن هؤلاء الروس بدوا شيئاً شاذاً في الساحة العامة في ستراتهم وجزماتهم الجلدية وبنطلوناتهم المحشورة فيها... كانوا يتجولون ليلاً هنا وهناك، يدخنون سجائرهم الطويلة. قدمت فرقة برازيلية إيطالية أوبرا «لا فورزا ديل تستينو»؛ كانوا يغنون وترعد أصواتهم قوية، لكنهم بدوا كأنهم لا يصدقون شيئاً مما يقولون، وهذا ما جعلني في شك أيضاً. لم تعد ثيا لحضور الفصل الثاني من الأوبرا. ثم كان هنالك سيرك هندي قدم أداء ضعيفاً. كانت المعدات التي يستخدمها البهلوانات كأنها مأخوذة من مصنع قديم للحديد؛ وكانت الخيول رثة هزيلة؛ أما المؤدّون فكانوا جنوداً متجهمين من شعب ويشواكان قدموا ألعابهم البهلوانية من غير شبكة حماية على الإطلاق. كانت الفتيات الصغيرات بمظهرهنّ المتوحّش يأتين في بنطلونات من القماش الخشن فيقفزن ويمشين على الحبال ويؤدين حركات أخرى من غير أي ابتسام أو انحناء أمام الجمهور.

لم يجعلني هذا كله أرى في البلدة أي شيء مألوف لي، إلا الذكريات... جعلني أولئك الروس أتذكر الجدة لوش.

استمر ذلك إلى يوم كان كل شيء فيه هادئاً إلى حد كبير. كنت جالساً على مقعد في الساحة العامة أداعب قطة صغيرة تحاول الاندساس تحت إبطي. جاء عدد من السيارات الكبيرة التي توقفت عند الكاتدرائية. كانت سيارات قديمة، لكنها قوية، فيها شيء يوحي بصلابة الحديد... سيارات طويلة فيها لمحة واضحة من السيارات الأوربية غالية الثمن. أدركت على الفور أن هنالك شخصية ما في السيارة الوسطى لأن الحرس المرافقين ترجلوا من السيارتين الأخريين. رحت أسأل نفسي عمن يمكن أن يكون هذا الشخص المهم المفلس الذي يستخدم هذه السيارات. كان إلى جانب الحرس رجال شرطة مكسيكيون عابسون معتزّون بستراتهم الرسمية التي راحوا يشدونها ويملّسون عليها. لكن الحرس الشخصيين كانوا أوربيين أو أميركيين: رجال في سترات جلدية وأحذية طويلة الساق. كانت أيديهم مستقرة عند مسدساتهم، وكانوا متوترين، مستعجلين. بدا لي أنهم لا يعرفون أبسط الأمور في عملهم. هكذا كان حكمي عليهم لأنني (لا بد من قول هذا من جديد) رأيت النسخة الحقيقية في شيكاغو.

كان يوماً لطيف البرودة. وكنت مرتدياً السترة السميكة ذات الجيوب الكثيرة، السترة التي اشترتها لي ثيا من جادة واباش، السترة التي يمكن أن تنقذ حياتك في البرية؛ لكنها كانت مفتوحة لأنني جالس في الشمس. كانت القطة تحشر نفسها تحت ذراعي فلمست عمودها الفقري الصغير مستمتعاً دهشاً. رحت أنظر لأرى الشخص الذي سيخرج من السيارة الوسطى بعد أن اكتملت الترتيبات الآن. أعطى أحد المساعدين إشارة فتقدم أحد الحراس لفتح باب السيارة، لكن من الواضح أنه لم يعرف كيف يفتحه. وقف الجميع مرتبكين خلال تلك اللحظة المحرجة إلى أن انفتح باب من الجهة الأخرى بدفعة قوية وظهرت رؤوس بشعر أجنبي ونظارات ولحى معقوفة إلى الأمام قليلاً، انعكست صورهم على زجاج السيارة اللامعة. كانت هنالك حقائب يد رسمية مع البعض. أظن أنني ميزت شيئاً سياسياً في هذه الحقائب. كان أحد الأشخاص يقول شيئاً، وهو يبتسم ويثرثر في هاتف السائق. ثم خرجت الشخصية الرئيسية من السيارة بحركة سريعة. كان رجلاً حيوياً نشيطاً، مبتهج المظهر حاد الحركات؛ وله لحية مدببة. شرع من فوره يدرس بعينيه واجهة الكاتدرائية من غير أن يشتت انتباهه. كان في معطف قصير له ياقة من الفراء، ونظارة ضخمة. كان جانب وجهه ناعماً، نوعاً ما، لكن من غير أن يقلل ذلك من الانطباع المتقشف الذي يعطيه. عندما نظرت إليه عرفت بلمحة مفاجئة أن هذا الرجل لا بد أن يكون تروتسكي قادماً من مكسيكو سيتي... إنه المنفي الروسي الكبير... اتسعت عيناي دهشة. كنت أعرف دائماً أن حياتي لن تنقضي قبل أن أرى رجلاً عظيماً؛ ومن الغريب أنني تذكرت إينهورن في تلك اللحظة، إينهورن المحكوم بالجلوس في كرسيه ودراسة الوجوه في الصحف والاقتصار على رؤية الأشخاص الذين يأتون إليه فحسب. كنت في غاية الحماسة،

ونهضت واقفاً على الفور. كان المتسولون والمتسكعون قد باشروا تجمّعهم بأسلوبهم الذي يذكر بالقرون الوسطى؛ جاء أيضاً بائعون متجولون ومتسوّلون جدُد كاشفين عن إصاباتهم وعن ضماداتهم المخيفة. كان تروتسكي مائلاً برأسه إلى الخلف يتمعّن في تلك الكنيسة الكبيرة، ثم ارتقى الدرجات المفضية إلى الباب بقفزة ليس فيها ما يوحي بالكهولة، ودخل البوابة مسرعاً. اندفع الناس خلفه؛ الأشخاص الذين يحملون الحقائب (كان أعضاء المنظمات الراديكالية الذين عرفتهم في شيكاغو يحملون حقائب من هذا النوع). رأيت أيضاً رجلاً ضخماً له شعر كأنه شعر امرأة ومعه بعض هؤلاء الحراس الغربيين ومن خلفهم بعض المتسوّلين القافزين على عكازاتهم ينشدون أغاني الاستعطاف... كانوا موشكين على الموت حقاً مثلما يدَّعون... ولجوا جميعاً باب الكنيسة المفتوح.

وددت أن أدخل أيضاً. أثارتني رؤية هذه الشخصية الشهيرة، وأظن أن ما حركني في ذلك الرجل هو الانطباع الفوري الذي يعطيه (بصرف النظر عن السيارة العتيقة التي جاء فيها، وبصرف النظر عن غرابة ما حدث كله)... انطباع عن رجل يتوجه مسترشداً بالنجوم، رجل كبير الشأن، رجل يبدو صالحاً لقول أهم الكلمات البشرية والمصطلحات العالمية. عندما تكون واحداً ممن يعتمدون نوعاً من التوجه مختلفاً عن هذا النوع النجمي الرفيع، شخصاً لا يستطيع تجاوز مياه الخلجان الضحلة في إبحاره، شخصاً ينتقل من بركة طينية إلى أخرى، فمن المثير أن ترى لمحة من عظَمة أهل المياه العميقة. ثم إنها ليست عظمة مؤكدة فحسب، بل هي عظمة المنفى أيضاً، لأن النفي في نظري دليل على التمسك بأشياء كبيرة سامية. استبدّت بي الحماسة إذن؛ راحت تنبض داخل جمجمتي كأنها تضربني بعصا مكنسة. جعلتني أتذكر أن هذا الرأس لا يزال مضمَّداً وأنه يجب أن أهدأ قليلاً. بقيت واقفاً أنظر من مكاني إلى أن خرج ذلك الرجل من جديد.

لكن السبب الذي يجعلني أقصّ عليكم هذا كله هو أن واحداً من رجال الحرس استدار صوبي فاتضح لي أنه صديقي القديم سيلفستر الذي كان يملك سينما النجوم ذات يوم، طالب الهندسة في كلية آرمور للتكنولوجيا، الزوج السابق لأخت ميمي فيلاريز، الموظف السابق في شركة المترو. عرفته في ثيابه ذات النمط الغربي. يا للآلهة! كم بدا سيلفستر متوتّراً، كئيباً، مثقلاً بأعباء واجبه هذا... وكم بدا مرتبكاً! كان معه مسدس، مثل الآخرين؛ وكان بنطلونه عريضاً من الخلف بينما تدلى كرشه من فوق حزامه. صحت به: «سيلفستر! أنت، يا سيلفستر!» نظر إلي نظرة حادة كأنني تصرفت تصرفاً خطراً؛ لكن الفضول بدا عليه. فرحت كثيراً، وراح الدم ينبض في رأسي. احمرّ وجهي من الضحك والإثارة لأنني شعرت بسعادة كبيرة لرؤيته: «أنت، أيها الأحمق الملعون، يا سيلفستر، ألم تعرفني؟ إنني أوجي مارتش. هل ستظل واقفاً هناك من غير أن تتذكرني؟ لم أتغير كثيراً يا رجل؟».

«أوجي؟»... سألني، وابتسم قليلاً بشفتين قاتمتين غير مصدِّقتين. كان في صوته صرير جافٍ غير واثق.

«بالطبع! هذا أنا يا غبي! يا إلهي، كيف أتيت إلى هذا المكان؟ وما الذي تفعله بهذا المسدس؟».

«وكيف أتيت أنت إلى هذا المكان؟ عجيب... نحن، إننا نتجول كثيراً. ماذا أصاب رأسك؟».

قلت: «سقطت عن الحصان»؛ وعلى الرغم من فرحتي برؤيته فقد مرت سريعاً في رأسي جملة من الروايات المنطقية وإن لم تكن صادقة تماماً. لكنه لم يسألني شيئاً، وهذا أدهشني. يدهشني ذلك الآن بشكل أقل لأنني صرت أعرف كيف يغدو بال الإنسان مشغولاً بأمور أخرى.

«أمر رائع أن أراك يا سيلفستر. ما الذي جعلك تقوم بهذا العمل؟».

«إنه تكليف، كلفت بهذه المهمة...».

«ماذا تقصد؟».

«كانوا يريدون شخصاً لديه إلمام بالتكنولوجيا».

إلمام بالتكنولوجيا! كنت لا أزال أضحك سعيداً بسبب رؤيته، لكن ضحكي صار فيه الآن شيء مختلف أيضاً. مسكين سيلفستر! هذه القصة عن معرفته بالتكنولوجيا. لا بأس، مهما يكن ما سنخرج به من هذا اللقاء، فإنه ليس الحقيقة بكل تأكيد. لقد حضّرت قصة كاذبة، أنا أيضاً، لأقولها إذا سألني عن سبب وجودي هنا. هكذا هو الأمر. إذا تحول كذب يوم عادي واحد فقط إلى مادة طينية فلا بد أن كمية ذلك الطين ستكون كافيةً لسد مجرى نهر الأمازون نفسه. لكن أكاذيبنا اليومية لا تتجمع هكذا ولا تسدّ شيئاً بل تتوزع وتنتشر كالهواء.

قلت له: «إذن! أنت مع تروتسكي طيلة الوقت، وأنت تعرفه جيداً كما أظن. لا بد أنه أمر رائع. أتمنى أن أعرفه».

«أنت؟».

«يا إلهي، أظن أنك لا تراني صالحاً لهذا. أخبرني عنه! أتظن أنني أستطيع مقابلته على الأقل يا سيلفستر؟ هل تستطيع ترتيب ذلك؟».

قال سيلفستر مستغرباً وقد غدت عيناه ثقيلتين: «حقاً! هكذا؟ تظن أن الأمر ليس صعباً،

أليس كذلك؟ أنت شخص مضحك. لكن، انظر، يجب أن أذهب. اتصل بي عندما تذهب إلى المدينة. أحب أن أراك. سوف نشرب كأساً من البيرة. هل تتذكر فريزر في شيكاغو؟ إنه سكرتير لدى تروتسكي. لا تنس الآن!» كان أحد الحراس يناديه فاستدار وأسرع صوب السيارات.

لعن أوليفر الياباني كثيراً لأنه تأخر في تسليم الفيلا. لكن الرجل أبحر صوب اليابان آخر الأمر. انتقل أوليفر إلى المكان ثم راح يستعد لإقامة حفلة ضخمة يدعو إليها علية القوم في البلدة. ستكون تلك الحفلة سُماً لأعدائه في فندق كارلوس كوينتو. ساعده مولتون في إعداد قائمة المدعوين، وأُرسلت الدعوات إلى المقيمين القدامى. جاء كثير من الرعاع في واقع الأمر، لكن ذلك كان منسجماً مع مشاكل أوليفر التي صارت علنية الآن، بل غدت معروفة منذ وقت. جاء إلى البلدة مفتش من وزارة الخزانة؛ ولم يخفِ هويته بل أخبر الجميع بحقيقة مهمته... كان يتعامل مع الأمر بسخرية رائعة. جلس منفرج الساقين على واحد من الكراسي عند هيلاريو، وراح يشرب البيرة كأنه في عطلة. كان يطعم حيوان الكينكاجو الفستق أيضاً. تمكن أوليفر من الظهور في مظهر من لا يبالي بشيء عندما اجتاز الساحة ومعه ستيلا المتأنقة حتى قمة رأسها، كعادتها. لكن مظهره كان يصبح كارثياً كلما حاول أن يبدو ممسكاً بزمام الموقف. شعرت بالحزن عليه. كانت ستيلا مذعورة. وتحاول أحياناً أن تجعلني أفهم أنها تريد الحديث معي في هذا الأمر. لم يخطر لي أبداً أن من غير الطبيعي أن أكون الشخص الذي تريد مناقشة متاعبها معه. لكن الفرصة لم تسنح لذلك. كان أوليفر يراقبها مراقبة وثيقة.

قلت لمولتون: «لماذا يتعقبون أوليفر؟ لا بد أن الأمر خطير وإلا لما أرسلوا شخصاً من واشنطن».

«يقول الرجل إن الموضوع متعلق بالتهرب الضريبي، لكن لا بد أن يكون شيئاً أسوأ من هذا. صحيح أن أوليفر طائش مغرور،شخص سخيف... لكنه ليس غبياً إلى درجة تجعله يقع في هذه المتاعب».

«مسكين أوليفر!».

«إنه غبي».

«قد يكون غبياً. لكن، من حيث الأساس، أقصد، باعتباره إنساناً...».

قال لي متأملاً: «أوه، من حيث الأساس...» لكنه خرج سريعاً من تلك الحالة التأملية وتابع يقول...» لعله غبي من حيث الأساس أيضاً».

في تلك الأثناء، كانت رؤية كيفية تصرُّف أوليفر أمراً مدهشاً إلى حد كبير: حاول أن

يظهر هادئاً لا يهزّه شيء. لكنه كان يفقد السيطرة دائماً، بخطوات صغيرة! تورط بعد ظهر ذات يوم في مشاجرة مع لوي فو. كان لوي شخصاً غريباً بما فيه الكفاية، وكان يثرثر بخليط من الإسبانية والصينية؛ لكنه كان أيضاً رجلاً اقتصادياً إلى حد فظيع... أظن أنه عاش فترة المجاعة الصينية وعرف كيف تُلتقط الحبوب من روث الأبقار؛ وهكذا ما كان شيئاً كبير الأهمية في نظره أن يصب ما بقي في كؤوس لم يفرغها أصحابها تماماً ويجمعها في زجاجة واحدة. كان يقف خلف طاولته المصنوعة من الزنك مغطياً صدره الواهي بأطراف سترته الرمادية ويصب في الزجاجة ما تجمع لديه من عصير البرتقال ثم يضعها في البراد. أمسك به أوليفر يفعل هذا فلكمه في وجهه. كان أمراً فظيعاً! صرخ لوي. سرى الغضب في أفراد أسرته وراحوا يصرخون جميعاً. جئنا كلنا، نحن الأجانب، تاركين لعبة الورق. ظهر رجل شرطة في الباب الأمامي فأخذت بيد ستيلا ومضينا عبر ستارة من حبال خرزية فعبرنا إلى النصف الآخر من المتجر حيث يبيعون الملابس الجاهزة. وسرعان ما خرجنا إلى الشارع فرأينا حشداً من الناس يسير خلف المعتقلين صوب قاعة المدينة حيث تقع المحكمة. كانت عين لوي قد اكتست بقعة زرقاء ضخمة؛ آلمته حنجرته لشدة صراخه. أخذ أوليفر معه شاباً مكسيكياً من عازفي الجيتار حتى يترجم له. كان دفاعه عن نفسه شديد الخطورة لأنه تطرق إلى ذكر الوباء المعَوي. لم يخطر له شيء أسوأ من زعمه بأنه يحاول حماية الناس من انتشار هذا الوباء. ضرب القاضي الطاولة بيده عندما سمع هذه الإشاعة غير المسؤولة عن انتشار الوباء. كان رجلاً ضخماً عريض المنكبين، رجلاً يستطيع رفع ثور في الحلبة؛ وكان يضع قبعته في المحكمة كأنه أمير من الأمراء... ذلك الرجل القوي الأسمر. حكم بغرامة بسيطة دفعها أوليفر فوراً بمظهر لا مبال، وإن يكن متجهّماً. حاول أن يبدو مستمتعاً بالأمر كله! كان المال شيئاً من الأشياء التي لا يبدو عليه أنه يشكو قلتها. كيف تلقت ستيلا هذا كله... في فستانها الخفيف من غير أكمام وقبعتها الواسعة؟ نظرت إليّ بعينيها القلقتين الواسعتين راجية أن أدرك ما تعانيه. لكني لم أمنح تلك النظرة ما تستحقه من اهتمام نتيجة كثرة ما كان يحدث في البلدة آنذاك. ثم لماذا يكون عليها أن ترتدي هذا الفستان الأنيق في أمسية للعب البوكر عند لوي فو؟ لا بد أنها لا تملك إلا فساتين أنيقة؛ وليس لديها مكان تزوره غير الأماكن التي يأخذها إليها أوليفر. شيء غريب جداً.

قالت لي: «يجب أن أتحدث معك يوماً ما، قريباً جداً».

لِمَ الوقت لم يكن مناسباً. كان أوليفر معنا الآن، وكان يقول لمولتون وإيغي أشياء كثيرة غريبة، أشياء من قبيل «لقد دخلت المحاكم في مختلف أنحاء العالم»؛ و«ما عادوا يستطيعون إخفاء أمر الوباء الآن»؛ و«ذلك الأصفر الملعون... لقد لقنته درساً، على الأقل». أصغيت إليه، وشعرت بالغرابة أيضاً... كنت في ضماداتي، ومعي ورق اللعب والعملات الأجنبية في جيوبي، وقلبي محصور في صدري، وأصابع قدمي حرة طليقة في

صندلي. أحسست كأنني شخص يمكن أن يظهر في رؤيا صوفية... أحسست أنني ذلك النوع من الأشخاص.

قالت ثيا على العشاء: «سمعت أن مشاجرة جرت في البلدة. هل كنت مشتركاً فيها أيضاً؟».

لم أبالِ بهذا! لماذا ترى أن عليها أن تسألني بهذه الطريقة؟ أخبرتها بالقصة أو، بالأحرى، قدمت لها نسخة مما حدث. لكنها تجهّمت وعبست. وعندما تحدثت عن ستيلا أدركتُ أنني كنت حريصاً على توضيح فكرة أنها تحب أوليفر.

لم تصدقني ثيا!

قالت لي: «أوجي! لِمَ لا نبتعد عن هذا المكان؟ خلال موسم الزحام على الأقل. فلنبتعد عن هؤلاء الناس».

«أين تريدين الذهاب؟».

«أفكر في الذهاب إلى شيلبانزينغو».

كانت شيلبانزينغو في اتجاه الجنوب، في الجزء الأكثر حرارة في البلاد؛ لكني كنت راغباً في الذهاب. سأذهب معها! لكن، ماذا أفعل هناك؟

قالت لي: «هنالك حيوانات مثيرة للاهتمام في ذلك المكان».

وهكذا أجبتها إجابة مراوغة: «لا بأس، أظن أنني سأكون راغباً في الذهاب في وقت قريب».

«تبدو مكتئباً خائر القوى. لكن، كيف يمكنك توقع أن تبدو في شكل مختلف عندما تعيش حياة من هذا النوع؟ لم تكن تشرب قبل أن تأتي إلى هذا المكان؟».

«ما كان لديَّ سبب يجعلني أشرب. لكني لا أشرب حتى السكر الآن أيضاً».

قالت بنبرة مرارة: «لا! أنت تشرب فقط بالقدر الكافي لجعلك تواصل أغلاطك».

صححت قولها: «أغلاطنا».

وهكذا جلسنا إلى طاولة العشاء، جلسنا منزعجَيْن، في ظلال الخيبة والحنق. قلت لها بعد تفكير طويل: «سوف أذهب إلى شيلبانزينغو. أفضل أن أكون معك على أي شيء آخر في العالم».

نظرت إلي نظرة أكثر دفئاً من أي نظرة منذ وقت بعيد. لست أدري إن كان هنالك في شلبيانزينغو شيء نفعله غير اصطياد الأفاعي. لكنها لم تقل إنّ هنالك شيئاً غير هذا!

يحاول كل إنسان أن يخلق عالماً يعيش فيه؛ وأما ما لا يريده فهو لا يراه في أغلب الأحيان. لكن العالم الحقيقي موجود بالفعل، وإذا لم يكن العالم الذي تختلقه متناسباً معه، فإما أن تحس نفسك نبيلاً وتصر على أن هنالك شيئاً أفضل مما يدعوه الناس واقعاً، العالم الذي لا حاجة إلى تجاوزه لأننا، في واقع الأمر، لا نعرف عنه إلا القليل؛ وقد تُفاجئنا فيه دائماً أشياء ما كنا نعرفها. إن كان ما يفاجئنا سعيداً، فهذه مفاجأة طيبة؛ وإذا كان بائساً أو مأساوياً، فهو ليس أسوأ مما قد نخترعه بأنفسنا.

الفصل الثامن عشر

هكذا وافقت على الذهاب إلى شيلبانزينغو مع ثيا: كانت هنالك فترة من الزمن، فترة وجيزة إلى حد كبير أظهر فيها كل مِنّا امتنانه للآخر. قدّرت لها أنها تخلت عن حِدّتها؛ وكانت سعيدة بأنها لا تزال فتاتي المفضلة. قالت لي ليلة الحفلة التي يقيمها أوليفر لتدشين بيته الجديد: «فلنذهب ولنرَ كيف هو الأمر هناك»، ففهمت أنها تريد أن تفعل شيئاً من أجلي لأنني كنت راغباً في الذهاب، كنت راغباً! كنت شديد الرغبة في الذهاب لأنني جالس في البيت منذ يومين تعبيراً عن حسن النوايا. نظرت إليها بعناية فرأيت كيف احتفظت بابتسامتها بعد طرح هذا الاقتراح، لكني فكرت... فليكن، سنذهب!

صرت أعرف الآن رأي ثيا في هؤلاء الناس، بل في معظم الناس؛ صرت أعرف كيف تفكر في إنسانيتهم المَعيبة. كانت غير قادرة على احتمالهم! تبلغ درجة الغرابة عندها أنها تقترح نوعاً مختلفاً من البشرية، مختلفاً تماماً! أظن أن ما من شيء يمنع الناس من المطالبة بشروط مثالية. ليست هنالك إلا عوائق قليلة تمنع الإنسان من المطالبة بأي شيء قد يظن أنه يريده. لكن المعايير التي تضعها ثيا عالية جداً! ومع هذا، فليس من الممكن تماماً لومها على أنها وضعتها عالية هكذا اعتباطاً. أقول هذا لأن ذعرها يفوق ازدرائها عندما تحدثني عن عيوب شخص من الأشخاص. يخيفها الأشخاص الذين يتعين عليها خوض صراع معهم؛ ويخيفها ما قد أستطيع أن أسميه «القَدْر المتوسط، المعتاد، من النفاق». أما فيما يتعلق بالجشع أو الحسد، أو بإعجاب المرء الشديد بنفسه، وبحالات الكره والخراب والنصب... فقد كانت قدرتها على احتمال هذه الأشياء كلها منخفضة جداً؛ وقد رأيت من قبل مدى استغراب الناس ردّات أفعالها الشديدة. إذن، كنت أعرف بالتأكيد أنها غير راغبة

في الذهاب؛ لكني كنت شديد الرغبة، وكنت أقول في نفسي إنها تستطيع قبول هذا الأمر، تستطيع قبول مرافقتي أمسية واحدة، إذا كنت قادراً على احتمال أفاعيها.

بدلت ملابسي، وارتديت ملابس جيدة. نزعت عمامة الضمادات واكتفيت بلصاقة على المساحة الحليقة في رأسي. لبست ڤيا ثوب سهرة مع وشاح حريري أسود. لكن أحداً لم يلاحظ وصولنا. لم أرَ في حياتي كلها حفلة مجنونة إلى هذا الحد! عندما وصلنا إلى الفيللا وجدنا أنفسنا ضمن حشد ضخم من الناس ملأ الشارع كله. رأيت أغرب أشكال المتبطلين المتسكّعين، رجالاً ونساء... عيّنات نموذجية من شخصيات شائنة، ومهووسين، وقرود، وحمقى، رأيت أنواعاً غريبة من أناس يتعانقون ويسكرون ويلتهمون الطعام ويحتفلون بطريقة فضائحية. يحدث هذا لأنه ما عاد سراً أن أوليفر مطلوب للحكومة وأن هذه الليلة انغماس أخير ضخم في الملذات كلها. عجيب أن تكون ڤيا الشخص الوحيد في البلدة الذي لم يعرف بما يجري! كان بعض الضيوف مستلقياً في الحديقة مع زجاجات الشراب، وهم على وشك فقدان الوعي، أو في حالة فقدان وعي حقيقية. كانوا يدوسون الأزهار اليابانية، ويرمون زجاجات التيكيلا في بركة الأسماك. لم ينتظروا الخدم بل راحوا يصبّون شراباً لأنفسهم ويفتتون قطعة الجليد الكبيرة مستخدمين الشمعدانات، وينتزع بعضهم الكؤوس من أيدي بعضهم الآخر. وفي الشرفة، كانت الأوكسترا المستأجَرة تعزف فاترة الهمة، وكان المدعوون الأقل سكراً يرقصون على وقع تلك الموسيقى. أرادت ڤيا أن ننصرف فوراً، لكني رأيت ستيلا واقفة عند شجرة برتقال عندما بدأت ڤيا تقول لي ذلك. أشارت لي ستيلا إشارة صغيرة، فكان يجب أن أذهب لأتحدث معها. كنت شديد التوق إلى ذلك! أزعجتني محاولة ڤيا أن تجرّني لنذهب فور وصولنا فلم أنظر إليها. وعندما جاء مولتون في سترة رسمية (لا يزال في بنطلونه القصير رغم ذلك)، وطلب منها رقصة، دفعتها إليه. كنت أظن أن مقتها تجاهه فيه شيء من المبالغة، وأن رقصة أو رقصتين معه لن تسبب لها أي ضرر.

أدركت الآن أنني كنت شديد الانشغال منذ محاكمة أوليفر عندما قالت ستيلا إنها تريد الحديث معي. لا أعرف ما الذي أصابني وجعلني مستثاراً إلى هذا الحد. لكني كنت واثقاً من أنني سوف أعرف ذلك؛ سوف أفهم ما يحدث. وهكذا ابتعدت عن ڤيا وعن حلبة الرقص رغم علمي بأنها رجتني ألا أبتعد عنها، ورغم علمي بمدى غضبها. لكن الأمر لن يؤذيها حقاً، وسوف تسنح لي فرصة معرفة ما تريده ستيلا. كنت قادراً على رؤية الحالات الأخرى بوضوح أكثر من وضوح رؤيتي في ما يتعلق بي أنا؛ وبسبب الغموض والعجز اللذين أحسستهما تجاه مسألة الذهاب إلى شيلبانزينغو (أو الأحرى مسألة إلقاء نفسي إلى شيلبانزينغو بعمق أكبر وبعمى أشد)، فلعلّي كنت في حاجة إلى فرصة حتى أكون واضحاً فعّالاً وحتى أصبح قادراً على الاقتناع بأن الوضوح والفعالية لا يزالان موجودين.

لكني أيضاً، في الحقيقة، أحسست بالضعف يهاجمني عندما أشارت لي ستيلا. ليس هذا لأنني كنت أعتزم فعل أي شيء تجاهها. ظننت أنني سأشعر بشيء من المَيْل نحوها، لكن لن يحدث شيء بيننا! سأكون على انفراد مع امرأة جميلة. كان هذا يسرني إلى حد كبير ويجعلني معجَباً بنفسي لأن تلك المرأة الجميلة وجدت أن من الطبيعي أن تستعين برجل من مستواها. نسيت أنني سقطت عن الحصان على وجهي، وأنه داسني. هذا نوع من الأشياء يميل المرء إلى نسيانه. لكني تذكرت أن آخر مرة استُدعيت فيها من أجل حديث، مثلما يجري الآن، كانت مع صوفي غيراتيس عندما غرق كل منا في ذراع الآخر. فما رأيي في هذا؟ لكن ذبابة نشطة حمقاء تدور في رأسي اختلقت هذا التفكير المجنون في الحب نتيجة هذا الكنز من التقدير الذي لم أكن أوليه اهتماماً على الإطلاق. كنت في ذلك الوقت شديد الجدية بالطبع. وأدركت أنها واقعة في مشكلة. لكن اختيارها أن تتحدث معي أنا وتستشيرني وتطلب مساعدتي (ما الذي يمكن أن تفعله غير طلب المساعدة؟) كان لطفاً منها تجاهي جعلني أحس نوعاً من الالتزام حتى قبل أن تقول لي كلمة واحدة.

قالت: «سيد مارتش، إنني معتمدة عليك وأريد أن تساعدني».

طغت علي مشاعري في لحظة واحدة فقلت لها: «أوه، طبعاً، بالتأكيد. سأفعل كل ما أستطيع». وسَرَت في جسدي رعشة الاستعداد لذلك. كانت أفكاري مشوَّشة، لكن دمي كان مستثاراً... «ما الذي أستطيع فعله؟».

«من الأفضل أن أشرح لك الوضع. لكن في البداية دعنا نبتعد عن هذا الزحام أولاً!».

«نعم، فلنبتعد!» قلت هذا موافقاً وأنا أنظر من حولي. ظننت أنني أبحث عن أوليفر فقالت: «إنه ليس هنا. ولا أتوقع عودته قبل نصف ساعة». لكن ثيا هي التي كانت تثقل على أفكاري في تلك اللحظة. إلا أن ستيلا أمسكت بيدي وقادتني عميقاً بين الأشجار فأحسست بلمستها عبر ذراعي، بل أبعد من ذراعي، وبينما مضيت معها كان تفكيري في العواقب أضعف من أي وقت مضى، بل حتى أضعف مما كان عندما ارتكبت تلك السرقة مع أصدقائي. كان بي ذهول وشوق كبير لسماع الحقيقة عن أوليفر، لكنني كنت أعرف أنه كائن قليل الشأن... بقدر ما كانت حصافة تفكيري قليلة الشأن!

قالت: «يجب أن تعرف حقيقة الموظف الحكومي الذي أتى للقبض على أوليفر. يعرف الجميع بوجوده. لكن، هل تعرف سبب وجوده هنا؟».

«لا، لماذا؟».

«جرى شراء مجلة ويلموتز ويكلي بأموال أتت من الحكومة الإيطالية. كان هنالك شخص في نيويورك قام بهذا الأمر. اسمه مالفيتانو. لقد اشترى المجلة وجعل أوليفر رئيس

تحريرها. المواد المهمة التي تطبعها المجلة تأتي من روما كلها. لكن مالفيتانو اعتُقل قبل شهرين. وهذا ما منعنا من العودة. لا أعرف سبب اعتقاله. لكنهم أرسلوا هذا الرجل الآن في أعقاب أوليفر».

«لماذا؟».

«لا أعرف السبب. أعرف ما يتعلق بعالم التمثيل. إذا سألتني عن شيء يخص المسرح فإنني قادرة على الإجابة».

«لعلهم يريدون منه أدلة ضد هذا الإيطالي. أظن أن العودة أذكى ما يستطيع فعله الآن. ليس أوليفر إلا واحداً من صحافيي العالم القديم الذين لا يرون فارقاً بين حكومة وأخرى».

أساءت فهمي، فقالت: «إنه ليس كبير السن إلى هذا الحد».

«عليه أن يعقد اتفاقاً مع الحكومة. وعليه أن يدلي بشهادته».

«ليس هذا ما يعتزم فعله».

«ليس هذا ما يعتزم فعله؟ لا تقولي لي إنه سيحاول الهرب! إلى أين؟».

«لا أستطيع إخبارك. لن يكون ذلك منصفاً».

«إلى أميركا الجنوبية؟ إنه غبيّ إن كان يظن أنه يستطيع ذلك. وهذا سيجعل الأمور أكثر خطورة... إذا صاروا مضطرين إلى ملاحقته».

«لا، يظن أوليفر أن المسألة خطيرة جداً».

«وما رأيك أنت؟».

قالت: «أظن أنني نلت ما يكفيني». نظرت إليَّ بعينيها السابحتين المتسعتين اللتين تغير فيهما الضوء المنعكس من مصابيح الحديقة.

«يريدني أن أذهب معه».

«لا! أتذهبين إلى غواتيمالا، أو إلى فنزويلا؟ حيث...!».

«لا أريد تحديد المكان رغم ثقتي فيك».

«لكن، بمَ تعيشان؟ هل لديه مال خبأه بعيداً؟ لا، لست أظن أن لديه ذلك المال. سوف تكونين معه على شاطئ ما، في مكان ما. ولعله يأمل في أنك تحبينه إلى ذلك الحد. هل الأمر هكذا؟».

«أوه... ليس إلى ذلك الحد، لا!» قالت هذه الكلمات كأنها تأمل في التمكُّن من

قياس ذلك الحب. أظنها أرادت القول إنها تحبه بعض الشيء حتى تعطي نفسها قدراً من الاحترام. ماذا؟ ذلك الأعجف البائس البليد بارز العظام، ذلك الأبله الرومانسي المتوثب أوليفر! رأيت انهيار ما تخيله لنفسه من حظ ومال وحب، وشعرت بالأسف تجاهه لأنه مضطر إلى الهرب. رأيت لمحة بسيطة من الجحود في موقفها أيضاً. لكنني بقيت وقتاً طويلاً غير قادر على رؤية شيء خاطئ حقاً من جانبها. كنت واقفاً أمامها، تفصلنا الأشجار عن الحفلة الصاخبة؛ أحسست أن هنالك شيء يحدث لي، شيء معتمد على أكثر الأجزاء أهمية في شخصيتي، في طبعي، شيء لا أستطيع مقاومته.

قالت لي: «يفترض أن تكون هذه الحفلة نوعاً من التغطية. لقد خرج ليبتعد بالسيارة مسافة على الطريق ويخفيها هناك، ثم يعود من أجلي. يقول إن الشرطة جاهزة لتوقيفنا».

«أوه، إنه غبي!» قلت هذه الكلمات بقناعة متجددة... «هل يتوقع أنه يستطيع المضي بعيداً في سيارته الحمراء ذات السقف المتحرك».

«سوف يتخلص منها في الصباح. إنه جاد تماماً. وهو يحمل مسدساً أيضاً. لقد جُنّ قليلاً؛ وجّه المسدس صوبي اليوم بعد الظهر. يقول إنني أريد التخلي عنه».

«الأحمق، البائس! يظن أنه شخصية هاربة مهمة. عليك أن تبتعدي عنه. كيف تورطتِ معه؟».

أدركت أنه من الغباء طرح هذا السؤال. لا تستطيع إجابتي. هنالك في الحياة مسارات يمكنك أن تخمنها تخميناً فقط، أو أنك لن تعرف عنها أي شيء أبداً. وذلك لأن الكلام عنها غير ممكن. نعم، كان سؤالاً شديد الغباء. لكنني انتبهت عند ذلك إلى أشياء خاطئة كثيرة قلتها وفعلتها، ولم أكن أستطيع الامتناع عن ذلك.

«إنني أعرفه منذ فترة غير قليلة. كان شخصية محبَّبة، ولديه مال كثير».

«أوه، لا بأس. لست مضطرة إلى إخباري».

قالت: «ألم تأت أنت إلى المكسيك بطريقة تشبه طريقتي؟».

هذا إذاً ما تظنه مشتركاً بيننا: «أتيت لأنني كنت عاشقاً».

«حسنٌ، إنها فتاة جميلة جداً؛ وهذا فرق بين الحالتين بالطبع. لكن، وإن يكن...»، قالت هذه الكلمات بذكاء وصراحة مفاجئين... «إنه بيتها، أليس كذلك. وكل الأشياء لها! ماذا لديك أنت، شخصياً؟».

«ماذا لديَّ؟».

«أنت لا تملك شيئاً، أليس هذا صحيحاً؟».

لم أكن، بالطبع، أعتزم أن أنافق وأكذب وأجادلها وأتظاهر بغير الحقيقة، فأنا لم أفكر في مسألة المال في يوم من الأيام. كل ما كان في جيوبي، تلك النقود المتنوعة، أرباحي، قوس القزح من العملات الأجنبية، كله جاء من لعب الورق في المطعم الصيني. كان في جيوبي روبلات قيصرية أيضاً كسبتها من المغنين في السيرك القوقازي. لا تقلقي! كنت أعرف معنى المال، أعرفه جيداً، كنت أعرف ما تتحدث عنه.

«لدي بعض المال! أستطيع إقراضك ما يكفي للابتعاد عن هذا المكان. أليس معك مال أبداً؟» كنا متفاهمَيْن تماماً في هذه اللحظة من حديثنا.

«لدي حساب مصرفي في نيويورك. لكن ما فائدة هذا الآن؟ أستطيع إعطاءك شيكاً مقابل المبلغ الذي ستقرضني إياه بالبيزو. ليس لديّ مال أستطيع أن أضع يدي عليه الآن. يجب أن أذهب إلى مكسيكو سيتي وأجري تحويلاً برقياً عن طريق مصرف ويلز فارغو».

«لا، لا أريد شيكاً».

«لن يردّه المصرف... لا تقلق من هذه الناحية».

«لا، لا. سوف أكتفي بكلمة منك، أقصد أنك لست مضطرة إلى إعطائي أي شيك على الإطلاق».

قالت: «كنت أفكر في أن أطلب منك أخذي إلى مكسيكو سيتي».

كنت أتوقع هذا، رغم أنني ما كنت أعتزم فعل أي شيء من هذه الناحية. أما الآن، عندما طرح الأمر، فقد حصل لي شيء. ارتعدت كما لو أنني رأيت لمحة من قدري. اعترفت لنفسي بأنني كنت أحاول دائماً أن أستنتج ما آمله؛ لكن... كيف يتمكن الناس، في حالات كثيرة، من التوصل إلى ما يأملونه بطريقة غامضة هذا الغموض كله؟

قلت: «ماذا... ماذا، كيف توصلت إلى هذه الفكرة؟». قلت هذه الكلمات وأنا أتعامل مع الأمر ليس على أنه خطة من أجل سلامتها فحسب، بل على أنه اقتراح يشملني أنا أيضاً. كان صياح الحفلة وصخبها شديداً، وكانت أجمة البرتقال التي تخفينا كأنها آخر شريط لم يقطعه الحصادون بعد. توقعت في أي لحظة أن يقاطعنا شخص ثمل أو زوج ملتهب من العاشقين. كنت أعرف أنّه يجب أن أخرج وأن أبدأ البحث عن ثيا. لكن لا بد من تسوية الأمر أولاً. قلت لها: «لست مضطرة إلى طرح الموضوع على هذا النحو. سوف أساعدك على أي حال».

«أنت تستعجل الأمور. لست ألومك. فأنت تساعدني. ربما كنت سأشعر بالسوء لو أنك لا تفعل. كل ما عليّ التفكير به الآن هو الابتعاد عن هذا البائس الذي فقد عقله».

«إنني آسف. وأنا أعتذر. تسرّعت في كلامي».

«أوه، لست مضطراً إلى الاعتذار. نعرف تماماً عن أي شيء نتحدث. أعترف بأنني كنت أنظر إليك كثيراً، وبأنني فكرت فيك. لكن من بين الأشياء التي فكرت فيها أننا، أنت وأنا، ننتمي إلى ذلك النوع من الأشخاص الذين يحاول الناس الآخرون إدخالهم ضمن مشاريعهم. افترضْ إذاً أننا لا نريد أن نلعب لعبتهم، فماذا يحدث؟ لكننا لا نملك الآن الوقت الكافي لفعل هذا».

استجبت استجابة هائلة لهذه الكلمات التي قالتها. أحسست أنني أذوب أمامها. كنت ممتناً لطريقتها الواضحة في قول الحقيقة التي تحوم حولي، مشؤومةً، منذ سنين طويلة. نعم، جرى إدخالي ضمن مشاريع أناس آخرين. رأيت نفحة من الحقيقة عندما سمعت تلك الكلمات. كانت حقيقية، بمعظمها. أقول هذا لأنني أعترف بأن هنالك امرأة لا تحاسبني على نواقصي، ولا تطلق أحكاماً عليّ. أقول هذا لأنني مللتُ التقريع ومللتُ إطلاق الأحكام. لكن هذا كل شيء.

إلا أننا ما كنا نملك وقتاً لنمضي في هذا الحديث. سوف يعود أوليفر سريعاً. لقد حزم أمتعتها وأخذها معه؛ أمتعتها كلها ما عدا أشياء قليلة أخفتها عنه.

قلت لها: «اسمعي! لا أستطيع أخذك إلى مكسيكو سيتي. لكني أستطيع أبعادك عن البلدة إلى مسافة جيدة، إلى حيث تكونين آمنة. قابليني عند السيارة في الساحة. في أي اتجاه ذهب؟ يمكنك أن تثقي بي. ليست عندي رغبة في رؤيتهم يقبضون عليه. ولا سبب يدعوني إلى هذا».

«كان يعتزم الذهاب في اتجاه أكابولكو».

«جيد! سوف نمضي في الاتجاه الآخر».

يبدو أنه يريد أن يسافر بالسفينة من أكابولكو، الأحمق البائس! أو لعله يخطط للهرب عبر الأدغال وصولاً إلى غواتيمالا، فهو غبي إلى هذه الدرجة. إذا لم يقتله الهنود من أجل سلب حذائه الرياضي الملوّن بالأبيض والأسود فسوف يموت من الإنهاك على أي حال.

أسرعت للبحث عن ثيا. لقد ذهبَتْ! أخبرني إيغي بهذا. تركت مولتون في وسط حلبة الرقص ومضت. قال إيغي: «كانت شديدة الانزعاج. لقد بحثنا عنك. ثم قالت لي أن أخبرك بأنها ماضية إلى شيلبانزينغو في الصباح الباكر. كانت في غاية العصبية وترتجف كلها يا بولينغبروك. أين اختفيت؟».

«سوف أخبرك في وقتٍ آخر».

جريت إلى الساحة وفتحت باب السيارة. وسرعان ما وصلت ستيلا وجلست فيها. أرخيت الفرامل وأدرت المفتاح. كانت بطارية السيارة شبه فارغة نتيجة قلة استخدامها. تحرك المُقلع قليلاً، لكن المحرك لم يعمل. قررت استخدام المقبض اليدوي حتى لا أفرغ البطارية تماماً. وعندما بدأت أديره اجتمع حولي حشد من الفضوليين، أهل الساحة المكسيكيين الذين لا يغيبون أبداً... أتوا للمحافظة على تقاليد تلك الساحة. تعرَّقت من إدارة المقبض، وكنت حانقاً كثيراً. قلت لبعض هؤلاء الناس: «انصرفوا! انصرفوا لعنكم الله!» لكن ثمرة هذه الكلمات لم تكن إلا صيحات سخرية من جانبهم. سمعتهم يخاطبونني باسمي القديم: «الأميركي صاحب النسر». امتلأ قلبي غضباً قاتلاً عليهم مثلما غضبت ذات يوم من سائق حافلة النقل في شيكاغو عندما كان ذلك الرجل يلاحقني. لكني استندت إلى مبرّد السيارة وتابعت المحاولة. لم تكن لدى ستيلا الفطنة التي تجعلها تخفض رأسها قليلاً... أظن أنها أرادت رؤية ما يحدث حتى تكون مستعدة للهرب عند الحاجة. لقد رآها الجميع الآن، وعرفوها؛ فات أوان الحذر.

«أوجي! ما الذي يحدث؟».

كنت آمل أن تكون ثيا قد مضت إلى البيت مباشرة حتى تحزم أمتعتها للذهاب إلى شيلبانزينغو؛ لكني رأيتها هنا. جعلها الحشد المجتمع حول السيارة تأتي لرؤية ما يحدث. راحت تحدّق في ستيلا عبر زجاج السيارة الأمامي.

«إلى أين تذهب معها؟ أليست هي صاحبة الحفلة؟ لماذا ألقيتَ بي في تلك الحفلة المخيفة؟».

«أوه، لم ألقِ بك».

«تركتني مع ذلك المولتون الفظيع! ألم تفعل هذا؟ لم أستطع العثور عليك».

عجزتُ عن التظاهر بأن أمراً في غاية الأهمية جعلني أتركها وحيدة في الحفلة. قلت لها: «كان ذلك لدقائق فقط».

«وأين تمضي الآن؟».

«اسمعي يا ثيا! اصغي إليّ قليلاً! هذه الفتاة واقعة في مشكلة كبيرة».

«أهي واقعة في مشكلة؟».

«قلت لك إن لديها مشكلة».

لم تخرج ستيلا من السيارة، ولم تغير وضعيتها خلف الزجاج المغبر.

قال ثيا غاضبة، ساخرة، حزينة أيضاً: «وهل تساعدها في الخروج من مشكلتها؟».

قلت: «تستطيعين أن تظني بي ما تشائين، لكن هذا لأنك لا تدركين مدى إلحاح الأمر، ولا تدركين كم هي في خطر».

كنت مفعماً باستعجال مسعور للهرب، بل كان إحساسي كمن ألقي القبض عليه في واقع الأمر.

أما ثيا المتلفعة بشالها فقد راحت تحدّق بي... قاسية، راجية، صارمة وغير صارمة، كل ذلك معاً. كان هنالك شيء خاص في عصبية ثيا، كانت صاحبة نظرة شمولية تظن أن قوانين الحقيقة كامنة تحت قدميها حيث تقف. كان هذا يجعلها ترتعد، لكنها كانت جريئة أيضاً. لذلك، ما كنت أعرف ما يمكن توقّعه في وقت مثل هذا الوقت الخطير.

هنالك شيء آخر: كانت صاحبة نظرية في الحب، مثل ميمي! لكنها كانت مختلفة عن ميمي لأن ميمي تصمم حقاً على فعل كل شيء بنفسها إذا خذلها الآخرون. بل لعل ميمي ليست في حاجة إلى الآخرين إلا ليكونوا شهوداً، أو ليكونوا مجرد عناصر مكمِّلة. إلا أن ثيا أكثر فهماً! لقد سمعتُ من رجال كثيرين، من إينهورن خاصة، عن تعصب النساء حين يتعلق الأمر بالحب، وكيف أن الحياة كلها بالنسبة إليهن تدور حول هذا الشيء، في حين يجد الرجال كثيراً من المواضع الهامة الأخرى التي يستطيعون التعلق بها مما يجعلهم أكثر قدرة على تجنب الإفراط في التمسك بهاجس وحيد. يستطيع المرء دائماً أن يحصل من إينهورن على جزء من الحقيقة.

قلت: «إنها الحقيقة! لقد جنّ أوليفر وحاول قتلها اليوم».

«ما الذي تريد أن تقوله لي؟ هل يستطيع ذلك الأحمق البائس أن يؤذي أحداً؟ ثم، لماذا يتعيَّن عليك أنت أن تحميها؟ كيف صارت لك علاقة بهذا الأمر؟».

قلت وقد نفد مني الصبر والمنطق: «لأنها طلبت مني أخذها بعيداً عن البلدة. إنها تحاول الوصول إلى مكسيكو سيتي. وهي لا تستطيع الذهاب بالباص. من الممكن أن تحاول الشرطة الإمساك بها».

«حتى إن كان الأمر هكذا، فما علاقتك أنت؟».

«لكن، ألا تفهمين؟ لقد طلبت مني!».

«هل طلبت منك ذلك فقط؟ أم أنها طلبت لأنك أردتها أن تطلبه».

قلت: «كيف تريدين أن أفهم هذا الكلام؟».

«كأنك لا تدرك ما أتحدث عنه! لقد رأيتك مع النساء. أعرف كيف تبدو عندما تمر بك امرأة جميلة، أو حتى امرأة ليست جميلة تماماً».

قلت: «لا بأس...» كنت على وشك التأكيد على أن هذا أمر طبيعي. لكني وددت بعد ذلك أن أقول، «وماذا عن الرجال هناك، في الساحل الشرقي، ضابط البحرية والآخرين؟» لكني أمسكت لساني رغم أن الكلمات وصلت إلى حنجرتي وتركت فيها طعماً مراً. لكل دقيقة أهميتها الآن؛ تذكرت أيضاً وجوه الناس المجتمعين من حولنا يستمعون إلى هذا الاشتباك الكلامي كما لو أنه جزء من كلام مقدّس. قلت لها: «لماذا تفعلين هذا؟ ألا تستطيعين تصديق ما أقوله لك؟ ألا تصدقين أنها في خطر؟ دعيني أفعل شيئاً ما على سبيل التغيير! نستطيع مناقشة الأمور الأخرى لاحقاً، على انفراد».

«وهل تستدعي حمايتها من أوليفر أن تندفع هذا الاندفاع كله؟ ألا تستطيع حمايتها منه هنا؟».

«قلت لك إنه خطير. انظري!...» خرجت عن طوري تقريباً، ما عاد عندي صبر... إنه يحاول الهرب، ويريد أن يجرّها معه.

«أوه، إنها تحاول الإيقاع به، وأنت تساعدها».

«لا!» قلت هذه الكلمة بما يشبه الصراخ، ثم خفضت صوتي... «ألا تفهمين أي شيء مما أحاول قوله لك؟ لماذا صرت عنيدة هكذا».

«اذهب إذن، بحق الله! اذهب إذا كنت ترى أن عليك الذهاب. لماذا تجادلني؟ هل تنتظر إذناً مني؟ لن أعطيك هذا الإذن. أنت تقول لي شيئاً سخيفاً مضحكاً. ليست هذه الفتاة مضطرة إلى الذهاب معه إذا كانت لا تريد الذهاب».

«صحيح، ليست مضطرة، وأنا أساعدها في التخلص منه».

«أنت؟ سوف يسعدك ألا يظفر أوليفر بها».

ألقيت بنفسي على المقبض ورحت أدفعه بعنف.

«لا تذهب يا أوجي! استمع إليّ، اتفقنا على الذهاب إلى شيلبانزينغو في الصباح، لماذا لا نأخذها معنا إلى البيت؟ لن يجرؤ على إزعاجنا هناك».

«لا، لقد اتخذت قراري، لقد وعدتها».

«ماذا؟ أنت خجل من تغيير رأيك وفعل ما هو صائب!».

«ربما يكون الأمر هكذا. وقد يكون لديك فهم أفضل للمسألة؛ لكن ذلك لن يوقفني».

«لا تذهب! لا تذهب».

استدرت صوبها قائلاً: «لا بأس! ما رأيك أن تأتي معي! سوف أوصِّلها إلى كويرنافاكا ثم نعود معاً بعد بضع ساعات».

«لا، لن أذهب».

«إذن، أراك عندما أعود».

«يستطيع أي كان أن يحصل منك على ما يريد بقليل من الإطراء يا أوجي. قلت لك هذا الكلام من قبل. فأين يضعني هذا؟ لقد سعيت خلفك، وتملّقتك! لكنني لا أستطيع أن أسابق العالم كله في تملقك وإطرائك».

كانت هذه الكلمات طعنة قاسية؛ جعلتني كلماتها أعاني مثلما عانت هي. عرفت أنني سأنزف زمناً طويلاً بسبب هذه الكلمات. أمسكت بالمقبض وأدرته بقوة فوق بشَريّة. دار المحرك فآلمتني ذراعي. قفزت خلف مقوَد السيارة. رأيت فستان ثيا على ضوء السيارة الأمامي. كانت واقفة، ساكنة. لعلها تنتظر حتى ترى ما أفعله. كان الخروج من السيارة رغبتي الحقيقية. لكن السيارة مضت مسافة فوق بلاط الساحة، وبدا لي أنني ما عدت قادراً على إيقافها بعد أن تحركت. غالباً ما يكون الأمر هكذا مع الآلات: إن كان لديك شيء من التردد أو الشك فإن الآلة تتخذ القرار بدلاً منك.

انعطفت في اتجاه طريق كويرنافاكا؛ طريق صاعد شديد الانحدارِ أسود لا يكاد يجد المرء فيه شيئاً من علامات الطرق. ارتفعنا فوق البلدة فرأيناها جاثمة في دائرتها كأنها كتلة من الجمر. قدت السيارة بأقصى سرعة استطعتها لأن أناساً كثيرين شاهدونا معاً في الساحة؛ وهذا يعني أن أوليفر سيعلم بالأمر. إذا تمكنت ستيلا من استئجار سيارة تاكسي في كويرنافاكا، فسوف يكون ذلك أفضل من الذهاب بالباص لأن الباص يتوقف كثيراً في الطريق، ومن الممكن أن يستطيع أوليفر إدراكه بسهولة.

مضينا في الطريق إلى كويرنافاكا بسرعة مخيفة بالنسبة إلى طريق مظلم إلى هذا الحد. وفي أثناء ذلك، في الهواء الأسود والعبق البرتقالي الذي مضينا عبره مسرعين، بدا الخطر الذي نفرُّ منه يتضاءل مع كل دقيقة تمر. بدا ذلك الطيران بالسيارة عبر الجبل هرباً من أوليفر الجبان شيئاً غبياً مثلما رأته ثيا. أما ستيلا فجلست في السيارة صامتة تشعل سيجارة بعد سيجارة براحة بال واضحة. من الصعب التفكير في أنها صدقت قدرة رجل مثل أوليفر على إلحاق الأذى بها. حتى لو هددها بمسدسه، فلا بد أن ذلك كان نوعاً من الانفعال! الأرجح أنها تهرب من مشاكله لا من تهديداته.

قالت: «أرى بعض الأنوار في الطريق».

كانت تلك يراعات ليلية؛ وكان أمامنا منعطف. مضيت ببطء شديد فوق آثار عجلات عربة قديمة إلى أن بلغت سهماً كبيراً يشير إلى الأعلى. رأيت آثار عجلات في الاتجاهين. وبما أن المنعطف السابق كان إلى جهة اليمين، فقد اتخذت الآن جهة اليسار؛ كانت غلطة! مضينا في طريق طويل صاعد متعرج، وكنت أسمع صوت الأغصان والأعشاب تحت السيارة، لكني خفت من التوقف والعودة بالسيارة إلى الخلف... فضلت المتابعة حتى أصل إلى فسحة أستطيع فيها المناورة حتى أستدير بالسيارة. وصلت إلى مكان قدَّرت أنني أستطيع الاستدارة فيه. انعطفت بحدة وزدت سرعة المحرك لأنني كنت خائفاً من الوقوف. عجزت السيارة الخرقاء عن الاستدارة. وبحذر شديد، ضغطت على دواسة تغيير السرعة، وحاولت الرجوع بالسيارة؛ إلا أن علبة السرعة كانت في حالة سيئة فعلقت الدواسة وتوقف المحرك. لم يكن هذا كل شيء: أحسست طراوة غير مألوفة تحت العجلة الخلفية اليمنى. وعندما خرجت من السيارة رأيت تلك العجلة مستقرة على حزمة من العشب تماماً عند حافة هاوية عتيقة. لم أستطع تقدير المسافة إلى الأسفل. لكننا كنا قد سرنا صعوداً مسافة طويلة؛ لا يقل عمق الهاوية عن خمسين قدماً. تصببت عرقاً، وفتحت الباب الآخر بهدوء ثم قلت لستيلا بصوت منخفض: «أسرعي!» فهمَتْ ما أردته، فانزلقت خارجة من السيارة. مددت يدي من النافذة وأدرت المقود فغير اتجاه العجلات ووضعت عصا السرعة على الوضعية المحايدة. تحركت السيارة بضعة أقدام إلى الخلف ثم توقفت مستندة إلى حافة الجبل. لكن البطارية كانت فارغة تماماً، ولم أستطع جعل المحرك يعمل باستخدام مقبض التشغيل. قالت لي: «هل سنبقى عالقين هنا طيلة الليل؟».

«كان يمكن أن يكون الوضع أسوأ من هذا. وقد قلت لثيا إنني سأعود بعد بضع ساعات». كانت ستيلا قد سمعت الحديث الذي دار بيني وبين ثيا بطبيعة الحال. إن لهذه الحقيقة معنى كبيراً. كما لو أن ثيا، بعد حديثي مع ستيلا في أجمة البرتقال، قد منحت كلاً منا مدخلاً جديداً إلى الآخر. فهل أنا طائش متهوّر غير منطقي إلى هذا الحد؟ وهل ستيلا عديمة الضمير إلى هذا الحد؟ لم نتحدث في هذا الأمر. كان في وسع ستيلا أن تتصرف كما لو أنه ما من طائل وراء الرد على اتهامات امرأة غاضبة؛ هكذا تصرفت فعلاً! أما أنا فأظن أنّه لو كان ما قالته ثيا عني صحيحاً، فإن حقيقتي يجب أن تكون واضحة تماماً لكل من ينظر إلي؛ وإذا كانت ظاهرة هكذا فلا حاجة إلى قول شيء. ثم إن هذا الاندفاع والقلق والعرق والاستعجال حتى أكون هنا في الجبل مثل دودة علق نصفها فجأة في مكانه وظل نصفها الآخر مستعجلاً يريد المتابعة... خلق إحساساً مزعجاً في داخلي.

«لو كان لدينا رجلان لرفع مقدمة السيارة وإدارتها في اتجاه النزول لكنت قادراً على تشغيل المحرك بقوة الاندفاع».

«ماذا؟ كيف يمكنك الاندفاع بالسيارة مع هذه المصابيح الضعيفة؟» كان النور المنبعث من مصابيح السيارة أصفر واهياً... «ثم أين يمكن أن تجد رجلين لمساعدتنا؟».

مضيت رغم ذلك لأبحث عمّن يساعدني، ونزلت حتى بلغت السهم الكبير. وعلى امتداد تلك المسافة العشبية الكبيرة، لم أستطع أن أتأكد مما إذا كانت الأنوار التي أراها نجوماً أو أضواء بشرية. لكني أدركت أن من الأفضل ألا أحاول استيضاح ذلك الآن. سوف تكون أمامي منخفضات كثيرة كهذا المنخفض قبل أن أبلغ ما يمكن أن يكون قرية، أو قد يتضح لي أنني أحاول بلوغ السماء الجنوبية. وحتى عندما أقول «السماء الجنوبية»، فهذا ليس أكثر من محاولة لجعل هذا الخِضَمّ الناري المخيف عبر مسافات تبلغ ملايين السنين الضوئية أمراً مألوفاً (لماذا يجب أن تكون المسافة من فضاء إلى فضاء مضطرمة ناراً؟) هنالك منخفضات، نعم، وهنالك أشواك وصبار... أنواع من الصبار المثمر ومن صبار شرس تترك ألواحه المنخفضة جروحاً عميقة في الساقين؛ وهنالك حيوانات أيضاً. لم تأت أي سيارة عبر ذلك المنعطف؛ ثم خطر لي أن السيارة التي يمكن أن تأتي قد تكون سيارة أوليفر. فهل أنتظره حتى يأتي ويطلق النار عليَّ من مسدسه؟ عدت إلى حيث السيارة. كان في صندوقها بعض البطانيات وغطاء مطاطي واقٍ. وبينما كنت أخرجها من الصندوق على ضوء المصباح المحمول رحت أفكر في مدى كرهي لهذه السيارة ومدى كرهي للحالات الزائفة التي وضعتني فيها. بسطت الواقي على العشب الرطب. وعندما كنت منحنياً فوقه، عندما كنت ساكناً تقريباً، ظلت الحركة والسرعة الكبيرة مستمرتين في داخلي. قلقت على ثيا: أعرف أنها كانت مضطرة إلى تركي أمضي إلى هذا الأمر. ولن تسامحني أبداً.

والآن، كانت ستيلا مستلقية قريبة مني لأن الطقس كان بارداً. كانت رائحتها لطيفة، ورائحة شعرها ورائحة مسحوق التجميل على وجهها... أظن أن برد الجبل جعل هذا العبير مختلفاً. أحسست بوزنها كله، ناعماً، ثقيلاً، أحسسته من ردفيها وثدييها. إذا كانت كيفية وقوعي تحت تأثيرها غامضة في ذهني من قبل، فإن ذلك الغموض ما عاد موجوداً الآن. أظن أنه لو أمضيت ليلة مع امرأة في مكان جبليّ مهجور، فإن هنالك شيئاً مناسباً واحداً... شيئاً واحداً منسجماً مع الدافع السرّي الذي يحرك العالم. أو لعله ليس سرياً إلى هذا الحد! والمرأة نفسها، التي فعلت الكثير حتى تغدو عنصراً خطراً في هذا المخطط نفسه، كلما ازداد خروجها على العالم كلما قلت معرفتها بكيفية الابتعاد عنه. أظن أن لا شيء يمكن أن يحدث (في الأزمة التي يبدو أنها تبدأ عندما يجد رجل وامرأة نفسيهما متروكَين معاً)... لا شيء سهلاً يمكن أن يحدث... إلى أن يتم تجاوز الصعوبة الأولى ويتضح كيف أن الرجل رجل وكيف أن المرأة امرأة؛ كأنه لا بد من إجراء محاكمة للحياة والتوصل إلى تبرير لما يتظاهر به الرجل ولما تتظاهر به المرأة. أقول إنني ظننت هذا، نعم، فكرت في هذا! فكرت في أشياء كثيرة! لكني كنت شديد الرغبة في هذه المرأة.

وكانت، فجأة، باندفاعة مفاجأة مبهورة الأنفاس، شديدة الرغبة فيّ أيضاً. صار لسانها في فمي، ويداها تنتزع ملابسها. لا أهمية للأفكار الأخرى التي جاءتني... لأنها كانت آتية من الخارج. وعندما صارت عارية، عندما رأيت كتفيها وثدييها في برد الليل، وشعرت بحرارتها الرطبة التي جنّنتني، خرج صوتي مني غريباً، لم أعرفه. كانت تتحدث سريعاً في أذني، وتحرك جسدها، وتضغط على وجهي جامعة ثدييها معاً... كانت تقدم نفسها كأنها جائزة. فعلَتْ أشياء كثيرة كأنها امرأة تعلمت من الرجال كل ما يمتعهم. كان هذا في جزء منه براءة فيها. بدا لي هذا كله أمراً غريزياً بعد أن بدأت تتكلم سعيدة وتقبّلني في كل لحظة. ضحكتُ من أنها، هناك في الحفلة، قالت لي إنني أخطأت فهمها، وضحكتْ من اعتذاري بعد ذلك. كنت أعرف وقتها أن هذا ليس مهماً. أنه لا وزن له أكثر من وزن عود من الكبريت. كان القدر الذي أتى بنا معاً إلى هذا الجبل ذي العشب الرطب أكبر من الاعتبارات الأخرى كلها معاً. كنا نعرف هذا جميعاً، ثلاثتنا! بعد تفكير منطقي طويل، تجد نفسك تخضع لما هو غير منطقي. رأت ثيا أنني سأفعل هذا! لكن هذه الحقيقة كانت تزيدني انزعاجاً... كأن ذلك شيء ما كان ليحدث لولا توقّعها حدوثه! فكرت في أنها لو لم تعترض طريقي ولم تقل لي ما يجب أن أفعله لما وقعت في هذا النزاع مع كبريائي. فكرت مجنوناً في أنها كانت تحاول إفساد كل شيء. لكني كنت قادراً على طرح أسباب كثيرة أخرى تبرر ما حدث من غير أن أصل إلى ذلك القدر المحتوم.

قد تكون هذه اللحظات بداية شيء دائم بيني وبين ستيلا، وقد لا تكون! لكننا غير قادرَيْن، الآن، على الحديث في أي أمر حقيقي لأن الشيء الحقيقي الوحيد الذي كان في عقلي هو أنني أفكر في ثيا! وبما أن هذا لا يمكن أن يُقال، فإنني عجزتُ عن قول أي شيء حقيقي آخر. هذا ما أبعد كلامنا كله عن الأشياء الحقيقية. أما ستيلا فقد ذكرتْ ثيا مرة واحدة قائلة إن معاييرها عالية إلى حد كبير على ما يبدو. وأخيراً صمتنا، كلانا، ثم نمنا. كان النوم أكثر حميمية من الكلام!

عرفت ليلة تشبه هذه، بعد سنين كثيرة، على سفينة مزدحمة مبحرة من بالما دي مالوركا إلى برشلونة. كانت المقصورات ممتلئة فنمت على سطح السفينة الذي كان مزدحماً بمن يطلقون عليهم اسم «الناس البسطاء»... عمّال في سترات قطنية خشنة، وأسر كاملة، وأطفال ترضعهم أمهاتهم، وفتيات شابات حسّاسات رحن يتقيأن في البحر، ومغنون يعزفون الكونسرتينا، وأشخاص كبار في السن جالسون فوق البضائع المحمولة على سطح السفينة، كأنهم موتى، أو كأنهم غارقون في أفكارهم مدلون أقدامهم وبطونهم الكبيرة. ليلة حزينة، رطبة، تطوف فيها شذرات من هباب الفحم ناتجة عن الوقود الرخيص. كان ضابط نحيل في ملابسه البيضاء يسير متخطياً الأجساد المستلقية على ذلك السطح. شاركتني معطفي شابة من تكساس. كانت صريحة فأخبرتني أنها كانت تبحث عن أي شخص

أميركي في هذا الحشد الأجنبي. وهكذا رقدت قريبة مني طيلة الليل؛ وفي برد الفجر القارس عندما سقط ضوء الشمس المترجرج الوردي علينا، ذكّرتني كثيراً بستيلا.

شهدت ذلك الفجر في زحام سطح السفينة الإسبانية؛ وشهدت هذا الفجر في بياض بزوغ الشمس الدخاني وفي سكون الجبال التي ذكّرني صمتها بصخب سطح السفينة، مثلما يسود الصمت بعد تصادم سيارتين... وهنا وهناك، كان صرصار مدرع نحيل لا يزال يحاول أن يغني. هبط البرد الرمادي الأخضر من الصخور فامتزج بدخان متصاعد من القرية. رائحة فحم الخشب، رائحة الألفة نفسها، رائحة الترحيب بيوم جديد لدى بعض الناس، كانت آخر مسحة من الغربة بالنسبة إليّ. وقفت ستيلا ملتفة بالبطانية وحاولت النظر إلى قاع أسفل الجرف. ارتجفت معدتي لمشهد ذلك العمق.

أتى بعض الهنود وعدّلوا وضعية السيارة. دفعت بيزو واحداً لكل منهم. وعندما تحركت السيارة في المنحدر، بدأ المحرك يعمل من جديد فمضينا إلى كويرنافاكا حيث استأجرت لها سيارة تأخذها إلى مكسيكو سيتي وأعطيتها كل ما لديّ من دولارات. قالت إنها ستعيد هذه النقود عن طريق مصرف ويلز فارغو، وجرى بيننا كل ذلك الكلام عن تسديد الدين، كلام يصعب كثيراً أن يعطيه المرء طبيعة واضحة. لم أصدّقها، لكن المال كان الموضوع الوحيد الذي نستطيع الحديث فيه الآن. ما كان الامتنان كل ما أحسّت به، أنا واثق من هذا... لكن، وبما أن لديها شيئاً من الامتنان تستطيع التعبير عنه، فقد اكتفت به ولم تتحدث عن شيء آخر. لكنها قالت لي: «ألن تأتي لرؤيتي ذات يوم؟».

«سآتي بالتأكيد». وقفنا ننتظر السيارة في الشمس. كنا إلى جانب السوق، عند الزهور؛ وقفنا حيث كانت حجارة الأرض زلقة لكثرة الزهور التي سقطت عليها... أحسسنا بملمس الزهور المسحوقة تحت أقدامنا. كانت أكشاك القصابين في مواجهتنا وقد تدلت من خطاطيفها أمعاء وأحشاء وذبائح كاملة حطت عليها أسراب من الذباب كأنها نتف من سحابة اصطدمت بجدار أحمر. وتحت واحد من ألواح تقطيع اللحم قرفص طفل عار، وسرعان ما ظهر من تحته لون البراز الغريب. سرنا بطيئاً حول المنصة الحديدية الواسعة، كان سقفها الزجاجي مرتفعاً عالياً فوق ركام من الأواني واللحم والفلفل والموز والسلال وأزهار الأوركيد وفوق الصوت الكهربائي المرتفع اللامع الغاضب القاسي، صوت الحب الجارف، طنين الحب البري الصادر عن ذبابات زرقاء وخضراء. كأن ذلك كان بركة ضخمة هائجة تمتص حبال ضياء الشمس كلها.

جاء سائق السيارة. وتأكدت ستيلا مرة أخرى من أنني سجّلت اسم وكيلها المسرحي الذي يعرف دائماً أين يمكن العثور عليها. قبّلتني... أثارت شفتاها إحساساً مجهولاً على جانب وجهي فسألت نفسي عن الغلطة التي أوشك على ارتكابها الآن. ثم تحركت السيارة

بطيئاً في زحام السوق، وسرت إلى جانبها ممسكاً بيدها عبر النافذة المفتوحة. قالت لي: «شكراً لك. لقد كنت صديقاً حقيقياً».

أجبتها: «حظاً طيباً يا ستيلا... حظاً أفضل!».

«لو كنت مكانك فلن أتركها تقسو عليَّ كثيراً».

ما كنت أعتزم تركها تقسو عليّ، هكذا فكرت وأنا ذاهب إلى مواجهة ثيا وإلى الكذب عليها. لم أشعر حقيقة بوخز الكذب الذي كنت مستعداً له. عدت إليها مفكراً في أنني صرت الآن أكثر وفاء لها من قبل؛ وهذا ما أقنعني بأن صدق ما سأقوله أكثر من كذبه. لم أتوقع أن أشعر بالسوء مثلما شعرت عندما رأيتها في الحديقة جالسة بالقرب من شجيرة تحمل الآن ثماراً شمعية حمراء. كانت في تلك القبعة المثقبة، ومستعدة للانطلاق إلى شليبانزينغو. وكنت أنا مستعداً للانطلاق فوراً... إذا تركتني أذهب معها. أردت العودة إليها مثلما كانت، أردتها كثيراً. لكني قررت الآن أن من الأفضل ألا أذهب. استقر تفكيري على أنني تنازلت حتى الآن كثيراً، بل أكثر مما يجب، تجاه هذه النشاطات الغريبة، بل حتى تجاه النسر؛ أحسست أن لا بد لي من التوقف، وأنه لا يجوز أن أتعامل هذا التعامل العادي مع كل شيء غريب يحدث كأنني رأيته مرات كثيرة من قبل. لكني كنت ماضياً صوب المستقبل بسرعة زائدة كثيراً.

قالت بطريقة فظة: «إذن! ها أنت هنا. ما كنت أعرف أنك ستعود. ظننت أنك ستظل هناك. وأظن أنني كنت أفضّل هذا».

«لا بأس، لا تتكلمي بهذه العمومية. قولي ما تريدين قوله».

تكلمتْ بطريقة مختلفة؛ أحسست بالأسف لأنني طلبت ذلك منها.

قالت كأنها تبكي، بفم مرتجف: «لقد انتهى أمرك... انتهى أمرك! انتهى كل شيء يا أوجي. لقد أخطأنا. أنا أخطأت».

«لا تندفعي هكذا! انتظري من فضلك! واحدة فواحدة. إذا كان ما يزعجك هو أنني وستيلا قد...».

«أمضيتما الليلة معاً».

«كان علينا أن نفعل ذلك. لكن هذا لأنني أخطأت الطريق؛ هذا هو السبب».

«أوه، من فضلك. كفَّ عن هذا، لا تقل هذا الكلام! يسمّمني أن أسمعك تقول هذا». قالت هذه الكلمات بتعاسة لم تستطع السيطرة عليها. كانت نظرتها متقزّزة كثيراً.

بقيت مصراً: «ماذا؟ إنها الحقيقة. ماذا تقصدين؟ لا يجوز أن تكوني غيورة هكذا. لقد تعطلت السيارة في الجبال».

«كدت لا أستطيع مغادرة السرير هذا الصباح. والوضع أسوأ الآن؛ إنه أسوأ. لا تقصّ عليّ هذه الحكاية. لا أستطيع احتمال الحكايات».

قلت لها ناظراً إلى الحجارة المغسولة حديثاً حيث كانت أشعة الشمس تتناثر وتبرد، حيث كان لون أخضر كأنه المخمل: «إذا كنت لا تستطيعين تجنب هذه الأفكار، ولا تستطيعين إلا أن تعذّبي نفسك بها، فإن أحداً لا يستطيع مساعدتك».

قالت: «أتمنى لو أن المشكلة كانت مشكلتي وحدي».

لا أدري كيف جعلتني هذه الكلمات أتصلّب تجاهها: «بل هي مشكلتك. لنفترض أن ما تفكرين فيه صحيح. لن أجد صعوبة في قوله لك بعد ما قلتيه لي عنكِ، عن رجل البحرية وغيره، عندما كنت متزوجة من سميتي. أنت تسبقينني في هذا الأمر بعض الشيء». احمرَّ وجه كل منا تحت وقع نظرات الآخر.

«لم أتوقع أن يعود ما قلته لك فيرتد عليَّ بهذه الطريقة». قالت هذه الكلمات بطريقة مضطربة فجعلني ارتجاف صوتها أحس قشعريرة تشبه الجليد السميك الموحل على شاطئ بحري في أول أيام الصقيع. «ولم أظن أن هنالك سجلاً يتعيَّن عليَّ الانتباه إليه».

بدت في حالة سيئة جداً بتلك النظرة من عينيها السوداوين، نظرة متوهجة أكثر منها ودية؛ صار شحوب وجهها شديداً، وبدا منخراها كأنهما يتلقيان شيئاً من ذلك الاشمئزاز، كأنهما يشمّان رائحة السم الذي تنطق به. بدت الحيوانات، وأشياء الحيوانات، والكراسي الجلدية، والأفاعي في صناديق القش برؤوسها المشعثة وبرؤوسها القرنية، بدا ذلك كله كأن لديه سبباً يجعله بليداً عديم الجدوى قاسياً، أو يجعله في حالة فوضى، يجعله يضجّ صاخباً عندما تكون ثيا في حال سيئة. أما هي نفسها فبدت متعبة متشنجة العنق متهدلة الكتفين. حتى رائحتها لم تكن كعادتها. كانت تكتنفها كلها غيرة مخيفة فظيعة؛ كانت تريد، بل تحتاج، أن تؤذيني.

ظننت، لسبب ما، أن هذا الأمر سيمرّ سريعاً. لكني كنت أرتجف أيضاً في الوقت ذاته. قلت لها: «ألا تستطيعين حتى تخيّل أن شيئاً لم يحدث بيننا؟ وأنت تفترضين أننا مارسنا الحب أيضاً لأننا كنا معاً طيلة الليل».

«حسن، قد يكون هذا غير منطقي. لكن، سواء كان منطقياً أم لا، فهل تستطيع أن تقول لي إنّ شيئاً لم يحدث حقاً؟ هل تستطيع؟».

كنت موشكاً، ببطء، على قول ذلك لأنه كان أمراً ضرورياً (انتابني إحساس فظيع لأنني كنت أرتدي وجهاً كاذباً حتى قبل أن أغسل رائحة ستيلا عني)، لكن ثيا أوقفتني.

قالت: «لا، لا تقل شيئاً! لن تفعل إلا تكرار الكلام نفسه. أعرف هذا. لا تطلب مني أن أتخيل أي شيء. لقد تخيّلت كل شيء بالفعل. لا تتوقع مني أن أكون سوبر بشرية. لن أحاول أن أكون كذلك. الأمر مؤلم كثيراً منذ الآن؛ مؤلم أكثر بكثير مما ظننت أنني أستطيع احتماله». لم تنفجر دموعها، لكنها ظهرت في عينيها مثلما تظهر ظلمة مفاجئة... نعم، بهذا الهدوء!

رقّت صلابتي كلها، أو ذابت، كأن حرارة مفاجئة مّستها. قلت لها: «فلنكف عن هذا يا ثيا». تقدمت منها، لكنها ابتعدت.

«كان عليك أن تبقى معها».

«استمعي إلي...».

«أنا أعني ما أقول. تستطيع أن تكون لطيفاً معي الآن. ويمكنك أن تكون معها بعد عشر دقائق، ومع عاهرة أخرى بعد خمس عشرة دقيقة. أنت لا تستطيع الامتناع عن هذا. كيف تعرّفت على هذه الفتاة؟ هذا ما أريد معرفته».

«كيف؟ كانت مع أوليفر، عند مولتون».

«ولماذا لم تطلب المساعدة من صديقك مولتون؟ لماذا تطلبها منك أنت؟ لأنك غازلتها!».

«لا! لأنها أدركت أنني شخص متعاطف. وهي تعرف كيف كنت معك. لا بد أنها رأتني قادراً على فهم حالة امرأة تعاني مشكلة بأسرع مما يفهمها أحد غيري».

«إنها الكذبة السهلة التي تقولها دائماً. لقد اختارتك لأنك تبدو طيّعاً كثيراً ورأت أنها قادرة على فعل ما تريده بك».

أجبتها: «أوه، لا، إنك مخطئة. كانت في حالة سيئة فقط. وقد أحسست بحالتها». لكني تذكرت طبعاً، عندما كنا في أجمة البرتقال، ذلك الإحساس بشيء سرى في جسدي، في أماكن حساسة... إحساس ما كنت قادر على إيقافه. من الواضح أن ثيا تعرف شيئاً عن هذا أيضاً؛ لقد أدهشتني. عندما كنا في شيكاغو، توقعت ثيا أنني سأذهب من أجل امرأة أخرى تسعى إليّ. لو أنها فقط لم تصفني لنفسي بهذه الطريقة القاسية إلى حد لا يعرف الشفقة! لكنني فكرت، هناك، في شيكاغو، في أنني سعيد جداً لعدم حاجتي إلى إخفاء أي سر عنها. أما الآن، فإن هنالك نوعاً قاتماً من التراجع عن هذا السرور... كأن بقاء المرء من غير أشياء يخفيها أمر قاتل. قلت: «لقد أردت حقاً أن أساعدها».

صاحت ثيا: «ما الذي تتحدث عنه... مساعدتها؟ لقد اعتقلت الشرطة الرجل لحظة ذهابكما».

فاجأني هذا: «أوه، أوليفر؟ اعتقلوه؟ أظن أنه ما كان يجب أن أستعجل إلى هذه الدرجة. لكنني كنت خائفاً من أن يجرَّها معه. خفت لأن لديه مسدساً، ولأنه ضرب لوي فو... لقد أصبح عنيفاً، وظننت أنه سوف يجبرها على...».

«يجبرها؟... ذلك الأبله السكير البائس الضعيف الغبي! يجبر تلك الفتاة؟ كيف أجبرها من قبل؟ لم تستلقِ في سريره تحت تهديد المسدس، أليس كذلك؟ إنها عاهرة. لكنها لم تحتج وقتاً طويلاً حتى تكتشف حقيقتك، حتى تعرف أنك تخشى أن تُخيّب توقّعاتها، تخشى ألا تكون الرجل الذي أرادتك أن تكونه، تخاف ألا تلعب لعبتها. أنت تلعب لعبة أي شخص!».

«أنت غاضبة هكذا لأنني لا ألعب لعبتك دائماً. نعم، أظن أنها فهمتني. لم تأمرني بفعل هذا! لقد طلبت مني أن أفعله. لا بد أنها رأت مقدار ضجري من أن يقول لي الآخرون ما أفعله...».

جعلها هذا الكلام تنظر إليّ بطريقة أشد ازدراء وقَرَفاً، كأنما أصابتها موجة جديدة من هذا القرف. أمسكت شفتها لحظة بأسنانها، ثم قالت: «لم تكن لعبة. أرى أنك تعتبرها لعبة. لا بأس، لم تكن لعبة، كانت أمراً حقيقياً. كانت أمراً حقيقياً إلى أقصى ما أستطيع. لعلها بدت لك لعبة. أظن أنها كانت كذلك. وربما ما كنت لتقبل شيئاً مختلفاً».

«إننا لا نتكلم عن الشيء نفسه. لست أتحدث عن الحب. إنها الأشياء الأخرى التي تهتمين بها هذا الاهتمام كله».

«أنا... هذا الاهتمام كله؟» قالت ذلك بفم جاف ووضعت يدها على صدرها.

«كيف تستطيعين الظن أنك لست كذلك... النسر، والأشياء الأخرى، والأفاعي، والذهاب إلى الصيد كل يوم».

لقد جرحتها من جديد.

«ماذا؟ هل كنت تسايرني فقط؟ هل كنت تسايرني في ما يتعلق بالنسر؟ ألم يكن ذلك يعني شيئاً عندك؟ هل كنت تفكر طيلة الوقت في أنني غريبة الأطوار فحسب؟».

أحسست عند ذلك بفداحة ما فعلته بها كلماتي؛ ولذلك حاولت تلطيف الأمر. قلت لها: «ألم يخطر في بالك يوماً أن هذه أشياء غريبة، غير مألوفة؟ حتى للحظة واحدة؟».

جعل هذا السؤال حنجرتها تتوتر، ما كانت الدموع التي ظهرت في عينيها قبل قليل

تعادل شيئاً بالمقارنة مع هذا التوتر. قالت: «هنالك أشياء كثيرة تبدو شاذة في نظري أيضاً. بل هنالك أشياء تبدو لي أكثر غرابة مما أبدو عليه في نظرك. عندما أحببتك، لم يكن ذلك غريباً في نظري على الإطلاق. أما الآن فقد بدأت تبدو غريباً مثل أشياء كثيرة أخرى. قد أكون عجيبة، غريبة الأطوار، لأنني لا أعرف إلا هذه الطرق الغريبة في فعل الأشياء بدلاً من الاكتفاء بالطرق المعتادة وبدلاً من فعل شيء زائف. وهذا ما جعلك متساهلاً معي»... كنت صامتاً، وأدركت أن الحق معها من هذه الناحية. لم أستطع احتمال مقدار معاناتها. ولم أكن واثقاً بعض الأحيان من أنها سوف تستطيع نطق الكلمة التالية لأن حنجرتها كانت تمسك أصوات كثيرة أخرى، تؤخر ظهورها... «لم أطلب منك هذا، أبداً! لماذا لم تعبّر عن حقيقة شعورك؟ كان يمكنك أن تخبرني. كنت تستطيع إخباري. لم أكن أريد أن أبدو غريبة الأطوار في نظرك».

«لم تكوني كذلك، لم تكوني كذلك أبداً. لا، لستِ كذلك».

«أظن أنك لم تخبر أحداً بأي شيء. لكنك ما كنت مضطراً إلى التصرف معي مثلما تتصرف مع أي شخص آخر. وكان يمكنك أن تفعل ما لا تستطيع فعله مع أي شخص آخر. أهنالك شخص واحد في العالم كله يمكنك أن تكون معه هكذا؟ أيمكنك أن تقول ما بنفسك؟ نعم، أظن أن الحب يأتي بأشكال غريبة تظن أن الغرابة عذر لك. لكن لعل الحب يمكن أن يكون أمراً شاذاً غريباً بالنسبة إليك بصرف النظر عن كيفية حدوثه؛ بل لعلك لا تريده، فحسب. في تلك الحالة... إنني مخطئة لأنني ظننت أنك تريده. أما أنت فلا تريده، أليس كذلك؟».

«ما الذي تريدين فعله بي؟ أتريدين حرقي؟ هذا فقط لأنك شديدة الغيرة والغضب...».

«نعم، إنني أشعر بالغيرة. أشعر بالقرف والإحباط، وإلا لما فعلت هذا. أعرف أنك لا تستطيع فهم الأمر، لكني محبَطة. لست في حالة غيرة فقط. عندما جئت إلى غرفتك في شيكاغو وكانت عندك فتاة، ثم ذهبت لرؤيتي. لم أسألك أولاً إن كنت تحبها أم لا تحبها. كنت أعرف أن هذا لا يمكن أن يكون شديد الأهمية. لكني رأيت أن عليَّ أن أحاول، حتى لو كان شيئاً مهماً. كان الإحساس بالوحدة طاغياً كما لو أن العالم مليء بالأشياء لكنه خالٍ من البشر. أعرف أنني...» قالت هذا فأحزنتني أكثر من ذي قبل... «أعرف أنني مجنونة قليلاً». قالت هذه الكلمات بصوت أجش وبنبرة منخفضة... «لا بد أنني مجنونة؛ عليَّ الاعتراف بهذا. لكني ظننت أنني إذا استطعت النفاذ إلى شخص آخر فقد أتمكن من النفاذ إلى أشخاص آخرين. وهكذا فإن الناس لن يرهقوني، ولن أكون خائفة منهم. هذا لأن مشاعري ليست نتيجة خطأ من الناس، ليس إلى هذه الدرجة. إنهم لا يصنعون تلك المشاعر. نعم، لقد صدَّقت أنك الشخص الذي يستطيع أن يفعل هذا من أجلي. وقد كنتَ

قادراً على فعل هذا. كنت في غاية السعادة لأنني وجدتك. ظننت أنك تدرك كل ما أنت قادر على فعله وأنك محظوظ جداً ومتميز جداً. هذا هو الشيء المختلف عن الغيرة. لم أكن أريد عودتك. وأنا آسفة لأنك هنا الآن. أنت لست متميزاً. أنت مثل أي شخص آخر. تتعب بسهولة. لم أعد أريد رؤيتك بعد الآن».

نكست رأسها. كانت تبكي. سقطت القبعة عنها وظلت معلقة بخيطها. أحسست أن شيئاً قاسياً أطبق على صدري مثلما يعلق سنجاب مريض في مدخنة، في ذلك الدخان الحريريّ المترجرج؛ كان إحساساً صادماً، مخيفاً. حاولت الاقتراب من جديد، لكنها انتصبت ونظرت مباشرة في وجهي، ثم صاحت: «لا أريدك أن تفعل هذا! لا أريد! لا أستطيع السماح لك. أنت تظن أن هذا الشيء أو ذاك، أو غيره، قابل لأن يتغاضى المرء عنه؛ لكني لست مثلك».

مضت وتجاوزتني ذاهبة صوب الباب، ثم توقفت: «إنني ذاهبة إلى شليبانزينغو». قالت هذه الكلمات وقد توقف بكاؤها.

«سوف أذهب معك».

«لا، لن تذهب. لن تكون هنالك ألعاب أخرى. سوف أذهب وحدي».

«وماذا أفعل أنا؟».

«لا تسألني. عليك أن تعرف ذلك بنفسك».

قلت: «لقد فهمت».

صرت في الغرفة أجمع أغراضي، أحترق، أبكي وأصيح صيحات لم تستطع أن تجد لها مخرجاً لأنني كنت مختنقاً. تراكمت في داخلي صخورٌ من الإشفاق عندما رأيتها نازلة في اتجاه الساحة ومن خلفها سار جاسينتو حاملاً الحقيبة. كانت ذاهبة على الفور. أردت أن أصرخ بها، «لا تذهبي!» مثلما صرخت بي آخر مرة في الساحة؛ وددت أن أقول لها إنها ترتكب غلطة كبيرة. لكن ما كنت أدعوه غلطتها، في غمرة انفعالي، كان هجرانها لي. هذا ما جعلني أرتجف عندما حاولت أن أناديها. لا يجوز أن تتركني! جريت مجتازاً البيت حتى أناديها من فوق جدار حديقة المطبخ. كان في مظهري شيء أخاف الطباخة عندما رأتني فحملت طفلها وجرت هاربة. وسرعان ما ملأني الغضب، مثلما ملأني الحزن... خنقاني معاً. فتحت باب الحديقة وأسرعت صوب الساحة قافزاً. لكن السيارة ما عادت هناك. استدرت ورفست باب البيت فانفتح؛ رحت أبحث عن شيء أهاجمه، أحطّمه. هجمت على حجارة الحديقة أقتلعها وأقذف الجدار بها. مضيت إلى غرفة المعيشة فحطمت الكراسي وأواني الزهور، مزقت الستائر واللوحات. ثم وجدت نفسي في الشرفة الأخرى

فرحت أركل سلال الأفاعي وأحطمها، وأقلبها، ثم وقفت أنظر إلى رعب تلك الوحوش التي اندفعت في كل اتجاه باحثة عن شيء تختفي تحته. رفست علب الأفاعي تلك... قلبتها كلها.

ثم حملت حقيبتي وخرجت. نزلت إلى الساحة ودموع تختنق في صدري.

كان مولتون على شرفة مطعم هيلاريو. لم أر غير وجهه ظاهراً من فوق لافتة المطعم. نظر إلى الأسفل. هو... إنه عرّاب هذا الدمار!

«أهلا يا بولينغبروك، أين الفتاة؟ أوليفر في الحبس. اصعد! أريد أن أتحدث معك».

«لم لا تذهب إلى الجحيم؟».

لم يسمعني.

قال: «لماذا تحمل حقيبة؟».

مضيت ورحت أجوب البلدة. صادفت إيغي في السوق. كانت معه ابنته الصغيرة.

«من أين أتيت؟ لقد اعتقلوا أوليفر الليلة الماضية».

«أوه، اللعنة على أوليفر!».

«من فضلك يا بولينغبروك، لا تقل كلمات سيئة أمام الطفلة».

«لا تناديني باسم بولينغبروك بعد الآن».

لكني مشيت معه، رغم ذلك؛ أما هو فقد كان ممسكاً بيد الصغيرة. رحنا نظر إلى الأكشاك، وأخيراً اشترى دمية للطفلة.

بدأ يحدثني عن مشكلاته. لقد انتهت علاقة زوجته السابقة بجيبسون، فهل يتزوجها من جديد؟ ما كان عندي شيء أقوله، لكني أحسست بعينيَّ تشتعلان عندما نظرت إليه.

قال: «لقد ساعدت سيتلا على الهرب، أليس كذلك؟ أظن أنك فعلت الصواب. لماذا تعرّض نفسها للاعتقال بسببه. يقولون إنه كان يصرخ في السجن الليلة الماضية ويقول إنها هربت وتركته».

وعند ذلك رأى حقيبتي للمرة الأولى فقال: «أوه، أوه، إنني آسف يا رجل! هل طُردت؟».

أجفلت، وانقبض وجهي، ثم أشرت إشارة بكماء وانفجرت باكياً.

الفصل التاسع عشر

هربت الأفاعي؛ أظنها هربت إلى الجبال. لم أعد إلى كازا ديسكويتادا لكي أتأكد من ذلك. أخذني إيغي إلى غرفة في الفيلا حيث يعيش. ظللت بعض الوقت لا أفعل شيئاً: أستلقي فقط في تلك الزنزانة الحجرية الدافئة الصغيرة في أعلى البيت. تصعد حتى تنتهي الدرجات، ثم تتابع الصعود على سلم. استلقيت هناك، على السرير المنخفض. وبقيت أياماً؛ كنت شبه مريض. لو جاء تارتوليان إلى نافذة الجنة حتى يستمتع بمنظر الذين حلت عليهم لعنة العذاب (قال إنه سيفعل هذا)، فقد تقع أنظاره على ساقيّ الممَدَّتَيْن في ضوء الشمس. هكذا كان إحساسي.

كان إيغي يأتي ليبقى بصحبتي. وكان في الغرفة كرسي منخفض يجلس ساعات عليه من غير أن يقول كلمة واحدة. يضغط بذقنه إلى الأسفل فتبدو رقبته منتفخة. كان يحزم أسفل فردتي بنطلونه برباطي حذائه المكسيكي مثل يفعل راكب الدراجة حتى لا تعلق أطراف البنطلون بالسلسلة. هكذا كان يجلس مطرق الرأس فأرى أجفان عينيه الخضراوين محمرّة ملتهبة. يُقرع جرس الكنيسة من حين لآخر؛ صوت يأتي ويذهب كأن شخصاً يسير حاملاً ماء صافياً نظيفاً في دلو بائس فيترجرج ذلك الماء وينسفح على الحجارة. يدرك إيغي أنني في أزمة؛ لم يكن يحب أن يتركني وحيداً. لكنه يدير ظهره صوبي إذا حاولت النطق بأي شيء ولا يقبل كلامي حتى بعد أن يشجعني بنفسه على الكلام. أخبرته كل شيء بالطبع، لم أكتم شيئاً! أحسست عند ذلك بأنه غطى وجهي بكفَّيْه ولم يسمح لي بقول المزيد. أقلعت عن الكلام بعد أن خنقني هكذا عدة مرات. قلت بنفسي إنه آت حتى يظهر الرحمة تجاهي، وإنه يبقى عندي هذا الوقت كله حتى يتأكد من اختناقي. كان ينتقم منّي على نحو غامض، ويشفق عليَّ في الوقت نفسه.

لكنه كان يجلس عند ذلك الجدار النظيف الذي تسقط عليه أشعة الشمس من فوق الحافة المرتفعة التي تحط عليها الحمامات بأقدامها الحمر فتثير الغبار ويتطاير القش في الهواء من حولها. كان إيغي يلصق خده بجص ذلك الحائط أحياناً.

أعرف أنني أخطأت. عندما أرقد وأفكر في الأمر أحس كأن عينيَّ تتجولان باحثتين عن مخرج. حدث شيء ما لقدرتي على النسيان، أصابها الشلل! جاءت أغلاطي وخطاياي من كل الجهات وحاصرتني. كانت تقرضني قرضاً ثم تنفجر من جسدي عرقاً، ثم تعود، أو ترى أن من العبث أن تعود.

كنت أحاول من جديد، أحياناً، فأقول: «إيغي، ما الذي أستطيع فعله حتى أبرهن لها أنني أحبها؟».

«لا أعرف! لعلك غير قادر على إثبات حبها لأنك لا تحبها».

«لا يا إيغي! كيف تستطيع أن تقول هذا؟ ألا تفهم الأمر؟».

«لماذا ذهبت مع تلك الفتاة إذاً؟».

«كان ذلك نوعاً من الثورة على شيء ما. كيف لي أن أعرف السبب؟ لست من اخترع البشر يا إيغي!».

«أنت لا تعرف شيئاً عن الثمن بعد يا بولينغ! إنني حزين من أجلك، إنني حزين! لكن، كان من الضروري أن يحدث لك هذا قبل أن تصل إلى شيء. كان حظك طيباً دائماً. لكن، لا بد لك أن تسقط وتتلقى ضربة كهذه. لو لم يحدث هذا لك لما فهمتَ أبداً كم آلمتها. عليك أن تعرف هذا وألّا تكون عابثاً إلى هذه الدرجة».

«إنها غاضبة كثيراً. لو كانت تحبني لما غضبت هكذا. لا بد أن لديها سبباً يجعلها تغضب هذا الغضب كله».

«أنت الذي أعطاها السبب».

لا جدوى من الجدل مع إيغي! فاستلقيت صامتاً ورحت أجادل ثيا وأتوسل إليها، لكني كنت أخسر ذلك الجدال أكثر فأكثر. لماذا فعلت ذلك؟ لقد جرحتها كثيراً؛ أعرف هذا. أستطيع رؤية الأمر بوضوح شديد مثلما أستطيع رؤيتها تقول، شاحبة مبيضّة، وقد توترت حنجرتها، «لقد خاب أملي!» أردت أن أقول لها: «لا بأس يا حبيبتي؛ استمعي إليّ! بالطبع، يمكن أن يصاب أي شخص بخيبة الأمل في وقت ما. لكنك تعرفين هذا. يتعرض كل امرئ للألم، ويسبب كل امرئ بعض الألم لغيره. في الحب خاصة! لقد سببت لك هذا الألم. لكني أحبك. وعليك أن تصفحي عني حتى نستطيع أن نستمر».

كان عليَّ أن أجرّب حظي مع الأفاعي في الجبال الحارة، وأن أزحف خلفها حاملاً الأنشوطات، وأن أزحف على التراب البني، هناك، في الأعلى بدلاً من التسكع في هذه البلدة التي أصابها الدوار، حيث تكون الأشياء أكثر خطراً.

كانت صدمة شديدة لها عندما صارحتها بنظرتي إلى اهتمامها بالصيد. لكن، ألم تحاول هي أيضاً أن تلقيني أرضاً وأن تسحقني بهجومها عليَّ قائلة إنني شديد الطيش، غير جدير بالثقة وإنني أنظر إلى النساء دائماً، وإنني معدوم الضمير؟ هل كان صحيحاً ما قالته من أن الحب سيبدو شاذاً غريباً بالنسبة لي مهما يكن شكله، حتى إذا لم يكن هنالك نسور وأفاعي؟

فكرت في هذا، وأدهشني مقدار ما فيه من الحقيقة. ماذا إن كان الأمر هكذا؟ كنت أتخذ جانب أمي دائماً عندما يتعلق الأمر بالحب فأقف على النقيض من الجدات لوش، ومن السيدات رينلينغ، ومن كل لوسي ماغنوس في هذا العالم الفسيح.

إذا لم يكن عندي مال، ولا مهنة، ولا واجبات، فهل يعني هذا أنني أستطيع أن أكون حراً وأن أكون تابعاً مخلصاً للحب؟

أنا!... خادم للحب! لست هكذا أبداً!.. وفجأة، أحسست ببشاعة قلبي، قرفت من نفسي. رأيت أن محاولتي أن أظل إنساناً بسيطاً ليست إلا نوعاً من الخداع، أحسست أنني لست طيب القلب أبداً، ولست صافي العاطفة. وصرت أتمنى أن تأتي إليّ المكسيك القائمة خلف هذه الجدران حتى تقتلني، وأن يُلقى بي في غبار عظام الميتين بين الصلبان المعوجَّة المدببة في المقابر حتى تأكلني الحشرات والسحالي.

لقد بدأتُ الآن؛ وكان لا بد من هذه الاستقصاء الفظيع أن يستمر. إن كنت هكذا، فمن المؤكد أنني لا أبدو على هذا الشكل، من المؤكد أن حقيقتي سرٌ أخفيه. عندما أريد أن أثير سروراً في نفس شخص فإنني أفعل هذا حتى أضلله، أليس كذلك؟ ألست أفعل هذا الآن؟ ولا بد أنني أفعل هذا لأن لدي فكرة تقول إن الجميع أفضل مني، وإن لدى الجميع شيئاً لا أملكه. لكن، كيف أرى الناس أصلاً؟ هل أراهم شيئاً غريباً رائعاً؟ لم أرد أن أكون ما جعلوني أكونه، لكنني أردت أن أبعث السرور في أنفسهم! هل هذا شرح ملطَّف؟ هل أنا صاحب قدرٍ مستقل؟... ماذا عن الحب أيضاً؟ يا للتشوش!

لا بد أن أكون وحشاً حتى أصل إلى هذا التشوش.

لكن لا!... لا يمكن أن أكون وحشاً وأن أعاني في الوقت نفسه! سيكون هذا غير منصف أبداً! لا أصدقه!

ما كان صحيحاً الظن بأن كل امرئ يملك قدرة أكبر على الوجود. لماذا؟ انظر الآن!

الأمر واضح تماماً... واضح أنه ليس هكذا بل مجرّد تخيّلات، مجرد مبالغات عن كيفية نظر الآخرين إلي؛ إنه مجرد سوء فهمك الذي يجعلك تظن الناس يحبونك لسبب غير موجود عندك، أو يكرهونك لسبب غير موجود عندك. يأتي هذا وذاك نتيجة غلط، نتيجة كسل. ليست المسألة أن تكون مهتماً حقاً، بل هي أن عليك أن تعرف كيف تهتم وكيف تفهم ما هو سارّ أو مزعج فيك. لكن، أتظن أن كل وافد جديد يكون معنياً بالأمر؟ أتظنه يراقبك؟ لا! وهل يهمك أن يبادلك أي امرئ ما تُظهِره من رعاية أو اهتمام؟ أبداً، على الإطلاق! هذا لأن أحداً لا يستطيع في الأصل أن يكشف عن حقيقة نفسه من غير أن يكون لديه إحساس بافتضاح أمره، إحساس بالخجل أو بالعار، وهو لا يستطيع أن يكون مهتماً حقاً بينما ينشغل ذهنه بهذا كله، عندما يرى أن عليه أن يبدو أفضل من أي شخص آخر وأقوى من أي شخص آخر... هذا جنون! وهو، لا يشعر خلال ذلك بقوة حقيقية في نفسه بل يغشّ غيره، ويغشه غيره؛ يتكلون على الغش لكنهم يظلون مصدّقين، يظلون مؤمنين على نحو غريب شاذ بقوة الأقوياء. خلال هذا الوقت كله، لا يكون مسموحاً لأي شيء أصيل بأن يظهر، ولا يعرف أحد ما هو الشيء الحقيقي. هؤلاء هم بنو البشر المشوّهون، المتفككون، المظلومون... إنها الطبيعة البشرية فحسب!

عندما يتجول الجميع من حولك؛ عندما يبدون قادرين، مصممين على أهدافهم، عندما يبدون أقوياء جميلين، فهل تستطيع أن تسمح لنفسك بأن تبدو ضعيفاً فقيراً أعرج، أن تبدو مخلوقاً سخيفاً تافهاً ضاحكاً لا خطر منه؟ لا! عليك أن ترسم الخطط في سرّك حتى تبدو بشكل مختلف. عندما تكون الحياة الخارجية هائلة إلى هذا الحد، وتكون أدواتها ضخمة مخيفة، عندما يكون الأداء عظيماً قوياً إلى هذا الحد، وتكون الأفكار ضخمة مخيفة، فإنك تنتج من نفسك شخصاً يستطيع مواجهة هذا كله. إنك تخترع رجلاً يستطيع أن يصمد أمام هذه الظهورات المرعبة. وهكذا، لا يستطيع هذا الرجل الحصول على العدالة، ولا يستطيع إعطاء العدالة، لكنه يستطيع العيش. هذا ما تفعله البشرية دائماً، البشرية المحض! إنها مؤلفة من هؤلاء المخترعين، أو الفنانين، ملايين وملايين منهم، كلٌّ يحاول بطريقته أن يوظف الأشخاص الآخرين حتى يلعبوا دوراً مسانداً له، حتى يدعموه في ما يريد جعل العالم يصدّقه عنه. يستطيع كبار الزعماء والقادة توظيف عدد أكبر من الناس؛ هنا تكمن قوّتهم. هنالك صورة واحدة تنهض وتمضي إلى المقدمة حتى تقود البقية؛ وهي قادرة على أن تفرض على الآخرين زعمها أنها أصيلة وأنها تملك قوة أكثر مما يملكون... أو أن صوتها يماثل صوت الرعد ويجب أن يكون مسموعاً فوق أصوات الآخرين. ثم هنالك اختراع هائل؛ لعله اختراع العالم نفسه، واختراع الطبيعة أيضاً؛ إنه الاختراع الذي يغدو هو العالم الحقيقي الفعلي (بمدنه ومصانعه وبنياته العامة وطرقه وسدوده وسجونه وأفلامه)، يصبح حقيقة واقعة. هذا هو صراع البشرية: توظيف الآخرين لصالح نسختك أنت عمّا

هو الشيء الحقيقي. وعند ذلك يصبح كل شيء، حتى الزهور والطحالب التي تنمو على الصخور، تصبح كلها زهورَ نسختك أنت وطحالبها.

من المؤكد أنني أبدو شخصاً مثالياً للتوظيف. لكن الأشياء المخترعة ما كانت تبدو أبداً حقيقية في نظري مهما حثثت نفسي على التفكير في أنها كذلك.

مشكلتي الحقيقية هي أنني لا أستطيع البقاء محتفظاً بأكثر مشاعري نقاء. هذا ما يسبب أكبر مشكلاتي. لعل ثيا أيضاً غير قادرة على تحمل أيام سعيدة كثيرة متتالية، مثلي!... هذا ما خطر في ذهني أنه سبب البرودة التي أصابتها. لعل لديها هذه المشكلة أيضاً، خيبة أمل في الشيء الذي اختارته! في السنة الماضية، عندما كانت ميمي واقعة في مشكلة، قال لي كايو أوبرمارك إن هذا يصيب الجميع. يصاب كل شخص بمرارة وخيبة أمل في الشيء الذي اختاره. وفي آخر الأمر قد يكون الشيء المختار هو المرارة نفسها؛ هذا لأن التوصل إلى الشيء المختار يحتاج إلى شجاعة... لأنه شيء مركَّز، مكثف... والكثافة هي ما لا تستطيع البشرية الضعيفة احتماله وقتاً طويلاً. ثم إن الشيء المختار لا يمكن أن يكون شيئاً امتلكناه من قبل لأننا اكتشفنا أن ما امتلكناه بالفعل ليس مفيداً أو ليس محترماً عندنا. أوه، جعلني هذا أحس قرفاً فظيعاً... أحسست أنني كنت مغتاظاً، متوحشاً. العبيد الملعونون! الجبناء القذرون!... هكذا كنت أفكر.

أما في ما يتعلق بي شخصياً، أنا الذي لست أفضل بكثير من بعض أسوأ الناس، فقد كان اختراعي... الشيء الخاص عندي... هو البساطة! أردت البساطة ونفرت من كل ما هو مركَّب؛ وكنت في هذا ماكراً: خبَّأت أشياء كثيرة وكتمتها سراً في قلبي... كنت مبتكراً مثل أي شخص آخر! وإلا فما الذي يجعلني توَّاقاً إلى هذه البساطة؟

الشخصية نفسها أمر غير مأمون الجانب أصلاً! نوع تلك الشخصية، سماتها، هو الشيء الآمن. وهذا ما يجعل الناس كلهم تقريباً يحدِثون تشوّهات في أنفسهم حتى يسمح لهم ذلك الذعر الكبير بالوجود. هذا ليس جديداً! كان أفراد القبائل البدائية خائفون، فراحوا يسطحون رؤوسهم أو يثقبون شفاههم أو أنوفهم أو يفرمون أصابعهم أو يصنعون لأنفسهم أقنعة مرعبة، كالرعب نفسه، أو يصبغون أجسامهم، أو يضعون وشوماً. هذا كله حتى تستبق الذعر الذي لا يرحب بوجودك.

قولوا لي، كم هنالك من الأبطال الذين ينامون على الحجارة ويجبرونها على أن تكون وسائد لهم، أو يذهبون مع الملائكة ويصارعون الخوف العظيم حتى يفوزوا بالحق في الوجود؟ هؤلاء الشجعان قلة قليلة إلى درجة تجعلهم آباء لهذا الشعب أو ذاك.

أما أنا، فمن يعطيني غطاء من أجل هذا الذعر الفظيع الذي رميت نفسي فيه، من أجل برد

الفوضى القارس الذي مضيت إليه، من أجل كل عناق لا يدوم؟ ما كان في الأمر شجاعة. كنت في هذا مثل كثيرين غيري... ولا عزاء لي! إن كان هنالك كثيرون مثلي، فعليهم أن يعانوا مثلما عانيت.

لا بأس... بعد أن صرت أعرف هذا، صرت راغباً في فرصة أخرى. رأيت أن عليّ محاولة أن أكون شجاعاً من جديد. قررت أن أذهب وأن أتوسل إليها في شليبانزينغو... أو أقول لها إنني، وإن كنت رجلاً ضعيفاً، أستطيع أن أتغير شيئاً فشيئاً إذا ظلت معي.

أحسست أنني تحسنت كثيراً فور اتخاذ هذا القرار. ذهبت إلى محل الحلاقة فحلقت ذقني. ثم تناولت طعام الغداء عند لوي فو. كوَتْ لي بنطلوني واحدة من بناته. كنت منهَكاً لكنني مفعم بالأمل أيضاً. رأيت منذ الآن كيف سيشحب وجهها عندما ترفضني، كيف ستزداد عيناها ظلمة وكيف سترميني بنظرات حارقة. لكنها ستلقي بذراعيها حولي أيضاً لأنها تحتاجني دائماً. سوف تتوقف قوتها العجيبة كلها، قوتها النابعة من شكها في ما إذا كانت قادرة على الثقة بشخص ما من جديد، سوف تتوقف هذه القوة وتستقر عندي أنا.

ذبت عندما تخيلت كيف سيكون هذا؛ صار صدري حاراً، طرياً، ملتهباً، تواقاً. رأيت الأمر يحدث الآن. هكذا يحدث لي دائماً... ينطلق خيالي فيسبقني ويفتح الطريق أمامي. يبدو هذا مثل سيارة ثقيلة ضخمة، سيارة قاتمة بطيئة ثقيلة، لا تستطيع أن تبدأ حركتها في أرض لا تعرفها. أما هذا الخيال الذي عندي فإنه مثل الجيش الروماني خارجاً من إسبانيا أو من بلاد الغال... يعبّد الطرق ويبني الجدران في كل مكان حتى عندما يخيِّم لقضاء ليلة فقط.

جاءت كلبة لوي بينما كنت جالساً في بنطلوني القصير أنتظر انتهاء كيّ البنطلون. كانت كلبة بطيئة سمينة تتشمم كل شيء مثل كلبة جدتي ويني. وقفت أمامي وراحت تنظر إلي. لم تكن راغبة في أن أداعبها فتراجعت مطقطقة بمخالبها على الأرض عندما مددت إليها يدي... أظهرت أسنانها الصغيرة العجوز أيضاً. لم تفعل هذا لأنها غاضبة، بل لأنها تريد العودة إلى عزلتها. وهذا ما فعلته... إختبأتْ تحت الستارة مطلقة زفرة ضخمة. كانت في سن متقدمة كثيراً.

جاء الباص كأنه حنطور من زمن قديم. كان باص مدرسة ريفياً آتياً من الولايات المتحدة. سرعان ما صرت في الباص حاملاً تذكرتي عندما جاء مولتون وقال لي عبر النافذة: «انزل! أريد أن أتحدث معك».

«لا، لن أنزل».

قال ملحاً: «هيا! الأمر هام، من الأفضل لك أن تنزل».

قال إيغي: «لماذا لا تتركه وتهتم بشؤونك الخاصة يا وايلي؟».

كان حاجب مولتون الكبير وأنفه المسطح مكسوَّين بعرق أبيض: «هل سيكون من الأفضل أن يحدث له شيء، أن يتلقى ضربة؟» نزلت من الباص. سألته: «ماذا تقصد بهذا؟ أتلقى ضربة!».

قبل أن يفلح إيغي في التدخل (إن كان يريد أن يحاول ذلك) أمسك مولتون بيدي وشدها على بطنه الصلبة ثم وضع ذراعي كلها تحت ذراعه وأجبرني على المشي مستعجلاً بضع خطوات فوق الحجارة والقمامة الوردية.

قال لي: «عد إلى رشدك! إن تالافيرا صديق ثيا الآن يا صاحبي. إنه هناك معها في شليبانزينغو». أفلتُّ من قبضته وأوشكت على غرس أصابعي في رقبته وخنقه حتى يموت.

صاح مولتون: «إيغي! من الأفضل أن تمسكه».

أمسك بي إيغي الذي كان خلفي مباشرة.

«اتركني!».

«انتظر! لن تقتله هنا في وجود الشرطة وهؤلاء الناس حولنا جميعاً. من الأفضل أن تنصرف يا وايلي إنه كالثور!».

وددت لو ألقي إيغي إلى الأرض أيضاً. لكنه ظل ممسكاً بذراعي.

«اهدأ الآن يا بولينغ. تحقق أولاً مما إذا كان الأمر صحيحاً. بحق الله، استخدم عقلك!» كان مولتون يسير متراجعاً بينما رحت أجر إيغي المتعلق بذراعي.

قال مولتون: «لا تكن غبياً أحمق! الكلام صحيح. أتظن أنني أريد مشكلة معك؟ إنني أفعل هذا لأساعدك، حتى لا يصيبك الأذى. الوضع خطير هناك. سوف يقتلك تالافيرا».

قال له إيغي: «انظر إلى ما فعلته به! انظر إلى وجهه!».

توقفت وقلت: «أصحيح أنه ذهب معها يا إيغي؟» كان قلبي منقبضاً... لم أستطع التخلص من هذا السؤال.

قال إيغي: «لقد كان صديقها من قبل. قال لي أحد الأشخاص بالأمس إن تالافيرا ذهب إلى شليبانزينغو بعد ذهاب ثيا مباشرة».

«متى كان صديقاً لها؟».

قال مولتون: «منذ بضع سنين. ماذا تظن؟ لقد كان يعيش في فيلّتها، في كازا ديسكويتادا».

لم أعد أستطيع الوقوف على قدمَيّ بعد ذلك. استندت إلى الجدار. غطيت رأسي بكفي وبدأت أرتجف واضعاً وجهي فوق ركبتي.

كان مولتون عنيفاً معي. قال لي: «تفاجئني طريقة تلقيك هذه الأخبار يا مارتش».

قال إيغي: «كيف تتوقع أن يتلقاها؟ كفَّ عن تعذيبه!».

ردّ مولتون: «يتصرف كأنه طفل، وأنت تشجعه على ذلك. لقد حدث هذا معي، وحدث معك أنت أيضاً، وحدث مع تالافيرا أيضاً عندما أتت ثيا مع سميتي، ثم عندما أتت مع مارتش».

«لا، لم يحدث هذا. عرف تالافيرا أنها تزوَّجت».

«وما الفرق؟ إن لتالافيرا مشاعر أيضاً حتى إذا كان طائشاً لا يهمه غير ركوب الخيل. ماذا تظن؟ ألا ينبغي أن يعرف الرجل بالأمر عندما يحدث هذا له؟ ألم يكن من الواجب أن أعرف؟ ألم يكن من الواجب أن تعرف؟ هذه واحدة من الحقائق الملعونة التي لا بد من معرفتها».

«لكن الفتى لا يزال يحبها. يصيبك الجنون عندما يتحدث أحد بالسوء عن زوجتك، لكن ليس لأنك تحبها».

قال مولتون: «فليكن!... هل تحبه هي؟ ماذا كانت تفعل في الجبال مع تالافيرا بعد أن سقط مارتش عن الحصان فأصيب رأسه ورقد في البيت؟».

صحت وقد استبد بي الغضب من جديد: «لم تكن تفعل شيئاً معه في الجبال. إذا كان في شليبانزينغو الآن، فإنه في شليبانزينغو فقط؛ ولا يعني هذا أنه مع ثيا».

نظر مولتون إليَّ متظاهراً بأنه في غاية الدهشة. قال لي: «يا أخي، أراهن على أنك ترى ما يراه أي امرئ آخر بالضبط، لكنك تظل متمسكاً برأيك رغم ذلك. لماذا لم تقل لك إنه كان صديقها؟ فماذا كانا يفعلان؟ أتظن أنهما كانا يتناقشان فحسب؟ أتظن أنها لم تستسلم له؟».

«لم يحدث شيء. لا شيء! إذا لم تتوقف عن هذا الكلام فسوف أضع واحداً من هذه الحجارة في حلقك؟».

لكنه كان قد غضب أيضاً، وكان يهم بالذهاب. لم يكن يعبث بي... كان يعتزم أن يفعل شيئاً. رأيت عينيه مفتوحتين على اتساعهما. كان يحدِّق فيَّ؟

«سيء جداً يا صديقي؛ لكن النساء لا يملكن شيئاً من حسن التقدير. لسن من أجل

الشباب المرحين مثلك فقط. بماذا تراهنني على أنها خلعت ثيابها من أجله وعلى أنها لا تدخر أشياءها الحلوة كلها من أجلك أنت وحدك؟».

قفزت عليه. أمسك بي إيغي من الخلف فحملته... رفعته عن الأرض وحاولت التخلص منه بأن ضربته بالجدار، لكنه ظل متشبثاً بي. وعندما رميته إلى الخلف وسحقته تحتي حتى يتركني، سمعته يقول: «يا إلهي! هل فقدت عقلك؟ إنني أحاول إبعادك عن المتاعب».

كان مولتون قد مضى مبتعداً في ذلك الشارع المزدحم المؤدي إلى السوق. صحت في أثره: «لا بأس يا ابن العاهرة القذر. انتظر فقط. سوف أقتلك».

«كف عن هذا يا بولينغ. هناك شرطي ينظر إليك».

كان شرطي هندي مستنداً إلى سيارة قريبة. لعله معتاد على رؤية الأميركيين السكارى يتشاجرون ويتصارعون هنا.

أرغمني إيغي على النزول إلى الأرض فركعت على ركبتيَّ. لا يزال ممسكاً بذراعي.

«هل أستطيع أن أتركك الآن؟ ألن تركض خلفه؟» صدر عني صوت يشبه النحيب، وهززت رأسي بالنفي. ساعدني في الوقوف وقال: «انظر إلى نفسك! لقد امتلأت تراباً. عليك أن تغير ملابسك».

«لا، ليس لدي وقت».

«تعال معي إلى غرفتي، سوف أنظف ثيابك بالفرشاة على الأقل».

«لن أتأخر عن هذا الباص».

«هل تقصد القول إنك ذاهب على أي حال؟ لا بد أنك معتوه».

لكني قررت الذهاب. غسلت وجهي في مطعم لوي وعدت إلى الباص. كان أحد قد احتل مقعدي هناك. أحسست أن كل من كانوا هناك منذ وقت ومبكر وشاهدوا ما حدث في الساحة قد فهموا الأمر تماماً... فهموا أنني غبيّ بائس ضيّع امرأته.

دخل إيغي الباص معي. قال: «لا تبال به! لقد حاول أن يجعلها امرأته وطلب منها الزواج عشرات المرات. كان يموت رغبة في الحصول عليها. هذا ما جعله مهتماً بك، وهذا ما جعله يأتي إلى الفيلّا. حاول التقرب منها مرة أخرى في حفلة أوليفر؛ وهذا ما جعلها تذهب بتلك السرعة».

ما كان لهذا أي أهمية كبرى؛ كان شيئاً مثل اشتعال عود كبريت إذا ما قورن بنار حريق

مضطرم.

«إياك أن تتورط في مشاجرة هناك. سوف يكون هذا جنوناً. سيقتلك تالافيرا. قد يكون الأفضل أن آتي معك حتى أحميك من المشاكل. هل تريد أن آتي معك؟».

«أشكرك، لكن اتركني وحيداً». ما كان يريد الذهاب معي في حقيقة الأمر.

أطلق الباص القديم صوتاً مفاجئاً يشبه صوت آلة خياطة في السقيفة. وعبر الدخان المنطلق منه، بدت الكاتدرائية كأنها صورة منعكسة على صفحة النهر.

قال إيغي: «سينطلق». حذّرني من جديد وهو ينزل إلى الأرض: «تذكر... من الحماقة أن تذهب. إنك تسعى خلف المشاكل».

بينما كان الباص خارجاً من البلدة، عطفت علي امرأة قروية فجعلتني أجلس على حافة الكرسي إلى جانبها. أحسست أن كل شيء بدأ ينفجر في داخلي من جديد عندما جلست. أوه!... النار، النار!... نوبات أو تشنجات من الغثيان الذي أتت به الغيرة، عنيفة، حارقة. أخفيت وجهي بين كفَيَّ وأحسست أنني موشك على البكاء.

لماذا فعلتْ هذا؟ لماذا تقيم علاقة مع تالافيرا؟ حتى تعاقبني؟ أهي طريقة لمعاقبة أيٍّ كان؟ لماذا؟ هي أيضاً مذنبة بما تتهمني به! هل كنت أغافلها، وأنظر إلى ستيلا؟ لا بأس، كانت هي تغافلني وتنظر إلى تالافيرا. كانت جاهزة للانتقام فوراً.

أين هي تلك القطة الصغيرة التي كانت لدينا في شيكاغو؟ سألتُ نفسي ذلك السؤال فجأة. أقول هذا لأننا ذهبنا إلى ويسكنسون مدة يومين، فوجدنا القطة تصرخ من الجوع. عند ذلك، بدأت ثيا تبكي عليها ووضعتها داخل فستانها بينما قدنا السيارة إلى سوق شارع فولتون وأطعمناها سمكة كاملة. أين هي القطة الآن؟ تركناها خلفنا في مكان ما، في مكان لا على التعيين... لا تستمر ارتباطات ثيا أكثر من هذا!

ثم فكرتُ في أنني أحببتها كثيراً. أسعدني ذات يوم أن تكون الغضون على مفاصل أصابعنا متشابهة. لكنها الآن تلمس تالافيرا بتلك الأصابع نفسها، تلمسه حيث كانت تلمسني. عندما فكرت في أنها تفعل مع رجل آخر ما فعلته معي، وفي أنها ستنسى نفسها بالطريقة ذاتها، وتقول له كلمات الإعجاب، وتقبّله... في الأماكن نفسها، وتفقد عقلها ذائبة فيه بعينين متسعتين... تحتضن رأسه، وتفتح ساقيها... كاد هذا يقتلني. كنت أنظر إليهما في خيالي وأعاني معاناة فظيعة.

لقد أردت أن أتزوجها، لكن من غير أي امتلاك! أبداً، لا، لا تمتلك الزوجات أزواجهنّ، ولا يمتلكهن الأزواج، ولا يمتلك الآباء أطفالهم. إنهم يذهبون، أو يموتون. إذن، فالامتلاك

الوحيد هو اللحظة الحاضرة... إن كنت قادراً عليها. عندما تعيش أيَّ أمنية، فإنها تعيش في وجه نقيضها. هذا ما يجعلنا نحرص هذا الحرص العنيد على مظاهر الامتلاك. مظاهر من قبيل السندات، والشهادات، وخواتم الزواج وعهوده، وغير ذلك من الأشياء الدائمة.

مضينا صوب شليينانزينغو في ذلك الحر. مررنا أولاً بالجبال البنية التي تشبه أمواجاً متلاطمة، ثم مررنا بصخور أرض قاحلة تناثر فيها ريش طيور أخضر. وعندما كنا على وشك دخول البلدة، قفز شخص محاولاً التعلق بالباص حتى يركب مجاناً. أمسك بذراعي وانغرست أصابعه فيها بقوة. قاومته فحررت يدي منه. وعندما قفز مبتعداً جرحت أظافره كف يدي التي امتدت نحوه. آلمتني أظافره؛ كان ألماً حاداً!

وصلنا إلى الساحة. جدران بيضاء قذرة غاطسة صوب الأرض. وتدلى من الشرفات سحر إسباني متعفن قرضته الجرذان.

فكرت في أن أقتل تالافيرا إذا رأيته في الشارع، لكن بماذا أقتله. كان معي سكين جيب صغير، لكنه ما كان سلاحاً خطيراً بما فيه الكافية. بحثت في الساحة عن دكان أستطيع أن أشتري منه سكيناً، لكني لم أجد هذا الدكان. كان ما رأيته مكاناً يحمل لافتة «مقهى». ثغرة مربعة في الجدار كأنه حجرة محفورة في واجهة مقبرة عمرها ألف عام في الصحراء السورية. دخلت معتزماً سرقة سكين. لكني لم أجد سكاكين؛ لم أجد إلا ملاعق صغيرة تلوَّثت رؤوسها بحبيبات من السكر. رأيت قطعة من ناموسية ممزقة متدلية على الحائط، كأنها شيء ناعم صغير لا غاية منه.

عندما خرجت من المقهى رأيت سيارة ثيا واقفة أمام مكان له سياج حديدي يشبه الأسيجة في نيو أورليانز، كانت فيه فراغات، قطع مفقودة. ومن غير أي مزيد من التفكير في السكاكين، جريت إلى ذلك المكان فدخلته. لم أجد موظفاً عند مكتب الاستقبال، لم أر إلا رجلاً عجوزاً يكنس الرمل في الممر المتهالك. أعطاني رقم غرفة ثيا. أردت أن يصعد معي ليسألها إن كانت تقبل رؤيتي. نادتني بنفسها من فتحة في مصراع النافذة. ماذا أردت؟ صعدت إليها سريعاً وقلت لها عند باب غرفتها الخشبي المزدوج: «يجب أن أتحدث معك».

سمحت لي بالدخول. وعندما دخلت الغرفة نظرت باحثاً عن أي أثر له. كانت هنالك الفوضى المعهودة، فوضى الملابس والمعدات، لم أعرف إن كان من بينها شيء له. لكن ذلك ما كانت له أي أهمية. كنت مصمماً على تجاوز هذه الأشياء كلها. سألتني من جديد: «ماذا تريد يا أوجي؟».

نظرت إليها، ما كانت عيناها لطيفتين كعهدهما؛ بدت كأنها مريضة. كان شعرها المتألق

الأسود متهدلاً، منزلقاً من المشط الذي يثبته. كانت تضع عليها ثوباً منزلياً حريرياً. من الواضح أنها وضعته الآن. تفضل في هذا الجو الحار أن تكون عارية في غرفتها. وعندما أردت أن أتذكر كيف كان عريها وجدت أنني أستطيع تذكر كل شيء، بكل وضوح. رأت عيني تنظران إلى أسفل بطنها فهبطت يدها لتمسك بحافة ثوبها هناك. عندما رأيت نزول تلك الكف الملوَّنة بأصابعها المدورة، أحسست بمرارة أن زمن سعادتي قد انتهى، وقد انتقل إلى رجل آخر. أردتُ استعادة ذلك الزمن.

قلت لها بوجهٍ ملتهب: «أتيت لأسألك إن كنا نستطيع أن نكون معاً من جديد».

«لا، لا أظن أننا نستطيع».

«سمعت أن تالافيرا هنا معك، هل هذا صحيح؟».

«وهل هذا الأمر من شأنك؟».

اعتبرت إجابتها تأكيداً فأحسستُ بألم كبير.

قلت: «أظن أنه ليس من شأني. لكن لماذا ترافقينه هكذا، مباشرة؟ أنت لست أفضل مني. كنت تحتفظين به احتياطاً».

قالت: «أظن أن السبب الوحيد لوجودك هنا هو أنك سمعت عنه».

«لا، أتيت لأرى إن كانت هنالك فرصة أخرى. لست أهتم به كثيراً».

«ألست تهتم؟» قالت هذا بتلك الحرارة البيضاء في وجهها. وظهرت عليها ابتسامة تفكير عابرة.

«أستطيع نسيان كل ما يتعلق به إذا قلتِ إنك لا تزالين تريدينني».

«سوف تذكّرني به كل يوم... كلما نشأت بيننا مشكلة».

«لا، لن أفعل هذا».

«أعرف أنك في غاية القلق الآن من أن يأتي فجأة فتكون مضطراً إلى خوض قتال. لكنه ليس هنا. يمكنك أن تكون مرتاح البال من هذه الناحية».

«لقد كان هنا إذن».

لم تجبني. هل جعلته يذهب؟ ربما فعلت ذلك. يمكن لهذا الاختلاط بين الأمل والقلق أن يزول عني، على الأقل. لقد كنت خائفاً بالطبع، لكني كنت آمل أيضاً في أنني يمكن أن أقتله. لو كان هنا لحاولت قتله. لقد فكرت في الأمر بالفعل. تخيَّلته يطعنني.

قالت لي: «لا يمكنك أن تحبني وأنت تظن أنني مع رجل آخر. لا بد أنك راغب في قتلنا نحن الاثنين. لا بد أنك راغب في رؤيته يسقط من جبل ارتفاعه مئة متر، وفي رؤيتي في التابوت يوم جنازتي».

كنت صامتاً... ما أغرب شكلها عندما نظرت إليَّ في تلك الغرفة الإسبانية البالية، شمس استوائية تتسلل عبر مصراع النافذة... بلدة تتهاوى متفككة، قضبان القدور الحديدية المعوجّة على المنحدر، ونباتات متسلقة نازفة تنثر درناتها الأرجوانية على الجدران، ودوالي العنب بخضرتها الصارخة؛ ثم... فوضى الغرفة نفسها، الخِرَق والأشياء الثمينة التي تستخدمها على السواء، كيفما وقعت تحت يدها... كانت تفعل كل شيء سريعاً آملة أن تفعله بشكل صحيح مرة ثانية. من الواضح أنها لم تكن تصدق ما أتيت لقوله. لا تصدقه لأنها لا تحسه، ولا تحسه لأن الرابطة بيننا انقطعت.

«هل أنت مضطرة إلى اتخاذ القرار الآن يا ثيا؟».

«لا بأس... أظن أنني لست مضطرة. قد يكون شعوري نحوك مختلفاً فيما بعد. لكني لا أظن أنني سأوافقك. لا حاجة لي بك الآن. خاصة عندما أفكر في كيفية تصرفك مع أناس آخرين. أتمنى لك كل ضرر أستطيع تخيّله. أتمنى أن أراك ميتاً».

«وأنا لا أزال أحبك». لا بد أن هذا كان واضحاً لأنني لم أكن أكذب. كنت واقفاً أرتجف. لكنها لم تجبني بشيء.

قلت: «ألا تريدين أن يعود الأمر مثلما كان. أظن أنني أستطيع أن أتصرف بشكل صحيح هذه المرة؟».

«كيف تعرف أنك تستطيع؟».

«قد يكون أكثر الناس في مثل وضعي الآن. لكن، يجب أن تكون هنالك طريقة لكي يتعلم الإنسان كيف يصبح أفضل».

«لا بد أن تكون هنالك طريقة؟ أعتقد أنك تظن هذا».

«بالطبع. كيف يكون الأمر من غير هذا؟ كيف يمكن أن أعرف ما أريده؟ كيف تعرفين أنت؟».

قالت بصوت منخفض: «ما الذي تريد إثباته من خلالي ومن خلال ما أعرفه؟ لقد كنت مخطئة في مرات كثيرة جداً... مرات أكثر مما أريد الحديث عنه معك». غيَّرت اتجاه الحديث: «وصلتني رسالة من جاسينتو تخبرني عن الأفاعي. لو كنت قريباً مني في تلك اللحظة لضربتك بأي شيء».

لكني أحسست أن هذه الإساءة التي ارتكبتها ما كانت مزعجة لها. كان لديّ انطباع بأنها تكاد تبتسم ابتسامة فيها ما يشبه الإعجاب بما فعلته. لكن ذلك ما كان يستطيع منحي أملاً كبيراً لأن الابتسام، والذهول، والمعنادة، والرغبة في الإيذاء، كانت تتعاقب كلها سريعاً في صفحة وجهها الغائمة العصبية البيضاء. رأيت أنها لا تستطيع استجماع مشاعرها تجاهي، لا تستطيع الاستقرار على شيء. ما كنت قادراً على توقع أي إجابة منها. أبداً! ما عادت هنالك أي صلة بيننا.

رأيت الآن في حوض صغير للأسماك من غير ماء غطاه بساط قش صغير كائناً كسته حراشف صغيرة... كان له مظهر مائي كأنه خيارة مخللة؛ كان أخضر اللون له زوائد لحمية رمادية صغيرة ومخالب صغيرة. كان راقداً على بطنه، يتنفس.

قلت لها: «أرى أنك بدأت مجموعة جديدة».

«أمسكت به البارحة. أظن أنه أكثر الأشياء إثارة للاهتمام حتى الآن. لكني لست باقية هنا. سوف أذهب إلى أكابولكو ثم أسافر بالطائرة إلى فيرا كروز، ثم إلى يوكاتان. سوف أذهب لرؤية المكان الذي تهاجر إليه طيور الفلامنغو النادرة قادمة من فلوريدا».

«دعيني أذهب معك».

«لا».

هكذا هو الأمر: ما كان فيه شيء يشبه ما توقعته.

الفصل العشرون

أمضيتُ وقتي متسكعاً عندما عدت إلى آكاتلا. لكني كنت آمل أن يأتيني شيء من ثيا؛ وواصلت المرور على مكتب البريد رغم عدم جدوى ذلك. وعندما لا أجد شيئاً كنت أمضي عادة فأشرب التيكيلا أو كؤوساً متلاحقة من البيرة. انقطعت عن لعب البوكر عند لوي وما عدت أرى أحداً من أفراد العصبة القديمة. قبضت الشرطة على جيبسون بتهمة التشرد وأرسلته عائداً إلى الولايات المتحدة، وهذا ما جعل زوجة إيغي راغبة في عودته إليها. فهمت الطفلة الصغيرة ما يجري من حولها، وعندما رأيتهم يمشون في الشارع أحسست بمدى توترها، رغم صغر سنها؛ أشفقت عليها كثيراً.

وفي بعد ظهيرة ذهبية، كنت جالساً على مقعد خشبي في الحانة في قميص وسخ وبنطلون مهلهل وقد صار عمر شعرات ذقني ثلاثة أيام؛ أحسست بشيء يدفعني إلى القيام والصياح: «أوه، أيتها الكائنات التي لا تزال فوق التراب! ما الذي تريدين فعله؟ حتى السعادة والجمال يشبهان ما هو في الأفلام». كنت على وشك البكاء مرات كثيرة. أو كنت أغدو غاضباً فأودّ أن أزمجر وأصيح. لكن رغم أن ما من أحد يعاقب الكائنات الأخرى على ما تصدره من أصوات، على صراخها أو زمجرتها أو خوارها أو نباحها، فمن المفترض أن يمتنع بنو البشر عن ذلك رغم ما يأتي به من راحة. لذا كنت أذهب إلى أحد الطرق الجبلية حيث لا يمكن أن يسمعني إلا هندي مارٌّ مصادفة فأقول ما يجول ببالي وأعبّر عن مشاعري بصوت مرتفع، أو أصرخ. كان هذا يجعلني أشعر بتحسُّن حالتي، موقتاً.

كان لي رفيق لازمني بضعة أيام: روسي طردته الجوقة القوقازية بعد مشاجرة؛ لا يزال يرتدي سترته الصوفية ذات الخطوط البيضاء التي تشبه الأنابيب وعليها فتحات من أجل طلقات البندقية. كان عصبياً شديد الاعتزاز بنفسه، ودائماً يقضم أظافر يديه. كانت

جمجمته عارية تلقي ما يشبه ضوءاً ناعماً على وقار وجهه الوسيم. ويحرص على حلاقة ذقنه دائماً. إن له أنفاً مستقيماً وفماً يحمل دائماً تعبير ضغينة ملطفة، وحاجبين أسودين كبيرين متصلين. فلتحل عليَّ اللعنة إن لم يكن يشبه صورة الشاعر دانونزيو التي رأيتها ذات يوم.

كان سكّيراً، ومفلساً؛ وسرعان ما سوف تقبض عليه الشرطة بدوره مثلما قبضت على جيبسون. وكان المال الباقي معي قليلاً، لكني أشتري زجاجة تيكيلا من وقت لآخر. وهكذا فقد تعلّق بي.

نعم، لقد أحسست في علاقتي معه شيئاً ما يشبه إحساس طفلة إيغي الصغيرة: كنت أشفق عليها بسبب ما هي مضطرة إلى فهمه. أزعجني أول الأمر أن يكون هذا الرجل رفيقي. ثم بدأت أحبه بعض الشيء. وبما أنني كنت راغباً في إخبار أحد عن ثيا، فقد اعترفت له بكل ما جرى. أخبرته بالقصة كلها. ظننت أنه سيتعاطف معي. كانت الغضون العميقة في جبهته، غضون المعاناة، هي ما جعلتني أظن ذلك.

قلت له: «وهكذا ترى كم هو أمر قاسٍ. إنني أعاني كثيراً. أعاني كثيراً جداً. أكون نصف ميت أحياناً».

أجابني: «انتظر! أنت لم ترَ شيء بعد». جعلني هذا الرد أغضب منه كثيراً. قلت له مندفعاً: «لماذا أيها الأناني القذر؟» وددت أن أضربه فألقيه أرضاً. كنت ثملاً إلى الحد الكافي لجعلي أفعل ذلك... «ماذا تقصد بهذا أيها القزم؟ أنت أيها الخرقة القوقازية! بعد أن أخبرتك بما أشعر به...» لكنه أراد أن يواصل التأكيد على رأيه... برأسه العاري وأنفه المحمر وذلك الغِل المرتسم على فمه. ما كان شخصاً سيئاً بالفعل. كان سلوكه طبيعياً في واقع الأمر. إن له حياته أيضاً! وكانت تفوح منه رائحة تشبه رائحة نوع قديم من المساحيق كان موجوداً في البيت ذات مرة. لكنه كان «متعاطفاً» رغم ذلك.

قلت: «لا بأس يا صاحبي! هذا صحيح... لقد عشتَ أوقاتاً سيئة أنت أيضاً. قد لا ترى بلدتك هاربن من جديد».

قال: «لست من هاربن؛ إنها باريس».

«لا بأس أيها الأحمق البائس، باريس! فلتكن باريس».

قال: «كان لي عم في موسكو ارتدى ملابس امرأة ومضى إلى الكنيسة. لقد أخاف الجميع لأن له لحية ولأنه بدا شخصاً متوحّشاً. قال له شرطي: تبدو لي يا سيدي رجلاً، وليس امرأة! فأجابه: هل تعرف؟ أنت تبدو لي امرأة أكثر مما تبدو رجلاً! ثم مضى مبتعداً. لقد خافه الجميع».

«شيء ظريف؛ لكن كيف يعني هذا أنني لم أرَ شيئاً بعد؟».

«ما قصدته هو أن أملك في الحب قد خاب. لكنك لا تعرف كم هنالك من أشياء سوف تخيّب آمالك، إضافة إلى الحب. من حسن حظك أن أملك لم يخِب إلا في الحب حتى الآن. قد يكون الوضع أسوأ بكثير فيما بعد. ألا ترى أن عمي كان في غاية اليأس حتى يذهب إلى تلك الكنيسة المظلمة ويخيف الجميع؟ كان عليه أن يفعل ما يستطيع فعله. إذ يشعر أنه لن يعيش إلا سنوات قليلة».

تظاهرت بعدم الفهم لأن من المناسب لي أن أجعله يبدو شخصاً سخيفاً مضحكاً. لكني أدركت تماماً ما كان يحاول قوله لي. ليست نهاية حياة المرء في حد ذاتها شيئاً مخيفاً، لكن الفكرة هنا هو أنها يمكن أن تنتهي مع تلك الخيبات الكثيرة. هذه حقيقة.

وأخيراً قرّرت أن أكف عن التجول معه. لقد صار قواداً لدى نيغرا التي تعمل عاهرة في فوسو روخو. قررت مغادرة البلدة. بعت بعض ممتلكاتي القيّمة: حذاء ركوب الخيل، والسترة الممتازة التي تستطيع إنقاذ حياة المرء في بحيرة هورون. اشترى لوي فو هذه الأشياء. واستخدمت النقود التي حصلت عليها للسفر إلى مكسيكو سيتي. كففت عن انتظار أن تسامحني ثيا. وكان أمراً محزناً أن أنزل في فندق ريجينا من غيرها. كان العاملون في إدارة الفندق، ومثلهم خادمات الغرف، يتذكرونها جميعاً، وكانوا يتذكرون النسر أيضاً؛ لكنهم رأوا أن حياتي تسير على غير ما يرام... لا سيارة، ولا حقائب، ولا طائر متوحش، ولا فرحة بهيجة، ولا أتناول ثمار المانغو في السرير، إلى آخر ما هنالك. كنت أسمع أصوات أهل اللقاءات الغرامية السريعة في الليل... ما كان مكاناً مناسباً لي! لكنه رخيص، ففضلت أن أبقى فيه وأغلق أذنيّ.

لم أجد مالاً من ستيلا في مصرف ويلز فارغو. إنما كنت محتفظاً برقم سيلفستر في كويواكان، وكنت قادراً على الاتصال به عندما أفلس تماماً. لكني فضلت في البداية أن أحاول الاتصال بابن عم صديقي باديلا. كان مختلفاً عن باديلا، هزيلاً أحمر الجلد جائع المظهر يشد على أسنانه. إنه رجل سريع الحركة ولديه بعض المال. أراد أن يصحبني في جولة لأرى المدينة، لكن ثيا أرتنيها من قبل؛ وأراد أن يعرّفني على الأدب الإسباني أيضاً؛ وأخيراً قرر إعطائي بعض النقود. قال إنه سيشتري لي بها بطانية، لكني لم أره بعد ذلك. كان جسدي يؤلمني مطالباً بثيا رغم معرفتي أنها صارت خارج متناولي الآن ورغم أنها زالت مني تماماً نتيجة صعوبة عقلها وشذوذ شخصيتي أنا أيضاً. ورحت أتسكع في المدينة وأعيد التفكير في كل شيء. كنت أتأمل عازفي الموسيقى المحلية والمقعَدين الذين يؤدون أغاني الموت على كمنجاتهم أو بائعي الزهور والنحلات التي تحوم حول بائعي الحلويات لتنال نصيبها من الطعام. حيثما أدرت وجهك ترى الثلج على واحد من

البراكين وترى الجبل كله عائماً متقدّماً إليك. لو كنت أستطيع لما نظرت في المرآة تلك الأيام لأنني كنت هزيلاً مريضاً. وذات مرة أحسست أنه إذا جاءني ملاك الموت فربت على كتفي وسألني «مستعد؟» فسوف أفكر في الأمر دقيقة واحدة ثم أجيبه «فليكن». إذن، فقد مت على نحو ما؛ وإن كان هنالك شيء قد فهمته الآن فهو أن من الصعب كثيراً أن يعيش المرء من غير أن يكون لديه شيء كبير عظيم من غير حدود. لكن المدينة كانت جميلة (حتى البشاعة التي فيها، والبؤس، والفوضى، كانت غنية كلها). وكانت دافئة أيضاً. هذا ما كان يجعلني أواصل السير. كان قلبي يشتكي، وأشعر بالقرف. لكنني لم أكن في حالة يأس مطبق طيلة الوقت.

وأخيراً، اتصلت بسيلفستر. جاء لرؤيتي وأقرضني بعض المال. لم يتكلم كثيراً أول الأمر. فهمت أنه لا يريد الحديث في الأمور السياسية السرية.

قال: «تبدو جائعاً بائساً. ولو لم أكن أعرفك لقلت إنك واحد من أولئك المتسكعين في أرجاء القارة الأميركية. عليك أن تنظف نفسك».

كنت أحس كأنني شيء التقطه كاليغولا وارتفع به ألف قدم ثم ألقاه إلى الأرض. كان الهواء يزعق في أذني؛ وكانت الألوان كأنها شيء من ألوان يوم القيامة. لكنني نهضت بعد تلك السقطة مصعوقاً، وأردت أن أظل صامداً. عليك أن تصمد رغم كل شيء! هكذا بالضبط! ليس هذا بالأمر اليسير. أدرك سيلفستر أنني أريد أن أتماسك من جديد وأن أمنع نفسي من أن أصير حطاماً مدَمَّراً. ابتسم لي تلك الابتسامة التي تظهر أسنانه الصغيرة القاتمة... هو يجدني شخصاً مسلياً على الدوام.

قلت: «كان حظي في غاية السوء يا سيلفستر».

«أرى هذا، أرى هذا! لا بأس، هل تريد أن تبقى هنا إلى أن يتغير حظك أم أنك تريد العودة إلى شيكاغو؟».

«ما رأيك أنت؟ لا أعرف ما يتعيَّن علي فعله».

«ابق هنا. سوف يؤويك بعض الوقت واحد من المتعاطفين معنا إذا طلب فريزر منه هذا».

«يسعدني هذا. وسأكون في غاية الامتنان لك يا سيلفستر. من هو ذلك المتعاطف؟».

«إنه من أصدقاء الرجل الكبير القديمين. سوف يجعلك تسكن معه. لا أحب أن أراك متشرداً كما أنت الآن».

«أشكرك كثيراً يا سيلفستر. أشكرك كثيراً».

وهكذا جاء فريزر فأخذني لمقابلة ذلك المتعاطف الذي كان اسمه باسلافيتش. رجل يوغوسلافيّ ودود يعيش في فيلا صغيرة في كويواكان. كان فمه محاطاً بطيّات عميقة نمت فيها شعيرات لامعة تشبه بلورات صغيرة في شقوق صخرة عجيبة. كان شخصاً شديد الأصالة. لرأسه شكل بصلة أو قُبة لها شعر شديد القصر. كان في الحديقة عندما التقينا فبدت الحرارة في الهواء المرتجف فوق تلك القُبَّة.

قال لي: «إنني أرحب بك كثيراً. تسعدني صحبتك. وقد تعطيني دروساً في الإنكليزية، ما رأيك؟».

قال فريزر: «سوف يفعل هذا بالطبع». تغيرت هيئة فريزر أيضاً. لم أفهم قبل تلك اللحظة ما جعل ميمي تدعوه باسم «الواعظ». كانت التغضّنات الدالّة على تفكير عميق ترتسم بين عينيه فيبدو شبيهاً بقسٍّ من القساوسة. كان يبدو مثل ضابط في الجيش الاتحادي أيضاً. يوحي شكله بأن هنالك أثقالاً كبيرة ترهق ذهنه وأنه مشغول دائماً بأمور كبرى.

تركني مع باسلافيتش فانتابني، لسبب ما، إحساس بأنني موضوع في مستودع أو بأنني موضوع في الاحتياط؛ لكنني كنت متعباً، وما كنت لأبالي بما يفكر فيه سيلفستر. جعلني باسلافيتش أرى غرف البيت وحديقته. حدّقت في الطيور، حرةً وفي أقفاصها، وفي طيور الطنان الصغيرة بين الزهور وأصغيت إلى اصطفاق أغصان الصبار الشائك كأنها آلهة مكسيكية متناثرة مستلقية في العشب أو واقفة على امتداد الممر؛ منكمشة أو فاغرة الأفواه تبرد أسنانها وألسنتها في الهواء الأزرق.

كان باسلافيتش لطيفاً دائم القلق، ورجلاً وديعاً عنيداً يعمل مراسلاً للصحافة اليوغسلافية في المكسيك. يعتبر نفسه بلشفياً وثورياً قديماً، لكنه كان «شخصية دامعة» إن جاز لي استخدام هذا التعبير: يثير كل شيء مشاعره، دائماً! والدموع لديه شيئاً مثل صمغ شجرة الصنوبر التي لا بد لها من إنتاجه. كان يعزف شوبان على البيانو، ويقول لي عندما يؤدي مارشاً من مارشاته: «كتب فريدريك شوبان هذه المقطوعة أثناء عاصفة عندما كان في مايوركا مع جورج ساند. كانت تبحر عبر المتوسط، وعندما وصلت قال لها: ظننت أنكِ غرقت!» كان باسلافيتش يركب الدراجة ويضغط على الدوّاسة بحذائه المكسيكي فيذكّرك بالممثل ميرو في إحدى أعماله المأساوية. وكان غارقاً في حب الثقافة الفرنسية، ولديه رغبة حقيقية في تعليمي. والحقيقة أن هاجس التعليم كان يسكنه! فهو يكرّر دائماً: «علمني شيئاً عن شيكاغو»، أو «علمني شيئاً عن الجنرال أوليسيس غرانت. وسوف أعلمك. سأخبرك عن عجة فونتينيل باللحم. سيكون هذا تبادلاً للتعليم بيننا».

كان شديد الحماسة. «أراد فونتونيل أن يأكل عجة باللحم في يوم من أيام الجمعة. لكن عاصفة مخيفة بدأت، وبدأ الرعد. وأخيراً رمى بالعجة من النافذة وقال مخاطباً الرب:

سيدي! لا حاجة بي إلى هذا الضجيج كله من أجل عجة». يمكن لهذا أن يفتح بصيرة المرء بعض الشيء، أليس كذلك؟ كان يكرر جملة فونتونيل باللغة الفرنسية بنطق متصلب وهو مغمض العينين. أو كان يقول لي: «كان لويس الثالث عشر يحب أن يقوم بدور الحلّاق؛ ويحلق شعر رجال البلاط سواء كانوا راغبين في ذلك أو لا. كان ذلك الطاغية يستمتع أيضاً بتقليد عذاب الموت فيكشّر ويتخذ وجهه أشكالاً عجيبة. وكان يحب أن يمضي ليلة الزفاف في سرير العريس والعروس... لقد كان التعبير الأخير عن التفسّخ الإقطاعي».

لعله كان كذلك حقاً، لكن باسلافيتش يحبه لأنه فرنسي! كان يجعلني أستمر في الجلوس معه بعد العشاء ويكرر على مسامعي أحاديث لفولتير وفريدريك الكبير ودو لا روشفوكولد، ودوقة لونغ فيل، وقصة ديدرو مع الممثلة الشابة، وقصة شامفور مع شخص ما. لقد أعجبني باسلافيتش لكن الأمر كان ثقيلاً بعض الأحيان... أن أكون ضيفاً عنده! كان علي أيضاً أن أذهب للعب البيلياردو معه في النادي الواقع شارع الأورغواي. وإلى الشرب معه أيضاً عندما يحب أن يشرب. لم تكن عندي رغبة في الشرب بعد الظهر لأن ذلك يذكرني كثيراً بشرب التيكيلا عندما كنت في آكاتلا. لكننا كنا نجلس ونقتل بضع زجاجات من النبيذ. مرت آلاف من أشعة الشمس النحاسية على جذوع الأشجار؛ وكانت الحديقة خضراء بينما يغفو في الثلج الجبل البركاني الذي يشبه جسد امرأة. كنت ضيفاً وعلى الضيوف أن يسايروا مضيفيهم. وكنت أسدد ثمن ذلك بأن أعلّمه شيئاً عن الفرق الرياضية الرئيسية وما يشبه ذلك.

خلال تلك الفترة كانت صحتي تتحسن تدريجاً؛ ثم جاء فريزر فأفصح عما كان يخبئه من أجلي.

قال: «أنت تعرف أن الشرطة السرية السوفييتية تريد قتل رجلنا العجوز».

كنت أعرف هذا. قرأت في الصحف عن هجوم على الفيلّا بالأسلحة الرشاشة. وأخبرني باسلافيتش أيضاً ببعض المعلومات الأخرى.

«نعم، هنالك رجل اسمه مينك على رأس الشرطة الروسية؛ وقد جاء إلى المكسيك حتى يتولى قيادة الحملة ضد الرجل العجوز».

«هذا شيء فظيع! ما الذي تستطيعون فعله لحمايته؟».

«يجري تعزيز أسوار الفيلّا في الوقت الحالي. ولدينا حرس شخصي أيضاً. لكن الأسوار ليست جاهزة بعد. كما أن عدد رجال الشرطة غير كافٍ. يريد ستالين قتله لأنه ضمير العالم الثوري».

«لماذا تقول لي هذا يا فريزر؟».

«هنالك شيء! لدينا خطة تجري مناقشتها الآن. ربما يخدع الرجل العجوز الشرطة السرية السوفيتية من خلال السفر متخفّياً في أنحاء البلاد».

«ماذا تقصد بأنه سيسافر متخفياً؟».

«هذا أمر سري يا مارتش. أعني أنه سيحلق ذقنه وشاربه، ويقص شعره، ويتجول كأنه سائح».

قلت في نفسي إن هذا أمر غريب كثيراً... شيءٌ يشبه أن يرتدي غاندي ملابس الأمير آلبرت. أن يتغير هذا الرجل الذي كان شخصية نافذة كبرى وأن يقلل من شأن نفسه الآن. أزعجتني هذه الفكرة رغم مشاكلي كلها.

قلت لفريزر: «من صاحب هذه الفكرة؟».

«لا تسألني! إنها قيد المناقشة». قال فريزر هذه الكلمات بطريقة ثورية احترافية؛ كان يقصد إفهامي أن هذا ليس من شأني... «إنني أثق بك يا مارتش، وإلا لما اقترحت أن تتولى دوراً في هذه الخطة».

قلت: «ماذا؟ وما دوري؟».

قال: «إذا سافر متخفياً في هيئة سائح يزور المكسيك، فمن الضروري أن يكون معه قريبه الشاب من الولايات المتحدة».

«هل سأكون أنا ذلك القريب؟».

«أنت وواحدة من رفيقاتنا لتكونا كأنكما زوج وزوجته. هل ستفعل هذا؟».

تخيلت نفسي أقود السيارة في أنحاء المكسيك مع هذا الرجل العظيم الذي يلاحقه عملاء الشرطة السرية. جعلتني الإثارة الشديدة غير قادر على استيعاب الأمر.

«لن يكون هنالك أي لعب مع الفتاة!».

«لا أفهم ما تقصده يا فريزر. إنني أحاول الآن الشفاء من الجروح التي سببتها لي قصة حب».

أرجوك يا إلهي! أرجوك احفظني من أن يبتلعني تيار جارف آخر فلا أستطيع أن أكون نفسي. من الطبيعي أنني أردت أن أكون نافعاً؛ وقد جذبني الخطر وجذبتني المغامرة. لكنني ما كنت مستعداً لهذا على الإطلاق. ما كنت مستعداً للتجوُّل في جبال المكسيك عبر هذه السوق الحمراء التي تدوّخها رائحة الموت والضجيج.

«أقول لك هذا لأن الرجل العجوز متمسك بالأخلاق كثيراً».

قال فريزر هذه الكلمات كأنه متمسك بالأخلاق هو أيضاً. قل هذا الكلام لغيري!... هكذا فكرت في سري.

قلت: «لن يفعل ذلك! إنها فكرة غبية».

«سيتخذ القرار الأشخاص الذين يتولون حمايته».

أما أنا فقد كنت مقتنعاً بأن نقطة قوته هي مظهره. رأسه هي مكمن قوته. إذا غيّر فيه شيئاً فقد يكون ذلك إشارة لأن يؤخذ منه... أما إن تركه على حاله فإنه سائر نحو الموت، نحو الاستشهاد. هذا شيء يشبه قصة القديس يوحنا مع هيرودوت. كان عليَّ أن أتوقف وأن أسأل نفسي شيئاً عن الاستشهاد. إن عدوه هناك، في روسيا، يحب أن يجبره على فعل هذا. سوف يقتله. والموت خزي للمرء. البقاء هو النجاح كله. يذهب صوت الموتى بعيداً، يضيع. لا وجود لشيء اسمه ذاكرة. السلطة المستقرة تملأ الأرض كلها؛ والقدر هو ما يبقى... وهكذا فإن ما هو موجود يكون صحيحاً، يكون هو الحق. هذا ما فكرت فيه.

«سيكون عليك أن تحمل مسدساً. هل يخيفك هذا؟».

«أنا! طبعاً لا. ليس هذا الجزء من الأمر ما يخيفني».

رحت أقول في نفسي إن رأسي سيكون فارغاً مثل ثقوب المصفاة إذا رفضت هذا. ألم تستهوني كثيراً فرصة أن أكون مع هذه الشخصية التاريخية الكبرى متجولاً بين الجبال؟ سوف تندفع السيارة بنا مجنونة؛ وسوف تفرّ حيوانات البرية أمامنا. ستدور الأرض المخيفة من حولنا. أما هو فلن يحدّثني. سيظل صامتاً مفكراً في الأمم، وفي الأقدار. وسوف يجري العالم الخاسر خلفنا بصوته السري؛ وستلاحقنا فرقة من القتلة الدوليين، تتعقبنا وتنتظر فرصتها.

قلت: «أتساءل أحياناً إن كان على الأشخاص الذين يريدون قول الحقيقة أن يحرصوا أولاً على التأكد من أنهم قادرون على حماية أنفسهم».

قال فريزر: «ليس هذا بالرأي الجيد».

«ليس جيداً! ربما. هذه مجرد فكرة».

«هل ستفعل هذا؟».

«أتظن أنني شخص مناسب لهذه المهمة؟».

«إننا في حاجة إلى شخص يبدو أميركياً تماماً».

«أظن أنني أستطيع أن أفعل ذلك، إذا لم يطل الأمر كثيراً. بضعة أسابيع؛ فقط حتى نضلل مينك ورجاله».

مضينا؛ وكنت جالساً في الحديقة حيث تتسلل السحالي بين الأعشاب وحيث ترسم الطيور خطاً بديع اللون عند الجدران الحارة. كانت الآلهة في تلك الحديقة واقفة أو مستلقية تواصل شرحها البركاني الرمادي لطبيعة القوى في هذه الحياة. كان باسلافيتش يعزف شوبان في الأعلى. فكرت بعد ذلك في أن ما من شيء أكثر رعباً من أن يرغمك شخص على قبول اقتناعه بأن الوجود أمر مرعب مخيف، وأن الأمل شيء قاتل... أن يجبرك على تذوّق يأسه مثلما يتذوقه بنفسه. هذا أسوأ شكل من الإرغام، أسوأ من أشكال الإرغام كلها! لا يكفي أن تكون مثلما يريدون، بل عليك أن تشعر بما يملونه عليك. وإذا لم يكن لك سَنَد قوي فمن المؤكد أنك ستفقد عزيمتك آخر الأمر، وسوف يشرب فمك الدم.

أطل باسلافيتش من شرفته ملتحفاً منشفة الحمام الزرقاء وسألني بوداعة إن كنت أريد شراباً.

قلت: «لا بأس». كنت في غاية القلق من هذه الخطة كلها.

لكن الأمر مضى؛ ووجدت أنني في غاية السعادة. كنت في حيرة شديدة قبل ذلك، وصرت عاجزاً عن النوم... صرت أمضي الليل حالماً بتجوالنا السريع من بلدة إلى بلدة على امتداد الطريق حتى جاليسكو أو إلى أعماق الصحراء. لكن الرجل العجوز رفض الخطة. وددت أن أبعث إليه برسالة أقول له فيها إنني أراه في غاية الذكاء؛ لكنني فكرت بعد ذلك أنه من غير اللائق أن أناقش أسرار نشاطاته السياسية. لا بد أنه صرخ مستنكراً عندما اقترحوا عليه أن أقوم بهذه المهمة من أجله.

صرت أشعر الآن أن هنالك شيئاً من أثر المكسيك عليّ؛ أحسست أنني ما عدت قادراً على مزيد من الصمود هنا. ورأيت من الأفضل أن أعود إلى الولايات المتحدة. أقرضني باسلافيتش مئتي بيزو فاشتريت تذكرة إلى شيكاغو. تأثر بذهابي تأثراً شديداً، وقال لي مرات كثيرة، باللغة الفرنسية، إنه سيفتقدني. سوف أفتقده أنا أيضاً... إنني واثق من هذا. لقد كان رجلاً لطيفاً حقاً. لا يحدث كثيراً أن يصادف المرء أشخاصاً مثله.

الفصل الحادي والعشرون

في طريق عودتي من المكسيك إلى شيكاغو، قمت برحلة جانبية إلى شرق سانت لويس وذهبت إلى بينكنيفيل لأرى أخي -جورج بعد سنوات كثيرة. لقد صار رجلاً كبيراً ضخم الجثة يسير بخطوات غير واثقة. تبينت من ذلك اللون البني على جلده الأشقر تحت عينيه أنه مَرَّ، بطريقته، بما مررنا به من معاناة في الحياة. كل ما في الأمر هو أننا ذهبنا عندما حان وقت ذلك وتركنا من كنا معهم ومضينا، كل منا مع مصدر معاناته، مضينا إلى غرفة سرية كأنها في باطن جبل أو كأنها غارقة في قبو عميق. هكذا كانت الحياة مع جورج أيضاً.

لكنه كان رجلاً رائع المظهر، مثلما كان طفلاً جميلاً من قبل. ولا يزال قميصه الآن، مثلما كان في طفولته، متهدِّلاً عند ظهره بتلك الطريقة التي لا معنى لها. طال شعره الذي يشبه لحاء ثمرة كستناء؛ ظل بنياً ذهبياً مثلما كان من قبل، وظل كثيفاً. كنت فخوراً به، على نحو ما، لأنه يتلقى قَدَرَه بقَدْرٍ كبيرٍ من الكرامة. لقد جعلوه حذّاءً. ما كان قادراً على تشغيل واحدة من تلك الآلات التي تهدر في محلات إصلاح الأحذية إلى جانب الأقراص الزاعقة والفراشي الدوارة؛ ولا كان قادراً على صنع الأحذية يدوياً؛ لكنه كان ماهراً في تركيب نعال الأحذية وكعوبها. كان يعمل في الأسفل، في القبو تحت الشرفة. إنها شرفة واسعة لأن المكان واقع في أقصى جنوب الولاية حيث تكون البيوت كبيرة بيضاء مصنوعة من الخشب. كانت عرائش العنب تلقي ضوءاً أخضر عبر نافذته النصفية المغبرة. رأيته منحنياً على منضدته يتناول من فمه مسماراً بعد مسمار فيغرسها في جلد الحذاء.

قلت له: «جورج!» وأنا أنظر إلى الرجل الذي صاره أخي. عرفني على الفور فنهض سعيداً وقال، بالضبط مثلما كان يقول في أيامه القديمة: «مرحبا أوج! مرحبا أوج!» قالها

بصوته الذي يبدو كأنه صادر عن أنفه. إن تكرار الكلمتين هذا يتحول إلى نوع من العواء إذا استمر وقتاً كافياً. مضيت إليه فلم يتحرك صوبي. قلت له: «مرحبا، كيف حالك يا عزيزي؟» شددته إليّ بذراع واحدة ووضعت رأسي على كتفه. كان في قميص العمل الأزرق؛ ضخماً أبيض اللون نظيفاً، عدا يديه. كانت عيناه، وأنفه، وفمه الصغير في وجهه الذي لم يكتمل نموه مثلما كانت كلها من قبل، بسيطة. تأثرت لأنه لم يكن يعرف كم يجب أن يكون حانقاً لأنني أهملته هذا الوقت كله... صار سعيداً لحظة رآني!

لم يزره أحد منذ ثلاث أو أربع سنوات. وهكذا فقد تركوني أراه طيلة اليوم... كان هذا إذناً خاصاً. سألته: «ماذا تذكر يا جورجي؟ جدّتنا، وماما، وسايمون، وويني؟» كان يكرر هذه الأسماء خلفي مبتسماً ابتسامة صغيرة؛ كررها كما كان يكررها في تلك الأغنية التي اعتاد أن يغنيها وهو يجري مع الكلبة عند سياج الأسلاك الشائكة، ويغني ويقول إن الجميع يحب ماما. كانت أسنانه بيضاء سليمة في فمه الرطب، رغم أن نابيه العلويين كانا حادين كثيراً. أمسكته من يده التي صارت أكبر من يدي ومضينا نمشي في الحديقة.

كان الوقت بداية شهر أيار، وأوراق شجرات البلوط كبيرة قاتمة الخضرة، معافاة. كانت أوراق النباتات المتسلقة متسعة يانعة، وفاحت رائحة الأرض من حولنا. مضينا على امتداد الجدار الذي كنت أول الأمر أراه جداراً فحسب. لكنني حزنت فجأة عندما فكرت في أن أخي سجين هنا، وفي أنه لا يخرج أبداً... مسكين جورج. ومن غير استئذان، أخذته خارج ذلك السور. راح ينظر إلى قدميه في ذلك الدرب الذي لم يألفه... ينظر ليعرف أين يضعهما عندما يسير. كان مذعوراً. ومن متجر عند تقاطع شارعين، اشتريت له علبة من الحلوى. أخذها لكنه لم يأكلها، بل وضع العلبة في جيبه. رأيت عينيه تنظران غير مرتاحتين فقلت له: «لا بأس يا جورج، إننا عائدان فوراً». هدّأه ذلك.

وعندما سمع صوت جرس العشاء (كان يشبه قرع جرس الكنيسة في بلدة خيالية مصنوعة للأطفال)، نهض من فوره ومضى إلى الكافتيريا المزدحمة الخضراء. كان مدرَّباً على الاستجابة الفورية لهذا الجرس. تركني ومضى، فكان عليَّ أن ألحق به. تناول صينيته، ثم جلسنا وأكلنا مع هؤلاء الذاهلين عن العالم الذين راحوا يجرفون ما في أطباقهم ويأكلون طعامهم ويرفعون كؤوسهم الصغيرة إلى أفواههم من غير كلام.

لا بد أن رعاية هذه الكائنات أمر في غاية السهولة: إلباسهم، وإطعامهم، وجَعْلهم يذهبون إلى مهاجعهم للنوم. من المرجح أنه أمر لا يستدعي جهداً كبيراً.

ظللت بقية الرحلة أفكر في أنه لا بد من فعل شيء من أجل جورجي حتى لا نتركه يمضي حياته كلها بهذا الشكل. كنت أفكر أيضاً في مدى سرعة البشر في العثور على

العذر المناسب حتى يتعاملوا تعاملاً عملياً مع أي شيء... السجناء واليتامى والمقعدين والعجائز وضعاف العقول. قررت أنني يجب أن أذهب وأتحدث مع سايمون بخصوص جورجي، لكن بعد أن أزور ماما. ما كان عندي شيء محدد أقترحه. لكني قلت لنفسي إن سايمون يملك المال، وبالتالي فإنه يعرف ما يستطيع المال فعله. ثم إنني كنت أفكر في سايمون بالطبع لأنني كنت عائداً إلى شيكاغو. أردت أن أراه.

مضيت من المؤسسة الأولى إلى المؤسسة الثانية في شيكاغو نفسها، مضيت مباشرة. لكن المكانين كانا مختلفين كثيراً. لم تعد ماما تعيش في تلك الغرفة إلى جانب المطبخ بل هي مستقرة الآن في مكان يكاد يكون شقة خاصة بها... شقة فيها سجادة كبيرة على الأرض وستائر على النافذة. كنت قد اتصلت بها وأخبرتها بأنني قادم. رأيتها تنتظرني عند الباب مستندة إلى عصاها البيضاء. خاطبتها قبل أن أصل إليها حتى لا تجفل. حركت رأسها حتى تحدد موقعي ثم نطقت اسمي بصوتها الباكي، بصوت فرح متألّم. ومن فوق إطار نظارتها، التي كانت داكنة بليدة اللون، ارتفع حاجبا ذلك الوجه الوردي المتطاول كأنها تحاول استخدام عينيها أيضاً. ثم قبلتني وهمست لي. تحسست وجهي وقالت: «أنت هزيل يا أوجي، لماذا أنت هزيل هكذا؟» ثم قادتني إلى غرفتها عند المدخل الخلفي. كانت أمي طويلة القامة، في مثل طولي تقريباً. تصاعدت رائحة سمك مطبوخ عبر السلم فجعلتني أحس إحساس العائد إلى بيته، جعلتني أحس حرارة المطبخ في أيامنا القديمة عندما كنت أجلس مع أمي.

رأيت البطاقات التي أرسلتها إليها من المكسيك مصفوفة على طاولة الزينة. كانت هناك صور لسايمون وشارلوت أيضاً. كانت الصور موضوعة هناك حتى يرى من يستطيعون الرؤية وجوه زوارها. لكن، من يأتي إلى هذه الغرفة غير المشرف وزوجته... اللذين يكرهان سايمون؟ تأتي آنا كوبلين من وقت لآخر. أو يأتي سايمون نفسه. كان يأتي ليرى إن كانت مرتاحة في سكنها البرجوازي، وكان راضياً بما يراه. تدرك هي أيضاً أن معاملتها مُرضية تماماً. رأيت سواراً فضياً في معصمها؛ وكان حذاؤها أنيقاً عالي الكعبين؛ ولديها جهاز راديو بتزيينات لامعة من الكروم عند مكبّر الصوت. الحقيقة أن الجدة لوش، عندما ترتدي أفضل ما لديها من ملابس أوديسا السوداء في مأوى نيلسون، كانت تحاول التشبّه من بعيد بما تعيشه ماما الآن. نعم، هكذا خذل السيدة العجوز ولداها فلم يظهرا تقديراً لشرعية مكانتها وما كان عندهما إحساس بمعاييرها الرفيعة. لكن، ما كانت مهمة سهلة على ماما أن تجد نفسها مضطرة إلى مواكبة ما يقدمه إليها سايمون وشارلوت. فهمت أن سايمون أصعب كثيراً من شارلوت. إنه شديد التدقيق. كان يفتح خزانتها ويتفقد ملابسها

حتى يرى إن كانوا قد نظفوها جيداً أو حتى يرى إن كان شيء منها مفقوداً. أترى كيف يكون سايمون عندما يفعل شيئاً من أجل خيرك ورفاهك؟... يستطيع أن يكون مزعجاً حقاً.

لعل تلك الرائحة الثقيلة الواخزة المنتمية إلى الماضي هي ما يجعلني شديد الانتقاد للحظة الراهنة، هي ما يجعلني أبالغ في تصور الصعوبات التي تعيشها ماما وفي تخيل أن السجادة الكبيرة والستائر ليست إلا تلطيفاً للقفص المحبوسة فيه. إنها امرأة عمياء متقدمة في السن، ولا بد لها من العيش في غرفة، في غرفة ما؛ فلماذا لا تكون غرفة مريحة؟ بل إنني يمكن أن أكون أنا المخطئ عندما أرى جورجي وماما سجينَيْن وعندما أشعر بالتعاسة لأنني أتجول أينما شئت حراً بينما يكونان مجبرَيْن على ملازمة المكان نفسه.

قالت لي: «أوجي، اذهب لرؤيته! لا تكن غاضباً على سايمون. قلت له إنه لا يجوز أن يكون غاضباً عليك أيضاً».

«سوف أراه يا ماما. سأراه فور أن أعثر على غرفة وأستقرّ».

قالت: «ماذا ستعمل؟».

«أوه... شيء ما. آمل أن يكون شيئاً جيداً».

«ماذا؟ هل تكسب عيشك الآن يا أوجي؟».

«إنني هنا. ماذا تقصدين يا ماما؟ إنني أعيش».

«ولماذا أنت نحيل؟ لكن ملابسك جيدة. أعرف هذا من ملمس القماش».

لا بد أن ملابسي جيدة. لقد دفعت ثيا من أجلها ثمناً غير قليل.

«أوجي، لا تنتظر كثيراً قبل أن تتصل بسايمون. إنه يريد رؤيتك. قال لي أن أخبرك بهذا. وهو يتحدث عنك طوال الوقت».

كان سايمون يريد رؤيتي بالفعل. وفور سماعه صوتي في الهاتف قال لي: «أوجي! أين أنت؟ ابقَ في مكانك! سوف آتِ فوراً لكي آخذك».

كنت أتصل من كشك للهاتف قريب من مكان سكني الجديد الذي لا يقع بعيداً عن مكاني القديم في الحي الجنوبي. يعيش سايمون في الحي نفسه. وصل بسيارته الكاديلاك السوداء بعد دقائق. رأيت تلك السيارة الجميلة اللامعة تقترب من الرصيف بهدوء. كان داخلها متلألئاً كالمجوهرات. أشار لي فصعدت إلى السيارة. قال: «علي أن أعود فوراً. غادرت البيت من غير قميص. اكتفيت بوضع هذا المعطف وهذه القبعة. حسن فلننظر إليك الآن».

قال هذا، لكنه لم ينظر كثيراً في الحقيقة... رغم سرعة وصوله إليّ. كان يقود السيارة بالطبع، لكنه كان مكتفياً بلمس المقود المزيَّن بحجارة ثمينة... لمسة خفيفة من يده المعتنى بها جيداً. ظننت أنه آسف بسبب تلك المشاجرة التي كانت بيننا من أجل لوسي وميمي. ما عدت غاضباً من ناحيتي، لكن نظراتي كانت مثبتة على الطريق. صار سايمون أكثر سمنة من ذي قبل. انفتح المعطف الخفيف ذو الأزرار الكستناوية فظهر بطنه العاري الصلب. صار وجهه أكثر ضخامة أيضاً. صار فظاً، أوتوقراطياً. وما كان لون الدهن فيه نقياً مثلما يراه المرء على بعض الوجوه. كان للسيدة كليم، والدة جيمي، وجه سمين أيضاً، وجه شبه شرقيّ، إلا أن ذلك الدهن في وجهها كان مشعاً. لكني اكتشفت أنني لا أستطيع اتخاذ موقف انتقادي تجاه سايمون عندما رأيته بعد ذلك الغياب الطويل. لا أهمية لما فعله ولما يفعله الآن... أحببته من جديد لحظة رأيته اليوم. ليس الأمر بيدي. هكذا هو طبعي. أردت أن نكون أخوَيْن من جديد. ثم... ما الذي جعله يأتي مسرعاً من أجلي إن لم يكن يريد الشيء نفسه؟

نعم، لقد أراد الآن أن يعرف كم كان مجرى الأمور سيئاً بالنسبة لي. ما كانت عندي أي نية في إخباره عن ذلك. سألني عما كنت أفعله في المكسيك.

«كنت واقعاً في حب فتاة».

«واقعاً في حب فتاة، أوه، وماذا أيضاً؟».

لم أقل شيئاً عن النسر ولا عن خيباتي والدروس التي تعلّمتها. ربما كان من الأفضل أن أحدثه بذلك. إنه ينتقدني، على أية حال... ينتقدني في سره بسبب عشوائيتي وعاطفيتي المفرطة؛ فما الذي أخسره إن أخبرته بالحقيقة؟ لكن شيئاً من عزة النفس منعني من ذلك. كم كانت قصيرة حرارة فترة الحب الأولى... كيف أقول هذا؟ وحتى إذا كان ينتقدني ويصدر أحكامه عليّ... فماذا في الأمر؟ فليكن! ألم أضرب وأُلقى إلى الأرض وأصاب في رأسي وأفقد سناً من أسناني؟ ألم أكن خائب الأمل... وغير ذلك؟ ألم أكن قادراً على القول «لا بأس، لا بأس يا سايمون، ها أنا هنا»؟ لا، لم أستطع قول هذا؛ قلت له إنني ذهبت إلى المكسيك حتى أنجز أمراً مهماً.

ثم بدأ يحدثني عن نفسه. لقد وسَّع شركته ثم باعها وحقق ربحاً ممتازاً. لم يكن راغباً بعد ذلك في استمرار عمله مع آل ماغنوس فمضى إلى قطاعات أخرى، وكان محظوظاً كثيراً. قال: «إن لديَّ تلك اللمسة الذهبية بكل تأكيد. بدأت في فترة الركود عندما كان الناس يتهاوون ويفلسون». ثم روى لي كيف اشترى بناء مستشفى قديماً معروضاً في المزاد ثم حوّله إلى مبنى سكني. ربح خمسين ألف دولار خلال ستة أشهر؛ وعند ذلك أقام شركة

تتولى إدارة المكان لصالح المالكين الجدد. وأنه يملك الآن حصة كبيرة في منجم إسباني للكوبالت. ويبيعون الإنتاج في تركيا أو في مكان ما في الشرق الأوسط. ولديه امتياز لبيع رقائق البطاطا في عدد من محطات السكة الحديدية. الواقع أن إينهورن نفسه لا يمكن أن يحلم بصفقات من هذا النوع، ولا يمكن أن يحقق هذه الأرباح كلها.

«كم تظن أنني أملك الآن؟».

«مئة ألف دولار؟».

ابتسم وقال: «زدها قليلاً! إذا لم أكن مخطئاً في حساباتي فسوف أكون مليونيراً في وقت قريب».

فاجأني هذا. كيف لا يفاجئني؟ ما كان قادراً على تجاهل أنني فوجئت. ورغم ذلك، نظر إليّ بعينيه الأوتوقراطيتين الزرقاوين الداكنتين وسألني: «أوجي، أظنك ترى نفسك متفوقاً عليّ لأنك لا تملك مالاً، أليس كذلك؟».

جعلني سؤاله أضحك. ربما ضحكت أكثر مما ينبغي. قلت: «هذا سؤال غريب. كيف يمكن أن أرى نفسي متفوقاً عليك؟ وحتى إذا فكّرت هكذا، فما أهمية الأمر بالنسبة إليك؟» أضفت بعد ذلك: «أظن أنه صحيح ما يقال عن أن الناس يصممون على أن يصبحوا أفضل من الأشخاص القريبين منهم. وماذا في الأمر؟ أحب بالتأكيد أن يكون لدي مال أيضاً».

لم أقل له إنه لا بد لي من أن تتحسن أقداري، وإن هذا الأمر أهم من غيره.

أرضته إجابتي. قال: «إنك تهدر وقتاً كثيراً».

«أعرف هذا».

«عليك أن تكف عن هذا الانتظار والتأجيل. لم تعد صبياً. جورج نفسه صار شيئاً... إنه حذّاء الآن».

تعرفون أنني أعجبت بجورجي بسبب أسلوبه في تقبّل قدره. تمنيت لو أن لدي قدر أكثر وضوحاً، وأن أستطيع التوقف عن هذا الترحال المستمر. ما كنت أشعر أنني أفضل من سايمون، على الإطلاق. لو كانت عندي راحة حقيقية في حياتي، فلربما حسدني عليها. أما في حالتي هذه، فعلى أي شيء يمكن أن يحسدني؟

كان يقود سيارته في الشوارع ضخم الجسم، ويضغط بحذائه الأنيق المدبَّب على الوسادة المطاطية فوق دواسة السرعة. هذه السيارة الضخمة المتميزة، سيارة ملكية... ألم يكن أخي كأنه أمير ديترويت... ألم يكن كله قوة وسواداً؟ فماذا في الأمر؟ ما المشكلة في

هذا؟ ما المشكلة في امتلاك قوة عالم الآلات؟ أليس هذا جيداً؟ ما كنت فخوراً بنفسي، صدقوني؛ وما كنت فخوراً بإصراري العنيد على قَدَرٍ مستقل «أكثر سمواً». لست ساحراً بالطبع، ولا أستطيع فعل المعجزات، ولست قادراً على إيجاد ردّ على كل ما يخزيني مثلما فعل جان جاك روسو في طريقه إلى فينسين غارقاً في فكرة أن المجتمع الشرير مسؤول عن كل ما يحدث لي، أنا الشخص الدافئ المحب المتهوّر. ما كان لدي شيء متميز أستطيع المباهاة به؛ فمن أنا... من أنا حتى أستطيع أن أعقد العزم وأن أكون عنيداً إلى هذا الحد؟ الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع قوله، رغم رغبتي في هذا القَدَر المستقل، هو أنني لا أريده من أجلي أنا فقط.

أوه، لماذا هذه الجدية كلها؟ الجدية حِكرٌ على قلة من الناس؛ إنها موهبة! ومع أنها موجودة عند الجميع تقريباً، إلا أن المختارين وحدهم من يستطيعون الكلام عنها علناً.

«إذن، متى تبدأ ما تريد فعله؟».

«ليتني أعرف! لكن يبدو لي أنه شيء من تلك الأشياء التي لا يستطيع المرء استعجالها».

«لا بأس، يجب أن تعرف أن الناس لا يثقون بك إذا لم يعرفوا ما تفعله. وأنت لا تستطيع لومهم على هذا».

أوقف سايمون السيارة قبل الشقة، وتركها واقفة في الشارع حتى يهتم البواب بأمرها. صعدنا سريعاً بمصعد من غير صوت فوصلنا إلى باب شقته الأبيض العاجي. وعندما فتحه صاح بالخادمة قائلاً لها أن تسرع فتعد لنا لحماً مع البيض. كان يتصرف كأنه ملك، كأنه ملك فرنسا عائداً من الصيد. سار في البيت ضخماً، صائحاً، قالباً الأشياء... لم يكن يريني غرفه الرائعة بقدر ما كان يمارس هيمنته على تلك الغرف. كانت هنالك سجادات كبيرة ومصابيح على الطاولات، مصابيح كبيرة مرتفعة كأنها دمى بالحجم البشري الطبيعي. وجدران مكسوة بخشب الماهوغاني، ودروج ملؤها ملابس داخلية وقمصان؛ وأبواب منزلقة من خلفها رفوف عليها أحذية أو صفوف من المعاطف وعلب من القفازات والجوارب وزجاجات الكولونيا والقبعات. وأنوار تزين الزوايا، وصوت الماء منهمراً في الحمام. ذهب ليأخذ حماماً سريعاً. أما أنا فمضيت إلى الردهة وحدي. رأيت وعاءً ضخماً من البورسلان فوقفت على أحد الكراسي ورفعت الغطاء لأنظر بداخله... رأيت على جداره من الداخل صورة معكوسة للطيور والتنانين النافرة المرسومة عليه. كانت هنالك صحون من السكاكر والحلوى. تناولت بعض كرات جوز الهند وقطعة حلوى على شكل حبة مشمش، ثم رحت أتمشى ريثما ينهي سايمون حمّامه. مضينا بعد ذلك لنتناول الطعام على طاولة جميلة سطح من الرخام. كانت الكراسي مغلّفة بجلد أحمر. وكان على الحلقة

المعدنية التي تطوّق رخام الطاولة رسوم فيها طواويس ووجوه أطفال. جاءت الخادمة من مطبخها شديد البياض. أتت باللحم مع البيض، وبالقهوة أيضاً. امتدت يد سايمون بخواتمها حتى تختبر حرارة الفنجان. كان يتصرف كأنه لورد إيطالي شديد الحرص على الجودة وعلى التدقيق في كل ما يأتون به إليه. كنت أعرف أن المصعد ارتفع بنا مسافة غير قليلة، لكني لم أعرف في أي طابق صرنا. وعندما دخلت إحدى الغرف الضخمة بعد الإفطار... غرفة قاتمة مثل عربات القطار الفاخرة عندما تكون نوافذها مسدَلة في المحطة، أزحت الستارة جانباً فرأيت أننا في الطابق العشرين على الأقل. لم أنظر إلى شيكاغو بعد عودتي. ها هي أمامي من جديد، ممتدة إلى الغرب من هذه النافذة... المدينة الرمادية المزمجرة تجتازها خطوط القطارات وتطبخ مصانعها الضخمة أشياء كثيرة فينطلق دخانها في الهواء... مدينة ترى أجزاءها صاعدة هابطة، منشآت كبيرة، ومنشآت قيد الهدم كأنها تلال صغيرة. وفوق هذا كله تجثم قوى مختلفة، كبيرة وصغيرة، وتراقب المدينة كأنها أبو الهول. خيمت على المدينة رطوبة فظيعة كأنها حكم نهائي مبرَم لم يعثر بعد على الكلمات المناسبة للنطق به.

جاء سايمون باحثاً عني، وصاح: «ماذا تفعل في هذه الغرفة المظلمة بحق الله. هيا! ستصحَبني في تجوالي اليوم».

كان يريد أن يجعلني أرى شكل حياته. ولعله ظنّ أنني قد أصادف شيئاً يستهويني، شيئاً من أجل مستقبلي. قال لي: «لكن، انتظر لحظة، ما هذه الملابس المضحكة التي ترتديها؟ لا تستطيع الذهاب بين الناس بهذه الملابس».

«اسمع، لقد اختارتها لي صديقة من صديقاتي. المُس هذا القماش! لا تشكو هذه البدلة من شيء».

لكن نفاد الصبر بدا على وجهه فنزع سترتي عني قائلاً: «اخلع ثيابك». جعلني أرتدي قميصاً ناعماً أنيقاً رمادي اللون. وجعلني قبله أرتدي ملابس داخلية بيضاء ناعمة، وجوارب حريرية. وبعد ذلك جاءني بحذاء جديد. وطلب من الخادمة أن ترسل بدلتي القديمة لتنظيفها، وأن تجعلهم يرسلونها إلى عنواني بعد ذلك. كانت أكمامها مبيضّة قليلاً عند المرفقين. أما بقية ملابسي فأمرها بأن ترميها في الموقد! وهكذا فقد أكلتها النار. مسحت وجهي بمنديل يحمل الحروف الأولى من اسمه؛ صار منديلي الآن؛ وتململت أصابع قدمي في حذائي الضيق الجديد محاولة أن تتأقلم معه. أعطاني خمسين دولاراً. حاولت الرفض، لكن لساني قال غير ما كنت أريد قوله. أجابني سايمون: «هيا! كف عن الغمغمة! يجب أن يكون لديك شيء في جيبك حتى تستطيع التصرف بما يتناسب مع ملابسك».

كانت لديه محفظة ذهبية كبيرة، وكانت الأوراق النقدية فيها جديدة كلها. «فلنذهب الآن! يجب أن أقوم ببعض الأعمال في المكتب. كما أن شارلوت تنتظر أن آخذها في الساعة الخامسة. إنها في مكتب المحاسب تراجع بعض السجلات».

أرسل في طلب السيارة؛ ثم انطلقنا من غير توقف في تلك العلبة الصلبة اللامعة التي ينبعث صوت الموسيقى من جهاز الراديو فيها.

يحتفظ سايمون بقبعته على رأسه في المكتب كأنه عضو في البرلمان البريطاني. وبينما يتحدث في الهاتف، يبعثر حذاؤه المصنوع من جلد التمساح الأشياء ويسقطها عن سطح مكتبه. كان منهمكاً في شراء مصنع في البرازيل وبيعه في هلسنكي. ثم انصبّ اهتمامه على آلة من آلات المناجم من سودبري في ولاية أونتاريو تطلبها شركة في الهند الصينية. جاءه ابن أخ أحد الوزراء عارضاً عليه مادة عازلة. وجاء بعده شخص حاد الملامح جعل سايمون مهتماً بسلعة في بلدة مونسي في إنديانا. اشترى سايمون تلك المادة ثم باعها لشخص يصنع سترات جلدية. حدث هذا كله بينما كان مستمراً في الحديث على الهاتف، شاتماً، مهدداً؛ لكن ذلك كان أسلوبه فحسب، لأنه كان يضحك كثيراً.

وبعد ذلك ذهبنا بالسيارة إلى ناديه لتناول الغداء فوصلنا متأخرين. لم نجد خدماً في غرفة الطعام. ذهب سايمون إلى المطبخ ليصرخ قليلاً على كبير الندل. وعندما رأى قِدراً موضوعة في طبق كبير، أخذ قطعة من الخبز وغرف بها مرقة اللحم تاركاً في القدر بعض فتات الخبز. صاح النادل محتجّاً فرد عليه سايمون بصياحٍ مماثلٍ ثم أطلق في وجهه ضحكة خانقة وقال له: «لماذا لا تقدم الطعام للناس أيها الأحمقُ؟».

أطعمونا آخر الأمر. وبعد ذلك بدا لي أن سايمون صار يحس الوقت مضجراً.

مضينا إلى الصالة حيث أقحم نفسه على لاعبي البوكر. كان واضحاً أنهم لا يحبّونه. لكن أحداً منهم ما كان قادراً على مواجهته. قال لشخص أصلع الرأس: «تزحزح يا كورلي!» ثم جلس. خاطبهم قائلاً: «هذا أخي»... كأنه يرغمهم على النظر إليّ في بدلتي الرمادية الجميلة وياقتي البيضاء المزرَّرة. جلست خلفه في مقعد جلديّ.

صار يستدير صوبي ويصف الأشخاص الجالسين متظاهراً أنه يكلمني بصوت منخفض. «هل ترى ذلك الرجل في البدلة الزرقاء، الرجل الذي يحمل السيجار يا أوجي. إنه محام، لكنه لا يمارس المحاماة! يكتفي بوجود مكتب مفتوح حتى يستطيع الزعم أنه واحد من المحامين. إنه يكسب عيشه من لعب الورق. ستجده في السجن الأسبوع القادم إذا لم يلعب أحد معه. تفعل زوجته الشيء نفسه. إنها تلعب في الفنادق الفاخرة كلها. انظر إلى هذا الرجل أيضاً، هناك، إنه غوني. يملك والده مصنعاً للسكر، وهو تخرّج من

جامعة هارفارد. لو كان لدي ابن مثله لفضلت أن أصب الشامبانيا على مؤخرتي بدلاً من إرساله إلى الجامعة. ابن العاهرة، لو كان ابني لجعلته يعاني كثيراً. لا يزال عازباً ولن يكون لديه أبناء أبداً لأنه يحب الصبيان. حاول العام الماضي أن يلتقط بحّاراً في أحد المطاعم فضربه الفتى حتى تورمت عينه. وذلك هو روبي روسكين... إنه شخص طيب. يزور والده العجوز في السجن، مرة على الأقل في الشهر. حمل العجوز العقوبة عنهما معاً في قضية حرق متعمّد».

بدا لي أن هؤلاء اللاعبين يحبسون أنفاسهم؛ ما كانوا ينظرون، وما كانوا يبتسمون... كنت واثقاً من أن الأمر سينتهي بأن يتلقى سايمون ضرباً مبرّحاً منهم. لكن سايمون قال لهم: «استمعوا أيها الحمقى! أريدكم أن تنظروا جيداً إلى أخي. إنه شخص راديكالي، وقد عاد من المكسيك منذ فترة وجيزة. أوجي، قل لهم عن الثورة القادمة قريباً... أخبرهم كيف ستعلّق أثقال من رقابهم ثم يقذف بهم في القناة».

قامر بمبلغ كبير (لا بد أنه فاز لأن الآخرين كانوا في غاية الانزعاج من ورقهم). قام بعد ذلك وغادر الطاولة مختالاً.

قلت: «إنهم في غاية الحقد عليك. لماذا تجعلهم يكرهونك هكذا؟».

«لأنني أكرههم. وأريدهم أن يعرفوا أنني أكرههم. ما همّي إن كان هؤلاء التافهون يكرهونني؟ ليسوا أكثر من قملات! أحتقرهم جميعاً».

«لماذا تأتي إلى ناديهم إذا كنت تحتقرهم؟».

«ولِمَ لا؟ أحب أن أكون عضواً في أحد النوادي».

لعب لعبة أخرى في أحد البارات ففاز من جديد. وضع علبة من سيجار هافانا في جيبي وقال: «فلنذهب إلى محل الحلاقة. أنت في حاجة إلى حلاقة، وأنا أحبها. يا إلهي، أحب محلات الحلاقة!».

توقف عند بالمر هاوس حيث لديهم تلك المقاعد الفاخرة الضخمة. صارت الساعة الخامسة عندما انتهينا من قص الشعر وحلاقة الذقن، والبخار، والتلميع، فذهبنا إلى السيارة مسرعين وانطلقنا عبر شوارع جانبية مبتعدين عن الشارع الرئيسي. كانت شارلوت في الشارع تنتظر في معطفها من الفرو؛ كانت ضخمة أنيقة جميلة متجهّمة. أزعجها الانتظار كثيراً، وسرعان ما بدأت تصيح: «سايمون، أين كنت؟ هل تعرف كم تأخرت؟».

قال سايمون: «اخرسي! ها هو أخي الأصغر. أنت لم تريه منذ سنتين، لكنك لا تستطيعين حتى أن تقولي له مرحباً... تفضلين أن تبدئي الصراخ أولاً».

قالت بنبرة عنيفة أكثر منها ودية: «كيف حالك يا أوجي؟» استدارت في معطفها الفرو ملتفة إلى الخلف... «هل أحببت المكسيك؟».

«أوه، أحببتها كثيراً».

بدت في قمة الأناقة... كان من الممكن أن تبدو جذابة بحاجبيها المستقيمين وفمها المزيَّن لولا ما يظهر عليها من تعب ونفاذ صبر. كانت معدّات إخفاء نفاد الصبر عندها لا تعمل جيداً عند تلك اللحظة. لقد لاحظت بالطبع أنني كنت أرتدي بدلة من بدلات سايمون. لم تكن لتعترض على شيء من هذا القبيل، لكنها تلاحظه مع ذلك! صارت طريقتها في الكلام آمرة، ملحّةً صارت خشنة أيضاً مثل قاضٍ متشدد، وكأنك متهم واقف أمام، وعلى المرء أن ينتبه لما يقوله في حضورها. لكنها تصل إلى ما تريده على أي حال. كانت في معطفها الفرو الضخم الأنيق كأنها ضابط من ضباط البلاط رغم أحمر الشفاه على شفتيها ورغم الكحل في عينيها. أما أنا فكنت أشبه قرصاناً خبيثاً، لكني لم أكن صاحب إجابات جريئة في حقيقة الأمر.

كان من الأشياء التي تزعجها، أنني أبدو، رغم عدم امتلاكي قرشاً واحداً، معتاداً تماماً على كثير من أسباب الرفاهية التي يستمتع بها الأغنياء. كنت أستمتع بها من غير أن أدفع مالاً أو أحمل هَمّاً. ما كان هذا صحيحاً، بالطبع؛ إنه مجرد مظهر آخر من تلك المظاهر التي أتقنها. لكن ما أثار اهتمامها على نحو خاص هو أنني لم أكن أبدو قلقاً أبداً.

أردت أن أحدّث سايمون عن جورجي خلال العشاء، لكنه قال لي: «لا تخترع أي مشكلات جديدة. لا تخترع أي مشكلات جديدة. إنه بخير. ماذا تريد؟».

قالت شارلوت: «لماذا تقلق على شقيقك جورج قبل أن تقرر ما ستفعله بحياتك أنت؟ من السهل كثيراً أن يصبح المرء متشرداً».

قال لها سايمون: «الزمي الهدوء! أن يكون متشرداً أفضل من أن يكون زوجاً لابنة عمك لوسي وصهراً لعمك. اتركي أوجي وشأنه. لا يريد أن يصبح متشرّداً. ما الذي يزعجك إن كان في حاجة إلى بعض الوقت حتى تستقر أموره؟».

قالت شارلوت: «الظاهر أنك فقدت سناً أو سنين، أليس كذلك؟ كيف حدث هذا؟ يبدو مظهرك فظيعاً...» كان من الممكن أن تستمر في هذا الحديث، لكن الجرس قرع ودخل شخص فتحت له الخادمة الباب فمضى عبر الممر وجلس في غرفة المعيشة. صمتت شارلوت. ألقيت نظرة بعد ذلك فرأيت جسداً أنثوياً ضخماً جالساً في الظلمة. ذهبت لأرى من تكون هذه المرأة. عجيب... إنها أم شارلوت، السيدة ماغنوس، جالسة

إلى جانب الوعاء البورسلاني الذي لم تستطع ضخامته أن تجعلها تبدو أصغر قليلاً... كان وعاءً ضخماً. حتى في تلك الظلمة كان لون السيدة ماغنوس جميلاً معافى؛ تحركت مشاعري عندما رأيت أنفها المستقيم وشعرها المضفور وحجمها المهول.

قلت لها: «لماذا تجلسين في الظلام يا سيدة ماغنوس؟».

قالت ببساطة: «إنني مضطرة إلى هذا».

«لكن، لماذا أنت مضطرة؟».

«لأن صهري لا يريد رؤيتي».

سألت شارلوت وسايمون: «ما الأمر؟».

قالت شارلوت: «وبّخها سايمون لأنها ترتدي ثياباً رخيصة الثمن».

قال سايمون غاضباً: «لأنها تأتي إلينا مرتدية ملابس تعود إلى منتصف القرن الماضي. امرأة تملك نصف مليون دولار! تبدو مثل حصان مَنْ يجمع الخرق من القمامة».

بسبب تدخلي، أتت شارلوت بأمها لتجلس معنا على الطاولة. كنا نأكل الكرز ونشرب القهوة. صارت شارلوت لطيفة معي، لكن سايمون عبّر عن غضبه على السيدة ماغنوس بسبب فستانها البني. لم يقل كلمة واحدة عندما جاءت وجلست إلى الطاولة (حاول أن يقرأ الجريدة، فتحها وجعلها تحجبه عنها). لكنه قال أخيراً: «لا بأس أيتها البخيلة القذرة العجوز؛ أرى أنك لا تزالين تشترين ملابسك من زوجة دفّان الموتى»... كنت قادراً على رؤية الشيطان فيه آنذاك.

قالت شارلوت بصوت حاد: «دعها وشأنها».

لكن سايمون رمى نفسه فجأة عبر الطاولة فأوقع وعاء الكرز وقلب فناجين القهوة. أمسك بياقة فستان حماته وأدخل يده فيها ثم مزق الثوب حتى الخصر. زعقت المرأة. ظهر ثدياها العملاقان الناعمان محزومين بشريط وردي عريض. كانت لحظة دهشة هائلة... أن يرى المرء هذين الثديين فجأة! شهقت أم شارلوت وغطت عريها بيديها واستدارت جانباً. لكن صراخها كان يحمل شيئاً من الضحك أيضاً. كم تحب سايمون! كان يعرف ذلك أيضاً.

صاح بها ضاحكاً: «اختبئي! اختبئي!».

صاحت شارلوت: «أنت مجنون». جرت بحذائها ذي الكعب المرتفع حتى تجلب

معطفها لأمها ثم عادت ضاحكة أيضاً. أظن أنهم كانوا فخورين بما يحدث، في حقيقة الأمر.

حرّر سايمون شيكاً وقدمه إلى السيدة ماغنوس قائلاً: «خذي! اشتري لنفسك شيئاً ولا تعودي ثانية بمظهر يشبه مظهر امرأة من اللواتي ينقّبن في القمامة». مضى إليها وقبّلها على شعرها فأمسكت برأسه وقبّلته قبلتين اثنتين... جرى ذلك بمرحٍ غريب.

ذهبت لرؤية إينهورن الذي كان أبيض شاحباً بعض الشيء. لم تجرِ أموره على نحو طيب في الآونة الأخيرة. لقد ذهب إلى المستشفى وأجرى عملية البروستات خلال فترة غيابي. لكنه ظل، رغم ذلك، صاحب حضور متميز؛ وظلت لديه تلك المطبوعات المتعلقة بالتأمين وقصاصاته كلها وصور كثيرة على جدران المكان. وفي وسط هذه الصور كلها، علّقت صورة كبيرة للمفتش... ذلك هو الرجل! يا للرأس الكبيرة الرائعة! كان النعي الشهير الذي كتبه إينهورن معلّقاً تحت الصورة أيضاً. تيلي في إجازة مع الحفيد؛ أما ميلدريد التي صارت صديقة لإينهورن أكثر من أي وقت مضى، فقد غدت سيدة البيت الآن. كانت واقفة بحذائها الطبّي الضخم عند حاجز المكتب الذي كان حيّزاً مقتطعاً من المكتب القديم. كانت في عينيها نظرة تجعلك راغباً في خوض حرب معها. لكن هذا ليس لي... شكراً! بدأ شعرها يصير رمادياً. أما شعر إينهورن فكان ثلجياً، مما جعل عينيه أكثر قتامة. وعندما شاهد البدلة ذات الصدار المزدوج التي أعطاني إياها سايمون قال: «من المؤكد أنك في حال طيبة يا أوجي». كان البيت فائحاً برائحة عفنة. وكانت الكتب تتساقط عن رفوفها. أما التماثيل النصفية للرجال العظماء فكانت شبه ضائعة بالقرب من السقف. كان الكرسي الجلدي المدولب في حالة شيخوخة طيبة، لكنها شيخوخة أيضاً.

تذمر إينهورن كثيراً من ميمي فيلاريس لأنها تدمّر ابنه.

وكانت ميمي أقل لطفاً من أيٍ وقت مضى عندما حدثتني عما كان يفعله بآرثر. قالت: «سوف أخبرك عن ذلك العجوز. يظن الملعون أنه يدير عرضاً في كل وقت! كلما ذهب إلى المرحاض يصبح راغباً في نشر مقالة عن ذلك. أعرف أن كل امرئ يكون معجباً بنفسه، وهذا ما يجعل العالم يدور. بل، لعل الأمر ليس حتى غروراً. لعل هذا يشبه شخصاً تصيبه رصاصة في رأسه لكنه يستمر في التفكير في قبعته الجميلة، ويظل يفكر في الحفلة التي دُعي إليها يوم السبت، وأشياء من هذا القبيل. لكن، لا بد من وجود حد في مكان ما! حتى إذا كنت غير قادر على الامتناع عن شيء سيء فعليك أن تدرك أنه ليس شيئاً جيداً، على الأقل! لا يريد ذلك الرجل العجوز إلا أن يكون آرثر رصيداً له وأن يجلب له المجد؛ وأما أن يفكر في مساعدته بقرش واحد فلا! إنه لا يعطيه شيئاً أبداً. إن الأهل الذين يملكون مالاً

ولا يعطون أولادهم شيئاً يستحقون أن يؤخذ مالهم منهم. يستحقون أن يذهبوا ليتسوَّلوا. أود أن آخذ هذا العجوز فأضعه عند تقاطع شارعَيْ ستيت وليك مع علبة معدنية فارغة... هذا ما أحب أن أفعله به. أنت تعرف أن الجد ترك لآرثر مالاً كثيراً. كان أكثر ذكاء من أن يثق بابنه. يحاول آرثر إنجاز كتاب، وسوف يكون كتاباً عظيماً. إنني مؤمنة بهذا. وأنت تدرك أنه ليس من المنطقي أن يعمل خلال تأليف الكتاب». كان لدى إينهور بعض المال حقاً رغم أنها تبالغ في تقدير ما يملكه. لكني لم أناقشها. كنت حانقاً على إينهورن، أنا أيضاً. بدأت ذلك منذ أن عدت من بوفالو فوجدت أمي خارج بيتها... عندما راح يحثني على أن أقسو على سايمون... ما عدت أشعر تجاهه بتلك المودة القديمة. وهنالك أمر آخر، إذا أردتم أن تعرفوا هذا: منذ أن كان يحذرني، وتيلي أيضاً، من أن أتوقع الحصول على شيء منهما، ويكرران أن آرثر سيحظى بالثروة كلها، لم أكن قادراً على تجنب الإحساس أن أحداً لم يكن جيداً كفاية مع هؤلاء الناس، وأنهم ما كانوا جيدين بما فيه الكفاية فيما بينهم أيضاً. لعل الوقت قد حان لأن أتجاوزهم.

قالت ميمي بمرارتها التي أذكرها منذ زمن بعيد: «إن لديّ عمل جيد الآن، بالطبع؛ أما في الشتاء الماضي فقد أصابتني الأنفلونزا ولم أكن قادرة على العمل. ليس هذا فقط... لقد طردنا أوينز من المكان لأننا ما كنا قادرين على دفع الإيجار فاستضافتنا واحدة من صديقاتنا في دولتشستر. لكن، ما كان لدينا هناك شيء ننام عليه أنا وآرثر غير أريكة واحدة. نحن الاثنان على أريكة، وأنا مريضة بالأنفلونزا. كان آرثر في غاية التعب كل صباح. وعندما تمضي صديقتي إلى عملها يذهب لينام في سريرها». أضافت بضحكتها الكوميدية الشهيرة: «وهكذا قلت له آخر الأمر إن عليه أن يحاول الحصول على عمل. قال إنه سيحاول. ثم استيقظ ذات يوم في الثامنة صباحاً وخرج وعاد في العاشرة. قال إنه حصل على وظيفة في قسم الألعاب في شركة بولدت وسوف يذهب ليتعلم تفاصيل ذلك العمل في الصباح التالي. خرج في التاسعة صباحاً وعاد في الحادية عشرة؛ لقد أروه ما يجب أن يقوم به، لكنه أراد أن ينهي قراءة فصل هام من كتاب كيركغارد قبل أن يبدأ العمل... ما الذي يدريني بهذه الأشياء؟ وفي اليوم التالي ذهب في الثامنة والنصف صباحاً ثم عاد عند الظهر! لقد طردوه لأن مراقب العمال طلب منه التقاط قطعة ورق من الأرض. فقال له: التقطها بنفسك يا كلب، ظهرك ليس مكسوراً! أصابته الأنفلونزا بعد ذلك فصار عليَّ أن أعطيه الأريكة. لكني أحبه! لا يكون الوقت معه مملاً أبداً. كلما ازدادت الحياة سوءاً كلما كان إحساسي بالحب أفضل. وماذا عنك أنت؟»، قالت هذا وهي تلقي عليَّ نظرة مدققة لترى كم ازدادت سُمرتي في المكسيك وكيف ازددت عمراً بعد المشقة والتجربة وبعد أن رماني بيزكوتشو على الصخور وبعد حسرتي المُرّة على ثيا. نعم، لقد كانت طريقة عودتي

توحي بأن هنالك شيئاً مشتركاً بيني وبين من نجا من جيش كراسوس في صحاري الشرق وعاد حياً من المجزرة بدرعٍ محطَّمة.

لا بأس! لقد حذرني الناس أصلاً. قال باديلا مثلاً: «يا إلهي يا مارتش! ما الذي جعلك تذهب إلى ذلك المكان مع فتاة كتلك، ومع ذلك الطائر أيضاً؟ فتاة تصطاد الأفاعي، والرب وحده يعرف ماذا تفعل أيضاً. ماذا كنت تتوقع أيضاً؟ لا عجب في أنك تبدو هكذا. أكره أن أقول هذا، لكن الظاهر أنك سعيت إلى ذلك بنفسك».

«وماذا كان يجب أن أفعل يا ماني؟ لقد وقعت في حبها».

«أيفترض في الحب أن يدمّرك؟ يبدو لي أنه ما كان عليك أن تتلف نفسك من أجل الحب... فما فائدة ذلك؟».

«معك حق، لكني لم أحبها مثلما كان يجب أن أحبها. هل تفهم هذا؟ لقد أخطأت. كان يجب أن أكون أكثر نقاء، وأن أبقى على حبي. كان هنالك شيء غير طبيعي عندي».

قال باديلا: «يا صديقي العزيز، دعني أقول لك شيئاً! أنت تلقي باللائمة على نفسك أكثر مما يجب. والسبب الحقيقي في ذلك ليس بالسبب الجيد. يحدث هذا لأنك مفرط الطموح. أنت تريد الكثير مما يجعلك تبالغ في القسوة على نفسك عندما تفشل. لكن هذا كله حلم. يجري البحث الحقيقي اليوم عن مدى ما يمكن أن يبلغه الإنسان من السوء، وليس كم يمكن أن يكون جيداً! أنت لست مواكباً لزمانك. أنت ماضٍ عكس التاريخ. أو، على الأقل، عليك الاعتراف بمدى سوء الأحوال؛ وهذا ما لا تفعله أيضاً! عليك أن تكف عن هذا التجول من غير طائل وأن تعود إلى الجامعة».

«أظن أنني سأفعل هذا. لكني لا أزال أستجمع أفكاري».

«استجمعها خلال دراستك... في الأمسيات. ألا تستطيع أن تقوم بأمرَيْن معاً؟».

وبعد ذلك قال لي كليم تامبو الكلام نفسه من الناحية العملية. سوف يتخرج قريباً. وقد صار الآن يبدو شديد النضج بشاربية الكثيفَيْن وسيجاره. تشبه ملابسه ما يرتديه وكلاء الإعلانات الفقراء؛ وهي فائحة برائحة محاليل التنظيف وبالعبق الذكوري أيضاً. قال لي: «لا بأس أيها الفتى... أرى أنك لا تزال مثلما كنت عندما ذهبت!» يميل كل منا إلى الآخر ميلاً كبيراً الآن. إنه شخص رائع طيب القلب... ملح الأرض... متعاطف دائماً، ويعرف كيف يفهم معاناة البشر العامة. لكني مضيت خلف امرأة ثرية (هكذا رأى الأمر)... إذا كنت قد لقيت السوء، فأنا من سعى إليه بنفسه! هذا ما كان يقصده في الحقيقة لأنني لم أكن في ذلك الوقت مثلما كنت عندما سافرت.

سألني كليم (لأنه يعرف الكثير عني كما ترون): «كيف ترى رحلتك خلف قَدَرٍ يستحق الجهد يا أوجي؟» وا أسفاه! لماذا يضايقني هكذا؟ كنت أحاول فقط أن أفعل ما أراه صحيحاً. وقد كسرت جمجمتي، وفقدت إحدى أسناني، واحترقت في مساري... كنت رحالة بائساً حقاً. يا إلهي! ما هذا الراكض خلف ما يراه جيداً، ما هذا الخادم للحب، المتورّط في مشاريع مختلفة، المجنّد من أجل أفكار سامية... ما هذا المهرّج؟ ماذا بكم؟ كانت المسألة كلها بسيطة في نظر كل من يعرف كيف تسير الأمور (لست أمزح عندما أقول هذا)... كنت أحاول أن أرفض عيش حياة تخيّب أملي. كانت حياتي شيئاً يستدرّ دموع التعاطف معي؛ لكنها كانت، مثلما يرى كليم، نكتة كبيرة أيضاً. هذا ما جعلني أبدو معزولاً؛ وهذا ما جعل كليم يضحك كثيراً. لكني لم أستطِع أن أشعر بأيّ غضب تجاهه.

هل تعرفون لماذا أبدو للناس مضحكاً؟ أظن أن هذا بسبب تقسيم العمل. إن التخصّص يترك الأشخاص الذين مثلي في المؤخرة. لم أكن أعرف شيئاً من فنون تلحيم المعادن، ولم أكن أعرف إدارة حركة المرور، ولا استئصال الزائدة الدودية، ولا أي شيء من هذا القبيل. ناقشت المسألة مع كليم فوجدت أنه يوافقني الرأي. ما كان كليم شخصاً كسولاً. يقول إنه يحقق الآن تقدماً طيباً في علم النفس، ويقول إن هنالك أشياء كثيرة صارت واضحة عنده اليوم بعد أن كانت ألغازاً في السابق. أوه، لا يزال كليم يرتكب الأغلاط. قال لي: «لقد اشتريت الأفكار التي لدي بسعر مرتفع». لكنه بدأ يصير أكثر ثقة في آرائه. أبدى سروراً عظيماً بعودتي وأعلن أننا من بين الأصدقاء الحقيقيين القلائل الموجودين في هذا العالم. ما كان يكذب عندما قال هذا! أقول هذه الكلمات لأن مشاعري تجاهه كانت دافئة جداً. قال ذات يوم إن علينا أن نذهب إلى «سينما الشرق» وأن نتعشّى معاً. يحب كليم أن يستضيف الآخرين، حتى آخر قرش يملكه. ولا مانع عنده بعد ذلك من أن يقرضه أحد شيئاً. كان يحب أن يبدو حسن المظهر رغم أن وجهه يبدو أغلب الأحيان غاضباً مغضّناً. وكانت ضحكته كبيرة ضخمة، أما أسنانه فكانت ناتئة وجمجمته كبيرة. كان في بدلة جيدة، متينة، في منتصف عمرها... بدلة جديرة بشخص يعمل في مصرف. لكن ساقيه طويلتان، وحذاءه قديم، وجواربه كذلك. يرتدي سترة بياقة ضيقة مرتفعة، وتفوح رائحة السيجار منه.

إذن، ذهبنا إلى «سينما الشرق»، وهنالك كانت نجوم تسبح في سماوات زرقاء... مثل ألف ليلة وليلة. استمعنا إلى ميلتون بيرل يغني «يا نهر... ابق بعيداً عن بابي»؛ ثم ظهرت راقصات متثنيات أشبه بدمى في فساتين مخملية. وبعدهن قدمت كلاب صغيرة عرضاً مدهشاً عندما قادت السيارات على المسرح. ثم جاءت مجموعة فتيات تعزفن موسيقى القِرَب. قدمت تلك المجموعة مقطوعة «آني لوري» أول الأمر ثم عدداً من المعزوفات

الكلاسيكية. قدَّموا «ليبستود» و«فالس تريستي». وبعد ذلك كله جاء الفيلم الذي كان رديئاً إلى حدٍّ جعلنا نترك المكان ونمضي إلى أحد المطاعم.

استعاد كليم وقاره بعد قهقهته الفظيعة في المطعم، وطلب لنا عشاء صينياً ضخماً: لحم في صلصة حلوة حامضة، وبراعم البامبو، ودجاج شاو مين مع الأناناس، وبيض فو يونغ، وشاي، وأرزّ، وعصير الفاكهة المثلج، وكعكات باللوز. أجهزنا على هذا كله، ونحن نتحدث.

قال لي: «افترض أننا سائرين صوب أعالي النيل حتى الشلال الأول في مركب «دهبية». الحقول خضراء، وصبيان يقذفون طيوراً ضخمة بالحجارة، وبحار من الزهور، ونحن نأكل تمراً فيه مواد منشّطة، وبنات قبطيات جميلات يأتين مجذفات على صوت خفق الأشرعة اللاتينية، وأشياء من هذا القبيل. افترض أننا ذاهبان إلى معبد الكرنك حتى ننسخ بعض الكتابات القديمة. كيف سيكون ذلك؟».

«تعرف أنني عائد من بلد غريب أيضاً».

«أعرف! لكنك استعجلت الذهاب إلى ذلك البلد. ما كنت مستعداً بعد. لست قادراً على المضي خطوة فخطوة. هذا هو السبب في أن رحلتك لم تكن ناجحة. لو كنت متخصصاً في علم المصريات القديمة لاستطعت الذهاب في هذه الرحلة إلى نهر النيل».

«جيد، سأصبح اختصاصياً في المصريات القديمة. لا يلزمني إلا نحو عشر سنوات من الاستعداد».

«انظر إلى نفسك! تبدو شديد التألّق والسعادة بعد العشاء. إن النظر في وجهك يبعث السرور في النفس... ماذا؟... يمكنك أن تكون مالك هذا المبنى. ها ها ها! أوه، يا أخي، إنك رائع!».

قلت مبتسماً وقد أحسست بالإطراء: «السؤال الوحيد هو: لماذا نهر النيل؟».

قال كليم: «بالنسبة إليك؟ إنه شيء استثنائي! عندما أفكر فيك أشعر أن عليّ التفكير بطريقة استثنائية... وأنّ علي التفكير في الأشياء الاستثنائية. لا بد لي من أن أنظر إلى مستوى استثنائي من الإنجاز». لقد تعلم هذه المفردات في الجامعة. وكانت كلمة «التعزيز» واحدة من كلماته المفضلة. وهي تعني أن تعطي الفأر طعاماً عندما يتمكن من حل إحدى المشكلات... حتى تشجعه! في تلك اللحظة، كان يبدو مثل ملك بشفتيه الكبيرتين الحمراوين وضحكته المجلجلة ووجهه الموحي بالفهم، وأنفه الكبير بفتحتيه المتسعتين. قال: «هل ترى نفسك واقفاً ضمن ذلك الحشد البائس الذي يهتف للفتيات

المجذفات نحو المركب؟ أنت لست كذلك. أنت شخصية متميزة. أنت رجل صاحب مشاعر، تظهر مثل ملاك بيننا نحن السذَّج التعساء في هذا المهرجان البشري».

حاولت إسكاته لكنه قال: «لا بأس، انتظر قليلاً، لم أنته بعد. وقد لا يعجبك كلامي عندما يصل إلى آخره».

«لا بأس، كف عن التعظيم من شأني إن كان الأمر هكذا حتى لا تجد نفسك مضطراً إلى تمزيقي بعد ذلك».

«لسنا في مستوى واحد من الكلام. لم أقل إنني أراك ملاكاً. وحدنا، نحن البشر العاديين المصنوعين من طين الذين نمشي خطوة فخطوة. نحن أصحاب الحظ العاثر... نراك آتياً كأنك قادم من حفلة، مبتسماً متألقاً. لديك طموحات. لكن طموحاتك عمومية، غير محددة! لست واقعياً بما فيه الكفاية. عليك أن تكون واقعياً، ملموساً. هكذا كان نابليون، وهكذا كان غوته. انظر مثلاً إلى البروفيسور سابيس الذي قام حقاً بتلك الرحلة النيلية. كان يعرف كل شيء عن ضفاف النيل على امتداد آلاف الكيلومترات. وكانت معرفته محددة! الأسماء والعناوين والتواريخ. إن سر الحياة كله كامن في المعلومات المحددة».

قلت: «ما الذي يجعلك مهتماً بمصر هذا الاهتمام كله على نحو مفاجئ؟ ثم إنني أعرف أيضاً أن هنالك أشياء كثيرة خاطئة عندي. لا تقلق... أعرف نفسي».

«ماذا؟ بالطبع، إنك مليء بالقلق. ألست أعرفك؟ أرى أنك تبول في مواجهة الريح. ما تحتاج إليه هو شيء من دواء السيد فرويد. يمكن أن يفيدك كثيراً».

قلت وقد اضطربت قليلاً: «في الحقيقة، تأتيني أحلام عجيبة كثيرة في الآونة الأخيرة. استمع فقط: حلمت البارحة أنني كنت في بيتي، في مكان ما... فاجأني كثيراً أن يكون لي بيت خاص؛ أحلامي أقل من هذا بكثير! كنت واقفاً في غرفة الاستقبال الجميلة أتحدث مع ضيفي، ثم، ماذا تظن؟ كان لديّ آلتيْ بيانو في تلك الغرفة. نعم، آلتا بيانو كبيرتان كأن المكان يستعد لإقامة حفلة موسيقية. وعند ذلك قال ضيفي الذي كان فائق الكياسة مثلما كنت أنا أيضاً... كنا شخصين من المجتمع الرفيع: «ليس من المألوف أن يمتلك أحد ثلاث آلات بيانو كبيرة، أليس كذلك؟ ثلاث! استدرت لأنظر... يا إلهي! كان هنالك بيانو ثالث حقاً. وأنا الذي كان يفكر في سبب وجود اثنين في بيتي، فأنا لا أحسن العزف أكثر مما يحسن الثور خياطة الوسائد. بدا لي الأمر مشؤوماً تماماً. لكني، لم أسمح لدهشتي بالظهور، رغم ذلك. فقلت لضيفي: بالتأكيد، نعم هنالك ثلاثة. قلت هذا لأن من غير الطبيعي أن يكون في البيت ثلاثة بيانوهات. قلتها ثم أحسست أنني كاذب كبير».

«أوه، إنها حالة تستحق الدراسة! يمكنك أن تكون مستودعاً حقيقياً بالنسبة لعقل علمي. يمكنك أن تكون أعظم مجموعة من المجاهيل أمام طبيب نفسي. ما أظنه هو أنك مصاب بمتلازمة النبالة. لا تستطيع التأقلم مع واقعية الوضع. أستطيع أن أرى هذا ظاهراً عليك تماماً. تريد أن تكون رجلاً شهيراً يملك ثروة كبرى ومكانة عظيمة. بما أننا أصدقاء منذ طفولتنا فأنا أعرفك وأعرفك تفكيرك. هل تذكر كيف كنت تأتي إلى البيت كل يوم؟ لكني أعرف ما تريده. أوه، تنشئة نبلاء اليونان! أوه، الملك داوود! أوه، بلوتارك وسينيكا! أوه، روح الفروسية! أوه، راعي الكنيسة سوغر! أوه، قصر شتوزي! أوه، فايمار! أوه، دون جيوفاني! أوه، وجه يعبر عن رغبات مشبعة! أوه، رجل كأنه إله! قل لي يا صاحبي... هل أقسو عليك؟».

قلت: «نعم، أنت تبالغ كثيراً». كنا ضمن مقصورة خشبية في هذا المطعم الصيني؛ وبدا كل شيء في أحسن حال... مزاج رائق، ودّي. عندما لا يكون المرء مضطراً إلى المضي في مناجاة نفسه فإن لقاءً كلقائنا هذا يكون أمراً في غاية القيمة. لكن، من الذي تستطيع أن تحدّثه بكل ما في ذهنك إن لم يكن هو أنت، نفسك؟

قلت له: «تابع يا كليم، تابع!».

«كنت أذهب إلى مدرسة موتلي في الصف الرابع. وكانت السيدة مينسيك معلمتنا. كانت تستدعي واحداً أو واحدة من التلاميذ ليقف قبالة الآخرين فتعطيه قطعة طباشير وتقول: والآن، يا دورابيلا، ما الزهرة التي تريدين شمَّها؟ ها ها ها! كان هذا أمراً عجيباً. تشم دورابيلا فينكولد الصغيرة زهرتها بعمق شديد... حتى يظهر سروالها الداخلي، ثم تغيم عيناها متعة وتقول: البازلاء الحلوة! كان هذا تمريناً معتاداً في صفنا. شهيق وزفير. أما ستيفاني كريزكي فتقول: بنفسج، ورد...». أمسك السيجار من أسفله كما يمسك المرء زهرة وشمّه بأنفه المفلطح. «تخيل فقط صورة غرفة الصف التعيسة هذه، وهؤلاء الأطفال البائسين جميعاً الذين تفوح منهم رائحة مخلل الملفوف، أطفال يطعمهم أهلهم سيقان الدجاج وتفوح منهم روائح المهاجرين والنقانق البولندية والبيرة المصنوعة بيتياً. من أين تأتيهم هذه الأناقة النباتية كلها؟ لماذا؟ وبعد ذلك، تقدم السيدة العجوز مينسيك نجمة ذهبية لتعزيز التلاميذ الجيدين. هي، بفمها ذي الأسنان الحادة وثدييها المتدليين حتى بطنها... تنقّب عن شيء ما بين الأوراق في سلة المهملات. نعم، كان الأطفال المشاغبون يقولون أشياء من قبيل ملفوف متعفن أو يذكرون أسماء بعض الزهور ذات الرائحة القبيحة. عندما تقول لها ذلك فإنها تمسكك من رقبتك وتأخذك إلى المدير. لكن هؤلاء المشاغبين كانوا على حق. هل رأى أحد زهرة البازلاء الحلوة؟ كيف؟ كنت أدلّي خيط الصيد في فتحة

أنبوب الصرف الصحي بعد أن أربط في نهايته دبوساً صغيراً، وذلك لأن أخي الذكي قال لي إنني يمكن أن أصطاد هناك سمكة ذهبية».

«هذه قصة حزينة. لكن، ألا ترى أن هاتين المجموعتين من الأطفال كانتا محقّتين، كلتيهما؟ عبّر بعضهم عما يعرفه؛ وعبر بعضهم الآخر عن توقه إلى ما لا يعرفه. ماذا تقصد؟ أتقصد أن هنالك أطفالاً، أو أشخاصاً لا يمكن أن يشموا الزهور؟ لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً».

«كنت أعرف أن تمرين شم الطباشير سيعجبك. إن الأنا العليا قوية لديك. أنت تريد أن تقبَل. لكن كيف تعرف ما الذي تقبله؟ ستكون غبياً إذا رحت تقبل كل شيء. لن يشكرك أحد على هذا. وأنت تعرف أنك ستدمر نفسك إذا مضيت في تجاهل مبدأ الواقع وفي محاولة إدخال البهجة على المشهد القذر. عليك أن تقبل المعلومات التي توفرها التجربة والخبرة. لماذا لا تقرأ شيئاً في علم النفس؟ لقد كانت قراءة علم النفس شديدة الفائدة بالنسبة لي».

«لا بأس، سوف أستعير منك بعض الكتب بما أنك ترى لها هذه الأهمية كلها. لكنك فهمت الأمر كله بطريقة خاطئة. سوف أشرح لك ما أراه. لا يمكن أن يكون أمراً صحيحاً أبداً أن يعرض المرء أن يموت؛ وإذا كان هذا ما تقوله البيانات الناتجة عن التجربة والخبرة، فإن عليك أن تتابع حياتك من غيرها. إنني أفهم أيضاً ما رميت إليه عندما قلت إنني لست واقعياً. الأمر كالتالي: في عالم اليوم، يتعين على الإنسان الفرد الذي تتخيله أن يكون راغباً في شرح نقطة وجوده التي تزداد ضيقاً وتحديداً. أما أنا فلست اخصائياً».

«لكنك قلت لي إنك تستطيع تدريب الطيور».

نعم؛ إنه ميدان تخصُّصي الوحيد حتى الآن.

ثم إن ذلك صحيح تماماً! عليك أن تكون واحداً من تلك الأرواح التي تنطلق عندما تستوطنها غاية اجتماعية مثلما يقفز شخص في سيارة وينطلق فيها بعيداً باندفاع شديد. إذا كانت هنالك حاجة لأن يستلقي أحد في الشارع، فهو أنت، أو إذا كانت هنالك حاجة إلى نزوله في منجم، أو إلى انطلاقه في لعبة مجنونة في مهرجان ما؛ أو إذا كانت هنالك حاجة إلى اختراع أسماء جديدة لأنواع جديدة من الحلوى، أو صنع أحذية الأطفال بطريقة مبتكرة جديدة. ستكون ذلك الشخص إذا كانت هنالك حاجة إلى المضي لوضع صور من الكرتون في الصالونات ومحلات الحلاقة، صور عاهرات. أنت من يموت خلال أداء دور فرعي ما؛ أنت من يموت حاملاً في رأسه فكرة أو اثنتين، شيء محدود إلى هذه الدرجة... فكرتان تلحّان عليك فيما يتعلق بوظيفتك في الحياة.

كنت على الدوام مؤمناً بأن ما من أمل كبير، في ما أريده، إذا كان علي أن أصير صاحب اختصاص... طبيباً مثلاً، أو أي اختصاص آخر. إذا كان الأمر كذلك فسيكون عليك (باعتبارك خبيراً) أن تتعامل مع خبراء آخرين. لن تعبأ بالهواة لأن الخبراء يكونون هكذا في العلاقة بالهواة. ثم إن التخصص يعني الصعوبة، وإلا فما الحاجة إلى التخصص أصلاً. إنني أحمل شعار صديقي باديلا... «يأتي الأمر بسهولة، أو لا يأتي على الإطلاق».

ضحكت ميمي كثيراً عندما سمعت مني أخبار قصصي المكسيكية. قالت: «ما هذه الحفلة التي كنت فيها؟» جعلتني أشعر بالانزعاج في ما يتعلق بثيا. أما عن ستيلا فقد قالت: «إن الرجال من أمثالك يجعلون حياة بعض النساء سهلة».

ما من شيء سهل بالنسبة لأي شخص؛ لكني ما كنت قادراً على قول هذا لميمي. بعد أن فهمت القصة كما أرادت، ما عادت تريد الاستماع إلى المزيد. لكنها جعلتني أتلقى منها شيئاً يشبه ما تلقيته من كليم... بوجهها الوردي المتحمس وفمها الكبير الأحمر الذي تنفتح شفتاه فيخرج من بينهما صوتها كصوت البوق. خلاصة الأمر: من الأفضل لي أن أعالَج من موقفي تجاه الحياة! وأما السبب في أنني ما كنت أرى الأشياء مثلما يريانها فهو أنني ما كنت راغباً في ذلك. لو تغيرت لما كنت قادراً على أن أحبّهما كما هما. لكن التحدي ليس كامناً في إنشاء صورة أفضل لهما في عقلك بل في وضع كل ضعف بشري في الصورة... السيء، والإجرامي، والمريض، والحسود، والغاضب، والذئبي، ومن يعيش على موت الآخرين. ابدأ بذلك، وضع في اعتبارك أن الناس عامة ممتلئون بغضاً وأن نظر واحدهم إلى الآخرين يكلفه جهداً كبيراً. وغالباً، لا يريدون منك إلا أن تتركهم وشأنهم. إنهم يبحثون عن اللاواقع أكثر مما يبحثون عن الكنوز؛ ففي اللاواقع يكمن أملهم الكبير الأخير لأنهم يستطيعون هناك أن يشكّوا في صدق ما يعرفونه عن أنفسهم. لعل ميمي كانت تبالغ في غضبها الملتهب وتتجاوز ما أحست به في حقيقة الأمر. لكني كنت أرى علامات القلق الزرقاء تحت عينيها في تلك الأيام.

إنها تتحدث عن العمل والمال عندما يكون آرثر موجوداً. فهي تغير موضوع الحديث إلى العمل والمال فور وصوله. في معظم الأحيان.

كانت هنالك وظيفة تلح عليه حتى يأخذها. لكنه كان يقول: «ماذا؟ إنها مهزلة!» ثم يبدأ الضحك، بلطف، بطريقته القاتمة وبعينيه اللتين تحيط بهما الغضون.

«ليس المال مهزلة».

«أوه، من فضلك يا ميمي، لا تكوني سخيفة».

«من الناحية العملية، ليس في هذه الوظيفة أي عمل».

لكنه جعل الأمر مستحيلاً استحالة تامة. بدأت أفكر في أخذ تلك الوظيفة بنفسي، إذا كنت صالحاً لها.

صادفت آرثر ماشياً في الشارع فسألته عن سبب عدم رغبته فيها. كان مساء بارداً بعض الشيء وكان آرثر يضع قبعة ومعطفاً. لقد فقد كثيراً من وزنه وصار هزيلاً حقاً، بكتفين حادتين إلى درجة جعلتني أرى أنه يشبه عمه دينغبات؛ لقد ظهرت فيه السمات الوراثية نفسها رغم أنه يعيش حياة مختلفة. إن له تلك البنية الجسدية حادة المعالم، والصدر الهزيل، والوجه المتطاول، والمشية السريعة بقدمين مائلتين قليلاً إلى الداخل. كان حذاؤه أنيقاً مثل أحذية الفرسان، أو مثل ذيل سحلية بارز من شق في الجدار. لكن صحة آرثر كانت أسوأ من صحة دينغبات، ولونه داكناً أكثر منه. تفوح منه رائحة القهوة والتبغ. وعندما يبتسم يظهر سن معطوب في فمه. لكنه، رغم ذلك، كان يملك سحر آل إينهورن كله عندما يريد أن يظهر ذلك السحر!

كان نمط تفكيره عظيماً! وكنت أظن أحياناً أنه مستعد لقول أي شيء أو للتفكير في أي شيء. أما ما أفضّله شخصياً فهو الأفكار التي لها فائدة؛ أقصد الأفكار التي تجيب عن أسئلة تحرّك شيئاً فيك. قال آرثر إن هذا غير صحيح لأن الحقيقة تكون حقيقية أكثر عندما لا تكون لها علاقة لها بحاجاتك. فما الحاجة الشخصية التي يمكن أن تكون موجودة، على سبيل المثال، في دراسة سَرَيان الضوء من نجوم نائية تتحلل وتنفجر لأنها تصير عتيقة كثيراً بينما يسير ضوؤها في الفضاء؟ لقد سحرني هذا السؤال.

أما في ما يخص العمل فقد اتضح أن هنالك مليونيراً عاكفاً على تأليف كتاب؛ وهو يبحث عمن يساعده في أبحاثه.

«أتظن أنني أصلح لهذا العمل؟».

«بالطبع يا أوجي. هل أنت مهتم بهذا؟».

«الحقيقة هي أنني في حاجة إلى عمل. أحتاج شيئاً يسمح لي بالوقت الحر الذي أريده».

«تعجبني طريقة ترتيبك لحياتك. وما الذي تعتزم فعله في هذا الوقت الحر؟».

لم يعجبني ما تضمنه ذلك السؤال. لماذا يريد أن يكون وقته حراً ثم يضع رغبتي في شيء من الوقت الحر موضع تساؤل. فقلت «أريد الاستفادة منه، لماذا تسأل؟».

«إنه فضول فقط! يبدو على بعض الناس أنهم يعرفون دائماً ما يريدون فعله، ولا يبدو

ذلك أبداً على البعض الآخر منهم. إنني شاعر، بالطبع؛ وأنا محظوظ إلى حد ما. وكثيراً ما أفكر في أنني، إذا لم أكن شاعراً... ماذا يمكن أن أكون... سياسي؟ انظر ماذا حل بما أنفق لينين حياته من أجله. أأكون معلماً؟ هذا في حاجة إلى انضباط كبير. أأكون رساماً؟ ما عاد أحد يعرف اليوم ما يرسمه. كلما كتبت قصيدة درامية أجد نفسي عاجزاً عن فهم السبب الذي يمنع شخوصها من أن يتحولوا فيصيروا شعراء، هم أيضاً».

لا بأس، هكذا كانت الأمور في شيكاغو عندما عدت. عشت في الحي الجنوبي. استعدت صندوق الكتب من آرثر، ورحت أقرأ في غرفتي. ازدادت حرارة حزيران حتى فاحت باحات البيوت الظليلة برائحة التربة الرطبة، وبرائحة ما تحت التربة أيضاً... رائحة المصارف والمجارير، ورائحة الملاط وقدور القار المزمجرة عند من يصلحون السقوف. فاحت روائح الجيرانيوم أيضاً، وروائح الأقحوان والورود المتسلقة، وكذلك كان الخراب الناري في باحات المستودعات يفوح برائحة كريهة عندما تهب ريحاً قوية. كنت أقرأ كتبي وأكتب إلى ثيا كل يوم تقريباً، لكني لم أتلقَّ أي رد. جاءتني رسالة محولة من المكسيك، لكنها كانت من ستيلا. إنها في نيويورك. لم أتوقع أبداً أن تكون قادرة على كتابة رسالة جيدة إلى هذا الحد. لا بد أنني قدَّرتها بأقل مما تستحق. قالت في تلك الرسالة إنها غير قادرة على إعادة المال حتى الآن؛ وقالت إن عليها أن تستعين بنقابتها. لكنها ستسدد الدين عندما تحصل على عمل.

كان سايمون قد أعطاني بعض المال حتى أتلقّى دروساً صيفية في الجامعة. وصرت الآن أفكر في أنني يمكن أن أصير معلم مدرسة فسجلت في عدد من الدورات التربوية. وجدت الجلوس في غرفة الصف وقراءة الكتب المقررة أمراً صعباً. كان سايمون مستعداً دائماً لأن يقف إلى جانبي، إن أردت ذلك؛ لكنه ما كان يرى نفسه شديد الحاجة إلى دراسة جامعية.

واصلت محاولة الحصول على الوظيفة التي رفضها آرثر والعمل مع ذلك المليونير الذي يريد أن يؤلف كتاباً. كان اسم المليونير روبي. لقد درس مع فريزر عندما كانا في الجامعة. وهذا ما جعل ميمي تعرفه. كان شخصاً طويل القامة منحنياً قليلاً؛ وكان يتأتئ كثيراً. كانت له لحية أيضاً، وكان متزوجاً أربع أو خمس مرات. أخبرتني ميمي بهذه الأشياء. قال آرثر إن الكتاب بحثٌ في تاريخ السعادة البشرية من وجهة نظر الأغنياء. ما كنت أعرف تماماً السبب الذي جعلني راغباً في تلك الوظيفة. لكني ما كنت أريد أن يستمر سايمون في إعطائي المال. حاولت الحصول على قرض من إينهورن لكنه كان حانقاً عليَّ بسبب صداقتي مع ميمي. قال لي: «لا أستطيع إعطاءك شيئاً. تدرك أنني أعيل حفيدي الآن.

ليس هذا العبء الإضافي سهلاً. وماذا لو قرر آرثر أن يبارك سنوات عمري الأخيرة بحفيد جديد؟» كان إينهورن غاضباً حقاً.

وهكذا مضيت متردداً إلى آرثر لأطلب منه الاتصال مع روبي من أجلي.

«إنه شخص شديد الغرابة يا أوجي. وسوف تجده مسلياً».

«أوه، إلى الجحيم، لا أريده أن يكون مسلياً. أريد عملاً فحسب».

«لا بأس سيكون عليك أن تحاول فهمه. إنه غريب إلى حد كبير. إن جزءاً من غرابته آت من أمه. تظن نفسها ملكة مقاطعة روكفورد في إيلينويز. إنها تضع تاجاً. وعندها عرش أيضاً. وهي تتوقع من كل من يعيش في تلك البلدة أن ينحني أمامها».

«وهل يعيش هو في روكفورد الآن؟».

«لا، إن لديه بيتاً كبيراً هنا في الحي الجنوبي. عندما كان طالباً كان يأتي به سائق خاص إلى الجامعة. ظل متعلقاً بالكتب العظيمة زمناً طويلاً، وكان يشتري قسماً من مساحة الإعلانات في بعض الصحف فينشر فيه مقتطفات من أفلاطون أو لوك، مقتطفات من قبيل: حياة من غير تفكير لا تستحق العيش. لديه شقيقة مجنونة أيضاً... اسمها كارولين. تظن أنها إسبانية. لكن لديك موهبة التعامل مع غريبي الأطوار. لقد كنت جوهرة بالنسبة إلى أبي».

«كنت واقعاً في غرامه إلى حد ما».

«ربما تحب روبي أيضاً».

«يبدو لي شخصاً مختلاً. لا يجوز أن أبقى على صلة بأشخاص غير طبيعيين. إنه أمر ضار».

في أمسية ماطرة، بعد وقت قصير من ذلك، وجدت نفسي أمام روبي هذا في بيته الواقع على ضفة البحيرة. يا له من وجه، ويا له من مظهر! عينان متحفظتان ملتهبتان كبيرتان، ولحية ضاربة إلى الحمرة، وشفتان متورّمتان محمَرّتان، وبقعة على أنفه. في الليلة الماضية، عندما كان ثملاً نعساً، اصطدم بباب سيارة التاكسي عندما أراد الخروج. كان يتأتئ كثيراً؛ وعندما تأتيه تلك الحالة يجد نفسه مضطراً إلى بذل جهد كبير فتجمد روحه ويميل برأسه بينما تظهر في عينيه نظرة توحي بتركيز شديد، بشيء من الكراهية تقريباً. أدهشني أول الأمر، وحزنت عليه عندما راحت أسنانه تصطك. لكني سرعان ما اكتشفت كم كان طلق اللسان رغم ذلك.

نظر إليّ بتلك العينين المتحفّظتين المحتقنتين كمن ينظر إلى شخص ما ويجد نفسه مضطراً إلى شرح أن سوء الحظ والصعوبات يرافقانه منذ ولادته. كان يفتح شفتيه قبل أن يبدأ الكلام. كأنه يفعل ذلك حتى ينتزع شعرات شاربيه من شعر لحيته.

قال: «ما رأيك في تناول الغداء؟».

كان غداءً مقرفاً... شرائح رقيقة من جبن بائت، ولحم مدخّن قطّعه بنفسه، وبطاطا مسلوقة، وفاصولياء شمعية، وقهوة مسخّنة مرتين. أزعجني بعض الشيء أن يدعوني مليونير إلى تناول الغداء ثم يضع أمامي هذا الغداء البائس.

قال إنه يريد أول الأمر أن يعطيني لمحة عن حياته. بما أنني صرت مساعده، فلا بد لي من بعض المعرفة الشخصية به. بدأ يحدثني عن زيجاته الخمس ملقياً على نفسه بنصيبه من اللوم في كل طلاق. لكن تلك الزيجات كانت جزءاً من تعليمه؛ وهذا ما جعله مضطراً إلى تقييم كل واحدة منها. وجدت هذا مقرفاً! أخذت رشفة من قهوتي ثم جعلتها تنساب عبر أسناني عائدة إلى الفنجان ورسمت تكشيرة على وجهي. لكنه لم يلاحظ ذلك. كان يحدثني عن زوجته الثالثة. امرأة مملة إلى حد مخيف. أما الرابعة فقد جعلته يرى شخصيته على حقيقتها. أظن أنه لا يزال يحترمها. قاطعتُه بينما كان يؤرجح رقبته محاولاً تجاوز موجة من التأتأة. كنت على وشك القول: «ما رأيك ببعض القهوة الطازجة على الأقل؟» لكني لم أجرؤ على قول هذا. سألته بدلاً من ذلك: «لكن، هل يمكنك إعطائي فكرة عن عملي؟».

صار لسانه أكثر طلاقة عند ذلك. قال لي: «إنني في حاجة إلى المشورة. المساعدة. أحتاج إلى توضيح بعض الأفكار عندي. توضيح تفكـيري. أحــ حتاج إلى الوضــ ضوح. إنه كتاب كبـ بـ ير القيمة، هذا الكتاب».

«لكن، ما موضوع هذا الكتاب؟».

«إنه ليس مجـ مجرد كتاب. إنه دليل. إنه بز بر برنامج. أنا صاحب الفكرة. لكـ لكنها صارت الآن أكبر من قدراتي. إنني في حاجة إلى مساعدة». بدا عليه الذعر عندما تحدث عن المساعدة... «لقد اكتشفت أشياء كثيرة جدداً. حدث الأمر معي مصادفة، وأجد نفسي الآن عالــ لقاً في هذه المسؤولية».

ذهبنا إلى الصالون لمتابعة الحديث. كان يسير ثقيل البطن مجرجراً ساقيه كأنه في حاجة إلى تذكير نفسه دائماً بألّا يدوس قضيبه.

استمر هطول المطر. كان مطراً خفيفاً، وبدت البحيرة كأنها من الحليب. أما في

الداخل، فتألق ضياء مصابيح بضوء القمر على الأثاث الفاخر والسجاد الشرقي وخشب الماهوغاني. كانت على الجدران قطع سجاد فارسية وخوذات عليها شعر الخيل، وتماثيل نصفية لبركليس وشيشرون وأثينا، وكثير غيرهم. كانت هنالك أيضاً لوحة لأمّه. من الواضح أنها تبدو خرفة... تضع تاجاً وتحمل صولجاناً بإحدى يديها ووردة في اليد الأخرى. كانت سفن نقل الخامات من دولوث إلى غراي تمضي في البحيرة متلفعة بالضباب. جلس روبي تحت أحد المصابيح، فظهرت جُرَيبات حب الشباب المنفجرة تحت ذقنه.

قد لا يكون روبي شديد الذكاء!... بدأ بداية متواضعة، لكن ما الذي يستطيع فعله؟ إنه غير قادر على تفادي هذه الأفكار! لا أحد منا قادر على الهرب من الأفكار؛ وكل امرئ يواجه الأمر نفسه: هنالك مئات الأشياء التي لا بد من معرفتها والتفكير فيها. كان واجبه أن يفعل كل ما يستطيعه في هذا المجال. لقد غطى حماسته بهذه الكلمات التي أحسست، رغم ذلك، بأن فيها ارتجافاً مذعوراً.

مضى يقول إنه يريد إطلاق اسم «ثقب الإبرة» على هذا الكتاب. وذلك لأن الأثرياء لا يعيشون حياة روحية أبداً إلا إذا تخلوا عن كل شيء. لكن الوقوع في المتاعب غير مقتصر على الأثرياء وحدهم! في المستقبل القريب ستخلق التكنولوجيا وفرة كبيرة من كل شيء، وسيحصل كل امرئ على كفايته من كل شيء. سيستمر انعدام المساواة، لكن الجوع والفاقة لن يستمرا. سوف يحصل الناس على طعامهم. لا بأس، سوف يأكلون، وماذا بعد ذلك؟ إنها جنة الحرية والوفرة والحب... حلم الثورة الفرنسية يتحقق أخيراً! لكن الفرنسيين كانوا مفرطين في تفاؤلهم فظنوا أن ما من شيء يمكن أن يمنعنا من دخول الجنة على الأرض إذا نُسفت الحضارات الفاسدة القديمة. لكن الأمر لم يكن على هذه الدرجة من البساطة. كنا نواجه أعظم أزمة في التاريخ. ما كان يقصد الإشارة إلى الحرب العالمية، لأنها كانت على وشك الوقوع في ذلك الوقت. لا... كان يقصد أن علينا أن نكتشف إن كانت هذه الجنة الأرضية ممكنة أم لا.

«يكاد الخبز يصبح مجانياً في أميركا. فماذا يحدث عندما ينتهي النضال من أجل الخبز؟ هل ستحرر السلع الإنسان أم ستستعبده؟».

يكاد المرء ينسى التفكير في هيئته البلهاء وفي تلك المجموعة من اللوحات والتحف وقطع الحديد والزلاجات الروسية والخوذات المختلفة والصناديق الصدفية... ودموعه المستعدة للانهمار. وفي غضون ذلك، ظل طعم اللحم شبه المتعفن يثير أعصابي.

«سوف تخلق الآلات محيطاً من المنتجات. لا يستطيع الدكتاتو توريون منع ذلك

وسوف يقبل الإنسان الموت. سوف يعيش من غير إله. إنه مشـ شروع جريء... نهاية الوهم. لكن، ما القيم التي ستكون لدينا بدلاً من ذلك؟».

قلت: «إنها صفقة فيها ربح وخسارة».

أجابني: «لكن، هذا ما سيأتي في آ آخـ آخر الكتاب تقريباً. أظن أن علينا البدء بأرسطو عندما ناقش مقدار الخيرات الأرضية التي يجب أن تكون لـ لدى الإنسان قبل أن يستطيع ممارسة الفضيلة».

«لم أقرأ كثيراً لأرسطو».

«نعم، هذا واحد من الأشـ ـياء التي يتعين عليك فعلها. سوف تتلقى مالاً مقابل ذلك... فلا تقلق. لكني أريد أن يكون هذا الكتاب متيناً محكماً. أن يكون كتاباً بحثياً حقاً. سوف ندرس الإغريق والرومان والعصور الوسطى وإيطالـ ليا عصر النهضة. كما أنني أعتزم وضع مخطـ طط من عصر المينوسيل الأدنى صعوداً... مروراً بقوانين كالفن والسير وولتر رالي، وهكذا، كارلايـ يل سيئ جداً؛ والعلم الحديث واقف في مكانه. لست مهتماً بهذا».

ظل يتحدث نصف ساعة؛ ولم يكن لكلامه معنى، إلا من حين لآخر. بدا عليه شيء من التعب، وبدأ يتململ ويطرف بعينيه المحمرّتين ويسعل في قبضة يده.

قال: «الآن، أخبر بر برني عن نفسك». لم أعرف من أين أبدأ فلعَنته في سرّي على هذا الطلب. لكنه ما كان مصغياً إلي. فهمت من طريقة نظره إلى ساعة يده أنه يتساءل عن اللحظة التي يستطيع فيها أن يخلو فيها إلى نفسه من جديد.

طلبت منه أن يدلّني على المرحاض فأشار إلى الاتجاه بيده. وعندما عدت بدا لي أنه استعاد اهتمامه بالحديث عن الكتاب وأنه يريد متابعة الكلام. قال إنه واثق من أنني الرجل المناسب لمساعدته. ثم بدأ يحدد الإطار العام للمشروع كله: الجزء الأول، مقدمة عامة. الجزء الثاني، الوثنيون. الثالث، المسيحيون وغيرهم. الرابع، أمثلة عملية عن أعلى حالات السعادة. اشتدت حماسته من جديد. خلع شبشبه البيتي من قدمه ووضعه على كتاب أو ألبوم للصور كان على طاولة القهوة. ومن حين لآخر، كان يضعه في قدمه من جديد، ثم يعيده إلى الكتاب. قال إن المسيحية كانت في الأصل تستهدف العبيد والفقراء، وهذا هو السبب الذي جعل الصلب ودق المسامير وهذه العقوبات الفظيعة المؤدية إلى الشهادة أمراً ضرورياً. أما على الجهة الأخرى، الجهة السعيدة من البشر، فكان لا بد من وجود غباء يعادل ذلك. المتعة من غير خطيئة، والحب من غير ظلمة، والثراء المنطلِق

الطَروب. كان لا بد من إخبارهم بأن عليهم ألا يستمروا في إفساد كل شيء. أوه، إنه العصر العظيم للحب السخي... إنه زمن الإنسان الجديد! ليس هذا للمخلوقات الفقيرة المظلمة المشوَّهة، المليئة زيفاً، الكاذبة منذ المهد، التي يعذّبها الفقر، التي تفوح منها رائحة الجبن والنذالة، التي تسكنها غيرة ويسكنها حسد أعمق من قذارة المراحيض، التي ليست فيها مشاعر تتجاوز مشاعر الملفوف، التي تنظر نظرة اليرقات إلى الجمال ونظرة الجمبري إلى الواجب، التي لا يشغل بالها غير أفواهها! كائنات ليس لديها دموع تذرفها، ولا أنفاس حتى تضحك... كائنات قاسية قذرة... طفيلية، خدّاعة، متذمرة، قلقة، كسولة... راح روبي يصب عليَّ هذا كله صباً.

أما أنا فرحت أقول في نفسي... أوه، ما هذا المجنون؟ ما هذا المليونير المعتوه الذي أرسلوني إليه؟ لكن قلبي استجاب لما كان يقوله... مضت كلماته عميقاً. وكانت فكرتي الأساسية هي أن الرب رحيم بنا نحن البشر الفقراء المساكين. لكن هذه الفكرة أنبتت فكرة أخرى: حتى إذا كان الرب رحيماً بالفعل، فإن هذا هو موضوع رحمته بالضبط.

تحوّل مجرى حديث روبي من جديد. وقد بدا شخصاً صاحب مزاج سريع التغير.

قال إن البرجوازية الملعونة يجب أن تقود وأن تضرب أمثلة عملية في السعادة. لكنها كانت فشلاً تاريخياً! لقد أفسدوا الأمر كله. طبقة مهيمنة ضعيفة لأنها ما كانت تعرف إلا التفكير في سريان المال حول العالم وانتهاز كل فرصة ممكنة لتحقيق الأرباح مثلما يسعى سطح الماء إلى الاستواء... طبقة تقلد سلوك الآلات. ما عاد روبي يبدو صادقاً مع نفسه الآن... صحيح أنه ظل مندفعاً مثلما كان من قبل، لكنه صار كمن يقرأ من كتاب. حك قدمه ومضى في كلامه كأنه يلقي محاضرة. صار، بلحيته التي تبدو كأن فيها قشاً، شيئاً غريباً آخر من جملة الأشياء الغريبة الموجودة في هذه الغرفة.

لكن القدر الباقي في نفسي من الإعجاب بإينهورن جعلني منيعاً أمام هذا الكلام. نحّيت بعض انتقاداتي جانباً وقلت: «تحدَّثت عن الراتب الذي ستدفعه لي. هل تستطيع أن تكون أكثر تحديداً؟».

لم يظهر عليه السرور عندما سمع هذا السؤال. قال: «ككـ كم تتوقع؟ أستطيع أن أدفع لك مبلغاً معـ قولاً على سبيل البداية... ريثـ ثما أطمئن إلى قدرتك على القيام بالعمل».

«ما الرقم المنطقي؟».

«خمسة عشر دولاراً كل أسبوع، ما رأيك؟».

أغضبني هذا: «لا بد أنك مخطئ في هذا الرقم. خمسة عشر دولاراً؟ أستطيع الحصول على هذا المبلغ من مؤسسة المعونة الاجتماعية من غير أن أحرّك إصبعاً».

أجابني بسرعة: «إذن، ثمانية عشر دولاراً».

«حاول أن تأتي بمن يصلح المغسلة بأقل من نصف دولار للساعة الواحدة. هل تحاول خداعي أم ماذا؟ لا أظن أنك جاد فيما تقول».

«عليك أن تفكر في الثـقـ ثقافة التي تجنيها. ثم إن هذه ليست وظيفة فقط... إنها قضـ قضية». أصابه اضطراب شديد... «لا بأس، ثمانية عشر دولاراً؛ ويمكنك أن تعيش في غرفة في الأعلى من غير أن تدفع إيجاراً».

يقول هذا حتى أكون تحت يده دائماً وحتى يشد أذني كلما رغب في ذلك... في الليل والنهار! لن يحظى بهذا! قلت: «لا، ثلاثين دولاراً في الأسبوع مقابل ثلاثين ساعة». كان دفع المال يؤلمه. وكان واضحاً مقدار العذاب الذي يصيب روحه لمجرد التفكير في دفع المال.

قال أخيراً: «لا بأس! سأعطيك ثلاثين عندما تثبت جدارتك. أعطيك خمسة وعشرين على سبيل البداية».

«لا، قلت لك ثلاثين».

صاح: «لماذا تعذذ ذبني هكذا؟ هذا شيء فظـ فظ فظيع حقاً. ماذا، بحق الشيطان! إن هذا يفسد الأمر كله». كانت نظرته مليئة بالكراهية. لكنه وافق آخر الأمر.

كان يغيِّر الخطة من يوم لآخر. أراد في البداية كتابة فصل تاريخي، وكلفني بقراءة ماكس فيبر وتاوني وماركس. وكان علي بعد ذلك أن أترك هذا كله لأبدأ بحثاً من أجل فصل عن الأثرياء المحسنين. كان يكره أصحاب الملايين المحسنين ويود أن يضرب كل ثري بيوريتاني تبدو عليه التعاسة. ذكر أسماء بعض أبناء عمومته بين هؤلاء؛ وهذا ما جعلني أرى أن الأمر كله كان مسألة عائلية. قال لي إن أكثر قملات وول ستريت صفاقة، أولئك الذين تمتص أنيابهم دم الناس، يظلون أفضل من بعض الأثرياء الذين يأكلهم القلق مثلما يأكل الجميع. إنهم قلقون فحسب، هذه هي حياتهم. كان غضبه يثور تجاه هؤلاء الناس في كل وقت.

لقد اعتدت المشاريع الحماسية التي لا يمضي مبتكروها خطوة واحدة في تنفيذها... مثل كتاب إينهورن عن شكسبير، منذ سنين! فهمت حقاً أن روبي يريد مني ما أراده إينهورن مني... الشيء نفسه: يريد من يستمع إليه. كان يتصل بي هاتفياً في كل وقت أو يرسل

السيارة حتى آتي إليه، أو يبحث عني في المكتبة، أو ينتظرني خارج قاعة المحاضرات.

كلفني بأكوام من القراءة خلال الأشهر الأولى. ما كان يمكن من غيره أبداً أن أقرأ هذه الكتب كلها في سنوات كثيرة. كتب عن الإغريق والآباء المؤسسين وتاريخ روما والإمبراطورية الشرقية، وغير ذلك. لا أعرف لماذا يمكن أن يرغب أي إنسان في الخوض في هذه الكتابات كلها! لكني كنت مرتاحاً تماماً عندما أجلس في المكتبة بين أكوام من المجلدات.

كان لدينا لقاء رسمي مرتين كل أسبوع. آتي حاملاً دفاتري مستعداً للإجابة عن أسئلته ولتزويده بمقتطفات ومقاطع كاملة. لا بأس بهذا الأمر عندما يكون روبي في مزاج عملي، لكنه كان شديد التقلب؛ ويصيبه الذعر عندما تمسك به نوبة من نوبات التأتأة، فينتصب شعره ويحمر لونه ويظهر في صوته شيء يشبه الدموع أو الغضب ويصبح شديد الانزعاج إلى حد لا يسمح له بالحديث عن أرسطو وعن نظريات السعادة، وعن كل تلك الأشياء. كان يصدمني ويدهشني أحياناً: كنت أبحث عنه ذات يوم فوجدته واقفاً على كرسي في المطبخ، ملتفاً بمنشفة الاستحمام، يرش مبيد الحشرات في الخزانة بينما اندفعت مئات الصراصير خارجة منها، مذعورة، وراحت تتساقط من الجدران. إنها لحظة عجيبة! كان في حالة غضب شديد وهو يرش ذلك الرذاذ. مذعوراً مهتاجاً ويتنفس بصوت شديد الارتفاع؛ أما تلك الحشرات فكانت تسقط وتصطدم بالأرض كأنها حبات من الفاصولياء، مجنونة كأنها في سباق، ثم تجري في كل اتجاه.

عندما وجدته على هذه الحال، حاول روبي ابتلاع مشاعره الحماسية والتصرف بطريقة توحي بأنه لا يكره تلك الصراصير ولا يقتلها بنشوة عارمة. كان ذلك شيئاً أسوأ من أن يستطيع الاعتراف به! ثم إنني أدركت أن وصولي لم يكن في لحظة مناسبة وأنه سيحمل في نفسه شيئاً ضدي نتيجة ذلك. ليس الأمر بيده!

تحرك مجفلاً بشدة كما لو أنني لمسته على رقبته من الخلف؛ ثم نزل عن الكرسي: «إن هذا كثير فعـ عـ لاً! تجري الصراصير في كل مكان في البيـ بيت. وضعت قطعة خبز في آلة التحميص، وعندما أخرجتها كان عليها صر صر صور محمَّص. لم أعد قادراً على أكلها بعد ذلك».

وفجأة، اختفى غضبه كله مثلما تختفي جمرة تشق طريقها في القش. مضى بي إلى الصالون حيث كان ضياء الشمس. مسح السائل القاتل عن منشفته قائلاً: «هل أعددت مادة عصر النهضة الإيطالي؟... المادة التي تتحدث عن الأمراء والمحـ محـ سسـ نين؟... الذين كانوا يعانون كثيراً بعد تخليهم عن الرب!» قال هذه الكلمات وهو يشيح بوجهه...

«لكنهم كانوا أشبه بالأرباب، هم أنفسهم. يا لهذه الشجاعة! شيء مخـ مخيف أيضاً. لكن، كان لا بد أن يحدث هذا، كان لا بد أن يجرؤ الإنسـ سان على هذا».

فقد كل سيطرة على نفسه في الخريف. مضى في تكليفي بتلك المهمات؛ ومضيت في تقاضي دولاراتي الثلاثين بضمير مرتاح من غير أن أقوم بأي عمل.

تساءلت مرات كثيرة عن النساء اللواتي يهتم بهن عندما لا يكون متزوجاً. هل هن من العاهرات المتأنقات أم سيدات من وسطه الاجتماعي أم فتيات يلتقطهن من الشوارع أم طالبات جامعيات صغيرات لطيفات، أم ماذا؟ فوجئت! كان يذهب لرؤية راقصات التعري العاديات في الحي الشمالي أو في شارع كلارك أو برودواي أو راش... أولئك النساء كنّ يعاملنه بقسوة بعض الشيء. وكان يتقبل ذلك كما لو أنه عقوبة منصفة، بل يبتسم أيضاً. حاول أن يجعلني أقصد تلك الأماكن معه، لكني كنت قد عدت إلى علاقتي بصوفي غيراتس. كان يبدو عليه غالباً أنه يريد أن يأخذني معه. رافقته بضع مرات إلى تلك الملاهي في الحي الشمالي. أهانته إحدى الراقصات عندما تحدثت عن لحيته؛ لكنه انحنى أمامها. لم يرفع عينيه المحمرَّتين عنها (لقد ارتدت ثيابها الآن... صارت في فستان رمادي أنيق) كانت هاتان العينان شيئاً فضائحياً. لكنه قال متحذلقاً: «في أيام الملكة إليزابيث، كانت في محلات الحلاقة آلات موسيقية حتى يتمكن السادة المنتظرون من العزف والغناء. كانوا يفعلون ذلك لأن تشذيب اللحى يستلزم وقتاً طويلاً».

وفي اليوم نفسه، أصابه غضب شديد فحطم عَدّاد سيارة تاكسي. كان من المفترض أن أترك السيارة في الشارع الخامس والخمسين، لكني خشيت أن يعاقبه السائق على ما فعله فبقيت معه في السيارة. أوصلته إلى بيته أولاً.

لكنه كان يجعلني أعيش أوقاتاً صعبة، رغم كل شيء. كان شديد الحساسية، وكان يطالبني بالصدق عندما أعبّر عن آرائي. إلا أنه كان متقلباً إلى حد فظيع، متواضعاً حيناً ثم حريصاً في الدقيقة التالية على التأكد تماماً من أنه يحصل على عمل يساوي المال الذي يدفعه... كان يصيح أو يغدو متجهماً فيمط فمه الكبير الأحمر مستاء أو حانقاً. أذكر واحداً من الأيام على وجه التحديد: كان يوماً مشمساً، والثلج في كل مكان. يوماً منعشاً جميلاً، لكن روبي كان في مزاج بائس؛ فكان يضرب قبضتيه المرتديتين قفازاً جلدياً. صار يزعجني من غير توقف. فقلت له: «أنت لا تريد أن أعمل عندك! يلزمك شخص مستعد لتحمل هذه العصبية المقرفة التي لديك». ارتديت معطفي القديم الذي كان من وبر الجمل لكنه بالٍ في بعض الأماكن، ثم انطلقت عبر حديقة البيت. أسرع خلفي معتذراً عن كل شيء. كنت أضع حذاء خارجياً إضافياً في ذلك الثلج، لكنه جاء بحذائه الخفيف الأنيق الذي

يشبه شبشباً منزلياً. قال لي: «أوجي، فلنكف عن المشاجرة. فلنكف بحق الرب. استمع... إنني آسف». لكني تابعت السير؛ كنت مصمماً وغاضباً. اتصل بي ذلك المساء وطلب مني المجيء حتى أرافقه إلى وسط المدينة. كان واضحاً من صوته أن هنالك شيئاً ليس على ما يرام. قال إنه سيكون في «رامب روم» الذي كان واحداً من الأماكن القليلة التي تعتبر من الأماكن الراقية في المدينة. عندما وصلت وسألت عنه، جاء به اثنان من العمال. كان في حالة سكر شديد... مخدَّراً، صامتاً، وغير قادرٍ على تحريك لسانه أو أي من تقاطيع وجهه.

شيئاً فشيئاً، صار شديد الاعتماد عليّ. وقد وجد، مثلما وجد إينهورن في الأيام الخوالي، أنني لا أحاول استغلاله. وجد أنه قادر على الثقة بي والاعتماد على وجودي. رغم غرابته وتشوّشه، كان لدى هذا الرجل شيء جذبني إليه. إنها تلك القوة، لا شك في ذلك، التي تعذب إنسانيته... القوة التي يعذّبها بدوره. عاش في هذا البيت مع أخته كارولين عندما كان عازباً. لكن وجودها لم يكن مريحاً بالنسبة إليه. كانت مجنونة! بدأت تحبني عندما اكتشفت أنني كنت في المكسيك لأنها تظن نفسها إسبانية. صارت تكتب لي بالإسبانية عبارات من قبيل «أنت وسيم جداً». ومن حين لآخر تصلني منها برقية تقول: «صديقي، أنت تصاحب أشخاصاً من مختلف الأنواع. كازولينا». كانت مشوَّشة العقل إلى حد فظيع. امرأة مسكينة!

أخيراً صرت قادراً على الاهتمام بأخي جورج. لا تزال هذه القدرة أو هذه الخصلة موجودة عندي. كان الناس يحسّون بوجودها أحياناً. وفي أحيان أخرى... كنت أتمنى أن أصير صانع أحذية مثله!

الفصل الثاني والعشرون

في غرفتي القديمة عند أوين، الغرفة التي عدت إليها أخيراً، مضيتُ مع تغيّرات الزمان، تغيرات صناعية وعسكرية وعلمية. عشت تغيّرات عنيفة من الناحية الشخصية، وأخباراً سيئة، وأهدرت بعض المال، وحلمت أحلاماً شريرة، ورأيت أشياء سحرية تحدث كأنها ظهور لحيوانات غريبة في حرارة الأمسيات؛ لكني لا أزال قادراً على العرفان وعلى القول إنها لم تكن أحلاماً مؤذية لي. ما كانت الشرطة قادرة على الاعتراض على شيء أفعله، بصرف النظر عما قد يقوله الأخلاقيون. كانت أسوأ الجرائم تحدث في خيالي فحسب... تحدث هذه الجرائم حيث تنتمي! أما أنا فكنت أفكر في مسار حياتي. توصّلت إلى بعض النتائج الأكيدة أيضاً؛ نتائج كانت مبعثرة أحياناً... أشياء من قبيل أن سبب الوحدة لا يمكن إلا أن يكون إعادة لَمّ الشمل، أو «أوه! من المتعب كثيراً أن تكون لدى المرء آراء خاصة به عن كل شيء»... لكن بقية الأوقات كانت مليئة تماماً في واقع الأمر. وهذا ما سوف يتضح في وقته. كنت أتجوّل في شيكاغو؛ لا تزال ذاتي الاجتماعية كما كانت على الدوام. لكني كنت لا أزال أردد صدى الضربات التي تلقّيتها في المكسيك. لم تكتب لي ثيا التي اختفت إلى الأبد في بعض الشواطئ الزرقاء، شواطئ البحار العتيقة... لعلها مستمرة في تعقب طيور الفلامنغو مع عاشق جديد يمكن أن يفهمها أكثر مما فهمتها... لعلها تقضي الليل في خيمة خلف متراس يخفيها ومعها بنادقها وأنشوطاتها ونظاراتها المقرّبة. تقدم بها العمر لكنها لم تتغير.

وأنا لم أعد شاباً أيضاً! صار أصدقائي يمازحونني حول مظهري الذي ما كان يوحي بحُسن حالي على الإطلاق. صارت ابتسامتي تكشف عن سنّيْن ناقصتين في الفك

السفلي، وصرت مبقّعاً بعض الشيء كأن وجه التجربة الصخري القاسي قد قبّلني. نما شعري إلى الأعلى، غزيراً، مغطياً الندوب القديمة، ندوب الصيد في الجبال. لاشك أن مسحة من خضرة عيني العقارات الخمسة، قريبي، كانت ظاهرة في عينيَّ أيضاً. أتجول مدخناً السيجار من غير أن يبدو عليَّ أنني أقوم بشيء محدَّد... كنت أبدو مهملاً، خليَّ البال أحياناً، لكنني صرت أقل ميلاً إلى المزاح مما كنت. أمضي مستغرقاً في تفكيري. والتقط من الشارع بعض الأشياء لأنها تبدو لي شبيهة بالنقود: قطع حديدية، وأزرار معدنية، وأجزاء من ورق التغليف القصديري مدفونة هناك... بالتالي، كان واضحاً أنني آمل في انفراج حظي. تمنيت أيضاً لو أن أحداً يموت ويترك لي كل شيء. هذا سيء لأن من يفيدني بموته سيكون شخصاً لا أحبه ولا أريد له البقاء على وجه الأرض. ثم، ما فائدة العثور على قطع نقدية حتى إن كانت كل منها ربع دولار؟ ما فائدتها في وصول حياتي إلى شكلها النهائي؟ لا فائدة لها يا أصدقائي؛ لا فائدة لها أبداً.

من المضحك أيضاً أنني تابعت اهتمامي بالحصول على شهادة التدريس لأصير معلّماً. أقول هذا مضحك لأن هدفي ما كان هكذا... فيما أظن. لكنني كنت مثابراً في هذا المسعى. أحببت ممارسة التعليم. كان شيئاً يحرك مشاعري. وما كنت أجد مشكلة في أن أكون طبيعياً مع الأولاد... لماذا يكون ذلك مشكلة مع غيرهم؟ دعونا لا نطرح أسئلة تكون إجاباتها من بين أسرار العالم الخبيئة. في غرفة الصف أو خارجها، في صخب الملعب، أو عندما تفوح رائحة البول في القاعة، أو عندما أسمع صوت البيانو قادماً من غرفة الموسيقى، كما عندما أكون بين التماثيل والخرائط وأشعة الشمس المحمَّلة بغبار الطباشير... أكون سعيداً! كنت أشعر براحة تامة هناك. أردت أن أعطي الأطفال أفضل ما عندي وأن أخبرهم كل ما أعرفه.

كان جاري القديم كايو أوبرمارك يعلم الأولاد اللاتينية والجبر في المدرسة نفسها. كان فيما مضى معتاداً على الاستلقاء على سريره في غرفته عند أوين مشعث الشعر قذراً سميناً. وكانت غرفته إلى جوار غرفتي. كان شعر فخذيه مجعداً ورائحة قدميه فائحة دائماً... يستلقي في سرواله الداخلي محدقاً في الجدار مركزاً على أفكاره ويطفئ سيجارته خلفه، من غير أن ينظر، في مقلاة عتيقة بقي فيها شيء من الدهن بعد قلي اللحم. كان يحتفظ بزجاجة حليب فارغة عند سريره ليقضي حاجته فيها. إذ يكره الذهاب إلى المرحاض.

والآن، يقفز الأطفال حوله مثل الجراد عندما يمشي في باحة المدرسة متجهّماً كأنه إمبراطور. وجهه ضخماً، مزاجياً... وجهٌ أبيض بحلاقة غير متقنة. لكنه ما كان متجهّماً ولا حزيناً في حقيقة الأمر. بل كان هذا مظهراً لكرامته الشخصية فقط. أما أنا فكنت مسروراً لأنه يعلّم في المدرسة نفسها.

قال لي: «رأيتك آتياً تقود سيارتك».

«بدأت استخدام سيارة هذا الصباح على سبيل التغيير». كنت أملك في الواقع سيارة بويك عمرها عشر سنوات ورّطني في شرائها شخص ظريف جداً. كانت سيارتي هذه محنةً تعذّبني لأن محرّكها لا يعمل في الصباحات الباردة. نصحني باديلا بأن أضع فيها بطاريتين، لكن محركها كان يعاني مشكلة كبيرة لأن فيه أجزاء معوَجّة. إلا أنه يعمل إذا دُفعت السيارة! كان في تلك السيارة مقعد خلفي إضافي وسقف طويل مما جعلها تبدو قوية جذابة.

قال كايو: «هل تزوجت؟».

«لا، يؤسفني أن أقول هذا».

قال مزهواً: «أنا عندي ابن. من الأفضل أن تتزوج. أليس لديك أحد ما؟ إن الحصول على امرأة أمر سهل. ومن واجبك أن تنجب الأبناء. كان هنالك فيلسوف ضبطه واحد من تلاميذه مع امرأة خلف أحد الأعمدة فما كان منه إلا أن قال للتلميذ: لا تسخر! لقد غرستُ رجلاً!.. أسمع أشياء كثيرة عنك من بينها أنك ذهبت إلى المكسيك مع سيرك أو فرقة موسيقية، وأنك كدت تتعرض للاغتيال هناك».

كان يومها في مزاج غريب. دار بي حول الباحة عدة مرات. وكان بالغ اللطف بطريقته المترفّعة. استشهد أيضاً بأشعار قالها بصوته المتوتر الجهير.

ينتهي الصراع بين الآلهة، وبين البشر،

ويأتي الغضب الذي يستولي

حتى على أقوياء الطبع،

غضب يعلو في قلب الرجل كأنه دخان،

غضب مذاقه أحلى من قطرات العسل!

وقال شِعراً بالفرنسية أيضاً:

من يذهبون هم المسافرون الحقيقيون، وحدهم؛

وعند الذهاب تصير القلوب خفيفة كأنها بالونات،

لا يحيدون عن قَدَرهم قيد أنملة،

ومن غير أن يعرفوا سبباً لهذا، يقولون دائماً: فلنذهب!

لعل المقطوعة الثانية كانت موجّهة إليّ، ولعلها كانت تتهمني بخفّة القلب وبأنني ألقي كلمات الوداع نتيجة جهلي. يبدو أن هنالك من ينتقدني في كل مكان! لكن شمس ذلك النهار البارد كانت ساطعة تماماً، وكانت القطارات تمر في الظلمة فوق دعامات من إسمنت أصفر، والأولاد يزعقون ويدورون في ذلك الملعب الواسع وحول سارية العلم. شعرت بتأثر خاص.

قال كايو: «يجب أن تتزوج».

«أود أن أتزوج. وكثيراً ما أفكر في هذا. وفي الحقيقة، حلمت الليلة الماضية أنني متزوج، لكن ذلك الحلم ما كان جميلاً! كنت في غاية الاضطراب. بدأ الأمر بداية مفاجئة. عدت إلى البيت من عملي وكانت هنالك طيور صغيرة رائعة عند النافذة. شممت رائحة شواء. كانت زوجتي في غاية الجمال. لكن الدموع كانت تملأ عينيها الحلوتين اللتين رأيتهما أكبر من حجمهما المعتاد. قلت لها: ما الأمر يا حبيبتي؟ قالت: لقد ولد طفلانا من غير توقع بعد ظهر هذا اليوم. كنت في غاية الخجل فخبأتهما. سألتها: لكن لماذا؟ ما الذي يجعلك تخجلين؟ قالت: واحد منهما عجلٌ والثاني حشرة من نوع ما. قلت لها: لا أستطيع تصديق هذا. أين هما؟ أجابتني: لم أحب أن يراهما الجيران فوضعتهما خلف البيانو. انتابني إحساس فظيع! إنهما طفلانا رغم كل شيء... ليس وضعهما خلف البيانو تصرفاً صحيحاً! وهكذا ذهبت لأراهما. لكن... رأيت أمي هناك، على كرسي خلف الحاجز! من؟ أمي. تعرف أنها عمياء. قلت لها: ماما، لماذا أنت جالسة هنا؟ أين الطفلين؟ نظرت إليّ بنوع من الشفقة ثم قالت: أوه، يا بني، ماذا تفعل؟ يجب أن تفعل ما هو صحيح! وعندها بدأتُ أبكي. أحسست أن هنالك مأساة تملؤني فقلت لها: أليس ذلك ما أود فعله؟».

قال كايو وقد ظهر عليه الأسى والحزن: «آه، أيها الرجل المسكين! لست أسوأ من أي شخص آخر؛ ألا تعرف هذا؟».

«يجب حقاً أن أسعى إلى تبسيط وجودي. كم من المشقات يجب أن يعاني الإنسان؟ أقصد... هل هي مهمة يتعيّن عليّ إنجازها؟ لا يمكن أن تكون هكذا لأن الأشياء الخيرة الوحيدة التي سمعت بها كانت من فعل أشخاص أنجزوها عندما كانوا سعداء. لكن، حتى أخبرك بالحقيقة يا كايو لأنك شخص قادر على فهمها، فإن اعتدادي بنفسي يصاب بجرح دائماً لأنني غير قادر على قول قصتي بنفسي ولأن الآخرين يتلاعبون بحياتي دائماً. يأتي واقع الإنسان الحقيقي من قدرته على نسج قصة حياته بنفسه... أما هذا فهو أسوأ حتى

من أن يكون المرء عاجزاً. أوه، لا أقصد السبّاح الذي يكون في البحر أو الطفل المستلقي على العشب، فتلك هي البراءة بين يدي الخالق العظيمتين. لكنك لا تستطيع أن تستلقي بهذه البراءة فوق أشياء صنعها الإنسان! يمكنك أن تشعر بالثقة في عالم الطبيعة، أما في عالم الأشياء المصنوعة فعليك أن تظل يقظاً. هناك يجب أن تكون عارفاً، لكنك غير قادر على الاحتفاظ بكل هذه الأشياء في ذهنك، مع البقاء سعيداً في الوقت نفسه. قال شيلي في قصيدته أوزوماندياس متحدِّثاً بلسان رمسيس: 'انظروا إلى منجزاتي العظيمة... لن تستطيعوا التفوق عليها!' لا بأس... بغضّ النظر عن أن القصيدة كانت تتحدث عن تمثال في مصر لم يبق منه غير الساقين، فإن بسطاء الحال كان عليهم أن يعيشوا في ظل رمسيس هذا. وهكذا نعيش نحن تحت ظلٍّ ما، ونقوم بأفعال تعبّر عن إيماننا بحُسن عمل المخترَعات... في أعالي الغلاف الجوي، وفي أنفاق المترو، وعند عبور الجسور، وعند المرور في الأنفاق، وعند الصعود والهبوط في المصاعد حيث هنالك من يهتم بسلامتنا. الظل الذي نعيش فيه ظلٌ لأشياء صنعها الإنسان. يصحّ هذا أيضاً على اللحم الموضوع على الطاولة، وعلى الحرارة في أنابيب التدفئة، وعلى الطباعة على الورق، وعلى الأصوات في الهواء. هذا لأن الأشياء كلها متماثلة. لها الوزن نفسه، ولها الرتبة نفسها. ترى كلاماً عن مرجلِ غضب الرب في صفحة من الصفحات ثم ترى إعلاناً عن سلعة ما في الصفحة الثانية! هذه كلها أشياء خارجية... أشياء متماثلة كلها. إذن، فما الذي يجعل وجودك ضرورياً مثلما ينبغي له أن يكون؟ أهي الإنجازات التقنية التي تحاول أن تجعلك موجوداً وفق طريقتها هي؟».

لم تظهر على كايو أي دهشة. قال: «ما تتحدث عنه هو الموها. إنها كلمة في لغة شعب نافاجو، وفي اللغة السنسكريتية أيضاً. تعني هذه الكلمة معارضةَ ما هو محدَّد. إنها احتجاج الناس العاديين على القوى التي تحدّد شروط وجودهم. الحب هو الرد الوحيد على الموها، لأن الحب غير محدّد! أقصد أنواع الحب كلها: الحب الجنسي، والحب المسيحي، والهوى، والشهوة، والهيام، واللوعة، والولَه. إنها شيء واحد على الدوام، لكن بعض الخصائص يطغى على بعضها الآخر أحياناً. انظر! يسعدني أننا حظينا بهذه الفرصة حتى نلتقي من جديد. يبدو أنك صرت شخصاً أكثر جدية بكثير مما كنت. لماذا لا تأتي معي وتتعرف على زوجتي؟ حماتي تعيش معي. إنها عجوز بليدة بعض الشيء، وهي دائمة الشكوى، لكننا لا نستطيع إهمالها وتجاهلها. وبالمناسبة، إنها تساعدنا كثيراً في العناية بالطفل. لكنها تزعجني أيضاً بإصرارها دائماً على القول إن صهري شخص ناجح في حياته. إنه يعمل في إصلاح أجهزة الراديو... معتوه حقيقي! تعال معي إلى العشاء عندنا، وهناك يمكننا أن نتحدث. أريدك أن ترى ابني أيضاً».

وهكذا ذهبت معه إلى بيته. كانت هذه مبادرة لطيفة من كايو. لكن سلوك زوجته ما كان ودّياً... كانت شديدة الريبة. أما الطفل فكان في غاية اللطف، بالنظر إلى سنه طبعاً... لا يزال صغيراً! وخلال وجودي عندهم جاء صهره. كان مهتماً بسيارتي البويك التي كانت تعمل جيداً في تلك الليلة، لحسن الحظ. طرح عليَّ بعض الأسئلة لأنه كان مهتماً بوجود المقعد الإضافي في السيارة. وبعد ذلك، خرج فقادها في الشارع، ثم عرض أن يشتريها. طلبت سعراً متواضعاً أقل مما دفعته فيها، لكنني لم أقل شيئاً عن الخلل في محركها. يخجلني أنني لم أقل شيئاً!

أراد الرجل شراءها حالاً، فمضينا إلى بيته حيث حرَّر شيكاً بمئة وثمانين دولاراً على مصرف كونينتال إيلينويز لكنه لم يتركنا نذهب بعد ذلك. قال مازحاً إن عليَّ أن أسمح بأن يستعيد قسماً من ماله في لعبة بوكر. لعبت زوجته أيضاً. من الواضح أنهما كانا يعتزمان سلبي تلك النقود. اضطر كايو إلى مشاركتنا اللعب أيضاً... حتى تبدو لعبة ودية. لكنها كانت محاولة احتيال حقيقية! جلسنا حول الطاولة الدائرية عند المدفأة. كان على الطاولة إبريق من القهوة والحليب المكثّف. استمرت اللعبة حتى وقت متأخر من الليل. كانت طاولة العمل بما عليها من أجهزة الراديو المعطلة هناك أيضاً، في ذلك المطبخ الكبير. غضب الزوج لأن زوجته خسرت. لو ربحت لكان ربحهما مضاعفاً. غضب منها وشتمها فردت عليه بصراخ كثير. خسر كايو أيضاً. كنت الرابح الوحيد؛ كان من الأفضل لي ألّا أفوز! والحقيقة أنني أعدت إلى كايو نقوده. إلا أن صهره أوقف صرف الشيك بعد يومين. فكان علي أن أذهب لأخذ السيارة... لم يستطع تشغيلها. حدث ما يشبه المشاجرة. كان كايو في غاية الانزعاج، وظل بعض الوقت قليل الكلام معي في المدرسة، إلا أنه تجاوز ذلك آخر الأمر. أظن أنني ما كان يجب أن أبيع تلك السيارة من غير أن أخبر المشتري بمشكلتها.

كانت صوفي غيراتيس (صديقتي من أيام العمل النقابي في الفندق متزوّجة الآن)، لكنها كانت تريد الطلاق من زوجها لتتزوجني. قالت لي إنه على علاقة جنسية مع رجال آخرين، وإنه لا يعيرها أي اهتمام. لقد وضع مالاً في حساب مصرفي باسمها، وأعطاها سيارة، لكنه ما كان يريدها إلا للمظاهر. كان يعمل في بيع أحد المنتجات الخاصة بالبيوت الزجاجية. كان هذا المنتج محتكَراً مما جعل حياته سهلة لأن سيارة تأتي فتأخذه كل يوم فيمضي متأنقاً في جولة على البيوت الزجاجية في محيط المدينة. وهذا ما جعل صوفي تمضي وقتاً طويلاً معي وتهتم بترتيب غرفتي في بناية أوين... الغرفة التي لم تعرف ترتيباً من قبل. كانت تعجب كيف أستطيع النوم على وسادة من غير غطاء. اشترت لي عدة أغطية

لتلك الوسادة. كانت تقول: «أنت بخيل... ليست المشكلة في أنك قذر، فأنت تعرف قيمة الأشياء الجيدة». إنها محقة. كانت صوفي في غاية الذكاء رغم كونها عاملة فندق. كنت بخيلاً في بعض الأشياء. عندما أذهب إلى نادٍ أو إلى بار جيد فإنني أتحسس جيوبي وأقلق عندما أفكر في المبلغ الذي سأدفعه. من الطبيعي أنها تعرف هذا... «لكني أعرف أيضاً أنك مستعد للتخلي عن مالك إذا لمس أحد الوتر الصحيح في نفسك. هذا ليس جيداً أيضاً! انظر إلى تلك السيارة التي لديك. هذه حماقة مطلقة! كنت غبياً عندما اشتريتها».

كانت صوفي شديدة الجمال بعينيها المتسعتين السابحتين... عينين بنيّتين متمهّلتين. وإضافة إلى جمالها، مثلما قلت قبل قليل، لدى صوفي مواهب عقلية أيضاً رغم أنها تستخدمها بطريقة توحي بأنها لا تقيم لها وزناً كبيراً. ترفض استخدام الحساب المصرفي الذي أعطاها إياه زوجها. وقفتْ في قبعة مزينة بزهور بولندية اشترتها من متجر غولدبلات... وقفت تغسل بعض أشيائها في مغسلتي. كانت في سروالها الداخلي. تدخن سيجارة. إن المفارقة كامنة في أنها شخص في غاية اللطف... إنها جيدة جداً معي... ليس هذا لأنها في حاجة إلي، بل عكس ذلك تماماً: السبب هو أنني أحتاجها. لكني ما كنت مستعداً للزواج!

قالت: «لو كنت أكثر تناسباً مع طموحاتك لانسجمنا تماماً. تجدني جيدة للفراش، لكن ليس للزواج. رميتني في ثانية واحدة عندما جاءت الفتاة الأخرى لتأخذك. لعلك رأيتني مخجلة لك في تلك اللحظة. تجدني مفيدة لك تماماً عندما تشعر بالضعف وتكون معنوياتك منهارة. إنني أعرفك: ليس هنالك شيء جيد بما فيه الكفاية بحيث تتمسك به أو تُبقي عليه. لا بد أن أباك كان أرستقراطياً ابن كلب».

«أشك في هذا. يقول أخي إن أبانا كان يقود شاحنة لدى مصبغة في شارع مارشفيلد. لا أظنه كان شخصاً متميزاً. ثم إنه وجد أمي عندما كانت عاملة في إحدى السقائف في شارع ويلز».

«أنت لا تريدني في حقيقة الأمر، أليس كذلك؟».

كانت تقصد بهذا السؤال أنني لا أريد أن تستقر قدماي على درب في الحياة، ولا أريد أن أكف عن التلفت من حولي. ماذا؟ ما من شيء أتوق إليه أكثر من ذلك. فليكن! فلأكن مستقراً وليتوقف هذا الطواف التائه منذ الآن! فلتصل ضرورة البحث عن الأشياء الكبيرة الغامضة في الحياة إلى نهايتها، تلك الضرورة التي تعيش فينا وتزرع في نفوسنا بؤساً سرياً إن لم تتحقق... فلتعرف تحققها إذن، ولتظفر بفرصة تبرهن فيها على أنها ليست الشيطان

بذاته! أتظن صوفي أنني لا أريد أن تكون لي زوجة وأبناء وبنات، أو أنني لا أريد أن أجد نفسي منشغلاً بعمل يومي مناسب؟ نهضت واقفاً وقلت لها إنها مخطئة كثيراً في فهمي.

قالت سعيدة: «ماذا تنتظر؟ دعنا نبدأ! سوف أكون زوجة جيدة لك؛ أنت تعرف أنني سأكون كذلك. إنني في حاجة إلى أن أبدأ أيضاً».

أصابني الارتباك عند ذلك، واحمرّ وجهي. أحسست بالإحراج وبأن لساني يرفض أن يقول شيئاً.

قالت بصراحة حزينة... بفمها ذي الشفتين الحمراوين، فمها الذي كان في الظل بينما لمع ضوء المصباح الكهربائي على كتفيها العاريتين: «لست جيدة بما يكفي. لا بأس... من هي؟».

ما كنت مستعداً للزواج بعد!... هذا ما قلته لها. لكن صوفي قالت لي شيئاً يشبه ما كان صديقي القديم الروسي يقصده في المكسيك... لقد جرح كبريائي في ذلك الوقت. ما كان يقصد قوله حقاً (هذا ما فهمته على الفور، من غير أي احتمال للخطأ) هو أنني لا أشعر كما يجب بأقدار الناس الآخرين. لا بد أنه يعرف هذا الأمر لأنه، هو نفسه، كان شخصاً متجولاً هنا وهناك؛ فما الذي يجعله يتجول من موسكو إلى تركستان إلى الصحراء العربية إلى باريس إلى سنغافورة؟ لا يخرج أحد من هذه الآلام مثلما يخرج حاجٌّ جَوّال ينظر إلى المعابد وأرصفة الموانئ ويدخن سجائره بجانب أكوام من عظام التاريخ فوق تربة عاشت وماتت عدة مرات... هناك، حيث يظل الناس في بيوتهم ويتلقون مصائرهم من غير حراك.

لقد جرحتُ صوفي... وجهها الذي صار الآن أكثر نضجاً من ذلك الوجه الجميل الذي رأيته في مكتب النقابة أول مرة، كان مجروحاً. لكنها لم تتركني هذه المرة مثلما فعلت عندما قرعت ثيا باب غرفتي، عندما أسرعت فغطت فخذيها. أظن أنها صارت تعرف الآن كم تكون خيبة الأمل كبيرة عندما يضع الانسان آمالاً كبيرة. لكني ما كنت أريد الزواج منها. سوف تبالغ كثيراً في توبيخي، لمصلحتي. إنها إذن روحٌ أخرى من الأرواح التي أرادت شيئاً مني لكني مررت بها طائراً.

«أنت تنتظر تلك الفتاة». قالت هذا بحسد؛ كانت مخطئة!

قلت: «لا، لن أراها من جديد».

لكنني كنت ماضياً في اتجاه ما، رغم ذلك! عليكم ألا تأخذوا بالمظاهر كثيراً. كنت على وشك الوصول إلى قرارات ذات أهمية متميزة. والواقع أنني كنت مستلقياً على أريكتي بعد

الظهر فتوصّلت إلى خلاصة هامة. كنت مستلقياً في ملابسي البيتية بعد أن ألغيت ارتباطاتي في ذلك اليوم. وعندها وصل كليم تامبو وفي رأسه فكرة استولت عليه تماماً.

لا أظن أن لدى كليم خطايا من النوع القاتل؛ لكن خطاياه (مهما يكن نوعها) كانت ظاهرة عليه تماماً في تلك اللحظة... الاستيقاظ المتأخر، وانتفاخ الوجه، والمظهر المهمَل الذي كان السيد النبيل لا برويير يراه دليلاً على دناءة النفس، ورائحة التبغ، ونسالات من الخيوط، وكثير من وبر القطط، والإصرار على شراء حوائجه من المتاجر الرخيصة والسكن في أماكن بائسة، وكذلك حرصه على استخدام أسوأ أنواع كولونيا الحلاقة والأمشاط وجوارب الحرير الصناعي، وهذه الأشياء كلها. هذا بالإضافة إلى نظراته المترفّعة التي تعبّر، رغم ذلك، عن شيء من ازدراء الذات. فليكن ما يكون... لقد كان مستلقياً في سريره أيضاً في هذا النهار البنّي الحزين، وكان عقله يضع خطةً أيضاً.

سوف ينطلق إلى الحياة العملية. فور حصوله على شهادة علم النفس في الشتاء، سوف يفتتح مكتباً في واحدة من أقدم ناطحات السحاب في ديربورن بالقرب من شارع جاكسون، وسيصبح استشارياً يقدم النصح والمساعدة في ما يتعلق بالحياة المهنية.

قلت له: «أنت؟ لم تعمل يوماً واحداً في حياتك كلها».

أجابني فوراً... كان مستعداً لهذا السؤال: «هذا ما يجعلني شخصاً مثالياً لهذه المهمة. إنني مسترخٍ تماماً. لا تقل كلاماً فارغاً يا أوجي! هل تذكر بيني فراي الذي كان في صالة الألعاب، إنّه ينظف نفسه الآن! يعمل استشاري زواج، ويجري اختبارات الحمل».

«إن كان هو الشخص نفسه الذي أتذكره الآن، فإنه الشخص نفسه الذي مثل أمام المحكمة الشهر الماضي بتهمة الاحتيال».

«صحيح؛ لكننا نستطيع أن نقوم بالأمر نفسه بطريقة قانونية».

لا تزال أفكاري الخاصة مسيطرة على عقلي. قلت له: «لا أريد إحباطك؛ لكن كيف ستحصل على الزبائن؟».

«أوه، هذه ليست مشكلة. هل تظن أن الناس يعرفون ما يريدون؟ إنهم يتوسلون إليك حتى تخبرهم بذلك. وهكذا، سنكون الخبيرَين اللذين يأتون إليهما».

«أوه، لا يا كليم. لا تقل 'سنكون'!».

«أوجي، أريدك أن تقوم بذلك معي. لا أحب أن أخوض هذا المشروع وحدي. سوف أجري اختبارات الأهلية والاستعداد للزواج، أما أنت فسوف تجري المقابلات مع الناس.

إذا استعنت بأسلوب روجرز غير التوجيهي فإنك تستطيع جعلهم يقولون كل شيء. لا صعوبة في هذا الأمر. أصغِ إلي... لا يمكنك الاستمرار هكذا متنقلاً من عمل تافه إلى آخر».

«أعرف. لكن، يا كليم، لقد حدث لي شيء اليوم».

قال: «ها أنت تغدو عنيداً من جديد! سوف تزدهر أحوالنا في هذا المجال».

«لا يا كليم. ما الذي أستطيع فعله لهؤلاء الرجال، أو النساء؟ سوف أشعر بالعار إذا أخذت نقوداً منهم في هذا المكتب الذي يأتون إليه بحثاً عن عمل».

«أوه، ما هذا الهراء؟ لن نعمل في تأمين الوظائف لهؤلاء الناس. سنخبرهم عن أنواع الوظائف التي تناسب شخصياتهم ومؤهّلاتهم. هذا اختصاص حديث. الاختصاصات الحديثة شيء مختلف تماماً».

قلت بعنف: «كف عن مجادلتي! ألا ترى أن شيئاً حصل لي اليوم؟» فهم عند ذلك أنني منفعل حقاً. قلت كلاماً كثيراً، وقد استرسلت:

«لدي إحساس في ما يتعلق بالخطوط المحورية في الحياة، الخطوط التي يجب أن تتعامل معها باستقامة وإلا فإن وجودك لا يكون إلا نوعاً من التهريج، نوعاً من مأساة خفية مختبئة. لا بد أن الإحساس بهذه الخطوط المحورية موجود لديّ منذ كنت طفلاً. ولا بد أنه جعلني أريد أن أحقق وجودي بالتوافق معها. هذا ما يدفعني دائماً إلى قول دائماً كلمة 'لا' كأي شخص شديد العناد، لأي إنسان يحاول إقناعي بأي شيء... كان عنادي ناجماً عن ذاكرتي التي تتمسك بهذه الخطوط رغم أنها ما كانت واضحة تماماً على الإطلاق. لكنني عدت إلى الإحساس بهذه الخطوط نابضةً من جديد في داخلي. عندما يصل سعيك إلى منتهاه تصبح هذه الخطوط أمامك، كأنها هدية لك. كنت مستلقياً على الأريكة قبل مجيئك، وفجأة جاءت هذه الخطوط منطلقة إلي مباشرة. الحقيقة والحب والسلام والوفرة والانسجام، وأن يكون المرء مفيداً! ينجلي الضجيج كله، وتسقط الحواجز، ويزول كل تشوّه وتبَعثُر وتشتُّت وعناء، يزول كل ما هو زائد مثلما تزول أشياء غير حقيقية. أظن أن أي إنسان، في أي وقت، يمكن أن يعود إلى هذه الخطوط المحورية، حتى إن كان وغداً سيء الحظ... ستأتيه إذا ظل هادئاً، إذا انتظرها. ليس طموحي وتطلعي إلى شيء خاص متميز، ذلك التطلع الذي كان عندي دائماً، إلا نوعاً من التبجحّ الذي يشوّه هذه المعرفة من جذرها... إنها المعرفة الأقدم، أقدم حتى من نهر الفرات، وأقدم من نهر الغانج! يمكن أن تأتي الحياة كلها من جديد، في أي وقت، فيولد الإنسان مرة أخرى ولا يكون عليه

أن يصبح ربّاً أو موظفاً، خادماً للآخرين، مثلما كان أوزيريس الذي يتمزق كل سنة حتى يعمّ الخير... يصبح الإنسان قادراً على أن يكون هو نفسه، على أن يكون محدداً مُعرَّفاً كما هو، ويصبح قادراً على أن يضع نفسه على هذه الخطوط المحورية. سوف يصبح في بؤرة التركيز، وسوف يعيش مع المسرة الحقيقية. ستصبح آلامه نفسها مسَرّاتٍ إن كانت آلاماً صادقة؛ لن يُودي انعدام حوله بقوته، بل سيعجز التجوال نفسه عن أخذه بعيداً عن ذاته، وستعجز الخدع والمقالب الاجتماعية الكبرى عن جعله شخصاً سخيفاً، ولا تكون الخيبات المتلاحقة قادرة على أخذ حبه منه. لن يكون الموت مخيفاً له إن لم تكن الحياة تخيفه. وسيطهّره لقاءُ الناس الحقيقيين الآخرين من خوفه من سرعة التغير ومن قصر الحياة. هذا ليس شيئاً أتخيله يا كليم لأنني أضع حياتي كلها في هذا الاختبار».

قال كليم: «إنك شخص مثابر عنيد حقاً!».

«كنت أظن أن مشكلتي ستصبح أكثر بساطة إذا عرفت أكثر، وربما يكون عليّ إكمال تعليمي أيضاً. لكنني، منذ عملت لدى روبي، توصلت إلى نتيجة تقول إنني لا أستطيع الاستفادة حتى من عشرة بالمئة مما أعرفه بالفعل حتى ذلك الوقت. سوف أعطيك مثالاً، قرأت عن الملك آرثر وطاولته المستديرة عندما كنت طفلاً. لكن ما الذي يمكن أن أفعله بها؟ كان للتضحية والمحاولات الصادقة أثر كبير في نفسي، فما الذي يتعين عليَّ فعله؟ خذ الكتاب المقدس مثلاً! كيف يمكنك أن تضعه موضع الاستخدام؟ نعم، إنها أشياء غير قابلة للاستخدام! ثم تذهب بعد ذلك وتكوّم فوق هذا كله مزيداً من المعلومات ومزيداً من الآراء والنصائح. إن أي شيء يزوّدك بمعلومات لا تستطيع استخدامها يكون شيئاً خطيراً تماماً! لكن هنالك الكثير الكثير من كل شيء من هذا النوع... هذا ما فهمته... هنالك تاريخ وثقافة أكثر بكثير مما يستطيع المرء أن يتابعه، وتفاصيل كثيرة، وأخبار كثيرة، وأمثلة كثيرة، وتأثيرات كثيرة، وأشخاص كثر يقولون لك إن عليك أن تكون مثلهم، وهذه العظمة كلها... هذه الوفرة، هذا الاضطراب، هذا الشلّال الذي يشبه شلالات نياغارا! من عساه يكون قادراً على تفسير هذا؟ أنا؟ ليس لي عقل كافٍ للسيطرة على هذا كله. سوف أمضي منجرفاً مع هذه المعلومات. لن تحظى مشاعري بالفرصة الكافية إذا تصدَّيت لهذا كله وصرت شبيهاً بموسوعة من الموسوعات. نعم، هذا سؤال عن الزمن الذي ننفقه في الاستعداد للحياة. انظر! قد يظل الإنسان على هذا النحو أربعين سنة أو خمسين أو ستين، داخل جدران كيانه الخاص. لا تحدث التجارب الكبرى إلا ضمن جدران كيانه. ولا تدور الحوارات الكبرى إلا ضمن تلك الجدران. وتظل الإنجازات كلها ضمن الجدران أيضاً. يظل السحر كله حبيس الجدران نفسها. بل حتى الكره، والوحشية، والحسد، والقتل، تظل

كلها حبيسة الجدران. لن يكون هذا إلا حلماً مخيفاً مرعباً، حلماً عن الوجود. أن يحفر المرء الخنادق وأن يضرب الآخرين بمجرفته أفضل من الموت بين الجدران».

«لا بأس، هيا... ما الذي تحاول إثباته؟».

«لا أحاول إثبات أي شيء، لا أحاول إثبات أي شيء أبداً! أتظن أن لدي هذا الطموح الذي يجعلني أقف وأثبت شيئاً؟ كل شخص عرفته، كل شخص تقريباً، كان يحاول أن يبيّن بطريقة ما كيف يفهم العالم كله. لا يأتي هذا إلا نتيجة شعورك بالجهد اللازم حتى تفهم نفسك. لكنك تبالغ فيه فتجعله يشمل العالم كله نتيجة شدة الجهد الذي تبذله أنت. لكن الأمر لا يستدعي هذا الجهد كله. أو لا يجوز أن يستدعيه، على الأقل. أنت لا تتحمل مسؤولية عن هذا العالم! العالم موجود من غيرك! لذلك، لا أريد أن أكون ممثلاً أو زعيماً أو مثلاً أعلى لجيلي، ولا أريد أن أكون نموذجاً للبشرية. لست أريد إلا شيئاً لي أنا، لست أريد التأمل إلا في نفسي. هذا ما يجعلني أرفع صوتي الآن، وهذا ما يجعلني متحمساً هكذا. أريد مكاناً لي أنا! وإذا كان هذا المكان في جبل جليدي في غرينلاند، فسوف أذهب إلى غرينلاند، ولن أعير نفسي ثانية لأكون جزءاً من خطة أياً كان».

«قل لي قبل أن يقتلني نفاد الصبر: ما مشروعك أنت؟».

«أريد أن أشتري قطعة من الأرض وأستقر فيها. ستكون مناسبة إن وجدتها هنا في إيلينويز رغم أنني لن أعترض على إنديانا أو ويسكنسون. لا تقلق، لا أعتزم أن أصير فلاحاً رغم أنني يمكن أن أقوم بشيء من الزراعة. لكن ما أريده أكثر من أي شيء هو أن أتزوج وأبني بيتاً وأقيم مدرسة أعلم الأولاد فيها. سوف أتزوج... بالطبع، من الضروري أن تكون زوجتي متفقة معي على هذا... ثم سآتي بأمي من ملجأ المكفوفين، وسأجلب أخي جورج من الجنوب. أظن أن سايمون يمكن أن يعطيني بعض المال لا بدأ. أوه، لا أتوقع أن أنشئ هناك جزيرة السعادة. لست أعتبر نفسي شبيهاً بروسبيرو. ليست لدي تلك الإمكانيات. ليست لدي ابنة أيضاً. لم أكن ملكاً على سبيل المثال. لا، لا، لا، لست أبحث عن بيت فخم أعيش فيه حياة من غير عناء، لن أفعل هذا بعد اليوم...».

«هذا أعجب شيء سمعته منك في حياتي كلها! إنها خطة جديرة بعقلك. إنها تجعلني فخوراً بك، بعض الشيء. أقول هذا رغم أنني أشعر بالخوف أيضاً عندما أفكر في الأشياء التي تكون في عقلك عندما تبدو هادئاً وديعاً. لكن، من أين تأتي بالأطفال من أجل مدرستك؟».

«أظن أنني يمكن أن أحصل على ترخيص من سلطات الولاية أو المقاطعة، أو من أي

سلطات مسؤولة عن هذا الأمر؛ وذلك حتى يحق لي أن أرعى الأطفال. وعند ذلك يمكن أن آتي بهم من بعض المؤسسات. سيكون كل شيء على ما يرام في تلك الحالة، وسيكون لدينا أطفال».

«بالإضافة إلى أطفالك أنت؟».

«بالطبع، أحب أن يكون عندي أطفال صغار. أتمنى ذلك. إن لدينا تلك المؤسسات التي تمر ببعض الصعوبات...».

«يمكن أن يظهر من بين هؤلاء الأطفال عباقرة أو مشاهير. لكني أعرف ما تفكر فيه. تظن أنك ستحب هؤلاء الأطفال حباً يجعلهم يتحولون إلى أشخاص مثل مايكل أنجلو وتولستوي. سوف تعطيهم فرصة في الحياة، وسوف تنقذهم... ستكون قديسهم وأباهم العظيم. لكن، إذا جعلتهم جيدين إلى هذا الحد، فكيف يستطيعون المضي في هذا العالم؟ سيكون عليهم أن يمضوا حياتهم كلها وحيدين».

«لا، من الممكن أن أعيش معهم في واقع الأمر. سأكون سعيداً بهذا. سأقيم ورشة للنجارة. بل يمكن حتى أن أتعلم إصلاح سيارتي. ويمكن أن يصبح أخي جورج معلماً لصناعة الأحذية. قد أدرس اللغات حتى أعلّم الأطفال. ويمكن لأمي أن تجلس في الشرفة الأمامية فتأتي الحيوانات وتتجول حولها، عند قدميها، الديكة والقطط، من الممكن أن نقيم مشتلاً للأشجار أيضاً».

«أتريد أن تصبح ملكاً يا ابن العاهرة؟ تريد أن تكون ملكاً لطيفاً ملعوناً على تلك النساء وأولئك الأطفال وعلى أخيك نصف المجنون! لقد تخلص والدك من الأسرة كلها؛ وقمت أنت بنصيبك من ذلك أيضاً. وتريد الآن أن تفعل شيئاً للتعويض عن ذلك».

قلت: «يمكنك دائماً أن تفتش عن دوافع سيئة. هنالك دائماً دوافع سيئة. لذا فإن كل ما أستطيع قوله هو أنني لا أريد أن تكون لديّ دوافع من هذا النوع. لا أعرف الكثير عن أبي عاثر الحظ. لا بد أنه فعل ما فعله معظم الأشخاص الآخرين. أتى ثم ذهب: ذهب من أجل حريته في ظاهر الأمر؛ لكنه ذهب متجهاً إلى مشكلة أو إلى معاناة أخرى. لكن، لماذا أكذب في شيء من هذا القبيل بينما أبحث عن شيء دائم مستقر، بينما أحاول الوصول إلى هذه الخطوط المحورية؟ أدركُ أن خطتي قد لا تبدو شيئاً عظيماً في نظر أشخاص كثيرين. لكني أعرف أن فرصتي ليست كبيرة في مواجهة الحياة بكل تعقيداتها وقواها المظلمة. وهذا ما يجعلني أبدأ من مستوى منخفض؛ هذا ما يجعلني أبدأ بداية بسيطة».

قال لي: «أتمنى لك حظاً موفقاً. لكنني لا أظن أن ما تتحدث عنه يمكن أن يحدث في يوم من الأيام».

وهكذا صارت لديّ الآن هذه الفكرة الرائعة، صار لديّ مشروعي! كنت عند نقطة تحوّل. ولبعض الوقت، فكرت تفكيراً جدياً في الزواج من صوفي، لكن ذلك كان نتيجة استعجالي صنع بداية ما. وعندها، فجأة، من غير مقدمات... بوووم! اندلعت الحرب بعد ظهيرة يوم أحد فظيع. في تلك اللحظة، ما عاد هنالك شيء يمكن التفكير فيه إلا الحرب. جرفتني تلك الحرب على الفور. وبين عشية وضحاها، ما عاد لدي أي أفكار شخصية على الإطلاق. أين ذهبت تلك الأفكار؟ إنها في الأسفل، في مكان ما! لم أعد مهتماً إلا بالحرب. كنت أشتعل ناراً. كم يكون على المرء أن يصبح مهتماً عندما تأتي أحداث من هذا النوع؟ بالنسبة لي، كنت مهتماً إلى أقصى حد. فقدت عقلي أول الأمر، وكرهت العدو، ولم أطق صبراً على البقاء في مكاني... أريد الذهاب لمقاتلته. يصيبني الجنون في الأفلام الحربية، وأصرخ وأصفق عندما يضعون الشريط الإخباري في السينما. لا بأس، إنك تأخذ ما تكون في حاجة شديدة إليه عندما تسنح لك الفرصة، هكذا أظن. وبعد فترة، صرت إذا فكرت في خطتي العظيمة، أقول لنفسي إنني سأبدأ بداية حقيقية بعد الحرب، لكنني لا أستطيع فعل ذلك عندما تكون الأرض كلها منهمكة في هذا المشروع الجحيمي وعندما تلتقط آلات الموت الرجال عن يميني وشمالي فتأكلهم. بدأت ألقي خطباً على رفاقي، وهذا ما أدهش الناس كثيراً... خطب عن مستعمرة النمل الكونية الذي سيقيمها العدو إذا انتصر. قدَرٌ لا يستطيع أحد أن يفلت منه عند ذلك، سيكون بنو البشر جميعاً ضمن حكومة واحدة، صحراء بشرية تمتد تحت أهرامات السلطة الوحشية. وبعد بضعة قرون، على سطح هذه الأرض نفسها، تحت القمر نفسها والشمس نفسها، حيث كان هنالك رجال يشبهون الآلهة، لن نجد شيئاً إلا بشراً يشبهون الحشرات، جماعة بشرية واحدة عجيبة مثل الكون الموجود خارجها، بشر يقلدون ذلك الكون بأن يخلقوا إنساناً ذا انضباط ميكانيكي لا يتغير... مثل قوانين الفيزياء. ستصبح الطاعة رباً، والحرية هي الشيطان. لن يظهر أنبياء يقودون الناس إلى الخروج مثلما فعل موسى لأن أهرامات السلطة الجديدة هذه لن تسمح بتنشئة أنبياء جدد. أوه، نعم، كنت أقف على قائمتيّ الخلفيتين مثل أي خطيب وأصيح مخاطباً الجميع.

وعندها ذهبت لأتطوع في الجيش. لكن ما اتضح هو أن بيزكوتشو قد سبب لي فتقاً. جعلني أطباء الجيش والبحرية أسعل أمامهم، ثم اتفقوا على أن لديَّ فتقاً إربياً. نصحوني بإجراء عملية جراحية. كانت تلك العملية مجانية.

وهكذا ذهبت إلى المستشفى الحكومي لإجراء تلك العملية. لم أقل شيئاً لأمي فأنا لا أخبرها بهذه الأشياء. قالت صوفي: «أنت مجنون تماماً لأنك تضع نفسك تحت مبضع الجراح رغم أنك معافى ورغم أنك غير مطلوب للجيش». كانت تنظر إلى المسألة نظرة شخصية. لقد استُدعيَ زوجها إلى التجنيد، وهذا سبب كافٍ لجعلي أبقى معها. أما إذا ذهبتُ إلى المستشفى فهذا يعني أنني لا أريدها. لكنها كانت تزورني دائماً. جاء كليم ليراني في ذلك الجناح، وكذلك جاء سايمون. لكن صوفي كانت موجودة معي على امتداد ساعات الزيارة كلها.

كانت العملية الجراحية قاسية. وبعد إجرائها، بقيت زمناً طويلاً غير قادر على الوقوف منتصب القامة. وصرت أمشي منحنياً بعض الشيء.

كان المستشفى مزدحماً كأنه أرض معركة. إنه في شارع هاريسون، الشارع الذي كنت آتي إليه مع ماما من أجل نظاراتها. لا يبعد المكان كثيراً عن المشرحة التي زرتها للتعرف على هوية عامل الفحم القتيل... ظلمة راعدة، وحجارة بنية عارية، وسيارات حمراء تقعقع وتتحرك متثاقلة. كان كل شيء مليئاً، مزدحماً، كل سرير، وكل نافذة، وكل قاطع من القواطع داخل الغرف، وكل زاوية... مثل أسوار طروادة أو مثل شوارع كليرمونت عندما كان بيتر الهرميتي يلقي عظاته. كان المرضى، ومن يعرجون، ومن يرتدون الأطواق والضمادات، والراقصون على العكاكيز، والمستندون إلى الجدران، والمضمَّدة رؤوسهم على كراسٍ متحركة... كانوا هناك جميعاً. فاحت روائح الجروح، وتفتحت زهور الأدوية على ضمادات الشاش، زهور آتية من أهوال ملونة، من أماكن عميقة تحت الجلد. وغير بعيد، كانت أصوات المجانين تأتي زاعقة مغنية مزقزقة؛ شيء يشبه أصوات مجموعة الطيور الاستوائية في حديقة لينكولن. كنت أصعد إلى سطح المستشفى في الأيام الدافئة فأنظر إلى المدينة. كانت شيكاغو من حولي. كان التكرار فيها يستنفد قدرتك على تخيل التفاصيل والوحدات، وحدات متكررة أكثر من خلايا الدماغ وأكثر من حجارة بابل. شيء مثل مرجل الغضب الإلهي في جهنم وقد امتلأ عظاماً. سوف يذوب المرجل نفسه عندما يأتي الوقت! ارتجاف غامض، وغبار، وأبخرة متصاعدة من جهد مذهل مرتحل في الهواء، مرتحل فوق تلك المؤسسة الكبرى، فوق العيادات وفوق السجون، فوق المصانع والفنادق، فوق المشرحة وصفوف السيارات. أنت لا شيء هنا... كأنك أمام آثار مصر أو آشور، كأنك أمام البحر... أنت لا شيء!

جاء سايمون لرؤيتي ورمى على السرير كيساً فيه برتقال. وبّخني لأنني لم أذهب إلى مستشفى خاص. كان سيء المزاج، ولم توفر نظراته الحانقة شيئاً، ولا أحداً!

لكني كنت على وشك الخروج من المستشفى، فلماذا هذه الضجة كلها؟ لا أزال محنيّ القامة بعض الشيء كأن الغرزات غير صحيحة، لكنهم قالوا إن هذا شيء مؤقت.

عدت إلى الحي الجنوبي فوجدت أن باديلا يستضيف فتاة في غرفتي. جعلني أنتقل إلى بيته. من الناحية الشكلية، كانت تلك الشابة هي التي تعيش في غرفتي الآن! كان ذلك مظهراً فقط لأنه يعيش معها في حقيقة الأمر. لم يكن يأتي إلى مكان سكنه أبداً. أما في الجامعة فهو يعمل الآن في مشروع اليورانيوم. كان مسكنه في طابق صغير مكتوم الهواء في مبنى للشقق المستأجرة. وكان الجص على الجدران الخشبية متماسكاً بفعل الطلاء فقط. أما الجيران فكانوا أسراً تعيش على المعونة الاجتماعية، وبومات ليليّات يستيقظن في الرابعة بعد الظهر ويمضين إلى النوافذ في ملابس النوم لإلقاء التحية على النهار، وفتيات شابات، فيليبينيات أنيقات نشيطات، وعجائز ثملات، ورجالًا متجهِّمين. عندما تهبط بضعة طوابق، تخرج من هذا المبنى وتدخل مدخلاً غريب التصميم... مدخل أفقي طويل كأنه بيت زجاجي صيني لا تنمو تحت نوافذه القرمزية إلا أشجار جافة متنوعة وبعض من فضلات القطط والكلاب، وقمامة أيضاً. وعندما تصير في الشارع، تمر ببراميل القمامة الأسطوانية، تكون شديد القرب من معبد بوذي كان كنيسة في ما مضى. وبعد ذلك مطعم يقدم أطباق لحم صينية. وخلف ذلك كشك لبيع الصحف والكتب، ثم تجد كالمعتاد محلاً لبيع السجائر يأتيه مشترون مستعجلون أو أشخاص متقاعدون أو مديرو انتخابات محليون؛ وتجد أيضاً رجال شرطة سائرين متثاقلين في جزماتهم الطويلة. ما كنت أشعر بأي حماسة خلال معيشتي في هذا المكان. استغرق الأمر شهوراً طويلة حتى صرت في حال أحسن. كانت مرحلة نقاهة شديدة البطء. وفي هذا الوقت تقريباً، تلقيت رسالة من ثيا بعثت بها من سان فرانسيسكو تخبرني فيها أنها تزوجت نقيباً في الطيران. قالت إنها أحست بضرورة إخباري. من الأفضل لو أنها لم تخبرني لأن رسالتها أحزنتني. غارت عيناي أكثر من ذي قبل، وأحسست برداً في يديَّ وقدمَيّ. رقدت في سرير باديلا القذر. وأحسست بأنني مريض محطَّم.

من الطبيعي أنني لم أستطع أن أجد راحة مع صوفي. كان أمراً غير صحيح: التماس الراحة منها دون إخبارها عن سبب معاناتي! كان كليم الشخص الذي أخبرته بتلك المعاناة.

قال لي: «أعرف كيف يكون هذا. كانت لي علاقة مع ابنة تاجر نحاس. وقد فعلت بي الشيء نفسه في العام الماضي. تزوَّجت مقامراً وذهبت معه إلى فلوريدا. لكنك قلت لي إن الأمر انتهى منذ زمن طويل».

قلت: «كان منتهياً».

«لكني أرى أنكم أسرة رومانسية. أصادف أخاك كثيراً مع فتاة شقراء. إينهورن رآهما أيضاً. كان خارجاً من ’سينما الشرق‘ محمولاً على ظهر أحدهم، متجهاً إلى لوهولتز ليحضر إحدى المسرحيات... إنه لا يخرج كثيراً، وعندما يخرج يحب أن يمضي نهاراً كاملاً مثلما تعرف. وعندما كان ماضياً في طريقه، على ظهر الرجل، ظهر أمامه سايمون مع هذه الفتاة. إنها الفتاة نفسها بحسب وصفه. امرأة جميلة الجسم أيضاً، في معطف من الفراء».

قلت: «مسكينة شارلوت». اتجه تفكيري إلى زوجة أخي.

«وما مشكلة شارلوت؟ هل تقصد أن شارلوت لا تعرف شيئاً عن الحياة المزدوجة؟ امرأة صاحبة مال، ولا تعرف شيئاً عن ذلك؟ حياة مزدوجة، إن لم يكن أكثر! كيف لا تفهم هذا. هو قانون عام من الناحية العملية؟».

وهكذا صار لدي شيء إضافي أفكر فيه خلال نقاهتي، خلال الوقت الذي أردت فيه أن أترك شيكاغو بأي شكل وأن أذهب إلى حيث الحدث العالمي الكبير، إلى الحرب.

كنت في الحي الغربي ذات يوم. ذهبت لآخذ ماما في نزهة في حديقة دوغلاس. كانت النزهة أمراً طيباً لكلينا لأن مشيتي لا تزال بطيئة بعض الشيء. كنا في حديقة دوغلاس تحت ضياء الشمس البارد... حديقة فيها طحالب كثيرة ومقاعد ما عادوا يهتمون كثيراً بصيانتها أيام الحرب، مقاعد عليها أشخاص متقدمون في السن يقرؤون الصحف، وفيها جدران جصية وأوراق تبحر مسرعة في بحيرة صغيرة. كان تيبّس الشيخوخة قد بدأ يظهر عند ماما، وصارت ساقاها منحنيتين قليلاً. كانت مستمتعة بالهواء البارد، رغم ذلك. لا تزال محتفظة بلون جلدها الهادئ الموحي بالصحة.

كنت عائداً بها في اتجاه المأوى عندما توقفت سيارة سايمون إلى جانبنا. كانت معه امرأة؛ ليست شارلوت، رأيت المعطف الفرائي والشعر الذهبي. ورأيت سايمون مبتسماً يشير لي بأنه لا يريد أن تنتبه ماما إلى وجودها. جاء سائراً على الرصيف. كان واضحاً أن هذا الرصيف لا يعجبه... رصيف إسمنتي فيه شقوق كبيرة وبقايا خضار وغبار. كان سايمون في مظهر ممتاز. ياقة صلبة، وأزرار بلون العقيق على قميصه الأبيض، وربطة عنق حريرية، ومعطف طويل... كان كل ما يرتديه مصنوعاً باليد... ما كانت ملابسه مجرد أشياء لتغطية الجسم! يجب أن أعترف بهذا... كان في مظهره شيء يحسده المرء عليه حين يراه.

هل كان قادماً لزيارة ماما؟ هل أتى ليجعلها تتعرف على هذه الفتاة؟ قال لنا مسروراً: «ها أنت يا أخي! أليست مفاجأة رائعة؟ لماذا لم أعد أراك؟ كيف حالك يا ماما؟» أحاط كلاً منا بذراع من ذراعيه وأدارنا حتى صرنا في مواجهة السيارة حيث أشارت إلينا الفتاة إشارة ودية لطيفة. قال: «رائع أن تجتمع الأسرة كلها معاً».

تساءلت في نفسي عما إذا كانت ماما قد أحست بوجود شخص آخر. لعلها أحست شيئاً! لكن كيف يمكنها، ببراءتها كلها، أن تعرف ما تفكر فيه عندما يتعلق الأمر بهذين الجسدين المدللين المتأنقين الراكبين في سيارة الكاديلاك ذات المقاعد الوثيرة كأنهما اثنان من نبلاء الرومان... سايمون وهذه الفتاة ذات الثديين المرتفعين؟

يجني سايمون مالاً كثيراً الآن. تنتج إحدى الشركات التي يستثمر ماله فيها عتاداً لصالح الجيش. كان يضحك دائماً عندما يخبرني عن تدفق المال إليه، كأن ذلك يدهشه هو نفسه. وكان يقول إنه يأمل أن يسير على خطى صديقي المليونير روبي فيؤلف كتاباً بنفسه، وعندها سأكون مساعده. لم يعجبني هذا المزاح. وبالمناسبة، كان روبي يستعد للذهاب إلى واشنطن في ذلك الوقت. ما كان قادراً على شرح سبب سفره، لكنه شعر بضرورة الذهاب.

قال سايمون: «توقفت لأرى إن كانت أمورك على ما يرام يا ماما. لا أستطيع البقاء الآن. وسوف آخذ أوجي معي».

قالت: «اذهبا يا ولديّ». كانت تحب أن يكون بيننا عمل مشترك.

صعدنا الدرجات الحجرية معها حتى دخلت. وعندما صرنا وحدنا، قال سايمون وهو يقصد كل كلمة من هذه الكلمات: «قبل أن تبدأ التفكير في أي شيء آخر، أقول لك إنني أحب هذه الفتاة».

«أتحبها؟ منذ متى؟».

«منذ فترة غير قليلة».

«لكن من هي؟ من أين أتت؟».

أخبرني مبتسماً: «لقد هجرتِ زوجها في ليلة لقائنا الأولى. كان ذلك في ناد ليلي في ديترويت. ذهبتُ إلى ديترويت في رحلة عمل لمدة يومين. رقصت معها فقالت إنها لن تبقى يوماً واحداً مع ذلك الشخص. أجبتها: تعالي معي! وهي معي منذ ذلك الوقت».

«هنا، في شيكاغو!».

«طبعاً هنا... ماذا تظن؟ أوجي، أريد أن يكون هنالك تعارف بينكما. حان وقت تعارفكما. إنها تشعر بالوحدة كثيراً لأن... إنك قادر على إدراك السبب. وهي تعرف كل شيء عنك. لا تقلق. لم أخبرها إلا عن الأشياء الجيدة. لا بأس!» قال هذا وهو واقف أمامي... كان كأنه واقف فوقي لأنه يزيدني طولاً بإنش أو اثنين. بدا على وجنتيه احمرار كأنه بفعل مادة من مواد التجميل، أو لعله لون الوقاحة! قال مجيباً على ما أفكر فيه... فيما يتعلق بشارلوت: «لم أكن أظن أنك ستجد صعوبة في فهم هذا».

«لا، ليس الأمر صعباً كثيراً».

«لا علاقة لشارلوت بالأمر. لست أُملي عليها ما تفعله. فلتذهب وتفعل الأمر نفسه».

«هل تستطيع؟».

«إنها مشكلتها إن كانت لا تستطيع ذلك. مشكلتي هي ريني هذه؛ ونفسي». صمت لحظة بعد أن قال «ونفسي» وبدا حزيناً غاضباً بعض الشيء... كأن أفكارَه تبعثُ روحَه نزولاً... مروراً بمخاطر كثيرة. لم أستطع رؤية شيء كبير الخطورة. لم أفهم بعد. لكني كنت مسحوراً به، مسحوراً بهما. قال لها وهو يديرني لننزل درجات السلم حتى نقترب من السيارة: «ريني، هذا أوجي». كان صعباً أن أفهم بشكل واضح، بعد أن صرت أعرفها، ما يجعلها مهمة عنده إلى هذه الدرجة.

كان جسدها غنياً رغم صغر حجمه. يرى المرء ثدييها الثريين الناهضين تحت ثيابها (صدر عامر كما يقولون في عاصمة الجنس، باريس)؛ ويرى ساقيها وجواربها الحريرية. ورغم صغر سنها، كان وجهها مكسواً بزينة ضاربة إلى لون ذهبي... أحمر شفاه كثيف على شفتيها، وأهداب بنية فيها شيء يشبه غباراً ذهبياً يتلألأ على شعراتهما. كان شعرها ذهبياً أيضاً: ذهبي اللون أصلاً لكن لمعة ذهبية أضيفت إليه كأنه شعر نبلاء قصر فِرساي. مشابكُ شعر ذهبية ونظارة ذهبية الإطار وحلي ذهبية. أوشكُ على القول إنها تبدو غير ناضجة، لكن ربما كان المقصود بهذه الكلمة هي أنها لا تحمل هذه الحمولة الذهبية كلها بثقة تامة؛ ربما لا تستطيع ذلك إلا امرأة كبيرة. لا يعني هذا بالضرورة أن تكون امرأة ضخمة الجسم، بل امرأة لديها قدرة كبيرة حقاً على استخدام هذه الزينة كلها. واحدة من جماعة النساء المتآخيات القديمة لديها دبابيس زينة ومشابك شعر وقوارير صغيرة وأمشاط من بلاد آشور أو من كريت ترقد كأنها عجيبة من العجائب على نتوءات متموّجة مصبوغة بالذهب وعلى فراش برونزي مخضرّ بفعل الزمن في صندوق من صناديق المتاحف... أولئك الفتيات المذعورات اللواتي يضعهن الكهنة في الفراش لتنتظرن زيارة ليلية سرية

من إله ما... العذراوات اللواتي يشاركن في معارك سنوية حامية، معارك البساتين والمغنين العاشقين... قدامى العموريين والمؤابيين والسوريين، وأمثالهم. خط يمر «بالنساء الباسلات» ولقاءات الحب، والخليلات، وبنات الملوك المترفات، والمومسات، والنساء المتمردات، وصولاً إلى النوادي الليلية العصرية أو عربات الدرجة الأولى ذات الأثاث الفاخر والمسافرين اللامعين الذين يتفنن المديرون في خدمتهم وإتحافهم بأطايب الطعام ومفاجآت أخرى. هذا ما كان يفترض أن تكونه ريني... لم أر أنها كانت كذلك تماماً. قد تظنون أن الأمر لا يقتضي غير الاستسلام للغريزة. ليس الأمر بهذه السهولة! إن بدأتَ فعل ذلك فكيف يمكنك أن تعرف الغريزة التي ستعلو غيرها وتسيطر على الأمر كله؟

بدت ريني لي فتاة شديدة الريبة. كان ذلك ظاهراً على امتداد أنفها، كأنه خط من الضوء... كان فيه نوع من الريبة وعدم اليقين.

وفور توقف سايمون ليترك السيارة دقائق معدودة، كانت أول كلماتها لي: «إنني أحب أخاك. وقعت في حبه منذ الدقيقة الأولى. وسوف أحبه إلى أن أموت». مدت لي يدها، في قفازها، حتى أمسك بها... «صدقني يا أوجي».

قد يكون هذا صحيحاً، لكن من المؤسف أنها تلقي عليه ظلاً من الشك عندما تبذل ذلك الجهد من أجل تأكيده. ألعاب وألعاب! ألعاب داخل ألعاب! لكن، رغم ذلك، ورغم تلك الألعاب كلها، تظل هنالك أشياء صادقة، على نحو ما.

مضت تقول: «أريد أن يعرف أحدنا الآخر جيداً. قد لا تدرك ذلك، لكن سايمون يتابعك باستمرار. إنك كل شيء بالنسبة إليه، العالم كله. عليك أن تسمع ما يقوله عنك! يقول إنك سوف تصبح رجلاً عظيماً فور استقرارك على مسار ما. أريدك أن تعتبرني شخصاً يحب سايمون؛ لا تكن قاسياً عليّ في أحكامك».

«ولماذا أقسو عليك؟... بسبب زوجة أخي؟» تيبستْ عندما سمعتْ هذا السؤال، عندما ذكرتُ شارلوت. لكنها أدركت بعد ذلك أنني لم أقصد قول شيء يزعجها.

كان سايمون يتحدث عن شارلوت طيلة الوقت. وهذا ما فاجأني. كان يقول لصديقته: «لا أريد أي إزعاج منك فيما يتعلق بشارلوت. إنني أحترمها. لن أتركها في أي ظرف من الظروف. إنها، بطريقتها الخاصة، أقرب إليّ من أي شخص آخر في هذا العالم». كان رومانسياً في ما يتعلق بشارلوت أيضاً. وكان على ريني أن تتحمل هذا وأن تعرف أنها لن تستطيع أبداً أن تأخذه كله. لم يفُتني طبعاً أنني فعلت هذا ذات يوم، بأسلوبي أنا، مع ثيا وستيلا... عندما حميت نفسي منهما بأن وضعت إحداهما في طريق الأخرى حتى لا

أقع تحت رحمة أي منهما؛ حتى لا تستطيع أي منهما أن تؤذيني. أوه، كنت ذكياً إلى هذه الدرجة! لكم أن تثقوا بأنني كنت أعرف هذا. ما كان الأمر مثلما قال سايمون. ما كان حتى اعتباراً من اعتبارات الحس السليم المنطلق من أن هنالك ملكية مشتركة بين شارلوت وسايمون. حاولت أن أشرح الأمر، وأن أنبهه إليه، لكن ذلك أدهشه. لكنني انتظرت قبل تلك المحاولة. انتظرت حتى أفهم.

كان هذا ما يفعله مع ريني: يأخذها من شقتها كل صباح! تكون في انتظاره في الشارع أو في مطعم قريب. وبعد ذلك تقود به السيارة حتى مكتبه الذي لم تدخله أبداً رغم أن معظم العاملين فيه يعرفونها. وبعد ذلك، تذهب وحدها بالسيارة للتسوُّق أو لتؤدي بعض المهام من أجل سايمون، أو تقرأ مجلة وتنتظر إلى أن ينتهي عمله. تمضي النهار كله معه، أو غير بعيد عنه؛ ثم توصله في المساء حتى باب بيته تقريباً وتعود إلى شقتها في سيارة تاكسي. وفي النهار، في كل ساعة تقريباً، ينبعث الصياح عندما يزعق كل منهما في وجه الآخر، تتسع عيناها وتتقلص رقبتها وتتصلب. أما هو فيفقد صوابه ويكاد يضربها أحياناً... يتغضن جلد وجهه ويكز على أسنانه حانقاً. لم يُصلح ذلك السن المكسورة، السن التي لا تزال تجعلني أرى فيه ذلك الصبي، لا يزال يجعلني أرى في هذا المستثمر رجلِ الأعمال الأشقر المتورِّد ذا الهيئة الجرمانية، تلميذَ المدرسة الذي أرسلته الجدة لوش ليخدم على الطاولات في فندق في أحد المنتجعات. كانت تلك المشاجرات تجري بينهما عادة من أجل أشياء كالملابس، والقفازات، وزجاجة من عطر شانيل... أو من أجل الخادمة. كان يقول إنها ليست في حاجة إلى خادمة لأنها لا تمكث في البيت، ولأنها تستطيع ترتيب سريرها بنفسها. ما الفائدة من جلوس امرأة هناك. لكن ريني تريد أن يكون لديها كل ما لدى شارلوت. كانت تقلد شارلوت في كل شيء بأفضل مما تقلد أختٌ أختها؛ وغالباً ما تذهب إلى النوادي الليلية نفسها وتشتري تذاكر من أجل الحفلات الموسيقية نفسها. وهكذا كانت تعرف كيف تبدو شارلوت، وما ترتديه... لقد درستها جيداً. كانت تطالب بالأشياء نفسها، إن لم يكن أكثر! كانت طلباتها ممكنة التحقيق عندما تتعلق بأشياء من قبيل الحقائب والفساتين والأحذية الجلدية والنظارات والقداحات الفاخرة. لكن المشاجرة الأسوأ حدثت عندما أرادت سيارة لها وحدها لأن لدى شارلوت سيارة.

قال لها: «لماذا، أيتها المتسولة؟ إن لدى شارلوت مالاً، ألا تدركين هذا؟».

«لكن ليس لديها ما تريده أنت! ما تريدَه موجود لديّ».

قال مزمجراً: «ليس موجوداً لديكِ وحدك. لا تخدعي نفسك! إنه متوفر لدى نساء

كثيرات». كانت هذه واحدة من الحالات القليلة التي ما كان يريدني أن أراها؛ أما في غيرها فيبدو غير مبالٍ. أما هي، بعد حديثها عن رغبتها في أن يعرف واحدنا الآخر معرفة أفضل، فقد افترضت أنها فعلت ما يتعين عليها فعله وما عادت تكلمني إلا نادراً. صاحت تقول: «أترى كيف هو أخوك؟».

لا، لم أكن أرى كيف هو أخي. ما رأيته هو أنه كان غاضباً طيلة الوقت، غضباً واضحاً أو مقنعاً.

كان ينفجر فيصرخ: «لماذا لم تذهبي إلى الطبيب يوم أمس؟ إلى متى تواصلين إهمال هذا السعال؟ كيف تعرفين ما أصاب صدركِ؟» (جعلني كلامه أنظر في اتجاه ذلك الصدر. على وجه التقريب... تحت الفراء والحرير، وتحت حمالة صدرها، تحت ثدييها... هنالك صدر ورئتان مثل أي كائن حي آخر)... «لا يا سيدتي... أنتِ لم تذهبي. لقد تحققت من ذلك. اتصلت بعيادة الطبيب أيتها الكاذبة. أراهن على أنك ظننتني أرى نفسي أهم بكثير من أن أتصل بالطبيب حتى أسأل عنك، أو ظننت أنني أخاف أن أفعل هذا حتى لا تعرف به شارلوت». (كانت تذهب إلى طبيب شارلوت نفسه؛ لكنه كان أفضل الأطباء)... «نعم، أنتِ لم تذهبي إليه. أنت عاجزة عن الصدق. لا تستطيعين قول شيء صادق أبداً! أشك في أنك صادقة، حتى في السرير. تكذبين وتتظاهرين حتى عندما تقولين إنك تحبينني».

هذا مثال على غضبه الذي يظهر كأنه نابع من فرط الاهتمام.

لم أطق ذلك الانتظار حتى أشفى من عملية الفتق وأذهب إلى الحرب. اتركوني أذهب! هكذا كنت أقول في نفسي. لكني لم أكن لائقاً من الناحية الجسدية بعد. حصلت خلال تلك الفترة على وظيفة مؤقتة في شركة تنتج الآلات. كانت وظيفة ممتازة، مختارة. وما كنت قادراً على العثور عليها إلا نتيجة نقص اليد العاملة في ذلك الوقت. لو بقيت في تلك الشركة لربما صرت واحداً من أمراء المبيعات... موظفاً مهمّاً يسافر في عربات الدرجات الأولى إلى سانت بول مرتين كل شهر وينال علبة من السيجار الفاخر في كل رحلة، ويجد أيضاً من يستقبله عندما يبلغ محطة القطار حاملاً حقيبة أوراقه. لكن لا، كان لا بد لي من الذهاب إلى الجيش.

قال سايمون: «لا بأس، أيها الغبي! كنت أتوقع أن أراك تعيش حتى تبلغ أواسط العمر. لكني أظن أن حماقتك لن تسمح لك بذلك. أظن أنك تريد رؤية نفسك ميتاً. إذا كنت ترى أن عليك الذهاب لكي تتلقى رصاصة، أو لكي تتقيأ دماً وتعود ملفوفاً بالضمادات، أو تستلقي في الوحل وتأكل قشور البطاطا، فاذهب. إذا ورد اسمك في قوائم القتلى فسوف

يكون هذا مفيداً لأعمالي. ما المشكلة إذا كان لدى أمنا ابن طبيعي واحد فقط؟ ابن واحد فقط! إنه أنا! إن ذهابك يتركني وحيداً في هذا العالم. فكرة كسب المال هي رفيقي الذكي، أما أخي فليس كذلك».

لقد ذهبت على أية حال. إلا أنهم وجدوا أنني غير صالح للجيش ولا للبحرية. وهذا ما جعلني أنتسب إلى البحرية التجارية. أمروني بالذهاب إلى خليج شيبشيد لكي أتلقى تدريباً هناك.

كانت المرة التي رأيت فيها سايمون بعد ذلك عندما صادفته في شارع راندولف فلم يتصرف كعادته. قال لي: «فلندخل حتى نأكل شيئاً». قال ذلك لأننا كنا أمام مطعم هينريتشي الذي وضعوا في واجهته برميلاً صغيراً من الفراولة، في غير موسمها. كان العاملون في ذلك المطعم يعرفونه، لكنه لم يكد يتحدث إليهم بكلمة. ما كان منتفخاً معتزاً بنفسه كعادته في الأحوال الطبيعية. عندما جلسنا ونزع قبعته، جعلني ابيضاض وجهه أبدأ الكلام.

قلت: «ما الأمر... ما الذي يحدث؟».

أجابني: «حاولت ريني الانتحار الليلة الماضية. تناولت كمية من الحبوب المنوّمة. كانت قد بدأت تفقد وعيها عندما وصلت فهززتها وصفعتها وأجبرتها على المشي ثم ألقيتها في الماء البارد في حوض الاستحمام إلى أن وصل الطبيب. لا تزال حية. ستكون على ما يرام».

«هل كانت محاولة انتحار حقيقة؟ هل كانت تقصد ذلك فعلاً؟».

«قال الطبيب إنها لم تكن في خطر حقيقي. لعلها ما كانت تعرف الكمية التي يجب أن تأخذها من تلك الحبوب».

«يبدو لي هذا مستبعَداً».

«وأنا أراه مستبعداً أيضاً. لا بد أنها كانت تتظاهر كعادتها. إنها مزيَّفة كلها. ليست هذه بالمرة الأولى على الإطلاق». لمحت في وجهه صراعات غير معقولة. أحزنني هذا.

تابع يقول: «أحياناً، يرمي الإنسان نفسه في شيء يأتيه من من وحي اللحظة الراهنة، ثم يجد نفسه بعد ذلك ماضياً في الأمر من غير أن يدري. إذا دفعتَ ثمناً باهظاً من أجل متعة فلا بأس! لكن، افترض أن الثمن كان من أجل شيء لا متعة فيه. افترض أنك تحاول أن تحصل على متعة. افترض أنك راغب فيها. أنت تدفع ثمناً لما تريده، لكن ليس لما تحصل عليه. هذا هو معنى الثمن. وإلا، فأين يكون الثمن؟ أنت تدفع ثمن شيء تظن أنه ينقصك».

قلت:»ليتني كنت قادراً على فعل شيء من أجلك».

قال: «تستطيع أن تدفعني أمام القطار».

بدأ يخبرني عما حدث قبل ذلك: «اكتشفت شارلوت أمر ريني. أعتقد أنها تعرف بالأمر منذ وقت طويل. لكنني أظن أنها فضلت الانتظار». إن كانت شارلوت لا تعرف حقاً، فهذا أمر مفاجئ. إن الأفكار والمعلومات المتعلقة بسايمون تدور في رأسها طيلة الوقت. وهي تدور في المدينة. قال النادل الذي جاء بالفراولة في صحون معدنية: «تفضل يا سيد مارتش». تكون ريني مع سايمون طيلة الوقت أيضاً، وهما يخاطران باكتشاف أمرهما طيلة الوقت. لماذا تدفعه حتى نقطة الخطر تقريباً؟ عثر في السيارة ذات يوم على مشبك شعر ذهبي من مشابكها فقال سايمون: «اللعنة عليها! إنها في غاية الإهمال». ثم وضع المشبك في جيبه. لا يمكن أبداً أن تمر سنتان من غير أن تكتشف شارلوت شيئاً... لا شعرات ذهبية ولا منديل، ولا علبة كبريت من ناد لا تذهب إليه متروكة في صندوق القفازات في السيارة. ثم، ألم تستطع أن تقرأ في وجه سايمون العائد إلى بيته مثلما يعود كل زوج حاملاً قبعته وصحيفة المساء فيقبلها على خدها أو يمازح مؤخرتها مزاحاً زوجياً... ألم تقرأ في وجهه مرة أنه كان مع امرأة أخرى منذ خمس دقائق فقط، الوقت اللازم لإيقاف السيارة والصعود إلى الشقة؟ لا بد أنها كانت تعرف! أظنها ظلت فترة غير قليلة تقول لنفسها: «ما لا أراه بعيني لا يمكن أن يؤذيني»... هذا ليس عمى مقصوداً على وجه التحديد، بل هو أسلوب ذوي التفكير العميق. شيء يشبه شخصاً يصارع دباً حتى ينجو بحياته؛ لكنه يفكر، رغم الجرح الذي أصاب جبهته، في ما سيفعله يوم الأحد القادم، وفي الأشخاص الذين سيدعوهم إلى العشاء، وفي الأشياء التي سيقدمها لهم على طاولته. لكن، لا يمكن للمرء أن يتوقع تصرّف شارلوت. لعلها ظنت أنها ستدفعه إلى تصرف متهور إذا أحدثت صخباً كبيراً (نتيجة إحساسه الرومانسي بالعزة)... لعل هذا ما جعلها حذرة معه!

قالت لي ذات مرة: «إن أخاك في حاجة إلى المال، إلى مال كثير. إذا لم يكن لديه مال ينفقه، مال بقدر ما يريد، فسوف يموت». أدهشني هذا عندما سمعته... كان صباحاً حاراً؛ وكنا في غرفة المعيشة المشمسة في ناطحة السحاب المفروشة بسجاد بربري. كانت آنية الزهور من حولنا، ونسمات حارة تهز أوراق النباتات. أما هي فكانت امرأة ضخمة في رداء أبيض من الساتان. كانت تضع مبسم السيجارة في فم مطلي بأحمر الشفاه لكنها تبدو عنيفة مثل أي فرد من أفراد عائلة ماغنوس، مثل أي واحد من أعمامها أو أبناء عمومتها. لكنها كانت طيبة حين أخبرتني بأنها تحافظ على حياة سايمون.

هو في حاجة إلى المال حقاً. كانت ريني تعيش في مستوى معيشة شارلوت نفسها. وكان لديه إحساس أن ذلك هو الشيء الصحيح؛ ثم إنه ميال إلى هذا بطبيعته، ميال إلى عدم فعل شيء من غير بذخ. عندما ذهب مع شارلوت إلى فلوريدا ذهبت الفتاة خلفهما، في اليوم التالي، ونزلت في فندق فخم. ما كانت النفقات تقلقه كثيراً. لكن الشيء الذي كان يسمم حياته في ذلك الوقت هو عبودية التفكير المستمر في الترتيبات التي لا بد من الحرص عليها. لقد أراد أن يعصا زوجته، لكنه وجد نفسه متزوجاً مرتين! مسكين سايمون! لقد أشفقت عليه؛ أشفقت على أخي!

كان يقول لي دائماً إن هذه العلاقة لن تكون علاقة دائمة. فماذا؟ كم يطول زمن ما هو موقت؟ كان على ريني أن تتزوج رجلاً ثرياً آخر الأمر. كنت موجوداً عندما تحدثا في هذا ذات مرة.

قال لها: «ذلك الرجل، كاراهان، في النادي. سألني عنك بعد أن التقيناه. يريد أن يخرج معك».

قالت: «لن أفعل هذا».

«بل ستفعلين! لا تكوني حمقاء. علينا أن نرتب وضعك جيداً. إن لديه مالاً كثيراً. وهو عازب... يعمل في مجال تعبيد الطرق».

«لا تهمني أمواله. إنه عجوز قبيح. وفي فمه جسور أسنان كثيرة. ماذا تظنني؟ اتركني وشأني». شبكت ذراعيها فوق صدرها غاضبة. كانت نظارتها الصغيرة في يدها... كان صيفاً حاراً، وكانت في فستان من غير كُمَّيْن. ضمت ركبتيها وثبتت عينيها على الطريق، على الزجاج الأمامي. يجب أن تتذكروا أن هذه الأحاديث كانت تجري في السيارة غالباً.

قلت لسايمون: «إنها تريد الزواج منك».

«لا، إنها تريد البقاء معي فحسب. الأمر مناسب لها بهذا الشكل. تحصل هكذا على أكثر مما تحصل عليه الزوجة».

«أنت مغرور يا سايمون. وأنت تقصد القول إنها لا تستطيع التفكير فيما هو أفضل من التجول في السيارة كل يوم وقراءة المجلات بينما تجري مكالماتك الهاتفية!».

لكن، كان ما يقوله لي في مطعم هينريتشي هو أن شارلوت جاءته، منذ بضعة أسابيع، وقالت إن هذه العلاقة استمرت زمناً كافياً. لا بد من إيقافها الآن. بدأت المشاجرات. لم يكن ذلك لأنه غير متفق مع شارلوت. كان يعرف أن عليه التوقف، فأخبر ريني بذلك.

وكان ما حدث بينهما الجزء الأسوأ من الأمر كله. لقد صرخت وزعقت وهددت بأخذه إلى المحكمة، ثم أغمي عليها. دخل محامي سايمون المشهد بعد ذلك. طلب عقد اجتماع في مكتبه لتسوية كل شيء. قيل لريني إن شارلوت لن تكون موجودة، لكن شارلوت أتت. شتمتها ريني، فصفعتها شارلوت. صفع سايمون ريني أيضاً. ثم راحوا يصيحون جميعاً. وبدا أن لدى كل منهم أسباباً كثيرة لذلك.

«ولماذا صفعتَها؟».

قال: «يجب أن تسمع ما كانت تقوله. لو سمعتَ لفعلت مثلي. لقد خرجت عن طوري».

وافقت ريني أخيراً على الذهاب إلى كاليفورنيا شريطة أن يدفع لها المبلغ الذي أرادته. وقد سافرت فعلاً. لكنها عادت من جديد واتصلت به هاتفياً لتخبره بأنها حبلى. أجابها سايمون: «لا يهمني. أنت محتالة. لقد أخذت المال وذهبت إلى كاليفورنيا وأنت تعرفين أنك ستعودين». صمتت قليلاً ثم أغلقت الخط. كان ذلك عندما ظن أنها أرادت قتل نفسها. من المؤكد أنها ابتلعت تلك الحبوب قبل وصوله إلى فندقها بلحظات. كانت في الشهر الرابع من حملها.

قال سايمون: «ماذا أفعل؟».

«ماذا يمكنك أن تفعل؟ لا شيء. سوف يكون هنالك طفل. من يدري؟... لعلنا أتينا إلى العالم بهذه الطريقة، أنت وجورج وأنا».

حاولت طمأنته بقدر ما استطعت.

الفصل الثالث والعشرون

لو كان ثبات مجرة أندروميدا في مكانها معتمداً عليك، فأين عساها تكون الآن إلا ساقطة في الجحيم؟ ماذا بك يا أوجي مارتش؟ دع روح العالم الكبير النبوئية الحالمة بأشياء ستأتي... دعها تستدعي عمالقتها ومن يستطيعون تحريكها، أشباه قيصر وأطلس! أما أنت! أنت، أيها المتطوع الذي يثير الشفقة، أين مكانك أنت؟ اذهب... تزوج امرأة تحبك واستقر في مزرعة ومدرسة مارتش ولا تقف في الطريق عندما تغضب الأمم وتتشاجر فيما بينها. إن الزمان في أيدي رجال جبّارين. أما أنت فلست إلا ذرة صغيرة في عقل من يديرون الشركات الكبرى... لكنك تأتي آملاً في عيش حياة صحيحة، في عيش حياة لا تؤدي بك إلى الخيبة والقنوط!

لكن ضميري اتخذ قراره! كنت ملتزماً بهذا، وما كنت أستطيع البقاء؛ لقد دقت الساعة أخيراً. كانت هنالك ريح ومطر غزير يغسل الهواء مما فيه من دخان، فغدت المدينة مبللة سوداء وانتحبت أعمدة محطة شارع لاسال. قال لي كليم: «لا تجازف. ولا تتورط في أشياء خطيرة. لا تبحْ بأسرارك أمام أي شخص لكي ترضي فضوله. لا تتزوج قبل خطوبة تستمر ستة أشهر. وإذا ضاقت بك الحال فإنني قادر دائماً على التخلي عن بضعة دولارات من أجلك».

قدمت طلب انتساب إلى إحدى المدارس، فقبلوا طلبي. ثم جرت مشاحنة، لبعض الوقت، مع زميل متخصص في علم النفس. لماذا وضعت علامة في الأوراق تشير إلى أنني أبول في سريري؟ أكدت له أن سريري كان جافاً على الدوام. «لكنك وضعت إشارة

في خانة 'نعم' عند هذا السؤال». قلت له إن عليه إدراك أن ملء استمارة فيها عشرون سؤالاً والمرور بخمسة امتحانات بعد ثلاثين ساعة من غير نوم في القطار يمكن أن يجعل الإنسان يخطئ مرة واحدة. قال بطريقة ماكرة: «لكن، لماذا أخطأت في هذه تحديداً وليس في غيرها؟» بدأت أكرهه كرهاً شديداً. كان جالساً على مؤخرته البيضاء الباردة، وكانت عيناه موحيتين باستنتاجاته السيئة. قلت: «أتريد أن أعترف لك بأنني أبول في فراشي حتى إذا كنت لا أفعل ذلك؟ أم أنك تقصد أنني أحب أن أبول في فراشي؟». قال لي إن شخصيتي عدوانية.

لكنهم أرسلونا في رحلة بحرية تدريبية في خليج تشيزابيكي قبل أن أستطيع مباشرة الذهاب إلى تلك المدرسة. رحنا نبحر جيئة وذهاباً في طقس شديد الحرارة. كانت سفينة متعددة السطوح، سفينة قديمة غريبة الشكل تعود إلى زمن ماكينلي. وكانت العبّارات البيضاء ذات السواري الجنوبية تمر بنا شديدة الأناقة. كانت هنالك أيضاً حاملات طائرات عملاقة تصطف طائراتها فوق سطحها كأنها ألعاب أطفال ويتصاعد دخان رهيب من جوانبها. كنا ننفذ مناورات قتالية وتدريبات لإخلاء السفينة ثماني أو عشر مرات كل يوم. تهبط قوارب النجاة من عوارضها الحديدية فيندفع المتدربون إليها من فتحات الخروج ومن شبكات الحمولة، يندفعون هائجين متزاحمين صائحين ويستندون إلى جسم السفينة بخطافات طويلة ثم يتبادلون شتائم بذيئة. وبعد ذلك نجذف في تلك القوارب. ساعات وساعات من التجذيف. كان الماء يتموج كأنه حقل من الزهور.

وفي أوقات الاستراحة، بين تدريب وتدريب، يستطيع المرء أن يستمتع بالشمس على مؤخرة السفينة التي تشبه المروحة فينظر إلى الأقفاص العائمة وفضلات الخس والبرتقال، والغائط، وسرطانات صغيرة تتهادى في التيار المندفع، أو تبتعد. سماء كأنها مطلية بالميناء، وشمس كأنها مغزل ذهبي. جعلني ذلك أفكر في لوحة الأغبياء والأسماك والكعك، وفي بحارة القوارب حاملين مجاذيفهم المسطحة... لوحة المعلم العجوز هيرونيموس... ذلك الزورق الكسول مبحراً بالعازفين وبدجاج مشوي معلق إلى شجرة؛ ويرى المرء رأس الموت معلقاً في الأغصان الصغيرة العليا. مناظر أخرى أيضاً: بيض متناثر على سكاكين ترقص على أقدامها الصغيرة؛ ورجال داخل محارات محمولون إلى مأدبة يقيمها أكلة لحوم البشر. أسماك، ولحم، ومأكولات أخرى. لكن العيون البشرية كانت تنظر إلى الخارج رغم هذا كله. لعلها لا ترجو خيراً؛ لكن... من يدري؟ أو يمكن أن ترى ملوك اليهود الأثرياء. أو ترى يوسف عند نار ملتهبة. لكن، ماذا يجري هناك، في

الحقول؟ ذئب ينزف من جرح ناجم عن سكين، ويأكل الراعي الذي طعنه؛ وشخص آخر مندفع مثل مجنون إلى أبراج المدينة البلهاء، إلى قلاع آكلي البطاطا وقدورهم وغلاياتهم الضخمة ومصانع حفظ اللحوم في تلك المساكن.

كنا نأكل كثيراً: المعجنات واللحم المفروم، والأخطبوط، وشرائح لحم البقر، والفلفل مع الرز، والمثلجات، والفطائر. كان حديث الجميع يدور حول الطعام... يتحدثون عن الوجبات ويتذكرون الأطباق البيتية.

ويوم السبت، رسا مركبنا في بلتيمور حيث كانت مومسات الميناء منتظرات في كلابهيل، وحيث كانت لافتات تشير إلى أقسام الميناء كأنها أبيات من الشعر. وصل البريد. جرى إعفاء سايمون من الخدمة في الجيش لأنه لا يسمع جيداً. قال في رسالته: «استطعت اللجوء إلى هذه الطريقة». لم يكن أداء كليم مرضياً في عمله الجديد. استلمت أيضاً رسالتين من صوفي غيراتيس: إنها الآن في كامب بلانديغ مع زوجها. قالت لي «وداعاً»، لكنها ظلت تقولها في رسائل متعاقبة. وكانت هنالك نسخة من رسالة بعث بها إينهورن إلى أصدقائه في الجيش، رسالة كلها نكات وعواطف مبتذلة. أضاف في ملاحظة شخصية موجهة إليّ أن دينغبات الآن جندي في غويانا الجديدة: يقود سيارة جيب! وقال إينهورن عن نفسه إنه ليس في صحة جيدة.

وبعد ذلك أتت عدة أسابيع من الأسر على متن هذه السفينة... نبحر جيئة وذهاباً على طول الخليج. الأمواج المتهادية ذاتها، وبوق الاجتماع نفسه، وضجيج دائم في الرأس، وتمارين القوارب، والماء المالح، والوجبات الثقيلة، والشمس، والغضب... هذا الضرب المستمر على بضعة عناصر محدودة في حياة يومية متكررة، ضرب رتيب كأنه يريد أن يصيبك بالصمم.

وأخيراً عدنا إلى شيبشيد فبدأت دراسة المحاسبة والرعاية الصحية الأولية على السفن. كان الجزء العلمي من هذه الدراسة مريحاً لي. أظن أنني أكون مرتاحاً طالما استطعت مواصلة تطوير عقلي.

كان سيفلستر في نيويورك. وكذلك كانت ستيلا تشيزني، الفتاة التي ساعدتها على الهرب في المكسيك. وبطبيعة الحال ذهبت لأرى ستيلا أولاً. اتصلت بها في أول فرصة لمغادرة السفينة. فقالت لي أن أجيء إليها فوراً. وهكذا اشتريت زجاجة نبيذ وبعض المأكولات اللذيذة ومضيت. قلت في نفسي طبعاً إنني أستطيع الاعتماد على المال الذي ستعيده إلي؛ لكن كان عليَّ أن أعرف نفسي بشكل أفضل من ذلك.

بدا لي أن المكان الذي تقيم فيه ستيلا واقع بين مجموعة من مصانع الملابس. كان المكان صامتاً يوم السبت. وكنت في غاية الإثارة عندما صعدت درجات السلم المفضي إلى بيتها. لكني حذرت نفسي من الظن أننا يمكن أن نتابع من حيث توقفنا في كويرنافاكا. إن أوليفر في السجن، وهنالك احتمال كبير لأن يكون لديها شخص غيره الآن.

لكني رأيت موضوع هذه الأفكار الشريرة... وجه دافئ معافى يبدو بريئاً، سعيداً لرؤيتي. ما هذا الجمال! راح قلبي يقفز من غير رحمة. لم يرحمني قلبي! سرعان ما رأيت نفسي معفراً بغبار الحب، ورأيت الإله إيروس يثبتني على الأرض بقدمه ويقذفني بمستحيلات كثيرة.

أحدثتُ رؤيتها في نفسي الانطباع نفسه الذي أحدثته عندما رأيتها أول مرة على تلك الشرفة الصغيرة في حانة كارتا بلانكا مع أوليفر ذي العينين الجاحظتين واثنين من أصدقائه. ثم تذكرتها في فستانها المخرّم الذي ارتدته في المحكمة يوم ضرب أوليفر صاحب الحانة لوي فو.

ثم تذكرتها في الجبال تحت الغطاء المشمع عندما خلعت فستانها وتنورتها الداخلية بسرعة كبيرة. كانت هاتان الساقان فوقي. كانتا عاريتين، رأيتهما في ضوء السماء الأبيض وانعكاس النور على السجادة الخضراء.

قالت وهي تمد يدها: «نعم، إنني مسرورة جداً». كنت في أحسن هندام في ملابسي الحكومية الجديدة. كنت أمشي فيشعر جسمي بالملابس الداخلية والجوارب والحذاء الجديد والسترة الضيقة والبنطلون. هذا إن لم أقل شيئاً عن القبعة البحرية البيضاء وعن المرساة المطرزة على ياقتي البحرية. لم تقل لي «صرت في الجيش. هذه مفاجأة!».

قلت: «عندما أنظر، أجد نفسي في دهشة أيضاً».

لكن ما فكرت فيه حقيقة هو إن كنت سأقبّلها أم لا. وسرعان ما عاد إلي ذلك الإحساس، عاد إلى خدي ذلك الإحساس نفسه، الإحساس بشفتيها مثلما كانتا في ذلك السوق المزدحم الحار. أحسستِ بحرارة في وجهي. وأخيراً، قررت أن أعبِّر عما يجول في خاطري فقلت لها: «لا أعرف إن كان تقبيلك الآن يسبب مشكلة».

«أرجوك! لا تسبب مشكلة». قالت هذا وضحكت... تعني أن علي تقبيلها! وضعت شفتي على خدها، تماماً مثلما فعلت، فاحمرّ وجهي. وتلون وجهها أيضاً؛ كانت مسرورة

لأنني قبلتها. هل كانت بسيطة إلى هذا الحد، من غير دوافع خفية، مثلما بدت لي؟... لا بأس، وأنا ما كنت كذلك أيضاً.

جلسنا وتحدثنا. أرادت أن تعرف أخباري. سألتني: «ماذا تعمل؟».

عندما لا أكون صديقاً لشابة جميلة ثرية، ولا مدرب نسور، ولا لاعب بوكر... هذا ما عنته بسؤالها.

«أمضيت أوقاتاً صعبة في محاولة تقرير ما يجب أن أعمله. وأما الآن، فأظن أنني خُلقت لأكون معلماً. أريد أن يكون لي مكان يخصني وأن تكون لي أسرة. تعبت من التجول هنا وهناك».

«أوه، أنت تحب الأطفال! ستكون أباً جيداً».

ما ألطف هذه الكلمات منها! وددت فجأة أن أعرض عليها كل شيء. بدأت مشاريع رائعة تنمو في عقلي، أفكار ذهبية معقدة. لعلها مستعدة لترك الحياة التي تحياها، كيفما تكن، لعلها مستعدة لفعل ذلك من أجلي! إن كان لديها رجل آخر فقد تهجره. قد يُقتل في حادث سيارة. أو قد يعود إلى زوجته وأطفاله. لعلكم تعرفون بأنفسكم كيف يمكن أن تكون هذه التخيلات الفارغة. آه، أيتها الآلهة الطيبة، لا تقفي ضدي! بدأ قلبي يغلي. ما عدت قادراً على رؤيتها بشكل مباشر.. لقد دوَّختني!

كانت في خفٍّ مخملي، له شرائط. وكان شعرها الداكن مرفوعاً من ثلاث جهات. تنورتها برتقالية اللون. نظرت إلي بعينين ناعمتين لطيفتين. تساءلت إن كانت تستطيع أن تبدو نضرة إلى هذه الدرجة من غير أن يكون لديها عشيق... أتعبني هذا التساؤل.

يجب أن يكون لدي أمل!... أقصد ما يتعلق بأن أكون أباً. ما طبيعة عمل ستيلا؟ حسنٌ... كان الحصول على قصة واضحة أمراً صعباً. ذكرت لي عدة أشياء ما كانت مألوفة عندي. معاهد النساء، والعمل في مجال الموسيقى، والعمل في التمثيل، والرسم. فيما يتعلق بالمعاهد، كانت هنالك كتب؛ أما الموسيقى، فهنالك بيانو وأشياء أخرى؛ وأما فيما يتعلق بالمسرح فقد رأيت بعض الصور. رأيت أيضاً آلة خياطة ذات أرجل عنكبوتية من الحديد (آلة خياطة ماركة سيركا 1910). قلت في نفسي إن لآلة الخياطة صلة بالملابس المسرحية. كانت صورها موزّعة على الجدران... وأزهار، وبرتقالات، وصور أسرّة، وصور عارية في الحمام. تحدثتْ عن احتمال وصولها إلى الإذاعة، وذكرت أسماء بضع محطات. بذلتُ ما أستطيعه من جهد لأتابع كلامها.

قالت: «هل أعجبك بيتي؟».

لم يكن ذلك بيتاً: كان غرفة، غرفة تشبه شرفة مرتفعة قديمة الطراز فيها مجسمات لآلات موسيقية. نباتات، بيانو، سرير كبير مزخرف، أسماك، قط، كلب. كان الكلب ثقيل التنفس: إنه في سن متقدمة. وكان القط يلعب حول كاحليها ويخدشهما قليلاً. ضربتُه بصحيفة، لكن ذلك لم يعجبها. جلس على كتفها؛ ولعق وجهها عندما قالت له: «قبلة يا جنجر، قبلة، قبلة». كانت مصانع الملابس منتشرة على الطريق إلى بيتها. قصاصات من النسيج تعوم وترفرف من القضبان الحديدية على النوافذ. كانت طائرات تصدر أصواتاً ضخمة وتقطع السماء الزرقاء من بريطانيا إلى كاليفورنيا. صبت النبيذ الذي اشتريته. شربتُ فأحسست بنبضة في رأسي... مكان الإصابة. ثم صرت متحمساً، ملأني قلق عاشق. لكنني قلت في نفسي إن علي أن أحترم كبرياءها لأنني أنا الذي ابتعد عنها وتركها في كويرنافاكا. فلماذا تصدق أنني واقع في حبها الآن؟ ثم ماذا لو أنني لا يجوز أن أقع في حبها؟ ماذا لو كانت امرأة من نوع كريسيدا التي تتقلب بين الرجال مثلما كان إينهورن يقول عن سيسي؟

قالت لي: «لا أزال أريد أن أعيد إليك نقودك التي كنت في غاية اللطف عندما أقرضتني إياها».

«لا، من فضلك، لم آتِ من أجل هذا».

«لكن لعلك في حاجة إليها الآن».

«لا، لم ألمس راتب الشهر الماضي حتى الآن».

«يرسل أبي بعض المال من جامايكا. إنه يعيش هناك. من الطبيعي أن هذا المال لا يكفيني. لم تكن أحوالي على ما يرام في الآونة الأخيرة». لم يكن هذا شكوى بل أعطاني انطباعاً بأن وضعها سوف يتحسن سريعاً... «سبب لي أوليفر نكسة. كنت أظن أنني أحبه. هل كنت تحب تلك الفتاة التي كنت معها؟».

قلت: «نعم». يمكنني القول إنني سعيد لأنني لم أكذب.

«لا بد أنها كرهتني كرهاً شديداً».

«لقد تزوجت نقيباً في المحيط الهادي».

«إنني آسفة لسماع هذا».

«أوه، لا تأسفي! انتهى الأمر منذ زمن بعيد».

«أحسست بعد ذلك بأنني أخطأت، لكنك كنت الشخص الوحيد الذي يمكن أن يساعدني. ولم أفكر في...».

«يسعدني أنني كنت قادراً على مساعدتك. صار هذا كله من الماضي».

«لطيف منك أن تقول هذا. لكنك تعرف... بما أن الأمر انتهى فلن يزعجك ما سأقوله الآن... كنت أرى أننا في مركب واحد. كان الجميع يتحدثون عنها ويقولون...».

«تذهب إلى الصيد من غيري. أعرف هذا». تمنيت ألا تذكر اسم تالافيرا.

«لقد تورطتَ في المشاكل من غير أن تعرف ذلك، مثلما فعلت أنا أيضاً. ربما كنت تستحق ذلك... مثلي. كان الأمر مناسباً لي لأنني كنت في طريقي إلى هوليوود، معه. كانت المكسيك رحلة جانبية فقط؛ وكان على وشك أن يجعلني نجمة. ألم يكن هذا أمراً سخيفاً مضحكاً؟».

«لا، لم يكن كذلك. يمكنك أن تكوني نجمة من الدرجة الأولى. لكن، كيف كان يمكن لأوليفر أن يفعل ذلك في الوقت الذي يعرف فيه أنه ذاهب إلى السجن؟».

«أقنعني بسهولة لأنني كنت واقعة في الحب».

شقت هذه الكلمة طريقها إلى قلبي عندما نطقت بها.

كانت الآمال تنمو في مخيلتي، أعلى فأعلى، حتى السماء، وكنت أرتكب في الوقت ذاته جرائم كثيرة حتى أحقق غايتي. خمش القط يدي المتدلية إلى جانب الكرسي. ظننت أن الدم سينزف من أنفي أيضاً... لشدة انفعالي. كنت أرى نفسي حزيناً متجهماً، وبعد لحظة واحدة أرى روحي محلقة تراقص أرواحاً شقيقة سعيدة.

قالت بطريقة حادة بعض الشيء: «ربما لم يكن ذلك سخيفاً أو مضحكاً، وربما كان أسوأ».

أسوأ؟ أوه، هل تعني ستيلا بهذا ما كانت مضطرة لدفعه حتى تشق طريقها؟ ما كان عليها أن تقول هذه الكلمات! آلمني أن ترى هذه التفسيرات أمراً ضرورياً. من حسن حظي أنني كنت جالساً... أظن أن ساقَيّ ما كانتا قادرتين على حملي في تلك اللحظة.

قالت بصوتها الذي يدفئ القلب: «ماذا، ماذا بك؟».

رجوتها ألا تسخر مني. قلت لها: «عندما كانت الضمادات تغطيني، وكنت جالساً ألعب البوكر في المطعم الصيني... كيف استطعت الظن أننا في مركب واحد؟».

«أنا واثقة من أنك تتذكر كيف نظر كل منا إلى الآخر في البار حيث كان لديهم ذلك الحيوان الذي يشبه القرد».

«كينكاجو!».

صالبت يديها في حجرها ثم رفعت ركبتيها إليهما... ما أجمل هاتين الركبتين! لكني تمنيت لو أنها لم تفعل ذلك... قالت لي: «لا يجوز أن يتظاهر أي إنسان بأنه صادق دائماً مئة بالمئة. ليتني أعرف كيف أكون صادقة سبعين بالمئة أو ستين بالمئة».

أقسمتُ لها أنها صادقة مئة وعشرة بالمئة، مئتان بالمئة. ثم قلت شيئاً ما كنت أتوقع أن أقوله. قلت لها: «لا يجوز لأحد أن يتعمَّد الغموض. إن مجرد عدم تعمد أي شيء أمر غامض بما فيه الكافية».

«سأحاول ألا أفعل ذلك. سأحاول ألا أكون كذلك معك أنت».

كانت صادقة. كنت أعرف هذا. رأيت غصة في حنجرتها.

تيارات اجتاحت جسدي!... جسدي الذي لعله كان كل ما لديَّ في تلك اللحظة... هذا الكائن المتوثّب للفعل... صار جسداً عاجزاً. تمنَّيت أن أحتضن ساقيها، لكني قلت لنفسي إن من الأفضل أن أنتظر. ما الذي يجعلني أظن أن هذا سيكون أمراً صحيحاً؟ ألأنني راغبٌ فيه؟

قلت لها: «أظن أنك تدركين شعوري نحوك. إذا رأيتِ أنني مخطئ فمن الأفضل أن تخبريني بذلك».

«مخطئ؟ لماذا تقول هذا؟».

قلت: «الحقيقة... أولاً... لم يمض على وجودي هنا وقت طويل. قد تظنين أنني متعجِّل كثيراً».

«وثانياً؟ ما الذي يجعلك تتكلم ببطء هكذا؟».

هل كنت أتكلم بطريقة غير طبيعية؟ لم أعرف ذلك... «ثانياً، أشعر أنني أخطأت في كويرنافاكا عندما عدت وتركتك».

قالت: «قد تكون قادراً على فعل الشيء الصحيح هذا المرة».

سقطت على الأرض عند ذلك واحتضنت ساقَيها. انحنت وقبلتني. كنت راغباً في الاستعجال، لكنها فضلت البطء. قالت: «من الأفضل أن نحبس الحيوانات في المطبخ».

أمسكت بطوق الكلب، أما أنا فحملت القط، ثم وضعناهما هناك. أغلقت باب المطبخ وثبتته بمسمار معقوف... لم يكن له مقبض. وبعد ذلك، رفعت غطاء السرير ثم ساعد كل منا الآخر في خلع ملابسه.

همست لي عندما استلقينا في الفراش: «ما الذي تقوله لنفسك؟» لم أنتبه إلى أنني قلت شيئاً لنفسي. خشيت أن تصدم رأسها بالجدار الملاصق للسرير وحاولت أن أحميها بكفي... أدركَتْ الأمر عند ذلك، فساعدتني. كنت جائعاً... قبَّلتها في كل مكان استطاع فمي أن يصل إليه إلى أن أمسكت شفتي بأسنانها وانهالت عليّ... آه، انهالت علي! ما عاد يمكن لأي جهدٍ أن يؤجل شيئاً، وما كان هنالك شيء للتأجيل!

حتى إن كانت امرأة طائشة، أو مؤذية، أو ساخرة... أوه، لم تعد لهذا كله أهمية في هذه اللحظة. أو ربما كنت رجلاً غبياً، متخبطاً، متقلباً، غير موثوق... أزيحَ هذا كله جانباً وما عاد له أي معنى. كانت الحقيقة الصادقة، عني أو عنها، أكثر بساطة من أي وصف من هذا القبيل.

قلت لها إنني أحبها. وكان هذا صادقاً. أحسست أنني وصلت إلى نهاية متاعبي، إلى كل ما أصبو إليه... كان إحساساً شاملاً. رقدنا في السرير نتبادل القبل ونتهامس، رقدنا نتبادل الحب طيلة عطلة نهاية الأسبوع. كانت الريح شديدة في الخارج، والسماء زرقاء، والشمس رائعة... شمس تبحر في السماء، جميلة، سامية. لم نكن ننهض من السرير إلا لنأخذ الكلب، هاري، إلى السطح. وكان القط يأتي ويسير على السرير، يدوسنا بقوائمه. لم نر من الناس إلا عجوزين اثنين يلعبان البيناكل على طاولة التفصيل في مصنع النسيج على الجهة المقابلة من الشارع.

لكني كنت مضطراً للعودة صباح الاثنين إلى القاعدة البحرية. أيقظتني عند منتصف الليل، وجعلتني أرتدي ملابسي، ثم نزلت معي إلى محطة المترو. ظللت أسألها إن كانت تقبل الزواج مني: «أرى أنك تريد أن تنتهي مشاكلك كلها دفعة واحدة. إنك شديد اللهفة، ومن الممكن أن ترتكب غلطة».

كان هذا قبيل الفجر، عند أول السلم النازل إلى الجحيم، إلى المترو، تحت ذلك السقف الزجاجي الغريب وتحت المصباح المدهون باللون الأزرق كأنه باقة من الأزهار واقفة على عمود حديدي غير ثخين. وقفنا تحت هذا الضوء الأزرق نتبادل القبل بوجهين محبَّين إلى أن بدأ هطول مطر ناعم.

قلت لها: «حبيبتي، عودي إلى البيت».

«هل ستتصل بي؟».

«كلما سنحت لي فرصة. هل تحبينني؟».

«طبعاً أحبك!».

كلما قالت هذه الكلمة كلما تأثرت كثيراً وفار امتناني السعيد وتدفق حتى قدمَيّ وشعرت بشعر ظهري ينتصب... مثلما يحدث عندما تسبح في هناءة البحر ثم تشعر بشيء يمسك من الأسفل. كانت الأنفاس العميقة كلها، والآلات الموسيقية الصامتة، والشاطئ... كانت كلها سعيدة، فرحة تلمع راياتها وترفرف.

كان عليّ أن أنزل إلى المحطة لأستقل القطار. لم أستطع رؤيتها لخمسة أيام بعد ذلك. ولم أجرؤ خلال تلك الأيام على التخلف عن أي شيء في الدراسة ولا على التورط في أي مشكلة مع مدربي حتى لا يعاقبني فأفقد فترة حريتي التالية. كنت أذهب إلى الشاطئ كل يوم، إلى أكشاك الهاتف، لكنها كانت خارج البيت معظم الأوقات، كانت حياتها مزدحمة. انتابني خوف فظيع من احتمال أن تكون قد أمضت نهاية الأسبوع معي نتيجة شعورها الودي تجاهي فحسب، أو حتى تجعلني أفهم بشكل أفضل ما حدث بيننا في الجبل تلك الليلة. إن كان الأمر هكذا، فقد غرقتْ وانتهى أمري! أقول هذا لأنني غارق الآن في الحب إلى درجة أكثر مما أستطيع احتماله كأن مادة دخلت أوردتي وشراييني فآلمتني، آلمني لحمي، وآلمني عظمي... مثلما يتألم المرء عندما تصيبه الأنفلونزا.

مر الأسبوع كله وأنا أسمع أنين سفن الشحن قادماً من البحر بينما غطى جزيرة كوني ضباب رمادي أو ليلكي. كنت أمضي الوقت مع روحي المعذبة بعد العشاء جالساً في كشك الهاتف محاولاً مراجعة دروسي خلال انتظاري ردَّها. خشيت أن أكون قد أتيت متأخراً كثيراً، وخشيت ألا أظفر بشيء. إن كان الأمر هكذا فقد حل بي الخراب لأن كل شيء صار معتمداً عليها الآن.

جاء يوم السبت؛ وغادرت القاعدة محموماً فور انتهاء الاجتماع الصباحي. كنت في حالة عجيبة. وعندما كنت أجتاز الطريق فوق جسر بروكلين المعلق من تلك الأعمدة الهائلة فوق وديان قرميدية، ومن بعدها الفوران الناري لمياه الميناء، والنوارس المسرعة، والسفن الحربية مفتوحة الجوانب كأنها أجهزة راديو عملاقة، ثم عبر النفق من جديد... أحسست أنني إن تابعت السير، ثم السير، فمن المؤكد أنني لن أحتمل هذا السير كله، من المؤكد أنني سأموت.

لكن، ما كان هنالك موجب لهذا لأن ستيلا كانت في انتظاري. كانت في حال سيئة طيلة الأسبوع، لأنني لم أكن هناك؛ ارتفعت حرارتها، كانت تتساءل إن كنت أحبها حقاً. بكت عندما صرنا في السرير، عندما شدت بذراعيها على ظهري والتصق ثدياها بي. قالت إنها وقعت في حبي على الفور عندما رأتني من شرفة البار واقفاً أمام الكاتدرائية. قالت أيضاً إنها لم تكن في حاجة إلى المال الذي اقترضته مني في كويرنافاكا، لكنها أخذته حتى يكون ذريعة للبقاء على صلة بي. أما أوليفر...

قلت لها: «ماذا يعنيني ما يحدث لأوليفر؟ ليس هذا من شأني. أريد أن أتزوج».

لقد حثني كليم على الخطبة ستة أشهر لأنه كان يعرف شخصيتي، ظاهراً وباطناً، لكن هذه نصيحة جيدة لمن يتسوَّقون فحسب لا لشخص عاش حياته كلها من أجل هدف عظيم واحد. قالت: «بالطبع، أريد أن أتزوجك إن كنت تحبني». أكدت لها أنني أحبها... أكدت لها هذا بكل عمق.

قالت لي: «إذا استمر حبك لي بعد الغداء فاطلب مني الزواج من جديد».

أتتني بطعام الغداء إلى السرير. كان سريراً اشترته في مزاد علني. سرير بلون العاج رُسمت عليه أكاليل من الزهور ومن ورود الأركاديا. صنع هذا السرير في بافاريا. نعم، قدمت لي الطعام هنا، ولم تسمح لي حتى بأن أضعه في فمي بنفسي. كان ذلك كما لو أنني أمير من أمراء الجرمان... أطعمتني وخدمتني... أما أنا فكنت ألقي للحيوانين بعض قطع اللحم، وبعض الفتات.

رأت من واجبها أن تخبرني بكل شيء عن نفسها.

قالت: «إنني أشتري بطاقة رهان على الخيل كل سنة».

لم أر شيئاً يمكن الاعتراض عليه في هذا.

«وأنا صوفية أيضاً... من أتباع غوردجيف».

لم أسمع بهذا من قبل. كان أمراً جديداً. جعلتني أرى صورة هذا الرجل العجوز برأسه الحليق وعينيه العميقتين وشاربه الذي يشبه شارب محارب قديم من القرم. لم أر شيئاً ضاراً في هذا.

«وماذا أيضاً؟» إنها تنفق مالاً كثيراً على الملابس. أستطيع أن أرى هذا: كانت خزائنها غاصة بالفساتين. لكني لم أهتم كثيراً لهذا الأمر. فبما أنها ستمضي معي في خطتي من

أجل إقامة مأوى ومدرسة للأطفال، وبما أنها ستمضي متحمسة، فما علاقة خزانة ملابسها بهذا؟ الواقع أنني كنت معتزاً بأناقتها. قالت لي أيضاً إنها مدينة بمبلغ من المال.

«ماذا، لا تقلقي يا حبيبتي. سوف نسدد المال للجميع. هذا أبسط شيء ـ قلتها بالفرنسية ـ مثلما يقولون في الجانب الآخر من العالم».

عندما أكون محبوباً، عندما أكون جالساً في سرير كهذا السرير، أشعر أني ملك من الملوك فأحلّ أي مشكلة بكلمة واحدة.

قررنا أن نتزوج فور تخرجي في مدرسة شيبشيد.

الفصل الرابع والعشرون

أرى أمامي الآن شخصاً اسمه مانتوشيان، وهو أرمني بالطبع! إننا جالسان معاً في حمام تركي. ونتبادل الحديث، إلا أن مانتوشيان هو الذي يتكلم معظم الوقت شارحاً لي حقائق الوجود المختلفة. إنه يستخدم الاستعارة والمجاز غالباً. بقيَ أسبوع على موعد زواجي من ستيلا، أسبوع واحد على انطلاقي. كان مانتوشيان هذا شخصاً جسيماً له انحدار حاد في رأسه من الخلف، مثلما تكون رؤوس الأرمن أحياناً، لكنه كالأسد من الأمام، وله وجنتان مرتفعتان حمراوان. كانت له ساقان مثل ساقي تمثال كليمنصو في الشانزيليزيه حيث يسير كليمنصو في مواجهة الريح مفكراً في الخبز والحرب، وفي البؤس والعظمة... يمضي باذلاً آخر ما لديه من قوة في بنطلونه الطويل الملتصق بساقيه وطماقين على كاحليه.

كنا جالسَيْن في هذه الغرفة الصغيرة ذات البلاط الأبيض؛ وكنا صديقين تماماً رغم الاختلاف الكبير في السن وفي الدخل: من المعروف أن مانتوشيان وافر الثراء. كان يبدو شخصية طاغية لا تقاوَم، وكانت لديه أطنان من الصوت، مثل تفريغ شاحنة من الفحم! لا بد أن هذا الصوت يخدمه في المحكمة لأنه يعمل محامياً. إنه صديق صديقة ستيلا التي اسمها آغنيس كوتنر. تعيش آغنيس عيشة باذخة قرب الجادة الخامسة غير بعيد عن سفارات بلدان أميركا اللاتينية... شقة مفروشة بأثاث إمبراطوري. وفيها مرايا وشمعدانات ضخمة، وسجادات صينية على الجدران، وتماثيل طيور ليلية مرمرية، وأرض مكسوّة بسجاد كثيف، وأسباب رفاهية أخرى من هذا النوع. تتجول آغنيس لتشتري غرفاً في المزاد ولتشتري كنوزاً من مخلفات آل رومانوف وآل هابسبرغ؛ أما هي نفسها فمن فيينا. لقد خصص مانتوشيان استثماراً مالياً لها، مما يعني أنها لا تتاجر في الأنتيكات على الإطلاق.

وكانت شقتها بيته الثاني؛ بيتٌ خارج البيت مثلما تزعم الفنادق كاذبةً بعض الأحيان. أما بيته الآخر فكان في نيويورك أيضاً، لكن زوجته مقعدة. وهو يذهب كل مساء ويتناول العشاء معها حيث تقدمه لهما ممرضة في غرفة النوم. لكنه يزور آغنيس قبل هذا. عادة ما يقود سائقه السيارة به عبر البارك المركزي عند السابعة وخمس وأربعين دقيقة من أجل ذلك العشاء مع زوجته.

وأما سبب وجودي معه في الحمام هذا اليوم تحديداً فهو أن ستيلا ذهبت مع آغنيس للتسوق استعداداً للزفاف. كانتا، آغنيس ومانتوشيان الشخصين اللذين أراهما عندما أحظى بحرية مغادرة القاعدة في أيام نهاية الأسبوع. أظنه كان يستمتع بأخذنا إلى «توتس شورز» أو «داياموند هورسشو»، وغيرهما من الأماكن ذات الأبواب القرمزية والذهبية. حاولت مرةً واحدة دفع الفاتورة لكنه دفع يدي بعيداً. كان علي أن أقترض مالاً من ستيلا حتى أدفع ذلك المبلغ. لكن مانتوشيان كان شديد السخاء، لا يتمسك بالشكليات عندما يقضي وقتاً طيباً. تراه معظم الأوقات في ملابس سهرة سوداء سواداً جديراً بلوحات رامبرانت، وترى عينيه ذات الحواف المحمرة ورأسه شديد الانحدار وأذنيه، وتحس كما لو أنه يتشمم رائحة الرمل وحشائش السافانا بأنفه المسطح، لكنه يبتسم ابتسامة متراقصة جذلى وينفق المال. أسنانه طويلة، وشارباه يشبهان شاربي السمور بعض الشيء لكنه متناسب مع تلك الغضون الذكية الخبيثة في وجهه ومع فمه المتسع. ما كان يبتسم ابتسامته هذه وسط السيدات، أما الآن فهو جالس معي مثلما يجلس رئيس قرية في جنوب آسيا متدثراً بمنشفته ذات ألوان الكرنفالية فيسمح لتلك الابتسامة بالظهور. وبينما كنا نتحدث حديث رجل لرجل، كان يقرص نفسه تحت عينيه حتى تختفي الانتفاخات. كان على أظافر قدميه الصفراء طلاء شفاف ناعم إلا أن إصبعَيْ قدميه الصغيرين الحزينين مدفونان في لحم تلك القدمَين اللتين أرهقتهما الحياة وملأت جلدهما شرايين دقيقة ظاهرة. تساءلت إن كان شخصاً حساساً سريع التهيج حقاً، شخصاً خطيراً مثل زخاروف أو خوان مارش أو السويدي ماتش كينغ أو جيك الحلاق أو ثريفينغر براون. تقول ستيلا إن لديه مالاً لا يستطيع إحصاءه. من المؤكد أنه ينفق الكثير على آغنيس التي التقاها في كوبا. ويرسل إلى زوجها حوالات مالية حتى يبقى هناك. لكني وجدت، رغم ذلك، أن مانتوشيان ليس شخصاً صادق المظهر تماماً... وإن لم تكن له شخصية الأوغاد! الواقع أنه كان فيما مضى يعزف الأرغن في صالات السينما أيام الأفلام الصامتة حتى يجني المال من أجل دراسة القانون. لكنه كمحامٍ لامع اليوم، له أعمال في خارج البلاد أيضاً، ثم إنه شخص قارئ مثقف. ومن غرائبه أنه يستطيع الحديث عن أحداث تاريخية من قبيل إنشاء سكة حديد برلين- بغداد أو معركة تاننبرغ،

وهو أيضاً يعرف الكثير عن سِيَر شهداء المسيحية. إنه واحد آخر من أولئك الأشخاص الذين لا ينفكون يظهرون أمامي ويقدمون لي نصائح في الحياة لينيروا درب طوافي الدنيوي.

لم أستطع إدراك ما يراه في آغنيس التي كان واضحاً أنها مسيطرة عليه. كانت عيناها بنيتين داكنتين توحيان بالقهوة التي كان الأرستقراطيون يفضلونها في أيامهم الإمبراطورية رغم أن آغنيس ما كانت إلا طفلة في تلك الأيام. وماذا أيضاً؟ كان لديها انخفاض طفيف على جانبي أنفها المرفوع قليلاً إلى الأعلى مما جعلها تبدو شخصية غير منفتحة تماماً. لكنها كانت صديقة ستيلا، وكان مانتوشيان يحبها. جعلني هذا أفكر في الأمنيات الدفينة لدى الكهول أو في الرغبات التي لا مجال للتلاعب بشأنها قبل الفناء الأخير الذي يأتي به الموت.

«الموت!» قالها مانتوشيان بنفسه. كان يحدثني عن النوبات الدماغية التي أصابته. قال لي: «لا أريد أن أجعلك كئيب المزاج قبل وقت قصير من زفافك».

«أوه، لا يا سيدي، لا تستطيع أن تجعلني كئيب المزاج. إنني أحب ستيلا حباً لا يسمح لي بالتفكير في ذلك».

«لا بأس! لا أود القول إنني كنت سعيداً مثلك. لكنني كنت شديد الحماسة أيضاً عندما تزوجت. ربما كانت حماستي نتيجة سماع الموسيقى التي تحسّن المزاج لأن هذا ما كنت أفعله في ذلك الوقت. في المغامرات البحرية كنت أستمع إلى 'كهف فينغال'. أستمع إلى 'أورينتال' لرودولف فالنتينو، وإلى موسيقى سيزار كوي وإلى معزوفة 'سيهنسوخت' لتشايكوفسكي. كنت أستمع أيضاً إلى 'الشاعر والقروية'. حاول أن تقاوم هذه الأشياء!... عندما يرى ميلتون سيلز أن كونواي تيرل لم يغرق على التايتانيك، أو أي شيء من هذا القبيل. كنت أستمع إلى هذه الأشياء كلها وأنا أدرس موضوع المسؤولية الجزائية لأنني كنت أستعد لامتحان المحاماة. لكن تلك الأيام كانت أيام العواطف. أو لعلك تظن أن هذا كله ليس إلا خزعبلات؟».

«لا، لماذا؟».

«تظن أنني لص، لكنك لن تقول هذا مهما يكن الأمر. إنك تبالغ في مقاومة نزعاتك الشريرة».

«الجميع يقول هذا كما لو أن من المفترض فينا أن نحمل أفكاراً سيئة على الدوام. لا أقول أبداً إنني ملاك، لكنني أحترم الناس قدر ما أستطيع».

قال مانتوشيان: «أرى في يوم واحد من أيام عملي أكثر مما يمكن لك تخيله. ليست 'الكوميديا الإنسانية' لبلزاك إلا لعبة أطفال إذا قارنتها مع ما أراه. أستيقظ صباحاً فيكون عليَّ أن أسأل نفسي: الآن، في قضية شيمل ضد شيمل، من يمكن أن يفوز؟ من الذي سيكون في أسوأ حال عندما تنتهي؟ الرجل الذي يأخذ الطفل من أمه التي تعيش حياة الخطيئة؟ أم العاشق الذي يجعلها تتخلى عن الطفل حتى يتجنب فضيحة تسيء إلى عمله؟ أم الأم المستعدة لفعل كل شيء من أجل حبيبها؟ ثم أضاف بالعبرية: أسياد هذا العالم!».

فاجأتني عبارته الأخيرة، لكنه شرح الأمر كما يلي:

«كان أبي يعمل بواباً في كنيس، أما أنا فكنت ألعب في القبو. كان لي عم برتبة عقيد شارك في حرب البوير. فكيف يمكن تمييز شيء من شيء؟ إن التاريخ يلقي علينا ضوءاً غريباً، أو حتى مضحكاً، أما نحن فنظل على وقارنا، أليس كذلك؟ نموت آخر الأمر على أي حال». كيف يكافح الإنسان الحقد؟ كيف تمضي الحياة إلى ما وراء علوم الناس المحترمين؟ إن تنشئتهم الصالحة تمنعهم من معرفة حتى ما يفكرون فيه. ذلك لأننا كلنا نفكر بالطريقة نفسها إلى هذا الحد أو ذاك. أنت تحب ستيلا... طيب... ألا تحبها؟».

«أحبها مثلما لم أحب أحداً قبلها».

«هذا رائع. هذا ما أسمِّيه إجابة رجل. في أي شهر ولدت؟».

«في شهر كانون الثاني».

«كنت أعرف هذا. لقد ولدت في ذلك الشهر أيضاً. أظن أن أحسن الناس يولدون في كانون الثاني. إن لهذا علاقة بالضغط الجوي... ابحث عنه في إحدى الموسوعات. يحدث الحمل في الربيع عندما يكون الجسد في أحسن أحواله الصحية فتتكون أفضل النماذج. إذا كنت راغباً في إنجاب أطفال فعليك أن تخطط للأمر حتى يحدث الحمل في ذلك الموسم. الحكمة العتيقة صحيحة. والآن، يأتي العلم فيكتشف الأمر من جديد. أما ما أردت أن أقوله عن عصفورتك، فهو أنها، حتى هي أيضاً، ليست مختلفة كثيرة عن بقيتنا إلا من حيث أنها أكثر موهبة وجمالاً. من المؤكد تماماً أنها فكرت في مستقبلها في حال وجودك وفي حال عدم وجودك.

عليّ الانتباه، علي الحذر،

عليّ أن أتزوج مليونيراً،

ثم يموت فأبكي،

وأتزوج رجلاً غيره.

... لكن هذا يحدث في الضمير الداخلي لدى المرء، الضمير الواقع خارج القانون والذي لا يمكن تحرّيه. ماذا في الأمر؟ إن الحياة ممكنة بأي شكل من الأشكال. كل ما في الأمر أن الأشياء المشروعة المنطقية نفسها يجب أن تأتي عبر أرض غريبة أو عبر صحراء صقيعية. هل نحترم شيئاً أكثر من التجارة والصناعة؟ لكن، عندما ذرف رجل الإمبراطورية البريطانية السيد سيسيل رودوس الدموع الكثيرة لأنه لا يستطيع ممارسة التجارة مع النجوم، فإن هذا لم يكن جشعاً ولا تفسخاً في الأخلاق، بل كان ذلك هو الضمير الداخلي يتحدث فيرتفع صوته فوق أسمى أعمال ذلك الرجل المتغطرس».

أحسست بجرح عميق عندما تحدث عن ستيلا بهذه الطريقة. من أين أتى بهذا؟... ابن الحرام! كيف جعلها ترميني في «ضميرها الداخلي»؟

اشتعل في نفسي مقت شديد. قلت له غاضباً: «تتحدث في البداية عن الحكمة القديمة، ثم تبدأ حديثاً عن الحب».

«لا بأس... إنني ابن عاهرة!» قال هذا وهو ينهض في تلك الحرارة التركية ويلف نفسه بالمنشفة من جديد. «لم أكن أقصد جرح مشاعرك. اللعنة! إذا جرحت مشاعرك في هذا الحديث الكسول الذي أمضي به الوقت فأرجو أن تسامحني. أرى أنكما عاشقين بكل معنى الكلمة. فليبارك الله هذه المشاعر النبيلة! إن سفينتك راحلة في وقت قريب أيضاً. يثير الخطر وفراق الحبيب مشاعر طبيعية عند الإنسان. لكن تلك الأغنية التي تغنيها الفتيات الصغيرات جزء من الحكمة القديمة أيضاً. ليس في هذا شيئاً يدعو إلى السخرية بل إلى الاعتزاز بغزو الطبيعة. يجوب عقل الإنسان محيطات الفضاء الكوني المتفجرة؛ وقد ابتلع ذلك الرأس السماوات. لكن عليك ألا تغفل أيضاً تلك الكثرة من الأفكار السرية والمؤامرات.

أصغِ إلي، بما أننا نتحدث الآن! دعني أعطيك بضعة أمثلة من عملي في المحاماة، أمثلة عما يجري في أقسام الروح الأخرى. منذ بضعة سنين، أبلغتْ زوجة أحد الموكلين عن فقدان سوار ثمين. امرأة جديرة بالثقة تماماً، وأم لثلاثة أطفال، وزوج ثري أعطاها ملكية عقارية تبلغ قيمتها ثلاثمئة ألف دولار، لكنه احتفظ بحق التصرف لنفسه بموجب وكالة قانونية. هل ضاع السوار؟ حسنٌ تماماً. مسألة روتينية بالنسبة إلى الشركة. إنهم يتحرون الأمر ثم يعودون إلى الزوج ويقولون له: لم يضِع سوار زوجتك. لقد أعطته لعشيقها المفلس. واو، يا للخزي!... زوجتي، عشيقها؟ زوجتي المحترمة، أم أطفالي التي تظهر لي

حباً ثابتاً وأدلة على إخلاصها؟ زوجتي العزيزة، حبيبة عمري؟ لكن حقيقة الأمر هي أنها فعلت ذلك. يا للرجل المسكين! انفطر قلبه! كيف يمكن أن يحدث هذا؟ تخيل مقدار ألمه وحيرته عندما اكتشف أن لديها هذا السر الذي تخفيه عنه. يا لهذا الفشل في حياته بعد أن عمل بكل ما يستطيع حتى تكون هنالك ضمانة أكيدة على أن تلك الحياة المستقرة سوف تستمر فترة أطول من يوم الخميس إلى السبت. إن كان هنالك ما يستحق ذرف الدموع فهذا هو. لكن، كان عليه ألا يكتفي بالنتيجة التي توصل إليها محققو شركة التأمين. وهكذا فقد جاءني حتى أكلف محققاً خاصاً بتحري الأمر. عاد المحقق بالنتائج نفسها وقال إن عشيق الزوجة متبطّل له سوابق في السجن بسبب القوادة وبيع السلع المسروقة. بل إنهم قدموا للزوج المسكين صورة ذلك الرجل حتى يعرف شكله. أنف غليظ، وسالفان طويلان. أنت تعرف هذا النموذج. نعم، لقد جنّ المسكين تماماً. وبعد ذلك اكتشف أن كل من يعيش في تلك الضاحية يعرف بالأمر، إلا هو! رآهما الناس في السيارة مرات كثيرة... تكون السيارة واقفة في مكان ما في الجوار... في الغابات... بين الأشجار. كان الأمر بالنسبة إليه كارثة كما لو أن البيت سقط فوقه. قال لهم: من منكم لا يعرف كيف كان هذا البيت في أيام مجده الأولى؟ كيف ترونه الآن؟».

أوه، يا للرجل المسكين! حزنت عليه كثيراً.

«بدأ الناس يقولون له: ارمها يا رجل! لا تكن ملعوناً أحمق! إن ذلك الرجل يضاجعها، وقد كان رجلها المفضل على حسابك أنت. ما عاد الزوج قادراً على الاحتمال أكثر من ذلك فواجهها. ماذا تظن؟ لقد أنكرت كل شيء. أنكرت كل شيء تماماً. واجهها بالأسماء والتواريخ والأماكن فلم يعد لديها ما تستطيع قوله. كل شيء صحيح. لكنها قالت له: لن أترك هذا البيت، ولن أترك الأطفال! البيت بيتي والأطفال أطفالي. عاد الرجل إليَّ طالباً النصيحة. يقف القانون في صفه تماماً. وهو قادر على رميها في الشارع، إن أراد. لكن، هل أراد ذلك؟ لا!».

تذكرت زوجة يشوع العابثة: «ستبقين معي أياماً كثيرة».

«... وسوف أقول لك شيئاً آخر. لقد كانت تحب زوجها أيضاً. يمكن أن يكون الوضع غائماً إلى هذه الدرجة. لقد تخلت عن عشيقها القواد. وبعد ذلك رآها الجيران مع زوجها في السينما بيدين متشابكتين يتبادلان القبل كأنهما عاشقان صغيران».

أسعدني أن الأمر انتهى هكذا وأن كلاً منهما سامح الآخر. قفز قلبي سعيداً لأنهما نجحا في هذا.

قلت: «يجب أن تشفق على الزوجة أيضاً».

قال مانتوشيان: «يجب أن يشفق المرء عليها أكثر لأنها مضطرة إلى الكذب وإلى أن تعيش حياتين معاً. هذه السرية هي العبء الحقيقي. تأتي إلى بيتك وأنت لا تزال لاهثاً، أو لم يجف ماؤك بعد، أو تأتي مصاباً بالدوار بعد لقائك مع العشيقة. فماذا يوجد هناك؟ عالم آخر، حياة أخرى؛ إنك شخص آخر. وأنت أيضاً تعرف تماماً ما تفعله. تماماً مثلما يعرف الصيدلاني ما يفعله عندما ينتقل من وصفة إلى أخرى. الكمية الصحيحة من الأتروبين أو من الزرنيخ. من الأفضل أن يكون الأمر هكذا. من الأفضل أن يكون هكذا».

قال مانتوشيان هذه الكلمات بنوع من البربرية الشخصية أو بنوع من قوة القلب. كان غير قادر على التوقف عند ذلك... «تعود إلى بيتك. مرحباً يا زوجي أو يا زوجتي! كيف كان العمل في المكتب اليوم؟ عمل، كالمعتاد. أرى أنك بدلت المفارش! وأيضاً أرسلت المال لتسديد قسط التأمين. هذا جيد!... هكذا تجد نفسك شخصاً آخر. أين ذهبت الكلمات التي كنت تقولها قبل ساعة واحدة؟ لقد ذهبت! أين هو الشيء المركزي؟ أوه يا صديقي العزيز! الشيء المركزي هو الإصغاء إلى الصوت القادم من الصحراء. هل تقول إنها حياة مزدوجة؟ إنها سر فوق سر، غموض، ثم توضع علامة الأبدية فوق ذلك كله. إذن، من الذي يعرف الشيء النهائي؟ وأين هي ساعة الحقيقة؟».

تابع يقول: «بالطبع، هذا لا علاقة له بك!» ابتسمَ وحاول أن يبدو أكثر بهجة. لكن، نوعاً من الظلمة ظل في تلك الغرفة الصغيرة الحارة المضاءة جيداً. استمر في كلامه بعد أن بذل ذلك الجُهد حتى يبتسم: «لكن، وبالنظر إلى أهمية الأمر، سأعطيك مثالاً آخر. كان لديَّ زوجان ثريان قبل الحرب. زوج وسيم وزوجة حسناء. كلاهما آتٍ من وسط اجتماعي راقٍ. يذهب الزوج إلى إيطاليا في رحلة عمل فيلتقي سيدة إيطالية وتبدأ بينهما قصة حب. وبعد ذلك يستمر في مراسلتها سراً بعد عودته. تعثر الزوجة على رسالة حب وضعها في جيبه الخلفي. لم يحتفظ بها في ذلك الجيب فقط يا مارتش بل إنه أعاد بقلمه كتابة الكلمات التي خطتها تلك اليد الغالية لكن عرقه جعلها باهتة. تأتي الزوجة إليّ بعينين ممتلئتين دماً. أما أنا فأعرف أن تلك الزوجة نفسها كانت قد أقامت علاقة مع أحد الأصدقاء خلال فترة سفر زوجها. إنها تريد معاقبة الزوج. تريد معاقبته لأنها أمسكت به! تريده أن يذهب معها إلى إيطاليا وأن يواجها السيدة الإيطالية وأن تجعله ينكر أمامها أنه أحبها يوماً. وإلا... الطلاق! من الطبيعي أنني لا أستطيع أن أقول للزوج ما يتعيَّن عليه فعله. لقد سافر معها. سافرا سبعة آلاف ميل للقيام بهذا الأمر الذي لا بد منه. ثم عادا بعد ذلك؛ فماذا تظن؟ أنت رجل ذكي، ويجب أن تعرف ما حدث».

«لقد اكتشف سرها. اسمع يا سيد مانتوشيان...» قلت هذا وقد بدأت أشم رائحة شيء غير نظيف... «ما معنى هذه القصص الآن، قبل زواجي؟ أتقول لي إن عليَّ أن أجرِّب الحذاء لأرى إن كان مناسباً؟» جعلت تلك الفكرة دمي يغلي.

«أوه! لا تأخذها بشكل شخصي! لم أقل أبداً إن هذه القصص تنطبق عليك. أظن أنها تصح بشكل عام. هل يمكن أن أقول شيئاً في حق الآنسة ستيلا تشيسني؟ ليس الأمر لأنها صديقة آغنيس فحسب. بل لأنني لا يمكن أن أقدم على قتل الفرحة وعلى التدخل في هذا الحب الحقيقي الذي أراه ظاهراً عليك بكل وضوح.

لكن من الممكن أن يكون لديك اهتمام، مثل اهتمامي، في ما قاله لي شخص ذكي ذات مرة عن العلاقة بين الحب والزنا. عندما تكون سعيداً، في أي يوم من الأيام، فإنك تعرف أن هذا لا يمكن أن يستمر وأن الطقس سوف يتغير وأن الصحة سوف يصيبها المرض وأن السنة سوف تنتهي وأن الحياة سوف تنتهي أيضاً. في مكان آخر، في يوم آخر، سيكون هنالك حب آخر. والوجه الذي تقبّله سوف يتغير ليصير وجهاً آخر؛ سيحل محل وجهك وجه آخر أيضاً. لا يمكن تجنب ذلك... هكذا قال لي الرجل. لقد كان، هو نفسه، شخصاً قذراً محتالاً زار السجن مرات كثيرة. وكانت النساء تعيله طيلة حياته. لقد هجر طفله وما كان أحد يستطيع الاعتماد عليه في أي شيء. لكنه قال إن الحب هو الزنا، وإنه تعبير عن التغير. إنك تسعى إلى سلام نفسك من خلال التغيّر. مدينة أخرى، امرأة أخرى، سرير مختلف، لكنك تظل أنت نفسك، مثلما أنت؛ ولهذا فإن عليك أن تكون مرناً. أنت تقبّل المرأة وتُظهر كم تحب قدرك... إنك تعبد التغيرات في الحياة وتهيم بها. إنك تطيع هذا القانون. سواء كان هذا التافه محقاً أم غير محق... فليلعن الرب روحه! لا تخدع نفسك أبداً وتظن أنك لست مضطراً إلى طاعة قوانين الحياة».

أضاف معلمي الغريب... أقول إنه معلّمٌ لأنه كان يلقي عليّ درساً تعليمياً بكل تأكيد: «الضلال ليس شيئاً. إنه نظام يلتقط إرادة الكون».

قلت: «أريد أن أطيع هذه القوانين. لست أحاول التخلص منها. لم أحاول هذا أبداً».

عند ذلك الوقت كان العرق قد بدأ يتصبب غزيراً على وجهينا. وأما منشفته الكرنفالية التي سقطت عن صدره السمين واستقرت فوق سفوح الشعر على بطنه، فقد بدت كأنها ثوب واحد من الحكماء. لا يمكن أن أقبل أبداً بأن يكون الحب زنا. أبداً! تخيلوا هذا!... حتى إذا كنت مضطراً إلى الإقرار بأن عشاقاً كثيرين كانوا زناة... مثل باولو وفرانشيسكا، أو مثل أنا كارنينا بطلة جدتي لوش الأثيرة. هذا ما قاد ذهني إلى التفكير في المعاناة التي

تخالط الحب. كأنك تأكل ثمرة معطوبة بعض الشيء حتى لا تسيء إلى الآلهة... لأن المسرة الصافية حكرٌ عليهم وحدهم.

نظر إلي كأنه يبتسم... بلطف عظيم، رقيقٍ، متصببٍ عرقاً... كأنه حكيم أو نبيّ أو معلم روحي، كأنه أمير التجارب بأظافر قدميه المتألقة كالمجوهرات. أردت أن يمنحني الحكمة.

«لماذا ترى نفسك ميالاً إلى الظن بأن الشيء الذي يقتلك هو الشيء الذي تعيش من أجله. هذا لأنك أنت مبدع حياتك. وما هو السلاح؟ الأظافر، ومطرقة شخصيتك أنت. وماذا يكون الصليب؟ إنه عظامك أنت التي تحمل لحمك وتضعف شيئاً بعد شيء. يجعل الزوج، أو الزوجة، الطرف الآخر يقوم بالأمر كله: زوجتي العزيزة، أنت ستصنعين لي قدري! ومن الممكن أيضاً أن يقول لها كيف تصنع ذلك القدر، وأن يريها كيف تصنعه. السمكة تريد الماء، والعصفور يريد الهواء، وأنا وأنت نريد فكرتنا التي تهيمن علينا».

«هل تستطيع أن تقول ما فكرتك التي تهيمن عليك يا سيد مانتوشيان؟».

أجابني على الفور: «إنها الأسرار! يجعلنا المجتمع نمتلك بعض الأسرار بالطبع. لكن الأخوّة بين بني البشر تريد أن تريحنا منها عن طريق ما يملكه فعل الاعتراف من سلطان. لكن عليَّ أن أُنجب أسراراً. سوف أظل مشهوراً بالأسرار عندما أموت، مثل القديس بلاس الذي قتل بأمشاط الصوف فجعلوه بعد موته قديساً حامياً لمن يعملون في تسريح الصوف».

مضى يقول: «تعقيدات، وأكاذيب، وأكاذيب، وأكاذيب! تنكر ومسرحيات هزلية، وشخصيات متعددة، وأمراض، وأحاديث. حتى في حديث يستمر دقائق معدودة... هل تدرك كم مرة تشعر بأنك تغير الكلام قبل أن يخرج ما تريد قوله من فمك؟ يقول لك أحدهم 'آ' فتكون استجابتك 'ب'. لكنك لا تستطيع قول 'ب' فتحولها إلى شيء آخر... إنك تدفنها في صدرك. شيء يشبه التحويل من التيار المستمر إلى التيار المتناوب، زيادة أربعمئة فولت... كأنه شيء يمر عبر مصفاة. إذن، بدلاً من قول 'ب' يخرج من فمك شيء آخر. وكلما طال قطار هذه التحولات، كلما كان ما يخرج من فمك آخر الأمر أكثر بشاعة. عدم المؤاخذة... إنني معجب كبير بجين سيينا. أقف خاشعاً أمام عبقرية البشر. لكن الجزء الأكبر من هذه العبقرية مكرس للكذب ولأن تبدو على غير حقيقتك. نحب ذلك الموقف، عندما يعود أوليس متنكراً من أجل الانتقام. لكن، افترض أنه ينسى السبب الذي جاء من أجله فيجلس طيلة النهار، ثم يمضي أيامه كلها متنكِّراً. يحدث هذا لأرواح هشة كثيرة

تنسى السبب الذي جعلها تتنكر ولا تفهم التعقيد! إنها لا تفهم التعقيد، أو لا تعرف كيف تعود إلى البساطة. ولكثرة ما تقوله من أشياء مختلفة لأشخاص مختلفين، ترى المرء ينسى القصة الأصلية وما كان يريده، هو نفسه! كم هي نادرة تلك البساطة، وكم يندر العثور على نقاء القلب! إنني أنحني حتى أمام لحظة واحدة من نقاء القلب، أنحني حتى الأرض. هذا ما يجعلني معجباً بك عندما تقول لي إنك عاشق. إنني أقدّر هذه القدرة على الاستمرار؛ ثم إنني عاشق مثلك... أنا أيضاً!».

فليبارك الرب مانتوشيان! يا للرجل الطيب! إنه منتبه حقاً! بادلته حباً بحب.

«ستفهم ما أقوله لك يا سيد مانتوشيان إذا أخبرتك بأنني أحاول دائماً أن أكون أنا نفسي. لكنه شيء مخيف! ماذا لو كنت أنا نفسي، بطبيعتي، غير جيد إلى الحد الكافي؟» كنت على وشك البكاء. قلت له: «أظن أن من الأفضل لي أن أقبل نفسي، وأن أكونها. لن أحاول أبداً إرغام يد القدر على خلق أوجي مارتش أفضل من هذا. ولن أستطيع تغيير زماني إلى عصر ذهبي».

«هذا صحيح تماماً. عليك أن تجرب حظك بما هو لديك. ثم إنك لا تستطيع الجلوس ساكناً في مكانك. أعرف هذه الوضعية المزدوجة... إذا تحركت فقد تخسر. أما إذا بقيت ساكناً فسوف يدب فيك الفساد. لكن، ماذا ستخسر؟ لن تستطيع أن تخترع رباً أفضل أو طبيعة أفضل؛ ولن تستطيع تحويل نفسك إلى رجل غني بالمواهب والفرص إلا إذا تحركت. هكذا نحن البشر».

قلت له: «هذا صحيح، وأنا شاكر لك. إنني مدين لك بالكثير مقابل هذا التوضيح».

حدث هذا في الطابق الثامن والخمسين في بناية في وسط منهاتن؛ جرى خلف أبواب زجاجية منزلقة. لا سبب يحملني على ادعاء أنني اعتدت هذه الأشياء إلى درجة تجعلني أهمل ذكر المكان.

أجابني: «من الأفضل أن تموت على ما أنت عليه بدلاً من أن تعيش غريباً إلى الأبد». وبعد هذا، غرق برهة في تركيز صامت كما لو أنه يحصي قطرات متساقطة من مصدر غير مرئي. ما هذه القطرات؟ أهي من جوهر نقي، أم قطرات مرارة وغضب؟

«هنالك مسألة ظلت تقلقني خلال الأشهر القليلة الماضية. وأظن أنها ستثير اهتمامك». يا إلهي! أدركت الأمر الآن. صارت عيناه الكبيرتان ثقيلتين، حزينتين.

قال: «السبب الذي جعلني أخبرك بقصة السوار قبل قليل هو أن السيدة كوتنر، آغنيس، فقدت خاتماً ماسياً منذ عدة شهور. قالت إن أحداً سلبها إياه في الحديقة المركزية عندما أخرجَتْ الكلب في نزهة في فترة المساء. يحدث طبعاً أن يتعرَّض بعض الناس للسلب».

«لكن لماذا تضع خاتماً ماسياً عندما تخرج في نزهة من أجل كلب».

«هذا لأنها كانت على موعد معي. كانت هنالك آثار أصابع على رقبتها، هذا دليل قوي، أليس كذلك؟ كما أن رجال الشرطة وجدوها مرمية في ممر بين دار الأوبرا وملعب الأطفال. أخذوها إلى البيت. هذا مقنع تماماً، أليس مقنعاً؟».

«إنه يبدو مقنعاً تماماً...».

«لقد حصلت آغنيس على خمسة آلاف دولار من شركة التأمين. والآن، أستطيع أن أقول لك إنني على ثقةٍ تامةٍ من أنها فعلت ذلك بنفسها».

«ماذا؟».

«خنقت نفسها حتى فقدت الوعي. والعلامات التي على رقبتها ناتجة عن أصابعها نفسها».

«كيف يمكنها ذلك؟».

«لقد فعلته».

أذهلني تخيل تلك الجميلة من فيينا تخنق نفسها بنفسها في الحديقة الليلية. سألته: «كيف تعرف هذا؟».

«أعرفه لأن الخاتم موجود عند إحدى صديقاتها الآن».

«لكن، ما الذي يجعلها تختلق ذلك؟».

«هذه هي المسألة كلها. إنني أعطيها كل ما يلزمها من مال. كما أرسل شيكات إلى زوجها في كوبا. فما الذي يجعلها تلجأ إلى هذه الحيلة حتى تحصل على مالٍ إضافي؟».

«قد تكون راغبة في أن تضع بعض المال جانباً كنوع من الضمان الاجتماعي؛ ما رأيك؟ هل أعطيتها ما يضمن مستقبلها؟».

«إنها شديدة الحرص فيما يتعلق بالعقارات. هذا ما أرجوه حقاً. ثم إنني... بالطبع... أعطيتها بيتاً على الجزيرة. لكن، ماذا لو أن السبب لم يكن هكذا؟ هل أدركت القصة؟ إنها تخفي عني أسراراً؛ إنها تعيش حياة أخرى غير التي تعيشها معي».

قلت: «قد يتضح آخر الأمر أن هنالك شيء عادي جداً كأن يكون لها شقيق واقع في ضائقة مالية لكنها لا تريد إخبارك بذلك. أو لعلها تعبت من تلقي المال من غير أن تفعل شيئاً. لعلها أرادت أن تجنيه بنفسها».

كان مانتوشيان مدركاً أنني أحاول البحث عن شيء يجعله يحس بعض الراحة.

«لا بد أن هنالك طرقاً أكثر سهولة. لا، ماذا لو أنها أرادت المال حتى تعطيه لشخص ما؟ آه، إن مهنة المحاماة تجعلني كثير الشكوك. لكن، ألا تدرك ما أرمي إليه؟» هكذا سألني فجأة... «ألا تدرك طريقة نظري إلى هذه الأمور».

يحدث أحياناً أن يجري تعارف قصير الأمد بين شخصين لكنهما يصبحان على صلة وثيقة جداً. هكذا كان الوضع بيننا، مانتوشيان وأنا.

في هذا السبت تحديداً، لم تأتِ ستيلا وآغنيس نتيجة سوء تفاهم فيما يتعلق بترتيبات لقائنا. صار مانتوشيان شديد التوتر خلال انتظارنا لهما في مكتبه. كان موعد العشاء مع زوجته يقترب سريعاً. هذا سبب توتره! وأخيراً، بعث مع سائقه إلى شقة ستيلا رسالة تخبرهما بأننا سنلاقيهما في التاسعة والنصف. وأخذني معه إلى بيته في سيارة تاكسي.

قابلت السيدة مانتوشيان. أعرف أنها عاجزة، لكنني لم أرَ عجزاً ظاهراً. كانت في فستان أزرق مبطن، وشعرها رمادي اللون. امرأة محترمة، إن لم أقل رفيعة المقام... أحسست نوعاً من البراعة الرياضية المؤثرة في سلوكها.

استقبلتني استقبالاً يلفت الانتباه.

قالت لمانتوشيان: «هارولد، لا بد من مزج المارتيني في المطبخ». وهكذا مضى الرجل إلى المطبخ؛ وفور خروجه قالت، بطريقة عنيفة تقريباً: «من أنت أيها الشاب؟».

«أنا؟ إنني من عملاء السيد مانتوشيان. أنا في حاجة إلى مساعدته لأنني موشك على الزواج».

قالت: «لست أطلب منك إخباري بأي شيء. أعرف أن لدى هارولد أسراره. أقصد... يظن أن لديه أسراراً. إنني أعرف حقاً كل ما يتعلق به، لأنني أفكر فيه طيلة الوقت. ليس صعباً معرفة ذلك إذا كنت تمضي وقتك كله مفكراً في شخص ما. لست مضطرة إلى مغادرة هذه الغرفة».

أصابتني الدهشة. أحسست أن عيني صارتا أكثر اتساعاً.

قلت لها: «لست أعرف السيد مانتوشيان منذ فترة طويلة يا سيدتي. لكني أرى أنه رجل عظيم».

«أوه، أنت تدرك هذا! إنه عظيم... رغم أن لديه مشاعر إنسانية زائدة».

راعني أن يجلس هذا السبع، مانتوشيان، وينتحب في عزلة تامة، كما يظن؛ لكن هذه المرأة المقعدة تكون واقفة خلفه، وتستمع إليه.

لكنه جاء حاملاً الكؤوس في تلك اللحظة فانتهى الحديث بيننا.

الفصل الخامس والعشرون

ما كان يمكن لشيء أن يثنيني عن الزواج لأن الحب خدَّرني كلي. لست متأكداً إن كان مانتوشيان يحاول أن يدفعني إلى ذلك؛ لكن فرصته كانت معدومة، حتى إن حاول، لأن أي شك ما كان قادراً على الدخول إلى قلبي.

على أنه قام بدور الصديق الجيد. لقد رتب كل شيء مع الشركة في مأدبة الزفاف، واشترى الورود وأزهار الغاردينيا للجميع. كان الجو رائعاً في قاعة المدينة؛ وبدا الهواء متراقصاً مع الموسيقى. وعندما هبطنا بالمصعد تذكرت كيف وقفت على سطح المستشفى قبل أكثر من سنة من الآن ونظرت إلى شيكاغو. تأملت في أن أسرتنا كلها، بما فيها الجدة لوش، لم يتمكن فيها أحد من تجنب الوجود في مؤسسة من المؤسسات، عدا سايمون. أما الآن، فلم أر سبباً يجعلني أحسده. أحسده؟ لماذا؟ رأيت أنني تفوقت عليه في كل شيء لأنني تزوجت امرأة أحبها مما يعني أنني أسير على الدرب الصحيح الوحيد في هذه الحياة. قلت لنفسي إن أخي كان رجلاً لا يستطيع إلا أن يتلقّى العالم مثلما وجده وأن ينقل المصير الذي ورثه إلى أي طفل يمكن أن يكون قد أنجبه الآن... لم أكن أعرف إن كان قد أنجب أطفالاً! نعم، هكذا كان الناس الذين من هذا النوع خاضعين للقوانين كلها مثلما تميل قمم الجبال صوب القطب المغناطيسي الأقرب إليها، أو مثلما تسير السرطانات بين الأعشاب أو تتشكل البلورات في الكهوف. أما أنا... فقد حصلت، بمساعدة الحب، على ما هو أفضل بكثير وصرت قادراً على كتابة قصتي بنفسي، نفسي التي تأتي الحقيقة منها والتي لا تقع تحت رحمة شيء خارجها. وها هي العروس معي، هنا! كان وجهها يشع

فرحاً... لقد أرادت هذا، وأردته. لقد ارتكبتْ أغلاطاً في زمانها الذي مضى، لكن الأخطاء كلها مُسحَت الآن.

خرجنا إلى درجات مدخل البناء. كانت الحمائم تمشي من حولنا، وكان مانتوشيان قد أتى بمصور حتى ينتظرنا هناك، وحتى يلتقط صورة لحفل الزفاف. كان في غاية الفطنة، وكان لطيفاً مع الجميع.

أنهيت دراستي يوم أمس، وصارت في جيبي شهادة جديدة. تغيرت ابتسامتي أيضاً لأنهم وضعوا لي أسناناً بدلاً من التي فقدتها في المكسيك. يجب أعترف أيضاً بأنني، إضافة إلى حبي الجارف وإلى اعتزازي بذلك اليوم، كنت أحس في داخلي شيئاً يشبه الفقاعة... مثل فقاعة الهواء الصغيرة في ميزان الزئبق عند النجار. لكنني كنت أنيقاً مُسرّح الشعر كأنني ممثل سينمائي. ارتديت بدلتي الرسمية: ما كان ينقصها إلا شرائط الخدمة ونجومها. كنت أحب أن تكون لديَّ تلك الشرائط والنجوم فأتزوج هذه الجميلة كأنني بطل محارب في خدمة وطنه. عاهدت نفسي على أن أكون متواضعاً. لكني أظنكم لا تعرفون إلى أي درجة كنت متوتراً. ما كنت متوتراً لمجرد أنني مسافر على متن السفينة بعد وقت قصير من الزفاف، بل أيضاً لأن ستيلا كانت ستسافر إلى ألاسكا مع فرقة مسرحية بعد أسبوع. لم أكن أريدها أن تذهب إلى ألاسكا.

لكني ما كنت، بالطبع، لأقول شيئاً يفسد المناسبة! التقطت لنا صور في حفلة الزفاف؛ ظهر في الصور أيضاً كل من آغنيس وسيلفستر. صرت أنظر إلى آغنيس بعين مختلفة منذ سماعي بقصة خنقها نفسها. كانت في فستان رمادي جميل يبرز ردفيها؛ وكانت لهذا الفستان ياقة مندفعة إلى الأعلى كأنها تريد أن تمنع الناس من رؤية رقبتها.

كان لحم الديك الرومي، ولحوم أخرى، وشامبانيا، وكونياك، وفاكهة، ومعجنات حلوة، على البوفيه في شقة ستيلا. كانت وليمة رائعة. تصادف وجود روبي وفريزر في المدينة معاً، فدعوتهما. وهكذا كان لديَّ أصدقاء من طرفي أيضاً. جاء فريزر في بدلة عسكرية. أما لحية روبي فكانت أكثر كثافة، وكان وزنه قد ازداد في واشنطن. جلس وحيداً في الزاوية ممسكاً ركبتيه الاثنتين. لم يكن يقول شيئاً. لكن الكلام كان كثيراً حتى من غير مساهمته! بدأ سيفلستر يوزّع الابتسامات بعد بضع كؤوس من الشامبانيا. كان سيلفستر شخصاً غريباً، كئيباً. أراد أن يعتبره الناس شخصاً جدياً مستقيماً، لكن ابتساماته القاتمة فضحت أمره... تمكن الجزء غير الذكي في سيفلستر من أن يجد طريقه إلى الظهور! جلس إلى جانبي. كنت أطوّق خصر ستيلا بذراعي وأداعب فستان الزفاف المصنوع من الساتان.

قال لي سيلفستر: «يا لهذا الطبق الشهي! كم أنت محظوظ!... وأنا الذي كنت أظن أنك مجرد شخص ممن اشتغلوا عندي».

كان يشير إلى عملي في «سينما النجوم» التي كان يملكها... السينما التي كانت في جادة كاليفورنيا تحت طبيب الأسنان الذي عذَّب جدتي لوش. ما عاد سيلفستر شاباً؛ إنه يتقدم في السن. قال إنه ترك السياسة الآن. أردت أن أسأله عن المكسيك، لكن يوم الزفاف ما كان يوماً مناسباً لهذه الأسئلة، فتخليت عنها.

لم أكن رجل اللحظة في هذه الحفلة بقدر ما كانه فريزر، بطريقة ما. كان فريزر قد عاد من الشرق قبل فترة وجيزة. لقد عمل في الاستخبارات وأُلحق ببعثة في تشونغكينغ.

كان يحدّث آغنيس ومانتوشيان عن الشرق. لا أزال معجباً بفريزر إلى حد كبير، ولا أزال أنظر إليه نظرة احترام. كان رجلاً مثالياً شديد الجاذبية. إن لديه مظهر الأناقة الأميركية، مظهر الرجل الطويل الضامر الذي تنساب ساقاه انسياباً هيناً. كان الشعر قصيراً على جانبي رأسه الذي تلوح عليه، من ذقنه إلى قمته، ملامح قالب ذكوري لا يعرف التعب. أما عيناه فكانتا لطيفتين، صادقتين. كانت قسمات وجهه قوية كلها، وقد بدأت غضونه تزداد عمقاً تحت وطأة ضغوط هذا العالم. كان فيه شيء آخر أيضاً... كان كأنه جالس في كرسي الحلاق، في نهاية حلاقة ذقنه، عندما يجف اللون الأسمر الساحر على الوجه وتندفع القدمان مستعدتين للنهوض. كان يعرف الكثير أيضاً. افترض أنك تقول شيئاً عن دالامبير أو عن إيزيدور السيفيلي... سوف يكون فريزر مستعداً لمناقشة الموضوع. لا يمكنك أن تجد موضوع حديث يربكه. سوف يصبح رجلاً هاماً. يستطيع المرء رؤية طيرانه في الأعالي، من قمة في الحياة إلى القمة الأخرى. ورغم ذلك، كان يبدو مسترخياً، مرتاحاً. لكن، كلما بدت عليه الراحة واليسر كلما أحسسته مبتعداً عنك. كان يتحدث عن توسيديد، أو ماركس، ويجعل مستمعيه ينظرون إلى صور التاريخ كأنها رؤى يرسمها. يجعلك هذا تحس قشعريرة في ظهرك وشيئاً يفور في حلقك. كنت شديد الاعتزاز بأن يأتي إلى زفافي صديق من هذا النوع. لقد أضفى على المناسبة طعماً خاصاً، وكان نجاحاً كبيراً.

لكن الاستماع إلى هذه المناقشة التعليمية اللامعة كان مخيفاً أيضاً؛ شيئاً يشبه أن يمسك المرء سلكاً كهربائياً عالي التوتر.

كانت تمر في حديثه قرارات وتصريحات ومعاهدات ونظريات ومؤتمرات، وعظام الملوك، وأمثال كرومويل وليولا ولينين والقيصر، وجموع من الهند والصين، ومجاعات ومؤامرات ومجازر وتضحيات. جعلني أرى أيضاً تلك الحشود الكبيرة من الناس في

باريس ولندن وروما؛ وجعلني أرى تيتوس يهاجم القدس، ونار الجحيم عندما زارها أوليس، وباريس عندما ذبحوا الخيول في الشارع. جعلني أرى أور وممفيس. جعلني أرى الذرات شبه الصامتة، والأفعال الميتة، تلك الأشياء التي تجتمع فيتشكل منها هدير. جعلني أرى الحرس المقدوني، والمتاجر الكبيرة في محطات المترو. جعلني أرى السيد كريندل يدفع عجلات المدفع مع رفاقه وجعلني أرى جدتي وزوجها الأسطوري لوش في معطفه السميك متجادلين في محطة قطارات أوديسا يوم اندلاع الحرب اليابانية. جعلني أرى أبي وأمي ذاهبين في نزهة عند بحيرة حديقة هامبولدت يوم حملت أمي بي. جعلني أرى ربيعاً مزهراً.

فكرت في أن هنالك الكثير الكثير من هذه الأشياء... الكثير مما يستطيعه المرء أن يعيشه كله. من الأفضل نسيانه، ولو جزئياً. إن نهر الغانج موجود هناك بشياطينه ونبلائه؛ لكنّ لك حقاً أيضاً... ببساطة... في أن تغسل فيه ساقيه وبعض ثيابك الخاصة. حتى لو كانت لديك سيارة جيدة، فإن عمراً واحداً لا يكفي لجولة على الجُلجلات كلها.

مع اندفاع فريزر في الحديث، كان يقلقني التفكير في أنني وصلت إلى منتهاي وأنني لن أكون إلا ما كنته؛ لكن قلقي صار أخف وطأة مما كان قبل حديثي مع كليم عن الخطوط المحورية، وقبل حديثي مع مانتوشيان في الحمام التركي. منحني وجود مانتوشيان هنا اطمئناناً كبيراً. شارفت الشامبانيا على النفاد، وانتهى اللحم الأبيض، وبدأ شخصان كانا يلعبان البيناكل على طاولة صغيرة في ارتداء معطفيهما حتى ينصرفا... حان وقت الذهاب. وداعاً للجميع، وشكراً جزيلاً للجميع!

قلت: «أليس صديقي فريزر شخصاً ذكياً؟».

قالت ستيلا: «نعم، لكنك أنت حبيبي». قبّلتني ثم مضينا إلى فراش الزوجية.

لم يدم شهر عسلنا إلا يومين اثنين!

سوف تبحر سفينتي من بوسطن. سافرت ستيلا في القطار معي في الليلة التي تسبق الإبحار. كان الفراق قاسياً، بالطبع. جعلتها تعود في الصباح.

«اذهبي يا محبوبتي».

«أوجي، وداعاً يا حبيبي!» قالت هذه العبارة وهي واقفة على سلم عربة القطار. لا يحتمل بعض الناس ذهاب القطار في أي وقت، فكم تكون هذه الفراقات قاسية عندما تجري في محطة قطار وقت الحرب عندما تتحرك العربات مبتعدة وتترك جمعاً من الناس

خلفها وتظهر السكة الحديدية الفارغة وعليها بقع زيت وأنين... عليها روابط وذكريات كثيرة. قالت لي: «أرجوك، كن حذراً في كل شيء».

وعدتها: «أوه، سأكون حذراً. لا تقلقي عليّ. أحبك حباً يمنعني من الذهاب والغرق في البحر في أول رحلة لي. انتبهي أنت أيضاً، هناك، في ألاسكا».

جعلتْ ستيلا الأمر يبدو كأنه متعلق بمشيئتي، كما لو أنني أستطيع أن أخط لنفسي طريقاً آمناً فوق مياه المحيط الأطلسي في زمن الحرب، لكني كنت أعرف ما أرادت قوله.

قلت لها: «إن الرادار يكتشف الغواصات. هكذا يقولون في الصحف».

كان خبر الرادار في الصحيفة كلاماً مرتجلاً، لكن مفعوله كان طيباً رغم ذلك، فتابعت الكلام متحمساً واثقاً... قد يمكن للمرء أن يظنني بحّاراً عتيقاً!

جاء مراقب القطار ليغلق الأبواب فقلت لها: «أدخلي يا حبيبتي، أدخلي». رأيت عينيها الكبيرتين في النافذة حتى اللحظة الأخيرة. كانت جالسة في مقعدها، منحنية من الوسط. يقتلني أن أبتعد عن جمالها وروعتها أشهر طويلة في البحر.

وهكذا انطلق القطار وبقيت واقفاً بين الناس... داهمني ضعفٌ وخواء.

وفوق هذا، كان البحر رمادياً هائجاً عندما أبحرنا. وكانت السفينة، سام ماكمانوس، قديمة. إلى جانبها آلات سوداء على رصيف الميناء عندما انطلقنا... وكانت على السفينة آلات كالحة اللون، وشحوم، وظلمة، وزرقة، كان ذلك اليوم كله كأنه مصبوبٌ بالحديد. وكان المحيط في انتظارنا بأمواجه الكبيرة المريرة كأنه يدعوك إلى التفكير في عمقه، وكم هو أكثر برودة وملوحة وقسوة... يدعوك إلى محاولة التمييز بين دروبه الخادعة ونيّاته الحقيقية... كان غاضباً، جاداً. ما كان يشبه البحر المتوسط الذي عبره الحواريّون، البحر الذي حرك مشاعر إينياس... البحر الجميل المتلألئ الرائع اللطيف الذي عاشت فيه الأعراق القديمة أيام طفولتها. عندما تركنا الميناء، كان شمال المحيط الأطلسي رمادياً، جلفاً، يعاكس السفينة بأمواجه القوية التي تضربها وتدفعها... همسٌ جائع ينثر الماء المالح على حواجز السفينة.

لكن الصباح التالي جاء، وجاء معه سطوع الشمس والدفء. كنا مبحرين جنوباً بكل ما استطعنا من سرعة. خرجتُ إلى السطح بعد ليلة كاملة عانيت فيها نوبة من دوار البحر (لم تُجدِني الأدوية نفعاً)... كان يمزقني شوقي إلى ستيلا وقلقي من ألاسكا.

كانت السفينة القديمة تمخر عبابَ الأمواج كأنها تريد أن تجعلك تحس عمق البحر؛

والهواء حلواً، متألقاً. كان الهواء شفافاً، صافياً. حتى سفينتنا ماكمانوس القذرة كانت مغمورة في ذلك الألق كأنها حشرة مطبخ تهرب إلى الحديقة عبر النافذة. كان سطح السفينة الأزرق يقرقع تحت الأقدام ويأتي منه صوت محرك الدفة الذي يشبه قعقعة السلاسل. هنالك تشابهات تحيّر المرء: غيوم أم شاطئ بعيد؟ طيور أم حشرات؟... كانت هذه التشابهات تسري طائرة أمام عيني.

مضيت لأتفقد مكتبي ومهامي. لا شيء كثيراً في حقيقة الأمر! أخبرتكم أنني سأكون صيدلياً ومحاسباً في هذه السفينة. كانت هنالك مصنفات قديمة خضراء، وخزائن صغيرة من اللون نفسه. وكرسي دوار. ومصباح للقراءة. لقد جهزت نفسي جيداً لهذه الرحلة.

مرت أيام كثيرة من التقدم الميكانيكي في هذه المياه. بحر الأفق يرتفع ليمسك أطراف السحاب مثلما يشبُّ سرطان محاولاً الإمساك بفراشة، يشب مقعقعاً بدرعه ثم يسقط متألماً. وكانت هنالك حرارة الشمس وأثر السفينة في المياه... خطٌّ طويل أبيض.

في عزلتي رحت أقرأ الكتب وأكتب لستيلا رسالة يومية لا تنتهي. آمل أن تسنح لي فرصة إرسالها من داكار التي ستكون محطتنا الأولى، أن أرسلها من داكار إلى ألاسكا! كانت هنالك مدافع بطبيعة الحال، وكان على السفينة رادار أيضاً، لتذكيرنا بالخطر... لكن الوقت تابع مروره الجميل من غير سوء.

قبل أن يمر زمن طويل، سرى في السفينة خبر يقول إنني شخص أحسن الاستماع إلى مشاكل الناس وقصصهم الشخصية ومعاناتهم، وأنني أقدم المشورة إليهم. وشيئاً بعد شيء، صار لي زبائن يوميون... صرت كأنني واحد من العرّافين، تقريباً. لو شئت لأمكنني أن أتقضى نقوداً منهم! كان كليم يعرف ما يتحدث عنه عندما دعاني إلى مشاركته ذلك المكتب الاستشاري. أما هنا فإنني أقوم بهذا من غير أجر، وفي شروط خطيرة أيضاً... رغم أن كل شيء كان يبدو هادئاً إلى درجة كافية. وفي أي أمسية مبكرة، في أي أمسية حمراء ذهبية فوق ذلك السطح العميق الكثيف الأزرق، يأتي شخص فيحجب جسده المعتم هذا الضوء عني كأنه آتٍ إلى جلسة إرشاد روحي. لا أستطيع الزعم أن هذا كان يزعجني، بل كان يمنحني فرصة لمعرفة الأسرار، ويمنحني أيضاً فرصة للحديث عن مشكلات الحياة. من الناحية العملية، كنت في علاقة ممتازة مع الجميع. على علاقة طيبة حتى مع مندوب النقابة: عندما رأى أنني لست شخصاً صعب المراس يريد الإضرار بمصالح الشركة! حتى القبطان اعتبرني صديقاً أيضاً رغم أنه ما كان موافقاً على ما أبديه من رحابة صدر كبيرة (كان يدرس الفلسفة عن طريق المراسلة مع عدد من الجامعات لأن الفلسفة هوايته. وكان مشغولاً بكتابة واجباته الدراسية طيلة الوقت).

صرت موضع ثقة أهل السفينة كلهم. وقد حدثني عدة أشخاص عن فرص في السوق السوداء لجني المال سريعاً في البلاد الأجنبية.

قال لي أحدهم إنه يعتزم أن يصير حلاقاً بعد الحرب لأنه سيصبح قادراً على العبث بشعر كل فتاة في كينوشا.

كان معنا أيضاً شخص ترك مدرسة المظليين لكنه لا يزال يستخدم الحذاء الذي جاء به من ثكنة فورت بينينغ. أخبرني صراحة عندما جاء ذكرُ ورثته بأن له ثلاث زوجات شرعيات في أنحاء مختلفة من ولايتَيْ بنسلفانيا ونيوجرسي.

طلب بعضهم مني تشخيصاً لحالته كما لو أنني طبيب نفسي اختصاصي ولست مجرد شخص تعلم أقل القليل من مهنة الطب.

سألني أحدهم: «تظن أن لديَّ عقدة نقص، ألا تظن هذا؟».

كنت أرى عيوباً كثيرة لكنني لم أقل شيئاً.

إنهم بنو البشر يدب فيهم الذعر فيسرعون ويسرعون بعيون دامعة. خذوا هذه النماذج:

«افترض أنك الشخص الذي أصابته هذه المشكلة...».

«كان هنالك صديق لي...».

«قال لي: لقد كنت تعيل العجوز فترة طويلة. انظر الآن كيف صرت تحب ذلك».

«لقد هرب من أجل امرأة...».

«كانت الفتاة مقعدة، بساق واحدة. وتعمل في مختبر الطلاء في مصنع المواقد».

«لقد كان محتالاً يستخدم ذلك الصندوق الروماني حيث تضع دولاراً فيتحول إلى خمسة دولارات».

«إذا اضطر إلى اجتياز النهر سباحة فإنه يتوقع أن يقيموا الجسور من أجله. إنه أناني إلى هذا الحد».

«قلت: استمع إلي جيداً أيها الضراط، أيها الكاذب المحتال...».

«ظننت أنني كنت أراها جميلة جداً وأن لنا أطفالاً... إلى أن جاء الوقت عندما كنت لا أستطيع إخراج جدول الضرب من رأسي فعرفت كل شيء... العاهرات! كل ما تستحقه ومن يجب أن تعيش معه. فلتسرقك العاهرات ولتتحطم حياتك. لا بأس بهذا!».

«كنت أحاول أن أحظى بليلة واحدة مع هذه الفتاة قبل إبحاري. نعمل معاً في قسم الشحن. لكني لم أستطع تدبير الأمر. وهكذا بقيت عدة أسابيع حاملاً الواقي في جيبي من غير أن أستطيع استخدامه. وفي أحد الأيام كان كل شيء مناسباً، لكن جدة زوجتي ماتت. كان يجب أن أذهب لإحضار الجد إلى الجنازة. لم يستطع الجد أن يفهم ما حدث! جلسنا في الكنيسة الصغيرة حيث كانوا يعزفون على الأرغن. قالوا لي: كيف هذا؟ إنها الموسيقى التي عزفوها يوم مات الكلب العجوز! ثم راح يلقي النكات واحدة بعد الأخرى. ثم رآها في التابوت فعرفها وقال مستثاراً: ماذا؟ إنها الأم الكبيرة! رأيتها البارحة. ما الذي تفعله هنا؟ أيتها الأم، لماذا؟ أيتها الأم! لكنه فهم حقيقة الأمر بعد ذلك فانفجر باكياً. أوه، لقد انفجر باكياً. وأنا أيضاً. بكينا جميعاً. بكيت وأنا أحمل ذلك الواقي في جيبي. ماذا تظن؟ يكون كل شخص محتالاً بطريقة ما، حتى أنا!

وبعد ذلك اصطحبني كل من زوجتي وابني إلى المحطة. لم أتمكن بعد من العثور على فرصة مناسبة مع تلك الفتاة، ولعلها نسيت الأمر كله ورتبت وضعها مع شخص آخر. قالت ابنتي الصغيرة: بابا، أريد أن أبول. هكذا سمعت الصبيان يقولون! ضحكنا كثيراً. لكن، عند ذلك، إلى اللقاء. أحسست أن قلبي يزن طناً. اشتقت إليك يا طفلتي! كانت تبكي خلف نافذة القطار؛ أحسست بالشيء نفسه أنا أيضاً. ظل الواقي في جيب قميصي خلال ذلك الوقت. لم أرمه».

كان وجه هذا الرجل مسطحاً، هزيلاً، وردياً، حاد الأنف، رمادي العينين؛ وكان فمه صغيراً.

كنت أقدم النصائح بكميات متواضعة... ليس فينا أحد كامل! كنت أنصحهم بالحب خاصةً.

جاءتني أيضاً شخصيات عجيبة حقاً.

كان لدينا غريس وولد مثلاً... واحدٌ من المضيفين. كان دفان موتى، وشخصاً متأنقاً. إنه زنجي طويل القامة شديد الوسامة له لحية قصيرة متألقة وشعر كثيف مشبع بالزيت. وعلى خده أثر حرق. يمشي فيخفق بنطلونه الواسع فوق حذاء برباطين. ويدخن من أجل تأملاته الهادئة. وكان يدرس قواعد عدة لغات معاً حتى يكتشف التشابهات بينها. ناولني غريس وولد القصيدة التالية التي كتبها بنفسه:

كم تسألينني إن كنت أعاني!

استمعي الآن يا حبيبتي فأنا لست ماهراً في الخداع.

لا يسمح لي تطلُّعي وطموحي بأي راحة؛

ولدتُّ بعقل متميز؛ وأطمح إلى الأفضل.

كان جالساً يهز ركبته هزاً عصبياً سريعاً، إلى الأعلى والأسفل، بينما أقرأ ما كتبه. كانت عيناه داكنتان، قلقتان.

إن كنت أذكر هؤلاء الأشخاص تحديداً من بين أفراد الطاقم كلهم، فإن هذا شيء من طبيعة الذكرى. وذلك لأن سفينتنا، سام ماكمنوس، في اليوم الخامس عشر من إبحارنا، غرقت بعد إصابتها بطوربيد عندما كنا بالقرب من جزر كناري.

حدث ذلك بينما كنت أستمع إلى واحدة من قصص البوح غير الرسمية هذه. وكان الوقت ليلاً. ولا بد أن سرعة السفينة كانت لا تقل عن اثنتي عشرة عقدة عندما تلقّى جانبها ضربة ضخمة ساحقة. سقطنا على الأرض وسمعنا أصوات أشياء تتحطم ثم وقع انفجار مذهل في قلب السفينة. اندفعنا مسرعين في اتجاه السطح الخارجي. بدأت ألسنة لهب صغيرة تظهر عبر ألواح السطح المتشققة. أضاء هذا اللهب القسم العلوي من السفينة إضاءة واضحة. وظهرت على سطح الماء بقع مشتعلة أيضاً... بدأت المياه المتألقة تقترب منا. صيحات جائعة، ودفقات من البخار، وأشياء تتساقط في البحر. بدأنا إنزال الأطواف الضخمة عبر جانب السفينة، وتدلت قوارب النجاة من العوارض الحديدية. تدافعنا مسرعين صوب تلك القوارب. كان ذلك الشخص إلى جانبي. بدأ يحاول إنزال واحد من القوارب فعلِق في منتصف المسافة، مائلاً. صحت به أن يقفز في القارب ليرى ما يعيق نزوله. لكن الظاهر أنه لم يسمع صراخي، أو لم يفهمه... كانت عيناه تنظران إليّ مذعورتين. صرخت: «اقفز إليه!» سمعت صوتي خشناً لشدة الذعر. ثم قفزت إلى القارب بنفسي لأحرره، لكن حبل الرافعة انفلت في تلك اللحظة فهبط القارب سريعاً واصطدم بالماء صدمة قوية قذفتني إلى البحر. كانت أول فكرة خطرت في ذهني عندما غطست في الماء هي أن السفينة سوف تسحبني معها خلال غرقها. اعتصرني الذعر وامتص ما في ذراعيَّ وساقيَّ من قوة؛ لكنني حاولت المقاومة، وسمعت نخيراً... سمعت أوتار أورفيوس تدندن في القاع البعيد. في تلك اللحظة، بدا كل ما أعرفه ليس أكثر من رقّة هدب في هذا الكون المائي المندفع.

خرجت إلى سطح الماء أريد أن أصرخ لكنني كنت غير قادر على الصراخ. لم ينفتح فمي إلا لأتنفس. أين قارب النجاة؟ رأيت من حولي أطوافاً وقوارب، ورأيت بقع الماء

المشتعلة. كنت أبصق الماء المالح، أتقيأه، وأبكي، وأحاول الابتعاد عن السفينة المشتعلة التي كان الرجال مستمرين في القفز عنها في ضوء النار المتوهج الأبيض.

سبحت صوب قارب يبعد عني نحو مئة متر. حاولت الإسراع قدر استطاعتي خشية أن يبتعد عني. لكنني لم أرى مجاذيف خارجة منه. ما كنت قادراً على الصياح لكي ألفت انتباه من فيه؛ ضاع صوتي. لكن القارب كان يتحرك بطيئاً فتمكنت من اللحاق به. أمسكت بحبل متدل منه وناديت من قد يكون راقداً فيه لأن التعب جعلني غير قادر على تسلق الحافة. لكن الزورق كان خاوياً. وفي تلك اللحظة غرقت ماكمانوس. عرفت ذلك من الاختفاء المفاجئ للضوء الأبيض. لا تزال النار مشتعلة على سطح الماء كله، لكن التيار كان سريعاً. رأيت على ضوء اللهب المتمزق الباقي طوفاً عليه أشخاص. ثم حاولت تسلق الزورق من جديد. مضيت إلى منتصف الزورق حيث تكون حافّته أكثر انخفاضاً. ومن ذلك الموقع هناك رأيت شخصاً ممسكاً بمؤخرة الزورق، يا للمسكين. صحت به سعيداً، مبهوراً، لكن رأسه كان مائلاً إلى الخلف بطريقة غير طبيعية. أسرعت فسبحت حتى صرت خلفه لأرى ما به.

سألته: «هل أنت مصاب؟».

تمتم قائلاً: «لا، إنني مرهق».

«هيا، سوف أدفعك حتى تصير في الزورق، ثم تسحبني أنت. علينا أن نرى إن كنا نستطيع التقاط أشخاص آخرين من الماء».

كان علينا أن ننتظر قليلاً ريثما يستجمع قواه من أجل تلك المحاولة. وأخيراً رفعته فصار في المركب.

انتظرت مساعدته، لكنه لم يفعل. تركني منتظراً زمناً طويلاً. صحت، وزعقت، وشتمت، وهززت الزورق... لا فائدة! وأخيراً، استطعت أن أقذف بساقي فوق حافة الزورق ثم سحبت بقية جسدي حتى صرت ممتطياً تلك الحافة. رأيته جالساً هناك، على مقعد التجذيف، دافناً كفَّيْه بين ركبتيه. أعماني الغضب فقذفت بقبضة يدي صوب ظهره المشبع ماءً. تمايل قليلاً لكنه لم يتحرك... لم يفعل إلا أن نظر إلي بعيني تشبهان عيني حيوان داهمه ضوء سيارة. صحت به: «أتتركني أغرق يا ابن العاهرة؟ سوف أحطم رأسك!» لكنه لم يجبني. ظل ينظر إليَّ بتلك العينين الباردتين في وجهه المرتعش.

قلت له: «التقط مجذافاً ودعنا نذهب للبحث عن الناجين».

لكن، ما كان هنالك غير مجذاف واحد. اختفت بقية المجاذيف.

ما كان أمامنا شيئاً نفعله غير الجلوس والمضي مع التيار. رحت أحدق في الماء وأنادي فقد يكون هنالك أحد ما ماضياً مع ذلك التيار، مثلنا. لم يكن هنالك أحد. كانت النيران تتراجع وتنطفئ. توقعت، بعض التوقع، أن تطفو الغواصة إلى السطح لترى الحصيلة؛ كنت راغباً في ذلك بعض الشيء. لقد كانت قريبة منا بالطبع، ماضية في الأسفل، في البحر. فيم كنت أفكر؟... هل أردت أن أحظى بفرصة لأن أصرخ وأشتمهم وأقول لهم ما بقلبي؟ لا، لقد مضوا بعيداً، من غير شك؛ ولعلهم يتابعون الآن تناول طعام العشاء، أو لعب الورق. حل ظلام الليل بعد قليل؛ وما كان هنالك ضوء أو زورق أو طوف أستطيع تمييزه.

جلست منتظراً ضوء النهار أملاً أن يظهر في الأفق شيء أستطيع رؤيته. لم يظهر شيء! وجدنا أنفسنا عند الفجر في ضباب يشبه البخار في محل قديم لغسل الملابس يوم الاثنين. كانت الشمس تبدو عبر ذلك الضباب كأنها زر نحاسي مشتعل. لا يمكنك الرؤية في هذا الضياء المشوَّه النافذ عبر الضباب لمسافة لا تتجاوز خمسين متراً. رأينا بعض الحطام من حولنا لكننا لم نر أي زورق. كان البحر خاوياً. أفزعني موت أولئك الأشخاص واختفاء الناجين... ساقهم التيار بعيداً. لا أظن أن من كانوا في غرفة المحركات، في الأسفل، قد تمكنوا من النجاة.

بدأت أتفقد ما لدينا في الزورق وقد غمرتني الكآبة والمرارة. كان هنالك مشاعل وأسهم إشارة. هنالك شيء من الماء والطعام... ليست لدينا مشكلة في الوقت الحاضر، لأننا شخصان فقط، لكن من هو هذا الشخص الذي رماني به القدر. كان جالساً على المقعد. إنه الرجل الذي ضربته الليلة الماضية بكل ما استطعته من قوة... فماذا يمكن أن يحدث بيننا؟ إنه نجّار السفينة، الشخص المسؤول عن الإصلاحات اليدوية. هذا من حسن حظي، من ناحية ما، لأنني لا أملك مهارات يدوية ولا أملك المخيلة اللازمة لهذه الأشياء. لقد صنع شيئاً يشبه الشراع بأن نصب المجذاف الوحيد ونشر عليه قطعة من المشمع. زعم أننا لا يمكن أن نكون بعيدين عن جزر كناري أكثر من مئتي ميل. وقال إننا ذاهبون في اتجاهها مباشرة، مهما يكن حظنا قليلاً. قال إنه كان ينظر إلى الخرائط كل يوم، وهكذا فهو يعرف موقعنا تماماً ويعرف تأثير التيارات البحرية على حركتنا. قال هذه الأشياء برِضى كبير عن النفس، وبثقة كبيرة. لم يظهر عليه أي قلق إطلاقاً. أما في ما يتعلق بأنني ضربته وشتمته فلم يقل كلمة واحدة. كان رجلاً ضخم البنية يحمل رأساً كبيراً ذكياً قصير الشعر. معظم ذلك الشعر أبيض اللون، لكن ليس نتيجة التقدم في السن. إن له شاربان أسودان ينحدران من زاويتي فمه. كانت عيناه زرقاوين، ويضع نظارة. ويرتدي أوفرولاً حائل اللون عند الركبتين. بدأ ذلك الأوفرول يجفّ على ساقيه بطيئاً.

تخيلته في الزمن الماضي فرأيته في العاشرة من عمره جالساً يقرأ كتاب «الميكانيكا الشعبية». ومثلما كنت أنظر إليه، كان ينظر إلي طبعاً!

قال أخيراً: «أنت السيد مارتش، ضابط المحاسبة». كان له صوت عميق مهذب، عندما يريد ذلك.

قلت له وقد فاجأتني نبرته المريحة المفاجئة: «هذا صحيح».

«اسمي باستيشاو، نجار السفينة. بالمناسبة، ألست من شيكاغو أيضاً؟» كان باستيشاو اسماً سمعته من قبل. «ألم يكن والدك يعمل في العقارات؟ كان على صلة مع إينهورن في العشرينيات. نعم، كان هنالك شخص اسمه باستيشاو».

«عمل أبي في العقارات. كان يعمل في إنتاج المأكولات أيضاً. باستيشاو ملك الحساء والخضار!».

«كان المفتش إينهورن يدعوه باسم آخر».

«ما هو؟».

أوه... فات أوان التراجع... قلت: «كان يسميه 'الجزار الورقي'». ضحك باستيشاو. كانت أسنانه عريضة: «هذا رائع!».

تخيلوا هذا! في قلب هذه المحنة، والوحدة، والخطر، والكارثة التي تمزق القلب، يظهر أمامك فجأة شيء مألوف من بلدتك؛ ويظهر أيضاً على نحو مفاجئ هذا اللقب الذي يثير الحرج.

ما كان يحترم أباه العجوز! لم يعجبني هذا.

احترام! ماذا؟ كان واضحاً تماماً أنه يكرهه كثيراً ويسعده أن يموت. إنني مستعد لتصديق أن باستيشاو الأب طاغية، وأنه بخيل... رجل فظيع! لكنه كان والده، رغم ذلك!

في هذه الألوان المشؤومة، أو الجميلة، بحسب ما يكون في قلبك، راح البحر والسماء يدوران دورتهما المتعاقبة... ليلٌ ونهار! كان الماء اللؤلؤي يهيم من حولنا، ثم يخيّم علينا غضب الليل البهي. كانت أياماً قائظة. كنا نجلس تحت قطعة المشمّع، في هذه البقعة الصغيرة من الظل. وكانت الريح خفيفة جداً في الأيام الأولى لحسن حظنا. حاولت ضبط ذهني القلِق الذي ظل يسألني إن كنت سأرى ستيلا من جديد، أو إن كنت سأرى أمي أو أخويَّ أو إينهورن أو كليم. وضعتُ المشاعل وأسهم الإشارة قريباً مني حتى أحافظ عليها

وأحرص على بقائها جافة. هنالك فرصة غير قليلة في أن يلتقطنا أحد ما في هذه الأنحاء من المحيط. ليس الأمر سيئاً كما يمكن أن يكون لو جرفنا التيار جنوباً حيث لا تمرّ سفن كثيرة.

في تلك الحرارة المسلطة عليك، تسمع أحياناً صوت الملح في الماء، كأنه حفيف خافت... شيء يشبه صوت الثلج الهش عندما يبدأ الذوبان. كان باستيشاو يراقبني دائماً عبر زجاج تلك النظارة. وحتى عندما يغفو، كان يبدو أنه مستمر في النظر إليَّ برأسه المرتدّ إلى الخلف، منتبهاً يقظاً. لم يكن نظر ابنة العم آنا كوبلين في المرايا مُلحاً مواظباً إلى هذا الحد. كان جالساً هناك بصدره العريض الضخم. إن بنيته الجسدية تشبه الحصان، هذا الباستيشاو! يضع كفيه على ركبتيه فتبدوان مثل حافرَيْن، لا مثل كفَّيْن! لو ضربني عندما ضربته في تلك الليلة الأولى لكانت مشكلة حقيقية لي. لكننا كنا، في ذلك الوقت، أضعف بكثير من أن نستطيع القتال! يبدو عليه الآن أنه نسي الأمر كله. كان جالساً مستقراً كأنه قلعة بشرية؛ لا يمكنك أبداً أن ترى عليه أي عدم استقرار في تلك الجلسة. وكان يضحك كثيراً أيضاً. لكن أصوات ذلك الضحك كانت تمضي في فضاء البحر بينما تظل عيناه الزرقاوان الصغيرتان تنظران إليّ عبر تلك النظارة.

قال لي: «يسعدني أنني لم أمت غرقاً. ليس بعد على أي حال! أفضل أن أموت جوعاً، أو أموت هكذا تحت الشمس، أي شيء غير الغرق! هذا لأن أبي غرق في البحيرة».

«هل هذا صحيح؟»... آه، وداعاً إذن، وداعاً أيها الجزار الورقي. لم أسمع بموته إلا الآن.

«غرق في مونستروز بيتش أثناء العطلة. غالباً ما يموت الرجال المنشغلون كثيراً أيام العطل كما لو أنهم لا يجدون وقتاً للموت خلال أيام عملهم. الاسترخاء يقتلهم. لقد أصابته نوبة قلبية».

«لكني فهمت منك أنه غرق!».

«سقط في الماء وغرق! كان ذلك في الصباح الباكر. كان جالساً على الرصيف يقرأ صحيفته. فهو يستيقظ قبل الفجر دائماً. لقد اعتاد ذلك منذ أيام عمله في السوق. سقط وأصابه احتشاء قلبي بسيط، لم يكن احتشاءً قاتلاً، لكن الماء ملأ رئتيه».

اكتشفت أن باستيشاو يحب الحديث في الطب، بل يحب أي حديث علمي مهما يكن نوعه.

«وجده الحراس عندما مروا من هناك. ثم خرجت صحف المساء بقصة كاذبة. قالوا

إن مبلغاً ضخماً من المال كان في جيبه وإن خواتم ثمينة كانت في أصابعه. أغضبني هذا فذهبت إلى شارع بريسبين لكي أعبّر عن غضبي. رأيت إن ما قالوه كان معيباً، فضائحياً. ليس من حقهم أن يتاجروا بعواطف الناس على هذا النحو. ثم... هنالك أمي المسكينة أيضاً؛ لقد أصابها الذعر. جريمة قتل! لقد أجبرتُهم على طباعة تكذيب لهذا الخبر».

«أعرف فقرات التكذيب الصغيرة هذه، في الصفحة الثلاثين، مطبوعة بأحرف صغيرة».

لكن باستيشاو قال هذا باعتزاز حقيقي. «لقد وضع أفضل قبعة عند أبيه»، هكذا قال لي، «ثم أخرج سيارة الكاديلاك وحطمها. جعلها تصطدم بالجدار عمداً. وذلك لأن العجوز ما كان يسمح له باستخدامها أبداً. كان يحافظ عليها كأنها ساعة سويسرية! كانت لدى المرحوم علاقة خاصة بتحطيم الأشياء. عندما تصيبه نوبة غضب عنيف ويريد أن يحطم شيئاً، كانت السيدة باستيشاو تصيح: «آرون، الدُرْج يا آرون!» كانت في أحد أدراج المطبخ علبٌ معدنية فارغة حتى يقذفها ويدوسها عندما يغضب. ومهما بلغت شدة غضبه، كان يستخدم هذه العلب الفارغة دائماً ولا يمد يده إلى الأطباق الخزفية..

ضحك باستيشاو عندما كان يخبرني هذا، لكني كنت حزيناً على ذلك العجوز.

«لم يكن استخدام السيارة في الجنازة ممكناً لأنها محطمة، وهذا ما جعل الجنازة شيئاً يشبه جنازات الفايكينغ، شيئاً متميزاً! وبعد أن زرعناه في الأرض، كان الشيء التالي الذي فعلته...» أجفلت مقدماً عندما سمعت ذلك... «هو الانفصال عن ابنة عمي لِيْ. جعلني العجوز أخطبها انطلاقاً من أنه اعتبرني أعبث بمشاعرها. أما بعد موته، فقد صرت غير مستعد للزواج منها أبداً».

«تعبث بمشاعرها؟ ما المقصود بهذا؟».

«يقصد أنه ضبطني في الفراش معها. لكني أقسمت على أنني لن أتركه يصل إلى مبتغاه».

«لكن، ربما كنت تحبها بغض النظر عن رأي أبيك العجوز».

رماني بنظرة حادة. لم أكن أعرف شيئاً عن طبائع هذا الرجل الذي أتحدث معه الآن.

«كانت مصابة بالتدرن الرئوي. وعادة ما يكون الناس المصابون بهذا المرض سريعي التهيج. غالباً ما يكون للحرارة المرتفعة تأثير على المناطق التي تثير الشهوة الجنسية خاصة». قال هذا بنبرة من يلقي محاضرة.

«هل كانت تحبك؟».

«إن الفتيات اللواتي تكون لديهن حرارة مرتفعة يعشن حياة عاطفية أكثر شدة أيضاً. أرى من طريقة حديثك عن الحب أنك لا تعرف شيئاً عن الفيزيولوجيا أو البيولوجيا. كانت الفتاة في حاجة إلي، وهذا ما جعلها تحبني. لو كان بالقرب منها شخص غيري لأحبته أيضاً. افترض أنني لم أولد، فهل يعني هذا أنها لن تحب أحداً. ربما كنت لأتزوجها لولا تدخل العجوز. لكنه كان شديد الحماسة لذلك الزواج؛ وهذا ما جعلني ضده. ثم إنها كانت تموت. وهكذا قلت لها إنني لا أستطيع الزواج منها. لماذا أربطها بي؟».

حيوان! خنزير! ثعبان! قاتل!

لقد عجّل موتَها. ظللت برهةً غير قادر على النظر إليه.

«ماتت قبل انقضاء سنة على ذلك. صار وجهها شديد الشحوب في أيامها الأخيرة، مسكينة! لقد كانت جميلة حقاً في الأصل».

«لماذا لا تغلق فمك؟».

فوجئ بهذا فقال لي: «لماذا؟ ما الذي يزعجك؟».

«اسمع ما أقوله لك... اخرس تماماً!».

لقد حاول أن يتركني أغرق أيضاً حينما لم يساعدني.

رغم ذلك، استؤنف الكلام!... شيئاً فشيئاً. ماذا يمكن أن يحدث غير ذلك في ظل الأوضاع الحالية؟

راح باستيشاو يخبرني عن قريبة أخرى من قريباته، عن عمته، لقد نامت خمسة عشر عاماً. وبعد ذلك نهضت فجأة في أحد الأيام، ومشت في أرجاء البيت كأن شيئاً لم يحدث لها. «سقطت نائمة عندما كنت في العاشرة من عمري. ثم استيقظت عندما صرت في الخامسة والعشرين. لكنها عرَفتني على الفور. عرفتني لحظة رِأتني، بل حتى لم تبدُ عليها أي دهشة».

لا يفاجئني هذا!

«كان عمي مورت عائداً من عمله إلى البيت ذات يوم... حدث هذا في رافنسوود. هل تعرف كيف يبنون البيوت هناك؟ لقد كان ذاهباً إلى المنطقة الواقعة خلف البيت، بين بيتين. وعندما مر بجانب غرفة النوم رأى يدها تمتد لتشد الستارة. لقد عرف تلك اليد من عصبة الزواج المربوطة عليها فكاد يبول في سرواله. دخل البيت متعثراً... نعم، لقد أعدت العشاء ووضعته على الطاولة! قالت له: اذهب واغسل يديك!».

«شيء لا يصدق! هل يمكن أن يحدث هذا؟ إنها تشبه قصة الجميلة النائمة. هل هذا هو مرض النوم؟».

«لو كانت جميلة لما نامت هذه المدة كلها. تشخيصي الخاص هو أن حالتها كانت نوعاً من النوم القهري. إن أسباب هذه الحالة عقليةٌ محض. ربما يصلح هذا في أمثلة من قبيل لازاروس أو الآنسة أوشر في فيلم منزل آل أوشر، أو حالات كثيرة أخرى. إلا أن ما أصاب عمتي يوضح هذه الحالة إلى حد كبير. إنها أسرار الحياة العميقة. أعمق من هذا المحيط. تكون حالة الاستقرار المطلق أمنيةً لدى كل شخصية عُصابية. كانت عمتي حاكمةً خلال نومها. وفي جزء من عقلها كانت تعرف ما يدور من حولها! وهو ما يتضح من أنها استطاعت استئناف الحياة بعد خمسة عشر عاماً من غير أي مشكلة. كانت تعرف أماكن الأشياء، ولم تفاجئها التغيرات. كانت لديها القوة التي يحرزها من يستلقون من غير حركة».

كان لا بد لي عند ذلك من التفكير في إينهورن في كرسيه المتحرك وهو يلقي عليّ محاضرة عن القوة.

«حين تحتدم المعارك، وتطير الطائرات، وتنتج الآلات، وينتقل المال من يد لأخرى، ويصطاد أبناء الإسكيمو، ويكتسح المجرمون الشوارع... يكون الشخص المستلقي في سريره آمناً، ويستطيع أن يجعل العالم كله يأتي إليه، أو إليها. كانت حياة عمتي إيتل كلها تحضيراً لهذه الأعجوبة».

قلت: «هذا شيء مذهل بالفعل».

«إنه مذهل بالطبع. وهو شيء هائل الدلالة أيضاً. هل تذكر كيف كان شرلوك هولمز العظيم يحلل الحقائق في غرفته في شارع بيتر؟ لكن، إذا ما قورن بأخيه مايكروفت يتضح أنه لا شيء. يا لهذا المايكروفت! هذا هو الدماغ الحقيقي يا مارتش! لم يكن يغادر النادي أبداً، لكنه كان صاحب العقل الحقيقي، وكان يعرف كل شيء. وهكذا، عندما كان شرلوك يعجز عن فهم شيء ما فإنه يأتي إلى مايكروفت الذي يعطيه الإجابة. هل تعرف السبب؟ لأن مايكروفت كان أكثر من شرلوك ثباتاً واستقراراً في مكانه. كان جالساً مستقراً في موقع القوة ذاك. يجلس الملك على عرشه، أما عامة الناس فيقفون على أقدامهم! يقول باسكال إن الناس يتورطون في المتاعب لأنهم لا يستطيعون الجلوس في بيوتهم. وأما ثاني أهم شعراء إنكلترا، على أما أظن، فيشكر الله لأنه علمنا كيف نجلس ساكنين. هل تعرف تلك اللوحة الشهيرة التي فيها رحّالة عربي أو غجري غافٍ مع عوده بينما يقف الأسد محدّقاً فيه؟

لا يعني هذا أن الأسد يحترم رباطة جأشه. لا؛ بل يعني أن سكون هذا العربي يتحكم بالأسد ويضبطه. هذا هو السحر. حالة السكون، حالة الكمون، مع القوة. استمع إليّ يا مارتش...».

«من الذي كان يعتني بعمتك طيلة ذلك الوقت؟».

«امرأة بولندية اسمها وادجكا. دعني أقول إن زوج عمتي أصابه غضب شديد بعد تلك المعجزة. هذا لأنه رتب حياته كلها من حول عمتي النائمة. كانت نائمة، وكان يستمتع بجلسات لعب الورق، وبتلك الفتاة. أشفقنا عليه كلنا عندما قامت من نومها».

قلت له: «طالما أنك متعاطف معه، فلماذا لا يكون لديك شيء من التعاطف مع عمتك أيضاً؟ لقد غابت ذلك الوقت كله وضاع قسم من حياتها كأنها نفّذت حكماً بالحبس لمدة طويلة».

بدأت ابتسامة تحرك شارب باستيشاو.

قال: «تعلقت ذات مرة بتاريخ الفن. وبدلاً من التجوّل هنا وهناك خلال الصيف، مثلما كان يريد أبي أن أفعل، صرت أذهب إلى مكتبة نيوبيري العامة حيث أكون الشاب الوحيد بين ثماني أو عشر راهبات على طاولة القراءة. قرأت مرة كتاباً لجيبرتي فكان له أثر كبير علي. تحدث الكتاب عن حدّاد ألماني كان يعمل لدى دوق آنجو، وكان فناناً من مرتبة النحاتين اليونانيين العظام. وعند نهاية حياته كان مضطراً إلى الوقوف ومشاهدة أعماله الفنية تُصَهر لاستخدام المعدن في أشياء أخرى. ذهب عمله كله هباء: راح يصلي راكعاً على ركبتيه ويقول: يا إلهي، يا خالق كل شيء، لا تتركني أتبع آلهة كاذبة. ثم مضى إلى الدير... هذا الرجل المقدس... وظل فيه حتى مات».

يا للهول! ما أسوأ أن ينهار هذا العالم المتماسك عندما يكون المرء في أواخر العمر. مسكين! لكن كان له إله يعود إليه. ماذا لو لم يكن لديه إله؟ ماذا لو كانت الحقيقة أكثر هولاً وغضباً؟

«إذن فهل كان مرض عمتي إيتل سوى عملاً فنياً؟ كان عليها أن تكون مستعدة للفشل مثلما حدث لهذا الألماني المسكين. هذا ما يقصدون قوله عندما يتحدثون عن أطلال الزمن...

... أو اذهب إلى روما

التي هي اللحد!

أظن أنك تعرف شيلي...

اذهب إلى روما إذاً...

روما التي كانت فردَوْساً،

كانت قبراً ومدينة وأرضاً يباباً.

هذا يعني أن الأعمال الفنية ليست خالدة، وهذا يعني أن الجمال فانٍ. ألم يستيقظ هذا الألماني القديس في صباحات كثيرة والإلهامُ حاضر فيه والفرحة تغمر قلبه؟ ماذا يمكنك أن تطلب أكثر من هذا؟ ما كان قادراً على الجمع بين السعادة والثقة في أنه على حق فيما يتعلق بالخلود. عليك دائماً أن تغامر بافتراض أنك حين تكون سعيداً يعني أنك محق».

كنت معه في هذا القارب؛ هززت رأسي موافقاً على ما قال. صار أفضل مما كنت أراه سابقاً. إن عنده شيئاً، بعد كل حساب. لديه شيء من نبل القلب، وقد كان شخصاً طيباً بطريقة غامضة. لكن، يا لهذا المزيج العجيب!.

كان قاربنا يسير بطيئاً تحت طعنات الضوء الزجاجية ويتمايل على صفحة الماء. وفي تلك اللحظة، كان لا بد لي من تذكر كم من المرات كنت مخطئاً رغم أنني ظننت نفسي محقاً.

مخطئ من جديد.

ومخطئ من جديد.

ومن جديد أيضاً.

فكم سأبقى محقاً الآن؟

لكن ثقتي كانت كبيرة في أنني أحب ستيلا وفي أنها تحبني.

هنالك شيء آخر... ربما تنتهي قريباً هذه الأسئلة كلها عن الخطأ والصواب لأننا قد نموت.

كانت نقاط وصلبان ماسية مدوّخة تنعكس عن الماء الأزرق الذي يملأ كل شيء من حولنا. وكانت الأسماك والوحوش تقوم بعملها في ذلك الماء. بل ربما كان بعض من رجالنا الغارقين على مقربة منا... يمرون تحتنا الآن!

إنه يتحدث الآن عن عمته إيتل كأنها فنانة، ويبدو معتزاً بذلك. لم تمض عليه إلا أيام قليلة منذ أن كان لا يكاد يستطيع تحريك ساقيه، ومنذ أن أحاله الرعب إلى ما يشبه الصفر...

انظروا إليه الآن ممتطياً صهوة قدراته الذهنية، متعرقاً، مدور الرأس، جالساً جلسة ثابتة متينة.

قلت: «ما الذي يجعل شخصاً مثقفاً مثلك يعمل نجاراً في السفينة؟» طرحت أخيراً هذا السؤال الذي يحيّرني منذ بعض الوقت.

اتضح لي عند ذلك أنه كان متخصصاً في علم الأحياء، أو في الكيمياء الحيوية، أو في الفيزياء الحيوية النفسية التي كان يحبها أكثر من أي اختصاص آخر. رفضته ست جامعات نتيجة أفكاره الغريبة ولم تقبل النظر في نتائج تجاربه. لم يكن يريد أن يصبح جندي مشاة بعد هذا العِلم كله. وهكذا فضل السفر في السفينة. كانت هذه رحلته الخامسة. هكذا يستطيع متابعة عمله العلمي في البحر.

لماذا أقع دائماً بين أصحاب النظريات؟

راح يخبرني عن إنجازه العملي مبتدئاً بلمحة عن حياته:

«تعرف كيف تكون هنالك أشياء يرغب كل طفل في أن يكونها. فمثلاً، عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، كنت شديد البراعة في التزلج على الجليد وأردت أن أصبح بطلاً من أبطال التزلج. لكني فقدت اهتمامي! ثم صرت خبيراً في الطوابع. ففقدت اهتمامي بذلك أيضاً. وبعدها صرت اشتراكياً، لكن ذلك لم يستمر طويلاً. اهتممت بالعزف قليلاً، ثم تركته. تجوّلت بين اهتمامات كثيرة جداً، لكني لم أجد ما يناسبني. وعندما صرت في الكلية انتابتني رغبة كبيرة في أن أصير (أو في أن أكون) كاردينالاً من عصر النهضة. إنه الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يعجبني. كاردينالٌ شرير، مستمتع بالحياة... شخص منطلق يصرخ ويفعل ما يشاء. ياه، يا فتى! لو كنت كاردينالاً لوضعت أمي في دير للراهبات. لو كنت كاردينالاً لوضعت أبي في كيس من الخيش... ولكلفت مايكل أنجلو بأن يتجاوز كل ما أنجزه. سأكون شخصاً عفوياً، حيوياً، من غير شيء يحرجني. سأكون سعيداً كأنني إله. آه، ما الذي يستطيع المرء فعله... أيستطيع أن يفرض على الحياة آراءه؟ يحب كل شخص أن يكون رجلاً من النوع الأكثر نجاحاً.

وكيف بدأ الأمر كله؟ لا بأس، عد إلى الوقت الذي كنت فيه طفلاً في المسبح البلدي. ألفُ شقيّ عارٍ صغير يزعقون جميعاً ويتدافعون ويرفسون. يصفر المنقذون ويصيحون بك ويعاقبونك، وينخزك رجال الشرطة بأصابعهم بين أضلاعك ويقولون إنك لا تزال صغيراً... لا تزال فأراً ضئيلاً مرتعداً، أزرق الشفتين، وجِلاً، خائفاً... بخصيتين صغيرتين متقلصتين، وقضيب منكمش. طفل نحيل. الأطفال كثيرون من حولك. وأنت لا شيء.

أنت اسم لا معنى له... لست مجرد لا شيء في عالم الأبدية، بل أنت لا شيء الآن أيضاً. قدَرُك قدر أقل الناس شأناً: الموت! لكن لا، لا بد أن يكون هنالك شيء من التميز. تصرخ الروح رافضة حالة انعدام الاسم هذه. ثم تبدأ المبالغة. تقول لك: أنت مقدّر لك أن تدهش العالم. أنت يا هايمي باستيشاو! تماسك أيها الصبي! هنالك نداء يدعوك، وسوف تكون مختاراً. ابدأ البحث عن دورك. سوف تُجلّك أجيال بني البشر على طول الزمان! هذه حالة عصابية، أعرف... لا تؤاخذني على استخدام كلمات تخصصية... لكن، إذا لم تكن عصابياً فأنت متأقلم مع ما يطلقون عليه اسم حالة الأمر الواقع. لكن حالة الأمر الواقع هي ما كنت أصفه قبل قليل. مليون من الأرواح التي تغلي غضباً لأن مصيرها حَكم عليها بأن تكون من غير شأن. الأمر الواقع هو هذه الآمال السرية وهذا التلفيق الذي تبتدعه المخيلة. الآمال... هي الشرور التي لا مهرب منها، الشرور التي تأتيك من صندوق العجائب. إنها نوعٌ من تأكيد وجود مصيرٍ يستحق المعاناة. بكلمات أخرى، هي الرغبة في أن تكون مصبوباً في قالب الرجولة الحقيقي. لكن، من عساه يكون مصبوباً في هذا القالب؟ لا يعرف أحد هذا.

فعلت كل ما أستطيع حتى أجسد كاردينال عصر النهضة، بقدر ما يستطيعه المرء في ظل شروط حياتنا الحديثة هذه.

وبعد جهود كثيرة بذلتها حتى أكون على مستوى ذلك المثل المجيد، جاء التعب، وسُقام الأمل، والضجر. عانيت ضجراً هائلاً. رأيت الآخرين يعيشون ذلك الضجر أيضاً؛ ذلك ما ينكره كثير من الناس، بالمناسبة، ينكرون أنه شيء موجود. قررت أخيراً أن أجعل الضجر موضوع دراستي. قررت أن أدرس الضجر. قررت أن أصبح مرجعية العالم الأولى في الضجر. كان ذلك يوماً مشهوداً في حياة البشرية يا مارتش. أيُّ ميدان!... وأيُّ حقل!... هائل!... شيء لم يسبقك إليه أحد. أذكر ما حدث قبل ذلك القرار. جاءني إلهام. عجزت عن النوم. صارت الأفكار تأتيني ليلاً فأدوّنها... كتبت مجلدات من تلك الأفكار. غريب ألّا يكون أحد قد درس الضجر دراسة منهجية. أوه، لقد درسوا الكآبة، نعم، لكنها تختلف عن الضجر.

أجريتُ بحثاً مطوّلاً في الأعمال الأدبية وفي كتابات المفكرين المعاصرين. كانت الاستنتاجات الأولى واضحة. يبدأ الضجر بجهد ضائع. إن لديك نواقص كثيرة، وأنت لست كما يجب أن تكون! الضجر هو اقتناعك بأنك لا تستطيع التغيّر. تبدأ القلق لأن هنالك نقصاً في التنوع في شخصيتك، ولأنك تقارن نفسك مع الآخرين في سرّك فلا تستطيع الخروج بنتيجة تعجبك! هذا ما يجعلك تحس تعباً داخلياً. أما في الجانب الاجتماعي من شخصيتك فإن الضجر هو الشكل الذي تظهر فيه سلطة المجتمع عليك. كلما ازداد

المجتمع قوة كلما كان متوقعاً منك أن تظل مستعداً لأداء واجباتك الاجتماعية؛ وكلما كنت مستعداً أكثر، كلما تضاءل شأنك. تستطيع التأقلم خلال أيام العمل من خلال عملك نفسه. أما يوم العطلة، فكيف تتأقلم؟ يوم الأحد الفظيع... الخالي من كل شيء إنساني. في يوم الأحد، تكون وحيداً... حراً! حراً من ماذا؟ تكون حراً لأن تكتشف ما في قلبك، لكي تكتشف شعورك تجاه زوجتك وأطفالك وأصدقاءك وأوقات فراغك. إن روح الإنسان، الروح المستعبدة، تنتحب في صمت الضجر... ذلك الخصم المرير. بالتالي، يمكن أن ينشأ الضجر عن توقف الوظائف المعتادة حتى إن كانت وظائف هي نفسها مضجرة. وهو أيضاً صراخ القدرات غير المستخدمة، قدرُها في ألا تكون موظَّفة من أجل غاية عظمى، في ألّا تكون مساهمة في قوة كبرى. هو الطاعة التي لا تُعطى عن طيب خاطر لأن أحداً لا يعرف كيف يطلبها. التناغم الذي لم يتحقق. هذا ما يكمن خلف الضجر. لكنك ترى الآفاق التي لا نهاية لها في هذا البحث!».

هل كنت أراها؟ أحسست أنني مخدَّر! كنت أراه يتسلق جبال عقله مثلما يفعل متسلقو جبال الألب... يتسلقها قوياً واثقاً بنظارته الهادئة وإيماءات التأكيد من عينيه الزرقاوين.

تابع: «أردت أن أتناول الأمر بطريقة علمية فكان موضوعي الأول دراسة فيزيولوجيا الضجر. نظرت في تجارب التعب العضلي التي أجراها جاكوبسون وغيره، وهذا ما قادني إلى الكيمياء الحيوية. أنهيت شهادة الماجستير في زمن قياسي؛ كانت في كيمياء الخلية. إبقاء أنسجة مأخوذة من الفئران حيةً في أنبوب الاختبار بطريقة هاريسون التي طورها كاريل من بعده. وهذا ما قادني إلى دراسة فون ويتشتاين وليو لويب، وهكذا دواليك. كيف يحدث أن تنشد هذه الخلايا البسيطة الخلود بينما تصاب العضوية المعقدة بالضجر؟ إن لدى الخلايا إرادة الإصرار على الوجود موجودةً في جوهرها...».

وهنا أتت بضعة مصطلحات تصنف تلك الخلايا، لكن معرفتي بالكيمياء الفيزيائية لا تسمح لي بتذكرها وتكرارها... حركة الأنزيمات، وأشياء من هذا النوع! إلا أن زبدة هذا كله هي أنه اكتشف بعضاً من أسرار الحياة عندما كان يدرس الحركة المتهيجة لهيولى الخلية. قال: «إنني واثق من أنك ستجد من الصعب عليك تصديق ما حدث بعد ذلك. لم يصدقه أحد!».

«أظنك لم تتوصل إلى خلق الحياة نفسها!».

«بكل تواضع، هذا ما توصلت إليه تماماً. قذفت بي ست جامعات خارج أبوابها لأنني زعمت هذا».

«كيف؟ هذا جنون! هل أنت واثق مما توصلت إليه؟».

قال بطريقة متصنعة: «إنني شخص جاد. وجودي كله جاد إلى حد كبير. لا أريد تعريض سلامة عقلي للخطر من خلال مزاعم مجنونة لا أساس لها. توصلت إلى النتائج نفسها مرة بعد مرة... حصلت على البروتوبلازما».

«لا بد أنك عبقري».

لم يكلف نفسه عناء إنكار ذلك.

من الأفضل أن يكون شخصاً عبقرياً. وإلّا فإنني في قارب في البحر مع شخص مهووس.

قال: «توصلت إلى هذا مصادفة... لستُ إلهاً».

«لكن، ألم يستطيعوا رؤية أنك توصلت إلى ذلك؟».

«لم أستطع جعلهم ينظرون حتى يروا. ثم إن الخلايا الأولى التي صنعتها كانت مفتقدة إلى قدرتين من قدرات الحياة، التكاثر وتجديد الذات... كانت أشكالاً سريعة العطب غير قادرة على التوالد. لكني قمت خلال السنتين الأخيرتين بدراسة خاصة في المنظّمات البيولوجية. درست علم الجنين، وتوصلت إلى مزيد من الاكتشافات».

كان في حاجة إلى رشفة ماء لأنه ظل يتكلم حتى جف فمه. كان ضخم الرأس، ضخم الصدر، قوي البنية، هادئاً... كأنه نموذج ضخم لأفضل القدرات، من جميع النواحي. كأنه واحد من علب تلك المومياءات المصرية التي تتبع بدقة شكل الجسد الذي في داخلها. كما أن شبَهَه بالحصان ظل مستمراً... بقوة كبيرة.

«لكنك لم تشرح لي بعد ما يجعل رجلاً في مثل قدراتك يعمل نجاراً في ماكمانوس».

«إنني أواصل تجاربي».

«هل تقصد القول إن بعض تلك البروتوبلازما كان على متن السفينة؟».

«في حقيقة الأمر، نعم كانت موجودة في السفينة».

«وهل هي سابحة في المحيط الآن؟».

«إنني واثق من هذا».

«وما الذي سيحدث؟».

«لست أدري. إن هذه الخلايا من أحدث الأشكال التي توصلت إليها؛ تقدم كبير بالمقارنة مع النماذج الأولى، النماذج الفانية».

«وماذا لو بدأت سلسلةٌ جديدة من ارتقاء الكائنات؟».

«بالضبط! ماذا لو حدث هذا؟».

قلت شاعراً بغضب شديد: «قد يكون شيئاً مخيفاً. اللعنة عليكم... أنتم تعبثون بالطبيعة من غير اهتمام! سوف يضرم أحد النار في الغلاف الجوي ذات يوم، أو يقتلنا جميعاً بالغاز».

لم يعترض... بل أقرَّ بأن هذا ليس شيئاً مستحيل الحدوث!

سألته: «لماذا يجب أن تكون في يد إنسان واحد القدرة على إلحاق الضرر بالطبيعة أو على تلويث العالم كله؟».

قال: «لا أظن أن هنالك فرصة كبيرة لحدوث ذلك». صمتَ بعد هذه الكلمات، بل غرق في أفكار مسحورة.

غالباً ما كان تفكير باستيشاو يبدو لي متجاوزاً قدراتي العقلية... يكون في مزاج غريب فتراه يدلي بملاحظاته، عابساً لكنه يجد لنفسه تسلية في ذلك أيضاً. جعلني هذا أتساءل عما كان يعتزم فعله حقاً. لا يزال يراقبني من زاوية عينه عندما ينام، ولا يزال يتابع كل حركة من حركاتي... كنت أراه أحياناً جالساً في مكانه، ثقيلاً كأنه قطعة نحاس مصبوب. صرت في قلق متزايد!

مر يومان من غير أن يقول كلمة واحدة. كان هذا شيئاً غريباً... لأنه كان لا يستطيع التوقف عن الكلام في البداية، ثم عزل نفسه تماماً. يحدثني عن الضجر، ماذا؟ لقد بدأت أحس أنني متيبس كأنني صرت جزءاً من هذا القارب. لكني لمت نفسي أيضاً. قلت لنفسي: «ليس لديك إلا هذا الشخص وحده؛ روح واحدة تستطيع التعامل معها... ما مشكلتك؟ ألا تستطيع أن تفعل شيئاً أفضل؟ ليست روحه شديدة الاختلاف عن روحك... مثلما يكون أسدٌ شبيهاً بباقي الأسود كلها في حقيقة الأمر. لا أحد هنا إلا نحن الاثنين، ولا بد من وجود شيء يقال. إنك لا تتصرف جيداً... إذا أردت أن تسمع الحقيقة!».

في الليل، جاءني حلم شديد الغرابة عندما كنت نائماً في القارب: رأيت امرأة خرقاء المشية، في حذاء رياضي، كانت عجوزاً فطساء الأنف، تتسول وتطلب مني أن أعطيها مالاً. سخرت منها: «لماذا أيتها الطمّاعة العجوز؟ أستطيع سماع صوت علب البيرة تقرقع في الكيس الذي معك!» أجابتني: «لا، ليس علب بيرة. إنها الممسحة والمادة التي أستخدمها

لتنظيف النوافذ. بحق الرب، لماذا يكون علي أن أنظف خمساً وأربعين نافذة كل يوم من أيام حياتي؟ أعطني شيئاً من فضلك». قلت: «لا بأس، لا بأس»، ثم صرت مبتسماً، كبير القلب. كانت رؤية تلك البقعة من شيكاغو مرة أخرى شيء جعلني أشعر بقدر من الارتياح. وضعت يدي في جيبي. كنت أريد إعطاءها قروشاً قليلة. لست بخيلاً في الواقع، لكني شبه مفلس، إن أردتم الحقيقة. لكني فوجئت بأنني أعطيتها قطعة نقدية معدنية من كل فئة من الفئات بدلاً من إعطائها ما يكفي لشراء علبة من البيرة: نصف دولار، وربع دولار، وعشرة سنتات، وخمسة سنتات، وسنت واحد. اصطفت هذه القطع في كفي... واحد وتسعون سنتاً، فأسقطتها في كفها. لكني أسفت على ذلك في اللحظة نفسها، لأنني أعطيتها الكثير. لكني بدأت أحس بأنني صرت نظيفاً، وبأنني صرت فخوراً بنفسي! تلك المرأة البشعة... شكرتني! كانت تشبه قزماً، وكانت لها مؤخرة عريضة. قلت لها: «لا بأس، ها قد تخلصت من بعض تلك النوافذ. ليست لدي نافذة أستطيع أن أقول إنها نافذتي أنا». قالت بطريقة دافئة: «هيا، دعني أدعوك إلى كأس من البيرة». أجبتها: «لا، شكراً يا أمي. يجب أن أذهب. أشكرك على أي حال». أحسست بشيء لطيف في أعماق صدري. ولمستها، بحركة لطيفة أيضاً، على قمة رأسها فسرت في جسدي نشوة عظيمة. قلت لها: «ماذا، أيها العجوز؟ إن لديك شعر ملاك!» قالت بعذوبة: «لماذا لا يكون لديّ هذا الشعر مثلما يكون عند بنات البشر جميعاً؟».

ملأت صدري مفاجآت عاصفة وانفجارات من السعادة.

قالت منظفة النوافذ القزمة: «فليهدِك الرب إلى طريق الحق!» ثم مضت صوب الظل، صوب برودة الحانة المنعشة.

أطلقت زفرة طويلة ثم استيقظت من غير رغبة. كانت النجوم قلقة في السماء كأن بها حُمى. وكان باستيشاو نائماً وهو جالس. أسفت لأنه لم يكن مستيقظاً... لأنني لم أكن قادراً على الحديث معه الآن.

لكن ما حدث في اليوم التالي كان معركة ولم يكن كلاماً أخوياً من القلب إلى القلب.

زعم باستيشاو أننا لا بد أن نكون قريبين من الأرض؛ وقال إنه رأى طيوراً برية وأعشاباً بحرية وأغصاناً عائمة. لم أصدقه. قال أيضاً إن لون الماء بدأ يتغير وإنه صار أقرب إلى اللون الأخضر المصفر. لم يبدُ لي أن لون الماء قد تغير. كان يحاول ممارسة سلطته العلمية عليّ. وذلك لأنه، بعد كل حساب، شخص عالم: لقد نظر في الخرائط ودرس التيارات البحرية وأجرى حساباته وراقب العلامات كلها؛ وهذا يعني أنه الذي يعرف. لكن سبب

مقاومتي الاقتناع بما قاله هو إنني خشيت الإفراط في الفرح لأن هذا سيؤدي إلى زيادة ثقل الخيبة إذا اتضح أنه مخطئ.

لكن المشاكل لم تبدأ إلى أن ظننت أنني رأيت سفينة في الأفق الغربي. بدأت الصراخ والقفز والتلويح بقميصي. أصابني ما يشبه الحمى. ثم اندفعت إلى أحد مشاعل الدخان لأضعه في الماء. كنت قد اعتنيت بمعدات الإشارة وقرأت تعليمات استخدامها خمسين مرة. وهكذا بدأت تحضير ذلك البرميل بيدين متعرقتين وبأصابع جعلتها الإثارة الشديدة شبه مشلولة.

عند ذلك قال باستيشاو بذلك الصوت الهادئ الذي تخصص فيه، فجعلني ذلك الصوت أشك في أنني سمعت ما قاله على نحو صحيح: «لماذا تريد إرسال إشارات؟».

اللعنة! لعل هذا الرجل لا يريد أن ينقذه أحد. أيريد أن يفوّت فرصة إنقاذنا.

أوليته ظهري وأنزلت البرميل الصغير إلى الماء. بدأ الدخان الأسود يعلو على خلفية لون الهواء النقي. تابعت التلويح بقميصي. كنت أشعر تقريباً بذراعَيْ ستيلا تنزلقان حول خصري وبوجهها يلمس كتفي. أما قلبي فقد امتلأ في الوقت نفسه غضباً قاتلاً تجاه هذا المجنون باستيشاو الذي ظل جالساً في مؤخرة الزورق عاقداً ذراعيه على صدره. كانت رؤيته ساكناً هكذا تبعث الجنون في رأسي.

لكن اتضح لي أن ما من شيء في الأفق، وكان لا بد لي من الاقتناع بأن خيالي قد خدعني. أصابني ارتباك عميق وأحسست بالإرهاق والضعف للمرة الأولى، بعد أن طارت لمحة الأمل... هذا ما كنت خائفاً منه... غمرتني الظلمة.

كسا جلدي عرق واهن. قال لي: «يؤسفني إخبارك بأنك كنت تهلوس».

«ماذا تقول أيها التافه الأعمى؟ إن هنالك سفينة... عند الأفق!».

قال: «بهذه النظارة، أرى بوضوح شديد... عشرة على عشرة». كان هذا النوع من الحذلقة هو ما يجعلني أمقته مقتاً شديداً.

«أنت، أيها الأحمق صاحب العيون الأربعة... ما الذي يجعلك راغباً في التشاؤم هكذا؟ هل تعتقد أن لديك بوصلة في عقلك؟ قد تظن أنك تعرف طريقك في البحر، لكن لا تتوقع مني أن أكون واثقاً بذلك مثلك. لن أسمح بضياع أي فرصة».

«هون عليك، هون عليك الآن! لست أتشاءم. لقد نظرت جيداً إلى ما حولنا قبل أن ننام. وأنا أعرف أننا قريبون من البر. يجب أن نكون قريبين لأننا ذاهبان في اتجاه الشرق تماماً.

سوف نبلغ أرضاً إسبانية، وسوف نُعتقل هناك. لا تكن غبياً أحمق! ألم تنل كفايتك من الحرب؟ لولا حظك الطيب لاحترقت حياً أو صرت طعاماً لأسماك القرش. أما الآن...» قال هذا وقد صار صوته عنيفاً... «اصغ إليَّ جيداً! لا أريد أن أكرر هذا الكلام. كنت أفكر في الأمر؛ وأظن أن الحظ واقف في صفنا. سوف أصل إلى جزر كناري، وسوف أُعتقل هناك. سأظل هناك حتى تنتهي الحرب. وسأتابع أبحاثي. سأنجز ما لم يسمحوا لي بإنجازه في بلدنا رغم أنني ذهبت إلى واشنطن معترضاً على تلك الجامعات. إن لديَّ مالاً كثيراً في الولايات المتحدة. ترك لي أبي قرابة مئة ألف دولار، وهذا يعني أننا نستطيع أن نعمل هنا. سوف أعلّمك. أنت شخص ذكي حقاً. رغم أن لديك أفكاراً كثيرة عوجاء عن نفسك. ستعرف خلال سنة واحدة أكثر مما يعرفه من يحمل شهادة دكتوراه في الكيمياء الحيوية. فكر في الفرصة المتاحة لك. ستفهم سر مولد الحياة، وستكون عارفاً بأعمق الأسرار. ستكون أكثر حكمة من أبي الهول. ستنظر إلى لغز الكون وستدرك أنك تفهمه».

مضى في هذه الخطبة. فزعت، وأصابني الذعر... لا لهذا الدماغ العاصف فحسب بل لأنني لمحت من جديد تلك الإشارة التي ولدت تحتها... أن أكون تابعاً، عنصراً منضوياً ضمن خطة شخص آخر!

«أقول لك إن هذه فرصة عظيمة لا لكي تصبح شخصاً بارزاً فحسب بل لأنك ستحوز قدرات ذهنية من أعلى مستوى وسيكون لك يد في تقديم مساهمة تاريخية من أجل سعادة بني البشر. هذه التجارب على الخلايا، يا مارتش، ستقدم المفتاح لمعرفة أصل الضجر في العضويات العليا. مفتاح فهم ما كانوا يطلقون عليه اسم «خطيئة الملل». كان القدامى محقين لأن هذه خطيئة فعلاً. العمى تجاه الحياة، والانكفاء، وعدم القدرة على التلقي. وجدار بليد من اللحم والدم الغارق في قلقه، المبالغ في حماية نفسه... كائن لا يدرك إتقان ما صنعه الرب، أو ما صنعته الطبيعة، ولا يحس بما في هذه الصنعة من جمال. مارتش! عند التحرر من هذا الضجر سيكون كل إنسان شاعراً. وستكون كل امرأة قديسة. سيملأ الحب العالم، سيزول الظلم والعبودية والقسوة وسفك الدماء. ستصبح هذه أشياء من الماضي؛ وعندما يرى البشر أهوال الماضي هذه سيجلسون ويبكون عند التذكر، عند تذكر الدم وحياة البداوة المخيفة. سيبكون عندما يتذكرون عدم الفهم، وعندما يتذكرون حالات الغضب القاتل ومذابح الأبرياء. سوف تذوب قلوبهم في صدورهم عند رؤية هذا الماضي. وعند ذلك تبدأ أخوة بشرية جديدة. ستصبح السجون ومستشفيات المجانين متاحفاً. وعلى غرار أهرامات مصر وخرائب المايا، سوف تبقى هذه المتاحف لتذكرنا بالتطور الضخم للعبقرية البشرية. ستتجلى الحرية الحقيقية نفسها، حرية غير قائمة على

السياسة وعلى الثورات، حرية لا تزول أبداً لأنها ليست منحة بل عاطفة أصيلة في الإنسان الذي لا يصيبه الضجر. مارتش، هذا ما ستفضي إليه تجاربي. سوف أخلق مصلاً جديداً... مصلٌ كأنه نهر الأردن من جديد! وسوف أكون مثل موسى. أما أنت فسوف تكون مثل هارون وسوف نقود البشرية كلها عبر هذا النهر. هذا ما يجعلني لا أريد العودة إلى الولايات المتحدة».

أصابني اضطراب كبير... اختنقت. كان الهواء نفسه الذي فوقي كأنه آت من نبوءة. أما برميل الدخان فكان ماضياً في إطلاق دخانه الأسود. كان باستيشاو ينظر إليه كأنه عدو.

«لن أفوّت أي فرصة لإنقاذي. لا أريد أن أُعتقل. إنني متزوج منذ فترة وجيزة. وهذا يعني أنني أرفض ما تعرضه عليَّ حتى لو كنت واثقاً من أنك تعرف ما تقول».

«أتظنني لا أعرف ما أقول؟».

كان عليَّ أن أجيبه بلباقةٍ أكبر. أدركت أن الأمر مثلما فهمته تماماً.

قال لي: «إنني أعرض عليك درباً عظيمة في الحياة، درباً تستحق المخاطرة».

«إن لديّ دربي».

قال: «حقاً؟».

«نعم! وأنا لا أريد فعل أشياء من أجل بني البشر جميعاً. لا أريد فعل أي شيء من أجل البشرية. ولا أريد العبث بحياة أي شخص غيري. لن يصبح أحد شاعراً أو قديساً لأني، أو لأنك، عبثت به. عندما تفكر في الأمر جيداً ترى أنني لقيت ما يكفيني من معاناة حتى أصير ما عليه أنا الآن، بفعل الطبيعة وحدها. لا أريد الذهاب إلى جزر كناري معك. فقط أريد زوجتي». ظل جالساً طاوياً ذراعيه على صدره. وكان وجهه خاوياً من أي تعبير. بينما واصل البرميل إطلاق دوائره الدخانية الحريرية المزيتة في سماء البحر الصافية ذاك الصباح. كان احمرار الأفق وقت الفجر لا يزال معلقاً عند الحافة الواصلة بين الماء والسماء في جهة الشرق. تابعت النظر إلى الأفق.

قال لي: «أؤكد لك أنني لا أعتبر إجابتك تافهة. أظنها إجابة صادقة، لكنها قاصرة. إن في الحياة أموراً أسمى. وأنا على ثقة من أنك ستوافقني الرأي في وقت لاحق بعد أن نعمل معاً ونتناقش في جزر الكناري. أظن أنها جزر ساحرة».

قلت: «ربما نكون على مسافة مئات الأميال إلى الشمال من جزر الكناري، أو إلى الجنوب منها، وقد لا نراها أبداً. أنت تريد إقناعي بأنك عالم عظيم يستطيع معرفة

الاتجاهات في البحر بقوة العقل وحدها. لا بأس، تابع ذلك. لكني سأعمل كل ما أستطيع حتى يتم إنقاذي».

«أنا مقتنع بأن من الممكن أن نرى البر في أي لحظة، فلماذا لا تطفئ هذا البرميل؟».

صحت: «لا، لن أفعل ذلك! لن أفعل، هذا قراري النهائي!» إنه رجل مجنون حقاً. لكني، حتى في تلك اللحظة، حتى في غمرة غضبي، فكرت في أنه قد يكون شخصاً عبقرياً أيضاً. فكرت في أنني قد لا أمتلك الإيمان الكافي بهذه العبقرية.

قال بهدوء: «لا بأس».

استدرت لأنظر في الأفق جيداً، وفجأة أصابتني ضربة ثقيلة فرمتني أرضاً. لقد ضربني بالمجذاف! كان موشكاً على ضربي من جديد، بحافة المجذاف هذه المرة بعد أن ضربني بصفحته. أهذا من يزعم أنه موسى، وأنه المسيح الذي سينقذ البشر؟ نهض على ساقيه الثقيلتين. كانت على وجهه نظرة من يقوم بمهمة، لا نظرة شخص متعطش للقتل حقاً. حاولت التدحرج لأتفادى الضربة. صحت به: «بحق الرب، لا تقتلني». وعندها اندفعت صوبه، وعندما لسمته يداي أحسست بأنني سأقتله إن استطعت... بلغ بي الغضب ذلك الحد! أردت أن أخنقه. رمى المجذاف والتفت ذراعاه حول أضلاعي. لم أعد قادراً على استخدام ذراعيَّ بعد أن أمسكني بهذه الطريقة. بدأت أتلوّى وأرفس بينما راح يزيد الضغط على صدري إلى أن صرت غير قادر على التنفس.

إنه مهووس!

إنه قاتل!

مخلوقان أرضيان معتوهان يتقاتلان فوق صفحة الماء الفسيحة، يتقاتلان متواجهَيْن ويبذلان كل ما لديهما من قوة. لو كنت قادراً لقتلته بالتأكيد. لكنه كان أقوى مني. ألقى بوزنه الضخم فوقي، كان ثقيلاً كالنحاس فسقطت على المقعد واصطدم وجهي بقعر الزورق.

حسبت أنني سأموت.

إن قوى الكون تستعيدني الآن مثلما أرسلتني إلى هذه الحياة.

الموت!

لكنه ما كان يريد قتلي. بدأ يمزّق ملابسي ليقيّدني بها. لف قميصي فجعله حبلاً ربط

به رسغي ثم قيد ساقي ببنطلوني. ثم مزق قميصي الداخلي ليمسح به الدم عن وجهي وليجفف عرق وجهه أيضاً. أتى بالحبل الذي على الزورق أيضاً فعزز به وثاقي.

أغرقَ برميل الدخان بعد ذلك، ثم نصب المجذاف من جديد ووضع عليه قطعة المشمع وجلس ينظر صوب الشرق حيث كان واثقاً من أنه سيرى البر. أما أنا فرقدت عارياً، لاهثاً، مستلقياً على جانبي مثلما تركني.

حملني بعد وقت ووضعني تحت المشمع لأن الشمس كان حارقة. أجفلت عندما مسَّتني يداه وانكمشت فسألني: «أهنالك شيء مكسور؟»... سألني مثلما يسأل الطبيب ثم تحسَّس جسدي... أضلاعي وكتفي. شتمته، وظللت أشتمه حتى جف فمي.

أطعمني عندما جاء وقت الطعام، وقال لي: «من الأفضل أن تخبرني عندما تريد قضاء حاجة وإلا فستكون تلك مشكلة».

قلت له: «إذا حللت وثاقي، أقسم لك أنني لن أحاول إرسال أي إشارات».

«لا أستطيع المغامرة، الأمر في غاية الأهمية».

كان يدلك ذراعي وساقي من حين لآخر حتى ينشط جريان الدم في أطرافي.

بدأت أتوسل إليه الآن. قلت له: «سوف تصيبني الغنغرينا».

لن يفك وثاقي... هكذا قال لي! ثم قال لي أيضاً إننا سنبلغ هذه الجزر السعيدة سريعاً. وفي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم أعلن أنه يشم رائحة نسيم البر. قال أيضاً: «يزداد الجو حرارة»، ثم بدأ يظلل عينيه بكفه. استلقى عندما جاء المساء. استلقى متثاقلاً؛ أما أنا فرحت أنظر إليه متمنياً أن يصيبه كل سوء... رأيته يمد ساقيه الثقيلتين الضخمتين، ورأيت ذلك الوعاء الممتلئ أفكاراً لا تعرف التعب، الوعاء الذي صدرت منه الأوامر بإلقائي أرضاً وشد وثاقي وتركي مقيداً طيلة الليل. الوعاء الذي قد يأمره بما هو أسوأ من ذلك أيضاً.

جاء ضوء القمر، وهبطت علينا رطوبة شديدة. وظل القارب يزحف وئيداً... لا يكاد يتحرك فوق الماء. آلمني رسغاي لكثرة محاولتي تحرير يديّ؛ ثم فكرت في أنني قد أستطيع الزحف والوصول إلى الصندوق المعدني لكي أستخدم زاويته في حز الحبل وتحرير نفسي. انقلبت على ظهري وبدأت أتحرك صوب الصندوق مستخدماً عقبي قدمي لأدفع نفسي. لم يستيقظ باستيشاو. كان مستلقياً مثل علبة المومياء الملونة الضخمة، كانت قدماه مسترخيتين ورأسه مثل صخرة.

سبَّبت ضربته على ظهري جرحاً مؤلماً. لكنني كنت أزحف على ظهري فأسحج الجرح.

عضضت على شفتيَّ بأسناني. لكن ذلك لم يفدني كثيراً. أصابني غم شديد ورحت أبكي! في داخلي... حتى لا أوقظه!

لم أتمكن من بلوغ الصندوق والبدء في تحرير يدي إلا عند منتصف الليل. لكن القميص تمزق أخيراً وفككت الحبل بعد أن نقعته في الماء حتى يرتخي. تحررت آخر الأمر. جلست مقرفصاً ولعقت رسغيَّ المتسلخين. كان ظهري كله ملتهباً من تلك الضربة، لكن كان هنالك مكان بارد في جسدي... هناك، حيث ظلت في قلبي رغبة في قتل باستيشاو. زحفت مقترباً منه. لم أقف لأنه يمكن أن يستيقظ فجأة فيراني منتصب القامة في ضوء القمر. كان علي الآن أن أختار بين دفعه حتى يسقط في الماء أو ضربه بالمجذاف مثلما ضربني... ضربه وكسر عظامه ورؤية دمه.

قررت، كخطوة أولى، أن أربطه وأنزع عنه نظارته. سنرى ما سيكون عليه بعد ذلك.

وقفت متجهاً نحوه والرغبة في الثأر تعصف بي... وقفت حاملاً ذلك الحبل، ثم أحسست بحرارة متصاعدة منه. لمست خده برفق، كانت الحمى تحرقه. أصغيتُ إلى دقات قلبه فسمعت شيئاً يشبه ضرب المدافع... صوتاً مجوفاً مخيفاً.

زالت مني رغبة الانتقام. بل رحت أعتني به في حقيقة الأمر! اقتطعت قسماً من المشمع فصنعت منه رداء لي بعد أن صارت ملابسي مزقاً. ثم جلست إلى جانبه بقية الليلة. أحسست بأسف وشفقة عليه أيضاً. أدركت مدى بؤسه، أو مدى محاولته أن يكون بائساً حتى يصبح رجلاً جديراً بأفكاره. ألم يكن يحاول ذلك؟... ألم يكن يريد الوصول إلى الخلاص وإنقاذ البشرية كلها من المعاناة؟ كان عقله سائراً صوب تلك الغاية أكثر من قلبه.

ظل فاقد الوعي طيلة اليوم التالي. كانت تلك نهايته لو لم ألمح سفينة بريطانية في آخر ذلك النهار. أرسلت إشارات الدخان من جديد. لولا ذلك لكانت نهايتي أيضاً لأنني عرفت أننا كنا بعيدين كثيراً عن جزر كناري... كنا قبالة ساقية الذهب تقريباً. هذا العالم باستيشاو! نعم، لقد كان أبلهاً! لو بقينا في الزورق لتعفنّا في ذلك البحر الأفريقي، ولتعفن الزورق أيضاً... ما كان أمامنا إلا الموت والأفكار المجنونة حتى اللحظة الأخيرة. أو لعله كان يمكن أن يقتلني ويأكلني ويظل، في الوقت نفسه، هادئاً منطقياً تماماً، ماضياً إلى هدفه!

سحبونا إلى ظهر السفينة. كنا في حالة سيئة. وكانت مدينة نيبلز في فلوريدا وجهة تلك السفينة الكسيحة. وهناك، وضعتنا السلطات في مَشفى. مضت أسابيع قبل أن أقف على قدميَّ من جديد، فالتقيت باستيشاو في الممر عندما كنت ذاهباً إلى الحمام. كان قادماً بخطوات بطيئة. بدا كأنه قد عاد إلى طبيعته من جديد... واثقاً معتزاً بنفسه. لكنه قرر أن

يكون لطيفاً معي. أدركت أنه يلومني على إفساد خطته الكبرى. سيكون عليه الآن أن يركب البحر من جديد. لن يستطيع الذهاب إلى جزر كناري. ما كان تأجيل أبحاثه أمراً هيناً... أبحاث شديدة الأهمية لبقاء البشرية ذاتها!

قلت له من غير مواربة... لازلت غاضباً بسبب ما كان يمكن أن يحدث: «هل تدرك أنك أخطأت، أيها الملاح العظيم؟ لو أصغيت لك لما رأيت زوجتي مرة أخرى».

استمع إلى ما قلته ثم نظر إلي نظرة استصغار وقال: «الآن صارت قدرة الفرد على الفعل باستخدام عقله من أجل قضية البشرية أقل من أي وقت مضى».

قلت: «هيا إذن! أنقذ البشرية! لكن، لا تنس أنك لو تابعت مسارك ذاك لكنت ميتاً الآن».

لم يتكلم معي بعد ذلك؛ لكني لم أكن مبالياً بذلك. صار أحدنا يتجنب الآخر في الممر. لم أعد أفكر في أي أنسان غير ستيلا.

مرت ستة شهور قبل أن أرى نيويورك من جديد لأنهم كانوا يجدون دائماً أسباباً تجعلهم يطيلون احتجازي في تلك المستشفى.

كانت ليلة من ليالي أيلول عندما نزلت من سيارة التاكسي أمام باب ستيلا الذي هو الآن بابي أيضاً. جاءت راكضة صوبي.

الفصل السادس والعشرون

إن عدت وبدأت حياة سعيدة هانئة، فأظن أن قلة صغيرة من الناس يحق لها أن تشتكي من أنني لم أكن مستعداً بعد أو من أنني لم أسدد الثمن اللازم، الثمن الذي وضعه من يحدد الأثمان، كائناً من يكون! على الأقل، سيكون أشخاص، مثل ذلك القوزاقي المحطَّم الذي عرفته في الجبال المكسيكية، وغيره، أن يوافق على أن الفرج كان يقترب مني. لكن الفرج ليس مقدَّراً لي، تقريباً. قد أكون مغالياً في ما أطلبه.

قلت عندما بدأت كتابة هذه المذكرات إنني سأكون بسيطاً وإنني سأتفادى الضربات عندما تأتيني. قلت أيضاً إن شخصية الإنسان هي قَدَره. لا بأس، يكون واضحاً بعد هذا أن قدر الإنسان، أو ما يستقر عليه، هو شخصيته أيضاً. وبما أنني لم أمتلك يوماً مكاناً أستقر فيه، فذلك يعني أنني أجد مشكلة في الثبات رغم أن آمالي قائمة على الوصول إلى حالة الاستقرار حتى يصير العثور على الخطوط المحورية ممكناً. عندما يتوقف العناء، تأتي الحقيقة كأنها هبة... الوفرة والتناغم والحب، وهذه الأشياء كلها. ربما لا أكون قادراً على الحصول على هذه الأشياء التي أريدها تحديداً.

قلت لمانتوشيان ذات مرة عندما ناقشنا هذا الأمر: «لم يسبق لي أن أقمت إلا في ضيافة أحد ما. عند جدتي أولاً... كان ذلك بيتها في الحقيقة. ثم عند هؤلاء الناس في إيفانستون، آل رينلينغ، ثم في كازا ديسكوتادا في المكسيك، ثم مع السيد باسلافتيش، اليوغسلافي».

قال مانتوشيان: «هنالك أناس يمكن أن يسقطوا نائمين إذا لم يجعلوا كل شيء صعباً عليهم. يسوع المسيح نفسه، جعل الأمر صعباً حتى يصير لديه من الأشياء المشتركة مع بني جنسنا ما يسمح بأن يكون رباً له».

«إن لديَّ هذه الفكرة عن مدرسة ـ بيت رعاية، أو شيء من هذا القبيل».

«لا يمكن أن ينجح هذا أبداً. أعذرني، لكنها فكرة سخيفة. هنالك بعض الأفكار السخيفة التي تنجح طبعاً، لكنك فكرتك لن تنجح... فكرة أن يكون لديك هذا العدد الكبير من الأطفال الذين تعتني بهم. لست من هذا النوع، وستيلا أقل منك استعداداً لذلك».

«أوه، أعرف أنها كانت فكرة بلهاء... أن أعلّم الأطفال. من أكون حتى أعلّم أي إنسان؟ لم تكن الفكرة متعلقة بالتعليم بقدرِ ما كانت متعلقة بالحب، هكذا كانت فكرتي. ما أردته هو أن يكون هنالك من يعيش معي، على سبيل التغيير، بدلاً من أن أعيش معه».

كنت أرفض دائماً فكرة أنني شخص وحيد من نوعه. لكن، كم هو نادر التقاء مخيّلتين معاً! هذا لأنهما مخيلتان طموحتان، كلتاهما. إن كان التحقق مقدَّراً لهما، فسوف تلتقيان.

كنت أرى شيئاً وترى ستيلا شيئاً آخر عندما نفكر في أمور من قبيل المدرسة ـ بيت الرعاية. كنت أتصور مكاناً خاصاً أخضر مثل تلك الأماكن في والدن أو إينيسفري تحت الشمس اللطيفة تحيط بها غابات مخملية وحدائق متألقة ومروج كبيرة مثل مروج لينكولن بارك. لكننا مخلوقون لكي يجرفنا ما هو مركّب، معقّد، ولكي نسمع ما هو بسيط مثلما يسمع المرء بوقاً يستغيث به من بعيد. أخبرت ستيلا أنني تواق إلى تربية النحل. كنت أقول في نفسي إنني تدبرت أمري مع نسر فكيف لا أستطيع تدبر أمري مع نوع آخر من الكائنات المجنَّحة؟ وسوف يكون هنالك عسل أيضاً! وهكذا، اشترت ستيلا لي كتاباً عن تربية النحل، فأخذته معي في رحلتي البحرية الثانية. لكني كنت أعرف كيف تتخيل ستيلا تلك المدرسة: بيت خشبي بائس كأنما أقامه بناؤون سكارى تحت أشجار متعَبة مغبرة، والغسيل يغلي في فناء البيت، ودجاجات تشكو سوء طالعها، وأطفال مشاغبون، وأمي العمياء تلبس حذائي القديم، وجورج يصلح الأحذية، وأنا محاط بالنحل في الغابات.

قالت ستيلا في البداية إن الفكرة جميلة، لكن ماذا كان يمكنها أن تقول غير هذا في غمرة عواطف اجتماع شملنا من جديد عندما كنت أخبرها عن غرق السفينة وبقية الأشياء! لقد بكت متمسكة بي فسقطت دموعها على صدري. قالت: «أوه، أوجي، هذه الأشياء التي حدثت لك! مسكين أوجي!» كنا في السرير. رأيت ظهرها المدور الناعم في المرآة الإيطالية، المرآة المدورة الكبيرة المعلقة فوق الرف. قلت لها: «لا بأس، لا بأس، إلى الجحيم بهذه الحرب والسقوط في الماء، وكل ذلك. أتمنى الحصول على هذا المكان الذي نستطيع أن نحظى بحياة مستقرة فيه».

قالت: «أوه، نعم». لكن، ما الذي كان يمكنها قوله في ذلك الوقت غير هذا؟

لكني لم أكن أملك أدنى فكرة عما قد أفعله من أجل ذلك. وبالطبع، كان الأمر مجرد واحد من تلك الأحلام الحمقاء التي يعرفها أناس لم يدركوا بعد ماذا يحبون ولأي شيء يصلحون.

فهمت سريعاً أنني سأفعل ما تريده لأنني أنا الذي أحبها أكثر. وأما ما أريده فقد كان غير واضح لبعض الوقت. أنتم ترون إذن، كانت هنالك تلك الكلمات الكبيرة كلها عن العودة إلى البيت وعن نجاتي من البحر ومن باستيشاو... نجاة وهرب رومانسيان! وكان من الملائم أن ترتفع الأصوات شاكرة كأنما ذلك لحن كتبه فرانز جوزيف هايدن وغنته فرقة سكولا كونتورم، وهكذا! كانت ستيلا تحبني كثيراً، وكان علينا أن نكمل شهر عسلنا. إن كنت أراها مشغولة البال أحياناً فقد كنت أظن أنني من يشغل بالها. هذا ما يتوصل إليه العقل الذكي. لكني لم أكن حقاً أول من يشغل بالها. كيف تظنون أن الأمر يكون عندما تصرفون الناس عما يشغل بالهم، عن الشيء الذي يكدحون من أجله عادة؟ قد لا تخطر في بالكم فكرة من هذا النوع عندما يتصل الأمر بامرأة تبدو مثلما تبدو ستيلا، امرأة عندها هذه الهِبات كلها، امرأة ليست خفيفة بل صلبة... جسمٌ ناهض صوب رأس أنيق له خصلات شعر ريشية قاتمة. هنالك أشخاص يكون الفضاء الذي حولهم ملكاً لهم، وعندما تقترب منهم يكون ذلك دخولاً في منطقتهم الخاصة، وهكذا تكون كيفية تصرفك معهم واقعة بمعظمها تحت سيطرتهم؛ عند ذلك يدهشك دائماً أن تعلم أنهم يعانون، بل قد يعانون أكثر من غيرهم، نتيجة الأفكار المهيمنة عليهم. ما كان حلم المأوى ـ المدرسة واحدة من تلك الأفكار التي تشغل البال، بل واحداً من تلك المفاهيم الهوائية بعيدة المدى، أو شيئاً يشبه فراشات الصيف. ليس لك أبداً أن تحاول قلي هذه الفراشات في زبدة الحياة الواقعية، إن جاز القول هكذا! وأما مشاغل البال الأخرى فكانت قَدَري، أو ما يملأ حياتي وأفكاري. ومن بين تلك المشاغل تفكيري الدائم في ستيلا بحيث يكون ما يحدث لها شيئاً يحدث لي أنا أيضاً، بالضرورة.

من المحتمل كثيراً أن يجد الناس هذا أمراً غير مهم! ما هذا الكلام كله عن الأقدار؟ وقد يرون أن ما يصيبني آتٍ من زمن آخر، من زمن مغلوط، حين كان عدد البشر في هذا العالم أقل وكانت هنالك فسحة أكبر فيما بينهم تتيح لهم عدم النمو مثلما تنمو أعشاب المرج بل مثل أشجار في حديقة منظَّمة، أشجار متباعدة تتطور عاماً بعد عام تحت ضياء ورديّ. والآن، بدلاً من هذه المقارنة يمكن أن تقولوا لي: دعنا لا نشبّه هؤلاء الناس بالعشب بل بحزمة من الجسيمات، حزمة منوعة شاملة؛ قد تكون لهذه الجسيمات وظائف، لكن ليست لها أقدار، بكل تأكيد! بل إن هنالك مسلكاً للعقل يجد من المقزز أن تكون شخصاً، لا

مجرد وظيفة! لكنني متمسِّك بفكرتي عن القَدَر، رغم ذلك كله. القدر الذي تكون الوظيفة بالنسبة إليه بديلاً عن قنوط أكثر عمقاً.

كنا في مدينة فلورنسا الإيطالية منذ وقت غير بعيد. نعيش في أوروبا الآن، ستيلا وأنا؛ إننا هنا منذ نهاية الحرب. أرادت ستيلا السفر إلى أوروبا لأسباب مهنية، أما أنا فأتيت من أجل نوع من العمل سوف أتحدث عنه بعد حين. المهم أننا كنا في فلورنسا. إنني أسافر في مختلف الأرجاء: كنت في صقلية منذ بضعة أيام، وكان الجو دافئاً هناك؛ أما هنا فقد وجدت الطقس شديد البرودة عندما وصلت. عندما وصلت إلى المحطة كانت تهب ريح يسمونها رياح ترامنتانا. استيقظت صباحاً في فندق بورتا روزا، خلف آرنو تماماً، فأحسست بالبرد. أتت الخادمة بالقهوة فدفأتني قليلاً. سمعت قرع جرس معدني قديم في برج كنيسة عبر اندفاع الهواء الزجاجي السريع القادم من الجبال. اغتسلت بماء حار تناثر على الأرضية الخشبية. كان أمراً مريحاً في نهار صقيعي أن تخرج بجسم نظيف وأنت ملتفٌّ بمعطف دافئ.

قلت لموظف الفندق: «دلني على شيء جيد أستطيع الذهاب لرؤيته في ساعة واحدة. لدي موعد عند الظهر».

أعرف أن سؤالي كان أميركياً إلى حد كبير، لكن حقيقة الأمر هي أنني أميركي!

لن أخفي طبيعة ذلك الموعد. إنني أعمل هنا باسم مانتوشيان، أتابع بعض مصالحه. كانت لي صلة مع رجل يقوم بترتيب أمر الحصول على رخصة استيراد إيطالية من أجلنا حتى نتمكن من تفريغ بضاعة من فوائض الجيش اشتريناها بثمن بخس من ألمانيا. إنها أقراص من الفيتامينات، ومواد صيدلانية أخرى. يعرف مانتوشيان كل ما يتعلق بهذا النوع من المضاربة، وقد كنا نجني من هذا العمل مالاً كثيراً. كان علي أن أسدد المال لرجل فلورنسي من أعمام رجل كبير في روما. وكان هذا العم واحداً من الشخصيات المتمدنة أكثر مني بخمس مرات. لكنني صرت معتاداً العمل مع هؤلاء الناس الآن، وعندما أقع في شك أتصل بمانتوشيان من خلال الخط الهاتفي الذي يعبر المحيط الأطلسي فيخبرني بما يجب أن أفعله.

قال موظف فندق بورتا روزا: «تستطيع رؤية أبواب المعمودية الذهبية التي تحفّ بها منحوتات جيبرتي».

تذكرت أن المجنون باستيشاو تحدث عن جيبرتي هذا. وهكذا سرت حسب إرشادات الرجل حتى وصلت إلى بيازا دل دوومو.

كانت الخيول ترتجف في الريح القارسة. وعلى امتداد الأزقة الباردة، كانت نيران تنبعث من صفائح معدنية محمرّة وضعها أشخاص يبيعون الكستناء محتمين في زوايا الجدران الحجرية.

لم أجد أشخاصاً كثيرين عند أبواب المعمودية، بسبب هذا البرد... كان هنالك بضعة متسولين دامعي العيون يعرضون بيع تذكارات ويحملون حزماً من البطاقات البريدية المطوية معاً. نظرت إلى اللوحات الذهبية التي تحكي قصة تاريخ بني البشر كلها. وعندما كنت أتأمل في هذه الرؤوس الذهبية لمن يفترض أنهم آباؤنا وأمهاتنا المشتركون الذين شوتهم الشمس وهم يحكون قصتهم، جاءتني سيدة عجوز تريد أن تشرح لي ما تمثله هذه اللوحات. بدأت تقص علي قصة يوسف، أو يعقوب، وهو يصارع ملاكاً عندما كان على وشك الفرار من مصر، كانت تخبرني عن الحواريين الاثني عشر أيضاً. خلطت هذه المرأة كل شيء خلطاً عجيباً لأنهم لا يعرفون العهد القديم معرفة جيدة في البلدان اللاتينية. أما أنا فكنت أريد أن أظل وحيداً... تحركت مبتعداً عنها، لكنها تبعتني. كانت معها عصا تدلّى من مقبضها كتاب جيب صغير، وكان على وجهها خمار. أخيراً، نظرت إلى وجهها من تحت الخمار، هذا الوجه العجوز لامرأة كبيرة الشأن وقد غطته بقع قاتمة وبدت تشوهات سوداء حول شفتيها. كان فراء معطفها بالياً، بل كان الجلد الذي تحت ذلك الفراء متكسراً، متشققاً. كانت تقول لي: «سأخبرك الآن عن هذه البوابات. أنت أميركي، سوف أساعدك، لأنك لن تفهم شيئاً من غير مساعدة. عرفت أميركيين كثر خلال الحرب».

قلت لها: «أنت لست إيطالية، أليس كذلك؟».

كانت لها لكنة توحي بشيء ألماني.

أجابتني: «لا، إنني من البيدمونت! يقول لي كثيرون إنني أتكلم الإنكليزية كما يتكلمها الإيطاليون. لست نازية إن كان ذلك ما تقصده. لو كنت تعرف شيئاً عن أسماء العائلات المتميزة لقلت لك اسمي، لكنك لا تعرف على الأرجح؛ فلماذا أقوله؟».

«أنت محقة تماماً. لست مضطرةً إلى إخبار شخص غريب باسمك».

تابعت سيري وريح ترامونتانا تصفع وجهي. ومن جديد، رحت أتمعن في منحوتات تلك البوابة. لحقتني من جديد على قدميها المتعبتين؛ لكنها كانت سريعة الحركة.

قلت لها: «لا أريد دليلاً!».

ثم أخرجت بعض المال من جيبي، وأعطيتها مئة لير.

قالت: «ما هذا؟».

«ماذا تعنين؟ إنها نقود».

«وماذا تعطيني؟ هل تعرف أنني مضطرة إلى الإقامة في دير في الجبال مع الراهبات، وأنهن يضعنني في غرفة مع أربع عشرة امرأة غيري؟ نساء من مختلف الأنواع؟ إنني مضطرة إلى النوم مع أربعة عشر شخصاً. وعليّ أيضاً أن أسير المسافة كلها إلى المدينة لأن الأخوات لا تعطيننا أجرة الباص».

«هل يريدون منك البقاء هناك؟».

قالت: «ليست الراهبات على قدر كبير من الذكاء». ما كانت قادرة على البقاء هناك لتقوم بأعمال بليدة مضجرة؛ وهذا ما يجعلها تهرب إلى المدينة. كانت مفعمة بالتمرّد. لكن عظامها كانت ظاهرة عبر ملابسها، وأسنانها في حالة فوضوية، وخمارها يغطي تماماً تلك الشعرات المرتجفة على ذقنها وفمها... هذه النكتة غير المضحكة عن نعومة السيدة بنت العائلة الكريمة فيما مضى.

كنت راغباً في النظر إلى تلك البوابات، وقلت في نفسي: لماذا لا يستطيعون أن يتركوا المرء وشأنه في هذا البلد.

قالت لي: «هذا هو إسحاق ماضياً إلى تضحيته».

نظرت، وشككت في إمكانية أن يكون ذلك صحيحاً، قلت لها: «لست أريد دليلاً. أفهم الوضع، لكن ماذا تريدين مني أن أفعل؟ يأتيني الناس في كل وقت. فلماذا لا تأخذين هذا المال من فضلك و...» بدأت أشعر بالألم عليها.

«الناس! لكني لست كالناس الآخرين. يجب أن تدرك هذا. إنني...» توقف صوتها في وسط جملتها، كانت غاضبة جداً... قالت: «لماذا يحدث هذا معي؟».

بدت كأنها تضغط على قلبها بمرفقها، ثم اقتربت مني وبدأت المطالبة والرجاء من جديد. أوه، أيتها القوانين المدمّرة!

ما الأمر؟ ألم يطل هذا الشيء مدة كافية؟ أما كان متدرجاً بما فيه الكفاية؟ أعني قدوم تلك التجاعيد، واللون الرمادي الذي يخنق سواد الشعر شيئاً بعد شيء، وتهدل الجلد واحتقان الجفون؟ ألا تزال تحتفظ بذكرى الفيلّا التي فقَدَتها نضرةً في عقلها، وبذكرى الزوج والعشاق، والأطفال والسجاد والبيانو والخدم والمال؟ ما الذي يجعلها تظل تشعر كما لو أنها تعاني آلام السقوط العميق الأولى؟

أعطيتها مئة لير أخرى.

«أعطني خمسمئة وسوف أريك الكاتدرائية وآخذك إلى كنيسة سانتا ماريا الجديدة، ليست الكنيسة بعيدة، ولن تستطيع أن تعرف شيئاً إذا لم يكن معك أحد يخبرك عنها».

«الحقيقة هي أنني سوف ألتقي رجلاً بعد قليل... من أجل أمر يخص العمل. لكني أشكرك».

انطلقت مبتعداً عنها. كنت سأذهب حتى من غير وجود تلك العجوز لأنني لم أجد أي سحر في منحوتات جيبرتي في ذلك الوقت.

كانت تلك السيدة العجوز محقّة أيضاً، وكان هنالك دائماً «أنا» الذي تحدث له هذه الأشياء! سوف يأخذ الموت الحدود الفاصلة منا، ولن نكون أشخاصاً بعد ذلك. هذا هو معنى الموت. ولكن، عندما تكون الحياة كذلك أيضاً، فكيف يمكن أن يشعر المرء بشيء غير الرغبة في التمرد؟

نعم، إنها أوروبا حيث ذهبنا، ستيلا وأنا، بعد قيامي بثلاث رحلات أخرى في البحر. أكتب ذكرياتي هذه لأن لديَّ وقت كثير متاح لي فأنا رجل مسافر... رجل أسافر وحدي. كان عليَّ أن أمضي شهرين في روما العام الماضي. كان الوقت صيفاً، والمكان كله زهوراً حمراء، زهوراً حارة ناعسة. إن المدن الجنوبية كلها مدن نوم في الصيف؛ لكن نوم النهار يجعلني أحس نفسي ثقيلاً عديم الطعم. وحتى أستطيع الاستيقاظ بعد الظهر، كنت أشرب القهوة وأدخن السيجار؛ ثم يأتي المساء قبل أن أعود إلى نفسي في أعقاب تلك القيلولة. أتناول العشاء، وتكون ليلة ناعمة واهنة خضراء تنيرها مصابيح غازية هادئة في الشارع المتألق حيث يبدو ضياؤها مثل خدوش مفاجئة طويلة في سواد الليل. يأتي وقت النوم من جديد فأمضي وأهجَع متثاقلاً في سريري.

هذا ما جعلني أعتاد الذهاب بعد ظهر كل يوم إلى مقهى فالادير في حدائق بورغيز عند قمة بينشيو حيث تكون روما المزدحمة كلها تحتي، فأجلس إلى إحدى الطاولات معلناً أنني أميركي مولود في شيكاغو، إضافة إلى إخبارهم بتلك الأحداث والأخبار كلها. لا أقول هذا حتى يبدو عليَّ شيء من الأهمية بل ربما لأن بني البشر يستطيعون الكلام ومن واجبهم استخدام تلك الموهبة في الوقت الصحيح. عندما تنتهي من كلامك آخر الأمر فإنك تبقى أبكمَ إلى الأبد، وعندما تتحرك أفكارك وتجول فإنك تكون ساكناً، لكن هذا ليس سبباً يدعوك إلى الامتناع عن الكلام والحركة ولا إلى الامتناع عن أن تكون أنت نفسك، مثلما أنت!

أحاول أن أكون في باريس معظم الوقت لأن ستيلا تعمل هناك. إنها تعمل في شركة للسينما وتمثل أفلاماً عالمية. لدينا شقة في شارع فرانسوا الأول، منطقة ممتازة حقاً قريبة من فندق جورج الخامس. إنه الحي الفاخر المزخرّف في باريس، لكن المكان الذي استأجرناه أنا وستيلا كان فظيعاً. يملك ذلك المكان شخصٌ بريطاني وزوجته الفرنسية. ذهبا إلى مونتون حتى يعيشا هناك على الإيجار المرتفع الذي يعتصرانه منا. أما هنا فإن المطر والضباب يستمران طيلة الشتاء. كنت أمضي أياماً وأنا أحاول اعتياد هذه الشقة الفائحة برائحة العفن رغم أناقتها؛ وكنت عنيداً بعض الشيء في محاولة الاعتياد هذه لأنني اعتبرت الشقة مكاني الآن. لكن الوصول إلى ذلك الهدف كان مستحيلاً في وجود تلك الكراسي والسجادات والمصابيح التي تبدو كأنها زُرعت في جزيرة كُوني، وصور القطط المنزلية والبومات المرمرية ذات العيون الكهربائية وكتب كويدا وماري كورلي في أغلفتها الجلدية الفائحة برائحة تشبه البصاق. كان لدى ذلك المحتال البريطاني، صاحب البيت، شيء يدعوه مكتباً، إلا أنه في الواقع يشبه خزانة فيها سجادة صغيرة بائسة ومجلدات موسوعة لارُوس من طبعة شديدة القِدم، وطاولة خضراء. كانت أدراج هذه الطاولة الخضراء المخملية مليئة بقصاصات ورق فيها أرقام وتحويل مبالغ مالية بين عملات مختلفة، باوندات وفرنكات فرنسية ودولارات وبيزيتا وشلنات وماركات واسكودوس، وبياسترز، بل حتى روبلات! كان هذا العجوز، اسمه رايهرست، شبه ميت من الناحية العملية؛ وكان يجلس هنا في بدلة تصلح لدفنه، بدلة من القطيفة الأرجوانية من غير أي علامات أو أزرار أو عروات عليها؛ يحسب المال ويخط رسائل إلى الصحف متحدثاً عن «سقوط فرنسا» وطرق اكتشاف الذهب الذي يخفيه الفلاحون، أو قصصاً عن أفضل الدروب المؤدية إلى إيطاليا لأجل مَنْ يقودون السيارات. عندما كان شاباً، تمكن من تحطيم الرقم القياسي للسرعة من تورينو إلى لندن. هنالك صورة له في سيارة السباق ومعه كلب إيرلندي صغير على المقعد إلى جانبه.

كانت الغرف الأمامية سيئة بما فيه الكفاية. لكن غرفة الطعام كانت أكثر مما أستطيع احتماله! تخرج ستيلا في الصباح الباكر حتى تصل إلى مكان التصوير؛ ورغم وجود خادمة تحضر طعام الإفطار لي إلا أنني ما كنت قادراً على إرغام نفسي دائماً إلى الجلوس إلى الطاولة ذات المفرش التركي الأصفر ذي التطريز الأحمر لكي أتناول القهوة.

وهكذا كنت أذهب إلى مقهى صغير لتناول فطوري. وفي هذا المقهى صادفت ذات يوم صديقي القديم هوكر فريزر. إن في هذا المقهى، اسمه روزريه، طاولات مستديرة وكراسي من عيدان القصب المجدولة، ونخلات صغيرة في أحواض نحاسية صفراء،

وسجادة خشنة مخططة، ومظلات حمراء وبيضاء، وبخار متصاعد من آلة صنع القهوة الضخمة ذات المقابض الكثيرة، وكعكات ملفوفة بقطع من السيلوفان، وكل تلك الأشياء! كنت أذهب لتناول إفطار بعد أن أضع الفحم في المدفأة (كانت خادمتنا، جاكلين، شديدة اللطف لكنها لا تعرف شيئاً عن التعامل مع الفحم؛ أما أنا فكنت خبيراً في هذا المجال منذ زمن بعيد). وحين كنت أطلب قهوتي في مقهى روزريه ذات صباح. وكان الناس ماضين في الشارع في أحذيتهم البيتية كأنهم سائرون في ردهات بيوتهم، وكانت هنالك كميات من الفراولة ولحوم الخيل وأشياء آتية من سوق ساحة آلما. مر فريزر! لم أره منذ يوم زفافي.

«مرحباً يا فريزر!».

«أوجي!».

«ما الذي أتى بك إلى باريس يا صاحبي القديم؟».

قلت: «كيف حالك؟ لا يزال لديك لون البشرة الصحّي نفسه مثلما كان دائماً؛ وأنت مبتسم دائماً أيضاً!».

«ماذا؟ إنني أعمل مع صندوق التعليم العالمي. أظن أنني رأيت كل من أعرفهم هنا منذ سنة إلى الآن. لكنها مفاجأة حقاً أن أراك يا أوجي، أن أراك في مدينة الإنسان!».

كان مزهواً بنفسه إلى حد كبير كأن هذا المكان يمنحه نوعاً من الإلهام. جلس وحدثني حديثاً غريباً... حديثاً محيّراً. كان حديثه عن باريس وعن عدم وجود شيء يشبهها: عاصمة الأمل في أن الإنسان يمكن أن يكون حراً من غير مساعدة من الآلهة، يستطيع أن يكون صافي الذهن، متمدّناً، حكيماً، مسروراً، وكل ذلك. أحسست بشيء من الإهانة، دقيقة واحدة فقط، عندما سألني ضاحكاً عما كنت أفعله في باريس. قد يكون الأمر غريباً لكن، إن كانت مدينة الإنسان، فلماذا لا تكون مدينة لي أنا أيضاً؟ أما إذا لم تكن كذلك فلا يمكن أن يكون الذنب ذنبي! مدينة أيّ إنسان هي؟ أهي مدينةُ نسخةٍ بعينها من نسخ الإنسان؟ هكذا يكون الأمر دائماً... نسخة ما!

لكن، من عساه يستطيع التذمر من باريس الجميلة المفعمة حيوية ونشاطاً عندما تدور وتدور مثل دوارة الخيول الذهبية... خيول التوليري الإغريقية والتماثيل الحجرية الجميلة والأوبرا المزدحمة دائماً وواجهات المتاجر المتألقة والألوان الرشيقة والأعمدة المزينة والمِسَلات والآيس كريم بألوانه كلها... العالم المبهرج كله.

لا أظن أن فريزر أراد أن يجرح مشاعري؛ كل ما في الأمر أنه فوجئ برؤيتي هنا.

قلت له: «إنني هنا منذ نهاية الحرب».

«حقاً! وماذا تفعل؟».

«أعمل مع ذلك المحامي الأرمني الذي كان حاضراً يوم زفافي. هل تذكره؟».

«أوه، طبعاً، أنت متزوج. وهل زوجتك معك هنا؟».

«طبعاً. إنها تعمل في السينما. لعلك رأيتها في فيلم 'اليتامى'. إنه فيلم عن الأشخاص المهجَّرين».

«لا، لا أرى كثيراً من الأفلام في واقع الأمر. لكنني لا أجد مفاجأة في أنها ممثلة. إنها فائقة الجمال كما تعرف. كيف تسير أموركما؟».

قلت: «إنني أحبها».

كما لو أن هذه إجابة على سؤاله! لكن، كيف يمكنكم لومي إذا كنت غير راغب في قول المزيد لفريزر؟ لنفترض أنني بدأت أشرح له أنها تحبني أيضاً، لكنها تحبني مثلما تكون باريس «مدينة الإنسان»، أو تحبني نتيجة الشيء الذي أتى بها إلى باريس... بالنظر إلى الأفكار التي تشغل بالها... أن يكون الحب هو عينه انتصار الحب على ما يشغل البال: هذا ما دعاه مانتوشيان باسم الأفكار المهيمنة عندما كنا نتحدث في الحمّام التركي. ما كنت أعتزم الخوض في هذا كله مع فريزر. عندما أتحدث في هذا الأمر مع ستيلا (أحدّثها عن هذا من حين لآخر، أو أحاول أن أحدثها)، أبدو كأنني شخص متهيّج منفعل، بل ربما أبدو أمامها مثلما يبدو الأشخاص الآخرون بالنسبة لي عندما يعبّرون بصوت مرتفع عن أفكارهم التي يحاولون الترويج لها أو التي يحاولون تجنيدي في خدمتها. كان هذا يجعلها أشبه بالمرآة التي أستطيع أن أرى فيها عنادي ومكابرتي في الأيام الخوالي وأرى كيف أبدو عندما أكون متردداً أو غير راغب في قبول ما يُقال لي. لقد كانت محقة عندما اختبأنا معاً في حديقة الفيلا اليابانية في آكاتلا فلاحظت أننا متشابهَان كثيراً. إننا متشابهان حقاً!

على أنه لا بد لي من القول إنني غير راغب في الكذب أكثر مما هو معتاد حتى إن لم أكن أصدَق إنسان في العالم. لكن ستيلا مستعدة لهذا! من الممكن طبعاً أن تدعو ذلك كذباً، أو يمكن أيضاً أن تعتبره نوعاً من الحماية. أظن أنني أفضّل التفسير الثاني. كانت ستيلا تبدو سعيدة، ثابتة. وكان يبدو عليها أنها تريدني أن أبدو مثلها. تجلس عند مدفأة الصالون التي تشبه صدر الطائر، تجلس على الكرسي الذي حذّرني صاحب البيت الإنكليزي المهذب (المصاب بخلل ما في عقله) من أنه كرسي أصلي من نوع تشيبنديل،

وتكون هادئة، ذكية، قوية، حيوية، بالغة الجمال، هكذا تريد أن تقدم نفسها دائماً. هذا نوع من الرؤيا. ومن الطبيعي أن أكون في حاجة إلى برهة من الزمن حتى أعرف أين نحن حقاً. تحدّثني عن مجريات يومها في الاستوديو، وتضحك من نكات ذلك اليوم بصوتها النقيّ النابع من الصدر. ثم تسألني عما كنت أفعله. لا بأس، ربما أكون قد التقيت شخصاً يعيش في داشو وأبرمت معه صفقة من صفقات العمل لاستيراد بعض مستلزمات طب الأسنان من ألمانيا. استغرق ذلك اللقاء ساعة أو ساعتين؛ وقد أكون ذهبت بعد ذلك إلى صالات متحف اللوفر الباردة وزرت المدرسة الهولندية أو سرت قرب نهر السين ولاحظت أن رائحته تشبه رائحة الأدوية، أو ربما أكون مضيت إلى المقهى وكتبت هناك رسالة، وهكذا حتى مر النهار.

تجلس ستيلا طاوية ساقيها تحت عباءتها البيتية الملونة، تجلس بشعرها المرفوع فوق رأسها وسيجارتها في فمها رافضة إعطائي (في الوقت الحاضر) أهم الأشياء التي أطلبها منها.

رائع حقاً كيف تحدث الأشياء كلها. لا يمكنك أبداً تخمين مقدار العمل المبذول فيها! خطر في ذهني، منذ بعض الوقت فقط، كم هي كبيرة كمية العمل! عادت من الإستوديو ودخلت لتستحم ثم نادتني من الحمام: «حبيبي، أعطني منشفة من فضلك». تناولت واحدة من مناشف الحمام الكبيرة التي اشتريتها من متجر بون مارشيه وأخذتها إليها. كان ضوء الغسق يغمر الحمّام الصغير. وفي سخان الماء، ذلك الصندوق النحاسي الذي تشتعل فيه أنياب غازية، كان فتاتٌ من المعدن المخضَرّ يتساقط تحت لسع النار الشديدة. كان جسدها ذو الرائحة الأنثوية الدافئة مغموراً بالماء إلى ما فوق ثدييها. التمع زجاج خزانة الأدوية الصغيرة كأنه بقعة من الزرقة العميقة على الجدار، كأنه نافذة مفتوحة على بحر مسائي لا على ضباب باريس الرمادي. وضعت المنشفة على كتفي وجلست... أحسست بالسلام. وعلى سبيل التغيير، تبدو الشقة نظيفة دافئة؛ وتتراجع مساوئها إلى خلفية المشهد، وتعمل المدافئ جيداً... تتألق. كانت جاكلين تطهو طعام العشاء، وفاحت رائحة صلصة اللحم. أحسست بالاستقرار واليُسر... كان صدري حراً خلياً وأصابعي مرتاحة، منبسطة. والآن يأتي ذلك الشيء. لا بد من وقت كهذا حتى تكتشف كم كان قلبك محتقناً، موجوعاً؛ كما إنك تفكر طيلة الوقت في أنك تقوم بعمل بليد شديد الصعوبة يحدث من حولك. عمل صعب، شاقّ، الحفر والتجريف والعمل في المناجم وشق الأنفاق ورفع أشياء ثقيلة ودفعها ونقل الصخور... عمل، عمل، عمل، عمل، عمل، لهاث، جَرّ، رفع! لا يُرى من الخارج شيءٌ من هذا العمل. إنه يجري في داخلك! يحدث هذا لأنك عاجز ولأنك غير قادر على الوصول إلى أي شيء، غير قادر على بلوغ العدالة ولا على الانتقام. هذا ما يجعلك تكدح

في داخلك، هذا ما يجعلك تنخرط في هذا الصراع وتسوّي الحسابات وتتذكر الإهانات، وتقاتل، وتجيب، وتنكر، وتثرثر، وتشجب، وتنتصر، وتهزم الآخرين بذكائك، وتتفوق، وتتغلب، وتثأر، وتصيح، وتلح، وتعفو، وتموت، ثم تنهض من جديد. كل ذلك تفعله وحدك، في نفسك! أين الجميع؟ إنهم داخل صدرك، تحت جلدك... كلهم!

كانت ستيلا مستلقية في حوض الاستحمام، وكانت تؤدي عملها الشاق أيضاً. كان هذا واضحاً لي. عادة ما أقوم بعملي الشاق، أنا أيضاً. لكن، لماذا؟

يحدّثني كل امرئ عن باريس وعن أنها مكان اليسر والهناءة، ويطلق عليها صفات من هذا القبيل فيقول إنها هادئة أو مرتبة أو فاخرة أو «تسرّ العين والأذن»؛ لكن ذلك العمل الشاق، ذلك الكدح، يكون مستمراً. تجد كل شخصية ثمينة إطارها الدرامي وتقوم بعملها الذي لا يُستغنى عنه. لو لم تكن ستيلا مَسوقة إلى أداء عملها الشاق لما كنا في هذه المدينة، مدينة الهدوء والرفاهية، مثلما يدعونها! الملابس، والنوادي الليلية، واللهو، وما يفترض من تمثيل يجري في الاستوديو، والصداقة مع الفنانين (يدهشني أنهم أشخاص يتمتعون بقدرة كبيرة على الأكل مثل الزميل آلان دو نيفو)... لا شيء سهلاً في هذه النشاطات! سأخبركم عن دو نيفو هذا. إنه ما يدعوه الفرنسيون «معربداً»؛ مما يعني أن كل ليلة تكون «ليلة عرس» عنده، أو أنه يلعب لعبة «الأسِرّة الموسيقية». هذا أقل ما يمكن قوله عنه. على أي حال، كنت سأفضل البقاء في الولايات المتحدة وإنجاب الأطفال هناك. لكني، بدلاً من ذلك، لا أزال أعيش رِق الغربة حتى الآن. هذا أمر موقّت فحسب. وسوف ننتهي منه.

قلت لكم إن ستيلّا تكذب أكثر من المعدل العام، للأسف! أخبرتني عن عدة أمور لم تكن حقيقية؛ ونسيتْ إخباري عن أمور أخرى، عن أمور حقيقية! قالت، على سبيل المثال، إنها تتلقى نقوداً من أبيها في جامايكا. ليس لها أب في جامايكا. ثم إنها لم تذهب إلى أي كلية أيضاً. ولم يكن أوليفر يعني لها شيئاً على الإطلاق. لم يكن «الرجل المهم» عندها. كان ذلك «المهم» دجالاً كبيراً اسمه كمبرلاند. لم تكن هي من أخبرني عنه أول الأمر. عرفت بوجود هذا الرجل من غيرها. وبعد ذلك قالت لي إن كمبرلاند هذا كان شخصاً محتالاً. وبهذه الصفة كانت تقصد الحديث عن أخلاقه. أما في عالم الأعمال فقد كان شخصاً محترَماً، بل شخصاً عظيم الشأن. والواقع أنه كان واحداً من تلك الشخصيات النافذة التي لا تظهر صورها في الجرائد لأن قوتها تحول دون ذكر أسمائها. ثم اتضح لها تدريجياً أن هذا الرجل الذي بدأت علاقتها به منذ أن كانت في المدرسة الثانوية قد كبُر حتى صار شيئاً من حجم جوبيتر أو آمون، وصارت له عين تشبه ذلك التلسكوب الجديد في مرصد جبل بالومار... صار شخصاً شريراً مثل تيبيريوس، صار إمبراطوراً! أقول لكم

الحقيقة: لقد تعبت ومللت هذه الشخصيات الكبيرة كلها التي تصوغ الأقدار، الشخصيات ذات الأدمغة الضخمة، أشباه مكيافيلي والسَحَرة الأشرار، أصحاب القوة المطلقة. بعد أن ضربني باستيشاو، قطعت على نفسي عهداً بألا أخضع لأي تأثير. لكن هذا العهد شيء يشبه قصة «الفئران والرجال» لشتاينبك، على الأرجح، لأن شبح رجل من هذا النوع كان يحوم من فوقي. اسمع يا أخي! لن تنال الخلاص أبداً، تظن فقط أنك نلته!

سمعت أول مرة باسم كمبرلاند من آلان دو نيفو الذي كان في نيويورك خلال الحرب؛ كان يعمل في صناعة السينما. كان آلان دو نيفو واحداً من أصدقاء آغنيس في الأصل. أخبرني عندما التقينا أنه من أحفاد دوق سان سيمون. إنني فاشل دائماً في ما يتعلق بهذه الأنساب العريقة لكن دو نيفو هذا لم يكن شخصاً جيداً تماماً. كانت له عينان زرقاوان مصفرّتان قليلاً مستقرتان في وجهه الضيق الثقيل الذي يوحي لونه بانحراف الصحة. ومع أنه ما كان يقصد أي إساءة بذلك، على الأرجح، فقد كان تعبير وجهه وقحاً متغطرساً إلى حد كبير. وكان شعره الخفيف ذو اللون الرملي ممشَّطاً مثل شعر ضابط بريطاني، نظيفاً، أنيقاً، كثيباً. كان حذاؤه مبطناً بالصوف، ومعطفه مصنوعاً من جلد الغزال، طويلاً يبلغ كاحله؛ أما جسده فكان نحيلاً. كان ذئباً يسعى خلف الفتيات في محطات المترو، وسكيراً. من الممكن أن يخبرك بنفسه كيف يلتقط النساء ويصف هذه العصافير الضعيفة المسكينة عندما ينفرد بها فيصيبها الذعر كما لو أنها في مواجهة إله ناري، إلخ، إلخ. عندما ذكر لي كمبرلاند كنا ننتظر ستيلا في ردهة مسرح باراماونت. جاء ذكر أوليفر فقال دو نيفو: «إنه لا يزال في السجن».

قلت له: «هل كنت تعرف هذا الرجل؟».

«كنت أعرفه. نعم، كان نكسة بالنسبة إليها. بعد كمبرلاند. كنت أعرفه أيضاً».

«تعرف من؟».

لم ينتبه إلى ما قاله. إنه لا يكاد ينتبه إلى شيء. أحسست كأنني عالق في بئر ومن فوقي انهيار مفاجئ في التربة. انتابني قنوط شديد، وغضب، وغيرة... انفجر ذلك كله في داخلي.

«من؟ من هو كمبرلاند؟».

نظر إليّ عند ذلك ورأى أن عينيّ مشتعلتين لسبب ما، رأى أنني متألم. أظن أنه فوجئ تماماً فحاول إخراج نفسه من هذا المأزق بطريقة تحفظ كرامته. في حقيقة الأمر، كنت منتبهاً منذ بعض الوقت إلى وجود شيء غريب لا بد من اتضاحه عاجلاً أو آجلاً. كان

دائنون كثُر يلحّون على ستيلا طيلة الوقت. وكانت هناك مشكلة تتعلق بسيارة. لم تكن لديها سيارة! كانت هنالك أيضاً قضية في المحكمة من أجل شقة في المدينة. أيّ شقة يمكن أن تكون لديها في المدينة؟ وكأنها اعتبرت أن عدم ذكر ذلك سيكون شيئاً غير إنساني، هذا ما أظنه! أخبرتني قبل حين عن معطف فراء اضطرت إلى بيعه وكانت قيمته سبعة آلاف وخمسمئة دولار بالإضافة إلى عقد من الماس. كانت مغلفاتٌ رسمية تأتي إلى بريدها لكنها لا تفتحها. هنالك شيء ما يتعلق بمغلفات الشركات هذه التي عليها مستطيلات شفافة تظهر العناوين التي كانت روحي تهرب منها.

وعند ذلك... هل كان يجب أن أتجاهل ما قاله لي مانتوشيان في الحمام التركي؟ كيف أستطيع تجاهله؟

قلت له: «من هو كمبرلاند».

كانت ستيلا قد خرجت من حمام السيدات في تلك اللحظة فأمسكت بذراعها وأسرعت بها صوب سيارة تاكسي. عدنا إلى الشقة، فقلت لها: «كان يجب أن أعرف أن هنالك شيئاً غير مستقيم...» كنت أصرخ عليها... «من هو كمبرلاند هذا؟».

قالت لي، ممتقعة اللون: «أوجي! لا تتابع هذا! كان يجب أن أخبرك من قبل. لكن، ما الفرق؟ هذا يبرهن على أنني أحبك وأنني لم أرد المغامرة بخسارتك عندما أخبرك بهذا؟».

«هل كان هو الشخص الذي أعطاك ذلك المعطف؟».

«نعم يا حبيبي. لكني تزوجتك أنت، ولم أتزوجه».

«والسيارة؟».

«لقد كانت هدية يا عزيزي. لكن، يا حبيبي، إنك أنت الذي أحب».

«وكل تلك الأشياء في البيت؟».

«الأثاث؟ ماذا، الأثاث مجرد أشياء! أنت فقط من له أهمية».

نجحتْ في تهدئتي، تدريجياً.

«متى رأيته آخر مرة؟».

«لا علاقة لي به منذ سنتين».

قلت: «لا أستطيع أن أحتمل ذكر هؤلاء الأشخاص. لا أستطيع ذلك. لا يجوز أن تقفز هذه الأسرار أمامي في كل وقت».

صاحت: «لكن كان الأمر أشد قسوة عليَّ! أنا من عانى بسبب هذه الأشياء في واقع الأمر. أما أنت فلا تعاني إلا لأنك تسمع عنها».

بعد أن فتح الموضوع الآن، صار وضع نهاية له أمراً شديد الصعوبة. لقد أرادت ستيلا أن تتحدث عن كامبرلاند. وحتى تثبت أن ما من سبب يدعوني إلى الغيرة رأت أن عليها إخباري كل ما حدث... لم أستطع إيقافها. طبعها حساس، نشط، مندفع، شهم إلى هذا الحد... لا يستطيع المرء ضبطها بسهولة، كما ترون!

قالت: «إنه كلب! جبان! ليس لديه أي إحساس إنساني. كان أهم ما يريده مني أن أساعده في الترفيه عن أصدقائه من رجال الأعمال حتى يستطيع التباهي بي أمامهم. كل هذا لأن زوجته مدعاة للخجل».

لكن هذا ما كان منسجماً تماماً مع موقفها من الأشياء التي تمتعت بها، كذلك البيت الصيفي في نيوجرسي، والحساب الجاري، وسيارة المرسيدس... كانت شديدة الحماسة لهذه الأشياء كلها! لقد كانت على دراية جيدة بوضعها الضريبي وبكل ما يتعلق بالتأمين، وهكذا دواليك. بالطبع، لا يعيب المرأة أن تفهم هذه الأشياء! لماذا لا يجوز أن تفهمها؟ لكني كنت في خشية من الاضطرار إلى سماع ذلك العرض المثالي لحياتها الماضية. أوه، لا بأس، ليس من الضروري أن يكون هنالك تفسير مثالي لأي شيء!

«لم يكن ليُسمح لي بأن أصير مستقلة. إذا اكتشف أن لدي حساب توفير فإنه يجعلني أنفق ذلك المال. كان يرى أن من الضروري أن أظل ضعيفة عاجزة. وذات مرة، أراد رئيس شركة من شركات الأخشاب كنت أعرفه أن يفتح مركزاً كبيراً للقمار في لونغ آيلاند، وعرض علي خمسة عشر ألف دولار في السنة لأكون مضيفة هناك. غضب كمبرلاند كثيراً عندما سمع ذلك».

«هل كان يكتشف كل شيء؟».

«لقد كان يستأجر محقّقين خاصين. هنالك أشياء كثيرة لا تعرفها عن هؤلاء الناس! إنه مستعد لاستئجار القمر إذا وجده مفيداً له».

«إنني أعرف عنهم كل ما أنا راغب في معرفته».

«أوه، أوجي! أرجوك يا حبيبي... تذكر أنك ارتكبت أخطاء أيضاً. لقد ذهبت لتهريب مهاجرين من كندا. وقد سرقتِ أيضاً. تمكن أشخاص كثيرون من سوقك في طرق الضلال».

لا بأس... لكن لماذا تستطيع الرضا بأنني أحبها، ولماذا لا تكف عن هذا الكلام؟ ما الذي كانت تقصده عندما تحدثتْ عن رئيس شركة الأخشاب؟ هل كانت تريد حقاً أن تصير مضيفة هناك؟ كنت أتأمل في هذه الأشياء كلها، وكنت أجلس هناك في بؤس فظيع. أحسست أن ذراعَيْ الكرسي موشكان على طعني في خاصرتي، وأحسست أن سريرنا البافاري المزهر اللعوب، والعصافير المحنطة والزينات، وكل شيء، قد انقلب ضدي. هل سأكون مخطئاً من جديد؟ إنها الفكرة نفسها التي جاءتني في الزورق، عندما كان التيار يجرفنا، أنا وباستيشاو، فكرة أنني كنت مخطئاً مرة بعد مرة بعد مرة! لكنني كنت رغم ذلك مؤمناً بأن علينا أن ننجح، أخيراً. لا أريد إعطاء انطباع زائف بأنني كنت مخدوعاً مئة بالمئة! ليس الأمر هكذا. لست أدري من هو ذلك القديس الذي استيقظ ورفع رأسه ثم فتح فمه وباح بحلمه السري، بأن البركة والنعيم يشملان الخليقة كلها لكنهما يكونان أكثر كثافة في بعض المواضع، دون غيرها. كائناً من كان ذلك القديس فإن ضعفي الكبير هو أنني أستجيب لأحلام من هذا النوع. هذا هو «مصير الحب»، هذا هو... أو لعله الافتتان الغريب بكل ما يحدث!

هناك قدر ما من بساطة العقل لدى ستيلا، إضافة إلى كذبها وخداعها... نوع من الجدية الساذجة. إنها تصرخ بصدق تام وبدفء مطلق. لكن جعلها تغير رأيها في أي مسألة ليس بالأمر السهل على الإطلاق. حاولت مثلاً أن أجعلها تقصر أظافرها قليلاً. فهي تطيل أظافرها كثيراً، وعندما ينكسر ظفر منها فإنه يتشقق حتى جذره. أقول لها عند ذلك: «يا إلهي، لماذا تتركين أظافرك تطول إلى هذا الحد؟» ثم أمسك بالمقص وأقلم أظافرها. كانت تقبل بذلك. لكنها تترك أظافرها تنمو وتطول من جديد. أو، في حالة القط أيضاً، قطها جينجر الذي أفسده الدلال فصار يوقظنا في الليل بأن يقلب المصابيح والأطباق حتى نطعمه... لم أفلح إلا في الظهور بمظهر الأحمق عندما حاولت إقناعها بأن نحبسه في المطبخ ليلاً. لم أظفر بشيء!

تكرِّر دائماً أنها كانت تريد أن تصبح مستقلة.

«هذا طبيعي! من لا يريد ذلك؟».

«لا، أقصد أنني أردت أن أفعل شيئاً يكون فكرتي أنا. لم يكن الأمر متعلقاً بالمال فقط». لقد كان يضطهدها؛ هذا ما كانت تريد إفهامي إياه عملياً عندما تتحدث وتعصر كفيها... «كان يتراجع عن كلامه كلما وعدني بأن يسمح لي بأن أفعل شيئاً. وهكذا، قطعت علاقتي به آخر الأمر وذهبت إلى كاليفورنيا. كنت أعرف شخصاً هناك عرض علي إجراء اختبار

تمثيل. أجريت اختباراً عظيماً وحصلت على دور في فيلم غنائي. لكن، عند عرض الفيلم، وجدت أنهم قد حذفوا كلامي كله. بدوت في ذلك الفيلم امرأة حمقاء أبتسم فقط وأستعد لقول شيء، لكني لا أقوله. مرضت بعد ذلك العرض. لقد استخدم كمبرلاند نفوذه لكي يجعل المنتج يحذف دوري. بعثت إليه ببرقية قلت فيها إن علاقتي به قد انتهت إلى الأبد، وفي اليوم التالي أصابني التهاب الزائدة الدودية فذهبت إلى المستشفى. وفي أقل من أربع وعشرين ساعة، رأيته واقفاً إلى جانب سريري. قلت له: 'ما العذر الذي قدمته إلى زوجتك حتى تقوم بهذه الرحلة؟' كان قد انتهى من حياتي إلى الأبد».

أجفل دائماً كلما سمعت الأزواج والزوجات يتحدثون فيما بينهم عن علاقاتهم وزيجاتهم السابقة. إنني شديد الحساسية عادة تجاه هذه الأشياء!

كنت أعرف، بالطبع، أن هذا هو العمل الشاق الذي تفرضه ستيلا على نفسها. لم تنته معاناتها منه. لم تنته أبداً. كان عليها أن تستمر في نهب ماله؛ وبفعلها هذا كانت تؤذيني إلى حد كبير أيضاً.

قلت لها آخر الأمر: «حسنٌ يا ستيلا، من فضلك الآن...».

قالت غاضبة: «حسنٌ ماذا؟ هل تطلب مني ألا أتحدث عن هذا الأمر أبداً؟».

«لكنك تتحدثين عنه طيلة الوقت. أنت تتحدثين عن ذلك الرجل أكثر من أي شخص آخر».

«لأنني أكرهه. لا أزال واقعةً في الدين بسبب الالتزامات التي جعلني أتورَّط فيها».

«سوف نتخلص منها».

«كيف؟».

«لست أدري. سوف أتحدث في الأمر مع مانتوشيان».

لم تكن تريد أن أفعل ذلك. كانت تعارض الحديث معه في هذا الأمر، لكني ذهبت لرؤيته رغم ذلك.

كان يعرف كل شيء عن كمبرلاند، وما كان هذا مفاجئاً لي على الإطلاق. جلسنا نتحدث في مكتبه في الجادة الخامسة. قال لي: «بما أنك طرحت الأمر، اسمح لي... إنها تزعجه إزعاجاً حقيقياً. أعرف أنه كان غير منصف معها، لكنه شخص متقدم في السن الآن، وقد انتهى الأمر كله. الأمر صعب على أسرته. إن ابنه على رأس الشركة الآن، ويقول إنها

لن تصل إلى نتيجة من خلال تهديدهم، ولن تحصل على أي نتيجة عبر الطرق القانونية».

«تهديدهم؟ أي تهديد؟ هل تقصد القول إنها تزعجه؟ لماذا؟ قالت لي إنها قطعت علاقتها به منذ سنتين!».

«لا بأس... لم تقل لك الحقيقة، إذا أردت أن أكون واضحاً معك».

صدمني هذا؛ خجلت كثيراً! كيف يفترض أن تتصرف في هذه الحالة؟ إذا لم تدافع عن نفسك فإنك معرض للقتل، وإذا دافعت عن نفسك فمن الممكن أن تموت أيضاً.

قال مانتوشيان: «أظن أنها لا تطيق الصبر... وأنها تريد اللجوء إلى القضاء. إنها مضطربة».

قلت لستيلا: «عليك أن تكفّي عن هذا. لن تكون هنالك قضية في المحاكم. أنت تعرفين دائماً أين يكون هذا الرجل، وتعرفين ما يفعله؛ لم تقولي لي الحقيقة. يجب أن يتوقف الأمر فوراً. عليَّ أن أبحر من جديد، ولا أريد أن أفكر في هذا الأمر طيلة شهور وشهور. إذا لم تعديني بالتوقف فإني لا أستطيع العودة إليك».

استسلمتْ. صاحت، بكل مرارة، قائلة إنني أهددها، لكنها وعدتني! كان لها وجه دافئ، سهل التلون... ستيلا. عندما تشرع في البكاء، يبدأ تورد وجهها بالتحول إلى لون محمرّ قاتم، ثم يصبح لون عينيها قاتماً أيضاً... بدا ذلك لي تعبيراً عن الحب عندما رأيتها أول مرة في آكاتلا. تعلو معالم وجهها، بمقدار بسيط، كما لو أن لها أسلافاً انحدروا من جاوا أو سومطرة. عندما بدأت تبكي، كنت جالساً أشعر بالألم وبالراحة معاً. يكون البكاء إمعاناً في المعاندة عند بعض النساء؛ أما عند ستيلا فهو لحظة الصدق. كانت تعرف أن عليها أن لا تتحدث عن ذلك العجوز. لقد اعترفتْ بذلك وحاولت تحميله اللوم كله.

وهكذا كان ذهني في حالة أفضل عندما أبحرت. كان ذلك عندما اشترت لي الكتاب الذي يتحدث عن تربية النحل. درست ذلك الكتاب باهتمام كبير وتعلمت منه أشياء كثيرة عن النحل وعن العسل؛ لكني كنت أعرف أن من المستبعد أن تكون لهذه الأشياء أي فائدة عملية بالنسبة إلي.

وبطبيعة الحال، كان هدف مشروعها السينمائي كله أن تثبت لكمبرلاند أنها قادرة على تحقيق النجاح بشكل مستقل. ما كانت لديها أي موهبة تمثيلية متميزة، لكن الظاهر أنها أرادت إثبات نفسها. لا يفعل الناس ما يمتلكون موهبة فعله بل ما تقودهم إليه الأفكار التي تشغل بالهم. إذا كانوا جيدين في إصلاح السيارات فإنهم يجدون لزاماً عليهم أن يغنوا مثل

دون جيوفاني؛ وإذا كانوا قادرين على الغناء فإنهم يريدون أن يصيروا معماريين، وإذا كانت لديهم موهبة العمارة، فهم يتمنون أن يصبحوا من مديري المدارس أو الفنانين التجريديين، أو أي شيء آخر... أي شيء. هذا نوع من الغِلّ. إنه النزوع إلى الإثبات الكامل المطلق للقدرة الذاتية أو الجري وراء حلم وحشيّ يجعلك لا تريد أن يقوم أحد غيرك، أي أحد، بهذه الأشياء من أجلك.

وهكذا، صارت ستيلا تعمل في شركة دو نيفو للأفلام، أما أنا فأعمل في صفقات غير مشروعة... ربما أظلم نفسي بهذا القول لأن صفة عدم المشروعية تصح على نصف الأعمال الجارية في أوروبا الآن. إنها أعمال غير سوية في حقيقة الأمر. لكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً في هذا الخصوص. على أنه لا بد لي من توضيح أنني شخص يعيش بالأمل، وأن آمالي الآن متركزة على الأطفال وعلى الحياة المستقرة. لم أتمكن من إقناع ستيلا حتى الآن. وبينما أتجول هنا وهناك على الطرق السريعة منطلقاً صوب آفاقٍ متساقطة، في جبال الألب، في غمرة البخار والاستعجال، أو عندما أشق الريح في سيارتي السيتروين السوداء، أدخن السيجار وأنظر إلى الطريق عبر نظارتي الشمسية، فإنني أكون مفكّراً في أطفال لم يولدوا بعداً أكثر من تفكيري في صفقات الأعمال.

أتساءل إن كان الأمر حالة نفسية، أو شيئاً من هذا القبيل... لكنني أشعر أحياناً أنني أبٌ بالفعل.

منذ فترة قصيرة، استوقفتني مومس في روما عند شارع فيا فينيتو. كانت مفارقة غريبة: إنني رجل طويل، أما الفتاة التي استوقفتني فكانت صغيرة جداً، ممتلئة الجسم، وكانت ملابسها تشبه ما يلبسه شخص في حداد قديم. وجهٌ حزين!... قالت لي: «تعال معي». لن أكون كاذباً الآن فأقول إنني لم أنجذب إليها، ولو قليلاً. ينجذب المرء دائماً إلى حد ما. لكن الرفض لا يستلزم جهداً كبيراً؛ وعندما قلت لها لا، بدا عليها انزعاج شديد، انزعاج شخصي! قالت لي: «ما الأمر؟ ألا تراني جيدة إلى الحد الكافي؟».

«أوه، أنت جيدة جداً يا سيدتي. لكنني متزوج. إن لدي أطفالاً». قلت لها الكلمات الأخيرة باللغة الإيطالية أيضاً. تأثرتْ كثيراً وقالت: «إنني آسفة جداً! لم أكن أعرف أن لديك أطفالاً». كادت تبكي بسبب هذه الغلطة. وحتى أكون منصفاً تماماً، أحسست أنه عليَّ أن أشرح الأمر لها وأقول إن ذلك كلام فارغ وإن تلك الكلمات قد خطرت في بالي تلك اللحظة فقط. لكن، دعوني أقول إنني أدرك من أين يأتي هذا الوهم الخادع، وهم وجود الأطفال. إنه آتٍ من ذلك الفيلم الذي شاركَت فيه ستيلا، الفيلم الذي أخبرت فريزر

عنه، «اليتامى». كان لا بد لي من رؤية ذلك الفيلم عدة مرات، وقد كان لجزء منه أثر كبير عليّ منذ كان الفيلم في غرفة المونتاج... هذه الغرفة المعزولة بالألواح الخشبية والخيش وحيث تفوح روائح سجائر غولواز وعطور غالية. تظهر ستيلا في ذلك المشهد متوسلة إلى طبيب إيطالي من أجل امرأة وطفلها. لقد درَّبوها على نطق الكلمات؛ وهكذا راحت تصرخ بالإيطالية: «لكن ماريا، ماريا والطفل. الطفل!» لكن الطبيب ما كان قادراً على تقديم أي مساعدة، رفع كتفيه: «يمكنني أن أفعل هذا! أستطيع أن أفعل هذا!».

رأيت هذا المقطع مرة بعد مرة فامتلأت غَمّاً، بل كدت أنفجر باكياً، كدت أقول لستيلا، ها هو، ها هو، إذا أردت شيئاً للبكاء عليه! إنه هنا! ما حاجتك إلى أناس يعيشون في النظريات وإلى أشباح عواطف ليست موجودة في هذا العالم؟

كادت قطرات ذلك الحزن تتساقط فوقي.

أظن أيضاً أن من الأسهل أن يعاني المرء من أجل أشخاص افتراضيين، أشخاص ميثولوجيين. ولا بد أن ذلك أسهل من المعاناة من أجل أشخاص سببتَ لهم الأذى بنفسك. وذلك لأنك ترى الأعداء أو الظالمين الآخرين بأفضل مما تستطيع رؤية نفسك عندما تنتزع حياة أحد ما أو عندما تؤذيه.

قد يكون هذا ما جعلني أتخيّل أن لدي أطفالاً!

* * *

جاء سايمون وشارلوت إلى باريس ونزلا في فندق كريلون. تمنيت لو أنهما جلبا ماما معهما أيضاً رغم أن لا معنى لمجيئها، على الأرجح. لا بد من فعل شيء كبير من أجلها في يوم من الأيام؛ وسيكون علي أن أقرر الشيء المناسب لأنني أستطيع فعله بنفسي الآن... صار لديَّ مال! كان سايمون راضياً لأنني صرت في عالم الأعمال الآن. تحسنت نظرة شارلوت أيضاً رغم أنها أرادت معرفة مزيد من التفاصيل الصغيرة. قد يكون لديها بعض الحظ في انتزاع تلك المعلومات مني! أخذتهما في جولة إلى «تور دارجان» وإلى «لابان آغوي» و«كازينو باريس»، وكذلك إلى «روز روج» وغيرها من الأماكن اللطيفة. دفعت الفاتورة أيضاً. هذا ما جعل سايمون يقول لشارلوت مزهواً: «عظيم! ماذا تظنين الآن؟ اتضح أن أخي الصغير قد صار رجلاً ناجحاً في هذا العالم!».

تبادلنا الابتسامات، أنا وستيلا، عبر طاولة روز روج.

كانت شارلوت، هذه المرأة الصلبة الشكاكة في أوائل الثلاثينيات، الجميلة، التي لا

تتزعزع آراؤها، مليئة بالضغائن. كانت في ما مضى تحاسبني أنا على كل ما قد يكون لديها ضد سايمون. أما الآن... بعد أن صرت أبدو أكثر قوة مما كنت وبدا أنه صارت لديَّ بعض الأفكار الصائبة، فقد صارت تشكوه إليّ. كنت متلهفاً على معرفة مآخذها على أخي. لم أتمكن من اكتشاف الكثير خلال الأسبوع الأول لأننا كنا في المدينة. ساعدنا دو نيفو كثيراً؛ وقد لقي نجاحاً كبيراً لديهما لأنه أرستقراطي أصيل ولأنه اهتم بمرافقتهما في المطاعم والنوادي الليلية ومحلات الأزياء الراقية. قدمت ستيلا مساعدتها أيضاً. قال سايمون: «إنها رائعة، وهي جيدة من أجلك أيضاً. لأنها ستجعلك مسؤولاً». كان يقصد بذلك أن وجود امرأة جميلة يساعد المرء في الاستقرار... ما يجعل الرجل يكسب مالاً. قال لي: «السؤال الوحيد هو لماذا تجعلها تقيم في حظيرة الخنازير هذه؟».

«من الصعب العثور على بيت في هذا الجزء من باريس بالقرب من الشانزيليزيه. كما أننا لا نمكث في البيت كثيراً، لا أنا ولا هي. لكني أعتزم الحصول على فيلّا في سانت كلاود إذا وجدنا أننا مضطرون إلى البقاء هنا».

«إذا وجدتم أنكم مضطرون؟ يبدو هذا كأنك لا تريد البقاء هنا».

«لا يهمني أين أعيش».

ذهبنا إلى «بتي باليه» لحضور معرض لوحات أتوا بها من متحف في ميونيخ. كانت هذه الأعمال العظيمة معلقة على الجدار. وكان معنا دو نيفو، ضخماً في معطفه الأحمر الطويل وحذائه المدبب اللامع. عبّر سايمون عن إعجابه بملابسه، وعبر دو نيفو عن إعجابه بملابس سايمون: ستيلا وشارلوت كانتا في معطفَيْ فراء. أما سايمون فكان في سترة مزدوجة الصدر وحذاء من جلد التمساح، بينما ارتديت أنا معطفاً من وبر الجمل، وبدونا كلنا رائعين... بدونا صالحين للظهور في واحدة من تلك اللوحات الإيطالية الزاخرة بالجواهر والذهب.

قال دو نيفو: «أحب اللوحات كثيراً، لكني لا أستطيع احتمال اللوحات ذات الموضوعات الدينية».

ما كان أحد منا يفكر في اللوحات كثيراً، ربما باستثناء ستيلا لأنها ترسم أحياناً. لا أستطيع تفسير وجودنا في ذلك المكان. لعلنا لم نجد شيئاً أفضل في ذلك الوقت.

تخلفت مع سايمون عن البقية لحظة قصيرة، فسألته: «ماذا حدث لريني؟».

اكتسى وجهه الأشقر لوناً أحمر ثقيلاً... لقد صار بديناً حقاً. قال لي: «لماذا تسألني هذا السؤال بحق الرب؟».

«نستطيع التحدث يا سايمون. لن يسمعوا شيئاً. هل أنجبت ريني ذلك الطفل؟».

«لا، لا، كانت تلك خدعة فقط. لم يكن هنالك طفل».

«لكنك قلت لي...».

«لا يهم ما قلته. أنت سألتني وأنا أجيبك».

لم أعرف إن كان صادقاً أم لا لأنني لاحظت أنه يستعجل إنهاء الحديث في هذا الأمر. كم كان حساساً! لم يكن راغباً في قول شيء.

لكن شارلوت كانت أكثر انفتاحاً وقت الغداء بعد عودة ستيلا ودو نيفو إلى الاستوديو. جلست منتصبة الجذع في معطف الفراء وقبعة ناعمة تلائم وجهها لأن لها جلداً شديد النعومة متورد اللون. من الواضح أن صحف شيكاغو كلها تحدثت عن مشكلة سايمون مع ريني؛ وكانت شارلوت واثقة من أنني سمعت بذلك. «لا، لم أسمع شيئاً! فوجئت بالأمر تماماً!». احتفظ سايمون بفمه مطبقاً خلال هذا الحديث، ولعله كان يخشى أن أضيف شيئاً لا تعرفه شارلوت. لست من يفعل ذلك! كنت صامتاً أصلاً، ولم أطرح أي أسئلة. لقد لجأت ريني إلى القضاء، وسببت له فضيحة. زعمت إن لديها طفلاً منه. لكن شارلوت قالت إن ريني كانت قادرة على اتهام ثلاثة رجال بذلك الأمر. يمكن أن يثق المرء بأن شارلوت تعرف ما تتحدث عنه... إنها امرأة غزيرة المعلومات. لو أن المحكمة لم تصرف النظر عن تلك القضية فوراً لكانت شارلوت مستعدة لتقديم إثباتات كثيرة. قالت: «كنت سأجعل القضية ضدها تماماً. تلك العاهرة الصغيرة!» لم يكن سايمون ينظر إلى أيّ منا خلال هذا الحديث. كان جالساً إلى الطاولة معنا لكنه لم يكن في صحبتنا. قالت شارلوت: «لقد كانت تجمع الأدلة في كل دقيقة تمضيها معه. يتوقفان في مكان ما، فتأخذ علبة كبريت وتكتب التاريخ بداخلها. كانت تحتفظ بأعقاب السيجار أيضاً... لتعتبرها دليلاً. كان يفترض، طيلة الوقت، أن ذلك حب». قالت شارلوت باندفاع مفاجئ مخيف: «ماذا فيك حتى تحبك؟ كرشك الضخم؟ أم الندبة على جبينك؟ أم تلك البقعة الصلعاء في رأسك؟ لقد أحبت مالك. كان الأمر متعلقاً بالمال فقط». وددت أن أختبئ في تلك اللحظة، ارتجف كتفاي. كانت تهاجمنا معاً في حقيقة الأمر. لكن أي انزعاج لم يظهر على سايمون... بدا يقظاً فقط، وتابع تدخين سيجاره. لم يجبها بشيء أبداً. ربما كان يفكر في أنه سعى خلف المال، وهذا ما يجعله غير قادر على إدانة ريني إن سعت خلف المال. لكنه لم يقل ذلك.

«وبعد ذلك صارت تتصل بي وتقول: أنت لا تستطيعين الإنجاب، وعليك أن تتركيه

يذهب لأنه يريد أسرة. فأجيبها: هيا، خذيه إن كنت تستطيعين ذلك. تعرفين أنك لا تستطيعين أخذه لأنك لست أكثر من عاهرة تافهة. أنت وهو شخصان سيئان. لكنها أرسلت له أمراً بالمثول أمام المحكمة فاتصلتُ به وأخبرته أن من الأفضل أن يغادر المدينة. لقد رفض الذهاب من غيري. قلت له: ومم تخاف؟ إنه ليس طفلك. إنه طفل ثلاثة رجال آخرين! أصابتني الأنفلونزا عند ذلك، ولازمت الفراش، لكنه رفض السفر وحيداً فكان علي أن أذهب إلى المطار لأراه. كانت هنالك عاصفة مطرية في ذلك الوقت. أقلعت الطائرة بنا أخيراً. ثم اضطرت إلى هبوط اضطراري في نبراسكا. قال لي: ربما من الأفضل أن أذهب إلى السجن. لقد ضيّعتُ حياتي! فماذا فعلت أنا إن كان هو قد ضيع حياته؟ ما الفائدة من وجودي إذن؟ ما عملي؟ عندما تسوء أحواله يأتي إليّ راكضاً طالباً الحماية، وقد حميته. لو لم تكن لديه هذه الفكرة الغريبة عن السعادة لما حدث الأمر كله. من الذي جعله يتورط في هذا؟ ما الحق الذي يملكه أي شخص في ذلك؟ لا وجود لحقٍّ من هذا النوع».

كان الموسيقيون يمرون بأقواسهم على الأوتار في خلفية المكان.

«لقد تزوجَتْ الآن. تزوجَتْ واحداً من أولئك الرجال ثم اختفت معه في مكان ما...».

تمنيت أن تكف شارلوت عن الكلام. زاد الأمر عن حده كثيراً... الطيران في العاصفة المطرية، والحديث عن الحياة الضائعة... أما سايمون فبدا أقل اكتراثاً مما كان. لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بأن يجعل نفسه يفكر في أشياء أخرى مثلما يفعل الآن. بدأت أسعل. أصابتني نوبة سعال كثيرة. هل أشرح لكم السبب؟ السبب هو أنني، منذ سنوات كثيرة، منذ أن كنت طفلاً، ذهبت لإجراء عملية استئصال اللوزتين. بدأت أبكي عندما وضعوا قناع التخدير على وجهي. قالت إحدى الممرضات: «هل يبكي حقاً؟ هل يبكي صبيٌّ كبير مثله؟» فأجابتها الأخرى: «كيف؟ لا! إنه شجاع. إنه لا يبكي. إنه يسعل فقط». عندما سمعت ذلك بدأت أسعل فعلاً. هكذا كان سعالي الآن... كان سعالاً ناتجاً عن معاناة كبيرة. جاء النادل ليرى ما يحدث، ثم جلب لي كأساً من الماء.

يا إلهي! إلى متى يتعيّن على سايمون أن يسمع هذا الكلام؟ لو لم تتوقف عن كلامها لحوّلَته إلى حجر. لولا ريني وأمثالها لتحول إلى حجَر منذ زمن بعيد. ما الذي يفترض به أن يفعله؟ أيتخلّى عن حياته؟ هذا ما كانت تريده منه... جريمة قتل حقيقية! إذا كانت تقصد أنه سيموت على أي حال، وأن من الأفضل أن يفعل ذلك عاجلاً، لا آجلاً، فإنها جريمة قتل بالتأكيد!

كان يشعر بالخزي... جمّده ذلك الإحساس. كانت أسراره تُقال علناً. أسراره!

ما أهمية هذه الأسرار؟ قد تظنّون أنها شيء كبير مثل جبال هيمالايا. لكنها كانت كلها متعلقة بمحاولاته الفاشلة لأن يعيش. لأن يعيش، حتى لا يموت. هذا ما كان عليه أن يشعر بالخجل منه الآن.

قالت شارلوت بعنف: «من الأفضل أن تفعل شيئاً من أجل هذا الزكام الذي أصابك».

أحب أخي كثيراً! لم ألتق به بعد ذلك من غير أن أشعر بالحب يغمرني. وهو يحبني أيضاً رغم أننا نحاول عدم إظهار ذلك.

قال سايمون وهو ينظر إليَّ مرة أخرى: «يبدو أنه السعال نفسه الذي كان يصيبك».

عند تلك اللحظة، فكرت أن أسوأ ما أصابه هو عدم إنجاب ذلك الطفل.

لم أستطع قضاء وقت طويل مع سايمون في باريس. وصلتني رسالة من مانتوشيان تأمرني بالذهاب إلى بروغ لأبحث عن شخص لديه صفقة نايلون كبيرة. وهكذا انطلقت إلى بروغ. أخذت معي جاكلين، الخادمة. إن لها أقارب في النورماندي، وتريد أن تزورهم في عيد الميلاد. وقد عرضت عليها أن آخذها معي لأن لديها حقيبتين كبيرتين.

جاءت جاكلين للعمل لدى ستيلا بتوصية من دو نيفو. عندما تعرف عليها أول مرة كانت تعمل نادلة في فيشي بعد الهزيمة الفرنسية مباشرة؛ أما هو فكان في طريقه إلى مغادرة البلاد. لا بد أنهما صارا أصدقاء في ذلك الوقت، لكن من الصعب التكهن لأنها تبدو شخصية غريبة تماماً. كان هذا منذ بعض الوقت، عندما كانت تعيش آخر أيامها الطيبة. كانت عينا جاكلين غائرتين بطريقة غريبة عند حافتيهما، ولها أنف نورماندي كبير معقوف، وشعر أشقر لا يبدو في صحة جيدة، وعروق دموية نافرة عند الصدغين، وذقن متطاولة، وفم منضبط لا يستطيع أحمر الشفاه أن يغير في مظهره شيئاً. إنها تفرط في استخدام مواد التجميل، وتفوح منها رائحة تلك المستحضرات، وروائح سوائل التنظيف أيضاً! أما هيئتها فتوحي بانهماك وانشغال شديدَيْن. لكنها شخص حلو الطبع رغم ولعها بالنميمة وبمختلف أشكال الطموحات الاجتماعية غير المفهومة. وإضافة إلى عملها في خدمة البيت، فإن لها وظيفة أيضاً في إحدى صالات السينما حيث ترشد الناس إلى مقاعدهم. حصلت على هذه الوظيفة بفضل نفوذ دو نيفو هناك. وبالتالي، فإن لديها تاريخاً اجتماعياً في السينما وفي حياة الليل القاسية بعد إغلاق أبواب دور العرض عندما تذهب إلى حانة كوبول من أجل فنجان من القهوة. كثيراً ما تتعرض لأشكال من العنف، كالاختطاف والاغتصاب، أو كأن يضربها بعض العرب... أو أشخاص يحاولون الذهاب معها إلى غرفتها في الليل. لها ردفان كبيران وساقان مصابتان بالدوالي، وهذا ما يجعل حركتها متخشّبة إلى هذا الحد.

ينسجم هذا مع وجهها الحاد وثدييها اللذين فقدا شكلهما... لكن، هل تعني هذه الأشياء أن الشخص يصير غير مرغوب فيه؟ هل يستطيع هذا تجريد الشخص من رغباته؟ لست من يستطيع قول هذا! إن لديها اعتزازاً كبيراً بشهوانيتها وروحها المغامرة... فماذا إن كانت لديها هذه الألوان المتناثرة والفم الذي يشبه منقار الببغاء؟

كانت سعيدة عندما انطلقنا. أزالت بعض البقع عن معطفي المصنوع من وبر الجمل. أزالتها باستخدام الشاي التي زعمت أنه يستطيع إزالة البقع. وبعد ذلك حملتُ حقيبتيها الكبيرتين المنتفختين بأقفالهما المعدنية ووضعتهما في صندوق السيارة السيتروين.

كان الطقس بارداً، برداً شديداً فيه ندفات من الثلج. درنا حول ساحة إيتوال ثم انطلقنا في اتجاه روان. كان من الأفضل أن أذهب عن طريق آميين، لكن ذلك الطريق ما كان مناسباً من أجل جاكلين. إنها امرأة لطيفة تحفظ الجميل، وهي أنيسة مطيعة أيضاً. وهكذا انطلقنا بسرعة كبيرة فعبرنا روان ثم انعطفنا شمالاً في اتجاه القنال. كانت تحدثني عن فيشي في الأيام القديمة الطيبة وعن المشاهير الذين عرفتْهم هناك. إنها طريقتها الخبيثة في جعل الحديث يدور حول دو نيفو لأنها لم تكن تفوّت فرصة للحديث عنه معي. أما ما كانت تريده حقاً فهو تنبيهي حتى أبقى حذراً لأن دو نيفو شخص غير مستقيم. لا يعني هذا أنها غير معترفة بفضله عليها... أنتم تدركون هذا! لكنها كانت حريصة عليّ أيضاً. ألمحتْ إلى أشياء كثيرة فعلتها هي أيضاً. أدركتُ أن لديها أفكاراً رومانسية فيما يتعلق بدو نيفو. إنه بالنسبة إليها مثلٌ كبير، مثلٌ تتوق إليه روحها الجائعة.

كنا نقترب من وجهتها، وما كنت آسفاً على هذا رغم أن ذلك اليوم كان يوماً حزيناً قاتماً، وكان علي أن أواصل السفر إلى بروغ وحدي. إن السفر من دونكيرك إلى أوستيند كئيب إلى حد فظيع لأنك تجتاز تلك الخرائب كلها وتمتد إلى جانبك مياه القنال الكالحة.

اضطرب عمل محرك السيارة قبل وصولنا إلى مزرعة عمها بكيلومترات قليلة، ثم توقف تماماً. رفعت غطاء المحرك، لكني لا أعرف شيئاً عن المحركات! ثم إن الجو كان متجمداً. وهكذا بدأنا المشي صوب تلك المزرعة عبر الحقول. سوف ترسل ابن أخيها إلى البلدة ليأتي بميكانيكي من أجل السيارة. لكن علينا أن نسير مسافة غير قليلة... ثلاثة أميال أو أربعة عبر الحقول. تلك الحقول البنية، المعشوشبة قليلاً... كانت ميداناً للمعارك في حرب السنوات المئة حيث تناثرت فيها عظام الإنكليز المقتولين وأحرقتها الشمس قبل إرسالها لتدفن في الكنائس ثم تولت الغربان والذئاب مهمة التنظيف. بعد فترة من الوقت، يجعلك البرد تتنفس لاهثاً. كانت الدموع تحفر مجاري لها عبر طبقات مواد التجميل على وجه جاكلين. أصابني البرد أنا أيضاً... من رأسي إلى قدميّ.

قالت لي بعد أن سرنا مسافة ميل تقريباً: «قد تتجمد معِدتانا. وهذا شيء خطير».

«كيف يمكن أن تتجمد المعدة؟».

«يمكن أن تتجمد! قد تظل مريضاً طيلة حياتك إذا أصابك ذلك».

«وماذا تفعلين لوقاية نفسك؟».

«قالت: «الحل هو الغناء». كانت في حالة بائسة بسبب حذائها الباريسي الخفيف؛ وتحاول تغطية رأسها بحافة شالها القطني. بدأت تغني أغنية من أغاني النوادي الليلية. فرّت طيور سوداء أصابها البرد من بين أغصان شجرة بلوط صدئة. لا بد أن هذه الطيور تشعر بالبرد كثيراً لأنني لم أسمع لها صوتاً عند طيرانها. لم أكن أسمع إلا صوت جاكلين الضعيف الذي لم يبدُ أنه يستطيع المضي مسافة بعيدة فوق الجيوب والكثبان الثلجية التي أمامنا. قالت لي: «عليك أن تحاول الغناء بالتأكيد. لا يمكنك أن تكون واثقاً من النجاة إذا لم تغنّي. يمكن أن يحدث شيء!» لم أكن راغباً في مجادلتها والاحتجاج على هذا التطيّر العائد إلى القرون الوسطى، ولم أكن مهتماً بتوعيتها وإخبارها بما يقوله العلم الحديث، فقررت أخيراً أن أغنّي مثلها. يمكنني أن أغني أيضاً! لم أستطع أن أتذكر إلا أغنية واحدة... «لا كوكا راشا». واصلت غناء هذه الكوكا راشا ميلاً أو ميلين، لكني شعرت بالبرد أكثر من ذي قبل. قالت لي عند ذلك، بعد أن أرهقنا تنفس الهواء البارد وما عدنا قادرين على مواصلة هذا العلاج الغنائي: «لم تكن فرنسية تلك الأغنية التي غنيتها، أليس كذلك؟».

قلت لها: «إنها أغنية مكسيكية».

قالت: «آه، حلم حياتي أن أذهب إلى المكسيك».

حلم حياتها؟ لماذا لا تذهب إلى سايغون؟ لماذا لا تذهب إلى هوليوود؟ لماذا لا تذهب إلى بوغوتا؟ لماذا لا تذهبِ إلى حلب؟ نظرت إلى عينيها المتألقتين بالدموع وإلى وجهها المتجمد المرتجف الذي سالت عليه أصباغها، وإلى فمها المنضبط... وجه لا يزال جميلاً بما فيه من بقايا سحرية من اللون الوردي على خدَّيها وبقايا من اللون الأحمر على شفتيها أيضاً... وجهٌ لا يزال أنثوياً، لا يزال خبيثاً، لا يزال يأمل في أن يكون مغرياً... لا يزال معانداً! ما الذي ستفعله في المكسيك؟ حاولت أن أتصورها هناك. كم كان هذا غريباً. بدأت أضحك بصوتٍ مرتفع. ثم، ما الذي أفعله أنا في هذه الحقول في النورماندي؟ أليس هذا مضحكاً أيضاً؟

قالت لي: «هل تذكرت شيئاً مضحكاً إلى هذا الحد يا سيد مارتش؟» قالت هذا وهي تسير مسرعة وقد أدخلت ذراعيها في سترتها القصيرة ذات الكمين الضيقين.

«مضحك جداً!».

قالت بعد ذلك: «هل ترى الكلاب؟» كانت كلاب المزرعة قد قفزت فاجتازت جدولاً واندفعت صوبنا تعدو على الأرض البنية المعشوشبة. كانت تنبح بصوت مرتفع. قالت لي وهي تلتقط غصناً عن الأرض: «لا تقلق. إن الكلاب تعرفني». نعم، تعرفها بالتأكيد! قفزت تلك الكلاب في الهواء وبدأت تلعق وجهها.

كانت المشكلة في شمعات الشرر في السيارة. وسرعان ما تم إصلاحها فانطلقتُ إلى دونكيرك ثم إلى أوستيند. كانت المدينة مدمرة في الأماكن التي تعرَّض فيها الإنكليز لخسائر كبيرة. رأيت أكواخاً فوق ذلك الركام. وأما صفحة الماء العتيق فكانت شبيهة بذئب رمادي. كانت الأمواج تتكسر مبيَضّةً على الشاطئ الرملي الطويل... رأيت شبح الغضب الأبيض هذا قادماً من البحر الرمادي المتوحش، رأيته بينما كنت منطلقاً صوب الشمال، مسرعاً للوصول إلى بروغ، مسرعاً للتخلص من هذا الخط الأبيض الذي يشبه أبدية فاغرة فاها أمام حطام العالم الحديث، أبدية مزمجرة مستعدة للافتراس. فكرت في أنني سوف أكون قادراً على رؤية القنوات الخضراء والقصور العتيقة إذا أفلحت في الوصول إلى بروغ قبل الظلام. لا أزال أشعر بالبرد بعد ذلك السير في الحقول، لكني عدت إلى الابتسام عندما تصورت جاكلين في المكسيك من جديد. هذا هو الحيوان الضاحك الموجود في داخلي، المخلوق الضاحك... إنه يظهر دائماً! ما المضحك في الأمر؟ هل يضحكني أن جاكلين، مثلاً، التي طحنتها قوى قاسية كثيرة لا تزال ترفض أن تعيش حياتها من غير أمل؟ أم أنني أضحك من الطبيعة (بما فيها الأبدية نفسها) التي تظن أنها قادرة على الانتصار علينا وعلى قوة الأمل فينا؟ لا، لا! لا أظن هذا. لن تنتصر أبداً. لكن، قد تكون تلك نكتة، نكتة عن شيء ما؛ وقد يكون الضحك لغزاً يشتمل على الأمرين معاً. انظروا إليّ الآن ذاهباً إلى لا مكان! ماذا؟ أظن أنني واحد ممن يشبهون كولومبوس وأظن أنكم قادرون على أن تصيروا كذلك في هذه الأرض المجهولة التي تمتد حولنا في كل اتجاه. من الممكن تماماً أن أفشل في هذه المغامرة. لعل كولومبوس أيضاً ظن أنه فشل عندما أعادوه مكبلاً بالسلاسل. لكن هذا لم يكن إثباتاً على عدم وجود أميركا!


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مغامرات أوجي مارتش

سول بِلّلو

«مغامرات أوجي مارتش هي الرواية الأميركية العظمى. لا تبحثوا عن غيرها».

مارتن آميس

«يتميز عمل بيلو برحابة في المخيلة واللغة أكثر مما نجده عند أي كاتب آخر... وإن كانت هنالك رواية مرشحة للقب الرواية الأميركية الأعظم، فأظن أنها هذه الرواية».

سلمان رشدي، صندي تايمز (لندن)

تهيّبت وأنا أضع أمامي هذا السفر الضخم، لكن ما إن دخلت عالم أوجي مارتش حتى راحت متعة قراءة هذه الرواية تأسرني. إنها رواية اجتماعية فلسفية تسائل معنى الحياة وتتميز بالفرادة في طريقة الكتابة. ويسعدنا أن تقدّم دار التنوير أوّل عمل له يُترجَم إلى العربية.

الناشر

فور ظهورها عام 1953، اعتُبرت هذه الرواية التي أبدعها العظيم سول بيلو أحد الأعمال الكلاسيكية الأميركية. ليس أوجي، بطل القصة ـ الراوي المندفع، إلا صبياً فقيراً من شيكاغو يترعرع خلال حقبة الركود الكبير. إنه "متطوّع بالفطرة"... يقبل أوجي أن يضع نفسه في متناول سلسلة من المشاغل والأعمال التي لا يلبث أن يرفض كلاً منها باعتباره غير جدير بها.

أوجي مارتش هو الهامشي الذي يروي لنا صلب الحياة عبر رفاقه الذين يصادفهم في حياته: مقامرون، ومتآمرون، ومغامرون، ورجال أعمال، وأثرياء.. وأصحاب «نشاطات غامضة غريبة».

فاز سول بيلو بجائزة بوليتزر عن روايته «موهبة هامبولدت» عام 1975؛ ثم بجائزة نوبل للآداب لما يحتوي عليه عمله من الفهم الإنساني والتحليل المرهَف للثقافة المعاصرة. إنه الروائي الوحيد الذي نال الجائزة الوطنية للكتاب ثلاث مرات.

نال سول بيلو الجوائز التالية:

جائزة نوبل للآداب، 1976 - جائزة بوليتزر للأعمال الروائية، 1976 - الميدالية الوطنية للفنون، 1988 - الجائزة الوطنية للكتاب، الأعوام: 1954، 1965، 1971.

تصميم الغلاف نجاح طاهر


ISBN 978-977-6483-90-3


التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

تونس - بيروت - القاهرة